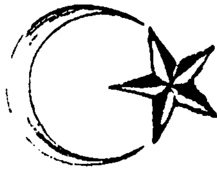


علم الدين

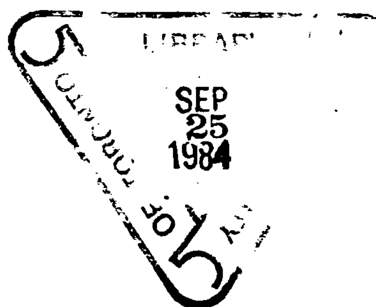
لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية سابقًا

الجزء الاول

طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية
١٢٩٩
سنة
١٨٨٢


SEP
25
1984

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله مصور الاكوان ومدبرها ومقدر الاحوال ومسيرها وصلى الله على سيدنا محمد شمس الضحى ونور الهدى وعلى اله وصحبه مصابيح الدجى وكل من بنورهم اهتدى وبهداهم اقتدى وسلم تسليما كثيرا دائما وابدا

وبعد فمن نظر في هذا العالم وسبر احواله وتدبر قوانينه التي فطره عليها الخالق جل اسمه بقدرته ودبرها بحكمته وجد بين افراد كل نوع من انواعه وبين كل نوع وغيره من العالم وكل جنس واخر من اجناسه ارتباطا تاما يستدعيه كمال نظامه كما انه يجد هذا الارتباط بين العالم السفلي والعالم العلوي ايضا الا ترى ان الشمس تشرق على الارض بانوارها فتنبث اشعتها في انحائها واجزائها فينفصل بواسطة الحرارة بخار يرتفع لخفته على الهواء فينعقد سحابا في جو السماء تثيره الرياح فتسيره الى حيث شاء الله من الاماكن القاصية والدانية فيتراكم ويسقط على الارض ماء تخرج به الارض انواع النبات والثمرات رزقا للعباد كما قال الله سبحانه وجعلنا سراجا وهاجا وانزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا وجنات الفافا ثم يرى ان كل مخلوق حصل على شيء من هذا العالم ايا كان مما ينزل من السماء او يخرج من الارض صار ذلك الشيء اشبه بدين في ذمته مجبور على وفائه قضت عليه الحكم الازلية والاحكام العلية بنموه بضده وادائه بعد حين الى الارض او السماء بواسطة التحليل والتركيب المتبادلين المتعادلين لاستمرار النظام وبقاء هذا الكون الى ان يشاء الله

فاذا علمنا ذلك في الامور الفطرية والاحوال القسرية ناسب ان نراعيه كذلك في احوالنا الارادية وافعالنا الاختيارية

فكل خير حصلنا عليه في هذه الحياة الزمنا انفسنا القيام بنموه بضده ومقابلته بالجميل على قدر الامكان وهل جزاء الاحسان الا الاحسان

مثلا نحن قد تربينا في هذا الوجود حتى صرنا على حالة من احوال

الكمال وصلنا اليها ولم نكن نشأنا عليها فترتب علينا ان نربي غيرنا حتى يصلوا الى نحو ذلك ثم هم يربون غيرهم وهكذا ومن اعظم ما نرى انفسنا مديَنين له مطالبين من جهته مغمورين بحقوقه المقدسة هذا الوطن. الجليل الذي نشأنا به وعشنا فوق ارضهِ وتحت سمائه وانعشنا بهوائه وروينا بمائه واغتذينا بنباته وحيوانه وانتفعنا بسائر اجزائه وهو في كل آن يمدنا ويفيدنا ويعطينا ويزيدنا كما كان صنيعه مع ابائنا واجدادنا السابقين وكذلك يكون شأنه مع ابنائنا واحفادنا اللاحقين فلزمنا ان نقدره حق قدره ونأتي على اخر جهدنا واستطاعتنا في منفعته وخيره ولا شيء انفع له واجلب للخير والبركة اليه من تعليم ابنائه وبث المعارف والفنون النافعة فيهم حتى يعرفوا حقوقه ويكونوا يدًا واحدة في نفعهِ وخدمته وايصاله الى غاية ما يمكن ان يصل اليه من الغبطة والسعادة والرفعة وعلو المكانة وبذلك تزداد خيراته وبركاته عليهم وعلى نسلهم وعقبهم وخلفهم من بعدهم وهذا لا يكون الا بالعلم والمعرفة وحسن التربية فان الجاهل لا يحسن نفع نفسه فضلاً عن نفع غيره لانهُ لا يميز بين المنفعة والمضرة ولو عرف المنفعة لا يعرف الطرق الموصلة اليها ولو عرف لا يهتدي لاحسنها واقربها للمقصود واسلمها من الآفات والمحذور بل طال ما اراد ان ينفع فضر وطلب الخير فاجتلب الشر فان الجاهل اعمى ولو كان بصيرًا فهو يتخبط في ظلمات الغي والحيرة لا يبصر الحقيقة ولا يهتدي الى الصواب ولا يدري ماله وما عليه ولا يعلم حقوق نفسه ولا يعرف حقوق غيره وان وقع على الغرض فبالصدفة والاتفاق رمية من غير رام وصاحب الفضل والمعرفة يسير في اعماله مستنيرًا بمصباح علمه فيميز الخير من الشر والمليح من القبيح ويرى الصواب واضحًا فيقصده ونهج الحق نيرًا فيسلكه ويعرف قدر نفسه وغيره وماله على غيره وما لغيره عليه ويرى حقوق وطنه فيأخذ نفسه بقضائها وحسن القيام بها عارفًا ان نفعه لوطنه مع كونه حقًا يقضيه ودينًا يؤديه انما هو في الحقيقة نفع لنفسه لما لا ريبة فيه عنده من ان خير بلاده وخصبها وبركتها وتقدمها ورفعة شأنها كل ذلك فائدة لهُ وعكسه بعكسه فلذا كان نفع وطنه نفع نفسه كصاحب الارض

مثلاً ينتفع بخيراتها ويجتني ثمراتها فيترتب عليه بازاء ذلك ان يقوم بخدمتها واداء ما يلزمها وينفعها ويصلح شأنها من تقليب وتقصيب وتمهيد وتسميد وري وطي ونحو ذلك فاذا فعل ما ذكر فقد أدى ما عليه من جهتها في نظير ما انتفع بهِ منها وبذلك تصلح الارض وتحسن وتعلو قيمتها فتدرّ عليه خيراتها وتنمو حاصلاتها فتعود عليه بنفع اخر وتزيده خيرا وهلم جرًّا

هذا واني لمعترف بفضل هذا الوطن العزيز عليّ فقد نشأت في ظلهِ وتقلبت في مهده وتربيت في حجر كفالته وتعهده حتى صرت من ابنائه المعدودين ورجاله المعروفين وتمتعت صغيراً وكبيرا بكثير من خيراته وثمراته ولا ازال متنعما بطيباته فاجدني وان استوفيت الجهد وقضيت العمر في خدمتهِ لم اقم بعشر معشار ما عليّ من واجباته وحقوقه ولكن عرفاني لذالك واعترافي بهِ لا يمنعني من بذل جهد المقل والانتهاء لغاية الاستطاعة ولهذا التزمت في كل ما تقلدت من الاعمال وجميع ما تقلبت فيه من الاحوال ان اخدم وطني بكل ما نالته يدي وبلغه امكاني مما اراه يعود عليه بالفائدة والنفع قل او جل كالسعي في استكثار المكاتب والمدارس وتعميم التربية والتعليم ونشر الكتب المفيدة اما بالاشتغال في تأليفها بنفسي او الحث والتحريض عليها لمن ارى فيه اهلية القيام بها

وقد رأيت النفوس كثيرًا ما تميل الى السير والقصص وملح الكلام بخلاف الفنون البحتة والعلوم المحضة فقد تعرض عنها في كثير من الاحيان لا سيما عند السآمة والملال من كثرة الاشتغال وفي اوقات عدم خلو البال

فحداني هذا ايام نظارتي لديوان المعارف الى عمل كتاب اضمنه كثيرًا من الفوائد في اسلوب حكاية لطيفة ينشط الناظر فيها الى مطالعتها ويرغب فيها رغبته في ما كان من هذا القبيل فيجد في طريقه تلك الفوائد ينالها عفوًا بلا عناء حرصًا على تعميم الفائدة وبث المنفعة

فشرعت في جمع هذا الكتاب مستمدًا من عناية الله مستعينًا في تهذيب عبارته وتحسين اشارته ببعض جهابذة الاساتذة لا سيما العالم الفاضل السيد الاجل عبدالله باشا فكري وكيل ديوان المعارف فانه صرف عنايته الى تنقيح

ما اطلع عليه من هذا الكتاب وليس بالقليل فهذب معانيه وشذب مبانيه وقرب مجانيه فجاء كتابًا جامعًا اشتمل على جمل شتى من غرر الفوائد المتفرقة في كثير من الكتب العربية والافرنجية في العلوم الشرعية والفنون الصناعية واسرار الخليقة وغرائب المخلوقات وعجائب البر والبحر وما تقلب نوع الانسان فيه من الاطوار والادوار في الزمن الغابر وما هو عليه في الوقت الحاضر وما طرأ عليه من تقدم وتقهقر وصفاء وتكدر وراحة وهناء وبوس وعناء الى غير ذلك من الشؤن بتقلب الدهور وتصرف الامور مع الاستكثار من المقابلة والمقارنة بين احواله وعاداته في الاوقات المتفاوتة والانحاء المتباينة ليطلع مطالعه على ما يشحذ خاطره وينبه قريحته ويستنهض فكرته ويدرجه لاعمال عقله وإمعان نظره واستعمال بصره بصيرته في نقد الامور وسبرها وتدبرها ومقارنتها والموازنة بينها والتمييز بين الخير والشر والنفع والضر وتخير النافع والانفع والحسن والاحسن منها على نمط يسمو عن السآمة ولا يميل الى الملالة مفرغًا في قالب سياحة شيخ عالم مصري وسم بعلم الدين مع رجل انكليزي كلاهما هيان بن بيان نظمهما سمط الحديث لتاتي المقارنة بين الاحوال المشرقية والاوروبية

وكل ما وقع تحت نظر الناظر وقرع السمع وشغل البال وحرك قوة من قوى النفس مدة السياحة يجده الناظر في الكتاب مستوفي البيان مشبعًا فيه الكلام بحسب المقام وقد قسمته الى مسامرات ينتقل فيها القارئ تنقل المسافر ويجد فيها فكاهة المسامر كما ينتفع به المعلم والمتعلم فيكون للاول مفكرًا منبهًا وللثاني معلمًا مفقهًا والله المسئول ان يعم النفع بهذا الكتاب وان يجعله ذخيرة عنده ليوم المآب





بك استعين

المسامرة الاولى

السفر

حكي انه كان بقرية من قرى مصر فيما سلف من العصر رجل من فقهاء الريف كان يصلّي بالناس في جامع القرية ويعلّم اطفالهم كتاب الله عز وجلّ وكان من اهل الفضل والصّلاح رزقه الله على الكبر بولد سمّاه علم الدين تفاؤلاً بان يكون من اعلام العلماء المجتهدين ثم انه ربّاه في كتابه وأدّبه بمحاسن آدابه الى ان ترعرع الغلام وحفظ عن والده كتاب الله العظيم وبعض متون صغيرة ومبادئ فنون يسيرة فرأى فيه والده اثار الذكاء ومخائل النجابة وحسن القريحة ومحبة العلم والقبول لما يلقي عليه والقابليّة لما يساق اليه فاراد اكمال تربيته وتعليمه في اوان شبيبته حتى يلحق برتبة اكابر العلماء فقد قال الحكماء علموا اولادكم صغارًا تنتفعوا بهم كبارًا وقالوا من لم يتعلم في صغره لم يتقدم في كبره وقال الشاعر

قد ينفع الادب الاحداث في صغر

وليس ينفع بعد الكبرة الادبُ

ان الغصون اذا قومتها اعتدلت

ولن تلين اذا قومتها الخشبُ

فوقع في نفسه ان يوجهه الى الجامع الازهر لما يعرفه في تلك البقعة الطاهرة من المحاسن الزاهرة والبركات الظاهرة فانه منبع الفضائل ومجمع الافاضل وموضع حسن التعلم والتعليم ومرجع طلاب العلم من الاقاليم فاراد ان يكمل فيه ولده دراسة العلم الشريف بملازمة دروس عظمائه من افاضل علمائه لينال ببركتهم الارب ويكتسب بصحبتهم العلم والادب وكان الشيخ قد تقارب عمره ولم يكن له ولد غيره فاستخار الله تعالى على هذه النية فانشرح لها صدره ومال خاطره فركن اليها وصمم عليها واعد لولده ما يلزم من الزاد والذخيرة وان كانت يسيرة وكتب معه مكتوبًا الى صديق لهُ في مصر القاهرة من مشاهير تجارها واعيان مشاهيرها يرجوه ان يكون لولده في جميع مهمّاته كالوالد وان يكون واسطة في اجتماعه على الصالحين من العلماء الاماجد ويقرّبهُ منهم ليسمحوا بتهذيبه ويبذلوا النصيحة في تاديبه واوصى ولده بالطاعة والامتثال لمعلميه فيما يعود نفعه عليهِ وان يصرف جميع اوقاته في تحصيل ما يرشدونهُ اليهِ وان يجتنب المناهي واماكن الملاهي وان يكون في الغدوة والرّواح مع اهل الصلاح ومن

لهم شهرة بفعل الخير وحسن السّير فقد قال العلماء اصطفِ من الاخوان ذا الدّين والحسب والراي والادب فانهُ رِدء لك عند حاجتك وركن عند نائبتك وانس عند وحشتك وزين عند عافيتك وقال الشاعر

تخيّر من الاخوان كلّ ٱبن حرّة
يسرّك عند النّائبات بلاؤهُ
وقارن اذا قارنت حرًّا فانما
يزين ويزري بالفتى قرناؤهُ

وقال عديٌّ بن زيد

اذا كنت في قومٍ فصاحب خيارهم
ولا تصحب الاردى فتردى مع الرّدي
عن المرء لا تسال وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي

ويحكى ان جماعة من اللصوص وقع القبض عليهم فاخذوا الى السلطان فامر بقتلهم جميعًا فتقدم احدهم وقال انا لست منهم وانما كنت مغنيًا لهم ولم افعل افعالهم فقال السلطان فغنّ حتى نسمع فلم يجرِ على لسانه غير البيتين المذكورين لعدي بن زيد فغنّى بهما فلمّا بلغ الى قوله (فكل قرين بالمقارن يقتدي) قال السلطان سبحان من انطقك وانا اول من صدّقك ثم امر بهِ فقتل معهم وهذه عاقبة من يصاحب الاشرار ويخالط الفجّار

فانهُ ان لم يفعل كافعالهم نسب الى احوالهم ثم ان الشيخ رحمهُ الله ختم وصيته لولده علَم الدين بتعليمه وظائف طالب العلم وما يلزمه من الاداب التي يتوقف عليها كمال الوصول الى المطلوب والحصول على تمام المرغوب فقال اعلم يا بنيّ ان آداب المتعلم كثيرة يطول تعداد تفاصيلها ولكن اختصرها لك في عشر جمل تلقيتها عن المشائخ تكون لها كالاصول يتفرع عنها ما عداها

الوظيفة الاولى

تقويم النفس من رذائل الاخلاق ومذموم الاوصاف كالغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر وامثالها فكلها من موانع التحصيل وقواطع السبيل

الوظيفة الثانية

ان يقلّل المتعلم علائقه من الاشتغال بالدنيا ويبعد عن الاهل والوطن فان العلائق صارفة وشاغلة وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ومهما توزعت الفكرة قصرت عن ادراك الحقائق ولذلك قيل العلم لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك والفكرة المتوزعة على امور متفرقة كجدول تفرق ماؤه فنشفت الارض بعضه واختطفت الحرارة بعضه فلا يبقى منهُ ما يجتمع ويبلغ الزّرع

الوظيفة الثالثة

ان يداوم في تحصيل العلم على الاجتهاد والجد ويصبر على المشقة والكد ويبذل غاية الوسع والجهد ويطرح الكسل والملل ولا يقطع الامل ولا يترك العمل ولو طال الامد وبعد المدد فقد حكي عن بعض المشائخ انهُ اتي في اول امره الى الجامع الازهر لطلب العلم فمكث فيهِ مدة لا يصل الى فائدة ولا يحصل على عائدة حتى كلت قوته وفترت همته وادته الحال الى قطع امله وعزم على ترك الطلب والرجوع الى بلده واهله فقام ليخرج من الجامع تاركًا للتحصيل قاصدًا للرحيل فلما قرب من بابه اتفق انهُ راى دويبة من حشرات الارض تحاول الصعود في محل من حيطان الجامع وكان المحل صعب المرتقى عليها عسر الصعود بالنسبة اليها فصعدت مقدارًا يسيرًا ثم زلقت ارجلها فوقعت ثم قامت وصعدت مرة ثانية فوصلت الى ارفع مما كانت قد وصلت اليهِ اولاً ووقعت ولم تزل كذلك تقع وترتفع مرارًا حتى وصلت الى اعلى المكان حيث ارادت فقال في نفسه والله لا اكون اعجز من هذه الدويبة الضعيفة فهذه من الله لي اشارة لطيفة ولمحة ظريفة فانها لما صبرت على مداومة العمل ظفرت بغاية الامل ثم انهُ عاد الى الطلب والتحصيل بنشاط جديد وهمة قوية وعزيمة ثابتة ونفس صابرة فما زال يجد ويجتهد ويكد الى ان صار وحيد اوانه وفريد اقرانه وشيخ الاسلام في زمانه وصار حديثه عبرة لاولي

الالباب وقد قال الله سبحانهُ انما يوفي الصابرون اجرهم بغير حساب

الوظيفة الرابعة

ان لا يتكبر على العلم ولا يتامر على المعلم بل يلقي اليهِ زمام امره في التعليم ويذعن لنصيحتهِ اذعان المريض الجاهل للطبيب المشفق الحاذق وينبغي ان يتواضع لمعلمه ويطلب الثواب. والشرف بخدمتهِ فقد قال رسول الله صلى الله عليهِ وسلم ليس من اخلاق المؤمن التملق الاَّ في طلب العلم فلا ينبغي لطالب العلم ان يتكبر على المعلم ومن تكبره على المعلم ان يستنكف من الاستفادة ممن يراه خامل الذكر عديم الشهرة ولا يرغب في التعلم الاَّ من المشهورين واصحاب المظاهر وهو عين الحماقة فان العلم سبب النجاة والسعادة ومن يطلب مهربًا من سبع ضارٍ يفترسه لم يفرق بين ان يرشده الى طريق النجاة رجل مشهور او خامل وضرر الجهل اشد من ضرر السبع والحكمة ضالة المؤمن يغتنمها حيث يظفر بها ويتقلد المنة لمن ساقها اليهِ كائنًا من كان فلذلك قيل

العلم حرب للفتى المتعالي * كالسيل حرب للمكان العالي

فلا ينال العلم الاَّ بالتواضع والقاء السمع قال الله تعالى (ان في ذلك لذكرى لمن كان لهُ قلب او القى السمع وهو شهيد) ومعنى كونه ذا قلب ان يكون قابلاً للعلم فهمًا ثم لا تعينه القدرة على الفهم حتى يلقي السمع وهو شهيد حاضر القلب ليستقبل كلما

التي اليهِ بحسن الاصغاء والضراعة والشكر والفرح وقبول المنة فيكون المتعلم لمعلمه كارض ميتة نالت مطرًا غزيرًا فشربت بجميع اجزائها واذعنت بالكلية لقبوله وقد قال عليّ رضي الله عنه من حق العالم الا تكثر عليه السؤال ولا تعنته في الجواب ولا تلح عليهِ اذا كل ولا تاخذ بثوبه اذا نهض ولا تفشي لهُ سرًا ولا تغتابَنْ احدًا عنده ولا تطلبَنْ عثرته وان ذل قبلت معذرته وعليك ان توقره وتعظمه لله ما دام يحفظ امر الله تعالى وان كانت لهُ حاجة سبقت القوم الى خدمتهِ

الوظيفة الخامسة

ان يحترز الخائض في العلم في مبدء الامر من الاصغاء الى اختلاف الناس سواء كان ما خاض فيهِ من علوم الدنيا او من علوم الاخرة فان ذلك يدهش عقلهُ ويحير ذهنه ويفتر رايهُ ويوئيسهُ من الادراك والاطلاع بل ينبغي ان يتقن اولاً الطريقة الواحدة الحميدة المرضية عند استاذه ثم بعد ذلك يصغي الى المذاهب والشبه واختلاف الاراء فان لم يكن استاذه مستقلاً باختيار راي واحد وانما عادته نقل المذاهب وما قيل فيها على اختلافها فليحذر منهُ فان اضلاله اكثر من ارشاده فلا يصلح الاعمى لقود العميان وارشادهم ومَن هذه حاله يعد في عمى الحيرة وتيه الجهل

الوظيفة السادسة

ان لا يدع طالب العلم فنًّا من العلوم المحمودة ولا نوعًا من

انواعه الاَّ وينظر فيهِ نظرًا يطلع بهِ على مقصده وغايته ثم ان ساعده العمر طلب التبحر فيهِ والاَّ اشتغل بالاهم منهُ واستوفاه وتطرف من البقية فان العلوم متفاوتة وبعضها مرتبط ببعض ويستفيد منهُ في الحال الانفكاك عن عداوة ذلك العلم بسبب جهله فان الناس اعداء ما جهلوا قال تعالى (واذ لم يهتدوا بهِ فسيقولون هذا إفك قديم) وقال الشاعر

ومن يكُ ذا فمٍ مرٍّ مريضٍ * يجدْ مرًّا بهِ الماءَ الزلالا

الوظيفة السابعة

ان لا يخوض في فن من فنون العلم دفعة بل يراعي الترتيب ويبتدىء بالاهم فان العمر اذا كان لا يتسع لجميع العلوم غالبًا فالحزم ان ياخذ من كل شيء احسنهُ فقد قال عليٌّ رضي الله عنه وكرّم وجهه العلم اكثر من ان يحصى فخذوا من كل شيء احسنه وانشا يقول

ما حوى العلم جميعًا احد * لا ولو مارسهُ الفَ سنه
انما العلم بعيد غورهُ * فخذوا من كل علم احسنه

الوظيفة الثامنة

ان لا يخوض في فن حتى يستوفي الفن الذي قبله فان العلوم مرتبة ترتيبًا ضروريًا وبعضها طريق الى بعض والموفق من

راعى ذلك الترتيب والتدريج وذلك كترتب علم المعاني على النحو وعلم الهندسة على الحساب فمن خاض في فن وحاول تحصيله قبل ان يعرف الذي قبله فقد أحبط عمله واضاع وقته في الباطل ولم يخرج بطائل قال الله تعالى (الذين اتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) اي لا يجاوزون فنًا حتى يحكموه علمًا وعملاً وينبغي ان يكون قصده في كل علم يتحراه الترقي الى ما فوقه

الوظيفة التاسعة

ان يعرف السبب الذي يدرك بهِ اشرف العلوم وذلك يراد بهِ شيآن احدهما شرف الثمرة والثاني وثاقة الدليل فعلم الحساب وعلم الطب مثلاً اذا نسبتهما لبعضهما وجدت علم الطب اشرف باعتبار ثمرته فان ثمرته حفظ البدن وثمرة الحساب حفظ المال ووجدت علم الحساب اشرف باعتبار قوة ادلته فانها يقينية وملاحظة الثمرة اولى ولهذا كان الطب اشرف وإن كان كثير منهُ بالتخمين والحساب مبني على اليقين وعلى هذا فاشرف العلوم علم الدين لان ثمرته حفظ الارواح ونجاتها من الوبال الابدي والشقاء السرمدي ولا ينبغي ان يفهم من هذا الاطراء والمدح لعلم الدين ذم غيره من العلوم ولا ينبغي ان ينظر اليها بعين الحقارة كعلم النحو واللغة وغيرها من الفنون الممدوحة ولا يظن من تعظيم علم الدين وتفخيمه تهجين غيره من العلوم وتقبيحها فان المتكفلين بالعلوم والقائمين عليها

كالمتكفلين بالثغور والمرابطين بها والغزاة المجاهدين في سبيل الله فمنهم المقاتل ومنهم المدد ومنهم الذي يجلب لهم المؤنة والذي يسقيهم الماء ومنهم الذي يحفظ دوابهم ويتعهدها ولا ينفك احد منهم عن اجرٍ اذا كانت نيته حسنة وكذلك العلماء قال الله تعالى (يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات) وقال تعالى (هم درجات عند ربهم) والفضيلة نسبيّة وكون السلطان مثلاً اعظم من وزيره لا يدل على حقارة الوزير في ذاته وكذا من دون الوزير وهكذا وبالجملة فمن يعمل مثقال ذرة خيرًا يرَه ومن يعمل مثقال ذرة شرًا يرَهْ ومن قصد وجه الله وسبيل الخير بالعلم اي علم كان نفعه ورفعهُ لا محالة وينبغي ان لا يحكم على علمٍ بالفساد لوقوع الخلف بين اصحابهِ فيهِ ولا بخطاء واحد او آحاد فيهِ ولا بمخالفتهم موجب علمهم بالعمل فترى جماعة تركوا النظر في العقليات والفقهيات متعللين فيها بانها لو كان لها اصل لادركهُ اربابها وترى طائفة يعتقدون بطلان الطب لخطاء شاهدوهُ من طبيب وطائفة اعتقدوا صحة التنجيم لصواب اتفق لواحد وطائفة اعتقدوا بطلانهُ لخطاء اتفق لآخر والكل خطاء بل ينبغي ان يعرف الشي في نفسه فلا كل علم يستقل بالاحاطة بهِ كل شخص ولذا قال علي رضي الله عنهُ لا تعرف الحق بالرجال اعرف الحق تعرفهُ اهله

الوظيفة العاشرة

ان يكون قصد المتعلم التحلي بالفضيلة والتخلي عن الرذيلة والتقرب الى الله عز وجل والتوصل الى تحصيل المنفعة المحمودة لنفسه باكمل الوجوه واعظمها واحسن الطرق واسلمها والنفع لاخوانه واهل وطنه وسائر عباد الله تعالى فان احب الناس الى الله انفعهم لعباده ولا يقصد بتحصيلهِ المفاخرة والمباهاة والمحاسدة للناس ومزاحمة ارباب الوظائف في وظائفهم ومضايقتهم في مناصبهم فان هذه المقاصد ذميمة وطلب العلم وان كان ممدوحًا في نفسه الاَّ ان من قصده بنية ذميمة كان مذمومًا بالنسبة لهُ ففعل الصلاة مثلاً ممدوح في نفسه وطاعة لله سبحانهُ وقربة ولكن اذا اراده شخص بنية الرياء والسمعة والفخر كان مذمومًا بالنسبة لذلك الشخص وهكذا العلم فينبغي لطالبه ان يحسن نيته ويخلص طويته ويقصد وجه الله وطريق الخير ينفعهُ الله ويرفعهُ في الحال والمآل ويبلغه غاية الكمال

ثم ان الشيخ بعد ان اتم نصيحته وانهى وصيته جمع عشيرته الاقربين وفيهم زوجه والدة علم الدين وقال لهم وهو يبكي اني قضيت جميع عمري في اداء ما فرضه الشرع عليَّ في حق الوالدين والاقارب ومن انتمى اليَّ وقد منَّ الله تعالى عليَّ بولدي هذا في اخر عمري واود ان يخلفني ويكون لكم بفضل الله عونًا من بعدي وجاهًا قائمًا بحق صلة رحمه عاملاً بامر الله العام واتقوا الله الذي

تسالون بهِ والارحام وبقولهِ تعالى وبالوالدين احسانًا ولكن مقصودي هذا لا يتم الاَّ بطلبه للعلم فانه الكاشف للبصيرة والمنور للسريرة والماحي للجهل والمبلغ صاحبه درجة اهل الفضل وهو المؤنس في الوحشه والمحدث في الخلوه والجليس في الوحدة والصاحب في الغربة والدليل على السراء والمعين على الضراء والزينة عند الاخلاء والسلاح على الاعداء وبالعلم يبلغ العبد منازل الاخيار في الدرجات العلى ومجالسة الملوك والكبار في الدنيا ومرافقة الابرار في الاخرة ولذا قال الشاعر

لا تدّخر غير العلو * م فانها نعم الذخائر
فالمرء لو ربح البقآ * ء مع الجهالة كان خاسر

قال الله تعالى (هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الدنيا والاخرة مع العلم وشر الدنيا والاخرة مع الجهل ثم انه التفت الى ولده في الاخر وخاطبه بقول الشاعر

العلم انفس شيء انت ذاخرهُ
من يدرس العلم لم تدرس مفاخرهُ
اقبل على العلم واستقبل فوائدهُ
فاول العلم اقبال وآخرهُ

ثم قال لمن عنده هذه قطرة من بحر ونقطة من قطر وللعلم من المزايا الفاخرة في الدنيا والاخرة ما لا يحاط بحدٍ ولا يدخل

تحت عد ولهذا قد استخرتُ الله تعالى وصممت النية على ارسال ولدي هذا الى محروسة القاهرة لطلب العلم وتحصيله في الجامع الازهر وتبحره فيه لينتفع به مدة دهره الى اخر عمره وفي يوم حشره وقد هيئت جميع ما يلزم لسفره فلا تحزنوا لفراقه وادعوا له عسى ان يفتح الله عليه ويحسن بتنوير بصيرته اليه فابتهلوا جميعًا بالدعاء له وان يفتح الله عليه ويتقبل عمله وكانت والدته من ذوات الحسب مصونة العرض اصيلة النسب قد اعتدت عليها الايام وصدعتها الامراض والاسقام فكف بصرها واختل امرها فرفعت راسها الى السماء وطلبت من الله القبول ونيل المامول وان يرده لبلده في صحة وسلامة مجملًا باوصاف اهل الكمال متحليًا بحال ارباب الجلال لينتفع به اهل بلدته وليكون ردا لاقاربه وعشيرته وتضرعت الى الله بصوت خاشع وقلب خاضع وامّن الشيخ وبقية الحاضرين ثم انهم ودعوا عَلَم الدين وهم في نحيب وبكاء من حرقة الفرقة وبعد الشقه ومشوا معه الى ان انزلوه في مركب كان متوجهًا الى مدينة مصر واوصوا عليه ارباب المركب ورجعوا الى منزلهم بعد ان قبلوه وودعوه وقبل هو ايضًا يدي والده ووالدته وسار على بركة الله تعالى



المسامرة الثانية

سفر وعودة

فكان في مبدء سفره تارة يبكي لفراق اهله وبلده ولم يكن فارقهم من قبل وتارة يفرج لميل قلبه الى العلم والرغبة في تحصيله لانه كان حافظاً للقرآن وكان يرى في نفسه ان فيه استعداداً لاتساع دائرة معارفه ولذلك كان دائماً يطلب من والده ان يرسله لطلب العلم حتى تم هذا الامر وكان احياناً يتكدر خاطره بسبب ركوب البحر وما يخشى من اخطاره لانه لم تكن سبقت له عادة به الا انه كان يتاسى بغيره ممن كان معه في المركب ويتسلى باختلاطه بهم والمحادثة معهم في اخبار مدينة القاهرة وما فيها من الغرائب فصار ينجلي ذلك الحزن عنه شيئاً فشيئاً حتى غلب عليه الفرح وطاب خاطره وانشرح خصوصاً وقد كان بالمركب في ضمن المسافرين رجل صالح لبيب من اهل القاهرة كان قد نزل الى الريف لقضاء بعض مصالح فقضاها ورجع وكان ذلك الرجل صاحب معرفة وتجربة يعلم من احوال الناس كثيراً لكثرة ممارسته لهم واختلاطه بهم فاتحد علم الدين معه وصار الرجل يصف له حال المدينة واهلها ويفقهه بما يلزمه في الاقامة بها ويبين له كيف يكون سيره مع الناس اذا وصل وحاله اذا اختلط باهل الازهر واتصل ووعده انه بعد الوصول الى مصر يزوره ورخص له في التردد عليه اي وقت احب ووصف له منزله وحارته فتسلى

الولد بذلك وقر ناظره وطاب خاطره حتى انقضت ايام السفر ودخلوا مصر آمنين فاخذه ذلك الرجل الى منزلِهِ واكرمهُ فبات عنده تلك الليلة وكان من جملة ما جرى بينهما من المحادثة ان حكى عَلَم الدين للرجل ان معهُ مكتوبًا لبعض اصدقاء والده وعرّفهُ اسمه فوعده الرجل بان يدله عليهِ فلما اصبح الصباح قام معه وتوجه بهِ الى صاحب والده وسلماه المكتوب فلما قراه فرح بالولد لان بينه وبين ابيهِ مودة عظيمة وصداقة قديمة فرحب بهِ وتعهد له بان يكون لهُ كوالده وامره بان يخبره بكل ما يحتاج اليهِ ليقضيه لهُ وفاء بحق صحبة والده لانهُ من اعز الناس عليهِ فشكره عَلَم الدين على معروفهِ وسالهُ ان يرشده الى كل ما يلزمهُ لانهُ مامور من والده ان لا يخرج عن رأيهِ وطاعتهِ فقال لهُ لا تعجل ففي غدٍ ان شاء الله اتوجه معك واسلمك لاحد الاساتذة واوصيه بك واتكلم معهُ بما تعود منافعهُ عليك واتفقا على ذلك ثم ان الرجل صديق والده خيره بين الاقامة في منزلِهِ او في مكان قريب من المسجد فاختار الاقامة في مكان قريب من المسجد ليسهل عليه حضور مجالس العلم في اول اوقاتها فاستحسن صاحب والده رايهُ ورأى بذلك من الامارات على مزيد اجتهاده ورغبته في تحصيل العلم وحرصه عليهِ ولما جاء الغد مضى معهُ الى الجامع الازهر وجمعه على شيخ من مشاهير علمائهِ كان بينه وبينه صداقة وداد وله فيهِ حسن اعتقاد فوصى بهِ ورغب اليهِ في القاء نظره

عليه ورعاية شانه والعناية بامره وارشاده الى سواء السبيل في امر الطلب والتحصيل وترجاه كثيرًا في ذلك وذكر له ما بينه وبين والده من المودة الاكيدة فقبل الشيخ رجاءه وامر علمَ الدين بحضور الدروس في اوقاتها وبين له سبيل التحصيل ونهاه عن الكسل والتعطيل فصار الولد من وقتئذٍ ملازمًا للدروس طول نهاره واذا جاء الليل ذهب الى بيته واقام غالب ليله يطالع الدروس المستقبلة ويتذكر الدروس الماضية ويحيي بعض الليل في تلاوة القران فما مضى عليه الاّ قليل من سنين حتى بلغ في علوم اللغة والنحو والصرف والعروض وفروع الفقه مبلغـًا لا يصل اليه غيره في سنين كثيرة ثم اخذ يتعلم علوم البلاغة والاصول والتفسير والحديث وهكذا كان ينتقل من فن الى اخر ومن درجة الى ما فوقها حتى برع في العلوم النقلية والعقلية وصار يشار اليه بأطراف البنان ويضرب به المثل بين الاقران وما ذاك الاّ بدعاء والديه ورضى مشايخه واخوانه عنه وكثرة اجتهاده ونور بصيرته وقوة فؤاده وامتثاله امر مشايخه واخوانه وحرصه على كل ما سمعه من مشايخ زمانه وكان من ذوي الالباب كامل الاخلاق والاداب اذا قعد في مجلس لا يتكلم فيما لا يعنيه واذا سئل احسن الجواب واصاب الصواب محبًا لمجالسة اللطفاء ومجانسة الادباء حميد الخصال حسن الصفات والافعال شاعرًا اديبًا فصيح اللسان لبيبًا محمود الخلق والخلق عند العام

والخاص يشهد لهُ بذلك العلماء والاكابر والخواصّ وقد حاز جميع هذه الاوصاف الحميدة والمزايا الفائقة الفريدة في مدة يسيرة واعوام غير كثيرة لم يسافر فيها الى وطنه ولم يحنّ الى مسقط راسه وعطنه الى ان جاءه الخبر بموت والديه ومن يعز فراقهم عليه فتوجه الى البلد ليأتي باخواته الى مصر وكنّ ثلاثا من البنات خلفهن ابوهُ بعد سفره الى مصر فاحضرهنَّ معهُ وقد باع كل ما تركه ابوهُ على اهل البلد وكان شيئًا قليلاً وذلك بعض اعنز وحمارة وآنية فخار وشيء يسير من اثاث الدار فبلغ ثمن ذلك كله نحو اربعمائة قرش واشترى منهُ ما يحتاجه من الزاد ولوازم السفر وفي مدة اقامتهِ في البلدة اجتمع عليهِ مشائخها ومشادّوها والجيران وتكلموا معهُ ان يقيم في وظيفة ابيهِ اماماً بجامعهم فشكر فضلهم وتنحى عن ذلك قائلاً اني احب ان اتمّ دراسة العلم وبعد ذلك ان شاء الله تعالى اعود لبلدتي ومقر راسي فقالوا لهُ جميعاً ان الذي حصّلته انت من العلم الان اكثر مما كان يعلمهُ ابوك فقد درست النحو والفقه وغيرهما وبرعت في علوم كثيرة كما سمعناه من الناس كثيراً فضلاً عن حفظ القرآن وحسن تلاوته وكان ابوك لا يحسن غير تلاوة القرآن وشيء من العلم على قدر ما يلزم للامامة وعقد النكاح بل انت الان فيك كفاية لان تتولى نيابة القضاء في القرية فلو بقيت عندنا توجهنا بك الى قاضي الولاية وسعينا في توليتك نيابة القضاء في البلد والحوا عليهِ فابى واعتذر لهم بان القضاء يحتاج

الى معرفة علوم شتى غير التي حصلها وانهُ لا ينبغي ان تتعرض للقضاء وفصل قضايا الناس الاَّ من كان متبحرًا في العلوم الشرعية متضلعًا من اصولها وفروعها واثقًا من نفسه بعدم الميل عن اتباع الحق في الحكم بين الخلق وانهُ لا يرضى ان يكون مسوؤلاً يوم القيامة عما يحكم بهِ خصوصًا اذا كان بدون تثبت فقد قال صلى الله عليهِ وسلم لياتين على القاضي العدل يوم القيامة ساعة يتمنى ان لم يقض بين اثنين في تمرة قط لاسيما وانه يخشى ان يغره الطمع وحب الدنيا فيقع في حبائل الشهوات النفسية فيظلم ويحكم على خلاف الطريقة الشرعية والعمر ينقضي ومتاع الدنيا قليل فالاولى بالعاقل أن يتمسك بعرى التقوى فانها السبب الاقوى وامثال هذا الكلام فما كان يزيدهم تمنعهُ الاَّ رغبة فيه فلما لم يجد لهُ مخلصًا من ذلك قال لهم عما قريب ان شاء الله تعالى يتم المقصود ويهدينا الله لما يريد وكان في المجلس رجل ضرير من اهل القرية يحفظ القران ووظيفته ان يملا ميضأة الجامع وكانوا بعد موت الشيخ جعلوه امامًا لهم في صلاتهم موقتًا الى حضور علَم الدين من الجامع الازهر وتوليه وظيفة والده فلما حضر وابى فرح الضرير بذلك في نفسه بسبب انهُ يصير حينئذٍ مستقلاً بهذه الوظيفة وملحقاتها من عقد نكاح وغيره وكان بعض مشائخ البلد يميل الى الضرير فقالوا الشيخ سويلم يعنون الضرير رجل من الصالحين وحملة كتاب الله ونعرفهُ حق المعرفة فهو اولى من غيره فاتفقوا جميعًا على تقليده هذه

الوظائف وقد كان ثم ان علم الدين توجه باخواته الى مصر واستأجر لهنّ بيتًا في ربع وانزلهنّ فيه وصار كل يوم ياتيهنّ بجرايته المرتبة لهُ بالازهر ولكنها لمّا لم تكن كافية لقوت اربعة تضايق فقصد بعض مشاهير اهل الازهر وشرح لهم حالهُ وحال اخواته ولكونه محببًا اليهم ومقرّبًا لديهم سعوا لهُ في ترتيب جراية اخرى من المحلول ومع ذلك لم يكن فيما رتبَ لهُ من الجرايتين كفاية لنفقته ونفقة اخواته فضاق من ذلك صدره وتحير في تدبير المعيشة امره والجاته الضرورة الى القرآة مع اولاد الليالي في الختمات وغشيان منازل اهل الخير والصدقات وقدر في نفسه ان ذلك وان كان فيه هتك المروات الاّ ان الضرورات تبيح المحظورات فكان يذهبَ معهم في بعض الليالي لقراءة الختمات ويتبعهم في الذهاب الى بيوت الامراء لاخذ الصدقات فحصل لهُ من ذلك بعض اتساع في احواله وتخلص بعض التخلص من ضيق الفقر واوحاله



المسامرة الثالثة
الزواج

ومضى على ذلك اربع سنوات يصرف نهاره في طلب العلم وليله في قرأة الختمات لكنه لصغر سن اخواته وعدم من يعولهنّ ويقوم باصلاح شانهنّ كان دائمًا مشغول البال بهنّ فرغب في الزواج ليستريح فؤاده من جهتهنّ ويتفرغ لطلب العلم والسعي في تحصيل معيشتهنّ الاَّ انه كان اذا تفكر في امر الصداق وكلفة الزفاف ونفقة الزوجة وما يتبع ذلك من حقوق الزوجية وفي أنّ ما يرد لهُ في هذه الحالة لا يفي بذلك كله قلّت رغبته وضعفت نيته واذا ذكر قوله تعالى (وما من دابة في الارض الاَّ على الله رزقها) وقوله صلي الله عليه وسلم من تزوج يريد العفاف فحق على الله عونه) وقول عمر بن الخطاب اني لاقشعر من الشاب ليست لهُ امرأة) كثرت في الزواج رغبته وقويت نيته وهكذا فكان يتردد بين الامرين ولا يكشف لهُ وجه الصواب عن احد الحالين ثم انه قال في نفسه اين انت من الاستخارة وما ورد فيها كقوله صلى الله عليه وسلم اذا همّ احدكم بامر فليستخر ربه فيه سبع مرات ثم لينظر الى الذي يسبق اليه قلبه فان فيه الخير) وقول بعض الصحابة كان صلى الله عليه وسلم يعلمنا الاستخارة كما يعلمنا السورة من القرآن) فهلاّ استخرت او ذهبت الى

بعض المشائخ فاستشرت فاستخار واستشار وتبيّن لهُ ان الزواج هو الصواب ثم طرأَ له تحير اشد من الاول ولم يدرِ على ماذا يعوّل وهو انه هل يتزوج بفقيرة او غنية وهل الصواب ان تكون ثيبًا او بكرًا قال فكنت ذا قلب معذب وعزم مذبذب لا اهتدي الى صواب ولا اميز بين التبر والتراب فنظرت في كتب الاداب وما قيل فيها من هذا الباب فرأَيت لكل مزية وليست واحدة منها عما يحذر منه عرية لان البكر وان كانت درة مخزونة وبيضة مكنونة لم يدنسها لامس ولا استغشاها لابس ولا مارسها عابث ولا وكسها طامث الاَّ انها ابيّة العنان بطيئة الاذعان مؤنتها كثيرة ومعونتها يسيرة تقول انا أَلبس واجلس واطلب من يطلق ويحبس واما الثيّب فهي وان كانت الصناع المدبرة والفطنة المختبرة عجالة الراكب وانشوطة الحاطب الاَّ انها اللباس المستبدل والوعاء المستعمل دابها كنت وكنت وطالما بغي عليّ فنصرت وشتان بين اليوم وامس واين القمر من الشمس وامثال هذا مما قراته في الاسفار وطالعته من منشور الاخبار ومنظوم الاشعار ورايت ان الفقيرة وان كانت ترضى بالقليل وتقنع باليسير الاَّ ان ما يرد لي من الصدقات والجراية وقراة الختمات انما يكفي لاقواتنا على قدر اللازم فلا يفي بما يزيد لاجل الزوجة من اللوازم وان الغنية وان ساعدت زوجها في امر المعيشة الاَّ ان لوازمها كثيرة ويجب لها من الحقوق ما لا يجب

لغيرها لاعتيادها على السعة في بيت اهلها وربما كانت المساعدة التي تحصل منها لا تقابل بعض ما يجب لها خصوصاً وغالب من اراه من اغنياء مصر في هذا العصر لا يقوم علم الزوج عندهم مقام غناه بسبب جهلهم فربما قصد العالم الفقير بعضهم فردوه واستهزؤا به ولم يريدوه لان الانسان عدو ما جهله ومن جهل شيئًا عاداه وما زلت اتقلب في مثل هذه الافكار والخواطر واتردد بين الموارد والمصادر فازداد بي التحير وتشعبت عليَّ طرق التخيّر ووقعت من الحيرة في ليل بهيم ولم ادرِ في ايّ واد اهيم فرجعت الى كتب الحديث والاخبار وما ورد عن السلف الصالح من الاثار فقرات ما ورد عن جابر رضي الله عنه قال قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أتزوجت قلت نعم قال ابكرًا ام ثيّبًا قلت ثيبًا قال هلاَّ بكرًا تلاعبك وتلاعبها وامثال هذا الحديث فرجحت البكر على الثيب ثم قرات ما رواه الامام احمد بن حنبل رحمه الله عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال اعظم النساء بركة ايسرهنَّ مؤونة فقلت الفقيرة بالنسبة لحالي ايسر مؤونة وبالنسبة لعيالي اكثر معونة واقرب للقناعة بقليل ما لديّ وابعد عن الترفع والتعاظم عليّ فصممت النية على البكر الفقيرة بعد ان استخرت الله تعالى وكان لي صديق له اخت فقيرة بالغة اسمها نقية فخطبتها منه فاجاب وسميت له ما تيسر من الصداق فرضي بِهِ وما عاب فاحضرت الشهود واولمت على قدر

الموجود وعقدنا العقد وميزنا بين المؤجل والنقد

المسامرة الرابعة
العيلة

قال الناقل فلما استقرت عنده وحلت بالمكان الذي اعده وجدها ذات ذكاء وبهاء راضية بما قسم الله لها تشكر على القليل ولا تنسى الجميل فبلغ عَلَم الدين بها مناه وحمد الله سبحانه على ما اولاه حيث كفته المؤنة في تربية اخواته وتفرغ هو لطلب العلم وقراءة ختماته وكانت صاحبة فطنة تدبر بها منزلها وتحسن التصرف فيما عليها ولها وتعرف بعض صنائع كالخياطة والتطريز وكب الحرير وكلما تيسر لها من ذلك تصرفه في لوازم المنزل من غير اسراف ولا تبذير ولما رأت ان اخوات زوجها لم يعرفنَ شيئًا من اللوازم المنزلية التي لا يستغني عن معرفتها النساء شمرت عن ساعد الجد واخذت تعلمهنَّ جميع ما يلزمهنَّ اذا تزوجنَ فاخذنَ في التعلم وصرنَ لها كبناتها فقمن بخدمة المنزل وتفرغت هي لصنائعها وكلما تيسر تصرفه في مساعدة زوجها فحسن حاله وراق باله ومكثوا على هذه الحالة اياما متطاولة وليالي متوالية لا يخطر لهم الهم ببال ولا يحدث بينهم قيل ولا قال ثم انه وجد عندها ميلًا لتعلم العلم فصار يلقنها منه قواعد الدين شيئًا فشيئًا

ويعلمها الكتابة فكتبت وحفظة القرآن وتعلمت من العقائد ما تحتاج لمعرفته ثم سالته ان لا يكتم عنها شيئًا ما يعلمه فعلمها العلوم الادبية والفقـه والحديث والتفسير الى غير ذلك من المعقول والمنقول وهي مع ذلك مؤدية جميع ما يجب عليها من حقوق الزوجية فكان اذا دخل المنزل كانت له احسن جليس والطف انيس واذا خرج تفرغت لاشغالها وللمطالعة في مطولات الكتب من التفسير والحديث والادب والفقه والاثار وقصص المتقدمين والاخبار حتى جارته في كل مضار واخذت معه في اودية العلم حيثما سار ولم تزل سالكة طريق السداد حتى رزقهم الله باربعة من الاولاد فتعطلت عن مساعدته في امور المعيشة بسبب تربيتهم واشتغالها بخدمتهم لصغرهم وكثرتهم ومع هذا فكان يرى ان نعم الله عمته واحساناته غمرته فكان دائم الشكر لمولاه حامدًا له علي ما اولاه الاَّ انه كان يرى ان ما يرد له من الجراية والقرأة شيء قليل بالنسبة لكفاية العائلة لا يبرئ لهم عليلا ولا يروي لهم غليلا لانهم صاروا تسعة هو واخواته الثلاث واولاده الاربعة وزوجته فيخشى الوقوع فيما فر منه والعود لما نزع عنه ويتامل في الحكمة الالهية والقسمة الربانية من كثرة العيال وضيق الحال ولا يجد لتفريج ما بهِ من الضيق سببًا ولا للعلم باسرار الحكمة الالهية مطلبًا ولكنه كان لورعه وتقواه يفوض امره الى مولاه ويقول مخاطبًا لنفسه اذا كان بقسمة الله تجري الامور فالصبر عليهـا

مشكور مستوجب الاجور ومن غرس الصبر اجتنى الظفر والصبر على الغصة ربما ادّى الى الفرصه ومن فوض امره لمولاه كفي مؤنة بلواه وعدم الرضا معاداة للقضا ويتذكر قول شهاب الدين في تهذيبه الجامع وتصنيفه النافع اذا لم يمشِ الزمان معك على ما تريد فامشِ معه على ما يريد فان الانسان عبد الزمان الى غير ذلك من المواعظ التي مرت به والحكم التي تلقاها ايام طلبه وعند ذلك يرضى بحاله ويصبر على ابتلائه بكثرة عياله ولكن كان اذا مر باسواق المدينة ورأى الفواكه على ارجائها صفت واصناف الماكولات والمشروبات باكنافها احتفت او دخل بيتًا من بيوت جهلة الاغنياء والاوغاد الاغبياء ورأَى ما لديهم من النعم والتوسع في المشرب والمطعم تذكر عياله وفقره واضمحلاله وكانت زوجته ايضًا بهذه الحالة الاَّ انها كانت تبالغ في كتمان امرها وتحذر من افشاء سرها خوفًا على تشويش خاطر زوجها كما كان هو كذلك يكتم امره ولا يبدي سره واذا لاح لهُ منها امارات الضجر سالها تطييبًا لخاطرها عن اسباب ضجرها فتتعلل بان ذلك لامر حدث بين اخيها وزوجته او بينه وبين بعض قرابته فياخذ الكلام على ظاهره ولا يدقق عليها خوفًا من ان تخبره بالحقيقة فيزيد تشويش فكره بلا فائدة الى ان دخل عليها مرة فوجدها في بكاء وولَه لم يسبق في العادة لها وله فلم يسعهُ الاَّ الالحاح عليها في طلب الافصاح عن سبب بكائها ووجه حزنها وعنائها واقسم عليها

بالمودة التي بينه وبينها ان تخبره عن اسباب تغيرها والبكاء الذي اضرّ بها وقال لها ان كان ذلك عن امر حصل مني اعتذر اليك منه وانت تعلمين اني لا اريد غير ما يرضيكِ عني ومعاذ الله ان اكون دنست في عشرتكِ او قصدت غير مسرتكِ فان كان ذلك لامر فرط مني ولم اعلمه اعتذرت اليكِ منهُ وان كان من طبع لي كرهته نفسك بذلت غاية جهدي في التباعد عنهُ فاماطت عن مكنون سرها الجلباب ونضت عن مستتر ضميرها النقاب وقالت

المسامرة الخامسة

محاورة

استغفر الله لي ولك واساله ان يصلح عملي وعملك وينجح املي واملك واقول لك الحق ومحضك الصدق ان البكاء الذي عراني والنحول الذي اعتراني ليس لك فيه سبب وانما هي امور جلبتها الى نفسي وخواطر اذهبت راحة عيشي وانسي فقال وكيف ذلك قالت نظرت لفقر حالنا وكثرة عيالنا فاسفت من ضيق عيشهم في حياتنا وخفت من سوء حالهم بعد مماتنا وذهلت عن

قول الله تعالى (وما من دابة في الارض الاّ على الله رزقها)
فهذا الذي اجرى عبرتي واضرم نار لوعتي وارجوك ان لا تواخذني
في ذلك فانك تعلم ان النساء اكثر من الرجال شفقة واعظم
منهم رافة ورقة فقال لها ان الذي قام بفكرك قد اوقعني الشيطان
فيه من قبلك فاجدني لا ادخل ولا اخرج الاّ حوقلت ولا ارى
سوقًا ولا بيتًا مزخرفًا الاّ استرجعت وسجلت لما اراه من ضيق
دويرتنا وشدة عيلتنا وارى الكثير من المنعمين في الدنيا وشهواتها
مجردين عن العلوم الشريفة وادواتها وغالب اهل العلم والكمال
في معزل عن السعة والمال فاجد العلم مقرونًا بالفقر والجهل
ملازمًا للسعادة واعتقد ان الصواب ما ورد في الكتاب من قوله
تعالى (وبشر الصابرين) وامثال ذلك لكن الحواس لا ترى
الاّ ظواهر الاشياء والعقل ان لم تدرك صاحبه الطاف ربه يحكم
بما شاهدته وشهدت به فهذا الذي كان يعتريني فكنت اجتهد
في اخفائه عنكِ واسال الله دواء هذا الداء. فانه وهن عظمي
واوهى جسمي وشغل فكري وحيرني في امري فقالت وانا ازيدك
على هذا ان شئت ولا تواخذني ان اسأت فقال هاتِ قالت ان
اكابر الفضلاء والمتقدمين من الحكماء قد اطالوا القول في مدح
العلم واهله وربما جعلوه بابًا للرزق واصله حيث قالوا انه نور
تستضيء به حواس الانسان فينظر بها الى ان تنكشف لهُ مخدرات
حقائق الاكوان فيكسو صاحبه حلل الجمال والهيبة والاجلال

وان الجهل يطمس بصيرة صاحبه ويهوي به في ظلمة الغي ومعاطبه ويحجبه عن مشاهدة الاسرار الربانية ويمنعه عن ادراك ما اوذع في الاكوان من اللطائف الخفية ويقوده الى وادي الخبال ويكسوه ثوب المهنة والاذلال فلا يرى الاَّ ظواهر الاشيا فيحكم عليها باحكام باطلة واوهام عاطلة فيكون بمعزل عن الارادة الربانية والحكم الالهية فلا يميز على الحقيقة ما ينفعه مما يضره ولذا يقال في الامثال (الجاهل عدو نفسه) ومن كان عدو نفسه كان عدو ربه ومقتضى القياس الذي حرره اهل الميزان وقرروه والمفهوم الذي استنتجوه من هذا المثل وقدروه ان يقال العاقل حبيب نفسه ومن كان حبيب نفسه كان حبيب ربه وذلك لان من عرف نفسه عرف ربه الى غير ذلك مما لا يعول في استخراج نتائجه الاَّ عليك ولا سند لي فيه الا اليك ولكن اذا تقرر هذا ففيه اشكال اريد ان استمد فيه رايك واستطلع ما عندك قال وما هو قالت اذا كان العالم حبيب نفسه وحبيب ربه والجاهل عدو نفسه وربه كما قلنا ورابنا الغنى والسعة عند اهل الجهل والفقر والقلّة مع اهل العلم والفضل كما تقول فما الحكمة في ذلك وكيف يكون الحبيب محروماً من نعم حبيبه المتقلب فيها عدوه فقال هذا قضاء الله السابق في مكنون علمه وهو الفعال لما يريد لا يسال عما يفعل ولا معقّب لحكمه وانما علينا الصبر والرضا بكل ما يجري به القضا لكي لانحرم الثواب في الآجل اذا حرمنا

بعض المطلوب في العاجل فقالت مهلاً فهذا شيء عرفناه قديمًا وفرغنا منه تعلمًا وتعليمًا وانا لا ريب عندي في ان الصبر سبيل كل عاقل فضلاً عن الكمّل الافاضل كما اني لا ارتاب في ان كل شيء بقضاء الله وقدرته وحكمه ومشيئته ولكن مع ذلك اعلم ان الله علت كلمته وجلّت حكمته لا تخلو افعاله عن اسرار علية وحكم خفيّة او جلية فان الانسان من خالقه اذا أتاه حظًا عظيمًا من العقل وقدرًا وافرًا من الحكمة وولاه جانبًا من حسن البصيرة والنظر في حقائق الأحوال وعواقب الامور والاطلاع على غوامض الاشياء نجده ترفعت نفسه عن الباطل وتنزهت أفعاله عن العبث وخلت اموره عن اللغو حتى لا يكاد يخلو حال من احواله وشيء من أقواله وافعاله عن حكمة يريدها ونكتة يقصدها اذا امدّه الله بالعصمة وايده بالتوفيق لمقتضى الحكمة فما ظنك بالصانع القدير الحكيم الخبير الذي لا يعزب شيء عن علمه كما لا يشذّ شيء عن أمره وحكمه أيجوز لمن رزق لمحة من الفضل او لمعة من العقل ان يظن به جل جلالهُ وتقدس كماله ان يتطرق العبث الى ساحة شيء من امره او يخلو عن الحكم الجليلة شيء من قضائه وقدره حاشا وكلاَّ ثم حاشا وكلا نعم نعلم مع ذلك ان عقل العاقل وان جلّ امره وعظم قدره لا يمكنه الوصول الى الاحاطة بحِكَم الله كلها ولاجلّها وانما يصل الى معرفة اقلها فان حِكَم الله المنطوية في تضاعيف المقدور المنبثة في

تصاريف الامور تابعة لما علمه بعلمه المحيط بكل شيء قلّ او كثر خفي او ظهر حضر او غبر اذ لا يخفى عليهِ شيءٌ من صغير او كبير الا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير وعقل العاقل انما يحكم بحسبما يراه في الاشياء الحاضرة من ظواهرها او ما يقرب الى الظهور من بواطنها وسرائرها فاما بواطنها المستكنة وسرائرها الغامضة ومستقبلاتها الغائبة التي لا سبيل اليها ولا دليل عليها فهو بعيد منها ومعزول عنها فمن اين لهُ علمها وكيف يتاتّى لهُ فهمها ومصداق ذلك اننا نجد في بني نوعنا من آثره الله علينا بمزية مزيد العقل ونور البصيرة وكثرة التجربة فاذا تفقدنا جميع احواله وانتقدنا كل افعاله ظهر لنا السر والحكمة في بعض اموره وخفي علينا ذلك في البعض الاخر من اعماله وربما راينا بعضها خلوًا من الحكمة في بادىء النظر ثم يظهر لنا اخر الامر ما كان قد خفي علينا اولاً من حكمته وانه فهم بكثرة عقله ما لم نفهم وعلم بمزيد تجربته ما لم نعلم فان كان لنا حسن ثقة بعقله وفضل اعتماد على فضله بسبب كثرة موافقة الحكمة فيما علمنا سره من فعله لم يحملنا عدم معرفة السر والحكمة في امر من اموره على سوءِ الظن بهِ والقدح في حكمته او الجزم بخلو ذلك الامر عن الحكمة والسر في نفس الامر بل نحمل ذلك على قصورنا عن درجته وعدم وصولنا لما وصل اليه بكثرة معرفته وطول تجربته وقد يشير علينا بالشي من هو اكثر منا عقلا وتجربة فنسفّه رأيه ونخالف قوله اذا لم يكن لنا فيهِ من الثقة مثل ما ذكر ثم نندم

على مخالفته ويظهر لنا بعد ذلك انهُ كان قد اشار علينا بما هو الصواب وظهر لهُ ما خفي علينا فاخطأنا بمخالفته وامثال هذا في كل عصر مما لا يدخل تحت حصر وكثيرًا ما يتفاوت الناس في الآرآ والانظار والاقوال والافكار فيرى الواحد منهم بفضله وتجربتهِ ما يخفى على غيرهِ لجهله وقلة خبرته ولولا ذلك لتساوى الفضلاء والجهلاء واتفقت الآراء والاهواء وقد يامر الرجل العاقل البصير ولده الصغير بشيء ينفعهُ ويعود عليهِ بعظيم الفائدة في حاله او استقباله فتكره ذلك الشي نفس الصبي وينفر منهُ طبعه ولا يعلم لهُ حكمة ولا فائدة لقصور عقله عن عقل والده هذا ولا شك ان نسبة عقل الصبي الصغير الى عقل الشيخ الكبير وعقل الغرّ الجاهل الى عقل الفطن البصير اعظم واجل من نسبة عقل العبد الذليل الى علم الرب الجليل بكثير فان الصبي الصغير والغِر الجاهل لم يخرجا عن كونهما من جنس الشيخ الكبير والفطن البصير ومن نوعهما وان قلاَّ في درجة العقل عنهما بخلاف العبد وربه الذي ليس كمثله شيء فلا شبه ولا مناسبة بينهما فظهر ان العقل وان انكشف لهُ بعض الحكم الالهية واطلعهُ الله سبحانه على شيء من اسرارِها فلا سبيل لهُ الى الاحاطة بجميعها ولا باكثرها فلله عز شانه حِكم مصونة واسرار مكنونة تتلاشى انظار البصائر دونها وتتفانى هم الاكابر عليها فلا يصلونها الاَّ ان لهُ مع ذلك حكمًا ظاهرة ظهور الشمس في رابعة النهار لا تخفى على احد من

ذوي الابصار فلا يجهلها غير صبي او من يقارب منزلته من فاقد البصيرة غبي وبين ذلك حكم واسرار ليست كهذه في الظهور ولا كالاولى في الاستتار فمنها ما يعرف بيسير من التفكر ومنها ما يتوقف على كثير من النظر والتدبر ومنها ما ينكشف بالرياضة والمجاهدة والتقوى والعبادة ومنها ما يظهر لبعض الافهام دون بعض الافهام وما يظهر للخواص ويخفى على العوام يشهد لذلك المشاهدة والتجربة بما يغني عن اطالة الكلام في تفصيل المقام وكل ما ظهر لنا من ذلك فمن فيض الله وفضله وما طواه عنا فبحكمته وعدله فاذا كان ذلك كذلك فلا يحسن بنا اذا لم يظهر لنا السر في شيء من افعاله جل جلاله بادىء بدء ان نقطع الامل من معرفته ونيأس من روح الله في الوصول الى حكمته بل نطلب الحكمة على قدر الاستطاعة باشغال الفكر واعمال البصيرة والالتجاء اليه بحسن السيرة والسريرة حتى يُعلمنا ما جهلنا خفاياه ويفيض علينا من بحار عطاياه فما افاض علينا علمه من ذلك شكرناه عليه وما لم يظهر لنا سره صبرنا على الطلب حتى نصل اليه فيحصل لنا بذلك مزيد الاجر والثواب من وجوه اما اوّلا فباستعمال النظر والفكر في مصنوعات الله سبحانه وتعالى والتماس حكمته فقد امرنا بالنظر والتفكر في مصنوعاته كما نهينا عن التفكر في ذاته وقد تقرر ان اليسير من فكر الجنان افضل من كثير من عمل الاركان واما ثانيًا فبالشكر على ما يفيض علينا علمه والله

سبحانهُ يقول (ولئن شكرتم لازيدنكم) واما ثالثًا فبالصبر على الطلب وقد قال (انما يوفّى الصابرون اجرهم بغير حساب) ونستفيد مع حسن الاجر والمثوبة في الآجل ما ينكشف لنا من المعرفة والحكمة في العاجل وذلك نعيم الروح ولذة النفس ونزهة الخاطر ومسرة السرائر ولا ريب في ان معرفة الحكمة او شيء منها فيما يتأتى للعقول البشرية ان تصل الى سر حكمته الزاهرة من افعال الله وعجائب مصنوعاتهِ الباهرة ادعى الى تعظيم الله سبحانه ومحبته والخضوع لهُ والالتجاء اليهِ والتقرب من حضرتهِ والاعتراف بحسن حكمتهِ واجلب لسكون الخاطر واطمئنان القلب وراحة السر ومزيد التسليم وحسن الرضا بالقضا وكل ذلك لا يخفى ولم يكن ما ارتكبت من اطالة المقالة قصدًا الى تفهيمك فان كل ما عندي ليس الاَّ من ثمرات تعليمك ولكني لما سألت ذلك السؤَال واوردت ما اوردت من الاشكال خفت ان يتطرق اليك سوء الظن في اعتقادي فاردت ان اعرفك بحقيقة ما انطوى عليهِ فؤَادي ولهذا اطنبت فيما قررت ورجع حاصل ما ذكرت الى خمسة امور الاول اني اعلم ان كل شيء بقضاء الله وقدره الثاني ان افعال الله سبحانه لا تخلو عن حكمة وسر الثالث ان العقول البشرية لا يتأتى لها الاحاطة بجميع حِكَم الله سبحانه وانما يمكن لها الوصول الى بعضها الرابع ان حِكَم الله سبحانه كما ان منها ما لا تصل اليهِ عقولنا كذلك منها ما هو في غاية الظهور والوضوح

لا يحتاج الى طول نظر وتدبّر ومنها ما هو بين هذا وذاك الخامس
انّا اذا لم يظهر لنا السر والحكمة في امر من اوّل وهلة فلا نقطع
باليأس منهُ بل ننظر فيهِ ونلتمس الحكمة لهُ بقدر الاستطاعة
وحينئذٍ فلا باس بنا في النظر فيما اخذنا بصدده من المقام الذي
بسببه انساق هذا الكلام وهو البحث عن الحكمة في ضيق عيش
الفضلاء وفقر حالهم ورغد عيشة الجهلاء وكثرة مالهم فان كان
عندك في ذلك وجه حكمة فمنك نستفيد والاَّ فلينظر كل منا
بعقله حتى يفتح الله بما يريد فقال الشيخ احسنت فيما ابنت وتطولت
بما طولت ولكن بقي عليك شيء كان يستدعيه استيفاء البيان
واتمام الكلام ذلك انا اذا نظرنا في شي من الامور الواقعة
بقضاء الله وقدرته والتمسنا لهُ وجه حكمة وسر استنبط بواسطة
العقل على حسب ما يصل اليهِ الادراك وينفذ فيهِ الفكر فهذا
لا يخلو من مزية بالنسبة الينا من سكون الخاطر وارتياح النفس
كما قلتِ ولكن لا ينبغي لنا ان نقطع القول بهِ ونجزم بان ذلك
الوجه الذي لاح لنا هو في الواقع ونفس الامر عين الحكمة التي
ارادها الله تعالى بذلك الامر والسر الذي بنى عليهِ وقدّر بل
يقول الانسان اظن الحكمة في هذا الامر كذا او لعل السر فيهِ
كذا وكذا ويجوز ان يكون لهُ في هذا الامر اسرار وحكم اخر
وربما كانت الحكمة غير ما ذهبنا اليهِ بالكلية اذ لسنا معصومين
من الغلط والوهم والخطاء فقطع القول في ذلك والجزم بهِ ان لم

يرد بهِ دليل شرعي ونصّ قطعي اقدامٌ على الحكم على مرادات الله سبحانه بالتخمين وهذا ينافي ادب العبودية اما الاخبار بانّا نظن كذا فلا باس بهِ لانهُ اخبار بالواقع وهو صدق لا محذور فيهِ مع تفويض علم الحقيقة الى العليم الخبير واما ما سالت عنهُ فللناس فيهِ اقوال كثيرة منها ان الله لما رَزق العلماء ما رزقهم من كمال العقل والمعرفة والفضل جعل للجهلاء في مقابلة ذلك ما منحهم من رغد العَيش وسعة المال وكثرة الغنى فكان الغنى للجاهل في مقابلة الفضل للفاضل لتعتدل القسمة ويتساوى الفريقان في الحكمة ولذلك قالوا . ذكاء المرء محسوب عليه . ومنها ان الله لما رَزق الجهال سعة المال تأتى للعلماء ان يتكسبوا من بعض اموالهم بواسطة علمهم وعقلهم واحتياج الجهال اليهم للانتفاع بعلومهم ولو في بعض الاحيان ولو كان الامر بالعكس وكان المال مع اهل العلم والفضل ما كان للجهال وجه ينالون بهِ من اموالهم فيختل الحال ويهلك الجهال ولله در ابي تمام حيث قال

ولو كانت الارزاق تاتي على الحجى
هلكنَ اذًا من جهلهنَّ البهائمُ

ومنها ما يحكي عن بزرجمهر انهُ قال وكّل الله الحرمان بالعقل والرزق بالجهل ليعلم ان لو كان الرزق بالحيلة لكان العاقل اعلم بوجوه مطلبه والاحتيال بمكسبه فدل على ان الامور تجري بقضائهِ وقدرته لا بصنع ابن ادم وفكرته فكانت الحكمة في

هذا الهداية الى الله والدلالة عليه وارشاد العقول الى ان الامر كله منه واليه

نكد اللبيب وطيب عيش الجاهل
قد ارشداك الى حكيم كامل

ومما ينسب للشافعي رضي الله عنه

لو كان بالحيل الغنى لوجدتني
بنجوم اقطار السماء تعلقي
لكنّ من رزق الحجى حرم الغنى
ضدان مفترقان اي تفرّق
ومن الدليل على القضاء وكونه
بؤس اللبيب وطيب عيش الاحمق

فقالت هذه وجوه خطابية ونكات ادبية يستانس بها في بعض المقال ولا تطرد في جميع الاحوال فكم راى الناس من عالم غني وفقير غني والذي يخطر بالبال ان العلم ليس من اسباب الفقر ولا الجهل من اسباب الغنى ولا ملازمة بين هذه الامور بل القضية على العكس والعلم احد موجبات الغنى والسعة والجهل احد اسباب الفقر والضعة لولا عوارض واسباب اخر غير العلم وغير الجهل وذلك ان الله سبحانه لما جعل هذه الدار موضع الكسب والسعي والاختبار ربط الامور فيها باسباب عادية تحصل عندها وتوجد معها كحصول الشبع والريّ بالاكل والشرب

وامثال ذلك مما اجرى به العادة في خلقه ومن ثم امرنا بالسعي والعمل لا بالبطالة والكسل كما قال تعالى (فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه) وامثال هذا مما يطول بيانه ولا يخفى عليك تفصيله وبهذا يتضح ان الاخذ بالاسباب والتقلب في طلب الرزق والتشبث بوجوه تكسبه امتثال لامر الله تعالى واتباع لجاري سنته وطلبٌ منه بلسان الحال والافعال وهو اصدق من لسان المقال فهو اقرب الى القبول فكأن المتشبث بالاكل طالب من مولاه بلسان حاله وفعله افاضة الشبع والمتشبث بالشرب طالب كذلك للريّ والمصطلي طالب للدفء وهكذا الآخذ في اسباب الرزق طالبٌ للرزق والله سبحانه جواد كريم فياض مطلق لا بخل عنده ولا ضيق فيما لديه فهو يفيض على كل احد ما طلبه بلسان حاله وفعله الذي لا يدخله ما يدخل لسان القول من الكذب واذا تمهد هذا الكلام وتقرر الغرض في هذا التمهيد قلت لك ان اهل العلم ممن لا مال عندهم لما قصروا جل افكارهم وعلقوا منتهى انظارهم على العلم والتشبث بوجوه تحصيله وكان ذلك طلبًا لهُ واستدعاء لافاضته كما ذكرناه افيض عليهم كما ان من لا علم عندهم من اهل الغنى لما سعوا في تحصيل المال واخذوا باسبابه وكدوا في طلبه افيض عليهم ذلك . نعم قد يرزق القاعد ويحرم الساعي المجد لاسباب اخر واسرار وحكم قد تعلم وقد لا تعلم الا ان كلامنا في العموميات والكليات لا في الخصوصيات والجزئيات فحق كل

فريق من هذين الفريقين اذا اسف على حرمانه مما عند الاخر الاّ يوجه اللوم الاّ على نفسه ويرحم الله من يقول

وعاجز الراي مضياع لفرصته

حتى اذا فات امر عاتب القدرا

فقال الشيخ اراكِ قد سقت الكلام الى حد اردتِ بهِ توجيه الملامة عليّ واتهامي بالتقصير في الطلب وان ما نحن فيه من قلة المال وضيق الحال انما هو من تقصيري في الاخذ بالاسباب قالت ينبغي ان لا يكون في هذا ارتياب وها انت قد حصلت من العلم ما تعلقت به امالك ووصلت فيه ما لم يصل اليه امثالك وانت الان بحمد الله في صحة من جسمك وقوة من عقلك فماذا عليك لو اخذت لنا فيما يكون فيه حسن الحال وراحة البال من الرزق الحلال ففي علمك ان للعبد ذنوبًا لا يكفرها صلاة ولا صيام يكفرها السعي على العيال فقال الشيخ ومتى قصرت في الطلب وكيف لنا تحصيل الارب فقالت طرق الوصول الى الرزق غير محصورة واسبابه غير محظورة فمنها ما يوصل الى قليله ومنها ما يوصل الى كثيره على حسب تفاوت الناس واختلاف درجاتهم وتباين حالاتهم وانما الصعوبة في معرفة احسن الطرق الموصلة اليه بالنسبة الى الشخص والاهتداء لسلوكها فان الانسان في حال صغره الذي هو وقت تعلمه لا يتاتى لهُ معرفة ذلك لضعف قوته العقلية كقوته الجسمية فهو اذ ذاك كلّ على اهله

مضطر للانقياد لهم واتباع ارآئهم فيوجهونه الى ما يوجهونه اليهِ مما يرونه نافعًا لهُ وهو لا يدري أفي ذلك خير له ام شر وعاقبته نفع لهُ ام ضر فاذا ترعرع وكبر وبلغ اشده وملك زمام امره واخذ يحكم عقله في التميز بين ما هو نافع لهُ او انفع وضار او اضر والترجيح بين ذلك والاختيار لما يراه خيرًا لهُ فحينئذٍ اما ان يوافق رايه راي اهله فيما ارادوه لهُ واخذوه بسلوك سبيله او يختلف الراي فان خالف رايه راي اهله ولم يستحسن ما اختاروه من اجله كان يكون اهله قد اختاروا لهُ من صغره صنعة الكتابة والزموه الاشتغال بتعليمها فلما كبر لم يستحسنها طبعه وراى ان الاشتغال بصنعة الخياطة او الحياكة مثلاً خير لهُ من الكتابة لكونه راى بعض المشتغلين بهما احسن حالاً وانعم بالا من بعض المشتغلين بالكتابة فاذا كان كذلك ضاع عليه ما قضاه من عمره في تحصيل الكتابة وربما كان ما اختاره كالخياطة مثلاً وان كان انفع لهُ في نفس الامر فرضًا يحتاج الى تعلم ويحتاج التعلم الى وقت قد لا يساعده عليه حاله ثم هو في وقت تعلمه الصنعة التي مال اليها هواه لا يمكنهُ التكسب منها فان ذلك لا يكون الاَّ بعد اتقان معرفتها مع احتياجه في زمن التعلم الى النفقة وقد يشتغل بتعلمها مدة فيطول عليه زمن التعلم فيسأَم ولا يجد فيها كسبًا عاجلاً فيندم والحاصل انهُ يختل حاله ويتذبذب امره ويحتار فيما يختار ويكون حالهُ كما يحكى عن الغراب في الامثال المضروبة. انهُ لم تعجبهُ مشيتهُ

الموروثة عن ابائهِ فاراد تقليد بعض الطير في المشية فاخذ يمرّن نفسهُ على ذلك فنسي مشيتهُ الاصلية ولم تحصل له المشية التي ارادها وبقي يحجل في مشيه كما نراه وهكذا حال من ذكرناه ممن خالف رايه راي اهله فيما علموهُ لهُ في صغره فلا هو حصل الغرض مما اراده ولا انتفع بما كان قد تعلمه بل ربما نسيه بالكلية وضاع عليه ما قضاه فيه من عمره وساء حاله وتحير في امره وربما كان من الاغرار فينضم اليهِ جماعة من الاشرار فيلعبون بعقله ويزيدونه ضلالاً الى ضلاله وخبالاً على خباله فان كان عنده بعض مال ورثه عن ابائهِ احتالوا على فنائهِ فذهبوا بهِ من مكان الى دكان وانقلبوا معهُ من خان الى حان الى ان يصبح فقيرًا معدمًا نادمًا سادمًا وان كان من اصله فقيرًا حسنوا له امورًا قبيحة قل ان يحصل منها على الكفاية وربما آلت بهِ الى الفضيحة وعلى كل حال يندم حيث لا ينفعه الندم ويبقى على اسوء الحالات الى ان يدركه العدم واما ان وافق رايه راي اهله واختار ما الزموه بسلوك سبيله فانه تعود عليهِ منفعة ما تعلمه ويجني ثمرته ولا يضيع عليهِ ما قضاه فيهِ من عمره ولا يفصل فاصل بين العلم والعمل وبهذا يحسن حاله ويبلغ الامل واذا تقرر هذا على وجه العموم فلننتقل الى الكلام على وجه الخصوص فنقول لا شك ان اهلك حين ارسلوك الى الجامع الازهر لم يقصدوا لك الا الخير فان كنت راضيًا بالطريق الذي رسموه لك فلماذا عرضت عن

مقصودهم وزهدت في مرغوبهم فقال لها وكيف ذلك فقالت انت اخبرتني ان والدك المرحوم كان فقيها واماما بمسجد قريته فبالضرورة اراد حين ارسلك الى الجامع الازهر ان تكون مثله لتقوم مقامه فلا يخلو حالك الان من احد امور ثلاثة اما ان تكون دونه او مثله اوفقت عليه فان كنت دونه كان لك في الاقامة وجه الاّ انك اذا قارنت ما مضى من العمر بما بقي منه وجدت الباقي ليس وقت تحصيل وان كنت مثل الوالد او اعظم فلا وجه للاقامة حينئذٍ بل الواجب عليك ان تقفو اثره فيما كان عليه وتتبع راي والديك فتتخلص انت وعيالك من ضيق المعيشة واقامتك في الارياف على اي حالة احسن لان النفقة هناك اقل والمؤنة ايسر والهواء انقى واحسن والصحة اكمل ومع هذا ينتفع منك اهل البلد بتعليمك لهم أمر دينهم وتنتفع منهم انت بما تستعين به على امور المعيشة مما يقسمه الله ويجريه لك على ايديهم وتستفيد مع ذلك ثواب الله بتعليمهم ولا يخفى عليك مزيد ثواب التعليم وان الله سبحانه كما امر العباد ان يتعلموا امرهم ان يعلموا غيرهم (واذ اخذ الله ميثاق الذين اوتوا الكتاب ليبيننه للناس ولا يكتمونه) وقد قيل العلم كالشجرة فكما ان الشجرة زينتها ثمرها كذلك العلم زينته العمل به وتعليمه وهذا الذي ذكرته لك مبني على انك راضٍ بما قصده لك اهلك فان كان الامر بخلاف ذلك وانك قصدت مقصداً لم يقصدوه ورغبت في امر لم يريدوه فقد ضيعت العمر في

الطلب ولم تدرك ثمرة التعب مع ان من واجب العلم تعليمه للغير والاّ كان صاحبه كمن لم يعمل بعلمه وقد علمت الوعيد لمن هذه صفته نعوذ بالله من ذلك

فقال الشيخ انا بحمد الله لم اترك تعليم العلم من حين وجدت في نفسي القدرة على ذلك فاني مواظب على التدريس في الجامع الازهر لطلبة العلم مجتهد في تعليمهم على قدر الاستطاعة

قالت لا يخفى عليك ان احتياج اهل الريف للتعلم اكثر وليس فيهم مثلك يعلمهم واما طلبة العلم في الازهر فانهم يجدون كثيرًا من العلماء يعلمونهم ولعل فيهم بعض مشائخك الذين تعلمت منهم فاهل الريف احوج اليك واولى بك فاقامتك بينهم انسب وتعليمك لهم اصوب واعلم انهُ اذا كان في يدك مال تريد ان تتصدق به ووجدت رجلًا فقيرًا بين قوم اغنياء من اهل الخير يوالونه بنفقاتهم ويبرونه بصدقاتهم وعلمت برجل اخر مسكين بين قوم فقراء لا يجد من يتصدق عليه بما يمسك رمقه ويحفظ حياته من القوت الضروري فمن مقتضى الحكمة وحسن الراي ان تؤثر بصدقتك هذا المسكين الذي لا يجد من يتصدق عليه وترجحه على ذلك الفقير المقيم بين اظهر المحسنين اليه وهكذا ايضًا حال اهل الريف وطلبة العلم في الازهر من حيث الاحتياج الى التعلم وهب انك في مصر لا تفوتك هذه المزية من تعليم العلم الشريف فاين غيرها من باقي المزايا التي

ذكرناها للاقامة في الريف

فقال لها قد اطلت في المقام واكثرت عليّ الملام ولكن هناك اعذار واهوال واخطار لولا مناقشتك ما سمحت نفسي باظهارها لك فقالت له هاتِ ما عندك قال لو علمت حال اهل الارياف وما هم عليه من الظلم والاجحاف لما رغبت فيه ولا رضيت به فانهم لا يرحمون فقيرًا ولا يوقرون كبيرًا ولا يفهمون قيلا ولا يهتدون سبيلا فقهاؤهم دائمًا تحت رايهم وامرهم ونهيهم وان فهموا في انفسهم غير ذلك فلجهلهم وانْ وصل اليهم شيء من الدنيا فانما يكون بالالحاح واراقة ماء الحياء فهل يرضى بهذه الحالة والاقامة مع اهل الجهالة من كان ذا فضل وعفة فان اراقة ماء الوجه لا يرضى بها الاَّ جاهل وكيف اعلم ذم ذلك واقع فيه وكل ما اكتسبه منهم لا يقوم مقام بعض ما يضيع مني بالاقامة معهم لان العلم يزيد بالممارسة وينقص بعدمها فمع من تكون الممارسة هناك ولا يوجد بقرى الارياف الاَّ صاحب ارض فلا يتكلم الاَّ في حرثها وبذرها وحصدها او نجار فلا يتكلم الاَّ في انواع الاخشاب وما يصلح منها للسواقي والسقوف والابواب او صياد سمك فلا يتكلم الاَّ في شبكته وفي انواع السمك وبركته وهكذا دأبهم من اول السنة الى اخرها فلا يقيم معهم الاَّ من كان مثلهم فان اقام عندهم عالم ضاع علمه وتبدلت صفاته المحمودة باضدادها لان الطبع يسري كما قيل ·

طبع الفتى يُسرَق من طبع مَن * يصحبه فانظر لمن تصحب

فقالت له اما ما ذكرته من سوْ حال اهل الريف فهو حجة لي عليك لا لك عليَّ فان هذا ان كان كذلك فانما هو من شدة جهلهم فهم اذا احوج الى مثلك يقيم بينهم فيقوم بتعليمهم وتفهيمهم ما يجوز وما لا يجوز وتوقيفهم على ما ينفع وما يضر واما قولك ان من يكون عندهم يضيع علمه فحسبك في هذا قوله تعالى (واتقوا الله ويعلمكم الله) واما ما ذكرت من ان مَن يقيم معهم تسري اليه طباعهم ومساوي اخلاقهم وقد خفت ذلك على نفسك فهذا ليس بالنسبة لك ولامثالك الذين كملت نفوسهم ورسخت في المعرفة اقدامهم واستنارت بنور اليقين بصائرهم وانطبعت على الحق والهدى قلوبهم وانما يخاف من ذلك على الاحداث والاغرار الذين لم يبلغوا من الفضل تلك الدرجة ولا وصلوا من الكمال الى تلك الغاية اما الكاملون المكملون فلا يؤثر في حسن طباعهم سوْ طباع غيرهم بل يعلو حقهم على باطل سواهم ويسطو نور معرفتهم على ظلمات جهل غيرهم فان الريح العاصف اذا اقتلعت الشجرة والمدرة والصخرة فلا تقتلع الجبل الراسخ ولا تزحزحه عن مكانه وقد علمت ما علمت من حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وغيره من الانبياء والمرسلين صلوات الله وسلامه عليهم اجمعين كيف اقاموا بين قومهم من الكفار والمشركين الضالين المضلين يدعونهم الى الحق ويرشدونهم الى الهدى وياخذون بايديهم

الى سبيل النجاة ويرشدونهم الى مكارم الاخلاق وينفرونهم عن ذميم الاحوال وليس حال من احضك على تعليمهم واحثك على الاقامة بينهم كحال اولئك الذين كان يقاسي منهم الانبياء ما يقاسون وهم يدعونهم الى الله تعالى ويرشدونهم الى الخلاص من الهلاك فقال الشيخ اونحن كالانبياء والمرسلين قالت قال الله سبحانه (لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة) وقال جل شانه (قل ان كنتم تحبون الله فاتبعوني) وقال عز من قائل (قل هذه سبيلي ادعو الى الله على بصيرة انا ومن اتبعني) فكمال اتباعه صلى الله عليه وسلم بالدعاء الى الحق وارشاد الخلق كما كان دابه وديدنه طول حياتِهِ وقد اتبعه في ذلك من بعده جماعة الخلفاء الراشدين وغيرهم من الصحابة والتابعين فهدى الله كثيراً من الخلق على يدهم فهم على الحقيقة ورثة الانبياء صلوات الله وسلامه عليهم اولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده وعلى الجملة والتفصيل فقد ظهر من قولك وفعلك مخالفة رايك لراي اهلك فانك لو اقتصرت على ما كان حصل عليه الوالد من حفظ القرآن الشريف وبعض خطب ومعرفة ما تدعو اليه الضرورة ويكثر مسيس الحاجة اليه من فروع الفقه لتبعت رايهم فيما قصدوه ولكنك علمت اموراً جهلوها فكرهت ما احبوه وعدلت عما ارادوه واذا لم ترَ ما راوه فاي طريق رضيت لنفسك وما هو المقصود الذي ترومِ الوصول اليه فان كان مرادك من العلم امر الدنيا فما

انت لم تحصل منه على الغرض وان كان مرادك الدين والتقرب الى الله سبحانه فقد قلنا ان تعليمك المحتاجين اشد الاحتياج للامور الضرورية من دينهم اولى واقرب الى الله واكثر ثوابًا مما اراك تقضي فيه عمرك وتشغل به اوقاتك من البحث والجدال والقيل والقال والجواب والسوال والحل والاشكال واعترض واجيب وفيه نظر ويرد عليه وقد يقال ولا يقال ونحو ذلك مما انت عاكف عليه ومنهمك فيه ومقتصر على تعليمه لجماعة من الناس في موضع معين من الجامع الازهر لا تتجاوزه ولا تتخطاه الى غيره كانما جاء التنزيل والنص القاطع بان العلم لا يتجاوز ذلك الموضع من ذلك الجامع

قال الشيخ قد يوفق الله سبحانه من اعلمهم العلم في ذلك الموضع فيتعلمون وينتشرون في الارض يعلمون الناس ويقومون بهذا المهم

قالت فما الذي يؤمنك ان الذين يتعلمون علمك يكونون مثلك ويسلكون سبيلك في الاقتصار على طائفة في ذلك المكان المخصوص فيبقى العلم منحصرًا فيه والمطلوب انتشاره وتعميم النفع به وهب انهم لا يكونون على طريقتك فاذا سلمت ان الذي اشرت به عليك افضل مما انت فيه فلم لا تختار الأفضل لنفسك أتستبدلون الذي هو ادنى بالذي هو خير

قال لا نسلم ان ما اشرت به افضل

... لك عن شيء واناشدك الله ان تقول الحق ولا تحابي في الجواب قال سلي عما شئت قالت اذا فرض رجل من العامة وقع بسبب جهله في عقيدة مكفرة لا يتم معها ايمانه فنبهته عليها حتى صحت عقيدته وتم ايمانه ورجل اخر منهم كان لا يحسن وضوءه مثلا فصلاته بالضرورة فاسدة فعلمته كيف يتوضاء فصار يحسن الوضوء الموقوف عليه صحة الصلاة ورجل من طلبة العلم كان يجهل مسئلة من الصرف او النحو او البيان او المنطق مثلاً فعلمته اياها حتى اتقنها غاية الاتقان فثوابك في اي واحد منهم اكثر وتعليم ايهم عند الله افضل

قال الشيخ الحق احق ان يتبع اللهم اني ارى ان تعليم الاول افضل من الثاني ثم الثاني افضل من الثالث

قالت فاذا لم يبق بيننا نزاع في ان الافضل تعليم هؤلاء المساكين المحتاجين لمعرفة الاوليات المهمة من دينهم وانت ترى التاجر في السوق اذا خيّر بين سلعتين من امور تجارته اختار ما يعلم انه اكثرهما له ربحًا وفائدة اذا كان له ادنى عقل فان كنت انت من تجار الاخرة فلم لا تفعل مثل ذلك ولم تخالف المعقول فتترك الافضل وتقتصر على المفضول حتى انك ترى كثيراً من جيراننا ومن حولنا من اهل هذه المحلة جهلاء بكثير من الامور الضرورية لهم في دينهم فمنهم من لا يحسن الصلاة ولا الوضوء ولا يفرق بين طهارة ونجاسة ومنهم من يعتقد بعض عقائد فاسدة مضرة ومنهم

من يقول كلامًا يكفر به وهو لا يشعر ولا نجد من يعلمهم او ينبههم وتراهم على هذه الاحوال ولا تبالي بامرهم ولا تهتم بشانهم وهم جيرانك واخوانك وانت تعلم انه لو قصد احدهم الازهر على الفرض والتقدير ووقف على دروس العلماء فيه فانه لا يعقل ما يقولون ولا ينتفع بما يقررون فانهم يتكلمون بما لا يفهمه من الالفاظ الاصطلاحية بل انت تعلم ان الواحد منهم لا يدري بفساد عقيدته او عبادته حتى يسعى في تصحيحها فلو قصدت وجه الله سبحانه بعلمك وعملت بمقتضى محبة الله ورسوله وملته وامته لكنت تشفق عليهم وتنصح لهم وتواظب في وقت من اوقات الليل والنهار على مسجد محلتنا القريب من دويرتنا هذه فتقعد فيه بين المغرب والعشاء مثلا وتعقد لمن تراه هناك منهم درسا تعلمهم به كيف يتوضأون ويصلون ويصومون وكيف يعبدون الله تعالى عبادة صحيحة وكيف يكون البيع صحيحًا وكيف يكون فاسدًا ونحو ذلك من الامور الضرورية لهم في دينهم ودنياهم فمنهم من تنصلح على يدك عقيدته ومنهم من تصح بتعليمك عبادته ومعاملته وفي ذلك من الاجر والثواب والمنزلة عند الله سبحانه ما لا يقدر اللسان على وصفه وانت اعلم مني بقدره مع انه لا يقطعك عما انت بصدده فلم تعرض عنه وقد علمت ان الدين النصيحة لله ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم فاعراضك عنه لا يظهر له وجه الاّ اذا قلت معتمدة على حسن عفوك مغترة بفرط حلمك راجية عدم المواخذة

من جهتك ان قصدك بالعلم مجرد التباهي به والتظاهر بالتبجر فيه والقدرة على التعمق في مسائله الدقيقة والخوض في بحاره العميقة فتقول لك نفسك ان تعليم هؤلاء العوام لا يحتاج الى كثرة علم وجودة فهم فلا يظهر به فضل الانسان وسعة علمه وحدة ذهنه فما لك به وليس لك فيه فائدة وامثال ذلك مع ان فيه اعظم فائدة من ثواب الله ورضاه ورحمته والتقرب من حضرته فلا هذه المنزلة وصلتها ولا مقاصدك من امور الدنيا حصلتها ولو اخلصت لله سبحانهُ النية والعمل لأتتك الدنيا من حيث لا تحتسبها وانقادت اليك عفوا على ان الاشتغال بامور الدين وابتغاء مرضاة الله لا ينافي الاشتغال بامور الدنيا من وجوه الحلال فاعمل لاخرتك ودنياك معًا وابتغ فيما اتاك الله الدار الاخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك وقد تربيت في كفالة اهلك في صغرك فعليك ان تعول ذريتك وعيالك في كبرك وتسعى لهم بما يصلح حالهم وينعم بالهم من المعايش الطيبة بالكسب والسعي في طلب الرزق الحلال وابتغاء فضل الله سبحانه وقد قال جل جلاله (فانتشروا في الارض وابتغوا من فضل الله) وقال (واخرون يضربون في الارض يبتغون من فضل الله) وقرأت في كتاب مرشد المؤمنين لمحمد بن عبد الكريم الحلبي بخطه نقلاً من مسند الفردوس عن ابن عمر رضي الله عنهما قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ان من الذنوب ذنوبًا

لا يكفرها الصلاة ولا الزكاة ولا الحج ولا العمرة ولا الجهاد يكفرها الهم في طلب المعاش ومما نقله منه عن ابي سعيد الخدري رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم افضل الاعمال الكسب من الحلال ومنه عن انس رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس خيركم من ترك دنياه لاخرته ولا اخرته لدنياه حتى يصيب منهما جميعًا فان احداهما بلغة الاخرى ومنه عن انس ايضًا من لم يهتم في امر معيشته لم يهتم بامر دينه والنفس لا تكون متفرغة للطاعة حتى يكون بكفها الكسرة التي تقوم بها فاذا استكملت امور قوتها صدقت عند ذلك وسكنت وتفرغت للعبادة فاغدوا وروحوا واطلبوا من فضل الله وامثال ذلك في الحديث الشريف كثير . وروي ان عيسى عليه السلام رأى رجلاً فقال ما تصنع قال اتعبد قال من يعولك قال اخي قال اخوك اعبد منك وقال لقمان لابنه يا بني استغن بالكسب الحلال عن الفقر فانه ما افتقر احد قط الاّ اصابه ثلاث خصال رقة في دينه وضعف في عقله وذهاب مروءته واعظم هذه الثلاث استخفاف الناس به وقال عمر رضى الله عنه لا يقعد احدكم عن طلب الرزق ويقول اللهم ارزقني فقد علمتم ان السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة وكان زيد ابن مسلمة يغرس في ارضه فقال له عمر رضى الله عنه اصبت استغن عن الناس يكون أصون لدينك واكرم لك عليهم وكان اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون في البر والبحر ويغرسون

ويعملون في نخيلهم وهم أئمة الهدى وبافعالهم يقتدى فما هذا التقاعد والتقاعس عن الكسب والسعي في طلب الرزق وما لك لا توسع على عيالك ومالي اراك تصرف جميع اوقاتك في المطالعة والبطالة وهلاَّ قسمت وقتك قسمين قسم تصرفه في العلم والعبادة والقسم الاخر في طلب الرزق واذا كنت لا تطيب نفسك بالاقامة في الريف معما ذكرت لك فلا باس عليك اذا تشبثت هنا بالسعي على العيال والكسب من الحلال مع الاشتغال بتعليم الطلبة وبعض العوام من الجهال

فقال وأي سعي تريدينهُ وما الذي ترينه

فقالت العاقل من اقتدى باهل حرفته وامثاله وخرقته وقد علمت ان كثيرًا من امثالك لهم مرتبات ووظائف واقطاعات ولا أرى احدا منهم الاَّ وهو ساعٍ في طلب الرزق ان كان فقيرًا وفي زيادته ان كان غنيًا فلو تصديت لهذا الامر وسعيت فيه فما اظن ان سعيك يضيع عليك فقد قيل من جد وجد ومن لج ولج فاقصد من تتوسم فيهم الخير من أرباب الكلمة وتودد اليهم وتعرف بهم فان عرفوا كنه قدرك ووقفوا على حقيقة امرك اعترفوا بفضلك وعظموك ووقروك ولا ارى في ذلك من محرم ولا مكروه بل ربما كان واجبًا فانا مامورون بالسعي والناس جميعًا غنيهم وفقيرهم محتاجون لبعضهم وربما كان احتياج الغني الى الفقير اكثر من احتياج الفقير اليه لان الغني يغلب

عليه حب العظمة والترفع والترفه فلا يشتغل الاَّ بالامور المهمة الكلية ويكل أموره الجزئية لحمارتها الى غيره فيحتاج للفقير ليقوم لهُ بها ثم ان كان ذلك الغني صاحب مروَّة ومعروف انقطع الفقير اليه ولازمه وان كان بخلاف ذلك تركه ولاذ بغيره وهكذا حال الفقراء والاغنياء مع بعضهم

فقال لها هذا الكلام في ذاته لا شك فيه ولا ريب يعتريه ولكنني قد امتحنت جميع الوظائف واصحابها واختبرت حالهم مع روسائها ونظارها فلم اجد وظيفة عارية عن الذل والاهانة ولو قام صاحبها فيها بالصدق والأمانة ولا يقيم فيها الاَّ من عدل عن الحق واتبع أهوآء الخلق فان كل صاحب وظيفة لا يخلو عن أحد أمرين أما ان يتبع هوى الخلق واما ان يتبع أمر الخالق فان اتبع الخلق فقد استوجب غضب الله عليه وان اتبع الخالق فقد تسبب في امتداد السنة الناس اليه فيكرهونه ويذمونه ويشنعون عليه ويتقولون عليه ما لم يقل وينسبون اليه فعل ما لم يفعل ولا يزالون بهِ حتى يعزل ولا يخفى ان الم العزل أضعاف لذة المناصب . قال الشاعر .

سكر الولاية طيب * وخمارها صعب شديد
كم تائهٍ بولاية * وبعزله يغدو البريد

فبأي الحالتين ترضين واي الامرين تريدين وهل بعد هذا العمر وظهور الشيب يليق بي ان اذل نفسي واسعى فيما يوجب

لها غضب الله او اطلاق ألسنـة الناس عليَّ فتضيع دنياي واخرتي واظن ان الحال الذي نحن فيه أحسن الاحوال لسلامتنا فيه من ألسنة الناس بالعزلة عنهم كما قيل

فان تجتنبها كنت سلمًا لاهلها
وان تجتذبهـا نازعتك كلابها

فانا وان كنا في ضيق من العيش فمثلنا كثير وربما كنا احسن من غيرنا وانا اعدّ نفسي من السعداء حيث زوجني الله بك فكنتِ موافقة لي في العلم والعمل ففي الخبر من سعادة المرء الزوجة الصالحة فهذه الحالة عندي أفضل من الرتب الموقعة في العنا والتعب واذا نظرنا الى غاية الأمر رأيناها في الحالتين واحدة فكما يموت الفقير يموت الغني ولو تأملنا حال كل منهما في الدنيا لرضينا بالفقر فان الغني في الدنيا دائمًا في معاناة رسوم كثيرة غير مربوطة وملاحظة عوائد غير مضبوطة وحركاته وسكناته مشهورة واقواله وافعاله ماثورة مذكورة يلتقطها الناس ويحرفونها عن مواضعها ويحملونها على غير ما اريد بها ويستنتجون منها شرًا وربما كان قد اراد بها خيرًا فتنطلق السنة العوام بسبّه وذمه وعيبه وتصير سيرته في الازقة شائعة وفي البلاد منتشرة ذائعة فلا يهنأ بمنام ولا يتم لهُ نظام ولا يدخل منزله الا وفكره مشغول قد آلمه السقم والمّ بهِ النحول فيبيت سمير الارق نديم الوهم والقلق فاين هو مما نحن فيه الآن ومن ذا

ألذي يرضى استبدال الم وعناء بلذة راحته وهناه

فقالت لهُ ان الذي قدرته بوهمك وتخيلته بفهمك مسلم من جهة واحدة تعارضها جهات متعددة منها ان الدنيا كما علمت دار تعب فكيف ترجو الراحة فيها ومنها ان الغنى نعمة من نعم الله يخص بهِ من يشآء من عباده فكيف يكون سبباً لذم صاحبه وصرف النظر عنه وذلك يؤدي الى البطالة المؤدية الى الفقر الموجب للذلة والمسكنة طول العمر واما قولك انا في سلامة من السنة الناس بالعزلة فنحن ان سلمنا السلامة بهذه الحالة من السنة الناس فلا سلامة فيها من أسنّة الفقر والافلاس واين السلامة وانت تنظر كل وقت الى حالنا وضيق عيش عيالنا فكيف يطمئن قلبك بالعزلة واولادك يشكون الم الجوع والقلة افلا يكون ذلك مشوشاً لفكرك مهيجاً لخاطرك فانك ان كنت منقطعاً عن الخلق في منزلك فاموالهم واحوالهم في قلبك فليست العزلة مجرّد حبس الاجسام كما ان الصوم ليس مجرد الامتناع من الشراب والطعام والاَّ لكانت متحققة في اهل السجن والجرائم العظام وسأذكر ها هنا مقدمة أمهد بها للكلام ثم اخوض معك في حديث المرام فاقول ان كل انسان لا يرى الاشياء الاَّ على حسب ما تظهر لهُ فان وقف على حقيقة امرها واطلع على ما كمن من سرها ظهرت لهُ من جميع جهاتها فحكم عليها بما تستحقه في ذاتها وبالنظر لعامة حالاتها والا ظهرت لهُ

المسئلة من جهة واحدة فيحكم فيها بما تقتضيه تلك الجهة دون سائر جهاتها وقد قالوا ليس العلم الاّ ما كشف الغطاء عن الأسرار الربانية واطلع صاحبه على الحكم الالهية ولذا قال أسد الله الغالب علي بن ابي طالب كرم الله وجهه لو كشف الغطاء ما ازددت يقيناً حتى انهم شبهوا صاحب العلم برئيس الجيش هذا يفتح القلاع بخيله ورجله وذاك يملك القلوب برأيه وقوله ورئيس الجيش وان كان يكشف عن مكنون القلاع فالعالم يكشف عن حقائق الطباع ويغوص بحار اسرار المخلوقات ويستخرج ما استتر من عجائب المصنوعات فكما يستولي رئيس الجيش على الممالك بقوته فكذلك العالم يجذب القلوب بنور بصيرته فالخلق مفتقرة الى العلم في سائر البلاد كافتقار الظمآن الى الماء والمسافر الى الزاد لانه لا دوام للملك الا بحسن التدبير ولا تدبير الا بالعلم فالقوة الحيوانيه محتاجة للقوة الروحانية والاولى مامورة وتابعة والثانية آمرة ومتبعة فامور الدنيا لا تنتظم الاّ بالعلم والعالم بالنسبة للعلم كاللسان بالنسبة لصاحبه فكما ان اللسان يترجم عما في القلب اذ لولاه ما علم احد ما في ضمير الاخر فكذلك العالم يفصح عن حقائق المعلومات وغرائبها ولا يحملها على غير ما اريد بها واظن ان غالب اختلاف الخلق من اختلاف نظرهم فمنهم من ينظر الى الشيء في اعم احواله فيحكم عليه بما يستحقه ومنهم من ينظر اليه من جهة فيحكم على كل جهاته بما

حكم بهِ على تلك الجهة ومن ذلك الوجه كان ذمك للغنى فانك لم تنظر الا لما توهمته فيه من التعب والمشقة اما لكونك لم تنله فلم تعلمه حق علمه واما لكونك لما حرمته كرهته فذممته وان كنت قد علمته ولو انك عملت بمقتضى علمك وما اعلمه من سعة فهمك لنظرت ايضاً لما فيه من الفوائد الجمة والمزايا المهمة كالتوسعة على العيال والاقارب ومواساة الجار والصديق والصاحب واغاثة الملهوف واعانة المحتاج وتنفيس كربة المكروب وايواء الغرباء وكفالة الايتام واطعام الطعام والاعانة على نوائب الايام وغير ذلك مما ينفع الانام ويوجب خلود الذكر ومزيد الاجر على الدوام وانت ترى ما لكثير من الاغنياء الموفقين من الخيرات والصدقات والمبرات والمكاتب والرواتب والمصاطب والمدارس والمساجد والتكايا والمعابد ونحو ذلك مما يطول استقراؤه ولا يمكن استقصاؤه فلو نظرت الى الغنى من هذه الجهات لحكمت بتفضيله وسعيت في تحصيله ولكنك نظرت اليه من جهة واحدة فعبته من اجلها وتحاميته بسببها ومن كان هذا حاله فمثله مثل من يعلم ان النار من ضروريات المعيشة على الاطلاق ويمتنع من ادخالها بيته خوفاً من الاحراق فلو تحفظ مما يوجب سريان شررها لاستعملها وامن من شرها فكذلك الغنى فانه وان كان قد يؤدي الى بعض مضرات لكن نفعه اكثر من ضرره ولا ينكر ذلك الا متجاهل او جاهل وحاشاك وليس الغنى للعلماء

بدعا ولا تحصيلهم لهُ ممتنعاً فان العلم بانواعه يستعان بهِ على مصالح الدين والدنيا وان الملك لا يستغني عن العلم واهله وانما يلزم العالم اذا كان في وظيفة ان يكون مع الخلق كالطبيب الماهر مع المريض فكما ان الطبيب يعاين احوال المريض ويامر لهُ بالدواء على حسب ما يراه حتى يحصل الشفاء لهُ فيثني عليه ويشكر فضله كذلك العالم الموظف يكون بين الناس ناظراً الى ما تقتضيه طباعهم وامزجتهم وما يناسبها من الاحوال والاقوال فيعامل كلاً منهم على قدر عقله وعلى حسب حاله وما يليق بهِ من غير عدول عن الطريق القويم والصراط المستقيم فقد قيل

احمل الناس على اخلاقهم * فبهِ تملك اعناق البشر

فتميل عند ذلك قلوبهم اليه ويغدقون بالاحسان عليه ويقتدون بفعله وقوله ويخرج من مذمة من خالف علمه بعمله وهناك يغفر الله وزره ويضاعف أجره لان العامل بعلمه ينفع نفسه وينفع غيره وهو بين الناس كالغيث فكما ان الغيث ينتفع بهِ الحيوان والنبات كذلك العالم العامل تتغذى بهِ ارواح الخلق ويتعلمون منه ما ينجيهم من غضب الحق ومن كانت هذه حالته فالاحسان اليه مبذول ودعاؤه عند ربه مقبول

فقال الشيخ لا بأس بما تقولين ولا شك في كثرة فوائد الغنى للعاقل البصير الموفق ولكن لو تيسر لي سلوك سبيله ما

قصرت في تحصيله ولو لم يكن من فوائده الاَّ رضاك وابتهاجك وحصول اغراضك لكان هذا لي كافياً في الرغبة فيه والاقبال عليه ولكن كيف السبيل اليه · واين الثريا من يد المتناول ·

قالت السبيل الى ذلك ان تعمل بعلمك وتنفع الناس بفضلك وفهمك

قال الشيخ سبحان الله واي عمل خالفت فيه مقتضى العلم من أعمالي وانت أعلم بجميع اقوالي وافعالي واما التعليم فليس لى اشتغال الا بهِ ولا تعلق الاَّ بسببه وتعليمك انت اقوى دليل والله على ما تقول وكيل

قالت ما لهذا قصدت

قال وما الذي اردت

قالت من اخطأ الطريق ضل ومن عدل عن الصواب زل

اذا ما اتيت الامر من غير بابه
ضللت وان تدخل من الباب تهتدي

ومن عرف مقاصد العلم وصل الى مطلوبه وحصل على مرغوبه ومن لم يدر ما يراد من العلم وقع في عناء مستمر ولا يزال كذلك حتى ينقضي العمر فيلزم مريد اي علم ان يعرف قبل تعبه ثمرة علمه وطلبه والا كان كراكب البحر من غير دليل فان لم يغرق لا يصل الا بعد زمن طويل وقد علمت ان جميع المخلوقات تنقسم الى جوهر وعرض يقوم بهِ ويدخل في العرض

الالوان والاحوال والافعال ويدخل في الجوهر الحيوان والنبات والمعدن وتحت كل منها أنواع وتحت كل نوع افراد كثيرة بالغة في الكثرة الى حد يغلب العد ولها في وجودها وبقائها وفنائها قوانين عمومية وخصوصية وروابط كلية وجزئية اجراها عليها الخالق الحكيم القادر جلّ شانه ولكل منها في ذاته واحواله اللاحقة لهُ والمتعاقبة عليه لفظ يعبر بهِ عنه وخاصية تقوم بهِ وحكم يحكم بهِ عليه ولا يحيط بهذه الاشياء بجميع افرادها واحوالها كما هي عليه في نفس الامر الا العليم الخبير الذي خلقها وصوّرها ودبرها وقدرها وأودع فيها ما أودع من اسرار حكمته وغرائب صنعته وعجائب قدرته فعلمه هو العلم الحقيقي على الاطلاق لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الارض ولا أصغر من ذلك ولا اكبر وهذا الحد لا يمكن للعقول البشرية ان تناله ولا تقرب منه بل تتلاشى وتضمحل دونه واما علمنا بها فهو قسمان القسم الاول علم حقيقي بالنسبة للانسان وهو معرفة ما يتأتى للعقول البشرية ادراكه ومعرفته من افرادها واحوالها الاصلية والطارئة عليها بالصناعة والتركيب والتحليل وطريق تحصيلها وكيفية استعمالها والانتفاع بها وخواصها واحكامها وحلالها وحرامها ويدخل تحت هذا القسم علوم التاريخ والرياضيات والكيميا والطبيعة والطب والشريعة وفروعها · القسم الثاني علم ملحق بالحقيقي ووسيلة لهُ ويسمى علم الالات وهو علم اللسان

فيدخل فيه الصرف والنحو والبيان والعروض واللغات بأسرها فمن اقتصر على العلم الملحق بالحقيقي لم يكن عالمًا حقيقيًا بل يكون كمن اكتفى باسم الخبز عن ذات الخبز ومن علم العلم الحقيقي كان لهُ ان يجني الثمرة وينال البغية وانت بحمد الله قد اخذت من كلا العلمين بنصيب وافر وبلغت الى درجة شريفة فمن ذلك انك فقيه عارف بالمذاهب الاربعة مستحضر لاصولها وفروعها وهذا علمك وفنك الذي كنت اكثر اشتغالاً بهِ فلا اقول لك اترك الفقه وانقطع الى الطب أو الهندسة او الفلاحة مثلاً بل اقول يلزم ان تكون موظفًا بوظيفة تعمل فيها بعلمك وتنتفع فيها بجودة فهمك وشدة حزمك فهذا الذي اشرت اليه وعولت عليه فتوكل على الله واجتهد في تحصيل وظيفة من الوظائف من غيران تلتفت الى مربوطها ومرتباتها فقد قالوا

وكاذب الفجر يبدو قبل صادقه

وأوّل الغيث قطر ثم ينهمل

فان اجتهدت في ذلك وسعيت ولم تصل فاعلم ان الذى تعلمته غير ما كان يلزم ان تتعلمه او ان هذا البلد غير البلد الذي ينبغي لك ان تقيم فيه فاما ان تغير الفن او تغير البلد وغير ذلك لا اقول وفيما جرى بيننا من المناقشة كفاية قال الشاعر

على المرءِ أن يسعى الى الخير جهدهُ
وليس عليهِ ان تتم المطالبُ

وقال اخر

لا تيأَسنَّ اذا ما كنت ذا ادب
على خمولك ان ترقى الى الفلكِ
فبينما الذهب الابريز مختلط
بالترب اذ صار اكليلاً على الملِكِ

فقال لها دعيني انفكر في اي الامرين اولى وهل ينشرح خاطري لموافقتك ام لا



المسامرة السادسة
السائح الانكليزي

وقام من عندها وتوجه الى الجامع كعادته وهو متفكر فيما جرى بينه وبين زوجته وكان قلبه يميل لمرغوبها لادخال السرور عليها وعلى اولاده لكن لا يدري كيف يصنع وكان يقارن في نفسه احوال احد الامرين باحوال الاخر ويقدر ما في كليهما من منفعة ترجى او مضرة تحذر ثم ترجح عنده الرحيل عن البلد وكتم هذا الامر ولم يفشه لاحد واخذ في أسباب معرفة احوال

البلاد والاقطار تارةً بالسوال من اهلها وتارةً بمطالعة كتب السّياحات والاخبار واقام ينتظر الفرصة فلم تمض الا ايام قليلة حتى اتفق ان رجلاً من مشاهير الانجليز المشتغلين في بلادهم بتعلّم اللسان العربي وقراءة علومه حضر الى مصر القاهرة ولقي حضرة الاستاذ شيخ الجامع الازهر واطلعه على بعض رسائل معه من الامراء والكبراء تتضمن التنويه بهِ وطلب رعايته وانهى اليه انه من عشاق اللغة العربية وطلابها والمتعلقين باهدابها وان عنده نسخة من كتاب لسان العرب في اللغة للعلامة محمد بن المكرم ابن ابي الحسن الخزرجي الانصاري رحمة الله وانه لما رآه في هذا الكتاب من كثرة فوائده وغزارة مادته وعظم نفعه وجمعه من متفرقات اللغة ما لم يجتمع في غيره من كتبها المتداولة يريد طبعه للتجارة فيه وتسهيل تناوله لطالبيه فان تحصيله بخط القلم لا يتيسر الاّ للاغنياء واهل الثروة بسبب كبره وضخامته مع قلة نسخه وندرة وجوده وانه حضر الى مصر بقصد تصحيح النسخة التي معه من هذا الكتاب لاجل الطبع منها والتمس من حضرة الشيخ ان يدله على استاذ من افاضل العلماء المتبحرين في تصحيح الكتب ويقرأ عليه بعض العلوم العربية ويجعل لهُ في نظير ذلك راتبًا كافيًا يرضيه ويعوض تعبه فان اقتضى الحال في أثناء ذلك سفره من مصر الى بلاد الانكليز او غيرها استصحبه معه بشرط ان يضاعف لهُ مرتبه ويتكفل مع ذلك بمؤنته ونفقته

ولوازم سفره حتى يرجع الى مصر فذكر لهُ الشيخ جماعة من افاضل العلماء المتفننين المعروفين بجدة الذهن وجودة الفهم والتمكن في الدين والعلم ودله عليهم وقال لهُ اجتمع بهم وتكلم معهم واسترضهم بما امكن فمن رضي منهم ففيه الكفاية وزيادة فاجتمع الانجليزي ببعضهم وتكلّم الشيخ ايضاً مع بعضهم فما سمع ذلك احد منهم الاّ امتنع واعتذر خصوصاً حين يسمع بالسفر فمنهم من اعتذر بكبر سنه وضعف بدنه ومنهم من قال انه لا يطيق مفـارقة اهله ووطنه ومنهم من رأى ذلك لا يجوز في الدين بظنه وكان الشيخ علم الدين في جملة من ذكرهم الاستاذ شيخ الجامع الازهر للرجل الانكليزي فسال عنه واجتمع بهِ في مجالس متعددة فراى منه ما اعجبه وجذب قلبه من سعة اطلاعه وحضور ذهنه وجودة قريحته وحسن اخلاقه وكرم طبعه فشغف بمحبته ورغب كل الرغبة في صحبته وكلمه ذات يوم في ذلك ورغبه في موافقته على قصده وكان علم الدين في اجتماعاته مع الرجل قد رآه مهذب الاخلاق حسن الصحبة سخيّ الطبع يتودد للمسلمين ويظهر ميله اليهم وتمنيه الخيرلهم ومحبة العرب ولسانهم وعلومهم فانس بهِ ولم ينفر من صحبته فلما كلمه في ذلك قال اني اجد نفسي لا تأبى ما ذكرته ولكن امهلني الى الغد حتى اتفكر في نفسي فان الراي اذا لم يبيّت ويتثبّت فيه كان كالجنين المولود لغير وقت ولادته واريد ان استشير اهلي وبعض اصدقائي فاننا

مأمورون في ديننا بالاستشارة في امورنا

فقال لهُ الانكليزي لك ذلك وسترى مني ان رغبت في صحبتي كل ما يسرك ويرضيك ويعجبك وموعدنا الغد في هذا المكان وفي مثل هذا الآن ثم قام وتركه فجلس الشيخ علم الدين يفكر في نفسه ويضرب اخماساً لأسداس ويشاور من يثق برأيه ومحبته لهُ من الناس فترجح عنده موافقة الرجل على طلبته ووافقه على ذلك من استشاره من احبّته وفي خلال ذلك أحس برغبته بعض طلبته وكانوا يحبون ان لا يفارقهم لكثرة افادته لهم وترددهم عليه ورجوعهم في حل ما اشكل عليهم من المسائل اليه فارادوا ان يحولوا رأيه ويصرفوا عن هذا الامر نظره واجمعوا رايهم على ان يبذل كل منهم غاية جهده في منعه وصده عما هو بصدده فاجتمعوا اليه وجلسوا حواليه وقالوا أدام الله ايها الاستاذ تمكينك وحرس دنياك ودينك قد سمعنا من بعض الناس ان هذا الرجل الانكليزي قد استمالك الى موافقته على مراده ومرافقته الى بلاده وغير بلاده فاعظمنا ذلك واكبرناه ورددناه وانكرناه وقلنا حاشا لله ان يخطر لسيدنا الشيخ ببال او يتصور لهُ في خيال ان يرضى بخدمة رجل على غير دينه يعلمه علوم الشريعة طمعاً في المال او في حال من الاحوال لما نعلمه من زهدك وورعك، واستقامة رأيك وسلامة طبعك وقد علمت قول الله سبحانه في التنزيل (يا ايها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم

اولياء تلقون اليهم بالمودة) الى قوله (ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) ثم لا يخفى عليك ما في مفارقة الاهل والاوطان وما جاء من ان حب الوطن من الايمان ولا ينكر ما في ركوب البحر من الخوف والخطر وما جاء من ان السفر قطعة من العذاب او العذاب قطعة من السفر ويقال الغربة كربة والنقلة مثلة لا سيما لذي قلة

ان الغريب الطويل الذيل ممتهن

فكيف حال غريب ماله مال

وقالوا عسرك في بلدتك خير من يسرك في غربتك

لقرب الدار في الاقتار خير * من العيش الموسع في اغتراب

فقال الشيخ علم الدين اما الخدمة فليس مراد هذا الرجل ان اخدمه وانما هو تصحيح كتاب يعم المسلمين نفعه اذا كان يتم طبعه فان كثيراً من الناس انا من جملتهم يتمنون ان يحصلوه ولا يتيسر لهم ان ينالوه بسبب كبره واحتياج استكتابه الى مدة كثيرة ونفقة غير يسيرة فاذا طبع كثر تداوله وتيسر تناوله فانا انما اخدم العلم والعلماء بذلك والاعمال بالنيات والله سبحانه مطلع على السرائر واذا علمت الرجل شيئاً من العلم فليس المعلم كالخادم فان من شأن المعلمين التكريم والتوقير ومن شان الخادمين الاهانة والتحقير وليسوا سواء وربما كان في تعليم العلم لمن لم يكن على ديننا فائدة فقد يقف على حقائق ديننا فيحبه ويميل اليه ويرجحه

على غيره فيسلم . فان لم يسلم وبقي على دينه كان في بلاده وابناء وطنه كالوكيل عنا يدافع عن ديننا برد الاقاويل التي يلقيها بعض علمائهم في حقنا وانا قد احسست في هذا الرجل رغبة النظر في الادلة والاصغاء الى الحجة والطلب للعلم فلا ارى في تعليم مثله بأسا وقد قال الله سبحانه في سورة التوبة (وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله ثم ابلغه مأمنه ذلك بانهم قوم لا يعلمون) وقد نزلت في المشركين الذين نقضوا العهد فنبذ رسول الله صلى الله عليه وسلم اليهم عهدهم وامر بقتالهم فقد روي ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لما خرج الى غزوة تبوك وتخلّف المنافقون وارجفوا بالاراجيف جعل المشركون ينقضون العهد فنبذ اليهم عهدهم وهذا الرجل الذي نتكلم فيه من جملة المعاهدين لنا الذين لم نعهد نقضهم لعهدنا فليس بمثابة اولئك المحاربين من المشركين ومع ذلك فقد جاز بمقتضى هذه الاية الشريفة اسماعهم كلام الله عز وجل وهو منبع العلم والدين قال الامام فخر الدين الرازي على هذه الاية في تفسيره الكبير نقل عن ابن عباس رضي الله عنه ان رجلاً من المشركين قال لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه وكرم وجهه اذا اردنا ان نأتي الرسول بعد انقضاء هذا الاجل لاسماع كلام الله او لحاجة اخرى فهل نقتل فقال علي لا ان الله تعالى قال (وان احد من المشركين استجارك فاجره حتى يسمع كلام الله) قال

والمقصود من هذا الكلام بيان ان الكافر اذا جاء طالبًا للحجة والدليل او جاء طالبًا لاستماع القرآن فانه يجب امهاله ويحرم قتله ويجب ايصاله الى مأمنهِ ودل هذا على ان النظر في دين الله اعلى المقامات واعلى الدرجات فان الكافر المحارب الذي صار دمه مهدرًا لما اظهر من نفسه كونه طالبًا للنظر والاستدلال زال ذلك الاهدار ووجب على الرسول ان يبلغه مأمنهُ ثم قال المذكور في هذه الاية كونه طالبًا لسماع القرآن فنقول ويلحق به كونه طالبًا لسماع الدلائل وكونه طالبًا للجواب عن الشبهات والدليل عليهِ ان الله تعالى علل وجوب تلك الاجارة بكونه غير عالم لانه قال (ذلك بانهم قوم لا يعلمون) وكان المعنى فأجره لكونه طالبًا للعلم مسترشدًا للحق وكل من حصلت فيه هذه العلة وجبت اجارته (انتهى) وهذا كاف في جواب ما عرضتم به من الاعتراض على تعليمه واما الطمع في المال فالله سبحانه العليم بحقايق الاحوال المطلع على نيات القلوب وخفيات الغيوب على ان الحالة محرجة والعيشة محوجة وما ابرئ نفسي ان النفس لامارة بالسوء الاَّ ما رحم ربي ان ربي غفور رحيم واما قوله تعالى يا ايها الذين امنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم اولياء الى اخر الاية فقد نزلت في حاطب ابن ابي بلتعة لما كتب الى اهل مكة ان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجهز للفتح فخذوا حذركم ثم ارسل ذلك الكتاب مع امراة مولاةٍ لبني هاشم يقال لها سارة كانت قد جاءت

الى النبي صلى الله عليه وسلم فقال لها عليه السلام امسلمة جئت قالت لا قال امهاجرة قالت لا قال فما جاء بك قالت قد ذهب الموالي يوم بدر اي قتلوا في ذلك اليوم فاحتجت حاجة شديدة فحث عليها بني المطلب فكسوها وحملوها وزودوها فاتاها حاطب واعطاها عشرة دنانير وكساها برداء واستحملها ذلك الكتاب الى مكة فخرجت سائرة فاطلع الله الرسول عليه السلام على ذلك فبعث عليّا وعمر وعمارا وطلحة والزبير خلفها وهم فرسان فادركوها وسالوا عن ذلك فانكرت وحلفت فقال علي رضي الله عنه والله ما كذبنا ولا كذب رسول الله وسل سيفه فاخرجت الكتاب من عقاص شعرها فجاؤا بهِ الى رسول الله صلى الله عليهِ وسلم فعرضهُ على حاطب فاعترف وقال ان لي بمكة اهلاً ومالاً فاردت ان اتقرب منهم وقد علمت ان الله تعالى ينزل بأسه عليهم فصدقه وقبل عذره فقال عمر دعني يا رسول الله اضرب عنق هذا المنافق فقال صلى الله عليه وسلم ما يدريك يا عمر لعل الله تعالى قد اطلع على اهل بدر فقال لهم اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ففاضت عينا عمر وقال الله ورسوله اعلم فنزلت ويؤخذ من هذا دليل لما نحن فيه وهو ان سارة هذه لما جاءت الى النبي صلى الله عليه وسلم ولم تكن مسلمة ولا مهاجرة امر باكرامها وحث عليها من كسوها وحملوها وزودوها ويعلم من سياق الحكاية ان المنهي عنهم في الاية المحاربون للمسلمين لا كل من خالف دينهم كما يدل عليه

ما بعد هذه الاية من قوله تعالى (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم ان تبروهم وتقسطوا اليهم ان الله يحب المقسطين انما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين واخرجوكم من دياركم وظاهروا على اخراجكم ان تولوهم ومن يتولهم فاولئك هم الظالمون) وهذا الرجل وقومه لم يقاتلونا في الدين ولا اخرجونا من ديارنا ولا ظاهروا على اخراجنا بل حالفونا وعاهدونا ونصرونا على اعدائنا كما هو معلوم مشهور وسبب نزول قوله تعالى لا ينهاكم الله . الخ . كما روي عن عبد الله ابن الزبير ان اسماء بنت ابي بكر قدمت امها قتيلة عليها وهي مشركة فلم تقبلها ولم تاذن لها بالدخول فامرها النبي ان تدخلها وتقبل منها وتكرمها وتحسن اليها وفي تفسير الرازي قال اهل التأويل هذه الاية تدل على جواز البرّ بين المسلمين والمشركين وان كانت الموالاة منقطعة (انتهى) وقد سئل الحافظ جلال الدين السيوطي في جملة اسئلة وردت عليه من بلاد التكرور هل يجوز صحبة الكفار وتقبل هديتهم فاجاب بجواز ذلك وقد استوصف رسول الله صلى الله عليه وسلم الحارث ابن كلدة طبيب العرب دواء فوصفه له وكان الحارث كافرًا ومات على كفره كما نقل عن الاستيعاب لابن عبد البر واذا تقرر هذا قلت انكم لا وجه لكم في توجيه الملامة اليّ على الاجتماع بهذا الرجل وتعليمه بل اقول فضلاً عن ذلك لا باس بتعلم لسان هولاء القوم وغيرهم وان كانوا على غير ديننا ففي الحديث

الشريف من علم لسان قوم أمن من مكرهم وقد جاء ان النبي صلى الله عليه وسلم امر كاتبه زيد بن ثابت بتعلم اللغة السريانية فتعلم قراءتها وكتابتها وجاء (الحكمة ضالة المؤمن فليأخذها حيث وجدها) وجاء (اطلبوا العلم ولو بالصين) ومعلوم ان اهل الصين كفار وامثال ذلك كثيرة وفوائد تعلمنا للغة هؤلاء القوم لا تنكر فانا بذلك يتيسر لنا الوصول الى ما وصلوا اليه من الفنون والصنائع الكثيرة المنافع وذلك لاننا بواسطة معرفة لغتهم يتأتى لنا التكلم معهم واستطلاع ما عندهم والوقوف على ما لهم في تلك الفنون والصنائع من الكتب والرسائل العديدة ثم نختار منها ما نراه نافعاً لبلادنا ولازماً لنا ولا بأس علينا في ذلك فقد جاء ان رسول الله صلّى الله عليه وسلم لما اخبره سلمان الفارسي بان قومه وقد كانوا مجوساً يصطنعون الخنادق في بلادهم امر بعمل الخندق في الغزوة المعروفة بهِ وعمل فيه بنفسه صلّى الله عليه وسلم فلا يحسن بنا اذا رأينا عندهم امراً نافعاً ان نتركه لمخالفتهم لنا في الدين بل ننتفع بهِ وما علينا من دينهم فلنا ديننا ولهم دينهم واما ما يترتب على السفر من مفارقة الاهل والوطن ومكابدة الاهوال والمشقات فلا يعد مانعاً منه بالنسبة لما فيه من الفوائد التي ذكرها العلماء والبلغاء في كل عصر مما لا يدخل تحت حصر . قال الشاعر

سافر تجــد عوضاً ممن تفــارقه

وانصب فان اكتساب المجد في النصبِ

فالاسد لولا فراق الغاب ما افترست

والسهم لولا فراق القوس لم يصب

لا سيما اذا كان اكتساب الانسان في اقامته غير كافٍ للوازم معيشته فانه يترجح في حقه السفر علي الاقامة اذا كان فيه رجاء الغنى والكرامة فالسفر مع العز والغنى حضر والحضرُ مع القلة والذلة سفر قال الزبيدي

الفقر في اوطاننا غربة * والمال في الغربة اوطان

والارض شيءٌ كلها واحد * والناس اخوان وجيران

ولا ينال المنى الا بالعنى ولا الراحة الاَّ بالتعب ولا تدرك معاني الاحوال بمجرد الاماني والامال بل باقتحام الاخطار وركوب الاهوال ويرحم الله ابا الطيب حيث قال

تريدين ادراك المعالي رخيصة

ولا بدّ دون الشهد من أبر النحل

وأيضاً المسافر في حفظ الله وكنفه اذا كان متوكلاً عليه ومفوضاً اموره اليه طارحاً نفسه بين يدي قدرته فهو ارأف بهِ من نفسه

ألله اكبر من ان تستعدّ لهُ * بِعُدَّة او ترجي دونهُ سببا

اذا اصطفاك لامر هيَّئتْكَ لهُ * يَدُ العناية حتى تبلغ الاربا

وكما يكون التعب او المرض في السفر يكون في الاقامة والحضر ومن يموت بعيدًا عن بلده كمن يموت بين أهله وولده فجميع ارض الله جعلت لخلقه ورحمته وسعت كل شيء لا تخص بلدًا دون بلد ولا بقعة دون اخرى بل ينبغي لكلّ عاقل ان يطوف ما استطاع من البقاع ليرى ما لاهلها من الاحوال والعادات وما يترتب على كل حالة وعادة من المضارّ والفوائد ويقارن بينها وبين ما هو جار في بلاده وبين اهل وطنه وينبههم على ما رأى نفعه وما علم ضرره فاذا رأى اهل جهة من الجهات اعظم ثروة وقوة وراحة نظر بعين التامل في منابع ثروتهم وموارد راحتهم وقوتهم فعرف بها اهل وطنه واذا راى اهل صقع من الارض بعكس ذلك اجتهد في معرفة اسبابه بالنظر والتامل والمقارنة بين احوال ذلك الصقع وغيره حتى اذا علمها وتحققها حذر منها اهل بلاده بقدر اجتهاده ويكون اذا اخبر بشيء من ذلك مخبرًا عن عيان ويقين لا عن سماع وتخمين فيحصل بذلك على فوائد جليلة منها زيادة علمه ومنها انتفاع غيره بما يعلمه ومنها ما يكتسبه من المال ومنها وهو اعظمها رضا ربه ومزيد ثوابه بنفعه لعباده وأحب عباد الله الى الله انفعهم لعباده وكذلك باتعاظه باحوال الناس واعتباره بامورهم واطلاعه في سياحته على الاسرار المكنونة والقوانين المدبرة المصونة التي دبر الله بها امر المخلوقات واحكم بها صنع الكائنات فمن وقف على

سر صنع الخالق زاد في تعظيمه وتقرّب اليه بالطاعة والامتثال لاوامره ونواهيه واستمسك بحبال حبه ومراضيه اذ كلما انكشف الغطاء وزالت ظلمة الجهل انكشفت الأسرار المودعة في الاشياء فيزيد تعظيم مودعها والاجتهاد في التقرب الى مبدعها فمن سافر واطلع على احوال غير بلاده كمن عاش زيادة على عمره لانه يعلم بالاسفار اضعاف ما يعلمه بالاقامة او بمطالعة الاخبار كما قالوا مثل ذلك فيمن طالع كتب اخبار البلاد واحوال اهلها فهذا أولى لان علمه بالمشاهدة والنظر وذلك علمه بالسماع والخبر واما ما ذكرتم من حبّ الوطن فليس حبه خاصاً بملازمته وعدم مفارقته وليس المقام بهِ دليلاً على حبه ولا الرحيل عنه دليلاً على بغضه فكم من مقيم ببلدة وهو لها كاره وراحل عنها وهو لها محب ومن احب الوطن حقيقة سعى في نفعه ونفع اهله بما امكنه سفرا او حضرا وقد شرحت لكم بعض ما اراه في السفر من الفوائد الجميلة والمزايا الجليلة وفي علمكم كثير مما وقع للانبياء والمرسلين والصحابة والتابعين والأولياء والصالحين من التنقلات والاسفار في القرى والامصار وما جاء في القرآن والاخبار من الحث على السير في الارض للنظر والاعتبار فكفوا عن الملامة ولله الامر في السفر والاقامة فلما سمعوا كلامه وعلموا مرامه قطعوا أملهم من تحويله عن قصده وانصرفوا من عنده فقام من وقته ومضى الى بيته فدخل على زوجته وحكى لها ما صار من امره وما

دار في سره وسالها عما تراه

فقالت اذا عزمت فتوكل علي الله

ليس ارتحالك في كسب الغنى سفرا

لكن مقامك في ضرّ هو السفر

فقال لها اذا قبلت ما اشترطه هذا الرجل من السفر معه الى بلده والى اي بلد اراد فقد تطول مدّة السفر ويمتد امد الفراق فهل يلزم تعيين المدة ام لا

فقالت ارى ان تعيينها وعدمه على حد سوا وربما كان عدم تحديدها اولى لانه متى حصل على ما يرغبه منك كانت اقامتك معه في بلده او في غيرها موكولة لرأيك وارادتك فان كنتما مدة الاجتماع على طبع حسن وخلق جميل مستحسن وفعلت ما يجذب قلبه اليك ازداد حبه لك ورغب في طول عشرتك واجتهد في نفعك فطول المدة وقصرها يتبع ما يقع بينكما في مدة العمل من القول والفعل فان وجدت في الاقامة معه خيرًا فافعل ما تطول بهِ المدة من تشويقه للعلم والاجتهاد في تعليمه والصفح عن زلاته والاغضاء عما عساه ان يقع من هفواته

اذا كنت في كل الامور معاتبًا

صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

فمن ذا الذي ترضي سجاياه كلها

كفى المرء نبلاً ان تعد معائبه

فبحسن الخلق تدوم المودة وبسوء الخلق تكون المباغضة والمباعدة فقل ما يرجح زنتك وافعل ما يجل قيمتك فمن قوّم لسانه زان عقله ومن سدّد كلامه ابان فضله كما هو معلوم لديك ولا يخفى عليك فاغتنم صفو الزمان وانتهز فرصة الامكان وان وجدت الخيرة في قصرها فافعل ما يوصلك الى الخلوص من ضررها لكن يكون ذلك باللطف والمعروف والظرف لا بالشدة والعسف فقد يدرك باللطف ما لا يدرك بالعنف وكل ذلك لا يعلم الاّ عند الاجتماع ولا عبرة بما يؤخذ بالظن والسماع لان الحب كما علمت حالة للنفس تنبعث عند مشاهدة المطلوب وتضعف عند فوات الامر المرغوب لا سيما اذا وقع بين المتحابين ما يخل بمقام المحبة من قول او فعل ولو من احد الجانبين وربما أدّى الى بغض وعداوة واما ما يكون من امر الفراق فهذا علينا جميعًا شيء شاق لكن كما يقال الضرورات تبيح المحظورات واذا نظرنا لما يترتب عليه من المنافع فلا محظور فيه ولا مانع اذ ركوب الاهوال افضل من ذل السؤال والصبر درج يفضي بمن درج الى الفرج ومتى كانت مكاتبتنا متصلة والاخبار بيننا متواصلة دامت المحادثة واستمرت وحلت عيشتنا بعد ما مرّت واطلع كل منا على ما في ضمير صاحبه وبذلك يحصل الاطمئنان ويستريح الخاطر وينشرح الجنان فقد قالوا ان المراسلة نصف المواصلة ولا يخفى عليك ان البعد حالة تجدد في نفس المتحابين زيادة

شوق تؤدي الى انتشار الافكار وكثرة التذكار فيكون بين المتحابين حبل ودّ متصل لا يقطعه بعد وعنوان ذلك هو المكاتبة فعلامة القطيعة من الصديق ان يؤخر الجواب ولا يبتدئ بكتاب واودّ ان لا ترى في هذا كله غير ما ارى فافضل الرأي ما لم يفوّت فرصة ولم يورث غصّة فاختلس الدهر اختلاساً فطالما سرّ ثم اسا الى غير ذلك من المرغبات ثم قالت له اني ارى ان تستصحب اكبر اولادك لتكون تربيته على يدك ويشاهد البلاد التي تقصدونها وتمرون بها ويكون تحت نظرك فتحسن ادبه فقد قيل من ادّب ولده صغيرًا سرّ بهِ كبيرًا وربما تحتاج اليه في بعض امورك ولكن هذا انما يكون براي صاحبك ورضاه فاعرضه عليه وانظر ما يراه فسمع ذلك منها وقبله وباتا ليلتهما يتجاذبان أهداب المحادثة والنظر في اطراف هذه الحادثة الى ان ادبر الليل واقبل النهار فقام ومضى لموعد الانكليزي فوجده في الانتظار فاخبره بانه رضي بملازمته وصحبته فسرّ بذلك لما كان اشرب قلبه من محبته ثم مضيا الى حضرة شيخ الجامع ليعرضا الأمر عليه ويبرما الشروط بينهما على يديه فمثلا عنده وقبلا يده واخبراه بما دار بينهما اولاً وآخرًا من الكلام وانهما يريدان اتمام الشروط على يديه لهذا المرام

فقال لا بأس ولا ضير والله يقضي بكل خير ثم اثنى على الشيخ علم الدين بمحاسن فضائله وعرفه بانه من اكابر علماء الزمان

وافاضله وان اللطف أخص خصائله والبراعة بعض شمائله والبلاغة طوع لسانه وانامله والعلوم العربية نصب ناظره والفنون الادبية رهن خاطره وانه بين العلماء مرفوع المكانة معروف بالصدق والاستقامة والامانة لم يسمع فيهِ قدح قادح ولا يبلغ ما فيه مدح مادح وقال للانكليزي استوصِ بهِ لاجل خاطري ولما يستحقه وكل ما وصفته بهِ سيظهر ان شاء الله صدقه وهلم ما تريد ليقرر ويضبط بالكتابة ويحرر

فقال الانكليزي اما اكرام حضرة الشيخ فعلى العين والرأس وله عندي كل ما يسره ويرضيه ويحمله على الرغبة في دوام صحبتي واما ما وصفتم بهِ حضرته فهو اهله ومحله فاني قبل ان اجتمع بهِ ما ذكرته لاحد الا اثنى عليهِ غاية الثناء ومدحه باحسن انواع المدح فلما اجتمعت بهِ بعض مرات يسيرة ظهر لي فضله وبراعته وجلالة قدره وان كانت معرفتي بالعلوم العربية قليلة فان القليل يدل على الكثير والقدم يدل على المسير وانا كنت قد اقمت في بعض بلاد المغرب نحو اربع سنين تعلمت فيها طرفًا من العلوم العربية ثم حضرت الى هذه الديار المصرية والان اكثر اقامتي في القاهرة والاسكندرية الا اني في كل سنة اتوجه الى بلادي او غيرها من البلاد الاوروبية اقضي فيها زمن الصيف بسبب شدة الحرارة فيه في ارض مصر وارغب ان يصحبني الشيخ في السفر والاقامة ففي مدة اقامتي بمصر يتردد عليَّ كل

يوم في وقت معين فاذا سافرت كان معي فان شآء تردد عليَّ في اوقات معينة كحالنا بمصر وان شآء لازمني ولازمته ليلاً ونهارًا حيث كان لا يعرف هناك احدًا غيري وفي اوقات اجتماعنا يصحح كتاب لسان العرب معي واقرأ عليه شيئًا من العلوم العربية ولهُ عليَّ في نظير ذلك مدة اقامتنا بمصر عشرون جنيها انكليزيًا وفي مدة السفر اجعل لهُ ضعف ذلك وهذا ما عدا مصاريف التنقلات والسكنى والمؤنة فكلها عليَّ لا يلزمه منها شيء وقد قرب وقت سفرنا فان الصيف قد حان اوانه فليتهيأ لهُ فارتضى الشيخ بذلك وطابت نفسه بهِ غير انه طلب ان يكون معه ابنه في السفر فرضي الانكليزي وقال لا بأس بذلك وعليَّ مؤنته ايضًا ففرح الشيخ علم الدين وقرّ ناظره وسرّ الانكليزي ايضًا وطاب خاطره واتفقا على ذلك وكتبا بينهما المكاتبة اللازمة وشكر الشيخ علم الدين حضرة شيخ الجامع وقبل يده واطنب في الثنآء عليه وانشده

واحييت لي ذكري وما كان خاملاً

ولكنّ بعض الذكر أنبه من بعضِ

ثم قام مع الانكليزي وتوجه به الى داره ليعرفها واتفقا على تعيين الوقت فصار الشيخ يتردد عليه كل يوم في الوقت المعين يقيم معه مدة من النهار في تصحيح الكتاب وقرآة بعض العلوم العربية والمحادثة فيما تستدعيه المناسبة وما ينساق اليه الكلام مع

اللطف والادب والكمال فطابت الصحبة وزادت المحبة وتمكنت الالفة وارتفعت الكلفة وصار كل منهما يكثر التردد على الاخر ويسال عنه اذا غاب ويأنس به اذا حضر وفي اثناء ذلك كان الشيخ يستعد للسفر ويتدارك ما يلزم له ولولده ليسافر معه حسبما اتفقا عليه الى أن قال له الانكليزي قد عزمنا على السفر في اليوم الفلاني فارجوك ان تشرف داري صبح ذلك اليوم في الساعة الفلانية وليكن معك ولدك الذي تريد ان يكون معك حسبما اتفقنا عليه تجدني في انتظاركما لنسير معًا فوعده الشيخ بذلك وعاد بالخبر الى زوجته

فقالت له على بركة الله تعالى وفي حفظه ورعايته ودعت له بالسلامة والعز والكرامة والعود اليها بالصحة والعافية والراحة والرفاهية واكدت عليه في عدم انقطاع مكاتباتِهِ عنها ومكاتبات ولده فوعدها بذلك ولما كان اليوم الموعود ودّعها وودع بقية اولاده واخواته ووصاهم بتقوى الله والاعتماد عليه في كل امر وقرأ (والعصر ان الانسان لفي خسر الاَّ الذين امنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) ثم اخذ ولده الاكبر معه وكان اسمه برهان الدين فمضى به في الساعة المعينة الى دار الانكليزي فوجده في انتظارهما فسلّم هو وولده عليه ثم توجهوا جميعًا الى محطة سكة الحديد



المسامرة السابعة
سكة الحديد .

فلما وصلوا المحطة جلسوا برهة ثم ان الانكليزي اخذ الورق المعتاد بعد ان دفع الاجرة المقررة للسفر من مصر الى الاسكندرية في سكة الحديد ولم يكن سبق للشيخ ولا لابنه فيها سفر فلما دق الجرس اول مرة قال الشيخ ما هذا وما المراد به . قال الانكليزي هذا يدق ثلاث مرات للتنبيه على قرب وقت المسير ليستعد كل من اراد وياخذ محله حيث يريد ان يجلس وبعد الثالثة بيسير يكون المسير ثم استصحب الشيخ وابنه ونزل بهما في عربة من عربات الدرجة الاولى فجلسوا فيها ينظرون من طاقاتها الى ان سارت فلما اشتد السير وزادت السرعة اضطرب قلب الشيخ بعض اضطراب وداخله شيء من الخوف لكونه لم يسبق لهُ بذلك عادة كما قدمنا الاَّ انهُ كان قد سمع بها ورأى معهُ غيره من الناس غير منزعجين فعلم انها حالة معتادة فزال روعه وسكن قلبه وجلس مطمئنًا معتمدًا على خالق الورى واشار للعربة يقول

سيري على اسم الله واسم الذي
علامة الايمان ان يذكرا

وكذلك برهان الدين ابن علم الدين في اول الامر كاد

يزعجه الحال لعدم اعتياده الاَّ انه تاسى بوالده وغيره وتفرس فيهِ ابوه الخوف فازال رعبه وسكن قلبه وقعدا ينظران فيما يليهما من الشبابيك الى ما يمران بهِ من الجهات متفكرين في عجائب الكائنات والانكليزي ينظر اليهما فاراد ان يعلم ما لديهما وقد عرف انهما اول مرة فيها ركبا سكة الحديد ورايا هذا الاثر الباهر والاختراع الجديد فقال للشيخ ايها الاستاذ كيف ترى · قال وماذا ارى ارى ان الارض تطوى كطي السجل للكتاب وهذه العربات بما عليها كما قال الله وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب وهذا الدخان قد انتشر في الجو كالسماء اذا انفطرت وتطاير الشرر في الهواء كالنجوم اذا انتثرت وكثر الزحام كالخلائق اذا حشرت وقد فُتشت اوراق المسافرين كالصحف اذا نشرت فتذكرت بهذه الاحوال أهوال القيامة فنسأل الله في الدنيا والاخرة حسن السلامة قال ففيما تفكر

قال الشيخ اتفكر في هذه الباخرة الجارة لهذه العربات واتامل فيما لها من الحركة العجيبة وشدّة السرعة الغريبة التي حملت الأغرار من بعض العامة على ان يقولوا انها انما تسير بقوة جماعة من الجن والشياطين مسخرين لها بواسطة العزائم والسحر والطلاسم وامثال ذلك مما حملهم عليه غرابة الامر وعدم علمهم بحقيقة السر وقد عرفت انها تسير بواسطة النار التي ارى كثرة دخانها وافواج شررها المتطايرة ورأيت قبيل ركوبنا رجلاً مشتغلاً باضرامها

وتفقد امرها في تلك الباخرة ولكني لم اعرف صورة استعمالها في هذه الحالة وكيفية الانتفاع بها في تحريك تلك الآلة فانا اجيل في هذا الامر العظيم قدّاح التخمين واراني لا اصل في علم حقيقته الى محجة اليقين فاني ما رايته ولا اشتغلت بهِ قبل هذه المرة بسبب اشتغالي بعلوم اللغة العربية واحكام الشريعة المطهرة وكان قد خطر لي ان اوجه السؤال في ذلك اليك لعلي اجد علمه لديك ولكن خشيت ان اتعب خاطرك وما اريد ان اشق عليك

فقال الانكليزي اخبرك اولاً ايها الاستاذ ان لطفك وكرم اخلاقك وحسن معاملتك لي مع عظم فضلك ورفعة قدرك قد جعل في قلبي لك منزلة عالية ومحبة عظيمة تجعلني ابتهج بقضاء ما تريده والقيام بما تأمر بهِ من غير ان اجد بنفسي ادنى حرج حتى لو كلفتني بما فيه مشقة في نفس الامر فارجوك الاّ تكتم عني امرًا تريده ولا تحتشم من شيء تسأل عنه لانك على سفر قد كلفتك بهِ الى بلاد لا تعرفها ولا تعرف اهلها فانا اريد راحتك وانشراح خاطرك ففي ذلك سروري وراحتي وهذا الذي سالت عنه ليس في بيانه مشقة عليَّ ولا كلفة وانا وان كنت لم اشتغل بهذا صناعة الا اني عاشرت المشتغلين بهِ وقرات بعض الكتب المصنفة فيه وصار لي بهِ معرفة كافية لامثالي وهو فن واسع وفيه كتب كثيرة مطولة ولكني احكي لك منه على سبيل الاجمال والتلخيص ما لا يمل سماعه لنقطع بهِ مسافة الطريق

وبعد هذا اذا عرفت لغتنا وتعلقت رغبتك بالتبحر فيه والتوسع في معرفته فالامر اليك

قال الشيخ قد سررتني سرك الله بما يجعل فيه اسعادك وكافاك على ما وجهت اليه فوادك فارشدني عما سالت عنه تولى الله ارشادك

قال الانكليزي انما تتحرك تلك الآلة بالنار بواسطة قوة بخار تحلله حرارة النار من ماء موضوع في اناء محكم ينفذ منه البخار في منافذ معلومة الى الات مخصوصة فيحركها

قال الشيخ نعم اعلم ان الحرارة اذا سخنت الماء حللت منه اجزاء تكون بخارًا فترتفع منه وتختلط بالهواء وينقص بقدرها من الماء كما يشاهد عند غليان القدر وكما يعلم من تجفيف الثوب في الشمس فان حرارة الشمس تحلل منه الاجزاء المائية فترتفع في الهواء ويبقى الثوب جافًا ولكني اريد زيادة الشرح والايضاح

قال الانكليزي من المعلوم ايضًا انه اذا وضع مقدار من الماء في اناء محكم الغطاء من كل طرف بحيث لا يكون فيه منفذ وكان فيه جزء فارغ من الماء واوقد تحته النار تصاعد البخار المتحلل من الماء بحرارة النار الى ذلك الفراغ الذي في اعلى الاناء سواء كان فراغًا محضًا اي ليس فيه شيء من الهواء الجوي او كان فيه مقدار من الهواء المذكور فاذا استمرت النار تحت ذلك الاناء فلا يزال يتجدد بخار يتحلل من الماء ويختلط بالموجود منه من

قبل وبازدياد البخار تزداد قوة تمدّده حتى تصل الى حد معين بينه وبين درجة حرارة الماء نسبة معلومة فعند ذلك تثبت قوة البخار على ذلك الحد ولا تتجاوزه وينقطع تولد بخار جديد من الماء وهذا الحد الذي ذكرناه يسمى القوة النهائية للبخار عند اهل الفن ويقال حينئذٍ للفراغ المنحبس فيه البخار انه تشبع

قال الشيخ قد قلت في كلامك ان البخار يصعد الى ذلك المحل الفارغ من الماء سواءٌ كان فراغًا محضًا او كان فيه شيء من الهواء الجوي وقد قيل في وجود الخلاء المحض وعدمه كلام كثير وخلاف طويل مذكور في المواقف وغيرها ليس هذا محله ولكن اريد ان اعرف هل وجود هذا الهواء لهُ فعل واثر في القوة النهائية المذكورة ام لا

قال الانكليزي ليس لذلك الهواء اثر في القوة المذكورة وانما يضعف سرعة تحلل البخار ويجعله بطيئًا فاذا كان ذلك المحل الخالي من الماء فارغًا من الهواء الجوّي فلا يجد البخار ما يزاحمه ويصادمه فيتحلل بسرعة شديدة حتى يصل الى قوته النهائية في مدة قليلة بخلاف ما اذا كان بهِ شيء من الهواء فان سرعة تحلل البخار تكون اقل من الحالة الاولى لان الهواء المذكور يضغط على وجه الماء فاذا تحلل البخار وطلب الارتفاع الى الاعلى وجد الهواء المذكور معارضًا لهُ فيدافعه ويعالجه حتى يتخلله ويدخل بين اجزائه فيتأخر بهذا السبب

وفي هذه الحالة يكون الضغط على الماء حاصلاً من البخار والهواء المذكورين معاً فاذا كان الاناء الذي فيه الماء وتحته النار مكشوفاً لا يصل البخار الى قوته النهائية اصلاً فانه كلما تولد منه مقدار انتشر في الجو واختلط بالهواء الموجود فيه فلا يبقى مقدار منه مجتمعاً في محل واحد محفوظاً بهِ حتى يصل الى القوة المذكورة ثم كلما تحلل من الماء بخار وانتشر في الجو نقص بقدره من الماء الى ان لا يبقى في الاناء شيء ويشاهد في اثناء ذلك ان سرعة تولد البخار تزداد على حسب ازدياد الحرارة فمتى وصلت الحرارة المذكورة الى حد تكون فيه قوة البخار الحاصل عنها قدر ضغط الجو اي بقدر ضغط الهواء الجوّي كانت سرعة تحلل البخار اعظم ما يكون لان البخار حينئذٍ لا يعارضه ممانعة من جهة الجوّ فينفذ فيه بغير عسر ويشاهد في الماء فقاقع تعلو على وجهه وهذه الحالة هي ما يعرف بحالة الفوران او الغليان ومن هذا يفهم ان حالة الفوران للماء تحصل اذا كانت القوة النهائية للبخار المتابلة لدرجة الحرارة ليست اقل من قوة الضغط الواقع على سطح الماء سواء كان هذا الضغط من الهواء او من البخار او منهما معاً وقد علم ايضاً ان البخار كلما انتشر وتفرقت اجزاؤه وتخلخل بسبب اتساع المحل الموجود فيه ضعفت قوته وكلما انكبس وانضم الى بعضه لضيق محله زادت قوته الى ان تصل الى القوة النهائية فاذا وضعنا مقداراً من البخار في اناء ليس بهِ ماء ورأينا قوته اقل من القوة

النهائية فصغرنا حجمه بان كبسناه وحبسناه في محل اضيق مما كان فيه زادت قوته ولا تزال تزداد قوته من تنقيص حجمه بتضييق محله الى ان يصل الى القوة النهائية فان كبرنا حجمه بتوسيع محله ضعفت قوته وهكذا فالحاصل ان قوته تكون بالنسبة العكسية للمحل المحبوس فيه فكلما زاد كبر المحل نقصت القوة وكلما نقص كبره زادت القوة الى ان تصل الى الدرجة النهائية وهكذا الغازات

قال الشيخ فاذا وصل البخار الى هذه القوة النهائية فصغرنا حجمه بتضييق محله بعد ذلك فهل تزيد تلك القوة

قال الانكليزي متى وصلت القوة الى تلك الدرجة فلا تتجاوزها بل تثبت عليها ولا تزيد عنها وانما اذا صغرنا الحجم بعد ذلك استحال جزء من البخار الموجود الى ماء فلو كبرنا الحجم بعد ذلك عاد ثانيًا ذلك الماء بخارًا كما كان

قال الشيخ قد بنيت ما ذكرته على كون المحل المحبوس فيه البخار ليس فيهِ ماء فهل تتغير تلك الحالة اذا كان فيهِ ماء

قال الانكليزي لا تتغير القوة النهائية بوجود الماء وانما اذا استحال جميع الماء الموجود بخارًا فعند ذلك تزيد القوة بنقل الحجم وتنقص بزيادة كالغازات

وقد وقف اهل الفن بتجاريب عديدة على تعيين القوة النهائية لبخار الماء المقابل لدرجات الحرارة من الصفر الى مائتين

وثلاثين درجة وجعلوا لها جداول ترجع اليها اربابها المشتغلون بالالات البخارية وعادتهم ان ينسبوا قوة البخار الى الجو فيقال قوة البخار الفلاني جوّ واحد واثنان او ثلاثة مثلاً وهكذا

قال الشيخ وكيف ذلك

قال الانكليزي من المعلوم ان هذا الهواء الجوي الذي نعيش فيه ونستنشقه معدود من الغازات وهو موجود في جميع المحلات كبيرة وصغيرة مرتفعة ومنخفضة ومحيط بكرة الارض من جميع جهاتها ممتد فوق رؤسنا الى بعد عظيم الاَّ انه محدود لا يزيد عن ستة وثلاثين الف متر وليست كثافة طبقاته وثقلها في درجة واحدة بل هي متفاوتة بحسب قربها من الارض وبعدها عنها فكل ما كان منها الى الارض اقرب كان اثقل واكثف بسبب ثقلها وثقل ما فوقها من الطبقات عليها وكلما كان منها عن الارض ابعد كان اخف والطف

وجميع الاجسام الموجودة في الهواء عليها ضغط من الهواء بحسب جرمها وقد قدر ذلك بالحساب وحرر فعلم ان كل مقدار سانتيمتر من سطح اي جسم عليه ضغط من الهواء الجوي بقدر ثقل كيلوجرام وثلاثة وثلاثين جرامًا

قال الشيخ ما معنى سانتيمتر وكيلو جرام وجرام فهذه الفاظ لا اعرفها لانها ليست عربية

قال الانكليزي سانتيمتر هو جزء واحد من مائة جزء من

المتر اي عشر عشر المتر والمتر هو ذراع وثلث بالذراع المعماري المستعمل في مصر في مقاييس الابنية وكيلو جرام معناه الف جرام والجرام يقرب من ثلث درهم فكل مقدار سانتيمتر اي عشر عشر المتر من سطح اي جسم من الاجسام عليه ثقل ٣٤٤ درهم مصري من ضغط الجو وهو ثقل عمود من الزئبق قاعدته سانتيمتر واحد وطوله ستة وسبعون سانتيمترا او قدر عمود من الماء قاعدته سانتيمتر وطوله عشرة امتار وثلث لان الزئبق اثقل من الماء ثلاثة عشر مرة وستة اعشار مرة فلو ضربنا طول عمود الزئبق المذكور وهو ستة وسبعون من مائة في ثلاثة عشر وستة اعشار لحصل عشرة امتار وثلث

فاذا كان الضغط الواقع من البخار او الغاز على قدر سانتيمتر من سطح اناء مثلاً مساوياً للضغط الواقع من الجو على القدر المذكور يقال ان قوة هذا البخار او الغاز تساوي جواً واحداً واذا كان بقدر ضغط الجو مرتين قيل ان قوته جوان وهكذا

ولسهولة الاعمال حرر اهل الفن جداول يعلم منها درجة الحرارة المقابلة للقوة النهائية المقدرة بقدر معلوم من الجو فالجو الواحد يقابله مائة درجة والجوان (١٢٠) درجة وستة اعشار وهكذا الى ثمانمائة وعشرين جواً يقابلها (٣٢٠) درجة وتسعة اعشار

قال الشيخ قد يوجد في كتب القدماء بعض مسائل تتعلق بفعل الحرارة في الماء والاجسام وبعض احوال البخار لكنا لم نجد

فيها كيفية استعماله بهذه الصورة الجارية الآن وانما كان يستعمل قديمًا قوة الانسان والحيوان في نقل الاثقال وادارة بعض الآلات كالسواقي والطواحين وكذلك استعملت قوة تيار الماء في ادارة بعض الآلات واستخدمت قوة الريح في سير السفن في الابحر والانهر وادارة الطواحين الهوائية ونحو ذلك اما استعمال قوة البخار فيما ذكر بهذه الصورة فلا نعهد له ذكرًا فيما وصل الينا من الكتب القديمة فهل تذكر تاريخ الاهتداء لاستعماله

فقال الانكليزي غاية ما امكن الوصول الى معرفته مما كان جاريًا في ذلك بالاعصار القديمة ان اول من تنبه لاستعمال قوة البخار هارون الاسكندري المصري وذلك انه صنع كرة مجوفة تدور على محور افقي دورة رحوية وجعل فيها انابيب على خط واحد حولها وجعل اطراف هذه الانابيب معوجة الى جهة واحدة فمتى قوي البخار في جوف تلك الكرة خرج من تلك المعوجات فاوجب حركتها فتدور على محورها كما تدور الرحا وهذا ايضًا يحصل بالماء لو وضع في تلك الكرة بدل البخار هذا غاية ما امكن الاستدلال عليه مما حصل في الازمان القديمة

ثم في سنة ١٦١٥ من الميلاد اعني سنة ١٠٢٤ من الهجرة استعمل رجل من الفرنسوية قوة البخار في رفع الماء الى الاعلى وذلك بان صنع وعاء كرويًا يعبر عنه بالدست والقزان وجعل له انبوبتين لكل منهما حنفية تفتح وتقفل على حسب الارادة واحدى هاتين

الانبوبتين في اعلى الوعاء ليصب منهـا الماء وهي قصيرة والثانية طويلة متصلة باسفله صاعدة الى فوق متصلة بحوض مرتفع حيث يراد ايصال الماء · فيوضع الماء في ذلك الوعاء الكروي من الانبوبة المعدة لصبه ولا يملا كله بل يبقى اعلاه فارغًا لاجل تجمع البخار فيه وتوقد النار تحت الوعاء فيتحلل منه بخار يرتفع الى ذلك الموضع الفارغ فاذا اشتدت قوة البخار ضغط على الماء فيندفع الى الانبوبة الطويلة المتصلة بالحوض ويرتفع فيها بسبب شدة ضغط البخار عليه حتى يصل الى الحوض العالي وينزل فيه وكلما نقص الماء في ذلك الوعاء الذي تحته النار وضع فيه ماء جديد وهكذا حتى يمتلىء الحوض

ثم في سنة ١٠٣٩ من الهجرة جعل احد الطليانيين للدست الذي توقد تحته النار انبوبة ممتدة الى قرب ظارة راسيّة لها كفات وان شئت قلت ريشات او الواح مثلاً كما في الطارة التي تشاهد في مراكب النار اعني الطارة التي يسير بهـا مركب النار ويقال لها جرخ وعجلة وتلك الانبوبة متوجهة الى الكفات المذكورة ولها حنفية تفتح وتقفل بالاختيار فتوقد النار على الدست وفيه الماء فيتحلل منه البخار فاذا اشتدت قوته تفتح حنفية الانبوبة فيمشي فيها البخار ويخرج منها بقوته متوجهًا الى الكفة التي تقابله من كفات الطارة فيدفعهـا بقوته فتنزل وتاتي الكفة التى بعدها فيدفعها كذلك وهكذا فتدور الطارة بسبب ذلك · وتلك الطارة متصلة

بقضيب طلومبة موضوعة في بئر فيتحرك قضيب الطلومبة بواسطة دوران الطارة فيخرج الماء بواسطة الطلومبة من البئر الى اعلاه وذلك كان المقصود من هذه الالة

وفي سنة ١٠٧٤ من الهجرة كتب بعض الناس نبذة ذكر فيها انه اخترع آلة يتيسر بها رفع الماء من اسفل الى اعلى بواسطة النار وهي عبارة عن دستين كرويين مركبين على فرن وفي كل منهما انبوبة واصلة الى قرب اسفله نافذة منه وكل من الانبوبتين يتصل بانبوبة افقية وكل من الدستين في اعلاه انبوبة قصيرة غير ما ذكر يصب منها الماء في الدست ولها حنفية فاذا وضع الماء في احد الدستين الى قرب نصفه مثلاً واوقدت تحته النار يتولد منه البخار ويضغط على الماء فيمشي في الانبوبة المتصلة باسفل الدست ويرتفع فيها الى اعلا وهذه الآلة مثل الاولى التي استحدثت سنة ١٠٢٤ وانما هذه فيها دستان يستعملان بالتعاقب وفي كل منهما يستحيل جزء من الماء الى بخار يضغط على باقي الماء فيرفعه الى الأعلا

وفي سنة ١١٠٢ من الهجرة استحدث رجل من الفرنسوية يسمى (بابن) آلة ذات مكبس يضغط عليه البخار فيرفعه وذلك ان هنالك وعاء على شكل الاسطوانة مفتوحًا من اعلاه مسدودًا من اسفله وفيه مكبس محكم مالئ للوعاء المذكور قابل للحركة من اسفل هذا الوعا الى اعلاه وعكسه وفي اعلى المكبس قضيب نعبر

عنه بالساق فيوضع في الوعا الاسطواني المذكور مقدار من الماء قبل وضع المكبس ثم يوضع المكبس ويتكأ عليه باليد فينزل الى ان يمس الماء الموجود في الوعاء فيخرج الهواء الموجود من ثقب في سطح المكبس يسد بعد ذلك وتوقد النار تحت الوعاء المذكور فيتولد البخار ويضغط على المكبس فيرتفع الى اعلى الوعاء ويرتفع معه ساقه السابق ذكره وفي راس هذا الساق حبل ربط به طرفه وهذا الحبل يمر فوق بكرتين وطرفه الثاني طويل بحيث يمكن ان يربط به شي ثقيل يراد رفعه وغير ذلك فاذا ارتفع ساق المكبس كما ذكر يضبط في محله بسمار يثبت به ثم تبطل النار من تحت الوعاء الاسطواني المذكور فتحصل البرودة وينقطع البخار الدافع للمكبس فاذا رفع حينئذٍ المسمار الممسك للساق سقط المكبس الى اسفل الوعاء بسبب ضغط الهواء عليه وبسقوطه يسحب معه طرف الحبل المربوط به فيرتفع الثقل المربوط في الطرف الثاني من الحبل ونحو ذلك .

ثم اشتغل الناس بتحسين هذه الآلة وغيرها من الآلات السابقة حتى صارت تستعمل في اعمال جسيمة كثيرة النفع واستحدثت الات جديدة لرفع الماء احسن من الاولى بحيث صار الماء الذي يراد رفعه الى الاعلى يوضع في آنية غير التي تحتها النار فتميزت الآلات الجديدة على القديمة بهذه المزية ولكن مع هذا كان يضيع جزء كثير من البخار يذهب سدى وذلك انه عند توجيه البخار الى

الماء ليضغط عليه كان يذوب في الماء جزء كبير من البخار فكان لا يرتفع الماء الاّ اذا تشبع بالحرارة بحيث لا يقبل ذوبان بخار جديد فيه وحينئذٍ يضغط عليه البخار الوارد ويفعل فيه بكل قوته فيرتفع وبهذا السبب كان يضيع جزء كبير من البخار كما ذكر واستمر هذا المحذور الى ان اجتهد (بابن) المذكور في ازالته حتى ظفر بالغرض سنة ١١١٩ من الهجرة بان جعل البخار الوارد من الدست يضغط على مكبس كالسابق ذكره موضوع فوق الماء المراد رفعه فمتى ضغط البخار على المكبس ضغط المكبس على الماء فيخرج في انبوبة مخصوصة يرتفع فيها الى حيث يراد رفعه

ولم يقتصر المذكور على ذلك بل احدث آلة تسمى آلة الامن تكون فوق الدست لمنع البخار من ان يصل الى شدة يتمزق بها الدست الذي هو فيه وسيجيء ذكرها

وزاد في تحسين الآلة المعدة لرفع الماء حتى جعلها تصلح للاستعمال في اعمال كثيرة وذلك انه بعد رفع الماء الى حوض موضوع على ارتفاع مخصوص جعل لذلك الحوض انبوبة ينصب منها الماء على طارة ذات كفات كالطارة السابق ذكرها في الآلة المستحدثة سنة ١٠٣٩ فتدور تلك الآلة بقوة وقع الماء الساقط على كفاتها وانتفع بدوران هذه الطارة في ادارة غيرها

ومن ذلك الوقت اخذت تلك الآلات في الاشتهار واشتغل خلق كثير في بلاد فرنسا والانكليز بتحسين امرها والزيادة فيها

واكثار مزاياها حتى وصلت الى ما وصلت اليه من الحسن والجودة وكثرة المنافع ودخلت في كثير من الصنائع والمعامل والمصانع واسقاء المزارع والحرث وطحن الحبوب والسفر بمراكب النار في البحر وعلى سكك الحديد في البر حتى صار البخار اكبر مساعد للنوع الانساني فزادت به قوته وسرعته حتى عمل به ما كان يعد من الممتنع عمله بالوسائط الاولى

فقال الشيخ نعم قد عُمل بواسطة هذا البخار اعمال كانت تعد من الممتنعات في العادة ولا يتصورها احد من الناس فمن ذا الذي كان يتصور قبل ان يظهر هذا الامر انه يذهب من القاهرة الى الاسكندرية ثم يعود الى محله في يوم واحد . ولكن اريد من لطفك ان تخبرني عن اول وقت استعملت فيه هذه السكك الحديدية ان كان على ذكر منك ثم تمم معروفك بان تشرح لي صفة الآلات البخارية المستعملة الان في سكة الحديد وغيرها مع بيان كيفية استعمالها على سبيل الاجمال والتقريب تتميمًا للاكرام

فاتمم ما مننت به واحسن * فما المعروف الاَّ بالتمامِ

قال الانكليزي حبًا وكرامة اما استعمال السكك الحديدية اعني السفر بواسطة الات البخار فوق قضبان من الحديد توضع على الارض كما تشاهده فلم يكن الاَّ منذ عهد قريب فان اول تجربة عملت في ذلك ونجحت كانت في سنة ١٨٣٠ للميلاد الموافقة لسنة ١٢٤٦ من الهجرة في بلاد الانكليز وقبل ذلك كانت جربت

آلة بخارية في سنة ١٢١٦ بقصد استعمالها في السير على الارض المعتادة فلم تنجح وظهرت صعوبات كبرى من حصول الاحتكاكات الكثيره فتركت وبعد ذلك اشتغل الفكر بوضعها فوق قضبان من حديد واستعمالها في محاجر الفحم الحجري فظهر منها فوائد وثمرات كثيره ولكن كانت سرعتها قليلة لقلة كفاية المقدار المتحصل من البخار فان كل دورة كاملة من دورات العجل تحتاج الى كمية من البخار تساوي ضعف حجم الاسطوانة الجاري فيها تأثير القوة الفعالة فلهذا بقيت سكك الحديد مدة لا تستعمل الاّ في نقل الفحم الحجري وبعض بضايع قليلة

وفي اثناء ذلك كان كثير من ارباب الفن يجتهدون ويتفكرون في استنباط طريقة يتيسر بها زيادة مقدار البخار لما يترتب عليه من الثمرات الكبيرة والفوائد العامة فكان الفخر في ذلك لرجل من الفرنسوية استنبط بفكره طريقة حسنة موصلة إلى هذا الغرض وذلك بوضع جملة انابيب في الدست متصلة ببيت النار تنفذ فيها النار والحرارة فيكثر بسببها تسخن الماء ويزداد بذلك مقدار البخار الى الحد المطلوب وعند ذلك عملت هذه الطريقة في الة انشاها (ستيفنسون) الانكليزي في معمل لهُ وجربت فنجحت . ومن وقتئذٍ اشتهرت وكثرت السكك الحديدية وصارت تزيد وتمتد في كل مملكة من الممالك الى ان صارت مستعملة في اكثر بقاع الارض المعمورة وقد كانت الآلات التي

عملت من قبل لاتزيد سرعتها عن ثلاثة آلاف متر في الساعة الواحدة وكان ما ينقل من البضاعة في المرة الواحدة لا يزيد عن ثمانين طنًا ونعني بالطن ويقال له طونيلاته ايضًا ما يساوي مقدار اثنين وعشرين قنطارًا مصريًا وبعض كسر قليل من قنطار فثمانون طنًا تساوي الفًا وسبعمائة وعشرين قنطارًا فهذا غاية ما كان يمكن نقله بواسطة الآلات القديمة مرة واحدة واما الان فلما دخل هذه الالات من الاتقان والتحسين صار يمكن ان ينقل بها في المرة الواحدة لغاية ثمانمائة طن بسرعة عشرين الف متر في الساعة الواحدة هذا في قطارات البضائع واما قطارات المسافرين فيمكن لها لخفتها عن هذا المقدار ان تسير في الساعة الواحدة ستين الف متر فاكثر الى ثمانين الف متر فان سرعة الالات البخارية تزيد وتنقص على حسب الاثقال مثل الحيوانات فان كانت الالة تجر ثمانمائة طن في سرعة عشرين الف متر في الساعة الواحدة فلا تجر في سرعة ثمانين الف متر مثلًا الا عشر هذا المقدار فاذا وصلت السرعة الى مائة وستين الف متر مثلًا فانما تسير بنفسها ولا تجر حينئذٍ شيئًا مطلقًا

واما صفة الآلة البخارية في سكة الحديد وغيرها وكيفية استعمالها فاشرحها لحضرتكم على وجه التلخيص والاختصار والتقريب فاقول الغالب فيما عدا باخرة سكة الحديد من الآلات البخارية ان يكون الاناء المتولد فيه البخار منفصلًا عن الآلة واما باخرة

سكة الحديد فيكون فيها اناء البخار مع الآلة ويرى الجميع كشيء واحد ويقال له هنا وابور البر وهو الذي تشاهده امام القطار يجر هذه العربات على قضبان الحديد الموضوعة فوق الجسر على مقتضى قواعد معلومة تختص بتحديد سعتها وميلها واختلاف اتجاه سيرها على جسر واحد او جسور متعددة متصلة ببعضها موصلة الى بلاد مختلفة ولتتكلم على باخرة سكة الحديد وغيرها

فاما غيرها من الآلات المستعملة لسير السفن وريّ المزارع وادارة المعامل المعروفة بالورش ونحو ذلك فمحل البخار فيها (وهو المعروف بالدست والقزان) يكون موضوعاً فوق الفرن بحيث يكون اكثر سطحه ماسّاً للنار حتى يحصل مقدار كثير من البخار من غير اتلاف واسراف في الوقود المستعمل وهو الفحم الحجري في الغالب ولا يكون شكل الدست والفرن كما اتفق بل يكون بمقتضى قواعد وقوانين هندسية لا بد من رعايتها والاجراء بموجبها لحصول النجاح فاذا اوقدت النار في الفرن تحت القزان غلى الماء الموجود فيه فيتولد منه البخار ويدخل في انابيب من المعدن مخصوصة يخرج منها الى اوعية اسطوانية من اجزاء الالة تسمى الاسطوانات لكل منها غطاء محكم وفي باطنها مكابس محكمة على قدرها كالتي تقدم ذكرها ولكل مكبس ساق ممتدة نافذة من غطا الاسطوانة الى خارجها فاذا دخل البخار في تلك الاسطوانات حرك ما فيها من المكابس الى جهة اتجاهه فاذا ورد من الاسفل اي من جهة

قاعدة الاسطوانة دفع المكبس الى اعلاها واذا جاء من الاعلى اي من جهة غطاء الاسطوانة دفع المكبس الى اسفلها ففي الحالة الاولى يصعد المكبس من جهة قاعدة الاسطوانة الى قرب غطائها وفي الحالة الثانية يهبط الى قرب قاعدتها وهكذا تستمر المكابس صاعدة وهابطة بتكرار ورود البخار عليها ودفعه لها من الاسفل الى الاعلى ومن الاعلى الى الاسفل وفي حركاتها هذه تعلو وتسفل معها سيقانها الخارجة من اغطية الاسطوانات كما مر ذكره انفًا وهناك قطعة مستطيلة ذات شكل مخصوص نسميها القبّ تشبيهًا لها بقب الميزان موضوعة بحيث يمكن ان تتحرك حول مركز وسطها كحركة قب الميزان يعلو احد طرفيها ويسفل الاخر ثم يعلو السافل ويسفل العالي وساق كل مكبس من المكابس المذكورة متصل راسها باحد طرفي هذا القب وقد رتب البخار الوارد على هذه المكابس بحيث يجعلها تتحرك على التعاكس بمعنى انه اذا كان احدها صاعدًا كان الاخر هابطًا ثم يهبط الصاعد ويصعد الهابط وهكذا . وبحركة المكابس هذه الحركة التعاكسية يتحرك القب المذكور بالتبعية لحركة سيقانها المتصلة رؤوسها بطرفيه كما ذكر فيصعد طرف القب مع الساق الصاعدة ويهبط مع الهابطة وهكذا . وبحركة طرفيه تتحرك معهما قضبان ثابتة فيهما متصلة بمجاور موضوعة على الارض اوغيرها فتوصل تلك القضبان حركة القب المذكور الى هذه المحاور فتجعلها تتحرك حركة دورية كحركة سهم الساقية فتدور بهذه الدورة

باقي العدد الموجودة لما بينها من الاتصال ولكل آلة تركيب مخصوص موافق للغرض المطلوب منها ولها اشكال مختلفة وانواع كثيرة بحسب ما يطلب منها فليس ما يطلب لاجل الغزل والحياكة او صناعة الحديد مثلاً كالذي يطلب لسير السفن ولا ما يراد به ادارة عدد كثيرة وكبيرة كالذي يراد به ادارة عدد قليلة وصغيرة بل كل على حسب ما يلزم له

واما بواخر سكة الحديد فيكون فيها الآلة والقزان والفرن جميعها مجتمعة مع بعضها في هذا الدست المستطيل الاسطواني الذي تراه امام القطار موضوعًا على فرش من المعدن فوق العجل بكيفية معلومة ليس هنا محل شرحها

فجهة المؤخر من الدست حيث يقف سائق الوابور فيها بيت النار وهو الفرن وهناك جميع الآلات التي تدل على قوة تمدد البخار والتي يوقف بها الوابور حالة سيره وعكسه وفي جهة مقدم الدست اي اوله من الجهة التي يسير اليها يوجد بيت الدخان وفوقه تلك المدخنة القائمة التي تراها ينبعث منها الدخان الى الجو وبين بيت النار وبيت الدخان المذكورين بيت الماء وفيه انابيب من النحاس كثيرة يبلغ عددها مائة فاكثر الى مائتين وثمانين وهي متصلة ببيت النار وبيت الدخان مارة من بيت الماء الموجود بينهما كما ذكر

وهذه الانابيب موضوعة بقرب بعضها وبينها اخلية صغيرة

يملأها الماء فتصير الانابيب المذكورة مغمورة فيه

ثم فوق الدست مما يلي جهة النـار بيت البخار وهو الذي تراه نائتًا فوقه كالحدبة على ظهره ويقال له طنبوشه

فيوضع الماء في القزان اي في بيت الماء السابق ذكره ولا يملأ جميعه بل يترك جزء في اعلاه فارغًا من الماء ليتولد فيه البخار ومنه يصعد الى الطنبوشة المذكورة وتوقد النار في الفرن فيسخن بيت الماء المتصل به وتدخل الحرارة مع الدخان في تلك الانابيب فتسخن ايضًا وتشتد بها سخونة الماء لكونها مغمورة فيه فيتولد البخار بسرعة ويحصل منه مقدار كثير يكفي للمطلوب يجتمع في الطنبوشة كما مر ذكره فتشتد قوته وفي اعلى هذه الطنبوشة من داخلها فم انبوبة طويلة تمتد منها الى بيت الدخان مارة من بيت الماء من اعلاه في الجزء الذي يكون فارغًا من الماء وضعت كذلك لئلا تكون في الماء فتبرد وتضعف قوة ما يكون فيها من البخار وجعل فمها في اعلى الطنبوشة لئلا يدخل فيه بعض الماء عند غليانه فاذا اجتمع البخار واشتدت قوته كما ذكر يدخل في تلك الانبوبة من فمها الذي في اعلى الطنبوشة فيسير فيها الى بيت الدخان وهناك ينفصل في انبوبتين يصل منهما الى اسطوانتين في جانبي بيت الدخان احداهما جهة اليمين والاخرى جهة اليسار وفي كل منهما مكبس فاذا دخل البخار في كل اسطوانة دفع المكبس الذي فيها فحركه الى جهة اتجاه قوته وبحركة المكبسين تتحرك عدد متصلة بهما

واصلة الى محور العجل الكبير الذي في وسط الفرش فتحركها حركة مستديرة على الحديد الموضوع فوق الارض فتسير الالة كلها عليه وتجر خلفها العربات المرتبطة بها وبعد ان يتم البخار فعله المطلوب منه ينصرف من تلك الاسطوانات بواسطة انابيب توصله منها الى المدخنة فيخرج منها بقوة وصوت تسمعه مدة سير الوابور فتساعد تلك القوة على اشتعال النار لانها تجلب اليها الهواء وفوق القزان آلة تسمى آلة الامن تبين تغير مقدار الماء الموجود فيه للاحتراز من زيادة قوة البخار عن المقدار اللازم فان قوة تمدد البخار تزيد وتنقص بحسب زيادة الحرارة ونقصها والقزانات انما تعمل لتحمل قوة محددة اذا زادت عنها قوة البخار يتمزق القزان وينكسر ويحصل خطر كبير وضرر عظيم ففائدة آلة الأمن الاحتراز من ذلك الخطر والضرر وبالقرب من سائق الوابور آلة اخرى ينظر اليها في كل وقت يعرف بها مقدار تلك القوة التي هي الاساس في سرعة السير فان كانت زائدة عن الحد خففها وان كانت ناقصة فعل ما يقويها . ثم آلة اخرى يسد بها الانبوبة الموصلة للبخار الى الاسطوانات حين يريد توقيفها ويفتحها حين يريد تحريكها وجميع تلك الآلات لها مقادير محددة وابعاد معينة بحسابات طويلة ولها اشكال موافقة لما يراد منها وتتركب مع بعضها على مقتضى اصول وقواعد مقررة طويلة الشرح يوجد بيانها في كتبها الخاصة بها يطلبها من يريد التبحر في معرفتها وانما هذا بيان

اجمالي لصفتها على قدر الكفاية لتصورها لمن لا يريد الاشتغال بها واتخاذها حرفة

وقد كان استعمال سكك الحديد وانتشارها في مبداء ظهورها قليلاً لجهل الناس امرها فكان الموجود منها سنة ١٨٣٩ من الميلاد اي سنة ١٢٥٥ من الهجرة في بلاد الانكليز (٢٢٣٣) كيلومتر وكل كيلو متر الف متر وفي فرنسا (٥٧٢) كيلو متر وفي باقي اوروبا (٨٣٤) كيلومتر وكان اكثر هذه السكك مستعملاً في نقل الفحم ثم اخذت في الاشتهار والانتشار بالتدريج ورغبت فيها اصحاب الاموال لما علم من كثرة فوائدها وثمراتها فانعقدت شركات بين كثير من الناس اجتمعت فيها اموال عظيمة واشتغلوا بها فكثرت واشتهرت فلما مضى عشرون سنة من ابتداء ظهورها كان الموجود منها في اوروبا وفي باقي الجهات (٧٠،٠٠٠) كيلومتر وفي سنة ١٢٧٣ من الهجرة احصي وقدّر ما حصلت المقاولة على انشائه وعقدت مشارطاته الى ذلك التاريخ فبلغت (١١٥،٣٩٥) كيلو متر منها في ايتازوينا من بلاد امريكا (٣٣،٧١٠) كيلومترات وفي بلاد الانكليز (٢١،٥٥٥) كيلومتر وفي بلاد فرنسا (١١،٦١٥) كيلومتر وفي المانيا (١٨،٠٨٤) كيلو متر وفي باقي الجهات (٣٠،٤٣١) كيلومتر وكان الذي تم من ذلك واستعمل الى التاريخ المذكور (٧٧،٣٣١) كيلو متر منها في بلاد الانكليز (١٤،٠٢٥) كيلو متر وفي امريكا (٣٩،١٩٨) كيلو متر وفي المانيا (١١،٩٧٥)

كيلو متر وفي فرنسا (١١٦١٥) كيلو متر والباقي في سائر جهات اوروبا وغيرها ومن ذلك في القطر المصري (٥١٨) كيلو متر ثم تم بعد ذلك باقي ما عملت مشارطاته وزاد عليه كثير غيره واذا قايسنا بين هذه المقادير وبين اهل الجهات المذكورة نرى ان كل مليون من الاهلين اي الف الف يقابله ٢٠٠٠ كيلو متر من سكك الحديد في بلاد ايتازوينا والف كيلو متر في بلاد الانكليز وخمسمائة كيلو متر في فرنسا والمانيا وما من يوم الآ ويحدث فيه انشاء سكك جديدة توصل بعض البلاد لبعضها فهي كل يوم في تجديد وكل وقت في مزيد

فقال الشيخ ان السكك الحديدية في مصر عملت على نفقة الحكومة وهي تقوم بما يلزم من مصروفها وتاخذ ما يتحصل من ايرادها فهل الجاري في سائر الجهات مثل ذلك

فقال الانكليزي الجاري في البلاد الاوروبية على خلاف ذلك فان انشاء سكك الحديد فيها يكون على نفقة شركات تتالف من شركاء قليلين او كثيرين على حسب حالة السكة المطلوب انشاؤها والنقود اللازم صرفها عليها فهم يصرفون عليها وياخذون اجرة ما يحمل فيها من المسافرين والبضايع التجارية وغيرها بمقتضى قوانين موضوعة فيها حدود مقررة لا يقدرون على تعديها وذلك لاجل راحة الناس وعدم تمكن ارباب تلك الشركات من اطلاق التصرف بما يخل بالغرض الاصلي وهو تسهيل امر

النقل والسفر لجميع الناس مع الراحة والامن باجرة اقل مما كانوا يصرفونه على ذلك في غير سكة الحديد

وقد قدر عدد المستخدمين في سكك الحديد في كل ميريا متر اي عشرة من الكيلو متر فوجد ٧٥ شخصًا في بلاد الانكليز و ٧٢ شخصًا في بلاد المانيا و ٧١ في فرنسا فكل شركة من الشركات المشتغلة بهذه الاعمال تستعمل في الاقل نحو (٢٧٫٠٠٠) شخص وذلك عبارة عن جيش كل افراده مستعملة في توسعة دائرة الثروة البشرية ومتعيشة في ساحة الشركات المذكورة فلو حسبنا مقدار جميع المشتغلين بخدمة سكك الحديد التي ذكرناها لوجدناه يقرب من مليون اي الف الف من الناس

ولو نظرنا الى ما يصرف في هذه السكك لوجدناه يبلغ مبالغ تتجاوز حد المعهود فقد وجد متوسط ما يصرف في انشاء كل كيلو متر في بلاد الانكليز نحو (٢٢٫٧٢٠) جنيه انكليزي وفي بلاد المانيا (١١٫١٢٠) وفي امريكا (٥٫٠٤٠) جنيه وفي فرنسا (٢٠٫١٢٠) جنيه من هذا (٢٫٤٠٠) جنيه ثمن الارض و (٥٫٦٠٠) جنيه ثمن القضيب من الحديد و (٢٫٤٠٠) جنيه ثمن الادوات ومصاريف الجسر والتركيب والباقي في المباني ويختلف المصروف كثرة وقلة بحسب الجهات فيكون في قرب المدن كثيرًا جدًا فقد لزم صرف قدر مليون جنيه انكليزي في المرور من مدينة ليون وصرف على محطة باريس نحو (١٫٢٠٠٫٠٠٠) جنيه

انكليزي وغالب المحطات النهائية يلزم لها مصاريف هائلة فأن بعضها يحتاج من الارض الى ما يقرب من مائة فدان مصري

فلو قدرنا متوسط هذه المقادير وجعلناه قيمة كل كيلو متر واحد في جميع الجهات وحسبنا به الجميع نجد ان ما صرف في انشاء ما سبق ذكره من السكك يبلغ تقريباً نحو ١٧٣٠٠٠٠٠٠ جنيه انكليزي فما بالك لو حسبنا مصروف المعامل الجاري فيها اعمال الات هذه السكك وادواتها

قال الشيخ فهل جميع السكك في جميع الجهات على نسق واحد ام هي مختلفة

قال الانكليزي ليست على نسق واحد في جميع الجهات ففي بلاد امريكا تجد غالب السكك على خط واحد فيه ميول اي انحدارات كبيرة وغالب المحطات فيها من الخشب والاصل في ذلك رعاية قلة المصرف وعدم الاسراف وفي بلاد الانكليز وفرنسا جميع السكك على خطين والمحطات واسعة مشيدة صرف عليها مصروف كثير والاصل في ذلك رعاية كثرة رغبة الناس وفي بلاد الالمانيين بعض السكك خط واحد وبعضها على خطين ولكن منذ قريب راوا لزوم جعلها كلها على خطين وبالجملة فاختلاف السكك تابع لدرجة تمدن البلاد ودرجة عمارتها وثروة اهلها

قال الشيخ ارى هذه السكك قد صرف عليها اموال هائلة

على ما ذكرت ولكن ربحها بالضرورة اعظم فان ارباب الشركات التي ذكرتها انما اشتغلوا بها طلبًا للربح والمكسب فهل حسب ذلك او قدر

قال الانكليزي قد حسب مقدار المتحصل من اجرة السكك المذكورة سنة ١١٧٣ فكان في بلاد الانكليز اجرة المسافرين (١١،٣٦٠،٠٠٠) جنيه واجرة البضاعة (١١،٠٠٠،٠٠٠) جنيه ايضًا فيكون مجموع المتحصل من الاثنين (٢٢،٣٦٠،٠٠٠) جنيه وفي بلاد فرنسا اجرة المسافرين (٥،٥٢٠،٠٠٠) جنيه واجرة البضايع (٦،٠٤٠،٠٠٠) جنيه فيكون مجموعها (١١،٥٦٠،٠٠٠) جنيه وفي المانيا كانت اجرة البضايع ثلثي المتحصل كله فاذا قايسنا بين طول السكك والاجرة الحاصلة منها نجد انه يحصل على كل كيلو متر واحد في بلاد الانكليز ١٦٤٨ جنيه وفي فرنسا ١٩٤٠ جنيه وفي المانيا ١١٦٨ جنيه كل ذلك باعتبار الجنيه الانكليزي !!

وما يصرف سنويًا على سكك الحديد يختلف باختلاف البلاد والاشغال المرتبة لكل سكة بها والقائمين بادائها فهو في بلاد فرنسا اربعة واربعون من كل مائة من اصل المتحصل وفي بلاد الانكليز خمسة واربعون في المائة وفي المانيا اربعون

وسكك الحديد في بلاد الفلمنك جارية على طرف الحكومة كما في مصر ويصرف عليها سنويًا خمسة وعشرون من المائة من اصل المتحصل وذلك في السكك الموجودة في جهاتها الشمالية

واربعة وخمسون من المائة في سكك جهاتها الجنوبية وخمسة وستون في جهاتها الشرقية واربعة وتسعون في جهاتها الغربية

فقال الشيخ اظن ان ربح سكة الحديد هنا كثير جداً بسبب كثرة ما ينقل بها من المسافرين والبضاعة فقد سمعت انه يسافر في اليوم الواحد من مصر نحو ستة قطارات ومثلها من اسكندرية بعضها مشحون بالناس المسافرين وبعضها بالبضاعة وهذا غير جهات الفروع وجهة الصعيد

فقال الانكليزي لا ادري حاصل ايراد السكة بمصر ومصروفها فان هذا انما يعلم من نتائج تعمل عنه في كل سنة وما رأيت شيئاً من ذلك يتعلق بمصر وقد كان خطر ببالي ان اسال من حضرتكم عنه

قال الشيخ ومن اين لي علم ذلك وهذه المرة اول مرة ركبت فيها هذه السكة فاني بحسب احوالي المعاشية واشغالي اليومية ما كنت اجد موجباً للسفر ولا خرجت من مصر منذ دخلتها الاّ مرة واحدة لامر مهم وذلك ان والدي توفي وترك ايتاماً فذهبت واحضرتهم ولم احتج الى السفر قبلها ولا بعدها فلما لم يكن لي حاجة الى السفر في كل وقت لم يكن لي تفكر في مثل هذه الامور التي هي من لوازمه على انا في بلادنا ليس لنا عادة بالبحث عن مثل هذه الاحوال حتى ان من يضطر منا الى كثرة السفر لا تجد له عناية بمعرفة ذلك وانما يعرف مقدار الاجرة التي يدفعها في السكة

وفي غيرها كالدابة والمركب مثلاً ويختار ما هو الارجح لهُ من غير ان يبحث عن ربح صاحب السكة او الدابة او المركب مثلاً فهذه عادتنا وطريقتنا وان كان هذا الامر ربما عابه علينا غيرنا بالنظر لعاداتهم وعلى الجملة فليس عندي شيء من معرفة ربح هذه السكة او خسارتها فان كان عندك علم بمقدار ارباح سكك الحديد في غير هذه البلاد فارجوك ان تبين لي منه نبذة فربما يمكن لنا ان نقيس احوالها في هذه البلاد على غيرها

فقال الانكليزي ليس الحال في جميع الجهات واحداً فعندنا في بلاد الانكليز كان الربح في بعض السنين اربعة في المائة تقريباً وكان مرة سبعة ومرة تسعة في بعض الجهات بعد طرح جميع المنصرف من اصل المتحصل وفي فرانسا بلغ مرة خمسة ومرة ستة ومرة تسعة كذلك وفي المانيا بلغ الربح زهاء عشرة في المائة وفي بعض جهاتها نحو اثنين وعشرين في المائة وفي ايتازوينا بلغ الربح في بعض جهاتها عشرة وفي اخرى اثنى عشر وخمسة عشر في المائة وليست تدوم هذه الارباح على قدر واحد وحد معين بل تزيد وتنقص بحسب الاسباب ومقتضيات الاحوال وكذلك المصاريف

قال الشيخ اني ارى محلات جلوس الناس في هذه السكة مختلفة متفاوتة في الفرش والزينة والرونق فما وجه ذلك هل هو بحسب اقدار الناس ومراتبهم ام كيف يكون

قال الانكليزي ذلك بحسبما يدفعونه من الاجرة فان

العربات المعدة لركوب المسافرين في سكة الحديد تكون على ثلاث درجات احداها وهي اعظمها واكثرها اجرة الدرجة الاولى وهي التي نحن فيها · ثانيتها الدرجة الثانية وهي دونها واقل منها اجرة · ثالثتها الدرجة الثالثة وهي دون الثانية واقل منها اجرة فكل من رغب في واحدة من هذه الدرجات يدفع ما قدّر لها من الاجرة وينزل فيها وثم عربات من غير هذه الدرجات الثلاث معدة لنقل الدواب والبضايع وغيرها

قال الشيخ الظاهر مما رايت ان الذين ينزلون في الدرجة الثالثة اكثر

قال الانكليزي نعم هذا هو الواقع وقد قرأت منذ قريب كتاباً الفه بعض الفرنسوية حديثاً في احوال السكة الحديد يقول فيه قد دلّت التجاريب على ان كل مائة من المسافرين في سكة الحديد يكون منهم ٩ فاكثر الى ١٣ في الدرجة الاولى ومن ١٦ الى ٢١ في الثانية ومن ٦١ الى ٧٣ في الثالثة ومتحصل اجرة الدرجات الثلاث يكون فيه نحو ثلاثين في المائة من الدرجة الاولى ونحو اربعة وعشرين في المائة من الدرجة الثانية والباقي من الدرجة الثالثة وهذا في فرانسا واما في المانيا فللدرجة الاولى خمسة في المائة وللثانية ٢٣ وللثالثة الباقي وقد قسم متوسط الاجرة على مقدار طول السكة فوجد انه يقع منه لكل كيلو متر من اجرة كل انسان ستة سنتيمات وثلث سنتيم في فرانسا و ٨ وثلث في

بلاد الانكليز والسنتيم عشر عشر الفرنك والفرنك ثلاثة قروش واربعة وثلاثون نصفًا فضة بالمعاملة الديوانية الجارية بمصر وكل عشرين فرنكًا بنتو واحد وما يتحصل من اجرة البضاعة اكثر مما يتحصل من اجرة المسافرين فاذا نسبنا احدهما للاخر وجدنا اجرة المسافرين في بلاد الانكليز نحو ٤٧ من المائة وفي بلاد فرانسا نحو ٤٤ وفي المانيا نحو ٣٨ تقريبًا وليست هذه المقادير ثابتة على الدوام بل تتغير باسباب كثيرة وعلى الجملة فحاصل البضاعة آخذ في الزيادة دائمًا وعليه مدار سكك الحديد فانها لا تحتاج الى ما يحتاجه المسافرون من كثرة السرعة وزيادة المصرف وقد احصي ما نقل من البضاعة بواسطة سكك الحديد في جهات فرانسا سنة ١٢٥٩ من الهجرة فبلغ ٣٥،٠٠٠ طونيلاته وبلغ في سنة ١٢٦٧ من الهجرة ١٣٢،٠٠٠ وبلغ في سنة ١٢٧٣ للهجرة ٣٢٧٠٠٠؟ طونيلاته والآن يبلغ ما ينقل في السنة الواحدة في فرانسة نحو (١٢،٠٠٠،٠٠٠) وفي انكلترة نحو (٦٢،٠٠٠،٠٠٠) طونيلاته

وهذا نتيجة احداث فروع جديدة وتقليل شيء من مقدار الاجرة فقد كان يوخذ اولاً على كل طونيلاته ستة عشر سنتيمًا في كل كيلو متر من السكة والآن لا يوخذ الاّ سبعة سنتيمات وذلك في بلاد فرنسا كما حققه صاحب الكتاب المذكور

والذي دعا اصحاب الشركات الى تقليل الاجرة انهم راوا ان ما صرف في انشاء سكك الحديد من الاموال مع ما يحسب عليها

من الفائدة يدخل في المصروف السنوي بقدر ١٢٠٠ جنيه في كل كيلو متر ولا ينقص هذا القدر الا بزيادة ما ينقل من البضائع وغيرها اذ لو كان المنقول من البضاعة مائة الف طونيلاته مثلاً وكان المصروف على كل طونيلاته ثلاثين سنتيماً في كل كيلو متر فلا يزيد مصروفها عن ثلاثة سنتيمات اذا كان المنقول قدر الاول عشر مرات فعلموا ان تقليل الاجرة يستوجب كثرة ورود البضاعة وزيادة الربح ثم رأوا ان كل طرد من طرود البضاعة يحتاج الى بعض اعمال كالوزن والتخزين والكتابة ونحو ذلك وهذه الاعمال لا يحتاج اليها الا في المحطة التي يشحن منها والتي يرسل اليها ولا دخل لطول المسافة وقصرها في ذلك ومصاريف هذه الاعمال وان كانت تختلف باختلاف المحطات الا انها يمكن تقديرها ١٢٠ سنتيماً لكل طونيلاتة فان كان طول المسافة عشرة كيلومترات فلا تكون الا اثنى عشر سنتيماً لكل كيلو متر فان كانت مائة كيلو متر فلا يكون لكل كيلو متر الاّ سنتيم وخمس فان بلغت المسافة ٢٠٠ كيلو متر كانت قليلة جدًا فلهذا رأوا ان يمنحوا اصحاب البضائع المرسلة الى مسافات بعيدة بعض امتياز على غيرهم في خفة الاجرة استجلاباً لازدياد رغبتهم ووجدوا في ذلك زيادة الربح والمكسب وكذلك التجار الذين لهم ارساليات منتظمة اعطوهم من الامتياز ما منحوه لاصحاب البضائع المرسلة الى المسافات البعيدة فرأوا في ذلك ربحًا

كثيرًا وثمرة عظيمة

ثم انهم رأوا ان كثيرًا من العربات تكون في معظم المسافة فارغة ويذهب مصروف نقلها سدى ووجدوا مصروف القطار يبلغ ١٥٠ سنتيمًا في كل كيلو متر فاذا كانت البضاعة المحمولة ٢٥ طونيلاته مثلاً كانت الاجرة الحقيقية على حسب ذلك ستة سنتيمات لكل كيلو متر فان كانت البضاعة ١٥٠ طونيلاته كانت الاجرة في كل كيلو متر سنتيمًا واحدًا فكلما كان المنقول اكثر كانت قيمة الاجرة اقل فمن ثم رأوا ان المسألة التي يلزم التنبه لها هي منع الفوارغ ما امكن فتوصلوا الى هذا الغرض بنقص اجرة اللوازم الأولية كالحجر والجير مثلاً لتنقل الى البلاد البعيدة والقريبة والكيفية التي استعملوها في تقدير الاجرة لمثل ذلك هي انهم عرفوا فرق ثمن الصنف بين الجهة التي يرسل اليها وجعلوه هو الاجرة للصنف

فحصل لهذه التدبيرات وامثالها ثمرات عظيمة وفوائد جمة فزاد ربح اصحاب الشركات وزاد ايضًا انتفاع الناس بسكك الحديد زيادة تذكر

وبينما هما يتحادثان في هذا الكلام وكانا قد وصلا الى قريب محطة بركة السبع اذ وقف القطار في غير موضع وقوفه وسمع في اخريات القطار جلبة وبعض اصوات مختلطة ونظر الشيخ فاذا بعض الناس ينزلون من محلاتهم وهو لا يدري السبب في ذلك

فسأل بعضهم فاخبره ان احدى العربات وجدت فيها نار والناس من خدم السكة مشتغلون باطفائها فخاف الشيخ وقال لولده وللانكليزي قوما بنا ننزل

فقال الانكليزي لاتخف يا مولانا ولا تجزع فهذا امر يكثر حصوله في سكك الحديد ولا ضرر فيه ولا خطر وسترى هذه النار انطفأت في بعض دقائق من الزمن وفي الواقع لم تمض برهة قليلة حتى انطفأت النار وسار القطار كما كان فاطمأن خاطر الشيخ ولكنه اخذ يلوم على من يستعمل الدخان حيث ظن ان ذلك منه وينسب التقصير الى خدم السكة لعدم التفاتهم لمنعه

فقال الانكليزي ليس هذا يا مولانا من استعمال الدخان وانما هو من شدة احتكاك الدناجل واللقم وليس من احد وهذا اصغر خطر يحصل في السكة ولها اخطار كثيرة غير هذه نعوذ بالله منها ولكنها الآن اقل مما كان يحصل في السابق بكثير فلا يحصل الا في النادر وذلك بسبب ما تجدد لسكك الحديد وآلاتها من التحسين رعاية لسلامة المسافرين

قال الشيخ كان فيما سلف من الزمن قد حصل هنا في سكة الحديد عند كفر الزيات امر هائل شاع ذكره وانتشر خبره وعظم خطره ومات بهِ خلق كثير فاكثر الناس وقتئذٍ بسببه من ذم سكة الحديد وتهويل امرها والتحريض على تركها

وتفضيل المراكب عليها ثم تنوسي ذلك

قال الانكليزي من دأب الخلق ان يشتغلوا بالامور عند وقوعها ويتركوها اذا تقادم عهدها ولو تأملوا في الامور حق التامل وقارنوا بين الحوادث الواقعة وبعضها لحكموا بالصواب ولكنهم يخبطون فيها خبط عشواء فيحكمون من غير رَوِيَّة ولا تدبر فمن ذلك حكمهم على سكة الحديد بحادثة مضرّة حصلت او بعض حوادث وتفضيلهم غيرها عليها بسبب ذلك من غير حصر ولا نظر لما وقع من الاخطار والحوادث فيما ذهبوا لتفضيله ولو نظروا بعين الحقيقة لرجحوا سكة الحديد على غيرها فانها اقل خطرًا واكثر مزية واخف ضررًا

قال الشيخ وما آية ذلك

قال الانكليزي قد علم من دفاتر الاحصاء انه في مدة ستة عشر سنة آخرها سنة ١٢٧٣ من الهجرة ركب سكة الحديد في امريكا من المسافرين ١،٠٧٠،٢٢٤،٢٧٨ شخصاً مات منهم بحوادث السكة ١٨٧ وانجرح ٢١٥٥ ومن سنة ١٢٥١ الى سنة ١٢٧٣ من الهجرة سافر بسكك الحديد في فرانسا ٢٢٤،٣٤٥،٧٦٩ من الناس مات منهم ١١١ وانجرح ٤٠٢ ومن سنة ١٢٦٨ الى سنة ١٢٧٣ للهجرة نقل بسكة الحديد في بروسيا ٥٥،٥٥٢،٨١٣ شخصاً مات منهم اثنان وانجرح اربعة فيكون جميع من ذكر من المسافرين في تلك الجهات ١،٣٥٠،١٢٢،٩٦٠ مات منهم ٣٠٠

وانجرح ٢٥٤٢١ فيكون قد مات من كل ٤٠٥٠٠٠٠٠ من المسافرين شخص واحد وانجرح من كل ٢٨١٠٠٠ منهم شخص واحد وهذا قليل جدًّا بالنسبة لما حصل في غيرها فقد علم انهُ مات في ارض فرانسة بسبب العربات المعتادة التي تجزها الخيل ١٠٢٢٤ شخصًا في ظرف ستة عشر سنة آخرها سنة ١٢٧٢ هجرية وما حصل من الحوادث في شركة السفن الفرنساوية المسماة مساجري ايمبريال يدل على ان السكة اقل خطرًا من غيرها بكثير فان جملة ما نقلتهُ سفن الشركة من المسافرين في ظرف تلك المدة اعني ستة عشر سنة قد بلغ ٧١٠٢٩٨ شخصًا بلغ عدد من مات منهم ٢٠ وعدد من جرح ٢٢٨ فيكون قد مات واحد من كل ٢٥٥٤٦٢ من المسافرين وجرح واحد من كل ٢٩٨٧٢ منهم وهو اكثر من الحاصل في سكك الحديد بقدر ١٢ مرة

فمن هذه المقارنة يظهر ما ذكرناه من قلة اخطار سكة الحديد عن اخطار غيرها من الطرق المستعملة في النقل والسفر ونسبة هذه الاخطار الى ما حصل من الفوائد كنسبة المعدوم الى الموجود

مثلاً كان المستعمل في بلاد اوروبا للنقل والسفر قبل ظهور سكة الحديد المراكب والعربات المعتادة وكانت لا تقطع في اليوم الا مسافة قليلة فكان يحصل بسبب ذلك للمسافرين تعب كثير

ومشقات عظيمة لا سيما اذا كان السفر الى جهات بعيدة يلزم تقطعها ايام عديدة واكثر ما كانت تقطعه هذه العربات في اليوم ٤٠ كيلومترًا وهو ما يقطع بسكة الحديد في ثلاثة ارباع ساعة ولا يخفى ما في ذلك من الفوائد العظيمة والراحة التامة ومن ثم كثرت حركة الناس منذ وجدت سكة الحديد وزادت عن الاول بكثير فصارت في بعض البلاد ثلاثة امثال ما كان قبل وفي اخرى مثليه وفي جهات امريقا كانما احدثتها سكة الحديد وكانت قبلها غير موجودة

وقرأت في الكتاب الذي سبق ذكره ان الذي كان يتحصل من نقل الناس بالعربات المعتادة في الجهة الشرقية من فرانسة في السنة الواحدة ٢٤٠ جنيه وبلغ بوجود سكة الحديد ١٠٨٠ جنيه فلما رتبت قطارات مخصوصة للنزهة والتفسح اقل اجرة من القطارات المعتادة زاد ذلك حتى بلغ ١٦،٣٦٠ جنيه

فاذا فرضنا ان المسافرين في السنة في سكك الحديد في جميع مملكة فرانسة مثلاً وهم ٧٥،٠٠٠،٠٠٠ من الناس يسافرون مسافة ٤٠ كيلو متر قلنا ان كل واحد منهم توفر لهُ ثلاث ساعات كانت تمضي في السفر والحركة فان هذه المسافة يقطعها الوابور في ساعة وتقطعها العربة المعتادة في اربع ساعات فجملة ما توفر لجميعهم ٢٢٥،٠٠٠،٠٠٠ ساعة فاذا فرضنا ان الساعة لكل منهم قيمتها نصف فرنك كان المتوفر لهم في السنـــة

١١٢٥٠٠٠٠٠ فرنك اي ٤٥٠٠٠٠٠ جنيه وقبل حدوث سكة الحديد كانت نفقة المسافر الواحد من زاد وغيره في كل كيلو متر واحد تقرب من ١٢ سنتيما وهي الآن لا تزيد عن سبعة سنتيمات ونصف فتوفر لهم بهذا السبب ايضاً ٥٤٠٠٠٠٠ جنيه فيكون جملة ما توفر لهم من هذا وذاك ٩٩٠٠٠٠٠ جنيه

فتبسم الشيخ وقال لو كان السفر على الدابة كالحمار والجمل مثلاً لكان مقدار الوفر بالضرورة اكثر لان سير هذه الدواب اقل سرعة من العربات المعتادة فانها لا تسير في الساعة اكثر من ملقة فاذا كانت المسافة بعيدة لم يكن اللازم للمسافر في مونة نفسه وحده بل يلزمه ايضاً مؤنة دابته واجرة حرسها اذا بات في احدى المدن

فقال الانكليزي اذا كان المسافرون على الدواب بالعدد الذي قدرناه لارض فرانسة كان الوفر قدر ما مر ذكره سبع مرات واكثر وما حصل بواسطة هذه السكك من السهولة والسرعة في النقل قد زادت حركة التجارة وكثر نقل البضاعة وحصل منها ربح عظيم وبعد ان كان الحاصل من اجرتها لا يبلغ ثلث المتحصل من جميع المنقولات وصل بواسطة السكك الى ثلثيه والى ثلاثة ارباعه في بعض الجهات ثم صار المتحصل من البضاعة قدر المتحصل من المسافرين ثم زاد عنه وما زال يزداد

حتى صار قدره مرتين وثلاث مرات

وقد علم من نتائج الحساب في سنة ١٢٨١ هجرية ان مقدار البضايع المنقولة في ارض فرنسا الى مسافة الف متر كان يقرب من اربع مليارات طونيلاته اي اربعة الاف الف الف فلو قدرنا ان هذا القدر كان ينقل بالكيفيات التي كانت مالوفة في السابق وكانت ثلاثة مليارات منه تنقل بالعربات العادية ومليار واحد ينقل بالسفن في البحر قلنا ان نقل ذلك بواسطة سكة الحديد بدل الوسائط السابقة قد حصل منه وفر عظيم وذلك لان اجرة النقل بالوسائط المذكورة على كل طونيلاته مسافة الف متر تكون من اربعة عشر سنتيمًا الى ستة عشر فاذا حسب سبعة فقط كان الوفر في كل طونولاته اربعة سنتيمات ونصفًا فان سكة الحديد يؤخذ فيها سنتيمان ونصف فقط فيتوفر لاصحاب البضاعة في السنة الواحدة من المنقول بالعربات المعتادة (٤،٨٠٠،٠٠٠) جنيه ومن المنقول في البحر ايضًا يتوفر على كل طونولاته اربعة سنتيمات فينتج من ذلك (١،٦٠٠،٠٠٠) جنيه فيكون مجموع ما توفر مما ذكر لاصحاب البضاعة في السنة الواحدة (٦،٤٠٠،٠٠٠) جنيه ويلزم ان يضاف الى هذا ايضًا مقدار النقص الذي حصل في اجرة المنقول بالمراكب بعد حدوث السكة غير ما ذكر لانها كانت السبب فيه فاذا حسبنا ذلك باعتبار ما نقل في البحر سنة ١٢٨١ هجرية يبلغ (٣،٦٨٠،٠٠٠) جنيه فيكون مجموع ما وفرته السكة على اهل

المملكة المذكورة في سنة واحدة نحو (٢٠،٠٠٠،٠٠٠) جنيه

وقد علم بالاستقراء والاستقصاء ان حال الطرق الاولى لم تتغير وحركة المراكب لم تنقص كما يزعم بعض الناس بل زادت فقد كان الموجود سنة ١٢٥٧ هجرية في ارض فرنسا من سكك الحديد (٨٨٤) كيلو متر وكان متوسط عدد العربات العادية الموجودة (٢٤٣) ولما بلغ طول سكة الحديد (٤٩٥٣) كيلومتر في سنة ١٢٦٩ هجرية كان عدد العربات العادية (٢٤٤) فلما وصل طول السكة الى (٨٦٧٩) كيلو متر سنة ١٢٧٥ هجرية كان عدد العربات (٢٤٦) ولما بلغ طولها (١٢،٠١٨) كيلو متر سنة ١٢٨٠ هجرية كانت العربات (٢٣٧) فمن هذا ظهر ان سكة الحديد لم يحصل منها ادنى ضرر لمن كانوا متخذين النقل بالعربة العادية صناعة بل حصل منها منفعة عظيمة لخلق كثير استخدموا في اشغالها واعمالها وربحت اصحاب الاموال منها ربحًا عظيمًا فانهم بعد ان كانوا لا ينالون في السنة الا اثنين في المائة ربحًا صاروا بوضع اموالهم في سكك الحديد يحصل لهم ربح عشرين في المائة

وجملة ما يتحصل من سكك الحديد في بلاد الانكليز لاربابها المتشاركين فيها على جميع ما ينقل بها يبلغ (٢٠،٠٠٠،٠٠٠) جنيه فلو فرض ابطالها بالمرة والرجوع الى الطرق الاولى لزم ان يصرف حينئذٍ على ما كان ينقل بها اذا نقل بالوسائط الاخرى

(٦٠،٠٠٠،٠٠٠) جنيه فقد وفرت سكك الحديد على اصحاب المنقولات (٤٠،٠٠٠،٠٠٠) جنيه فضلاً عن ان الذي ينقل بها لا يمكن ان ينقل بغيرها

فقال الشيخ الحق ان فوائد سكة الحديد عظيمة وثمراتها كثيرة وليست منافعها خاصة بالتجارة بل تعم غيرها من الصناعة والزراعة والعلوم والفنون والعادات والاخلاق والسياسة والعمران والمدنية ففائدتها للصناعة مثلاً انها يسهل بواسطتها نقل المصنوعات من بلد الى بلد ومن مملكة الى مملكة فيكثر استعمالها وتداولها فيزداد صانعوها وتعظم رغبتهم فيها فيحسن حالها وهكذا فائدتها في الزراعة بتسهيل نقل حاصلاتها من الحبوب والثمار وغيرها فيزيد نفعها وتزيد بزيادته رغبة الناس فيها واعتناؤهم بها وهلم جرا

فقال الانكليزي نعم ذلك كما ذكرتم ولكن ليست منفعتها في الزراعة خاصة بنقل حاصلاتها فقط بل تنفعها كثيراً بنقل ادواتها ولوازمها ايضاً كالسماد (السباخ) مثلاً فقد نقل منه بواسطتها الى المزارع باجرة واهية مقادير كبيرة نشرت على الارض القوية والضعيفة فقويت الثانية وزادت قوة الاولى وكثر محصولها وقد كانت القاذورات والفضلات في المدن الخالية عن الزراع تطرح خارجها فتتراكم حولها وتكثر فيها العفونة فتفسد هواءها فيضر بصحة اهلها فلما نشأت سكة الحديد وخففت الاجرة في نقل امثال هذه الاشيا صارت توخذ من المدن فتنقل الى بلاد الريف ومحلات الزراعة

فصارت نافعة بعد ان كانت مضرة وصلحت بها بقاع كثيرة من الارض كانت قفرة مهجورة غير منزرعة ولا مسكونة فعمرت وتزينت بالنبات والاشجار بعد ان كانت لا يرى فيها الاّ ارض يابسة كالحة خالية مما يروق العين ويشرح الصدر

وقد كان ما نقل من هذه المادة بسكة الحديد الى الجهة الشرقية من ارض فرانسة في سنة واحدة فقط وهي سنة ١٢٨١ ١٥٥،٠٠٠ طونولاته ونقل من طين الزراعة المعروف بالطين الحلو ٢٠٠،٠٠٠ طونولاته

فقال الشيخ لو تنبه لهذا الامر اهل بلادي لحصل منه فوائد جليلة وثمرات عظيمة لاهل القرى المصرية فان احتياج ارضهم الى السماد امر غير خفي ولا منكر حتى انهم لقلته وكثرة حاجتهم اليه تراهم يهدمون بيوتهم القديمة ويسمدون بها ارضهم ويصرفون مصاريف كثيرة لجلب السماد من محلات بعيدة بمشقات عظيمة ومن المعلوم ان مدينة القاهرة المحروسة بسبب كثرة سكانها وما بها من الدواب واصناف الحيوان يحصل فيها كل سنة من هذه المادة مقدار كثير وكذلك المدن الكبيرة مثل اسكندرية وغيرها من المدن القريبة لسكك الحديد يحصل فيها من ذلك مقادير عظيمة ليس ينتفع بها في شيء فضلاً عن ضررها فلو اتخذت طرق مستحسنة في نقله باجرة قليلة لانتفعت السكة باجرته واهل القرى باستعماله في مزارعهم وسلم اهل المدن من ضرره الحاصل من

افساده للهواء بتراكمه على بعضه

فقال الانكليزي لكل شيء وقت ولكل وقت حكم ولا بد ان يأتي زمان يحصل فيه ذلك فان الامور لا تقع دفعة بل تجري على التدريج وكم لسكة الحديد من فائدة غير ذلك ومهما نسينا من شيء فلا ننسى فائدتها في مساواة اسعار الاشياء في الجهات المستعملة بينها وقد كانت جهات كثيرة لا يتأتى لها ارسال محصولاتها الى بعض البلاد البعيدة لبيعها بأثمان مناسبة فتيسر لها الآن ذلك بواسطة سكك الحديد واستفادت مما حصل لغيرها من اليسار والثروة وانقطع بورود محصولات الجهات الى بعضها ما كان يكثر حصوله في الازمان السالفة من القحط وما كان يتبعه من المرض

وقد كان محصول ارض فرنسا من سنة ١٢٣٦ الى سنة ١٢٥٦ هجرية ٨٠,٠٠٠,٠٠٠ هيكتولتر من الحبوب ثم صار يزيد بوجود سكك الحديد حتى بلغ في سنة ١٢٥٨ هجرية الى ٩٧,٠٠٠,٠٠٠ هيكتولتر ثم زاد حتى بلغ ١١٦,٠٠٠,٠٠٠ فظهر من هذا انه حصل منها فائدة عظيمة لمحصول الحبوب وزراعتها وزرع بعض اشياء كانت من قبل لا تزرع او كانت محصولاتها قليلة جداً

وقبل سكك الحديد كان سفر الحيوانات التي تحتاج للاكل وللزراعة صعباً شاقاً محتاجاً الى مصروف كثير فسهل ذلك

بوجودها وعمرت بلاد وقرى كثيرة بما جلب اليها من هذه الحيوانات واتسعت دائرة زراعتها وكثرت محصولاتها بكثرة السماد وزاد عدد الناس فيها بزيادة مقدار المحصولات فنمت الثروة في كثير من البقاع كانت خرابًا منذ قرون عديدة وقد بلغ عدد الحيوانات المنقولة في ارض فرانسة بسكة الحديد في سنة واحدة ٤،٢٤٥،٢٨٧ من جميع الاصناف .

وهناك بعض جهات معيشة اهلها من الصيد والقنص وكانوا قبل سكك الحديد لا يمكن لهم نقل شيء مما يحصل لهم الى بلاد ينتفعون فيها ببيعه فكانوا لذلك في فقر مدقع وبؤس شديد فلما ظهرت سكك الحديد امكن لهم نقل ذلك الى المدن العامرة والحواضر البعيدة وبيعه بثمن مناسب انتفعوا بهِ فتخلصوا من شدة الفاقة وحسنت احوالهم

وكان في جهات كثيرة من الارض بقاع غير صالحة للزرع فيها السبخ والرمال ومناقع الماء فكانت غير مسكونة فلما مرت بها سكك الحديد استحوذ كثير من الناس على كثير منها فحرثوها وفعلوا ما يلزم لاصلاحها من التسميد والردم ونحو ذلك حتى صلحت فزرعوها وانتفعوا بها فخرجت من الخراب الى العمارة

وقد تيسر بواسطة هذه السكك للعلماء واصحاب الحرف والصنائع التنقل الى البلاد البعيدة والاطلاع على امور كثيرة امكنهم بها تطبيق القواعد العلمية على العمل ورسوخها في اذهانهم

واستنتاج نتائج علمية جديدة كثرت بها الفنون واتسعت العلوم وهذا فضلاً عن اختلاطهم ببعضهم والمذاكرة بينهم في امور مهمة من العلم الى غير ذلك من المزايا العظيمة التي يطول تعدادها ولا ينتهي نفعها

فلما انتهى الكلام بهما الى هذا الموضع كانا قد وصلا الى طنطا وعرف الشيخ وابنه برهان الدين فقرآ ما تيسر من القرآن الكريم واهديا ثوابه الى صاحب المقام بها سيدي احمد البدوي رضي الله تعالى عنه

المسامرة الثامنة

طنطا

فقال الانكليزي هذا البلد يسمى عند بعض الناس طنطا وبعضهم يسميه طندتا ولم اعلم اصل ذلك

فقال الشيخ سمعت ممن لهم مزيد الشهرة في عصرنا بالمعرفة والخبرة باللسان المصري القديم واتقانه قرأة وكتابة وفهماً ان اصل اسمها في اللسان المذكور طنطا بطاءين مفتوحتين بينهما نون مفتوحة ايضاً ومعناه في ذلك اللسان بلدة الحمد قال ثم حرفه القبط

وقالوا طندتا بفتح الطاء وسكون النون وكسر الدال وتشديد التاء فمن قال طنطا بسكون النون فهو تخفيف طنطا بفتحها واما طندتا فهو كما تصرف القبط فيه

فقال الانكليزي اني ارى لهذا السيد عند الناس اعتقادًا عظيماً ومحبة شديدة وتعظيماً كثيرًا واقبالاً على موالده فهل بينه وبين نبيكم نسب معلوم او قرابة متصلة ام لا فان كان على ذكر منك شيء من علم ذلك فمن عليَّ ببيانه

فقال الشيخ نعم اذكر لك ما علق ببالي وبقي في حافظتي من ترجمته وبعض خبره مما قراته في كتب كثيرة ككتاب المقريزي وحسن المحاضرة للسيوطي والطبقات للشعراني وهذا غير الكتب المختصة بترجمته وحكاية مناقبه ككتاب الجواهر السنية لعبد الصمد وكتاب يونس المعروف بأزبك الصوفي وغير ذلك وهذه نبذة من ترجمة امرة على سبيل الاجمال

هو ابو الفتيان الملثم الشريف العلوي سيدي السيد احمد البدوي ابن علي بن ابراهيم بن محمد بن ابي بكر بن اسماعيل بن عمر بن علي بن عثمان بن حسين بن محمد بن موسى بن يحيي بن عيسى بن علي الهادي ابن محمد الجواد بن حسن العسكري بن جعفر بن علي الرضا ابن موسى الكاظم ابن جعفر الصادق ابن محمد الباقر ابن علي زين العابدين ابن الحسين سبط رسول الله صلى الله عليه وسلم بن الامام علي بن ابي طالب بن عبد

المطلب جد رسول الله صلّى الله عليه وسلم فهو يلتقي نسبه معه صلّى الله عليه وسلم في جده الاقرب عبد المطلب بن هاشم

نسب كأن عليه من شمس الضحى

نوراً ومن فلق الصباح عمودا

وكان سلفه كما قيل قد خرجوا من مكة حين قدم اليها الحجاج بعساكر الشام من طرف عبد الملك بن مروان الاموي لقتال عبدالله ابن الزبير فغلب الحجاج على بن الزبير وصلبه وجعل يتسلط على الاشراف فرحل منهم خلق كثير فكان ممن رحل الشريف محمد الجواد ابن حسن العسكري احد اجداد السيد البدوي جمع بني عمه ومن يعز عليه من قومه وخرج بهم من مكة فساروا وصاروا يتنقلون من بلد الى بلد حتى دخلوا بلاد المغرب سنة ٧٣ من الهجرة فاستوطنوا مدينة فاس واحبهم اهلها وتزوجوا منها واقاموا بها ما شاء الله تعالى وفيها ولد ابراهيم بن محمد الجد الادنى للسيد وتزوج بابنة اخي السلطان بها وقتئذٍ فأولدها عليًّا والد السيد وغيره فلما كبر الشريف علي بن ابراهيم تزوج من أكابر الناس واهل الحسب فاطمة بنت محمد بن احمد بن عبد الله بن مدين ابن شعيب ام السيد فاولدها ثلاثة اولاد وثلاث بنات وكان اخر اولادها سيدي احمد البدوي رضي الله عنه ولد في زقاق الحجر بمدينة فاس سنة ٥٩٦ من الهجرة ثم رحل بهِ ابوه علي بن ابراهيم مع سائر اولاده واهله سنة ٦٠٣ هجرية

يريد الحجاز للحج فمر في طريقه بمصر واقام معهم بها مدة ثم سافر بهم الى الحجاز فحجوا سنة ٦٠٧ واقاموا بمكة وكان عمر سيدي احمد البدوي احدى عشر سنة وعرف من بين اخوانه بالبدوي من كثرة ما كان يتلثم ولبس لثامين لا يفارقهما وكان يعرف في صغره باحمد الزاهد واخذه تحت كنفه اكبر اخوته حسن بن علي واقرأه القرآن العظيم فحفظه وجوّده وتفقه على مذهب الامام الشافعي محمد بن ادريس رضي الله عنه واشتهر في مكة بالشجاعة والفروسية ثم انه حدثت لهُ حال في نفسه فتغيرت احواله ولزم الصمت والعبادة واستمر مقيمًا بمكة الى ان مات ابوه سنة ٦٢٧ هجرية ثم سار منها مع اخيه حسن في شهر ربيع الاول سنة ٦٣٣ راحلاً الى العراق ودخل بغداد وجال في البلاد ولقي اكابر الاقطاب والعلماء العارفين ثم عاد اخوه المذكور الى مكة ولحق بهِ هو فقدم مكة ثانيًا ولزم الصيام والقيام بها الى ان رحل منها الى مصر ونزل ناحية طنطا في رابع عشر ربيع الاول سنة ٦٣٧ فدخل دار شخص من مشايخها يعرف بابن شحيط فصعد الى سطح داره فاقام بهِ لا يفارقه لا صيفًا ولا شتاء مدة طويلة واعوامًا كثيرة وكان لهُ امامان يصليان بهِ وكان اذا جن الليل يقرأ القرآن الى الصباح ولم يزل هناك الى ان توفي رضي الله عنه يوم الثلاثاء ثاني عشر ربيع الاول سنة ٦٧٥ وعمره ٧٩ سنة عَدَدُ جمَّلْ قولِنا (المَدَد) وكان طويلاً غليظ الساقين عبل الذراعين اكحل العينين كبير

الوجه عظيم الوجنتين ولونه بين البياض والسمرة وكان في وجهه ثلاث نقط من اثر الجدري واحدة في خده الايمن واثنتان في الأيسر اقنى الانف على انفه شامتان من كل ناحية شامة اصغر من العدسة وكان بين عينيه جرح موسى جرحه بهِ ولد اخيه الحسين في الأبطح حين كان بمكة في صغره وكان في حياته معظمًا معتقدًا عند الناس محبوبًا فيهم مشهورًا في الافاق تعلوه هيبة ووقار وكان الملك الظاهر ابو الفتوحات بيبرس البندقدار يعتقده ويبالغ في تعظيمه وكان السيد قد اخذ طريق الصوفية عن الشيخ عبد الجليل بن الشيخ عبد الرحمن النيسابوري وكان هذا الشيخ يجتمع على اخيه الشريف حسن فلما كبر سيدي احمد جمعه عليه فالبسه خرقة التصوف واخذ عليه العهد كما تلقاه عن مشايخه واحدًا عن واحد الى انس بن مالك الصحابي رضي الله عنه الى رسول الله صلّى الله عليه وسلم وذالك ان ياخذ الشيخ على مريده العهد والبيعة على الطاعة والمتابعة لكتاب الله وسنة رسوله والمحبة لله ولرسوله ويأمره بالمعروف وينهاه عن المنكر. ويكون لهُ عونًا على العلم مرشدًا لهُ في الاعمال والاخلاق وسائر الاحوال فيكون الشيخ للمريد كالمربي للطفل والوالد الناصح الشفيق المولد المطيع وقد اتخذ سيدي احمد الخرقة الحمراء شعاره وشعار اتباعه وقال لخليفته سيدي عبد المتعال اعلم اني اخترت هذه الراية الحمراء لنفسي في حياتي وبعد مماتي وهي علامة لمن

يمشي على طريقتنا من بعدي فقال له سيدي عبد العال فما شروط من يحملها قال شرطه ان لا يكذب ولا يأتي بفاحشة وان يكون غاض البصر عن محارم الله طاهر الذيل عفيف النفس خائفاً من الله تعالى عاملاً بكتابه ملازماً للذكر دائم الفكر وقد ورد في صحيح الاحاديث ان رسول الله صلى الله عليه وسلم لبس حلة حمراء وورد ايضاً انه قدم لواء بني سليم يوم فتح مكة على الالوية وكان احمر واما خلفاؤه وتلامذته واصحابه الذين اجتمعوا به على السطح فسموا السطوحية فكثير جداً اكبرهم خليفته الشيخ عبد المتعال وهو صاحب الثوب الأحمر الذي يلبسه الخليفة في المولد في كل سنة وهو الذي بنى بمقام سيدي احمد البدوي المنارة ورتب السماط وتخلف بعد السيد فشيد اركان البيت وقصده الناس للزيارة من الاقطار البعيدة الى ان توفي يوم السبت الموافق لعشرين خلت من شهر ذي الحجة سنة ٧٣٢ هجرية ودفن قريباً من قبة السيد ومنهم الشيخ علي البريدي وهو من أجل تلامذته ويقال انه كان قد ارسل اليه بهدية من طرف سلطان وقته فمال قلبه الى الشيخ واحبه ولزم مجلسه وانقطع اليه فلما مات دفن تجاهه وكان يقول لما اجتمعت بسيدي احمد رأيته في عيني اعظم حرمة من السلطان ولما نزل السلطان لسيدي احمد يزوره وجدني في خدمته فقال لي هنيئاً لك يا علي وتلامذته كثير جداً يطول تعدادهم واجتمع به من العلماء خلق

كثير منهم العلامة الشهير قاضي القضاة شيخ الاسلام تقي الدين بن دقيق العيد سمع بشهرته وكثرة اعتقاد الناس فيه فمضى اليه وصعد اليه السطح فوجد رجلاً مغطى بثوب كالمغشي عليه فلما رآه قال في نفسه سبحان الله ما هذا الاعتقاد من الناس في هذا الرجل وما هذه الشهرة وليس فيه ما يوجب ذلك وما هو الاَّ مجنون من المجانين فرفع اليه السيد رأسه وكشف وجهه وانشد

مجانين الا ان سر جنونهم

عزيز على اعتابهِ يسجد العقلُ

فلما كلمه عرف الشيخ قدره وعظمه واعتذر اليه وقبل يده

ويحكى ان ابن دقيق العيد قبل ان يجتمع بهِ ارسل الى الشيخ عبد العزيز الديريني يقول له امتحن لي هذا الرجل الذي اشتغل الناس بامره واسأله فان وجدته من اهل العلم والفضل فاطلب لي منه الدعاء وارسل عرفني باحواله فمضى سيدي عبد العزيز الى طنطا وكان المتولي بها القاضي علاء الدين وكان خليفة الحكم العزيز فمضى اليه الشيخ عبد العزيز واخبره وسأل عن محل السيد فوصف لهُ فمشى اليه واستأذن الشيخ عبد المتعال فاذن لهُ فصعد الى السيد وسلم عليه فرد عليهِ السلام وساله ما شاء الله من المسائل فاجاب عنها باحسن جواب وقال سلني عما شئت فاني اجيبك فعظم في عينه واعتذر لهُ وارسل الى قاضي القضاة يعلمه وكان الشيخ عبد العزيز بعد ذلك اذا سئل عن السيد يقول

هو بحر لا يدرك لهُ قرار ومما نقل عن السيد البدوي يرويه عن الحسن البصري قال ست مسائل من جواهر الحكمة اولها من لم يكن عنده علم لم تكن لهُ قيمة في الدنيا ولا في الآخرة الثانية من لم يكن عنده حلم لم ينفعه علمه الثالثة من لم يكن عنده سخاء لم يكن لهُ في ماله نصيب الرابعة من لم يكن عنده شفقة على عباد الله لم يكن لهُ شفاعة عند الله تعالى الخامسة من لم يكن عنده صبر ليس لهُ في الامور سلامة السادسة من لم يكن عنده تقوى ليس لهُ منزلة عند الله تعالى قال في الجواهر السنيه ولما توفي السيد رضي الله عنه عظموا قبره وبنوا عليه وستروه وقام بامر تلامذته من بعده صاحبه الشيخ عبد المتعال فسموه خليفة السيد وعمر بعده طويلاً نحو سنة ٥٨ واشتهر اتباعه بالسطوحية وحدث لهم بعد مدةٍ عمل المولد النبوي عنده وصار يوماً مشهوداً يقصد من النواحي البعيدة (انتهى)

المسامرة التاسعة

الموالد والاعياد والمواسم

ويؤخذ من تعبيره بالمولد النبوي ان اصل المولد المعتاد عمله للسيد البدوي مولد للنبي صلى الله عليه وسلم كان يعمل عنده وقد

كانت وفاة السيد رضي الله عنه في ١٢ ربيع الاول كما مر وهو وقت عمل المولد الشريف مولد النبي صلى الله عليه وسلم وسمعت من بعض المشايخ في اصل عمل الموالد للسيد ان السيد لما توفي كان كثير من تلامذته متفرقين في البلاد لانه كان في حياته اذا جاءه المريد بواسطة الشيخ عبد المتعال نظر اليه وامره ان يقيم في بلدة من البلاد يعينها له فلما سمعوا بوفاته حضروا باتباعهم ومن معهم الى طنطا ليعزوا فيه خليفته الشيخ عبد المتعال وكانت طنطا وقتئذٍ قرية صغيرة فلم تكن تسع هذه الجموع فضربوا خيامهم خارجها حيث يعمل المولد الكبير واقاموا في تلك الخيام ثلاثة ايام فلما ارادوا الرحيل شيعهم الشيخ عبد المتعال وودعهم فقالوا له هذه عادة مستمرة ان شاء الله تعالى نحضرها هنا كل عام في هذا الميعاد الى ما شاء الله فلما جاء العام القابل حضروا للميعاد ثم حضروا في الذي بعده واستمرت هذه العادة فنشاء من ذلك المولد الكبير وكان في الاصل ثلاثة ايام وزاد بعد ذلك الى ان وصل الى ما هو عليه الان كما ان منشاء ركب الخليفة الذي يكون في اخر المولد هو ركوب الخليفة الشيخ عبد المتعال مع جماعته لتوديع هولاء المشايخ ثم صار يزاد فيه الى ان وصل الى ما وصل ثم ان احد المشائخ المنتمين الى السيد وهو الشيخ الشرنبلالي حضر مرة في غير وقت المولد الى طنطا لزيارة السيد مع تلامذته وجماعته فاقام بها بعض ليال كان يشغلها هو وجماعته بالاذكار والعبادات ومن علاة

الفقراء واصحاب الطرق انهم متى وقع لهم الشيء مرة اتخذوه عادة وواظبوا عليه فاتخذ الشيخ الشرنبلالي المذكور ذلك عادة عاودها بعد ذلك سنة بعد سنة فاستمرت ونشاء عنها المولد الصغير وكان يعرف بالمولد الشرنبلالي باسم هذا الشيخ وكذلك كان منشاء المولد الرجبي فان بعض المشائخ وهو الشيخ الرجبي بدا له ان يجدد العمامة الموضوعة على مقام السيد البدوي فاتخذ لها مقداراً كافياً من الشاش المصبوغ باللون الاخضر وحضر به مع جماعته ومريديه الى طنطا ودخلوا به في ركب وموكب من المشائخ والمريدين والفقراء الى مقام السيد فلفوا الشاش الجديد في محل القديم واتخذوا ذلك عادة استمرت كذلك فنشاء عنها المولد المعروف بالرجبي باسم الشيخ المذكور ويعرف ايضاً بمولد لف العمامة تجدد فيه العمامة المذكورة في كل عام ويؤتى بالشاش الذي يتخذ لها في ركب عظيم يوصل به الى المقام فهكذا كان منشاء هذه الموالد فكانت تكرر كل سنة في الميعاد الذي ابتدئت فيه وقررت مواعيدها باعتبار الشهور القبطية لا العربية لكي لا يتغير ميعاد كل منها عن وقته من فصول السنة رعاية لاوقات النيل والري حتى لا يقع المولد في وقت قلة الماء بتلك الجهة او كثرته وانغمار الارض به للري ولمثل هذه الاسباب قدمت واخرت مواعيدها في بعض الاوقات بتنبيهات واوامر من الحكومة رعاية لمقتضيات المصالح والاحوال والجاري عليه الان ان يكون المولد الكبير في اول شهر مسري

والمولد الصغير في اول شهر برمودة والمولد الرجبي قبل المولد الصغير بنحو مائة يوم ولا يكون في هذا المولد ما يكون في غيره من البيع والشراء فهو مولد مختصر بالنسبة لغيره كما يعرفه من رأى هذه الموالد ولا اريد ان اطيل عليك بصفتها ووصف ما يكون فيها فلعلك رايتها او بعضها في اثناء اقامتك بهذه البلاد

فقال الانكليزي نعم حضرت مولد السيد غير مرة وشاهدت ما يكون فيه من كثرة البيع والشراء وفرط الزحام واجتماع الناس وتواردهم من الافاق فرايت امرًا عظيمًا وموسمًا جسيمًا فكنت اتذكر به ما كان لقدماء المصريين مثل ذلك من عوائدهم في اعيادهم وموالدهم لاسيما ركبة الخليفة التي تكون في اخر المولد فانه بتلك العوائد اشبه منه بالعادات الشرعية والامور الدينية الاسلامية وقد كان لقدماء المصريين مثل هذه الموالد اعياد ومواسم كثيرة متنوعة لهم فيها عوائد مختلفة لم يذكرها احد من قدماء المؤرخين الاّ هيردوط الشهير الذي ورد على مصر في قديم الايام فتكلم في مؤلفاته على بعض احوالها وعادات اهلها وتكلم في ضمن ذلك على بعض هذه المواسم وما كان يعمل فيها واما غيره من المؤرخين السابقين فلم يتكلموا على شيء من ذلك ولهذا لم يصلنا من علم احوالها الاّ القليل والمواسم التي تكلم عليها المؤرخ المذكور كانت تعمل في مدن متفرقة في جهات مصر من

البلاد البحرية والقبلية وكانت تلك المواسم دينية وسياسية وكان يحضر في كل منها الملك او من ينوب عنه من عائلته وكذا الملكة وخلق كثير من الناس فهي اشبه بالاسواق التي كانت للرومانيين اخذوها عن اليونان واخذها اليونان عن المصريين فالى المصريين ينسب احداثها كما ينسب اليهم احداث كثير من الامور النافعة للامم كما افاده المؤرخ المذكور ومن المدن التي كان يحتفل فيها لهذه المواسم مدينة بوباست التي اثرها الان تل بسطة قرب مدينة الزقازيق من اقليم الشرقية ومدينة سايس وهي الان صا الحجر باقليم الغربية ومدينة هيليوبوليس التي تسمى الان عين شمس (وهي المطرية) ومدينة بوتو واثرها الان تلال موجودة في ساحل البحر الملح مما يلي بحيرة البرلس ومدينة كان اسمها بابرميس والان لا يعلم محلها ولا اين كانت من الجهات البحرية او القبلية

وكان يجتمع في كل من هذه المواسم خلق كثير ربما كان اكثر مما يجتمع الان في مولد السيد وكان لهم غير هذه مواسم اخرى كبيرة تعمل على راس كل ثلاثين سنة مرة وكان يحصل لمن تقع في زمنه من الفراعنة فخر عظيم وصيت كبير بسببها وكان يصدر عنهم في هذه المواسم كثير من الفحش والفجور والمنكرات

وجميع هذه المواسم كانت مرتبطة باوقات الزراعة وحركة الشمس في منطقة البروج وبها تتعين ثلاثة فصول الزراعة في كل سنة

واول اعيادهم كان عند شروق كوكب الشعري في اشعة الشمس ووقته في اول شهر توت وهو اول شهورهم وفيه كانت تذبح سمانة قربانًا الى (ايزيس) المقدسة عندهم ويخرج القسيس من معبد مدينة ابو هياكل مقدسيهم محمولة في هوادج على اعناق جماعة من القسس يختلف عددهم من اثنى عشر الى ستة عشر بالنسبة لثقل الهيكل وهكذا كان يحصل في جميع المواسم

وفي هذا الشهر بعينه بعد ان يصير القمر بدراً ببعض ايام كان يعمل موسم طوط ويقال انه ادريس عليه السلام وان هذا الشهر شهره واسمه ماخوذ من اسمه

وكان من العادة في هذا الموسم اكل التين وشرب العسل ويقال بعد اكله ما احلى الحق

قال الشيخ الشيء بالشيء يذكر قد كان لقبط مصر بعد قدماء المصريين في هذا الشهر عيد عظيم وموسم كبير من مواسم لهوهم ومواقيت انسهم وهو عيد النوروز كانوا يشعلون فيه النيران ويرش بعضهم بعضًا بالماء واستمر ذلك جاريًا في مدد الملوك الاسلاميين ايضًا وكان يمنع احيانًا ويرخص فيه احيانًا وكان للخلفاء الفاطميين اعتناء به ورسوم جارية فيه . قال القاضي الفاضل في متجددات سنة ٥٨٤ يوم الثلاثا رابع عشر رجب يوم النروز القبطي وهو مستهل توت وتوت اول سنتهم وقد كان بمصر في الايام الماضيه والدولة الخالية (يعني دولة الفاطميين) من مواسم بطالاتهم

ومواقيت ضلالاتهم فكانت المنكرات ظاهرة به والفواحش صريحة فيه ويركب فيه امير موسوم بامير النوروز ومعه جمع كثير ويتسلط على الناس في طلب رسم رتبه ويرسم على دور الاكابر بالجمل الكبار ويكتب مناشير ويندب مرسمين كل ذلك يخرج مخرج التفاؤل ويقنع بالميسور من الهبات ويجتمع المغنون والفاسقات تحت قصر اللؤلؤة (احد قصور الخليفة) بحيث يشاهدهم الخليفة وبايديهم الملاهي وترتفع الاصوات ويشرب الخمر والمزر شربًا ظاهرًا بينهم وفي الطرقات ويتراش الناس بالماء . وبالماء والخمر . وبالماء ممزوجًا بالاقذار . وان غلط مستور وخرج من بيته لقيه من يرشه ويفسد ثيابه ويستخف بحرمته فاما ان يفدي نفسه واما ان يفضح ولم يجرِ الحال على هذا ولكن قد رش الماء في الحارات وقد احيا المنكرات في الدور ارباب الخسارات وقال في متجددات سنة ٥٩٢ وجرى الامر في النوروز على العادة من رش الماء واستجد فيه هذا العام التراجم بالبيض والتصافع بالانطاع وانقطع الناس عن التصرف ومن ظفر به في الطريق رش بمياه نجسة وخرق به (اه) كلامه

وما زال يوم النوروز يعمل فيه ما ذكر من التراش بالماء والتصافع بالجلود وغيرها الى ان كانت اعوام بضع وثمانين وسبعمائة وامر الدولة بديار مصر وتدبيرها الى الامير الكبير برقوق قبل ان يجلس على سرير الملك ويتسمى بالسلطان فمنع من لعب النوروز وهدد من لعبه بالعقوبة فانكف الناس عن اللعب في القاهرة

وصاروا يعملون شيئاً من ذلك في الخلجان والبرك ونحوها من مواضع التنزه بعد ما كانت اسواق القاهرة تتعطل في يوم النوروز من البيع والشراء ويتعاطى الناس فيه من اللهو واللعب ما يخرجون به عن حد الحياء والحشمة الى الغاية من الفجور والعهور وقلما انقضى يوم نوروز الاّ وقتل فيه قتيل او اكثر ثم بطل ذلك وقال بعضهم يذكر ما كان يحصل في النوروز من اشعال النار ورش الماء

كيف ابتهاجك بالنوروز يا املي
وكل ما فيه يحكيني واحكيه
فتارة كلهيب النار في كبدي
وتارة كتوالي دمعتي فيه

وكان للقبط في هذا الشهر عيد اخر وهو عيد الصليب يعمل في سابع عشره وسبب حدوثه عندهم ان هيلانة ام قسطنطين كانت قد سارت الى بيت المقدس في طلب اثار المسيح عليه السلام وبناء الكنايس واقامة شعائر النصرانية فيقال ان الاسقف مقاريوس دلها على خشبة زعم ان المسيح صلب عليها وكان ذلك في اليوم المذكور فاتخذوه عيداً وسموه عيد الصليب وكان لهذا العيد بمصر موسم عظيم يخرج الناس فيه الى بني وائل بظاهر فسطاط مصر ويتظاهرون في ذلك اليوم بالمنكرات من انواع المحرمات ويمر لهم فيه ما يتجاوز الحد فلما قدمت الدولة الفاطمية الى

ديار مصر وبنوا القاهرة واستوطنوها وكانت خلافة العزيز بالله امر في يوم عيد الصليب سنة ٣٨١ فمنع الناس من عادة الخروج الى بني وائل ثم بطلت تلك العادة وكان للخلفاء الفاطميين مزيد عناية باول ليالي السنة ليلة اول المحرم في كل عام وكان لهم باول يوم من السنة ايضاً عناية كبيرة فيه يركب الخليفة بزيه المفخم وهيئته العظيمة وتفرق فيه الدنانير ويفرق من السماط الذي يعمل بالقصر لاعيان ارباب الخدم من ارباب السيوف والاقلام بتقرير مرتب خرفان شواء وزبادي طعام وجامات حلواء وخبز وقطع منفوخة من سكر وارز بلبن وسكر فيتناول الناس من ذلك ما يجل وصفه وينبسطون بما يصل اليهم فمن تامل في هذه الاعياد وجدها اشبه شيء باعياد قدماء المصريين

قال الانكليزي نعم وربما كان بعضها مأخوذاً منها ومن جملة اعياد قدماء المصريين عيد كان يعمل في سادس يوم من شهر بابه وهو عيد حمل ايزيس بولدها هاربوكرات يشيرون بذلك الى وضع بذور الزرع في الارض بعد نزول ماء النيل

تنبيها

وفي هذا الموسم كان يوضع في عنق صورة ايزيس طلسم يسمونه الصوت الصحيح على قول وكلمة الحق على قول اخر .

وبعد هذا الموسم كان يعمل في الثامن والعشرين من شهر بابه المذكور موسم عصا الشمس وكانوا يعنون بذلك تقدم الشمس

في العمر ونقص حرارتها وضعف قوتها ولذلك جعلوها كأنها احتاجت الى عصا تتوكأ عليها وكان يعمل في هذا الموسم موكب تحمل فيه صورة عجلة صغيرة يدورون بها حول المعبد سبع مرات وكانوا يعنون بذلك ان ايزيس تبحث على جثة اوزريس زوجها واعظم مواسم هذا الشهر موسم (امون را) وكان يعمل في مدينة بابرميس في ثامن عشر الشهر وكان من عادتهم فيه ان القسس في الليلة المتقدمة عليه تاخذ هيكل قديسهم وتضعه في برزخ مذهب في موضع مقدس لهم قريب من المعبد وفي الغد يقربون القرابين وبعد الفراغ منها قرب زوال الشمس يقيم بعض القسس عند الهيكل وباقيهم يقفون عند باب المعبد وبأيديهم العصي والمساوق لقصد منع ادخال الهيكل المذكور في المعبد فاذا جاء الوقت المحدود حمل القسس الهيكل واحضروه الى الباب ومعهم خلق كثير بالعصي والمساوق لادخاله المعبد برغم الواقفين به لمنعهم فاذا جاؤا وجدوا باب المعبد مقفلاً فيقع بينهم وبين من به من القسس وغيرهم مضاربة وقتال كثير ويجرح فيه كثير من الناس ويسيل دمهم ولا ينقطع القتال من بينهم الا بدخول الهيكل في المعبد واستقراره به في مكانه وزعمت القسس انه لم يكن يحصل لاحد ضرر من تلك الجروح كما نقله هيردوط المؤرخ

وكان المصريون يشيرون بهذه الاحوال فيما يزعمونه الى ان

هوروس بن ايزيس اراد الدخول على امه ليزني بها فمنعه حراسها عن مرامه فجمع احبابه واصحابه حتى يغلبهم ويصل الى غرضه وسرّ ذلك هو ان حرارة الشمس المعبر عنها بهوروس تريد ان تدخل الارض المزروعة وهي المعبر عنها بايزيس لتخصبها وفي سابع عشر شهر هاتور كان يعمل عيد وقوع اوزريس في قبضة تيفون عدوه والتائه في النهر ولذا كان هذا اليوم عندهم معدودًا من ايام النحس وفيه يكون ماء النيل قد انخفض وانحسر عن ارض الزراعة وانحصر في مجراه بين حافتيه وكانت مدة هذا الموسم اربعة ايام كان فيها المصريون يدورون بثور قرونه مذهبة وعلى ظهره قطعة قماش من القطن او الكتان مصبوغة باللون الاسود

فكانوا يشيرون بالثور الى اوزريس وبقطعة القماش المذكورة الى ارض مصر لان لونها بعد انحسار النيل عنها يكون اسود

وكان المصريون في هذا الموسم يظهرون الحزن والكدر اولاً لنقص النيل وثانيًا لغلبة الريح الجنوبية وهي المكنى عنها بتيفون عندهم على الريح الشمالية في ذلك الوقت وثالثًا لتغير طول النهار بطول الليل ورابعًا لتجرد الارض من الخضرة

وكان الموسم المذكور يعمل في المدن المعروفة الان باسم بوصير فانها كان فيها معابد اوزريس ومن اسمه اخذ اسم هذه المدن ببعض تحريف وتغيير

وكان الحزن في هذا الموسم عموميًا عند النساء والرجال لحزن ايزيس على زوجها اوزريس وكانوا يكثرون فيه الصلاة والصيام والقربان فيه من فحول البقر ومن عادتهم ان لا يؤخذ من القربان بعد ذبحه الاّ الجلد والامعاء والفخذان والكتفان والرقبة ولحم الكفل واما ما عدا ذلك من الجثة فيملا من الدقيق والعسل مع الزيت والتين والافاويه والعقاقير الطيبة الرائحة وتحرق بالنار ويزيدونها اشتعالاً بصب كثير من الزيت عليها

وفي ذلك الوقت تكثر النساء من الصياح والنواح والبكاء والعويل ويلطمن وجوههن وصدورهن ويقطعن شعورهن وبعد ذلك ياكل الناس ما اخذوا من لحوم القرابين كما مر ذكره ويتفرقون

وكان يحضر هذا الموسم بعض من بمصر من اليونان ويعملون اعمالاً فظيعة وعادة شنيعة وهي ان يجرح الرجال بعضهم بعضًا جروحًا كبيرة وتشق النساء افخاذهن بحجارة حادة حتى يخرج الدم اظهارًا لشدة الحزن والجزع ثم ابطل المصريون هذه العادة قبيل خروج العبرانيين فان موسى عليه السلام كان قد منع ذلك وحرمه على قومه والظاهر ان هذه الغادة قديمة فانها وجدت عند اهل امريكا والهند ايضًا

وفي الثالث والعشرين من الشهر المذكور كان موسم دفن اوزريس يشيرون بذلك الى انحباس النيل في مجراه ومبدا زراعة

الخريف

وفي اليوم الاول من شهر كيهك كان يعمل موسم عظيم في مدينة اسنا لمقدسيهم بها

ومن رسومهم في هذا الموسم ان يظهروا جميع اواني المعبد وَحليّه ويتقربوا بالخبز والنبيذ وغيره من المشروبات وبالأوِزّ وفحول البقر وبشائر المزروعات جميعها على اختلاف انواعها

فقال الشيخ هذا الشهر كان فيه للقبط عيد عظيم يسمونه عيد الميلاد ويقولون انه اليوم الذي ولد فيه المسيح عليه السلام وكان يعمل بمصر في التاسع والعشرين من كيهك فيحيون ليلته وسنتهم فيه كثرة الوقود بالكنائس وتزيينها وكان يفرق فيه ايام الدولة الفاطمية ارباب الرسوم من الامراء والكتاب وغيرهم الجامات من الحلاوة القاهرية وكذا الجلاب والزلابيه والسمك وكان يباع في هذا الموسم من الشموع المزهرة بالاصباغ المليحة والتماثيل البديعة باموال لا تحصر فلا يبقى احد من الناس اعلاهم وادناهم حتى يشتري من ذلك لاولاده واهله وكانوا يسمونها الفوانيس واحدها فانوس ويعلقون منها في الاسواق بالحوانيت شيئاً يخرج عن الحد في الكثرة والملاحة ويتنافس الناس في المغالاة في اثمانها حتى ربما بلغ مصروف الواحدة منها الخمسمائة والالف درهم ثم بطل ذلك في جملة ما بطل من عوائد الترف كما بطلت رسوم قدماء المصريين فهل تعلم من اعيادهم القديمة غير ما

ذكرته

قال الانكليزي كان لهم اعياد ومواسم كثيرة منها موسم كان يعمل في السابع من شهر طوبه وهو مولد رجوع ازيس من بلاد فلسطين وكانت القرابين فيه من فطير يرسم فوقه صورة فرس البحر مسلسلاً في القيود وكان يرخص لاهل مدينة عين شمس في اكل لحم التمساح في هذا اليوم خاصة

وبعد هذا الموسم بايام كان يعمل موسم لتعويض مذاكير اوزريس بمثلها من الخشب والظاهر انهم كانوا يشيرون بذلك الى غرس الاشجار فانه يكون بعد هبوط النيل

وفي تاسع عشر هذا الشهر كان يتخذ في مدينة صاالحجر عيد كبير مشهور بالوقدة التي كانت تعمل فيه وكان المصريون يشيرون بذلك الى زوال الظلمة التي كانت عامة للارض بموت اوزريس وكان هذا العيد معتادا في بلاد الصين والعجم ايضاً كما كان عند المصريين

وكان لهم في هذا الشهر موسم اخر لتجدد تجسد اوزريس فكان القسس في الليل يذهبون الى مصب النيل في البحر في موكب عظيم وخلق كثير حاملين هيكل اوزريس مزيناً بجميع ما يمكن لهم من انواع الزينة والحلى وفيه قدح صغير من الذهب يملئونه من النيل في وقت معين وعند ذلك يقول القسيس وجميع الحاضرين بصوت عال ها هو جسد اوزريس قد عثرنا به

وكأنهم كانوا يشيرون بذلك الى رجوع الشمس وكان يتخذ كل واحد منهم صورة هلال يصنعه من الطين معجونًا بماء النيل مخلوطا ببعض الاشياء الزكية

فقال الشيخ قد ذكرت بما ذكر ما حكاه مؤرخوا الاسلام من عوائد القبط في عيد الغطاس وما كان يقع فيه من الوقدة وغيرها وكان يعمل بمصر في حادي عشر هذا الشهر قال المسعودي ولليلة الغطاس بمصر شان عظيم عند اهلها لا ينام الناس فيها وهي ليلة الحادي عشر من طوبه قال ولقد حضرت سنة ٣٣٠ ليلة الغطاس بمصر والاخشيد محمد بن طغج امير مصر في داره المعروفة بالمختارة في الجزيرة الراكبة للنيل والنيل يطوف بها وقد امر فاسرج في جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما اسرج اهل مصر من المشاعل والشمع وقد حضر بشاطئ النيل الوف من المسلمين ومن النصارى منهم في الزواريق ومنهم في الدور الدانية من النيل ومنهم على سائر الشطوط لا يتناكرون كل ما يمكنهم اظهاره من المآكل والمشارب والملابس والات الذهب والفضة والجوهر والملاهي والعزف والقصف وهي احسن ليلة تكون بمصر واشملها سرورًا ولا تغلق فيها الدروب ويغطس اكثرهم في النيل ويعتقدون ان ذلك امان من المرض (انتهى)

وكانت هذه العادة في زمن الملوك السالفة يرخص فيها حينًا

وتمنع حينًا

قال المسبحي في تاريخه من حوادث سنة ٣٦٧ منع النصارى من اظهار ما كانوا يفعلونه في الغطاس من الاجتماع ونزول الماء واظهار الملاهي ونودي ان من عمل ذلك نفي من الحضرة

وقال في سنة ٣٨٨ كان الغطاس فضربت الخيام والمضارب والاسرة في عدة مواضع بشاطئ النيل ونصبت اسرّة للرئيس فهد بن ابرهيم النصراني كاتب الاستاذ برجوان واوقدت لهُ الشموع والمشاعل وحضر المغنون والملهون وجلس مع اهله يشرب الى ان كان وقت الغطاس فغطس وانصرف

وقال في سنة ٤٠١ وفي ثامن عشر جمادى الاولى وهو عاشر طوبه منع النصارى من الغطاس فلم يغطس احد منهم في البحر

وقال في حوادث سنة ٤١٥ وفي ليلة الاربعاء رابع ذي القعدة كان غطاس النصارى فجرى الرسم من الناس في شراء الفواكه والضأن وغيره ونزل امير المؤمنين الظاهر لقصر جده العزيز بالله في مصر لنظر الغطاس ومعه الحرم ونودي ان لا يختلط المسلمون مع النصارى عند نزولهم في النيل وامر بان توقد النار والمشاعل في الليل وكان وقيداً كثيرًا وحضر الرهبان والقسوس بالصلبان والنيران فقسسوا هناك طويلاً الى ان غطسوا فبين كثير من هذه الرسوم · ورسوم القدماء في اعيادهم ومواسمهم مناسبة ظاهرة

قال الانكليزي نعم وكان من مواسم قدماء المصريين عيد مشاهدة ايزيس لاوزريس وكان في شهر امشير فان هذا الشهر وقت ظهور الزراعة الخريفية فوق وجه الارض

وكان لهم في شهر برموده عدة اعياد احدها عيد تطهير ايزيس قبل البذر

الثاني عيد الخصب وكان وقته في سادس عشر هذا الشهر وفي هذا اليوم كان يجعل في هيكل اوزريس مذاكير مصنوعة من الخشب على صورة اعضاء التناسل للانسان وكانت احيانًا تصنع من غير الخشب

وفي الموكب الذي يعمل في هذا الموسم كانت النساء تحمل مثل ذلك وتدور به في الازقة

وفي الغد من اليوم المذكور عيد دخول اوزريس في القمر يعنون بذلك اجتماع الشمس والقمر عند الاعتدال وكان المصريون يسمون القمر ام الدنيا

الثالث في ثامن عشر الشهر المذكور وهو موسم ولادة هوروس

الرابع موسم قديستهم نيت في مدينة بوباست ومحلها الان تل بسطه واصل هذا الاسم بوباست وهو احد اسماء نيت المذكورة ولها اسماء والقاب كثيرة منها هذا ومنها ايزيس وديان ايضًا والظاهر انها هي دميانه او جميانه التي يعمل لها الى الان في جهة البرية

المولد المشهور في شهر برمودة المذكور وان لفظ دميانه او جميانه اصله لفظ ديان السابق ذكره وهذا المولد الباقي الى الان هو مولد نيت القديم وهو عيد حصاد الزروع وكان يبتدأ به في خامس يوم من برموده ويجتمع له خلق كثير من النساء والرجال كما يكون الان في مولد جميانه

وكان قدماء المصريين يأتون هذا المولد من سائر اقاليم مصر في مراكب يكترونها لذلك ويكون النساء مع الرجال في المراكب ومعهم الطبول والدفوف والمزامير وغير ذلك ويكثرون في طريقهم الغنا والرقص والفحش وكلما مروا ببلدة خاطب من في المركب من النساء كل من رأينه في البر منهن بالفاظ قبيحة وكلام فظيع ويضحك الجميع من ذلك وكان من في البر منهن بعد ان يرقصن ويغنين ويتكلمن بما يخطر ببالهن من القبائح يرفعن ذيولهن ويظهرن من اجسامهن ما لا يجوز الحياء ذكره وينصرفن وكذلك كان فعلهن عند زيارتهن للثور ابيس وكان الرجال لا يستقبحون منهن هذه الامور المغايرة للادب والحياء وكان يستهلك في هذا الموسم من النبيذ قدر ما يستهلك في باقي ايام السنة كلها وكان يجتمع فيه قريب من سبعمائة الف من الناس على ما حكاه هيردوط المؤرخ وكانوا جميعًا يفعلون ما ارادوا من اللذات والشهوات ولا حرج عليهم فيما كانوا يأتونه وقتئذ مهما فسقوا او فجروا او خرجوا عن جميع حدود الادب .

فقال الشيخ كأن ما كان معتادًا في هذه الاعياد من الفحش والتهتك سرى الى الاعصار الاخيرة فجرى فيها نظيره من المنكرات والموبقات فقد كان يحصل في القرون المتأخرة في الشهر الذي يتلو هذا موسم كبير يكون فيه شيء كثير من ذلك وهو موسم عيد الشهيد وكان يعمل بمصر في ثامن بشنس القبطي

وكانوا يزعمون ان النيل بمصر لا يزيد في كل سنة حتى يلقي النصارى فيه تابوتًا من خشب فيه اصبع من اصابع اسلافهم الموتى ويكون ذلك اليوم عيدًا ترحل اليه النصارى من جميع القرى ويركبون فيه الخيل ويلعبون عليها ويخرج عامة اهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم وينصبون الخيم على شطوط النيل وفي الجزائر ولا يبقى مغنٍ ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب ولا بغيّ ولا مخنث ولا ماجن ولا خليع ولا فاتك ولا فاسق الا ويخرج لهذا العيد فيجتمع عالم كثير لا يحصيهم الاّ خالقهم وتصرف اموال لا تحصر ويتجاهر هناك بما لا يحتمل من المعاصي والفسوق وتثور فتن وتقتل اناس ويباع من الخمر خاصة في ذلك اليوم ما تزيد قيمته على مائة الف درهم وكان اجتماع الناس لعيد الشهيد دائمًا بناحية شبرى من ضواحي القاهرة وكان اعتماد فلاحي شبرى دائمًا في وفاء الخراج على ما يبيعونه من الخمر في عيد الشهيد ولم يزل الحال كذلك الى سنة ٧٠٢ فمنعه الامير بيبرس الجاشنيكير وشدد في منعه وكان عنده رجل كاتب من

القبط يعرف بالتاج بن سعيد الدولة قد احتوى على عقله
واستولى على جميع اموره فمشت اليه القبط في ذلك فتكلم مع
مخدومه بيبرس وقال لهُ متى لم يعمل العيد لم يطلع النيل ابداً
ويخرب اقليم مصر ونحو ذلك من التمويه وتنميق المكر فثبت
بيبرس واصر على رأيه واستمر في منعه وقال للكاتب المذكور
ان كان النيل لا يطلع الا بهذا الاصبع فلا يطلع وان كان الله
سبحانه هو المتصرف فيه يطلع فبطل العيد من تلك السنة ولم
يزل منقطعاً مدة ست وثلاثين سنة فلما كانت سنة ٧٣٨ وعمّر
الملك الناصر محمد بن قلاون الجسر في بحر النيل ليرمي قوة
التيار عن بر القاهرة الى ناحية الجيزه فطلب منه الامير بلبغا
اليحياوي والامير الطنبغا المارديني ان يخرجا الى الصيد ويغيبا
مدة فلم تطب نفسه بذلك لشدة غرامه بهما وتهتكه في حبهما
واراد صرفهما عن السفر فقال لهما نحن نعيد عمل عيد الشهيد
فيكون تفرجكما عليه انزه من خروجكما الى الصيد وكان قد
قرب اوان العيد المذكور فاعاده في وقته واجتمع لهُ الناس من
كل جهة وتجاهروا بانواع المنكرات توسعاً خرج عن الحد
وعم الناس منهم ما لا يمكن وصفه واستمر عمله بعد ذلك الى سنة
٧٥٥ فمنع وتقرر ابطاله وخرج الحاجب والامير علاء الدين علي
بن الكوراني والي القاهرة الى ناحية شبرى فهدمت كنيستها
واخذ منها الاصبع في صندوق واحضر الى الملك الصالح واحرق

بين يديه في الميدان وذري رماده في البحر حتى لا يأخذه النصارى فبطل عيد الشهيد من وقتئذ وانقطعت تلك العادة التي ذكرني بها ما قد حكيته من رسوم القدماء فان الحديث ذو شجون والكلام يجر بعضه بعضاً فارجوك ان تتم لي ما تعلم من هذه العادات والاعياد فاني ما سمعت بها ولا ظننت انها كانت معتادة في تلك الايام العتيقة

قال الانكليزي كان لهم في هذا الشهر أعني شهر بشنس عيد حمل ايزيس بهربوكرات وكان لهم في شهر بؤنه عيد يتقربون فيه بفطير مرسوم عليه صورة حمار مسلسل يشيرون بذلك الى تغلب اوزريس على تيفون والعادة ان ابتداء النيل في الزيادة يكون في هذا الشهر فكانوا يزعمون ان زيادة ماء النيل في هذا الشهر انما هي مما سكبته ايزيس من الدموع في بكائها على اوزريس زوجها وهذا العيد هو الذي ذكر هيرودوط المؤرخ انه مولد الشمس الذي كان يعمل في مدينة عين شمس فانه في هذا الاوان يحصل الانقلاب الصيفي وهو عبارة عن ابتداء الشمس في النزول بعد انتهائها في الصعود وقد حافظ القبط علي عادة الاحتفال لليلة النقطة التي تكون في الليلة الثانية عشرة من هذا الشهر

وكان لهم موسم في شهر مسرى وهو مولد هربوكرات وكان يعتبر عندهم للسكوت وكانت اشارته حلقة صغيرة توضع على الفم ولعل هذا العيد هو عيد وفاء النيل ومن عادتهم في هذا الشهر

قتل كلاب شقر وكان المصريون والرومانيون واليونان يتقربون بذلك الى كوكب الشعرى في اليوم الثاني من مسرى وكان لهم عيد كبير يعمل في مدينة بوتو ولكن سكت عنه المؤرخون ولم يبينوا وقتـه وانما ذكروا انه كان لاوزريس وايزيس اوبوتو وكان يتقرب في هذا الموسم بالخنزير ولم يكن الاكل من لحمه مباحًا عند المصريين الا في هذا الموسم فانهم كانوا يقولون بنجاسته ومن مسه كان يلزمه ان يغتسل في الحال حتى ان المشتغلين بتربية هذا الحيوان كانوا يمنعون من دخول المعابد وكانوا لا يتزوجون الا من بعضهم ولا يعلم سبب الترخيص في الاكل من لحمه في هذا الموسم ولا ذكره هيردوط المورّخ

وكيفية تقريب القربان منه ان ياخذوا طرف الذنب والطحال والبطن وفوقها الدهن ويحرقوا الجميع وكان الفقراء يصنعون صورة من الطين ويحرقونها

فهذا غاية ما وصلنا من اعياد قدماء المصريين ومواسمهم التي جرّنا الى الكلام عليها ذكر موالد السيد البدوي واحتشاد الناس لها واجتماعهم فيها وما يكون بها من الاحوال والعادات التي في جملتها ما هو اشبه شيء بعادات قدماء المصريين فيما ذكرناه من موالدهم واعيادهم وقد رأيت بعض المشايخ يتكلم عليها ويذمها لما يحصل فيها من المخالفة للشرع ويتمنى ابطالهـا لذلك ورأيت بعض الناس يقول لو لم يكن فيهـــا من المضرّة

الا تعطيل من يكون بها من الناس عن اشغالهم ومصالحهم المعتادة لكفى فما تراه انت ايها الاستاذ في ذلك

فقال الشيخ من نظر في الشيء من جهة من جهاته ولم يستقص جميع احواله وسائر خصوصياته فربما حكم عليه بالذم والمدح من تلك الجهة ولو نظر الى غيرها تغير حكمه وهكذا حال من حكيت عنه ممن تكلم في مولد السيد فانه نظر الى شيء مما يحصل فيه فحصر فيه نظره ووقف عليه خاطره فتكلم بحسبه ولو امعن النظر واجال الفكرة واستعمل الروية لقال غير ما سمعته منه فان مولد السيد وان كان قد يحصل من بعض الناس الذين يجتمعون فيه بعض امور تخالف الشريعة الشريفة كما لا ينكر وهذا هو الذي نظر اليه من حكيت عنه ولكن لا يحكم على الشيء في ذاته بحكم حالة واحدة من حالاته لا سيما اذا كانت له احوال كثيرة وانت تعلم ان كل وقت من الاوقات وكل بلد من البلاد وكل جيل من الاجيال لا يخلو من ان يقع فيه بعض امور تخالف الشرع والطبع ولا يحكم على عموم الناس او البلد او الوقت بحكم من يحصل منه ذلك وليس ما ذكر من هذه الامور المخالفة مخصوصاً بمولد السيد فانها تقع في كل موضع كما قلنا وليس المولد قاصراً عليها فانه يكون فيه ما لا يحصر ولا ينكر من الخيرات والاذكار والعبادات والحسنات والمبرات فلماذا نغمض عن الحسنة ونقصر انظارنا على السيئة

وفي هذا المولد ما لا يخفى على احد من المزايا والمنافع كمنفعة من يكتري منهم الدواب او المراكب او سكة الحديد للمضي اليه والانصراف عنه ومنفعة من يكون به من الفراشين والطباخين وغيرهم من ارباب الحرف والصنائع واصحاب الدور التي تكترى والاشياء التي تشترى وما يكون فيه من سعة التجارة فانا نرى كثيراً من التجار في طنطا وغيرها من سائر مدن مصر يعلقون اداء ديونهم وقضاء بعض شؤونهم على هذا المولد وينتظرون لهذا الموعد لكثرة ما يكون فيه من البيع والشراء والاخذ والعطاء فينتفع البائع بثمن ما يبيعه والشاري بما يشتريه منه والكثير من اهل القرى ينتظرونه لشراء بعض ما يلزمهم في اثناء السنة مما لا يوجد في جهاتهم او لبيع ما يفضل عن حاجتهم من دابة او محصول زراعة او غير ذلك فهو سوق عظيم عمومي كسائر الاسواق العامة التي توجد في جميع اقاليم الدنيا من البلاد الاسلامية وغيرها حتى لقد سمعت انه يكون في بلادكم اسواق عامة تحضرها الناس من سائر الافاق وجميع الجهات فلولا ما فيها من المنفعة لما حرصوا عليها وهرعوا اليها فهذه هي المزية في هذا المولد مع غيرها مما ذكرناه وما لم نذكره فاندفع قول من يقول انه سبب للتعطيل وتبين ان ذلك القول من جملة الاباطيل ومن ذهب الى هذا المولد لا لقصد التجارة او نحوها من المقاصد فلا يخلو من ان ينتفع منه غيره فالمنفعة حاصلة على اي حالة واما فراغه من اشغاله وبطالته في ايام يسيرة فلا

ضير فيه ولا ضرر فانه ان كان خلواً من الاشغال في غير المولد فهو بطال في ذاته لم يحدث له المولد بطالة وان كان في غير المولد عاكفاً على الشغل والعمل والكد والكدح كان له في المولد فسحة وتغيير هواء وصحة ونزهة وراحة يقبل بعدها على اعماله بنشاط جديد وشوق مستحدث وهمة مقبلة ونفس غير كليلة فيتعوض بذلك ما ضاع في ايام المولد فان النفوس البشرية اذا دام عليها الشغل واتصل الكد والعمل يلحقها السأم والكلال والملل فلا بد من ترويحها في بعض الاحيان لتعود لحالة نشاطها وتسترجع ما فقدته من انسها وانبساطها ولذا كان لكل امة من الامم وملة من الملل اوقات يستريحون فيها من اشغالهم ويتفرغون لرفاهة بالهم استرجاعا لنشاطهم وقوتهم ودفعاً لتعبهم وفترتهم فلا داعي لتمني ابطال هذه الموالد المستلزم ابطال ما يترتب عليها من الفوائد وقد احدثت هذه السكك الحديدية من اسباب السهولة والسرعة والراحة في المضي الى المولد والانصراف عنه ما لا مزيد عليه وكان قبلها من يريد المولد يعاني في الذهاب اليه والاياب منه صعوبة ومشقة ويقضي في الطريق يومين فاكثر اذا سار من البر وجملة ايام اذا سافر من البحر ويعد ما يلزم للسفر من الزاد والذخيرة من قبل المولد بايام كثيرة حتى حدثت سكة الحديد فسهلت الصعب وقربت البعيد .

المسامرة العاشرة

شتى

وقد كان المرحوم محمد علي الكبير تصور فوائد هذه السكة ومنافعها وعزم على انشائها ولكن بدا له بعد ذلك تركها وصرف النظر عنها لبعض امور تصورها على حسب الوقت والحال ثم عرض امرها من بعده على المرحوم عباس باشا فاستحسنها ولم يجد بها باسًا فصمم عليها وشرع فيها بالفعل من اسكندرية الى مصر فاستوجب مزيد الثناء والشكر من الناس عامة ومنا اهل هذا القطر خاصة فان هذا الامر النافع كان سببًا لجلب الثروة الى ارضنا وازدياد البركة في بلادنا ولكن قدر الله انه لا يتم في مدة حياته والذي تم في مدته ومشى فيه الوابور كان ما بين كفر الزيات والاسكندرية وبينما كان مهتمًا باتمامها عاجلته المنية فمات ولم يقسم له ان يركب فيها مع انه كان معتنيًا بامرها ليله ونهاره وهو الذي اتم قنطرة بنها التي يسير فوقها الوابور وكل من ولي الحكومة من بعده سعى في اتمام عمله وانجاح قصده وجد في اكماله فكمل سعيد باشا المرحوم ما ابتداه سلفه وانتهت في مدته السكة الى مصر القاهرة واخذت الوابورات في السفر بينها وبين الاسكندرية ولما راه وعلمه من كثرة فوائدها وزيادة منافعها انشأها

ايضاً بين سمنود وطنطا والزقازيق وبنها وكذلك بين القاهرة والسويس تسهيلاً لطريقها وترغيباً للانكليز في استبدال طريق راس العشم بطريق مصر فيما ينقل من بلادهم الى الهند من الناس والبضايع وغيرها لما في ذلك لمصر من الفائدة بمرورهم بها ونقل تجارتهم بواسطتها وقد كان ما يرد لمصر من ذلك ينقل الى السويس تارة في عربات تجرها الخيل وتارة على الجمال والدواب وكان ذلك امراً مهماً وشغلاً شاغلاً وكان يتحصل منه مبلغ عظيم من الاجرة ويحصل في بعض الاوقات ضائعات كبيرة يترتب عليها خسارات كثيرة فعمل تلك السكة لمنع الصعوبة والخسارة وتسهيل السبيل لتلك التجارة فلم يزل حتى اتمها واكملها ثم لما ولي الحكومة الجناب الخديوي (اسمعيل باشا) اخذ في توسيع دائرتها والاستكثار منها فاستحدثها في الصعيد وفي جهات كثيرة من الاقاليم البحرية فزادت بركتها وكثرت حركتها حتى وصلت الى ما هي عليه الان فصار يسافر من القاهرة الى الاسكندرية بالركاب في كل يوم ثلاثة قطارات واكثر سوى ما هو خاص بنقل البضايع وما يسافر الى غيرها من الجهات بعد ان كانت في اول امرها لا يسافر فيها الوابور الاَّ نحو ثلاث مرات في الاسبوع وذلك قريب اتمامها وقد ارخ صاحبنا الشيخ مصطفى سلامه النجاري اتمامها بين القاهرة والاسكندرية بقوله

في برِ مصر انشئ الوابورُ

وهذا المصراع تاريخ لسنة ١٢٦٩ هجرية بحساب الجمل

وقد كنت اسمع بهذه السكة وحركتها ولكن لم يسبق لي السفر بها ولا العلم بحقيقة كيفيتها وانما كنت اعلم بالسماع ان السفر بها في عربات تجرها باخرة تتحرك بواسطة النار من غير ان اعرف كيف تحركها النار وكنت في شوق الى معرفة ذلك حتى شرحت لي اليوم ما شرحت واوضحت ما اوضحت من ان حركتها وسيرها بواسطة بخار تحلله حرارة النار من ماء موجود في القدر اعني الدست الذي ذكرته فيتجه البخـار الى آلة يحركها فتتحرك بحركتها العجلة وتمشي الباخرة اعني الوابور فقد عرفت ذلك ولكن بقي عليّ ان اعرف حقيقة لفظة وابور ومعناها لاعرف حقيقة اسم هذه الباخرة كما عرفت مسماها فان هذه الكلمة ليست من العربية وما اظنها الاّ من اللغة الافرنجية

فقال الانكليزي نعم لفظة وابور كلمة افرنجية معناها في اللغة الفرنساوية البخار فاستعملها عامة الناس هنا في معنى الباخرة تسميةً للشيء باسم ما هو من لوازمه والاسم الموضوع لهذا المعنى في اللغة المذكورة هو(لوكوموتيف)

فهذا ما اعلمه في هذه اللفظة التي سألت عنها وما يتعلق بها وها هنا شيء اريد ان اسألك عنه وهو انك عبرت بالقدر بدل لفظ الدست المتعارف فهل هو غير عربي ام غير صحيح ام ماذا ترى فيه وكذا العربة والعربية او العجلة فارجوك ان تشرح لي

ما نعلمه في هذه المذكورات ولوازمها وما يتعلق بها من جهة اللغة العربية كما شرحت انا ما اعرفه فيها من جهة الصناعة لنقطع بذلك ما بقي من الطريق ولا نخرج عن المناسبة

فقال الشيخ لك ذلك وسأشرح ما اثبته حفظي ووصل اليه علمي فيما ذكرته فاما لفظة الدست فهي بفتح الدال معربة تطلق في العربية على جملة معان منها الصحراء وهي في هذا المعنى معربة من دَشت بالشين المعجمة لفظ فارسي بالمعنى المذكور وفي غيره معربة من دست بالسين المهملة لفظ فارسي ايضاً لهُ نحو خمسة عشر معنى منها اليد والمنفعة والنصرة والوزير والصدر والمقام الرفيع والقوة والغلبة والطراز واللعبة الواحدة والشيء مع افراده التامة فهو من السلاح مثلاً العدّة الكاملة ومن الثياب ايضاً الكاملة اجزاؤه التامة افراده من السراويل الى المنديل وهكذا كما عرفته من اهل تلك اللغة وقال في القاموس الدست الدشت ومن الثياب والورق وصدر البيت معربات (اه) وهي عبارة مجملة فيها غموض ويعلم المراد منها بما قدمناه وقد انكر بعض العلماء المناسبة بين ما استعمل فيه هذا اللفظ في العربية وبين معناه في اللغة الفارسية لكونه لم يعرف من معانيه في تلك اللغة الا اليد لشهرته فيها

قال الخفاجي في شفاء الغليل بعدان نقل عبارة القاموس واستعمله المتأخرون بمعنى الديوان ومجلس الوزارة والرئاسة

مستعاراً من هذه

قال المعري

من آلة الدست ما عند الوزير سوى
تحريك لحيته في حال ايماء

فهو الوزير ولا ازر يشدّ به
مثل العروض له بحر بلا ماء

ثم قال وقيل لا يصح فيه ان يكون مشتركاً لاختلاف معناه في اللغتين فانه في الفارسية بمعنى اليد وفي العربية لهُ معان اربعة اللباس والرئاسة والحيلة ودست القمار وجمعها الحريري في قوله نشدتك الله ألست الذي اعاره الدست فقلت لا والذي اجلسك في هذا الدست ما انا بصاحب ذلك الدست بل انت الذي تم عليه الدست ويقولون للغالب تم له الدست وللمطلوب تم عليه الدست وانقلب عليه الدست ومن الاخير دست الشطرنج قال الشاعر

يقولون ساد الارزلون بارضنا
وصار لهم مال وخيل سوابق

فقلت لهم شاخ الزمان وانما
تفرزن في اخرى الدسوت البيادق

والدست تستعمله العامة لقدر النحاس قال سليمان بن عبد الحق في بعض اهل الديوان وكان يلقب بالقط

ما نال قط الدست من فعله

غير سخام الوجه والسقطِ

ولّى عن الدست على رغمه

وانقلب الدست على القطِ

انتهى المراد منه ولكن بقي ها هنا شي وهو ان القدر لا تظهر له مناسبة بشيء مما ذكر من معاني هذه اللفظة في الفارسية فلعله ماخوذ من لفظ دستي بالياء التحتية بعد الياء الفوقية وهو بالفارسية ظرف للماء وغيره من المائعات يحمل باليد كالجرة فلما اخذه المولدون والعوام تصرفوا فيه بحذف يائه وكسر داله ومعربه دستيج بالفتح ويوجد في الفارسية لفظ دست بالكسر الاّ ان معناه الشبر فقد علم مما ذكر ان استعمال لفظ دست في معنى القدر عامي مولد ليس بعربي ولا معرب ولهذا عبرت بالقدر

قال الانكليزي ذكرت بالدست والقدر بيتاً رايته في كلام شاعر من المصريين لا اذكر اسمه ولا اجيد ضبط بيته وهو

وقدر كمثل الفيل في القدر اشرفت

على منصب كالقيل في دست منصب

قال الشيخ . قوله وقدر هو بكسر القاف والمراد به القدر التي يطبخ فيها والفيل بالفاء معلوم والقدر من قوله في القدر بفتح القاف بمعنى المقدار والمنصب في قوله على منصب بكسر الميم على وزن منبر حديد تنصب عليه القدر له ثلاث قوائم والقيل في قوله كالقيل

بالقاف المفتوحة وهو الملك مطلقًا او من ملوك حمير او هودون الملك واصله قيّل كفَعْيِل سمي به لانه يقول ما شاء فينفذ قوله والدست اراد به الديوان او صدر البيت ومنصب في اخر البيت واحد المناصب وصف بهذا البيت قدرًا عظيمة يقول وقدر مثل الفيل في الكبر اشرفت وهي على منصبها اشراف الامير في ديوان منصبه او في صدر البيت المنسوب له وقد بالغ في عظم هذه القدر فجعلها كالفيل وان لم تكن كذلك

قال الانكليزي قد كنت متوقفًا في تانيث هذا الشاعر لضمير القدر في قوله · اشرفت حتى رايتك تؤنثها

قال الشيخ القدر مؤنثة . قال ابن سيدة في المخصص القدر التي يطبخ فيهــا انثى وجمعها قدور ولا تكسر على غير ذلك وقد قدرتهــا اقدرها واقدرها (كضرب ونصر) طبختها ومرق مقدّر مطبوخ في القدر والقديرُ ما يطبخ في القدر والاقتدار الطبخ فيها انتهى · وبائع القدر قدوري وسخام القدر سوادها وقد مر لهُ ذكر في البيتين السالفين ويقال للقدر العظيمة قدر أعشار كأنها ركبت من عشر قطع لعظمها وكبرها والقدر الوئية الواسعة وانشد ابو عبيد

وقدر كرأل المحصحان وئية

انخت لها بعد الهدوء الاثافيــا

والاثافي حجارة توضع عليها القدر

قال الانكليزي سمعت رجلاً يقول في الدعآء على اخر رماه الله بثالثة الاثافي فما معناه

قال الشيخ ثالثة الاثافي الجبل وذالك انهم قد يضعون القدر على اثفيتين الى جانب جبل ويسندونها اليه فيكون الجبل ثالثة الاثافي فيقال في الدعاء على الشخص رماه الله بثالثة الاثافي اي بداهية عظيمة كالجبل

قال الانكليزي فما معنى قول الشاعر

وقدرٍ جماعٍ كاليفاع دميمة * زُوازية سوداء غير صلود

قال الشيخ . يقال قدر جماع وجامعة اذا كانت عظيمة واليفاع التل ويقال قدر دميمة ودميم اي مطلية بالطحال او الكبد او الدم بعد الجبر والدم كعنب التي يسد بها خصاصات البرام مِن دمٍ أَوْ لِبَاء والدم والدمام ما يطلى بهِ والقدر الزُّوازية والزويوزية هي التي تضم الجزور نقله ابن سيدة عن ابي عبيد وغير صلود اي غير بطيئة النضج يقال صلدت القدر تصلد فهي صلود ويقال قدر راسية اذا كانت ثابتة لا يطاق تحويلها لعظمها وفي التنزيل وقدور راسيات والبرمة القدر من الحجارة جمعها بِرام كجبال وبرم كصرد وبرم كدخن وصانعها المبرم وهو من يقطع حجارتها من الجبال واكبر البرام الجماع ثم التي تليها الميكلة وهي التي يستخف الحي ان يطبخوا فيها اللحم والعصيدة والصيداء حجر ابيض تعمل منه البرام

قال الانكليزي فهل تذكر قول الشاعر

رأيت قدور الصاد حول بيوتنا

قنابل دهما في المحلة صيما

قال الشيخ نعم هكذا انشده ابن سيدة ولم يسنده والذي احفظه حسبت بدل رأيت والبيت لحسان بن ثابت رضي الله عنه من قصيدة طويلة يقول فيها

وندمان صدق تمطر الخيرَ كفهُ

اذا راح فياض العشيات خضرما

وصلت بهِ ركني ووافق شيمتي

ولم اكُ عضا في الندامى ملوما

وابقى لنا مر الحروب ورزؤها

سيوفًا وادراعًا وجمعًا عرمرما

اذا اغبر افاق السمآء واحملت

كأن عليها ثوب عصب مسهما

حسبت قدور الصاد حول بيوتنا

قنابل دهما في المحلة صيما

يقول اذا اشتد الجدب حسبت قدور الصاد حول بيوتنا جماعة خيل قائمة يعني انهم يطعمون في الجدب والقحط كثيرًا والصاد الصفر وجمعه صيدان كنار ونيران قاله ابو علي وانشد

وسور من الصيدان فيها مذانب

رواه بكسر الصاد ورواه ابو عبيد بفتحها وقال الصيدان برام الحجارة والصاد قدور الصفر والنحاس قال ابن جنى والفه منقلبة عن الياء واستدل على ذلك برواية ابي عبيد من الصيدان بفتح الصاد قال وانا ارى ان القدر انما سميت صاداً من الصيد وهو التكبر وذلك لما في القدر من الغليان والحمي والفوران ولذلك يشبه بها المساورة والمضاغنة قال الشاعر

تفور علينا قدرهم فنديمها * ونفثؤها عنا اذا حميها غلا

(اه) وذكرت بهذا قول امرء القيس في صفة الفرس

على العقب جياش كأن اهتزامه

اذا جاش فيه حميه غلي مرجلِ

العقب عقب الانسان خفف باسكان القاف والاهتزام شدة الصوت يريد ان هذا الفرس اذا حركته بعقبك حمي وجاش كما تجيش القدر وكفى ذلك من السوط والمرجل القدر من النحاس وقيل كل قدر مرجل وهي موءنثة وقال ابن دريد التساخين المراجل لا واحد لها الاّ انهم قد قالوا تسخان ولا احته وشكيمة المرجل عروتها ويقال للقدر الصغيرة كفت بفتح الكاف وقد تكسر وتقول الترك وبعض مخالطيهم من العامة للقدر التي يطبخ فيها تنجرة وهو محرف تنكيره الفارسي ومعربه طنجير بغير هاء كما في القاموس وطنجيره بالهاء كما في لهجة اللغات وفيها ايضاً الهيطلة قدر

صانع الحلواء وفي القاموس الهيطلة قدر معروف من صفر معرب باتيله والظرف الذي تصنع فيه الخبيصة مخبصة ويقال للوعاء الذي يقلى عليه مقلاة ويقال ايضاً طاجن وطيجن وهما معربان كما في القاموس وفيه ايضاً الطابق كهاجر وصاحب ظرف يطبخ فيه معرب تابه والخرقة التي تمسك بها القدر لتنزل عن النار يقال لها الجعال واجعلها انزلها بالجعال هذا بعض ما يتعلق بالقدر ولو اخذنا في استيفاء جميعه لطال الكلام وتشعب القول فلنكتف بهذا القدر ونتنقل الى الكلام على العربة وما يتعلق بها

قال الشهاب الخفاجي في شفاء الغليل العربة بلغة اهل الجزيرة سفينة يعمل فيها رحى في وسط الماء الجاري مثل دجلة يديرها شدة جريه وهي مولدة فيما احسب . قاله في المعجم وانا لا ادري هل المركب المسمى عربة (وهو ما نحن فيه) اخذ من هذا او هو غير عربي وهو الظاهر (اه) كلامه

وفي تفسير الرازي ان مادة (ع ب ر) بجميع تقاليبها الستة التي منها (ع ر ب) تدل على العبور والانتقال ونص عبارته المسئلة التاسعة العبارة وتركيبها من (ع ب ر) وهي في تقاليبها الستة تفيد العبور والانتقال فالاول (ع ب ر) ومنه العبارة لان الانسان لا يمكنه ان يتكلم بها الاَّ اذا انتقل من حرف الى حرف اخر وايضاً لانه بسبب تلك العبارة ينتقل المعنى من ذهن نفسه الى ذهن السامع ومنه العبرة (بالفتح) لان تلك الدمعة تنتقل

من داخل العين الى الخارج ومنه العبرة (بالكسر) لان الانسان يتنقل فيه من الشاهد الى الغائب ومنه المعبر لان الانسان يتنقل بواسطته من احد طرفي البحر الى الثاني ومنه التعبير لانه ينتقل مما يراه في النوم الى المعاني الغائبة . الثاني (ع ر ب) ومنه سميت العرب لكثرة انتقالاتهم بسبب رحلة الشتاء والصيف ومنه فلان اعرب في كلامه لان اللفظ قبل الاعراب يكون مجهولاً فاذا دخلهُ الاعراب انتقل الى المعرفة والبيان . الثالث (ب ر ع) ومنهُ فلان برع في كذا اذا تكامل وتزايد . الرابع (ب ع ر) ومنهُ البعر لكونهِ متنقلاً من الداخل الى الخارج الخامس (ر ع ب) ومنهُ يقال للخوف رعب لان الانسان ينتقل عند حدوثهِ من حال الى حال اخرى . السادس (ر ب ع) ومنهُ الربع لان الناس ينتقلون منها واليها (اه) .

فعلى هذا مادة (ع رب) تدل على الانتقال والعبور مثل (ع ب ر) ومناسبة هذا المعنى لهذا المركب المخصوص الذي نحن بصدده واضحة ظاهرة لاخفاء فيها ولكننا لم نجد في كلام العرب ولا من قرب منهم ولا وجدنا من نقل عنهم اطلاق لفظ العربة على المركب المذكور وانما نسمعه في كلام المولدين وكلام الترك فقد خالطتهم وتعلمت من لغتهم ورأيت صاحب لهجة اللغات اورده فيما ذكره من الكلمات وكتبه بالالف هكذا (ارهبه)

قال الانكليزي فما هذه الهاء التي بعد الراء

قال الشيخ هذه الهاء لبيان فتحة الحرف الذي قبلها لا للتلفظ بها ونظيرها الهاء التي بعد الباء فليست هاء تانيث وانما تكتب كذلك لهذا السبب ويسمونها هاء رسمية لكونها ترسم ولا تقرا ولعل هذه الكلمة محرفة من عربة بابدال عينها همزة كما صنعوا في عباء فقد رسمه في الكتاب المذكور (ابه) وقال هو عربي محرف وصحته عباء وبعض النـاس يزيد على لفظ عربة الياء ويقول عربية

قال الانكليزي فما يقال في العربية في محل لفظ عربة المذكور

قال الشيخ . قال في الكتاب المذكور هو بالعربي عجلة بفتح العين المهملة والجيم واللام وهاء الوقف اخره وحال وهي التي تتخذ للصبي ليتعلم عليها المشي ودرّاجة وهي مثلها (اه) وتسمى العجلة ايضًا زازية كما في القاموس وفيه ايضًا العجلة بالتحريك الالة التي يجرها الثور والجمع عجل واعجال وعجال والدولاب او المحالة وخشب تؤلف تحمل عليها الاثقال (اه) والان تطلق العجلة على تلك الدائرة التي تسير بها العربة على الارض واسمها في العربية دوارة بضم الدال ومدورة وكل شيء مستدير اذا لم يدر ولم يتحرك فهو دوارة وفوارة بفتح الدال والفاء فاذا دار او تحرك فهو دوارة وفوارة بضمها واذا اتسع ثقب الدوارة من اكل المحور الذي فيها وضعت في ثقبها قطعة خشب ليضيق فتسمى هذه الخشبة نخاس

بالخاء المعجمة بعد النون وقيل النخاس طوق الدوارة والمحور المذكور يسمى القب والمسمار الذي يكون فيه يسمى زازة كما وجدته في ترجمة مقدمة الادب وفيه المدهن ظرف يوضع فيه الدهن لطلاء بعض مواضع العجلة

وبينما هما في هذا الكلام وامثاله اذا بهما قد وصلا الى موقف السكة بناحية كفر الدوار

قال الانكليزي هذا اخر موقف في هذا الطريق ليس بعده الاّ الموقف في اسكندرية ولم يبق علينا الاّ مدة يسيرة ودقائق من الزمن غير كثيرة

قال الشيخ سبحان الله لقد تقاربت البلاد والامصار بسبب هذا البخار تقاربًا شديدًا حتى صار يستغني الانسان في اسفاره عن عدة اشهر ببعض ايام وعن عدة ايام بيوم او بعض يوم فصار يمكن للانسان ان يسافر من القاهرة الى الاسكندرية ويرجع اليها من يومه بعد ان كان لا يمكنه ذلك الاّ في مدة اسبوعين او اكثر حتى ان بعض اصحابي اخبرني انه سافر مرة من الاسكندرية في البحر يريد القاهرة فلم يصل اليها الاّ بعد ثلاثين يومًا فقد ربح الانسان مدة طويلة من عمره فضلًا عما توفر عليه من ماله الذي كان يصرفه في سفره واستراح من كثير ما كان يكابده من المشاق والمتاعب والعوائق والمصاعب التي لم يكن يخلو عنها ولا يسلم مسافر منها فما اكثر فوائد هذه السكة وما اوفر ما لها من الخير

والبركة

قال الانكليزي من اعظم فوائدها ما حصل بين الملل وبعضها من المساعدة الكلية فيما يطرأ عليها من الحوادث الفظيعة كالغلاء والقحط فتصل الاخبار وتنتقل الارزاق من سائر الاقطار ويحصل الاسعاف من دون ان يشعر الخلق كما حصل غير مرة وقبل ظهورها كان اذا حصل مثل ذلك في اقليم من اقاليم المعمورة لم يمكن ان تصل اليه مساعدة من اقليم اخر الاَّ بعد جهد جهيد وبلاء شديد حتى ان الناس في بعض الازمان اكل بعضهم بعضاً بعد ما اكلوا الرم والجيف وباعوا اولادهم وكذلك اذا حصل ببلد من البلاد بعض امراض وفساد في الهواء يسهل بواسطة هذه السكة مفارقته بعض ايام والعود اليه بعد ذلك فعلم من هذا ان حصول التيسير بين الناس واتساع دائرة معاشهم وكثرة امنهم قد زاد عما كان عليه في الايام السالفة ومن تامل اصناف المبيعات من الخضروات والفواكه تحقق عنده فائدة البخار ومزيد منفعته فانا نرى الفواكه على اختلاف انواعها وبعد بلادها في جميع اوقات السنة مجلوبة الى البلاد المصرية مع انها ما كانت ترى فيها من قبل وكذا الخضروات الطرية فباي كيفية كان يمكن ذلك لولا استعمال البخار فقد حصل به ثمرات متعددة لكل من البائع والمشتري بنقل الفواكه والخضروات والبضائع في كل البقاع واتسعت دائرة الفلاحة بكثرة الرغبة في الزرع لكثرة ارباحه وازدادت درجة

الثروة في كل البقاع ومن يقارن كمية المنزرع بالطرق المعتادة من قبل بما هو منزرع الان يجد بينهما فرقًا كبيرًا جدًا في مقدار الفدادين والمحصول لان صاحب الارض في الزمن السابق كان لا يزرع الاَّ بقدر قوته او قوة المزارع فكانت الزراعة موقوفة على حد معين لا تتعداه واما الان فبواسطة استعمال الآلات البخارية في الحرث والري والحلج وما اشبه ذلك امكن له الخروج عن هذه الحدود والاتساع فيها والحصول على عدة نتائج يزداد بها راس ماله وارباحه واصلاح ارضه بالخدمة والتنظيم فجميع هذه الامور ونحوها كالتجارة والصناعة قد تحسنت وازدادت اضعاف ما كانت عليه وما زالت آخذة في زيادة التقدم والربح ولولا هذا البخار لكانت غالب بقاع الارض محرومة مما هي متمتعة به الان من مزروعاتها واهلها محرومين من نتائج مصنوعات البلاد الاخرى ومحصولاتها واقول لك بالاختصار ان استعمال البخار اقوى مغذ لظاهر الانسان وباطنه اما ظاهره فبالرونق والبهجة واكتساب راحة البدن والمهجة واما باطنه فبانتقاله من قيد المضيق الى سعة الاطلاق وتحليه بمعرفة عجائب البلاد وغرائب الافاق. وبسببه اعتادت الناس على حسن المخالطة والانس والائتلاف وزال ما كان بينهم من موجبات الوحشة والبغضاء والاختلاف وتاكد ذلك باستعمال الاشارة الكهربائية المعروفة بالتلغراف اذ لا يكون بين الخلق وبعضها رابطة اقوى من رابطة المنفعة وكل ذلك نتج

من استعمال هذا السر المودع في الماء فسبحان من ابدعه ودبره ولم يظهره الاَّ في الوقت الذي اراده وقدره

قال الشيخ من نظر لظاهر صورة الانسان مع ضعفه وصغر جثته ودقة اعضائه ونحافته ونظر لافعاله وعجيب اثاره واحواله استغرب وتعجب ولم يهتدِ في نسبة ذلك له الى سبب فانه مع ضعفه وصغره يتصرف في الكون باسره بقوة نظره وفكره ليحصل منه على اغراضه ومقاصده ومنافعه وفوائده فتراه قد احتال على الهواء فسخره وصار يجوب به البحار والقفار ويملأ به الجداول والانهار فتارة يجري به الماء وتارة يجمعه وتارة يصرفه وتارة يمنعه وتارة يرفع سطحه وتارة يخفضه حتى روى الارض المنخفضة والمرتفعة من غير فرق بين بقعة وبقعة فكانت الارض طوع يده منقادة في جميع احوالها اليه فاظهرت له خيراتها واغدقت عليه ببركاتها وكذلك سخر النار فصارت من ضمن خدمه يستعملها في مصالحه البرّية والبحرية فلم يكن شيء من المخلوقات الاَّ وقد دخل تحت طاعته وفي تصرفه وقبضته فجميع الحيوان والنبات والنار والهواء والتراب والماء خاضع لسطوته بمذعن لباسه وصولته فمثل الانسان بالنسبة لغيره كالملك بالنسبة لرعيته وذلك بمقتضى ما منحه الله سبحانه من خلافته قال تعالى اني جاعل في الارض خليفة وقال سبحانه هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعًا ولكن الانسان كما انه يستعمل فكره ونظره في حصول الكمال والوصول الى خير الاعمال يستعمل ما ذكر في

بعض الاحوال في الضرر والوبال والطغيان والضلال وكما كان العقل سببًا في هذا النفع بكماله قد يكون سببًا في ضرر صاحبه وضلاله والوقوع في شيء اعماله فيوقعه ذلك فيما يغضب الرب ويمنعه من منازل القرب ولا ريب ان هذا كله مما يدل على وجود الصانع العليم والمبدع الحكيم الذي اودع في كل ذرة من مخلوقاته لطائف صنعه ولطيف اياته قال تعالى في كتابه المكنون (وفي الارض ايات للموقنين وفي انفسكم افلا تبصرون)

ففي كل شيء له اية * تدل على أنه واحد

فكيف يتعدى العبد حدود مولاه ويجحد ما منحه واولاه

قال الانكليزي لا شك ان الانسان صفوة الخليقة والملك الخليفة على غيره في الحقيقة وقد وصل الى ما وصل اليه من الكمالات العظيمة والدرجات العالية بالتدريج والتقدم شيئًا فشيئًا فكان كلما انكشف له سر من الاسرار او وقف على شيء من الاثار بحث عن غيره وطلب ما فوقه وهكذا ولم يزل كذلك من الاعصار القديمة والازمان الخالية الى هذه الايام الحاضرة وكذا يكون حاله في الاعصار القابلة بالقياس على ما سبق فكلما اتسعت دائرة استكشافه بوقوفه على شيء من اسرار الكائنات ولطائف مكنوناتها اتسعت دائرة علمه فيتسع نور بصيرته فيتمكن من الاطلاع على مكنونات اخرى اعظم من الاولى وانفع منها وكلما اطلع على سر استنتج منهُ غيره وبهذه الطريقة وصل للقوانين العمومية والنواميس

الحقيقية التي عليها مدار الكائنات وجميع ما استكشفهُ لم يكن الا نتيجة بحثهِ في الموجودات ونسبتها الى بعضها من حيث الكيفية والافعال والصفات لان النوع الانساني في مبداء امره لم يكن يعلم ما يعلمهُ الان والدليل على ذلك اننا لم نجد امة من الامم الاّ وقد انتقلت من حالة الى حالة اخرى وهذا محسوس بالمشاهدة فكم من امة كانت في اسواء حال من نحو اربعين سنة قد انتقلت عن حالتها حتى صارت اول امة وما ذاك الاّ من حسن تدبيرها وإدارة امورها بموافقة قوانينها وكم من امة كانت تخشى سطوتها الامم آل حالها الى الدمار والعدم وكان عاقبة امرها ان صارت تحت رق غيرها فالبسها الله لباس الذل والمهانة وانحطت عما كانت عليهِ من علو المكانة ومن هنا علم ان نوع الانسان بالنسبة لما هو عليهِ الان كان غارقًا في بحار الجهل زمنًا طويلًا يرتع كالانعام بل اضل سبيلًا كأهل البقاع المتوحشة بافريقيا واسيا وامريقا فاستمر بهم الامر على ذلك حتى وجدت الاسباب التي اضطر بها الناس الى الالفة والاجتماع فدبت بينهم علائق التآنس ومبادىء التمدن وذلك انهم اختطوا مدنًا وامصارًا وقرى وديارًا سكنوا بها واجتمعوا فيها فاحتاجوا الى الضبط والربط والتعامل والتحامل فكان ذلك من الاسباب والذرائع لوجود القوانين والشرائع والعلوم والمعارف وسائر اللطائف فمن ذلك الوقت بدا العلم في بعض البقاع ودب في الخلق حب الاتساع فتعلقوا من الشرائع بحبالها

فاوصلتهم الى فهم القوانين والنواميس التي عليها مدار احوال الموجودات حتى وصل العلم الى الدرجة التي هو عليها الان وان كانت ليست الدرجة التي يجب الوقوف عندها بل كل زمن يأتي معه فوائده على حسب ما تقتضيه احواله وعوائده فكما تنقل النوع البشري في الازمان الماضية كذلك يتنقل في الازمان الاتية وحيث علم ذلك ظهر ان اكبر باعث للانسان على البحث ومعين له في مقاصده هو الخليقة نفسها والموجودات اعيانها . قال الشيخ . نعم وانما عليه ان يخص كل فرد من افراد الاشياء بما يوافقه على حسب ما علمه فان وفق للحق واسند الى كل شيء ما استحق ولم يخرج عن الحدود المرسومة والقوانين المعلومة كانت اعماله راجحة وافعاله ناجحة وان نسب الى افراد الاشياء ما ليس لها وصورها في نفسه بصورة تخالف حالها لبست غير كسوتها وظهرت على خلاف حقيقتها فاذا اعتقد ذلك ووثق به وجرى على موجبه وحكم بحسبه ضل عن طريق السلامة ووقع في مهاوي الندامة فيكفر بربه الذي خلقه من ماء مهين ورزقه وهو خير الرازقين ويعيش بين خيالات واوهام ووساوس والام ويستمر على هذه الحالة مدة حياته ويؤول امره الى العذاب المهين بعد مماته فعلم ان عقل الانسان قبل علمه كان ناقلاً عن افراد الخليقة ومقلداً لها واما بعد العلم فيكون لها كالملك بالنسبة لرعيته فكما ان احوال الرعية مرتبطة باحوال الملك وكل ما يصدر عنهُ من قول او فعل يسري الى

الرعية فكذلك الانسان بالنسبة للخليقة فان اهتدي الى الطريق الحق وصل واتصل وان عدل عنهُ ضل واضل

وقد امتد بينهما القول في هذا المعنى الى ان وصلا الى اسكندرية

فقال الانكليزي للشيخ قد قطعنا المسافة بين القاهرة واسكندرية وهي مائة وثلاثون ميلاً انكليزيًا في اربع ساعات ونصف ساعة وكان يلزم لقطع هذه المسافة بغير سكة الحديد نحو اربعة ايام واكثر فهل تعلم احسن من هذا الاختراع العجيب الذي كان سببًا لقطع تلك المسافة الطويلة في هذا الزمن القريب ثم انهم نزلوا في موقف السكة بالاسكندرية فوصل الى الانكليزي هناك ورقة على يد احد خدمة البوسطة فاخذها منه فلما فتحها وقرأها ضحك مليًا وقال للشيخ اتعلم سبب ضحكي قال الشيخ لا قال اتريد ان تعلم سببه قال نعم ان شئت فقال الانكليزي ان الكلام المسطر بهذه الورقة برز من فم قائله وهو والدي من منذ ساعتين من لوندرة وبيننا وبين هذه المدينة بحسب الطريق الذي نسلكه اليها نحو ثلاثة آلاف ميل فعجب الشيخ اكثر من تعجبه من سرعة الوابور فقال لهُ الانكليزي سأشرح لك بعد الاستراحة سبب هذا السر العجيب ان شاء الله تعالى



المسامرة الحادية عشرة
الخانات واللوكندات

ثم ساروا جميعاً ودخلوا اسكندرية ونزلوا في خان من خانات المسافرين المعروفة باللوكاندات ليقيموا بهِ الى ان يحضر وابور البوسطة ولما كان الشيخ لم يسبق لهُ دخول مثل هذه المحلات وانما قضى عامة اوقاته في الجامع الازهر وداره بمصر ظن في نفسه هذا الخان داراً للانكليزي او لاحد احبابه ولكنه كان يتأمل في حسن رونقه وبهجته ونظافة مفروشاته ولطافته فيتعجب مما يراه لا سيما من كثرة المسافرين الواردين على هذا المحل ووجدهم قد خصصوا لهُ ولولده حجرة بها سريران ودولابان وطرابيزة وشمعدانات وساعة دقاقة وفيها جميع ما يلزم من الماء والصابون والمناشف والكراسي بحيث لا ينقص شيء مما عساه يلزم للانسان من امثال ذلك فقال لولده يلزم ان يكون الانكليزي صاحبنا ذا مال كثير وثروة عظيمة حتى يكون لهُ منزل مجمل بهذه الصفات غاص بهذه المخلوقات فقال لهُ ولده وقد رأى غير هذه الحجرة ان هناك حجرات وغرفات اعظم من حجرتنا زخرفة ولطافة وفي كل منها من الاسرة والادوات الكثيرة مثل ما هنا واكثر واظن ان هذه الدار ليست ملكاً لهُ بل لاحد اصحابه وقد شاهدته عند

دخولنا يتكلم مع واحد من ابناء جنسه بكلام يدل على المحبة والالفة فقال له والده هي على كل حال تدل على عظم قدر صاحبنا سواء كانت لهُ او لغيره اذ لولا ذلك لم يمكن له ان ينزل بدار مثل هذه

وبينما هما في هذا الكلام ونحوه اذ دخل الانكليزي وسأله عما يلزم لهُ وعرفه كيفية الاقامة بهذا المحل واشار لهُ الى خيط نازل من اعلى المحل يقرب من الارض وقال له اذا لزم لك شيء مما تريده فشد هذا الحبل وحركه يتحرك بحركته جرس يسمعه الخادم ويأتي اليك فتخبره بما تريد يأتيك بهِ في اقرب وقت فسر الشيخ من ذلك وشكره واثنى على اخلاقه فقال الانكليزي اخبرك ايها الاستاذ ان الانسان في مثل هذه الدار لا ينبغي لهُ ان يمنعه الخجل عن طلب ما يلزم لهُ لان اصحابها لهم قانون مربوط وقدر معين مضبوط على كل شخص بحسب المكان الذي ينزل بهِ سواء طلب ما يلزم لهُ او امتنع من طلبه وعليهم لكل محل فروض يجب اداؤها . فقال لهُ الشيخ اليس هذا المكان لك او لبعض احبابك نزلت عنده فقال لا بل هو خان يعرف بلفظ (لوكاندة) او (اوتيل) وهو معد لاقامة من يرد عليه من الاغراب والمسافرين ومن لا مأوى لهم في البلد كالمحلات التي تعرف عندكم بالوكايل . فقال الشيخ سبحان الله ارى الافرنج يعتنون باتقان جميع الاشياء حتى خاناتهم ووكايلهم لا يتساهلون فيها كتساهلنا في خاناتنا ووكائلنا فنرى المسافر اذا نزل بمكان من

خاناتنا ووكائلنا وجد المكان مجرداً من كل شيء فلا يجد به ما ياكله او يشربه او يفرشه او يستعمله والويل لمن يمضي عليه بها الليل لانه يكون تحت تصرف انواع الحشرات من البرغوث والقمل والبق والبرغش يبيت مسهداً ولمثل هذا منشداً

ثلاث بأأت بلينا بهــا * البق والبرغوث والبرغشُ
ثلاثة اوحش ما في الورى * ولست ادري ايها اوحشُ

وهكذا النمل وجميع الموذيات فلا يرى فيها ما يسر الناظر ويريح القلب والخاطر تنهال عليه الا تربة من كل جانب وتدب اليه الهوام من سائر الجوانب فلا يطرق جفنه المنام ولا يستريح في قعود ولا قيام لا يأمن فيها الانسان على نفسه ولا يجد طريقا لانسه تراها لقدمها الى السقوط آلت ولتخربها تساقطت اتربتها وانهالت فتمضي عليه المدة في قلق ويقضي ليله في سهر وارق خصوصا من كثرة نباح الكلاب وشحيج البغال وطنين الذباب ورغاء الانعام وكشيش الهوام وصهيل الخيل ونهيق الحمير وهنالك يستغيث ويستجير وهيهات المغيث والمجير وليس بها منافذ لتجديد الهواء ودخول الاضواء غير فتحات صغيرة وكوات حقيرة عليها ابواب من الاخشاب غير متقنة الصنع ولا محكمة الوضع ان اغلقت حجبت الانوار واشتبه الليل بالنهار وان فتحت جلبت المضار ولم ينتفع بها في دفع الحر والبرد والغبار فهي في الشتأ زمهرير وفي الحر نار وسعير وسقفها مسكن للحشرات والهوام وغربال للتراب بنخاله

على الاجسام وينثره على الجفون ويذره في العيون فان فتح الانسان عينه امتلأت قذى وان اغمضها لم يأمن من الاذى فان نزل المطر فخير لمن بها ان يستتر بالسماء ويلتحف بالانواء فهذا السقف يمطر الطين والسماء انما تمطر الماء ولقد حكمت عليّ صروف الاقدار فدخلت احداها ليلة في بعض الاسفار

فبت كاني ساورتني ضيئلة
من الرقش في انيابها السم ناقع

ولقد تذكرت ليلة بت بها القصيدة المشهورة للاديب كمال الدين علي بن محمد بن المبارك الشهير بابن الاعمى في صفة دار كان يسكنها فبت اترنم بابياتها واتسلى بكلماتها فقال الانكليزي اي القصائد هي فقال الشيخ ها هي

دار سكنت بها اقل صفاتها
ان تكثر الحشرات من حشراتها
الخير عنها نازح متباعد
والشر دان من جميع جهاتها
من بعض ما فيها البعوض عدمته
كم اعدم الاجفان طيب سناتها
وتبيت تسعدها براغيث متى
غنت لها رقصت على نغماتها

رقص بتنقيط ولكن قافـــه
قد قدمت فيه على اخواتهـــا
وبها ذباب كالضباب يسد ءا
ن الشمس ما غمي سوى غناتها
اين الصوارم والقنا من فتكها
فينا واين الاسد من وثباتها
وبها من الخطاف مـــا هو معجز
ابصارنا عن وصف كيفياتهـــا
وبها من الجرذان ما قد قصرت
عنه العتاق الجرد في حركاتها
وبها خنافس كالطنافس افرشت
في ارضها وعلت على جنباتهـــا
لو شم اهل الحرب منتن فسوها
اردى الكماة الصيد عن صهواتها
وبنات وردان واشكال لهـــا
ما يفوت العين كنه ذواتها
ابدًا تمص دماءنا فكأنهـــا
حجامة لبدت على كاساتهـــا
وبها من النمل السليماني مـــا
قد قل ذر الشمس عن ذراتها

ما راعني شيء سوى وزغاتها
فتعوّذوا بالله من لدغاتها
سجعت على اوكارها فظننتها
ورق الحمام سجعن في شجراتها
وبها زنابير تظن عقاربا
حر السموم اخف من زفراتها
وبها عقارب كالاقارب رتع
فينا حمانا الله لدغ حماتها
كيف السبيل الى النجاة ولا نجا
ة ولا حياة لمن رأى حيّاتها
منسوجة بالعنكبوت سماؤها
والارض قد نسجت على آفاتها
والبوم عاكفة على ارجائها
والدود يحبث في ثرى عرصاتها
والجن تاتيها اذا جن الدجى
تحكي الخيول الجرد في حملاتها
والنار جزء من تلهب حرها
وجهنم تعزى الى نفحاتها
شاهدت مكتوبا على ارجائها
ورأيت مسطورا على جنباتها

لا تقربوا منهـــا وخافوها ولا
تلقوا بايديكم الى هلكاتهـــا
ابدًا يقول الداخلون ببابهـــا
يارب نج الناس من افاتهـــا
قالوا اذا ندب الغراب منازلا
تتفرق السكان من ساحاتها
وبدارنا الفـــا غراب ناعق
كذب الروات فاين صدق رواتها
صبرًا لعل الله يعقب راحـــة
للنفس اذ غلبت على شهواتها
دار تبيت الجن تحرس نفسها
فيها وتندب باختلاف لغاتهـــا
كم بت فيها مفردا والعين من
شوق الصباح تسح من عبراتها
واقول يارب السموات العـــلا
يارازقا للوحش في فلواتهـــا
اسكنتني بجهنم الدنيـــا ففي
اخراي هب لي الخلد في جناتها

فلما اكمل الشيخ قال الانكليزي لقد احسن هذا الشاعر واجاد وبلغ ما اراد من المبالغة في صفة تلك الدار وذمها وتقبيحها

وتهويل امرها ووصف كثرة شرها وقلة خيرها

فقال الشيخ كل ما ذكره من المقابح العظيمة والاوصاف الذميمة مجموع في تلك الخانات والوكائل القديمة بخلاف هذا الخان اللطيف والمكان الظريف فانه خال من جميع تلك المضار مشتمل على كل ما يجلب المسار من حسن بنائه وتجدد هوائه ونظافة محلاته وكمال ادواته فيقيم بهِ الانسان في دعة وراحة وسعة لا يرى الا ما يسره ولا يجد ما ينفره او يضره ولا يفقد ما يحتاجه في وقت من الاوقات من جميع اللوازم والادوات فليت ما عندنا من الوكائل المذكورة يستبدل ولو على التدريج بما يقرب من هذه الصورة

فقال الانكليزي لا يخفى عليك ايها الصاحب الفاضل والعالم العامل ان الامور مرهونة باوقاتها والاسباب ملازمة لمسبباتها ووقتنا هذا ليس كالاوقات التي مرت على مصر فكان من يسير او يسيح بها قبل الآن بنحو خمسين سنة لا يرى مثل هذا الخان في مدينة من مدن مصر لانه كان غير لازم في تلك الاوقات بسبب فقر الاهلين واضمحلالهم وندرة وجود الاغراب بها لعدم امنهم اذ ذاك فيها على انفسهم واموالهم فكان من يأتيها منهم ليقف على اخبارها او يطلع على آثار الماضين من سكانها يكابد مشقات عظيمة ويصرف في الحصول على ذلك مبالغ جسيمة ويستغرق ازمنة طويلة ويحتاج الى مكاتبات للوصية عليه

ومخاطبات رسمية لعدم التعرض لهُ وتحفظات كثيرة على نفسه وماله وما معه لان الفتن كانت مستمرة والاحوال لم تكن مستقرة والاهوال مترادفة والاهواء متخالفة فكانت الاغراب تعد دخولها والاقامة فيها من باب المخاطرة لما ذكر ولا سيما لتسلط الامراض الوبائية الدورية فيها على الاغراب في تلك الاوقات وكان ذلك امراً مشهوراً بين اهل اوروبا يصل اليهم في رسائل محررة بألسنة مختلفة ممن ورد عليها واطلع على احوالها وهذا فضلاً عن قلة العلائق بين اهل مصر والاقطار الاخرى فكانت مصر في معزل عن جميع الاحوال التآنسية كأهل دارفور وكردفان الان فكل جهة كانت مختصة بما عندها محرومة من فوائد غيرها وكانت الحكام والمتصرفون في امور العامة اذ ذاك مشتغلين باحوالهم الخاصة بهم كل منهم مقتصر في تحصيل معيشته وما يزيد في ثروته على اسباب فاسدة واعمال كاسدة كالقتل والنهب والسرقة والسلب صارفاً كل فكره في الوصول الى مال غيره ولو باضراره لا يبالي في فعله بجرمة ولا حل ولا يراعي حق صاحبه في نسب ولا آل ففسد امر النـاس وتضعضع وانحط حالهم وتزعزع لقلة الناصر وعدم المنصف القاهر فأهملت اسباب الثروة والتقدم وآل امر اهلها الى الفقر والعدم لتسلط الافات المتنوعة والعاهات الكثيرة المستفظعة وتعطلت حركة التجارة والفلاحة ولم يجد اهلها من عدم الراحة ما يملاء الراحة وتعطلت الارض من الزراعة

ووقع اهلها في اشد مجاعة فلاجل هذه الاسباب انقطع عنها توارد الاغراب وقل تردد الخلق اليها وبانقطاعهم عنها خلت افكار اهلها منهم فعملوا ما عملوا من خاناتهم ووكائلهم مناسبة لحال انفسهم وعوائد امثالهم وربما كانت الخانات والوكائل التي وضعوها فوق الكفاية اذ لم يكن المقصود منها الاَّ الوقاية الوقتية مدة الليل وعلى الخصوص الأمن من اللصوص واما بالنهار فلا لزوم لها بسبب اشتغالهم بما يلزم لقوتهم ومعاشهم وبهذه الكيفية كان الغرض الحقيقي منها انما هو مأوى بعض الناس فيها بالليل ليس غير بخلاف هذا الوقت فانه قد اطمئنت القلوب وحصل الامان وساعد الزمان بوجود علائق المحبة بين الملل خصوصاً بين اهل مصر وسائر الدول بحصول الامن على المال والنفس ووجود انواع السهولة اللازمة للاسفار فاطمأن الغريب وامن وسهل عليه مفارقة الوطن وهرع النـــاس الى مصر من سائر البقاع وتواردوا عليها من جميع الأطراف بمقاصد ممدوحة وان كانت مختلفة فمنهم من يقصد الاقامة فياخذ لهُ بها مسكنًا ويتخذها موطنًا ومنهم من يقصد التجارة ومعاملة اهلها فيجيء من بلده اليها ثم يذهب منها الى بلده وهكذا على حسب مقتضيات الاحوال وبسبب اعتدال هوائها ولين طباع اهلها وكثرة احتفالهم واعتنائهم بالقادم عليهم كثرت الرغبة فيها لتغيير الهواء وتعديل المزاج واكتساب الصحة وبما اكتسبته من التمدن صارت قبلة لجميع اهل اوروبا

لا ينقطع تواردهم عليها وترددهم اليها من اول السنة الى اخرها ولكونها من قديم الزمان مجمع تجارة بلاد العرب والسودان كانت مركزًا يجتمع فيه جميع التجار واصناف التجارة من جهات المعمورة كافة ومما زاد في الرغبة في مصر ووسع في دائرتها وجود سكك الحديد الموصلة لجميع جهاتها وسلك التلغراف المار بينها وبين بلاد الهند واوربا فانقطع بذلك ضياع الوقت واتصلت الاخبار وجرت الامور باوقاتها من غير تطويل في الزمن ولا زيادة في المصرف فمن كثرة وجود الاغراب عندهم حدثت بالضرورة في البلد عوائدهم ومنها هذه اللوكاندات اذ لا ياوون الا اليها ولا يمكنهم الاستغناء عنها لانه كما يقال في الامثال (من شب على شيء شاب عليه) فمن ثم ظهر بالمدن التي ظهروا بها اولاً خانات ومحلات للملاهي وقهاوٍ مشبهة لما في بلادهم ومناسبة لحال ثروتهم وكان اول ظهورها بالاسكندرية لانها المينا والمرسى للمراكب الواردة والصادرة واول بلد ينزل به الغريب بعد مفارقة البحر ثم سرى ذلك الى غيرها شيئًا فشيئًا وهكذا كلما مدت التجارة اغصانها واستظلت القرى بظلالها واقتطفت اهلها من ثمارها كثرت اثار التمدن والعمارة والتآنس والحضارة وعما قليل يتآلفون بالاغراب وتتاكد بينهم الاسباب ويسعون في فعل ما يجذب قلوبهم اليهم ويحسنون امر ما بينهم ويتنقل القطر ومبانيه واحواله واحوال ساكنيه ويكون هذا الانتقال ثمرة وجود الاغراب ولو

شرحت لك هذا المقام لطال الشرح واتسع الكلام ولكن يكفي الآن ما قلته لك وسنعود لهذه المسئلة فيما بعد هذا وقد جاء وقت الطعام فقم بنا انت وولدك ناكل ونستريح وفي غد ان شاء الله يكون السفر والانتقال عن هذا المستقر لان وابور البوسطة قد وصل ويسافر غداً بعد الظهر فقام معه الشيخ والغلام ودخلوا جميعاً محل الطعام فنظر اليه الشيخ فوجده متسعاً وفيه خلق كثير من نساء ورجال وشبان واطفال فداخله الحياء والهيبة لعدم اعتياده مثل تلك الجمعية العظيمة خصوصاً وقد رآهم جميعاً شاخصين بابصارهم اليه لمخالفة هيئته وملبسه لما هم عليه ولما علم الانكليزي منه ذلك مازجه ومازحه وازال ما داخله من الحياء وقال لهُ تعلم ان مما يلزم معرفة العادات والرسوم المختلفة بين اصناف العباد بحسب الجهات والاقطار والبلاد لما في ذلك من عظيم الفائدة باتساع دائرة الاطلاع والتمكن من تمييز الحسن والقبيح من احوال الناس والبقاع فقبل الشيخ منه تلك العبارة وقعد بقربه وقعد ابنه الى جانبه وصار يتأمل في هذه الجمعية ومأكولها ومشروبها ووجد امامه على السفرة ملعقة وسكيناً وشوكة واقداحاً صغيرة وكبيرة لم يدر ما المراد بها وكذلك ولده فارادا ان يستفهما عنها من صاحبهما الانكليزي الا انهما رأياه يتكلم مع مَن بجانبه من الطرف الآخر فلم يريدا ان يقطعا كلامه ورأيا امام كل واحد من الحاضرين مثل ذلك فاتفقا على ان يصبرا

حتى ينظرا ما يصنع كل احد بما امامه من تلك الادوات وكيف ينتفع بها فيفعلا مثلما يفعل غيرهما

وبينما هما في هذا الكلام دارت صحاف الطعام ورأيا كيف يستعمل الحاضرون هذه الادوات والتفت الانكليزي اليهما وعرفهما بما رآه قد يخفى عليهما واعلمهما ان جميع ما يحضر لذلك المحل من اللحم اصله ماخوذ من جزارين من اهل البلاد فضلاً عن كون اصحاب المحل من اهل الكتاب فاكل الشيخ وابنه كسائر الحاضرين واستعملا بعض ما امامهما من الاقداح في شرب الماء القراح وتركا ما اعدّ منها للراح

وقال الانكليزي للشيخ فيما بينه وبينه انما قصدت بحضوركما على هذه المائدة بين هوءلاء الناس المختلفي الاجناس ان تطلعا كما اخبرتكما على الرسوم والعادات وتتعودا قبل دخول اوروبا علي مثل هذه الحالات وهذه المائدة قد جمعت اغرابًا من بلاد شتى والجميع من اوربا بعضهم ورد من قبل بقصد السياحة او الاقامة بمصر وبعضهم حضروا من مدة وقضوا مأربهم واغراضهم ويريدون العود الى بلادهم ومن جملتهم عائلة انكليزية تريد ان ترافقنا في وابور البوسطة الذي نسافر فيه فان شئت وإذنت عرفتك بهم لانه لا يخفى عليك مزايا المعارفة والائتلاف بالناس والمخالطة وحسن المعاشرة فقبل الشيخ منه ذلك وقال هذا مما ندب اليه نبينا صلى الله عليه وسلم حيث قال التودد الى الناس

نصف العقل وتعرف بهم وكان ممن حضر على المائدة بالقرب من الشيخ شابة طليانية تعرف اللغة العربية وغيرها فكانت تارة تتكلم بها وتارة تتكلم بلغتها او غيرها من اللغات الاجنبية على حسب لغات الحاضرين وكانت بديعة الجمال نادرة المثال ظريفة الشمائل ثابتة الجاش فصيحة اللسان لا تقتصر في كلامها على الالفاظ العادية بل تاتي بمحاسن الالفاظ اللطيفة والنكات الظريفة وتدخل مع الرجال في المباحث العلمية والسياسية مع صغر سنها فتعجب الشيخ من ذلك واستغرب حالها لكونه لم يعهد في نساء البلاد المشرقية امثالها فانه يراهن دائمًا عن الرجال بمعزل ولا شيء عليهن سوى خدمة المنزل ولا يتكلمن الاَّ مع ازواجهن وذوي قرابتهن واذا تكلمن مع الرجال يتكلمن بخجل واستحياء بخلاف ما رآه في الطليانية ومن معها من النساء اذ لم يجد بينهن وبين الرجال فرقًا في المخاطبة والمجاوبة والمحاورة والمسامرة وكان يرى الخادم يبداء في تقديم الطعام بهن قبل الرجال واذا طلبن شيئًا بادر بتقديمه اليهن من كان قريبًا منهن لا فرق بين صديق وغريب واجنبي وقريب فالكل محتفل باكرامهن كل الاحتفال ولا ياتي الاّ بما يسرهن من الاقوال والافعال فامعن في ذلك النظر واجال فيه قداح الفكر وقارنه في نفسه بعوائد نساء المشرقيين لينظر ايهما افضل فرأى ان عوائد المشرقيين اجمل واكمل لانها اعون على حفظ الشرف واصون للعرض من اسباب التلف

ولما انتهى امر الطعام وحان وقت القيام توجهوا جميعًا الى محل شرب القهوة فمنهم من اقام بها يقراء صحف الاخبار ونحوها ومنهم من خرج لاشغاله ومضى لحاله اما الانكليزي فتوجه مع الشيخ لحجرته ومعهما برهان الدين وكان الانكليزي قد تفرس ما دار بخاطر الشيخ في اثناء الطعام الاَّ انه منع نفسه من الكلام في ذلك المقام ولما استقر بهم الجلوس وساغ ابداء ما حاك في النفوس

المسامرة الثانية عشرة

النساء

قال الانكليزي قد اطلع سيدنا الشيخ في هذه اللحظة اليسيرة على كثير من عاداتنا واحوالنا ولا بد انه ادار نظره واجال فكره في المقارنة بينها وبين عادات هذه البلاد وتامل فيها تامل اعتبار وانتقاد فمن اجل هذه الفائدة قد رغبت في حضوره على هذه المائدة

فقال له الشيخ نعم كنت اتامل فيما اراه من الاحوال لاسيما في اختلاط النساء مع الرجال فوجدت في اختلاطهنّ فوائد لهنّ من حيث انهن يتلذذن بما يرينه ويعلمنه من الحوادث والاخبار

وما يطلعن عليه من محاورات الرجال لكن ربما ترتب على هذا الاختلاط ما يخرجهن عما هو اليق بهن من الصيانة والحياء لان كثرة المخالطة والملامسة بين الرجال والنساء قد تفضي الى ضد ذلك فلا شك ان عادات المشرقيين ارجح ورايهم في احتجاب النساء عن الرجال اصح واصلح اذ ذلك مما يوجب زيادة ائتلاف المرأة باهلها ويوكد ارتباطها بزوجها وارتباطه بها وامنه عليها ورضاها بحاله بخلاف ما اذا كانت تنظر لغيره في جميع الاوقات وتطلع على معايش الناس مع اختلاف الحالات فان ذلك قد يحرك عندها الشهوات ويجدد لها لوازم ربما اوقعت بينهما المنازعات والمخاصمات فيؤل الامر الى الفرقة وخراب المنزل او انقسام العائلة ولهذه المصالح ورد شرعنا باحتجابهن واظن ان اصل شريعتكم لا يخالف ذلك وهو ايضاً مقتضى اراء العقلاء والنبلاء واكابر الحكماء قال علي كرم الله وجهه اكفف ابصارهن بالحجاب فان شدة الحجاب خير لهن من الارتياب وليس خروجهن باضر من دخول من لا يوثق به عليهن فان استطعت الا يعرفن غيرك فافعل . قال السمعاني

لاتامننَّ على النساء ولو أخًا * ما في الرجال على النساء أمينُ
ان الامين ولو تحفظ جهده * لا بد ان بنظرة سيخونُ

وقال عمر الفاروق استعيذوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر

فقال الانكليزي ان الذي ذكرت ايها الشيخ من المحذورات

لا تمنع منه العزلة بالكلية لان كل امرأة يمكنها ان تعلم كل شي وهي في منزلها بان تنظر من الشباك مثلاً فترى كل ما يمر بالشوارع والحارات فتعرف اوصاف النساء والرجال واحوالهم فمن احبته خاطبته وما اعجبها فعلته وحينئذٍ يكون حال من قعدت في منزلها من النساء كحال من تكون مع الرجال سواء بسواء ومع ذلك فالمرأة على حسب عوائدكم لم تمنع كل المنع عن الخروج من منزلها بل تخرج لزيارة اهلها وجيرانها واحبابها من اهل البلد فيمكنها ان تطلع على صفاتهم واحوالهم وتعلم درجة ثروتهم في منازلهم واذا اراد منعها من الخروج فربما تعللت بان عليها ريحًا من الجن او بها مرضًا من الامراض فلا تستريح الاّ بزيارة بعض الاولياء او المضي الى بعض النساء او تريد الذهاب الى الحمام او صلة بعض الارحام ونحو ذلك من الاعذار والحيل التي يمكنها ان تبلغ بها الامل وهذا كله فضلاً عن اخبار المترددين اليها بجميع ما يكون من اخبار الناس وحوادثهم كل ذلك امر مشهور وواقع في بلادكم فلو صرح لها بالذهاب الى اي جهة ارادت لما علمت زيادة عما تعلم ولا الم بها اكثر مما الم فان قلت ان في العزلة بعض صيانة لعرضها ومحافظة على شرف زوجها واهلها بتقليل خروجها من منزلها ومخالطتها لغير بعلها اذ ليست من تخرج متى شاءت وتجتمع بمن ارادت في اي وقت كان مثل من لا تخرج الاّ باذن وسبب وعلة . قلت ليس هذا اقوى في الصيانة من التربية بين اهلها واقاربها فان حسن

التربية يرشدها لما يجب عليها من الفروض ويكسوها حلل المروة اللائقة بها وبزوجها واقاربها فكما لا يكتفي بمجرد العلم مع الحرية كذلك لا يكتفى بمجرد العزلة مع الجهل بل لا بد في كلا الحالين من حسن التربية في الابتدا لانك تعلم ان حسن التربية يهذب عقل الانسان ويصفي طباعه ويعوّده على الفضائل ويبعده عن الرزائل فهو زمام ذلك كله والقاطع لعرق الشبهة من اصله ولم ارَ هذه العادة المخالفة لعـادتنا الا في بعض مدن البلاد الشرقية فاختصاصها بهذه المدن القليلة يدل على انها بدعة حدثت لاسباب طارئة فان جميع نساء الارياف ونساء عربان البادية وبلاد العرب واهل المغرب وسواحل الشام وارض الحجاز لا يحتجبن عن الرجال وربما قمن مقام ازواجهن في بعض الاحوال كاكرام الضيف والاخذ والاعطاء مع الاجانب وكثيرًا ما يكون امر المنزل وادارته موكولاً الى رأيهن وتدبيرهن وقد رأيت فيهن من عاونت الرجل في اعماله الشاقة وهذا كله بالاختيار من غير اكراه ولا اجبار فلولا ان الحكم بالعزلة لامر قهري وسبب جبري لما وجدت في المدن واظن ان هذه العادة ماخوذة من الاعاجم وسرت الى امثال هذه البلاد عند دخول التتار والترك بها واستيلائهم عليها فنشأ من عظمتهم وكبرهم احتقار غيرهم واكثروا للخدمة من الجواري وللفرش من السراري ولما اكثروا منهن خافوا عدم رضاهن بهم فمنعوا حرمهم من الدخول والخروج والاختـلاط بالرجال

والزموهن البيوت والعزلة عن سائر الأجانب ومما يقوي هذا الظن اتخاذهم الاغاوات للمحافظة عليهن خارجًا وداخلاً فنجدهم ملازمين لهن موكلين بهن من قبل ساداتهن يخبرونهم بكل ما يحصل منهن من قول وفعل فتكون العائلة دائمًا في اضطرار ورعب وعذاب خائفة من ان تزل او يقال في حقها شيء لسيد المنزل وإن كان هناك تلذذات منزلية فأظن انها وقتية وربما كان غالبها تصنعا وتكلفا وتطبعا لان اللذة الطبيعية لا تكون الا عند تساوي المتحابين وخلوص الود من الطرفين وقل ما يوجد ذلك بين السيد وجواريه او بينه وبين سراريه اذ لا مساواة بينهما ولا نسبة فكيف يوجد الحب او يكون للألفة اثر بالقلب بل يكون بينهما غالبًا بغض ووحشة وكدر وحيث لا يمكنها الانفصال لا يسعها الا الطاعة والامتثال والاعاشت في هم ونكد وكدر مستمر الى الابد وما تراه حولها من المستلذات والجواري والخدم والاغاوات وانواع الحلي وزخرفة المنزل والملبوسات لا يفيدها الا غما على غم وعيشة كعيشة من وقع بينهم عطر منشم فيتزايد ضررها خوفًا من ان يتمتع به غيرها لعلمها حينئذ بدرجته في السعة واليسار فلا تهناء بحال ولا يقر لها قرار

فقال له الشيخ انا نرى هذه العادة الجارية عندنا لازمة عقلاً وشرعًا اما عقلاً فمن وجوه منها . ان الطبع البشري لا يستحسن أن يطلع احد على حرم غيره فضلاً عن حرم نفسه لما

ركب في طباع اناث هذا النوع من الشهوة القوية الدائمة التي لا تزال الدواعي لاخمادها وكسر عاديتها قائمة في كل وقت على خلاف بقية الانواع الحيوانية فانك لا تجد الانثى منها تتحرك شهوتها وتشتد غلمتها الاّ في وقت معين من اوقات السنة حسب ما طوى في ذلك الخالق الحكيم من ايجاد النسل لابقاء سلسلة الانواع ولذلك تجد اناث الحيوانات ممتنعة بنفسها صادة ما يريدها من الذكور فكل الفة من الحيوانات التي طبعها التآلف والاختصاص كافية الفها مؤنة صيانتها وربما تقاربت اوقات سورة الشهوات في بعض الحيوانات المؤتلفة فمكنت غير الفها من نفسها فحصل بذلك مقتلة يقتل فيها القوي الضعيف وقد جعل هذا النوع ذا عقل يحكم به ويميز ما ينبغي وما لا ينبغي فلو ارسلت احاد هذا النوع على مقتضى شهواتها لحصل من ذلك فساد عظيم لا يحصل مثله بين البهائم

ومنها ان النساء عند الرجال كالاسرار ولا تسمح النفس باطلاع غيرها على سرها

ومنها ان مبادىء ميل النفس الى الشهوات انما هو الاجتماع والميل للشيء لا يكون الاّ بعد رؤيته فلذلك منعت النساء من التكشف بحضرة الاجانب وامرت بالاحتجاب عنهم غيرة عليهن ودَرْأً لهذه المفاسد ولا تظن ان المنع من الاختلاط خاص بالنساء بل الرجال كذلك ممنوعون من رؤية النساء الاجانب والخلوة

بهن ولكن لما كانت الرجال بمقتضى الحكمة الالهية هم الذين يقومون بمصالح المعاش وعمار الدنيا بنحو الفلاحة والتجارة والصناعة اضطروا الى الخروج من منازلهم للاسفار وتحصيل معائشهم واما النساء فلما لم يكن عليهن سوى خدمة المنزل أُلزمنَ بملا زمته · على ان المراة في بيت زوجها لا يلزمها الاّ تسليم نفسها له فلم تتخذ للخدمة ولا للطبخ ولا لغسل الثياب ولا لكنس البيت ونحو ذلك بل كل ما فعلته زيادة عن تسليم نفسها فذلك من لطف طبعها وحسن عشرتها مع بعلها كما روي ان رجلاً جاء بباب عمر بن الخطاب ايام امارته يشكو له سوْ خلق زوجته عليه فبعد ان دق الباب سمع صوت امراة مرتفعًا على امير المؤمنين تتناول منه وتؤذيه فالتفت الرجل راجعًا وقال في نفسه هذا حال زوجة امير المؤمنين فانا اصبر وكان عمر سمع دق الباب فخرج ووجد الرجل منصرفًا فناداه واستخبره عن شانه فقال وجدت عندك مثل ما جئت اشكو اليك منه فقال امير المؤمنين ان النساء يخدمننا بما لا يجب عليهن يغسلن ثيابنا ويصنعن خبزنا الى غير ذلك من الاعمال الشاقة وانما هي لحظة وتسير فليحسن خلُقُكَ يحسن خلقك

وايضًا فما الفائدة العائدة عليها او على الزوج من مخالطة الاجانب فضلاً عن الكشف عليهم حيث ان الزوج قائم بجميع لوازمها ولوازم منزله فلا اقل من ملازمة منزلها اذ لا يعود من اختلاطها بالاجانب الا تضررها بزوجها او تضرر زوجها بها لانه

لو فرض ان زوجها فقير او متقدم في السن واجتمعت بمن هو اغنى منه او اصغر لبطرت معيشة زوجها وكرهت الاقامة معه وكذلك الزوج ربما عرضت له خواطر نفسية باجتماعها على اغنى منه او اصغر فيؤل الامر الى الفرقة وخراب المنزل وكما ان الرجل لا تسمح نفسه برؤية غيره لحرمه فكذلك المراة لا تسمح نفسها برؤيه غيرها لزوجها اذ النساء اشد غيرة من الرجال كما هو معلوم وايضًا فان غالب نساء المشرقيين بسبب تعودهن على القيام بالامور المنزلية وبسبب حرارة البلاد المشرقية يمتنعن من الخروج من المنزل بطبعهن واذا خرجن فلا بد لهن من الملابس التي نراها عليهن وقاية لوجوههن من حرارة الجو والاتربة لانهن لو لبسن ملابس نساء الافرنج لأثرت العوارض الجوية على اعضائهن وازالت بعض جمالهن ولذلك نرى نساء الافرنج لا يمشين الاَّ بالشمسيات خوفًا من تلك العوارض وربما اعتكفن في الاوقات الشديدة الحرارة او ذهبن الى بلادهن وحيث لم تكن عوارض البلاد واحدة لم تكن عوائد اهلها واحدة لان النوع الانساني مجبول على ان يجعل احواله مناسبة لاحوال بقعته التي هو بها ومن تامل احوال الامم يجد هذا الامر عموميًا فطباعكم مناسبة لبلادكم وطبائعنا مناسبة لبلادنا

واما دلائل لزومها فالآيات القرآنية والاحاديث النبوية المنبهة على محاسن احتجابهن واعتزالهن عن غير محارمهن كثيرة

ولقد كانت العرب على عوائد قريبة من العوائد الاروباوية فكانت النساء يحادثن الرجال ويناشدنهم الاشعار ويناقلن الاخبار لكن كان امر الحرية وتصوّن النساء فيهن قويًا وكانت امورهم منكشفة لما كانوا عليه من ظهور البداوة ولم تكن متكاثفة عليهم الاستار المدنية فجاء الاسلام وهم على تلك العوائد فقام العقلاء من المسلمين منهم عمر بن الخطاب فقالوا يا رسول الله تغيرت الاحوال وكثر الاجتماع واشتد اختلاط الناس بعضهم ببعض من العرب وغيرهم وظهر الفساد من اختلاط الشباب فهلّا امرت بالحجاب فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لم اومر بذلك ثم اوحي اليه كما هو شان الله معه حيث لا يوحي اليه حكمًا الّا عند اقتضائه بحكم تغير العوائد ومن ذلك الوقت تواترت الايات والاحاديث بحجب النساء ومنعهن من الخروج واحدثت الاخلية في البيوت ولم تكن قبل عند العرب وشدد امر الحجاب على التدريج فكان اولاً منع النساء من الخروج نهارًا وكن يخرجن الى البراز عند اقبال الظلام فوقف عمر ليلة في طريق ذهاب نساء النبي صلى الله عليه وسلم الى البراز فرأى عمر احدى ازواج النبي صلى الله عليه وسلم وهي سودة بنت زمعه فقال قد عرفناكِ يا سودة فرجعت ومنعن ليلًا ايضًا الا من الخروج الى المساجد للصلوات في موضع منها خلف الرجال كما هو ترتيب الصفوف الشرعي فلما ازداد اجتماع الناس من سائر النواحي وصار غير العرب اكثر من العرب اجتهد

عمر اجتهادًا دينيًا في منع ذوات الهيئات من الخروج الى المساجد حتى ان زوجة له خاصمته في ذلك وقالت من هو افضل منك لم يمنع النساء من المساجد فتركها وخرجت الى المسجد فخالف اليها الطريق وجاءها من حيث لا تشعر فضربها على عجيزتها فرجعت وهي تقول نعم ما رأيت يا امير المؤمنين فقد فسد الزمان ولمثل ذلك سبقت الاشارة من النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال اعروا النساء يلزمن البيوت

انما يلزم المرأة شرعًا اذا ارادت الخروج ان تستأذن زوجها لانها لو خرجت من غير اذنه كان على جهل من احوالها فربما يسوء الظن بها فيحدث له عند ذلك اوهام ربما جرت الى النزاع او الفرقة واذا اذن لها زوجها بالخروج يلزمها ان تكون في هيئة الكمال والوقار على حسب الحال من الاعسار واليسار فجميع ذلك لم يكن فيه احتقار لهن ولا ازدراء بهن بل هو من باب التعظيم والاحترام والصيانة اذ المرأة عند الرجل كالجوهرة النفيسة يجب صيانتها عن كل ما يشينها او يشين عرضها كما ان الجوهرة تصان عن كل ما يضر بلونها او يغير شكلها او يبخس بقيمتها واما ما قد يتفق من ان بعض النساء يخرجن من منازلهن او يتكلمن مع الاجانب فذلك لا يكون منهن الا لضرورة والضرورات تبيح المحظورات فان لم يكن الخروج والاجتماع لضرورة ولا عذر شرعي بل كان لمقاصد شهوانية فذلك نادر وهو لا حكم له بل الحكم

للغالب وهذا النادر كما يتفق في نسائنا يتفق في نسائكم من غير فرق بيننا وبينكم

واما ما كان من امر الاغاوات فلم يكن اتخاذهم امرًا قديمًا وانما هي بدعة دخلت بلادنا ولم تكن من عوائدنا السابقة ولا اللاحقة ولم يرد بها شرع فلا ينسب الينا ما خرج عن حدوده فكم من بدعة حدثت على ان هذه البدعة لم توجد الاّ عند بعض الامراء لزعمهم ان الاعتبار لا يتم الاَّ بها او انها علامة على العظمة وعلى حسب حال الامير وتعدد زوجاته وسرايره تتعدد الاغاوات ومع ذلك لم يقصدوا باتخاذهم لهم الاّ اكرام النساء وتعظيمهم واما جميع الاهالي على اختلاف طبقاتهم فلا يتخذون الاغاوات ولا حاجة لهم بهم وان وجدوا عند بعضهم فذلك نادر ولا يكون الاَّ تقليدًا بسبب تشبهه بالامراء العظام فلا يحكم على الامة كافة بما وجد عند البعض ولا ينسب الى الشرع ما حدث بالبدعة فلم تكن العرب تعرف خصاء الانسان اصلاً وكان شائعًا في الروم فلم يرد في الشرع نص في امر استعمال الخصيان هذا الاستعمال القائم بين الناس غير ان الكتاب العزيز تعرض في احكام النساء الى الرجال الذين لم تخلق فيهم الفحولة وهم المعبر عنهم بغير اولي الاربة والاربة حاجة الرجال الى النساء في امر جواز ابدآ زينتهن حكم بامتناعها وحرمتها الاَّ على اجناس من القرابة وغيرهم منهم اولئك الرجال فكان امر استعمال الخصيان من الامور الاجتهادية فلما اتسع

الاسلام ودخل بلاد الروم واطلعت العرب على الخصيان رأى امير المؤمنين معاوية رضي الله عنه رأيًا مذهبيًا بالقياس على غير اولي الاربة جواز استعمال الخصيان فلما اقتنى منهم من اقتنى واراد ان يدخله على بعض نسائه امتنعت من ذلك فاحتج بكونه خصيًا فقالت له ان المثلة به لم تحل منه ما حرم الله ولم ير غيره من اهل الاجتهاد جواز ذلك فكان استعمال الناس للخصيان تقليدًا لمذهب معاوية رضي الله عنه فهو من الشرعيات الاجتهادية دون النصية ولقد ترتب على ذلك من الاثار المذمومة ما لو اطلع عليه معاوية لكان عساه ان يحكم بتحريمه فقد يطرأ على الخلق ما ليس من طبائعها ويحدث في عوائدها ما يخالف دينها وشرائعها وبعد ذلك لا يمكن ازالته فيكون كالدآت التي تستحكم بالجسم فتوهنه ويجتهد من ابتلي بها في الشفاء منها فلا يمكنه ومن هذا القبيل الاغاوات بل هم اضر على ساداتهم من الداء بدرجات فان ضرر الداء قاصر على صاحبه واما ضررهم فمتعد من رب المنزل الى عائلته وحاشيته واقاربه فمن تامل حال الاغاوات مع ساداتهم وجد ان السيد ما جلب لنفسه الاَّ ضررًا وما اكتسب باتخاذهم الاَّ مخالفة الشريعة الغراء وتمكين غير عشيرته من الحكم على اهل بيته وعائلته مع ان الامور المطلوبة منهم يمكن الحصول عليها بغيرهم كامرآة عجوز او بنت او ولد صغيرين وعلى اي حال ففائدتهم لا تفي بضررهم لان غالب النزاع والفساد الذي يوجد في البيوت لا يكون الاَّ بسببهم لما

يلقونه من الفتن بين السيد وعائلته او بين العائلة وبعضها او بين صاحب البيت واحبابه بما يزخرفونه من القول والفعل ويختلقونه من التزوير الذي ليس له اصل وكثيرًا ما يكونون سببًا في غضب الزوج على عائلته وشذوذ الزوجة عن طاعته او خروجها من بيته فيكون سببًا في زوال نعمتها وعدم الراحة بينها وبين رب المنزل وبالجملة فلا حصر لما ينشاء من اقوالهم وافعالهم بل كثيرًا ما اتفقت الاغاوات والحرم علي اتلاف رب المنزل وفقده وكتب السير مشحونة من هذه الاخبار وفي ذلك عبرة لاولي الابصار

فقال الانكليزي كيف من يكون قدوة لغيره ينحرف عن الصواب ويدخل مدخلاً لم يكن لحسنه في الشريعة ولا في العقل باب فان الامراء بالنسبة للرعية في كل زمن على الاطلاق كالكواكب والشمس المضيئة في الافاق فكما ان كل احد ياخذ منها ما يلزم لحياته من الحرارة والضوء وما يقي به نفسه من السوء كذلك الامراء تاخذ الرعية من عوائدهم واخلاقهم ويقتدون بهم في اقوالهم وافعالهم فاهل القرى يقلدون مشايخها وعمدها واهل المدن يقلدون امرآها واعيانها وكذلك الامراء تقلد ساداتهم ورؤسائهم فان كانت الامراء سائرة سيرًا حسنًا انتشر ذلك في افراد الرعية فصلح حالها وقويت شوكتها وعلت شهرتها والاّ انقلب الحال واخذ في الاضمحلال فان الناس بالنسبة لامرائهم كالاطفال بالنسبة

لمعلميهم وذلك امر ظاهر لا يحتاج الى دليل ولا توضيح ولا تمثيل فكل احد يجب ان يتشبه بمن يقرب منه على حسب طاقته فكما ان الداءات تسري بالملامسة كذلك عوائد الامراء تسري لاتباعهم وتنتشر من بلد الى بلد حتى تعم القطر . الا ترى ان اصحاب الوظائف تبع لرئيسها فان كان الرئيس قائمًا بما يجب لها مؤديًا جميع حقوقها قام كل منهم بما هو مفروض عليه من غير كسل ولا تساهل ولا ملل وتحصلت ارباب الحقوق على حقوقهم باوقاتها والعكس بالعكس ولا يخفى عليك ان كل انسان لا يلوذ به الا من يشاكله ويجانسه وفي اوصافه يماثله فاصحاب الكبائر من الامراء لا يلوذ بهم الا مثلهم وكذلك ذوو الفضائل منهم وهكذا اهل كل منزل بالنسبة لرب المنزل فاخلاقهم وعوائدهم مكتسبة من اخلاقه وعوائده فان اكثر من الموبقات والملاهي وانواع الشهوات سرى ذلك في اهل بيته وعائلته وذريته وان استقام وقام بما يجب عليه حق القيام تبعته عائلته وذريته وحاشيته وقياسًا على ذلك حال كل راع مع رعيته فان حافظ على ناموس شريعته وقوانين ملته تبعته رعيته فكثر خيرها وان سلك طرق الفساد انحل امرها واتضع وفسد حالها وتضعضع ومن يتأمل احوال المتقدمين يرى ان كل طائفة تبع لسير من تبعته فتارة ترتفع وتارة تتضع فكم من قوم مضى عليهم اوقات زهو وظهور ثم انحط امرهم بعد ذلك وقصمت منهم الظهور ثم بعد انقضاء مدة من الزمان عاد لهم حالهم الاول

او احسن مما كان وذلك كما يحصل لذرية الرجل من الفقر والفاقة بعد موته وان كان ترك لها اموالاً وعقاراً وعزاً ووقاراً فيمحى اثرها بالكلية وبعد زمن يتجدد لها رونقها الاول على يد ناجب من الذرية يلم شعثها ويصلح وعثها فيعود لها مجدها ويرجع اليها سؤددها ما ذاك الاّ لتفريط الذرية وخروجها عن الحدود الاصلية فلو حافظوا على فخرهم وشرفهم واتبعوا قوانين سلفهم ورفضوا اغواء الغاوين ولم يقتدوا براي المفسدين لاستمروا على سعدهم ولم يحتاجوا الى من جاء من بعدهم بل ربما زادوا عن الاصل وتضاعفت عليهم خلل الفضل ولا سيما اذا انضم الى ذلك ما يعلمونه من الاصطلاحات المتجددة بتجدد الاحوال والاوقات فان النصيحة لا توخذ عمّن اشتهر بالفساد او عرف بدناءة بين العباد او كان من المتملقين واهل النفاق او من ارباب المعاصي على الاطلاق لان مثل هولاء وان جلت معلوماتهم وحلت كلماتهم لا يقصدون الاّ التوصل الى اغراضهم فلا يصلحون دليلاً في الامور الدنيوية ولا قدوة في الاحكام الدينية بل لا توخذ النصيحة الا عمّن عهد عليه الصدق وعرف بين الخلق باتباع الحق وكذلك الشريعة لا توخذ الاّ عن اربابها والكلام في هذا المعرض متسع وان اردت الزيادة ففي وقت اخر تستمع فان ما قلته لك بعض ما يقال اقال الله عثرتك في من يقال

قال الشيخ ما احسن هذا الكلام واوصله الى اقصى المرام

فان النصيحة لا يكون لها تاثير حتى تصدر عن حر الطبع نقي الصنع بالفضائل بصير كما يحكى ان رابعة العدوية وقفت يوما على واعظ حوله جم غفير وهم عنه لاهون فقالت له كيف يداوي العليل من هو سقيم فانشد

فخذ بعلمي ولا تركن الى عملي
ينفعك علمي ولا تضررك اوزاري
ان الرجال كاشجار لها ثمر
فاجنِ الثمار وخلِّ العود للنارِ

فقالت له لا والله حتى يكون عملك على وفق علمك وانشدت

ابدا بنفسك فانهها عن غيّها
فاذا انتهت عنه فانت حكيم
لا تنهَ عن خلق وتأتي مثله
عارٌ عليك اذا فعلت عظيمُ
تصف الدواء لذي السقام وذي الضنا
كيما يصح به وانت سقيمُ

فعند ذلك قام الواعظ واجتهد في تطهير قلبه وسعى المساعي الحميدة فمرت عليه بعد ذلك ذات يوم فوجدت من حوله ما بين باك ومغشيٍّ عليه فقالت له كيف رأيت فبكى وقال نفعك الله ياسيدتي ونفع بك

قال الانكليزى كذلك يكون فان منبع الخير طهارة يقتدى به من العلماء والامراء وها نحن قد تهيئنا للسفر فان كان في بيتك تحرير خطاب للعائلة فاكتبه الليلة فان مركب البوسطة يقوم بعد ظهر غد ومتى طلع النهار اشتغل الانسان بأمور شتى فربما يطرا عليه ما ينسيه او يحصل له شاغل يلهيه فقال له الشيخ جزيت عني خيرا فقد اظهرت ما اضمرت في نفسي ان اسألك عنه

المسامرة الثالثة عشرة
البوستة

فقال الانكليزي الامر الان ممكن من غير صعوبة لان البوستة بالديار المصرية وكذلك في البلاد الاوروباوية مصلحة قائمة بذاتها من شأنها استلام الخطابات والجوابات من اربابها باجرة معلومة على حسب وزنها وهي ملزومة بتوصيلها الى محل ارسالها مع غاية الامنية وهذه المصلحة ليست مخصوصة بتوصيل المخاطبات بل تستلم النقود والجواهر والفواتير المرسلة من قبل التجار كذلك ولها قانون تجري على مقتضاه ولها خدمة مختصون بها لهم مرتبات على قدر وظائفهم وناظر عمومي وحساب تلك المصلحة يقطع سنويا

بمعرفة ناظر المالية

فقال الشيخ وهل هذه المصلحة مخصوصة باهل مصر واسكندرية ام عامة لجميع الجهات المصرية من المدن والقرى و كيف سهولتها في النقل

فقال الانكليزي انه سهل جدا بواسطة وجود السكة الحديد لان المصلحة جعل لها جملة مكاتب في المدن وبعض محلات شهيرة في الجهات البحرية والقبلية من القطر وفي المدن الكبيرة مكاتب مركزية فالخطابات بعد تظريفها وختمها يوضع بعنوانها الجهات التي يراد الارسال اليها واسم الذي تسلم اليه ثم توضع في صناديق او علب على هيئة مخصوصة مثبتة في حائط المكاتب ثم تجمع هذه الخطابات وغيرها في المكتب المركزي في اوقات معينة وتوضع في مخال او علب تسلم لاحد مستخدمي البوسطة مع النقود والاشيا الثمينة ان كانت بمقتضي سندات بيد اربابها فياخذها احد الخدمة المذكورين ويسافر بالعربة المخصوصة لذلك وعند مروره على كل محطة يسلم لوكيل البوسطة الذي في تلك المحطة ما كان مختصا بجهته وهكذا . ثم يصير توجيهها الى اربابها بمعرفة الوكلاء بمقتضى سراكي معلومة بينهم واما الاجرة فتارة توخذ من المرسل اليه وتارة تاتي له خالصة الاجرة اذا كانت دفعت وقت الارسال ويعلم ذلك بعلامات توضع على ظهر الظرف معروفة فيما بينهم وبما ذكر صار الامر هينا وهذه من فوائد تلك

المصلحة ومنها انه يتأتى بها للتجار الوقوف على حقيقة تجارتهم واجراء حركاتها بالسرعة التي يريدونها فان اراد احدهم الوقوف على امر شريكه او صاحبه او من يعامله ارسل الخبر بالتلغراف فياتيه الجواب حالا ولا يستغرق الا بعض دقائق وان كان الامر يلزم له زيادة توضيح ارسله بالكفاية في البوسطة على الوجه الذي ذكر أولا وفي بعض الاحيان يرسل الخبر أولا بالتلغراف مجملا ثم يتبعه بطريق البوسطة مفصلا فمن ذلك حصل لامور التجارة انقلاب حسن محسوس بسبب سرعة تواصل الاخبار بين مراكز التجارة وهذا بخلاف ما كان في الازمان السابقة لان الاخبار اذ ذاك كانت لا تصل الا بالمكاتبة فكان يمضي عليها ايام في اثناء السفر وربما لا تصادف الوقت المطلوب وبهذا كان يضيع على التجار اغلب الفرص لانها كانت تابعة لسير تفويض لاحظ للنظر فيه كما تحكم به طبيعة الحال واما الان فقد تمكن التاجر في وقته وساعته من العلم بما يلزم مشتراه وما يجب التصرف فيه وبما راج منها وما كسد اذ بواسطة التلغراف والبوسطة في البر والبحر صارت جميع بقاع الارض متصلة ببعضها والاخبار واردة من جميع جهاتها مع السرعة التامة اذ في ظرف الاربع والعشرين ساعة تعم الاخبار جميع جهات المعمورة ولا يخفى عليك ان النوع الانساني بحسب ما جبل عليه من تطلبه زيادة السعة تجدد في معلوماته هذا السر الذي كان كامنا في الخلقة فاستعمله وانتفع به فزادت بذلك ثروته

واما في الازمان السابقة فكانت المخاطبات والاخبار بطيئة الوصول
لانها كانت ترسل مع احد الاحباب او المتوجهين للجهات فيطول
الزمن ويضيع وقت انتهاز الفرصة الى ان حصل بعض رفاهية
وتقدم فاتخذت السعاة ثم الخيل وبعد ذلك وضعوا بسطا على
ابعاد متساوية فكانت هذه الطريقة اسرع من الطريقتين قبلها
لكنها كانت في مبداء الامر خاصة بالملوك والامراء ولم يصرح لعموم
الناس بالانتفاع بها الا فيابعد فاتسع هذا الامر واستعملته جميع
البلاد وحسنت قوانينه فعم نفعه ولما فشا امر التجاره واتسع في البر
والبحر وزادت علائق التجارة بين الملل احتاجوا جميعاً الى استعمال
هذه البوسطة للحصول على مقصودهم في اقرب زمن وقد كان حتى
صار من احسن نظامات الدول واكبر مولف بين الملل وكانوا
قديما في البلاد المشرقية كمصر والشام يستعملون الحمام في توصيل
الاخبار كما يعلم ذلك من اطلع على تواريخ المتقدمين ويقال ان
اول استعماله كان من رشيد الى دمياط وقد اختلف في اول
من رتب البوسطة ونظم لها اربطة موزعة في الطرق فذكر بعض
المورخين انه (دارا) ملك الفرس وقيل (دارا) ملك (الديلم) وفي
بلاد الروم (قيصر) وفي بلاد فرانسا شرلماني فاوسعوا في دائرتها وما
زالت يتسع امرها شيأ فشيأ الى ان صار لا يخلو قطر من الاقطار
عن بوسطة حتى انه يوجد في بعض المدن الكبيرة مثل التخوت
بوسطة مخصوصة بنقل الخطابات من حارة الى حارة فيتجه خادم

البوسطة من غير انحراف ولا سوال من احد الى ان يصل المنزل الذي يقصده وذلك لان رسم المدن وخرطتها مبين فيه اسماء الحارات ومواقعها والعطف والشوارع وللمدينة قاموس وخرطة ودفتر مشتمل على اسماء السكان ووظائفهم فمتى راجع الخادم الخرطة والقاموس اهتدى لمقصوده فيتم ماموريته من غير مشقة الاّ ان القاهرة وان كان بها نمر موضوعة على المنازل والحارات والعطف لكنها غير كافية حيث لم يكن للبلد رسم ولا قاموس فمن ذلك يحصل لخدمة البوسطة في اداء الوظيفة بعض مشقة لكن اذا اخذ المسافر قبل سفره الاحتراسات اللازمة بان اتفق مع بعض اصحابه او خادمه على التوجه للبوسطة في ايام معينة لياخذ الخطابات ان كان هناك امتنعت الصعوبة وكذلك اذا اتفق مع احد من الناس المشهورين ويحرر خطاباته ويجعلها في ظرف ويكتب على ظهره اسم ذلك الشهير فيكون كالوكيل عنه

فقال الشيخ لم يخطر هذا الامر ببالي ولم اعرف غير ما كنت اعهده من قبل حين كنت ارسل بعض خطابات لوالدي المرحوم فكنت اذا اردت ارسال خطاب انتظر اليوم او اليومين فلا اجد من ارسله معه وربما اتوجه بالخطاب الى ساحل البحر لأعثر ببعض التجار فلا اجد احداً من اعرفه فارجع ثم اعود واذا صادفت منهم احداً واخذه مني فكثيراً ما يفقد واذا سهل المولى ووصل الخطاب الى والدي لا يأتيني جوابه الاّ بعد شهر من

تاريخ الخطاب واما بهذه الكيفية فقد سهل الامر الا اني لا اعرف احداً من مشاهير مصر لاني مدة اقامتي بالجامع الازهر ما كنت اخرج منه الا الى منزلي بسبب اشتغالي بطلب العلم وكذلك نمرة المنزل لا اعرفها لاني ما كنت ارى لمعرفتها لزوماً خصوصاً والمنزل ليس ملكاً لنا فاظن ان الحالة ما حالت والصعوبة ما زالت

فقال الانكليزي لا بأس عليك في ذلك ولا عدم الدهر وجود امثالك خطاباتك ارسلها مع خطاباتي لاحد احبابي بالقاهرة والزمه بتوصيلها الى اهل منزلك واؤكد عليه باخذ المكتوب منهم وارساله الينا فشكره الشيخ ودعا لهُ وانصرف الانكليزي ليقضي اشغاله



المسامرة الرابعة عشرة

المكاتبة

واما الشيخ فاخرج الدواة والقرطاس واعتزل هو وابنه بعيدين عن اعين الناس وحرر خطاباً لزوجته ضمنه نصائح وحكما من فكرته وصورته

السيدة المصونة والدرة المكنونة ·بن لا اصرح باسمها ولا يغرب عن خيالي لطف طبعها ورسمها حضرة قرة العينين وزوجتنا ان شاء الله في الدارين · اما بعد بث الاشواق وابلاغ ما اكابد من الم الفراق فنعرفك اننا بفضل خالق البرية قد وصلنا بالصحة والسلامة الى ثغر الاسكندرية وبمشيئة اللطيف القادر نركب البحر في غد ونسافر صحبة رفيقي وعزيزي حضرة الخواجا الانكليزي قاصدين بلاد الانكليز فلا تهتمي بامرنا ولا تشتغلي بغيابنا وسفرنا وخلاصة القول بالاختصار والايجاز اننا في غاية من الاعزاز شاكرون من صاحبنا لزيادة التفاته ومؤانسته

يزيد تفضلاً وازيد شكرًا * فذلك دأبهُ ابدا ودأبي

واما ما كان من امر ولدنا برهان الدين فقد اخذ في مبادي اللغة الانكليزية واصول اللغة العربية وان شاء الله ببركة دعاء والديه يتحصل على ما تقر به اعيننا وتنشرح لهُ خواطرنا واني لراضٍ عنه لما فيه من الادب والامتثال والاجتهاد فما من يوم الا وتظهر عليه بشائر الفلاح وعلامات النجابة والنجاح فنسال الله ان يفقهه في الدين ويمنّ عليه بحسن اليقين حتى ينفع اهله والمسلمين

واما من قبل ما عندك من الاخوات والاولاد فارجوك ان لا تكتمي عنهم شيئًا من طرق الرشاد وان تكرري عليهم ما جمعناه في كتابنا المؤلف ايام طلبنا الموسوم بالارشاد لتربية الاولاد

ففيه الكفاية والاولى عدم ارسالهم الى الكتاب لتكون تربيتهم في المنزل تحت نظرك وتلاحظي حركاتهم وسكناتهم واخلاقهم فاني اخشى من اختلاطهم بغيرهم من الاطفال ان يتطبعوا بطباع غير مرضية فتضرّ بهم في كبرهم لانهم الآن في سن التعلم والواجب ان تصان طباعهم مما يخشى عليهم منه فان انتِ اخترتِ لهم محلات من محلات المنزل ونقيته من الاتربة والاوساخ والقمامات ووضعت فيه حصيراً او شيئاً من المفروشات كان اولى من ان يتوجهوا الى الكتاب فتتسخ من التراب ملابسهم وتضيق من القعود على البلاط منافسهم ويدب اليهم القمل من كل حدب فيخل بصحتهم وربما نشأ منه داء الجرب خصوصاً ولبعض المؤدبين عوائد قبيحة فلا نعرض اولادنا لها اقلها تكرار شتم الوالدين والاتيان بحكايات كاذبة وعبارات فاسدة يكررونها من اول النهار الى اخره ما دام الطفل عندهم فربما يحفظها فتضر بتصوره وعقله فاني الى الان راسخ في ذهني ما كان مرتبه عليّ مودبي في صغري ان اتي له بشيء من المنزل فكنت اتحايل تحايل اللصوص حتى اختلسه وأتيه بهِ وان امتنعت او اتيت باقل مما طلب توعدني او ضربني وكان احياناً يعاملنا معاملة الخدم فمنا من يخدم الزوجة فيملاء لها الزير ويكنس البيت وينفض الحصير ومنا من يخدمه فهذا يهيئ لهُ غذاه ويقليه وهذا يملاء السبيل ويوضيه وهذا يدق لهُ النشوق وهذا يجمع لهُ النوى من السوق وهذا يجمع القوالح للقهوة وهذا

يكون بيده مفاتيح السهوة وهكذا ولا يخفى ان الطفل لقصر عقله
لا يعلم ما فيه مصلحة لنفسه فيميل بطبعه للعب فكنا نحب خدمته
اكثر من حبنا للتعلم فكان كثير من الاطفال تمضي عليهم عدة
سنين بلا فائدة فان تعلم شيئًا كان ضرره اكثر من نفعه وربما
اكتسب في مدة الاقامة اوصافًا ذميمة فتصير لهُ كالطبع ويتعذر
على اهله تحويله عنها فيما بعد فتستمر معه بقية عمره فارجوكِ ان
لا تبعثي الاولاد الى الكتاب ولا عليكِ مما يلزم لهم من المصرف
فقد غمرني الله بنعمته واجزل عليَّ عظيم منته ولا يخفاكِ ان من
مهم ما يجب على الانسان في ماله ما يصرفه بتربية اولاده وَفِلذِ
اكباده وانتِ تعلمين ان اولادنا ثمار قلوبنا وعماد ظهورنا ونحن لهم
سماء ظليلة وارض ذليلة فان غضبوا فارضيهم وان سألوا فاعطيهم
وان لم يسألوا فابتدئيهم ولا تنظري اليهم شزرًا فيملوا حياتك
ويتمنوا وفاتك وبحسن التربية ينصلح حالهم ويعلو بين الناس
شأنهم ولا شك في انك تحبين ان تظهري نعم الله عليهم فتاتي لهم
بما يوافق حالهم من الملبس والمآكل فان فعلت ذلك ورأفت
بهم واشركتهم معك في الاقوال والافعال وسلكت بهم طريق
التدريج ثبت في ذهنهم ما تلقينه اليهم من القواعد الدينية
والالفاظ الادبية وكلما تقدموا في السن قويت قواهم البدنية
وحواسهم العقلية فاذا بلغوا اشدهم لا يكون للاوهام الفاسدة على
عقولهم تأثير فيثبت يقينهم ويصح ايمانهم وبما يتعودونه في الصغر

من الاخلاق المرضية تنعطف نحوهم القلوب وينتشر لهم بين الخلق سيرة حسنة ومن حسن سيرتهم وخلوص نيتهم وسريرتهم يغمرهم الله بنعمته ورضوانه ويدخلهم مع الذين انعم عليهم غرف جنانه واذا اخترت مؤدبًا فالاولى ان يكون موصوفًا باوصاف اهل الكمال ذا فقه ووقار وسكينة وجلال وان يكون في فن الحساب كاشفًا عن وجه مخدراته النقاب وفي فن اللغة والأدب كانما حفظ لسان العرب وفي العقيدة اشعريا وفي الاخلاق احنفيا وفي علم السير بحرا وفي الحديث كأنما تحنث بِحِرَا ولا يلزم ان يقيم معهم طول نهاره بل يكفي ان ياتي لهم في وقت معين والاولى ان يكون بعد وقت افطاره ثم يخرج بعد ان يقسم لهم اليوم نصفين نصف يشتغلون فيه بالمطالعة والمذاكرة والنصف الاخر يلعبون فيه والاولى ان تكون حصة اللعب متخللة بين اوقات التعلم والمذاكرة لئلا يطول عليهم الجلوس فتخمد فكرتهم وتضعف بنيتهم وارجوكِ منع الضرب مطلقًا وان تسلكي بهم طرق النصيحة والاسباب الموجبة لزيادة الاجتهاد وصفاء القريحة كان تهدي للمجتهد منهم بعض تحف من ملبس او ماكل او كتب او مصحف ونحو ذلك مما تميل اليه الاطفال على حسب ما يظهر لكِ من الاحوال فان ذلك باعث لغيرتهم وازدياد رغبتهم أكثر مما يكون بالاذى والضرب فان الضرب يوثر في الاعضاء الظاهرة فقط وبعد برهة من الزمن يزول كأن لم يكن بخلاف ذلك فانه يوثر في الباطن وتبقى لذتها

لمن اغتنمها والمها لمن حرمها ما دامت الهدية وايضاً فان الضرب يحرك الشهوات الغضبية عند الضارب فلا يقف في ضربه عند حدّ العقاب بل يتعداه لما يخطر في باله من سوابق ذنوب المضروب فربما اضر باعضائهم او ترتب على الخوف والرعب البحث عما يخلصهم من يده فيحتجون بكل ما امكنهم من الحجج من غير تمييز بين قبيحها ومليحها حتى ينجوا من يده وربما الجأتهم الاحتجاجات والتعللات الى اسباب الدناءة وخسة الطباع فتبقى فيهم طول عمرهم وحيث ان مقصود الاباء في تربية اولادهم ليس الاَّ اكتساب الشرف فمن الواجب ان لا يعرضوا اولادهم حال صغرهم لما يخل بهذا المقصد وان يختاروا لتربية اولادهم مؤدبين موصوفين بالادب والرأفة وحسن الفعال حتى لا يصدر عنهم الا ما كان حسناً وبسبب ما عندهم من الرافة يعاملون الاطفال بما يناسب سنهم فيبتدئون لهم بالكلمات الصغيرة والحكم القصيرة ثم منها الى ما فوقها وهكذا فيميلون من انفسهم الى التعلم وحب العلم خصوصاً اذا ارشدهم الاستاذ على ما في كل كلمة او حكمة القاها اليهم من الفائدة الدقيقة واستعمل في مخاطبتهم الالفاظ الرقيقة فارجوكِ ان تعملي بنصيحتي وان تخبريني في كل خطاب ترسلينه اليَّ عن حال كل منهم ودرجته خصوصاً عن حال اخواتي البنات وقد اتفقت مع صاحبنا الانكليزي على ان يكتب لصاحبه بمصر باستلام ما ترغبين ارساله من الخطابات وهو يرسله الينا ولا باس ان

تخبريني بما عندك من اخبار البلاد لان الانسان في غربته يشتاق الى مسقط راسه واصل تربته وفيما سطرته في هذه الدفعة كفاية وان شاء الله تعالى اشرح لك جميع ما اراه و يناسب ذكره من الحوادث وامور البلاد التي نقصدها لتقفي على اثارنا وليكون عندك علم من اخبارنا

واما ما تعهدينه من اكيد الود وقديم العهد فهو باقٍ لا يغيره بعد ولا فراق ولو علمت ما بي من تذكري اياك حال اغترابي لم ترقأ لك دمعة ولم تهداء لك لوعة

اما وجلال الله لو تذكرينني
كذكريك ما كفكفت للعين ادمعا

وانت تعلمين ان هذا السفر لم يكن لي ببال ولم يكن له في خاطري مجال ولكن ما قدّر يكون وكما قدر بالسفر والغياب يقدر بالعود والاياب

الناس في طلب المعاش وانما * بالجد يرزق منهم من يرزق

فكوني من الصيانة علي ما اعهد واحفظي ذاك الود والمعهد وتذكري ما كان من امر الطائي مع نديم النعمان وما جمعناه اوقات المسامرة ولا بأس بتلاوته على الاولاد اوقات المذاكرة واستديمي الاحتجاب واذا تناولت شيئًا فليكن من وراء حجاب وبلغي الاولاد والاخوات اني راض عنهم ما داموا على الاستقامة وقد تركت لك عشرين جنيهًا كل شهر عبارة عن ثمانية وسبعين الف فضة ياتيك

بها وكيل الخواجا في اخر كل شهر كما حرر له بذلك واذا لزم الامر لاكثر فاطلبيه من الوكيل المذكور على سبيل الاستقراض فقد اذن له صاحبنا الخواجا بذلك اغدق الله عليكم خيره الجزيل وردنا اليكم الرد الجميل

حرره ببنانه وحرره ببيانه
الفقير علم الدين
خادم العلم الشريف

المسامرة الخامسة عشرة
الملاحة

وختم الجواب وظرفه وعند الصباح توجه الى الخواجا وسلمه له فاخذه منه ووضعه داخل مظروفه وارسله الى البوسطة ثم توجهوا جميعاً الى مكتب الكومبانية لاخذ تذاكر السفر فاخذ الخواجا للشيخ وولده تذكرتين من الدرجة الاولى اكراماً لهما ثم بعد ذلك توجهوا الى اللوكندة واخذوا امتعتهم وانزلوها بعربة وتوجهوا الى ساحل البحر ومن هناك اخذ الخواجا قارباً وساروا الى ان وصلوا المركب فتحولوا اليها واخذ كل منهم في ترتيب امتعته في القمرة المعدة لهم وبينما الشيخ يقرأ ايات التحفظ ويذكر ربه في نفسه

من غير تلفظ ويتلو ورد البحر ويتبرك واذا بالمركب للسير تحرك فتوهم الانكليزي انزعاج الشيخ من ركوب البحر كما كان عند ركوب وابور البر فاتى اليه واقبل بعذب الفاظه يسليه وقال يا حضرة الشيخ لا تنزعج ولا يكن في صدرك من ركوب البحر حرج

فقال الشيخ يا حضرة الخواجا ومن كشف عن غامض العلم سياجه ليس الامر كما فهمت وانما تذكرت الاهل والوطن فهمت اذ لا يخفى عليك ياذا البصيرة ان في هذا الوقت يتذكر الانسان اولاده وعشيرته واحفاده ويحن الى احبابه ووطنه وملعب اترابه وعطنه ويأسف على مفارقة مألوفاته وما تعود عليه ايام اول حياته وقد انضم الى ذلك ما خطر ببالي ما يكون اليه عند انتهاء السفر مآلي وكيف تكون هناك الاقامة وهل اعود الى وطني بالسلامة فقد قيل من علامات الرشد ان تكون النفس الى بلدها تواقة والى مسقط راسها مشتاقة ولا يخفى عليك ايها الرفيق ما أوصى به نبي الله يوسف الصديق ان يحمل تابوته ليدفن عند ابائه الى ان جاء موسى الكليم فاخرجه من اليم وحمله الى مقام ابائه ودفنه ثم وما ذاك الاّ لحب الوطن ولكني تناسيت هذه الاوهام وآسيت قلبي من الم هذه الاستآم وتأسيتُ بما قاله الافاضل الاخيار في مدح التنقلات والاسفار منها قول سيد البدو والحضر . لو يعلم الناس رحمة الله للمسافر لاصبح الناس على ظهر سفر ويقال الحركة وَلوُد والسكون عاقر . وقوله

وما هي الاَّ بلدة مثل بلدتي * خيارها ما كان عونًا على دهري

وقوله وكل بلاد اوطنتك بلادُ

وغير ذلك مما لو استقصيته ما احصيته

ولما كان الشيخ من العلماء العاملين لم يكن عنده من هذه الامور الاَّ مجرد تذكر وخطور واما قلبه فكان في غاية الراحة والاطمئنان مستحضرًا تغيرات الزمان وتقلبات الحدثان دائم التذكار لقول الله الواحد القهار يقلب الليل والنهار ممتلأ بهجة وسرورًا منقادًا لمقتضى قوله تعالى كان ذلك في الكتاب مسطورًا

فالتفت حضرته الى الانكليزي وقال له لا يشك عاقل ان كل صنعة تدل على صانعها وعظمها يدل على عظمه ومن اعظم الادلة على عظم الخالق وقدرته خلق هذا البحر وتسخيره فانظر كيف اجراه بقدرته وجعل له مسالك بتدبير حكمته وخلق فيه خلقًا متنوعة الاشكال وجعله مقرًا للجواهر واللآل وخص كل نوع من ذلك بمنافع واسكنه فيما شاء من المواضع فسبحانه ما اعظم شانه واظهر برهانه واعظم من هذا البرهان تسخيره كغيره لنوع الانسان فانظر كيف هداه الله بعقله الى ان جعل السفينة في هذا الشكل العجيب والوضع المحكم الغريب واضاف اليها من تفنناته وبديع اختراعاته ما صارت به في ادارته وسارت بارادته ومكنه من العناصر حتى صارت طوع يده فترى الريح مع قوتها والبحر مع ميوعته والحديد مع صلابته والخشب مع مرونته كل ذلك طوع يده

وارادته يحول كل ما يريد الى ما يريد حتى تجاسر على ركوب البحر وتحصل بسبب ذلك على جل مقصوده آمنًا من تقلب امواجه وتشعب افواجه لا يبالي بالعواصف وشدتها ولا بالظلمة وقتمتها

فقال له الانكليزي · سيدي انه قد مضى على نوع الانسان احقاب عديدة وازمنة مديدة وهم في انفصال عن بعضهم وعزلة وتوحش وخشونة وقلة لجهلهم بعلم الملاحة فكانت كل امة مقيمة في البقعة التي هي فيها لا تتعداها ولا علم لها بخلق سواها فكان كل محرومًا مما عند غيره من المنافع وغاية ما هنالك ان من كان منهم قريبًا من السواحل والجزائر انما كان ينتفع بالصيد من الشواطي واذا انتقل انما ينتقل الى موضع قريب منه وبمقتضى ما يشاهد من تجدد الاحوال حسب الاحتياج يتعقل ان اول من اشتغل بالملاحة سكان السواحل واقرب ما بعث فكرهم الى ذلك تكرار مرور الاشياء الساقطة من الاشجار على وجه الماء من غيضات تكون بجزائر قريبة منهم فلما راوا الاخشاب تمر على وجه الماء ركبوها وهي على صورتها ثم بعد ذلك صوروها في صورة تقي من البلل بان سطحوا جرمها او الصقوا بها غيرها فسارت مع التيار اما لجلب منفعة واما لدفع مضرة كالفرار من عدو طالب او الهجوم على غريم كما هي عوائد الاوائل قبل اتساع دائرة المدنية والعمارة وكما هو دأب القبائل الباقية على الخشونة الى الان بسبب انعزالهم عن المدن واقامتهم وسط الصحاري والبراري المنقطعة والبقاع الشاسعة فلما

علم الانسان منفعتها صار يتفكر في كيفية اتقانها ويدبر في اصلاح شانها الى ان جعلها في صورة لائقة لنقل بعض الاشياء المعتاد مبادلتها بين عشيرته بان استعملوا روامس مركبة من خشب وبوص كما يصنعه الى الان اهل صعيد مصر والسودان وكثير من بقاع امريكا ويقطعون الاصول الغليظة من الاشجار ويجوفونها ويسافرون فيها او يعملون قوارب صغيرة يكسونها بجلود الحيوانات وربما كان هذا دليلاً على ان الامم السالفة كانت تستعمل هذه الكيفية في حمل اثقالهم وعند ارتحالهم وعلى انها مضى عليها سنون لا تعرف غير ذلك ولما كثر تردد الخلق على بعضهم وكثرت الفتهم واختلاطهم وظهرت بينهم علايق جديدة اوجبت اتساع دائرة الملاحة اخذت السفن في التقدم وصارت في حجم اكبر من الاول واحكم غير انها كانت لا تسير الاَّ بالقرب من السواحل لجهل الناس حين ذاك بما يهديهم اذا ساروا على سطح البحر ولعدم معرفتهم بمن سكن وسطه او بساحله المقابل لهم ويغلب على ظني ان انتفاع الخلق بالملاحة كان قاصراً على اجتياز البلاد الموجودة على السواحل فقط وان الامر بقي على هذا الحال الى ان صار استكشاف حجر المغناطيس وخواصه وعند ذلك امكن الخلق تطبيقه على استعمال خاصية الملاحة باضافة البوصلة اليها ومن هذا الوقت تجاسر الملاحون على مفارقة الشواطي والتوغل داخل البحور فطافوا جميع بقاع الارض وساروا حيث شاؤا ولم يكن هذا الامر معلوماً بالبلاد

الاوروباوية الا من القرن الثاني عشر بعد المسيح وان كان معلوماً قبل ذلك في بلاد المشرق عند سكان السواحل الشامية وشواطئ بحر العجم فلم تكن خاصية جذب حجر المغناطيس للحديد خفيةً عند الامم السالفة وربما كانوا يعلمون الخاصية التي يكتسبها القضيب الصغير من الحديد بعد المغطسة اي بعد مسه لهذا الحجر وهذه الخاصية هي ان لا تتغير اتجاهاته بل يكون دائمًا على اتجاه واحد من الشمال الى الجنوب ومن ذلك تعلم جهة الشرق والغرب الا انهم كانوا لا يعلمون خاصية اتجاهه دائمًا الى الشمال فطبقوا هذه الخاصية على سير السفن بان رسموا خطين عموديين على قطعة ورق مستديرة وثبتوا القضيب فيها فاهتدوا بذلك الى النقط الاربع من الافق وبقي الامر على ذلك مدة الى ان علمت خاصية اتجاه الابرة الى جهة الشمال دائمًا متى كانت متحركة موضوعة فوق مركز في اي نقطة من نقط الكرة وعند ذلك زالت الصعوبة التي كانت تلحق الملاحة وسهل على الملاحين جواز البحار وامنوا من جميع الاهوال ثم اكتفوا عن قطعة الورق المذكورة باتخاذ علبة مملوءة ماء وتثبيت القضيب في قطعة من خشب الفل تعوم فوق الماء واستعملوها في معرفة الاتجاه لكن بسبب تقلب السفينة على الدوام وعدم وجود التئام تام للآلة كانت الابرة قليلة التوازن ودلالتها تقريبية فمن ذلك اشتغل كثير من الامم بتحسين امرها بان جعلوا الابرة متحركة فوق محور راسٍ مثبت في علبة اسطوانية

الشكل وجعلوا فوق الابرة دائرة من ورق مثبتة فوق الابرة تتحرك بحركتها مقسمة الى اقسام متساوية وجعلوا جهتي الشمال والجنوب على خط مستقيم مرسوم فوقها والشرق والغرب في نهايتي خط عمودي على الاول وعلقوا العلبة في موخر المركب امام عين ماموري الدفة ومن ذلك الوقت زالت جميع الصعوبات الاولية وانقطع عرق الخوف والاشكال بالكلية وصار الامر على ذلك من ابتداء القرن الثالث عشر الى الان لا يعتريه تغيير ولا تبديل الا في كيفية تعليق العلبة وتحسين صورتها مما لا يتوقف عليه امر الملاحة وليس من ضرورياتها ومن ثم انتظم امر الملاحة والتجارة فحسنت بذلك جميع الاحوال وصلح شان الناس في الحال والمال وحصلت المساعدة الكلية لاحوال الزراعة فاخذت في التقدم نحو النمو وكثرة الثروة والرفاهية من ذلك فترتب عليه زيادة التمدن والتقدم وبعد اقتصار الخلق على جواز البحيرات والانهر الصغيرة والسفر في البقاع القريبة جازوا المحيط نفسه فانكشف لهم الغطاء عن جزائر وسواحل معمورة بامم شتى عارين عن التمدن واسبابه فحاربوهم ووضعوا اليد عليهم وادخلوهم بالقهر تحت طاعتهم واستحوذوا على ارضهم واستعملوهم في خدمتها لنفعهم ونفع بلادهم لا لنفع اهلها فزادت بذلك شهرتهم وقويت سطوتهم على من جاورهم ولما راى الغير اتساع دائرة عيشتهم رغب في السير على اثارهم وهكذا . فكان هذا هو اول باعث لاهل

اوروبا على الاستحواذ على غالب بقاع الامريكا وسواحل افريقا وعدة بقاع من اسيا وعلى جميع جزائر المحيط الاطلنطيقي والمحيط الجنوبي والمحيط الهندي حتى صارت بقعة اوروبا اغنى البقاع واكثرها ثروة وصارت ملوكهم اعظم من غيرهم شهرة وسطوة وما ذاك الا بسبب الملاحة لانها فتحت لهم ابواب الرزق وزادت في اسبابه وطرقه ولو ان في كل بقعة حكاماً يتصرفون فيها ويحكمون على اهاليها الاّ انهم هم ورعاياهم تحت تصرف ملوك اوروبا بسبب عظم قوتهم الحربية واتساع دائرة علومهم السياسية الآخذة في الازدياد والتقدم بسبب حيازتهم لكل ما يرونه من الصنائع واغداقهم على من دونهم باصناف البضائع ولم يفتروا عن هذا السير بحال من الاحوال بل هم ملازمون لهُ ساعون بكليتهم في ازدياده فكان تأثيرهم على بقاع المعمورة عامّاً

فقال لهُ الشيخ قد فهمت ما افدتني ان الانسان بعقله هو الذي شكل السفينة من صورة الى صورة متبعاً في ذلك السير الطبيعي من غير تكلف وانه كلما كثرت احتياجاته اتسعت افكاره وازدادت رغبته في التامل حتى وصل الى معرفة سير السفينة بالبوصلة في جميع البحار صغيرة او كبيرة فاستكشف الاراضي المجهولة وسكانها واستفاد من اعمالهم وعلومهم ما زاد في درجة تقدم اهل ملته ولكن ارى ان الآلة المغناطيسية غير كافية لضبط سير السفن حسب الحاجة فانهم اذا ارادوا ان ينتقلوا من بلد الى بلد

يلزمهم الانحراف اليها والخروج عن الخطوط التي توجب تلك الآلة المشي عليها فكيف اهتداؤهم لذلك

فقال لهُ الانكليزي ان البوصلة بمفردها غير كافية لانها لا تعين الاَّ اتجاه احدى النقط الاصلية فقط ولا تدل اصلاً على الاتجاه اللازم للوصول لنقطة محدودة الا بمساعد وقد عرف ذلك جميع الملاحين في القرون الماضية لكنهم اقتصروا على هذا واستعانوا عليه بما استفادوه من التجارب والاسفار فكانوا يهتدون بذلك للوصول الى ما يقصدون من البقاع كما يفعل الآن الملاحون في الانهر والخلجان في بعض جهات من اقسام الدنيا وكما يفعل ملاحو النيل فانهم يسيرون فيه من غير بوصلة بالاتباع لبعض علامات في البرور والجزائر وكما يفعل ملاحو العرب القاطنة في شاطيء البحر الاحمر والصيادون في بعض البحائر المتسعة وكانت علماء الجغرافية والفلكيون في القرن الخامس عشر من تاريخ المسيح غير واقفين وقوفاً تاماً على جنس خط سير السفينة فكانوا يزعمون ان الخط الذي ترسمه السفينة بين نقطتين بعيدتين عن بعضها هو قوس دائرة عظيمة ثم ظهر لهم امور لم يمكنهم التعبير عنها . مثلاً رأوا ان السفينة في سيرها في اتجاه واحد وميل واحد لا ترسم دائرة عظمى على الكرة بل ترسم احدى الموازيات فعند ذلك اشتغلت العلماء بحلها وتطبيق الحسابات عليها فظهر لهم ان خط سير السفينة لا يكون دائرة عظمى الا في حالة ما اذا كانت

متجهة نحو الشمال دائمًا او نحو الجنوب دائمًا وإما إذا كانت متجهة نحو الشمال والغرب مثلاً فالجزء الاول من خط السير يكون جزاء من دائرة عظمى ميله في نقطة المبدأ من الخط الجانبي خمسة واربعون درجة ثم بعد ذلك يتغير ويقطع الخطوط الجانبية الاخرى في ميول مختلفة تكبر بالتدريج الى ان تكون تسعين درجة فلو تبعت السفينة في السير خط ميل ثابت بالنسبة لجميع الخطوط الجانبية لرسمت على الكرة خطًا حلزونيًا وبعد عدة دورات تصل الى قطب النصف الذي ابتدات السير منه ومن ذلك رأوا ان السفينة تقطع في سيرها على خط ثابت الميل مسافة تزيد وتنقص عن طول قوس الدائرة تبعًا لعرض البلاد ويكون الخطأ كبيرًا كلما كان فرق عرض نقطتي المبدا والنهاية كبيرًا فبناء على ذلك ظهر لاهل ذاك الوقت انه يلزم تغيير الميل لمن يرغب في اتباع قوس دايرة عظيمة وحينئذ فلا بد من معرفته ويكون ذلك بطرق بسيطة حتى يكون سهل التناول للملاحين وبسبب ما فيه من الفائدة والاهمية اشتغلت بحل مسئلته العلماء الافاضل فمنهم من وضع لمعرفته طرقًا حسابية وجداول مخصوصة للاقتداء بها ومنهم من حوّل المسألة الى طرق رسمية فتعددت من ذلك طرق الاشتغال وجال فيها الفكر فظهر من ذلك الخرط التي يستعملها الملاحون ولا يمكنهم الاستغناء عنها لما لهم فيها من المنافع والفوائد التامة فانه يكفي ان يرسم عليها الخط المار

بالنقطتين المفروضتين وبواسطة البوصلة تسير على ميله بالنسبة للخطوط الجانبية فيصل الى الغرض المطلوب اذا لم يكن هناك موانع تعرض لها في اثناء سيرها فتعطلها مثل الصخور والاهوية غير الموافقة والمياه القليلة وغير ذلك فمن هذا نشاء لاجل التخلص من خطر تلك الموانع مسئلة معرفة الموضع الذي تكون فيه السفينة في اي وقت من الليل والنهار بالنسبة لاي البحار واول شيء خطر بالبال معرفة قدر سرعة السفينة في زمن معين لانه متى علم استدل منه على المسافة الكلية من وقت الاقيام ومن ثم يعلم محل السفينة بعد مدة من سيرها بالتقريب فاشتغل بهذه المسألة علماء الفن واخترعوا الآلة البسيطة المستعملة الى الان وهي عبارة عن حبل مقسم الى عدة اقسام متساوية منسوبة للميل في طرفه قطعة من خشب مثلثة الشكل مثقلة في قاعدتها بالرصاص فمتى رغب قبطان السفينة قياس السرعة القاه في البحر فتغيب الخشبة راسية في الماء والحبل يكرّ من على مغزله مدة كالدقيقة فيكون مقدار الحبل في البحر عين سرعة المركب ولما لم يكن ذلك شافياً اضطر الملاحون الى معرفة الخط الجانبي والخط الموازي التابعين لها في السير حتى تتعين لهم نقطة التقطع وهي النقطة التي تكون فيها السفينة وبناء عليه نتج مسئلة تعيين العرض والطول فاشتغل بحلها العلماء كما اشتغلوا بغيرها وظهر لهم من بحثهم ان مسئلة العرض لا صعوبة فيها لانهم شاهدوا ان

القطب يكون منطبقاً على الافق متى كان الراصد فوق دائرة الاستواء ومتى اتجه الى الشمال ارتفع القطب فوق الافق بقدر بعد الراصد عن دائرة الاستواء وبناءً عليه فعرض اي نقطة هو ارتفاع القطب فوق الافق واهل وقتنا هذا تابعون للسالفين ومتخذون النجمة الاولى من الدب الاصغر دليلا على القطب فيهتدون بهِ لكن لما كانت هذه النجمة في كثير من الليالى مطموسة ومغيبة في السحاب غير ظاهرة وفي كثير من البقاع يكون الجو غير صاف فيصعب العمل حين ذاك رغبوا في معرفة العرض من رصد الشمس لانها تكون دائمًا ظاهرة تمام اليوم او بعضه ولذا اقتضى الحال معرفة بعدها عن القطب وقت الزوال وبسبب تغير هذا البعد في جميع اوقات السنة حرره اهل العلم في جداول مضبوطة يراجعها الملاحون في اعمال الملاحة وحسابها ووضعوا آلة مركبة من مسطرتين عموديتين على بعضهما لقياس ارتفاع الشمس فكان الملاح يضع نقطة تقاطع المسطرتين على ارتفاع البصر ثم يرصد افق البحر بالمسطرة الافقية ويجعل الشمس خلفه ويقدم او يؤخر المسطرة الراسية الى ان ينطبق ظل نهايتها على نقطة معينة من المسطرة الافقية ويحسبون الارتفاع على مقتضى ذلك كما كانت المصريون في الازمان السابقة تعين ارتفاع الشمس بواسطة المسلات التى نراها الى الان قائمة امام الهياكل والمعابد وفيما بعد صار تحسين هذه الآلة

واستعواضها بدائرة مقسمة الى اقسام متساوية وعليها مسطرة تحمل
عضادة بها ثقب صغير فمتى أُريد استعمالها علقت الدائرة في السفينة
وجعل مستويها في مستوي الشمس ثم تحرك المسطرة الى ان تمر
اشعة الشمس بالثقب فيظهر على المحيط الدرجة الدالة على
الارتفاع المطلوب وبهذه الآلة توصلوا الى الآلة المستعملة الآن
المعروفة بالاكتان عند الملاحين بادخال ما استفيد من قواعد
العلم من التحسينات في تركيبها فصارت مستوفية لجميع شروط
السهولة والضبط فبناءً على ما مر يظهر لحضرتكم ان الانسان قد
اكتسب علم الملاحة وضبط سير السفن في البحار بالتدريج فان
الاصل في ذلك كله شجرة القاها الريح في التيار فجرت معه فنظر
اليها احد المخلوقات فاستعملها كما هي فرآه غيره فقلده واستعملها
بكيفية احسن من الاولى وهكذا على حسب الاحوال والضرورات
البشرية وما زالت تنتقل من حالة الى احسن منها حتى
تم حسنها وعظمت دائرة اهميتها واعتنى بها الخلق فوصلت الى
الحالة التي نراها عليها الان ولا شك ان كل صورةٍ من هذه
الصور اشتغلت بها الافكار مدة واظهرت فيها تغييراً فاخترعت
صورة احسن من الاولى ووقعت موقعها فاذا رأَوا في الثانية عيباً
اجتهدوا في ازالته بقواعد علمية واختراعات عملية حتى اجتمع من
ذلك علوم شتى منها ما هو متعلق برسم السفن وشكلها ومتانتها
ومنها ما هو متعلق بسيرها وسرعتها ومنها ما هو متعلق بتحرير

اتجاهها وسلامتها حتى صار علم الملاحة علمًا نفيسًا فانظر كيف امكن الانسان بقوة فكره وغزارة عقله ان ينتقل من حالة الى حالة ومن فكرة الى فكرة حتى وصل الى ما تراه في شان السفن وعلم الملاحة أفلا يكون هذا دليلاً كافيًا على ان تقدم جميع الفنون والصنائع جار على هذا النمط وان الاصل في ذلك كله ضرورات الانسان واحتياجاته وميله لحب الانتفاع والوقاية الشخصية وقد امتد بينهما القال والقيل في هذا المعنى ونحوه من هذا القبيل فاحب الشيخ ان يتبع الخبر بالنظر ويشاهد اماكن السفينة بالبصر لئلا يكون فيما سمعه مقلدًا ومتبعًا اذ ليس من رأى كمن سمع فاجابه الانكليزي الى ما طلب وقام معه الى قمرة القبودان ليريه ما احب وكلمه بلغته وعرفه بمقصود الشيخ ورغبته فامر احد الضباط ان يكون لحضرة الشيخ اوفق مرافق وان يوقفه على كل ما اشتملت عليه السفينة فسار معه واراه فوق ما كان سمعه واطلعه على الات السفينة واحدة واحدة ولم يترك منها شاذة ولا شاردة مبتدئًا من موءخر المركب الى مقدمه مبينًا له فوائد كل واحدة باسمها وبين له اقسام السفينة وما لبضائع التجار وما للمسافرين وما للمستخدمين بها وما للمطبخ وما للاكل ونحو ذلك ولم يذر محلاً في المركب الا اطلعه عليه واخبره بمنفعته فشكر الشيخ على صنيعه واثنى على القبودان الكبير ثم استاذن ودخل قمرته وادى ما يجب عليه من العبادة الموقتة وكان قد حان وقت الاكل فاحب ان

ياكل في قمرته فاجابوه ولتعظيم صاحبه وحق رعايته كان كل من بالسفينـة مبادراً لكرامته واستمروا على ذلك طول السفر حتى وصلوا جميعا بالسلامة الى البر

المسامرة السادسة عشرة
التعلم والتعليم

ولعلم حضرة الشيخ بان من عرف لغتين وان كان في الصورة واحداً فهو في معنى اثنين ولما عرفه من حث النبي صلى الله عليه وسلم على تعلم الالسنة بقوله من تعلم لسان قوم أمن من مكرهم ولما رواه في الحكايات من ان رجلاً حجازيًا سافر الى اليمن مرة ودخل مدينة ظفار وبلغ خبره ملكها فلما حضر عنده باعلى قصره قال له الملك ثب يامره بالجلوس بلغة حمير ففهم الحجازي انه يامره بالطمرة كما هو بلغة الحجاز فقام الحجازي وقال ليعلم الملك اني سامع مطيع وطمر فالقى نفسه من اعلى القصر فقال الملك ما بال هذا فقيل له ان الوثب في لغته ما فعله فقال الملك من ظفر حمّر يريد من دخل ظفار وجب ان يتعرف لغة حمير فاستفاد من هذا ان من دخل اي بلد لزمه ان يتعلم لسان اهلها فلهذا كان كل يوم بعد

ان يطالع في كتبه ياخذ هو وولده في اللغة الانكليزية على صاحبه. دروساً وبسبب اجتهادهما في التعلم قدرا في زمان يسير على التكلم فيها

واخذ الانكليزي يحسن له التعلم ويرشده الى كيفيته ويشجعه عليه بقوله ان من موجبات التقدم في اللغات اموراً منها الحفظ والتطبيق بالممارسة والمخاطبة فان جمعت كل يوم بين هذين ثبت بذهنك كل ما حفظته واعتدت النطق به وفي قليل من الزمن تصل الى معرفة الكثير ومنها ترتيب المطالعة في الكتب بان يبتداء اولاً بالكتب المؤلفة لتعليم الاطفال لخفة الفاظها وعباراتها ثم بما فوقها وهكذا. وكيفية التعلم كما لا يخفى على حضرتكم ان يبتدئ اولاً بمطالعة الدرس ويقف على كيفية النطق بالفاظه ثم يكرره الى ان يثبت في ذهنه ويستمر على ذلك حتى يكون عنده محصول من الكلام ثم يبحث عن قواعد تصريف الافعال وامثلتها ثم ينظر لمثال كل قاعدة ويمثل من نفسه امثلة ويطبق كل مثال على قاعدته ولا يكفي في ذلك مجرد التلفظ بل لا بد ان يثبت ذلك في كتاب صغير الحجم ليسهل عليه استصحابه فيطلع عليه اي وقت اراد ثم اذا تقدم في اللغة يلزمه حفظ كثير من الاشعار ونوادر الاداب لما فيها من مزيد الثبات بخلاف العبارات السائرة والاولى ان يختار من كتب الاشعار ما تلتذ منه النفس ويميل اليه الطبع وان يجتنب ما فيه تعقيد او صعوبة الى ان يحسن النطق والتكلم باللغة

واني وان لم استوف هنا غرضي لكني آتيك بكتاب فيه كفاية لهذا الغرض فان اتبعته وسرت على ما رسمته لك فلا يمضي عليك قليل من الزمن الاَّ وقد تكلمت باللغة الانكليزية وبمشيئة الرحمن عند العود تجد ان لا فرق بيني وبينك في التكلم فشكره الشيخ على نصيحته وعمل بمقتضى وصيته واخذ هو وولده الكتاب منه وصارا يتلقيان كل كلمة في الكتاب عنه وحذا الولد حذو الوالد فكانا لبعضهما نعم المساعَد والمساعِد وصارا ما بين سائل ومسؤُل الى ان نالوا من تلك الجهات الوصول وقد قسموا اليوم اقسامًا بعضها للفسحة في ظهر المركب وبعضها للاكل وبعضها للحفظ والباقي للمحادثة والمذاكرة ولاجتهاد صاحبه الانكليزي في تسهيل امر السفر عليه كان لا يفارقه الاَّ عند الضرورة وكان لا يخاطبه الاّ بكلام يطيب به خاطره وتنشرح منه ضمائره محافظًا على مراضيه آتيًا بكل ما يحبه ويرغب فيه وبذلك تاكدت بين الشيخ وبينه الالفة وارتفعت من بينهما اسباب الكلفة فبينما هما في بعض الاوقات يتحادثان ولاحوال طوائف الناس يتواصفان اذ جرى ذكر الصنائع والحرف وقدر تفاوت السلف فيها والخلف وما آلت اليه من الاتقان وتم لاربابها من الاحكام والاحسان

وطال بينهما الكلام في وصف محاسن الايام فكان ذلك داعيًا للانكليزي ان قال ياحضرة الشيخ ان ولدك الان قد بلغ اشده وحصل من العلوم العربية طرفًا صالحًا وهو يحتاج الى تعلم

صناعة تكون له في المستقبل عونًا على حسن معيشته فما اضمرت على تعليمه من الصنائع فقال الشيخ احب ان يتقن اللغة العربية ويتم قراءة الكتب الادبية فاذا وصل التمام وبلغ من ذلك المرام تفكرت فيما يحسن حاله ويبلغ به ان شاء الله آماله بحيث لا يخرج عن الوظائف العلمية ولا يشتغل عن الاعمال الدينية سيما وهو بمعونة حضرتكم آخذ في تعلم لغتكم فاذا تم له اتقان اللغتين كانتا له خير صنعتين وبأيتهما يكون اكتسابه ما يكفيه غير خارج عن حرفة جده وابيه

فقال له الانكليزي كانك تقول ان ولدك اما ان يصير امامًا او خطيبًا في جامع او ترجمانًا او نائب قاض في بعض المواضع وعلى كل فما يرد من هذه الوظائف لا يقوم ببعض الكفاية فضلاً عن كونه يستمر في اسر غيره فينسبونه الى التقصير في اداء وظيفته او الجهل بما يلزم لها او عدم معرفته باداء المقصود والذي اذكره لحضرتكم ان الوظائف درجات منها الشريف والدنيء والاعلى والعلي وانك الان مخير بين ما يكون به ولدك رئيسًا واميرًا وبين ما يجعله تابعًا لغيره واسيرًا ولكن محبة الوالدين لاولادهم لا ترغب الاّ فيما فيه زيادة شرفهم فيجب عليك ان تجيل الفكر وتدقق النظر حتى تعرف الصنعة التي يزيد بها شرفه فقد قيل في الامثال الناس لصاحب المال الزم من الشعاع للشمس وهو عندهم اعذب من الماء وارفع من السماء واحلى من الشهد واذكى من الورد

ما الناس الاَّ مع الدنيا وصاحبها

فكلما انقلبت يومًا به انقلبوا

فقال له الشيخ انه لا يكون وراء ما ذكر الاَّ صنائع و وظائف لقوم ليسوا من حرفتنا ولا طائفتنا وعشيرتنا كالهندسة والحكمة والجندية ونحو ذلك من الصنائع الدنيوية فهل تظن ان نعلمه صنعة من هذه الصنائع ونخرجه عن طريقة اهله واجداده مع اني سمعت من ابي عن جدي ان عائلتنا شريفة ثم وجدت في امتعة والدي رحمه الله بعد وفاته نسبة الشرف فلم اجد فيها احدًا من اجدادي احترف بحرفة من الحرف او خرج من وطنه بل تتبعتها فوجدت ان كل من نبغ منهم اتبع طريقة سلفه وقنع بما ساقه الله اليه من الرزق قليلاً كان او كثيرًا ووجدت في النسبة لكل منهم مناقب ومزايا تدل على زهده وورعه وقد رأيت فيها من جملة ما اوصى به بعض اجدادي من يأتي بعده من اولاده اعلموا ان الدنيا مثل ظل احدكم ان طلبتموه فرَّ وسبقكم وان تركتموه تبعكم كما قيل

مثل الرزق الذي تطلبه * مثل الظل الذي يمشي معك

انت لا تدركه متبعًا * فاذا وليت عنه تبعك

الخير كله في بيت واحد ومفتاحه الزهد في الدنيا . والشر كله في بيت واحد ومفتاحه حب الدنيا

وقد قضى عليَّ الرحمن من دونهم بالغربة ومفارقة الوطن

ولا حيلة فيما قضاه واحمده واشكره على ما منّ به عليّ من صحبتكم ولا يخفى على جنابكم ان الناس بالسنتهم ليسوا غافلين عن بعضهم فربما يقع الانسان في شباكهم فيسقط من اعينهم وينقص قدره فيما بينهم فان اخرجت ولدي عن طريقتي وعما كان عليه اجداده قبله اختلقوا عليّ اقوالاً تزري وعبارات ربما تخل بامري ولا اقلّ من ان يقولوا باع الدين بالدنيا

فقال له الانكليزي ليس الفضل خاصًا بطائفة من الناس دون طائفة ولا باهل حرفة دون حرفة بل الفضل صفة تقوم بالانسان على قدر ما يحوز من العلم والادب فكما تكون في الفقهاء تكون في المهندسين والحكماء وكما تكون في التجار واهل البضايع تكون في احاد الخلق من الفلاحين واهل الصنايع فليس الانسان باصله وحسبه بل بكمال عقله وحسن ادبه فكم من امرء مقطوع النسب وصل بأدبه الى اعلى المناصب والرتب وكم من ذي نسب واصل هوى به جهله الى درك الهوان والذل وكم من حقير ازال بكمال عقله دناسة اهله واصله وهل يليق بالعاقل ان يلتفت لاوهام الناس واباطيلهم ويؤثره على ما رآه عقله حسنًا وصوابًا وهل يقتدي البصير بالضرير او هل يستوي الاعمى والبصير ام هل تستوي الظلمات والنور واي نقص يعتري الانسان اذا كان ذا علم وله صنعة يعرف بها فلا يخل بشرف الاصل ان يتقلد الانسان رتبة كالجندية وعلم الحكمة والهندسة بل هذه العلوم ونحوها مرغّب

فيها في كتاب الله وسنة نبيه وقد اتفق العلماء والعقلاء من كل ملة على ان قدر كل انسان وقيمته بقدر علمه وعمله وعلى حسب ما اكتسبه فماذا يضر لو علم الانسان بلسان قومه وقواعده وعلم دينه ومذهب بلده حتى يكون على بصيرة في ادارة اموره وتقوية برهانه وضم الى ذلك السنة ملل اخرى واتقنها لتجذب اليه قلوب الاغراب فيضيف معلوماتهم الى معلوماته لتزداد رغبة اهله فيه وعلم مع ذلك تاريخ بلاده وضم الى ذلك تاريخ بلاد غيره واحوالها اذ بذلك يكون على بصيرة من الروابط المؤلفة بين الملل وبعضها والاسباب التي توجب النزاع والوفاق بينهم وضم الى ذلك علم الجغرافيا والنباتات والحيوانات والجمادات والهندسة والفلك وجر الاثقال وهكذا فتتسع دائرة معلوماته ويقف على النواميس الابدية المؤثرة في الموجودات وكيفية التأثير فيها فتتسع بصيرته وتعلو بذلك بين البرية شهرته فان تعلم الطب وقف على اسباب الامراض وكيفية علاجها ووظائف الاعضاء الظاهرة والباطنة وارتباطها بالقوى الباطنة وعرف قدرة الباري المصور لها فيعظم شان ربه وخالقه ولا يلزم ان يتبحر بل يكفي ان يعرف من كل فن ما ينبغي معرفته على كل ذي فطنة من الخلق حتى لا يكون على جهل منها فيزداد بذلك قدره في كل مجلس من مجالس اهلها ويعلو قدره بين الامراء وتنجذب اليه قلوب اصحاب الحاجات والمخاصمات لعلمهم انه يهديهم الى الرأي الصواب ولا ارى لولدك الا امرين

فاختر ايهما احب اليك من غير حكم عليك· احدهما ادخاله باحدى المدارس الميرية والاخر ابقاؤه باحدى مدارس لوندرة ليتربى فيها كما تربى اولادنا فان اخترت منهما واحدة برئت من واجب تربيته لانك ان ابقيته معك فلست بضامن لنفسك البقاء حتى تتم تربيته واذا اراد الك المولى بانقضاء الاجل والموت قبل ذلك فكيف يكون امره ومن يكون كفيله وهو مجرد عن العلم والجاه افلا تكون مسئولاً عن هذا الاهمال وهل كان حبك لهُ الا سبباً لوقوعه في اسواء الاحوال واشق الاعمال وان سلمته لاحد المودبين فلا تدري هل هو كفو لتربيته ام لا والاعتبار بالظاهر لا يكون دليلاً على الباطن فربما كان عالمًا لكنه سيء الخلق فيسري طبعه الى ولدك فيكون ضرره اكثر من نفعه وعلى اي حال فالمؤدبون غالبًا لا يسلكون طريقة مستقيمة متفقًا على صحة نتيجتها بل طرقهم مختلفة بحسب نيتهم وليس لنا حاجة لمعرفة اسباب اختلافها ان كان لقصد نفع التلامذة او نفعهم او للافتخار او لاظهار الاجتهاد لاجل زيادة الاجرة بخلاف المدارس الميرية فانها لم تكن تابعة لشهوة احد وما نتج منها موجب للاذعان بصحتها ولزوم اتباعها فان طريقتها هي الجارية عند جميع الملل المتمدنة وسلكها جميع العقلاء فمنها اصول الضبط والربط الذي يجب على كل عاقل ملاحظته والتمسك بهِ من ابتداء شبيبته والاستمرار عليه بين ابناء عشيرته حتى يدخل في ميدان الاعمال بينهم ولا

يوجد له ذلك وهو بمنزل اهله فان شفقة الاهل تودي الى اهماله والتغافل عن هفواته ولعبه فربما كانت هذه الشفقة سبباً في فساد خصاله التي قصدت اهله ان تجرده عنها بالتربية ولو فرض وخصص له مودب في منزل اهله فاشتغالهم باموره المنزلية والدنيوية يلهيهم عما يفعله كل منهما ويدفع اهله الاجرة يظنون حصول المقصود واي حجة احتج بها الطفل وتعلل يقبلونها منه سواء كانت صحيحة او غير صحيحة فتمنع المودب عن تاديبه والطفل عن الاشتغال بما فيه نفعه ومن المعلوم بالبداهة في شان العائلات ان الاباء يخفى عليهم عيوب اولادهم حتى ان الامهات لزيادة شفقتهن على اولادهن قد يرين ان اولادهن يعلمون زيادة عما يلزم وكذلك الخدم تخفي على سادتهم ما تعلم من عيوب اولاد سيدهم كالخيانة وقلة الادب وعدم الالتفات وكثرة اللعب واصحاب البيوت على اختلاف درجاتهم في الثروة لا يخلون من تردد المنافقين والمتملقين على منازلهم فيسري طباعهم الى ذريتهم فيتعلمون من اخلاقهم وطباعهم ما يزري بهم فاذا بقي الطفل في المنزل بين ابيه وامه مقيداً مع المؤدب طول يومه فربما يسأم فلا يتعلم او يسأم المودب فلا يعلم ولطول مدة الملازمة عليهما قد تنشأ الكراهة بينهما ويضيع الزمن بخلاف المدارس العامة فلا يوجد فيها شيء مما ذكر بل تكون الاطفال فيها محفوظة من جميع هذه العوارض وتدب فيهم الغيرة من بعضهم في حفظ ما يلقى

اليهم من اساتذتهم لتوهمهم الحرمان من درجة التمييز او العقاب او الحجز عن الاهل والاقارب والمنع من روية المتملقين من الاحباب الذين يترددون على المنازل فيرتدع الطفل ويزيد ميله وحبه لما فيه خير لهُ وتجري بينهم محاورات ومجادلات فيما يلقى اليهم فيكون الحق مع احدهم تارةً ومع غيره اخرى وهكذا كل يوم فتقوى عندهم اسباب النشاط والاجتهاد ويتنافسون في موجبات التقدم والرشاد وبسبب تنوع الفنون لا يلحقهم ملل ولا يعتريهم من كثرة العمل فتور ولا كسل بل قد يتلذذ الطفل من الانتقال من الاعمال الجسمانية الى الاعمال العقلية فتنمو قواه البدنية والروحانية وترسم في فكرته اخلاق اساتذته فيعتادها ولكون الاساتذة منتخبين من احسن المربين لا يقع منهم ما يخل بشان التعليم وان فرض كان نادرًا فيكتسب الطفل في زمن قريب محاسن الاخلاق واخلاق الرجال ولتساوي الجميع في الهيئة الظاهرة وطرق التعلم والتعليم تتاكد بينهم الاخوة ويعطف بعضهم على بعض بما ينسون بهِ رافة الامومة والابوة وبالتدريج ينزل ولد العظيم عن تعاظمه بعظمة اهله ويرتفع ولد الفقير بادابه وفضله فهل ترى طريقًا احسن من هذا وان لم تتبعه فماذا

فقال الشيخ ان شفقة الوالدين بولدهما موجب مشقة اقامته بغير بلدهما وان كنت اعلم ان بقائه للتعلم في بلاد الانكليز مما يؤول بهِ ان وفق الله الى غاية التكريم والتعزيز ولكن استغفر الله

وادخله اذا عدنا المدارس لأكون ملاحظًا احواله ومراقبًا اعماله مريحًا بذلك خاطري وخاطرِ امه واما الصنعة فلست ادري ما يليق بهِ على نحافة جسمه

فقال الانكليزي الاصوب ان نسأل الغلام فانه اطلع على كثير من الاشياء فلعله وقع استحسانه على بعض الصنائع ومال طبعه اليها وهو يتمنى ان يكون من اهلها المتنفعين بها والحياء يمنعه من اخبارك بما كمن في نفسه فاستحسن الشيخ ذلك واحضر ابنه واخبره بما دار بينهما في امره وانهما وقفا الجزم في ذلك على استطلاع امره واستكشاف سره

وقال لهُ يابنيّ قد عرفت الوظائف الشرعيــة والسياسية واطلعت على صنائع طوائف الناس العلية منها والدنية فهل تجد في نفسك الميل الى بعض الصنائع وتجيل افكارك فيما لاحداها من المنافع فاني مسيرك الى ما فيه ترغب ومساعدك على كل ما مال اليه قلبك

فقال الولد اني طوع امرك فلا ارضى الا ما ترضاه ولا ارى خلاف ما تراه ولحداثة سني انت أدرى بما فيه صلاح لشأني مني وشفقتك عليّ كافلة بما يعود نفعه اليّ فان اتفقتما على صنعة اقمت بها

فقال الانكليزي ان ما قلته دليل على حسن عقلك وكمال ادبك وفضلك لكن مرادنا ان تخبرنا بما يميل اليه قلبك

لانه لا بد انك شاهدت اموراً اثرت عليك تاثيرات مختلفة منها ما جذب قلبك فرغبته ومنها ما نفر منه طبعك فكرهته فلا تكتم عنا ما سنح بفكرك واظهر لنا ما كمن في سرك . فالتفت الولد نحو ابيه واراد ان يصرح بما كان يخفيه

فقال اني مذ عقلت لم اجد امثل من طريقتك ولا تمنيت ان اكون على غير خليقتك لاهياً عن جميع الحرف موقناً ان ليس لحرفة ما لحرفتنا من الشرف وبقيت على ذلك برهة لا تعترضني فيه حجة ولا شبهة حتى رأيتك في بعض الاوقات تشكو شدائد الايام متضجراً من ضيق المعيشة والعجز عما تحصل بهِ لعيالك بعض المرام فاستشعرت ان سأصير الى ما اليه صرت وان سوف اكبر مثل ما كبرت وربما خلفت كما خلفت وتكلفت جميع ما تكلفت فاخذت حينئذٍ اتفكر في جهات الاكتساب وما يكون لحسن المعيشة احسن الاسباب فوجدتها دائرة بين الامارة والتجارة والزراعة والصناعة وما لاحداها سبيل وهي دون المساعدة عسيرة التحصيل فطفقت انظر محاسن الحرف ومعايبها واعدّ مثالب اهلها ومناقبها فما رأيت لحرفتنا مثلا ولا تصورت كاهلها اهلا فانها النيابة عن الرسول في تربية العقول واهلها حفظة الدين ومعادن العرفان واليقين واكثر من نراهم على تلك الحالة عادلين عن سبيل الهداية الى طرق الضلالة حتى استتر الحق بالباطل وبذلك صارت حرفتنا ابعد الحرف عن الثراء وادخلها

لصاحبها الى مكابدة العناء ولبعضهم مساع مزرية لا تليق باهل القوة والعافية كقراءة الختمات في البيوت بالاجرة وهي ان اجازها امام فقد حرمها امام وكقرآة بعض الاصحاء الاقوياء على المقابر مع كونها لا تليق الا بالضعفة العجزة الجهلة الذين حفظوا بعض القرآة فلم تكن لهم قدرة على ما ينفع الناس الا من هذا الطريق كما قال علي بن الرومي ممن تقدم بهم الزمان يهجو طبيبا

افنى واعمى ذا الطبيب بطبـــهِ
وبكحلـه الاحيـــاء والبصراء
فاذا نظرت وجدت من عميـائه
امما على امواتـــه قـــراء

وارى بين اصحاب الوظائف الميرية رتبًا عالية ولها مرتبات كافية وافية وليس فيها ما يذم فان جميع تلك الوظائف منوطة بخدمة الاهالي واعانتهم وحفظ حقوقهم فمنهم مَن وظيفتة اصلاح الزراعة وري الاراضي ومنهم من هو محافظ على صحتهم وصيانتهم من الامراض واخرون لسماع دعاويهم والحكم بينهم واصلاح ذات بينهم وايصال الحقوق لاربابها ولكل من اصحاب هذه الوظائف مرتبـات على حسب درجاتهم تؤدى اليهم سنويًا او شهريًا فهم بذلك في امن على معيشة عيالهم وجميعهم في ظل المتصرف في امر الجميع فان كنت اختار صناعة لم اعد صنائع هذه الجماعة

فقال لهُ والده يا ولدي اعلم ان الحكم الالهية اقتضت جميع

ما تراه من الاحوال والصفات والترتيب والذوات وقد اقام الله الخلق فيما اراد ولا معقب لحكمه ولا راد وليس لنا منـاقشة فيما قدره ولا اعتراض على ما دبره فان لم تصل عقولنا الى حكمة ما وقعت عليه حواسنا فالواجب علينا التسليم وتفويض العلم الى العليم الحكيم فرب شيء يظن فيه الخير وهو في الحقيقة ضيم وضير وبالعكس

وما ندري أفي الامر المرجى * ام الامر الذي نخشى السرورُ

واعلم يا بنيّ واعزّ شيء عليّ ان النظام الحقيقي هو هذا النظام ومرور القرون العديدة والدهور المديدة على النوع الانساني مع عدم تغيير كيفية تركيبه دليل على ان هذا النظام هو ما اراده الحق جل جلاله وكما يلحق الصداء المعدن كذلك يكون العلم محفوفاً بالجهل والحق بالباطل والخير بالشر والحياة بالموت فلا نجد شيئاً الا وهو مقترن بضده وهذا التلازم ضروري اذ لا تعرف الاشياء الا باضدادها فكذلك الحق والباطل ولنا ان نقول ان النسبة بينهما كنسبة العناصر التي نتركب منها الاجسام الى بعضها اعني ان بينهما تعادلاً وتوازناً فان تغيرت هذه النسبة بالزيادة او النقص بطل التوازن وفسد امر الملة كما يفسد الجسم المادي بتغير النسبة بين اجزائه وكما ان الماء لا تكوّن صفاته ولا توجد فيه خواصه الا بوجوده في حالته الاصلية التي فطره الله عليها ومتى خرج عن هذا الحد تغيرت صفاته وتبدلت خواصه وربما

كان مضراً بعد ان كان نافعاً فكذلك حال الملة واهلها اذا زاد الدخيل وكثر اهل الزور والاباطيل تقهقر امر المستحقين ونقص عددهم وربما ضرَّ بهم كضرر الداء الدفين لان الدخيل لعدم وقوفه على الحقيقة في الاحكام قد يخرجها عن موضوعها ويستعملها في غير مواضعها وبسبب ان قوتهم الاصلية هي القوة العلية تسير خلفها الملة فتهوي بهم في مهاوي التلف والدمار وتكسوها بعد الشرف ثوب المذلة والعار وهذا الامر ليس خاصاً بطائفة دون طائفة بل هو عامٌ بجميع الطوائف على اختلاف اهميتها وصغرها وكبرها في كميتها ولكن حيث ورد (من حسن ايمان المرء تركه ما لا يعنيه) فعن هذا الكلام نعرض ونترك الامر فيه لله ولمن صرفه في خلقه وعليهم ولاه فانهم المسئولون عن امر انفسهم ورعاياهم واول واجب عليهم اصلاح حال انفسهم وحال رعاياهم فهم الملزمون بتفقد الاحوال واجراء الامور على احسن منوال والبحث عن الطرق التي يكون بها ثبات هذه النسبة في حدودها حتى يستقيم كل انسان في محله ويوضع كل شيء في موضعه لان اكثر الضرر الذي ينتج من اهمال امراء الملة وتساهلهم لا تعود عاقبة امره الا عليهم فيكون اسفهم بقدر ما كانت درجة سعتهم في سلطتهم فمتى تفقدوا بانفسهم احوال الرعية وراعوا للشرع حقوقه المرضية دام لهم السرور واشرقت بهم ممالكهم واملاكهم ودارت بالسعود افلاكهم وقد ترى ما اشرق بهِ الزمان ومنه تجدد اعتدال الاوان فنسأل

الله لهُ التمام ونرجوه حسن الختام انما المقصود منك ان تفصح لنا عما اخترته لنفسك من الصنائع

فقال ابن الشيخ لم يكن في امكاني ولم يجم بجناني معرفة ما يوافقني من الصنائع فانها كثيرة ومختلفة ولم امارسها حتى اعلم المناسب منها لسنّي وبنيتي وحيث رأيتما انه لا بد للانسان من صنعة يكتسب منها مع الشرف والوقار وحفظ الناموس والاعتبار فلا مانع وقد فوضت تعيين الصنعة الى الله ثم اليكما فكلما اخترتماه واقع عندي موقع الصواب بما اعتقده فيكما من ممارسة احوال الناس وكثرة التجارب والعلم بما يفيد وينفع وما عليّ الاَّ ان اكون ممتثلاً لما تأمراني بهِ وان ابذل غاية جهدي لاحقق ما ظننتماه فيَّ فان رايتما ادخالي بالمدارس الميرية فانا راض بهِ راغب فيه خصوصاً لما رأيته بنفسي من احوال من سبق لهُ الدخول بها فاني لم اجد احداً منهم الاَّ وهو في ثروة ورفاهية لم يكن فيها غيره واظن ان والدي يعلم ذلك فان بالحارة التي نحن بها في مصر جملة منهم لهم درجات مختلفة اقلها بمرتبات كافية وفيهم من بلغ المناصب الرفيعة والرتب العالية وله مرتبات جسيمة ينفق منها على الاهل والاقارب ويتصدق على الجار والصاحب فضلاً عن الصدقات المربوطة للفقراء والمساكين ورايت جميع اهل الحارة بل واهل الخط يراعون خواطرهم لمعروفهم وكرمهم ومساعيهم الخيرية وليس فيهم ابن امير او شريف وقد توجهت ذات يوم مع تلميذ من ابناء

حارتنا هناك فوجدت بها تراتيب ونظامات الفها قلبي واخذت
بلبي فمن ذلك الوقت وددت ان اكون من زمرة من بها لما فيها
من الامور المرغوبة في حسن التربية وهي تنمية القوى الباطنية
وتقوية الحافظة والتصور والعقل وتهذيب الاخلاق مع رعاية ما
يلزم لحفظ الصحة من الصون عن اسباب الامراض والعاهات
بملاحظة حكماء موظفين لذلك لا يزالون متعهدين اغذيتهم
واماكن مبيتهم ومواضع مدارستهم ومحل تفسحهم وترويج انفسهم
لتجديد نشاطهم وتقوية قرائحهم بالنظر لما اشتملت عليه من الاشجار
والمياه والازهار والتردد بين ظلالها وذلك الى ما اختصت بهِ من
افاضل المعلمين والمؤدبين ورأيت ان الانسان ما دام فيها لا
يكون مشغولاً بشيء غير التعلم واما الامور الضرورية فموكولة الى
خدم مخصوصة ملزمة بأدائها في اوقاتها وسمعت ان الانسان اذا
تم ما فرض عليه في مدرسة انتقل لغيرها على حسب درجة استعداده
وما ابداه في الامتحانات العامة والخاصة الى ان ينتهي المفروض
على الشخص معرفته وتكون فيه قابلية واستعداد لخدمة وطنه فعند
ذلك تعطى لهُ الرتب اللائقة بهِ ويحظى بمرتباته ويعد من رجال
الملة وبحسب ما يبديه في خدمته من حسن الادارة والصداقة
يندرج ضمن افاضلها فبناء على ما ذكرته متى كان الانسان كثير
الاجتهاد متخلقاً بالاخلاق الحميدة كان آمناً على نفسه جميع عمره
من عاهات الدهر وتقلبات الايام لانه وهو بالمدرسة يكون محبوباً

مبجلاً بين اقرانه وخوجاته فيميزونه ويعدونه من اهل الفضل واذا خرج عنها الى اعماله واشغاله يتقدم في درجات الشرف ويعد من اهل العدل بحسب صداقته واستقامته وحسن ادارته ففرح الانكليزي بما القاه ابن الشيخ وشكره وعظم من ذلك الوقت شأنه وقدره حتى انه اضمر في نفسه انه بعد دخوله بالمدارس يساعده ويقوم بكل ما يلزم لهُ من كتب وادوات وان يجعل لهُ من طرفه مكافأة كل ما ظهر في ميدان الامتحان فوقانه على الاقران وان يغتنم فرصته ويؤكد رغبته مدة اقامته في البلاد الاوروباوية ويطلعه على جميع احوال تلك البلاد واسباب ثروة اهلها حتى يكون من ذلك على معرفة تامة لما يراه من الاشياء ويقف على حقائقها وان يريه المعامل والفبريقات واماكن اللهو والترسانات ليؤكد ميله ورغبته واخبر بما اضمر اباه فاطال شكره لهُ وثناءه عليه

المسامرة السابعة عشرة
في البحر وعجائبه

ثم اخذا في شجون الحديث وتناقلا اخبار القديم والحدث حتى جرى بمناسبة الجمال ذكر البحر فتواصفا غرائبه ما اودعته من

الاسرار فكان من كلام الشيخ ان قال مستفتحًا هذا المجال املاً ان يزيد علمه ويصل الى ما غاب عنه فهمه سبحان من اجمل صنعه واحسن كل شي خلقه واتقن وضعه واجرى مواخر البواخر تشرح متون الماء وسخر لعباده كل ما اشتملت عليه الارض والسماء ومنَّ علينا في مدة هذا السفر الحميد بغير ما كنت اخاف منه وعنه احيد فلقد كنت انفًا اقرأ في بعض كتب الاخبار متاملاً فيما تضمنت من عجائب الليل والنهار

فيشتت الافكار ما قاسى الورى

من هول هذا البحر عند ركوبه

من امواج تتلاطم ودفعات على اتساعه تتزاحم ودوائر ببعض السفن تدور لا ينتظر من دارت عليه الا هبة النشور فقد قيل داخله مفقود والخارج منه مولود فنسأل الله دوام المبرة حتى تنقضي بالسلامة هذه السفرة كما نساله دوام العناية حتى نبلغ في كلائته اكرم غاية لا نرى البحر الاَّ رهوا ولا ننظر الجو الاَّ صحوا ولكن حب الاطلاع سيما في صحبة مثل حضرتكم يهون كل صعب فاحب ان نتكلم في امر هذا البحر فلقد رايت في بعض ما قرأت ان الجهة الجنوبية من الارض مغمورة بالماء وان للبحر جريانًا مع كونه اخذاً نهاية تمدده متوازنًا في مقره وقد ذكر لذلك اسباب اختلف القول فيها فما عندكم فيه فانتم ابناء البحر وعندكم يقين علمه

فقال له الانكليزي اعلم ايها الاستاذ ان الانسان ولو وصل

بما اعطاه الله من العقل وقوة الفكر الى معرفة السياحة في البحار بالسفن البخارية والشراعية واستكشف كثيراً مما فيها من بقاع الارض وغيرها الاّ ان ما جهله اكثر مما علمه ففي كل يوم يوجد في جوفه ما لا يحصى من الخلق وهذا الهدء والسكون الذي رايته لم يكن الاّ ظاهريًا اذ تحته عجائب مستورة عن اعين الناس لجسامة طباقه وغور اعماقه فلا تمر عليه لحظة من الزمن الاّ وهو في فعل مستمر وحركة مستديمة منها تأثيره على الكرة الارضية فتارة يؤثر في الطبقات الظاهرة وتارة في الطبقات الباطنة وبتقلبه المستمر ياخذ من جهة الى اخرى ومن ارض الى غيرها فما هو الاّ كمامور من قبل الحق فما ياخذه من هذه يعطيه لغيرها وهذا دابه من ابتداء خلق العالم الى ما شاء الله فلا هدء له ولا استقرار ولا سكون له بالليل ولا بالنهار ولعظمه لا يظهر لعواصف الرياح تاثير الاّ على سطحه وهول امواجه الظاهري ليس شيئًا بالنسبة لما يحصل من حركة جسمه بتمامه فانه ينشا عنها ارتفاع سطحه الى عنان السماء وسقوطه الى تخوم الارض فتحلل منه ابخرة ترتفع الى السماء ثم يدفعها الريح الى جهات بعيدة فتحلل منها الاملاح وتصير عذبة وتظهر بصورة جديدة فتارة تكون سحابًا فيسير الى الجهة التي قدر الله انصبابه فيها فتخصب به ارضها وتتغذى به اهلها وتارة تكون سيولاً جارفة فيتسبب عنها التلف والمضرات وتارة تكون مطرًا لطيفًا واخرى تكون ندى كما يشاهد على اوراق الاشجار وبين طبقات

الازهار وبسبب ما في الارض من الجفاف تمتص ما سقط على سطحها وتبتلعه فيجري الى مستودعات يجتمع بها حتى اذا امتلأت وضاقت عن احتمال المدد الدائم التلاحق تفجرت عيونًا وطلبت مياهها الأمكنة المطمئنة حسب اقتضاء طبيعة الماء واجتمعت مع المياه السائلة من الامطار فكانت المنابع والانهر والخلجان التي تمر بالبلاد التي نسكنها والارض التي نزرعها فيكسوها ثوب الخصوبة ويلطف الجو فيعتدل هواء البقاع وبعد ان استحوذ الانسان على تلك المياه وجعلها في اسره وتصرف فيها على حسب رغبته ولوازم اعماله تعود الى البحر ومعها السفن حاملة مصنوعات الانسان ومحصولات اعماله

فقال الشيخ · شرحتم فافدتم وادمجتم فاجدتم وزدتم بيان سبب تكون السحاب الذي يدور عليه امر الحيوان في جميع المعمورة من اخراج غذائه وتلطيف هوائه وابداء نمائه وتحسين روائه فما احسن هذا الكلام كاشفًا عن حقيقة المرام غير ان اناسًا من ضعفة العقول ليس لهم من العلم كبير محصول ادعوا لانفسهم الفطنة والذكاء وان لهم كمال الاطلاع على حقائق الاشياء بقراة بعض الكتب المترجمة من كلام القدماء توهموا ان قواطعها البرهانية تخالف نصوص الشريعة الغراء وادخلوا ذلك على بعض الاذهان وتسلقوا بالطعن في محكمات آي القرآن حتى احتاج علماء الملة ان ظهروا بصورة المنكرين على جميع كلمات المتقدمين مشتغلين

بالاستدلال على حدوث العالم ونسبة جميع الحوادث ابتداء لاحكم الحاكمين مقررين ذلك بين العامة والخاصة حتى صارت كتب الفلسفة منكرة والمشتغلون بقرائتها كفرة واشتد ذلك في القرون المتوسطة حتى كان يكتب في عهود تولية المحتسبين امرهم والتشديد عليهم بالتفتيش عن تلك الكتب والهجوم على بيوت من يعلم ان عنده شيئاً منها وكان ذلك سبباً لتعطيل المسلمين عقولهم عن استعمالها فيما يمكن للانسان علمه فانتدب المهرة المتوغلون في معرفة الفنون كحجة الاسلام ابي حامد الغزالي ونصبوا انفسهم لفصل ما يضر مما ينفع وميزوا ما لا يصح ان يهمل من كلام الحكماء عن غيره وسردوا ما يستحق الرد ووضعوا في ذلك كتباً واكثروا وخطأوا راي من اطلق القول في الانكار على الحكماء وقالوا ان هذا النوع من نصر الدين اضر عليه من طعن الملحدين وبيّن كثير من فطناء المتاخرين كجلال الدين الدواني صحة اشياء كثيرة مما ابطله نحو الغزالي بتفصيل ما اراده المتقدمون فيه وتحقيقه فمن الطعن على القرآن ما حكاه محقق المفسرين فخر الدين الرازي متصدياً للجواب عنه ونص عبارته (الم ترَ ان الله يزجي سحاباً ثم يولف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبالٍ فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء) اعلم ان هذا هو النوع الثاني من الدلائل وفيه مسئلتان . المسئلة الاولى قوله الم ترَ بعين عقلك والمراد التنبيه والازجاء السوق

قليلاً قليلاً ومنه البضاعة المزجاة التي يزجيها كل احد وازجاء السير في الابل الرفق بها حتى تسير شيئًا فشيئًا ثم يؤلف بينه · قال الفرّاء بين لا يصلح الاَّ مضافًا الى اسمين فما زاد وانما قال بينه لان السحاب واحد في اللفظ ومعناه الجمع والواحد سحابة قال الله تعالى (وينشيء السحاب الثقال) والتاليف ضم شيء الى شيء اي يجمع بين قطع السحاب فيجعلها سحابًا واحدًا ثم يجعله ركامًا اي مجتمعًا والركم جمعك شيئًا فوق شي حتى تجعله مركومًا والودق المطر قاله ابن عباس وعن مجاهد القطر وعن ابي مسلم الاصفهاني الماء من خلاله من شقوقه ومخارقه جمع خلل كجبال في جمع جبل وقرىء من خلله والمسئلة الثانية اعلم ان قوله يزجي سحابا يحتمل انه سبحانه ينشئه شيئًا بعد شيء ويحتمل ان يغيره من سائر الاجسام لا في حالة واحدة فعلى الوجه الاول يكون نفس السحاب محدثة ثم انه سبحانه يؤلف بين اجزائه وعلى الثاني يكون المحدث من قبل الله تعالى تلك الصفات التي باعتبارها صارت تلك الاجسام سحابا وفي قوله ثم يؤلف بينه دلالة على وجوده متقدمًا متفرقًا اذ التاليف لا يصح الاَّ بين موجودين ثم انه سبحانه يجعله ركامًا وذلك بتركب بعضها على البعض وهذا مما لا بد منه لان السحاب انما يحمل الكثير من الماء اذا كان بهذه الصفة وكل ذلك من عجائب خلقه ودلالة ملكه واقتداره قال الطبائعيون ان تكون السحاب والمطر والثلج والبرد والطل والصقيع في اكثر الامر يكون

من تكاثف البخار وفي الاقل من تكاثف الهواء اما الاول فالبخار الصاعد ان كان قليلاً وكان في الهواء من الحرارة ما يحلل ذلك البخار فتلك الابخرة متصاعدة اما ان تبلغ في صعودها الى الطبقة الباردة من الهواء او لا . فان بلغت فاما ان يكون البرد هناك قويًا او لا يكون فان لم يكن تكاثف ذلك البخار بذلك القدر من البرد واجتمع وتقاطر فالبخار المجتمع هو السحاب والمتقاطر هو المطر والديمة والوابل انما يكون من امثال هذه الغيوم واما ان كان البرد شديدًا فلا يخلو اما ان يصل البرد الى الاجزاء البخارية قبل اجتماعها وانحلالها حبات كبارًا او بعد صيرورتها كذلك فان كان على الوجه الاول نزل ثلجًا وان كان على الوجه الثاني نزل بَرَدًا واما اذا لم تبلغ الابخرة الى الطبقة الباردة فهي اما ان تكون كثيرة او تكون قليلة فان كانت كثيرة فهي قد تنعقد سحابًا ماطرًا وقد لا تنعقد اما الاول فذاك لاحد اسباب خمسة احدها اذا منع هبوب الرياح عن تصاعد تلك الابخرة . وثانيها ان تكون الرياح ضاغطة اياها الى الاجتماع بسبب وقوف جبال قدام الريح . وثالثها ان تكون هناك رياح متقابلة متصادمة فتمنع صعود الابخرة حينئذٍ . ورابعها ان يعرض للجسم المتقدم وقوف لثقله وبطء حركته ثم يلتصق به سائر الاجزاء الكثيرة المدد . وخامسها لشدة برد الهواء القريب من الارض وقد نشاهد البخار يصعد في بعض الجبال صعودًا يسيرًا حتى كأنه مكبة موضوعة على وهدة ويكون الناظر اليها فوق تلك الغمامة والذين

يكونون تحت الغمامة يمطرون والذين يكونون فوقها يكونون في الشمس واما اذا كانت الابخرة القليلة الارتفاع قليلة لطيفة فاذا ضربها برد الليل كثفها وعقدها ماء محسوسًا ونزل مبلولاً متفرقًا لا يحس به الاَّ عند اجتماع شيء يعتد به فان لم يجمد كان طلا وان جمد كان صقيعًا ونسبة الصقيع الى الطل نسبة الثلج الى المطر واما تكوّن السحاب من انقباض الهواء فذلك عند ما يبرد الهواء وينقبض وحينئذٍ تحصل منه الاقسام المذكورة والجواب انا لما دللنا على حدوث الاجسام توسلنا بذلك الى كونه قادرًا مختارًا يمكنه ايجاد الاجسام لم يمكننا القطع بما ذكرتموه لاحتمال انه سبحانه خلق اجزاء السحاب دفعة لا بالطريق الذي ذكرتموه وايضًا فهب ان الامر كما ذكرتم ولكن الاجسام بالاتفاق ممكنة في ذواتها فلا بد لها من مؤثر ثم انها متماثلة فاختصاص كل واحد منها بصفته المعينة من الصعود والهبوط واللطافة والكثافة والحرارة والبرودة لا بد له من مخصص فاذا كان هو سبحانه خالقًا لتلك الطبائع وتلك الطبائع مؤثرة في هذه الاحوال وخالق السبب خالق المسبب فكان سبحانه هو الذي يزجي سحابا لانه هو الذي خلق تلك الطبائع المحركة لتلك الابخرة من باطن الارض الى جو الهوا ثم ان تلك الابخرة اذا ترادفت في صعودها والتصق بعضها بالبعض فهو سبحانه هو الذي جعلها ركاما فثبت على جميع التقديرات ان وجه الاستدلال بهذه الاشياء على القدرة والحكمة ظاهر بيّن

فقال الانكليزي ان الانسان مع كثرة اشغاله اللازمة لحفظ حياته على قصر عمره لا يمكنه ان يحيط بتحقيق جميع فنون العلم مع كثرتها وتشعبها واختلاف الآرآء والمذاهب في اصولها وفروعها وغاية ما يمكن للانسان الباذل وسعه واقصى همته ان يتقن الفن او الفنين ومن ذلك كان الناس حسب الوضع الالهي منقسمين الى الطوائف فكل طائفة اشتغلت بما استعدت له واراده الله منها على تفاوت افرادها في ذلك فتمت منافع الناس واستقام امر وجودهم فكان مجموعهم بمنزلة شخص واحد يصرف اعضائه في مصالحه فلم يكن لطائفة ان تنكر على طائفة افكارها واعمالها كما انه ليس للرأس ان ينكر على اليد اعمالها التي لاجلها خلقت بل على كل طائفة ان تكل علم ما جهلت الى الفرقة التي بذلت همتها وانضت اجسامها في تحصيله وتشييد اركانه واضاءة برهانه لا يزري احد على احد عمله ولا يبادر كالاغمار بانكار ما جهله فتبين من ذلك ان الواجب على علماء الملة ان يتقنوا اصولها ويحفظوا فروعها غير متعرضين لاقوال غيرهم واعمالهم لا بالتسليم ولا بالانكار ما لم يوافق او يخالف ما ثبت عندهم بالبراهين الموجبة لهم علم اليقين او يتعرض بعض الاغمار كما حكيتم لنقض اصل او ابطال فرع وكان قد سبق بين حضرة الشيخ وصاحبه معاهدة على انه متى سمع منه كلمة غير موافقة للغة ارشده اليها واتم الفائدة بحكاية اشكالها

فقال الشيخ جرى في كلام حضرتكم لفظ عواصف الرياح

وانما يقال للرياح البحرية قواصف لانها قد تفعل القصف وللرياح البرية عواصف لانها قد تحمل العصف وهو ما يبس من اوراق الاشجار وكلاهما ليس من قبيل الاسم بل من قبيل الوصف كما يقال للرياح التي تلقح اناث الاشجار من ذكورها اللواقح وللمختلفة الشديدة الحواشك وللحارة في الصيف البوارح وللتي تقدم المطر فتجيء بليلة المبشرات وللتي مع المطر المعصرات وللتي تثير الاغبرة الأعاصير وللتي تحمل السفا وهو دقيق ما تحاتّ من النبات السوافي وهذه الاسماء اكثر ما وردت بلفظ الجمع ويقال للريح اذا هبت لينة الريدة والريدانة والنسيم فاذا تتابعت مستمرة فهي الرخاء واذا سمع لها صوت كحنين الابل فهي الحنون فاذا ابتدات بشدّة فهي النافحة والسيهج والسيهوج والسهوج فاذا سمع لها مع الشدة صوت فهي الزفزاف فاذا اشتدت حتى قلعت الخيام فهي الهجوم فاذا زادت حتى قلعت الاشجار او دون ذلك بقليل فهي الزعزع والزعزاع والزعزعان واذا حملت الحصباء اى الحصى فهي الحاصب فاذا درجت حتى ترى لها ذيلاً في الرمل كالرّسن فهي الدروج فاذا كانت شديدة المرور فهي النوّج فاذا أسرعت فهي المجفل والجافلة فاذا هبت من الارض نحو السماء كالعمود فهي الاعصار والزوبعة فان حملت غباراً فهي الهبوة فان حملت التراب وترددت به ويسمى المور بضم الميم فهي الهوجاء فاذا هبت باردة فهي الحرجف والصرصر والعرية كغنية فان اشتدت حتى خرقت

الثوب فهي الخريق فاذا كانت حارة فهي الحزور ليلاً والسموم نهارًا فاذا كانت بين بين فهي الحجيج فاذا لم تلقح شجرًا ولم تسق مطرا فهي العقيم فاذا كان هبوبها من المشرق فهي الصبا وعن يمين المتوجه للشرق الجنوب وعن شماله الشمال والشمال ومن المغرب الدبور فاذا خرجت بين مهي ريحين من هذه الاربع فهي النكباء فان كانت بين الجنوب والصبا فهي الجربيا بكسر الجيم وان كانت بين الصبا والشمال فهي الصابية وان كانت بين الشمال والدبور فهي الازيب كجعفر وان كانت بين الدبور والجنوب فهي الهيف بفتح الهاء وكانت العرب تنادي بها لكونها تيبس النبات وتعطش الحيوان وتنشف الماء وفي المثل ذهبت هيف لاديانها يضرب لسيء الاعمال اذا جرى على عوائده ولبعضهم نظم الاصول والنكب وهو هذا

صبا ودبور والجنوب وشمأل
بشرق وغرب واليمين وللضد
ومن بينها النكباء ازيب جربيا
وصابية والهيف خاتمة العد

فشكره على ما افاد ثم قال ان اثار الحرارة التي عليها مدار ما اسلفنا شرحه هي احد القوانين التي بها ربط الله جميع احوال البحر

القانون الاول الجذب الواقع على البحر من الكواكب فقد

ثبت علمًا وعملاً ان القمر بسبب قربه من الارض يؤثر على سطح البحر المحيط فيجذب ماءه نحوه فيحدث من ذلك تموجه ثم يرتفع بعض اقدام فوق سطحه ثم يسير على اتجاه الكوكب في جوف السماء وبعد ان يقطع مسافة في سيره ينصدم بين ارض هولاندة وبين ارض اسيا الجنوبية وبسبب انحساره ينساب التيار بقوته وينقسم الى تيارين احدهما يتجه جهة سواحل الافريقة وبعد ساعة من ظهور القمر تكون تلك الامواج وصلت الى ارض فاس ومراكش وبعد ساعتين تكون ببغاز الطارق وتمر بسواحل بلاد البرتغال وفي الساعة الرابعة تكون وصلت الى السواحل القريبة من بلاد الانكليز ولا تصل الى سواحل ارض اسوج إلا في الساعة الثامنة لانها تتعطل في سيرها بالجزائر الموجودة في بحر الشمال والثاني ياخذ اتجاه سواحل امريكا الغربي بسرعة فيقطع في الساعة الواحدة مائة وعشرين ميلاً ومتى تصادم بارض السواحل المذكورة اتجه الى الشمال فينحبس هناك بين جزائر متعددة فترتفع امواجه ارتفاعًا يقرب من ثمانين قدمًا ويكون اكبر من ارتفاع الامواج التي تحدث عند اعظم الفورتونات بخمسين قدمًا لانه لم يعلم الى الان ارتفاع الامواج باعظم العواصف اكثر من ثلاثين قدمًا كما ذكر في التواريخ

والقانون الثاني وان كان ثابتاً بالعلم ولا شك فيه لكن اكثر الناس تجهله لانه غير محسوس ولا يدركه الا اولوا الابصار

من ذوي العلم وهو تأثير حرارة الشمس الذي يكون بهِ الماء سائلاً فان الماء كسائر الاجسام قابل للتخلخل والتكاثف فاذا زاد تأثير الحرارة فيه تخلخل وكبر حجمه وخف حتى يصير بخاراً مناسباً للهواء واذا نقص تأثير الحرارة فيه تكاثف وصغر حجمه وثقل حتى يكون وزن ذراع من حار اقل من وزن ذراع مما دونه في الحرارة ولا يزال الماء سائلاً ما دامت حرارته في الدرجة الثالثة فما فوقها فمتى نقصت عن ذلك صار بازدياد تكاثفه مادة لزجة وكلما اخذ في البرودة ازداد جموده وخفته حتى يصير حجراً مناسباً للارض فالماء جوهر دائر بين ان يكون ارضاً وان يكون هواء متبادلاً عليه الجمود والسيلان والثقل والخفة وكل ذلك ناشيء من صحبة الحرارة له وامتزاجها بهِ ومن مفارقتها اياه وخلوه منها ثم انهُ علم بالتجربة ان الحرارة انما تصل من عمق البحر الى غاية ثلاثة الآف وستمائة قدم

وبناء على هذا القانون فسطح البحر دائماً في حركة مستديمة وتبادل بين طبقاته فمتى ثقل بالبرودة نزل الى اسفل وصعد ما تحته فوقه وكل ذلك ناشيء عن تغير الحرارة واختلافها في درجاتها ومن هنا نشأت التيارات العظيمة الحارة والباردة التي تشاهد على سطح البحر في كثير من الجهات فان السياحين شاهدوا ان حرارة ماء التيارات المذكورة ثماني درجات مع ان درجة حرارة الماء الراكد الملامس لها احدى وعشرون ولذلك قالوا ان راكب

الصندل يمكنه ان يغمس احدى يديه في الماء البارد من جهة ويده الثانية في الماء الحار من الجهة الاخرى وكم من عجائب خفية تحت طباق الماء يمر فوقها الانسان ويقطع جميع هذه البحور ولا يحصل منه ادنى التفات اليها ولا شعور ولا يعلم ما في قراره من الغابات المتسعة والوديان المطمئنة والجبال المرتفعة والبراري الهائلة فكم في قاع البحور من ارتفاعات ووهدات وانخفاضات وكم فيه من صحاري ووديان ومغارات وصخور فتارةً يكون بسيطاً عظيم الاستواء مجرداً عن النبات في بعض الجهات وتارةً يكون عامرا بالنبات والعشب في جهات اخرى وترى قاع البحر كسطح الارض فيه المرتفع والمنخفض والمحل والخصب وقد شوهد في جزيرة سنتهيلينه بالمجس ان عمق البحر اربعة عشر الفاً وخمسمائة وخمسون قدماً وعند القطب الشمالي وصل المجس الى عمق ستة وعشرين الف قدم وستمائة قدم وذلك عبارة عن خمسة اميال وهذا الغور لا يوجد مثله في سائر البحار التي على سطح الارض وفي هذا العمق العظيم ترتفع جبال وصخور وجزائر وغيرها

وكما نشاهد ان سطح الارض دائم في التغير فبعضه يرتفع وبعضه ينخفض فكذلك قاع البحر وذلك محسوس خصوصاً في البحر المحيط الجنوبي فقد ثبت علماً ومشاهدة ان استواء الماء في المحيط ثابت وان الارض هي المتغيرة خلافاً لرأي المتقدمين فانهم كانوا يعتقدون عكس ذلك وقد انقطع الان هذا الشك وزال

الاشكال وبطل هذا الاعتقاد وما بني عليه من الاقوال

فقال الشيخ ان من يطلع على ما في داخل البحار وينظر اسكان طباقه بعين الاعتبار وما كمن في خلال قراره ونجوده واغواره واجام الاعشاب الطافية على سطحه علم قدرة القادر وعظم شأنه وخضع لجلالته فثم ما لا تسعه العقول ولا تفي بحصره ارباب النقول نرى بحارا عميقة وبها حيوانات هائلة واخرى دقيقة لا يعلم منتهاها الا الله ففيها وحولها بواقي ما ابتلعه البحر من مخلوقات ومعادن ومصنوعات ومكامن ما ابتلعه من الازمان السابقة فترى الآت الحرب وبواقي القتلى وقطع السفن وكذا الذهب والفضة اللذان هما نقود الامم السالفة واللاحقة ومعادن مختلفة كل ذلك تحت الصخور وفي فجوات البحور

وفوق ذلك وتحته وداخله انواع مختلفة من المخلوقات باشكال وصور وكيفيات لا نهاية لها فمنها الحيوان الدقيق الذي لا يرى وما هو اكبر منه وهكذا الى الهائشة التي لا شبيه لجسمها في المخلوقات الارضية ومما يستغربه الانسان دوام المعركة بين جميع هذه الانواع وبعضها فتارةً تكون طاردة وتارةً تكون مطرودة وتارةً آكلة وتارة ماكولة وتارة غالبة وتارة مغلوبة هذا دابها مع بعضها في جميع فصول السنة وبهذه الكيفية يكون تحت طباق الماء سواء كان في هدء او سكون محاربات ومحاورات وهجوم ومدافعة وممانعة ووجوم وكما يوجد على الارض انواع حيوانات

وطيور فكذلك يكون في البحر ما يشبه الذئب وما يشبه الاسد وما هو كصاحب السيف وما هو كصاحب السنان وغير ذلك وربما كانت اشد افتراسًا وقسوة ولما عندها من الحيل تراها تغتال في الدفعة الواحدة الوفا مؤلفة من الانواع التي اعدها الله لقوتها. ومع ذلك كله فلا يسمع لها صوت ولا وجيب وغاية الامر انه يظهر في بعض الاحيان على سطح الماء كلون الدم وترى اسماك مقتولة عائمة فوق سطحه فيكون ذلك علامة على معركة او مقتلة جرت بين طوائف الاسماك في جوف البحر

فقال الانكليزي كذلك وقد شوهد امور اخرى غير هذه وهي ان ماء البحر يتلون بالوان مختلفة فيكون باللون الزيتوني كما في البحر المحيط الجنوبي ويكون اخضر كما في سواحل العرب ويكون ورديًا كما في جهة الكاليفورنيا بالامريكا واحمر كما في البحر الاحمر وجميع هذه الالوان قد تكون مكتسبة من الوان النبات والاعشاب النابتة في بقاع بحار هذه الجهات او من الوان الحيوانات الدقيقة المحسوسة المتخللة بين جواهر الماء فيكون اللون شديدًا او غير شديد تبعًا لتكاثف الطبقات وتراكم هذه الحيوانات وهناك حيوانات تجعل لون الماء اسود كما في جهة مالديف واخرى تكسبه لونًا ابيض كما في جهة غينه واغرب من هذا كله ان هناك نوعا من هذه الحيوانات له لمعان شديد ومتى اجتمع مع بعضه ظهر على سطح الماء لمعان يشبه ضوء النار وهذا

النوع يكون في جميع طباق البحر ولكل من هذه الحيوانات والديدان بقاع تسكن بها وطرق تسلكها عند انتقالها تابعة في سيرها تيارات مجهولة فتنتقل من الاقطاب الى دائرة الاستواء ومن قطب الى قطب ومن الغريب ان الهائشة التي جرمها قدر جرم الفيل خمس مرات فاكثر تحتاج لهذه الديدان لغذائها فلا يهنأ لها عيش الاَّ بالحصول عليها فتراها تهاجر خلف هذه الديدان وتسير مسافات بعيدة حتى تحصل منها على ما يلزم لها

فانظر لحكمة الله التي احوجت العظيم للحقير حتى الهائشة التي هي اكبر حيوان صارت محتاجة في غذائها لاحقر شيء وهو الديدان ولم يكن في جميع انواع المخلوقات ما له اكثر ميلاً للاسفار من السمك فمنه انواع تنحدر الى الجهات الجنوبية واخرى تصعد الى الجهات الشمالية وهذه تتجه الى الشرق وهذه الى الغرب وبعد ان يقضي كل اربه يرجع الى ما هاجر منه ثم يعود مرة ثانية في وقت اخر وبعضها يخرج من البحر والماء المالح الى النهر والماء العذب كالسردين اي صغير السمك وربما كان في كثافة عظيمة بحيث يمنع جريان الماء ومنها ما يكون في غاية الملامسة فلا يكون للسنارة عليه تأثير وما تاكله الطيور وما يموت شيء لا يحصى ومع ذلك فما يجري تمليحه وادخاره لاجل الائتدام به عند الحاجة اليه اكثر وفيه اكبر المخلوقات ومنه الهائشة وقد مرت والدرفيل والترمسة التي تبلغ الف اقة فاكثر وسكان جزائر البحر المحيط الجنوبي يصطادون

في كل عام الوفًا مؤلفة من كلاب البحر لاخذ دهنها وزيتها وفي البحر من النباتات ما لا نهاية له فمنها ما ياخذ في شكله صوراً متعددة ويتلوّن بالوان مختلفة لطيفة حتى يتكون منها بساتين عظيمة تفوق في ظرفها البساتين البرية وكما تميل اغصان الاشجار البرية تبعًا للرياح كذلك تميل اغصان النباتات البحرية تبعًا لامواج البحر حتى انها في بعض الاحيان تقلع من اصولها وتسير الى مسافات بعيدة وتتراكم ويتركب منها طبقة كثيفة فتغطي جزءًا عظيمًا من البحر وربما منعت السفن من العبور ومواضع هذه النباتات معلومة فمنها ما يكون ثابتًا بالصخور فلا تؤثر فيه الامواج ولا تقلعه الا ومعه صخوره ومنها ما ينبت بالقرب من السواحل واذا نبت بعيدًا عنها لا يتجاوز في بعده اربعين باعًا وتنبت في جميع البحار ولكن الاكثر ان هذه النباتات لا تكون الاّ في البحار الجنوبية فتنبت فيها وتمتد الى نحو الف وخمسمائة قدم وتارة تمتد على سطح البحر وتغطي ماءه بالكلية وتستره حتى تكون سعتها ثلاث مائة ميل في العرض وتنتشر الى خمس وعشرين درجة في العرض وقد قطع (كولومب) ثلاثة اسابيع كاملة في مروره منها حين ذهب لاستكشاف الامريكا وهذه الحشائش عبارة عن مادة هلامية اي لزجة مغطاة بقشرة كالجلد وتتشعب الى ما لا نهاية له وكل شعب يتفرع كذلك وهكذا حتى يتكون من ذلك شعاب عظيمة والجميع ينتهي باوراق رفيعة الاطراف ومنها ما ياكله الانسان .

تفكها ومنها ما ينفع لداء الصدر وكثير من الطيور لا تقتات الاّ منها وذلك في بحر الهند ومنها نوع سكري يمتد الى عدة اميال فروعه رفيعة كالخيط وورقه عرض اليد ويستخرج منه عصارة سكرية ويوجد على سطح البحار القطبية الشمالية حشائش طولها الف قدم واوراقها حمر وردية يحملها الماء بواسطة شبه عوامات موجودة تحت عقد الفروع تمنعها من الانغماس وفي بعض الجهات شوهد حشائش شبيهة بشجر التفاح ذات فروع حاملة مقدارًا عظيمًا من الفاكهة وجدورها متماسكة بالصخور واوراقها مدلاة في فروع تشبه فروع شجر الصفصاف ومع هذا كله ففي قاع البحر انواع مختلفة لا يحصرها الاَّ موجدها ومن اجتماع هذه النباتات مع بعضها تحدث اشكال غريبة ورسوم هندسية عجيبة فمنها ما يلتصق ببعضه فيكون قبابًا كروية كبيرة تارة وصغيرة اخرى ومنها اشكال مخروطية فتارة تكوّن شكلاً هرميا مربعا او مثلثا ومنها ما يسبح على سطح الماء ويكسو منه جزءًا عظيمًا فيمنع نفوذ الضوء والحرارة ومنها ما يكون خامات منفصلة عن بعضها وتارة متقاربة تجمعها اخرى وبسبب كثرة الالوان والاختلاف في الطول والشكل وكيفية التعشق والتداخل يتشكل منها هيئات وتكون لعالم البحر كالمدن والمساكن يأوي اليها ويتحصن ببعضه من بعض ويتقي بها من شره ومن يبصر تلك الغابات ويتاملها يرى امورًا عجيبة تدهشه لانه يرى على اغصانها ديدانًا تسبح نحو الورق لتتغذى منه ويرى عجل البحر جاثمًا

ما بين نبت الماء والقرامي الاصلية وكلب البحر ذا العيون الرصاصية والنمر ذا المعرفة والذكاء والترمسة كلاً في مكمنه ومحل راحته ومأمنه وما من نوع منها الاَّ وهو راصد لغيره اما لتحصيل قوته واما للفرار من عدوه فهذا بمغزاه راصد لتحصيل غذاه وهذا خائف من اعتداء غيره وإذاه فهذا بقوته يكر وهذا بضعفه يفر ومع ذلك ففي الماء وتحت الغابة وعلى فروعها وخلال اشجارها محاربة مستمرة بين الطوائف كافة ولو امعنت النظر لوجدت اموراً اخرى غريبة وهي انك ترى انواع المحار مجتمعة متلاصقة منها الكبير ومنها الصغير ولا تسأل عما جاورها ولا تشتغل بما بعد عنها بل هي مقيمة في مقرها غير محتاجة الى الانتقال ولا تخشى من تقلب الاحوال عالمة كغيرها بان الله خلقها ودبر لها رزقها كما دبر لغيرها وبقدرته تعالى جعل لها فماً فتكتفي بما تاخذه من الماء بما يلزم لها في تجديد الهواء وصفاء الدم وغير تلك الانواع والاجناس من المخلوقات ويوجد في البحر عوالم لا يوجد مثلها في البر ومنها الحيوان المسمى بالمرجان فقد قيل انه اول ما ينشأ يظهر فوق حجر من الاحجار القارة في قاع البحر فرع يشبه اصلاً نباتياً مسكون بحيوان ثم يخرج غيره ويذهب مثل الاول وهكذا فيتكوّن على طول الزمن وتوالي الطبقات عود المرجان وقد شوهد فرع من هذه الفروع عليه حيوان صغير جداً شكله الظاهري يشبه زهر النبات في شكله ولونه ومن دأبه ان يخرج من الحجر ويعود اليه وهذا الحيوان وإن كان صغيراً جداً لكن يفعل .

ما تحار فيه العقول فانه تارة يصنع بيوتًا فترتفع من قرار البحر الى سطح الماء ويمد طبقات وما يستعين به في عمل تلك البيوت من المؤنة لا علم للانسان به ولا بكيفيته ولا تركيبه فسبحان من خلقه وابدعه وفي قرار البحار اودعه وبسبب حسن شكل هذه المنازل الفاخرة والوانها العجيبة الزاهرة اشتغلت بها افكار الخلق في جميع الازمان ونتج من ذلك خرافات كثيرة ومن المستغربات ان هذا الحيوان الدقيق لا يصنع بيته في المياه ذات اللجج الكثيرة الامواج ويبعد عن المياه الكدرة والراكدة واول اساس يصنعه في عميق الماء ومن سنة الى اخرى وقرن الى قرن اخر يصل الى ان يختط بمساكنه وبيوته الصخرية سعات عظيمة من قاع البحر وفي بعض الجهات يوجد داخل هذه الصخور بحيرة متسعة لا يكون للرياح ولا للامواج عليها ادنى تأثير وتكون في هدء وسكون دائمين ومن عادة هذا الحيوان ان لا يعلو بمسكنه سطح الماء وذلك لانه متولد منه فهو ملحق بالحيوان البحري ولا طاقة له بمقابلة الهواء والشمس وكثيرًا ما ترى هذه الصخور في البحر عند دائرتي الانقلاب في صور واشكال عجيبة ويرى في وسطها هذه البحائر الراكدة وحولها الامواج الهائلة تتصادم وربما سمع للبحر قرقعة ودوي عظيم وفي داخل الادوار التحنية وعليها تجلب امواج البحر حبوبًا وحشائش من اجناس متنوعة فيها بيض طيور مختلفة الجنس وكثير من انواع الحشرات والطيور يأوي اليها وتربي بها صغارها مع الامن والراحة

التامة وبعد زمن ترتفع فوق الماء وتتكون تلك الحشائش جزيرة وارضًا يسكن بها الانسان ويعمل بها آثارًا عجيبة فانظر لحكمة الله وعظمته

فقال الشيخ قد اكثر الناس من وصف العجائب البحرية ونقلوا انها اكثر من العجائب البرّية وما ذلك على الله بكثير فاشد الاشياء قوة واكبرها جسمًا لا يزيد في الخلق على الضعيف الصغير وقد اختلف الناس في كثير من الاشياء التي تجلب من البحر. كالعنبر فمن قائل انه بعض فضلات حيوان بحري استحال الى صلاح كاستحالة الدم لبنًا في البهائم ومسكًا في بعض الغزلان ومن قائل انه صمغ نبات ياكله ذلك الحيوان فيبقى الصمغ في فمه فيلفظه وتجده الناس في السواحل. ومن قائل انه مادة تتكون بنفسها في قاع البحر وتبلغ مقادير عظيمة حتى تصير كالصخور فيبتلعها الحيوان المشهور عند اهل عمان ونواحيها بالافال وهو الذي تسميه العرب العنبر فاذا ابتلعها قتلته وعند ذلك يطفو على وجه البحر فيراه اهل تلك الجهات فياخذونه ويستخرجون تلك المادة من جوفه وتارة يهيج البحر فيقذف بالعنبر على السواحل واهل الشحر من بني مهرة وهم الذين تنسب اليهم الابل المهرية يركبون ليلًا في طلبه فيقال ان النجيبة من ابلهم اذا احست بالعنبر بركت فيطلبه راكبها وياخذه وذلك الحيوان الذي يقال انه يبتلع العنبر ربما يبلغ طوله اربعمائة ذراع فاكثر ويروى ان جيشًا من الصحابة بعثهم النبي صلى الله عليه

وسلم الى ناحية ساحل البحر فنفد زادهم فبينما هم يوماً يتنظرون رزق الله اذا هم بذاك الحيوان طافياً على وجه الماء فاخرجوه واكلوا منه ثمانية عشر يوماً وماءوا مزاودهم واجربتهم من شحمه وقديده وحين ارادوا الانصراف الى المدينة امر امير الجيش ان ينصب ضلع من اضلاع تلك السمكة فكان كالقنطرة ومر تحته اطولهم راكباً ناقته ولكن كثرة الخلاف في الشيء تؤدي الى الجهل به او الشك في حقيقته . وكالمرجان مثلاً فقد نقل عن ارسطو انه نبات وعن غيره انه معدن من قبيل الياقوت والماس والمغناطيس وانه يستخرج من سواحل افريقية ونقل المفسرون عند قوله تعالى (يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان) عن ابن عباس ان المرجان صغار اللؤلؤ وان كبار اللؤلؤ يسمى درًا وعن ابن مسعود ان المرجان الخرز الاحمر فهذه هي الكلمات الدائرة بين الناس في امر المرجان انما حيث كان سر الحياة سارياً في جميع الموجودات حسب استعدادها وما يناسب موضعها فلا يبعد شيء مما قيل فيها ومن ذلك ما يحكى ان السمند حيوان يشبه خلق الطائر يخلقه الله في النار وبها حياته وله وبر حريري يعمل منه مناديل وان المناديل التي تصنع من وبره اذا علاها الوسخ تلقى في النار فتخرج نظيفة كما كانت وعلى ذلك قول الشاعر

لو أصليَ الياقوت نار صبابتي * لتغيرت احواله وصفاته
او قرب الطير السمند لمهجتي * لقضى عليه وعطلت حركاته

فيكون ما حكيتم في المرجان ليس موضعًا للانكار غير ان صورته وكونه فروعًا واغصانًا تخرج منها ازهار تقرب القول بانه نبات

فقال الانكليزي يا حضرة الشيخ ان اعتقاد الاورباويين كان كاعتقاد الامم الماضية انه نبات كما هو مذكور في كتب اليونانيين والرومانيين والهنود والصينيين وغيرهم فجميعهم كان يزعم انه نبات ينبت في قاع البحر لينًا ثم يتجمد وفي حالة كونه في الماء تفعل فيه الامواج كما تفعل الرياح بالاغصان البرّية فيتمايل نحو الشمال واليمين وجميع الجهات لكن لا يخفى على حضرتكم ان كثيرًا من الاعتقادات القديمة بطل الان بالكلية بسبب الاستكشافات الجديدة وكذلك كثير من الامور النظرية والقواعد العلمية صارت لاغية لا اعتداد بها بسبب ما حصل من التقدم واتساع دائرة معلومات الخلق فبعضها وجد باطلًا لا اصل له والبعض هجر واستعيض عنه باحسن منه ومن ذلك مسئلة المرجان وحقيقته وكيفيته ففي اوائل القرن الثامن عشر للميلاد اخبر احد علماء ايتاليا انه استكشف زهر المرجان وانتشر عنه ذلك في جميع البلاد وكتب به مرسوم الى مجلس العلماء هناك وارسل مع المرسوم فرع منه وعليه ازهار وبناء عليه ظن العلماء حين ذاك انه قد أزيل الشك واتضح الحق وثبت عندهم ان المرجان نبات لانه لو لم يكن كذلك كيف يكون وجود الازهار به ثم في سنة ١٧٢٥ احضر احد حكماء الفرنسيس

في سياحته من سواحل الافريقيا صيادي المرجان فاخرجوه له فاطلع عليه وامتحنه امتحانًا تامًا بان وضعه في اجّانة وملأها بالمياه البحرية ونظر اليه بالنظارة المعظمة فرأى حيوانات كثيرة خرجت منه حية وتجمعت فكادت تشبه الازهار فمن ذلك ظهر له ان الازهار التي اشيع عنها انها اغصان المرجان عبارة عن هذه الحيوانات الصغيرة وان المرجان لم يكن الّا بيوتًا تصنعها هذه الحيوانات لمأواها ولما ثبت عنده صحة ذلك بالامتحان اعلن به مجلس العلماء فشاع ذلك بينهم لكن لم يصدقوه لجزمهم بصحة ما قاله لهم التلياني اولاً ومع ذلك فقد اشتهر بين الناس ما ظهر للحكيم فصدقوه لانه لم يقل ذلك الّا عن امتحان فتبين من ذلك صحة قول الحكيم من ان الازهار لم تكن الّا عبارة عن حيوانات صغيرة جداً تظهر على ظاهر العود متى غمر بماء البحر المالح بعد اخراجه من البحر فعند ذلك يظهر فوق سطحه نقط شكلها نجمي مركب من ثماني اوراق منفصلة عن بعضها في اخر كل ورقة شعور دقيقة كالاهداب فمن ذلك الوقت بطل الاعتقاد القديم وثبت عند الجميع ما قاله هذا الحكيم فتراه يتفرع فروعًا كفروع الاشجار الصغيرة لونها احمر وصلابتها كصلابة الحجر الاصم قابلاً للجلاء ومقطعه يشبه مقطع بعض النباتات مركب من طبقات ثلاثية متحدة المركز وما يكون منها نحو الظاهر هش قليل الصلابة لونه احمر وفيه عيون صغيرة هي مساكن تلك الحيوانات وما يكون

منها نحو المركز صعب قابل للكسر وهو الذي تستعمله الصاغة والجوهرية فهذا في الاصل حيوان واحد نبت فوق صخرة فتولد منه غيره ومن الغير غيره وهكذا حتى يتكون فرع صلب لا تتغير صلابته في قاع البحر ولا في الهواء بل صلابته فيهما واحدة كما قيل والحيوان المذكور اسطواني الشكل ابيض اللون يعلو طرفه ثمانية افرع على كل منها شعرات خفيفة دقيقة جداً وفي الغالب تكون الفروع او الاوراق متحركة ولكثرة احساسها تنطبق وتنضغط بعض الاوقات اذا كان التأثير الواقع عليها كبيراً وتغيرت اتجاهاتها وتارة تنطبق على الجسم ويظهر في وسطها ومن اعلاها فتحة صغيرة كشفتين هي فم ذلك الحيوان ومنه يتجه داخل الجسم قضيب اسطواني يمتد الى وسطه بحيث يرى كانه معلق به وارتباطه من الفم بثنيات واصلة من فروعه الثمانية بالانتظام وكل من هذه الثنيات مقابل لاحد الفروع على الاحكام فالجزء الظاهر هو ما يسكنه الحيوان وبينه وبين الجزء المركزي علائق قوية من حيثية التغذية والتكوين لانه مركب من منسوج دقيق محيط بالجسم ومن انابيب مختلفة الغلظ فالاكثر غلظاً ملتصقة بالمركز والاقل منها فوقها والمنسوج فوق الجميع والمادة الغذائية تصل اولاً للمنسوج الظاهري ومنه الى ما تحته وهكذا حتى تصل الى المنافذ الملاصقة للمركز بمعنى ان المادة المكونة له لا تصل الى المركز الا بعد استيفاء كل قناة ومنفذ قسطها فتمر من السطح الى ما تحته الى المركز بكيفية

قدرها الحق جل جلاله وعز شانه وكماله فيتكون منها هذه المادة اللطيفة واللون العجيب

ومن تكرر الاستكشاف ظهر ان الحيوانات المكونة للفرع الواحد تارة تكون من محض الذكور وتارة من محض الاناث وقد يتحد الذكر مع الانثى في الفرع الواحد وان الانثى تقذف بيضها من فمها ففي المبداء يكون ديدانًا صغيرة جدًا ثم يبتدئ في التجسم واخذ الشكل الحقيقي شيئًا فشيئًا وكما يوجد المرجان بافريقا والاندلس كذلك يوجد بسواحل ايتاليا وفرانسا وكيفية استخراجه عند الجميع واحدة تقريبًا وذلك ان المركب المخصصة لذلك مصنوعة بغاية الاحكام وكذلك الاشخاص المستعدة لاخراجه اولوا قوة لمعاناة المشاق لانه يحتاج لتجربة وتعوّد على معرفة محاله واما الآلة المستعملة لذلك فهي عبارة عن صليب مركب من قطعتين من خشب معلق بها حجر ثم يربط فيها الشباك المعدة لذلك ويعلق في ذلك خطاطيف لتمسك جميع ما يعثر بهِ فاذا ظن الصيادون وجوده بمحل رموا شباكهم فيه ثم يسيرون الى امام او خلف ومعهم دواليب لرفع الآلة بكيفية يعلمونها فيأخذون ما تعلق بها وينظفونه

المسامرة الثامنة عشرة
في البراكين

وبينما هم يخوضون في هذا الباب ويتأملون في صنع رب الارباب واذا بالملاحين ومن بالمركب من المسافرين يشخصون بابصارهم الى جهة من الافق وقد كثر بينهم اللغط وكأنما رأوا شيئًا من السماء سقط والبعض ينظر ببصره والبعض بيده نظارة فلاح من الشيخ التفاتة فنظر الى الجهة التي ينظرون اليها فرأى دخانًا كثيفًا صاعدًا الى السماء مختلطًا بلهب ولبعده كان يظهر لهُ انه يخرج من البحر فدهش من ذلك وعن مسألة المرجان اعرض وسال الانكليزي عن هذا الذي في الافق تعرّض

فقال له ان هذا الذي رأيته دخان يخرج من احد الجبال النارية ويعرف بجبل اتنا عند اهل الجغرافية وهو بالقرب من جزيرة تعرف بجزيرة سيسيليا وهي صقلية وهناك جبال اخرى بالبحر الابيض بعضها طفيء من زمن والبعض متقد الى الآن مثل جبل ويزوف بالقرب من جزيرة تعرف بجزيرة سردينا

فقال الشيخ قرأت في بعض الكتب فوجدت فيها نحو ذلك وهو ان برّية من الشام تفجرت وخرج منها دخان اقام بعض ايام ثم طفيء وسمعت من بعض اخواننا الواردين على الازهر

من البلاد المشرقية ان ثم جبالا شاهقة منها جبل يسمى دبقاوند ويقال دماوند لا يزال يخرج منها النار ويشتد في بعض الاوقات دون بعض سيما ذلك الجبل فانهم يخبرون عنه ان فيه اثنتي عشرة فوهة يسمع منها دوي كدوي الرعد يخرج منها رياح شديدة الحرارة لا يمر بها شي الاّ اهلكته غير ان لها سكوتا في بعض الاوقات وربما ترصد ذلك من يغرر بنفسه من المشتغلين بالكيميا فيصعد اليها للبحث على كبريت ذهبي صاف يوجد هناك يعتقدون انه يدجل في الصنعة ويصفون ما يشاهدون هنالك من عجائب صنع الله تعالى

واهل مصر لعدم تعودهم على الاسفار وعدم وجود مثل هذه الحوادث في تلك الديار لا يوجد عندهم بهذا خبر ولا يصل اليهم منه علم ولا اثر لما ان بلادهم بلاد الرحمة قد خصها الله من فضله بالنعم الوافرة والالطاف الجمة المتكاثرة

فمن نظر لهذا الجبل وهذه النيران وعلو لهبها وكثرة الدخان الذي سد الافق وحجب ضوء الشمس أقر بقلبه واذعن بعبوديته لربه فسبحانه ما اعظم شانه.

فقال الانكليزي وفي هذه الجزيرة ايضًا جزء غير مسكون وهو ما قرب من الجبل وباقيها معمور بالناس وفيها كثير من الحيوانات وانواع النباتات وبسبب اعتياد الناس على هذا الجبل صار خروج النار منه عندهم كالعيون والآبار من الامور العادية.

وهذه النيران وان كان يحدث منها مضرات لمن جاورها في بعض الاوقات لكنها لا تخلو عن حكم اختص بها من هو بها اعلم ولهذا الجبل اوقات تهب فيها النيران فتاخذ سعة من الارض تكبر وتصغر على حسب قوة الهيجان وضعفه ثم بعد ايام تسكن ولا يبقى الا دخان وبعض لهب كما هي حالته الآن بخلافه وقت هيجانه فانه يكون في حالة فظيعة وصفات مستغربة ترتج منها الارض ويسمع لها دويّ وقرقعة على بعد عظيم وفي هذه الحالة تقذف مواد فترتفع الى الجو ويعلو اللهب والدخان حتى لا يدرك البصر غايته ومن شدة هوله تظن سكان البقاع المجاورة لهُ زوال بلادهم وخسفها ومن شدّة رعبهم يضطرون الى الفرار وقد ذكر احد سكان الجزيرة حالة الجبل في شدة هيجانه فقال بينما انا في قرية بالقرب من هذا الجبل والناس مشتغلون بامورهم وكان ذلك في شهر اغسطس الافرنجي سنة ١٨٦٣ واذا بارض تتزلزل وترتج والجبل قد انفجر من اعلاه وخرج من فوهته مواد سائلة فكانت تسيل على سفح الجبل فهدمت منزلاً كان هناك يعرف بمنزل الانكليز وكنت ارى قطعاً عظيمة حجرية تصعد من الفوهة ثم تنزل وتنحدر الى سفح الجبل وكان يخرج مع الدخان تراب ناري فينزل على سفح الجبل وبسبب ضعف القذف كان يقع في فم الفوهة فكانت تعطل المواد وتحبسها ولذلك انفتح الجبل من جوانب الفوهة وخرج من كل فتحة دخان ولهب ومواد

فكان ذلك امرا عجيبًا ومنظرًا غريبًا خصوصًا في الليل فكانت الاشكال التي ترسمها المواد المقذوفة ترى بصور تشبه الصور التي تحدث عن الصواريخ في ليالي المهرجان والافراح واستمر على هذه الحالة الى اوائل شهر يناير سنة ١٨٦٥ فازداد تزلزل الارض وتموجها في الجزء الشرقي من جزيرة صقلية وانفتحت في طول الفين وخمسمائة متر في راي العين وخرجت منها المواد المحبوسة من فتحة مستطيلة ثم في اواخر الشهر المذكور اجتمعت قوة الهيجان في نقط من خط الانفجار فتكوّن عن تراكم المواد المقذوفة عدة تلال منها ستة كبيرة والجميع كان بحافة المزق وبسبب توالي المواد السائلة والرماد والكتل النارية وسقوطها من فوق تلك التلال الى الارض تجمع اكثرها ببعضه وصار كسلسلة جبلية غير منتظمة ثم انقطع خروج النيران من كثير من نقطها وبقي في البعض فكان يشاهد كأن الفوهات العليا تقذف كتلاً جسيمة متجمدة وان الفوهات السفلى تقذف نارًا ولهبًا ومواد سائلة على شكل مستدير حول الفوهة الاصلية فاستمر الجبل على ذلك ثم سكن هيجانه بعض سكون وصار لا يرى فيه الاّ دخان وبعض لهب في بعض الاوقات وفي بعض الايام كان يسمع تحت الارض هدة وارتجاج ودوي كدوي الرعد وبعض تموج وتزلزل مزعج ويمتلاء الجو بالدخان ويتغير لونه وتحجب الشمس وكان يسمع على بعد اصوات متنوعة وباختلاطها مع

اصوات المواد السائلة كان يظن قيام الساعة ويلحق الخلق رعب كثير وبعد زمن خشع ذلك وصار بعد ان كانت المواد المقذوفة تصعد الى الجو الفاً وسبعمائة متر تنازلت الى مائة متر ثم حصل الهدء كالاول وقدر بعض العلماء المواد المقذوفة من فوهاته في الستة ايام الاول فوجدوا ان الجبل اخرج في كل ثانية تسعين متراً مكعباً وكانت سرعة سيلان المواد في الدقيقة الواحدة نحو ستة امتار وكلما بعدت عن فم الفوهة تجمدت وقلت سرعتها فتكوّن عنها في جميع جهات الجبل اخاديد وتفرع من كل اخدود فروع ومنها غيرها وهكذا وقدرت مساحة بعض الاخاديد فوجد منها ما عرضه ثلاثمائة وخمسين متراً في المبداء وعمقه خمسة عشر مترا وبعده عن فم الفوهة ستة الآف متر وفي بعض الجهات كانت المواد تقع في اودية ووهدات منخفضة من الارض فكان يسمع لها دوي كدوي المياه عند انصبابها من الشلالات وقد قيس بعض تلك الوهدات بعد ان طفئت منها المواد السائلة فوجد عمقه خمسين مترا وبلغ امتداد بعض الفروع عشرة الآف متر في الطول وفي وسط شهر فبراير ضعف سير المواد السائلة المتخللة بين الصخور فكان يظن سكون الجبل فينفجر ثانياً على حين غفلة بالقرب من فوهته الاصلية ويملا من المواد المقذوفة اودية واراضي واسعة فيتلف كثيرا من اراضي الزراعة والمساكن المنفصلة عن البلاد وعدة كفور كانت بالقرب من هذه الجهة

وكثير من المزروعات واحصي ما تلف من الاشجار التي كانت هنـاك فبلغ مائة الف شجرة وتكوّن من لهب ودخان ما حرقته هذه المواد مع لهب ودخان الجبل شعلة كان الملاحون وسكان السواحل يرونها في البحر مسير عدة ايام وحصل لاهل صقلية من ذلك ما لا مزيد عليه من الضرر وحزنوا حزنًا شديدًا على ما تلف من غاباتهم واراضي زراعتهم التي هي سبب سعادتهم وهذا الهيجان والاضطرام الذي شرحته لحضرتكم لم يكن شيئًا بالنسبة لما هو مذكور في اخبار هذا الجبل العجيب فان المؤرخين ذكروا انه هاج خمسًا وسبعين مرة في ظرف الفي سنة واقلها حصل عنها امتداد المواد المقذوفة الى عشرين الف متر اعني ضعف ما حصل في هذه الدفعة الاخيرة وستر من اراضي الزراعة ما ضلعه مائة الف متر وكانت في الازمان السابقة معمورة بالزراعة والناس وعليها من المدن والقرى عدد كثير ولم يزل يكتسب الجبل ارتفاعًا وامتدادًا حتى صار قدر مجسمه الاصلي اربعة الآف مرة

فقال الشيخ مقتضى ما ذكرته ان ياتي زمن تنعدم فيـه هذه الجزيرة بالكلية لما انها في كل هيجان يتلف كثير من سكانها ومساكنها وتنعدم خصوبة ارضها

فقال الانكليزي لا يمكن الجزم بذلك لان كثيرًا ما شوهد في بقاع الارض جبال نارية مثل هذا الجبل او اعظم منه في الهيجان وبعد عدة قرون بردت وسكنت سكونًا تاما الى الآن

وجرت بها عيون وانهار ونبت فيها زروع واشجار وسكنها الانسان والحيوان فكذلك هذا الجبل يمكن ان يأتي عليه زمن يحصل فيه التوازن بين القوى الفعالة تحت الجبل واثقال المواد التي قذفها فيطفأ كما طفئ غيره من قبل وربما يحصل لارض الجزيرة اتساع عن حالتها الاولى وبما تكتسبه في كل هيجان في المستقبل تكون في حالة احسن وتكون حالة من يسكنها الطف من حالة سكانها الآن كما شوهد ذلك في كثير من امثالها

فقال الشيخ اني لاعجب من ارض تثمر وبها اشجار تزهر غاصة بالنبات والانسان ويخرج من جوفها هذا اللهب والدخان وهذه المواد السائلة التي تشبه في اندفاقها اندفاق الماء من اعلا الصخور والنابع من عيون الارض فمن اين تخرج هذه المواد وما مستودعاتها الحقيقية فهل جوف الارض مملوء بهذه المواد وهل ذوبان المواد الصلبة منسوب لاسباب دبرت بالقدرة الالهية والحكمة الربانية فتؤثر علي المواد الجامدة فتذيبها في جوف الارض فان كان كذلك فما كيفية انقذافها بهذه القوة الى ظاهرها ولاي شيء يخرج من بقعة دون اخرى وعلى قول اهل شريعتنا وملتنا لا يسعنا الا ان نقول تحيرت الالباب في صنع رب الارباب وانه لا يحصل لاحد على هذه معرفة ولا وقف الا بطريق الولاية والكشف واما على طريقتكم ومقتضى فكرتكم فهل وصل انسان لمعرفة حقيقة ذلك وشرح احوال هذه الحوادث كما وصل لشرح غيرها ولاى شيء

يسكن الجبل تارة ويهيج اخرى ولم كانت الاسباب الفعالة غير مستديمة بل تقوى تارة فتظهر وتضعف اخرى فتستتر وقد ذكرت لي انه شوهد جبال بقيت زمانا تقذف من جوفها نارًا ودخانا ثم طفئت وسكنها الانسان والحيوان من بعد وصارت بالحيوان والانسان معمورة وبالنبات ورونق البهجه مغمورة فاما ان تكون انتقلت عنها اسباب الهيجان الى غيرها او انها عدمت دفعة واحدة او تدريجًا في مستقرها حتى لا يبقى لها عودة في المستقبل او انها تسكن ثم تعود لحالتها الاولى

فقال الانكليزي انه الى الآن لم يقف احد على حل هذه المشكلة ولا على دليل لفهم المسئلة وغاية ما قيل احتمالات وعلل لم تطرد في نفي ولا اثبات . احدها وهو اعتقاد قدماء سكان هذه الجزيرة وكثير من اهل العلم الآن يعتقده وهو ان مياه البحر تنصب في اغوار عميقة من قاعه وكلما ازداد عمقها ازدادت حرارتها فاذا اشتدت حرارتها انقلبت بخارًا وبعروض حوادث اخرى واسباب خفية تؤثر فيما تلاقيه من طبقات الارض فتخرجه عن حاله وبقوة التأثير المتوالية والقوى الفعالة عليها من اسفل تنقذف الى جهة سطح الارض فتخرج من تلك الفوهات ممتزجة بالمواد التي اثرت عليها في مرورها بين طبقات الارض وتتكوّن عنها المواد البركانية والدخان واللهب وباقي الاحوال التي تشاهد حين صعودها الى الجو وبتأثير الجو عليها تتجمد شيئًا فشيئًا حتى تصير

حجرًا او صخرا يتكون منه الجبال . ثانيها ما قاله بعضهم وهو ان جوف الارض من جهة المركز مشتعل بالنار على الدوام وان جميع المواد ذائبة والابخرة المتصاعدة تخرج بقوتها من الفوهات البركانية . هذا ما قيل ولم يعلم ايها اصح ولكن رجح كثير من اهل العلم القول الاول لقربه من العقل على الثاني لبعده عنه لان المشاهد ان تركيب البخار المتصاعد عين تركيب بخار الماء سواء بسواء

واختبر احد المهندسين ذلك فوجد ان في كل جزء من البخار تسعمائة وتسعة وتسعين جزءًا من الماء والجزء الباقي مواد اخرى كما هو كذلك في بخار الماء وفي الهيجان الاخير الذي حصل في جبل اتنا قدر احد المهندسين الماء الذي تحصل من البخار فوجد ان الجبل يقذف في كل دفعة ٦٠،٠٠٠ متر مكعب وبما انه كان يقذف في كل اربع دقائق مرة ففي مدة مائة يوم يكون مقدار الماء المقذوف ٢١٦٠،٠٠٠ متر مكعب وقد شوهد في مواد الفوهة البركانية جميع المواد التي يتركب منها الماء الملح وغير ذلك فان غالب جبال النار التي استكشفت على سواحل البحر او في الجزائر موجودة الى الآن . منها ما سكن ومنها ما هو على حاله وكثير مما سكن هذه الجبال يخرج منه عيون ماء حارة متفاوتة في الحرارة والتركيب المعدني

والجبال النارية كثيرة جدا ففي البحر المحيط الاعظم وفي

البغاز الموصل الى الاسترالي بارض الهند الصيني مائة وتسعة جميعها يقذف مواد بركانية . فمنها ما يقذف دخانًا ولهبًا ومعادن متنوعة . ومنها ما يقذف رمادا ناريا . ومنها ما يقذف طينا . وفي الغالب يترتب على هيجانها انخساف اراض وابتلاع مدن باهلها وسكان هذه الجزيرة دائمًا في رعب وخوف لما يحصل لهم من هذه الحوادث المهولة

وفي جهات امريكا يشاهد خروج اللهب والدخان والمواد البركانية من فوهة جبل مستلى المرتفع عن سطح البحر الملح بقدر خمسة آلاف واربعمائة متر ويرى الدخان واللهب من بعد عظيم كانه عمود من نار قاعدته في البحر وراسهُ في السماء يستر ظله جزءًا عظيما من الارض فلا يرى عليها لاشعة الشمس والضوء ادنى اثر ويوجد في ارض مكسيك اكثر من ثلاثين فوهة

وفي مواضع كثيرة من جهة امريكا لا تزال الارض في تزلزل واضطراب وفي بعض اوقات تنفجر ويخرج منها لهب وجميع هذه الجبال يشبه بعضها بعضًا في هذه الحوادث . فمنها ما يقذف دخانًا ولهبًا واحجارًا . ومنها ما يقذف مع ذلك ترابًا . ومنها ما لا يقذف الاَّ ماء حارًا يرتفع الى السماء ثم ينزل الى الارض

والجبال النارية في ساحل البحر الجنوبي اكثر منها في ساحل البحر الهندي فالجبال النارية لم تزل فعالة بقوة في جهات جزيرة سومتره وجزيرة زالفا.

ووجد في سواحل بلاد العرب والهند اثار مواد نارية تدل على انه مضى على هذه الجهات زمن كانت فيه متهيجة ومتقدة وعرضة للحوادث والاهوال كالجهات التي يشاهد فيها ذلك الان ويوجد ايضاً حول البجر المحيط الاتلنتيكي فوهات نارية بعضها يخرج من جبال سواحله وبعضها من جبال جزائره ولكن براكين هذا البحر في الجهة الجنوبية اقل منها في غيرها عدداً وقد طفئ اكثرها وسكن

وعدد البراكين التي فوق سطح الارض الان في جميع جهاتها بناء على قول العالم (هومبولد) مأتان وثلاثة وعشرون وزعم غيره انها تزيد على هذا وان كانت لا تبلغ مائتين وسبعين لكن لا يخفى انه لا يمكن الجزم بقول واحد منهما ولا ترجيحه لان كثيراً من الجبال سكن زمناً طويلاً ثم هاج وتأجج بقوة اكثر مما كان وبعضها بسبب عظم قوته كان يظن به انه لا يسكن فسكن وطفئ كأن لم يكن ولعدم العلم بقواعد يستدل بها واسباب يستند اليها لا يمكن الحكم باحد العددين بل تزيد وتنقص باسباب واحوال

واما ما كان منها في الازمان السابقة مشتعلاً ثم طفئ فكثير جداً كما علم ذلك من وجود المقذوفات حول الفوهات المتعددة الباقية الى الان

وكثير من الناس يزعم ان غالب الجبال النارية متصلة ضها من تحت قاع البحر ولكن لا قرينة على هذا الزعم بل القراين

تدل على عدم الاتصال وذلك لانه لو كان بينها اتصال لفار الجميع عند فوران احدها والواقع غير ذلك اذ لم يشاهد ذلك في جبال اتنا والويزوف وغيرها من الجبال النارية التي بالبحر الابيض المتوسط لان كثيرًا ما شوهد هيجان جبل اتنا مع عدم تحرك جبل ويزوف مع ان الاول مرتفع عن البحر ثلاثة الاف وثلثمائة متر وارتفاعه اكثر من ارتفاع الثاني ثلاث مرات فلو كان بينهما اتصال وكان منبع هيجانهما واحدًا لحصل الهيجان فيهما معًا وايضًا فالمواد المقذوفة من الاثنين مختلفة ثم ان هول الجبال التي تقذف ماء وطينًا ليس اقل من هول الجبال التي تقذف نارًا ولهبًا بل هي مثلها او اعظم فان ما حصل من جبال النار من الاتلاف والمضار حصل مثله من جبال الماء كما هو مذكور في التواريخ وقد شوهد انه انفتحت فوهة من هذه الجبال بعض ساعات وقذفت ماء وطينًا فاغرقت مدنًا وقرى واتلفت ولايات واغرقت اهلها وصيرتها بعد ان كانت معمورة بالناس واصناف التجارة قحلة خرابًا لا تجد فيها بومًا ولا غرابًا مثل ما اتفق في سنة ١٧٩٢ من الميلاد في جبل بابانريانج اعظم الجبال النارية بجزيرة جافا وهو ان الجزء الاعلى من الجبل تمزق وانقذفت منه قطعة بقوة وارتفعت في الجو ثم سقطت على الارض فاهلكت اربعين قرية باهلها وخرج من الجبل قناة كبيرة من الماء السخن فملأت فجوة كبيرة ولم تزل سائحة في جميع الجهات وفي بعض الاوقات

تظهر فيها عيون تخرج منها طين اسود مختلط بالماء الحار ويرى من جميع مسام الجبل دخان ويسمع له اصوات تشبه صوت المطرقة ولذلك سمي هناك بجبل المطرقة

والجبال الشامخة يندر فيها اتصال سيل المياه والمواد الصلبة بل الغالب فيها ان تكون متقطعة وبعضها لا يقذف الاَّ طيناً او مادة تشبهه كما يشاهد ذلك في جبل (اكوا) اي جبل الماء وهو مرتفع فوق سطح البحر باربعة الاف متر فلا يقذف الاَّ ماء ولذلك سمي بجبل الماء

وكذلك سنة ١٥٤٠ ميلادية فتح فيه فوهة فخرج منها ماء دفعة واحدة فكان سبباً لازالة جزئه الاعلى وتمزيقه ومن كثرة سقوط احجاره وقذف مواده تعدى ضرره الى ما جاوره من البلاد فاتلف اكثرها واضطرت الاهالي لنقل التخت بعيداً عنه وكثير من جبال جزيرة جافا وجزيرة فيليبينه لا تقذف في هيجانها الاَّ طيناً مختلطاً بمواد بركانية واكثره متجمد بمواد قابلة للالتهاب تستعملها الاهالي وقوداً للنار

وفي سنة ١٧٩٢ في جزيرة كنوبو قذف احد جبالها النارية مقداراً عظيماً من الماء والطين فاتلف بذلك جميع الاراضي المجاورة له واغرق خمسةً وثلاثين الف نفس

واكبر من هذه الحادثة ما حصل في سنة ١٧٩٧ في احد جبال دائرة الاستواء بالقرب من كنبو من جهة الجنوب من جبل

تو مجوراحا فقد نقل ان الجبل انشق من اعلاه الى اسفله فتدهدهت منه جهة فاعقبها اندفاق المواد الطينية المحبوسة في جوفه فملأت مسافة هناك بين جبلين وارتفعت الى مائتي متر في عرض ثلاثمائة وحبست المياه التي كانت جارية هناك

وبالتأمل في حوادث هيجان هذه الجبال المائية وكيفياتها والجبال النارية ومقذوفاتها نجد ان لا فرق بينها الاّ انها تارة تقذف من اعلاها وتارة من جوانبها وبذلك يستدل على ان القوى الفعالة في بعضها لا تخالف القوى الفعالة في الاخرى الاّ في زيادة القوى وعدمها

وغالب هذه الجبال لا يوجد الاّ بالقرب من شواطئ البحار وسواحل الجزائر وهي كثيرة والمشهور منها باوروبا الجبال الموجودة في نواحي جبل قامار على ساحل بحر الخزر والجبال الموجودة في جهتي بغاز بانيكالي الجامع بين البحر الاسود وبحر ازوف فما كان في جهة الشرق فمواده طينية مختلطة بغازات نارية وقذفه متقطع وما كان في جهة الغرب ليس كذلك بل قذفه مستمر في أي الفصول الاّ ان قذفه في الصيف أكثر منه في الشتاء وهناك جبال اخر مثل ما ذكر اعرضنا عن ذكرها لاجل الاختصار

وهذه المقذوفات منها ما يكون في فصل الشتاء فتكون المواد المقذوفة طيناً مائعاً لاختلاطها بمياه الامطار ويخرج معها دخان وتكون شديدة الحرارة تتصاعد المياه وتجمد بالسطح ويخرج

الدخان من فتحات بالسطح او يقفل عليها فيرتفع سطحها في هيئة مخاريط تعلو سطح الارض فيحبس البخار الى ان تغلب قوته تماسك المادة فيقذفها ويخرج الى الجو ويستمر الحال على ذلك الى ان ياتي فصل الشتاء فتذوب المواد الطينية وتكون كما كانت في العام الماضي وهكذا

وقد شوهد في بعض جبال البحر الهندي ان هناك ارتباطاً بين اوقات القذف واوقات المد والجزر فيزداد القذف في اوقات المد حتى يسمع له دوي وقرقعة داخل الجبل وربما تكون المواد المقذوفة حارة وفي الغالب لا تزيد على الحرارة الجوية وينقص في اوقات الجزر

فقال الشيخ وهل الى الان لم يصل احد لمعرفة الاسباب المؤثرة في جوف الارض على المواد المتركبة منها طبقاتها حتى انها تقذف تارة مواد جامدة مع دخان ولهب وتارة ماء ومواد طينية وتارة لا يكون الاّ ماء وتارة طيناً يشبه الوحل فلا بد لهذا الاختلاف من اسباب مختلفة لانها لو كانت واحدة لكان خروج الماء بكيفية واحدة وقد قرأت في بعض الكتب فرأيت فيها ان بعض التجار مر ببعض الجبال فرأى فيها عيون ماء بعضها حار وبعضها بارد ولم يكن بين مجراها الاّ مسافة شبر وحكى بعضهم ان هذه العيون منها ما يكون نافعاً للشرب والري ومنها ما لا ينتفع به لتغير طعمه ورائحته وقال بعضهم ان من هذه العيون ما

يكون حاراً جداً لا يستطيع الانسان وضع يده فيه حتى ان بعض القاطنين بالصحاري القريبة من هذه العيون يسوّي طعامه على حرارته فكل هذه الاختلافات تدل بلسان الحال على العجز عن البحث في هذا المجال وغاية ما وصل اليه فهي وتخيلة وهي قياس ما ثبت بالعيان على ما ورد في القرآن من قوله تعالى في كتابه المكنون. الذي جعل لكم من الشجر الاخضر ناراً فاذا انتم منه توقدون. وعلى ما نقل عن العرب من قولهم في كل شجر نار وعلى ما قيل في خشب المرخ والعفار وهما نوعان من شجر البادية اذا احتك منها غصن بغيره صار ناراً فاظن ان نار هذه الجبال وما ينشأ عنها من الاحوال من هذا القبيل وان السبب هو احتكاك بعض الصخور بحكمة يعلمها العليم القدير فتصادف بعض مواد نارية كالكبريت او غيره فينشاء عنها ما ذكر من البراكين

فقال الانكليزي قد ذكرت لحضرتكم السببين اللذين نسب اليهما علماء هذا الفن جميع الاحوال البركانية سواء كانت المواد المقذوفة صلبة او مائعة وهما الماء والنار وان من قال بالاول يقول ان في جوف الارض اخلية عظيمة كالمغارات يعلو بعضها بعضاً وبين تلك المغارات والبحر فتحات موصلة بعضها ضيق وبعضها متسع وهذه الموصلات تارةً تكون متفرقة كالانهر والخلجان وتارةً تكون غير متفرقة وبينها وبين بعضها اتصال وكذلك بينها وبين البحر والفجوات والمغارات وان ماء البحر متى انصب في هذه الموصلات

ازدادت حرارته وكانت كحرارة الطبقات الصخرية التي يمر بها
واستدلوا بالتجربة على ان حرارة الماء تزداد كلما ازداد انخفاضه
في الطبقات الارضية بقدر ثلاثين مترًا فاكثر واذا وصل الماء
في الانخفاض الى عمق الف متر كانت درجة حرارته مائة درجة
ومع هذا تبقى سائلة بسبب ثقل الطبقات التي فوقها ولا تتغير
المياه عن حالة السيلان الاّ اذا سفلت وانخفضت الى الف
وخمسمائة متر فحينئذ تكون درجة حرارتها هناك خمسمائة درجة
تقريبًا بمقتضى الحسابات ويوجد في هذه الابخرة قوة على دفع الماء
الذي ارتفاعه الف وخمسمائة متر ما لم يطرأ مانع وفي هذه الحالة
تصعد الابخرة وتنقذف من خلال الطبقات الارضية وتختلط
بغيرها من الطبقات الصخرية المحترقة الذائبة بالحرارة ومتى بلغت
قوة الابخرة حد العظم في الذائبة من الصخور دفعتها الى اعلا
وقذفتها من الفوهات النارية الموجودة قديمًا ان كان التأثير عند
فتحها نحوها والا اثرت على ما فوقها وفتحت فتحة فيما حاذاها تكبر
وتصغر على حسب القوة الموجودة وربما بلغت ثلاثين الف متر
في الطول ومائة وخمسين الف متر فاكثر في العرض فتخرج
المواد المقذوفة منها الى سطح الارض وبتمادي الزمن وتراكم المواد
المقذوفة من جوف الارض وسقوطها في بعض الفتحات ينسد
معظمها ولا يبقى منها الا فتحة او بعض فتحات وعلى طول الزمن
ينشأ عنها سلسلة جبلية او جبل عظيم او غير عظيم على حسب

الاحوال فان كانت القوى الفعالة قريبة من سطح الارض ودفعت مواد ذائبة الى فوهات البراكين تكون فيها شبيهة ببرك الماء تزيد وتنقص تبعا لقوة السبب وضعفه وكثيرًا ما يحصل كسر الجروف بحسب قوة سيلان المواد المقذوفة على الارض المجاورة وتخرب أكثرها وتارة يكون انصبابها في البحار فتجعل فيها لسانًا ممتدًا الى بعد عظيم من ساحله الاصلي ويتغير شكل شواطئه وبحسب التأثير الواقع على المواد فاما ان تكون صلبة واما ان تكون طينية ويختلف لونها ورائحتها بحسب المواد فان كان التأثير الباطني واقعا على برك من الماء مخزونة في جوف الارض دفعته في هيئة البراكين واسالته كما هي حالة الشلالات وكثيرًا ما وجد في هذه المياه حيوانات صغيرة واسماك لا تعيش

واما وجود الماء الحار باقرب من الماء البارد وعدم صلاحية الاول للشرب وصلاحية الثاني لهُ فسببه ان اصل البارد المياه التي تشربها الارض من الامطار والثلوج وغيرها واصل الحار من المياه السفلية واختلاف طعمها ولونها من المعادن والمواد التي تركبت منها الطبقات السفلية التي مرت بها في طريقها فكيفت بكيفيتها ويجوز ان يكون ما تخيلت بعض الاسباب فانها ظنون متفاوتة قوة وضعفًا



المسامرة التاسعة عشرة
شذور

وبسبب دخول الوقت انقطع بينهما الكلام وانصرف الشيخ ليقضي ما عليه من فرائض الاسلام وبات تلك الليلة متفكرًا في صنع الله متدبرًا في اصناف المخلوقات وعجائب الكون والكائنات وفي كيفية الاسباب المدبرة بقدرة الله وعظمته سبحـــانه وتعالى ووجود هذا النظام في طبقات الارض السفلى وفوق سطحها وفي السموات العلى وان لا حركة الا وهو مبدعها ولا ذرة الا وسبق في علمه مستقرها ومستودعها لا يخفي عليه شيء في الارض ولا في السماء يعلم عدد الرمال ومكاييل البحار ومثاقيل الجبال لا اله الاّ هو وهو بكل شيء عليم

وبينما هو يناجي ربه ويهلل واذا بولده برهان الدين لتقبيل يده قد اقبل وعلى حسب عادتهما من وقت نزولهما بالسفينة في تشاركهما في تعلم اللغة الانكليزية حصلت بينهما المكالمة فيما تعلماه وما اكتسباه من اللغة الانكليزية ولكن كان ولده قد فاق عليه لانه كان طول يومه بين ركاب المركب والمراكبية فكان يسال عن اسم كل شيء رآه وعن معنى كل لفظ سمعه ويكتبه وللطفه ولين طبعه وعذوبة الفاظه وادابه مالت اليه قلوب من بالسفينة

واحبوه ولذكاه فطنته وقوة حافظته كان ما يحفظه في اليوم الواحد يعدل ما يحفظه غيره في ايام فتقدم تقدماً تاماً وحفظ كثيراً من الكلمات والعبارات فاعجب والده حسن حالته فباسطه وسأله عن صحته فاجابه انه بعناية اللطيف الخبير وبركة دعائه في صحة تامة لا يعتريه ملل ولا فتور ولا كسل ثم اخبر والده انه سمع من بعض الركاب انهم في غد يقربون من البر وتظهر لهم المدينة التي هي نهاية مقصدهم وانه من امس اشتغل بكتابة مكتوب الى والدته ويرغب ان يذكر لها فيه بعض نوادر رآها وامور غريبة عن والده وعن الخواجا رواها خصوصاً وقد عثر في السفينة على شخص سبق لهُ اسفار كثيرة في جميع البحار وعاين من اهوالها احوالاً وكابد في اسفاره ما لم يكابده احد ولهُ معرفة بقليل من العربية تعلمه في بعض جهات سواحل الافريقا فكتبت عنه كثيراً مما سمعته وذلك الشخص اسمه جمس اي يعقوب وانه رغب في مفارقة البحر الان وان يتأهل ويقيم في احدى الجهات ليستريح من مشاق البحر لكنه لا يتيسر لهُ ذلك لكونه فقيراً لا يملك شيئاً غير ما عليه من الثياب ولهُ تاريخ عجيب ذكر لي بعضه واخبرني انه يرغب في بقائه عند الخواجا صاحبنا بصفة خادم وهو يرجوك في التوسط له عنده فان فعلت ذلك اكتسبت ثوابه واظن ان الخواجا لا يخالفك فوعده والده بذلك واثنى عليه مكافأة على تذكره لوالدته ودعا لهُ بالبركة ولتقدمه عليه في اللغة الانكليزية

كما تقدم قال لهُ من باب المزاح لا تذكر لوالدتك تقدمك عليَّ في اللغة فضحك برهان الدين وطأطأ راسه حياءً منه فقبله الشيخ بين عينيه وسأل الله ان يفتح عليه ثم انحاز كل منهما الى مضجعه ولما حان وقت نداء الفلاح واسفر نور الصباح قام الشيخ على حسب العادة وصلى ما كتب عليه وقرأ اوراده وكذلك ولده برهان الدين صلى وقرأ ما تيسر من القرآن ثم حضر الخادم لهم بالشاي واللبن على حسب العادة الانكليزية فأخذ كل منهما ما تيسر وبعد ذلك خلع كل منهما ثيابه ولبس ثياباً نظيفة لعلمهما بالخروج من السفينة في هذا اليوم ثم خرجا الى ديوان السفينة الذي هو محل اجتماع الركاب فاقاما بهِ برهة مع الناس واذا بالخواجا قد حضر وحياهما وسألهما عن صحتهما فشكراه

وقال الشيخ ان الذي ذكرته فيما يتعلق بجبال النار وكيفية ثورانها وانواع موادّ مقذوفاتها والقوى الفعالة في جوف الارض وما ينشأ عنها من الحوادث الفظيعة لعجيب ولولا ان الارادة الربانية اقتضت مشاهدتي لهذا اللهب والدخان وسماعي لذلك الدوي والهيجان لم يكن في علمي من ذلك اثر ولا كنت اثق فيه بخبر غير اني كنت رأيت في بعض الكتب بعض كلمات تدل على ان هناك جبالاً شامخة واخرى نارية لكنها كانت غير مفيدة للعلم اليقيني الذي علمته بالمشاهدة وتفصيل حضرتكم وكنت لا ادقق النظر فيها لاني كنت في ذلك الوقت لا ارى لها اهمية

توجب الاشتغال بها وكذلك في بعض الاوقات كانت الطلبة تخوض في هذا الحديث فكان يقع بينهم الاختلاف ويطول النزاع ولكون الجامع الازهر هو المدرسة العامة يهاجر اليها لطلب العلم من جميع الاقطار كجزائر العرب وارض الحجاز وبغداد والعجم والتتر والاتراك والبربر وبلاد السودان والمغرب فكان الكلام بينهم في هذا المعنى يوجب الكفاح بسبب اختلاف آرائهم فمنهم من يعد مثل هذه الحوادث مستحيلاً ومنهم من يجوزه ولا يقيم عليه دليلا ولعدم اهمية مثل هذه المسائل بيننا كنا نرى ان المنازعة فيها والاصغاء اليها لا طائل تحته ومن كان في نفسه على يقين من ذلك لكونه رآها في بلاده كان مجبورا على عدم التكلم فيها بالكلية لانفراده وكثرة الاخرين واذا اضطر الى الكلام فيها قال بقول العموم لئلا يجر نفسه الى ما يوقعه فيما وقع فيه غيره ممن خالف راي الاكثر لانه يوجد في بعض الاحيان من جملة المنكرين بعض من اهل الاعتبار والشهرة ولا يخفى ان مخالفة رأي مثل هولاء ربما توقع في ضرر وقد استولت عليّ الليلة الفكر فلم انم الا قريب السحر فصرفت الزمن في التامل في صنع اللطيف الخبير البديع التدبير من جبال نصبها وفي مواقعها رتبها وبحار ازخرها ولمنافع الناس سخرها وسيرها وفي بطون الاودية وشواهق الجبال صرفها وقدرها ولو اردت جمع ما علمت ضمن كتاب لكان هدية لاولي الالباب الذين يتفكرون في خلق السموات

والارض قائلين بلسان الاعتبار ربنا ما خلقت هذا باطلا انما هنالك قوم كالسوقة ان عرضت لهم بذلك قدحوا في عقيدتي ورموني بما لست فيه فهم اناس دأبهم العناد والسعي في الارض بالفساد لا يميلون للمعارف ولا يحسنون من الاشياء غير الزخارف حظ احدهم ان ياكل وينام ويتزيا بزي اهل الاسلام اذا سمع وصف البحار والجبال قال ذلك لا يثبت الا بمحض الخيال وكل ما ليس في كتاب الله ضلال والاشتغال بهِ بئس الاشتغال غافلا عن قول رب العالمين · وفي الارض ايات للموقنين · وفيهم من يخشى من صولته ويُرْهَبُ من هيبته فربما كان داعية للكتمان وسببًا من اسباب الحرمان

فقال الانكليزي لا يخفى عليك ذم الجهل ومدح العلم وانهما ضدان لا يجتمعان وان الجاهلين لاهل العلم اعداء وهذا امر مجمع عليه بين اهل الملل فلا يتاخر محب العلم عن تعلمه وتعليمه ونشره لنفع اهل وطنه وغيرهم لخوف مضادة بعض افراد او عدم اتباعهم لرايه ومتى كانت الحقايق ثابتة بالبرهان العقلي او النقلي عن اساتذة افاضل فلا عليه من انكار المنكرين وذم الجاهلين فلا يمنعه ذلك عن ارشاد اهل وطنه واخبارهم بما وقع تحت نظره وشاهده خصوصًا اذا كان لهم في معرفته فائدة بل الواجب عليه حينئذٍ الافصاح به واشهاره فانه وان لم يصدقه الكل فقد يصدقه البعض فيكون معضدًا له فتحصل له به المساعدة في نشر معلوماته وعلى تداول

الايام تكثر طائفة اهل العلم وتعلو على طائفة اهل الجهل وتتقدم الملة شيئًا فشيئًا وتوضع البركة في ارزاقها وتتسع ثروة اهلها باتساع دائرة العلم بين علمائها وساسة امورها وتكون كغيرها من الملل المتمدنة . الا ترى ان البلاد الاوروباوية بعد ان كانت في حالة التوحش والخشونة قد انتقلت الى درجات الكمال وبلغت في الاعتبار والسطوة ما لم يبلغه غيرها من الملل . هل لذلك سبب غير اتساع دائرة العلم والمعلومات عند اهلها مع ما اضافوه الى ما تعلموه مما اخذوه من الامم المجاورة لهم خصوصًا ما اخذوه عن اهل الشرق فانا نرى في كتب التواريخ ان حرب القدس الذي امتد زمنًا طويلاً كان سببًا عظيمًا في اختلاط اهل اوروبا باهل اسيا ومن ذلك نشأ اتساع دائرة العلم باوروبا واخذت من ذلك الوقت جميع سبل الثروة في النمو والزيادة ولذلك حصل في جهاتهم للفلاحة والتجارة والصناعة والملاحة التقدم الذي لا مزيد عليه فهذه الواقعة وان تلف بها كثير من الاموال والانفس الاَّ انها كانت سببًا في تقدم اهل اوروبا لانهم تعلموا من المشرقيين ما عندهم من المعارف والعلوم فنقلوه الى بلادهم واشتغلوا بهذه المعارف واستعملوها في ارضهم بمناسبة اقطارهم فمن وقتئذٍ الى الان لم تنقطع سبل الاختلاط بل زادت زيادة بالغة بسبب الطرق والوسائط التي استعملوها لتسهيل السياحة في البلاد البعيدة برًا وبحرًا وازداد بينهم الامن والالفة وما من سنة تمر الاَّ وترى الوفًا من اهل اوروبا

تسيح بالارض فلا يمرون بشيء الاّ رسموه ولا يرون اثرًا الاّ تاملوه وربما شرحوه وفي بلادهم نشروه وبهذه المثابة وصلت اهل اوروبا الى التقدم في العلوم واستكشاف بقاع مستجدة فاستحوذوا عليها وتغلبوا على اكثر البلاد الهندية والصينية وجلبوا بهذه الطرق الى ارضهم جميع خيرات البقاع وجمعوا في بلادهم معارف الملل المتفرقة فوق سطح الارض وفي وسط البحار المتسعة فوصلوا بسعيهم واجتهادهم الى اعلى درجة في التمدن حتى صاروا في عصرنا هذا منفردين باكثر الصنائع متمتعين بين جميع الملل بالرفاهية والحرية التامة. رأيهم في كل امر نافذ وقوتهم ليس لها معارض ولا منابذ ولا شك ان الذي اوصلهم الى هذه الدرجة ليس الاّ العلم وكثرة السياحة اذ لو اقتصروا على معلوماتهم الاولية ومعارف ابائهم في الجاهلية لما وصلوا لشيء من ذلك بل كانوا الان يجهلون كيفية ذرع النبات خصوصًا النافع منه لغذاء الانسان وقوته فانهم انما تعلموا ذلك من المشرقيين كما تعلموا منهم اصول التجارة والملاحة هذا ولم يكونوا في سابق الزمان على ما تراه الان من تحرير العلوم والبحث في مسائلها واستخراج ثمراتها وتضمينها الكتب ونشرها في العالم بل كانوا لا يشتغلون بغير كتب الديانة محظورًا عليهم النظر في غيرها كائنًا ما كان فمن كان يتكلم بخلاف ما يتكلم به القسس في الكنائس ووصل خبره اليهم كان عرضة لانواع مختلفة من الاهانة. فمنهم من مات مسجونًا ومنهم من قتل ومنهم من حرق

بالنار ومنهم من نفي من وطنه فبقي طول عمره في قيد الذل والمسكنة ومع هذا كله فبعد زمن غلبت عصبة الحق لانهم كلما رأى الناس اهانتهم عطفوا عليهم ومالوا بقلوبهم اليهم فزادت شهرتهم ورغبت الخلق في سماع اقوالهم ونصروهم واحتفوا بهم حتى كبر جاههم وعلت كلمتهم وظهروا بمذاهب فاتبعها الناس لما وجدوه فيها من المنافع حتى انتشرت بذلك علومهم لما روأا فيها من الاشياء النافعة والاختراعات المفيدة كالمطبعة فقد اوصلتهم لنشر طرقهم وعلومهم بين الناس وظهرت الكتب من كل فن من جميع الاجناس وتحصل عليها الفقير والغني والذكي والغبي وامتدت بها اغصان شجرة العلم الى اطراف البلاد فاستوى في اقتطاف ثمارها سائر العباد ومن ذلك اخذت العلوم في الاتساع وكثر المخترعون والمؤلفون حتى كان من المشتغلين في كل فرع من العلوم والصنائع والحرف عدد غير متناهٍ وما من يوم الاّ وتظهر كتب جديدة واختراعات مفيدة

فقال الشيخ تبين من هذا الكلام ان المانع من تقدم العلوم والصنائع في البلاد الاوروباوية كان من قبل قسس الديانة العيسوية لكن الامر في البلاد المشرقية والديار الاسلامية على خلاف ذلك اذ ليس في احكام الديانة ما يمنع من التقدم في اي علم من العلوم النافعة دينًا ودنيا بل كتاب الله واحاديث انبيائه وسائر رسله آمرة بذلك وما من نبي من المتقدمين ولا عالم من

العالمين الاَّ وكان له صنعة يتقوت منها

فقد سئل بن عباس عن صنائع الانبياء فقال كان آدم حراثًا وكان ادريس خياطًا وكان نوح نجارًا وكذلك زكريا وكان هود تاجرًا وكذلك صالح وكان ابرهيم زراعًا وكان اسماعيل قناصًا (اي صيادًا) وكان اسحق راعيًا وكذلك يعقوب وشعيب وموسى وكان يوسف ملكًا وكذلك سليمان وكان هارون وزيرًا وكان الياس نساجًا وكان داود زرادًا (اي يعمل زرد درع الحديد) وكان عيسى سياحًا وكان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وعليهم اجمعين مجاهدًا ولذلك قال جعل رزقي تحت ظل رمحي. وكان صلى الله عليه وسلم يقول ان الله عز وجل يحب المؤمن المحترف ومن امسى كالاًّ من عمل يده امسى مغفورًا له

وكان صلى الله عليه وسلم يحث على البكور (اي السعي في اول النهار) في طلب الرزق وغيره من حوائج الدنيا ويقول اللهم بارك لامتي في بكورها . وقال الشافعي رضي الله عنه احرص على ما ينفعك ودع كلام الناس . قال حكيم من دلائل العجز كثرة الاحالة على المقادير وقال بعض الحكماء الحركة بركة والتواني هلكة والكسل شؤم وكلب طائف خير من اسد رابض ومن لم يحترف لم يعتلف . وسأل معاوية سعيد بن العاص عن المروءة فقال العفة والحرفة

قال انس رضي الله عنه جاء رجل من الانصار (اي اهل

المدينة) الى رسول الله صلى الله عليه وسلم يسأله شيئًا فقال له اما في بيتك شي قال بلى حلس (اي فراش) نلبس بعضه ونبسط بعضه وقعب (اي اناء) نشرب فيه من الماء فقال صلى الله عليه وسلم ائتني بهما فاتاه بهما فاخذهما بيده فقال من يشتري هذين فقال رجل انا آخذهما بدرهم فقال صلى الله عليه وسلم من يزيد على درهم مرتين او ثلاثا فقال رجل بدرهمين فاعطاهما اياه واخذ الدرهمين فاعطاهما الانصاري وقال اشترِ باحدهما طعامًا فانبذه الى اهلك واشترِ بالاخر قدومًا فائتني به فاتاه به فاثبت فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم عودًا بيده ثم قال اذهب فاحتطب وبع ولا ارينَّك خمسة عشر يومًا ففعل ثم جاء وقد اصاب عشرة دراهم فاشترى ببعضها ثوبًا وببعضها طعامًا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا خير لك من ان تجيء بالمسئلة نكتةً في وجهك يوم القيامة وكان صلى الله عليه وسلم كثيرًا ما يقول لان يحتطب احدكم حزمة على ظهره خير له من ان يسأل الناس وكان صلى الله عليه وسلم يقول كثرة المسئلة كدوح (بضم الكاف اي قروح) في وجه صاحبها وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول اني لأرى الرجل فيعجبني فاقول هل له حرفة فاذا قالوا لا سقط من عيني

أَفبعد هذا كله يتوهم ان اندثار بعض العلوم والصنائع في بلاد العرب من جهة من سلف من علماء الملة مع انه ما من فن الاّ ولهم فيه التآليف المفيدة ولا حرفة الاَّ ولهم فيها الاختراعات

العديدة ومن زعم في المشرقيين غير ذلك فقد اخرج الحق عن موضعه اما لعداوة او حسد او نحو ذلك بقصد تحويل الافكار عن طريقة الحق الى طريقة الباطل ولم ينكر احد من النوع البشري فضل الاسلام وتقدم اهله في اي الفنون والصنائع فهذا امر لا ينكر وظاهر كالشمس في رابعة النهار بل اظهر لان الاسلام كان سببًا في احياء ما اندرس من الفنون والصنائع وجمع ما تفرق منها في اقاصي المواضع احيا التمدن القديم بدرياق اسراره النافعة وازال ظلمة الكون بانواره الساطعة اذ هو الاساس الحقيقي والمنبع لما يسمونه بالتمدن الجديد المبتدع فلولا دين الاسلام وعلماء العرب لضاعت العلوم القديمة باسرها لانا نرى في الكتب العربية القديمة كثيرًا من المستكشفات التي تعزى الان الى الافرنج ومن تتبع كتب السير والتواريخ وجد صحة ذلك وهل ينكر احد ظهور شرذمة قليلة من بلاد العرب ملكت اكثر بلاد الدنيا في ظرف مدة يسيرة وفي اقل من مائة سنة صارت دولة اكبر من دولة الاسكندر واظهرت تمدنًا ابهى من تمدن اوروبا في عهد اغسطوس اكبر القياصرة ولو نظر لحال العلم قبل الاسلام عند اليونانيين والرومانيين ونحوهم من الهنود والصينيين لوجد انه كشجر بلا ثمر او سحاب بلا مطر فبظهور علماء الاسلام ظهر اصله واتضح وشاع نفعه ورجح وبعد ان كانت الخلق غارقة في بحار الاوهام لا يتخيلون العلوم الاَّ كاضغاث احلام ظهر لهم بظهور هذا الدين

علوم مؤسسة على قواعد حقية واتضح الدليل وتبدد شمل الاباطيل وامتدت اغصان التمدن من ارض الاندلس الى نهر الكنج ببلاد الهند وعمت فوائده جميع ارض الاسلام فكانت الثروة والقوة للمسلمين لتشبثهم بفوائده وتمسكهم باصول قواعده وما من احد من ذوي الاطلاع الاَّ ويعلم ذلك ولا ينكره وبالجملة فينبغي لجميع علماء اوروبا ان يذعنوا للعرب بالتقدم في الفضل والعلم وان كان لم يسمع للعرب اسم ولا ذكر الاَّ من وقت ظهور الاسلام فما يعزى للعرب يعزى الى اهل الاسلام فحينئذٍ يكون الاسلام هو المنبع للتمدن والعلم اذ لم يظهر العلم والتمدن بالبلاد الاوروباوية الاَّ بعد ظهور الاسلام بنحو الف سنة وحيث كان الامر كذلك فحقهما ان لا ينسبا الاّ لاهل هذه الملة. الاَّ انه كما يكون للتقدم اسباب فله موانع وذلك لانا لو شبهنا اهل الملة بالعائلة كان رئيس الملة كرئيس العائلة وكما ان رفاهية العائلة وسعادتها تابعة لحسن ادارة رئيسها كذلك الملة وكما ان تربية الاطفال موكولة الى راي والديهم فكذلك اتساع دائرة الملة موكول الى حسن راي من يسوسها ويدبر امرها وكما تحصل الشورى بين الوالدين في امور العائلة والذرية ويكون تقدمها وعدمه تابعًا لما يحط عليه رأيهم وانه يلزم ان يكون لمدبر امر العائلة علم تام بما يلزمها وما يلزم لها حالاً واستقبالاً وان يكون ذا بصيرة بحوادث الامور وتقلبات الدهور ليبني قوانينهم على قواعد متينة واصول ثابتة مكينة ويسلك

بهم في امر المعيشة الطرق الموصلة الى المطلوب والراحة في الدنيا على الوجه المرغوب فان كان الامر بخلاف ذلك او كانوا على جهل ما يلزم لذريتهم في حال حياتهم وبعد مماتهم او كانوا مختلفين في المعرفة اختلفت آراؤهم واختلت افكارهم واضمحل حال العائلة لعدم اتفاقهم على ما يصلح لحالهم وعن قريب يحيط بهم الفقر ويحل بساحتهم جيش الذل والقهر ويدخلهم في قيد الاسر وسجن الذل طول الدهر ما لم يقيض الله لها من بعض افرادها من يزيل شينها ويزين شأنها فكذلك الملة تابعة في سلوكها طريقة رؤسائها وملوكها وما انحط عليه راي جمهور رجالها فان كانت رجال الجمهور من ذوي المعارف الذين مارسوا الامور واطلعوا على اسباب التقلبات التي حصلت في سابق الدهور قد بيضت الحوادث سواد لمتهم واخلقت التجارب لباس جدتهم وارضعهم الدهر من وقائع الايام اخلاف اخلاق ذريته وعلموا بكثرة الممارسة تصاريف اقداره واقضيته واحاطوا بحوادث اهل ملتهم وحوادث الملل المجاورة لهم والبعيدة عنهم عالمين باسباب السعادة فيحثون الرعية عليها واسباب الشقاوة فينهونها عنها فما وجدوا فيه نفعا لاوطانهم جلبوه او ضررا اجتهدوا في ازالته واجتنبوه كان ذلك سببا في ازدياد البركة وحصنا من الوقوع في مهاوي الهلكة فحينئذ يصفو بهم الزمان ويعيش في ظل عدلهم كل انسان وان كانوا من ذلك بالعكس وقعت الرعيه في العكس بلا لبس فقد قيل عدل

السلطان انفع من خصب الزمان

وكتب بعض عمال عمر بن عبد العزيز يشكو اليه من خراب مدينته ويساله مالاً يرمها به فكتب اليه عمر قد فهمت كتابك فاذا قرأت كتابي فحصن مدينتك بالعدل ونقِّ طرقها من الظلم فانه مرمتها والسلام قال

ولم ارَ مثل العدل للملك رافعًا

ولم ارَ مثل الجور للملك واضعًا

وفي رواية ان عامله كتب اليه هدم الدمص وعدم النمص وان ربضها رابض ومرعى رياضها بارض وانها محتاجة الى عمارة وزراعة وحراثة ومناعة

فكتب اليه عمر ما ذكر (والدمص بكسر فسكون كل صف من حجارة الحائط الا الاسفل فاسمه رهص بزنته والعرق بفتحتين يعمها والنمص بكسر فسكون اثار النبت بعد رعية والربض بفتحتين المراد به الماشية ورابض ضعيف هزيل من قلة المرعى وهي المراد بلفظ بارض)

ومن طالع تواريخ المتقدمين وجد ان جميع الملل في سيرها سائرة بسير مدبر امورها ان خيرًا فخير وان شرا فشر ومن تأمل مصر وما كانت عليه قبل استيلاء المرحوم الحاج محمد علي باشا ونظر الى حالها الآن وجد ان لا نسبة بين الحالين ولا مناسبة بين الزمنين ففي الازمان السابقة كان يندر وجود الافرنج في بلادنا

واما الان فلا اقل من وجود مائة الف نفس وكذلك كان لا يوجد واحد من ابناء جنسنا يتكلم بلغة اجنبية واما الان فيوجد الوف يتكلمون بلغات متعددة ولم يعلم قبله ان احد المصريين سافر الى بلاد اوروبا واما في زمنه فما من سنة من السنين الا والمصريون في هاب واياب من مصر الى اوروبا ومن اوروبا الى مصر ما ذاك الا لتعلم العلوم النافعة والصنائع المتنوعة وذلك خلاف المكاتب الصغيرة التي تراها فوق الاسبلة فلم تكن حالتها فيما تقدم من الزمان كحالتها التي هي عليها الان حيث ضبط ريعها وحفظت من الضياع رباعها وضياعها وتنوعت فيها فنون التعليم زيادة عما كانت عليه في الزمن القديم حتى صارت ملحقة بالمدارس الميرية في الترتيب والمقاصد الخيرية فضلاً عما حصل في هذا العهد من تقدم الزراعة واتساع طرق الفلاحة وازدياد النباتات وتسهيل طرق الريّ في جميع الجهات وكذلك الفنون تيسرت لطلابها اسبابها والصنائع كثرت بين المصريين اربابها وكذا العلماء والاطباء والحكماء الالباء الذين عم نفعهم البلاد واشتهرت مزاياهم بين جميع العباد فبسببهم ارتفعت العاهات وامن القطر من جميع الآفات وبما رتبه من القوانين الصحية ودبره من المواد الطبية تخلص الناس من الامراض والعلل كالجذام والزهري (اي المبارك) والبرص والجرب والجدري وكذلك نشأ من ابناء الوطن مهندسون اعمالهم تغني اللبيب عن ذكر صفاتهم وهكذا في كل صنعة من الصنائع

كالحدادة والبرادة والنجارة حتى صار القطر بهم غنياً عمن سواهم هذا الى من برع من رؤسا في العلوم العسكرية. وعلماء مدرسين في الفنون الحربية كل ذلك وغيره اكثر منه لم اذكره للاختصار ما وجد الاّ بوجود هذه العائلة العلوية احسن الله سعيها وادام سعدها وبعد ان كان امر الملة بيد الاغراب المسلطين عليها بالسلب والنهب وانواع العذاب صار الان موكولاً الى رأي ابنائها فلو لم يمنّ الله على هذه البقعة بهذه العائلة ما كان لما تراه اثر بل كان اهل هذه البقعة كغيرهم ممن جاورهم كالبربر وعرب الشام والحجاز باقين على ما كان عليه اباؤهم واجدادهم من العادات الخالية عن المزية والمعلومات التي تعزى الى الجاهلية فمن ذلك ثبت ان كل ملة تسير خلف مديريها وجمهور رجالها ومدبريها ومعما وصلت اليه الديار المصرية من التقدم لا يخفى ان تربية الملل امر صعب يلزم لها زمن طويل لان هناك عوائد قديمة واخلاقاً راسخة في الاذهان ذميمة وافكاراً فاسدة واعتقادات كاسدة فلا تزول بمجرد بعض التجددات بل تبقى عند الشيوخ ومن قرب منهم في السن الى الممات بل ربما ورثها عنهم بعض الراشدين من الشبان فلا تنعدم بالكلية الا بعد انقراض جميع هولاء او اكثرهم فعلى حكم العقل يلزم التربص الى انقضـــــاء ثلاثة اجيال اعني مائة سنة. او مائة وخمسين سنة وسبب ذلك ان الافكار التي لم ترد في كتب المولفين ولا نص عليها احد من السالفين وكذلك المشاهدات والاستكشافات

الواردة في كتب السياحات التي لم يشتهر للعلماء فيها كلام ولم يتقدم لاحد بها المام ربما تقابل بالرد او المعارضة وعدم التصديق والمناقضة فحينئذٍ يجب القاؤها تدريجاً انما من سعادة الملل قد يظهر لها في بعض الاحيان من يخصه الله بافكار علية ومعلومات ربانية تفوق معلومات البشر فيغير حال الملة في زمن اقل من ذلك بما يدخله من الترتيبات المستحسنة التي تجذب القلوب الى تلك التراتب والتجديدات من الفوائد العامة فتترك اوهامها الفاسدة وتتنازل عن افكارها الكاسدة وتألف هذه التجديدات وفي الزمن اليسير تتغير الاحوال والطباع والعوائد والاخلاق والاوضاع كما هي حالة مصر الآن فان من رآها من منذ عشرين سنة لو رآها الان لا يجد بها ما نظره شيئاً ويرى انها انقلبت وصارت كبقعة من اوروبا مع ان ما جاورها من الاقطار لم يتغير عما كان عليه فهل لذلك سبب غير ادارة وتدبير صاحب الوقت ومشاورته لجمهور رجاله

فقال الانكليزي حاشا ان يكون في فهمي او يمر بوهمي نسبة تقهقر العرب الى الدين المحمدي او انسب اليه المنع من تقدم العلوم النافعة ولو كان كثير من مشاهير بلادنا وعلمائنا الف كتبا كثيرة في معارضة الديانة المحمدية وانت تعلم ان طبعي لا يميل الى البحث في الاصول الدينية ولا الى المجادلة في الاحكام الشرعية وان ذلك ليس من شأني والذي يجري بيننا من المباحث انما

علي سبيل الاستفادة والافادة شان المتصاحبين في الاسفار والمتقاربين في الافكار ان ياتي كل منهما لصاحبه من غامض افكاره بما يسليه من العبارات وان يختار منها ما فيه فائدة مطلقًا سواء كانت من مشاهدات الابصار او من مبتكرات الافكار حتى تتاكد بينهم حبال المودة والصفا وتمتد اليهم اسباب الالفة والوفاء متجافين الجدل متحامين موجبات الملل لان المقصود المؤانسة ولا اكد لذلك من المفاوضة في العلم والمعلومات وازالة كل ما عند صاحبه من الشبهات من غير ضرر ولا اضرار ولا فخر ولا افتخار وحيث قضى الله سبحانه بين الخلق بالاختلاف فلا رادّ لما قضاه ولا خلاف فالاولى عدم الخوض في الاصول الدينية والبحث في القواعد الملية بل نعدل الى علوم سواها ونقتصر عليها ولا نتعداها مما يطيب الخاطر ويسر السرائر ويكمن الحب من الضمائر فاقول ولو ان بعض مؤلفي النصارى اطال الكلام في معارضة دين الاسلام لكن كثير منهم ممن صنف الزم نفسه نصر الحق وانصف حيث قرر وافصح وبرهن على حقيقة الملة المحمدية وشهرتها في العلم على من عداها من الموسوية والعيسوية وقد ترجمت من احد المولفات الافرنجية نبذة في اثبات تقدم العرب ان اذنت لي قراتها عليك

فقال الشيخ لا باس

فاخرج الخواجا كراسة قراء فيها ما نصه



المسامرة العشرون
العرب

انه فضلا عما استفادته العرب بالترجمة من اللغات المختلفة فلهم الفضل ايضاً في استكشافات كثيرة امتدت بها حدود العلم الى الغاية واتسعت بها دائرة التقدم بلا نهاية فكانت العرب هي المقدمة للعلوم في الزمن الخالي والاساس لتقدمها في الزمن الحالي فلولا ان حنيناً ترجم علوم الفلك من اللغة اليونانية الى اللغة العربية في عهد حفيد (تيمورلنك) ما امكن (كبلير) الفلكي ان يوسع قواعد هذا العلم بما اضافه اليه بالبحث والاستنباط من الطرق التي كانت مرسومة من قبل عند علماء الفلك من العرب في كتب شتى ومؤلفات لا تحصى اغلبها الى الان موجود بخزائن الكتب باوروبا ومخبأ لم يطلع عليه احد ولم ينكر احد ان العرب لا غيرهم هم الذين حققوا حركة اوج الشمس وان مدارها ليس دائرة منتظمة وانهم ضبطوا مدة السنة

وكذلك يعزى للعرب اثبات النقص التدريجي الذي يتصف به ميل منطقة البروج واختراع المزاول والربع والساعة الفلكية ذات الرقاص وغير ذلك مما يطول ايراده وهم الذين حرروا كتاب بطليموس الفلكي المعروف بالمجسطي وقياس الدرجة من خط

نصف النهار واليهم تنسب الازياج الفلكية والجداول الجغرافية واختراع خرط للمساعدة على الملاحة وجوب البحار وقد وجدت خرطة منها في سنة ١٤٧١ ميلادية عند المعلم (قان) احد المغاربة الذي كان في ارض (الجوزران) ببلاد الهند وقد اخذه معه وسكود وجاما معرفا بحريا الى مدينة ميلغده بجزيرة زنجبار وكان عند البورق البرتغالي لوحة اي خرطة اخرى من رسم شخص من ابناء العرب يقال له عمر كان يهتدي بها في سفره في بحر عمان والخليج الفارسي

ويعزى اليهم ايضًا من العلوم الرياضية اتصال الخطوط الماسة في حساب المثلثات واستعواض الجيوب بالاوتار وتطبيق الجبر على الهندسة وحل المعادلات التكعيبية

ومن مآثرهم الجليلة ومخترعاتهم الجميلة علم الكيميا الذي كانت تجهله جميع الامم قبل الاسلام وتركيب حمض الكبريت وملح البارود والماء الملكي واستخراج الزئبق وتجهيزه وتجهيز الالكول واستنقاع النبيذ وغير ذلك

وزيادتهم في علم النبات نحو الالفين على ما في كتاب الاعشاب تأليف (دسقورد) واستكشاف التناكح بين النباتات حتى يتولد بين النباتين نبات ثالث مغاير لهما وقد يكون في الشجرة الواحدة صنفان وانشآ بساتين مخصوصة لتنمية النبات والاعشاب وتكثيرها

وفي علم الطب المعالجة بالحزام واستعمال الراوند والتمر هندي والمن وورق السنامكي والكافور في التداوي وتفضيل السكر على العسل في تركيب اشربة الجلبة

وانشآ اجزاخانات ومدارس لعلم الطب وبجوارها شفاخانات لعلاج المرضى ومدرجات لتعليم التلامذة علم التشريح والجراحة بالمشاهدة وتأليف كتب ضخمة ورسائل جمة فيما يتعلق بانواع الامراض الالتهابية والحميات والسموم وغير ذلك من الدآآت وفي انواع الحيوانات مؤلفات كثيرة منها حياة الحيوان للجاحظ وهو يشبه مؤلف العلامة الفرنساوي بوفون وانشآ بساتين لتربية اصناف الحيوانات وتكثيرها

وكذلك لهم في علم الزراعة مؤلفات كثيرة ولهم يعزى استعمال تقاوي المزروعات اثر بعضها كل زمن بحسبه واختراع السواقي ذوات الطوانس والقواديس وبحسن تدبيرهم وقوة اجتهادهم حصل للزراعة نجاح عظيم حتى وفد اليهم من البلاد المجاورة لهم والبعيدة عنهم خلق كثير للاسترزاق والاقامة فزاد بالوافدين عمارهم ونما بهم سرورهم وهم الذين علموا اهل اوروبا زراعة الارز والقطن وشجر التوت الابيض وقصب السكر وشجر النخل والفستق ووزد يابونيا وزهر الكاملي الاحمر والابيض ونبات الهيلون وغير ذلك مما لا حصر له

ولهم في علم السياسة اختراع الاوراق للمعاملة بها بدل النقود

ويعزى للعرب من الصنائع اختراع طواحين الهواء والآلات المتخذة من الزجاج وبيت الابرة وعمل الورق ونسج الحرير وطرق الحديد وسقيه

ومما يدل على شهرة العرب وتقدمهم في الصنائع العمارة التي لم يسبقهم اليها احد فان الاوروباويين لم يتعلموا الصنعة القرطبية المشهورة في الابنية الاَّ منهم

ومما يشهد بفخرهم ايضاً وعلو قدرهم على من عداهم في هذا الفن مساجد الشام وبلاد الاندلس فمنها تعلمت اوروبا عمل القباب العالية والاعمدة المرتفعة وتناسب اجزاء ذلك واحكامه مع الرونق واللطف والتفنن في الاشكال والهيئات وامتزاج الخطوط المستقيمة بالخطوط المنحنية في صور مختلفة خصوصاً بما دخلها من الازهار في تعشيق الخطوط

ولهم يعزى الخط الستيني وتحلية الحيطان بالقيشاني وغيره من انواع الزينة والزخرفة ولم تنكر الافرنج ان دخول التفننات البنائية العربية في بنائهم كالنقش والتمويه ازال ما كان فيها من العمارة الرومانية من الثقل والتشويه فلو قارنا مباني الافرنج الموجودة الان بمؤنهم التي هي نتيجة تقدماتهم ومعلوماتهم بالمباني العربية القديمة الموجودة الى الان لوجدنا مباني العرب في سالف الازمان احسن واتقن

ولما علم العرب ان التجارة من جملة اسباب الرزق بل عليها

مدار معيشة أكثر الخلق اعتنوا بها كما اعتنوا بغيرها ففتحوا الطرق ونظموها وجعلوا لها قانونًا لحفظها وحفظ المارين بها والمترددين وجعلوا بها فساقي للمياه وخانات لقيلولة المارين ومبيت المسافرين ومن ذلك سهل التردد بين الهند وبلاد الصين وبين افريقا وجزيرة صقلية وبلاد الاندلس والمغرب وحصل الامن ومبادلة مصنوعات البلاد ببعضها فانتفع كل بلد بما عند الاخر فلم يزل البيع والشرا متصلاً بين اهالي جميع اقسام الدنيا القديمة خصوصًا في الارز والسكر والقطن والزعفران والعنبر والعاج والتبر الزنجباري وبلور الصخور واسلحة دمشق وطليطلة وجلود النمور وطقوم خيل الحمل والمشال والسروج والجلود السخنيانية القرطبية والجوخ المصنوع في كورة بجميع الوانه والجلود والاقمشة والسجادات الفارسية والشامية واقمشة الحرير واصناف الكشمير ومنسوجات الموصل والعقاقير الطبية واذا تتبعنا احوال متقدمي الاسلام ومشاهير امرائه والحكام لم نجد احدًا منهم الاَّ ولهُ حرفة يتقوت منها او صنعة لا يستغني في معيشته عنها علمية كانت او عملية سواء في ذلك الكبير والصغير والمامور منهم والامير فاصحاب العلوم توضح الطرائق وتزيل العوائق وارباب العمل يتبعون ما رسموه وبينوه ويعملون على مقتضى ما استحسنوه وحيث كان القرآن الشريف حاثًا على العمل والسعي في طلب الرزق حتى كاد يعد فرضًا خصوصًا وقد مدح التجارة والصناعة لم يبق عند العرب

اوهام بالنسبة لاتضاع الصنعة وشرفها فلم يكن احد منهم يرى انه
اشرف من غيره ولا انه قروي وذاك مدني ولا انه فقير وذاك غني
بل كانوا جميعًا لا يرون الفضل الا لمن اتبع سبيل الرشاد
فكانت الصنائع تشرف بهم لا انهم يشرفون بها بخلاف الجاري
في البلاد الاوروباوية والديار النصرانية فشرف الرجل عندهم
بقدر شرف صنعته فلذلك كانت رجال الدولة الاسلامية وقادة
الجيوش وروساء الاقلام لا يبالون باسماء صناعتهم حيث تيسر
لهم بها في الدنيا امر معيشتهم كالخياطة والعطارة والجوهرية فكان
ابو بكر بزازًا وعمر رضي الله عنه دلالاً وعثمان رضي الله عنه تاجرًا
وكان علي لصغر سنه ساعيًا في خدمة ابن عمه صلى الله عليه وسلم
ولما كبر كان يجتلب الوقود للصاغة احيانًا فعلى مقتضى الشريعة
المحمدية يلزم كل انسان اميرًا كان او مأمورا ان يقتات من عمل
يده وهكذا كان كثير من الخلفاء والصالحين والعلماء العاملين
ففي سنة ١٧٥٤ ميلادية اعني في عهد قريب منا كان السلطان
محمود الاول جوهريًا وكان يصرف ثمن مصنوعاته في ماكولاته
وما يلزم لهُ وكلما اكثرنا البحث في الكتب وتتبعنا اثار العرب
وجدنا لهم من التمدن الحسن وحسن الاختراع ما يبهر العقول
ويتعسر على غيرهم اليه الوصول فمن ذلك استعمال خيل
البريد لسرعة الانتقال متى شاؤا بثغور بلاد الاندلس من
الحدود الفاصلة بلادهم من الهندستان والصين واعظم من ذلك

البوسطة لتوصل المكاتبات الى البقاع الاسلامية كافةً وكانوا يجعلون على الطرق جنوداً منتظمة لحفظ المارة والتجارة من امتداد يد اهل العدوان من المفسدين والعربان وعلى السواحل فنارات تهتدي بها السفن في سيرها في البحار ونحو ذلك من محاسن الاثار

وبالجملة فلم ترَ العرب شيئاً الاَّ عملته ولا فناً نافعاً الا تعلمته فمن ذلك الاشارات الرمزية المستعملة الآن لتوصيل الاخبار السرية وكانت الدروب والطرق داخلاً وخارجاً لا تزال مطروقة بامم مختلفة في تحصيل الضروريات المعاشية والاسباب التجارية ونحو ذلك من المصالح الدنيوية والمقاصد الدينية كالحج الى بيت الله الحرام والسفر لزيارة الصالحين وصلة الارحام وكان بكل مدينة دفاتر لحسابها وقضاياها وديوان يضبط امور رعاياها وعسس يطوف بالليل الى الاشراق وملاحظون بالنهار لما عساه يحصل بالاسواق ومحتسبون لضبط الميزان والمكيال ومواخذة من طفف بقدر ما يرونه من انواع النكال

واما ادارة الحكم في جهات المملكة فلم يكن القائم بها واحداً بل كان السلطان يامر في كل جهة بانتخاب مجلس من اهلها فيقومون بتدبير ما يرونه من المصلحة ومع حصرها في مراكز معينة فكان يرتب لها مأمورون يمرون بالاقاليم ويلاحظون ما بها من المزارع وغيرها وينبهون على ارباب الخدم والوظائف

باداء الواجبات في اوقاتها وتحصيل اموالها وتجيز ما فيه مصلحة لاقواتها وكانت حكام الاقاليم ملزمة في كل شهر بتأدية قوائم ماجرياتها وتقارير قضايا جهاتها ومع هذا كله فكان السلطان يقف وقوفاً تاماً على جميع ذلك ويامر بما يراه موافقاً للحال من نجاز الاعمال واصطلاح الاحوال وبهذه المثابة كانت جميع مصالح المملكة والرعية مدبرة تدبيراً حسناً وكان من ضاقت عليه الاحوال واحاطت بهِ جيوش الاهوال اذا دخل في حكم اهل الاسلام وانقاد لما لهم وعليهم من الاحكام غمره السرور وانجلى ما كان بهِ من المضائق والشرور كما حصل لاهل صقلية والاندلس حين تخلصوا من يد اليونان ودخلوا في حكم المسلمين فحصل لهم وبهم الراحة وقاموا جميعاً بتحسين الصناعة والفلاحة وجلبوا لهم مستنبتات لم تكن عندهم من قبل كبذر القطن والشمام وكثير من انواع الرياحين كالفل واللمام فاستنبتوها من ذلك الوقت وكان من جملتها قصب السكر وشجر الفستق ولسان العصفور وبهم تفننت العرب في منسوجات الحرير وعرفوا كيفية استخراج المعادن والعقاقير واستعمال مجاري المياه من انابيب معدنية حتى وصلوا في اقرب وقت الى اعلى درجة في العز والرفاهية

وكان بمدينة طليطلة اذ ذاك على ما قاله العلامة (دوروي) الفرنساوي مائتا الف نفس وباشبليه ثلاثمائة الف وكان محيط احدى المدن ثمانية فراسخ وبها ستون الف قصر وستمائة مسجد

وخمسون قشلة للمساكين وثمانون مدرسة وتسعمائة حمام غير التي في البيوت وكان فيها من النفوس مليون (اعني الف الف) وستة الاف نول لنسج الحرير خاصة ومن يراها الآن لا يجد بها شيئاً مما كان فلا يعلم اي داهية دهتها واي مصيبة اعترتها حتى اختل امرها وتغير حالها ولم يبق بها من الناس الا نحو ستة وخمسين الفاً

وكانت تهرع طلبة المعارف من جميع اقسام الدنيا لتعلم العلم في المدارس الاسلامية وقد اسلم كثير منهم وكانت بلاد الاسلام تتأنق في المباني بانواع الزخرفة خصوصاً بلاد الاندلس

وكان في كل من مدينة سبته والقيروان والجزائر وتونس وطرابلس مدارس عامة وكتبخانات وكان ثغر سيراف وعدن وجدة والسويس مرسى متاجر جسيمة واردة اليها وذاهبة منها وكان سوق مدينة فيول موعداً لاجتماع الناس من جميع جهات آسيا

واما الرجال الذين نبغوا في رياض الفنون العقلية والعلوم الادبية فلا سبيل الى حصرهم ولا طريق للوصول الى عدهم وذكرهم فان ذكر مشاهير كل فن يحتاج الى مجلد

وخلاصة القول في هذا المقام ان علماء العرب واهل الاسلام هم في كل فن اليد الطولى وكل فضل هم احق بهِ من غيرهم واولى لا سيما الخلفاء العباسية ومن قبلهم بعض خلفاء الاموية

فكان ابو جعفر المنصور العباسي مقدماً في كل فن خصوصاً في علم النجوم والفلسفة محباً لاهلها ولما افضت الخلافة إلى السابع من الخلفاء وهو عبد الله المأمون بن الرشيد تمم ما بدأ بهِ جده واقبل على طلب العلم في مواضعه واستخرجه من معادنه فداخل ملوكاً وسألهم ما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه منهـا بما يحضرهم من كتب افلاطون وارسطو وبقراط وجالينوس واقليدس وبطليموس وغيرهم واحضر لهم مهرة المترجمين ثم كلف الناس قرائتها ورغبهم في تعلمها فنفق بهِ للعلم اسواق وشمرت دولة الحكمة في عصره عن ساق وكان الباعث لهُ على ذلك فيما يقال انه رأى في منامه رجلاً حسن الشمائل فقال لهُ من انت فقال انا ارسطاليس فسأله عن الحسن فقال ما حسنه العقل فقال ثم ماذا فقال ما حسنه الشرع. فكانت هذه الرؤيا من اقوى الاسباب الداعيـة لاخراج الكتب من هذا الفن الى اللغة العربية وكان بينه وبين ملك الروم مراسلات فكتب اليـه يسأله انفاذ ما يختار الكتب القديمة المخزونة بالروم فاجابه الى ذلك بعد امتناع فانفذ المامون جماعة منهم الحجاج بن مطر والبطريق وغيرهما فسلمهم ملك الروم بيت الحكمة فاخذوا منها ما اختاروا ورجعوا بهِ الى المأمون فامرهم بنقله الى لغة العرب فنقلوه وكان ممن انفذ الى الروم لهذا الخصوص يوحنا بن ماسويه وكان محمد واحمد والحسن بنو شاكر المنجم ممن عني باخراج الكتب وممن نقل العلوم الحكميـة

الى اللغة العربية اصطفان نقل لخالد بن يزيد بن معاويه وكذلك البطريق نقل للمنصور ايضاً شيئاً بامره وابن يحيى الحجاج هو الذي نقل كتاب المجسطي واقليدس للمامون وكان في ايام البرامكة ابن ناعمة عبد المسيح الحمصي وسلام الابرش وهلال بن ابي هلال الحمصي وبن آوى وبن رابطة وعيسى بن نوح وحنين وكان امام وقته في صنعة الطب وكان يعرف لغة اليونانيين معرفة تامة وهو الذي عرّب كتاب اقليدس ونقله من اللغة اليونانية الى لغة العرب ثم جاء ثابت بن قرة بعده فنقحه وهذبه وكذلك كتاب المجطسى وكان حنين المذكور راشد اهل عصره اعتناء بتعريبها واسحاق ولد حنين وكان اوحد عصره في علم الطب وكان يلحق بابيه في النقل ومعرفة اللغات وتعريب اللغة اليونانية وخدم من الخلفاء والروساء من خدمهم ابوه ثم انقطع الى القاسم بن عبدالله وزير الامام المعتضد بالله واختص بهِ حتى ان الوزير المذكور كان يطلعه على اسراره ويفضي اليه بما يكتمه عن غيره

وكان هو وابوه في القرن الثالث من الهجرة

وكان يحيى بن عدي وابن المقفع ممن نقل من الفارسية الى العربية وكذلك الحسن بن سهل وغيرهم

وكان الوزير ابو علي الشهير بابن سينا قد برع في علم الطب فذكر عند الامير نوح بن نصر الساماني صاحب خراسان وكان

قد مرض فاحضره فعالجه حتى برئ واتصل به وقرب منه ودخل الى دار كتبه وكانت عديمة المثل فيها من كل فن من الكتب المشهورة بايدي الناس وغيرها ما لا يوجد في سواها ولا سمع باسمه فضلاً عن معرفته فظفر ابو علي فيها بكتب من علم الاوائل وغيرها فانتخب فوائدها واطلع على اكثر علومها واتفق بعد ذلك احتراق تلك الخزانة فتفرد ابو علي بما حصله من علومها فاتهم بانه حرّقها لينفرد بمعرفة ما حصله منها وينسبه الى نفسه ولم يستكمل ثماني عشرة سنة من عمره الاَّ وقد فرغ من تحصيل العلوم باسرها وكان منشأه ببخارى ولما اضطربت امور الدولة السامانية خرج ابو علي منها الى كركانج وهي قصبة خوارزم واختلف الى خوارزم شاه علي بن مامون وما زال تتقلب به الاحوال من بلد الى بلد الى ان استوزر لشمس الدولة وكان في اوائل القرن الخامس من الهجرة واليه تنسب القصيدة المشهورة التي وصف فيها النفس واولها

هبطت اليك من المحل الارفع
وَرْقَاءُ ذَاتُ تعزز وتمنع
محجوبة عن كل مقلة عارف
وهي التي سفرت ولم تتبرقع
وَصلَتْ على كره اليك وربما
كرهت فراقك وهي ذات تفجع

وكان في القرن الثالث والرابع من الهجرة ابو نصر الفارابي

صاحب التصانيف في المنطق والموسيقى اخذ علم الفلسفة عن يوحنا في ايام المقتدر وشرح غوامضها وكشف اسرارها وقرّب تناولها وجمع ما يحتاج اليه منها

حكي انه لما ورد على سيف الدولة بن حمدان وكان مجلسه مجمع الفضلاء في جميع المعارف فأُدخل عليه وهو بزيّ الاتراك وكان ذلك زيه دائمًا فوقف فقال له سيف اقعد فقال حيث انا ام حيث انت فقال حيث انت فتخطى رقاب الناس حتى انتهى الى مسند سيف الدولة فزاحمه فيه حتى اخرجه عنه وكان على رأس سيف الدولة مماليك وله معهم لسان خاص يسارهم به قلّ ان يعرفه احد فقال لهم بهذا اللسان ان هذا الشيخ قد اساء الادب واني سائله عن اشياء ان لم يوف بها فاخرقوا به فقال له ابو نصر بذلك اللسان ايها الامير اصبر فان الامور بعواقبها فعجب سيف الدولة منه فقال له اتحسن هذا اللسان فقال نعم احسن اكثر من سبعين لسانًا فعظم عنده ثم اخذ يتكلم مع العلماء الحاضرين في المجلس في كل فن فلم يزل كلامه يعلو وكلامهم يسفل حتى صمت الكل وبقي يتكلم وحده ثم اخذوا يكتبون ما يقوله فصرفهم سيف الدولة وخلا به فقال له هل لك في ان تاكل فقال لا فقال فهل تشرب فقال لا فقال فهل تسمع فقال نعم فامر سيف الدولة باحضار المغنين فحضر كل ماهر في هذه الصناعة بانواع الملاهي فلم يحرك احد منهم آلته الاّ وعابه ابو نصر وقال له

اخطأت فقال له سيف الدولة وهل تحسن في هذه الصنعة شيئًا فقال نعم ثم اخرج من وسطه خريطة ففتحها فاخرج منها عيدانًا وركبها ثم لعب بها فضحك منها كل من كان في المجلس ثم فكها وركبها تركيبًا اخر ثم ضرب بها فبكى كل من كان في المجلس ثم فكها وغير تركيبها وضرب بها ضربًا اخر فنام كل من في المجلس حتي البواب فتركهم نيامًا وخرج ويقال انه اول من وضع الآلة المسماة بالقانون وكان في القرن الثالث من الهجرة ابو الحسن علي بن يحيي بن المنصور المنجم النديم وابنه يحيي ابن النديم

وكان في القرن الخامس ابو علي يحيي بن عيسي بن جزله الطبيب الماهر وكان نصرانيًا ثم اسلم وصنف رسالة في الرد على اليهود والنصارى وبيّن معائب مذاهبهم وذكر فيها ما قرأه في التوراة والانجيل في شان ظهور النبي صلى الله عليه وسلم وانه مبعوث وان اليهود والنصارى اخفوا ذلك ولم يظهروه وما زالت العلوم الحكمية تتداول من عصر الى عصر ومن قطر من بلاد العرب الى قطر حتى وجد بمدينة القاهرة الكبير المعظم والفلكي المفخم العلامة بن يونس مخترع البندول (اي رقاص الساعة) والربع

وكان في القرن الحادي عشر جلال الدين ملك شاه احد الملوك السلجوقية الذي صارت الناس تؤرخ بعصره فيقولون كنا في سنة كذا من التاريخ الجلالي

وكان في القرن الثاني عشر من الميلاد بمدينة قرطبة فتح بن ماجية وكان يصنع الاصطرلاب ويعلم العمل به ويقال انه لم يكن اطلع عليه وكان يرسم على كرة فبينا هو يسير يومًا على فرس وبين يديه كرة اتفق ان سقطت وداس عليها الفرس فانبسطت واعجبته الصورة التي صارت الكرة اليها فاخذ في عمل الاصطرلاب على وفق تلك الصورة فاذا صح هذا كان من مخترعاته اذ لم يكن رأى قبل ذلك من عمل غيره

والبيروني وكان مشيرًا وصديقًا للسلطان محمود الغزنوي

وكان في القرن الثالث عشر من الميلاد بالموصل العالم الكبير والعلامة الشهير بن رشد شارح مؤلفات ارسطاليس

وكان باصبهان ابو حنيفة مؤلف الازياج والتواقيع الفلكية وكان بمراكش ابو الحسن الجغرافي وكذلك ناصر الدين الطوسي مؤلف الازياج والتواقيع الجغرافية وكذا الغزالي احد شعراء الترك

وكان في القرن الرابع عشر تيمورلنك الذي انشاء ديوانًا لمذاكرة العلوم واحيائها في مدينة سمرقند ثم ابو الفداء المؤرخ صاحب حماه

وكان في القرن الخامس عشر شاه رخ نجل تيمورلنك وهو الذي نقل العلوم الى بلاد هراه وكان بالقاهرة العلامة المقريزي الذي لم يسمح بمثله الزمان ومن مؤلفاته تاريخ مصر وذكر احوال

من تسلطن بها من المماليك وغيرهم المسمى كتاب الخطط وله قاموس تاريخي وكذا اولوغ بيك التتاري حفيد تيمورلنك ومن اثاره انشاء رصدخانة في مدينة سمرقند .

وكان في القرن السادس عشر بمصر جلال الدين السيوطي ومن اثاره تاريخ مصر المسمى حسن المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة وكذا خورمير الفارسي ومن اثاره خلاصة التاريخ وهو الذي عثرنا فيه على استعمال اهل الاسلام الورق بدلاً عن النقود في المعاملات وكان ذلك في القرن الخامس عشر من الميلاد بمدينة طهران

وكان في القرن السادس عشر ايضاً اظهار العلامة كاتب جلبي لرسالة الجغرافية وهي كتاب عجيب في بابه حتى ان كثيراً من الناس ينكر كونه له اذ لم يسبق له مثال

وما ذكرناه في سرد اسماء بعض المشاهير بالنسبة لما ترك اقل من القليل الاَّ انه يتوصل به من اطلع عليه الى معرفة ما كان للمسلمين من المصنفات العلية والعلوم الحكمية حيث لا مانع لهم من معرفة ما فيه فائدة تعود على الوطن فقد غاصوا في بحار العلوم واستخرجوا بقوة ادراكهم درره واستكشفوا غرره وهذا كله في علماء فرع من العلوم العقلية فما بالك بعلماء العلوم الادبية والشرعية ومنه يعلم ان سائر الامم الذين كانوا في الاعصر الخالية انما شفوا غليل ظمائهم بما اغترفوه من ساحل بحار معلومات اهل الاسلام اذ ليس لها اصل تستمد منه سوى الاغتراف من بحر معارفهم الى

هذا الزمان وكذلك شعراؤهم وعلماؤهم ومؤلفوهم لم يهتدوا الى ما اهتدوا اليه الاّ بمؤلفات اهل الاسلام وكذلك قواميسهم المتضمنة اخبار البلدان ومشاهير الرجال وحوادث الزمان انما تعلموها مما وقع في ايديهم من كتب العرب فحذوا حذوها فقد دوّن اهل الاسلام في علم التاريخ فضلاً عن غيره تدويناً امتازوا به على غيرهم بقوة فكرهم وحلاوة تعبيرهم والاهتداء لطرق استنتاجهم وهذه المزايا من البرهان على تعودهم على ملاحظة الكائنات الطبيعية والتجارب والاعمال البشرية فقد يوجد نحو الالف والثلاثمائة مؤلف في خصوص علم التاريخ باللغة العربية فضلاً عما أُلف في ذلك باللغة التركية والفارسية

فلما وصل في الكلام على تقدم اهل الاسلام الى هذا المقام قال الانكليزي لا ريب في تقدم اهل الاسلام في كثير من الفنون وسبقهم غيرهم بفوائد جليلة اخذت عنهم واستفيدت منهم فمن ذلك استعمال البارود الذي تكافأت بسببه قوى الامم او قربت من التكافوء حتى هدأت الفتن وقل عددها وقصرت مدة ما تحرك منها فما قامت حرب الا قعدت ولا التهبت نيرانها الاّ بسرعة خمدت على خلاف ما كان في الاعصر الخالية حيث كان الناس يعتمدون على قوى ابدانهم ومضاء صوارمهم ورماحهم الى غير ذلك من آلات المكافحة فكانت الحرب خصوصاً في العرب تنشأ من امر صغير بين نفر يسير ثم لا تزال تزداد وتتولد

من فتنة فتن يصطلي حرها خلق كثير وتطول مدتها فربما افامت الحرب الواحدة السبب زيادة عن اربعين سنة فلما اهتدى الناس الى استعمال البارود وآلات اطلاقه خمدت الفتن وصار الغالب على الناس الامن بعد ان كان الغالب عليهم الخوف ولا شك في سبق اهل الاسلام الى استعمال البارود وان لم يعلم عين مخترعه فقد كان اهل مصر يدخلون ملحه في بعض الادوية ويسمونه ملح البارود الابيض ويبردون بهِ الماء بدل الثلج واستعمله المسلمون في حروبهم ومحاصراتهم بعد القرن الخامس من الهجرة ومما سبق اليه المسلمون ايضاً بيت الابرة الذي يستعملونه في تحرير محارب مساجدهم فيتعرفون بهِ جهة قبلتهم التي امروا باستقبالها في صلواتهم اذ لم تكن الشمس كافية في ذلك لغيبتها ولا الاقطار لاستتارها في بعض الاحيان وكثير من الاماكن وقد عمت منفعة بيت الابرة سائر الناس حتى ان المسافرين براً وبحراً لا يستغنون عن استصحابه ليعرفوا بدلالته الاتجاه الى مقاصدهم · ومما ينسب لاهل الاسلام عمل الورق فقد وجد عندهم سنة ٢٧ من الهجرة وكان اهل بخارى يعملونه من الحرير ثم عمله في حدود المائتين يوسف ابن عمر امير مكة في ايام بني العباس من القطن وكان اهل الاندلس يصنعونه من الكتان والتيل · ومما سبق باستعماله المسلمون الورق بدل النقود واوراق الحوالات التي تسمى بالسفتجة ياخذها المسافر من تاجر في بلدة الى تاجر في بلدة اخرى لخفة الحمل

والامن من قطاع الطريق واهل الفساد وقد رأيت في بعض التواريخ العربية من جملة اعمالهم العائدة بالنفع حفرهم الخليج العتيق المعروف بخليج القلزم وان ذلك كان باذن من عمرو ابن العاص او من عمر بن الخطاب رضي الله عنهما وذكر بعض المؤرخين ان عمرو بن العاص خطر بباله حفر برزخ السويس لاتصال البحر الاحمر بالبحر الابيض فاستأذن عمر بن الخطاب فمنعه لئلا تعبر منه الافرنج البحر الاحمر فيكثرون بالمشرق وبلاد العرب . ثم لما كانت ايام السلطان الفاخر عزم وزيره على الشروع في حفره فعرضت لهُ موانع عاقته عنه ثم استعوض ذلك بالعزم على توصيل بحر جرجان بالبحر الاسود بان يحفر خليج بين نهري الطونة واولفة فمنعه عن ذلك ايضًا فساد اخلاق طوائف القزاق المقيمين بسواحل تلك المياه

فعند ذلك طاب خاطر الشيخ بما القاه اليه صاحبه الانكليزي اولاً واخرًا اذ رآه محبًا للحق وفي الحكم منصفًا وبتقدم الملة الاسلامية في سائر الفنون معترفًا وزاد حبه لهُ اضعاف ما كان

وكان الشيخ قبل ذلك يمنع نفسه من المباحث في الامور الدينية خوفًا من ان يكون ذلك سببًا في حصول النفور بينهما وكان الانكليزي مراقبًا ذلك ايضًا قائمًا بما يجب للشيخ من الحقوق لما رأى فيه من كثرة الورع والتخلق بالاخلاق المرضية وفي ابتداء الكلام بينهما هذه المرة في امر الديانة ظن الشيخ ان الانكليزي

ربما يشير الى الديانة بما يدنسها فلما قص عليه ما قص ولم يظهر من كلامه في شأن الملة ادنى نقص حيث امتنع عن الجدال ولم ينسب للملة الاسلامية من التاخير ادنى سبب بل عزا اليها استمرار التقدم بما اكتسبتهُ في الزمن الخالي حتى صارت اساساً يعتمد عليه النوع البشري في تقدمه الحالي والاستقبالي وانه لولاها لارتفعت من بين الناس موجبات الالفة والمسارّ وامتنعت عنهم اسباب التمدن واليسار فمن ذلك الوقت اعترف الشيخ لصاحبه بكثرة الاطلاع والوقوف علي حقائق الامور والاوضاع

فخاض معه بحر هذا البحث المتعلق بالدين ثم قال . ومما يستطرد في هذا المقام ذكر اديان العرب قبل الاسلام

كانت النصرانية في ربيعة وغسان وبعض قضاعة . وكانت اليهودية في نمير وبني كنانة وبني الحارث بن كعب وكندة . وكانت المجوسية في بني تميم

واول من غيَّر دين الحنفية عمرو بن لحى ابو خزاعة وهو انه رحل الى الشام فرأى العماليق يعبدون الاصنام فاعجبه ذلك فقال ما هذه الاصنام التي اراكم تعبدونها قالوا هذه اصنام نستمطرها فتمطرنا ونستنصرها فتنصرنا فقال اعطوني منها صنمًا اسير به الى ارض العرب فيعبدونه فاعطوه صنمًا يقال له هُبَل فقدَم به مكة فنصبه وامر الناس بعبادته وتعظيمه

واول ما كانت عبادة الاحجار في بني اسماعيل وسبب ذلك

انه كان لا يظعن من مكة ظاعن منهم حتى ضاقت عليهم فتفرقوا في البلاد وما من احد يظعن الاّ حمل معه حجرًا من حجارة الحرم تعظيمًا له فحيثما نزلوا وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ثم تناسلوا فنسوا ما كانوا عليه من دين اسماعيل فعبدوا الاوثان وصاروا الى ما كانت عليه الامم قبلهم من الضلال

وكان لاهل كل دار صنم يعبدونه فاذا اراد الرجل سفرا تمسح به حين يركب وكان ذلك اخر ما يصنع اذا توجه الى سفره واذا قدم من سفره بدأ به قبل ان يدخل الى اهله فاتخذت العرب الاصنام وعكفوا على عبادتها

وكانت لقريش وبني كنانة العزّى وكان حجابها بني شيبة وكانت اللات لثقيف بالطائف وكان حجابها بني مغيث من ثقيف وكانت مناة للاوس والخزرج ومن دان بدينهم واما يغوث ويعوق ونسر فقيل انهم كانوا اسماء اولاد آدم عليه السلام وكانوا اتقياء عبادا فمات احدهم فحزنوا عليه حزنًا شديدًا فراؤا ان يصوروا صورته ليذكروه اذا نظروه فصوروه من صفر ورصاص ثم مات اخر ففعلوا ذلك الى ان ماتوا كلهم فصوروهم هناك واقام من بعدهم على ذلك الى ان تركوا الدين وعبدوها الى ان بعث الله نوحًا عليه السلام فنهاهم عن عبادتها فقالوا ما اخبر الله به عنهم لاتذرنّ آلهتكم ولا تذرن ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرا (الاية) ولما عم الطوفان الارض طمها وعلا عليها التراب زمنًا طويلًا ثم

اخرجها مشركوا العرب فعبدوها وكان ودّ على صورة رجل وسواع على صورة امرأة ويغوث على صورة اسد ويعوق على صورة فرس ونسر على صورة نسر

هذا ما كانت عليه العرب قبل الاسلام وقد صاروا بعده امةً واحدة قوية والفضل في ذلك كله للقرآن المجيد ومن العجيب انكم معاشر الاوروبيين تعلمون ذلك وتعزون الى الاسلام تاخر النوع الانساني في المدنية

فقال الانكليزي لا يخفى على سيدي عادة اهل المذاهب والاديان من التعصب والتحزب من قديم الزمان فكل يميل الى ترجيح مذهبه بما يصل به الى بلوغ مأربه ويعزو الى دينه كل فضيلة ويصفه بكل صفة جميلة فيأخذون بحواس المتدينين ويجذبون اليهم قلوب الجاهلين فلا يرون الاّ راي اسلافهم ولا يعلمون الاّ ما سطر في تآليفهم ولا يضاهون قوانينهم بقوانين غيرهم ولا قواعدهم بقواعدهم الاّ لمقاصد فاسدة واغراض كاسدة ولا يفرقون بين الصحيح والاصح والراجح والارجح واما انا فلست من هذا القبيل ولا اليه عقلي يميل وليست النصرانية عليّ محتمة ولا احكامها عندي محكمة بل الواجب عليّ اتباع الحق كما هو الواجب على كل عاقل من غير فرق وانا اعلم من قبل ان الله سبحانه وتعالى لم يبعث الرسل عبثًا بل ارسلهم لهداية من اتبعهم وما قصدت بفراقي بلدي واهلي واولادي وتوجهي الى بلاد المشرق واقامتي بمصر

وتعلمي اللغة العربية الاّ الوقوف على حقيقة الملة الاسلامية ودرجة علمائها فان مؤلفات الاوروباويين في هذا المعنى مشحونة باكاذيب مضلة واختلافات مخلة كقولهم في كتبهم ان محمداً يقول ان النساء لا يدخلن الجنة يوم القيامة

فالتفت الشيخ للخواجا عند ذلك وقال مثل هذا لا يقال من امثالك ولئن كان معتقد علمائكم من هذا القبيل ومؤلفات قدمائكم على نحو هذا التمثيل وها هو كتاب الله بيننا يتلى وكذلك كتب المفسرين وحملة الشريعة اجمعين لم يوجد فيها لمثل ذلك ادنى اشارة فضلاً عن التصريح بعبارة وقد قدمت لحضرتكم ان جميع كلام النبوة شرح للقرآن قال تعالى (وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم) واذا تتبعنا القرآن العظيم لم نجده يذكر المؤمنين الاّ ومعهم المؤمنات ولا المسلمين الاّ ومعهم المسلمات ولا الصائمين الاّ ومعهم الصائمات قال تعالى (ومن يعمل من الصالحات من ذكر او انثى وهو مؤمن فاولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) وقال تعالى من عمل صالحًا من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم اجرهم باحسن ما كانوا يعملون) وقال تعالى (ان المسلمين والمسلمات والمؤمنين والمؤمنات والقانتين والقانتات والصادقين والصادقات والصابرين والصابرات والخاشعين والخاشعات والمتصدقين والمتصدقات والصائمين والصائمات والحافظين فروجهم والحافظات والذاكرين

الله كثيرًا والذاكرات اعد الله لهم مغفرة واجرًا عظيمًا (هو الجنة وما فيها) وهكذا في غير ما اية وان اردت ان اطلعك على مواضع ذلك من المصحف الشريف لتقف على الحقيقة بنفسك فعلت فالكتاب والسنة والاجماع على ان للنساء ما للرجال من الثواب وعليهن ما عليهم من العقاب لا فرق بين حرٍ ورقيق ومولىً وعتيق وقال صلى الله عليه وسلم ايما امرأة غاب عنها زوجها فحفظت غيبته في نفسها وطرحت زينتها وقيدت رجلها واقامت الصلاة فانها تحشر يوم القيامة عذراء طفلة فان كان زوجها مؤمنًا فهو زوجها في الجنة وان لم يكن زوجها مؤمنًا زوجها الله من الشهداء فكيف يتوهم فيمن اتصف بالعدل فضلاً عن اتصافه بالفضل ان يضيع عمل عامل او يحرم الراجي فضله الشامل

فقال الانكليزي لو علمت نساء اوروبا بقولك لاحببنَ دين الاسلام لكن ربما يمنعهن شيء اخر اشق عليهن من كل شيء واضر وهو اتخاذ الرجل منكم عددًا من الزوجات

فتبسم الشيخ وقال اراك قد خرجت عما نحن فيه اذ لا دخل لتعدد الزوجية ولا لدين النصرانية في احياء العلوم الادبيــة ولا تقدم الفنون والصنائع الدنيوية اذ لو كان كذلك لما احتجتم الى اليونان فمن بعدهم من العرب الى الآن في الوصول الى ما وصلتم اليه فانهم لكم في كل ما علمتموه ملاذ واحتياجكم اليهم كاحتياج المتعلم الى الاستاذ

واما ما كان من امر تعدد الزوجات فليس هذا خاصًا بنا بل هو عامّ لنا ولغيرنا ولم يمنعه الا طائفة النصارى فقط حتى ان من قبلهم كانوا يجوزون التعدد ايضًا فقد رأيت في بعض كتب التواريخ نقلاً عن دانيال القسيس ان ملوك فرانسا الاولين كانوا متزوجين بزوجات متعددة مع انهم كانوا متدينين بدين النصرانية ومن ثم كان لكل من غنطران وشربير وداغوبير الاول ثلاث زوجات ولعم داغوبير وهو قلودوميرا اربع زوجات في آن واحد وفي سنة سبعمائة وستة وعشرين من الميلاد كتب البابا غراغوار الثالث الى الواعظ يدسفاس حين ارسل اليه يسأله عن جواز التزوج بامراة ثانية اذا اصيبت المراة بداء يمنعها عن القيام بحقوق الزوج جاز لهُ ان يتزوج بامرأة اخرى وعليه للمصابة مؤنها الضرورية

ولعل الحكمة في اباحة تعدد الزوجات عندنا وعند من كان على رأينا ان التدبير الالهي لما ميز الرجل بقوة البنية وطول زمن التناسل بالنسبة للمرأة وسلامته من الاعذار المعتادة للنساء في اوقات معينة كالحيض والنفاس راعى الشرع جانبه لذلك

واما حكمة الافراد التي عولتم عليها واستندتم في الحكم اليها فلا يمكن الجزم باطرادها في كل طبيعة ولا بانها لقطع ما تخشونه من المفاسد ذريعة فقد يأتي زمن يمتنع فيه كثير من الامور الفظيعة التي لا وجود لها في بلادنا كقتل الاطفال واسقاط الاجنة

ونحو ذلك

فقال الانكليزي هذا كلام معقول لكني نظرت في المصحف مرة فرأيت في السورة الثالثة من سورة البقرة ما ظاهره الامر بضرب النساء مع انه يخل بشرف الانسانية .

فاجابه الشيخ الا ان هذا لا يوجد الا اذا علم الزوج منهـا خلاف ما كان يعهد على انه ليس لهُ ذلك من اول الامر بل يستعمل معها النصيحة فان ابت فبالهجر فان ابت ضربها بشرط ان لا يضرُّ بها على ان حسن العشرة المامور بهِ في القرآن ربما جعل التشديد عليهن مذموماً وصير مَن عاقبهن على كل ما فرط منهن ملوماً كقوله تعالى (الطلاق مرتان فامساك بمعروف او تسريح باحسان) وكقوله صلى الله عليه وسلم احملوا النساء على اخلاقهن . وقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه ينبغي للرجل ان يكون في بيته كالصبي فاذا طلب ما عنده وجد رجلا وقال بعض الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم ما حق زوجة احدنا عليه قال ان تطعمها اذا طعمت وتكسوها اذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر الاَّ في البيت . ومعنى لا تقبح . لا تسمعهـا المكروه ولا تشتمها ولا تقل لها قبحك الله ونحو ذلك الى غير ذلك مما يعظم امر النساء ويوجب رعايتهن والمبادرة الى القيام بحقوقهن وهل حرية النساء الا ان يبلغن حقوقهن على ازواجهن حسبما تقتضيه المروة وصيانة النساء عن الدخول فيما ليس لهن من خصائص

الرجال كما نبهت على خفايا حدوده وابدت ظواهرها الشرائع وليس فيما يقبل العقل المنزه عن العصبية ان تكون حرية النساء عبارة عن تخليتهن وما اشتهين مع ما يشاهد في الاكثر من غلبة شهواتهن واهوائهن على عقولهن

وبينما هما يتحاوران اذا بضجة في صدر السفينة تبين انها اشارة للوصول الى المينا فحيّ كل صاحبه بالسلامة وهمّا بالصعود الى البر وتذكر الشيخ رجاء ولده في امر يعقوب فاخبر بهِ صاحبه وبلغ باجابته المرغوب فخرجوا متوجهين الى بيوت المسافرين .



المسامرة الحادية والعشرون
كتاب برهان الدين

فلما استقر قرارهم واطمأن بهم المنزل قال الانكليزي للشيخ ان غدا توجه البوستة الى مصر

فقال الشيخ لابنه اين كتابك لوالدتك فاخرج لهُ كتاباً هذه صورته

حضرة الوالدة العزيزة المصونة · وحق المهد والدر الذي لا يقوم مقامه الشهد ومناغاتي في السحر ما غاب شخصك عن خيالي ولا خطر التسلي عنك ببالي بل مذ فارقتك لم ترقأ لعيني دمعة ولم

تهداء لقلبي لوعة ولم اجد لعيني في النوم قرارًا ولا لقلبي راحة. وكنت قبل ذلك اجهل الفراق وألمه لجهلي باحواله ومشاقه وكنت اذا قرأت في بعض الكتب واطلعت على ما قيل فيه من شعر العرب وغيرهم اراني لا اذوق لهُ معنى ولا افهم ما يراد منه بل كان يمر بي ككلام الساهي او اللاعب اللاهي الى ان تبين الخبر بالعين وارتفع الشك فذقت مرارته ووقعت في بحر هوله غريقًا

شكا الم الفراق الناس قبلي * وروع بالنوى حيّ وميتُ
واما مثل ما ضمت ضلوعي * فاني ما سمعت ولا رايتُ

فصرت اردد في الاسحار قول من تناولته يد الاسفار

احبابنا لو لقيتم في اقامتكم
من الصبابة ما لاقيت في الظعن
لاصبح البحر من انفاسكم يبسا
كالبر من ادمعي ينشق بالسفن

وما زادني قلقًا وشجونًا وأرقًا ما اراه في عالم المثال فتارة اراكِ تعانقيني وتقبليني وتارة اراكِ نائمة عن شمالي وتارة عن يميني وتارة ارى انك تنصحيني وتارة ارى كأن الرياح اشتدت والامواج الى الجو قد امتدت وان الحق تعالى على خلقه غضب وكأن السماء تمطر ماء كافواه القرب ونحن في المركب لا نسمع الاَّ انينًا واستغاثة وحنينًا وان الجبال قد تقطعت والقلوع تمزقت وانقلبت المركب

وغرق من بها فارى نفسي على خشبة وكأن الامواج تدفعني الى جزيرة وكان اقوامًا اخذوني وهموا بقتلي فاقوم من الفراش على قدمي فاستعيذ بالله وابسمل ثم اعود ثانيًا بقصد الرقاد فما ارى الحال الاّ في ازدياد ولم ازل هكذا كل ليلة الى الصباح ففي ليلة رايت ما رايت وتوجهت الى والدي وقبلت يده فعلم اني لم اغتمض بنوم فسالني عن حالتي فاخبرته بما وقع لي طول ليلتي فسكّن روعي وطيب خاطري بكلام رقيق اروي لكِ منه ما امكنني حفظه قال

ما يمنع عنك ذاك ويقيك التخيلات والاحلام ان تستحضر وانت على الوسادة ان حالة اهلك احسن من حالة كثير من العباد ولا تنظر لما في الاسفار من المشاق الوقتية والمضار بل انظر لما يعقب ذلك من النفع العائد عليك وعلى اهلك فان ذلك يغير ما عندك من الانفعالات بضدها واصرف افكارك الى ما يسليك ويجلب لك السرور ويسهل لك معاناة الشدائد ثم عطف واخذ يورد على سمعي من الحكم والمواعظ ما انساني همي وارقي تلك الليلة فقال يابنيّ كن في جميع احوالك كامل العقل متسمًا بسمة اهل العلم والفضل واشتغل بما يعنيك متجافيًا عما يشينك ويُعنيك قائمًا بما يجب للناس من توقير كبيرهم وملاطفة صغيرهم متحليًا بصفات اهل الكمال متخليًا عما يزري بك من الاقوال والافعال واياك واصحاب الشهوات والاخلاق الذميمة ولذ بمن يصلحك حاله ويرشدك الى الخير مقاله وغذّ قلبك بثمرات العلوم

كما تغذي جسمك بما تستطيب من المشروب والمطعوم ولا تكن لكل ما تطلع عليه اسير التقليد كمن ظن الورود وهو عن الشط بعيد ولا تغتر بحلاوة الالفاظ فكل لفظ له باطن وظاهر ولا يقف على الفرق بينهما الاَّ اللبيب الماهر فما كل ما يعلم يقال ولا كل ما حسن ظاهره يقبل على كل حال بل تارة يوافق الصواب فيمدح وتارة يضل عنه فيستقبح ولا ترو شيئًا من غير دليل فتكون كمن يطب غيره وهو عليل ولا تثق الاَّ بما ترى فائدته بديهية ومنفعته عمومية ولا تتبع المقاصد الشخصية والفوائد الذاتية الوقتية وكن غالب وقتك مستفيدًا فما وافق رايك فاحفظه وما لم يوافق مذهبك فالفظه واعلم ان غالب هموم الناس تخيلية وتصورات وهمية منشأها امور طرأت عليهم ولم تكن من قبل مألوفة فلعدم علمهم بكيفياتها يصورونها في انفسهم بصورة غير صورتها ولجهلهم باسبابها يلبسونها ثيابًا غير ثيابها فتظهر لهم في الصورة التي رسموها وتكبر في اعينهم على قدر الهيئات التي بها وسموها فتتمكن من مخيلتهم وتحل في وجودهم كحلول الروح في الجسد فتشتغل جميع الحواس بها ويتحول الفكر بكليته نحوها وعند ذلك لا يرى الانسان غيرها فان كان ما تخيله خيرًا عظم عنده شيئًا فشيئًا حتى لا يرى ان هناك اعظم منه وان كان شرًا رأى انه فوق ما يتصوره المتصورون ويقدره المقدرون وانه لم يتقدم مثله لاحد من ابناء الزمان وانه ليس في الامكان ابدع مما كان فيكون حزنه وفرحه في التقديرين

بقدر ما توهمه في الحالين ومن تكرار هذه الصور في القوة المخيلة تتزايد حتى تظهر لصاحبها كانها من جملة الامور المرئية وتؤثر فيه كانها حقيقية وان كان التأثير زائداً عن الطاقة نتج منه مضار جسيمة اما في العقل فيختل واما في الجسم فيعتل حتى انه في بعض الاحيان يرى الموت وكأنه قد كان فما رايت في نومك من التمثيل ليس الاَّ من هذا القبيل لان الفراق امر لست معتاده فصورته في نفسك بصورة غير صورته فتارة رايت ان السفينة قد غرقت بمن فيها وتارة رايت انها رست على بقعة من الارض عامرة بالناس والاشجار فكانت هذه الرؤيا ما ظننته وفي يقظتك توهمته وكذلك رؤيتك لوالدتك واخواتك وعماتك سببه تصور حبك لهم ورغبتك في صلاح حالهم وخشيتك من فقرهم وفاقتهم فلذلك رايت ما رايت من لعبهم تارة وبكائهم تارة اخرى في البيت فلو تفكرت فيما يحصل لاهلك ووالدتك وللمحبين في عودتك لا سيما اذا راوك متحلياً بحلل الادب متصفاً بصفات اهل العلم والرتب ولاحظت ما يصفونك به من العلم والورع والعفة واجتناب البدع مع ما تحوزه من الشهرة فلا اظن انك تقول بمثل هذه الوسوسة بل يخلو قلبك منها ويدخل عليك السرور في الغدوّ والرواح وتعيش عيشة اهل التقى والفلاح الذين رموا انفسهم في بحار تقديره ووكلوا امورهم الى تصاريف تدبيره عالمين بانه اللطيف بحالهم الخبير بما يصلح لهم في حالهم ومآلهم واعلم يا ولدي وفلذة كبدي

ان من استغنى بعقله زل ومن تكبر على الناس ذل ومن خالط الانذال حقر ومن جالس العلماء وقر ومن مزح استخف به ومن اكثر من شيء عرف به ومن كثر كلامه كثر خطأه ومن كثر خطأه قل حياؤه واحذر يا ولدي اذا وصلت الى والدتك وسألتك ماذا رايت وماذا رويت ان تقول لها شغلني حبك عن تحقيق ما رايت او منعني شوقي اليك عن حفظ ما رويت او تفكري في حال عماتي واخواتي الصغار شوش فكري اناء الليل واطراف النهار بل قدّر انك تقول لها رايت كذا ودريته ورويت كذا وفهمته وما كفاني ما كنت اتعلمه بالنهار بل كنت اسهر تارة مع والدي وتارة وحدي الى الاسحار فعند ذلك تعظمك وتجلك كثيراً . فقبلت يده وانصرفت وعملت باشارته فاطمئن قلبي وانشرح خاطري وصرت من ذلك الوقت الى الان مشتغلاً بالاستفادة مجتهداً في الاستزادة ومن تفضل الله عليّ اجتمعت في السفينة بشخص انكليزي مع احد الملاحين له المام باللغة العربية فوقع بيني وبينه مزيد الالفة وارتفعت بطول الصحبة من بيننا اسباب الكلفة



المسامرة الثانية والعشرون

بزمان الدبن وصاحبه

(تتمة من الكتاب)

فصرت ارتع معه في رياض العلم واتمتع من فوائده بما لم اجد عنه اعتياضاً فتشبثت بحبال وده وتمسكت وتعطرت بطيب اخلاقه وتمسكت لانه فضلاً عن كونه يعلمني درسي في اللغة الانكليزية قضيت معه ايام السفينة في مسامرات وجدت لها مزية اذ كشف لي من الامور معماها وجلا عين فكري بعد عماها فتارة كان يحدثني عن سابق اسفاره وتارة يطرفني بحكايات ونوادر وتارة يتحفني بالفاظ كامثال الجواهر وكنت قبل ذلك لا التفت لتنويع اساليبه بل كان جل ميلي اليه لاجل التسلي به لكن رايت ان جميع ما يحكيه لا يخلو من فوائد اذا كان السامع نبيهاً فقلت في نفسي لماذا لا اكتب ذلك عنه واحفظ ما اسمعه منه وكل كتاب حررته لوالدي يكون بعضه من ذلك والبعض من فكري لتعلم ما علمت وتقف على قدر ما حفظت وتتسلى بعباراتي عن روية ذاتي فصرت لا اسمع منه شيئاً الا كتبته حتى جمعت من ذلك

جملة تصلح ان تسمّى عند المسافرين بالرحلة وجعلتها كسفينة آخذ منها ما يلزم واحرره لك وها انا اسرد عليك بعض ما نقلته عنه واستفدته منه وابدأ بذكر سبب معرفتي به وهو انه لما ازمعنا من الاسكندرية على الرحيل وصرنا بعيداً عن ميناها بنحو ميل نظرت الى الساحل والمدينة فوجدتهما يصغران شيئًا فشيئًا كلما بعدنا وكنت لا استطيع صرف نظري عن هذه الجهة حيث انها مسقط راسي حتى صرت لا اراها الاَّ كنقطة سوداء في وسط ضباب او هلال شك في خلال سحاب الى ان صرت لا انظر غير الماء والسحاب المسخر بين الارض والسماء فكنت ارفع نظري الى اعلى واتامل في قدرة الخالق ولا اعلم من شي شيئًا وكنت ارى السحاب تارة ينعدم وتارة يتقطع وتارة يكون متفرقًا ثم يتجمع وتارة ارى سحابة صفراء ذات نقط زرق وخضر حلت محل سحابة بيضاء وتارة كنت ارى على سطح البحر في آن واحد جملة منها في اشكال وصور والوان مختلفة تبهر النظر وكانها تطوف حول اخرى ثم اراها حلت محل بعضها وتبادلت او اخذت في التناقص او تكاملت وبعد برهة من الزمن ينعدم ذلك كله كان لم يكن فكنت اقلب طرفي الى الافق من جميع جهاته واتبعه في استدارته واختلاف اشكاله وهيآته فارى الشمس ساطعة على وجه الماء لا يحجب نورها حاجب فعند ذلك ارى للماء الوانًا لا حصر لها واذا كان البحر هاديًا والريح في سكون رايت فيه من الصور والهيئات ما لا اراه

حين يكون الغيم او تهب الرياح فارى تلك الصور تمتزج مع بعضها وتتعانق ومنها ما يعلو بعضه بعضًا فما سفل يمر في جهة وما علا يمر الى جهة اخرى وعند ذلك تسمع اصوات مختلفة كالحنين تارة وكالانين تارة وكل هذه الحركات يتعدى اثرها الى السفينة فتارة تتمايل مع اللطف وتارة تتحرك بقوة وعنف ولكون هذه اول سفرة ركبت فيها البحر واول مشاهداتي لعجائب هذه الامور كنت لا اتحول من موضعي الاّ بنداء والدي اما لتعاطي الزاد او لقضاء الحاجة او للرقاد وكنت اظن انه لو تركني وشاني لكنت اقضي الليل والنهار في مشاهدة هذه الاثار فبينما انا اتامل في اسرار هذه الآيات التي لا يحيط بعلمها الاّ عالم الخفيات واذا برجل من ملاحي المركب يقول لي بلغتي ما رايت في سفر البحر وما هذه العزلة عن الناس فقلت له انها اسلم واشرف واحسن شيء والطف اذ تجعل الافكار متجهة الى التامل في عظمة الخالق وقدرته وتعين الانسان على معرفة بديع صنعته فمن اين لك بمعرفة لغتنا ولست من جهتنا فأبن لي جليّ امرك واصدقني فقال اني تحصلت على علم العربية باربع سنوات من عمري قضيتها في الاسر والعبودية. عاينت فيها انواع الاهوال من الذل والاهانة ومشاق الاحوال وساشرح لك قضيتي ان طالت معك صحبتي لكن نسيت الان اكثر ما علمته لعدم المسامرة فيه مع اهله لان كثرة اسفارنا كانت لبلاد غير بلاد العرب ومن وقت تحولي الى سفن الكومبانية المخصصة لجوب جهة

مصر والجهات المشرقية اخذت في تذكار ما نسيت فان اردت ان اعلمك لسان الانكليز وتعلمني اللسان العربي كان ذلك مأمولي وغاية اربي فرغبت في ذلك لوجهين الاول ان يكون سميري فاتسلى بما ينقله من سابق مشاهداته والثاني ان اتعلم اللغة الانكليزية من غير تكلف ومما حملني على الميل اليه كون والدي مع صاحبه الانكليزي دائمًا في محادثاتهم العلمية فلذلك قبلت قوله لما فيه من الفائدة لي وله

فصرت اعلمه ويعلمني واظن ما استفدته منه اكثر مما استفاده مني كما سترينه وتيقنت ان ذلك سر دعاء والديّ وبركة رضاها عليّ ولو ان كلام والدي فيه اكتفاء لكني كنت لا ادري الطريق الموصلة الى معرفة ما ارشدني اليه فعرفتها من حين عرفت هذا الرجل لانه كشف لي عن امور كثيرة كنت اجهلها ومن عباراته المتنوعة وحسن لفظه اشتغلت بكتابة ما كان يلقيه وحفظه فوصلت الى درجة لم ادر مبلغها وكنت ملازمًا له لا ينفصل ذاتي من ذاته الاّ اداء ما عليه من خدماته فانقضت مدة البحر على احسن حال وهو باق معنا الى الان

فاتفق ان شاهدني ذات يوم وانا انظر الى البحر واتعجب من عظمته وقدرة مدبره واذا به قد نبهني بيده وقال لي فيمَ اطلت الفكر فقلت له في عظم هذا البحر فقال لي ليس هذا هو البحر لانه وان كان عظيمًا لكنه صغير جدًا بالنسبة لغيره من البحار اذ هو بحيرة ولان

من نهر او جعفر من بحر فقلت لا زلت ملاذا وهل هناك بحار غير هذا فتبسم متعجبًا ونظر اليّ مستغربًا وقال كانك لم تقرأ علم الجغرافية فقلت وايّ علم هذا فضحك وقال هو العلم بسطح الارض وهيئاتها في الطول والعرض وما فيها من البحار والمدائن والانهار وما اختص به كل بقعة منها واديان اهلها وكيفية حكومتهم وما هم عليه من الاخلاق والاحوال وغيرها فقلت له لم اسمع بهذا الاَّ منك ولم اروهِ الاَّ عنك فقال كيف هذا مع ان العرب هم الذين دونوه واسسوه أفتراهم الان تركوه ونسوه مع ان معرفته عند جميع اهل الاديان من اهم الواجبات على كل انسان اذ به يعلم ما على الكرة من المخلوقات ويقف على حقيقة كثير من الكائنات وبدونه تكون معرفة التاريخ عسرة ثم قال فاذًا يكون علم التاريخ عندكم مفقودًا فقلت له لا الاَّ اننا لا نجعله من الامور الضرورية اللازمة بل نعده من ضمن القصص والاخبار اذ ليس علمًا يحتاج الى معلم فيمكن ان يقراه الانسان من نفسه فلما سمع ذلك مني عبس واعرض وطاطا راسه الى الارض وسكت مليًا ثم رفع راسه وقال الان علمت سر تقهقر الملة الاسلامية وسبب ضعف اهل البلاد المشرقية وهوانها لما هجرت علم التاريخ بمدارسها زال من بين رجالها معرفة سير الماضين الذين كانوا سببًا في سطوتها وعظم بطشها وتمكن قوتها وحيث لا قوة للملة الاَّ بقوة رجالها ولا تكمل قوة الرجال الاَّ بالعلم كان ترك علم التاريخ وباقي العلوم مما

يضعف قوة الملة ويضيع شهرتها ويجعلها تحت اسر غيرها فيجور عليها ويذلها واعلم ياولدي ان فن التاريخ جم الفوائد عزيز الفرائد اذ هو يوقفنا على احوال الماضين من الامم في اخلاقهم والانبياء في سيرهم والملوك في دولهم وسياستهم حتى يقتفي اثرهم من يروم الاقتداء بهم في احوالهم الاَّ انه محتاج الى ماخذ متعددة ومعارف متنوعة وحسن نظر وتثبت يفضيان بصاحبهما الى الحق لان الاخبار اذا اعتمد فيها على مجرد النقل فربما لا يامن فيها من مزلة القدم ومنفعة علم التاريخ عامة للخاصة والعامة وهو مشير كل امير وامير كل مشير وسمير كل وزير وظهير كل سمير اذا سئل عن خبر اجاب وابدى فيه العجب العجاب ترتاح به الارواح الفاضلة وتميل اليه النفوس الكاملة من الحكماء والاساطين والملوك والسلاطين وهو مرآة الزمان ولاخبار الماضين كالترجمان فكم فيه من حوادث وامثال به نقف على ما كان عليه اباؤنا واجدادنا ومشاهير كل ارض وامة والحوادث التي مرّت بين الامم وبعضها والفتن التي اوجبت انقلاب البقاع باهلها ونرى الامم واحوالها والامراء وافعالها والعلماء واقوالها وما مر على الخلق من خير فاوجب تقدمهم وشهرتهم ومن شر فاوجب فقرهم وفاقتهم فلم يترك سيرة ملك الاَّ احصاها ولا احوال رعية الاَّ استقصاها فهو خزانة الحوادث كل احد ياخذ منه ما يلزم لصنعته فياخذ منه المجاهد ما يلزم للجهاد والعالم ما يزيد به شرفه بين العباد وصاحب الحرفة ما يزيد الرغبة في صنعته

فهو اليعسوب لكل فن والمفتاح لكل اثر حسن وغير حسن فناخذ
منه ما يلزمنا فنعلم الممدوح فنحبه والمذموم فنجتنبه فهو المنبع والاصل
لاكتساب حلل الفضل والحصن المانع من غوائل الجهل واهم
شي يجب تدريسه بالمدارس والمكاتب لتنبيه ابناء الملة على صفات
الكمال فيرغبون في اكتساب تلك الصفات ويجوزون بها اعلى
الدرجات فيعلمون صفات الابطال وما حازوه من الشرف عند
النزال لمحاماتهم عن اوطانهم ويطلعون على صفات الصالحين
الذين اورثوا ملتهم ثمرات علمهم وعملهم فيتعودون من الصغر على
الاتصاف بصفاتهم والاقتداء بافعالهم ولا يكفي ان تتعلم الاطفال
كيفية النثر ونظم الشعر واصول الكلام بل الاهم من ذلك
اكتسابهم حب الوطن وتمرينهم على ما سبق من حوادث الزمن
حتى يكونوا مثالاً وقدوة ومن الغريب اننا نرى اغلب الخلق
يرغبون في الاطلاع على سير مخترعة وخرافات واكاذيب ونحو
ذلك من الاساليب ولا يعلمون لمن اشتهر من ابناء جنسهم اثراً
ولا يروون عنه خبراً فنراهم يجهلون سير المشهورين من ابناء ملتهم
ولا يعرفون نسبهم ولا حسبهم ويعتنون بمعرفة من مات من منذ
آلاف سنين اكثر من اعتنائهم بنسبة اقاربهم وجنسهم والمتصرف
في امرهم ويرغبون في معرفة البلاد البعيدة ولا يعتنون بمعرفة
ارضهم وارض المدينة القاطنين بها

فخجلت من كلامه وتمنيت ان تكون تربيتي حسب مرامه

فحين رأى ذلك مني اراد ان يذهب الخجل عني . فقال لا باس عليك فانه لم يهتد بنفسه احد وليس التقصير من قبلك وانما اللوم والمعتبة على من نُصبت لهُ اعلام الهداية وهو ينظر فلم يدل عليها وبانت لهُ غاية الرشد فلم يسلك بنفسه واتباعه اليها وعلم فوائد التربية فلم يطلبها واعطي كواسب الجوارح فلم يرسلها وظهرت لهُ الفضائل فلم يكسبها من كافل ارتفق وساد الراحة وقعد بهِ الكسل وهو يرى نجاحه وامير اخمد همته الاغفال واخمل ذكر مساعيه الاهمال وكل راع عن رعيته مسئول وكل طالب مآخذ الخيرات عليها مدلول

فقلت له نصحت فابلغت وسمعت فوعيت فلك الشكر على ما افدت واسأل الله ان يبلغني بك ما قصدت فلقد دللت طالبًا ونبهت نائمًا وعرفت مجهولاً وانلت مسئولا وفتحت لي ابواب الطلب وشددت يدي منه باقوى سبب وتركتني انظر الامر بعين ما كنت انظر بها فلقد انشيء بمصر مدارس لتعليم الشبان اظن ان العمل جار فيها على ما وصفت ومسلوك بابنائها في التعليم والتربية الطريق التي اوضحت

فقال ان صح ذلك فقد طابت اعمالهم وتسابقت في رضاهم امالهم واستحق ولاتها الثناء الجميل واستفادوا من الملك الاعلى الجزاء الجزيل وانا ان شاء الله تعالى لا آلو جهدًا في ارشادك وتبليغك من المعرفة الى مرادك ان طاب مقامي وبلغت مرامي فقلت له

ما مرامك وبمَ يطيب مقامك فاطرق اطراق الحزين حتى سمعت من صدره بعض الانين ثم رفع راسه مصعدًا انفاسه وقال الانسان ممتحن ولا عتب على الزمن فقد الجأتني الضرورة الى الاحتراف وترامت بي الحاجة فيما تراه من الاعتساف فليس لي امنية غير سكنى الارض القارة ولو قدرت ما اقمت بهذه المنازل الكارة الفارة فان بلغت مقصودي بذلت في تربيتك مجهودي وارجوك ان تسأل حضرة الوالد ان يكلم صاحبه في امري واني ارغب الدخول في جملته والتمكن من الاقامة بخدمته فوعدته بذلك واقبلت عليه مستخرجًا بالسؤال مكنون ما لديه فبادر بالاجابة وقال ان شئت جعلنا اول مسامرة بيننا كلامًا اجماليًا من علم الجغرافيا فيما يتعلق بهذه الارض التي هي مسكننا يكون كالمقدمة المشوقة الى الاعتناء بتعرف تفاصيل ذلك العلم النفيس وعند بلوغ المقصود ان شاء الله تعالى تحصل على ما يلزم لك من الآلات التي تجعلك بالنظر فيها عند التعلم كانك تنظر من مكانك الى جميع بقاع الارض وبحارها وانهارها وجبالها فاظهرت الابتهاج بحسن نيته واثنيت على لطف اخلاقه وحسن سجيته واخذت القلم لاكتب ما يمليه لاتذكر ما اسمعه منه واعيه فلم ينطق بكلمة الا كتبتها ورايت ان اثبت ذلك في هذا الكتاب الذي سطرته لكي ادخل السرور والاطمئنان على قلب اشفق الناس علي واميلهم لايصال كل خير اليّ ليزيد سرور والدتي بما حصلت

عليه من المعارف ولتاخذ في تلقيح افكار اخوتي بما يكون محمود العاقبة لها ولاولادها ان شاء الله تعالى فاني علمت انه ليس انفع من طرح بعض المعارف الاولية في اذهان الصغار فانه يكون كالبذر يلقى في الارض النقية يرجى ان تظل اشجاره وتجنى باطراف الانامل ثماره وما علي ان يطول المكتوب اذا اشتمل على اجل مرغوب ومطلوب

المسامرة الثالثة والعشرون

الجغرافية والتاريخ

(نبذة من الكتاب)

قال يعقوب يابني كان الناس في سالف الزمان يعتقدون في اكثر الامور خلاف ما هي عليه فمن ذلك امر الارض فان الناس كانوا يعتقدون انها قطعة بسيطة كالصحيفة ذات شكل مربع او مثلث وسمك بالغ ما بلغ الى ان جاء الحكيم المشهور ارسطو فقال ان الارض كسائر الكواكب على شكل الكرة

وبرهن على ذلك وما زال الناس مشتغلين بهذه المسألة حتى صار العلم بكون الارض كرة من قبيل العلوم الضرورية الاَّ ان فيها نوع انخساف من جهة قطبيها فهي كالبطيخة · وقطباها عبارة عن النقطتين اللتين احداها بمنزلة عنق البطيخة والاخرى بمنزلة ما يقابله منها والدائرة العظمى التي تقسمها نصفين فيما بين القطبين تسمى خط الاستواء لكونها تحاذي الشمس في السنة مرتين فيستوي عند ذلك الليل والنهار وموقعها من الفراغ على بعد (١٥٢،٨٨٨،٢٥٠،٠٠٠) ميريامتر من الشمس وتتم دورتها حول الشمس في ثلث مائة وخمسة وستين يومًا وخمس ساعات وثماني واربعين دقيقة وتسع عشرة ثانية وتتم دورتها على نفسها في اربع وعشرين ساعة وقدر نصف الخط الواصل بين قطبيها ٦،٣٥٥،٩٤٣ مترًا وقدر نصف قطر دائرة الاستواء ٦،٣٧٦،٨٥١ مترًا ومساحتها ٥،٠٩٨،٨٥٧ ميريامتر مربع (والميريا متر) كلمة افرنكية معناها عشرة الاف متر وهي عبارة عن ٢٨٣٣ قصبة وحجمها ٦،٠٨٢،٦٣٤،٠٠٠ ميريامتر مكعب وتنقسم من المركز الى السطح بالنظر للمواد التي هي مركبة منها الى قسمين الاول القسم المركزي وهو ما قارب المركز نصف قطره (٥٦٠) ميريامتر والثاني القسم السطحي وهو القشرة الباقية وهي ما فوق القسم الاول الى ظاهر سطح الارض ويختلف سمكها من اثنين من الميريا متر الى اربعة منه فاما القسم الاول فان الناس

وان لم يصلوا الى رؤية شيء منه البتة الا انهم بحثوا فيه وتكلموا عليه وتطلبوا معرفته بالفكر والنظر العقلي والاستدلال ببعض الامور الارضية كالمياه الحارة النابعة من جوفها وجبال النار والزلازل وغيرها فقالوا ان ذلك القسم جميعه معدني شديد الحرارة ملتهب مائع واما الجزء السطحي فهو ايضاً وان لم يتعمق الانسان فيه زيادة عن ستمائة متر الا انه علم تركيبه من المواد المقذوفة من افواه جبال النار المعروفة بالبراكين ومن تركيب طبقات الجبال الشامخة فالجبل الذي ارتفاعه ثمانية آلاف متر مثلا يدل على تركيب عمق من الارض بقدر ذلك الارتفاع وعلى اي حال فهذا الجزء السطحي من الكرة عبارة عن طبقات متوالية مختلفة التركيب والسمك والاتجاه وقد قسم علماء فن الجيولوجية (اي علم طبقات الارض) هذا الجزء من الكرة الى طبقات سموا كل طبقة منها باسم مخصوص وتفصيل ذلك في كتب الفن المذكور وانما الذي يلزمنا الان هو ان نعلم ان سطح الكرة ليس مستوياً وان بهِ محال مرتفعة عن الماء خارجة عنه وتسمى اليابسة والقارة ومحلات منخفضة مغمورة بالماء وتسمى البحار وهذا الارتفاع والانخفاض اما لاسباب قوية اثرت في بعض اجزاء الارض فخفضتها واما لقوة فعالة قذفت البعض الاخر فرفعته فحصل ما تراه من الارتفاع والانخفاض وعلى كل فالمرتفع من الارض اعني القارة هو المسكون وينقسم الى سهل وجبل وجزيرة وشبه جزيرة وغير

ذلك والمنخفض منها ينقسم ايضاً الى بحر وخليج وبحيرة وغير ذلك وسعة الارض اليابسة ١٣٦٦٣٩٩ ميريامتر مربع وسعة البحور ٣٨٥٢٥٥٨ ميريا متر فجميع الارض اليابسة لا تزيد عن ربع سعة البحور تقريباً ولكل من البحار والارض القارة تفصيلات واقسام لها اسماء واصطلاحات ستعلمها فيما بعد ان شاء الله تعالى ولا حاجة لنا الى الكلام عليها الآن وانما نقول ان الارض القارة كما ارتفعت عن البحر قد ارتفعت بعض جهاتها عن باقيها فما ارتفع منها ان كان كثير الارتفاع فهو الجبل وان كان قليل الارتفاع فهي الهضبة ومتى اتصلت الجبال ببعضها وامتدت الى مسافات بعيدة قيل لها سلسلة جبال وقد يخرج من الجبل في بعض الجهات فروع تمتد الى انحاء مختلفة ويخرج من هذه الفروع فروع اخرى حتى تشغل الولاية بتمامها ولا بد لكل جبلين من وهدة بينهما اما صغيرة ويقال لها الشعب او كبيرة ويقال لها الوادي وفي هذه الوهاد تكون مجاري الانهر والخلجان فتسير منها حتى تنصب في البحار فمنابع الانهر من الجبال ومصبها في البحار

ويوجد على سطح الكرة نباتات وحيوانات منها ما يختص بجهة ومنها ما يوجد بسائر الجهات وهي تكثر كلما قربت من جهة خط الاستواء وتقل كلما قربت من القطبين والذي علم الى الان من اصناف النباتات قريب من ثمانين الفاً وهي تنقسم الى قسمين الاول النباتات اللابزرية وهي نباتات عديمة الفلقة البزرية

كالشيبة والحشيش البحري والقسم الثاني النباتات البزرية وهي التي لها فلقة بزرية كالحنطة والنخل . والذي علم من اصناف الحيوان قريب من مائة الف وقد قسمت الى اربعة اقسام القسم الاول الحيوانات الفقارية وهي التي لها هيكل عظمي كالانسان . القسم الثاني الحيوانات الرخوة وهي عديمة العظام من داخل ولها غطاء من الظاهر كالمحار . القسم الثالث الحيوانات المفصلية وهي مركبة من كثيرة متحركة على بعضها كالعنكبوت . الرابع الحيوانات الشعاعية وهي حيوانات تكون فيها قوة التركيب ضعيفة وهي تقرب من النباتات ولذلك تحسب واسطة بين الحيوان والنبات ولا يعلم لها من الحواس الا اللمس وذلك كالاسفنج فانه اذا وضعت عليه اليد وهو في البحر انقبض وانكمش وتحت هذه الاقسام انواع كثيرة واشرف جميع هذه الانواع نوع الانسان لانه يعيش في جميع بقاع الارض فجميعها مسكنه ومحل سلطانه وهو وان كان نوعًا واحدًا لكنه ينقسم ثلاثة اقسام الاول الابيض ويعرف بالقوقاسى نسبة الى قوقاس ويقال قوة قاف (كوه قاف) اي جبل قاف وهو جبل في بلاد الجركس بين بحر الخزر والبحر الاسود وهذا القسم يمتاز ببياض اللون وحمرة الخد ورقة الانف وشممه وضيق الفم واستقامة الاسنان القواطع وحسن استدارة القحف ولين الشعر وطوله واسترساله وكثافة اللحية وعلو الجبهة ومنه سكان بلاد اوروبا ونسلهم في امريكا وسكان غربي آسيا اي العرب والفرس

واليهود والسريان والتتار وهو في شمالي اوربا وأَواسط آسيا يندرج في القسم الثاني حتى لا يكاد ينتسب عنه وقد انتسب الى قوقاس لان اهل تلك النواحي اي الجراكسة والكرج اجمل اهل الدنيا واكمل هذا الاسم في صفاته الخصوصيه القسم الثاني الاصفر ويعرف بالمغولي نسبة الى المغول وهو قسم من التتار ويقال انهم في الاصل من جبال التائي في شمال الصين وهذا القسم يمتاز بكونه اصفر البشرة مربع القحف مخروطي الجبهة عريض الوجه مفرطحهُ ناتيء الخدين اسود العينين ضيقهما مع ميلهما الى الجهـــة الوحشية صغير الانف افطسهُ خفيف اللحية اسود الشعر قليلهُ مع الخشونة وهو اقصر قامة من القسم الاول ومنه اهل الضين والهند ويابان وشمالي اسيا وشمالي بلاد المسكوب في اوربا وشمالي امريكا غير ان سكان اميريكا المعروفين بالاسكيمو لهم تعلق بالقسم الثالث حتى زعم البعض انهم نتاج اختلاط القسم الثاني والثالث٠ القسم الثالث الاسود وهو يمتـــاز بسواد البشرة ولهُ ثلاثة فروع اولها الملقّي نسبة الى شبه جزيرة ملقّا ويمتاز باللون الزيتوني وسواد الشعر وغزارته مع جعودة قليلة وضيق الراس وكبر الانف ومنه سكان ملقا وجزائر المحيط وجزيرة ماداغسقر ويقال انه فرع من القسم الثاني المتقدم ثانيها الاميركاني ويمتاز باللون النحاسي وسواد الشعر واسترساله وخفة اللحية وانخفاض الجبهة وارتفاع عظم الخد وطول القامة ومنه سكان اميريكا الاصليون الذين

وجدوا في القارَّتين الغربيتين قبل وصول اهل اوربا الى هناك ثالثها الزنجي ويمتاز بشدة سواد البشرة وجعودة الشعر وسواده وقصره وانخفاض الجبهة ومقدم القحف وفطس الانف وعرض الخد واتساع الفم وضخامة الشفتين وبروز الفم على هيئة الخرطوم وبياض الاسنان ومنه اكثر سكان اواسط افريقية وجنوبها وهذه الاقسام في بعض الجهات قد امتزج بعضها ببعض ونتج من ذلك فروع عديدة يتعسر الحاقها باصولها والانسان وان شارك غيره من الحيوانات في كثير من الصفات الّا انهُ اختص بامور كثيرة منها حسن الصورة واعتدال القامة والتسلط علي ما في الارض والتمتع بهِ والتمكن من الصناعات وغير ذلك مما لا يكاد يحيط بهِ نطاق العبارة واعظم مميز لهُ العلوم والادراكات بما ركب فيه من القوى المدركة التي بها يميز الحق من الباطل والحسن من القبيح فيعلم بافكاره جميع احتياجاته ويعبر عنهـــا بالنطق فالتكلم حينئذٍ هو الآلة التي تسوق الجمعية البشرية الى الكمال وتمام الالفة وحسن الخصال



المسامرة الرابعة والعشرون

العبادات

(نتمة من الكتاب)

وجميع افراد النوع البشري مائلون بالفطرة الى تعظيم الخالق سبحانه لكن منهم من استدل فاهتدى ووصل ومنهم من اخطأ طريق الصواب فضل وأضل وينقسم الخلق بحسب الاعتقاد الى قسمين وكل قسم تحته طوائف ومذاهب كثيرة

القسم الاول من يقول ان الاله المعبود لا يكون الاّ واحداً في ذاته وفي صفاته وان العبادة لا تكون الا لهُ

القسم الثاني من يقول بتعدد الآلهة وتحت هذا القسم فرق متعددة

الاولى جعلت لبعض الكواكب تأثيرًا فعبدوها وكان ذلك كثيرًا في الامم السالفة ولا يوجد الآن الاّ عند القليل

الثانية جعلت صفات الالوهية لبعض مخلوقات اخر فعبدوها وهم المتمدنون من الامم السابقين وقد انقطع اثرهم بالكلية

الثالثة تقول ان الاله يظهر في صور متعددة سماوية وبشرية

وحيوانية وهم البراهمة باسيا ومن هذه الفرقة من يعتقد ان الاله عبارة عن متسع في الجو يجتمع فيه ارواح المخلوقات وفيه مجتمع اهل السعادة الذين تجردوا عن المادة وانهم ينزلون الى الارض في صورة بشرية لتطهير النوع البشري من الاوزار ويسمون هذه الارواح (بوضا) وعدد هذه الفرقة اكثر من مائتي مليون

الرابعة وان لم يتحقق لنا اعتقادها الاَّ انها تميل الى تعظيم المادة وهي بعض سكان اسيا من جهة المشرق . فاما القسم الاول فينقسم الى ثلاث طوائف الاولى العبرانية وهذه لا تصدق الا بما جاء بهِ موسى وانبياء بني اسرائيل وينتظرون المسيح وعدد هذه الطائفة قريب من اربعة ملايين وهي متفرقة في جميع بقاع الارض . الطائفة الثانية العيسوية يقولون بما انزل على موسى والانبياء وبما انزل على عيسى بن مريم وقد انقسمت هذه الطائفة الى فرقتين الاولى التابعون للكنيسة الكاثوليكية الرومانية وعددهم قريب من مائتي مليون وهم باوروبا من جهة الشمال والثانية التابعون للكنيسة الرومية وهم باوروبا من جهة الشرق وعددهم ستون مليونًا تقريبًا ولا فرق بين الكنيستين الا في بعض عقائد دينية وكون البابا نائبًا عن المسيح او لا وينقسم اتباع الكنيسة الرومانية المذكورة الى قسمين كاثوليكية ومعتقدهم ان البابا هو رئيس الديانة فيعتقدون صدقه ويقتدون بهِ في فعله وعددهم مائة واربعون مليونًا والثاني البروتسطانت وهولاء لا يقولون الاَّ بما في الانجيل وعددهم ستون

مليونًا ويجيزون زواج القسيس ولا يقولون بالصور والتماثيل بخلاف فرقة الكنيسة الاولى وكذلك فرقة البروتستانية تنقسم الى مذهبين احدهما اللوتيري نسبة الى واضعه لوتير والثاني الكلفيني نسبة الى واضعه كلفين واهل المذهب الاول يقولون بحضور عيسى حقيقة في العشاء الرباني وهو عندهم عبارة عن خبز ونبيذ يقدمها الكاهن للناس بعد التقديس ويقولون انهما يستحيلان الى جسد المسيح ودمه بل الى لاهوته ونفسه الناطقة واهل هذا المذهب يقبلون تفاوت درجات القسس بخلاف اهل المذهب الثاني

الطائفة الثالثة المحمدية قال وانت اعلم بعقيدتهم واصول دينهم ومذاهبهم وفرقهم فلا ينبغي لي ان اشرحهم لمثلك وانما احب ان اسمع منك ان نشطت شرح بعض امورهم فقلت نعم الملة المحمدية هي دين الاسلام وهي مبنية على التصديق بما جاء بهِ نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وقد افترقت وانقسمت كغيرها حسبما اخبر بهِ صلى الله عليه وسلم الى ثلاث وسبعين فرقة منها الفرقة الناجية وهم الذين على ما كان عليه رسول الله واصحابه وقد كان المسلمون عند وفاة النبي صلى الله عليه وسلم على عقيدة واحدة وطريقة واحدة الا من كان يبطن النفاق ويظهر الوفاق ثم نشأ الخلاف فيما بينهم اولاً في أمور اجتهادية لا توجب ايمانًا ولا كفرًا وكان غرضهم منها اقامة مراسم الدين وادامة مناهج الشرع

القويم وذلك كاختلافهم في موضع دفنه بمكة او المدينة او المقدس حتى سمعوا ما روي عنه من ان الانبياء يدفنون حيث يموتون فدفنوه بالمدينة وكاختلافهم في الامامة وما جرى في وقعة الجمل وصفين ثم اختلافهم ايضًا في بعض الاحكام الفروعية وكان الخلاف يتدرّج ويترقى شيئًا فشيئًا الى اخر ايام الصحابة حتى ظهر معبد الجهني وغيلان الدمشقي ويونس الاسواري وخالفوا في القدر واسناد جميع الاشياء الى تقدير الله ولم يزل الخلاف يتشعب والآراء تتفرق حتى تفرق اهل الاسلام وارباب المقالات الى ثلاث وسبعين فرقة كما ذكر وهي ترجع الى فرق كبيرة

الفرقة الاولى المعتزلة اصحاب واصل بن عطاء كان في مجلس الحسن البصري فدخل رجل فقال للحسن يا امام الدين ظهر في زماننا جماعة يكفرون صاحب الكبيرة (يعني جماعة من الخوارج) وجماعة اخرى يرجئون الكبائر (يعني المرجئة) ويقولون لا تضر مع الايمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة فكيف تحكم لنا ان نعتقد في ذلك فتفكر الحسن وقبل ان يجيب قال واصل انا لا اقول ان صاحب الكبيرة موْمن ولا كافر ثم قام الى اسطوانة من اسطوانات المسجد واخذ يقرر على جماعة من اصحاب الحسن ما اجاب بهِ من ان مرتكب الكبيرة ليس بموْمن ولا كافر ويثبت لهُ المنزلة بين المنزلتين فقال الحسن البصري قد اعتزل عنا واصل فلذلك سمي هو واصحابه معتزلة وهم يقولون بان القدم اخص

وصف الله لا يشاركه فيه ذات ولا صفة وينفون الصفات الزائدة على الذات ويقولون بان كلامه مخلوق محدث وبانه غير مرئي في الاخرة الى غير ذلك

الفرقة الثانية الشيعة اي الذين شايعوا عليًا رضي الله عنه وكرم وجهه وقالوا انه الامام بعد رسول الله بالنص اما جليًا واما خفيًا واعتقدوا ان الامامة لا تخرج عنه وعن اولاده وان خرجت فاما بظلم يكون من غيرهم او بتقية منه ومن اولاده

الفرقة الثالثة الخوارج ومنهم الذين خرجوا على عليّ عند التحكيم وكفروه فسموا المحكمة وهم اثنا عشر الف رجل قالوا من نصب من قريش وغيرهم وعدل فهو امام ولم يوجبوا نصب الامام وكفروا عثمان واكثر الصحابة ومرتكب الكبيرة

الفرقة الرابعة المرجئة لقبوا بهِ لانهم يرجئون العمل عن النية اي يؤخرونه في الرتبة عنها وعن الاعتقاد او لانهم يقولون لا ينفع مع الايمان طاعة كما لا يضر مع الكفر معصية

الفرقة الخامسة النجارية اصحاب محمد بن الحسن النجار وهم يوافقون اهل السنة في خلق الافعال وان العبد يكتسب فعله ويوافقون المعتزلة في نفي الصفات الوجودية ونفي الرؤية وحدوث الكلام

الفرقة السادسة الجبرية قالوا ان المعبود مجبور في افعاله

ومنهم الجهمية اصحاب جهم بن صفوان القائلون بان العبد لا قدرة لهُ اصلاً ولا مؤثرة ولا كاسبة وهو بمنزلة الجمادات فيما يوجد منها

الفرقة السابعة المشبهة شبهوا الله سبحانه بالمخلوقات

الفرقة الثامنة الناجية وهم اهل السنة والجماعة الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم هم الذين على ما انا عليه واصحابي ومذهبهم خال عن بدع الفرق المتقدمة وقد اجمعوا على حدوث العالم ووجود الباري سبحانه وانه لا خالق سواه وانه قديم متصف بالعلم والقدرة وسائر صفات الجلال لا شبيه لهُ ولا ضد ولا ند ولا يحل في شيء ولا يقوم بذاته حادث ليس في حيز ولا جهة ولا يصح عليه الحركة والانتقال ولا الجهل ولا شي من صفات النقص مرئي في الآخرة ما شاء الله كان وما لم يشاء لم يكن غني لا يحتاج الى شيء ولا يجب عليه شيء ان اثاب فبفضله وان عاقب فبعدله لا غرض لفعله ولا حاكم سواه لا يوصف فيما يفعل او يحكم بجور ولا ظلم وهو غير متبعض ولا لهُ حدّ ولا نهاية ولهُ الزيادة والنقصان في مخلوقاته والمعاد الجسماني حق وكذا المجازاة والمحاسبة والصراط والميزان وخلق الجنة والنار وخلود اهل الجنة فيها والكفار في النار ويجوز العفو عن المذنبين والشفاعة حق وبعثة الرسل بالمعجزات حق من آدم الى محمد عليهم الصلاة والسلام واهل بيعة الرضوان واهل بدر من اهل

الجنة والامام يجب نصبه على المكلفين والامام الحق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ابو بكر ثم عمر ثم عثمان ثم علي ولا نكفر احداً من اهل القبلة الاَّ بما فيه نفي للصانع القادر العليم او شرك او انكار للنبوة او لما علم مجيئه عليه السلام ضرورة او لمجمع عليه كاستحلال المحرمات واما ما عداه فالقائل بهِ مبتدع غير كافر ولهذه الملة الاسلامية اعمال بدنية واعمال قلبية وواجبات ومحرمات ومندوبات ومكروهات فالبدنية ترجع الى خمس خصال شهادة الا اله الا الله وان محمداً رسول الله واقامة الصلاة وإيتـــاء الزكاة وصوم رمضان وحج بيت الله والقلبية مرجعها الاخلاص لله عزّ وجل في القول والعمل والواجب مثل ما ذكر من الاعمال ومثل اداء الامانات والانفاق على ما تلزم نفقته من الاهل والعيال والمحرم مثل الغش والغيبة والنميمة والحقد والحسد والاضرار بأحد في نفسه او عرضه او ماله الا بحقه والمندوب مثل اصطناع المعروف وانظار المعسر والمكروه مثل اخفاء عيب في سلعة لا يلزم بهِ ردها ونحو ذلك فهذه نبذة اجمالية من احوال هذه الامة والتفصيل يحتاج الى التطويل واريد ان تعود الى تتميم ما بدأته من الكلام فما المعروف الا بالتمام



المسامرة الخامسة والعشرون

الانسان وهيأة الاجتماع

(تتمة من الكتاب)

فقال نعم قد قدمنا القول على اقسام نوع الانسان ودياناته بما انساق به القول الى هذا المقام والان نقول ان هذا النوع الانساني من طبعه حب الالفة والميل الى الجمعية ولذلك يقولون الانسان مدني بالطبع اي لا بد له من الاجتماع الذي هو معنى المدنية في اصطلاحهم وبيان ذلك ان الله تعالى خلق الانسان وركبه على صورة لا بقاء له عليها الاّ بالغذاء وهداه الى التماسه بفطرته وتحصيله بما اودع فيه من فكره وقدرته الاّ ان قدرة الواحد من البشر قاصرة عن تحصيل حاجته وغير وافية بما يلزم لمادة حياته فلو فرضنا اقل ما يمكن فرضه وهو قوت يوم من الحنطة مثلاً فلا يحصل الاّ بعلاج كثير من الطحن والعجن والخبز والطبخ وكل واحد من هذه الاعمال يحتاج الى مواعين كثيرة وآلات لا تتم الاّ بكثير من اهل الصناعات كالحداد والنجار والفاخوري وغير ذلك ولو فرضنا انه ياكله حبًا من غير علاج فهو ايضًا يحتاج في تحصيله

حبًا الى اعمال كثيرة كالزراعة والحصاد والدرس الذي يخرج الحب من غلاف السنبل وكل واحد من هذه يحتاج الى آلات متعددة وصنائع كثيرة اكثر من الاولى ومن المستحيل ان توفي قدرة الواحد بذلك كله او بعضه فحينئذٍ لا بد من اجتماع القدر الكثير من ابناء جنسهِ فيحصل بالتعاون قدر الكفاية لاضعافهم وكذلك يحتاج كل واحد في المدافعة عن نفسه الى الاستعانة بابناء جنسه لان الله سبحانه وتعالى لما ركب الطباع في الحيوانات وقسم القوى بينها جعل حظوظ كثير من الحيوانات العجم من القوة اكمل من حظ الانسان فقوة الفرس مثلاً اعظم من قوة الانسان بكثير وكذا قدرة الحمار والثور وقدرة الاسد والفيل اضعاف قوته ولما كان العدوان طبيعيًا في الحيوانات جعل لكل واحد منها عضوًا لدفع ما يصل اليه من تعدي غيره وجعل للانسان عوضًا عن ذلك كله الفكر واليد فاليد مهيئة للصنائع خادمة للفكر والصنائع تحصل له الآلات التي تنوب عن الجوارح المعدة في جميع الحيوانات للدفاع كالرماح النائبة عن القرون الناطحة والسيوف النائبة عن المخالب الجارحة لكن قوة الواحد من البشر لا تقاوم قوة الواحد من الحيوانات العجم لا سيما المفترسة فهو عاجز عن مدافعتها وحده ولا تفي قدرته ايضًا باتخاذ الآلات المعدة للمدافعة وحده مستقلاً بنفسه لكثرتها وكثرة الصنائع اللازمة لاعمالها واستعمالها فلا بد له في ذلك كله من التعاون بابناء جنسه

لتتم حكمة الله تعالى في بقائه وحفظ نوعه والاّ لم يتيسر له غذاؤه ولا المدافعة عن نفسه فيكون عرضة للخطر وفريسة للحيوانات وطعمة للطيور ويبطل نوع البشر فاذا وجد التعاون حصل له القوت للغذاء والسلاح للمدافعة فظهر بما ذكر ان الاجتماع ضروري للنوع الانساني ثم اذا حصل هذا الاجتماع فلا بد لهم من وازع ورادع يدفع بعضهم عن بعض لما في طباعهم الحيوانية من العدوان والظلم اذ ليس السلاح الذي جعل دافعاً للحيوانات العجم كافياً لدفع عدوانهم على بعضهم لانه موجود عند جميعهم فحينئذٍ لا بد لهم من شيء اخر يدفع عدوان بعضهم عن بعض ولا يتصور ان يكون من غير جنسهم لقصور مدارك جميع الحيوانات عن مداركهم فيتعين ان يكون واحداً منهم وان يكون له عليهم الغلبة والسلطان حتى يتمكن بذلك من كف القوي منهم عن الضعيف ويستخلص للعاجز من القادر وينتصف للمظلوم من الظالم فينكف شر بعضهم عن بعض بعدله ويعم الأَمن جميعهم تحت ظله وهذا هو معنى الملك فلا بد لهم منه ولا بد ايضاً ان يكون متميزاً عنهم بخواص حتى يقع التسليم له والقبول منه لينفذ حكمه فيهم وعليهم من غير انكار ولا تزييف ولكن لا يتم عز هذا الملك الاّ بالشريعة والقيام لله بالطاعة والتصرف تحت امره ونهيه ولا قوام للشريعة الاّ بالملك ولا عز للملك الاّ بالرجال ولا قوام للرجال الاّ بالمال ولا سبيل الى المال الاّ بالعمارة ولا سبيل للعمارة الاّ بالعدل والعدل هو

الميزان المنصوب بين الخليقة نصبه الرب وجعله له قيما وهو الملك ولذا يقال لا ملك الاّ بالجند ولا جند الاّ بالمال ولا مال الاّ بالخراج ولا خراج الاّ بالعمارة ولا عمارة الاَّ بالعدل ولا عدل الاّ باصلاح العمال ولا تصلح العمال الاّ باستقامة الوزراء وراس الكل تفقد الملك احوال رعيته بنفسه واقتداره على تاديبها حتى يملكها ولا تملكه وقد وضع في هذا المعنى دائرة جامعة لثماني كلمات حكمية سياسية ارتبط بعضها ببعض وارتد اعجازها على صدورها فلا يتعين طرفها وهي هذه وقد رسمتها لك في ظهر الجواب لتحفظي صورتها مع الورق الذي عندكِ في الدولاب

ثم قال لي بعد ذلك ان الحكومة تنقسم الى صورتين. الاولى الحكومة الجمهورية وهي ان يكون الحكم مفوضًا لمجلس مركب من اعضاء تنتخبهم الرعية لادارة امور المملكة تحت قوانين يلزمهم العمل بها وعدم الخروج عنها. الثانية السلطنة والحكومة الملكية وهو ان يكون زمام الحكم والتدبير والامر والنهي بيد شخص واحد وهو الملك وهذه ايضًا تنقسم الى قسمين مقيدة ومطلقة لانه اما ان يكون الملك مقيدًا بقوانين وشرائع لا يستطيع الخروج عنها الى هوى نفسه وهي الحكومة الملكية المقيدة واما ان يكون غير مقيد بشي من ذلك يحكم برايه ويتصرف بهوى نفسه فيكون. رايه شريعة المملكة وحكمه قانونها وهي الحكومة الملكية المطلقة وتنقسم الادارة في الحكومة الى ادارة دينية وادارة سياسية وادارة عسكرية وادارة مالية

ولا بد لكل دولة من ايرادٍ كافٍ لها وهو عبارة عن مجموع مقادير مقررة على الرعية للقيام بما يلزمها من النفقات وتكون هذه المقادير مضروبة على الاشخاص او على املاكهم واراضيهم او على ما يتجرون فيه ويستعملونه وينضم اليه ما يحدث من بعض العوائد كالمكوس والجمارك ومتى كان ايراد الدولة غير كافٍ لما يلزمها من المصارف الضرورية او ما تريد استحداثه من الامور النافعة لعامة الرعية كاجراء الانهر وعمل القناطر استدانت ما يلزم لذلك وقد كان الناس في مبادى احوالهم قبل اختلاط الامم واتصالهم متفرقين في بقاع الارض تسكن كل امة في جزيرة او قطعة من القارة محدودة بالجبال او بالانهر لا تختلط بغيرها الاَّ عند بعض حروب تكون بينها وبين من يليها من الناس وكانت مساكن الناس في اول الامر متبددة متفرقة ثم تضامت وتقاربت فحدث من ذلك الكفور والقرى والبلدان والمدن فكانوا غالبًا على شواطي الانهر والبحار وتارة في المواضع المرتفعة من الاودية وفي النادر فوق الجبال وبازدياد التمدن اتصلت المدن ببعضها بواسطة المسالك والطرق وكان غالب الطرق اولاً في المواضع المنخفضة من الاودية للتوصل الى الجهات المشهورة ثم عملت طرق مقاطعة لها ولم تعمل الطرق الموازية للجبال الاَّ اخيرًا ولما اتسع التمدن وكثرت علائق الاجتماع ووجدت تلك الطرق غير كافية حدثت الخلجان الصناعية القاطعة للانهر والجبال وغير القاطعة لها وصار

توزيع فروق ارتفاعاتها بواسطة احواض تعمل في محلات تقاطعها واتصالها بغيرها (وهي المعروفة بالهويسات جمع هويس محرف حوض) ولانعدام بعض الحدود الطبيعية للارض بسبب اختراع الطرق القاطعة لها نتج اعمال الحصون والقلاع لتمييز الحدود والفصل بين المتجاورين من الامم وبعضهم ومع هذا فكانت الحدود الطبيعية احسن فائدة لان بها يتم شروط الامن والملكية واحسن الحدود ما كان بالصحاري ثم ما كان بالابحر ثم ما كان بالجبال ثم الانهر ولكن لما كانت تلك الحدود في الغالب لا تفي بتحصيل الامن بين الامم المختلفة اضطر الناس الى تكميلها بموانع صناعية فنشاء من ذلك اتخاذ الحصون لحصول هذا الغرض وهي قسمان ثابتة وغير ثابتة فالاولى هي الحصون البرية وتبنى بمصاريف كثيرة ومؤنة كبيرة وتكون على رؤس الاودية وسواحل البحار والانهار ومحلات تقاطع الطرق وسائر المواضع التي ليس فيها موانع طبيعية او فيها موانع غير كافية للحفظ وهذه الموانع سواء كانت صناعية او طبيعية لا تفي بالغرض المطلوب الاّ اذا استكملت شروطها من الاتصال ببعضها بحيث يكون بينها ارتباط يمنع العدو من الاستيلا عليها من غير ان يكون عرضة للاسر والتلف والخطر والثانية اعني غير الثابتة هي السفن البحرية ثم كل من هذه الموانع الثابتة وغيرها لا تقوم بنفسها في صد العدو والمحاماة عن الدولة والامة بل لا بد من طائفة من رجال الامة يقومون عليها ويدافعون عن

المملكة واهلها وهذه الطائفة التي تقوم بامر المدافعة اما ان تكون عساكر مخصوصة معدة لهذا الامر مستعدة للسير والسفر الى كل جهة تؤمر بالمسير اليها فيكون لها علوفات ومرتبات بقدر الكفاية واما ان تكون رديفًا يطلب عند الاحتياج وليس لهم علوفة ولا مرتب وبعض هذه العساكر يكون في البر وبعضهم في السفن في البحر وتلتجئ البرية في تقلبات احوالها الى القلاع والحصون الارضية وتلتجيء البحرية الى المينات المحصنة قال ولذلك تفاصيل شرحها يطول ولك الان في هذا القدر مقنع وكفاية وسنصل ان شاء الله بالتدريج للغاية



المسامرة السادسة والعشرون

ختام كتاب برهان الدين

فهذا آخر ما القاه عليَّ من هذه المسائل كتبته لينتفع بهِ اخوتي كما ذكرت وتعلمي درجة اجتهادي واشتغالي بما حررت وانا ارجوان لا تحرميني من وعظك واتحافي برقيق لفظك ولا تكتمي عني شيئاً من امركم فاني متشوق لجميع خبركم ونحن بفضل الله في صحة تامة مجتهدين في تعلم اللغة الانكليزية والدي مع صاحبه وانا مع صاحبي وفي بعض الاوقات احضر مع والدي بعض دروسه وانقل ما اجده في كراريسه واما الخواجا فانه رجل ذو لطف وادب لم يتغير عن اسلوبه لحظة ولم اسمع منه ما يخل بشرفنا لفظة ملتزماً معنا حسن السيرة ورأفته بنا لا توصف ومعاملته معنا قل في غيره ان تعرف لا يترك فرصة فيها سرورنا الاَّ جابها ولا يعلم تغير طبعنا من خصلة الا اجتنبها أحلّ والدي في رأيه وغرضه محل سنته وفرضه فشكر الله مسعاه ووفقه لطريق الصواب وهداه وان سألتِ عن اقامتنا في السفينة فاقول ان القمرة التي كانت اعدت فيها لنا عبارة عن خزنة صغيرة تزيد في

الارتفاع عن قامة الانسان بقدر مدّ الذراع وطولها طوله سواء بسواء وبها كوة لدخول النور والهواء ولكنها في غالب الاوقات مقفولة خوفاً من دخول الماء وبكل قمرة فرش للجلوس والنوم على حسب عادة القوم وفيها اباريق وآنية معدة لما عساه يحصل من القيء وما يعتري الانسان في بعض الاوقات من الشيء ولكن القيء لم يحصل لنا الا قليلاً لان البحر مدة السفر كاد ان يكون ساكناً فلم يحصل لمركبنا اضطراب الا في اوقات قليلة فكنت ارقد وادفع ضرره بهذه الحيلة وانما حصل لوالدي مرتين وذلك في ابتداء الامر وكانتا خفيفتين وعند دخولنا السفينة وصعودنا على ظهر البحر شممنا له روائح مائية رديئة اعدمت منا شهوة الاكل فتركناه بالكلية الى ان قال لنا الانكليزي على وجه النصيحة بسبب ما يعلمه بالتجربة لكثرة اسفاره لا بد لراكب السفينة من الاكل ولو بتكلف لانه اذا كانت معدته خالية اصابه الدوار بسبب اضطراب السفينة وفترت قوته فالاولى للانسان ان يتحايل على ان يتناول من الطعام ما يقوي بدنه ليشتد ويقوى على حركة البحر واضطراب السفينة فامتثلنا وفعلنا واسترحنا بذلك الى ان وصلنا وانما كانت القمرة تضايقنا وترتيب فراش النوم لا يوافقنا لاننا كنا ننام على شيء شبيه بالدرج على قدر الانسان لا يكاد يزيد عنه وكان محلي فوق محل والدي وكنت اردت اولاً ان امتنع من ذلك فأبى والدي حفظه الله

الا ان انام كما رتبوا وقال لي الضرورات تبيح المحظورات واما الطعام فكان في الكثرة فوق المرام لاننا كنا ندعى للاكل في اليوم والليلة خمس مرّات وكانت الاطعمة حسنة نظيفة الاّ انها قليلة الملح والنضج فكنا نعافها لعدم اعتيادنا على مثلها في بلادنا وكان ائتدامنا في اغلب الاحيان بالجبن والزيتون والسمك المعروف بالسردين واشباه ذلك وهكذا خبزهم لا يشبه خبزنا فلا ادري أهو من الحنطة ام غيرها ولو وجدنا سواه ما أكلناه وكثيرًا ما سمعت والدي يقول لو علمت حال الخبز من قبل لتزودنا خبزًا غيره من الاسكندرية ولما رأى الانكليزي عدم رغبتنا صار يعيده لنا في النار ويشويه ويأتي لنا كل يوم بدجاجة فيذبحها والدي وانا اتولى طبخها بيدي وأكثر لنا من المربيات فكنا نأتدم بها في بعض الاوقات وبالجملة فقد انقضت ايام السفر ولم يحصل لنا في السفينة ادنى ضرر والان وصلنا ثغر مرسيليا وبعد ثلاثة ايام نقوم ونركب عربة السكة الحديد ونتوجه الى مدينة باريس وهي قاعدة بلاد الفرنسيس فاذا وصلنا الى هناك بعون الله ومشيئتهِ سطرت لكِ خطابًا غير هذا اضمنه ما اراه وما اسمعه بعد الآن ورجائي ان يدوم لي حسن رضاك في جميع الحال والاحوال فهو لي نهاية الامال وراس مال القبول والاقبال وارجو ايضًا ان تبلغي اذكى التحيات الى اخواتي وعماتي واقبل يد خالي العزيز ادام الله بقاءه ويسر لي لقاءك

ولقاءه وارجو منه ان يقرا لي الفاتحة بمقام الامامين لعل الله تعالى يردنا سالمين بلغنا الله واياكم الامال وجمعنا في احسن الاحوال امين والحمد لله رب العالمين .

ثم انهُ ختم الجواب وظرفه واذا بالخواجا دخل عليه وسأله عن الوالد فقال لهُ ان عنده بعض فتور وقد اضطجع في فراشه ليستريح فان شيئت ذهبت اليه لانبهه فمنعه عن ذلك وقال اني منتظره في حجرتي فاذا قام فاخبره فاجابه برهان الدين لذلك ثم اراه ذلك الكتاب في ظرفه وقال له هذا كتاب سطرته الى والدتي بمصر باذن والدي واريد ارساله اليها فارجوك ان تتفضل بتوصيله الى البوسطة فقال حبًا وكرامة واخذه وتكفل بتوصيله وانصرف

انتهى الجزء الاول



فهرست الجزء الاول

من كتاب

علم الدين





تقريظ الكتاب

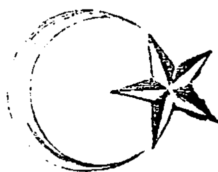
ما تنسج الأيدي يبيد وانما   يبقى لنا ما تنسج الأقلام

الحمد لله رب العالمين وصلى الله على سيدنا محمد واله وصحبه اجمعين وبعد فاني تصفحت هذا الكتاب بل العجب العجاب الذي نسبت للشيخ علم الدين روايته واسندت للسائح الانكليزي حكايته فوجدته نزهة للناظر وسلوة للخاطر فيه للقلوب ارتياح وللخواطر نشاط وانشراح تعرب مبانيه عن لطف معانيه وتفصح روائع الفاظه الرائقة عن بدائع مضامينه الفائقة وبشهد لمؤلفه بعلو المقدار ولمصنفه بحسن الاختيار جمع فيه من غرائب الفنون ونفائس الجد والمجون الضب والنون وقرن الى اسنى المقاصد اشرف المطالب فصح انه المرغوب لكل طالب اظهر فيه ما خفي من اسرار الصنائع وكشف عن وجه مخدرات العلوم البراقع واضاف الى ذالك من حكم الحكماء ما اغفلته القدماء ووشحه بلطائف النوادر وما تفردت به الأواخر واظهرته في هذا الدور الاخر فهو مخترع لجميع المخترعات جامع وبديع في بيان معاني المبتدعات نافع يتنقل من فصل الى ضده ويحكم الوصل بما ابداه من عنده فكأن مؤلفه المفضال يقول فيه بلسان الحال

تصديت في اتعاب فكري لجمعه   فجاء كتابًا في البها لا يشارَكُ
وكنت بحمد الله فيه موفقًا   فإسمي عليٌّ في الانام مباركُ

فلله در من انشاه وبطراز الحسن والاحسان وشاه فانه اجاد وسلك طريق السداد وبلغ به ما فوق المراد بلغه الله تعالى امانيه وكبت حاسده وشانيه ولا زال متواصل البقا دائم الارتقا بهجة لياليه وايامه يزين الوجود بآثار اقلامه مغتنمًا للثناء الجميل والاجر الجزيل بحرمة سيد الأنام الذي يحسن بذكره البدء والختام

وكتبه الفقير المعترف بالتقصير تراب اقدام العلماء عبد الجليل بن عبد السلام زاده المدني في اواسط شعبان المعظم سنة اربع وتسعين ومائتين والف بالمحروسة حامدًا مصليًا



علم الدين

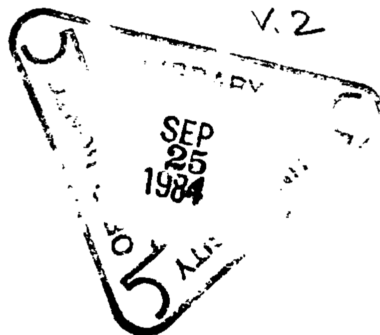
لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية سابقا

الجزء الثاني

طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية
١٢٩٩
سنة
١٨٨٢


SEP
25
1984



بسم الله الرحمن الرحيم

المسامرة السابعة والعشرون

التياترات

ثم قام برهان الدين وتوجه الى والده فوجده استيقظ من النوم فاخبره بما كان فقام وتوضأ وادى الفرض كعادته ثم توجه الى الانكليزي فحياه وبالسلامة هناه وقال له كان توجهي لجنابكم لادعوكم في هذه الليلة الى التفرج في التياترو

فقال الشيخ كان بودي ان ارافقك ولا افارقك ولكني ارى ان لا اخرج في هذه الليلة فاني اجد في جسمي بعض فتور

فقال الانكليزي لا باس عليك واظن ذلك من اثر مشقة السفر فاذا نمت الليلة واسترحت اصبحت ان شاء الله في عافية

ونشاط والان اذا لم ترد ان تكون معنا فارجوك ان تاذن لبرهان الدين ان يكون بصحبتي ليتفرج على التياتر وكيفيته

قال الشيخ ذلك اليك ولكن احب منك ان تصف لي بعض امر هذا التياتر

فقال الانكليزي التياتر عندنا عبارة عن محل تجتمع فيه جملة من الخلق مختلفة في الثروة والاقتدار لاجل التفرج على انواع مختلفة من العاب منتخبة من آثار بعض المشهورين من العلماء والشعراء والعقلاء والبلغاء فيتشكل بحسب الالعاب التي يراد اجراوها فتارة تكون عبارة عن تصوير بعض وقائع حربية ومبارزات شخصية وفتن ملية وتارة تكون عبارة عن عوارض حدثت في بعض الجهات او لبعض الناس من الامراء والملوك وغيرهم كالعشق والفراق والفقر ونحو ذلك مما يحدثه الزمان في تقلباته وقد تكون هذه الالعاب مؤسسة على تمثيل بعض امور وردت في الكتب الدينية كوصف يوم القيامة وما يكون فيه من الاحوال ووصف الطوفان وما جرى فيه على الوجه المذكور في الكتب المقدسة وتارة تكون مختصة بالصفات النفسية والشهوات الذاتية كالكرم والبخل والحلم والعدوان والكبر وما اشبه ذلك وقد يتعاقب في بعضها جملة من انواع الالعاب كالجد والهزل والمفرح وغير المفرح وقد يكون مختصاً بنوع واحد ولكل علامة يعرف بها وفي بعض الالعاب لا يستعمل الاَّ اللسان المتعارف

والالفاظ المعتادة وفي بعضها يستعمل النثر مع الشعر وفي البعض لا يستعمل الاّ الشعر وتارةً يكون القاء الكلام فيها على وجه التغني مع موافقة اصوات الآلات الموسيقية وتارة يكون على وجه القاء الخطبة او على هيئة المخاطبة والمحاورة واذا كان للعبة احوال جعلوا لها فصولاً بقدر الاحوال التي تعتريها وتراهم يصورون الملعب في كل حالة وواقعة بهيئة تناسبها وتليق بها على وجه المحاكاة لمحل وقوعها فان كانت الواقعة في ارض ذات انهار واشجار وبيوت وقناطر مثلاً صوروا المحل بهذه الهيئة بعينها وهكذا اذا كانت في صحراء بها جبال وصخور ووحوش وطيور او في بحر لهُ امواج كثيرة وسفن صغيرة وكبيرة او في وادٍ كثير المسالك وهلم جرًّا الى غير ذلك وفي كل نوع يظهر اللاعبون بالهيئة التي كان عليها الناس حين كانت الحادثة من ذكور واناث وصغار وكبار بملابسهم وهيئاتهم واحوالهم وكيفياتهم واشكالهم فان كانت الواقعة حربية مثلاً هيئوا احوال الحرب والضرب والقتال والنزال وصوروا الكر والفر والاقدام والاحجام والزحف والادبار والغلبة والفرار واشهروا السلاح وهزوا الرماح وصفوا الصفوف وضربوا بالسيوف ورموا بالمدافع والبنادق كامثال الصواعق ورفعوا البيارق والسناجق وعبروا الخنادق حتى يتخيل الحاضرون من حسن السبك ان ذلك حقيقة بلا شك اذ يرون الخيل وهيآتها والرجال وكيفياتها وينظرون فيرون سماء تارة

تظهر وتارةً تتغطى باذيال الدخان او ستور السحاب وتارة تظهر الكواكب بها للعيان وتارة تتوارى بالحجاب وينظرون الى ارض الملعب فيرونها في بعض المواضع غاصة بالشجر والغابات وغير ذلك من الهيئات والخلق في خلالها بين قتيل وجريح ومتماسك وطريح الى غير ذلك مما تقتضيه حال الوقائع وتستدعيه محاكاة صورة الواقع

فقال الشيخ الى اي وقت يمتد اللعب في التياتر . قال يمتد في العادة الى نصف الليل ومن العادة ان يكون اللعب على عدة فصول تنفصل عن بعضها ببرهة خفيفة تتخلل بين كل فصلين منها لاجل استراحة اللاعبين وتجدد نشاط المتفرجين وعلامة ذلك الانفصال سقوط ستارة تحول بين اللاعبين والمتفرجين وهناك محلات للاستراحة وشرب القهوة والدخان وغير ما ذكر وفي اثناء ذلك يستعد اللاعبون للفصل اللاحق فان كان هناك لعبة جديدة هيئوها وهيئوا ادواتها واستعدوا واعدوا المحل لها وفي تلك المدة ايضاً يذهب كل من المتفرجين الى ما احب فمنهم من يذهب الى محل الشراب ومنهم من يقوم للمحادثة مع بعض الاحباب ومنهم من يخرج ثم يعود اذا كان معه ورقة الباب وعلامة الاجتماع ضرب جرس يسمعه المتفرجون فيعودون لمحلاتهم ويجتمعون فترفع الستارة فيرون المحل على الهيئة التي يراد تصويرها

وكان التياتر عند المتقدمين عبارة عن ارض متسعة يحيط بها درابزين وعمد وهي مسقوفة باقمشة للوقاية من العوارض الجوية وكان يسع نحو عشرين الف نفس يجلسون على درج يعلو بعضها بعضاً منفصلة عن بعضها لسهولة المارين من بينها وبها سلالم للصعود والهبوط وشكله عبارة عن جزئين جزء مستطيل يجلس عليه ارباب الموسيقى وجزوء مستدير وهو المختص باللعب وكان يشتمل على بعض محلات لتغيير اللاعبين ملابسهم وتحضير ما يلزم للعب

وفي هذه الاعصار المتاخرة زاد الاعتناء بمحلات التياتر ودخل فيها كثير من التحسين والزخرفة والتزيين حتى صارت معدودة من العمارات الشهيرة في الرونق والزينة والزخرفة واللطافة والظرافة داخلاً وخارجاً ولذلك عدة مبان شهيرة صرف على بنائها وزخرفتها اموال كثيرة فمنها ما صرف في انشائه قريب من مائتي الف كيس كالأوبره بباريس ومنها ما صرف عليه اقل من ذلك وكانت عادة اللعب عند المتقدمين مدة النهار فقط وقد غيرت تلك العادة الان وجعلت في الليل وهو اوفق لانه وقت التفرغ من الاشغال العمومية والاسباب المعاشية فيحب الانسان ان يتروح بالتلذذات الدنيوية والملاهي ليستريح من الآلام التي اعترته نهاراً من الاشغال الضرورية ولم يكن اوفق لذلك من الليل ولم يشتهر امر التياتر ببلادنا الاَّ من ابتداء القرن السادس

عشر من الميلاد وبسبب ما وجد فيه من اللذة للامراء وعموم
الناس مالت اليه الملل الاوروبية كل الميل واحدثوا فيه انواعًا
مختلفة حتى تقدم تقدمًا عظيمًا وصار من ضمن اسباب الرزق لكثير
من العلماء والشعراء والمشتغلين بتركيب الحكايات والنوادر
والامثال ومن مواضع التربية العمومية وتهذيب الاخلاق والطباع
وعلى حسب درجة التياتر وعظمه يزداد عدد الموظفين به فيكونون
قريبًا من مائتين وخمسين نفسًا من النساء والرجال وذلك كما في
الاوبره واقل من ذلك في غيره واذا توقفت ادارة المشهور منها على
المساعدة ساعدت الحكومة اربابه على حسب ما يلزم من الهيئة
والابهة باموال عظيمة ربما تبلغ نحو الالف كيس سنويًا فترتب على
ادارته والاعتناء به اشتغال افكارهم حتى كاد ما اخترع والف في
هذا المعنى من الكتب والحكايات يزيد على ما هو مكتوب في باقي
العلوم والفنون وكما يوجد من التياتر عدد كثير في المدن الكبيرة
كذلك يوجد في المدن الصغيرة وفي قرى الارياف خصوصًا
البلاد المعتاد بها نصب اسواق او ما يوجب اجتماع الكثير من
الناس كالاعياد والموالد وقد تكون في القرى داخل خيم او في
محلات مستورة بالاخشاب ولا يمنع احد من دخول التياترات
فيدخل الغني والفقير والعظيم والحقير وانما يدفع كل انسان مبلغًا
مقدرًا على حسب الدرجة التي يرغب فيها فان رغب في الدور
الاول دفع اكثر من الثاني او في الثاني اكثر من الثالث او في

الحجرات المخصوصة دفع اكثر ممن على الدكات وتتفاوت الاجرة على حسب تفاوت الدرجات من نصف فرنك الى عشرين فرنكا

فقال الشيخ لولا ما ذكرت من كمال انتظام التياتر وحسن احواله وانه من مواضع التربية العمومية وتهذيب الاخلاق لخطر في البال ان ما يحصل به من التقليد والتمثيل والالعاب المتنوعة من قبيل ما يكون في بلادنا من العاب الطائفة المعروفة باولاد رابيه وما يكون فيه من الاغاني والالحان ايضًا من قبيل ما يكون عندنا من غناء المغنين والمغنيات فاما اولاد رابيه فانهم يدخلون في تقليد بعض احوال حاضرة او امور ماضية ياخذون في تمثيلها وتصويرها وابرازها في معرض المحسوس المشاهد سواء كانت امورًا اختراعية وهمية لا مستند لها سوى المخيلة ام كانت امورًا حقيقية حصلت في الواقع ونفس الامر وقد يكون لهذه التقليدات في بعض الاحيان نفع في الجملة بان يدخل فيها تقبيح واقعة سيئة حصلت في الزمن الحاضر او الغابر من بعض الناس فيبرزونها في معرض التشنيع والتفظيع مفرغة في قوالب الهزل والسخرية فيضحك منها من يراها وقد يراها من كانت حصلت منه او من هو على حال مثلها فيستنكف ان يعرف بتلك الحالة المنكرة التي صارت مثلًا واضحوكة لاعالي الناس واسافلهم وتكره نفسه بالضرورة ان يكون معروض تقليد هولآء القوم وموضوع اضاحيكهم فيكف عن تلك الحالة القبيحة ويرجع عن معاودتها وياخذ نفسه بالاقلاع

عنها فهذه غاية ما يلتمس لهم من المزية والفائدة الاّ انه قليل نادر كالمعدوم وغالب احوالهم على ما سمعته عنهم ورايته في بعض الاحيان منهم مبني على الفحش والسخف والعيب مما تأباه النفوس وتمجه الطباع من الافعال الفظيعة والاقوال الشنيعة التي ينفر منها كل من له جانب من العقل والدين ومسكة من الحياء والحشمة وقد يطلع على هذه الاقوال والافعال بعض الاغرار من الرجال والصبيان والاطفال والنساء فيؤثر ذلك في فساد اخلاقهم وتتغير طباعهم بما يرونه ويسمعونه مما عساهم قد كانوا بمعزل عنه من فحش القول وشنيع الفعل وقد قال الله سبحانه وتعالى (لا يحب الله الجهر بالسوء من القول) فلو خلا اللعب عن هذه القبائح لكان مما لا ضير فيه اما على تلك الصورة فهو مذموم منكر مضر ولهذا ترى اهل الورع والتقوى عندنا يتحامون مواضع هولاء الجماعة ويكرهون غشيانها وقد رايتهم انا عند بعض الجيران فنفر منهم طبعي ومجهم بصري وسمعي

واما الغناء عندنا سواء كان من الرجال او من النساء فلا يقصد به حكاية حال ماضية ولا حاضرة وانما هي في الغالب كلمات غرامية من الشعر او غيره من الفنون يرددها المغني ويترنم بها مع رعاية تحسين الصوت واجادة الاداء والاتيان بما يستعذب من الالحان على قدر الامكان فيقصد فيها الى رخاوة الصوت ورخامته وجودة الاداء وحسن الانغام وقد يقطع النظر بالكلية

عن معاني الكلام حتى اننا نراهم يدخلون في الغناء بعض كلمات لا يعقل معناها المغني ولا السامع بل ربما كانت لا معنى لها في نفسها وترى المغني يعيد الكلمة الواحدة مثل ياليل ياعين مرات كثيرة يكررها من تلقاء نفسه او باستعادة من السامع لا لاجل لفظها ولا لمعناها ولكن استجادة للحن واستحسانًا للنغمة ومما نتأسف عليه انا نرى فيما نقل الينا من اغاني القدماء في كتب الادب كلمات تحث على الكرم والفتوة والنخوة ولا نرى الاغاني عندنا في هذه الاعصار الاّ مقصورة على العشق واللذة والشهوة فلا نرى لها اثرًا يحمد في التربية وتهذيب الاخلاق بل ربما كانت في بعض الاحوال مما يضر بذلك كما قلناه في لعب اولاد رابيه والذي اظنه بحسبما سمعته منك ان ما وصفته من التياتر ليس بهذه المثابة

فقال الانكليزي لا مناسبة بين الامرين فان الجماعة المعروفين عندكم باولاد رابيه انما هم اشخاص مجردون من حسن الخصال والعلم والكمال مجتمعون من طغام الخلق وعوام الناس لا يحسنون معقولاً ولا منقولاً بخلاف طائفة التياتر عندنا فاكثرهم ممن تعلم وتادب وتربى وتهذب وحصل على فنون كثيرة ومن آداب التياتر ان لا يقال في مجامعه الاّ ما يؤخذ من تأليفات متفق على موافقتها لتهذيب الاخلاق والطباع والعادات والتمييز بين الحسن منها والقبيح والفاسد والصحيح للمحافظة على ممدوحها والتباعد عن مذمومها وكل ذلك بالفاظ عذبة وعبارات رقيقة

مستحبة ولا يفعل ولا يقال ما يخل بالادب والكمال وان الجأت الضرورة في بعض العبارات الى وصف حادثة من الحوادث السرية تحايل المؤلف او اللاعب في القائها والتعبير عنها بكناية لطيفة لا يشعر بها الاَّ الحاذق المتيقظ العارف بما للحادثة من الاحوال

واما الاغاني عندنا فهي في الاغلب عبارة عن واقعة مخصوصة وحادثة معلومة يراد تذكارها ويستجاد تكرارها وقد يكون المراد بها تهييج سورة الحماس وتحزب الناس الى غير ذلك من الاحوال وقد تكون عبارة عن غراميات واغزال وربما لا يقصد من السماع في بعض الاحيان غير جودة الاداء وحسن الالقاء وموافقة قواعد الموسيقى وممازجة ما يكون موجودًا من آلات الطرب من غير نظر الى الالفاظ والمعاني فقد يكون الغناء بغير لغة السامع وهو يطرب منه لمكان الصنعة وحسن الالقاء كما يطرب من تغريد الطيور وآلات الطرب وعلى كل حال فالاغاني في التياتر انما تكون بحسبما تنتظم في سلكه من محاكاة واقعة او تصوير حادثة او غير ذلك وعلى الجملة فليس التياتر عندنا من قبيل ما ذكرت من العاب اولاد رابية ونحوها بل هو كما ذكرناه عبارة عن امثال علمية على حسب الحوادث التاريخية والتقلبات الدهرية وهو بهذه الكيفية مما يساعد على تقدم الامة وتمدنها ويوسع دائرة فخرها وثروتها وفوائده كبيرة ومزاياه كثيرة منها اجتلاب الانس وتنشيط النفس

وترويح الخاطر بتسريح الناظر في المرائي المختلفة والمناظر الحسنة اللطيفة والاشكال المتنوعة والاوضاع المتغايرة فان الانسان يميل بطبعه الى المستغرب والمستحدث من الاشياء والمستطرف المستظرف منها ومعلوم ان الانسان إذا طال اشتغاله بالتفكر في الامور العقلية وانهماكه في الاعمال الشاقة البدنية فترت قوته وضعفت همته وكلت فكرته فيحتاج ان يتخلى عن ذلك في بعض اوقاته ريثما يستريح ويجم نشاطه وتتراجع اليه قوته فاذا طال في النهار كده وجده وجهده وانهماكه في الاعمال البدنية والاشغال الذهنية لم ياتِ عليه الليل الاَّ وقد كلّ بدنه وملت نفسه وفتر ذهنه فاذا مضى الى التياتر واشتغل بصره وفكره بما يراه وما يسمعه به تحول ذهنه عما كان فيه واستراح مما يعانيه وتسلي بما يتقلب عليه من الاشكال المتنوعة والاوضاع المختلفة وطابت نفسه بما يراه من الصور الحسنة والمناظر الجميلة فاذا عاد في غده الى اعماله الذهنية والبدنية عاد بنشاط جديد ونفس مقبلة وهمة متوفرة

ثم هو في اثناء تسريح طرفه فيما يروقه من تلك المناظر ونفسه في مستلذاتها من تلك الهيئات والكيفيات يستفيد كثيراً من الفوائد العلمية والاخلاق المرضية فيكون ما في التياتر من الاحوال لذة في الحال وثمرة في الاستقبال وهذا هو السر الذي حمل عقلاء الملوك والحكام ونبلائهم علي اتخاذ التياتر فانهم رأوا ان النفوس بالطبع مائلة الى اللذات منجذبة لجانب الشهوات وراوا ان صدها

عن ذلك بالكلية ومنعها بالمرة يتعسر او يتعذر فاختاروا ان يستحوذوا على تلك الشهوات والمستلذات و يتخذوها كآلات تستعمل فيما يراد من الامور النافعة المحمودة في الشرع والعقل ويفرغوها في قالب تصير به من اسباب الفوز والسعادة فلم يجدوا احسن من التياتر للوصول الى هذا المقصد فانه مع موافقته للاغراض واللذات والشهوات يهيء النفس للتحلي بحسن الشمائل وصفات الكمال والاستكثار منها والتمكن فيها والتباعد عن ذميم الاخلاق ورديء الطباع فهو بهذه الحالة كالخادم للشريعة التي تامر بالخير وتنهى عن الشر

ومن المعلوم ان اقوى شي تتمسك به الامة وتقوم عليه هو امر دينها اذ بدونه لا تنجح القوانين البشرية ولا تظهر اثارها ونتائجها فاذا كان التياتر خادمًا للشريعة كما ذكرناه مرغبًا فيما تدعو اليه وتامر به منفرًا عما تنهى عنه كان بذلك من اعظم الملاهي بل من اهم الامور واولاها بالاعتناء والرعاية

وانت تعلم ان كثيرًا من النـــاس انما يمتثلون امر الشريعة ويتبعون احكامها خوفًا من الاخرة وما يكون فيها من الاهوال والامور المخيفة والسؤال والحساب والنار والعذاب فهذه الاهوال والمخاوف متصورة في اذهانهم منطبعة في مخيلاتهم وان لم يروها بالفعل ومن اعظم ما يقوي ذلك في اذهانهم ويمكن تاثيره من قلوبهم هذا التياتر لانه يصور جميع تلك الصور للعين ويجلوها

للعيان ويخرجها من قوة التخيل الى حيز المحسوس المشاهد فيمثل للرائي النار مثلاً في صورة هائلة وهيئة مزعجة ولهب ساطع مرتفع وشرر كبير منتشر الى غير ذلك من اهوالها وسلاسلها واغلالها وافاعيها وحشراتها وعظائم آفاتها وهو يراها ويرى المجرمين فيها تلفحهم نارها وتنهشهم افاعيها ويقاسون انواع العذاب الاليم والعقاب الشديد مما ترق لرؤيته الاكباد القاسية وتضطرب لهول منظره القلوب الساكنة فما ظنك بمن قرأ اوصاف تلك الاهوال في كتب الديانة وتخيلها في ذهنه ثم رآها في التياتر على تلك الحالة المنكرة والمنظر الفظيع وهو يعلم ان التي تكون في الاخرة اكبر واخطر وادهى وامر لما يعرفه من انه لا يمكن مضاهاة افعال الحق جل جلاله بافعال الخلق وتمثيلها للعين الاَّ بوجه التقريب وعلى قدر الامكان فاذا انتقل ذهنه من تلك الصورة المشاهدة له الى تلك الهيئة المطبوعة في مخيلته وتصورها في نفسه بما لها من الهول العظيم والخطب الجسيم أفلا يرق قلبه ويقشعر جلده ويتمكن خوف العذاب منه بما يحمله على ان يتباعد عن موجباته واسبابه من الظلم والعدوان والفجور والشرور وكذلك اذا رأى تمثال الجنة بما يكون فيها من الانهار والاشجار والازهار والاثمار والقصور والديار وسائر المستلذات والمشتهيات افلا تتحرك رغبته وتميل نفسه اليها بما يحمله على ما يقربه لهذا النعيم من فعل الخير وانواع البر .

فهذا من جملة خدمة التياتر للديانة وتأييده لها واعانته على مقاصدها

فقال الشيخ من اين لهم صورة الجنة والنار والثواب والعقاب ولم يروا شيئاً من ذلك وكيف يصورون ما لم يروه وكيف يصدقهم الناس

قال الانكليزي انما يصورون ذلك على وجه التخيل والتفرس وعلى حسب ما ورد في الكتب المقدسة وسائر كتب الديانة من الاوصاف تقريباً للاذهان واخراجاً للشيء المعلوم من صورته الذهنية الى الصورة الوجودية

فقال الشيخ نحن لا حاجة لنا بهذه الصور فان ما عندنا من اليقين باحوال الاخرة يغنينا عن هذه الصور والتماثيل خصوصاً ونحن نعلم ان جهد الادمي ووسعه لا يمكن ان يصل الى محاكاة ما يكون في اليوم الاخر من الاحوال والاهوال بل لا يمكن ان يصل الى ما يصل اليه الوصف الوارد فيه فهل يبلغ التصوير والتمثيل مبلغ قوله تعالى في صفة النار انها ترمي بشرر كالقصر كانه جمالات صفر ويل يومئذٍ للمكذبين . فقال الانكليزي ليس كل الناس في ذلك سواء

وعلى الجملة والتفصيل فللتياتر في تأديب النفوس وتهذيب الاخلاق وتربية الامة مدخل عظيم

وانت تعلم ان سلطان الدرهم والدينار لهُ قوة عظيمة عند

الناس وفعل في عقولهم يعارض بهِ قوة القوانين الموضوعة والاحكام المشروعة ولذلك ترى كثيراً من اصحاب الثروة والمال من اهل البغي والزيغ يستميلون قلوب القضاة والحكام الى ما يخالف مقتضيات الشرع والقانون فيردعهم التياتر بروادعه ويقرعهم بقوارعه فانه يضع يده على المتمردين واهل الفسق والفجور من الخلق ويكبلهم في قيوده ويعرضهم على الاعين في ميدان حكمة الضنك ويفضحهم على رؤوس الاشهاد ويجعلهم عبرة للمعتبرين وتبصرة للمتبصرين ثم لا يقتصر حكمه على الوقت الحاضر بل يسري ايضاً الى الزمن الغابر فيجول في تواريخ الامم الماضية ويستخرج منهم من ذكروا بفعل قبيح او حسن فيستحوذ عليهم ويكلهم لرجل من رجاله يكسوهم ملابسهم ويبرزهم في صورهم ويهيئهم بهيئاتهم التي كانوا عليها واسمائهم التي كانوا يذكرون بها حتى كانهم نشروا من قبورهم قبل اوان نشورهم فيعرضهم كذلك على اعين الناس مع ما كانوا عليه في زمنهم من فعل خير ممدوح او عمل شر مذموم ومكرمة تبقى اثارها وافتخارها او معرة يخلد عارها وشنارها فيكون ذلك من اعظم البواعث على تربية النفس وتأديبها وحسن تهذيبها

لا سيما ان التياتر لا يقتصر على امر من الامور ونوع من الافعال وطائفة مخصوصة من الناس بل يستحوذ على جميع الامور وكل اجناس الناس فلا يخرج من قبضته الجبابرة المتمردون

الذين كانوا آفة ايامهم وداهية ازمانهم ببغيهم وعدوانهم وظلمهم وطغيانهم بل ينظمهم في سلكه ويجربهم في قبضة ملكه ويجرهم في ميدانه تحت نظر الناظرين من اهل العصر الحاضرين ليروا بابصارهم كيف تزول عظمة العظماء الطاغين وكيف يفعل الله جل جلاله بالجبابرة الباغين الذين ضلوا واضلوا غيرهم عن مسالك الرشد والهدى ووقعوا واوقعوا من تبعهم في مهالك الردى فياخذ من ذلك كل واحد من الحاضرين حظه من الموعظة والعبرة علي قدر استعداده وقابليته فتضعف وتسكن عند كثير من الناس شهوة الشر وتقوى وتحرك رغبة الخير والبر

فمن ذا الذي لا يرجف قلبه وتضطرب مفاصله حين يرى فعل قاتل النفس عند القتل واي نفس لا تتأثر وقلب لا يتحرك وجلد لا يقشعر عند معاينته قاتل الولد والوالد للحصول على بعض الاغراض والمفاسد واي همة لا تتحرك عند رؤية فاضل كريم من الناس يفدي غيره بروحه وماله واي عقل لا يستفزه حب الفضل واهله وكل متمسك بحبله عند مشاهدة تجرد الافاضل من الرجال من حياتهم ومالهم وعيالهم لتخليص وطنهم واهله من سطوة الاعداء المفسدين وقهر الجبابرة المتمردين

كل هذه الاحوال لا يخفى تأثيرها في القلب وفعلها في النفس وليس لها غير التياتر ما يكشف حقيقتها ويعطيها قوتها فانه هو الذي يضعها موضعها وينزلها منزلها ويوفيها حقها ويكسوها ما

يليق بها من ثياب الحسن والكرامة والنعمة او القبح والمهانة والنقمة حتى يرى الرائي حالة العظماء المتكبرين والاشقياء المتجبرين والكبراء المشهورين كيف تقلبت بهم حادثات الليالي وتصرفت بهم صروف الايام وكيف طحنتهم رحى الدهر ودارت عليهم دوائر القهر وما الذي اورثتهم مساوي افعالهم ومفاسد احوالهم وكيف استنزلتهم عن درجتهم الشامخة وحطتهم عن رفعتهم الباذخة وجردتهم من قدرتهم القاهرة فاصبحوا بعد قوتهم مستضعفين وبعد قهرهم مقهورين ويرى اصحاب الهمم العالية والافكار الشريفه والافعال الحسنة والاحوال المستقيمة كيف توصلوا الى طرق المجد وارتقوا درج العز وركبوا صهوة الشرف وتسنموا ذروة الفخر

لاجرم ان كل ذلك يوسع دائرة العقل ويقوي ملكة الفهم ويوجه النفس الى طرق الخير ثم لا يخفى ان كثيراً من امور الناس واحوالهم لا تدخل تحت حكم القوانين البشرية وبذلك يخلص من عقوبتها كثير من سيآت الناس ويخلو عن المكافأة كثير من حسناتهم ومن شأن التياتران يستحوذ على كل ذلك فيدخله في بابه وينظمه في سلك العابه ويكشف عن قبح الشر وشؤمه لتنكف عنه نفوس اربابه ويظهر فضل الخير وينوه بهِ لتقوى فيه رغبة طلابه فهو بهذه الحالة اعظم باعث يبعث على الخير والصلاح والرشد والفلاح ويحث على التخلي من ذميم الافعال والتحلي بصفات الكمال

ثم لا شك في ان مصائب الامم ليست كلها حاصلة من المساوي والكبائر فقط بل كثير منها ينشأ عن خلل العقل ونقص الادراك وسوء التدبير وتعلق النفس بما لا ينفع او بما يضر ومن تأمل في حال كل امة وما حل بها من الحوادث سابقها ولاحقها ونظر في اسبابها وحقائقها علم ان معظم الاسباب التي اودت بها وادت الى خرابها سوء التدبير ومتابعة هوى النفس والغرور الحاصل عن الجهل

ولذلك قل ان نجد في كل عشر حوادث يضحك منها حادثة يهمنا اصلها او تهولنا صورتها ومن يقارن بين عدد اصحاب الكبائر والجرائم من امة من الامم وبين عدد من لحقهم الخرف او الذهول او الجنون منها كان كمن يقارن بين حبة رمل صغيرة وصخرة كبيرة ومن الغريب انك ترى الناس كلما زادوا في التقدم والفنون زاد فيهم عدد اهل الطيش والسفه والجنون فلا ينجع في مداواة دائهم واستئصال شافة اهوائهم وردعهم عن شرورهم وتجريدهم من ثياب غرورهم الا الباسهم ثياب الهزل وتأديبهم بسوط السخرية وعرضهم في معرض الاهانة ليفيقوا من غفلتهم وينتبهوا من رقدتهم ويتخلص الخلق من مضرتهم اذ لا عقوبة على الانسان اشد من عرضه في ميدان الهزل والسخرية وجعله للناس اضحوكة ومثلا وعبرة ولما كان حكم القوانين الدينية والدنيوية لا يدخل هذا المدخل كان التياتر بسبب تأديته لهذا

الغرض معينًا لها على تكميل الجمعية البشرية بهذه الصورة ايضًا كما هو مساعد لها بغير ذلك

وللتياتر غير ما ذكر مزية كبرى قد اختص بها دون غيره وهو انه مدرسة علمية لجميع الاحوال السرية ومصباح يستضاء بهِ في الاحوال الباطنة ومفتاح يفتح بهِ جميع الخفايا الكامنة حتى تظهر خطرات السرائر واوهام الظنون واحاديث النفوس فتبدو من خلال ستورها ويطلع الناس علي خفيها ومستورها مفرغة في قوالبها موضوعة في مواضعها منزلة منازلها

فان لم يحصل منه تهذيب جميع الحاضرين فلا اقل من كونه في كل مرة يؤثر في بعض افراد منهم فمع التدريج والاستمرار في الازمان المتوالية تتهذب اخلاق الجميع او الاغلب وتحسن احوالهم فان قيل انا نرى كثيرًا ممن يحضر التياتر لا تتجه افكارهم الى تحسين امورهم وتهذيب نفوسهم بل تشتغل حواسهم بما يرونه من المناظر الظاهرة من غير ان تتأثر نفوسهم باثر يوجب لهم ان يرجعوا عن فساد نياتهم ومساوي افعالهم بل ربما كان ذلك موجبًا لازديادهم في الشر واقتباسهم بعض وسائط للتمكن من الفساد واضرار العباد

قلنا ان كان ذلك فانما يكون للبعض لا للكل ومن لم يتأثر من صورة فلا بد ان يتأثر من غيرها ومن لم يرجع من مرة فربما يرجع من مرتين ومن لم يهتدِ في الحال لا بد ان يهتدي في

الاستقبال

وعلى كل حال فلهُ تأثير عظيم في عقول الشبان من الرجال والنساء فيكشف لهم عن حقائق الامور فيتحرزون من الوقوع في شباك الغي ومهاوي الغرور واقل فضائله الكشف عن العيوب والمساوي وتمييزها من الفضائل والمحاسن وهو بتحقيره للاولى وتزييفها وتعظيمه للثانية وتشريفها يحملنا لا محالة على توجيه انظارنا وازدياد ميلنا للحسن الممدوح واعراضنا وازدياد نفرتنا عن السيء المذموم فتتسع دائرة معلوماتنا وتستقيم طرق فهمنا وترسخ الامور في نفوسنا بصورها الحقيقية وهيئاتها الصحيحة فتتميز عن اضدادها ولا تلتبس بغيرها فمتى وقعت تحت حواسنا عرفناها وعرفنا اصحابها فناخذ ما يوافق لحالنا بالنظر لتحصيل المنافع ودفع المضار ونتباعد عن الاشقياء والمفسدين او نداريهم باللسان على قدر الامكان ونتقرب من الافاضل والصالحين بحسن المعاملة والود والمجاملة ونعرف ايضًا المنافقين والكذابين والنمامين والخائنين والمخادعين وطرق حيلهم وكيفيات خداعهم ومكرهم ومداهنتهم فلا يغرنا حالهم وفعلهم ولا يروج علينا غشهم وحيلهم بل نضحك من افعالهم ولا نقع في شرك احتيالهم فان التياتر يرسم لنا في وجوههم وعلى سيماهم صورة ضمائرهم وهيئة سرائرهم فنضحك من خداعهم ونهزأ بمكرهم ونبطل بقوة خيال سحرهم ونسلط عليهم وعلى شياطينهم نور العلم والمعرفة ونار الانتقاد فتسودّ وجوههم

ونحرق حتى يصبحوا بسوء فعلهم بين الناس اضحوكة ومهزاة وسخرية وربما انتهى بهم ما يلقونه من الخزي والفضيحة والذل والمهانة الى ان يرتدعوا ويتوبوا لله ويرجعوا فتخلص الامة من شرهم وسوء كيدهم ومكرهم

وكما ان التياتر يشتغل باحوال الخلق وصفاتهم وسرائرهم ونياتهم يشتغل ايضًا بتمثيل سعد الطالع ونحسه وحسن البخت وسوءه ونعيم العيش وبؤسه فيرشدنا للصبر والتجلد على ما يكون من سوء البخت وقلة الحظ وللشكر على مقابله من حسن البخت وسعادة الطالع وانت تعلم ان كل ما يقع فيه الانسان اما ان يكون مسببًا عن تدبيرلهُ وعمل عمله او لا يكون مسببًا عن شيء من ذلك . فالاول ينسب اليه ويذم او يحمد عليه والثاني هو الذي ينسب في متعارف العامة للبخت والطالع والدهر وهذا ليس لهُ فيه شيء. فلا يتجه عليه فيه ذم ولا مدح ولا شكر ولا لوم فيلزمنا الاستعداد لتلقي ضربات البخت ونكبات الذهر لنجد في انفسنا ما يساعدنا على التجلد لها والصبر عليها من دون ضجر ولا جزع والتياتر يصورلنا انواع الاهوال الدهرية والاخطار الملازمة للجمعية البشرية فنعتاد عليها ونستعد لهجومها ونتدرع لها بدروع التجلد حتى نكون في حصن من الصبر والثبات يقينا من سطواتها ولا نكون عرضة للفزع والروع والجزع بل تقوينا التجربة والدربة وتحملنا على ان لا نكل ولا نمل ولا نضجر بل

نصبر حتى يخلصنا الله منها ويعوضنا الخير والراحة عنها ومتى نظرنا الى الفقراء والمساكين وتقلبهم في الفقر والقلة والجوع والذلة نجذب قلوبنا اليهم وتمتلئ بالرأفة والشفقة عليهم وتاخذنا الرحمة والرقة لاقل مشقة وشدة تحصل لواحد من خلق الله تعالى فيمكن من طباعنا الرفق بالناس ومواساة الفقراء ومساعدة الضعفاء واعانة المضطر واغاثة الملهوف وبذل البر والمعروف والرغبة في العدل والانصاف وليس باقل ما ذكرناه تأثير التياتر في توسيع دائرة المعلومات البشرية والاعمال الفكرية فان اصحاب العقول الفائقة والاذهان الرائقة يتسابقون في مضماره ويتبارزون في ميدانه يتفاخرون بنتائج افكارهم ويتظاهرون بمحاسن اثارهم من محاسن النثر ولطائف الشعر فتدب فيهم نار الغيرة والحمية فتذكو القرائح وتتوقد الاذهان وتسيل الخواطر وتتسع دائرة الاطلاع غاية الاتساع فتحيط بجميع الاعمال البشرية والاحوال السرية والجهرية فلا تذر عظيمة ولا حقيرة ولا تغادر صغيرة ولا كبيرة حتى تنزلها منزلها وتحلها محلها وتفرغها في قالبها وتكسوها من الثياب ما لاق بها وكل ذلك من بواعث الاجتهاد في طلب العلم وكشف الحقائق واظهار الخفايا وازالة اللبس وابراز الشيء من عالم الخيال الى عالم الحس حتى يدركه قليل الادراك وكثيره وناقص التأمل وكامله فتتفتح اذهان الناس وتنفسح بصائرهم وتستنير ضمائرهم ويرون في حيز العيان والمشاهدة اموراً كانت في عالم الوهم والخيال

او كانت منكرة او مجهولة بالكلية وبعد ان كان سلطان الوهم متحكمًا عليهم تتخلص من ربقته رقابهم وينكشف ستر الجهل عن بصائرهم فيرتفع حجاب الغفلة عن ابصارهم فينظرون في حوادث الايام الخالية والامم الماضية فتبدو لهم اسباب السعادة والشقاوة والتقدم والتأخر والعز والذل والخراب والعمارة ويقفون على اصل ذلك وكيفيته وحقيقته فيأخذون ما ينفع ويتركون ما يضر ويسعون سعي من فازوا في ايامهم بالخير والسعادة ويقتفون اثرهم فيحظون بالخيرات والمبرات ويفوزون بالنعم والمسرات

فكأن التياتر قناة ممتدة بين افراد الامة يسيل بها ماء العلم والمعرفة من الاعلى الى الادنى ومن العلماء والخواص الى الجهال والعوام فتزداد العلائق التآنسيـــة وتقوى الروابط الودادية وتعم المنفعة وتتم الفائدة فاذا كان التياتر بهذه المثابة فهو احسن المبتدعات البشرية واجلها واعظمها فائدة واكملها

وقد اطلنا الكلام في هذا المعرض حتى كدنا نخرج فيه عن الغرض وفي المثل الحديث شجون والكلام يجر بعضه بعضًا وكنت ظننت اننا نتوجه جميعًا الى التياتر فاستحضرت لكما هديتين ينتفع بهما فيه احداهما لسيدنا الاستاذ والثانية لبرهان الدين ثم انه اخرج من صندوقه علبتين اعطى احداهما للشيخ علم الدين والثانية لبرهان الدين وقال انه يحتاج الى مساعدة النظر في تحقيق الاشياء البعيدة خصوصًا في التياترات لانها تكون غير تامة الانكشاف

اذ زاد بعدها عن حد النظر فعند ذلك تستعمل هذه الآلات المعروفة بالنظّارات تقرب البعيد وتساعد النظر وقد اتيت لكما بهاتين النظّارتين على حسب قوة بصر كل انسان فشكراه على ذالك وفرح برهان الدين بالنظّارة فرحًا شديدًا وصار ينظر بها من شبابيك المحل تارةً الى المدينة فيرى البيوت والحارات والمارين في الطرقات كانهم تحت قدميه وتارةً الى المينا والمراكب فيرى الملاحين والوان ملابسهم وما ينقلونه من البضاعة كانهم بين يديه فيتعجب ويستغرب لانه كان لا يرى ذلك بغير تلك الآلة ولو امعن النظر وكان اذا نظر بها الى البحر يلوح لهُ فيه صنادل وزوارق للصيادين يرى فيها ما اصطادوه من السمك فاذا نظر بدونها لا يرى من ذلك شيئًا فكانت عنده اجل شيء اهدي له واحب شي اليه وصار يقلبها ويتامل في تركيبها ويحاول الوقوف على كيفيتها فعلم الانكليزي منه ذلك فقال اراك متحيرًا في شانها قال نعم اريد ان اعلم حقيقتها فقال يكتفى في هذه الليلة بمعرفة فائدة استعمالها في التياتر فتنظر بها الي صورة الالعاب فتحققها وتنظر الى ملابس اللاعبين وان شئت نظرت بها الى المتفرجين وفي غد ان شاء الله اصف لك كيفيتها وباقي فوائدها فقال برهان الدين ومتى يكون الذهاب قال بعد ساعتين من غروب الشمس حيث تكون الساعة ثمانية بالاعتبار الافرنكي . فقال برهان الدين ان لكل قوم عادة في مجالسهم ورسمًا في ملابسهم

فلا تواخذني ان سالتك عما يلزم لذلك وما يقتضيه الحال والمحل فقال لا يخفى عليك ان التياتر محل جامع فيطلب فيه النظافة والتجمل كما في سائر المجامع وعادة رجال الافرنج في الملبس الاتفاق على هيئة واحدة واما نساؤهم فملابسهن قد تختلف في اللون وان كانت في الكيفية متحدة وسترى ذلك ثم انفصلا وصار برهان الدين يتردد فيما يلبس ولحظ والده منه ذلك فقال لهُ فيما تفكر قال قد ذكر الانكليزي ان من عادة الافرنك التجمل في الملابس فانا افتكر فيما البسه فقال لهُ اختر ما في صندوقك احسن ملبس لتظهر في هيئتك بزي اهل بلدك وملتك · فذلك بك اليق وفيه لك زيادة رونق وهو يميزك من بينهم ويدل عليك ويجذب اعينهم وقلوبهم اليك وانما يلزمك ان تجعل الادب لحلتك طرزا والوقار لهيئتك حصناً وحرزاً فتكسى حلة فوق حلة وتحترمك الاصاغر والاجلة واحذر من الاعجاب بنفسك والتغالي في لبسك فاحسن الملابس واعظمها النظيف الطاهر الزكي الرائحة وعندك اربع بدل جديدة كلها لائقة فاختر منها ما تحب فقام ودخل حجرته واخرج صرة فتحها فاذا فيها جبة نينه وقفطان شاهي مقلم وزبون ابيض وقميص ولباس وعمامة بيضاء معلمة بطراز اصفر وطربوش مغربي وحزام حرير طرابلس محبوك فلبسها واصلح عمامته وارخى لها عذبة حجازية ونظر في المرآة ثم توجه الى والده فلما نظره في هذه الهيئة الحسنة سر بهِ وشكر الله سبحانه وقال

لهُ يا بني قد حسنت هيئتك وثيابك فحسن ايضاً شمائلك وآدابك واذا سرت مع صاحبنا هذا فمازجه وسايره واستجلب حبه واجتذب قلبه فانّا في دار غربة ليس لنا من اهلها غيره فضلاً عن كونه قد ابدى لنا من المجاملة وحسن المعاملة ما يستوجب ان نجاريه فيه وانت تعلم انك تمضي معه الى محل لم يسبق لك بمثله عادة ولا باحواله معرفة فانظر لما يعمل وافعل كما يفعل تسلم من الوقوع فيما يوجب الانتقاد عليك وتوجه اللوم اليك واستعمل الوقار والسكينة واذا نظرت الى شيء فانظر اليه بتؤدة وكمال واذا سألت عن امر شيء فاسأل عنه بلطف وادب وخالق الناس بخلق حسن وابذل وسعك في ارضاء من صحبك لكن بما لا يسخط ربك وتجاوز عن الهفوة واقل العثرة واقبل المعذرة يحبك اصحابك ويكثر احبابك

فقد سئل بعضهم اي اخوانك احب اليك قال الذي يسد خلتي ويغفر زلتي ويقيل عثرتي واعلم ان من لا يواخي الا من لا عيب فيه قل صديقه ومن لم يرض من صديقه الاّ بائثاره على نفسه دام سخطه ومن عاتب على كل ذنب ضاع عتبه وكثر تعبه

اذا كنت في كل الامور معاتبًا

صديقك لم تلق الذي لا تعاتبه

وان انت لم تشرب مرارًا على الاذى

ظمئت واي الناس تصفو مشاربه

وإذا رأيت من صاحبك امرًا تكرهه او خلة لا تحبها فلا تقطع حبله ولا تصرم وده ولكن داوِ كلمته واستر عورته وأبقه وابراء من عمله قال تعالى (فان عصوك فقل اني بريء مما تعملون) فلم يؤمر بقطعهم وانما امر بالبراءة من عملهم وهكذا صار يعظه بامثال هذه الكلم النافعة وينشر عليه لألي الحكم حتى حضر الخادم يدعوهما الى الطعام فاعتذر الشيخ بانحراف المزاج وطلب لنفسه بعض المرق والزيتون والمربات وامر برهان الدين ان يذهب الى الانكليزي ليتوجه معه الى السفرة ثم الى التياتر ففعل. فلما رآه الانكليزي اعجبه شكله وهيئته ورآه قد ازداد لطفًا وظرفًا وبهجةً وحسنًا وكان برهان الدين جميل الصورة حسن المنظر متناسب الاعضاء حلو الشمائل معتدل القد اسيل الخد ادعج العين قمحيّ اللون مقرون الحاجبين قد اظهر تورد خديه بياض العمامة وابرز حسن شمائله اعتدال القامة ففرح بهِ الانكليزي وقال هلمَّ بنا يا بني وأحلني اليوم محل والدك وسلني عن كل ما كنت تسأله عنه ولا تكتم عني امرًا تريده وكن معي كما تكون معه فان لم تفعل كان نقصًا في حبك وخللاً في ادبك فقال سمعًا وطاعة وشكرًا لله فقد اوليتنا مننًا لا نحصيها فشكرنا لك غير منقطع وحبنا لك في قلوبنا منطبع كيف لا وقد اصبحتم في وجه الزمان خدًا وامسيتم في خده وردًا فكنتم حسنة من حسنات دهرنا لا تمحي بمروز الايام من صدرنا وقد طلعت لنا بكم طوالع السرور وكانت

آفلة واهتزت غصون الفرح وكانت ذابلة لا سيما بودكم الصافي الابريز وجوهر لفظكم النفيس العزيز فلا نقترح على الدهر غير صحبتكم وقطع حاضر الوقت في صحبتكم ولا نعد ايامنا معكم الا مفتاح السرور ومطالع السعود والحبور . فشكره الانكليزي على ثنائه واثنى على حسن وفائه ثم قام واخرج علبة لطيفة وقال له اني قد اعددت لك هذه الهدية من وقت خروجنا من القاهرة فتقبلها مني تزدني سرورًا فقبلها منه برهان الدين شاكرًا مسرورًا وفتح العلبة فاذا فيها ساعة ظريفة لها ظروف وعلاقة من الذهب فوضع برهان الدين الساعة في جيبه واظهر علاقتها الذهبية على العادة فكملت خيلته وتمت زينته ثم اخذه الانكليزي من يده ودخل بهِ محل الطعام واجلسه بازائه وقد سبق لبرهان الدين تناول الطعام على السفرة العامة مرارًا فكان عارفًا بجميع الرسوم المعتادة فاكل بالشوكة والسكينة مع غاية اللطافة والكمال بسهولة وكان الى جانبه فتاة افرنكية بارعة الجمال قد كساها الحسن والدلال ما تفتتن بهِ الرجال تشفي السقيم بكلامها الرخيم فاترة الطرف لينة العطف كحيلة العين حمراء الوجنتين

بيضاء فيها اذا استقبلتها دَعَجٌ * كأنها فضةٌ قد شابها ذهبُ

فمال اليها برهان الدين واخذت بلبه واستولت على مجامع قلبه فكان نظره اليها يتردد ولون خديها من الحياء يكاد يتوقد وكذلك هي كانت تسارق برهان الدين النظر فها وان لم يتكلما

لكن في الاشارة ما يغني عن الكلم فكان بين قلبيهما مسامرات خفية نمت بها بين الحاضرين وجنات الخدود ونطقت بها من قرائن الحال الشهود وكان برهان الدين قد بلغ حد التكلم بالانكليزي في الجملة فكان يتكلم مع الخواجا تارة بالعربية وتارة باللسان الانكليزي ولما لم تعلم الفتاة هاتين اللغتين كانت تتكلم مع الخواجا باللغة الفرنساوية فكان غالب كلامها السوال عن برهان الدين وبلده واهله وعمره وما اشبه ذلك وكان برهان الدين يرى ذلك ويلحظه ويتمنى معرفة لغتها ليتكلم معها لانها ملأت فواده وملكت قياده وفهم الانكليزي ذلك لكنه اخفاه لئلا يخجلها وانما كان تارة يترجم له ما تقول وتارة يترجم لها ما يقول وكان برهان الدين متوجهًا بكليته لحسن صفاتها وشمائلها ويتمنى ان لا يفارقها لكن انقضى وقت الطعام فقامت وقام فكانت عند نهوضها تعتدل وتميل كانها المعنية بما قيل

وتميس بين مزعفر ومعصفر * ومعنبر وممسك ومصندلِ
هيفاء ان قال الشباب لها انهضي * قالت روادفها اقعدي وتمهلي

فما زال يتبعها بصره حتى غابت عن عينه وفي قلبه من فراقها حسرة لكنه تحايل على اخفاء هذا الامر واقتدى بقول من وجد سبيلا الى الصبر

ولقد قنعت من اللقاء بساعة
اذ لم يكن لي للدوام تطرقُ

قد ينعش العطشان بلة ريقه

ويغص بالماء الكثير ويشرق

ثم انه بعد تناول القهوة قام وركب مع الانكليزي في العربة وتوجها الى التياتر فوجدا على التذاكر ازدحاماً كبيراً وخلقاً كثيراً من نساء ورجال فقال له الانكليزي لو كنت اعلم حصول هذا الازدحام لارسلت من ياخذ لنا التذاكر من قبل فالاوفق لنا الان ان نقف خلف الناس في اخر الصف فوقفا وصارا يتقدمان شيئاً فشيئاً خلف السابقين الى ان وصلا الى الطاقة التي تفرق منها التذاكر فاخذا تذكرتين من بعد دفع ثمنهما ثم سارا الى باب التياتر فاظهراها للحاجب ودخلا فوصلا الى فسحة مزينة في جميع جهاتها وبها جماعة يودع الناس عندهم ما يستغنون عنه داخل المحل من عصي وملابس زائدة كالتي تعرف بالساكو وكذلك فعل الانكليزي وبرهان الدين واخذا ورقة عليها علامة سنداً على ما سلماهم اياه كما هي العادة ثم صعدا من سلم الى اول دور فوجدا هناك نساء تدل على المحال بحسب الدرجات فاجلستهما احداهن في بعض مدرجات الدرجة الاولى وقد شغل برهان الدين منظر المحل لبهجته ورونقه وحسن زخرفته فصار يسرح نظره الى جميع جهاته ويتامل شكله وزينته فوجده في غاية من الظرافة والاتقان ووجد في سطح قبته صوراً مختلفة ورسوماً متنوعة وقد علق في وسط القبة نجفة (ثريا) عظيمة ملأت المحل انواراً وصيرت ليله نهاراً وانضم

لنورها كثير من الاضواء موزعة في دوائر المحل وطرقه وسائر مرافقه ووجد المحل المخصص لجلوس المتفرجين منقسماً الى عدة ادوار يعلو بعضها بعضاً وبكل دور سلم يتوصل به الى ما هو اعلى منه وبين كل دور والذي فوقه دائرة وباب الى الدرجة الاخرى وفي الارض دكك منفصلة عن بعضها لسهولة المرور بينها وخلف الدكك محال صغيرة مفتوحة بقدر عرضها والدور الاول عبارة عن مدرج بثلاث درج يفصل كل واحد منها طرقة صغيرة عرضها ثلثا ذراع للمرور يعلوه حاجز يشبه الدرابزين وفي هذا الدور محال صغيرة كما في الدور الارضي المتقدم وجميع سطح الدور الارضي مكسو من الداخل وبه كراس للجلوس ورأى امام الدكك الموجودة بالارض كراسي مرتفعة لجلوس رجال الموسيقى وامامهم شموعاً مصفوفة على خط مستقيم ورأى بعد هذه الدكك محلاً مستديراً وهو محل اللعب وفي كل من طرفيه محال صغيرة بعضها فوق بعض ورأى اشجاراً بكثرة يرى من خلالها ما يشبه الجبال والوهاد وفوق الجميع السماء والسحاب وكأن المطر يمطر ورأى في زاوية من هذا المحل مكاناً شبيهاً ببيت صغير وفيه امرأة وبنتان فسمعهن يتكلمن مع بعضهن فظن ان المحل متصل بالفضاء فتعجب من ذلك فقال له الانكليزي لا تظن ان هذا الذي تراه فضاء وان هذا الذي يعلوه سماء ولا ان هذه الاشجار حقيقية وانما كل ذلك رسم وتصوير اعطي حقه من الاتقان والاجادة حتى

صار بحال انه حقيقي كما تراه والذي يراد تمثيله الليلة في الملعب هو واقعة تعشق شاب من ذوي البيوتات الشهيرة لبنت فقيرة ليس لها حسب ولا نسب وقد اخذ جمالها بلبه فتعلق بها وتعلقت به وقد اراد ذلك الشاب التوجه للحرب فاتى اليها ليودعها وتحالفا على ان يبقى معها على الحب وتبقى هي معه عليه الى ان يعود فيتزوج بها واخذا بذلك على بعضهما العهود والمواثيق ثم افترقا ولما انقضى زمن الحرب وعاد الشاب سالمًا طلب اهله ان يزوجوه فابى فاغلظ عليه والده وساله عن اسباب تمنعه والح عليه فاخبره بجلي امره وما وقع بينه وبين معشوقته من الايمان والمواثيق فغضب عليه ابوه لخروجه عن طاعته وميله لواحدة من رعاع الخلق غير مستقيمة الاحوال ونصحه فلم يقبل فبلغ امه عدم امتثاله ثم توعداه على حرمانه من ميراثهما ان لم يمتثل فلم يرتدع فعملا عليه حيلة وهي ان يتهما البنت بعشقها لغيره فلم يصدق ذلك واراد ان يعلم ذلك بنفسه فاحضر اهله البنت خفية وخوفوها بالتعذيب وهددوها واعلموها مقصدهم فصارت تضطرب وتبكي وتنتحب واخبرتهم انها اتت منه بمولود فكيف تكون لها المعيشة بين اقرانها فتعهد لها ابوه بان يزوجها بغيره ويمهرها من عنده ويهب لولدها مبلغًا من ماله لتربيه به واكثروا عليها اللوم والقدح والذم ونسبوا اليها سبب خروج ولدهم عن طاعتهم وترك ما يجب عليه لنفسه ولاهله وانها هي السبب في سوء حظه وعدم استقامة حاله وانه بذلك

يعيش في اسواء الاحوال وانه لو كان حبك له صحيحًا لم ترضي له لاننا لامحالة مصممون على حرمانه من ميراثنا واخراجه من دفتر عائلتنا فانتهى بها الحال من اللوم والتعنيف الى ان قبلت منهم ما قيل لها فاخذوا عليها المواثيق على ذلك حتى انها لما تقابلت مع معشوقها على حسب عادتهما خاطبته مع التاسف وتكلف الاعراض عنه بسبب ما خوفوها به ولم تملك نفسها من كثرة البكاء فتركته وحضر ابوه فآخذه ولامه على ذلك وبعد محاورات بينهما انتهى الامر بان وعد اباه بالتسلي عنها وانه منقاد لامره راضٍ بما يرضى به فخطب له بنت امير معروف كان الشاب يعرفها حق المعرفة ومع كثرة مالها كان لا يميل اليها اصلاً لتجردها عن الجمال لكنه وعد بالامتثال فلما كان يوم الزفاف دخلت البنت الفقيرة الدار مختفية في ملبس غيرها من دون ان يشعر بها احد وكان هناك جمع عظيم من الناس فدخلت في غمارهم واستترت في زاوية من بستان الدار واقامت تنتظر الفرصة في اجزاء ما هي عازمة عليه واذا بالشاب قد مر وبيده عروسه وخلفه اناس كثيرون فنهضت من مكانها وقبضت بيده وقالت له ان كان ما فعله اهلك بي من حق الاغنياء فحق على الفقراء ان تصنع بنفسها ما تتخلص به من سوء معاملتهم واخرجت مدية ضربت بها نفسها فوقعت في الارض ميتة من وقتها فصاح الشاب وطلب الحكيم وهاج الحاضرون واجتمع كل من بالمنزل من الاهل وغيرهم ولكن مضى الامر وتم

ولا حيلة في رد القضاء المبرم ثم انهم وجدوا بمحلها طفلاً صغيرًا ملفوفًا في بعض خرق ومعه ورقة مضمونها انها على ما هي عليه من الحب والشوق اليه لا تغيرها حوادث الزمن ولا يثنيها ترادف المحن لكن اهله لشدة باسهم وغناهم وانتسابهم لاصول عريقة خوفوها بانواع العذاب ونسبوا اليها ما يشين عرضها بين الاهل والاصحاب وانها قدمته على نفسها وتركت له الدنيا بنعيمها حتى لا تكون سببًا لتنغيص معيشته وقلة صفاء فكرته

هذا ملخص اللعبة فالبيت الصغير هو بيت الشابة واهلها والمرأة والدتها وهذه البنت التي تراها اختها وسترى الشاب العاشق وتنظر جميع هذه التقلبات مفصلة وفي اثناء الكلام روءي الغلام العاشق آتيًا من وسط الاشجار يتكلم مع البنت واهلها وبعد قليل انفصلت الام وبنتها الصغيرة وبقي هو مع معشوقته يتكلمان ويتناشدان الاشعار على عادة العشاق ثم ارخيت ستارة حجبت جهة الملعب عن اعين المتفرجين فخرج اكثر الناس من محلاتهم

قال برهان الدين وخرج الانكليزي وانا معه فدخلنا ديوانًا كبيرًا فوجدنا الناس مجتمعين فيه من نساء ورجال منهم من يتعاطى الدخان ومنهم من يشرب القهوة وغير ذلك وكانت النساء مختلطة بالرجال البعض في مسامرة والبعض في تروض بالمشي فاحاط بنا اناس كثيرون فما من احد الاَّ سال عني وعن بلدي وسبب مجيي ونحو ذلك ومن الغريب ان كثيرًا من

الحاضرين كان يسأل هذه الاسئلة بعد ان رأى غيره يسأل عنها وسمع جوابها فلا يكتفي بذلك حتى يكون بنفسه سائلاً ويسمع الجواب ثانياً

واما النساء فكانت الواحدة تكرر السؤال المرة بعد المرة فعجبت غاية العجب من ميل اهل هذه الملة اليّ وسؤالهم عني ثم سمعت ضرب ناقوس فقام الجميع فعلمت انه علامة على الرجوع فعدنا الى موضعنا وبعد برهة رفعت الستارة فرأيت الصورة تغيرت ولم ارَ اشجارا ولا انهارا ولا غيرها مما كان سابقًا بل رأيت منزلا صغيرا من داخله حجرة فيها طرابيزة وكراسٍ ورأيت الشاب مع البنت يتكلمان ويبكيان ويتناشدان الاشعار في الوجد والاشتياق ويتشاكيان آلام الفراق والزفرات متصاعدة والعبرات منحدرة والانفاس مترددة والعيون شاخصة وعلائم الوجد والوله بادية فعلمت انها حالة وداع ثم ارخيت الستارة فخرج الناس كالاول وهكذا الى ان انتهت اللعبة وكان ذلك في اربع ساعات ونصف قريبًا من نصف الليل وفي اثناء الفصول كانت تتجه نحوي من جميع جهات التياتر ابصار الحاضرين من النساء والرجال والكثير كان يستعمل النظارة وتكرر ذلك منهم مرارا وكنت انا كذلك انظر اليهم بنظارتي فارى انهم بالقرب مني وارى المرأة مكشوفة الكتفين والصدر والراس والذراعين واري نصف نهديها من الاعلى فلم اتمالك ان نظرت اليهن ونزهت

طرفي في حسنهن وتذكرت قول من قال

يا دمية شرعهـا ضرب النواقيسِ
ما بين قرب مزاري والنوى قيسي
هذي ثنـاياك قد لاحت بوارقهـا
ام اشرقت في الدجى انوار برجيسِ
ام ثغر كأس الطلا يفتر عن حببٍ
ام ذا ضيـاء نبي الله جرجيسِ

وعذرت من هام بحب الغواني واباح التمتع برؤية الوجوه الحسان وتمثلت بقول من قال

ايها العاشق المعذب صبرا
فخطـايا اخي الهوى مغفوره
زفرة في الهوى احط لذنب
من غزاة وحجـة مبروره

وما رايت واحدة منهن الا وبيدها مروحة تروح بها على نفسها وتوجه نظارتها الى غيرها وتتامل في ملابسهـا وكانت الرجال ايضاً تفعل ذلك وبينما نحن واذا بالفتاة التي كانت معنا على السفرة قد برزت

ولها سرائر في الضمير طويتها * نسي الضمير بانها في طيه

فتشاغلت عنها بما في التياتر من الغواني والمغنيات واختلاف الصور لكن لما وقع بصري عليها ووجدتها موجهة نظارتها نحوي

لم اتمالك ان وجهت نظارتي نحوها فكنت كما قيل

لم يكن المجنون في حالة * الاَّ وقد كنت كما كانا

لكنه باح بسر الهوى * وانني قد ذبت كتمانا

فاشتغل فكري بها وقصرت نظري عليها وتوجهت بكليتي اليها وقام بي من الشوق ما لا اقدر على دفعه ولا حيلة لي في رفعه فهاجت ضمائري واضطربت سرائري واشتغلت بها عن روًية حوادث التياتر وغيرها حيث وجدتها تفوق الجميع حسنًا ودلالاً وظرفًا ولطفًا وكمالاً وكان يظهر لي انها تهتف باسمي وتشير بطرفها الى رسمي وكثيرًا ما رايتها تشير اليّ بالبنان اشارة متيم بالحب ولهان فكان بصري مراقبًا جميع حركاتها وقلبي مشغولاً بجميل صفاتها وغرقت في بحار الافكار لكني كتمت عن الحاضرين تلك الاسرار وخشيت هتك الاستار وهمت من حبها وجدًا ولا هيام عاشق ليلي وسعدى فما راعني الاَّ سرعة قيامها والتفاتها اليّ بحسن قوامها وكانها تقول

بنا فوق ما تشكو نصيرًا لعلنا * نرى فرجا يشفي السقام قريبا

فغشيني من الهم ما غشي فرعون من اليمّ فما نظرت اليّ نظرة الاَّ اورثت قلبي الف حسرة فذهبت وذهب قلبي معها وكدت ما بي اقوم كي اودعها وصرت اردد في نفسي عندما غاب شخصها الجميل عني

يارائحًا بعد ما سباني * حسبك رب السما تعالى

٦

واجتهدت في صرف صورتها عن وهمي فما استطعت وامرني آمر الورع والتقوى بسلوانها فما اطعت

وقد كنت من قبل الهوى اتقي الهوى
زماناً ولكنّ الهوى غلب التقوى

فبقي خيالها نصب ناظري وجمالها قيد خاطري حتى انصرفت مع الانكليزي بعد ما تم اللعب وانقضى وبقلبي من فراقها جمر الغضا واما ما كان من حوادث اللعب وقتل البنت لنفسها فجدير بان يذهل نفس من رآها عن حسها وذلك لان اللعب كان مستوفياً شروط التقليد وكأن الواقعة حقيقية وان ما بها من البكاء والاقوال والحوادث والافعال صادر من نفس اصحاب الواقعة فكان قلبي يتنقل على حسب تنقلات الحوادث حتى بكيت وسقطت من عيني العبرات وما افقت من ذلك الاّ بانقضاء اللعب وكانت النظّارة التي اهداها اليّ الخواجا هي المعينة على انكشاف ذلك كله فمع ان محل اللعب كان بعيداً عنا فكنت ارى حركة شفاههم وكاني في وسط المكان فعجبت لهذه الآلة وانتظرت الفرصة في سوال الانكليزي عنها وفي اثناء الطريق سألني عن حال التياتر فذكرت له جميع ما خطر لي من الخواطر وما تأثرت به من الحوادث فضحك وقال ايهما الطف وادق ألتياتر ام اولاد رابيه فقلت له شتان ما بين ذا وذاك واين الثرى من الثريا والقدم من المحيا

قال الحاكي لهذه الحكاية فلما وصلا الى محلهما دخل الانكليزي مخدعه وتوجه برهان الدين الى والده فوجده قد نام فنام هو ايضًا وعند الصباح قام على حسب عادته وتوضأ وادى ما عليه من فريضة ثم ذهب الى والده فقبل يده وقعد بجانبه فسأله عما راى في ليلته فذكر له الواقعة واطنب وبيّن له ما كرهه من ذلك وما احب ووصف ما عاينه من الزخرفة والزينة وآلات الطرب والتصوير والتمثيل واللهو واللعب وقال لقد رايت الليلة ما فيه العجب العجاب ولكن ليتك ياوالدي ما اذنت لي في الذهاب قال ولَمَ ذلك فذكر له ما رأى من حال النساء واختلاطهن بالرجال وكشفهن لوجوههن وصدورهن ونهودهن اظهارًا للجمال وانه راى ذلك مباينًا للحياء والكمال ومضرًا بحال النساء والرجال وداعيًا الى تعلق البعض بالبعض لسهولة الاختلاط المؤدي الى الميل واشتغال البال وترك الانسان ما يجب عليه من الاعمال اذ لا يخفى ان اول الحب نظرة كما ان اول الحريق الشرر فما اسواء هذه العادة في هذه البلاد وما اضرها على العباد

فقال الشيخ يابني لكل بلاد عادة يستحسنها اهلها ويستقبحون ما يخالفها وان كان غيرهم على عكس ذلك ولن تستطيع تغيير عادة جارية في مدينة كبيرة مثل هذه بازرائك عليها وانتقاصك لها فلا يحصل من الاعتراض عليهم غير التعرض لمعاداتهم على اننا لا فائدة لنا في تغيير عاداتهم واستمرارهم عليها اذ لسنا بصدد معاشرتهم

وسكنى حاضرتهم وانما نقيم بين اظرهم مدة يسيرة ونرحل عنهم فما علينا من اخلاقهم وعاداتهم مليحة كانت او قبيحة وانما علينا اذا راينا في اوضاعهم وطباعهم واحكامهم ومبانيهم وغير ذلك شيئاً فيه لبلادنا مزية ومنفعة احصيناه وحفظناه حتى نجتهد في نقله الى جهتنا بالتنويه به بين اهل ملتنا واظهار محاسنه وبيان منافعه وترغيب الناس فيه بشرط ان يكون هذا مع التحقق من نفعه بعد امعان النظر وجودة التامل ومراجعة اهل النظر والبصيرة فيه لا ببادئ الراي والنظرة الحمقاء فقد راينا كثيراً من الاغرار الحمقاء حين يدخلون مثل هذه المدينة الحافلة ويرون ما فيها من الزخرفة والزينة والابهة وعلائم العز والثروة واليسار مما لا يجدون نظيره في بلادهم تحملهم روعة ما يهولهم من تلك المناظر الرائعة والظواهر المعجبة على ان يستحسنوا كل ما راوه مما يخالف ما عندهم ويظنوا انه سبب الغنى والثروة لاهل تلك المدينة مع انه ربما كان في نفس الامر قبيحاً مضراً وانما غطي على ضرره انه مصحوب بامور نافعة غيره وربما ظهرت مضراته بعد حين فعلى العاقل ان لا يتسرع الى الحكم بل يتثبت ويتامل حتى تظهر له حقيقة الشي على ما هو عليه ويجتهد في نقل النافع لاهل وطنه وملته والكف عن غيره واما ما ذكرت من خوف الفتنة من تكشف النساء كما رايت بالامس فكان عليك يابني ان تغض البصر عما لا تحل لك رؤيته وما يخاف عليك تبعته وقد قال الله جلت كلمته

(قل للمؤمنين يغضوا من ابصارهم)

وبينما هما في هذا الكلام دخل الانكليزي عليهما واخذ يسمع نصائح الشيخ لولده فاتم الشيخ كلامه وقال . واعلم يا ولدي ان لكل امة من الناس عادات الفوها واستمروا عليها لا يتحولون عنها بل لكل واحد من الامة عادات واخلاقاً تختص بهِ ويتميز بها وقد قلت لك فيما سلف ان الخلق وان كانوا من نفس واحدة الاّ ان اخلاقهم وطباعهم متغايرة وعاداتهم واوضاعهم متنافرة فمنهم من اعتاد حجب النساء وحجزهن في المنازل ومنهم من اعتاد ابرازهن واختلاطهن بالرجال وكذلك منهم البخيل والسخي والشجاع والجبان والغبي والزكي والصالح والطالح الى غير ذلك كما ان منهم الاسود والاسمر والابيض والاشقر ومنهم من لغته العربية وغيرها وليس من نوع الانسان الا وفيه خلق من اخلاق غيره من الحيوان فاذا راينا الرجل جاهلا في خلائقه غليظاً في طباعه قوياً في بدنه لا تومن ضغائنه الحقناه بعالم النمور لان العرب ضربت بالنمر المثل فقالت اجهل من نمر واذا رأينا الرجل هجاماً على اعراض الناس الحقناه بعالم الكلاب فان داب الكلب ان يجفو من لا يجفوه ويؤذي من لا يؤذيه واذا راينا انساناً جبل على الخلاف ان قلت نعم قال لا وان قلت لا قال نعم الحقناه بعالم الحمير فان دأب الحمار ان ادنيته بعد وان ابعدته قرب فلا تنتفع بهِ ولا يمكنك مفارقته وان رأينا انساناً يهجم على الاموال والارواح

الحقناه بعالم الاسود فخذ حذرك منه كما تاخذ حذرك من الاسد وإذا رأينا انسانًا خبيثًا كثير الروغان الحقناه بعالم الثعالب لان العرب ضربت بهِ المثل فقالت اروغ من ثعلب وإذا رأينا من يمشي بين الناس بالنميمة ويفرق بين الاحبة الحقناه بعالم الظربان وهي دويبة قدر الهرة منتنة تقول العرب عند تفرق الجماعة مشى بينهم الظربان اي تفرقوا وإذا رأينا انسانًا لا يصغي الى الحكمة والعلم وينفر عن مجالس العلماء ويألف اخبار اهل الدنيا الحقناه بعالم الخنافس فانه يعجبها اكل القاذورات وملامسة النجاسات وتنفر من ريح المسك والورد وإذا اشتمت رائحة الطيب ماتت لوقتها وإذا راينا الرجل يصنع بنفسه ما تصنع المراة لبعلها فيبالغ في التزيّن وينظر في عطفيه الحقناه بعالم الطواويس لان العرب ضربت بهِ المثل فقالت ازهى من طاووس وإذا راينا انسانًا حقودًا لا ينسى الهفوات ويجازي بعد المدة الطويلة على السقطات الحقناه بعالم الجمال فتجنبنا قربه لان العرب تقول احقد من جمل فخذ من الناس حذرك وجد فيما تحسن بهِ امرك

النصح ارخص ما باع الرجال فلا
تردد على ناصح نصحا ولا تلم

ولقد ذكرت بما انساق اليه الكلام من طبائع الحيوان نادرة لطيفة عن الامام علي رضي الله عنه وكرم وجهه حكي انهُ دخل عليه اعرابي فقال لهُ اني رأيت كلبًا وطيء شاة فولدت فما تقول في

ولدها . فقال كرم الله وجهه اعتبره في الاكل فان اكل لحمًا فكلب وان اكل علفًا فشاة . فقال الاعرابي رايته يفعل هذا تارةً وهذا اخرى . فقال اعتبره في الشرب فان كرع فهو شاة وان ولغ فهو كلب . فقال الاعرابي وجدته يلغ مرة ويكرع اخرى فقال اعتبره في المشي مع الماشية فان تاخر عنها فكلب وان تقدم او توسط فهو شاة . فقال وجدته مرة هكذا ومرة هكذا فقال اعتبره في الجلوس فان برك فشاة وان اقعى فكلب فقال يفعل هذا مرة وهذا اخرى . قال اذبحه فان وجدت لهُ كرشا فهو شاة وان وجدت لهُ امعاء فكلب وما ذاك الاَّ من سعة علم الامام كرم الله وجهه ومعرفته بالطبائع

قال الانكليزي اظن ان الذي جر هذا الكلام بينكما حكاية ما رآه برهان من امر التياتر فاني اظنه حدثك بما كان

فقال الشيخ نعم شرح لي صورة الحال وكيف قتلت البنت وحكى لي انه تأثر من معاينته ذلك حتى كأن الامر حقيقي لا مجرد تصوير وتمثيل

فقال الانكليزي ما كنت اظن هذا الامر يؤثر في برهان حتى رأيته في اثناء الواقعة يبكي فحملت ذلك على رقة قلبه

فقال الشيخ هذا لا يستغرب من مثله فانه صغير السن قليل الممارسة للامور فهو سريع التأثر بعيد عن القسوة

قال الانكليزي فكيف بهِ لو رأى تصوير الحوادث الجسيمة

والوقائع الحربية العظيمة حيث يرى القتلى صفوفًا والمدرجين في دمائهم الوفًا والمقطعين اربًا اربًا والمدبرين عن القتال رهبًا وهربًا

فقال برهان اعوذ بالله من ذلك لست ممن يميل لرؤية هذه الامور وانما اميل لما يجلب الى النفس السرور ومالي ولما يورث الحزن ويبعث على الشجن

فقال الانكليزي الشيء لا يعرف الاَّ بضده ولا تخلو روية هذه الامور من فائدة

قال برهان ولكن هذا امرٌ لم تألفه طباعنا ولم تسبق لنا بهِ عادة واذا رايت شيئًا من ذلك تكلمت فيه بما اراه والذي ارجوه منك الان ان تعرفني كيفية هذه النظارة ولاي شيء يرى البعيد بها قريبًا والصغير كبيرا فلا بد لذلك من حكمة



المسامرة الثامنة والعشرون

النظارات

قال الانكليزي العلم بحقيقة ذلك متوقف على قواعد علمية مذكورة في علم الطبيعة في باب الضوء وستقف عليه ان شاء الله عند تلقي هذا العلم بالمدارس وبعض هذه الخواص قائم بشكل الزجاجة الموضوعة في النظارة وبعضها ناشيء من تعددها وبعدها عن بعضها فلا ندخل في ذلك الان ويكفينا الاستدلال بها على استكشاف الانسان لامور اتسعت بها دائرة معلوماته وقد زعم بعض المورخين من الاورباويين انها لم تكن موجودة الى القرن الثالث عشر من الميلاد وانما اخترعت بعده على يد رجل تلياني وليس كذلك لانه تحقق لنا الان ان استعمالها سابق على هذا التاريخ وان هذا التلياني انما احدث فيها بعض تحسينات فقط ومع ذلك كله فاظن ان استعمالها بالديار الاورباوية لم يكن الا بعد استعمالها بالمشرق فان ابتداء علمي الملاحة ورصد الكواكب اللذين هما اشد احتياجًا اليها من غيرهما كان بتلك الديار وقد نسب المورخون اختراعها الى المصادفة حيث قالوا

انفق ان بعض اطفال الصناع من اهالي هولاندة في بعض العابهم قربوا عدستين من الزجاج الى بعضهما وكانتا من جنسين مختلفين ثم نظروا من خلفهما فوجدوا الاشياء الصغيرة البعيدة كانها قريبة كبيرة فاخبروا معلمهم بذلك فامتحنه فوجده حقًا فاخذ في عمل نظارات بعدسات من اجناس مختلفة بعد ان كان يجعلها من جنس واحد فكانت تسمى هذه النظارات بالهولاندية نسبة الى ذلك المعلم وكانت ترى بهـا الصور غير تامة الوضوح بسبب ما كان يرى فيها من التلون بالوان العدسات فاشتغل اهل الفن بازالة هذا الامر وذلك ان احد الفرنساوية ادخل مادة جديدة في المواد التي تتركب منها العدسات فامتنع ظهور الالوان المذكورة وكان ذلك في القرن السابع عشر من الميـلاد وهو القرن الحادي عشر من الهجرة فمن ذلك الوقت صارت الصور ترى بلونها الاصلي وبحسب تقدم الناس في المعلومات الفكرية واتساع دائرة العلم والصنائع العملية تحسن امرها شيئًا فشيئًا حتى تنوعت الى انواع كثيرة وصلت في الاتقان الى غاية كبيرة

وجميع النظارات المستعملة الان بين الناس بالنسبة لتعدد العدسات الزجاجية وعدمه منحصرة في قسمين بسيطة ومركبة

فالبسيطـة هي التي تشتمل على عدسة واحدة كالتي تمسك باليد او توضع على الانف وهي مختلفة الشكل والقيمة

بالنسبة لحسن المعدن والمادة الداخلة في تركيبها ولاختلاف شكل اعين الناس اختلف تركيبها فان من الناس من لا يرى الاشياء الا اذا كانت على بعد منه ومنهم من لا يراها الاّ اذا كانت قريبة جدا فما يوافق الاولين لا يوافق الاخرين وبالعكس والغالب ان من يرى الاشياء على بعد يكون شكل عينه مقعرا فيناسبه نظارات محدبة وان من يراها من قرب يكون شكل عينه محدبا فيناسبه نظارات مقعرة ولتفاوت اعين الناس في التحديب والتقعير كانت العدسات ايضا متفاوتة فيها وبالتجارب وجدوا التفاوت لا يزيد عن اثنتين وعشرين درجة واكبرها قوة الدرجة الاولى فلا يستعملها الا من كان بصره ضعيفا جدا كالهرم ومن اضر ببصره المرض فسبحان من علم الانسان من مكنون علمه ما اودع في مخلوقاته من الحكم الربانية حتى استعاض ما ضاع من قوة ابصاره التي هي اصل لتلذذ حواسه وغذاء افكاره

والمركبة هي التي تشتمل على عدستين فاكثر مثبتة في قضيب اسطواني فتوضع احدى العدسات في نهايته مما يلي الرآئي وتسمى الباصرة او العينية والثانية في النهاية الاخرى وتسمى الشيئية او الشخصية لانها في جهة الشيء المرئي وشخصه وقد يكون القضيب مركبًا من قضيبين او قضبان يدخل بعضها في بعض لسهولة الاستعمال وتقريب الاشياء وزيادة ظهورها للعين فتكون حينئذ

نافعة لجميع الناس لسهولة تنقيص الطول وزيادته على حسب قوة الرائي وفي هذا النوع اذا كانت العدسات من جنس واحد اي محدبة فقط او مقعرة فقط تكون الصورة المرئية مقلوبة اي ان المرئي لو كان رجلاً مثلاً لنظرت صورته منعكسة رأسه لجهة اسفل ورجلاه الى اعلى فان كانت العدسات مختلفة بان كان بعضها محدبًا والاخر مقعرًا رؤيت الصورة كما هي واما النظارات التي يستعملها البحريون فيوجد بها عدسات اخرى بين الباصرة والشيئية (اي الشخصية) موضوعة بقوانين حسابية وبسبب ما علم من فوائد هذه الالات لم يزل اهل الفن مشتغلين بها حتى توصلوا الى عمل نظارات تكبر الصورة عن اصلها الف مرة والفين وثلاثة الاف واكثر والى عمل نظارات لنظر الاشياء الدقيقة جدًا كاعضاء بعض الحشرات كالنمل والذباب والبراغيث ونحو ذلك مما لا يمكن رؤيته بدونها وهذه ايضاً اما بسيطة كالتي عند الساعاتية والجوهرية واما مركبة في قضبان تتداخل في بعضها وتكون عادة موضوعة راسية مثبتة في قائم من معدن لتسهيل الاعمال اللازمة ويكون التعظيم الحاصل منها حينئذ محصل ضرب تعظيم كل من هذه العدسات في الاخر فاذا كانت العدسة الشخصية او الشيئية تعظم قطر الجسم خمس مرات والعينية عشر مرات كان التعظيم الاخير خمسين قطرًا اي الفين وخمسمائة سطح حاصلة من ضرب الخمسين قطرًا في نفسها وقد

بكون التعظيم الاخير الف قطرًا اي مليون سطح كما اذا كان التعظيم من الشخصية مائة ومن العينية عشرة او من الشخصية اربعين ومن العينية خمسة وعشرين مثلا وسأطلعك على هذا كله واريك بعض غرائب الصور التي تراها بها اذا دخلنا المدينة فان بها دكاكين مخصوصة ببيع النظارات لانها على البحر وجميع القباطين لا بد لهم منها فلا تسير سفينة الا وبها عدة منها اما بيد القباطين او بيد البحرية



المسامرة التاسعة والعشرون

العادات

ثم امر الانكليزي باحضار الفطور فاكلوا على العادة ثم قاموا يتفرجون على المدينة ولاجل وقوف الشيخ على كيفية المدينة واهلها استحسنوا ان يبدأوا بالتفرج على اصلها القديم ثم على الجديد وفي اليوم الاخير يذهبون الى خارجها ليطلع الشيخ على اطرافها وضواحيها ويقارن احوال الزمن الماضي باحوال الزمن الحالي

ويرى كيف تتغير احوال البلدان بتغير اهلها واستحسن الشيخ الذهاب على القديم وان كان أكبر الثلاثة سناً ليتمكن مزيد تمكن من الاطلاع على ما بها من الاماكن والبقاع والاحوال والطباع فاخذ بعضهم بيد بعض وابتدأوا من المينا (اي المرسى) فداروا حولها وراوْا بها مخازن البضاعة الواردة والصادرة ومحلات الكمرك ونحو ذلك فتعجب الشيخ من كثرة السفن وتنوع اشكالها واجناس ملاحيها وملابسهم والوانها ومن كثرة البضاعة الموجودة في المينا المذكورة منها الوارد للمدينة والصادر الى جهات مختلفة ووجد المرور بالطرق عسراً جداً لكثرة العربات المعروفة في مصر بعربات الكر ومقابلتها لعربات الركوب والحمالين والمارين فكان سيرهم متقطعاً غير مستمر وظهر للشيخ وولده عظم تمول الامة الفرنساوية واتساع ثروتها ومعرفتها بطريق الاسباب المعاشية ولكون النفس مجبولة على حب الوطن تذكر الشيخ مصر واهلها وثغر الاسكندرية وحالها فوجد بينها وبين مرسيليا فرقا كبيراً وان ذلك ليس الا من تفاوت احوال التقدم ونظر الى المارين بالطرق وقارن احوالهم بما يعلم من احوال اهل بلاده فوجد ان لا نسبة بينهما الاّ في الصورة فقط لانه رأى الكل يسعى مع الاجتهاد والغيرة والنشاط في طلب الرزق وعليهم اثار اليسار والثروة والنعمة ومما زاده تعجبا ما رآه من اجتماع خلق كثير لا يسمع لهم صوتًا ولغطا كما هي عادة المصريين واهل المشرق بل كل مشغول

بامر نفسه سائر في طريقه محترز من اضرار غيره او تغيير خاطره ومع تنوع الاشغال والاعمال وكثرة العمال فلا ضرب ولا سب فكانهم اجتمعوا للصلاة او لسماع منشور من احد الولاة فلا يسمع بينهم الا الفاظ لا بد منها بين المتعاملين من غير صياح ولا صراخ حتى قال الشيخ ليت هذا الحال بازقة القاهرة والاسكندرية ونحوهما من مدن الممالك المشرقية فانا نرى النـــاس بها سيما في الموالد والمواسم والمحافل لا تكاد تمر بهم ساعة من الساعات الاّ ويحصل فيها تشويش خاطر المارين وازعاجهم من كثرة الصياح والصراخ والسب وسماع الالفاظ الفظيعة ثم تامل في اصل ذلك وسببه فوجده ناشئًا من قوانين الضبط الابتدائية وطرق التربية الاولية فتعود كل على ما نشأ عليه ثم انهم بعد الاطلاع على المينا وما بها من المباني والغرائب دخلوا المدينة فبدئوا بالجزء القديم منهـــا فوجدوا بناءه وحاراته وطرقه مثل ما يوجد في المدن المشرقية سوآء بسوآء الاّ ان طرقه مبلطة وغالب حاراته يخرج منها روائح كريهة وما بها من الدكاكين والخانات ليس كالذي رأوه في الشوارع الجديدة الموصلة الى اللوكاندة حيث هم نازلون ووجدوا المارة قليلة بالنسبة لما رأوه في تلك الشوارع وما زالوا سائرين من محلة الى محلة ومن جهة الى غيرها والشيخ وابنه يتاملان فيما يمران بهِ ويقع تحت نظرهما ويقابلان حاله بحال ما في مصر وجهاتها من نوعه وينظران في الفرق بين الحالين والترجيح بين

الامرين

وكان غالب نظر الشيخ منعطفًا الى عادات الناس وادابهم في معاملاتهم وسائر حالاتهم وما يراه بهم من علائم الغنى والفقر والراحة والتعب وكثرة الكسب وقلته وسهولة امر المعاش وصعوبته ونحو ذلك من الاحوال واسبابها وكان نظر برهان الدين كعادة غيره من الشبان قاصرًا علي المناظر والظواهر فنظر في مباني المدينة وتأمل فيها فرآها مرتفعة ورأى غالب البيوت من اربع طبقات الى سبع بعضها فوق بعض فتعجب من وضع المباني وكثرة تعدد طبقات المنازل مع ان اعظم بيوت مصر في العلو طبقتان خلاف الطبقة الارضية بل الكثير منها طبقة واحدة فوق الارضية

فقال له الانكليزي اراك تردد النظر الى هذه المباني والتامل في ارتفاعها واراك كالمتعجب من كثرة طبقاتها : فقال نعم . قال الانكليزي لا غرابة في ذلك فهذا كله ناشيء من امور طبيعية واسباب جوية لان هذه البلاد باردة فلا يناسبها الغرف الواسعة ولا المرتفعة وانما يناسبها القليلة السعة والارتفاع فاذا لزم عندكم ارتفاع الطبقة ستة امتار مثلاً كفى عندنا نصفها لان غالب اوقات السنة عندنا باردة فيحتاج اصحاب المساكن لاستعمال الة مخصوصة لتولد الحرارة ودفع البرودة كأفران من حديد توضع في المحلات وقت الشتاء وحمامات تعمل داخل البناء كما رأيت في محلات اللوكاندة فكلما كبر المحل احتاج لزيادة الوقود في الفرن وفي ذلك

زيادة في المصرف ولذا اضطر الناس عندنا الى تقليل ارتفاع الحجرات فكثرت الطبقات في الدور مع كون الدار لا يزيد ارتفاعها عن ارتفاع دوركم الا بشيء يسير بل ربما كان ارتفاعها سواء الا انها عندنا منقسمة الى عدة طبقات تسكنها عائلات متعددة اذ كانت العادة عندنا ان لا ينفرد صاحب الدار بسكناها بل يسكن منها فيما يكفي عائلته ويؤجر باقيها بخلاف ما عندكم من تعود كثير من الناس ان ينفرد صاحب الدار بسكناها مستقبحاً ان يساكنه غيره ولو كان من اقاربه فلما ذكر من الاسباب اختلفت اوضاع المنازل عندنا وعندكم وكما اقتضى اختلاف احوال الاقطار اختلاف اوضاع المساكن كذلك اقتضى اختلاف هيئات الملابس وتنوع المآكل والمشارب وعلى ذلك جرت عادتهم ووقع عليه استحسانهم حيث كان مرجعه الى اقتضاء الطباع ألا ترى العرب في البادية يكتفي الواحد منهم بقميص واحد ورداء ابيض من الصوف وهو المعروف بالحرام وما ذاك الا لان حرارة قطرهم تمنعهم من الزيادة على ذلك فالثوب لستر العورة والحرام لزينة النهار وغطاء الليل ولم يكن اختيار اللون الابيض خالياً عن الحكمة بل لانه الموافق للاقطار الحارة فيرد الحرارة عن البدن بخلاف باقي الالوان فانها تجذب حرارة الجو اليها ومن اجل ذلك اعتاد الناس لبس الابيض في الصيف وغيره في الشتاء وكذلك يستحب في البلاد الحارة الثياب الواسعة كملابس اهل

الارياف وكالجبة والقفطان عند اهل المدن واما البلاد الباردة فيطلب فيها ضيق الملابس لتكون مماسة للجسد لاصقة بهِ لان الجسد لهُ درجة في الحرارة لها مع حرارة الجو نسبة تتعادل معها بحسب الفصول فمها كان الثوب محكمًا على الجسد حفظ حرارته ولو نظرت الى تفصيل المنازل عندنا وعندكم وتاملت صورتها الخارجة والداخلة لرايت ان القطر لهُ دخل عظيم في اختلافها مثلا سطوح المنازل عندكم مستوية وفي بلادنا لا يناسب هذا الوضع لان المطر عندنا كثير وفي بعض الاحيان يتجمد فيكون ثلجًا فلو كان السطح مستويًا لتسارع اليه الخلل خصوصًا لطول مدة الامطار وكثرتها فيسري الخلل الى المنازل وتمتنع راحة سكانها وتتلف امتعتهم ويؤدي ذلك الى ضرر عظيم لتراكم الثلج فوق الاسطحة واذا ابتدا الجو في الحرارة انماع وسال وبسيلانه يفسد بناء المنازل ولذلك تجد جميع سقف المنازل عندنا عبارة عن سطحين يرتفع طرفاها عند التقاهما على الهيئة المعبر عنها في اصطلاح المصريين بالجمالون فهذا الشكل من ضروريات قطرنا لما علمت بخلاف ما عندكم فان الامطار في الاقاليم الشمالية المعروفة بالجهة البحرية في مصر قليلة جدًا وفي الجهة الجنوبية منها المعروفة بالقبلية نادرة ولا ضرورة للاحتراس من شيء لو وقع كان قليلا او نادرًا او غير مضر وهذا قانون عام في جميع جهات الارض فكل سكان بقعة من مبداء اتخاذهم لها مقرًا ووطنًا قد تحيلوا حتى اهتدوا الى ما

يوافق احوالهم با لنسبة لهذه البقعة ومن ثم كانت الطباع والاخلاق والعادات متولدة من طبيعة قطر الجهة واما ما زاد فطاريٌ من اختلاط سكان كل بقعة بمن جاورها



المسامرة الثلاثون

القهوة

وهكذا كان يتكلم مع برهان والشيخ يسمع الى ان وصلوا الى محل قهوة يزيل الاتراح ويجلب الافراح للطافته وحسن زخرفته وكثرة ما به من المرايا وسائر المزايا والنقوش اللطيفة والاشكال الظريفة والادوات النظيفة والآلات المطربة والحالات المعجبة فدخلوا بقصد الاستراحة فاختاروا ركنًا بعيدًا عن الزحام فقعدوا حول طرابيزة فحضر الخادم فامره الانكليزي بقهوة للشيخ ولولده وبليمونية لنفسه فذهب واتي له بما طلب ثم اخذ ورقة من اوراق الحوادث ليطلع على ما فيها من الاخبار وكان الوقت اخر النهار

ومن عادتهم التفسح في هذا الوقت فمنهم من يأوي الى محلات القهوة ليطلع على الاخبار او ليتسلى مع بعض الاخوان ومنهم من يذهب الى خارج المدينة للفسحة والتروض ومنهم من يمشي مع بعض حرمه من النساء فكان في محل القهوة في هذا الوقت زحام كثير يدخلها فوج من الناس ويخرج اخر والجميع في هيئة تدل على الثروة فاستغرب الشيخ هذا المحل واستعظم امره وراى فيه عدة محلات متداخلة وراى الناس تخرج من محل الى اخر بدون مانع يمنعهم وراى في المحل كثيرًا من الكراسي الحسنة والترابيزات الثمينة ولكثرة المرايا وتقابلها ببعضها كانت صور الجالسين والخارجين والداخلين تنعكس فيها وتتضاعف مرارًا فكان يترآى في المحل سعة اكبر واكثر مما هو عليه في نفس الامر وكان المنظر الحادث من هذا التكرر غريبًا يلذ الناظر ويسر الخاطر فرغب برهان في التفسح في ارجاء المكان فقال له الانكليزي قم ولا حرج وانظر الى ما تحب وتفرج فراى مكانًا كبيرًا فدخله فوجد في وسطه ترابيزة كبيرة عليها ثلاث كرات من سن الفيل وحولها ناس من جملتهم اثنان بيد كل واحد منهما عصا يضرب بها احدى الكرات الثلاث المذكورة فتضرب احدى الكرتين الاخريين او كليهما وربما ضرب بها حافة الترابيزة فتنعكس عنها الى الكرة الثانية ثم الى الثالثة وربما لم تصب الاّ واحدة وفهم من الناس ان هذه اللعبة تعرف بالبليارد وان الواحد انما اصاب بالكرة التي يضربها كلتا الكرتين

الباقيتين حسب له واحد في اللعب ولعب ثانياً فاذا لم يصب كلتيهما لم يحسب له شي ويلعب قرينه وهكذا حتى يستكمل احدهما العدد المتفق عليه بينهما فتكون له الغلبة ثم خرج من ذلك المكان الى حجرة اخرى فوجد بها قوماً جلوساً وامامهم طرابيزات عليها الصحف الخبرية واوراق الحوادث النشرية وهم يقراون فيها وفي غيرها واخرين ياكلون ووجد محلات القهوة والمشروبات في غاية النظافة والظرف والخدمة في هيئة الكمال واللطف ووجد شابة ظريفة الملبس جميلة الصورة امامها مكتبة ودفتر تكتب فيه ما يطالب فرجع وذكر ما راى لوالده وكان قد راى هو ايضاً قريباً من المحل الذي هم به اناساً يلعبون القمار واخرين يلعبون بالنرد وهو المعروف بالطاولة واخرين يلعبون بالشطرنج والدومنو

فقال الشيخ تنبيهاً لولده واحكاماً لرشده قد رايت مما بهذا المكان من بديع الاتقان وغريب الاحسان ما يدلك على تسابق الافكار في توصل بني نوعك الى محاسن الاثار فهذا الموضع كما تراه يبلغ كل داخل فيه مناه فالناس ما بين آكل وشارب ومتفرج ولاعب ومطلع على الاخبار الوقتية وسائل ومجيب عن الاحوال التجارية والناس مع اختلاف هذه الشئون على اكمل هدء واجمل سكون الى سلامة ابدان ولطافة اذهان ونظافة ثياب وملاحة ذهاب وإياب فاين من هذا غالب محلات القهوة في مصر حيث يجتمع السوقة من الناس ولا يرى ما يبهر الناظر ويسر الخاطر ولا

شي فيها غير القهوة وتراها لضيقها يهجم على من فيها الدخان المتصاعد من الكانون وكذلك دخان النرجيلة والعود ونحو ذلك حتى يراهم من يمر بهم كانهم في حريق او محل سجن مضيق فهي منبع لكثير من الامراض والعلل وماوى لاهل البطالة والكسل خصوصاً المحلات التي يتعاطى فيها الحشيش .فلا يسمع فيها الاّ الفاظ يمجها السمع وينفر منها الطبع وقلما خلت عن السب والضرب فهي بهذه الكيفية لا تليق بالامراء والاعيان والفضلاء

فقال الانكليزي ان اصل ما جعلت له هذه المحال عندنا وعندكم واحد ولكن بسبب ازدياد الثروة والتوسع والعمران اكتسبت هذه المحال عندنا هذه الهيئة شيئًا فشيئًا حتى صارت كما ترى يرد اليها جميع الناس من رجال ونساء وافاضل وامراء ومع هذا فما هنا ليس شيئًا بالنسبة لما في مدينة باريس كما ستراه فليس الخبر كالعيان وقد رايت عندكم بالموسكي وجهة الازبكية والاسكندرية بعض محلات للقهوة تشبهها وان كان غالب المترددين اليها من الاوروبيين فهذا ربما يشعر بان قطركم قد اخذ في مبادي التوسع في العمارة والرفاهية فيوشك ان تكثر به هذه المحلات ويزداد اتقانها وتحسينها . أما رايت في ازقة مرسيليا القديمة محلات للقهوة لا فرق بينها وبين ما في القاهرة فهذا مما يدل على ان هذه الحالة لم تكن في القرون السابقة كما هي الان ولكن لا تكون الامور الاّ

تدريجًا فكلما ازدادت امة من الامم تحولت عن حالتها الاصلية الى ما يقتضيه ما صارت اليه ولا يخفى عليك ان الانسان وان كان يصرف في القهوة هنا اضعاف ما يصرفه عندكم الاّ ان ذلك ليس لذات القهوة بل لها ولما يتبعها من نظافة المكان وما فيه من المحاسن التي رايتها فانكم تعلمون ان النظافة من ضرورات حفظ الصحة التي رعاها الشرع والعقل ولذلك يتعين على ضباط البلاد والقرى والمدن دوام تفقدها والتنبيه عليها حتي تصير عند الاهلين طبعًا وعادة من جملة العادات المالوفة كما انهم يلزمهم زيادة عن ذلك شدة التضييق على المواد المضرة بالعقل والجسم كالحشيشة فيلزم مزيد التاكيد في ازالتها والتوعد بالعقاب الشديد على استعمالها وكثيرًا ما سمعت عندكم بنشر اوامر من الحكومة بمنع تعاطيها وعدم زرع شجرتها في شي من ارض مصر ولكن لم تمتنع بالكلية وليت شعري من اين عرف المسلمون هذه الشجرة وكيف استعملوها ولم تكن مشهورة الاستعمال بين قدماء المصريين



المسامرة الحادية والثلاثون

الحشيش

فقال الشيخ انها لم تكن من مستنبتات مصر واشتهرت نسبتها الى طائفة من الاعاجم تسمى الحيدرية نسبة الى رئيسهم حيدر قال الحسن بن محمد في كتاب السوانح الادبية سالت الشيخ جعفر بن محمد الشيرازي الحيدري ببلدة (تستر) في سنة ثمان وخمسين وستمائة عن السبب في الوقوف على هذه العقار يعني الحشيشة ووصوله الى الفقراء (يعني الدراويش) خاصة وتعديه الى العوام عامة فذكر لي ان شيخه حيدر طلع ذات يوم وقد اشتد الحر وقت القائلة منفردًا بنفسه الى الصحراء ثم عاد وقد علا وجهه نشاط وسرور بخلاف ما كان يعهد من حاله قبل فدخل محله واذن لاصحابه في الدخول عليه واخذ يحادثهم ويوآنسهم فلما راوه على هذه الحالة من الموآنسة بعد اقامة المدة الطويلة في الخلوة والعزلة سالوه عن سبب ذلك فقال بينما انا في خلواتي اذ خطر ببالي الخروج الى الصحراء منفردًا فخرجت فوجدت كل شي من النبات ساكنًا لا يتحرك لعدم الريح وشدة القيظ ومررت بنبات له ورق

فرأيته في تلك الحال يميس ويتحرك بلطف كالثمل النشوان فجعلت اقطف منه اوراقًا واكلها فحصل عندي من الارتياح ما شاهدتموه فقوموا بنا حتى اوقفكم عليه لتعرفوا شكله قال فخرجنا الى الصحراء فاوقفنا على النبات فلما رايناه قلنا هذا نبات يعرف بالقنب فامرنا ان ناخذ من ورقه وناكله ففعلنا فوجدنا في قلوبنا من السرور والفرح ما عجزنا عن كتمانه فلما رآنا على الحالة التي وصفنا امرنا بصيانة هذه العقار واخذ علينا الايمان ان لا نعلم بها احداً من عوام الناس واوصانا ان نخفيها عن الفقراء وقال ان الله تعالى قد خصكم بسر هذا الورق ليذهب باكله همومكم الكثيفة ويجلو بفعله افكاركم الشريفة فراقبوه بما اودعكم وراعوه فيما استرعاكم

وعاش الشيخ حيدر بعد ذلك عشرين سنة ثم توفي سنة ثماني عشرة بزاويته في الجبل وعظمه اهل خراسان وزاروه وكان قد اوصى اصحابه عند وفاته ان يوقفوا ظرفاء اهل خراسان وكبراءهم على هذه العقار فاستعملوها فلم تزل هذه الشجرة شائعة ذائعة في بلاد خراسان وفارس ولم يكن يعرف اصلها اهل العراق حتى ورد اليها صاحب هرمز ومحمد بن محمد صاحب البحرين وهما من ملوك سيف البحر المجاور لبلاد فارس في ايام الملك الامام المستنصر بالله وذلك في سنة ثماني وعشرين وستمائة فحملها اصحابها معهم واظهروا للناس اكلها فاشتهرت بالعراق ووصل خبرها الى اهل الشام ومصر والروم فاستعملوها وقد نسبها لحيدر المذكور محمد بن علي

بن الاعمى الدمشقي في قوله من ابيات

دع الخمر واشرب من مدامة حيدر
معنبرة خضراء مثل الزبرجدِ
يعاطيكها ظبي من الترك اغيد
يميس على غصن من البان املدِ
فتحسبها في كفه اذ يديرها
كرقم عذار فوق خد موردِ

وقال الشيخ محمد الشيرازي القلندري لم ياكل الشيخ حيدر الحشيشة في عمره البتة وانما عامة اهل خراسان نسبوها اليه لاشتهار اصحابه بها وكان اظهارها قبل وجوده بزمان طويل وذلك انه كان بالهند شيخ يسمى بيررطن هو اول من اظهر لاهل الهند اكلها ولم يكونوا يعرفونها قبل ذلك ثم شاع امرها في بلاد الهند حتى ذاع خبرها ببلاد اليمن وما جاورها ثم فشا الى اهل فارس ثم ورد خبرها الى اهل العراق والروم والشام ومصر في السنة التي تقدم ذكرها وبيررطن هذا يزعمون انه كان في زمن الاكاسرة وادرك الاسلام واسلم وعاش بعد ذلك طويلاً وذلك ما لا اصل له وقد نسب اظهارها للناس الى اهل الهند علي بن مكي في ابيات له يقول فيها

فقم فانف جيش الهم واكفف يد العنا
بهندية امضى من البيض والسمرِ

بهندية في اصل اظهار اكلها

الى الناس لا هندية اللون كالسمرِ

وقد قيل في هذه الشجرة الملعونة كثير من الشعر وان لم يبلغ ما قيل في اختها الخمر ويقال ان اول ما نظم فيها من الشعر قول ابي عبد الله محمد بن ابي بكر بن عبد القادر الحنفي

وخضراء كافورية بات فعلها * بالبابنا فعل الرحيق المعتقِ

اذا نفحتنا من شذاها بنفحة * تدب لنا في كل عضو ومنطقِ

غنيت بها عن شرب خمر معتق

وبالدلق عن لبس الحديد المزوقِ

فقال الانكليزي ما المناسبة في نسبتها الى الكافور في قوله وخضراء كافورية

فقال الشيخ ليس المراد نسبتها الى الكافور المشهور وانما اراد نسبتها الى بستان كافور وكان مشهوراً به وكان هذا البستان موجوداً بمصر قبل بناء القاهرة وتملك الدولة الفاطمية لديار مصر انشأه الامير ابو بكر محمد بن طغج الملقب بالاخشيدي فلما قدم جوهر القائد الى مصر جعل هذا البستان من داخل القاهرة وعرف ببستان كافور وقيل لهُ في الدولة الفاطمية البستان الكافوري قال بن عبد الظاهر البستان الكافوري هو الذي كان بستاناً لكافور الاخشيدي وكان كثيراً ما يتنزه بهِ وبنيت القاهرة عنده ولم يزل الى سنة احدى وخمسين وستمائة فاختطت

البحرية والعزيزية بهِ اصطبلات وازيلت اشجاره قال ولعمري ان خرابه كان بحق فانه كان عرف بالحشيشة التي يتناولها الفقراء والتي تطلع بهِ يضرب بها المثل في الحسن قال شاعرهم ابو الحسن علي بن عبد الله الينبعي

رب ليل قطعته ونديمي
شاهدي وهو مسمعي وسميري
مجلسي مسجد وشربي من خضراء
تزهو بحسن لون نضيرِ
قال لي صاحبي وقد فاح منها
نشرها مزريًا بنشر العبيرِ
أمن المسك قلت ليست من المسك
ولكنها من الكافورِ

فلم يرد انها من الكافور وانما اراد انها من البستان المذكور ومن ذلك قول ابي المعز بن ابي الحسن بن احمد الصائغ المغربي

قم عاطني خضراء كافورية
قامت مقام سلافة الصهباء
يغدو الفقير اذا تناول درهمًا
منها لهُ تيه على الامراء

وامر السلطان الملك الصالح نجم الدين ايوب الامير جمال

الدين بن يغمور ان يمنع من يزرع في الكافوري من الحشيشة شيئًا فدخل ذات يوم فرأى فيه منها شيئًا كثيرًا فامر بان يجمع فجمع واحرق فنظم في ذلك ابو العباس احمد بن يوسف ابياتًا مطلعها

صرف الزمان وحادث المقدور
تركا نكير الخطب غير نكير

وكان ذلك في سنة ثلاث واربعين وستمائة فهذا وجه تلقيبها بالكافورية وقد عرفت اصل تلقيبها بالهندية والحيدرية والصحيح ان هذا النبات قديم معروف من قبل الشيخ حيدر المتقدم ذكره بازمان طويلة يدل على ذلك ما نقله الاطباء في كتبهم عن بقراط وجالينوس من مزاج هذه العقار وخواصها واما حكمها في الشرع فهو التحريم لما يخدر العقل منها قال بعضهم شر سكر سكر الحشيشة وان قال من غلب على عقله هواه وهوى به الفساد الى مضيق مهواه

هي البكر لم تنكح بماء سحابة
ولا عصرت يومًا برجل ولا يدِ
ولا عبس القسيس يومًا بكاسها
ولا قربوا من دنها كل مقعدِ
ولا نص في تحريمها عند مالك
ولا حد عند الشافعي واحمدِ

ولا اثبت النعمان تنجيس عينها

فخذها بجد المشرفي المهند

قال المقريزي في الكلام عليها دع نزاهة القوم فما بلي الناس بافسد من هذه الشجرة لاخلاقهم ولقد حدثني القاضي الرئيس تاج الدين اسماعيل بن عبد الوهاب ابن الخطباء المخزومي قبل اختلاطه عن الرئيس علاء الدين بن نفيس انه سئل عن هذه الحشيشة فقال اعتبرتها فوجدتها تورث السفالة والرذالة وكذلك جربنا في طول عمرنا من عاناها فانه ينحط في سائر اخلاقه الى ما لا يكاد ان يبقى له من الانسانية شيئاً وقد قال ابن البيطار في كتاب المفردات ومن القنب نوع ثالث يقال له القنب الهندي ولم أره بغير مصر ويزرع في البساتين ويقال له الحشيشة عندهم ايضاً وهو يسكر جداً اذا تناول منه الانسان قدر درهم او درهمين حتى ان من اكثر منه يخرجه الى حد الرعونة وقد استعمله قوم فاختلّت عقولهم وقد ادى بهم الحال الى الجنون وربما قتلت ورايت الفقراء يستعملونها على انحاء شتى فمنهم من يطبخ الورق طبخاً بليغاً ويدعكه باليد دعكاً جيداً حتى يتعجن ويعمل منه اقراصاً ومنهم من يجففه قليلاً ثم يحمصه ويفركه باليد ويخلط به قليل سمسم مقشور وسكر ويستفه ويطيل مضغه فانهم يطربون عليه ويفرحون كثيراً وربما اسكرهم فيخرجون به الى الجنون او قريب منه وهذا ما شاهدته من فعلها قال فانظر كلام

العارف فيها واحذر من افساد بشريتك وتلاف اخلاقك باستعمالها
ولقد عهدناها وما يرمى بتعاطيها الاَّ اراذل النـاس ومع ذلك
فيأنفون من انتسابهم لها لما فيها من الشنعة وكان قد تتبع الامير
سودون الشيخوني رحمه الله الموضع الذي يعرف بالجنينة من ارض
الطبالة وباب اللوق وحكر واصل ببولاق واتلف ما هنالك
من هذه الشجرة الملعونة وقبض على من كان يبتلعها من اطراف
الناس ورذلائهم وعاقب على فعلها بقلع الاضراس فقلع اضراس
كثير من العامة في نحو سنة ثمانين وسبعمائة وما برحت هذه
الخبيثة تعد من القاذورات حتى قدم سلطان بغداد احمد بن
اويس فارًا من تيمورلنك الى القاهرة في سنة خمس وتسعين وسبعمائة
فتظاهر اصحابه باكلها وشنع الناس عليهم واستقبحوا ذلك من فعلهم
وعابوه عليهم فلما سافر من القاهرة الى بغداد وخرج منها ثانيًا واقام
بدمشق مدة تعلم اهل دمشق من اصحابه التظاهر بها وقدم الى
القاهره شخص من ملاحدة العجم صنع الحشيشة بعسل خلط فيه
عدة اجزاء مجففة كعرق اللفاح ونحوه وسماه العقدة وباعها بخفية
فشاع اكلها وفشا في كثير من الناس مدة اعوام فلما كان في سنة
خمس عشرة وثمانمائة شاع التجاهر بالشجرة الملعونة فظهر امرها واشتهر
اكلها وارتفع الاحتشام من الكلام بها حتى لقد كادت ان تكون
من تحف المترفين وبهذا السبب غلبت السفالة على الاخلاق
وارتفع ستر الحياء والحشمة من بين الناس وجهروا بالسوء من

القول وتفاخروا بالمعائب وانحطوا عن كل شرف وفضيلة وتحلوا بكل ذميمة من الاخلاق ورذيلة فلولا الشكل لم نقض لهم بالانسانية ولولا الحس ما حكمت عليهم بالحيوانية وقد بدا المسخ في الشمائل والاخلاق المنذر بظهوره على الصور (انتهى المراد منه)

فقال الانكليزي وقد تكلم الافرنج ايضاً على هذه الشجرة الخبيثة واطنبوا في ذمها وذكر مضارها ومفاسدها



المسامرة الثانية والثلاثون

يوم العطلة

ثم انهم ارادوا الانصراف فطلب الانكليزي خادم المحل فأتى لهُ بورقة مكتوبة فيها اصناف ما اخذوه فدفع الثمن وارضى الخادم ثم خرجوا يتفرجون على المدينة الجديدة وازقتها وشوارعها الى ان وصلوا الى ميدان من ميادينها المعدة للفسحة فوجد الشيخ بهِ غالب اهل البلد من غني وفقير وكبير وصغير في احسن

ملا بسهم كل على قدر حاله · فقال الشيخ هل هذا اليوم عندكم يوم عيد فقال الانكليزي لا بل العادة في جميع بلادنا التفسح والتخلي عن الاشغال كل يوم في هذا الوقت واما يوم الاحد فيعطل الناس فيه اشغالهم ويخرجون بعد الظهر للتنزه فهو عندنا كيوم السبت عند اليهود ويوم الجمعة عند المسلمين غيران عادتهم في يومهم تغيرت عما كانت عليه في صدر الاسلام فان بعضهم قد يشتغل فيه كباقي الايام ولم يبق لهُ من الاحترام الاَّ صلاة الجمعة واما اليهود فعلى اصل عادتهم لا يشتغلون في يومهم بشيء وكذلك طائفة البروتستانت من النصارى خصوصاً الانكليز لا يشتغلون بشي في يوم الاحد واظن انك لا تجد في هذه العادة باساً اذ في ذلك اليوم تتفرق كل امة لقضاء لوازمها كل بحسبهِ فالفقير يتفرغ لقضاء لوازمه المنزلية وتنشيط قواه البدنية وتنظيف ثيابه وجسده وصاحب الوظيفه يقيم بمنزله لمؤانسة عائلته او لتتميم اشغال نفسه مما يتعسر عليه في غير هذا اليوم فضلاً عما يحصل فيه من المزايا كتزاور الاصحاب وعيادة المرضى وغير ذلك من الامور اللازمة لدوام الجمعية

فقال الشيخ نعم العادة ولكل امة عادة على حسب شرائعهم ومقتضيات احوالهم وليوم الجمعة عندنا اعمال تطلب فيه كصلاة الجمعة والاغتسال لها والتبكير لصلاتها والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فيه والصدقة والنظافة والتطيب بالروائح الحسنة

ونحو ذلك واظن ان لكل امة في يومها خواص تشبه هذه وان كان لا يحضرني الان ما هي . وقد حان وقت الطعام فقاموا وركبوا عربة ورجعوا الى مقرهم وفي اثناء الطريق قال الانكليزي للشيخ ان البوسطة الى مصر ترسل غداً وعن قريب نسافر فان كان عندك مكتوب تحب ارساله فاعطنيه لارسله مع خطاباتي

فقال الشيخ نعم اريد ان ارسل بعض كلمات للاولاد في داخل مكتوب برهان وسأكتبها ان شاء الله في اللوكاندة . قال فكيف وجدت هذه المدينة . قال حسنة لطيفة وانما ارجو منك ان تتحفني ببعض انبائها لاكون على علم بها وباحوالها

فقال الانكليزي هذا بعض ما يجب عليّ وسأقص عليك ما اعلم من امرها بعد وصولنا الى مستقرنا فلما وصلوا دخل كل منهم حجرته وازال ما بهِ من غبار الطريق وغير ما لزم تغييره ثم حضروا الى المائدة فاكلوا ثم قاموا الى حجرة الشيخ وقد حضر برهان ومعه يعقوب الذي كان اصطحب بهِ في السفينة وقد تكلم معه الانكليزي بعض كلمات ففهم منها لياقته للخدمة واتفق معه على شروط الخدمة وما يلزم اداؤه وكان فيما قاله لهُ ان برهان الدين صغير ويحتاج لدليل يدله ومرشد يرشده فاعظم واجب عليك العناية بهِ والملازمة لهُ ففرح برهان بذلك ثم ان الانكليزي قال للشيخ قد طلبت مني بعض اخبار هذه المدينة . وانا متفكر

فيما القيه اذ لا يخفى انه مضى عليها قرون عديدة وما من قرن الا وتقلبت فيـه حوادث لو جمعت لملأت مجلدات فكيف لو جمعت حوادث القرون كلها لكن لا يخفى ان نتيجة الحوادث في جميع البقاع والقرون متقاربة فتاريخ كل امة كتاريخ غيرها وكذا كل بلدة لا فرق في ذلك بين المدن والقرى اذ النتيجة لا تخرج عن احد شيئين خير وشر ومن الاول تكون اللذة ومن الاخر يكون الالم وتسلط الاثنين لازم لكل فرد من افراد الخليقة فلا يدوم احد على حالة واحدة وكذلك البقاع فكل حالة مقترنة بضدها

الدهر لا يبقى على حالة * لا بد ان يقبل او يدبرا
فان تلقاك بمكروهه * فاصبر فان الدهر لن يصبرا



المسامرة الثالثة والثلاثون

مرسيليا

ومن ذلك هذه المدينة واهلها فقد تقلب عليها كل من الامرين وشربت من الكاسين واعتراها من الخير وضده ما اعترى غيرها كالاسكندرية وغيرها وملخص ما اعلمه من امرها انها قبل المسيح بستمائة سنة اي قبل تاريخ الهجرة النبوية بالف ومائتين واربعين سنة تقريباً كانت لقوم يعرفون باسم ليجور او (ليغور) وكان لهم جزء عظيم من خليج ليون واغلب ارض خليج جينوا فهاجر اليها بعض الاروام اعني سكان اسيا الصغرى او الاناطول من مدينة يقال لها فوسيه محيت اثارها الان فنزلوا بهذه البقعة وسكنوها وكانت ارض فرانسا اذ ذاك لقوم يقال لهم الجلوا (او الغالية) وكان لهم ملك يقال له نانوس فطرد قوم الليغور من هذه البقعة الى ان تولى واقر مكانهم اولئك المهاجرين لمساعدتهم له واتحادهم معه فاستوطنوها واستمروا بها واخذوا في اسباب التقدم فاتسعت شهرتهم وعظمت ثروتهم فحسدهم من جاورهم وحاربوهم مرارًا ولكن لم يفوزوا منهم بطائل ثم جاءهم بعد ستين سنة جمع عظيم من

بقبائلهم واهليهم فاستقبلوهم واسكنوهم معهم فزادت قوتهم وقويت شوكتهم وعمرت بلدتهم حتى فاقت على ما جاورها من البلاد واحدثوا عدة من المدن والثغور مثل نيث وانتيب واتسعت دائرة تجارتهم وسارت في جميع البحار خصوصاً بمساعدة الرومانيين ثم انفردت هذه المدينة بتجارة البحر واستقلت بها عند انحطاط مدينة صور وقرطاجنة وبقي الامر على ذلك الى ان اسست القسطنطينية فاخذت منها شهرتها وتحولت التجارة اليها وذلك في حدود ثلاثمائة سنة من ظهور المسيح ومن ذلك الحين اخذت مدينة مرسيليا في الانحطاط والاضمحلال وبعد ان كانت منفردة بالشهرة في سياحة البحار والتجارة اصبحت كغيرها من الثغور آخذة في التنازل وفي تلك الايام كان امر القوم مفوضاً الى ستمائة من رجالهم يقيمون مدة حياتهم في تدبير احوال جمهورهم وكان الشرط في انتخابهم لهذه الوظيفة ان يكونوا من اهلها المولودين بها وان يكون لهم اولاد ذكور وكانت الدعاوي والقضايا مفوضة الى خمسة عشر شخصاً منهم ينظرون فيها على مقتضى قوانين موضوعة وكان بت الحكم مفوضاً لثلاثة من المعتمدين وكانت عادتهم ان تكون قوانينهم الجاري على مقتضاها فصل الدعاوي مشهورة ومعلقة بحيطان المحال الشهيرة من المدن ليتمكن كل واحد من الاهلين من الاطلاع عليها ومعرفتها بنصوصها وموضوعاتها وتلك القوانين كانت لا تخالف قوانين اليونان في شيء

وفي سنة ٤٢٦ من ظهور المسيح اي قبل الهجرة بمائتي سنة حصل لهذه المدينة من ملوك فرنسا كثير من النصب والشدة حتى انحط قدرها انحطاطاً بالغًا وبقيت الازمان الطويلة في اضمحلال وسوء حال خصوصًا لما تغلب عليها العرب في سنة ١١٧ بعد الهجرة فهدموا اكثر مبانيها واذلوا اهليها وخربوا عماراتها فصارت بهذه الاسباب في اسوإ حال واخذت في التنازل الى زمن شرلماني فجعلها في حمايته من سنة ثمانمائة من الميلاد وهي سنة ١٨٤ من الهجرة فاخذت في الارتقاء والتقدم من ذاك الوقت ونمت علائقها التجارية مع غيرها واشتهرت بالسياحة في البحار كما كانت اولاً وجلبت من جهات اسيا واسبانيا اهل الصنائع والحرف وغيرهم فسكنوها فعاد اليها فخارها وشهرتها في التجارة والصناعة واستمرت على هذه الحالة الى سنة ٨٨٥ من الميلاد اعني سنة ٢٧٢ من الهجرة ثم اضيفت في هذا التاريخ الى مملكة فرانسا فقويت شوكتها وحسن امرها بمساعدة ملوك الدولة فاخذت تجارتها في النمو والتقدم حتى صارت اعظم الثغور الفرنسوية وفي سنة ١٨٠١ من الميلاد و ١٢١٦ من الهجرة كان عدد اهلها تسعين الفًا وخمسمائة فقط والان بلغ مائتين وخمسة وثلاثين الفًا اعني ان اهلها زادت في تسع وستين سنة مائة واربعة واربعين الفًا وخمسمائة فهذا دليل على تقدمها ورفاهية اهلها واعتدال هوائها فلم يكن البرد فيها شديدًا جدًا ويندر ان تنزل درجتها في الشتاء عن الصفر اكثر من ثماني

درجات ولا تزيد درجة حرارتها عن ست وثلاثين درجة فهي من هذه الحيثية لا تخالف الاسكندرية من اعمال مصر الاَّ قليلاً واما من حيثية التجارة فكل من هذين الثغرين يخرج منه من اصناف التجارة نحو اربعمائة تونولاته (والتونولاته عبارة عن ٨٠٠ اقة تقريبًا) الاَّ ان السفن الواردة الى ثغر مرسيليا اكثر من السفن الواردة الى ثغر الاسكندرية فان عدد ما يرد في السنة الى مرسيليا نحو خمسة الاف وما يرد الى الاسكندرية نحو ثلاثة وفي الايام السابقة كان المانع من زيادة تقدم مرسيليا قلة المياه العذبة بها فكان اهلها. واصحاب السفن الواردة اليها ياخذون ما يلزم لشربهم من الماء العذب اذ ذاك من نهر صغير قريب من موضع المدينة لكنه كان يجف في غالب اوقات السنة فكان يلحق اهل البلد والوافدين عليها من الاغراب من ذلك ضرر عظيم ولم يزل الحال على ذلك الى ان عمل لها خليج طوله سبعة وثمانون الف متر بلغت مصاريفه نحو مليونين من الجنيهات المصرية فتمت بذلك لهم اسباب الرفاهية والراحة وتلذذوا بانواع التلذذات التي كانوا محرومين منها من قبل. كالتمتع بكثرة البساتين والحدائق وفساقي الماء في الميادين وحصل للناس من ذلك مزيد الراحة بسبب تقسيم المياه على المنازل وايصاله الى جميع طبقاتها مع السهولة ومن هذا الخليج جزء عظيم يبلغ طوله خمسة وعشرين الف متر يمر في جوف الجبال من تحت الارض فلا يراه احد ومنه جزء يبلغ

طوله اربعمائة متر بواد يسمى وادي دوكنفاور بمر فوق عقود من البناء عالية شاهقة يبلغ ارتفاعها اثنين وثمانين مترا وكمية الماء الوارد الى حوض التصفية الذي يقسم منه الماء على جهات البلد تبلغ في الثانية الواحدة عشرة أمتار مكعبة وهي نحو مائة وست عشرة قربة من قرب مصر أعني القرب الكبيرة المعروفة في مصر بالحمارني اما بالقرب الصغيرة المعروفة بالكتافي فتبلغ نحو مائتين وعشرين قربة

وبما ذكر صارت هذه المدينة الى ما تراه من العمارة والبهجة وحسن الحال

فقال الشيخ هكذا الدنيا لا تزال تتنقل فيها الاحوال ودوام الحال من المحال وقد قال تعالى وهو اصدق القائلين (وتلك الايام نداولها بين الناس) والبقاع كالناس تشقى وتسعد كما قال القائل

أني اطلعت على البقاع وجدتها

تشقى كما تشقى الرجال وتسعد

وما ذكرته لي بالنسبة لمرسيليا قد حصل لغيرها من المدن والقرى فلا يكاد يسلم من ذلك التبدل بلد كما انه لا يخلو من التغير والتنقل احد

هي المقادير تجري في اعنتها

فاصبر فليس لها صبر على حال

يومًا تريش خسيس القدر ترفعه

الى السماء ويومًا تخفض العالي

وقد ذكرت بما حكيت لي من تاريخ مرسيلية وتقلب حالها تاريخ الاسكندرية وتغيراتها والشيء بالشيء يذكر فان مدينة الاسكندرية ايضًا قد توالت عليها احوال كثير وتقلبات كبيرة من سعد ونحس ونعيم وبؤس فقد جرعها الدهر كؤوس صابه وشهده واذاقها من حلوه ومره وقلبها بين خصبه ومحله فما من قرن مرّ عليها الاَّ وهي في حالة غير ما كانت عليه من قبله فسبحان من له الدوام والبقاء ولا يعتريه التغير والفناء

المسامرة الرابعة والثلاثون

شذرات

من تاريخ مصر والاسكندرية ومراسلة الاسكندر ودارا وارسطاطاليس

فقال الانكليزي نعم قد اصاب الاسكندرية ومصر ايضًا من ذلك ما اصاب سائر البلاد وقد نقل الينا من سير الاقدمين واخبار السالفين ان مصر قبل انشاء الاسكندرية بعدة قرون كانت في احسن حالة واوفر نعمة فكانت العلوم والصنائع بها

في اقصى درجاتها واحوال التقدم والتمدن فيها واصلة الى غاياتها وكانت حينئذٍ اهلها في عيش رغيد وطالع سعيد وخير مزيد مشتغلين بجدهم وجهدهم في ازدياد عزهم ومجدهم والاستكثار من اسباب سعادة الحال ونماء الارزاق والاموال وما زالوا كذلك الى ان خانها الزمان فسلط عليها الفرس فاغاروا عليها تحت قيادة ملك من ملوكهم يقال له كمبيشاش او كمبيز فدمر مبانيها وغير مغانيها وخرب معابدها ومعاهدها واسر اهلها واذلهم وقهرهم وبسط فيهم يد الظلم والجور والعدوان حتى تركوا اعمالهم وتخلوا عن صنائعهم ومساعيهم واضطر كثير منهم الى الفرار والتغرب عن الديار ومن ذلك الحين اخذت مصر في التقهقر واحوالها في التغير وكان ذلك قبل مولد المسيح عليه السلام بخمسة وعشرين وخمسمائة عام وكانت قبل ذلك قبلة يؤمّها الناس من جميع الافاق لطلب العلوم والفنون والارزاق حيث كان ما عداها من البلاد في ظلمات الجهل وهي من بينها مضيئة بانوار العلم والفضل فاصبحت بعد ذلك تشكو لغيرها ما دهمها وازال نعيمها ونعمها وسلبها ما كانت فيه من رغد العيشة وحرمها بسبب سطوات هذا الجبار الظالم الغدار الذي لم يكن ظلمه قاصراً على الاحياء بل تعدى ايضًا الى الاموات فاخرج اجسامهم من قبورهم فاحرقها وذرى رمادها في الهواء

وفي ذلك الوقت كانت مملكة الرومانيين في ابتداء نشأتها

واخذت مملكة الروم ايضًا في ابتداء عزها وشهرتها وهذا بسبب من هاجر اليها من المصريين الذين رحلوا عن اوطانهم فرارًا من مظالم الفرس وعدوانهم فاستوطنوا بلادهم ونقلوا اليهم كثيرًا ما كان عندهم من صنائع مصر وعلومها وفنونها وكان بمحل الاسكندرية بلد صغير في محل مرتفع على البحر يقال له راقوتي او رقوده

قال الشيخ يؤيد هذا ما قرأته في كلام بعض مؤرخي الاسلام قال بنيت الاسكندرية غير مرة وكان اول بنائها بعد الطوفان في زمن مصرايم بن بيصر بن حام بن نوح عليه السلام وكان يقال لها اذ ذاك مدينة رقوده ثم بنيت بعد ذلك مرتين (اه)

قال الانكليزي أيًا ما كان هذا المحل في الازمان العتيقة فقد آل امره قبل بناء هذه المدينة الموجودة الان الى ان صار به على ما نقل الينا من علمه قرية صغيرة تعرف بالاسم المذكور يسكنها جماعة كانت تقيمهم به فراعنة مصر لمنع من يطوفون في البحار من ان ينزلوا بارضهم وكان الفراعنة يكرهون الملاحة واهلها كراهة شديدة ولذلك اقاموا هولاء المحافظين بهذا المحل لمنع من عساه يريد النزول به ممن يحب الملاحة وكان المحافظون الذين يسكنون هذا المحل من اعراب البادية النازلين في الصحراء خلف الجبل الغربي فان هذا المحل كان منقطعًا عن الناس بعيدًا عن العمارة مجردًا عن المزارع والمراعي فلم يكن يرضى بسكناه غيرهم

وقال بعض المؤرخين كانت راقوتي هذه جعلت في قديم الزمان محطة عسكرية لمنع اليونان من دخول مصر وكانت الفراعنة قد اعدت ما جاورها من الارض لرعي الماشية واقامة الرعاة بها لاعانة العسكر عند الحاجة اه . ثم لم يزل ظلم الفرس بمصر حتى كثرت بها الفتن وتوالت عليها المحن ونزع كثير من اهلها ايديهم عن الطاعة والانقياد وفزعوا للسلاح واستعدوا للحرب فنشب الشر بين الفريقين وحصل من ذلك مصائب كثيرة وخطوب عظيمة اضر امرها باهل البلاد واضعفت الحكومة ووهنت قواها ومنه نشأ تمزق اجزائها وتفرق كلمتها وتبع ذلك غلبة الروم في جهات متعددة انتصروا فيها فكان في ذلك ازدياد شهرتهم وقوة كلمتهم وانتصار العلم على الجهل بنصرتهم ولكنهم جرت عليهم عادات الايام في تنقلها وتداولها بين الناس وتحولها فتقهقروا بعد تقدمهم حتى غلبة المقدونيين ومن ذلك الوقت اتسع صيت المقدونيين وعظمت دولتهم وقويت شوكتهم وصولتهم بظهور الاسكندر الاكبر بين اظهرهم فجاب بهم الاسكندر بلاد الفرس وتسلط عليهم ودوخهم واستولى على ممالكهم في مدة دارا ملكهم ودخلت مصر تحت قبضته وكان ذلك في سنة ٣٣٢ قبل الميلاد اي بعد مرور قرنين من استيلاء كمبيشاش على مصر وقد قرأت في بعض الكتب العربية بعض مكاتبات ظريفة دارت بين دارا والاسكندر وبين الاسكندر وارسطاطاليس في ذلك قد شذ عني عبارتها وكنت

اود لو كان عندي صورتها فهل في حفظك ايها الاستاذ شيء منهـا

فقال الشيخ نعم قرأت في بعض التواريخ ان الاسكندر لما ولي مكان ابيه قطع ما كان يرسله ابوه كل سنة الى ملك الفرس من القطيعة ويقال انها كانت الف بيضة من الذهب فلما قطعها كتب اليه دارا يتهدده وبعث اليه بكرة وصولجان وخرقة فيهـا سمسم وقال لهُ انت صبي فالعب بهذه الكرة فان اديت الاتاوة والا بعثت اليك بجنود عدد هذا السمسم واتيت بك في الوثاق

فكتب اليه الاسكندر

اما بعد فقد تيمنت بالكرة والصولجان فان الدنيا مثل الكرة وسألعب بها واضيف ملكك الى ملكي واما السمسم فقد تيمنت ايضاً به لانه بعيد عن الحرافة والمرارة واما البيض فان الدجاجة التي كانت تبيض قد ذبحتها واكلت لحمهـا فغضب دارا وسار اليه بجموعه وسار الاسكندر بجموعه فالتقيـا على نَصيبِين فلما همّ دارا بالقتـال بعث اليه الاسكندر بنصحه ويقول لهُ ايها الملك لا تفعل فان دماء الملوك لا تجوز اراقتها وهدم البيوت القديمة غير محمود والبغي ذميم العقبى والحرب غير مأمون العاقبة واصحابك قد ملوك وكرهوك لسوء سيرتك فارجع

فانك تحمد قولي فلم يلتفت اليه دارا واقاما يتحاربان مدة ثم ان الاسكندر دبر حيلة وهو انه لما وقع الملل بين الفريقين برز منادي الاسكندر فقال يا معشر الفرس قد علمتم ما كان من مكاتبتكم لنا ومكاتبتنا لكم من الامان وقد طال القتال فمن كان منكم على غير قتال فليعتزل وله الوفاء بالعهد فاتهمت الفرس بعضها بعضاً واضطربوا فكان من اسباب خذلان دارا ثم وثب على دارا رجلان من اصحابه فطعناه من خلفه وكان الاسكندر نادى من ظفر بدارا فلا يقتله فجاء بهِ الرجلان الى الاسكندر فنزل عن فرسه وقعد عند رأس دارا وبهِ رمق فقال والله ما هممت بقتلك ولقد نهيت عنه واني ليعز عليّ مصابك فاسألني حوائجك فقال تقتل فلاناً وفلاناً اللذين قتلاني فاني كنت محسناً لهما فقال سمعاً وطاعة واحضر الرجلين فقتلهما وقال هذا جزاء من يتجرأ على ملكه وتفرق ملك فارس ثم صار الاسكندر الى بابل وجلس على سرير دارا واستولى على خزائنه وجواهره وسلاحه وشرع في هدم بيوت النيران وقتل الموابذة

وكتب الى استاذه ارسطاطاليس يستشيره فيمن بقي من عظماء الفرس بما معناه

اما بعد فان دوائر الاسباب ومواقع الفلك وان كانت

اسعدتنا بالامور التي اصبح لنا بها الناس دائنين فانا مضطرون
الى حكمك وغير جاحدين لفضلك والاجتباء لرايك لما بلونا من
جدى ذلك علينا وذقنا من جنى منفعته حتى صار ذلك بتجرعه
فينا وترشيحه لعقولنا كالغذاء لنا فما ننفك نعول عليه ونستمد منه
استمداد الجداول من البحار وقوة الاشكال بالاشكال وقد كان فيما
سبق الينا من النصر وبلغناه من النكاية بالعدوّ ما يعجز القول
عن وصفه والشكر على الانعام به وكان من ذلك ان جاوزنا
ارض الجزيرة وبابل الى ارض فارس فلما نزلنا باهلها لم يكن
ريثما تلقانا نفران منهم بقتل ملكهم طلبًا للحظوة عندنا فامرنا
بصلبهما لتجرئهما وقلة وفائهما ثم امرنا بجمع من هناك من ابناء ملوكهم
وذوي الشرف منهم فرأينا رجالاً عظيمة اجسامهم واحلامهم بدل
ما ظهر من رؤيتهم على ان وراءه من قوة بأسهم ما لم يكن معه
سبيل الى غلبتهم لولا ان القضاء ادالنا منهم ولم نرَ بعيدًا من
الرايِ ان نستأصل شافتهم ونلحقهم بمن مضى من اسلافهم لتسكن
بذلك القلوب الى الامن من جرائرهم ورأينا ان لا نعجل ببادرة
الراي في قتلهم دون الاستظهار بمشورتك فيهم فارفع الينا رايك
فيما استشرناك بعد صحته عندك وتقليبه على نظرك على عادة
ارائك المسعفة والسلام على اهل السلام فليكن عليك وعلينا

فكتب اليه ارسطاطاليس
المؤيد المهدي لهُ الظفر من اصغر خولهِ ارسطاطاليس

اما بعد فقد تقرر عندي من مقدمات فضل الملك ويمن نقيبته وبرُوز شأوه وما ادى الى حاسة بصري صورة شخصه ووقع في فكريَ على تعقب رايه ايام كنت اودّي اليه من تعليمي اياه ما اصبحت قاضياً على نفسي بالحاجة الى تعلمه منه وقد ورد كتاب الملك بما رسم لي فيه وانا فيما اشير بهِ على الملك كالعدم مع الوجود ولكني غير ممتنع من اجابته

فاقول ان لكل تربة لا محالة قسما من كل فضيلة وان لفارس قسمتها من النجدة والقوة وانك ان تقتل اشرافهم تخلف الوضعاء منهم وترث سفلتهم منازل عليتهم وتغلب ادنياؤهم على مراتب ذوي اخطارهم ولم يبتل الملوك قط ببلاء هو اعظم عليهم من غلبة السفلة وذل الوجوه واحذر الحذر كله ان تمكن تلك الطبقة من العلية فان نجم منهم ناجم على جندك واهل بلادك دهمهم ما لا روية فيه ولا منفعة معه فانصرف عن هذا الراي الى غيره واعمد الى من قبلك من العظماء والاحرار فوزع بينهم مملكتهم والزم اسم الملك كل من وليته منهم ناحية واعقد التاج على راسه وان صغر ملكه فان التسمي بالملك لازم لاسمه والمنعقد له لتاج

لا يخضع لغيره ولا يلبث ذلك ان يوقع بين كل ملك منهم وبين صاحبه تدابرًا وتغالبًا على الملك وتفاخرًا بالمال حتى ينسوا بذلك اضغانهم عليك ويعود بذلك حربهم لك حربًا بينهم ثم لا يزدادوا في ذلك نصرة الاّ احدثوا هنالك استعانة بك فان دنوت منهم كانوا لك وان نأيت عنهم تعززوا بك حتى يثب كل منهم على جاره باسمك وفي ذلك شاغل لهم عنك وامان لاحداثهم بعدك ولا امان للدهر وقد اديت للملك ما رايته حظًا وعليّ حقًا والملك ابعد روّية واعلى عينًا فيما استعان بي عليه والسلام الابدي على اهل السلام فليكن على الملك . اه . قال الشيخ فهذا ما علق بخاطري من ترجمة تلك المكاتبات فهل تعلم كيف كان بناء هذا الثغر وسببه

قال الانكليزي يقال ان الاسكندر لما استولى على ارض مصر في جملة ما دخل تحت حوزته من الممالك اخذ يدبر فكره فيما يتاتى له بواسطته ارتباط علائق المعاملة بين الامم المختلفة التي استولى عليها في جهات متفرقة من الارض فرأى انه لا بد له من اتخاذ مركز معين تتحد به علائق هذه الامم ورأى ان يكون هذا المركز بساحل البحر المتوسط اعني بحر الروم فاختار لذلك محل رقوده المتقدم ذكره فبنى به الاسكندرية ووسمها باسم نفسه رغبة في تخليد ذكره وان يبقى اسمه ببقائها ويذكر كلما ذكر اسمها

ولما انشأها جعل تقسيم الدور والازقة بها على حسب وضع

ارضها فكانت على شكل البرُنس المقدوني وكان يشقها شارعان عظيمان متقاطعان احدهما يشقها من الشرق الى الغرب طوله فرسخ وفي احد طرفيه باب كانوب وهو مضاف الى اسم مدينة كان الى جهتها وهي التي يقال لها الان ابو قير وفي الطرف الاخر باب نكروبوليس وهذه كلمة يونانية بمعنى المقبرة والشارع الثاني يشقها شمالاً وجنوباً وطوله ثلث فرسخ وفي احد طرفيه باب الشمس على البحيرة وفي الطرف الاخر باب القمر على المينا وكانت سعة كل من هذين الشارعين مائة قدم وعندهما كانت المعابد والهياكل والمباني الفاخرة والعمارات العظيمة وكانت المدينة منقسمة اربعة ارباع اعظمها واهمها الربع الذي كان بين الشارع الكبير والبحر وكان فيه المدفن الذي كان يسمى صوما وبهِ اودعت جثة الاسكندر حين مات فوضعت في تابوت من الذهب ودفنت فيه ومحله الان تل يعرف بكوم الدياس وكان فيه ايضاً دار الكتب (الكتبخانة) العظمى وبيت التحف ودار الملوك والملعب وكان هناك قطعتان من الصخر عظيمتان من الاحجار المعروفة بالمسلات من اقدم الاثار المصرية وهما باقيتان الى الان وقد وقعت احداهما ولم تزل الثانية قايمة بمكانها ويسميها الناس مسلة كلوبطرة ومسلة فرعون وفي محل رقوده القديمة (السيرابيوم) وهو مدفن الحيوانات التي كانت مقدسة في دينهم وهناك عمود سوير وهو مضاف الى اسم الملك سوير الروماني الذي وضعه ويعرف عند الافرنج

بعمود بومبيوس وهو قائد روماني مشهور وهذا العمود هو الذي يقال لهُ عندكم عمود السواري ولعل لفظة السواري هذه من لفظة سوير المذكورة

وفي غربي اسكندرية اعني جهة باب العرب والقباري يرى الانسان ابوابًا منحوتة في الصخر وهي ابواب قبور ومعابد للنصارى استحدثوها عند ظهور الديانة النصرانية ولما كان موضع الاسكندرية بعيدًا عن مجرى النيل ليس بهِ من الماء العذب ما يستطاب الشرب جعل لها خليج يتصل بالنيل ويوصل اليها ماءه في اوان ارتفاعه وقد جعل فيها صهاريج واسعة يخزن فيها الماء لاوان انحطاط النيل ولم يكن على ساحل بحر الروم مينا اعظم سعة من مينا الاسكندرية فانها تكفي كثيرًا من المراكب ويمكن ان يكون فيها مائتان وخمسون سفينة وعند اتصالها بالبحر سلسلة من الصخر تمتد من الشمال الشرقي من عند الصخرة القائم فوقها المنار المعروف بالفنار الى الجنوب الغربي حتى تنتهي الى جزيرة المرابط وهي مغطاة بالماء تضرب فوقها الامواج وفي طول هذه المسافة ثلاثة مداخل تعرف بالبوغازات تمر منها السفن الواردة والصادرة اولها البوغاز الشرقي وهو منحصر بين صخرتين احداها الى جهة الشرق وتسمى الجوانية والثانية الى جهة الغرب وتسمى صخرة الحوت وعرضه نحو اربعة الاف متر وعمق مائهِ نحو ستة امتار وبعده البوغاز المتوسط ثم القبلي وكانت هذه المينا في القديم

متصلة بالمينا الشرقية المعروفة بالمينا القديمة وكان بينهما جسر يمتد من راس التين الى المدينة وكانت السفن تنتقل من احداهما الى المينا الاخرى من فتحات كانت في ذلك الجسر وقد هجرت الان تلك المينا القديمة وصارت غير صالحة لوقاية السفن والامن عليها فلا يوجد بها الان الاّ قليل من السفن الصغيرة ويشاهد الفنار السالف ذكره لاهل السفينة في لجة البحر على بعد عشرين ميلاً منه فاذا رأوه احترسوا على سفنهم من ان تقع على الصخور التي عند ساحل البحر ولهذا الغرض جعل هذا الفنار لا للدلالة على مدخل المينا كما هو الشأن في غيره من امثاله في سائر الممالك وانما يكون الدخول الى المينا من البوغازات المذكورة بدلالة جماعة من اهل الاسكندرية يعرفون برؤساء البوغاز يأتي احدهم للسفينة وهي مسافرة فيلزمها بالارشاد والدلالة حتى تخرج الى متسع البحر وكذلك وهي داخلة حتى تلقي المراسي وهذه عادة جارية من قديم الزمان لكثرة ما في البوغاز من الاعوجاجات والصخور المعترضة في اثنائه

ولما انشأ الاسكندر هذه المدينة استوطنها ونقل مقر السلطنة اليها وكان قبل بمدينة منف القديمة التي يقال انها اول مدينة عمرت بعد الطوفان وقد خربت وبني عند اطلالها قرية يقال لها ميت رهينة عند مدينة الجيزة ومدينة منف هذه من اشهر المدن القديمة ذكراً واعظمها فخراً وكثيراً مّا ذكرت في الكتب الافرنجية

ولم تخلُ ايضاً من ذكرها الكتب العربية

قال الشيخ هي كما ذكرت عظما وشهرةً وقدماً وقد زعم بعض المؤرخين ان كلمة منف في اللغة القبطية بمعنى ثلاثين وان سبب تسميتها بذلك هو ان بيصر بن حام بن نوح عليه السلام خلف ثلاثين نفساً منهم اربعة ذكور وهم مصرايم وفارق وماج وياج فتزوجوا وتناسلوا وكثروا وكان مصرايم اكبرهم وكانوا قبل بناء منف يسكنون بسفح المقطم فلما بنوها انتقلوا اليها وسكنوها وسميت بهذا الاسم بعددهم كذا زعم ولكني سمعت من بعض من يعرف علم اللسان المصري القديم ان لفظة منف اصلها باللسان المذكور (منّفر) وهي مركبة من كلمتين احداهما من ومعناها المحل والثانية (نفر) ومعناها العظيم او الخصب فركب اللفظان تركيباً مزجياً وجعل مجموعها على هذه المدينة وكان يقال لها عند اليونانيين منفيس ثم قيل لها منف وكانت مقر الفراعنة من قديم الزمان فكانت من اعظم المدن المصرية ابهة وورونقاً وسعة حتى قيل انها كان لها سبعون باباً من الحديد والصفر وكانت الانهار تجري من تحت منازلها واقنيتها فيحبسون الماء كيف شاؤوا ويرسلونه كما ارادوا قيل وفي ذلك يقول الله جل ذكره حكاية لقول فرعون (أليس لي ملك مصر وهذه الانهار تجري من تحتي افلا تبصرون

فقال الانكليزي قد بقيت هذه المدينة على ما ذكرت ايها

الاستاذ من عظمها وفخرها ورفعت قدرها حتى انتقل تخت السلطنة الى الاسكندرية فهرع الناس اليها وكثرت عمارتها وانحط من قدر منف وعزها وابهتها بقدر ما زاد في عز الاسكندرية ورونقها واستوطن الروم في مدة الاسكندر مدينته هذه الاسكندرية فكانوا اكثر سكانها اذ كان منهم معظم جنوده وغالب رجاله ثم كثر عددهم في مدة من خلفه من البطالسة حتى دخلوا جميع بلاد مصر ولم تخرج البطالسة في ايامهم عن النهج الذي نهجه لهم الاسكندر من عدم التعرض لاهل البلاد التي دخلت تحت طاعته في شيء من عاداتهم وما هم عليه وكان اول هذه البطالسة بطليموس لاغوس فلما ولي الحكومة بعد الاسكندر سنة ٣٢٤ قبل الميلاد سار في المملكة سيرة حسنة ورتب امورها ترتيباً عاد عليها بعظم الفائدة واستوجب لاهل البلاد ومن عنده من الاغراب مزيد الامن والاطمئنان على ما بأيديهم من الاملاك والاموال مضافاً ذلك الى امنهم على الانفس والاهل والعيال فعمت الامنية وكثرة العمارة والثروة والمدنية وكان بطليموس لاغوس المذكور محباً للعلم واهله مجداً في تعليمه وتعميمه فانشأ في الاسكندرية مدرسة عظيمة شاع صيتها بين العباد فقصدها الناس من اقاصي البلاد وجعل فيها خزانة للتحف جمع اليها ما قدر عليه من النوادر والطرف وانشأ بها دار كتب عظيمة جعل فيها قدراً وافراً من الكتب النفيسة مما جمعه من اكثر المعابد المصرية وما غنمه من

البلاد التي اغار عليها وحاربها فصارت من احسن خزائن الكتب واعظمها واشهرها ومن كثرة رعايته للرعية وتمسكه بالعدل والانصاف في ايامه ومجانبته للظلم والحيف في احكامه كثرت البركة في محصول الارض واتسعت دائرة الزراعة والتجارة وكثرة الارزاق والمكاسب ثم لما قضى نحبه وخلفه في الحكومة ولده سار سيرته في الرعية فكثرت العمارة والتجارة وصارت الاسكندرية مقصداً لجميع التجار يقصدونها من المشرق والمغرب فكان يرد اليها التجار من الهند وبلاد المغرب وآسيا وبلاد الصين وجزائر البحر المحيط والبحر الاحمر وسواحل بحر الروم والبحر الاسود وغيرها ومنها تنفرق البضائع وتوزع على جميع البلاد في معمورة الارض فكانت الاسكندرية في تلك الاوقات منفردة في ذلك لا يشاركها فيه غيرها ونقل اليها من الاثار القديمة والتحف العظيمة من مصر وغيرها كل غريب وعجيب وجمع لها المعلمون والاحبار من جميع الاقطار فصار اهلها قدوة للناس في العلم والفخار وصارت مركز التجارة لجميع التجار الاان من ولي الحكومة من البطالسة بعد بطليموس الاول وابنه لم يسيروا سيرتها فحدث في ايامهم الظلم والجور والاجحاف والغدر فهاجر كثير من الناس من ارض مصر الى غيرها من البلاد فراراً من ظلمهم وبغيهم ووقع باسهم بينهم ايضاً فاكثروا من سفك دماء بعضهم فكانت الاسكندرية في كثير من ايامهم عرضة للمحنة والفتنة

وأدى طول نزاعهم ومغالبتهم لبعضهم الى ان التجاء بعضهم الى الرومانيين فتوسطوا بينهم في امورهم ودخلوا بينهم حتى آل امرهم الى ان تمكنوا من مصر وطردوا منها البطالسة واستولوا عليها وذلك قبل الميلاد بثلاثين سنة فانزلوها عن درجتها وسلبوها ثوب نعمتها وجعلوها احدى مدنهم واضافوها مع باقي مملكة مصر الى متسع ملكهم فاخذ قطر مصر من ذلك الوقت في الانحطاط عما كان عليه من درجات العز والفخر وصاروا يحتقرون اهلها ويؤخرونهم ويقدمون غيرهم عليهم ولا ينظرون بعين العناية والرعاية اليهم فنشأ من ذلك فتن كثيرة ادت الى حروب متتابعة سفك فيها دماء كثير من العباد وخرب بسببها اكثر البلاد حتى امتدت يد التعدي الى دار كتبها العظيمة فاتلفت معظم كتبها ودرست شهرت مدرستها التي كانت وحيدة المدارس في تلك الايام واخذ العلم في التقهقر خصوصاً عند انقسام مملكة الرومانيين الى مملكتين شرقية وغربية وكان تخت المملكة الشرقية استانبول وتخت المملكة الغربية روما وصارت مصر في هذه القسمة تابعة لمملكة المشرق وذلك في حدود ثلاثمائة واربعة وستين بعد الميلاد وفي ذلك الوقت كانت درجة مدينة الاسكندرية في التجارة والعمارة تلي درجة رومة التي هي تخت المملكة الغربية من المملكتين الرومانيتين وفي هذا العصر اخذت الديانة العيسوية في الظهور وتصدى لنشرها قياصرة الروم وقومهم ولكون هذه الديانة ظهرت

بقرب ارض مصر دخلتها من غير معارض ولا ممانع فنشاء بها عدة كنائس وديور وظهر بها عدة من البطارقة والاساقفة المشهورين وجعلوها محلاً لجميع اعمالهم الدينية ومظهراً لاقوالهم الخلافية فقامت بينهم نار الشقاق وانقطعت باختلافهم حبال الوفاق ودخلت الحكام بينهم في تلك الامور ولم يكن في العادة من شانهم الدخول في مثلها وترتب على الاختلال وفساد الاحوال ان غنمت هذه الفرصة الملكة زنوبية المتسلطنة وقتئذٍ على مملكة تدمر التي كانت مقر سليمان عليه السلام في قديم الايام وهي في صحاري الشام فاغارت هذه الملكة على مصر بجنودها واستولت على سرير الاسكندرية وذلك قبل الهجرة بنحو خمسين وثلثمائة سنة ولكن لم تلبث قليلاً ان طردت منها ثم امدّتها مملكة تدمر بالعساكر والذخائر فارادت الرجوع الى مصر لاخذها ثاني مرة وكان ذلك في زمن القيصر ادريانوس فسار اليها من رومة فكسرها واسرها وبقيت مصر في قبضة الرومانيين كما كانت وفي مدة هذا القيصر حصل في مصر بعض اصلاح لامورها وتنظيم لاحوالها ولكن لم تلبث ان جر اليها طمع من ولوا من قبل القياصرة عليها بعض مصائب عظيمة وخطوب جسيمة اضرت بمصر واهلها ولا سيما اسكندرية فانها عادت بكثير المضرة عليها وعلى من فيها واخلت بتجارتها فاعتراها من هذه التقلبات الضعف العام وزال عنها رونقها فهاجر منها الى الروم كثير ممن كانت تفتخر بهم من اهل العلم والثروة ولكن

بقي بها بقايا منهم كبطليموس الفلكي الشهير وديوكانت وسورابوس وغليان فحفظوا ما بقي عن الاوائل من آثار العلم والفنون ولولاهم ما عثر المتاخرون بشيء من اثار المتقدمين وامتدت هذه الاحوال مدة مأتين وسبعين سنة لم تزد فيها الاسكندرية الاَّ تقهقراً وتاخراً ومع كل هذا كانت مملكة الروم الشرقية الملحقة بها الاسكندرية احسن حالاً من المملكة الغربية فان شدة الجور والظلم والفجور والقسوة في المملكة الغربية المذكورة كانت اكثر وادهى وامر ولذلك قام اهل تلك الجهة على ملوكهم مراراً وما من مرة منها الاَّ صرفت فيها المملكة اموالاً عظيمة وسفكت فيها دماء كثيرة من غيران يحصل من ذلك كله ادنى فائدة بل كان عاقبة كل مرة منها زيادة ضعف الاهلين واضمحلالهم وسوء احوالهم وفي تلك المدة كثرت المنافسات الدينية واتسع الخلاف بين اهل الديانة النصرانية وكثرت الديور بجهات الاسكندرية وما جاورها وانقطع بها كثير من المترهبين الذين هاجروا الى مصر فراراً من جور حكام البلاد الاخرى لكنهم لبغضهم لدين من تقدم من المصريين هدموا مبانيهم القديمة وهياكلهم الجسيمة وخربوا الكثير من البلاد وهدروا دم من كان بها من العباد حتى اننا لو نسبنا ما فعله ملك العجم وخلفاؤه بمصر واهلها لم يبلغ معشار ما فعله النصارى بها وبهذه الافعال الشنيعة تغيرت احوال الامة وتحولت عن بعض عاداتها وطباعها ومعتقداتها وكرهت الروم والرومانيين وتمنت

انقضاء حكومتهم وزوال نعمتهم واستمر الحال على ذلك الى سنة ٦٤٢ من الميلاد وهي سنة ٢٢ من الهجرة فجاءت جيوش امير المؤمنين عمر بن الخطاب يقودها عمرو بن العاص فحاصر الاسكندرية اربعة عشر شهرًا ثم افتتحها ودخلها بمن معه من العسكر وضرب على اهلها الجزية فرحل عنها كثير من الاغراب الى بلادهم وانتقل بعضهم الى مدينة مصر التي اتخذها المسلمون قاعدة المملكة وعاصمة البلاد وسموها الفسطاط وهي في موضع بابلون القديمة ومن اثارها التلال الكثيرة الموجودة الى الان بين العيون وباب السيدة وسور القاهرة فكان كلما اخذت مدينة الفسطاط في الشهرة اخذت مدينة الاسكندرية في الخمول والاتضاع وصارت تتلاشى تجارتها ويفارقها اهلها ويضمحل حالها بعد ان كانت اعظم مدينة في هذه الديار ومركزًا لتجارة جميع الاقطار ثم صارت كل سنة تتاخر وتتقهقر واستمرت على ذلك قرونًا عديدة ومددًا مديدة فلما كانت سنة ١١٦٧ من الميلاد وهي سنة ٥٦٣ من الهجرة هجم عليها الفرنسيس واستولوا عليها ودخلوها ولكنهم لم يلبثوا بها الّا زمنًا قليلاً ونهض لاستخلاصها من ايديهم الملك الناصر صلاح الدين فاخلاها منهم واجلاهم عنها واستردها الى الاسلام سنة ٥٦٤ كما كانت

وفي سنة ٥٩٩ من الهجرة استولى عليها الجنويون وفي مدتهم حصل بعض رواج في التجارة وتقدم في العمارة وصارت تتوارد

عليها الاغراب وتسكنها التجار ثم تخلصت منهم ووقعت في يد ملك فرس سنة ٦٤٨ من الهجرة حين كان الملك لويز التاسع اسيرًا بمصر وكان يتكلم مع سلطانها في تعيين ما يفدي به نفسه من الاسر ويقال ان ملك فرس لما استولى عليها هدم مبانيها وسلب اموالها ثم لم تقم من هذه الورطة حتى وقعت في ادهى منها واعظم فان الفرنسيس اغاروا عليها في سنة ١٣٦٧ من الميلاد وهي سنة ٧٦٩ من الهجرة ثم خرجت من ايديهم ولكنها لم تخرج من سوء الحال ونكد الدنيا وحوادث الدهر فانها كانت عرضة لظلم المماليك الذين كانوا حاكمين في مصر

فقال الشيخ ان كل ما حصل فيها من التقلبات الكثيرة والاحوال العسرة لا يصل الى ما اصابها في مدة المماليك الذين استولوا على الحكومة بعد انقضاء دولة الفاطميين ودولة صلاح الدين وذريته فان بعض من ولي السلطنة من اعقابه اتخذوا منهم خدمًا وعسكرًا وجعلوا منهم معظم رجالهم فكانوا يقدمونهم على غيرهم من المستحقين حتى استحوذوا على رتب عالية ومناصب جليلة ليسوا لها باهل فمن شدة غيهم وسوء بغيهم داخلهم الطمع في ملك ساداتهم فزاحموهم في حكومتهم واحتقروهم واخرجوهم عن سلطنة اجدادهم واغتصبوها لانفسهم فتأسست سلطنتهم وامتدت زمانًا كثر فيها الظلم والجور والفساد فكانت مصر في ايامهم كسفينة في طوفان او جيش احاط به العدو من كل مكان وانقطع ذكر الاسكندرية

وشهرتها وتناقصت كثيراً عمارتها ولكنها لم تنقطع بالكلية تجارتها فكان يأتي من البلاد الافرنجية بعض بضائع الاّ انها كانت قليلة لعدم اعتناء الحكام بما يوجب الامن على التجارة وانضم الى ذلك ما ضرب عليها من المكوس والجمارك على غير قاعدة مضبوطة ولا قانون منتظم فلم يزل يتناقص الوارد من البلاد الافرنجية ببحر الروم وهكذا كان الوارد من جهة البحر الاحمر يتناقص حتى يتنازل الى قدر يسير ولكنها مع كل ما ذكر كانت حين دخلها عبد اللطيف البغدادي المؤرخ الشهير في سنة ٧٨٥ من الهجرة قد بقيت فيها بقية ولم تضمحل بالمرة فرأى بها ما حكاه من اثار العمارة ووجد اهلها مشتغلين بالاخذ والاعطاء والتجارة

وهذه كانت حالها حين استولى عليها السلطان سليم سنة ٩٢٣ من الهجرة ثم اخذت بعد ذلك تفقد بقايا ما كان لها من الصيت والشهرة والتجارة والعمارة بما كان يتوالى عليها من ظلم المماليك واتباعهم واشياعهم فكانت تجارتها وعمارتها كل يوم تنقص عما قبله ولم تزل تتقهقر واحوالها تتغير الى ان جعلت كالسجن لمن يغضب عليهم الباشا بمدينة القاهرة ويرسلهم اليها

ثم اغار عليها نابليون بونابارت بجنود الفرنسوية سنة ١٢١٣ من الهجرة فدخلوها واستولوا عليها ولكنهم لم تطل بها مدتهم فخرجت من يدهم ولكنها عادت لما كانت عليه من الظلم والشر وفساد الاحوال حتى اختل امرها وضجر اهلها لكثرة تعدي حكامها

عليهم وظلمهم لهم فتركوا اسباب الكسب والثروة والتقدم واعرضوا عن العلوم والفنون فكثر الخراب بمصر واعمالها وهاجر منها من تخلص من ايديهم من اهلها ووقعت العداوة والبغضاء بين هولاء الحكام ايضًا كما وقعت بين الاهالي وبينهم وكثرت ما بينهم الفتن والمحن والشرور وكثر قتالهم لبعضهم وعاد ذلك بزيادة الخراب للبلاد والضرر لاهلها فما كان يرى السائر بها الاَّ ما يسوءُه ويحزنه من سوء اثارهم وقبيح اطوارهم فكم من اثر قديم اعدموه وقصر مشيد هدموه وارض صالحة افسدوها وبلدة عامرة اصبحت خرابًا وكانت حارات القاهرة في ايامهم ميادين لفتنهم وقتالهم وصدور الاهالي اغراضًا لنبالهم فعظم الشر واشتد الامر ولم يزل الحال على هذا المنوال الى ان قيض الله لهذه البلاد دولة افندينا الاكبر محمد علي المرحوم اول هذه الدولة الخديوية فشمر عن ساعد الجد والاهتمام في عمارة ما خرب منها واعادة ما نزح من العلم والمعرفة عنها واخذت الاسكندرية من ذلك قسطها كغيرها من البلاد فحسن امرها وكثر سكانها وزادت تجارتها زيادة عظيمة بعد ان كانت تلاشت واضمحلت فان التجارة ايضًا يعتريها ما يعتري السياسة والادارة والعمارة من التنقل والتبدل والتحول

فقال الانكليزي نعم هذا صحيح لا مرآء فيه فكل الناس الان يشهدون لمحمد علي المرحوم بما ابداه من الهمم العالية في اعادته لمصر ما كانت فقدته قبيل ايامه من حركة التجارة فانها قبله كانت

كما ذكرتم قد اضمحلت تجارتها وتلاشت بالكلية وكادت تكون كما كانت عليه في الاعصار العتيقة المتقادمة العهد فانها في اوائل الزمان كانت تجارتها داخلية منحصرة بين اهلها لا حظ فيها للاجانب فكانت مسدودة عليهم لا يدخلونها بشي من التجارة واول فتح ابوابها لتعاطي التجارة الخارجية ودخول تجار الاجانب ومعاملتهم كان في عهد فرعونها المسمى ايساماينكوس فانه اول من رخص للاغراب في دخول مصر والاختلاط باهلها وذلك قبل الميلاد بستمائة وست وخمسين سنة وكانوا من قبل لا يؤذن لهم بدخولها فلما فتح بابها للاجانب اخذوا يتواردون من كل جهة عليها وينسلون من كل حدب اليها فاتسعت بها دائرة التجارة وازدادت اسباب الثروة وكانت الامة الكنعانية هي المتسلطة على التجارة في تلك الحقبة كما هو شان الانكليز الان وبقي الامر على ذلك الى دخول الفرس مصر فدخل معهم الفقر والقلة وزال الامن لشدة الظلم والجور فاخذت التجارة في الانحطاط والتقهقر ولم تزل كذلك الى وقت البطالسة ففتحوا لها طرقًا جديدة وروابط متينة فاتسعت اتساعًا عظيمًا امتدت شهرته في افاق البلاد فهرعت لها الناس من كل واد وصارت مينا الاسكندرية مركزًا عظيمًا للتجارة يرد اليه محصول الجهات القريبة والبعيدة من كل جانب فزادت عمارتها بهذا السبب وكثر سكانها حتى بلغ عدد اهلها نحو ثلثمائة الف نسمة ولا مبالغة في ذلك فقد نقل انه كان فيها حين افتتحها

المسلمون اربعة الاف من الحمامات ونحو اثنى عشر الف نفس من باعة الخضراوات ولم تزل يزداد حسن حالها وتنتقل في درجات الثروة واليسار والعز والفخار الى سنة ١٤٩٢ من الميلاد وهي سنة ٩٠٣ من الهجرة

وفي التاريخ المذكور عرف الناس طريق راس العشم الصالح فسلكته السفن التجارية الى الهند بعد ان كانت تمر من مصر فاخذت التجارة بعد ذلك تتناقص في الاسكندرية وتتاخر وصارت احوالها تتغير وتتقهقر الى ان جاءت دولة محمد علي الاكبر فصارت تتراجع اليها التجارة وتزداد وتكثر وذلك بما حصل في مدته ومدة من خلفه من عائلته على الحكومة من تسهيل النقل وتأمين الطرق واستمالة قلوب الاجانب فاتسعت بها موارد الثروة واليسار وقصدتها التجار من جميع الاقطار فازدادت التجارة والعمارة بها ازديادًا عظيمًا وبلغت مبلغًا جسيمًا حتى بلغ عدد سكانها الان نحو مائتي الف نفس فيهم نحو اربعين الفًا من الافرنج وكان عدد سكانها حين استولى عليها نحو ثمانية الاف نفس

وقد بلغت قيمة الوارد والصادر من البضائع في مينا الاسكندرية سنة ١٢٧٢ من الهجرة نحو ستة ملايين وسبعمائة وعشرين الف جنيه ومعظم ذلك مع الانكليز فان اكثر التجارة في مصر الان بيدهم وكانت قبلهم مع الجنويين في مدة المماليك وقبل ذلك مع الكنعانيين كما مر ذكره

ومما اوجب كثرة التجارة بمصر وازدياد المنافع لاهلها الاكثار فيها من زراعة القطن وقصب السكر ونحوهما وما وضع فيها من القوانين المفيدة والترتيبات السديدة وما حصل من ترتيب المعاملة وعلائق التجارة بين المصريين وغيرهم من الامم الاجنبية بما اوجب كثرة ورود الاجانب على ارض مصر للتجارة حتى وصلت الى ما وصلت اليه بحيث اذا وقف احد بساحل مينا الاسكندرية تاكد له ذلك بما يراه على السفن الراسية فيها من كثرة الاعلام المتنوعة للامم المختلفة ومما يدل على حالة التجارة بمصر في هذه الايام الحاضرة الاطلاع على مقدار ما يباع بها في السنة من اصناف البضاعة ففي سنة ١٨٥٤ للميلاد و ١٢٧١ للهجرة كان مقدار ما بيع فيها من صنف القطن خاصة اربعمائة وثمانية وسبعين الف قنطار بيعت بتسعة عشر مليونًا من الفرنكات ولكثرة الرغبة في تجارته لما فيه من زيادة الربح زاد المقدار بعد ذلك فبلغ في سنة ١٢٧٣ للهجرة مقدار ما بيع منه خمسمائة وتسعة وعشرين الف قنطار بثلاثة وعشرين مليونًا وخمسمائة الف من الفرنكات وثمن ما ورد الى مصر من الاقمشة في تلك السنة من بلاد الانكليز خاصة نحو سبعة عشر مليونًا وخمسمائة الف من الفرنكات سوى ما ورد من سائر الجهات وكان مقدار السفن الواردة الى مينا الاسكندرية والصادرة عنها نحو اربعة الاف واربعمائة واربع وستين سفينة نحو ربعها

من سفن الانكليز والباقي من سفن غيرهم ولا شك ان كثرة مقدار هذه السفن يدل على كثرة حركة التجارة

المسامرة الخامسة والثلاثون

كتاب علم الدين

قال ناقل الحديث فلما وصلا الى هذا الموضع من القول كان قد انصرم جزء من الليل وطاب المنام فانقطع الكلام واستأذن الانكليزي للقيام وانصرف الى حجرته فقام الشيخ وتوضاء وصلى ما عليه سنة وفرضا وشرع يحرر خطابًا لزوجته واهل بيته هذه صورته بعد العنوان والسلام

اما بعد فقد قطعنا لجج البحر الاسكندري بحمد الله تعالى في مدة خمسة ايام قضيناها في صحة ورفاهية وراحة ولم يشغلنا عن ذكر الله شاغل بل شاهدنا فيها ما يدل على عظيم سلطانه فكنا اناء الليل واطراف النهار نتضرع اليه ونتامل في عجائب مخلوقاته

الدالة عليه ولم نرَ في اثناء السفر الاَّ ما يسرنا ويصفو به سرنا وقد حصل لنا في السفينة من الاكرام شي زائد على المرام كل ذلك من فضل الله علينا ولطفه بنا واحسانه الينا واما ما كان من صاحبنا الانكليزي ولطفه فلا يستطيع القلم استيفاء وصفه وفي الجملة لم يكن منه الاَّ ما يسر الخاطر ويقر الناظر وقد انقضت ايام السفر ونحن في سرور وانشراح وكأنها كانت بيننا ايام افراح وقد وصلنا ثغر مرسيليا وهي اول مدينة لفرنسا وهي بالنسبة للاسكندرية واقعة في الساحل الغربي من البحر المتوسط (بحر الروم) فاقمنا بها يومين وعن قريب نرحل عنها قاصدين مدينة باريس تخت مملكتهم ومقر سلطنتهم وكان حصل لي امس بعض توعك خفيف وزال وعادت الصحة بحمد الله الى احسن حال وقد طفت مع صاحبنا ونجلنا في البلد فراينا مبانيها القديمة كمصر واحسن منها ما استجد ورايناً لها مراسي عظيمة يحف بها ارصفة جسيمة فاعجبني حسن احكامها ومزيد انتظامها ودهشت من كثرة سفن التجارة فيها واختلاف السنة ملاحيها ففيهم من العرب والعجم وغيرهم من جميع الامم ومن كثرة السفن بميناها وانضمامها لبعضها لا يكاد يرى الماء من خلالها واعجب من ذلك انهم لا يحتاجون في اخراج البضائع من السفن الكبيرة الى زوارق كالتي رايتها بالاسكندرية بل يقربون السفينة الى الرصيف حتى تتصل به فيربطونها بحلقات مثبتة فيه رباطاً محكماً ويرفعون منها البضايع كما هي الى البر بواسطة

عيارات عظيمة ترفع بها الاثقال على غاية من السرعة والسهولة فلا يمضي على اكبر سفينة بعض دقائق او درجات الاَّ وقد صار جميع ما بها على البر وقد اخبرني الانكليزي ان مساحة هذه المينا على وجه التقدير مائة وسبعة وعشرون فدانًا من فدادين مصر وان نصف هذا القدر للمينا القديمة ونصفه للمينا الجديدة وان محيط الارصفة سبعة الاف متر وثمانمائة وخمسة عشر مترًا وان التجارة تشغل منها نحو اربعة الاف وثمانمائة متر وهناك مينا ثالثة أحدثت منذ عهد قريب سعتها قدر مجموع الاثنتين وطول رصيفها ثلاثة الاف متر واربعمائة وتسعون مترًا فتكون سعة المينات الثلاث بمرسيليا نحو مائتين وخمسين فدانًا تقريبًا ورايت لهم لطيفة عند ارادة ارساء السفينة ذلك انها اذا قربت من البر يدخلونها في خليج يؤمن به عليها من تاثير الرياح عليها واصطدام السفن بعضها وقد وضعوا للسفن في طريقها اربع منارات تهتدي بها وهي عبارة عن مبانٍ عالية في راس كل واحد منها فانوس عظيم يضيء في الليل وفي اسكندرية ايضًا منارة تعرف هناك بالفنار وقد عرفت ان احدى هذه المنارات الاربع وهي اكبرها يظهر نورها على بعد عشرين ميلاً من المينا وارتفاعها اربعون مترًا وارتفاع الثانية خمسة وعشرون والثالثة اثنى عشر والرابعة تسعة وهذه ترى على بعد تسعة اميال من المينا ورايت على الارصفة مخازن اخبرني صاحبنا انها قد بناها باذن الحكومة جماعة من مشاهير

القوم واغنيائهم اجتمعوا وعقدوا بينهم جمعية اشتراك على راس مال قرروه للصرف على انشائها يدفع منه في كل سنة جزء على التدريج الى اتمام تسع وتسعين سنة

واخبرت ان معظم اعمالهم الجسيمة تعمل بهذه الكيفية وان اصل مال الشركة المذكورة عشرون مليونًا من الفرنكات تعدل (٨٠٠٠٠٠) جنيه انكليزي من النقود المصرية وانهم قسموا ذلك المبلغ على اربعين الف سهم فخص كل سهم خمسمائة فرنك وكذلك رأيت بمرسيليا معامل لاصناف متعددة كمعامل الصابون وتكرير السكر وطرق الحديد ودباغة الجلد وعمل الشمع واستخراج النبيذ والزيت وقد ترتب على وجود هذه المعامل بعض معامل اقل منها اهمية الاَّ انها تابعة لها مثل معامل الصور الصناعية اللازمة لعمل الصابون ونحو ذلك

وقد اخبرني صاحبنا ان عمل الصابون لم يحدث بهذه المدينة الاَّ في القرن السادس عشر من الميلاد الموافق للقرن الحادي عشر من الهجرة وانه كان ياتي اليهم قبل ذلك من مدينة يقال لها جنوا وفي سنة ١٧٨٩ من الميلاد وهي سنة ١٢٠٤ من الهجرة بلغ الحاصل منه نحو مائتين وخمسة وعشرين الف قنطار وقد بلغ الان نحو ثلاثة امثال هذا المقدار بسبب استعمال زيت الابذار واكثر ما يصنع منه يستهلك في ارض فرنسا وقريب من سدسه يرسل الى الخارج وعدد المعامل الموجودة الان لعمله نحو

خمسة واربعين فيها نحو خمسمائة من العمال واما معامل تكرير السكر فخمسة وقد بلغ ما دخل مرسيليا من السكر الخام في سنة الف وثمانمائة وثلاث واربعين للميلاد وهي سنة ١٢٥٩ للهجرة نحو ستة وعشرين الف اوقة مصرية ثم زاد بازدياد التقدم في التمدن والرفاهية فبلغ ما يرد لها الان منه نحو خمسة وخمسين مليونًا

واما معامل الحديد فكان لا يوجد منها بمرسيليا قبل الان بنحو عشرين سنة الاّ معملان لسبك الحديد خاصة والان فيها معامل متعددة منها ما هو لاذابته ومنها ما هو لعمل آلات الوابورات البرية والبحرية وغير ذلك وفي هذه المعامل من العمال نحو الفين وخمسمائة والمتحصل منها يوميًا نحو الفي (بنتو) وبها ايضًا معامل متعددة لعمل الرصاص وسكبه في اشكال مختلفة وكذا معامل النحاس والقصدير ويوجد بها من معامل الشمع ثلاثة عشر منها لعمل الشمع المعروف بمن السمك ثلاثة فيها مائتان وخمسون عاملاً ولعمل شمع الدهن عشرة فيها خمسمائة عامل

واما معامل الدباغة فقد ذكر لي ان عددها الان قل عما كان سابقًا وانها كانت في سنة ١٨٤٨ للميلاد اعني سنة ١٢٦٥ من الهجرة نحو الخمسين منها لدبغ الجلود الكبيرة اربعة عشر ولدبغ الجلود الصغيرة ستة وثلاثون وكان في كلا النوعين نحو الف وسبعين عاملاً واما الان فهي اربعة عشر معملاً منها لدبغ الجلود الكبيرة تسعة ولدبغ الجلود الصغيرة خمسة وكذلك ذكر لي ان بها

من الطواحين ثلاثة واربعين خمسة منها تدور بالهواء والباقي منه ما يدور بالبخار ومنه ما يدور بالماء وبها نحو سبعمائة من العمال

وفي هذه المدينة ايضًا سبعة معامل لعمل (الالوميت) وهي كلمة فرنساوية جعلت على ذلك الكبريت الذي يقال له في مصر كبريت بلا نار وفيها سبعة معامل لعمل الصوفان واثنان وسبعون محلًا لعمل الحلي بانواعه وبها غير ذلك كثير من المعامل كمعامل المشروبات بانواعها والحلويات باشكالها والمخللات باجناسها حتى ان بها معامل مختصة بما يرسل الى الجهات البعيدة من المواد القابلة للتعفن من الاطعمة كانواع السمك واللحم والفاكهة فيحفظونها في ظروف محكمة بطرق مخصوصة تمنع عنها التلف والتعفن مددًا طويلة فلا يعتريها شيء من ذلك

وكذا معامل الفخار والطوب والخرز وغير ذلك مما يضيق عنه النطاق ولا تسعه الاوراق وما دعاني الى هذا التطويل والاكثار الاّ علمي برغبتك في الوقوف على ما شاهدناه لتلحقيه بحاشية الكتاب الموسوم بغرائب الاخبار وعجائب الامصار

ولا احب ان اطيل عليك بتفصيل ما هنا من محدثات البدع والفجور وما ارتكبوه على خلاف امر الله سبحانه من مذموم الامور ولكن اذكر لكِ بعضه عنوانًا يكون لما لم اذكره قانونًا وميزانًا وهو اني لم اسمع احدًا من جميع سكان هذه البقعة يذكر اسم الله تعالى بل اراهم في جميع نهارهم لا يتكلمون ولا يشتغلون الاّ بامورهم

الدنيوية وفي الليل لا يأوون الاّ الى محلات الملاهي ومن الغريب انهم مع اعتنائهم بنظافة ملابسهم وتزيين ظواهرهم لا يستعمل احد منهم الماء في ازالة فضلاته ولا يستجمر ولا يغسل يده بعد الاكل

ومن عاداتهم انهم لا يلتزمون ابقاء لحاهم على حالة واحدة فربما ارى الواحد منهم ذا لحية طويلة عريضة ثم اراه قصرها كثيراً او حلقها راساً فلم يبق الاّ شاربيه وتارة يبقي الشارب والعنفقة وما حاذاها ويحلق ما عداها وتارة يحلق ما حاذى العنفقة ويرسل ما عدا ذلك حتى يكون قريباً من الصدر وتارة لا يبقي الاّ شعر العارضين وتارة يجعلها على شكل عريض من اصله ضيق من نهايته ومنهم من يتركها حتى تطول طولاً مفرطاً ومنهم من يحلق شعره بتمامه حتى يصير كالامرد واما ما يضعونه على رؤوسهم مما يعرف عندنا بالبرنيطة فشيء يطول شرحه وقد نظرت بعضه في مصر وله هنا انواع كثيرة فتارة يكون طويلاً مرتفعاً نحو نصف ذراع وتارة يكون قليل الارتفاع وتارة يكون ضيقاً من اعلاه واسعاً من اسفله نازلاً قريباً من الجبهة الى غير ذلك ومن عادات هذه الجهات ان نساءها يألفنَ الكلاب كثيراً ويستتبعنها حيث سرن وتكون معهن حيث كن فهي لهن من اعز الاصحاب والاحباب حتى ان الانسان في محلات الفسحة يرى في الجمعية كثيراً من الكلاب وتحتفل النساء بهذه الكلاب حباً منهن ويحتفل بها الرجال تقرباً اليهن واكراماً لهن لما يعلمونه من منزلتها عندهن

فحب المرأة منهم لكلبها ربما يعدل حبها لولدها فتجعله جليسها وضجيعها وانيسها ينام ويقوم معها لا تفارقه وتقبله في فمه وتعانقه وانواع هذه الكلاب عندهم كثيرة منها ما هو قدر القط فأقل ومنها ما هو اكبر ومنها ما شعره طويل يقولون انه متولد بين الشياة والكلاب ومنها ما ابوه ذئب وغير ذلك وهناك نوع تقتنيه الرجال وتألفه يقولون انه يأتي اليهم من الارض الجديدة المسماة بالامريكا ولكن لا باس بهذا النوع لان فيه على ما يقال مزية عظيمة وهي اهتداوه لاخراج الغريق من قاع البحر يقولون انه يشم رائحة الغريق فيغوص في الماء حتى يخرجه الى البر وقد رأيت رجلاً اعمى يسحبه كلب في رقبته مرجونة صغيرة فاذا راى انسانًا ترك صاحبه وذهب يستعطي له صدقة وقد صادفنا في مرورنا وحين رآنا ترك صاحبهُ واتانا فوقف امامنا وجعل يبصبص بذنبهِ وينظر الينا ويحرك راسه كحالة غيره من الكلاب حين يرى من ياكل شيئًا فيقوم بين يديه طامعًا في ان يلقي اليه شيئًا مما ياكله ففهمنا الغرض ووضعنا له بعض دراهم في المرجونة التي في عنقه فذهب الى صاحبه وحرك يده فاخذها من المرجونة وكذلك رايت بمنزل قريب من منزلنا امرأة اشارت لكلب من الشباك فصعد اليها فاعطته دراهم فاخذها منها ونزل واعطاها لصاحبه والامور التي شاهدناها هنا كثيرة يطول سردها وتعدادها وقد قيدتها في اوراق عندي اتلوها عليكِ عند عودنا ان شاء الله تعالى وقد ذكرت ما ذكرت

انموذجًا لما ادخرت وارجو ان تبلغي سلامي لحضرة اخيكِ وبحضرات من يسال عنا من المشايخ اخواننا وقبلي لي الاولاد والاخوات وارجو منكِ اتصال المكاتبة في كل بوسطة لاجل الاطمئنان عليكِ وعلى كل من لديكِ ولا مشقة عليكِ في ذلك اذ ما عليكِ الاَّ تسليم خطابكِ لمن تستلمين منه خطابي او ارساله مع الخادمة الى محل وكيل صاحبنا الانكليزي

المسامرة السادسة والثلاثون

الارق والصلاة

ثم ختم الخطاب ووضعه في ظرفه وقرأ على حسب العادة ما تيسر من القرآن العظيم وتلا اوراده ثم اضطجع في سريره فلم يغتمض جفنه بنوم وذهب فكره نحو وطنه ومقر اهله وسكنه وتذكر الاحبة والاولاد وما هو فيه من الغربة وبعد البلاد فضاع بتلك الخواطر لذيذ نومه واشتغل قلبه باحوال اهله وقومه فقام من فراشه مكتئبًا

حزينًا وصار يتردد في حجرته شمالاً ويمينًا وبقي على هذه الحال من الارق وهجم عليه جيش الخواطر والقلق ولما لم يجد للنوم طريقًا وصار في بحر افكاره غريقا عمد الى شباك حجرته ففتحه عساه يتسلى بروية المارة في الطرق وصار ينظر منه وينصت بسمعه ولكن كان انقضى جزء عظيم من الليل وانقطع المرور من الطرق ودخل كل احد مضجعه فلم يجد احدًا يمر من الطريق الاّ القليل النادر وكانت تلك الليلة من آخر الشهر فلم تكن من ليالي القمر بل كانت سوداء الاهاب حالكة الجلباب قد ارخت على المدينة ذيول ظلمائها وغطت على جميع اطرافها وانحائها ثم نظر الى السماء فلم يرَ الاّ الكواكب وكأنها تبعث اليه مع اشعتها سلام الحبائب وكأن النسيم يلاطفه ويسليه برقته ويذكره بليال مرت له مع احبته وايام نقضت باهل مودته فصار يستحمل النسيم اليهم السلام ويجعله واسطة بينه وبينهم في الكلام فلما لم يسمع من يجيبه زاد انينه ونحيبه ورفع للسماء أكف الدعاء وقال اللهمّ يا من تنزه عن المكان وابدع بقدرته عوالم الامكان الهي انت الذي رفعت السماوات وزينتها بنجوم تجري في بحار الظلمات فدهشت من نورها ابصارنا وتحيرت في ادراك حقيقتها افكارنا انت اعلم بحالي ونهاية امالي الهي انت الذي حولتني من وطني وصيرتني بين اهل هذه الديار بعيدًا عن سكني فلك الحمد على ما قدرت ولك الشكر على ما اردت اعوذ بك من زوال النعم وموجبات النقم انك على كل شيء قدير الهي

اوزعني طرق الاستقامة واعذني من اسباب الخسران والندامة الهي يسر لي العود الى اهلي وعشيرتي ولا تمتني في غربتي واذا قدرت عليّ الاقامة في هذه البلاد فالهمني الصبر على ما قدرت والرضى بما قضيت وثبتني على ديني وقوّ في رجائك يقيني واجعلني وولدي واهلي ومن يلوذ بي في عياذك وجوارك وامنك وحفظك واحفظني من شياطين هذه البلاد واعني بفضلك على مناقشات اهل الضلال والفساد ولا تزغ قلبي وثبت عقيدتي حتى لا يكون لحججهم على عقلي سبيل ولا لظواهر ما ارى من الزخارف على قلبي تأثير واجعل عظمتك ملءَ قلوبنا ونور هدايتك جلاء عيوننا حتى لا نسمع الاَّ ذكرك ولا نمتثل الاّ نهيك وامرك واهدنا الى صراطك المستقيم وثبتنا على دينك القويم بجاه نبيك الاعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبحق من اصطفيته من عبادك الصالحين واصفيائك الطيبين الطاهرين (ثم شرع في ورد الاستغفار وصار يكرره الى الاسحار حتى ختمه بقوله) اللهم امن روعاتنا واستر عوراتنا واذهب غيظ قلوبنا وجبنا وساوس الشيطان واعذنا منه يارحمن حتى لا يكون له على قلوبنا سلطان وادخلنا كنف رحمتك حتى نفوز بنعيم جنتك ثم تزمل بغطائه فنام وهو يكرر اخر البقرة واول سورة الانعام فحين اصبح قام يشكر نعم ربه لديه مؤدّيًا ما فرض عليه وندب اليه ثم جلس الى الاسفار بين ذكر واستغفار فعند ذلك دعا ولده برهان الدين فحضر وعلى اثره اتى الانكليزي

فجلسوا يتحادثون وتناولوا ما تيسر من الطعام وحكى الشيخ ما اصابه في ليلته من الارق والقلق

المسامرة السابعة والثلاثون
السكر

فقال الانكليزي ان استحسنت فقم بنا نتمشى في البلدة ونطوف في طرقاتها برهة ليزول الكسل والملل وينشط الخاطر وترتاح النفس فوافقه الشيخ على ذلك وقاموا فطافوا في شوارع المدينة يحومون خلال ديارها متاملين في محاسن الابنية وانتظام الطرقات واحوال الامة حتى عدل بهم السير الى بعض المحلات المعدة للاستراحة وانواع الملاهي والاشربة وغير ذلك فعزموا على الاستراحة هناك ساعة فلما اخذوا مجلسهم وهدأت بهم راحتهم وشمل عيانهم ما بحضرتهم من الخلق المتحلقة حول دوائر المرمر وعليها الاشربة الملونة بالالوان المختلفة في الاواني المصنوعة على الاشكال الغريبة

اوزعني طرق الاستقامة واعذني من اسباب الخسران والندامة الهي يسر لي العود الى اهلي وعشيرتي ولا تمتني في غربتي واذا قدرت عليّ الاقامة في هذه البلاد فالهمني الصبر على ما قدرت والرضى بما قضيت وثبتني على ديني وقوِّ في رجائك يقيني واجعلني وولدي واهلي ومن يلوذ بي في عياذك وجوارك وامنك وحفظك واحفظني من شياطين هذه البلاد واعني بفضلك على مناقشات اهل الضلال والفساد ولا تزغ قلبي وثبت عقيدتي حتى لا يكون لحججهم على عقلي سبيل ولا لظواهر ما ارى من الزخارف على قلبي تأثير واجعل عظمتك ملء قلوبنا ونور هدايتك جلاء عيوننا حتى لا نسمع الاَّ ذكرك ولا نمتثل الاّ نهيك وامرك واهدنا الى صراطك المستقيم وثبتنا على دينك القويم بجاه نبيك الاعظم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وبحق من اصطفيته من عبادك الصالحين واصفيائك الطيبين الطاهرين (ثم شرع في ورد الاستغفار وصار يكرره الى الاسحار حتى ختمه بقوله) اللهم امن روعاتنا واستر عوراتنا واذهب غيظ قلوبنا وجنبنا وساوس الشيطان واعذنا منه يارحمن حتى لا يكون له على قلوبنا سلطان وادخلنا كنف رحمتك حتى نفوز بنعيم جنتك ثم تزمل بغطائه فنام وهو يكرر اخر البقرة واول سورة الانعام فحين اصبح قام يشكر نعم ربه لديه مؤدّيًا ما فرض عليه وندب اليه ثم جلس الى الاسفار بين ذكر واستغفار فعند ذلك دعا ولده برهان الدين فحضر وعلى اثره اتى الانكليزي

[illegible]

[illegible]

[illegible]

قال الانكليزي [illegible] في بلدة وصوف
في [illegible] وبنشط تخطر وترتاح
[illegible] على ذلك [illegible] في شوارع المدينة
يجولون خلال [illegible] متمعنين في محاسن الابنية وتنظيم الطرقات
و[illegible] العامة حتى عثر بهم السير الى بعض المحلات المعدة
للاستراحة و[illegible] المآكل والاشربة وغير ذلك فعزموا على الاستراحة
هذه ساعة فما اخذوا مجالسهم وهدأت بهم راحتهم وشمل عيانهم
[illegible] من [illegible] مختلفة حول دوائر المرمر وعليها الاشربة
متلونة بالالوان المختلفة في الاواني المصنوعة على الاشكال الغريبة

وللناس غوغاء واصوات منكرة كما هو شبان إهل المنادمة والمقامرة
قال الشيخ عجبت من انهماك اهل هذه البلاد في استعمال هذه
الاشربة وما يتبعها من الملاهي والملاعب وتأنقهم في انواعها واوانيها
وقد نشاء من ذلك افناء كثير من الاموال وشغل معظم الاوقات
فيما يعود على الابدان بالمضار وعلى العقول بالاختلال وعلى الاعراض
بالاهمال حتى ان ذلك كثيرًا ما يكون سببًا لاتلاف الانفس
والخروج من الشرف والعزة ولذة الحياة الى الخسة والذل والم
العيش مع ما هم عليه من توجه الافكار وانبعاث العزائم من
رجالهم ونسائهم واطفالهم الى ما يعود على وطنهم وسكان ارضهم
والمحتمين بهم بالشرف الاكبر والحظ الاوفر والالفة التامة والرئاسة
والملك الثابت حتى انهم تخطوا ذلك الى ارادة تنبيه الامم لما تصلح
به احوالهم وتذامروا على ذلك وظهرت مساعيهم فيه فلقد كانت
جاهلية العرب في ذلك اسد رأيًا واحسن حالاً فان حلماءهم
وكبراءهم لما ظهر لهم ما في استعمال تلك الاشربة والملاعب من
تهييج الشرور وافساد المعاملات واخراج الاموال عن صورة
الصلاح تناهوا عن ذلك واخذوا على ايدي الشبان فيه فصاروا
ثلاث فرق الفرقة الاولى اولو الاحلام والنهى ومنهم الذي يقول
لا اشرب ما يشرب عقلي والذي يقول وقد قيل له الا تشرب ما
يزيد في جرأتك وسماحك لا اصبح سيد قومي وامسي سفيهم الفرقة
الثانية الشبان المقهورون وهؤلاء كانوا يتباعدون عن ابائهم وذوي

الولاية بعلة الاصطياد والنظر في احوال الاموال العازبة في مراعيها فيميلون الى بعض الغياض لتحصيل اهوائهم على وجه الاستخفاء الفرقة الثالثة الفتيان الذين وجدوا من انفسهم القوة والنخوة والنجدة فهولاء كانوا يتجاهرون بذلك اعتمادًا على قواهم واحتماء بشدتهم والالسنة آخذة فيهم بالملامة وهم لا يعتبرون حتى جاء الاسلام ومضى شطر منه وهم على تلك الحال لم يزعجهم عنها حكم صريح بات حتى انزل قوله جل ذكره (ومن ثمرات النخيل والاعناب تتخذون منه سكرًا ورزقًا حسنًا) فاقتصر بصفة الحسن على الرزق ليفهم السامعون قبح السكر ثم قال اناس منهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه يا رسول الله أفتنا في الخمر المذهبة للعقول المتلفة للاموال فاوحى اليه صلى الله عليه وسلم (يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس فكف قوم وبقي اخرون حتى قام بعضهم يصلي امامًا في صلاة جهرية فقرأ قل ياايها الكافرون اعبد ما تعبدون فنزل قوله تعالى (ياايها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وانتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون) فكانوا لا يشربون في وقت تاتي عليهم فيه صلاة وهم سكارى ثم نزل قوله تعالى بالحكم البات والتحريم الصريح ياايها الذين امنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان (الايات) فانتهى جميع المسلمين عن استعمال ما ذكر وشرعت فيه العقوبة الحد في الشرب والتعذير في غيره ثم اختلف المجتهدون في تقرير

الاحكام الشرعية في مسمى الخمر واحكام الاشربة فقال قوم كلما خامر العقل وخالطه وغيره عن حاله الاولى فهو خمر وحكمه حرمة شرب قليله وكثيره وفساد بيعه وشرائه وحرمتها وقال قوم مسمى الخمر عصير العنب يترك في الاواني حتى يغلو ويشتد ويقذف بالزبد وغيره يسمى سكرًا والحكم حرمة قليل الخمر وكثيرها نيئة فاذا طبخت حتى ذهب ثلثاها حل ما دون السكر منها كما هو الحكم في بقية الاشربة فاتفقت كلمة المسلمين على حرمة السكر والحد عليه لما فيه من الفساد الذي لا يخفى دون ما فيه الاختلاف السابق لرعاية مصالح العباد حسب اختلاف البلاد

فقال الانكليزي ان ما قلته حق والنقد به حسن اذ لا مزية لعاقل ان كل ما يؤدي الى فساد في الجمعية وخلل في نظامها توجب السياسة والانظار الصحيحة المنع منه والاخذ على ايدي الناس فيه فليت اهل بلادنا اقتصروا على موضع الحاجة منه ولم يتجاوزوه الى السرف هذا واسال حضرة الشيخ تفسير الميسر والانصاب والازلام والالمام بما دار بين مقرري الشريعة المحمدية من القول في احكام ذلك والسماع واستعمال الات الملاهي

المسامرة الثامنة والثلاثون

الميسر والانصاب والازلام

قال الشيخ الميسر لعبة كانت لهم يلعبونها في مجلس الشراب صورتها انه يجتمع عشرة فتيان هم اللعبة ومعهم رجل يستامنونه يسمى الياسر في يده خراب يسمى الربابة قد وضع فيه قطعاً من الخشب مستواةً تسمى القداح الواحد قدح على واحد نقطة وعلى اخر نقتطان وهكذا الى السابع ويغفلون ثلاثة منها ولكل قدح اسم يخصه وهي الفذ والتوأم والرقيب والحلس والنافس والمسبل والمعلى والمنيح والسفيح والوغد وينحرون جزوراً ويجزئونها ثمانية وعشرين جزاء بعدد النقط التي على القداح ثم يخرج الياسر القداح على اسماء الاشخاص قدحاً قدحاً فكل من خرج له قدح اخذ من الجزور بعدد ما على قدحه من النقط ومن خرجت لهم القداح الغفل يغرمون ثمن الجزور

ثم انهم يعطون اللحم لمن حضر من فقراء الحي لا ياكلون منها كان ذلك منهم على وجه التفتي والتكرم وكثيراً ما كان يتولد من ذلك شر بسبب ان الذين يغرمون ربما ادركهم الشح والندم

والاسف على عدم البخت ويحسدون من تخرج له الانصبة لكونهم استاثروا بالحظوظ والبخوت دونهم فهذا صنف من الميسر هو اكرم الاصناف واخفها ضررًا

ثم ان العرب كانوا يلعبون بلعب كثيرة كشطرنج الهند ونرد الفرس والمسابقة على الخيل والابل والترامي بالنبال الى اغراض وهو النضال في اشياء كثيرة وكانوا يتراهنون في ذلك باخطار كبيرة كمائة من الابل مثلاً يجعلونها خطرا في الرهان فربما اصبح الواحد صعلوكًا معسرًا وامسى شريفًا ذا ثروة وافرة ولذلك كانوا يسمونه الميسر لما فيه من يسر قوم وان كان فيه عسر اخرين

يحكى ان تماضر المشهورة بالخنساء اخت صخر دخلت يومًا على ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها وعلى صدرها منسوج من شعر صنعته من شعر راسها عند فقد اخيها على عادة نساء الجاهلية اذ كانت المرأة اذا فقدت عزيزًا لها حلقت شعرها ونسجته صدارًا فقالت لها عائشة رضي الله عنها الم ينهك الاسلام عن ذلك فقالت الخنساء يا ام المؤمنين تزوجت فتى من فتيان قومي ذا يسار فقامر حتى اعسر واملق فشكوت ذلك لصخر اخي فاخذ بيدي وقام الى ابله فصدعها نصفين وخيرني فذهبت بنصف ماله فقامر به زوجي حتى انفده فرجعت الى اخي ففعل فعلته الاولى وقامر زوجي حتى رجعت الثالثة وانا فيما يعلم الله من الاستحياء فانا من وراء البيت وصخر اخي مضطجع واضع راسه في حجر امراته فلحنتني المراة وسمعتها تقول

هذه اختك وما اظنها تاركتك حتى تملق فلم يجبها وقام فاستقبلني وحياني واخذ يصنع بي صنعه السابق وهو يقول

وكيف لا امنحها خيارها * وهي فتاة قد كفتني عارها
وان امت تمزقن خمارها * وتجعلن من شعرها صدارها

فما عشت لانزعه كما لا يفارقني الحزن على صخر فحرم الشارع المخاطرة بالاموال

واما نفس اللعب فقد ندب الى السباق والنضال وفعلا بين يديه واناب الغالب لما في ذلك من الجد والمنفعة وقد عقد لهما في الفقه باب السبق والرمي

واختلف الائمة فبعض اجاز النرد وحرم الشطرنج وبعض اجاز الشطرنج وحرم النرد واما الانصاب فهي حجارة او اشيا اخر كالصفر يصورونها في اشكال مختلفة وبعضها كان مصوراً قديماً موروثاً للاخلاف عن الاسلاف كانوا ينصبونها ويتقربون عندها بانواع عباداتهم ويقولون ان هذه الانصاب تشهد لنا باعمالنا عند ربنا وتشفع لنا فحرم ذلك وكفر فاعله ومعتقده واما الازلام فهي ثلاثون قطع من الخشب مكتوب على واحد آمر وعلي واحد ناهٍ والثالث عطل لا كتابة عليه فكان الرجل اذا عزم عزماً خلط تلك القداح في جراب ثم اخرج منها واحداً فان كان الآمر فعل وان كان الناهي ترك وان كان العطل اعاد العمل فنهي عنه ذلك في اشياء كثيرة من جنسه كزجر الطير والحيوانات والاحوال

التي يشاهدها العازم عقب عزمه فيستشئمون ببعض ويتيمنون ببعض فقال عليه الصلاة والسلام اذا تطيرت فامض وقبل ذلك تنبه كثير من العرب لبطلان تلك الاشياء فان بعض الناس كان يرى المشائم فيقدم فيصيب ما اراد على اتم وجه حتى قال شاعرهم

لعمرك ما تدري الضوارب بالحصى
ولا زاجرات الطير ما الله صانعُ

وقال اخر

على المرء ان يسعى لما فيه نفعه
ويقضي اله الخلق ما كان قاضيا

واما السماع واستعمال آلات الملاهي فاجازها بعض بشرط امن الفتنة بالوقوع في محظورات الشرع وعدم اللهو والاشتغال عن الواجبات في اوقاتها ومنعها بعض لما يغلب فيها من السهو والغفل عن اداء الواجبات والنظر في المصالح والسعي لها في اوقاتها

قال الانكليزي ان ميل الانسان بطبعه الى ما يجدد نشاطه ويعود على فكره بالراحة من الاشتغال بما يكد قواه من استماع الاصوات الحسنة والنظر الى المناظر الجميلة والاشتغال بالامور الملهية هو الذي بعث الافكار على اصطناع الات الطرب وتحسينها واتقان ما يناسبها وكان ذلك من الاعمال العائدة على كثير من اهل هذه البلاد بالثروة حتى نظمت في الاعمال التي يبني الناس عليها امور معاشهم ولا غرو ان يشتغل الانسان بما فيه كسبه

وارتياح اهل ارضه ونزهتهم وتسليهم عن كثير من الهموم المكدرة والاعمال المتعبة فلذلك ترى اطباق اهل هذه الارض ولا سيما النساء على تلك الاشياء حيث وجد فيها الكبار واهل العجز والهرم تعويض ما فقدوه من ملاذ الشباب وهي من تحائف الشباب وجملة آلاته التي يحصل بها على تمام ملاذه الداخلة تحت قدرته الحاضرة بين يديه

المسامرة التاسعة والثلاثون

حكاية المصري الغريب

قال الناقل وبينما هم كذلك اذا بانسان هرم دخل عليهم فسلم بلسان عربي فصيح فرد عليه الشيخ وولده وحياه الانكليزي على حسب العادة واذنوا له بالجلوس فجلس ثم تاملوا في هيأته ولغته فعرفوا انهُ ليس من اهل البلدة فقال الشيخ لعلكم من اهل مرسيليا قال لا وانما انا ساكن بها منذ مدة طويلة وانا من جهة مصر

ومسقط راسي القاهرة ولي بها اقارب ولا اعلم الان ما فعل الله بهم وكانت اقامتي معهم بمصر في خط الازبكية ولي حكاية غريبة في سبب مفارقتي لهم فقال الانكليزي اظنك ممن كان حضر مع نابليون بونابرت حين خرج من مصر فقال نعم فقال له كيف تبعته وتركت عائلتك واهل بيتك قال الرجل في مدة اقامة الفرنساوية بمصر كان قد اختلط بهم بعض اهلها حتى دخلوا تحت طاعة الفرنسيس وانضموا اليهم فمنهم من كان في خدمتهم ومنهم من دخل في عسكرهم وقليل منهم شاركهم في التجارة فكنت ممن دخل في العسكرية فاقمت فيها مدة الى ان حصل الصلح بينهم وبين المصريين وكان في من كتب اسمهم في العسكرية كثير من القبط المصريين ونصارى الشام ومن بقي من المماليك الذين كانوا بها قبل دخول الفرنسيس اليها ولما وقع الصلح وتأهب جيش الفرنسيس للرحيل خرج من العسكرية من خرج وبقي من بقي فكنت ممن بقي وكان عمري اذ ذاك قريبًا من ثلاثين سنة وكان السبب في بقاء من بقي مع الفرنساوية ان اهل مصر كانوا يتوعدون كل من دخل في زمرة الفرنساوية بالقتل وبغيره فلذلك اخترت البقاء معهم والمهاجرة الى بلادهم وعلى اي حال فالقسمة غلبت وخرج معهم من خرج الى ان وصلنا مرسيليا فمنا من اقام بها ومنا من بقي في العسكرية وسار مع نابليون فكنت ممن اقام بمرسيليا فرتب لنا من جانب الحكومة مرتبات لكنها لم تكن كافية فاخذنا في الاسباب

كل على حسب اقتداره وتزوجنا من نسائهم وتخلقنا باخلاقهم وتهيأنا بهياتهم واكتسب كل منا على حسب سعيه وكده واعاننا على الكسب في هذه المدينة انها مينا واشغالها كثيرة وامور السعي والعمل والكسب فيها متيسرة وبهذه الكيفية تيسرت معيشتنا ورضينا بقضاء الله وقدره وان كان حب الوطن لا يبرح من بالنا وافكارنا لا تفتر عن ذكر اهلنا وبقينا على هذه الحال الى ان تعصبت الدول على دولة فرنسا واتفقوا على خلع الامبراطور واشخاصه الى جزيرة الب للاقامة بها وردّ الحكومة الى الملك لويز الثامن عشر من ملوكهم فعند ذلك حصل لنا ولكل من كان قد انتمى اليه من الذل والاهانة ما كان سببًا في مفارقتنا لمرسيليا ولو كنا نعلم الغيب لكنا جميعًا هاجرنا من هذه البلاد قبل ان ينزل بها ما نزل من المقدور وما هو في علم الله مستور ومسطور فكنا نحو اربعمائة نفس بعيالنا وكانوا يسوموننا كل يوم من العذاب ما لا اقدر على وصفه الى ان حصلت الحادثة التي رجع فيها بونابرت الى السلطنة مدته الاخيرة المعروفة عند اهل هذه البلاد بحكومة مائة يوم لانه لم يقم بها الاَّ هذه المدة فلما انقضت حصل لنا وللجميع من انتسب اليه غريبًا كان او غير غريب ما يعجز عن استيفائه اللسان ويكل في حصره البيان وحاصل الامر ان جميع المماليك والمهاجرين الذين كانوا معنا وعيالهم واولادهم قتلوا في وسط حارات مرسيليا وشوارعها بكيفيات يشمئز منها الطبع ويمجها السمع

ولولا اني كنت غائباً في ذلك الوقت لقتلت فيمن قتل ولما عدت وجدت عيالي جميعاً قتلوا مع والدتهم وشرح ما حصل في تلك الايام طويل ولو مكثت طول عمري اذكر لك من اخبارها لكان ما اذكره بالنسبة لما اتركه اقل من القليل

فقال الشيخ اود ان اعلم كيف كان قتل المساكين الاغراب وكيف سلمت الحكومة في ذلك فان مثل هذا لم يسمع به في بلاد البربر ولا بين سكان البادية فكيف يكون في الملل المتمدنة ام كيف يحصل من ملة يقال فيها انها بلغت من التمدن غايته

فقال ذلك الرجل ان طباع هذه البلاد غريبة جداً لانهم دائماً في فتن ومحن ويودون دائماً تغير صورة حكومتهم وديانتهم كما يغيرون ملابسهم فان شئت وتفضلت عليّ انت ومن تحب بالزيارة في منزلي فهناك نتروح بذكر البلاد واتلو عليك شيئاً مما وقع في هذه الحادثة من الصلاح والفساد فسكت الشيخ فنظر ذلك الرجل الى الانكليزي فقال اما انا فقد دعيت عند بعض الاحباب ووعدته في هذا اليوم بالذهاب واود ان اخذ معي برهان الدين وان اراد حضرة الشيخ ان يتوجه معك ويصطحب يعقوب معه فالراي له فاتفقوا على ذلك وقاموا جميعاً فذهب الشيخ ويعقوب مع الرجل الى منزله فقابلتهم زوجته احسن المقابلة وحيتهم تحية الاكرام والمجاملة واجلستهم في المكان المعد للضيفان وامرت باحضار القهوة والدخان فشربوا ثم شرعوا في التبسط بانواع الكلام الى ان

وصلوا الى ذكر حوادث الايام فقال الشيخ للرجل ارجوك ان تفي بما وعدت به انفًا من حكاية ما حصل في قتل اولئك المساكين الاغراب وما حصل بهم من انواع العذاب والعقاب فتنفس الرجل الصعداء وقال ان اهل مرسيليا وما جاورها من البلاد بل اهل فرنسا على الاطلاق منقسمون فرقًا فمنهم في السلطنة الملوكية ومنهم من يميل الى الامبراطورية ومنهم من يحب الجمهورية ولكل قوم كلام في ترجيح رايهم ليس هذا محله وكل فرقة من هذه الفرق مع الاخرى في فرنسا كسعد وحرام في مصر والقيسية واليمانية في بلاد الشام فمتى كانت الحكومة امبراطورية كانت الغلبة لمن يتبعها والعكس بالعكس فمن ذلك لا ينقطع من بينهم عرق الشقاق ولا تزال الدماء بينهم تراق في الحارات والاسواق ومن ذلك مسألة الاغراب التي سمعتها فانها انما نشات من تلك التعصبات وذلك ان اهل مرسيليا كانوا اول من نصب لواء العصيان في القومة الاولى على بونابرت فلحقها مدة حكومته ما لحقها من الذل وضياع المزايا التي كانت بيناها زمن الحكومة الملوكية لانها كانت وقت ذاك معافاة من الكمارك والعوائد وكان ذلك من اقوى اسباب ثروتهم وسعة تجارتهم فلذلك كانوا يتمنون عود الحكومة الملوكية حتى انهم من شدة كراهتهم له ولمن اتبعه لما شاع الخبر بانحطاطه في سنة الف وثمانمائة واربعة عشر للميلاد وهي سنة ١٢٣٠ للهجرة قاموا جميعًا وقام معهم اهل البلاد والمديريات التابعة لها ففعلوا باتباعه افعالاً

شنيعة وقتلوا كل من كان له ميل اليه بالقوة وشاع ذلك حتى كان امرًا مشهورًا وتاريخًا على طول الزمن مذكورًا وهجموا على محلات رجال الحكومة فقتلوهم وقتلوا اتباعهم ولم ينجُ مدير المديرية من ايديهم الاَّ بالفرار الى ميدان الفسحة وهجموا على هيكل الامبرور الذي كان منصوبًا في ميدان المدينة فكسروه ورموه واقتلعوا جميع ما كان في ذلك الميدان من الاشجار والنبات والازهار وحرقوا ما كان به من انواع الزينة والزخرفة وبالجملة فلم يحترموا تربة كانت هناك وان كانت لاحد مشاهير رجالهم بل حفروها ودمروها حتى لم يبق لها اثر هذا والسبب في تغالي اهل هذه المدينة في الميل الى الملك ان عائلته كانت دائمًا تعدهم برد المزايا التي فقدوها وتشوقهم برجوع مزايا اخرى كانت لهم من قبل وسلبتها منهم حكومة بونابرت فلما خلع من الملك اول مرة جمعوا من رجالهم حزبًا عظيمًا عينوه لترغيب من يريد الدخول في العسكرية فانضم اليهم اهل الشقاوة والمفسدون واخلاط من العَمَلة والفعَلَة واستمروا على ذلك نحو احد عشر شهرًا من خلعه ولهذا لما بلغ هولاء الاشرار خروجه من جزيرة الب ودخوله ثانيًا ارض فرنسا خافوا على انفسهم من عاقبة فسادهم وايقنوا بحلول العقاب بهم دفعة واحدة ورفعوا لواء العصيان ورغبوا اهالي المدينة ومن حولها وخصوصًا العمال في المعامل وفي المخازن العسكرية وكذلك كل من وجدوه من الفقراء والمساكين فتجمع

من هذه الجموع المختلفة الاف مؤلفة وانتشروا في المدينة وشبوا في طرقاتها نار الفتن التي احلت بهم القضاء وهجموا على فريق العسكر واكرهوه على ان يقوم معهم لمنع الامبرور من دخول ارض فرنسا فخرج معهم بعسكره وساروا لتعطيل الامبرور عن الخروج من البحر لكن الله قدر خروجه من البحر قبل وصولهم اليه فلم يبلغوا مقصدهم ورجعوا الى المدينة خائبين فصاروا يقوّون جموعهم فعظمت قوتهم وازداد كرب الاهالي المنقطعين لاشغالهم من تعديهم وظلمهم لهم وكانوا يزعمون ان الملك اذا قام بجيوشه يقاوم حزب الامبرور نابليون ولم يخطر ببالهم ان الامبرور متى وضع قدمه بارض فرنسا اجتمع حوله خلائق كثيرة من عساكره القديمة والجديدة وغيرهم استمالهم اليه ما كان له من الشهرة وكثرة الفتوح والنصرة فكان الامر علي خلاف ما زعموا ولم يقاومهُ حزب الملك بل فرّ بعائلته ودخل نابليون ارض فرنسا واخذ بعنان الحكومة كما كان فتضعضع راي هولاء الاشرار وتفرق شملهم وترتب على نزول الملك عن سرير الملك وخروجه من باريس تغيير جميع حكام الجهات والمديرين ومن جملتهم حكام المديرية التي مركزها مرسيليا فتغير حاكمها وحضر لقيادة العساكر بها رئيس غير الاول وكان يحب الصلح والاصلاح فاجتهد في منع اسباب الفساد وقمع اربابه بطريق الانصاف والمساواة وتسكين الفتن حتى انحسمت الامور ومع هذا كان المفسدون كلما وجدوا للفتنة فرجة اوسعوها او فرصة للشر

ابتدروها فكانوا يوقدون نيران الفتن خفية ويلقنون كل من وجدوه كراهة الحكومة الامبراطورية واتباعها حتى انهم اكثروا من الطعن في حق راس العساكر المحافظين بمرسيليا حيث كان هو المانع لما يقصدونه من الفساد وكثيرًا ما اخبر باقوالهم ومقاصدهم وانهم يتمنون حيلة لسفك دمه وهو مع ذلك لا يخرج عن الطريق الذي الزم نفسه بسلوكه من الرفق في المعاملة وحسن الخلق والمجاملة بل استمر على استعمال ما يوجب الصلح والاصلاح لاطفاء الفتن وحصول الامن بين الرعية وكثيرًا ما راى بعينه تعدي بعض هولاء الاحزاب وفتحهم ابواب الشر بالنزاع والمخاصمة مع عساكره من غير مقتضٍ لذلك فكان لا يستفزه الغضب ولا يغير طبعه معهم ما يقع منهم ظنًا منه انهُ على طول الايام اذا تمهدت قواعد الحكومة على اصول من العدل متينة تنجلي قلوب الاحزاب ويزول ما في نفوسها من الضغينة فانهم جميعًا امة واحدة وابناء وطن واحد فلا بد ان يصفو البال وتحسن الاحوال قال ولم يعلم بما خفي في خبايا الغيب فاخطأ ظنه وخاب امله وضاع عليه تدبيره وعمله وذلك انه لما وقعت الواقعة المشهورة بجهة (واترلوا) انهزم فيها جيش نابليون فانتشرت الاخبار في جميع نواحي المملكة ومن الجملة جهة مرسيليا فشاع فيها الخبر يوم الاحد لعشر بقيت من شهر جونيو سنة ١٨١٥ للميلاد وهي سنة ١٢٣١ للهجرة وذلك بعد ستة ايام من تاريخ الواقعة فخاض في حديثها الناس واشتغلوا بها فكنت لا تجد

احداً منهم الاَّ رايته مهتماً بهذا الامر مشغولاً به فلا يجتمع منهم اثنان فاكثر الاّ على الخوض في حديث هذه الحادثة سواء كان ذلك في محلات النزهة والفسحة ومواضع القهوة او الكنائس والدور والازقة والميادين بحيث لم يبق فيما اظنه احد من الفرنساوية الاّ تكلم في هذه المادة وما يترتب عليها من النتائج المؤلمة والعواقب الوخيمة فغلب الوهم على قلوبهم لاعتقادهم جميعاً انه لا بد من دخول العدو باريس وتصرفه في اهلها بالغلبة والقهر وهذا الخوف كان عاماً لجميعهم ما عدا حزب الملك ومن اتبعه فانهم وجدوا فرصة لاظهار ما في نفوسهم وباباً للوصول الى اغراضهم فهبوا من نومهم وقاموا من مهد خمولهم واجتمع عليهم كل من اراد الانتماء والانضمام اليهم او رغب في السلب والنهب معهم فاجتمع بهم اهل الشر والفساد جميعاً فلم يبقَ قاتل ولا لص ولا قاطع طريق الاّ انضوى اليهم واختلط بهم وانتشروا في ارجاء المدينة فكان اول ما فعلوه انهم هجموا على العساكر ورموهم بالرصاص وقابلهم العسكر بمثل ذلك بحكم الضرورة فقتل من الفريقين خلق كثير وآخر الامر انهزمت شرذمة العسكر فخلا الجو لاولئك الثائرين ولم يبق لهم مانع وهجموا على البيوت وعلى الدائرة البلدية فجرى منهم من الرذائل والمفاسد ما لا يدخل تحت حصر واخذوا بيرق الجمهورية وحرقوه في ميدان كان منصوباً به هيكل نابليون الاول ثم سطوا علي ذلك الهيكل فكسروه وداسوه تحت ارجلهم ثم داروا في الازقة

متجاهرين بالاقوال الفظيعة والتحريض على قتل كل من ينتمي الى نابليون او عائلته او يميل للجمهورية وهجموا على مواضع كثيرة من جملتها محل كان به نحو ثلثمائة من الضباط الضعفاء المعروفين بالسقط اصحاب المعاش فاخذوهم عن اخرهم وذبحوهم ذبح البقر وكذلك فعلوا بنحو اربعمائة من طائفة المماليك فقتلوهم عن اخرهم ولم يرقوا لاطفالهم ونسائهم بل الحقوهم برجالهم واباءهم ولم يكن لذلك من سبب سوى ان هولاء المساكين كانوا اظهروا الفرح عند عودة نابليون فبقي ذلك في نفوس القوم وحقدوه عليهم حتى بطشوا بهم في هذه الواقعة وفعلوا معهم امورًا شنيعة واحوالاً فظيعة تقشعر منها الجلود ويكاد يرق عندها الجلمود فمن ذلك انهم كانوا عند قتلهم للواحد منهم يقطعونه اربًا يلقونها في الطريق وكانوا ياخذون الواحد فيوثقونه بالحبال ويضربونه بالعصي والخناجر فلا يموت حتى يذوق انواع العذاب واشد العقاب

ثم قال ذلك الرجل وكان في جملة من مات الاولاد (يعني اولاده) وامهم قال وكان من يمر في اي طريق من طرق المدينة وما حولها حينئذٍ انما يمر بين رمم القتلى ويخوض في دماء الجرحى حتى اختلطت رمم الرجال برمم النساء وكان اولئك المفسدون في خلال ذلك يتكلمون بكل ما تشمئز منه النفوس وفعلوا ما لم يفعله المجوس فكانوا يطوفون حول القتلى راقصين مسرورين فرحين مستبشرين رافعين اصواتهم بالاغاني والاشعار

المتضمنة للمباهاة والافتخار بما فعلوه من القبائح وارتكبوه من الفضائح ومع ذلك لم تكن هذه الاهوال خاصة برسيليا واهلها بل كانت في جميع جهات المملكة باسرها فكم من بلدة حرقت وضيعة خربت وقرية نهبت قال فما كان احد يسمع في تلك الاوقات عن جهة من الجهات الاَّ ما يسوء الفوأد ويحرق الاكباد

فلما وصل الرجل من حكاية حديثهم الى هذا المحل قال يعقوب (وكان مع الشيخ) سبحان الله العظيم قد قدر الله على طائفة المماليك بهذا العقاب فاصابهم في كل جهة من الارض فان ما حصل لهولاء برسيليا حصل مثله لاخوانهم بمصر وامثالهم الينكجرية بالقسطنطينية سواء بسواء وكان ذلك في اوقات متقاربة فان ما وقع بمصر كان في سنة ١٢٢٦ من الهجرة وما حصل برسيليا كان في سنة ١٢٣١ منها كما مر والذي حصل في القسطنطينية كان سنة ١٢٤١

فعند ذلك قال الشيخ هذا ما وعد الله ورسوله وصدق الله ورسوله قال الله تعالى (ذلك بان الله لم يك مغيراً نعمة انعمها على قوم حتى يغيروا ما بانفسهم) وقال (وسيعلم الذين ظلموا اي منقلب ينقلبون) قال بعض الحكماء من سلب نعمة غيره سلب غيره نعمته والحجر في البنيان من غير حله عربون على خرابه والله لو ان الجنة وهي دار البقاء اسست على حجر من الظلم لاوشك ان تخرب حكي ان بعض الوزراء جلس يومًا للمظالم فلما انقضى

المجلس راى رجلاً جالسًا فقال له ألك حاجة قال نعم ادنني اليك فاني مظلوم وقد اعوزني العدل والانصاف قال ومن ظلمك قال انت ولست اصل اليك فاذكر حاجتي قال وما يحجبك وقد ترى مجلسي مبذولاً قال يحجبني عنك هيبتك وفصاحتك قال ففيمَ ظلمتك قال في ضيعتي الفلانية اخذها مني وكيلك غصبًا بغير ثمن فاذا وجب عليها خراج اديته باسمي لئلا يثبت لك اسم في ملكها فيبطل ملكي فوكيلك ياخذ غلتها وانا أؤدي خراجها وهذا لم يسمع بمثله في المظالم فقال هذا كلام تحتاج معه الى بينة وشهود واشياء فقال ذلك الرجل أيؤمنني الوزير من غضبه حتى اجيب قال نعم قد امنتك قال البينة هم الشهود واذا شهدوا فليس يحتاج معهم الى شي اخر فما معنى قولك بينة وشهود واشياء واي شي هذه الاشياء ان هي الاَّ الجور وعدولك عن الحق فضحك الوزير وقال صدقت والبلاء موكل بالمنطق واني لا ارى فيك مصطنعًا ثم وقع له برد ضيعته وان يطلق له مائة دينار يستعين بها على عمارة ضيعته وصيره من اصحابه وكان من امر ذلك الرجل قبل ان يتوصل الى الانصاف واعادة ضيعته له اذا قيل له يا فلان كيف الناس يقول بشر بين مظلوم لا ينصر وظالم لا ينتصر فلما صار من اصحاب الوزير وردت عليه ضيعته وانصفه قال له الوزير ليلة كيف الناس الان قال بخير قد اعتمدت معهم الانصاف ورفعت عنهم الاجحاف ورددت عليهم

المغصوب وكشفت عنهم الكروب وانا ارجو لهم ببقائك نيل كل مرغوب والفوز بكل مطلوب

المسامرة الاربعون

المحار

قال ناقل الحديث وبينما هم في هذا الكلام اذ حضرت صاحبة المنزل واشارت بالقيام للطعام وكان الاتفاق على ان يكون الاكل على عادة المشرقيين فوضعت الاطعمة دفعة واحدة واكلوا جميعًا بايديهم من كل صحفة ولم يختص احد دون اخر بشيء الاَّ انهم وضعوا امام الشيخ طبقًا فيه محار من المعروف بالمدينة فعافته نفسه وابى ان يتعاطى منه لعدم تعوده على تعاطيه فاكلوا وشربوا ثم ارادوا ان يتحدثوا فيما بقي من اخبار تلك الحوادث لكن لضيق الوقت تعجل الشيخ بالانصراف فاستأذن وقام وتبعه يعقوب فركبا العربة وسارت بهما

فقال الشيخ ليعقوب لقد عجبت من تقديمهم ذلك المحار بين يدي مع وجود غيره من الماكل الشهية فلم اعرف لذلك من مزية

فقال يعقوب انما فعل الرجل ذلك تطييبًا لخاطرك واحتفالاً بامرك ودلالة على العناية بشانك فان الافرنج قاطبة يحبون اكل هذا المحار حبًا زائدًا واكثر من يتعاطاه الامراء والاكابر من اهل المدن الاوروباوية

فقال الشيخ كنت اسمع ان اهل اسكندرية ياكلون شيئًا يشبهه يسمونه بام الخلول وانهم يصنعونه بالتوابل والافاويه والبهارات ويجعلون منه المملحات وكذلك بلغني انهم يتعاطون نوعًا يسمونه بلح البحر يطبخونه مع الارز فيكون عندهم لذيذًا ولكني لم اذق شيئًا من ذلك فلا اعلم طعمه وهل هو ماخوذ من هذه البحار او غيرها وما كيفية صيده

فقال يعقوب ان الصيادين يصطادونه من البحر الملح بشباك مخصوصة وطرق معروفة لهم غير الطرق المعتادة في صيد السمك وفي كثير من جهات اوروبا ترى اقوامًا من الاهلين يشتغلون بتربيته وتنميته في معامل مخصوصة قد اصطنعوها بسواحل البحر يربونه فيها كتربية المصريين للفراريج في معاملها وان كانت الكيفية مختلفة فان المعامل التي نحن بصددها عبارة عن احواض واسعة مصنوعة بالقرب من ساحل البحر ينالها الماء في وقت المد وينحسر عنها في وقت الجزر وقد جعلت لها ابواب تقفل وتفتح لامساك الماء

في الاحواض وصرفه عند الحاجة بالاختيار وفي قاع الحوض احجار من الصخر موزعة في جهاته وحول كل من الاحجار قطع من الخشب مثبتة حوله ثم حول كل جملة من الصخر خشب غيرها وكلها متصلة ببعضها بواسطة حبل مربوط فيها محيط بجميعها ويربط في هذا الحبل حزم من الحطب وفروع الشجر تدلى في الماء فعند حصول الفقس يجتمع البيض على الصخور وعلى الاخشاب ويتعلق بالحزم المدلاة في الماء ويبقى كذلك الى ان يكبر وعند ذلك يكون اخذه باليد سهلاً فياخذون منه ما ارادوا مما يجدونه قد بلغ حد الانتفاع به وما وجدوه لم يصل الى تلك الغاية ابقوه حتى يصل اليها

فقال الشيخ اريد ان اعرف تفصيل احوال هذا الحيوان بقدر الامكان وكيف اهتدى الانسان الى معرفة ما ذكرت من طريقة تكثيره وهل هذه الطريقة حادثة ام قديمة

فقال يعقوب هذه الطرق كانت معلومة من قديم الزمان وكان الرومانيون وغيرهم يستعملونها وقد عرفها المتاخرون منهم ولكثرة سفري في البحار صار بيني وبين اربابها الفة وببعض حيواناتها معرفة حتى عرفت هذا الحيوان وكنت اظن قبل ان اعرفه انه لا شي في جوفه وان كان فيه شي فانما هو خزف او مواد صلبة الحاقًا لما بطن منه بما ظهر هذا ما كنت اظنه فيه الى ان اتفق لي في بعض الاسفار ان اجتمعت باحد الطبيعيين وكنت اذ ذاك

بجهة الامريكا فرأيته يومًا وقد جمع من هذا النوع شيئًا كثيرًا فسألته عن فائدته وعما في جوفه واصل مادته فاخذ منه واحدة ففتحها وصار يريني ما في جوفها ثم قال لي اعلم ان الله سبحانه وتعالى قد اتقن كل شي خلقه لا فرق بين كبير الحيوان وصغيره حتى المضغة والعلقة واودع فيه ما يلزم لبقاء شخصه ونفسه وخص كل نوع بمزايا تميز بها عن غيره من انواع جنسه ومن ذلك حيوان المحار فان لحمه بارد رطب مخاطي ليس فيه عظام من الداخل ولكونه على هذه الحالة جعل الله له وقاية تقيه من جميع العوارض وتحفظه من آفات البحر وحيواناته وهذه الوقاية وهي المحارة او الصدفة تارة تكون شكلاً مخروطًا على هيئة البرج وتارة تكون شكلاً مستديرًا كالدرقة وتارة تكون كدرع الحرب وغير ذلك وتارة تكون قطعة واحدة كما في الحلزون وتارة تكون قطعتين فاكثر وهي الميديا وبحسب هذه العقود في القطع وعدمه انقسمت الى ثلاث رتب اصلية

الاولى ذات الصدفة

الثانية ذات الصدفتين

الثالثة كثيرة الصدف

وهذا الذي وضع بين يديك على المائدة يعرف بالميديا وهي في الرتبة الثانية ومسكنه في الغالب قاع البحر في مواضع يتخذها على صورة الجزائر والتلال واذا نظرت الى الواحدة منها وجدت

محارتها مركبة من فلقتين احداها كبيرة وهي التي يلتصق بها ما في الباطن والغالب فيها ان تكون محدبة ذات سمك وهي السفلى والثانية العليا وهي اصغر وارق سمكًا من اختها واقل تحدبًا وهما ملتصقتان ببعضها بعصب متصل بالحيوان فيه مرونة يتيسر معها للحيوان فتحها واطباقها باختياره فيرى في وسط المحارة من الداخل بقرب اتصال الفلقتين ببعضها نقرة بيضاء فيها عصب سميك ابيض اللون متصل بالحيوان هو الآلة له في تحريكها كما مر وباطن المحارة املس ذو لمعان كلمعان اللؤلؤ واما ظاهره فذو طبقات او ثنيات متراكبة بعضها فوق بعض وهذا الحيوان مجبول على السكون والاستقرار وعدم الانتقال عن محله بالاختيار فينشأ من صغره على الصخور في قاع البحر ويثبت عليها حتى يرى كانه قطعة منها واذا تاملت في هذا الحيوان عند فتح محارته وجدته قطعة لحم متجمعة قليلة الشفافية سنجابية اللون بيضية الشكل مظروفة في غشاء رقيق ناعم قابل للانقباض والانبساط ذي طيات متعددة وله فلقتان مفتوحتان في معظمه وهو شبيه برأس البرنس ينتهي دقيقه عند مجتمع فلقتي المحارة وفي دائر كل فلقة من هذا الغشاء زوائد فيها شعور يمدها الحيوان ويقبضها باختياره ويظهران بها نوع احساس وبواسطة هذا الغشاء يمتص الحيوان بعض المواد الجيرية من المحارة وفي مجتمع طرفي الغشاء من جهة انفتاح المحارة يوجد فم الحيوان مستعرضًا وهو فم كبير قابل للتمدد عديم الفكين اي عد

الاعضاء المضغية له شفتان غشائيتان رقيقتان وفيه اربع زوائد كل واحدة منها مثلثية الشكل ذات ثلاثة اسطحة مستوية وهي بمنزلة الخرطوم يتناول بها غذاءه ويدخله في فمه فينحدر منه الى معدته وهذه المعدة على شكل الكمثرى ويتصل بها معاء رفيع معوّج يتجه بالميل الى جهة الامام ثم ينخفض قليلاً ثم يرتفع ويمر بعد ذلك خلف المعدة بحيث يكون قريباً من الفم وينعطف الى الخلف في طريق تقاطع طريقه الاولى حتى يكون في الجهة الخلفية من العصب المتصل به الحيوان بالمحارة كما مر وهناك ينتهي ذلك المعاء بفتحة في ظهر الحيوان يقال لها الخاتم ويحيط بالمعاء وبالمعدة ايضاً الكبد وهو اكبر اعضائه كلها حتى انه وحده يعدل معظمها ولونه مسود وفيه مائع مصفر اللون هو البلغم وفم هذا الحيوان ينطبق على معدته وقلبه لحمي مغزالي الشكل موضوع تحت كبده محيط بجزء من اخر المعاء احاطة تامة وهو كما في الحيوانات الكبيرة مركب من جزئين احدهما الاذين والاخر البطين ومن البطين يخرج عرق يتفرع ثلاثة افرع احدها يوجه الدم الى الجزء العلوي من الحيوان اي الى الفم وما به من الزوائد المتقدم ذكرها والثاني يوجهه الى الكبد والثالث يوجه السائل الغذائي الى سائر الجسد وليس الدم في هذا الحيوان احمر كما في غيره من الحيوانات الصغيرة بل هو شفاف عديم اللون وهو يمر من اذين القلب الى البطين ومنه الى العرق الغليظ الذي تتفرع منه الفروع الثلاثة التي قدمنا

الكلام عليها ثم منها تتوزع في جسم الحيوان

ومن هذا يعلم ان هذا الحيوان له دورة دموية لكنها ليست كالدورة في الحيوانات الكبيرة وانما هي كالدورة في السمك وبعض حيوانات غيره

وهذا الحيوان يستنشق في الماء ما يحتاج اليه من الهوا كالسمك فله خياشيم يفصل بها من الهواء الذائب في الماء ما يلزم له من الاوكسجين ومحل هذه الخياشيم تحت الغشاء وهي ذات طبقتين فيهما شعوب شعرية رقيقة اشبه باسنان المشط ولتجرد هذا الحيوان عن الراس لا يوجد له مخ كما في غيره من الحيوان وانما يكون اول عصبه بقرب الفم فيرى هناك عصب غليظ يتفرع منه فرعان احدهما يتجه الى المعدة والاخر الى الكبد وينتهيان بعصب واحد يكون خلف الكبد فالفرع الاول يوجه الاحساس الى الفم وما فيه والثاني الى الخياشيم

ويظهر ان لهذا الحيوان حاسة اللمس ومستقرها الفم وليس له سمع ولا بصر

ومن غريب خواص هذا الحيوان انه يجتمع في الواحد منه اعضاء التناسل الذكورية والانوثية فيكون الواحد لنسله ابًا وامًّا معًا ونسله في اول اطواره بيض مصفر اللون كثير العدد الى الغاية حتى ان اهل الفن توصلوا بكثرة البحث ودقة التحقيق الى ان قدروا للحيوان الواحد منه نحو الفي الف بيضة ومدة تربية هذا الحيوان

في البيضة كتربية الدجاج في البيض الى ان يتم تخلق الحيوان ويستقل بنفسه ثلاثة اشهر من بؤنه الى اخر مسري وفي هذه المدة يكون البيض في طيات الغشاء المتقدم ذكره مغموراً بمادة لزجة تفرزها الام فيتغذى منها ويكون في طيات هذا الغشاء بمنزلة البيض تحت الدجاجة حين ترقد عليه وتحضنه وحينئذٍ يكون كل من البيض وهذه المادة في قوام القشطة ولا ترى افراده اذ ذاك بالعين لفرط صغره ودقته وكثرة تراكمه على بعضه ويكون في اول اطواره مصفراً كما مر ثم يتغير بعد ذلك فيسمر ثم يكون اخر الامر بنفسجي اللون وعند ذلك يتخلق فيه الحيوان ويخرج منه وهو في طيات الغشاء المذكور كما ذكر وعند ذلك تقذفه الام في الماء متتابعاً متعاقباً على صورة خيط ابيض يشاهد بالبصر فيخرج من كل محارة خيط ويتكون من المجموع طبقة عظيمة الاتساع بالنسبة لاتساع الصخور الموجود عليها المحار يتميز لونها عن لون الماء وحينئذٍ يكون لها منظر عجيب ولكن لا يلتفت اليها الاّ المشتغلون بامرها المعانون لتربيتها ومن الغريب ان هذا الحيوان الذي تنقضي مدة حياته في حالة السكون وعدم الحركة يكون عند ولادته وانفصاله عن اصله محاطاً بمادة تتكون منها محارته التي جعلها الله سبحانه وقاية له ويكون اذ ذاك في غاية الصغر والدقة بحيث لا يتميز افراده الاّ بالنظارة المعظمة ويكون له حينئذٍ شعور بها يسبح في الماء ويسرح حول اصله ويفزع اليه متى

دهمته اي حادثة تهوله فاذا كبر الحيوان زالت عنه هذه الشعور التي هي له كالارجل فيتعلق ببعض الصخور والاحجار فيستقر بمكانه ويثبت فيه ولا يتحول عنه وحجمه اذ ذاك لا يكون الاّ قدر خمس ميلي متر واحد اي بقدر جزء واحد من خمسة الاف جزء من المتر وبعد ثمانية اشهر يصل طوله الى نحو ثمانية ميلي مترات او عشرة وبعد سنة يكون قدر خمسة سنتيمترات ولا يتم صلاحه ويكمل الانتفاع به ويباع في الاسواق الاَّ اذا بلغ ثلاث سنين وهذا هو المعتبر بين ارباب المعامل فانهم لا يخرجونه منها الاَّ اذا بلغ هذا السن

وعالم المحار عالم كبير وعدده كثير حتى قيل انه اكثر المملكة الحيوانية عدداً وقد اختلفت اقوال الناس في ظاهره وباطنه . فزعم بعضهم ان هذه المحارة او الصدفة الظاهرية التي تشاهد من الخارج هي عظم الحيوان والذي في داخله لحمه يعني ان هذا الحيوان يكون عظمه خارجًا وقد جعل وقاية للحمه ولحمه من الداخل على خلاف باقي الحيوان وقال اخرون وهو المرجح عند الاكثرين ان الحيوان انما هو اللحم وليس هذا المحار جزءًا من جسمه وانما يتكون من فضلات يبرزها الحيوان فتتراكم على بعضها وتختلف في الكبر والصغر بحسب كبره وصغره ومن النعم الالهية والاحسانات الربانية عموم وجوده في بحار الدنيا وانهارها ولمحار كل جهة اوصاف وخصائص يتميز بها تخالف صفات ما يوجد في غيرها من الجهات

كما ان الذي ينشاء منه في البحار يخالف ما ينشأ منه في المياه العذبة والانهار وقد صار هذا الحيوان مما يستدل به على عمر الارض وما مضى عليها من الزمن بحسبما يوجد في طباقها واعماقها من اثاره

المسامرة الحادية والاربعون

الودع

فقال الشيخ كم لله في الكون من اسرار عظيمة وبدائع غريبة لا يفقهها كثير من العالم فهذا المحار يراه كثير من الناس من غير ان يتأملوا فيما فيه من عظيم صنع الصانع الحكيم وحسن تدبيره وعجيب حكمته وانما يشتغلون بما يقع تحت نظرهم من شكله ولونه وهيئته من غير ان يعرفوا أفيه حيوان ام لا وان كان فيه حيوان فما حاله وما كيفية معيشته فعادة عامة الناس ان لا يوجهوا افكارهم

الاّ لما يظهر لهم فيه فائدة خصوصية او تضطرهم اليه حاجة وقتية ولا يلتفتون الى ما ذكر ومن ذلك مسئلة الودع مثلاً فان كثيرًا من العالم يتخذونه زينة ويضعونه على رؤس اولادهم زعمًا منهم ان في ذلك حفظًا لهم من بعض الامراض فتراهم يميزون بعض انواعه على بعض وبهذا التمييز تعلو القيمة وترخص من غير ان يلتفت البائع ولا الشاري لحاله وخلقته وكيفية معيشته وما فيه من عظيم الخلقة وعجيب الصنع وبعض الناس يزعم ان فيه سرًا وان به يمكن ان يطلع على ما في الغيب بواسطة جمعه بين الكفين ونثره والتامل في اوضاعه عند وقوعه على الارض ويستنبطون من ذلك بزعمهم امورًا من المغيبات يعتقدون صحتها ويصدق العامة بعضهم بعضًا في ذلك بل كثير من ضعفاء مَن يدعي العلم وبعض اصحاب المظاهر يتوهمون صدق ذلك وهذا كله مما لا يعلم له اصل ولا يعرف له وجه فان الله سبحانه وتعالى كما خلق عالم البر وجعله انواعًا كذلك خلق عالم البحر وجعله انواعًا ومن عالم البحر نوع هذا المحار ومن هذا النوع الودع كل ذلك لحكم ازلية واسرار على عوام الخلق خفية فحق على كل ذي نظر سليم وعقل مستقيم ان ينعم نظره ويمعن فكره فيما يراه من مصنوعات الله ليعرف مزيته وسره ويطلب من خالقه الهداية الى الوقوف على سر ما اودع فيه من الحكمة الباهرة والصنعة الزاهرة ليزيد علمه ومعرفته ويكمل به منفعته ولا يغتر بما علمه وحصله لانه كالعدم بالنسبة

لما جهله ولا يقف عند علم الظواهر فانه حجاب يمنع من معرفة السرائر كغائص البحر لاخراج الدر يكتفي بمعرفة نفاسته وغلو ثمنه وعزته ويغفل عن معرفة اصل خلقته والاسباب التي نشأ عنها والمواد التي تولد منها مع ان معرفة ذلك ربما ادت الى معرفة امور يقوى بها ايماننا ويتسع بها معاشنا

المسامرة الثانية والاربعون

اللؤلؤ

فقال له يعقوب ان ما ذكرته حق ومعرفة الاصل في كل شي احق ولذلك لما وقف الهنود واهل الصين على كيفية تكوين اللؤلؤ في بطن المحار تحايلوا في تكثيره بكل حيلة حتى كثرت التجارة فيه عندهم وزادت عما كانت عليه في الازمان السابقة

فحصل لهم بسببه فوائد عظيمة حصلوا منها اموالاً جسيمة حتى كانت اعظم اسباب غناهم وكان السبب في ذلك انهم رأوا في داخل بعض اللآلئ اشياء دقيقة مثل رملة او بيضة سمكة فاستنبطوا من ذلك ان اللؤلؤ يتكون في داخل المحارة من حدوث عارض خارجي مثل ما ذكر فتحيلوا على ادخال شي من هذه الاجسام واشباهها بين فلقتي بعض محار لم يكن حدث فيه لؤلؤ ثم نظروا فيه بعد ذلك فراوه قد صار فيه لؤلؤًا فعلموا صحة ما ذهبوا اليه واستعملوا ذلك في كثير من انواع المحار فنجحت اعمالهم وكثر اللؤلؤ عندهم وعظمت تجارتهم وزاد انتفاعهم وقد حقق اهل الفن ان اللؤلؤ يحدث في المحار من مرض يعرض لحيوانه عند دخول جسم غريب في جوفه فيضر بصحته ويتراكم حول هذا الجسم الغريب في كل سنة مواد صدفية يتكون منها اللؤلؤ فتارة يكون كبيرًا وتارةً صغيرًا ومنه ما يوجد ملتصقًا بالمحارة وما يوجد في داخل غشاء الحيوان نفسه

فقال الشيخ رأيت في بعض الكتب ان هذا اللؤلؤ يتكون من مطر ينزل في شهر نيسان فتتلقى بعض قطراته الحيات ويقع بعضها في الاصداف فما وقع في افواه الحيات صار سمًا ناقعًا وما وقع في الاصداف تبلور وصار لؤلؤًا وعلى هذا قول الشاعر

ارى المعروف عند الحرّ دينًا * وعند النذل منقصة وذما

كقطر الماء في الاصداف در * وفي جوف الافاعي صار سماً

وقيل غير ذلك

فقال يعقوب الصحيح المحقق الان هو ما ذكرته لحضرتكم ويوجد محاره في عدة بحار في جهات مختلفة مثل البحر الاحمر في سواحل العرب وفي سواحل مملكة بابونيه ببحر الهند وفي سواحل الكاليفورنيه بامريكا ومعرفة كيفية استخراجه من الامور المهمة في جهات وجوده

وهذا الصدف في العادة يوجد على الصخور في المحلات العميقة من البحر بعيداً عن الشاطئ والعادة في استخراجه بجهة سيلان ان تجتمع المراكب المعدة لذلك وتسير الى ان تقرب من موضعه ويكون في كل مركب عشرون رجلاً عشرة لخدمة المركب وعشرة يتناوبون في الغوص عليه خمسة فخمسة وكيفية ذلك ان يشد كل منهم في احدى رجليه حبلاً فيه حجر لسهولة نزوله الى قاع البحر بسرعة ويجعل في رجله الاخرى حبلاً اخر فيه شبكة كالمخلاة وياخذ بيده اليمنى حبلاً ثالثاً قد شد طرفه الاخر بالمركب ليصعد به بعد انتهاء عمله ويسد انفه بيده اليسرى حين يلقي نفسه في البحر فاذا وصل الى قاع البحر حوّل المخلاة التي في احدى رجليه الى عنقه ثم يجمع ما يجده من المحار ويضعه في تلك المخلاة فاذا ضاق نفس الواحد منهم في اثناء الغوص هزَّ الحبل الذي بيده فيشدونه الى سطح الماء وغاية ما يمكن للغطاس ان يمكث تحت الماء

نصف دقيقة فيغطس الواحد منهم بهذه الكيفية ثلاث مرات متوالية وان كان الجو موافقًا ربما غطس الواحد منهم نحو خمسة عشر مرة على التوالي وكثيرًا ما يخرج من انوف الغطاسين وافواههم واذانهم بعد خروجهم من البحر ماء مختلط بدم وربما تغتالهم حيوانات الماء خصوصًا الحيوان المسمى بكلب البحر فانه يترقب نزولهم ليفترسهم

فانظر كيف يجعل الانسان نفسه عرضة للتهلكة لاجل الحصول على معيشته ويرى النساء والبنات يتجملن بهذا اللؤلؤ ويتحلين به ولا يبالين بان الحبة الواحدة منه ربما فقد بسببها واحد من الناس فهذه كيفية استخراج المحار من البحر

فقال الشيخ ذكرت بما حكيته من صفة استخراج هذا المحار قصيدة للاعشى ميمون مدح بها قيس بن معدي كرب الكندي تغزل في اولها بمحبوبته الى ان شبهها بالدرة ثم استطرد فوصف الدرة وحسنها ومن استخرجها من محلها وكيف عانى الشدائد في تحصيلها فقال وقد ذكر محبوبته

كجمانة البحريّ جاء بها * غواصها من لجة البحرِ
صلب الفواد رئيس اربعة * متخالفي الالوان والنجرِ
فتنازعوا حتى اذا اجتمعوا * القوا اليه مقالد الامرِ
وعلت بهم سجاء خادمة * تهوي بهم في لجة البحر
حتى اذا ما ساء ظنهمُ * ومضى بهم شهر الى شهرِ

ألقى مراسيه بتهلكة * ثبتت مراسيها فما تجري

فانصب اسقف راسه لبد * نزعت ربا عيناه للصبرِ

اشفى يمج الزيت ملتمس * ظمأن ملتهب من الفقر

قتلت اباه فقال اتبعه * او استفيد رغيبة الدهر

نصف النهار الماء غامره * وشريكه بالغيب ما يدري

فاصاب منيته فجاء بها * صدفية كمضيئة الجمر

يعطى بها ثمنًا ويمنعها * ويقول صاحبها الا تشري

وترى الصواري يسجدون لها * ويضمها بيديه للتجر

فلتلك شبه الماء لكنها * طلعت ببهجتها من الخدر

قال يعقوب لقد اجاد هذا الشاعر في حسن اسلوبه ولكني قد استعجم عليّ فهم بعض هذه الابيات فارجو ان تم فضلك عليّ بشرح ما يحتاج الى الشرح منها

قال الشيخ نعم قوله كجمانة البحري الخ اراد به تشبيه محبوبته بالجمانة التي استطرد في صفتها والجمانة بضم الجيم واحدة الجمان وهو اللؤلؤ وقيل حبات تصاغ على شكله من الفضة والمراد هنا الاول وقوله جاء بها غواصها من لجة البحر يوافق ما مر في كلامكم من ان صدف الدر يوجد في المحلات العميقة من البحر بعيدًا عن الشاطئ وصلب الفواد بضم الصاد اي قويه وشديده وهو صفة الغوّاص وقوله رئيس اربعة يوافق ما ذكرته في صفة الغواصين من انهم يتناوبون الغوص خمسة فخمسة وقوله متخالفي الالوان

صفة الاربعة والاضافة لفظية والنجر بفتح النون وسكون الجيم
الاصل يعني ان هولاء الاربعة اصلهم مختلف والوانهم مختلفة وقوله
القوا اليه مقالد الامر اي ملكوه زمام امرهم والمقالد جمع مقلد وهو
المفتاح وكذلك يجمع على مقاليد والاقليد المفتاح ايضاً معرب
كليد الفارسي وجمعه مقاليد على غير قياس والاقليد ايضاً برة
الناقة وهي حلقة تجبل في انفها والسجاء بتقديم الجيم على الحاء هي
الطويلة الظهر واراد بها السفينة وقوله فانصب اسقف الخ اراد به
انه القى نفسه في البحر غائصاً ليستخرج الدر والاسقف بفتح الالف
والقاف من السقف بفتحتين وهي طول في انحناء ولبد بكسر الباء
اي متلبد وقوله اشفى فعل ماض يقال اشفى على الشي اذا اشرف
عليه ويمج الزيت يقذفه من فيه كما هي عادة الغائص قال
المسعودي غاصة هذا البحر (يعني البحر الذي فيه صدف الدر)
يكون معهم دهن له في الماء بريق فاذا راؤا حيوانًا موذيًا ارسلوا منه
شيئًا فارتج في البحر صاعداً فتراه تلك الحيوانات فتفزع منه وتنفر
عنه وكل من قوله اشفى وقوله يمج فاعلها ضمير اسقف وملتمس
وما بعده من الوصفين نعوت لاسقف وقوله قتلت اباه الخ اي ان
اباه هلك في حب هذه الدرة او في تحصيلها فقال هذا الغائص
اتبعه في الهلاك او استفيد مالاً كثيراً والرغبة ما يرغب فيه. وقوله
نصف النهار روي بفتح النون والصاد والفاء ونصب النهار من
قولهم نصفت الشي اذا بلغت نصفه وهو بهذه الرواية يذكر في النحوت

هذا على مجيء ضمير صاحب الحال في اخر الجملة الحالية فان الماء مبتدا وغامره خبره والجملة حال من ضمير نصف العائد الى الغائص وهذا ضعيف قليل وروي برفع النهار والجملة حال منه ولا رابط فتقدر الواو وقوله وشريكه بالغيب ما يدري وفي رواية رفيقه اي لا يعرف رفيق هذا الغائص حاله لكونه يغيب تحت الماء ومنيته هي ما يتمناه وصدفية حال من الضمير في قوله بها وقوله الا تشري اي الا تبيعها والصواري الملاحون وسجودهم لها لعزتها ونفاستها والتجر مصدر تجر يتجر تجرًا وتجارة من باب نصر فهذا بعض ما يتعلق بهذه الابيات من الشرح اما ما ذكرت من كيفية استخراج الصدف من البحر فقد رايت في بعض الكتب العربية ككتاب التيفاشي في الاحجار نحوًا منه ولكني لم اجد فيما رأيت منها كيفية استخراج اللؤلؤ من ذلك الصدف بعد اخراجه من البحر

قال يعقوب العادة في ذلك ان يفرز ما استخرجه كل واحد منهم على حدته ويترك حتى يموت الحيوان ويتعفن فيفتحون الصدف ويخرجون اللؤلؤ من جوفه وبعد ذلك يضعون اللحم في قدر ويوقدون عليه بالنار لتذوب مواده فيخرجون ما يجدونه في داخله من اللولو وجميع ما يوءخذ قبل الغلي له اناس ينظمونه في سمط او اكثر ثم يجلونه بترابه او بتراب الصدف ولاجل ترتيب اللولو على حسب تفاوت درجاته ينزلونه من غرابيل من نحاس

عيونها متفاوتة في القلة والكثرة والضيق والسعة وقد جعل لكل واحد من هذه الغرابيل نمرة على حسب ما فيه من العيون فما كانت عيونه عشرين كانت نمرته عشرين وما كانت عيونه ثلاثين كانت نمرته ثلاثين وهكذا

فاللولو الكبير الحبات الذي لا يمر من شي من هذه الغرابيل يقال له من الدرجة الاولى والذي يمر من غربال نمرته مائة فاكثر الى ثمانمائة يطلق عليه اسم الدرجة الثانية والذي يمر من نمرة الف يطلق عليه اسم الدرجة الثالثة

واما الصدف الذي يخرج من محار اللولو فهو الطبقة الباطنة للمحارة لا الظاهرة وهو ثلاثة انواع فضي وابيض واسود فالاول يجلب من الهند والصين والبيرو والثاني يكون من صخور مخضرة او حمراء والثالث من صخور زرقاء مشوبة بسواد ويكون فيه عروق حمر او زرق او خضر

واوان استخراجه من البحر في جهة سيلان شهر فبراير او شهر مارث ومدة استخراجه شهر واحد والمشتغلون باستخراجه بهذه الجهة قريب من مائتي مركب وقد تحصل منه في سنة ١٧٩٧ من الميلاد وهي سنة ١٢١٢ من الهجرة ثلاثة الاف الف وستمائة الف من الفرنكات وزاد في السنة التي بعدها نحو ثمانمائة الف فرنك ثم في ابتداء سنة ١٨٠٢ للميلاد الموافقة لسنة ١٢١٧ من الهجرة اعطي من قبل الحكومة الانكليزية لمن تعهد به في مقابلة ثلاثة

الاف الف فرنك التزامًا

وليس هذا النوع مختصًا بجزيرة سيلان بل يستخرج ايضًا في جهات متعددة مثل جهة بنجال وبحر الصين والهند والبابونيا وغيرها وبلغ مقدار ما يتحصل في الجهات الهندية في السنة الواحدة من اللولو والصدف نحو العشرين الف الف فرنك

وممن يتجر في اللولو والصدف اهل السواحل المقابلة للعجم اعني سواحل بلاد العرب قال بعضهم ان الذي يتحصل من جهة البحرين خاصة في كل سنة يقرب من ستة الاف الف فرنك وان اخراجه في هذه الجهات في شهر يوليه وشهر اغسطس وما زال اللولو في جميع الازمان عند جميع الامم مستعملاً في حليّ النساء وزينتهن وكان الرومانيون يكللون به بعض ملابسهم وتيجانهم وبعض فرشهم ويقال ان كلوباتره وضعت مرة في قدح الشراب لولوة قيمتها الف الف فرنك وخمسمائة الف فرنك

ثم سرى اتخاذه والافتخار به من الرومانيين الى المشرقيين ثم الى الاوروباويين وفي كتب التاريخ انه في سنة ١٥٧٢ للميلاد وسنة ٩٨٧ للهجرة اهدي الى فيليب ملك اسبانيا لولوة في حجم الكمثرى وانه وجد سنة ١٦٠٥ من الميلاد وهي سنة ١٠١٤ من الهجرة عند امرأة من اسبانيا لولوة بلغت قيمتها احدى وثلاثين الف بندقي وان البابا ليون العاشر اشترى من بعض جوهرية البنادقة لولوة بلغ ثمنها ثلاثمائة الف وخمسين الف فرنك وفي

القرن السابع عشر للميلاد والحادي عشر للهجرة اشترى ملك العجم لولوة بالفي الف وسبعمائة الف فرنك ويوجد عند ملك العجم الان سبحة كل حبة منها قدر حبة الجوز لا يقدر لها قيمة وكذلك عند امير مسقط لولوة لا نظير لها على وجه الارض والذي يوجب للولو ارتفاع قيمته وزيادة ثمنه كبر حجمه وحسن لونه وقد كنت سمعت في ما يسمى به الكبير والصغير منه تفصيلاً لا يحضرني الان

قال الشيخ يطلق على الكبير والصغير منه اسم الجوهر ويخص الكبير باسم الدر والصغير باسم اللؤلؤ ويسمى ايضًا الحب واللولو الدق ولولو النظم

قال يعقوب فهل للكبر والصغر فيه حد معين

قال الشيخ نعم قال التيفاشي في كتاب الاحجار كل ما زاد عن وزن درهمين ولو حبة واحدة في الجوهرة المفردة سمي في اصطلاح الجوهريين درًا فاذا نقصت في الوزن عن درهمين ولو حبة ايضًا سميت في اصطلاحهم حبًا بشرط اجتماع سائر الاوصاف الجيدة في الدرة فان كانت زنتها اكثر من درهمين ولو ثلاثة مثلاً او اكثر الاّ ان فيها عيبًا من عيوب الجوهر فانها تسمى ايضًا في اصطلاحهم حبًا ولا يعتبر وزنها مع عدم اجتماع الاوصاف الجيدة فيها والجودة في الجوهر تكون استكمال خواصه المطلوبة فيه اما من حيث الكمية فبالعِظم وكثرة الوزن واما من حيث الكيفية فبشدة

البياض وكثرة الماء والاشراق واستواء اللون واستواء استدارته وشكله واكتنازه وما لم يكن كذلك فالآفات افسدته منها انه ربما كانت الدرة لم تتم تربيتها وربما لصق بها شي من لحم الحيوان فصار كالصدى والوسخ فافسد لونها وربما كانت كدرة او كان فيها ماء او دودة او كانت مجوفة غير مصمتة وكل هذا من آفات دخلت على الدرة في مقر التربية لها واما فساد شكلها فمن قبل ان الحبة تقع في موضع من اللحم الذي في الصدفة غير مستوٍ فتتجسد الدرة على صورة الموضع الذي ضمها فجيد الجوهر في الجملة هو المدحرج اي المستدير من جميع جهاته الصافي الشفاف الكبير الجرم الكثير الوزن النقه اللون الضيق الثقب وجيد اللولو الدق هو الابيض النقي من الوسخ ثم ذكر تفصيل اثمانه على حسب ما كان قبل فقال اذا كان وزن الجوهرة مثقالاً وهي مستوفية لشرائط الجودة كانت قيمتها ثلاثمائة دينار فاذا كانت جوهرتين كل واحدة منها زنتها مثقال وهما بهذه الصفة وبشكل واحد لا يفرق بينهما في الشكل والصورة كانت قيمتها اكثر من سبعمائة دينار لاجتماعهما وتناسبهما في النظم واذا كان وزن الاثنين مثقالاً وهما بهذه الصفة كانت قيمتها مائة دينار واذا كان وزنها ثلثي مثقال كانت قيمتها خمسين دينارا ورأيت في بعض النسخ نيفًا وعشرين دينارا واذا كان وزنها نصف مثقال كانت قيمتها عشرين دينارا فاذا كان وزنها ثلث مثقال كانت قيمتها خمسة دنانير والدرة وهي التي

وزنها درهمان وحبة مثلا او حبتان كما مرّ اذا اجتمع فيها شرائط
الجودة كانت قيمتها سبعمائة دينار فان كانتا اثنتين على الصفة
المذكورة كانت قيمتها الفي دينار كل واحدة منها بالف دينار
بشرط اجتماعها بالاخرى والعقد المتعارف عند اهل بغداد خمس
وثلاثون حبة اقل ما يكون وزنه سدس مثقال وهي اربعة
قراريط قيمة عشرة عقود من هذا العقد ثلاثة ارباع دينار عقد
ربع مثقال عشرة عقود بدينار عقد ثلث مثقال عشرة عقود بدينار
وربع عقد نصف مثقال عشرة عقود بدينارين عقد ثلاثة ارباع
مثقال عشرة عقود باربعة دنانير عقد مثقال عشرة عقود بعشرة
دنانير عقد مثقال وربع بخمسة عشر العشرة عقد مثقال ونصف
بعشرين العشرة عقد مثقال ونصف وربع بخمسة وعشرين العشرة
عقد مثقالين بخمسة وثلاثين العشرة عقد مثقالين وربع باربعين
دينارا العشرة عقد مثقالين ونصف بخمسين العشرة عقد مثقالين
ونصف وربع بسبعين العشرة عقد ثلاثة مثاقيل بثمانين العشرة
عقد ثلاثة وربع بتسعين العشرة عقد ثلاثة ونصف بمائة وعشرة
العشرة عقد ثلاثة ونصف وربع بمائة وخمسين العشرة عقد اربعة
مثاقيل بمائتي دينار العشرة فان كان نهاية في الجودة والصفاء
والمائية كانت قيمة العقد الذي زنته اربعة مثاقيل كل عشرة عقود
ثلاثمائة دينار لكل عقد ثلاثون دينارا ويخرج بعقوده حينئذٍ من
باب العشرات الى باب الاحاد فتكون قيمة العقد الواحد الذي

زنته اربعة مثاقيل ونصف اربعين دينارا وعقد اربعة ونصف وربع بخمسة وخمسين دينارا وعقد خمسة مثاقيل بخمسة وستين دينارا وعقد خمسة وربع بخمسة وسبعين دينارا وعقد خمسة ونصف وربع بتسعين دينارا وعقد ستة بمائة دينار وعقد سبعة بمائة وخمسين دينارا

ويتضاعف بهذه النسبة الى اعظم ما يوجد منه في الوزن والغبطة فيه بحسب جودة اوصافه التي تقدم ذكرها وخلوه من العيوب وعيوبه التصديف وعدم الاستقرار (اي عدم الاستدارة) والصفرة والانبراص وهو فتح البياض وحصبته وعدم رونقه وسعة الثقب وصغر الجرم وقلة الوزن (اه مع تصرف واختصار)

وقد سمعنا بكثير من هذه الاحجار الثمينة كانت للملوك في الازمان الخالية قومت باموال كثيرة على نحو ما ذكرت وقد اورد الشيخ محمد بن ابي طالب الانصاري الصوفي اشياء من ذلك في كتابه نخبة الدهر في عجائب البر والبحر فمنها درة حملها مسلم بن عبد الله العراقي الى الرشيد فابتاعها منه بتسعين الف دينار وعرفت بالدرة اليتيمة لانها لم يوجد لها اذ ذاك في الدنيا نظير وكان للمتوكل سبحة فيها مائة حبة اشتريت كل حبة منها بالف مثقال قال وكان فيما اهدى ملك الهند الى كسرى جام ياقوت احمر فتحه شبر مملوء درًا قيمة كل درة الف وخمسمائة مثقال وكان لانوشروان بساط الشتاء مرصع بازرق الجوهر واحمره واصفره

وابيضه واخضره وانواع الجوهر فلما اخذ في زمن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في وقعة الفارسية حمل اليه في الفيّ فلما رآه قال ان امة ادت هذا الى اميرها لامناء ثم فرقه فوقع منه لعلي بن ابي طالب رضي الله عنه قطعة في قسمة مقدارها شبر في شبر باعها بخمسة عشر الف دينار



المسامرة الثالثة والاربعون

الدينار

فقال يعقوب الحديث شجون ارجوك ايها الاستاذ ان تمنّ بشرح لفظ الدينار ومعناه فكثيراً ما اسمعه في العربية ولا اعرفه

قال الشيخ لفظ الدينار قال صاحب القاموس وغيره انه معرب اصله دنار بتشديد النون فابدل من احدى النونين ياء

لئلا يلتبس بالمصادر ككذاب وها هنا مباحث

الاول قد ذكروا انه معرب ولم يذكروا من اي لغة عرب وقد وقع في البرهان وغيره من كتب اللغة الفارسية بالياء كما هو في العربية فيظهر كما في الاوقيانوس انه مركب من لفظتين احداها (دين) والثانية (آر) الاولى بمعنى الطاعة والحشمة والاسلوب والدولة والسلطنة والثانية بمعنى المحضر والمحصل بصيغة اسم الفاعل من احضر وحصل فيكون معنى دينار محصل ما ذكر لانه سبب تحصل ذلك

الثاني قالوا ان اصله دنار ثم قلبت النون ياء والذي في الكتب الفارسية دينار بالياء كما مر على انه فارسي وقد وجد في كتب العربية بالياء ايضًا فالظاهر انهم توهموا فيه انه عرّب على دنار بابدال الياء نونًا ثم استعملوه بقلب نونه ياء للتخفيف او اصله عربي برأسه اصله دنار ثم خفف بالابدال المذكور

الثالث الدينار قطعة مضروبة من الذهب للتعامل بها والمعتبر في مقداره شرعًا مثقال من الذهب كما هو مذكور في الكتب الفقهية في باب الزكاة وغيره وترى الفقهاء تارة يقولون في نصاب زكاة المال انه عشرون مثقالاً وتارة يعبرون بالدينار ومرادهم بالدينار والمثقال شي واحد والمثقال المعتبر شرعًا درهم وثلاثة اسباع درهم قال الطحطاوي في حاشية على شرح الدر اعلم ان الدراهم كانت في عهد عمر رضي الله تعالى عنه مختلفة

فمنها عشرة دراهم على وزن عشرة مثاقيل وعشرة على ستة مثاقيل وعشرة على خمسة مثاقيل فاخذ عمر رضي الله عنه ثلثًا كيلا تظهر الخصومة في الاخذ والاعطاء فثلث عشرة ثلاث وثلث ستة اثنان وثلث خمسة واحد وثلثان فالمجموع سبعة وان شئت فاجمع المجموع فيكون واحدًا وعشرين فثلث المجموع سبعة ولذا كانت الدراهم العشرة وزن سبعة وهذا يجري في كل شي حتى في الزكاة ونصاب السرقة والمهر وتقدير الديات (انتهى)

ورأيت للشيخ مصطفى الذهبي الشافعي المصري رسالة في تحرير الدرهم والمثقال حررها سنة ١٢٧٢ من الهجرة قال فيها اما الدرهم والمثقال فقد نصوا على انهما لم يختلفا جاهلية واسلامًا يعني ان مقدارهما في الاسلام لم يتغير عما كان في الجاهلية مما حرره اليونان فقد تعامل الناس به حين ورود الاسلام مع سكوت الشارع على ذلك فالدراهم والمثاقيل الواردة في الزكاة وغيره محمولة على ذلك وليست مبهمة خلافًا لما توهمه بعضهم ونقل ابن الرفعة في التبيان والسروجي في شرح الهداية والسيوطي في قطع المجادلة والمقريزي وعبد القادر الصوفي وغيرهم ان اليونان قدّروا الدرهم باربعة الاف ومائتي حبة من حب الخردل البري وقدروا المثقال بستة الاف حبة من ذلك فالدرهم سبعة اعشار المثقال اي نصفه وخمسه والمثقال درهم وثلاثة اسباع درهم فالعشرة دراهم سبعة مثاقيل وذلك على قياس نسبة الذهب الصافي لمثل مساحته

من الفضة الصافية فان الذهب حينئذٍ يكون اثقل من الفضة بثلاثة اسباعها كما هو معلوم . هذا كلامه والذي اعلمه من كلام ما قدمنا ذكره ان الثقل النوعي للذهب الصافي بالنسبة للماء المقطر تسعة عشر وربع وثقل الفضة الصافية ايضًا عشرة ونصف وعلى هذا يزيد وزن الذهب عن مثل مساحته من الفضة ثلثي مرة وثمن مرة تقريبًا لا ثلاثة اسباع فلو اخذنا كرة من الفضة الصافية ووجدنا وزنها مثقالاً مثلاً ثم اخذنا كرة من الذهب الصافي مثل مساحتها ووزنها لوجدنا وزنها مثقالاً وثلثي مثقال وثمن مثقال تقريبًا لا مثقالاً وثلثة اسباع فلينظر

ثم قال الذهبي وانما قاسوا على هذه النسبة لغلبة استعمال الدرهم والمثقال في النقدين مع اشتهار المثقال في الذهب والدرهم في الفضة وانما قدروا بالخردل البري لكونه نوعًا واحدًا لا يختلف خفة ورزانة كما نقله التمريزي وغيره فالتقدير به منسق مطرد بخلاف باقي الحبوب فانه مختلف فلا يصح التقدير به نعم اذا كان الحب متوسطًا في نوعه خفة ورزانة صح التقدير به كما صنع المتاخرون رومًا لقلة العدد حيث قدروا الدرهم من الخردل البستاني الاحمر المعتدل المتساوي بالف حبة ومن الشثم الهندي الاسود البالغ المعتدل المتساوي بمائة واربع واربعين حبة ومن الشعير الاعزل الملآن المعتدل بخمسين شعيرة وخمسين ومن حب الخرنوب الاصم المعتدل المتساوي بستة عشر حبة واربعة

اخماس وقاسوا المثقال على الدرهم بالنسبة السابقة وجعلوا ذلك
على وزان ما قدر به اليونان لكن لا يخفى ان المتوسط في الخفة
والرزانة انما يعلم بمراعاة اوقات الاستنبات من الفصول الاربعة
الزمنية واماكنه كما افاده ابن ابي الفتح الصوفي في رسالته تحفة النظار
في انشاء العيار وذلك قد لا يتيسر فالاقرب بل العمدة على
التحرير بالخردل البري فيوءخذ منه خمسون خردلة ويحرر بها
صنجة لخمس حبة الخرنوب ويحرر بالمجموع صنجة للخمسين وبالمجموع
صنجة لاربعة اخماس وبالصنجة الاولى والثالثة صنجة للحبة وتسمى
قيراطًا فمجموع الصنج الاربع قيراطان وخمسان وذلك سبع درهم
وعشر مثقال فيركبان على هذه النسبة كما مر فالمثقال اربعة
وعشرون قيراطًا والدرهم ستة عشر قيراطًا واربعة اخماس قيراط
والقيراط مقدار مائتين وخمسين خردلة وجعله السادة الحنفية
مقدار ثلثمائة خردلة حيث قالوا المثقال عشرون قيراطًا والدرهم
اربعة عشر قيراطًا وهو اصطلاح روعي فيه النسبة بدون كسر
فتدبر وقد حدث في عرف مصر جعل الدرهم الشرعي ستة عشر
قيراطًا والمثقال درهما ونصف درهم فيكون القيراط المصري مقدار
مائتين واثنتين وستين خردلة ونصف خردلة ويكون المثقال
مقدار ستة آلاف خردلة وثلثمائة فيزيد عن المثقال الشرعي قيراطًا
مصريًا وسبع قيراط فالمثقال الشرعي من القراريط المصرية اثنان
وعشرون قيراطًا وستة اسباع قيراط كما هو مقتضى النسبة الشرعية

ويوجد في بعض البنادقة ما هو بهذا المقدار ويسمى المشخص وقالوا انه معيار للمثقال الشرعي كما افاده الشيخ الصوفي فالمثقال المصري مثقال شرعي وربع خمسه فالعشرون من المثاقيل المصرية واحد وعشرون بالمثقال الشرعي واما الدرهم فقد علمت انه شرعي وقد حررناه على درهم الملك الاشرف المختوم بختمه المحرر على الدرهم الشرعي فوجدناه مثله (اه المراد منه)

واما عيار الدينار وقيمته فقد كنت تكلمت في ذلك مع رجل من نبهاء الصيارفة وكان يعرف باتقان لغة الفرنسيس وكثرة الاطلاع على كتبهم فقال لي نقلاً عن بعض مؤلفيهم كان عيار الدينار في الاصل عند جميع الامم عاليًا جدًا يكاد يكون ذهبًا خالصًا فقد عثر على دينار مضروب في مدينة دمشق سنة ٩٧ من الهجرة وحرر عياره في دار الضرب بمدينة باريس فوجد في عيار ٩٩٧ بالنسبة للالف يعني ٣٢/٢٢ قيراط ٢٣ ويقرب منه الدينار الذي ضرب في زمن ابن طولون فانه كان عياره ٩٩٦ وكان يعرف بالاحمدي فبين هذا العيار وعيار صنف المحبوب الذي كان يضرب بمصر مدة استيلاء الفرنسيس عليها تفاوت كبير وفرق ظاهر لانه كان عياره ٣٢/٢٤ قيراط ١٦ يعني ٦٩٨ بالنسبة للالف وقيمة الدينار الذي كان التعامل جاريًا به الى القرن الثالث من الهجرة اربعة عشرفرنكًا وواحد وخمسون سنتيمًا وذلك يساوي بالعملة الديوانية الميرية المعروفة بالصاغ (وهذا باعتبار

عياره في تلك الاوقات وهو ٩٨٧ بالنسبة للالف ووزنه بالجرام ٤٫٢٨٣ جرامًا وهو اصغر من المثقال الشرعي بجزء من سبعة وثلاثين تقريبًا فان وزن المثقال الشرعي الذي هو درهم وثلاثة اسباع درهم يساوي علي حسب ذلك ١٦ باره و٥٧ غرشًا بالعملة الديوانية المذكورة (اه)

وقد وجدت هذه القيمة قريبة مما يستنبط من رسالة الشيخ الذهبي المتقدم ذكرها فانه بين فيها مقدار نصاب الزكاة من كل نوع من انواع النقود المتداولة في مصر فقدر النصاب من الجنيهات المصرية باحد عشر ونصف وربع وهي بمبلغ ١١٧٥ غرشًا والنصاب عشرون مثقالاً من الذهب فيخص كل مثقال باره ٣٠ وغروش ٥٨ وكذلك من العملة الفرنساوية المعروفة (بالبنتو) فان النصاب منها بمقتضى الرسالة المذكورة خمسة عشر وثلث فالمثقال فيها يساوي نحو ٨٩ غرشًا وكلاهما قريب مما مر ذكره وقس عليهما غيرهما قال وقيمة المثقال من ذهب البنتو بما فيه من الاضافة تساوي الان في مدينة باريس خمسة عشر مثقالاً ونصف مثقال من فضة الريال المعروف بالشنكو بما فيها من الاضافة ايضًا والاضافة عندهم في كل من الذهب والفضة تكون بقدر العشر

وقد صدر منشور من جانب الحكومة المصرية في اوائل شهر ربيع الاخر سنة ١٢٧٥ في تعيين مقدار الدية الشرعية فقدر فيه للدينار وهو المثقال اربعون غرشًا وثلاثون فضة وخمسة جدد

وللدرهم قرش وتسع وعشرون فضة باعتبار الدرهم وهو قيراط ١٦ يزيد قيراطين عن الدرهم الشرعي وذكر فيه ان حضرات العلماء المنوطين بالافتاء في مجلس الاحكام المصرية قرروا بعد المخابرة مع ناظر دار الضرب وتحقيق الاسعار والاوزان بحسب اسعار الذهب والفضة الغالبين على المضاف ان الواجب في الدية الشرعية باعتبار الاسعار الجارية وقتئذٍ بالنظر لقيمة الغالب في الفضة اي باعتبار الثلثين من الفضة والثلث من المضاف خمسة عشر الف قرش وثلاثة وتسعون غرشاً وثلاثون فضة بالعملة المعروفة بالصاغ الديواني وذلك قيمة عشرة الاف درهم شرعي واذا اعتبرت الدية من الذهب الغالب على غيره بالمعنى المذكور في الفضة تبلغ اربعين الف قرش وسبعمائة واثنين وستين غرشاً وعشرين فضة بالعملة المذكورة وذلك قيمة الف دينار والدينار هو المثقال كما مر (اه المراد منه)

وذكر المقريزي ان قيمة النقود في السبعة القرون الاول من الهجرة اعترتها تغيرات كثيرة ومنها الدينار فكان في سنة ٣٦٢ من الهجرة يساوي خمسة عشر درهما ونصف درهم وفي زمن الحاكم بامر الله ابي علي المنصور بن العزيز كثرت الدراهم كثرة عظيمة وكثر فيها الغش فصار الدينار يبادل باربعة وثلاثين درهما وعلت اسعار الاشياء وضجر الناس من ذلك فامر بجمع الدراهم الموجودة فجمعت وضربت جديداً بعيار اعلى ما كانت عليه ونقل من دار

الضرب ٣٠ صندوقًا مملوءة دراهم جديدة ومنعت المعاملة بالقديمة وامر بردها في ثلاثة ايام فكان الناس يستبدلون الدرهم الجديد باربعة قديمة وجعلت قديمة الدينار ١٨ درهما من الدراهم الجديدة قال ولم يزل التعامل بالدينار مستمرًا بمصر وسائر البلاد الاسلامية الى مدة السلطان صلاح الدين فكانت اجرة الاجير وثمن البضائع وخراج الارض تقدر بالدنانير وكانت الدنانير المتداولة بمصر مختلفة فمنها ما كان من ضرب مصر ومنها ما كان واردًا من بلاد الروم وكانت الدنانير الواردة من الروم تعرف بالهرقلية

وكان يتعامل الناس ايضًا بالعملة المعروفة بالبندقي نسبة الى مدينة البنادقة (ونديك) من بلاد ايطاليا

وقد وجدت دنانير مضروبة في مصر باسم احمد بن طولون سنة ٢٥٤ من الهجرة وضرب القائد ابو الحسن جوهر الصقلي بمصر في زمن المعز لدين الله سنة ٣٥٨ دنانير كانت تسمى المعزية نسبة الى المعز

وضرب السلطان الناصر فرج بن برقوق سنة ٨٠٨ من الهجرة دنانير بعيار اقل مما قبله كانت تعرف بالناصرية

وكانت العرب في الاصل تتعامل بقطع من الذهب والفضة غير منتظمة الشكل بين مربع ومستدير وغيرهما ثم اختصت بالشكل المستدير في زمن عبد الله بن الزبير ايام خلافته بمكة وذلك سنة ٦٤ من الهجرة

وكان قطر الدينار القديم قدر ١٩ من الميللي متر وهو مساوٍ لقطر البندقي القديم الوارد من بلاد البنادقة والروم وبلاد الفلمنك ويساوي ايضاً قطر الفندقلي والزر محبوب

وكان يوجد على النقود من قديم الزمان صور مرسومة عليها وقيل انها بقيت كذلك في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وابي بكر وعمر ثم الى سنة ١٨ من الهجرة بدون ان يحصل فيها تغيير ما وكانت تشابه النقود الكسروية على ما ذكره المقريزي ثم اضاف اليها عمر لفظ الحمد لله في بعضها ولا اله الاّ الله في البعض ومحمد رسول الله في البعض واثبت اسمه في بعضها ايضاً

وضرب في زمن معاوية دنانير فيها رسم انسان متقلد سيفاً وكذلك ضرب في زمن عبد الملك بن مروان دنانير مؤرخة في سنة ٧٦ عليها صورة ورسم عليها في مدة الظاهر ركن الدين بيبرس في سنة ٦٥٨ من الهجرة صورة سبع وكانت تعرف بالظاهرية

ويقال ان اول من استحدث المعاملة الخالية عن الصور عبد الملك بن مروان وان الذي اشار عليه بذلك خالد بن يزيد ابن معاوية وقال له ان الملوك الذين عظموا اسم الله جل ذكره على النقود متعهم الله بطول الحياة وقال بعضهم كان السبب في ذلك ان عبد الملك المذكور كتب اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتاب ارسله الى ملك الروم فاغتاظ ملك الروم من ذلك

وارسل يلومه ويقول له ان لم ترجع عن مثل هذا كتبت اسم نبيكم على النقود بصورة تغتاظ منها فغضب لذلك عبد الملك واستشار خالد ابن يزيد فاشار عليه باستحداث نقود اسلامية للتعامل بها بدل نقود الروم (اه)

وقال في حياة الحيوان في ترجمة عبد الملك بن مروان وهو اول من ضرب الدراهم والدنانير بسكة الاسلام وكان على الدينار نقش بالرومية وعلى الدراهم نقش بالفارسية قال ولهذا سبب وهو اني رأيت في كتاب المحاسن والمساوي للامام ابرهيم بن محمد البيهقي ما نصه قال الكسائي دخلت على الرشيد ذات يوم وهو في ايوانه وبين يديه مال كثير قد شق عنه البدر شقاً وامر بتفريقه في خدمه الخاصة وبيده درهم تلوح كتابته وهو يتامله وكان كثيراً ما يحدثني فقال هل علمت اول من سن هذه الكتابة في الذهب والفضة قلت ياسيدي هو عبد الملك بن مروان قال فما كان السبب في ذلك قلت لا علم لي غير انه اول من احدث هذه الكتابة فقال سأخبرك كانت القراطيس للروم وكان اكثر من بمصر نصرانياً على دين ملك الروم وكانت تطرز بالرومية وكان طرازها اباً وابناً وروحاً فلم يزل ذلك كذلك صدر الاسلام كله يمضي على ما كان عليه الى ان ملك عبد الملك بن مروان فتنبه له وكان فطناً فبينما هو ذات يوم اذ مر به قرطاس فنظر الى طرازه فامر ان يترجم بالعربية ففعل ذلك فانكره وامر بالكتاب الى عبد

العزيز بن مروان وكان عامله بمصر بابطال ذلك الطراز على ما
كان يطرز به من ثوب وقرطاس وستر وغير ذلك وان يامر
صناع القراطيس ان يطرزوها بصورة التوحيد شهد الله انه لا
اله الاّ هو قال وهذا طراز القراطيس خاصة الى وقتنا هذا لم
ينقص ولم يزد ولم يتغير وكتب الى عمال الافاق جميعاً بابطال
ما في اعمالهم من القراطيس المطرزة بطراز الروم ومعاقبة من وجد
عنده بعد هذا النهي شي منها بالضرب الوجيع والحبس الطويل
فلما ثبتت القراطيس بالطراز المحدث بالتوحيد وحمل الى بلاد
الروم منها انتشر خبرها ووصل الى ملكهم وترجم له ذلك الطراز
فانكره وغلظ عليه واستشاط غيظاً فكتب الى عبد الملك ان عمل
القراطيس بمصر وسائر ما يطرز هناك للروم ولم يزل يطرز بطراز
الروم الى ان ابطلته فان كان من تقدمك من الخلفاء اصاب فقد
اخطأت وان كنت قد اصبت فقد اخطاؤا فاختر من هاتين
الحالتين ايتهما شئت واحببت وقد بعثت اليك بهدية تشبه محلك
واحببت ان تجعل رد ذلك الطراز الى ما كان عليه في جميع ما
كان يطرز من اصناف الاعلاق حاجة اشكرك عليها وتأمر بقبض
الهدية وكانت عظيمة القدر فلما قرأ عبد الملك كتابه رد الرسول
واعلمه انه لا جواب له ورد الهدية فانصرف بها الى صاحبه فلما
وافاه ضعّف الهدية ورد الرسول الى عبد الملك وقال اني ظننتك
استقللت الهدية فلم تقبلها ولم تجبني على كتابي فاضعفت الهدية واني

ارغب اليك الى مثل ما رغبت فيه من رد الطراز الى ما كان عليه اولاً فقراء عبد الملك الكتاب ولم يجبه ورد الهدية فكتب اليه ملك الروم يقتضي اجوبة كتبه ويقول انك قد استخففت بجوابي وهديتي ولم تسعفني بحاجتي فتوهمتك استقللت الهدية فاضعفتها فجريت على سبيلك الاول وقد اضعفتها ثالثة وانا احلف بالمسيح لتأمرنّ برد الطراز الى ما كان عليه او لآمرن بنقش الدنانير والدراهم فانك تعلم انه لا ينقش شي منها الا ما ينقش في بلادي ولم تكن الدراهم والدنانير نقشت في الاسلام فينقش عليها شتم نبيّك فاذا قرأته ارفض جبينك عرقًا فاحب ان تقبل هديتي وترد الطراز الى ما كان عليه ويكون فعل ذلك هدية تودني بها وتبقى على الحال بيني وبينك فلما قرأ عبد الملك الكتاب صعب عليه الامر وغلظ وضاقت به الارض وقال احسبني اشأم مولود ولد في الاسلام لاني جنيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم من شتم هذا الكافر ما يبقى غابر الدهر ولا يمكن محوه من جميع مملكة العرب اذ كانت المعاملة تدور بين الناس بدنانير الروم ودراهمهم فجمع اهل الاسلام واستشارهم فلم يجد عند احد منهم رأيًا يعمل به. فقال له روح بن زنباع انك لتعلم المخرج من هذا الامر ولكنك تتعمد تركه فقال ويحك من فقال عليك بالباقر من اهل بيت النبي صلى الله عليه وسلم قال صدقت ولكن ارتج عليّ الرأي فيه فكتب الى عامله بالمدينة ان اشخص اليّ محمد بن علي ابن الحسين

مكرمًا ومتعه بمائة الف درهم لجهازه وبثلثمائة الف درهم لنفقته
وحبس الرسول عنده الى موافاة محمد بن علي فلما وافاه اخبره
الخبر فقال له محمد رضي الله عنه لا يعظم هذا عليك فانه ليس
بشي من جهتين احداهما ان الله عز وجل لم يكن ليطلق ما تهدد
به صاحب الروم في رسول الله صلى الله عليه وسلم والاخرى وجود
الحيلة فيه قال وما هي قال تدعو في هذه الساعة بصناع فيضربون
بين يديك سككًا للدراهم والدنانير وتجعل النقش عليها صورة
التوحيد وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم احدهما في وجه
الدرهم والدينار والاخر في الوجه الثاني وتجعل في مدار الدرهم
والدينار ذكر البلد الذي يضرب فيه والسنة التي تضرب فيها تلك
الدراهم والدنانير وتعمد الى وزن ثلاثين درهمًا عددًا من الاصناف
الثلاثة التي العشرة منها وزن عشرة مثاقيل وعشرة منها وزن
ستة مثاقيل وعشرة منها وزن خمسة مثاقيل فتكون اوزانها جميعًا
واحدًا وعشرين مثقالاً فتجزئها من الثلاثين فتصير العدة من
الجميع وزن سبعة مثاقيل وتصب صنجات من قوارير لا تستحيل
الى زيادة ولا نقصان فتضرب الدرهم على وزن عشرة والدنانير
على وزن سبعة مثاقيل وكانت الدراهم في ذلك الوقت انما هي
الكسروية التي يقال لها اليوم البغلية لان راس البغل ضربها لعمر
رضي الله عنه بسكة كسروية في الاسلام مكتوب عليها صورة
الملك وتحت الكرسي مكتوب بالفارسية (نوس خور) اي كل

واشرب وكان وزن الدرهم منها قبل الاسلام مثقالاً والدراهم التي كان وزن العشرة منها ستة مثاقيل والعشرة وزن خمسة مثاقيل هي السمرة الخفاف والثقال ونقشها نقش فارس ففعل ذلك عبد الملك وامره محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه ان يكتب السكك في جميع بلدان الاسلام وان يتقدم الى الناس في التعامل بها وان يتهدد بقتل من يتعامل بغير هذه السكة من الدراهم والدنانير وغيرها وان تبطل وترد الى مواضع العمل حتى تعاد الى السكك الاسلامية ففعل عبد الملك ورد رسول ملك الروم اليه بذلك يقول انه عز وجل مانعك مما اردت ان تفعله وقد تقدمت الى اعمالي في اقطار البلاد بكذا وكذا وبابطال السكك والطروز الرومية فقيل لملك الروم افعل ما كنت تهددت به ملك العرب فقال لا انما اردت ان اغيظه بما كتبت اليه لاني كنت قادرًا عليه والمال وغيره برسوم الروم فاما الان فلا افعل لإن ذلك لا يتعامل به اهل الاسلام وامتنع من الذي قال وثبت ما اشار به محمد بن علي بن الحسين رضي الله عنه الى اليوم ثم رمى يعني الرشيد الدرهم الى بعض الخدم (اه مع يسير تصرف)

قال وفي مراة الزمان وجد عبد الملك بن مروان في سنة ٧٥ من الهجرة دنانير مضروبة من مدة اربعمائة سنة من قبله مكتوب عليها اسم الاب والابن والروح فضربها دنانير جديدة ضرب عليها اسم الله ورسوله وبعض ايات من القران ومن ذلك

الوقت صار الذي يكتب على النقود عبارات من القران او الحديث
او غيرها من العبارات الاسلامية وقد وجد دينار اسلامي قديم
فوجد في احد وجهيه ثلاثة اسطر تحت بعضها هذه صورتها



وعلى الوجه الاخر هكذا



ولم يذكر اسم البلدة التي ضرب فيها ولا الملك الذي ضرب

في مدته وذلك التاريخ يوافق مدة سليمان بن عبد الملك ابن مروان وهكذا كانت الدنانير المضروبة في مصر الى القرن الثالث من الهجرة ولم يزل ينقش على الدنانير اسم الله ورسوله صلى الله عليه وسلم الى القرن السابع من الهجرة ثم بطل ذلك وصار لا يرسم الاّ اسماء الملوك والقابهم واسماء البلاد ويقال ان ذلك كان في زمن السلطان مراد بن اورخان سنة ٧٦١ من الهجرة ولعل هذا كان بالنظر الى ان الدينار او الدرهم ربما يقع على الارض او يقع في يد من يتهاون بصيانة ما عليه من الاسماء الشريفة والآيات القرآنية فاختير تنزيهها عن نقشها على النقود ويقال ان اول من وضع اسمه على النقود هو ابو جعفر المنصور العباسي في سنة ١٥٢ من الهجرة

فهذا ما حضرني الان مما يتعلق بالدينار الذي جرنا اليه مبحث اللؤلؤ والمحار وهو مبحث ظريف قطعنا به معظم الطريق من غير سآمة ولا ملل فان كان عندك فيه مزيد فاتحفنا به لنقطع فيه ما بقي من مسافة الطريق .



المسامرة الرابعة والاربعون

دود الخشب وغيره

فقال يعقوب الكلام على المحار طويل حتى انه افرد بالتأليف وانواعه كثيرة جدًا وقد رايت ذات يوم بساحل البحر شيئًا مغروزًا في الرمل على هيئة المئبر الذي تضع فيه النساء الابر فسالت عنه رجلًا من اهل تلك الجهة فاخبرني انه نوع من المحار من عادته ان يحفر جحره في الرمل ويعمقه بقدر مترين فاكثر وله رجل مخروطية غليظة في اخرها استطالة يتيسر له بواسطتها ان يرتفع الى فم جحره مع كمال السهولة فاذا احس بادنى شي رجع في الحال وكمن في جحره بحيث لا يظهر منه شي البتة

ومن غريب امره انه عند جزر البحر (اي انحساره) عن الشاطئ يعرف جحره بخروق صغيرة في الرمل يخرج منها فقاقيع من الماء فاذا نزل في البحر واراد العود الى جحره اهتدى اليه بها واذا اراد الصيادون ان يخرجوه من جحره ليصطادوه وضعوا فوق

فم الحجر قبضة من الملح فيخرق ذلك الحيوان الرمل ويخرج من محل اخر فيسارعون الى القبض عليه فانه ان افلت منهم وفاتهم لا يقدرون عليه بهذه الحيلة مرة ثانية وشكل هذا الحيوان كشكل محار اصطواني وله في نهاية غشائه فتحتان احداهما يمتص بها الماء اللازم لاستخراج ما فيه من اكسجين الهواء المتخلل بين جواهره والثانية يقذف بها ذلك الماء بعد استخلاص الاكسجين منه ومن هذا الجنس من المحار نوع يحفر جحره في الارض في اي موضع اراد منها سواء كان في الطين او الحجر او الصوان او الرخام لا يبالي بصلابة الارض مهما كانت ولهذا يسمونه لغمي الاحجار تشبيهاً له بمن يقطع الاحجار بالبارود بالكيفية المعروفة باللغم وهذا الحيوان يمكث طول حياته في ظلمة جحره ولم يعلم احد كيفية حفره ولا رضاه بهذا الحبس مدة حياته

وفي هذا النوع بعض طول وغلظ وله في غشائه فتحتان ايضاً احداهما دقيقة يخرج منها قضيب ذو شعبتين احداهما يمتص بها الماء اللازم لاستخراج اكسجين الهواء المتخلل بين جواهره وهي مادة غذائه والثانية يقذف بها هذا الماء بعد اخذ خواصه كالذي قبله واما الفتحة الثانية وهي اغلظ من الاولى فيخرج منها رجله وهي قصيرة غليظة واهل تلك الجهات ياكلونه نيئاً من غير كراهية ويعدونه من مستلذات ماكلهم ولهذا النوع في الظلمة لمعان وضوء كهربائي يشاهد في الليل حتى اذا اكله احد من الناس ليلاً شوهد

على فمه هذا الضوء الكهربائي وبالجملة فحيوانات البحر تجل عن الحصر فمنها نوع يعرف عند البحارة بدود الخشب لانه يالف الخشب الذي يكون في الماء فياكله كما ياكل دود البر خشب البر وقد شوهد هذا الحيوان يخرق الخشب المغطى بالماء ايا كان لا يبالي بصلابته بالغة ما بلغت ويسلك في داخل هذه الاخشاب في طرق مختلفة فتارة تكون تابعة لاتجاه الياف الخشب وتارة تكون مقاطعة لها على انحاء مختلفة ومع كل ذلك لا يرى على ظاهر الخشب ادنى تلف ولا تغير

وقد شوهد ان الواحد من هذا الحيوان متى عارضه في طريقه مانع يمنعه من التمادي والاستمرار فيه عدل الى غيره بحيث لا يختلط طريقه بطريق غيره وبهذه الكيفية يتلف باطن الخشب ويفرغ جوفه بالكلية مع بقاء سطحه الظاهري سليما لا يرى فيه اثر فان كان ذلك الخشب حاملاً لشيء من الاثقال كالعمد والخوازيق التي توضع في اس المباني المائية كالقناطر والارصفة ضعف بحكم الضرورة عن حملها ومقاومة ثقلها فيندق ويسقط بما عليه وقد شوهد تلف كثير من السفن بسبب هذا الحيوان

وفي القرن العاشر من الميلاد كادت مملكة الفلمنك تتلف بسبب فعل هذا الدود فانه اكل الخشب الموضوع في الجسور المعمولة لمنع ماء البحر الملح عن ارض الزراعة حتى كادت تضمحل وتزول بالكلية ويحل بالبلاد واهلها الحرب والويل والعطب

فترتب على ذلك صرف اموال كثيرة في تقوية الجسور وتجديد الخشب

وقد راوا في هذا النوع كراهة طبيعية لصداء المعادن كالحديد والنحاس فمتى كان في الخشب شي ما ذكر لم يوثر فيه فلما علم الناس ذلك منه صاروا يضعون في الخشب الذي يكون في الماء مسامير غليظة ويكسون السفن بالنحاس احتراساً منه وهذا الحيوان ايضاً من جملة انواع المحار وهو كدودة طويلة في داخل محارة ذات فلقتين تكسو جميع بدنه ويتناسل هذا النوع بالبيض كباقي المحار وبيضه كروي الشكل ولونه اصفر يضرب الى الخضرة ويكون في اول امره كديدان صغيرة وبعد قليل من الزمن يظهر له شعر دقيق يسبح به في الماء فاذا عثر بخشبة تعلق بها وثقبها ودخل في جوفها فيكبر فيها شيئاً فشيئاً ويكسى بالمحار فبلوغه الى غايته واستكمال آلاته يكون في داخل الخشب لا خارجه ولهذا النوع كغيره خصائص وكيفيات يطول شرحها ويتسع القول في عدها وهناك نوع من الحيوان المائي غريب له عادة عجيبة وذلك انه يتحايل على المحار بكل حيلة حتى ياكل ما في جوف المحارة من الحيوان ثم يسكن فيها ويسير بها الى حيث يشاء ويتقي بها شر عدوه كما يتقي المقاتل بدرعه ويتحصن بحصنه وهناك نوع اخر كالدود ايضاً لطيف الطبع ذو احساس ومن شانه ان يجعل لنفسه وقاية تقيه عوارض الجو فيعمد الى الاقمشة فيجعل له في

سمكها مسكنًا يحيط به مع كمال الاحكام والضبط وكلما كبر وسع في مسكنه وستر جسمه من غير ان يشعر احد به فاذا اراد احد كشفها وازال عنها ما صنعته من بيتها صنعت غيره في الحال مع كمال السرعة

ومن عجيب امر هذا النوع انه لو وضع على قطعة من القماش ذات الوان مختلفة عمل بيته بلونها فيكون مركبًا من قطع ذات الوان كالوان اصله وهذه الدودة هي المعروفة بارضة الجوخ واذا ماتت خرج منها حيوان ظريف الشكل بهيج المنظر ذو جناحين يطير بهما وهو من انواع الحيوان الذي يقال له عند العامة ابو دقيق وهناك ديدان مائية لا تكتفي بثوب رقيق كما اكتفت الارضة بل تعمل لها مسكنًا من مواد صلبة كالرمل والخزف وتبنيه بمواد معروفة لها وقد تبنيه من صغير المحار او من بعض حشائش تقطع اطرافها وتلفها على نفسها لفًا محكمًا وتسير بها في قاع مجاري المياه العذبة

واغرب من هذا كله دودة الرصاص وهي دودة صغيرة تثقب الرصاص حتى اذا وصلت من عمقه الى ما يكفي لسكناها سكنت وسكتت وكثيرًا ما وجدت هذه الدودة ساكنة في الرصاص الموضوع في خراطيش البارود العسكرية وقد تاكل الصفائح المعدنية التي توضع على السقف في البلاد الباردة

وبالجملة فانواع الحشرات الصغيرة واوصافها وطبائعها

واشكالها شي كثير وشرحه يطول

وكان قد وصلا الى محلهما فقال يعقوب وها نحن قد وصلنا واظنك تريد ان تستريح فان شئت اخرنا الكلام في هذا المقام الى وقت اخر فقام الشيخ الى محله فراى ان الانكليزي وولده لم يحضرا بعد فجلس برهة ثم قال ليعقوب لقد قطعنا المسافة في عجائب درسناها وغرائب سردناها وهو اولى من التكلم في ما لا يعني من امر زيد وعمرو وقد اتحفتني بما شرح خاطري وسرني كثير السرور فاني اميل بمجامع قلبي الى النظر في مخلوقات الله سبحانه وبدائع قدرته الباهرة وعجائب صنعته الزاهرة اذ بذلك يعيش الانسان عارفًا بربه مفوضًا اليه جميع اموره بقالبه وقلبه فيرضى عنه ربه ويعطف عليه قلب كل من رآه فيحبه وقد تذكرت بما ذكرت لي من دود الخشب دابة الارض التي اكلت منساة نبي الله سليمان عليه السلام فانه حين توفاه الله كان متوكئًا عليها فبقي كذلك حتى اكلت هذه الدابة منساته فسقط على الارض فعلم موته

فقال يعقوب ما معنى المنساة وما هذه الدابة وما فعلها

فقال الشيخ المنساة العصا والدابة في الاصل كل ما دبّ على الارض ولكن لما كان فعل هذه كله في الارض اضيف اليها فقيل دابة الارض والمراد بها الارضة وهي دويبة صغيرة قدر نصف العدسة تاكل الخشب والورق فاذا مضى لها من العمر سنة نبت لها جناحان تطير بهما والنمل عدوها وهو اصغر منها فياتيها من

خلفها فيحملها ويمشي بها الى حجره واذا اتاها مستقبلاً لا يقاومها لانها تغلبه ومن شان هذه الدابة انها تبني لنفسها بيتًا حسنًا من عيدان تجمعها مثل بيت العنكبوت مخروطًا من اسفله الى اعلاه وله في احدى جهاته باب مربع ومنه تعلمت الاوائل وضع النواويس لموتاهم

المسامرة الخامسة والاربعون

دود القز

ومن عجيب هذه الحيوانات الصغيرة دودة القز وهي ايضًا في اخر عمرها تصير طائرًا ذا جناحين على نحو ما ذكرت في ارضة الجوخ ويقال لدودة القز المذكورة الدودة الهندية ايضًا ومن بديع امرها انها تكون اولاً مثل بزر التين ثم تكون دودًا والظاهر ان هذا البزر بيض في داخله هذا الحيوان فاذا جاء ابانه تحرك وخرج

من البيض ودب على الارض وذلك في اوائل فصل الربيع ويكون هذا الدود عند خروجه شبيه الذر في قدره ولونه ويخرج في الاماكن الدفيئة اذا كان مصروراً في حق بغير حضن وربما تاخر خروجه فتجعله النساء تحت ثديهن فيخرج فاذا اخرج اطعم ورق التوت ويقال انه احسن غذاء له واحسنه ورق التوت الابيض وقد عرف بالتجربة ان مقدار عشرة دراهم من البزر يحتوي على اربعين الف دودة وعند اول خروجه من البزر يكفيه من ورق التوت من ١٦ درهما الى ٣٠٠ درهم ثم انه ينمو جسمه ويعظم بالتدريج حتى يصير قدر الاصبع وكلما كبرت الدودة وازداد حجمها زاد اكلها حتى يصل ما ياكله في اخر الامر الى نحو مائة وسبعين اقة في اليوم الواحد وفي اثناء ذلك يغير هذا الحيوان جلده اربع مرات في نحو اربعين يوماً وعند تغيير جلده في كل مرة منها يمرض ويقل اكله ويكون في حالة خدر وضنك وضجر وكانما ضاق عليه جلده وصار لا يسعه فاذا اراد نزعه اخرج من جوفه طرف خيط من الحرير يثبته في شي مما بجانبه ويتمسك به فينزع جلده ويخرج منه كما يخرج الانسان من ثوب ضيق عليه وحينئذٍ يفيق ويستريح ويعود لحالة النماء والاستكثار من الغذاء حتى ياتي وقت نزع الجلد الثاني بعد نحو اربعة ايام فيعاوده الضعف ويفعل فعله السابق حتى ينزعه ويخرج منه وهكذا حتى ينزع جلده الرابع وحينئذٍ يكون قد بلغ اشده وامتلا جوفه من

مادة الحرير فياخذ في النسج على نفسه بما يخرجه من فيه وفي هذا الوقت يكون لونه ابيض وجسمه عبارة عن عدة حلقات يرى في الاخيرة منها شي يشبه القرون ولا يزال يلف خيطه على نفسه في نحو ثلاثة ايام او اربعة الى ان ينفذ ما في جوفه ويكمل عليه ما ينيه حتى يصير كهيئة الجوزة ويبقى فيه محبوسًا قريبًا من عشرة ايام ثم يثقب عن نفسه تلك الجوزة بواسطة مائع يخرجه ويصيب به طرف الخيط من الداخل فيلين ويسهل عليه قطعه فيقطعه ويخرج من الجوزة في صورة فراش ابيض او ازرق له جناحان لا يسكنان من الاضطراب وقد يكون ما ينسجه على نفسه نحو ثلثمائة متر وعند خروجه يهيج الى السفاد فيبحث الذكر على الانثى ويسافدها فيلصق موخره بموخرها ويلتحمان مدة ثم يفترقان وعند ذلك يكون قد فرش له خرقة بيضاء فتنشر الانثى عليها البزر الذي تقدم ذكره وهو بيضها وتبيض منه الواحدة نحو خمسمائة بيضة وفي عقب ذلك يموت كل من الذكر والانثى ويفعل بالبزر كما تقدم وهكذا

هذا اذا اريد البزر فان اريد الحرير ترك في الشمس يومًا او بعض يوم وذلك بعد فراغه من النسج بعشرة ايام فيموت وهو سريع العطب ويقال انه يخشى عليه من الفار والعصفور والنمل والوزغ وكثرة الحر والبرد وقد الغز فيه بعض الشعراء فقال

وبيضة تحضن في يومين * حتى اذا دبت على رجلين

واستبدلت بلونها لونينِ ✲ حاكت لها خبا بلا نيرين
بلا سماء وبلا بابينِ ✲ تثقبه من بعد ليلتينِ
فخرجت مكحولة العينينِ ✲ قد صبغت بالنقش حاجبينِ
قصيرة ضئيلة الجنبينِ ✲ كانها قد قطعت نصفينِ
لها جناح سابغ البردينِ ✲ ما نبتا الاّ لقرب الحينِ
ان الردى كحل لكل عينِ

قال ابو طالب المكي في كتابه قوت القلوب وقد مثل بعض الحكماء ابن آدم بدود القز لا يزال ينسج علي نفسه من جهلة حتى لا يكون له مخلص فيقتل نفسه ويصير القز لغيره وربما قتلوه اذا فرغ من نسجه لان القز يلتف عليه فيريد الخروج منه فيشمس وربما غمز بالايدي حتى يموت لئلا يقطع القز ليخرج القز صحيحًا فهذه صورة المكتسب الجاهل الذي اهلكه اهله وماله وتنعم ورثته بما شقي هو به وقد اشار الى ذلك ابو الفتح البستي بقوله

ألم ترَ ان المرء طول حياته
معنًّى بامر لا يزال يعالجُهُ
كدودٌ كدودِ القز ينسجُ دائمًا
ويهلك غما وسطَ ما هو ناسجه

وقال اخر

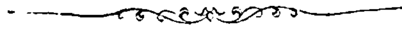
يفني الحريص بجمع المال مدته
وللحوادث ما يبقي وما يدَعُ

كدودة القز ما ببنيه يهلكها
وغيرها بالذي تبنيه ينتفعُ

قال ناقل الحديث فاظهر يعقوب علامة الاستحسان لما سمعه ثم قال قد انتشر في اقطار الارض مادة تربية هذه الدودة وصارت متداولة عند كثير من الامم وان كانت كيفياتها مختلفة وقد اشتهرت صناعة الحرير في بلاد اوروبا اشتهاراً كبيرًا واتسعت اتساعًا وصل الى غاية عظيمة وتنوعت كيفية عمله تنوعًا كثيرًا وصار يصنع خالصًا ومخلوطًا بغيره من القطن والصوف وغيرها ومطرزًا بالقصب والفضة والذهب في انواع من التحسين والنقش والتزيين وكثرت الانوال لعمله كثرة مفرطة حتى انه يوجد في مملكة فرانسة من الانوال مقدار مائتين وخمسين الفًا ويبلغ قيمة المتحصل فيها من الحرير منسوجًا وغير منسوجٍ نحو (٦٤٠) مليون من الفرنكات ويبلغ في بلاد الانكليز نحو مائتين وخمسين مليونًا فاذا اضيف الى متحصل بلاد الانكليز ما يتحصل في غيرها من ممالك اوروبا كان مجموع ذلك قريبًا مما يتحصل في مملكة فرانسا من هذا الصنف فهي اعظم الممالك في صناعته وان كانت لوندرة اكثر منها في تجارته

واول تربية هذه الدودة كان عند اهل الصين قبل ميلاد المسيح بنحو الفي سنة وعنهم اخذ غيرهم من سائر الناس واول من اخذ عنهم اهل الهند ومنهم انتشر ولعل هذا هو السبب فيما ذكرت من تسميتها بالدودة الهندية ثم اخذها العجم عن اهل الهند فحسنوها

وانقنوا صناعتها ووسعوا دائرتها ثم تعلمها اهل القسطنطينية وذلك في اواسط القرن السادس من الميلاد ثم اهل ايطاليا في القرن الثاني عشر منه ولم تعلم كيفيتها لاهل فرنسا الاَّ في القرن الثالث عشر



المسامرة السادسة والاربعون

ابو دقيق

قال الشيخ قد بلغني ان في حشرات الارض غير ما خضنا في حديثه من دودة القز وارضة الجوخ حيوانات اخر تنتقل من صورة الى صورة وبودي لو عرفت كيفية ذلك فان كان عندك في هذا المعنى مزيد شرح فهاته غير مامور فاني كثير الشغف بمعرفة امثال هذه الامور

فقال يعقوب اني مثل حضرتكم اميل بكليتي لمعرفة احوال افراد المخلوقات ولذلك قضيت اكثر عمري في قراة كتب التاريخ الطبيعي ورسائل كثيرة من هذا القبيل لاستفيد نتائج مشاهداتهم واجني من ثمرات معلوماتهم فوجدت في ذلك فوائد كثيرة وتخلصت به من ضياع الوقت في الكسل والبطالة والقيل والقال والنزاع والجدال

وغاية العلم في هذه المادة ان الحيوان يخلق اولاً في صورة ثم يتغير وينقلب الى صورة ثانية ثم الى ثالثة وليس التغير خاصاً بالصورة بل يعتري الطباع والاحوال ايضاً حتى لا يبقى فيه شي من احواله وطباعه الاولى فتراه يكون في اول مرة كدودة قذرة قبيحة المنظر راسية في قاع البحر مستورة بما في قراره من الوحل والطين فاذا انقضى الوقت المعين لهذه الحالة واراد الانخراط في سلك الحيوانات الهوائية علا على سطح الماء وتعلق بغصن من نباته فعند ذلك يتخلى عن ثوب الديدان ويتحلى بكسوة ظريفة الشكل وصورة بهية المنظر كثيرة الالوان ذات اجنحة كاللؤلؤ والمرجان فيطير بها في الهواء الى حيث يشاء فانظر كيف خرجت هذه الدودة المائية عن ذاتها الاولية الى صفة الحيوانات الهوائية وبتغير صورتها كما ذكر تتغير جميع طباعها واحوال معيشتها واحتياجاتها وسائر حالاتها وبعد ان كان غذاؤها ما في قاع البحر من الحشيش ترعاه دائماً ولا تمله ولا تستغني عنه صارت لا تهواه

ولا تقربه كما انها بعد ان قضت مدة حياتها الاولية تحت الماء في الطين صارت لا تحب الاّ فضاء الجو ونسيم الهواء تمرح فيه وتعيش به ولا تالف المكث تحت الماء بل لا تطيقه ولا تقدر عليه حتى لو كلفت ان تقيم تحته لحظة لهلكت في الحال فلا مناسبة بين حالتها الثانية وحالتها الاولية وكذلك امثالها من الحيوانات التي تتغير طباعها واشكالها فان الحيوان ذا الاجنحة الزمردية الذي تسميه العوام بالجعران وكان المصريون يعظمونه اصله من دودة تدب في بطن الارض لا نسبة بينه وبينها بوجه من الوجوه

وكان الاقدمون يجهلون ذلك الى زمن ارسطو وهو اول من فتح باب البحث في هذه المسالة الاّ انه تكلم فيها بالظن والحدس واستمر الامر على ذلك الى هذه القرون الاخيرة فنظر فيها كثير من الحكماء ومشاهير الطبيعيين فظهر ان الحيوان من هذا القبيل حين تخلقه يكون مجردًا عن الاجنحة في هيئة دودة صغيرة ثم ياخذ في الكبر وازدياد الحجم ياكل بعض الحشيش وغيره من المواد الارضية حتى اذا بلغ درجة معلومة من العمر لبس غير ثوبه وعدم الحركة بالكلية وصار في مقره كانه قد مات ودفن في قبره فيبقى كذلك مدة تنعدم فيها جميع الاحوال الدودية بتدبير الهي لا علم لاحد به ثم يظهر بعد ذلك في صورة اخرى ذات جناحين كالحيوان المعروف عند العامة بفرقع لوز وقد شوهد ان الدودة في حال انقطاع حركتها ولبثها بمقرها تكون كقطعة عجين ماتفة

في مادة زرقاء تكون لها كالكفن لرم الموتى التي ترى في قبور الاقدمين من المصريين فاذا جاء الوقت المعين خرقت هذا الكفن وخرجت منه وصارت في الصورة الجديدة ومن الغريب ان هذا الحيوان يخرج من بيته الضيق الذي صار قبراً له من غير ان يحصل لاعضائه الدقيقة ادنى خلل

وكثيرا ما يكون هذا القبر مركبًا من ثلاث طبقات الاولى مركبة من مواد موضوعة بحيث ينزلق المطر من فوقها والثانية من مواد الطف من الاولى شديدة الامتزاج ببعضها وهي لوقاية الجسم من العوارض الجوية والثالثة هي الثوب او الكفن الذي تقدم ذكره

ومن نظر في الحيوان المعروف بابي دقيق وتتبع احواله وإشكاله وجده يتغير ثلاث مرات ينقلب فيها الى ثلاث حالات ليس بين واحدة منها وبين الاخرى مشابهة البتة حتى يظن انه يموت ويحيي ثلاث مرات مع انه في الواقع ونفس الامر ليس كذلك وانما يعتريه سكون تام يتعطل فيه عن الحركة الظاهرة مدة من الزمن تشتغل فيها القوة الحيوانية بواسطة آلاتها الخفية بالانتقال من الصورة الحالية الى الصورة الجديدة فالدودة من اصل خلقتها مشتملة على جميع ما يلزم للصور التي تحول لها وتنقلب اليها فكأنما هي في ثلاثة اثواب مختلفة الهيئات بعضها فوق بعض فتشق الواحد منها وتخرج منه فتظهر بهيئة ما تحته فتبقى فيه ما شاء الله ثم

تخرج منه وهكذا حتى تظهر في الهيئة الاخيرة فتبقى عليها الى ان تموت بها وبعض الحشرات لا يظهر عليه عند تغيير صورته ما قدمنا ذكره من السكون وترك الحركة ولا تعتريه كل هذه التغييرات والتبديلات وانما ينتقل من صورة الى غيرها بتمدد اعضائه وكبرها مع التقدم في السن وبعضها يتنقل الى عدة صور يدخل فيها على التوالي من غير ان تظهر عليه حالة السكون المذكورة وانما تعلم صورته الدودية بعدم وجود الاجنحة وذلك كالحيوان المعروف بالبق

ومن الديدان المائية ما يبقى سنين عديدة على حالة واحدة ويتغذى بما في مستقر المياه من القاذورات ورمم الاسماك فاذا تحول الى الصورة الاخيرة وظهر في تلك الهيئة اللطيفة لا يعيش الاَّ زمنًا قليلاً لا يزيد عن نصف ساعة ثم يموت بعد ان تبيض الانثى منه بيضها

فمن تامل في هذه الحيوانات وهي في مستقرها او راها وهي مستورة بكفنها في قبرها ونظر تعدد اشكالها والوانها وصورها واختلافها في كبرها وصغرها وانعم النظر فيما تظهر به وتنجلي فيه من المنظر البهج والكسوة الفاخرة المطرزة بما يفوق وصف الواصف ويستوقف نظر الناظر ويزدري برونق الدرر والجواهر من النقوش الغريبة بالالوان العجيبة اذعن بالربوبية لخالقها ومبدعها القادر العظيم المدبر الحكيم وخضع لجلال عزه وعظمته وتبرأ من علمه

وحوله وقوته فما معلومات الانسان ولو امتد به الزمان بالنسبة لمعلومات الله سبحانه الا كنسبة المعدوم الى الموجود فكيف يطلع على كنه هذه الاسرار او يستخرج جوهر هاتيك البحار الا ان امده الله باعانته وشمله بحسن عنايته



المسامرة السابعة والاربعون

النحل

ومن قبيل ما نحن بصدده من الحيوانات المذكورة النحل الذي نشاهده ونجني منه الشهد فانه كذلك في اول مرة يكون دودة صغيرة ثم يكبر وبعد ذلك ينقلب الى الصورة المعلومة وله في ترتيب بيته وتدبير معيشته ونظام اموره ما يقضي بالعجب العجاب وهو انواع منها ما يالف الاجتماع على بعضه فيتالف منه جموع

كثيرة تشترك في المأوى والمعيشة وقد يجتمع في الخلية الواحدة نحو ثلاثين او اربعين الفًا ولا يزيد عن ذلك الاَّ نادرًا ومنها ما يالف الانفراد والاعتزال فيكون متفرقًا منعزلاً بعضه عن بعض ونحلة العسل يكون جسمها ازرق اللون كانه مركب من ست حلقات او عقد في الاخيرة منها حمتها (وهي الابرة التي تلسع بها المعروفة في لسان العامة بالزبان) وفي فمها خرطوم طويل تمتص به من الازهار ما تحتاجه لعمل العسل وعند سكونها تغطيه براسها وفي رجليها شي يشبه الفرشة تاخذ به من نبات الارض ما يلزم لبناء بيت العسل وهو الشمع

واذا نظرت الى النحل في تدبير احواله المنزلية واحكامه السياسية تراه كرعية سلطنة تامة النظام كاملة السياسة نافذة الاحكام

فمنها واحدة من الاناث هي اكبر الجميع واعظمها جثة وهي لها كالملكة الحاكمة ويقال لها اليعسوب وعليها مدار عمارة الخلية واكثار النسل بكثرة بيضها وبقية الاناث لا تطلب السفاد ولا تبيض وانما هي عمَلَة عليها العمل والخدمة والمدافعة عن الوطن والمسكن وسلاحها حمتها المركبة في ذنبها تناضل وتقاتل بها وليس للام ولا للذكور حمة كما سيذكر وطائفة الذكور عليها تلقيح الام ووطؤها

فوجود هذه الاصناف الثلاثة اي الام الملكة والاناث العمَلَة

والذكور لازم ضرورة في بقاء هذا النوع وتناسله وتربيته فلو فقد احد هذه الثلاثة لخربت الخلية وفني ما فيها بخلاف غيره من انواع الحيوان فانه يكفي فيه ذكر وانثى

وسبب لزوم هذه الثلاثة في هذا النوع ان الام التي هي كالملكة لا يتاتى لها تحصيل قوتها وقوت ما يتناسل منها من الذرية الكثيرة ولا يمكن لها عمل ما ياويها جميعًا من المساكن ولا شغل لها سوى انها تبيض بيضها وتلزم خليتها مدة عمرها وهي نحو خمس سنين فاحتاجت الى عمال وخدم تحصل لها رزقها ورزق ذريتها وتبني المساكن لها ولذريتها وكذلك ليس لها حمة تدافع بها عن نفسها فهي كثيرة الخوف قليلة الجرأة بحيث لو وقع بها نحلة غريبة لجبنت عن ملاقاتها وهربت منها داخل الخلية فرارًا من سطوتها فلا يقيها ويدافع عنها سوى بقية الاناث فهي لها من جهة بمنزلة الخدم والعمال ومن جهة بمنزلة الجنود والابطال ومع كونها مع الغريب الاجنبي بتلك المثابة تراها بين قومها في غاية العظم والمهابة واما احتياجها للذكور فهو من اجل السفاد لحصول النسل وتكثير الاولاد فهذا وجه الضرورة في وجود الاصناف الثلاثة المذكورة

ويتميز الذكر عن الانثى من هذا النوع بكبر عينيه وتقاربهما وليس له فرشة في رجليه لجمع الشمع ولا له حمة يلسع بها ولهذا يكون لين العريكة حسن الاخلاق كحال غيره من ضعاف الخلق ومن شأن النحل انه اذا كان الوقت غير موافق والهواء غير معتدل

لشدة البرد في الشتاء مثلاً فلا يخرج من خليته بل يلزمها ويقيم فيها ويأكل من العسل الذي بها فاذا اتى فصل الربيع واكتسى وجه الارض بالخضرة والزهور خرج للمرعى واكثر من الدوي والطنين حول خليته وقد قالوا ان الذكر منه لا يعيش زيادة عن ثلاثة اشهر وان الانثى قد تعيش الى ثمانية عشر شهراً وهي اصغر من الذكر وقد اعتبرت بالوزن فوجد ان كل عشرة الاف منها تزن اربعة اخماس اقة مصرية وطائفة الاناث هي العَمَلَة والخدام كما مر وعملها كثير فمنه جمع العسل والشمع من النبات والازهار وجلبه الى الخلية وتوزيعه على عيون الاقراص وادخاره فيها وتعهد البيض الذي تبيضه الام وتوزيعه على تلك العيون ووضع كل واحدة منه في محل يليق بها وتربية ما يخرج من ذلك البيض من صغار النحل حين تخرج في هيئة الدود الصغير فتغذيها وتتعهدها حتى تكبر وتقوى على الخروج من الخلية للرعي بنفسها فاذا وجدت درجة الحرارة قد تغيرت واشتدت بحيث صارت ربما تضر بهذه الصغار اقبلت عليها ترفرف باجنحتها حواليها وتروح لها بها لتعديل درجة الهواء بتحريكه في الخلية وتجديده ومن هذه العمال طائفة تقوم بامر الحراسة والخفارة وقت سكون باقي الجماعة في الخلية فان رأت ما لا قبل لها به من العدو نبهت الجماعة فيستعد الجميع لقتاله وصده ورده ومنها طائفة تلتزم بعمل الاقراص وما فيها من العيون وهي البيوت من مادة لزجة هي مادة الشمع

تستحضرها لذلك فانها حين تخرج للمرعى تحضر معها من تلك المادة ما يلزم لعمل الاقراص والبيوت ومن مادة العسل ما يلزم للغذاء والقوت فتضع اولاً الشمع وتصنع البيوت منه لتكون كالوعا للعسل وتجعل بعض تلك البيوت كبيرًا ومعظمها صغيرًا وجميعها مبنية علي الشكل المسدس وهو انفع الاشكال في عدم ضياع شي من الفضاء الذي يتخذ فيه اذا انضم الى امثاله فألهم الله سبحانه وتعالى النحل ان يختاره لبناء بيته فلا يبنيه مستديرًا ولا مربعًا ولا مخمسًا بل مسدسًا لخاصية في هذا الشكل لا توجد في غيره وذلك ان اوسع الاشياء واحواها المستدير وما يقرب منه فان المربع تخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك المربع حتى لا تبقى الزوايا فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فان الاشكال المستديرة اذا اجتمعت لم تجتمع متراصة وليس في الاشكال ذوات الزوايا شكل سوى المسدس يقرب من المستدير في الاحتواء ثم تتراص الجملة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة وهذه خاصية هذا الشكل الذي ألهم النحل ان يختاره فهو يبني بيوته عليـــه ويضعه تامًا محكمًا لا ينحرف كانما استنبط بقياس هندسي

ويوجد في كل قرص طبقتان متلاصقتان من البيوت وبعض هذه البيوت مخازن للعسل يدخر فيها الى وقت الحاجة ويسد عليه بسدادة من الشمع وباقيها لتربية البيض فيجعل في

كل بيت منها بيضة على انفرادها تضعها فيه طائفة العمال من النحل كما مر وتكون البيوت التي يوضع فيها البيض المشتمل على الذكور اكبر من التي يوضع فيها المشتمل على الاناث لما علمت من أن ذكران النحل اكبر من اناثه ويوجد في اطراف الاقراص بعض عيون كبيرة تسع الواحدة منها من العسل قدر ما يسع غيرها مائة وخمسين مرة الاّ انها قليلة وهي التي اعدت للبيض الذي يخرج منها اليعسوب

ومن اللطائف ان العمال تعلم عدد البيض وكيفية توزيعه بقوة ادراك غريزية اودعها الله فيها فتبني البيوت على حسبه من قبل ان تراه وعمل العمال يختلف باختلاف الاوقات قوة وضعفاً فيضعف في الصيف ويقل فاذا جاء فصل الخريف ازداد شغلها وكثر اجتهادها فتملأ البيوت بيضاً وتتعهده الى ان يخرج كما مر وتخرج منه ذكور كثيرة في وقت معين فان ظهر فيه ام جديدة اجتهدت الام الاصلية في قتلها والاّ خرجت وتبعها كثير من العمال حتى اذا وجدت غصناً او خامة زرع تعلقت به واحتف بها ما خرج معها من جماعتها فان اخذت حينئذٍ ووضعت في خلية استوطنتها وعمرتها والاّ ذهبت الى فجوة في شجرة او حائط او جبل فاقامت بها مع توابعها

واما الام التي بقيت في الخلية الاصلية فبعد ثمانية ايام من ظهورها تخرج وتدور حول الخلية كانها تكشف امرها وتنظر ما

حولها ثم تعلو فوق طبقات الجو ذاهبة وعائدة في الهواء برهة من الزمن وبعد ذلك تعود الى الخلية وتمكث فيها طول عمرها الى ان تطردها منها احدى اولادها كما طردت هي امها وتبتدي في البيض من ثاني يوم من ظهورها فيخرج من بعضه ذكور ومن بعضه اناث ولكنه في وقت الشتاء اذا كان الهواء لطيفًا لا يخرج منه الاّ اناث

وفي مدة البيض يحف العمال بالام فيلحسونها بالسنتهم ويجعلون في فمها ما يلزم لغذائها من العسل ويرتبون البيض ويوزعونه على البيوت في كل طاقة بيضة ويخرجون ما زاد او فسد ويرمونه خارج البيوت وكلما وضعوا بيضة في طاقة سدوا عليها بمادة لزجة فاذا مضى عليها ثلاثة ايام صارت دودة فيفتح لها حينئذٍ العمال السدادة ويغذونها مدة ستة ايام في كل يوم عدة مرات ومادة الغذاء وان كانت عسلية الاَّ ان درجة حلاوتها تدبر بالنقص والزيادة على حسب تقدم الدودة في العمر وما يناسبها في كل سن وبعد تلك المدة يسد على كل دودة بغطاء فيه تحديب ليس كغطاء العيون المعدة لادخار العسل فانه مستوٍ وعند ذلك تقوم الدودة في بيتها وتعمل لنفسها ثوبًا كالحرير تحيط به حروف البيت وقاية لجسمها من خشونة مادته ويتم هذا العمل في يوم ونصف ثم بعد ثلاثة ايام تنقلب الدودة ذبابة صغيرة ملتفة في ثوب ابيض شفاف يرى منه ارجلها واجنحتها وباقي اعضائها فتبقى في هذه الصورة

سبعة ايام في هدء وسكون بلا حركة ثم تمزق ثوبها وتخرج منه فعند ذلك تحتاط بها العمال وتمسح جسدها وتمد جناحيها وتاخذها معها الى حيث شاءت من اعمالها تمرنها على العمل معها والمساعدة لها في اشغالها

ولكثرة مادة الغذاء في الصيف يكون بين الذكور والاناث صلح فيغدون ويروحون سواء فاذا قرب الشتاء وقلت المراعي تحرك من العمال عرق الغضب على الذكور لعدم الفائدة فيهم فيتفقون على قتلهم فعند ذلك تقف طائفة من العمال امام الخلية تقتل كل من مر بهم من الذكور وليس لذكور هذه الطائفة حمة تلسع بها وتدافع عن نفسها فتبطش بها العمال كما شاءت فتتلفها وتفني عدادها وهكذا تفعل بالذكور التي تحدث فتقتلها وترميها خارج الخلية وعند حلول فصل الشتاء يقل البيض وينقطع المرعى فياكلون مما في الخلية فاذا حل فصل الربيع وتفتحت الازهار ابتدأ البيض والتناسل كما مر والعادة في البيض الذي يخرج منه الذكور ان يكون فقسه وتفريخه في مدة ثلاثة ايام ثم بعد ذلك يكون دودة فتغذيها العمال ستة ايام بمثل ما مر وتضع الغطاء عليها وبعد وضع الغطاء تنسج ثوبها في ثلاثة ايام اخر وتنقلب ذبابة وتقيم على ذلك اثنا عشر يومًا ثم تخرج فيكون خروج الذكر في اربعة وعشرين يومًا بخلاف الانثى فانها يكون خروجها في اثنين وعشرين يومًا والبيض الذي يخرج منه اليعسوب يكون

فقسه وتفريخه بعد ثلاثة ايام فيخرج من الواحدة منه دودة كسائر
الاناث التي هي العمال الاَّ ان لها في الغذاء كيفية مخصوصة
تعرفها العمال فيكون غذاوها في اول الامر حامضاً ثم يزاد في
حلاوته بالتدريج ويجعل بقربها منه في بيتها اكثر مما يعطى
لغيرها فتعظم وتكبر عن غيرها ويوجد فيها خاصة التناسل وتكون
امًّا ويعسوبًا ولا تمكث في عمل ثوبها الاّ يومًا واحدًا وذلك لما
اكتسبته من القوة بسبب جودة غذائها وكثرته وخاصية مادته ثم
تقيم بعد ذلك في الراحة والهدء والسكون مدة يومين ونصف يوم
ثم تكون ذبابة وتقيم على تلك الحالة خمسة ايام فقط وتخرج من
ثوبها بعد ستة عشر يومًا فقط هذا اذا اراد العمال ذلك والاَّ
زادوا في سمك الغطاء وحبسوها مدة من اربعة ايام الى ثمانية على
حسب مقتضيات الاحوال وفي هذه المدة يرسل لها الغذاء من
ثقب يجعل في الغطاء المذكور فاذا انفتح الغطاء خرجت يعسوبًا
وامًّا تتميز عن غيرها بخاصية البيض والنسل وعظم الجسم وذلك
بخاصية هذا الغذا المخصوص بالام وهذه الخاصية في ذلك الغذاء
ثابتة محققة حتى انه اذا وقع منه في بعض الاحيان جزء في بيت
واحدة من العمَلة واطعمت منه نما جسمها وزاد حجمها وحصل لها
خاصية البيض والنسل وحصل منها البيض بالفعل وربما وصلت
الى نصف درجة الام وحينئذٍ تكون معرضة لاذى الام الاصلية
وطائفة العمال تعلم ما في ذلك الغذاء من هذه الخاصية ولذا

اذا ماتت الام اختاروا في الحال دودة من الدود الذي يكون منه العمال فيغدقون عليها بالغذاء المذكور حتى تصير امًا ويعسوبًا وذلك لما ثبت عندهم من ان الخلية لا تعمر بدونها وانهم ان خرجوا من الخلية قبل ان يتخذوا لهم امًا بدلها بدد الدهر شملهم واحتاط بهم نحل الخليات الاخر وقتلهم

وقد قدمنا ان انواع النحل كثيرة لكن ليس منه في بلاد الاوروباويين الاّ نوعان احدهما ازرق البطون وهو ما يوجد بالبلاد المركزية والثاني تميل بطونه الى الصفرة وهو ما يوجد بجهات سيسليا وايتاليا وجزيرتي كريد والروم ويوجد منه في باقي بلاد الدنيا القديمة اثنا عشر نوعا واما الدنيا الجديدة وهي الامريكا فلم يوجد بها الاّ في زمن قريب واصله من نحل اوروبا نقل اليها فكثر بها الاّ انه توحش وصار يهوى الجبال والغابات مع ان ذلك لا يحصل باوروبا وقد شوهد هذا التوحش كذلك في غير النحل من سائر الحيوانات التي نقلت الى تلك الجهة

وقد كان العسل معلومًا عند سكان الامريكا من قبل ورود الاوروباويين عليهم الاّ انه كان اقل حلاوة وازكى نكهة واصفى لونًا واكثر ميوعة ولما دخل الاسبانيول هذه الارض وجدوا فيها نحلاً صغير الجثة قد اتخذ له بيوتًا في فجوات الاشجار ومغارات يصنع فيها اقراصه ويجمع بها عسله وكله ليس له حمة يلسع بها سواء في ذلك ذكره وانثاه ويعسوبه ولذلك يمضي اليه الناس

ويجمعون عسله من محاله بالسهولة وبغير احتراس وبيوته مسدسة كغيره من النحل ومغطاة بطبقات من الشمع وبعضها للذكور وبعضها للاناث وحول هذه البيوت بيوت اخر اكبر منها قد اعدت للعسل شكلها غير شكل بيوت الذرية وديدان هذا النوع من النحل تصنع ثوبها بالطريقة التي قدمنا ذكرها ومن المحتمل ان يتحد ذكوره واناثه في العمل ولا مانع من ذلك حيث كانت كلها مجردة عن الذبان والحمة كما ذكر فبهذا السبب يكون الجميع بعضها مع بعض في التئام وراحة واطمئنان ويحتمل ان يكون العمل على حسب راي الامهات

وتكثير هذا النوع سهل لا صعوبة به اذ يكفي فيه ان يوخذ قرص او بعض قرص من اقراصه ويوضع في فجوة من شجرة او نحوها فعند ذلك يتولد منه عدد كثير ويتزايد على طول الايام وفي كثير من جهات الامريكا امكن للاهالي تأليف هذا النحل وجعله في حقاق من فخار وصناديق من خشب وقطع مجوفة من جذوع الاشجار فنجح الاَّ ان ما نقل منه الى بلاد اوروبا لم ينجح في تلك البلاد لانه في فصل الشتاء يمتنع عن الزاد

وهناك نوع منه لا يعيش الاَّ سنة واحدة ثم يموت ولا يبقى منه الاّ بعض اناث تخمد في فصل الشتاء فاذا انتهى البرد وانتشرت حرارة الشمس في طبقات الجو تنبهت من سكرتها وقامت من رقدتها ودارت في الغيطان والفلوات لترى محلاً لائقاً لبناء

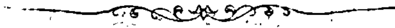
بيتها فاذا عثرت به ذهبت من عروق النبات ومواد الارض الطينية بما تحتاج اليه وبنت لها بيتاً وفرشته بحرير تخرجه من جوفها ثم تسكنه ووضعت فيه من الشمع والعسل ما يلزم لحاجتها وغذائها وغذاء اولادها ثم تجعل فيه ثقوباً صغيرة لتبيض فيها فتجعل في كل ثقب بيضة ومن هذا البيض يخرج دود صغير يتغذى بما ادخرته الام في تلك الثقوب من المادة الغذائية ولا تزال الام تستكثر من تلك المادة وتزيد فيها وتجلب لاولادها ما يلزم للغذاء منها ثم تنسج كل واحدة من هذا الدود لنفسها ثوباً كالذي مر ذكره تقيم به المدة المعينة وتخرج منه لمساعدة امها في جمع المؤنة وتوسيع القرص باستحداث بيوت جديدة فيه وتوزيع ما يلزم من العسل في البيوت للمؤنة واكثر بيض الام يخرج منه اناث وقليل منه يخرج منه الذكور ويوجد في قليل من الاناث خاصية البيض والنسل كالام ولكن لا بقدر الام بل على قدر النصف منها وانما تخرج في الاخر ثمانية مثلها تشابهها في الكيفية والجسم والخاصية وفي اخر السنة يخرجن ولا يقمن مع الام بل يتفرقن في سائر الجهات ومنهن يحصل البيض والنسل كما حصل من الام الاولى ثم تموت تلك الام الاولى والذكور وباقي الاناث

قال ناقل الحديث فلما انتهى يعقوب من الكلام الى هذا الموضع قال الشيخ كانه يريد ان يريح يعقوب ويستخرج ما عنده كما هو عادة المسامرة اذكر اني كنت مرة افاوض بعض الاخوان

الحديث في امر النحل واحواله وبحضرتنا رجل من الحبشة يسمع فلما انتهينا الى ذكر انواعه وحكينا ما اطلعنا عليه قال ذلك الحبشي ان انواع النحل في بلادنا كثيرة والطفها نوع في حجم الذباب يسكن في الارض المنبسطة من الصحاري يصنع له بيتاً اجوف على هيئة الكرة املس كالنحاس قد فتح منه ثقبة صغيرة يدخل منها ويخرج فاذا خرج خرج متتابعًا واحدة اثر واحدة كانه حب نظم في خيط الاَّ ان الواحدة السابقة والواحدة الاخيرة اكبر حجمًا من البقية فكانهما الام والاب فاذا حصل في الهواء تلوى ذلك الخيط حتى يرسم اشكالاً كثيرة فتارة يكون دائرة وتارة يكون قنطرة وتارة يكون عمودًا منتصبًا الى غير ذلك وعسل هذا النوع ليس له شمع بل يكون في ذلك البيت كالماء في الصهريج ولونه اصفر احمر وطعمه كطعم مربى الزنجبيل كانه لم يتخذ الاَّ حكاية له وذلك النوع قليل يخرج الناس في طلبه فربما غابوا في البحث عنه اياماً ولم يعثروا به ويعثرون به عند شروق الشمس حال خروجه فيقصدون الجهة التي راوه فيها فيفتشون حتى يعثروا بالثقب فيحتفرون منه فتارة يجدون العسل قدر نصف البيت او زاد وربما وجدوه قريب الامتلاء وذلك البيت قدر قعدة انسان صغير ثم اطرق الشيخ اطراق من اخذ الفكر بحواسه برهة وانتبه فراى يعقوب كالمتعجب من حاله فقال كانك عجبت من اطراقي فاشار ان نعم فقال ذكرت اية من كتاب الله تعالى فقلت في

نفسي لا والله لا يقدر كتاب الله قدره الاّ من اطال البحث بالنظر في اسرار مخلوقاته وعلمت ان الله جل ذكره قد ارشد عباده الى ذلك حيث جعل الكلام في بعض الحشرات قرآنا يتلى ويدرس فقال يعقوب اسالك تلاوة تلك الاية وتفسيرها وكان الشيخ مضطجعاً فاستوى جالساً واخذ هيئة وقاره وتلا (واوحى ربك الى النحل ان اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس) واتبع التلاوة بالتفسير فقال (اوحى ربك الى النحل) اعطاها الهداية لاعمالها المختلفة والهمها اسبابها واختار لفظة الرب من بين اسمائه واضافها لكل من يخاطب لان هداية النحل من وظائف التربية واشارة الى ان تربية الانسان بجهة تربيته لسائر الاشياء لا تفاوت في ذلك فلا فضل لشي على شي فيه ومنه يقول الله تعالى) ان الله لا يستحيي ان يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها) فنسبة العالم لما اشتمل عليه من صغير وكبير في فعله كنسبة البعوضة فالبعوضة وحدها عالم يعلم المتامل فيه عظمة قدرة صانعه سبحانه ما اعظم شانه ثم فسر تعالى الموحى بقوله (ان اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللا) السبل الطرق الواحد سبيل والذلل جمع ذلول وهو السهل اللين الذي لا صعوبة فيه واراد بالطرق مسالكها التي تسرح فيها بابدانها

والوسائل المرتبة التي تحصل بها على مقاصدها ثم نبه على منافع العسل فقال (يخرج من بطونها شراب مختلف الوانه فيه شفاء للناس) وكانه ارشد باختلاف الالوان الى اختلاف الخواص فعلى من اراد استعماله في الادوية ان يدقق النظر في طلب خاصة كل منها وقوله (فيه شفاء للناس) معناه نوع من الشفا فعلى العقلا ان ينتبهوا لذلك ايضاً



المسامرة الثامنة والاربعون

الحشرات

وكل خلق الله سبحانه عجائب وغرائب شاهدة بعظمته وكمال قدرته وحكمته ونحن لو نظرنا الى اصغر ما خلق الله كالنمل مثلاً كيف احكم خلقه واتقن تركيبه ويسر له رزقه وشق له السمع والبصر وسوّى له العظم والبشر وكيف دب على الارض وسعى في مناكبها لطلب رزقه وكيف ينقل الحبة الى جحره ويجمع في حره لبرده وفي ورده لصدره او فكرنا في مجاري اكله في علوه وسفله وما في الجوف من شراسيف بطنه وما في الراس من عينه واذنه لقضينا من خلقه عجبًا وللقينا من وصفه نصبًا فتعالى الذي اقامها على قوائمها وبناها على دعائمها لم يشركه في فطرتها فاطر ولم يعنه على خلقها قادر لا اله الاّ هو ولا معبود سواه

وتراها اذا خافت علي حبها ان يعفن اخرجته من جحرها الى

ظهر الارض ليجف وتفلق الحبة نصفين خوفًا من ان تنبت فتفسد الاّ الكزبرة فانها تفلقها اربعًا لانها من دون سائر الحب ينبت نصفها وليس كل ارباب الفلاحة يعرف هذا فسبحان من الهمها ذلك وكذلك تراها تشم رائحة الشي من بعيد وان كان لو وضعته على انفك لم تجد له رائحة واذا عجزت عن حمل شي استعانت برفقتها الى باب جحرها ويقال انها في اول الامر تكون كالدودة ثم تصير الى حالتها المعهودة فاذا كبرت وكمل سنها وقرب حينها ظهر لها جناحان تطير بهما وفي ذلك يقول الشاعر

اذا ما اراد الله اهلاك نملة

سمت بجناحيها الى الطيران

قال ناقل الحديث ثم احس الشيخ فتور يعقوب فاذن له في الانصراف الى موضع نومه وقام هو ايضًا فادّى ما كتب عليه واخذ مضجعه وبرهان وصاحبه لم يحضرا بعد فغلب النوم حتى اصبح وصاحت الطيور فانتبه يسبح مولاه ويشكره على ما اولاه وقضى وظائف صباحه راجيًا من الله تمام نجاحه وقبيل طلوع الشمس انتبه برهان فاوجز صلاته وحضر عند والده وعليه اثار النوم فانبسط اليه واجلسه عن يمينه واخذ يساله عما راى في تلك الدعوة ومتى حضر وطفق برهان يخبره عن ذلك شيئًا فشيئًا الى ان حضر الانكليزي فدار الكلام بينهما يصف كل ما شاهد حال غيبته عن صاحبه فكان من كلام الشيخ ان قال ان مما قصه ذلك

الرجل ما وقع للماليك الذين هاجروا من مصرمع الجيش الفرنساوي وان ذلك الوقت كان وقت فتن وانتقام ومحن فقد هدمت قصور وخلت من سكانها قرى ودور وكم تشتت فيها عيال واسرت رجال ونهبت اموال وكم هتكت اعراض واستبيحت نساء وازهقت نفوس واريقت دماء وكم الفت في ذلك مولفات لو تليت على حجر لتصدع او على جبل لتزعزع وانحلت اذ ذاك عروة الحكومة واختل نظامها وتضعضعت احكامها وضعفت حكامها فكان الخلق كالبحر وقت هيجانه او القدر عند غليانه الاقوياء منهم كالاسود والذئاب والضعفاء كالفريسة بين الانياب ولم يكن للعقل حينئذٍ سطوة بل غلب على عقلهم جميعًا حظ النفس والشهوة فكان ينال الناس في اليوم الواحد ما لو وزع على سنين لكفاها فنعوذ بالله من تلك الاوقات واهوالها ومن احزاب السوء واعمالها ولم يكن هذا التعدي قاصرًا على الماليك بل عم الامة جميعًا خصوصًا جماعة الامراء والفضلاء وارباب الوظائف والعلماء فمنهم من قتل ومحي اثره ومنهم من فر بنفسه وانقطع خبره فاصبحوا لا ترى الاَّ مساكنهم وصار البلد خرابًا وتفرق من بقي به احزابًا كل يدبر ولاية يتوهمها ويلفق لها قوانين لا يفهمها ولم يتفقوا على طريق يسلكونها ولا قوانين يتمسكون بها فبقيت الحكومة من ذلك في اضطراب ومدت حوادث الزمن عليها يد الانقلاب فداخلني من استماع ذلك بمقتضى الطبيعة ما يعلم الله من الغم وعجبت من هذا

النوع بينًا هو على اتم استقامة الاحوال التآنسية المدنية اذ طرأ عليه طارىء فخرج الى احوال لا يصدر مثلها عن الحيوانات العجم غير ان يعقوب ازال ذلك عني باحاديث تعجب الالباء في وصف بعض الحيوانات الصغار بما اعطيته من محاسن الاشكال ولطف الاهتداء الى غرائب الاعمال وسبب ذكره لذلك انه قدم لنا على السفرة اناء فيه محار فلم تقبله نفسي فسألته عن كيفية صيده وتسويته فشرح لي حاله واطنب وزادني من اخبار بعض الحشرات ما اعجب واطرب

فقال الانكليزي من لم يتامل في خلق الحشرات او يحتقرها ويتهاون بامرها فقد جهل واخطاء فان الله سبحانه خلقها لحكم واسرار علمها وان جهلها الانسان او فهمها وقد خصها الله سبحانه كما خص غيرها بامور كلفها بها وسخرها لها في هذا العالم لا قدرة لغيره على ادائها ولو وقف الانسان على ما فيها من النفع له ولغيره لما احتقرها وانزلها من دركات الدناآت والخسة الى حيث انزلها بل لو عرف حقيقة ما اعدت له وما تؤدي عمله لكان ذلك داعيًا له ان يتنازل عن العظمة والسلطان ويخلع رداء الكبرياء والعدوان ويخضع لمولاه جل شانه ويشكره على ما جعل له من الخير والنفع وما دبر له من عجائب الصنع اذ لم تكن هذه الحشرات مجرد اجسام ممتعة بالحيوة الى الممات عارية عن الادراك بالكلية كما يزعمه كثير من الناس بل لها ادراك كغيرها ومن وُفق للنظر في احوالها

وتقلباتها في اعمالها وجد لها ادراكًا غريبًا واحساسًا بما يضرها وينفعها عجيبًا وافعالاً محكمة واعمالاً مرتبة منتظمة تدل على انها جارية على قانون منظوم ساعية في مقصود معلوم وامر محتوم وذلك من غير ان تقتدي بمثال تحاكيه وتعمل على شكله الا ترى الى الفراش المعروف بابي دقيق حين يخرج من قبره في فصل الخريف في هيئته التي تراه بها فانه حينئذٍ لم يكن سبق له روية غيره من جنسه حتى يقتدي به ومع ذلك تراه مقبلاً على عمله جادًا في تحصيل امله فاذا جاء فصل الربيع رأيته يجتهد في الاستعداد لتناسل غيره منه ويموت من غير ان يرى ذريته البتة

وهكذا الدودة التي تعيش في قرار الماء زمنًا طويلاً من مدة حياتها مغمورة بما فيه من الطين والحمأة متغذية بما فيه من الاغذية حتى اذا جاء الوقت المعين لخروجها من الما الى الهوا القت ثوبها الرث الدودي ولبست الثوب المزخرف الطيري وبقيت كذلك مدة حياتها فمن ذا الذي علمها ذلك ولقنها وهي في الما والطين كيفية معاشها في الفضا والهوا ولم تكن فارقت قرار الما من قبل ولا تعود لسكناها من بعد ولا شبه بين حالتها الاولى والثانية ولا مناسبة بينهما

فكل ذلك دليل على ان الله قد خص كلاً من هذه الحيوانات من الادراك بما تحتاج اليه في معيشتها وتهتدي به في امورها لتسعى فيما أعدت له بتدبير خالقها

قال الشيخ نعم هو كما تقول وهذه هي الهداية العامة المذكورة في قوله تعالى (الذي اعطى كل شي خلقه ثم هدى) اي اعطى كل شي من الاشيا صورته وشكله اللائق بما ينيط به من الخواص والمنافع ثم هداه الى طريق الارتقا والانتفاع بما اعطاه وعرّفه كيف يتوصل الى بقائه وكماله

فلكل نوع منها حظ من الادراك ينتفع به في امور معيشته قل او كثر كما لا ينكر

قال الانكليزي قد اعتنى علماء الطبيعة بمعرفة ما في الحيوانات من هذا فوجدوه يختلف بحسب عظم المخ واتساع الزاوية الوجهية فلو نسبت جباه الديدان والحشرات ورؤسها الى بقية جسمها بالقياس على جبهة غيرها من الحيوانات لوجد راسها كبيراً ومجموعها العصبي عظيماً وذلك بالنسبة لباقي جسمها وبالقياس علي غيرها من الحيوان كما ذكر حتى ان بعضهم امتحن ذلك فوجد في النملة والعنكبوت ادراكا اضعاف ادراك غيرهما من الحشرات

وقد فعل بعض المشاهير من الطبيعيين تجاريب كثيرة على عدة عديدة من الحيوانات الفقارية من الانسان الى الاوزّ فظهر له ان زاوية الجبهة اذا كانت حادة جداً كانت قوة الادراك قليلة جداً وبالعكس اذا كانت منفردة جداً كانت قوة الادراك حادة جداً فزيادة الإدراك بقدر زيادة الانفراج وعكسه بعكسه كما مر وعلم ان الاوز اقل ادراكا من غيره لصغر راسه بالنسبة لجسمه

وكثيرًا ما يوجد عند بعض الحشرات من قوة الادراك ما يعينها على طرق الحيلة والتدبير والمكر والخداع وامثلة ذلك اكثر من ان تحصر فمن ذلك ان بعض الحيوانات لا ياكل الاّ ما كان حيا ويعاف ما وجده ميتًا فتراه في قرار الماء دائمًا يسعى في تحصيل ما يتصيده ليتغذى منه فمتى عثر بدودة مما يطلبه اسرع اليها وانقض عليها وفي الدود ما يعرف ذلك ويحتال له فترى الدودة اذا رات عدوها هذا تركت الحركة بالكلية وتماوتت وصارت كانها لا حياة بها فتدخل هذه الحيلة على غريمها فيتركها ويمضي لسبيله فمتى رأته ابتعد عنها نهضت بغاية ما يمكنها من السرعة وهربت وجدّت في الفرار وذهبت

ومن الحشرات ما تعوّدت الاطفال على صيده واللعب به فاذا حل في ايديهم تماوت وتهافت حتى يرونه كالميت فيطرحونه لقزارته فاذا طرحوه فر ونجا بنفسه

وبعض الحشرات يتحيل على التخلص من التعرض له والرغبة فيه بان يكسو جسمه بثوب رث قذر كريه الرائحة قبيح المنظر تمجه العين وتعافه النفس فيبقى فيه فاذا امن على نفسه خرج منه في هيئة لطيفة وصورة بهجة

وبعضها تخرج من بطونها مادة قذرة فتجعلها على ظهورها لتعافها الطيور التي تحب اصطيادها واكلها فاذا كبرت القت تلك المادة فتعلق بما يليها من فروع الاشجار فتسيل على الاوراق وتكسبها

لونًا احمر يضرب الى الخضرة .

وبعضها اذا وقعت في يد احد اخرجت من بطنها بخارًا ابيض ذا رائحة كريهة مع دوي مفزع وصوت مزعج فيرميها من يده فتنجو بنفسها وكذلك اذا احست بطالب يقتفي اثرها فعلت ذلك مرارًا لترهب به طالبها وترده عنها وهي مولية على عقبها مسرعة في هربها ومن الغريب ان بقية بنات جنسها متى سمعت صوتها فعلت مثلها كانها تساعدها على عدوها فيجتمع من اصواتها المرتفعة ودويها الهائل ما يرد طالبها عنها فتنجو منه

ومن هذا القبيل الحشرات التي تاكل العنكبوت فانها تتحايل حتى تجعل لها ثوبًا من بيت العنكبوت وتعفر جسدها بالتراب حتى لا تميز منه فياتي العنكبوت فتاخذه وهو لا يشعر بها ثم تخلع ذلك الثوب وتعود الى حالتها الاولى

ومن ذلك النحل فانه اذا دخل بيته بعض اعدائه انقض عليه بعض العمال في الحال فيلدغه ويقتله ثم يرمي به خارج الخلية ويعود لعمله وما كان فيه بغاية السرعة والنشاط فان كان العدو كبير الجثة شديد البطش والقوة بحيث لا تقدر عليه التي تصادفه من النحل تراها في الحال اسرعت بإئذان بقية اخواتها من العمَلة بامره واستدعائها لقتاله فتنثال عليها من كل جانب وتنسل اليها من كل حدب وتنحدر عليه انحدار السيل فتهجم عليه وتقاتله مع غاية الاقدام والبسالة والجرأة فتلدغه كل واحدة منها بحمتها

وتفرغ فيه سمها حتى يموت لوقته وحينئذٍ تشتغل بمواراته لعجزها عن حمله ونقله الى خارج الخلية بسبب كبر جثته فينحط رأي الجميع على دفنه خوفًا من افساد الخلية بنتنه فتنطلق الى الخلاء وتاتي ببعض مواد صمغية تستخرجها من النبات بما اودعها الله سبحانه من الآلات فتكسو به تلك الجثة الميتة وتغطيها بطبقة سميكة تقيها من التعفن وتلفها لفًا محكمًا كما كان قدماء المصريين يفعلون بموتاهم ثم تودعها في حفرة مخصوصة تواريها بها في داخل الخلية فتتخلص بذلك من اذى هذا العدو في الحيوة وضرر نتنه بعد الممات

فهل مع ذلك يقال انها مجردة عن الادراك والتمييز حاشى لله ما هكذا خلقت بل جميع اعمالها مرتبطة بحسن التقدير والاحكام والتدبير لوقاية نفسها وبقاء جنسها ألا ترى ما يفعله النحل بالحيوان المعروف بسرنجوس وهو نوع من المحار يعيش في البر ويتغذى من نبات الارض واغصان الاشجار فانه يدخل الخلية في بعض الاحيان فاذا احسّ بالنحل ورأى هجومها عليه انكمش في محارته وتترس بها وتحصن فيها فلا ياتي اليها التوصل الى لدغه والفتك به ولكنها مع ذلك لا تدعه حتى تجعل جلده لحده ومحاره قبره فتاتي بمواد صمغية تسد بها عليه محارته فلا يمكنه خرقها ولا النفوذ منها فيموت بمكانه أفلا يثبت للنحل بهذه الحيلة شي من الادراك والتفكر ام يقال ان هذا الفعل منه اتفاقي من غير تبصر ولا تدبر

ومن لطائف بعض الحيوانات انها عند سيرها تكون منتظمة

انتظام العسكر سواء كانت سائرة للانتقال او لتحصيل القوت او للقتال فتراها سائرة سير فرق منتظمة وجيوش مرتبة يقودها رئيس يسوسها وقد جعلت امامها وخلفها افرادًا تكشف لها طريقها وتخبرها بما يعرض من حادث تحذره او عدو يخاف ضرره

ولا شي اعجب من عمل النحل في اتخاذ يعسوب لها اذا اقتضى الحال ذلك فقد علمت ان جميع الاعمال على الاناث التي هي العمال وانه لا شي على الذكور سوى تلقيح الام التي هي اليعسوب وانه لا يبيض ولا يميل للسفاد من الاناث الموجودة سواها واما بقية الاناث في داخل الخلية فكالمترهّبة لا تميل الى ما تميل اليه نفس الانثى من سائر الحيوانات وانما تؤدي ما يلزم من الاعمال وتجتهد في تربية ما وكلت به من العيال ولا تعطى الاناث من حال تربيته الا غذاء قليلاً جداً على قدر الاحتياج الضروري كما كانت تربيتهن في الاصل بهذه الصفة ولذلك يضمر جسمهن ولا يعظم حجمهن ولا يكون فيهن ما في اليعسوب من خاصية الميل الى النسل

فاذا فقد اليعسوب من الخلية اخترن من بينهن واحدة يؤهلنها لان تكون يعسوبًا وذلك لعلمهن بما فيهن من اصل الجنسية والقبول لتلك الصفة والخاصية فيخترن بيتًا من البيوت يكبرنه ويزدن في سعته حتى يصير في قدر الواحد من البيوت المعتادة خمس مرات ثم يذهبن الى تلك التي اخترنها فياتين بها من

محلها فينزلنها بذلك البيت الفسيح فتى استقرت به احاطت بها جميع العملة يخدمنها ويغذينها باحسن ما يستخرجنه من الشهد العظيم الذكي الرائحة فتكبر سريعًا لحسن المواد الغذائية التي يغدقن بها عليها وتحرك عليها شهوة النسل والميل الى النحل والرغبة في اكثار جنس النحل وتكون اليعسوب لهم والاميرة عليهم فتامر وتنهى وتتصرف على حسب ما تقتضيه قوانين السلطنة ويعظم عندها حب اولادها الى حد لا غاية فوقه

وشفقة الحشرات على اولادها تفوق شفقة غيرها من الحيوان بمراتب كثيرة كما يعلمه من عني بتتبع امورها ومقارنتها بغيرها فان كان في غيرها من الحيوان ما ينتف شعر بطنه ليجعله فرشًا لاولاده كالارنب مثلاً ففي الحشرات ما يفعل اعظم من ذلك بدرجات كثيرة فانها تنتف جميع شعرها لاولادها ولا تكتفي بجزء منه دون جزء ومتى باضت الحشرة لفت بيضها في عدة اثواب تصنعها لوقايته من العوارض الجوية ثم تموت هي

وهناك حشرات اذا باضت ضمت بيضها الى بعضه وغطته بنفسها واحاطته من كل جهة بجسمها فتكون له كالكيس والوقاية ثم تموت فاذا خرجت الاولاد من البيض وكبرت فعلت ببيضها ما فعله بها اصلها وهكذا

وهناك نوع قد تؤديه شفقته على اولاده الى استعمال طريقة هي خير له من قتل نفسه من اجل اولاده وذلك انه يعدو على

غيره من الحشرات فيقتله ويأتي به لحاجة ذريته

ثم ان اغذية الحشرات كغيرها من الحيوانات مختلفة باختلاف انواعها فمنها ما لا يتغذى الاّ من حيوان حي ولا يذوق شيئًا من الحيوانات بعد خروج روحها ومفارقتها الحياة وذلك دأبه وطبعه من حين ظهوره في حيز الوجود وابتدائه في تناول الغذاء وحيث كان في وقت صغره وزمن طفوليته لا يتاتى له صيد ما يتغذى به من الحيوانات الحية ولا يمكن للام صيدها وقيدها بقربه لياخذ منها ما اراد في اوقات الحاجة فلهذا تحتال الام لذلك بان تعدو على بعض الحيوان فتلقي على جسمه جزءًا من السم يخدره ويعدمه الحركة مع بقاء اصل الحياة فيه وتاتي به على هذه الحالة لتجده ذريتها عند خروجها من البيض حاضرًا عندها فتنهشه وتغتذي منه متى ارادت وهذه حالة بعض الذباب فانه يحفر لبيضه جحرًا في الارض يضعه فيه ثم يذهب الى عنكبوت او دودة يمج فيها جزءًا من السم فتسكن حركتها ثم يحملها الى جحره ويلقيها عند البيض ويسد عليه فاذا خرجت الاولاد من البيض وجدتها بجانبها فتغذت بها ومن اضطرار الذباب الى الغذاء من لحم الحي كان عنده جراة على الحيوان فتراه يعمد الى الدودة الكبيرة مثلاً فيخرق جلدها بخرطومه ثم يضع بيضه على كثرته ووفرته موضع الخرطوم وتحت الجلد فاذا حصل الفقس وخرجت الاولاد تغذت مما في ذلك الخرق من اللحم والدهن ولا تقرب الاعصاب المهمة للحياة الاّ عند تهيئها للخروج

فترى حب هذا الذباب للاكل من الحي حمله على حسن التدبير في الاخذ من الجثة مع استبقاء حياة الحيوان وعدم ازهاق روحه بالكلية ومتى حان الاوان لخروج تلك الذرية من تحت الجلد الى الفضاء ولم يبق لها حاجة الى استبقاء حياته .فعند ذلك تاتي على ما فيه من الاعضاء المهمة وتبادر الخروج من خروق تثقبها في جلده ومتى خرجت عملت كل واحدة منها لنفسها خيطاً محكماً تلتف فيه وتتراكم فوق سطح الجثة فتغطيها بكثرتها بحيث لا ترى العين منها شيئًا

ومن الحشرات التي لها مزيد اعتناء بحفظ نسلها الجُعل (وهو ابو جعران) الذي كان يعظمه المتقدمون من المصريين وان كان لا يحتفل الاَّ بواحدة من بيضه في المرة الواحدة وذلك انه اذا باض عمد الى روث دابة من الحيوانات الآكلة للنبات كالبقر والغنم مثلاً فياخذ منه قطعة يضع بيضته في وسطها ثم يلفها ويدحرجها الى جهات مختلفة حتى يجعلها كروية الشكل فاذا صارت بهذه الصورة لف عليها رجليه الخلفيتين لان فيهما انحناء وقابلية لهذا العمل ثم يدحرجها ويجرها معهُ الى اي جهة ذهب فتكتسب صلابة وملاسة بكثرة دحرجتها ومرورها على التراب والرمل الناعم ولا يفارقها لعروض مانع يمنع وقاطع يقطع بل يغالب بها الموانع والقواطع ولا يزال يجرها حتى يبلغ بها حيث شاء فاذا صادف ارضاً ذات ميل وانحدار كسفح جبل او نحوه بذل ما عنده

من الجهد ودفعها بالقوة والباس فان تفلتت منه بحث عنها بغاية الجد والاعتناء والهمة وهو في حال من الكآبة والحزن تلوح عليه اثارها وتظهر سماتها ولا يزال كذلك حتى يجدها ويعود بها لما كان عليه فان اضلها او اخذها انسان ويئس هو من العثور بها باض غيرها وصنع بها كما صنع بالاولى فاذا تمت صلاحيتها واستدارتها حفر لها حفرة في الارض ودفنها فيها وتركها

وبما له من هذا العمل والجد ومزيد الكد والجهد احترمه المصريون وجعلوه علمًا ودليلاً على الخصب والبركة وحسن السعي والحركة

فقال الشيخ هذا كله من جملة ما انعم الله به على انواع مخلوقاته حيث خلق في كل نوع ادراكًا لتحصيل ضرورياته والتحيل على قضاء حاجاته والسعي في وقاية نفسه وبقاء نوعه وجنسه فرأفته سبحانه عمت سائر المخلوقات لا يستبد بها قوي على ضعيف ولا يفرق فيها بين وضيع وشريف بل الكل مغمور في بحار احساناته ورحمته العامة لجميع مخلوقاته ومن تامل احوال عالم الحشرات والهوام وجد فيها من الادراك والالهام ما لا تحيط به العبارة ولا تصل اليه الاوهام فمنها نوع لا يتعيش الاّ باكل الصيد. فيستعمل طرقًا تكاد تجعله لاختلافها انواعًا فمنها ما ينقض خلف ما يصطاده فلا يتركه الاَّ اذا ظفر به ويقبض عليه ومنها ما ينصب شباكًا ليقع عدوه في خبالها وقد صادفت ذات يوم حشرة

صغيرة تعرف عندكم باسد النمل رايتها تحفر جحرًا في الرمل ووجدت على البعد من جحرها نملاً كثيرًا ميتًا يظنه من لم يتامله انه أثر دم فاحببت ان اعرف كيف تفعل فقعدت اتفقد احوالها فوجدتها تحفر جحرًا كامل الانتظام في رمل جاف ناعم جدًا ورايتها تحفره براسها فتضع راسها في المركز ثم ترفعه فيرتفع التراب معه فتلقيه بعيدًا عن الجحر بسرعة وقوة ثم ترفع غيره براسها وتقذفه كما فعلت اولاً وهكذا على التوالي والاتصال بحيث ترى التراب يمر مر السحاب على التعاقب والتتابع حتى اكملت تعميق حفرتها كما ارادت وجعلت في سطوحها وحوافيها من الميل والانحدار ما شاءت ثم رايتها دخلت فيه واختفت به بحيث لم يكن ظاهرًا منها سوى رجليها فعجبت لذلك ومكثت اترقب ماذا تفعل واذا بنملة قد اتت حتى اذا وصلت الى حافته انزلقت رجلاها فوقعت من اعلاه الى اسفله فاطبقت عليها تلك الحشرة برجليها وقتلتها ولم تمكن النملة من الصعود ثانيًا لما في حوافي الجحر المذكور من الميل والانحدار مع تهايل الرمل

ثم وجدت ايضًا دودة كبيرة اتت على حافة الجحر فوقعت فيه كذلك فاجتهدت في التخلص منه بكل قوتها فلم تمكنها تلك الحشرة من غرضها بل صارت تلقي التراب عليها لتعوقها وتعطل حركتها حتى كلت وضعفت قوتها لكثرة صعودها وسقوطها وما كابدته من التعب والعناء فوقعت في مركز الجحر ساقطة لاحراك بها

فتلقفتها الحشرة وهي لها بالمرصاد فقتلتها ومصت دمها ثم انها رات ان بقاء الجثث في الجحر يضربها ويخشى عليه من نتنها وخبث رائحتها وان رويتها منفرة لما عساه ياتي من الحيوانات الطارئة داعية للاحتراس والتحرز من الوقوع في مثل ما وقعت فيه هذه الاجساد من العطب فرايتها بعد ان امتصت دمها الذي هو غذاؤها وبغيتها وتم غرضها منها ولم يبق لها ارب في بقائها احتملتها على راسها بنشاط وسرعة وطرحت بها بعيدًا عن الجحر بحماس وقوة ثم عادت الى حالتها الاولى ترتقب ما ينساق اليها من رزق جديد يقع في حبالها فقضيت العجب من حالها

وقد سمعت ان في بلاد امريكا حيوانًا كبيرًا يعرف بآكل النمل منه ما يبلغ طوله نحو سبع اقدام فاكثر وارتفاعه نحو قدمين وله فيما سمعت انواع كثيرة كلها متشابهة في ان لها فمًا صغيرًا ولسانًا طويلًا يسد مسد الاسنان قد يبلغ طوله نحو ثلاثين اصبعًا وهو حريص على اكل النمل واهلاكه وليس في اعداء جنس النمل ما هو اشد فتكًا به واكثر اساءة اليه ونكاية فيه من هذا الحيوان ومما علم من احواله ان مقدار منقاره يكون غالبًا ربع طول جثته وطرفه غليظ ولسانه في الغالب ذو طاقين وهو وسيلته الوحيدة التي يتعيش بها ومن طبعه ان يجعل مأواه في الغياض والجبال الخالية ويختفي احيانًا تحت الاوراق اليابسة وذلك لعجزه عن المحاماة عن نفسه بالقوة والحيلة حين يدهمه ما هو اشد منه باسًا ولذا تراه لا

يكاد يخرج من مأواه الاّ اذا دعاه داعي الجوع والسغب واذا خرج فكذ ساعة واحدة كفته المؤنة اياماً اذا كان النمل في تلك البلاد كبيرا وفي غاية الكثرة وحين يشعر بمحل فيه نمل يبادر اليه رويدا ساكنًا حتى إذا استقر في موضع ملائم مد لسانه على الارض وتلقف به ما شاء وكلما نال به قدرا بلعه واعاد ما بدا به حتى يتخم فيرجع الى ماواه ثم انهُ وان يكن يحذر اعداءه من ذوات الاربع ويتقي بأسها غير انه اذا اقتحم ووقع في المعمعة دافع عن نفسه بمخاليبه باشد عداوة فيغالب الكلب بل النمر الامريكاني

وهذا الحيوان وان لم يكن من الحشرات الصغيرة الاّ انا ذكرناه بالذي قبله والشي بالشي يذكر

فقال الانكليزي من حذاق الحشرات في الاصطياد والتحيل على بلوغ الغرض حيوان العنكبوت فمنه ما يمد حباله في الغيطان بين اغصان الاشجار ومنه ما يمدها في زوايا الاماكن واركانها فيجعله كالشبكة المصنوعة والحبالة المنصوبة وفيها طبقة سفلية عليها شي من التراب والغبار بحيث تشتبه بالارض فاذا وقعت فيها الغنيمة من ذبابة او نحوها ما يغتذي به ويصطاده علقت بها حبال متصلة بتلك الطبقة من شبكة فوقها تلتف عليها فترتبك في امرها ولا تجد للخلاص سبيلا ولا للنجاة حيلة وحيوان العنكبوت مختبيء في مخدع له هناك اشبه بالقنطرة المعقودة اسطواني الشكل له بابان احدهما افقي والاخر عمودي على فوهته من اسفل الشبكة

ولكل منهما غرض مخصوص قد اعد له فمن الاول ينقض العنكبوت علي فنيصته فيفترسها والثاني يلقي منه ما فضل عنه بعد مص دمه حتى لا يستقر في بيته شي مما يقع فيه فيقذره ويكون منبهًا لما عساه يقع فيه فيحذره فلو تأمل الانسان في اسفل المكان الذي فيه العنكبوت لوجد به كثيرا من الذباب مقتولا ولا قاتل له غيره

ومن العنكبوت نوع مضر لدغه شديد الاثر لكثرة سمه وهذا لا يوجد الاّ في البلاد الحارة واما الذي في البلاد الباردة فلا يضر لقلة سمه ولا يخفى ان السم كما يكون في نوع الثعبان والافعى كذلك يكون في هوام الارض وحشراتها ولا يختلف الحال الاَّ بالقلة والكثرة فان لكل منها اسنانًا في فوهات سمية فاذا عضت احدا قذفت السم من تلك الفوهات في الجراح التي تحدثها باسنانها

ومن هذا القبيل الشبت اعني الحيوان الذي يقال له عند العوام ابو شبت فان سمه يكون في الجهات الحارة قاتلاً حتى انهم راوا تاثيره في الحيوان الكبير في الزمن اليسير ومنها ما يعدو على الدجاج والحمام فيقتلها ويشرب من دمها ولذا يسمى في بعض الجهات بخناق الفراخ

ومن يتامل الحشرات يجد عند بعضها شدة شهوة وشره فيكون شديد العدوان والغضب كثير الحب للغنيمة والتكسب ولذا تراها لاجل الحصول علي شهواتها واغراضها دائمة النزاع والمقاتلة

مع بعضها فيكون بينها حروب تسيل فيها الدماء ويزهق كثيرمن الارواح وقد تغيرعلى غيرها وتحتال على سلب ما صادفته عنده من دخائره وموجوداته



المسامرة التاسعة والاربعون

النمل

ومن هذا القبيل النمل فانه يكون بينه حروب كبيرة ومناوشات كثيرة غير ان طوائف النمل عند تجهزها للحرب ومسيرها للقتال لا تستعمل ما يستعمله الانسان لحروبه من العدد والالات والادوات بل تسير للقتال بانفسها غير مستصحبة شيئاً من ذلك معها وتستعمل في قتالها ما قد يعجز الانسان عنه من

المكر والحيل والمكائد

ومن النمل نوع ياسر غيره ويستعبده ويستخدمه طول حياته ويتخلص بواسطته من الكد والكدح والعمل لنفسه وقد شاهد بعض علماء الطبيعيين نوعًا من النمل يحمل نوعا اخر في فمه ولكن لم يكن يعلم حكمة ذلك ولا سببه الى ان ظهر الان ان بعض النمل قد يحتاج الى خدم فيهجم على غيره فيسترقه ويستخدمه في اعماله وسائر احوال مسكنهِ ومعيشته ومن يراقب النمل ايام الصيف في بعض الجهات يجده يغير على بعضه فياخذ الغالب منه اولاد المغلوب ويسترقها ولا يكون ذلك غالبًا الاَّ في الليل فيخرج ويصطف صفوفًا متقاربة ويقصد الجهة التي يريد غزوها فلا يرجع الاَّ وقد بلغ مقصوده فيخرب المساكن ويفرق المكامن وياخذ ما احب من الذرية ولا ياخذ الكبار لعلمه انها لا تنقاد لحكمه فاذا رجع بالذرية حملها بافواهه واذا خاب احد من الحزب الغالب ولم يجد اسيرًا يسترقه اخذ معه من رمم القتلى ما قدر عليه لينتفع به في غذائه وترى هذه الفئة الغالبة في عودتها ومنصرفها الى مساكنها تسير خلف بعضها واحدة خلف واحدة حتى انها قد تشغل مسافة من الارض يبلغ طولها نحو اربعين مترًا وبهذه الصورة تعود الى مساكنها بالظفر والغنيمة في حال مسرة وطرب فاذا وصلت الى منازلها بهذه الاسارى الحديثة السن تفرد لها محلات مخصوصة وتربيها مع الصدق والامانة والحذق وتحفظها من كل

ما يضر بجسمها ويخل بصحتها حتى تبلغ اشدها

وهذا النوع المحارب المحب للسلب والنهب لا يحب ان يشتغل بشي سوى الحرب فلذلك يكل بناء بيته وتربية ذريته الى ما عنده من الارقاء والخدم حتى انه اذا احتاج للانتقال من مسكن الى اخر تكفلت خدمه بنقله وقامت بحمله فتراها تحمله بافواهها كما تفعل الهرة باولادها

وقد امتحن بعض المشتغلين بالبحث عن احوال الحيوانات بعض النمل الذي تخيل فيه الترأس والامارة والرفاهية والاحتياج الى خدمة الغير له فاخذ جماعة منه وافردها عن خدمها ثم احضر لها شيئًا مما يتغذى النمل به ويتهالك في طلبه فوجدها غير طالبة لما احضر لها حتى مات اكثرها جوعًا ثم انه نقل اليها واحدًا من النمل الذي توهم فيه العبودية والخدمة فاشتغل بخدمتها وتغذيتها فاكلت ما احضره اليها مما كان بمرأى منها ولم تكن تحركت اليه من قبل فاكلت وشبعت وانتعشت فعلم من ذلك ان هذا الصنف الغالب المحارب بعد ان يبلغ في حروبه ما شاء من النصر والظفر والغنيمة ويحصل على ما اراده من العز والثروة والسعة قد يستولي عليه حب الراحة والرفاهية واللذة فياخذ في الكسل والبطالة ويكل جميع اموره الى ما عنده من الخدم والحشم والاتباع ولا يشتغل هو بشي من الاشياء فيختل عنده نظام الجمهور وتدور عليه صروف المقدور بالويل والثبور وتفسد الامور

وطباع هذا النوع مختلفة باختلاف الاماكن وبالنسبة للزوم الخدم وعدم لزومها فترى الارقاء في بلاد السويس هي التي تبني المساكن وتقف على ابوابها بمنزلة البوابين فتفتحها في اول النهار وتغلقها عند دخول المساء او ظهور علامات تدل على المطر وقد شوهد في بلاد الانكليز ان الاتباع والارقاء عليها جميع الخدم المنزلية الداخلية فقط وفي بلاد السويس عليها بعض الخدم الخارجية ايضًا بسبب كثرتها

وليس جميع النمل قابلاً للاستعباد والاسترقاق فان هناك نوعا صغير الجثة لا يقبل الضيم والذل بل يدافع عن نفسه بحماس ويقاتل اعداءه بشدة باس وشهامة فتخشاه وتهابه وتتجنبه حتى انها لا تقرب عائلته ولا تتسلط على اولاده بل يرى بعضه ساكنًا بالقرب من مساكن جيوش النمل المحاربة مع الامن والاطمئنان من غير ان تناله بمكروه لعلمها بشجاعته وباسه

ومن النمل المحارب ما لا يقتصر في محاربته على استرقاقه لغيره من النمل بل يزيد على ذلك ان يتخلل النبات فيجد في خلاله حشرات صغيرة كالبعوض لها ثديان في ظهرها من الجهة الخلفية يخرج منهما مادة سكرية يحبها النمل حبًا شديدًا فيمتصها فتكون تلك الحشرات بالنسبة له كالبقر الحلوب بالنسبة للانسان فيصعد اليها فوق اطراف النبات والاعشاب ويركب كل واحد واحدة وفي بعض الاوقات قد يجتمع النمل وعبيده ويتحزب الكل ويسطو

عليها دفعة واحدة وياخذها ويحبسها في منازله كما يحبس الادمي البقر والغنم فيمتص لبنها كما شاء ومتى شاء ويتعهدها بالطعام والغذاء كما يفعل صاحب الغنم والشاة

واغرب شي ان هذا النمل يعمل حول بيته جسوراً منيعة اولها عند بيته واخرها بعيد عنه محناط بالحشائش التي ترعى فيها الحشرات المذكورة وقد يتخذ لها اماكن مخصوصة لا يمكنها التخلص منها فتبقى فيها كالمحبوسة ترعى فيما اعد لها من المرعى وتعطي لبنها للنمل متى اراد وفي بعض الاحيان يقع بين النمل وبعضه محاربات عظيمة ومناوشات شديدة كالحروب التي تقع بين قبائل البشر منشاؤها عداوة طبيعية او حوادث وقتية وقد وصف بعض المشاهير من علماء هذا الفن وقعة رآها بين قبيلتين من جنس واحد من النمل فقال كنت بين قبيلتين عظيمتين كثيرتي العدد وكان ما بين محطتيهما قدر مائة خطوة ولم اعلم السبب الذي اوجب ثوران الفتنة وهيجان الشر بينهما وانما رايت عدد المحاربين من الفريقين بلغ في الكثرة مبلغاً عظيماً جداً بحيث يتعذر على دولتين من الدول الكبيرة جمع عدد مثله من العسكر قال ثم رايت الفريقين اخذا في الزحف على بعضهما الى ان التقى الجمعان في قدر قدمين من الارض في منتصف المسافة التي بينهما ورايت خلف كل جيش عدداً معدا للمدد والاعانة كما تفعل الجيوش من اتخاذ المدد في الحروب ثم حميت الحرب والتحمت الصفوف والتقت

الالوف بالالوف والتفت الساق بالساق وصار كل من الفئتين ينتفع بما صادفه امامه في الارض من حجر ومدر وغير ذلك فيتترس به ويتحصن خلفه من عدوه وكان البعض يقاتل ويضرب والبعض يحوز الغنيمة ويضبط الاسرى وكان يرى على الاسارى علامة الحزن والكآبة لاسيما عند مقاربة المحل المعد لاعتقالها عند العدو قال ورايت محل المعركة قد تغطى برمم القتلى ودماء الجرحى وصار يشم منه روائح كريهة لكثرة ما اجتمع فيه من الجيف وكان ابتداء القتال بين الفريقين باثنين برز كل منهما للاخر فتماسكا بالارجل وصارا يتصارعان ويتغالبان ويجذب كل منهما قرينه الى جهته ثم اتى لكل واحد منهما مدد من قبيلته يجذبه الى ناحيته حتى صار الاولان مع ما انضم اليهما من المدد اشبه شي بحبل طويل يشد احد طرفيه الى جهة والطرف الاخر الى الجهة المقابلة لها حتى يغلب احد الطرفين فياخذ غريمه الى جهته او يحصل الانفصال من غير ان يغلب احد ثم يعود القتال فاذا دخل الليل انفصل الفريقان وانقطعت الحرب الى الصباح ثم يعود كل الى ما كان عليه وهكذا وكانت سعة ميدان الحرب قدر ست اقدام طولاً وقدمين عرضاً

فقال الشيخ كنت فيما سلف اجتمعت برجل من اهل السودان فاخبرني ان ببلادهم نوعًا من النمل ابيض اللون يتجمع جموعا كثيرة ويكون منه طائفة كالجند والعسكر وطائفة كالعمال

وللذكران منه اجنحة وليس لما عداها من العمال والعسكر والاناث اجنحة وتختص العمال منه ببناء المساكن والعسكر بالحفظ والضبط والحراسة واما الاناث فعليها البيض واكثار النسل وتربية الذرية والقيام بامرها وهي كثيرة البيض الى الغاية حتى كانها كيس مملوء بيضًا فان حجمها مملوءة بالبيض قدر حجمها فارغة الفي مرة ومتى ابتدأت البيض باضت في الدقيقة الواحدة قدر ستين بيضة وقد يبلغ مقدار ما تبيضه في اليوم الواحد نحو ثمانين الف بيضة كذا قال والعهدة عليه

فقال الانكليزي هذا صحيح كما قاله وقد شوهد هذا النوع من النمل في جهة راس الرجاء الصالح وحجم مساكنه بالنسبة لحجمه مما يقضي منه بالعجب فان ارتفاع المسكن عن الارض قد يبلغ نحو عشرين قدمًا وشكله هرمي شبيه بقمع من السكر عظيم الجرم واسع اسفله ضيق اعلاه فمن راى هذه المساكن على بعد ظنها كفرًا من الكفور او قرية من القرى الريفية وتكون في غاية من المتانة بحيث لا يمكن كسرها لشدة صلابتها ودخلها فسيح جدًا حتى ان الواحد منها يسع اثنى عشر رجلا يقيمون به وقد يتخذها صيادو الوحوش ماوى يكمنون فيه لاصطيادها ويوجد في داخلها مجاري مياه تشبه المدافع الكبيرة ممتدة في الارض الى عمق ثلاث اقدام او اربع

فلو نظرنا الى النسبة بين امتداد قامتنا وارتفاع ما نبنيه من المساكن مع النسبة بين قامة النمل وارتفاع مساكنه لوجدناه

يفوقنا بكثير فان ارتفاع مسكنه قدر قامته خمسمائة مرة فلو كان ارتفاع مسكن الانسان بالنسبة لقامته بهذه المثابة لكان ارتفاعه قدر اكبر هرم من اهرام الجيزة اربع مرات او اكثر

ومن النمل نوع يتسلط على منازل الناس فيجعل له تحتها سراديب يتوصل منها الى اكل ما فيها من الخشب ولا يزال حتى ياتي عليه ولا يبقي منه الاّ ظاهره فتسقط البيوت باقل حركة فيفقد الانسان بيته في زمن يسير وكثيرًا ما تسلط ذلك النمل بهذه الصورة على مدائن عظيمة وبلاد عامرة فاتلفها وخربها عن اخرها واضطر اهلها الى الرحيل عنها الى جهات بعيدة لتسكنها وتبني بها بلادها ومدائنها

والعجب ان ذلك النمل لايحتاج في مثل هذا العمل الى مدد طويلة بل يقضيه في مدة قصيرة وايام يسيرة وقد حكى بعضهم انه راه اكل سلمًا كبيرًا من الخشب في مدة خمسة عشر يومًا وياكل مثل الكرسي والمائدة والدولاب في اقل من ذلك فيرى الانسان هذه الاشياء واقفة بهيئتها على اصل صورتها ومتى مسها بيده صارت ترابًا مذرورًا وراحت هباء منثورا

قال الشيخ رايت في بعض الكتب ما هو اخف من ذلك فكنت استغربه فالان زال استغرابي حكى الجاحظ في كتاب الحيوان انه في بعض الايام كثر النمل في بعض ضروب بغداد حتى ارتحل عنه اصحابه وتركوا مساكنهم للنمل وان بعض الناس

قال لاحد الفارين من النمل كيف اخرجكم النمل من دياركم فاخذ بيده وقال هلم معي لاريك ذلك وحمل من طريقه راس جمل مشويًا فلما انتهيا الى بعض تلك الدور اكلا ذلك الراس وامر صاحب المنزل خادمه باحضار طست كبير منصف بالماء ووضع عظام الراس الى جانبه فسعى النمل اليها وصار ياخذ النمل وينفضه في الماء فبعد مدة يسيرة فاض الماء من الطست فقال له كيف تسكن تلك الديار على تلك الحال فسبحان من خلق الاشياء وعرف الانسان قدره بتلك الايات فهذا جيش من النمل اخرج قومًا من ديارهم وابطل حيلهم وقواهم واعجزهم ليفهموا قوله تعالى وخلق الانسان ضعيفًا ويقفوا بانفسهم على مواضع الاعتبار وتكون مساعيهم فيما له خلقوا وكل ميسر لما خلق لاجله على حد الادب مع الخلق وخالقه

قال الانكليزي ومن النمل نوع اذا بنى له بيتًا لا يجعله هرميا بل يجعله على شكل كروي في عظم البرميل يصنعه من مواد صمغية واجزاء خشبية وبعض حشائش ويجعل في داخله ضروبًا وطرقًا كثيرة تفوق الوصف ويكون في العادة بين فروع الشجر

وفي سنة ١٧٨٠ من الميلاد ظهر منه نوعان في المديريات الجنوبية من فرنسا فخرب بسببهما بيوت كثيرة وسقطت اسقف وحيطان متعددة ولم يبقَ في (روشفور) شي من الكتب ولا

الخشب حتى انهم الان يضعون اوراقهم في علب من التوتيا خوفًا عليها

ومنه ما يسكن المزارع فيضر بالزرع ضررًا بينًا وربما حفر له فيها بيوتًا ومغارات وعمقها حتى يبلغ ارتفاع التراب الذي يخرج منها خمسة عشر او عشرين قدمًا فتتلف المزرعة ويتركها صاحبها وربما احرقت اماكن هذا النمل بالنار او ضربت بالمدافع لتخريبها ان امكن وقد يستعمل اللغم في تخريبها اذا كانت عميقة ممتدة في جوف الارض فقد تبلغ في العمق الى عشرين قدمًا في داخل الارض

والكلام في هذا المبحث طويل والذي ذكرته لحضرتكم اقل من القليل بالنسبة لما قيل في هذا القبيل وعما قريب ان شاء الله يتوسع الاستاذ في اللغة الافرنجية فيطلع بنفسه ان اراد على ما شرحه اهل التاريخ الطبيعي في هذا المعنى وغيره بالاطناب والتفصيل فان عجائب الخلقة ونفائس الحكمة لا تنحصر في هذه الحشرات بل هي منبثة في جميع افراد الخليقة فقد منح الصانع كل جنس ونوع وصنف من العالم بخواص عجيبة وامور غريبة تجدها في الاشياء الكبيرة كما تجدها في الصغيرة وتراها في حيوان البحر كما تبصرها في حيوان البر ومن اعجب العجب احوال حيوانات دقيقة جدًا امكن الاطلاع عليها بواسطة النظارات المعظمة وكانت لا ترى بدونها لفرط صغرها ودقتها ويقال لها عند ارباب الفن

الحيوانات النقعية والفطرية وتوجد في العصارات النباتية والحيوانية وفي الهواء والماء وغير ذلك وكانت مجهولة عند الامم السالفة ولم يطلع الانسان عليها ولا انكشف له الغطاء عنها وعلم بعض اسرارها الاّ منذ عهد قريب بعد ظهور النظارات لانها لما فيها من خاصية تكبير الجرم وتعظيمه في نظر الناظر عظمت اعضاء هذه الحيوانات الدقيقة فتيسرت رؤيتها وامكن للانسان ان يمتحن احوالها ويعلم كيفياتها فان اردت اطلعتك على ذلك عند وصولنا الى باريز واريك النظارة واحضر لك بعض عصارات نباتية وغيرها لتختبرها بنفسك وترى ما فيها من الحيوانات بحسك



المسامرة الخمسون

الانسان والحيوان

قال الشيخ من نظر في افعال الحشرات وغيرها وقارن بينها وبين افعال البشر وجد بينها قربًا ومناسبة ظاهرة تحمله على ان يقول ان احدهما اخذ من الاخر فايهما كان المعلم وايهما المتعلم

الظاهر ان المتعلم هو الانسان وان المعلم هو الحيوان وان اكثر معلومات الانسان ومعارفه التي بنى عليها اعماله ماخوذة من الحيوانات صغيرها وكبيرها وهي اساتذته في ذلك فمن اطلع على احوال الحيوانات وما لها من لطائف الصناعات علم ان من حكمة صانع العالم سبحانه ان ضرب له المثل بها ليحذو حذوها ويسلك في تحصيل اغراضه الطرق التي سلكتها وقد حكى لنا الكتاب العزيز ان احد ابني آدم قتل اخاه فلم يعرف ما يصنع بجيفته فبعث

الله غرابًا يجث في الارض ليريه كيف يواري سوأة اخيه وان ابن ادم قال ياويلتا اعجزت ان اكون مثل هذا الغراب فأواري سوأة اخي فاصبح من النادمين

قال الانكليزي لا شك في ان الانسان تعلم من الحيوانات واخذ عنها واقتدى بها فانها خلقت قبله وتقدمت عليه فانه لما كان محتاجًا اليها من جهة المساعدة والمؤنة اقتضت الحكمة الربانية ان تسبقه في الخلقة فلما جاء بعدها تعلم منها واخذ عنها فلم تكن اعمال الانسان كلها من مبتدعاته وانما نقلها من الحيوانات والحشرات وقلدها فيها بل ربما لم يتقن التقليد في بعضه وظهر عجزه فيه مع ما له من العقل والفطنة

ولقد عاش مدة في الادواح والاجام كما تعيش الظبى والمها وعاش قبل ذلك مدة في الحجر تحت الارض كما تعيش الجرذان ومضى على ذلك مدد طويلة واجيال كثيرة ثم قلد بعدها النمل في اتخاذ البيوت المنتظمة التقسيم والشكل

وتعلم عمل الجسور والقناطر من الحيوان المسمى بالكستور وهو المعروف بالجندبادستر الذي يبني بيته بالقرب من شاطئ نهر او بركة ويتخذ له من اغصان الاشجار جسرًا متينًا على هيئة سد يمنع عنه قوة السيل بان ينضد تلك الاغصان بعضها فوق بعض ويلصق احدها بالاخر الصاقًا محكمًا لا ينقصه شي مما يحتاج اليه من هندسة البناء

واخذ الانسان علم الملاحة عن الدب الذي يوجد في المنطقة الشمالية من الكرة الارضية فانه يسافر في البحر على قطع من الثلج الى حيث يقصد

وتعلم الصيد والقنص من الثعلب البحري البري ومن بعض الحشرات الصيادة

واخذ الاسلحة كالسيف والحربة والمنشار والبلطة وغيرها من تامله في السمك

واخذ صنعة الشباك من مشاهدته لبيت العنكبوت وقد تقدم

واخذ صناعة الدروع والكماشات والملاقيط عن السرطان

واخذ صناعة احتقاق النشوق عن الاستريديا وام الخلول

واخذ علم الفلاحة عن الخنزير فانه اول حيوان شق الارض بخرطومه فاخذ عنه الانسان صنعة حراثة الارض ولعله كان ايضاً اول معلم للانسان في كيفية استخراج المعادن كالذهب والفضة من الارض

واخذ عن الهرة التوقي من الروائح الكريهة التي تتصاعد من الفحم

واخذ الطب عن الكلب حيث رأه يتعاطى المسهلات عند انحراف مزاجه

واخذ تجنيد الجنود وتعبيئة الجيوش من النحل

وتعلم تدوين الدواوين والمشاورة في المصالح من اللقلق واخذ التياتر والالعاب المضحكة عن القِرَدَة

واخذ الحذر عن الغراب واتخاذ الجلساء للملوك عن الكلاب وكذا لثم اليد التي يخاف سطوتها

واخذ الجور والجرأة عن السبع والكبر والخيلاء عن النمر والجمهورية عن النمل

قال الشيخ الانسان وان قلد الحيوان في بعض احواله وبرع في كثير من اعماله لكنه الى الان لم يصل الى تقليد النمل في طريقة ادخاره لاقواته الازمان الطويلة من غير ان تتلف والظاهر انه اخذ عن الحشرات فن الرسم والنقش وهندسة العمارات وصب المعادن في قوالب مختلفة وعلم الطبيعة والكيمياء والعلوم الرياضية وللان لم يصل الى استيفاء جميع ما عندها من الاسرار ومن نظر في امور الانسان والحيوان وما لهما من الاحوال والاعمال علم ان الانسان لولا بحثه واستكشافه لاحوال جيرانه في الارض من الحشرات وغيرها لكان في العجز عن تحصيل منافعه واستكمال اسباب راحته اقل من كثير من الحيوان

المسامرة الحادية والخمسون

دعوة انس

قال ناقل الحديث وحين انتهى بهما الكلام الى هذه الغاية استأذن الانكليزي صاحبه الشيخ في المضي الى الوفاء بوعد بينه وبين رجل من اصحابه كان لقيه بالامس واخبره انه يريد لقاءه والتحدث معه ساعة فشكره الشيخ على ذلك وظهرت في وجهه بشائر المسرة وخلا حينئذٍ ببرهان ابنه فقال الان تخبرني بجميع ما شاهدت في الدعوة التي كنت بها امس

فقال له برهان حاصل القضية ان حضرة الخواجا عرفني ونحن في الطريق انه ذاهب الى بعض اصحابه ليذهب معه الى دعوة عند احد الاغنياء وان هذه الدعوة يحضرها اعيان البلد ووجوهها واننا ننتهز منها فرصاً جمة اقلها معرفة اخلاق هذه الامة

الى ان قال وليت الوالد كان معنا ليرى ما نراه فربما لا تفي العبارة اذا نحن عدنا واخبرناه الى ان انتهت بنا الطريق الى باب عال داخله ميدان واسع فاستقبلنا الخدم من الباب بغاية التعظيم والتكريم ومشوا معنا الى ان دخلوا مكانًا فسيحًا غاصًا بالناس فيه نحو خمسمائة نسمة من رجل وامرأة فاستقبلتنا صاحبة المنزل بغاية الترحب والتاهل ثم اتى بعلها وفعل مثل فعلها واخذ بيدي الى المجلس وذكر لهم اني من مصر فحيوني جميعًا ورحبوا بي وقدموا لنا كراسي جلسنا عليها وكان بالمجلس رجل تلوح عليه هيئة الهيبة والوقار يتكلم بالعربية كانه ليس من ابناء هذه الديار فسالني عن بلدي وعشيرتي ومحتدي وعن امور كثيرة منها ما اعلم ومنها ما لا اعلم حتى سالني عن الاهرام وبعض المعابد والهياكل التي بجهة الصعيد فكنت تارة اجاوبه مع الخجل وتارة اتستر بالصمت فيبادر صاحبنا برد الجواب وربما يزيده فوق ما يريده فما انقذني من ورطة هذا المجلس ومضايق تلك الاسئلة غيره ولولاه لكنت اضطررت الى الاعتراف بالجهل لما علمه الاغراب من امور بلادنا وما بها من الاثار العظيمة والمباني القديمة فقد وجدت ذلك الرجل يذكر امورًا ليست في علمنا ولا اطلعنا على نص لها في كتبنا وكان باقي اهل المجلس يتكلمون في انواع مختلفة من امور الدنيا فمنهم من يتكلم في اسباب كساد التجارة ورواجها ومنهم من يتكلم في محصول الارض وخراجها ومنهم من يتكلم في النوادر

والغرائب ويصف ما في الارض من العجائب الى ان جاء وقت القيام الى الطعام وقام صاحب المنزل وزوجته ودعوا الناس الى القيام فكان اول من دعي رجل نحيف البنية متوسط القامة يظهر على وجهه اثر الحزن ورايت اهل المجلس جميعًا يعظمونه زيادة عن تعظيم بعضهم بعضًا فسالت صاحبنا عنه فقال لي انه من امراء ايتاليا المعتبرين

ولما ان وصلنا الى السفرة وقعد كل منا في المحل المخصص له كان ذلك التلياني في الصدر وعن يمينه صاحبة المنزل وعن يساره صاحب الخواجا وانا بجانبه فمكثنا على السفرة نحو ساعتين قضاهما القوم في مدام وندام وشراب وطعام ثم قاموا وكان اول من قام صاحبة المنزل فمد التلياني يده اليها ليقوم معها ثم قام الناس جميعًا فمن كان له منهم حرم اخذ بيدها ومن لم يكن حرم قام منفردًا ثم مضوا جميعًا الى حجرة اعدت لشرب القهوة والدخان وتلك من عادات القوم حجرة للطعام وحجرة لجلوس الفرجة والنزهة والابتهاج بما يحضرونه من الالعاب وحجرة للاشربة وانواع المكيفات كل موضع لشي لا يفعل فيه غير ما له اعد فاخذ الناس مجالسهم وكنت الى جانب صاحبي واستقروا قدر ما شربوا القهوة ثم اضطرب المجلس فرايت رجالاً اخذوا بايدي نسائهم وجعلوا يترددون في محادثة وموانسة ورايت رجلاً كالمعتوه يقوم مرة ويقعد مرة ويمضي لهولاء وينعطف على اخرين ويتحدث بكلمات يضحك

بها من يكون عندهم فكانه سخرية المجلس يظهر ذلك في اقواله وافعاله ورايت رجلاً منتبذًا ناحية عليه سكينة ووقار في ملابس مخالفة لملابس الناس يظهر عليه انه قسيس وقد احاط به جملة من النساء وهو يحدثهن فيلتفت لهذه ثم يلتفت لهذه وكانه يقرا لهن درسًا او يبدي لهن نصائح فكنت باهتًا متعجبًا فالتفت اليّ صاحبي وقال مالك شاخص البصر كانك متعجب من هذه الاحوال فقلت اي وحياة مولاي وكيف لا اتعجب وهذه امور ما رايت مثلها في بلادنا فان حال الناس هنالك اذا كانوا في مثل هذه الدعوة انهم يحضرون اما فرادى وهو الغالب واما انسان وصاحبه فاذا دخلوا دار الوليمة جلسوا او سلم عليهم صاحب الدار وحياهم ودعا لهم بالقهوة فشربوا يفعل ذلك مع كل من حضر فاذا شرب احدهم القهوة اخرج كيس الدخان من جيبه وملاء شبكه وصرخ يطلب جمرة من رجل اعد لتفريق النار على شبكات الحاضرين وان كان لاحدهم خادم ملاء الشبك وناوله لسيده ثم لا يزالون على تلك الحال حتى اذا نصبت الموائد قاموا اليها فتناولوا جماعة جماعة ان كانوا كثيرًا لكون المدعوين يحضرون في اوقات مختلفة يعينها صاحب الوليمة في الاوراق التي يرسلها لهم قبل يوم الدعوة فاذا فرغوا من الطعام عادوا الى مجالسهم التي كانوا بها قبل الطعام ودارت عليهم القهوة الغينة بعد الغينة واخذوا شبكاتهم على الرسم السابق وتحدث كل مع من يليه.لا يجاوزه الى غيره لانهم اما

متعارفون فغالبًا تكون بينهم عداوة للاشتراك في صناعة او التزاحم على وظيفة او غير متعارفين فهم لذلك السبب لا يتردد بعضهم لبعض لتعميم المسرة والتشارك في البهجة وتواصف محاسن ما هم فيه والمكالمة في امور يطلبون صلاحها ويدفعون فسادها الى غير ذلك من الاحوال التي تقتضيها صحبة الحياة في بيت واحد عند اجتماعهم سيما في اوقات السرور والبهجة والصفاء وانما يكون حديثهم اما في الانتقاد على صاحب الدعوة بتسفيه رايه ورميه بالاسراف ان كان بذل جهده وتقبيح امره ورميه بالنذالة ان اقتصد او قصّر واما في اغتياب بعض الحاضرين واما في الشكاية والتألم من بعض المشاركين له في صناعته في اشياء صدرت بينهم قديمًا او حديثًا ذلك دابهم وحالهم حتى اذا انقضت ثلاث ساعات من الليل حضر ما اعده صاحب المنزل من الامور التي جرت عادتهم ان يتلهّوا بها ويجتلبوا بها انس الحاضرين وسرورهم فاذا كان كذلك تغير الوضع فبعض يسمع وبعض يتحدث في امور مختلطة واحوال غير منتظمة وربما وجدت الواحد منفردًا يتحدث مع نفسه او يستمع او ينظر الى الناس يمينًا وشمالاً كانه يتاملهم ويمتحن مقدار عقولهم حتى اذا مضى خمس ساعات من الليل اخذ الناس في الانصراف الى منازلهم شيئًا فشيئًا حتى لا يبقى الاَّ من حضر من الغوغاء وهولاء ربما اصبحوا ولم ينصرفوا حتى يبيض النهار فهذا وضع بلادنا قديمًا وان كان الان اخذ في التغير لان حب المودة والتالف والاقبال

على لطائف الاحوال قد دب فيهم وربما درج بين بعضهم وارجو ان يبلغ كماله وارى هولاء الناس على هذه الاحوال وذلك سبب فكرتي في حال اهل بلدي حتى انا الان متاسف غير منبسط الخاطر لبعد ما بين الحالتين فهذا ما رايته من ذهولي وشخوص بصري واني لارجو ان تعرفني بما استخبرك عنه وسالته عن الرجل الذي احاطت به النساء فاخبرني انه من طائفة القسيسين الذين وظيفتهم ان تجتمع اليهم النساء ويفضين اليهم باسرارهن فياخذون في تعريفهن حقوق الرجال على النساء وحقوق النساء على الرجال وازالة ضغائن النفوس والحث على استبقاء الصحبة والوصلة وطرح التحاسد بالتفاوت في الخلق بالجمال وعدمه والامن باتخاذ الزينة واستعارة الحسن وتفهيمهن ان المقصود الاصلي من اجتماع نوع الذكور والاناث انما هو النسل واستبقاء النوع وتقوية العائلات بالتكثير والتعاون في اصلاح الوطن خصوصاً وعموماً الى غير ذلك من الاشياء التي ياخذ بها الانتظام بين الرجال والنساء حد كماله وغاية تمامه وسالته عن الرجل الذي يقوم ويقعد ويجيء ويذهب فاخبرني انه احد الشعراء الذين حالهم ان يحضروا في الولائم ومواضع الانس لالقاء نوادر مضحكة حفظوها وانشاد اشعار في امور تخيلوها ترتاح اليها النفوس وتميل اليها الطباع في اوقات الفراغ ولهذا الرجل خصوصية بصاحبة هذا المنزل فانه كان صنع لها في ايام صغرها وفقرها تاريخاً يخبرها فيه باستقبال السعادة والغنا

حسبما تعطيه قيافة وجهها والفراسة فيه بعلم ادعى ان مهرة الشعراء مخصوصون بمعرفته فوافق ذلك ان استقبلتها الايام بالسعادة والغناء حتى آل امرها وامر زوجها الى ما ترى بعد ان كانا فقيرين ربما لا يدركان القوت وعهدي بموضع هذا المنزل مطرحاً للقمامات وملقىً للكناسات وكأن صاحبه كان ورثه عن اهله وكان لفقره خرباً لا يقدر على عمارته فما زال هو وزوجته يدأبان في طلب الغنى بمباشرة اسبابه والتردد في الطرق الموصلة له حتى اقام هذا المنزل من اساسه بعد سنين غير كثيرة فهل في بلادكم من يكون له مثل هذا فقلت له ربما ساعد البخت والحظ من امسى فقيراً فاصبح غنياً وغدا خاملاً فراح نبيهاً على حسب القسمة وتحول الاقدار ثم اخذ الرجل في مدح الثراء واطراء الغنى وذكر فوائد المال والثناء على المشتغلين بتحصيله والاجتهاد فيه وتنميته وحسن القيام عليه والتعهد له حتى غض من اهل الورع والزهد وازرى احوالهم وعاب افعالهم وقال ان كلامهم بين الناس هو الذي اوجب لهم الخمول والكسل وخشونة العيش وضيق الحال بما ارتكز في قلوبهم من الجهل وعداوة العلم وطلبه من حيث وجدوه والنظر في اصلاح الحال والمآل حتى ادعى ان الارزاق غير مجهولة وبين ذلك ومثل له فقال

تعلم ان مطالب الناس منحصرة في اربعة اشياء الاغذية والادوية والاكسية والاخبية لحفظ الحياة والتحرز من ذهابها

والحصول على لذاتها والتصوّن عن آلامها المدة المعينة للحيوان حسبما اقتضته حكمة صانعه فلذلك توزع الناس الاشغال ما بين زارع وصانع وطبيب الى غير ذلك فلو فرضنا ان صناع النعال مثلاً عرفوا المقدار الذي يحتاجه اهل بلدهم في السنة ولا بد لهم من اخذه واتلافه في تلك المدة واستعواضه بعدها فهم لا شك جازمون بانه يطلب منهم في وقت الضرورة اليه وياخذون مقابل اعمالهم فيه فهم واثقون بحصول رزقهم في وقته امر قضت به طبيعة الخلقة وفرغ منه القدر على هذا جميع الاعمال غاية الامر ان جهالة الرزق انما هي في زرع يزرع او حيوان يربى فتصيبه آفة سماوية قبل بدو صلاحه وإبّان اخذ ثمرته هذا هو موضع جهالة الرزق على ان الناس ربما بحثوا عن اسباب تلك الافات فتحرزوا عن كثير منها ونحن مامورون بالتعرف والاستكشاف لحقائق الاشياء واسبابها وعللها وموجبات صلاحها وفسادها واجراء السنن الالاهية في مجاريها يرشد الى ذلك ما رايته في بعض كتب الاحاديث المنقولة عن نبيكم (صلعم) وهي في ايديكم تقراونها وتحاولون العمل بمقتضاها وهو انه مر يوماً على اصحاب نخل المدينة وهم يلقحونها فقال لو تركتم ذلك فتركوه فشاصت سنتها فقال لهم ما بال نخلكم في هذه السنة فقالوا الم تقل لو تركتم التلقيح فقال لم اقل لكم اتركوه وانتم ادرى بامور دنياكم فنبههم على وجوب مباشرة الاسباب والمحافظة على العادات الكونية وارشدهم الى ذلك باقوى المرشدات من ظهور

الخسارة واستحكام الفساد المؤدي لسرعة زوال حياتهم ومن كلامه الشريف الذي رايته في تلك الكتب ايضاً ان الله يحب من عبده اذا عمل عملاً ان يتقنه فتحيرت من كلامه وتغير خاطري من قدحه في اهل الورع والزهد وضمرت في نفسي ان اسالك عن هذا لتبين لي الحق فيه

فقال الشيخ يابني انا مخبرك بذلك ومرشدك لحقيقته بعد ان تتم الحديث في نعت ليلتكم وما انتهت عليه

قال برهان ثم قمنا الى موضع اللعب فرايت مكاناً يأسر الطرف ويملا الصدر ويشغل اللب باحكام وضع وزينة وزخرفة قد اتخذ على شكل مواضع التياتر علقت فيه الواح مرسوم فيها غرائب اشكال على غاية ما يكون من الاتقان والملاحة وقد وضع في وسط المكان على دائرة عظيمة من الرخام الثقيل اللماع مرتفعة على كرسي اصناف الازهار والرياحين في اوان مختلفة الاشكال والالوان انبثت عليها اشعة الانوار فكان هناك منظر عجيب يكاد يخطف الابصار ثم اظهرت الالاعيب وكانت عبارة عن صور نساء على اتم ما يكون من الحسن والجمال فاخذت تلك الصور تنقلب من شكل الى اخر تتقارب وتتباعد وتنام واحدة وتقوم واحدة كانها ذوات ارواح لا يشك من راها ولم يعرف حقيقتها في انها نساء قواصد لتلك الحركات كل ذلك والناس اليها ناظرون ولمحاسن ما يصدر عنها متواصفون غير اني كنت في

حرج عظيم وضيق صدر لعلمي ان ذلك لا يحل نظري اليه وتاملي
فيه فذهب سروري واسفت على حضوري غير اني انكره بقلبي
وارجو مغفرة ربي وقلت هذه اشياء احكيها وان كنت لا اشتهيها
ومما كان يخجلني هناك ان النساء كانت تحيط بي وتحدق النظر
اليّ وتكرر الاسئلة عني وعن حالي ويتواصفن وجهي ويظهرن
استحسانه وربما تمنت الواحدة ان تكون عينها مثل عيني والاخرى
تقول ليت هذا الانف انفي فلم يكن لي فرج الّا ان قمنا وتحولنا
الى موضع معد للفواكه والاشربة وانواع النقل فتناول كل حسب
رغبته ثم انصرفنا ومضى كل الى سبيله واستنجز برهان اباه العدة
بان يخبره بما ساله وهمَّ الشيخ ان يحدثه به واذا بيعقوب يخبره بحضور
الانكليزي وصاحبه الذي كان ذهب اليه فقال يا بنيّ في غير هذا
الوقت نتكلم ان شاء الله تعالى ثم دخل الانكليزي وصاحبه فتلاقوا
تلاقي الاحبة وتهادوا تحية المحبة واخذ كل في السوال عن حال
صاحبه وتناولوا اطراف الحديث فكان من كلام الضيف ان قال
بمناسبة الحال ان مصراً في سالف الازمان كانت منبع العلوم ومنها
انتشر التمدن في البلاد تشهد بذلك الاثار القائمة على مرور الدهر
كالاهرام والبرابي ومصارف المياه ومواقع المدن والقرى فقال
الشيخ هل سبق لحضرتكم سياحة في مصر فقال نعم واقمت بها ثلاث
سنين وثمانية اشهر اتردد ما بين القاهرة واقصى الصعيد وقد ضمنت
جميع ما رايت كتاباً اطلعك عليه عند التقائنا بباريز فهي دار اقامتي

ولي هنا شغل متى انقضى لحقتكم ثم توادعوا ومضى الشيخ وابنه وصاحبها ويعقوب الى محطة البواخر متوجهين الى باريز

المسامرة الثانية والخمسون

ذم الدنيا ومدحها

(قال ناقل الحديث) فلما استقر الشيخ وابنه وصاحبها الانكليزي في عربة سكة الحديد وسارت بهم العربة اخذ الشيخ يحدث ابنه فيما كان قد ساله عنه بعد ان اعلم صاحبه بما جرى بينهما من وصف تلك الليلة وحديث برهان مع صاحبه الذي بالغ في مدح الدنيا والثناء على طلابها وازراء من سواهم والطعن فيه

فقال اعلم يا بني ارشدك الله ان الانسان وسائر الحيوان بحسب خلقته مضطر الى تحصيل ما يحفظ به حياته وقد مكنه الله من ذلك واراه طريق السعادة وطريق الشقاوة فقال عز ذكره (انا خلقنا الانسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعًا بصيرًا انا هديناه السبيل اما شاكرًا واما كفورًا) فدواعي الطلب قائمة في طبيعته ونفس خلقته من وقت خروجه للدنيا · سئل حكيم متى عقلت فقال حين ولدت فقيل له وكيف ذلك فقال جعت فطلبت واعطيت فسكت فهل ترى ان احدًا يذم هذا الطلب غير ان الانسان لا يقتصر على موضع الحاجة بل يحب الاستكثار من الخير وجمع المال والتبسط في الانفاق وحينئذٍ اما ان يسلك الطريقة المثلى التي نهجها الله واوضحها ونصب علاماتها على السنة رسله واهل الحكمة من خلقه واما ان يسلك غيرها وهذا موضع الحمد والذم والثواب والعقاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا تسبوا الدنيا فنعمت مطية المؤمن عليها يبلغ الخير وبها ينجو من الشر فانظر كيف نهى عن سبها واثنى عليها وعلى طلابها الذين صرفوها في وجوهها غير ان ادارة الاعمال الدنيوية محتاجة الى عملين عمل بالابدان وعمل بالارواح وقد فاوت الصنع الرباني بين الناس فجعل بعضهم اذكياء والبعض اغبياء وكفل بعضهم بعضًا فكان اشتغال اذكياء الناس بالفكر في مصالحهم وتدبير ما تحسن به احوالهم فلزم في مقابلة هذه الخدمة الروحانية ان يخدمهم بقية الناس

بابدانهم ويريحوهم من تجشم الكلف في تحصيل مؤنهم فظهر الفقر والغناء وبموجب ذلك نجم بينهم التحاسد والتباغض والتعادي نقل عن امير المؤمنين علي كرم الله وجهه انه قال عداوة الضعفاء للاقوياء والسفهاء للحكماء والاشرار للاخيار طبع لا يستطاع تغييره فعند ذلك وجب وضع القوانين وتجنيد الجنود ووضع القلاع والحصون وتصوير الات القتل لتحاجز الناس بعضهم عن بعض ولزوم كل عمله الذي استعد له ولو سلك الناس سبيل الانصاف لم يحتاجوا الى شي من ذلك كما قيل

لو انصف الناس استراح القاضي
وبات كل عن اخيه راضي

ولكن الحال على خلاف ذلك ولم تكن القوانين الحكمية كافية في حسن صحابة بعضهم بعضاً لكونها انما تتعلق بظواهر الاحوال ومشاهداتها فيتعين لذلك وجود طائفة من الناس يتكلمون بمثالب الدنيا وعيوبها ويزهدون فيها وينهون عن شدة التزاحم عليها ليثبت اهل القلة فيها على اشغالهم الشاقة التي لاجلها خلقوا ولا يبذلوا قواهم في معارضة المكثرين ومضاربتهم فتبين من ذلك ان اعمال الناس وظائف خدمة مقسمة على طوائفهم لا يصح ان يفاضل بين اهل وظيفة وغيرها وانما المفاضلة بين اشخاص كل وظيفة فمن قام بوظيفته حق القيام بها مقتصداً دون افراط وتفريط كان محموداً ومن مال الى احد

الطرفين كان مذموماً بقدر ميله كما قيل

فلا تغلُ في شي من الامر واقتصد
كلا طرفي كل الامور ذميم

وهو عقد لقوله صلى الله عليه وسلم خير الامور اوساطها فلا مساغ اذاً لاطلاق المدح والذم كيف وعقلاء الناس الذين لاسبيل الى تجهيلهم وتسفيه احلامهم قد توزعوا تلك الخدم قديماً وحديثاً لا تنكر طائفة على طائفة الاّ الخروج عن الحدود المتوسطة وها انا احكي لك حكايات تجلو لك الحال وتستاصل شافة الاشكال هذا نبي الله ايوب عليه السلام كان صاحب ثروة عظيمة من الزراعة وتربية الحيوانات فكان له خمسمائة حمار مصرفة في اشغاله

وامر داود وسليمان ابنه عليهما السلام مشهور وكان ابناء الخالة يحيي وعيسى على خلاف ذلك من الزهد في الدنيا والتقلل منها والاقتصار على موضع الحاجة هكذا كانت رسل الله كل سالك طريقة لا يعاب بها ولا يفضل احد منهم على احد من تلك الجهات حتى كانت النبوة الاخيرة الجامعة على صاحبها افضل الصلوة واتم التسليم فنهج المناهج كلها وبيّن الطرائق وحدودها ومشت علماء امته بعده في تلك الطرق فكان ابو بكر رضي الله عنه على سيرة يحيي وعيسى عليهما السلام وكان عمر رضي الله عنه على سيرة موسى عليه السلام من الشدة وايقاف الناس على الحدود وضبطهم عن الزيغ والميل حتى انه لما قدم الشام لاستكشاف

الحال ولقيه اميرها معاوية رضي الله عنه في المراكب المزينة والاسلحة المحلاة والملابس المتحيزة والموكب الحافل كلمه في ذلك فاعتذر بكونه لازمًا لسياسة ناجيته فسلم له وترك الاعتراض عليه وكان عثمان رضي الله عنه على سيرة ايوب عليه السلام من التبسط في الانفاق وتعميم اهله بالمبرة والتوسيع على الناس فبنى دارًا وشيدها وجعل اخشابها من نفيس الخشب كالساج وغيره وفي ايامه بنى الزبير بن صفية عمة النبي صلى الله عليه وسلم عدة قصور بالمدينة والبصرة ومصر ومن الصحابة من صولحت احدى زوجاته وكن اربعًا على ربع ثمن تركته الذي تستحقه منها على اثنين وثمانين الف دينار الى غير ذلك من امور يطول استقصاوها ودخل رجل من المتقشفة على الحسن البصري رحمه الله وبين يديه خبيص فدعاه اليه فقال الرجل اخاف ان لا اشكر نعمة الله فيه فقال له الحسن كل فنعمة الله عليك في الماء البارد اكبر وقال رجل لابي حنيفة رحمه الله وقد رأى عليه حلة قيمتها خمسمائة مثلك يلبس هذه فقال ان رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يلبس الحلة قيمتها الف وما سمعت تعلم انه لا اعتراض على من تناول من طيبات الدنيا ما تناول اذا كان بوجه الحق واتلُ قوله تعالى قل من حرم زينة الله التي اخرج لعباده والطيبات من الرزق وانما العيب والمشئمة على من اخذها بوجه الباطل كالتلصص والغصب والنهب والظلم وهولاء ان لم تهلكهم الحدود المشروعة فلا بد ان

يهلكوا من نفس اعمالهم وسوء تدبيرهم وشوم بغيهم كما يحكى ان جماعة
من اللصوص توافقوا مع يهودي على ان يربح لهم جميع ما كسبوه
وتشارطوا في ذلك وتعاهدوا وتحالفوا على عدم الخيانة ومضوا على
ذلك برهة من الزمان الى ان شعرت بهم اهل الضبط والسياسة
فارسلوا عليهم الجواسيس يتلمسونهم فكانوا يعثرون بالواحد والاثنين
حتى قبضوا على كثير منهم وافنوه فلما رأى رأس اللصوص ذلك
غير منقطع والطلب دائم والبحث عنهم متتابع دبر في نفسه ان يعمل
الحيلة في قتل اليهودي واستخلاص جميع المال لنفسه وخطر هذا
الخاطر باليهودي ايضًا فلنفاذ القضاء ودوران دائرة السوء على
اهل البغي والخيانة تحيل اليهودي في اشعار الحاكم باسماء اللصوص
ومواضع اجتماعهم فكتب ذلك في صحيفة والقاها في الصندوق
المرصد لالقاء الناس فيه صحائف المظالم وعروض الاحوال واتفق
ان جاء كبير اللصوص لانفاذ ما دبره قبل اطلاع الحاكم على صحيفة
اليهودي وخلا باليهودي وتحدث معه حديث المودة والصفاء وعرفه
انه يريد الاستئثار بهذا المال وقسمته بينهما وحرمان اللصوص منه
حتى امن اليهودي ودخل معه الحجرة التي فيها صناديق المال فلما
عرفها واستكشفها تغفل اليهودي فضربه بخنجر احس منه بالموت فلما
علم اليهودي انه ميت لا محالة جرى الى الباب فقفله وكان بابًا
محكمًا من حديد صفيق يمنع نفوذ الصوت ولا يمكن فتحه الّا بحيلة
لا يعلمها غير اليهودي فاخذ اللص يتحيل على اليهودي ويتذلل له

ويلم جرحه ويستوقف جريان الدم ويكمده والدم يتشخب لبلاغة الجرح ومصادفته الكرب حتى فاضت نفس اليهودي وقعد اللص الى جانبه ينتظر الحمام حتى جاءه بعد معاينة الاهوال ومقاساة الالام ينظر الى المال بالندامة ويعود على نفسه باشد الملامة وهيهات نفذ القضاء وحل به اقبح اعماله وسوء تدبيره وخيم البلاء ثم ان الشيخ لما فرغ من هذا الكلام اطرق اطراق المتفكر وزفر زفرة المتذكر فقال له صاحبه مالك يامولاي فوالله لقد نظرت الى الدنيا بعين ربانية وتكلمت على احوالها بما هو مراد خالقها منها فهل لك في ان تروح خاطرك بالاستماع الى حكاية يعقوب تاريخ نفسه ووقائع ايامه فقال الشيخ لا باس فساله الخواجا ذلك فاعتذر بقصور عبارته في العربية فقال له لا عليك ما عجزت عن عربيته فاحكه بلسانك وانا اترجم عنك فاقبل يعقوب يحدثهم فقال

المسامرة الثالثة والخمسون

حكاية يعقوب

حاصل قصتي اني مذ درجت وجدتني واخًا لي اكبر مني بقليل في حضانة ام ذهب اطيب عمرها تجمعنا حجرة لا يظل سقفها غير اشخاصنا واشياء حقيرة بالية من اثاث المنازل لا نزور ولا نزار غير انه كانت لنا جارة عجوز فقيرة حالها احسن من حالنا قليلا فكانت تتردد الينا ونتردد اليها وربما افضلت علينا ببعض ما يفضل عنها فلم تطل الايام حتى مرضت امنا ولم يكن لنا حيلة الاَّ الجلوس الى جانبها والبكاء فكانت تلك الجارة تتعهدنا وبذلت المجهود في تمريض امنا وطلب الشفاء لها حتى قضت نحبها فبقينا منفردين ليس لنا الاَّ الله وتلك العجوز فعرفتنا كيفية السوال وطفقنا نتكفف الناس فعشنا على ذلك برهة فبينما نحن في بعض الايام جالسين الى

جانب جدار في الطريق اخذ النوم برؤسنا وطرحنا هنالك فمر بنا العسس فحملنا الى مدرسة اليتامى فاقمنا بها مدة حتى تعلمت صنعة الجزم وتعلمت اختي الخياطة والخدم المنزلية فلما عرف مدير المدرسة منا ذلك اطلقنا لنتكسب بانفسنا فلحقت انا برجل من اهل تلك الصناعة وكنت في صناعه وخدمت اختي في بعض المنازل فلبثنا ما شاء الله ازيد عند صاحبي محبة وتقريبًا وتمييزًا على الاخوان لما رأى بي من المهارة في الصنعة وبذل الوسع في الخدمة وكذلك اختي عند سادتها كل مقبل على شغله وصارف همته في تحصيل رزقه خائفين ما كان يلحقنا من ذل السوال وروعة الحرمان وكلاحة الوجوه وسوء المصبح والممسى حتى اختلطت بناس هم اكبر مني سنًا واكثر مالاً وادرى بامور الدنيا فسمعتهم يتحادثون في اسباب الغنى من التجارة وانواعها والزراعة واصنافها والصناعة واقسامها متنازعين فيما هو الاسهل منها مسلكًا والاقرب غاية والاشرف اهلاً والاجمل اعمالاً فرايت اكثرهم مصرين على انه التجارة محتجين لذلك بامور معقولة وحكايات عن السلف منقولة مثبتين ان صنف التجار امرآ على الصنفين الاخرين وسمعت منهم ايضًا أن اعلا انواع التجارة ما كان بالاسفار في اقاصي اطراف الاقطار فحدثتني النفس الهاربة من الذل والشقا الطالبة للعز والسعادة ان افكر في الحيلة التي اصير بها تاجرًا فكنت لذلك اذهل وفي عملي اكسل ويظهر ذلك عليّ شيئًا فشيئًا حتى انكر عليّ

من انا عنده حالي واستخبرني عن سبب تغيري عن عادتي فكتمته امري وما زال يتلاطف بي في السوال وادافعه حتى اطلعته على مكنون سري وباطن امري فتبسم عجبًا واعقبه عبوسًا وغضبًا وقال يا بني هذه وساوس لا تعقب لك خيرًا والاشتغال بها ضياع لما بيديك وحرمان مما يستقبلك من الرزق فاقبل على عملك تكن عن قريب مثلي صاحب دكان وعندك صناع يصرفهم رايك وامرك واني مضمر ان ازوجك ابنتي وابسط يدك في مالي فضعف ذلك الخاطر واقبلت على عملي بياض نهاري وفي اخر اليوم لقيت اولئك الاصحاب وسمعت منهم تلك الاحاديث فقوي ذلك الخاطر واستحكم وكان سببًا في دخولي معهم ومشاركتي اياهم في الحديث متعرفًا منهم اسباب وصول مثلي الى التجارة والسعي في اهلها وكان في القوم انسان عازم على التوجه في مركب له الى سواحل افريقية فعرض عليّ الصحبة وتكفل لي بالموؤنة والتزم لي بالمعونة وسالني عما بيدي من الدراهم فاخبرته فتوافق معي على ان يشتري لي بها من بضاعة بلادنا وعرفني انها تربح تسعة اضعافها فبت ليلتي في حساب اموالي افرح بنجاح اعمالي فما هو الّا ان انكشفت ظلمة الليل بعض الانكشاف حتى جئت الى الموعد وسلمت دراهمي لذلك الصاحب ورجعت الى صاحب الدكان التي كنت بها فاخبرته بتصميم العزيمة ولم اقف لاستماع كلمة منه ومضيت الى المنزل الذي فيه اختي فاخبرتها بنيتي وودعتها ولم التفت الى بكائها وعدت الى صاحبي

فرايته قد حزم بضاعتي الى بضاعته وكان قد شحن السفينة ببضاعة الناس وعزم على السفر فقلعنا المراسي في اصيل نسيمه يحيي الروح ويوجب شكر نبي الله نوح والجو على احسن ما يكون من صفاء الاديم والبحر في اضطرابات لطيفة كانها رقص تعليم فبتنا بليلة قاربت اطرافها احاديث ممزوجة بحلاوة الاماني الى ان استقبلنا النهار ونحن في نشاط وسرور فما مضى كثير من النهار حتى راينا الريح بدت فيها قوة بعثت موجة صدمت السفينة فهزتها وخالفت حركتها فرايت الملاحين قاموا وتنادوا وتحاذروا وتواصفوا امرًا ما خطر لي ببال ورايت اهل السفينة في هرج فقلت لمن بجانبي ما للناس تغيرت هيئتهم وتبدلت حالتهم فقال الم ترَ هذه الريح كيف اشتدت وهذا الموج قد اقبل وهذه المركب قد اضطربت قال يعقوب فتعجبت لخفة ما هو كائن والجهالة بما يكون فلم نلبث الاّ قليلاً حتى تتابع الموج واشتد الريح واظلم الجو واشتد اضطراب السفينة وماج الناس وتصارخوا واخذ بعضهم ببعض فاشتد جزعي لهول ما لم يسبق لي به شعور وقلت في نفسي اخارج انت لتصير من التجار ام لتكون من دفائن البحار وذكرت من قول معلمي حين كان ينصحني يابني داخل البحر مفقود والخارج منه مولود فاحاطت بي الهموم وتذكرت فرقة اختي وندمت على ما فعلت من اهمال النصيحة وركوب هذا الخطر فكنت الوم نفسي تارة واعتذر لها تارة ثم ان الريح لانت وتهادأ البحر واخذت السفينة في انتظام الحركة

فنظرت الى القوم وقد اصفرت الوانهم وتخاذلت لشدة الرعب اركانهم والملاحون كالعفاريت يترددون في المركب طولاً وعرضاً ويصعدون على السواري ويهبطون بغاية السرعة كأن لم يروا شيئاً مما اخاف الناس وكاد ينخلع قلبي فقمت لصاحبي ودموعي تسيل على خدي ونفسي يتقطع في حلقي وقلت له ما هذه الحوادث البحرية وكيف يتجرأ الناس على هذه الشدائد وهل كان بين السفينة والغرق والناس والموت الاّ شي يسير فاغرب في الضحك ثم قام اليّ فمسح دموعي واخذ في تسكيني وتقوية قلبي وتشديد عزمي وهو يقول ان هذا الشي الذي عاينته ليس بالخطب الكبير وان للبحر احوالاً ذات اهوال فوطن نفسك على استقبال ما استقبلك منها فان الامور لا تنال الاّ بالصبر وما رأيت انموذج شدائد البحر وانظر الى هولاء الملاحين هل تراهم تغيروا او عن وظائف اعمالهم تاخروا واما هولاء الناس فانهم يخافون على انفسهم واموالهم وقد شاهدوا العظائم فهم يذكرون الكبير عند مشاهدة الصغير ومع ذلك فقد اقدموا ولم يتفكروا في موت ولا غرق لعظم لذة الكسب وحب نماء الاموال فعند ذلك سكن إضطرابي وذهب ما بي وتفكرت في بلوغ الامنية وانتهائي لان اكون من اشراف بلدي ويجتمع شملي وشمل اختي واغنيها واغنني عن خدمة الناس حتى وصلنا الى ميناء برموت فالقينا فيها المراسي وطلعنا الى البر وقراره وامنه وراحته فاقمنا اياماً وبعت بعض بضاعتي واشتريت غيره

فظهر لي الربح وهاجت بي الاطماع وهان عليّ امر البحر وفي هذه الاقامة صاحبني بعض الملاحين وتوافقت قلوبنا ونشأت بيننا مودة واخذت في النمو فاشار عليّ يومًا ان يعلمني صنعة الملاحة لاكون معهم على كسب اضيفه لكسبي وليقل رعبي وخفقان قلبي عند معاينة الشدائد وقال لي اذا رغبت في تعلم صنعتنا ودخلت في زمرتنا كان لك ان تحمل في السفينة ما تشتريه من بضائعك من غير اجرة ولا مقابل ولا يعسر عليك ان تتعلم علومنا وتعمل مثل اعمالنا وتكون كواحد منا وربما فقت علينا في مدة يسيرة وما زال بي حتى مالت نفسي الى الدخول معهم في تلك الصناعة فوافقته وتلقيت اشارته بالقبول وشكرته على حسن رايه فلما قضينا حاجتنا من البلد ونزلنا الى السفينة ذهب بي الى القبطان وعرض عليه قصتي فرحب بي وفرح واشار عليّ بملازمته ووعد بان يتولى تعليمي بنفسه وامر بكتابة اسمي في ضمن الملاحين من ذلك الحين فاختلطت بهم وصرت معهم واخذت في تعلم الصناعة ووطنت في السفينة ما معي من البضاعة وصرت كلما رست السفينة على ساحل من السواحل اخرجت من تلك البضاعة شيئًا وبعته على اهله واستعوضته بغيره واخذت في التقدم والترقي في تعلم فنون البحر من القبطان لملازمتي له وائتلافي به فعرفت منه علم الملاحة وحساباتها الهندسية وكيفية تحويل السفن وطي قلوعها وتوجيهها في انحدارها واقلاعها وحساب سرعتها في سيرها فلم تنقضِ هذه السفرة الاّ وانا مستعد

لان اكون رئيساً بين الملاحين وحصل لي من التجارة شي كثير من الذهب والفضة وجملة من التبر بعتها بمبلغ عظيم فاجتمع عندي من المال ما اوقعني في شبكة الطمع واغراني بالاستمرار في الملاحة والتجارة وكان من اقوى الدواعي الى ذلك شدة رغبتي في اتساع دائرة المعرفة والاطلاع فكنت اترقب كل غريبة فاتلقفها فان اشكلت عليّ سالت عنها من يعرفها ولم اقتصر في الاستفادة على هذا القبطان بل كنت اسال عن الشي كل من اتوسم فيه معرفته وكان القبطان المذكور رجلاً متقناً واسع المعرفة والاطلاع ولم يكن يكتم عني شيئاً مما يعلمه ولا يضجر من كثرة ما اساله



المسامرة الرابعة والخمسون

كلب البحر والذيورا

(من حكاية يعقوب)

واذكر اني كنت ذات يوم جالسًا على جنب السفينة انظر الى البحر فرايت سمكة عظيمة الجسم غريبة الخلقة ملازمة للسفينة تتبعها في سيرها لا تتاخر عنها ولا تتقدم عليها فسالت القبطان عن اسمها وشانها فقال هذه سمكة تعرف عند الصيادين وغيرهم بكلب البحر وتكبر حتى يكون طولها عشرة امتار وفمها عظيم جدًا تبلغ سعته عند فتحه نحو الثلث من طولها فيكون محيطه ثلاثة امتار وقطره مترًا واحدًا وكلما كبر هذا الحيوان تزايدت اسنانه حتى يكون له عند بلوغه ستة صفوف في كل فك من فكيه ولم يكن له في صغره غير صف واحد في كل فك وليست اسنانه ثابتة في محلها بل هي

متحركة فتارة تنطبق على سطح الفلك وتارة تنتصب فيه على حسب الاغراض ومقتضيات الاحوال واذا انكسرت منها واحدة نبت غيرها في محلها وجلده غليظ لا يؤثر فيه الرصاص وله من القوة وشدة السرعة ما يمكنه به ان يقطع محيط الكرة الارضية في ثلاثين اسبوعاً لو استمر على سرعة سيره ليله ونهاره ومن شانه ان يتبع السفن في البحر ويقتفي اثرها حيث سارت لا يبالي بشدة اضطراب البحر وهياجه وكثرة عواصفه وامواجه وكثيراً ما رآه الملاحون تبع السفينة ولازمها من حين خروجها من سواحل اوروبا الى ان تدخل في سواحل امريكا لا يفارقها في اثناء ذلك بل يدور حولها من كل جانب كانه خفير عليها يتولى حراستها وهو نهم اكول لا يكاد يشبع وفيه قوة القلب وجرأة الاسد وقسوة النمر وجميع السمك يهابه ويخشاه ويخافه

فقال الانكليزي هذا الحيوان يوجد في جميع جهات الارض لا يختص بجهة دون غيرها واما اقتفاؤه لأثر السفن فلانتظار ما عساه يقع به من جيف الموتى ورمم الغرقى وهو يحب حرب البحر بين الناس ليشبع من رمم القتلى لكثرة ما عنده من النهم والشره

فقال يعقوب نعم سمعت من القبطان ما يدل على ذلك في جملة حكاية ذكرها وذلك ان رجلاً من الملاحين راى صاحباً له بمركب قريبة منه وكان غائباً عنه منذ سنين متعددة فنزل من سفينته واراد ان يسبح في البحر ليصل اليه ويسلم عليه فصادفه عند

نزوله حيوان من هذا النوع فاحتز رجله وذراعه امام الناس لا ينفر منهم ولا يبالي ثم احتز رجله وذراعه الاخريين ولم يدرك اصحابه منه غير ما بقي من جثته فمات الرجل فالقوه في البحر فالتهمه ذلك الحيوان الخبيث وكانما كان له بالمرصاد

قال الانكليزي ويتغذى هذا الحيوان بجميع انواع السمك صغيره وكبيره لا يغادر منه شيئًا وسمعت ان اهل مرسيليا مرة اصطادوا حيوانًا من هذا النوع فراوا في جوفه كثيرًا من السمك ووجدوا رجلاً بثيابه ولولا ان الله سبحانه وتعالى جعل فتحة الفم في هذا الحيوان داخلة عن الشفة العليا بقدر ثلثي ذراع لكان لا يبقي ولا يذر لانه لا يتمكن من مصيده وهو بهذه الصورة الاَّ اذا دفعه الى امام او كان من جانبه وقد علم ذلك من خلقته سودان بعض الجهات فتراهم اذا ارادوا صيده اغتنموا فرصة تحوله والتفاته الى جهة من جهاته فيغطسون بجانبه ويشقون بطنه في الحال ثم ياخذونه

فقال يعقوب الجزاء من جنس العمل وكثيرًا ما يكون شره ذلك الحيوان سبب هلاكه فانه لا يرى شيئًا امامه الاَّ التقمه والتهمه وان كان شبعان فاذا اراد الصياد اصطياده القى اليه سنارة قوية مثبتة في سلسلة محكمة وجعل في السنارة شيئًا من اللحم فمتى راها كلب البحر اقبل عليها يشمها ويدور حولها فيجذبها الصياد بالسلسلة قليلاً فعند ذلك يظن الحيوان انه يراد استخلاص هذه الاكلة منه فيسرع

ويلتقمها فتنشب في حلقه السنارة فمتى احس بذلك صار يرعد ويضطرب ويخبط ويتقلب في البحر بقصد التخلص ولا يزال كذلك حتى يكل ويضعف وتضمحل قوته فعند ذلك يجذبه الصيادون الى الخارج ويجهزون عليه ويتصيد الناس هذا الحيوان في جهات كثيرة ويستعملون اجزاءه في اغراض مختلفة فيطعمون دوابهم من لحمه ويستخرجون من شحمه زيتًا يستضيئون به واهل (جوالند) يتخذون من جلده نعالاً واغشية لسروج خيلهم وربما عملوا منه قوارب صغيرة

فقال الانكليزي رأيت مرة في مخزن الاثار القديمة بناحية (روان) سنًا من اسنانه طولها عشر متر ومن طولها هذا يعلم ان الحيوان الذي كانت فيه كان طوله نحو ثلاثين مترًا

فقال يعقوب وهذا الحيوان مع ما له من القوة وكبر الجسم والسطوة قد ذلله الله لسمكة صغيرة تعرف بالديمورا فتتخذه مركبًا لها وتسير به حيث شاءت وتستغني به عن العوّامه التي لغيرها من السمك (وهي كالمنفخة للسمك تمتلئ بالهواء فيعوم بواسطتها في الماء فهي له بمنزلة القربة التي يعوم عليها الانسان) وليس للديمورا هذه عوامة كما لغيرها من السمك وانما لها في جانبي راسها صمامات مستديرات في صورة الشكل البيضي فمتى ارادت الانتقال الى جهة تريدها عمدت الى حيوان كبير من حيوان البحر ايًا كان فتلتصق به بواسطة صماماتها المذكورة فلا يمكنه ان يتخلص منها بحال من

المسامرة الخامسة والخمسون

النوء والغرق

(من حكاية يعقوب)

فقال ان هذا القبطان بعد ايام قليلة مات فحزنت عليه وحفظت له جميله وخلفه الرئيس فاقمت معه كما كنت مع القبطان قبله وكان قد اجتمع عندي من النقود ثلثمائة جنيه اودعت منها مائتين عند اهل القبطان الاول وكنت قد تعرفت بهم لكثرة ترددي عليه ثم اشتريت بالمائة الثالثة بضاعة وسافرت بها مع الرئيس فكانت تلك السفرة انحس اسفاري واشقاها وكنت اذ ذاك قد مضت عليّ في البحر مدة قاسيت فيها من اهواله وشدائده وعظائم اموره ما كنت ازعم انه لا يمكن ان يحصل اكبر منه حتى تحقق لي في السفرة المذكورة اني كنت في قلق عظيم وجهل كبير

وان كل ما قاسيته ليس بشيء بالنسبة لما تجدد بعده فقد حل بي في تلك السفرة بين سواحل افريقيا وجزيرة كناريا ما انساني كل شيء قبله وغطى على كل شيء غيره

وذلك انّا حين كنا بذلك الموضع ظهرت ريح شديدة من ناحية الشمال الغربي خرجت مرة واحدة فتكدر منها الجو واظلم الافق فانزعج القبطان وصار يصرخ على جميع الملاحين ان يتهيأوا ويستعدوا لوظائفهم وياخذوا حذرهم وسمعت بعضهم يقول لبعض مع الفزع والجزع ها هي الريح ظهرت في الافق من بعد واشاروا الى شي كالسحابة البيضاء وكانه علامة عندهم على ذلك فنظرت فرايتها تتسع شيئًا فشيئًا وتاخذ في الامتداد حتى غطت الافق وحجبت السماء وكان ذلك ليلاً فاستترت بها النجوم واظلم الجو وصرنا لا نرى شيئًا مما حولنا واذا بالريح هبت دفعة واحدة ثم سكنت فظننت ان امرها قد انتهى فنظرت الى القبطان فوجدته هو وسائر الملاحين في جهد جهيد وكرب شديد فسألت بعض الملاحين فقال لي ان هذا السكون علامة على حركة شديدة تعقبه واشار باصبعه الى السماء ثم قال سترى ما يحصل بين السفينة والبحر والهواء فلم يتم كلامه الاّ وقد اشتد الهواء وزمجر الرعد ولمع البرق واضطرب البحر وهاجت الرياح وظهرت في الجو قطع من السحاب فملات الجو ولم تلبث ان تجمعت مثنى وثلاث ثم تضامت وصارت كلها قطعة واحدة سوداء كلون القنار مهيبة الهيئة تهول

الناظر وتروع الخاطر ثم سكن الهواء وانضمت الشراعات الى عيدانها والتصقت بها بعد ان كانت مملوءة هواء فكان ذلك عندهم علامة ايضًا على امر مخيف وكانت السفينة كطائر مجروح يرفرف لخروج روحه ورايت جميع الملاحين واقفين شاخصين بابصارهم باهتين مستعدين لما يامر به القبطان وعليهم سراويل مشمعة لا ينفذ منها الماء ولا اعلم ماذا يامرهم به وماذا يريدون ان يصنعوه وداخلني من الهم والوهم ما لا غاية فوقه وكان سكون الهواء عند ذلك من اعجب شيء وظهر على وجه الماء رغوة وزبد ولم نشعر الاَّ بدوي ظهر من جوف البحر كانه ينعي من سيموت فيه ثم خرجت ريح شديدة دفعة واحدة فامالت القلوع حتى صارت مماسة لسطح الماء وان كانت الامواج لم ترتفع الاَّ قليلاً لان الهواء ضاغط عليها ثم اتت زوبعة فصرنا في جوفها فما كنا نسمع غير اصوات مختلفة بين تمزيق وتكسير ودوي وصرير وكانت السفينة حينئذٍ في تصرف الريح كاللعبة في يد الطفل يديرها كيف اراد ويقلبها كيف شاء واستمرت مدة يسيرة وهي مائلة الى الامام ثم اعتدلت وعادت الى حالتها الاولى مدة ثم تمكنت منها الزوبعة واجرتها على وجه الماء بسرعة وخفة تخرج عن حد التصور وكان عند ذلك يسمع بين الجبال والاخشاب صرير مهول واصوات مفزعة والسفينة حينئذٍ تسير على حالة عجيبة كانها تمس الماء من غير ان تتمكن فيه فكانت تمر مر السحاب فوق رؤس الامواج فامر القبطان بالشراعات فطويت

كلها الاّ جزء من واحد منها وقبض على الدفة الرئيس بنفسه مع
كمال الانتباه والتيقظ والاحتراس وكنت انا حينئذٍ لشدة ما نالني
من الخوف والفزع طائش العقل طائر القلب لا انطق بحرف وانما
اتحرك وانتقل كالخيال المتنقل بلا تعقل ولا قصد وفي اثناء ذلك
سمعت بعض الناس يشير على القبطان بانه يوجه المركب الى البر
لانه لم يكن بعيدًا فقال ان هذه الزوبعة لم تترك لنا اختيارًا وفي
اثره اشتد عصف الريح وهياج البحر وزاد الخطب عما كان عليه
اضعافًا مضاعفة وصرنا لا يسمع بعضنا بعضا من شدة صوت الريح
وصوت تلاطم الامواج ببعضها وتلاطمها بالسفينة فلم يكن صوت
الادمي يتميز بين تلك الاصوات المزعجة وعند ذلك رايت الملاحين
تركوا اشتغالهم بامر السفينة واظهروا اليأس واشتغل كل واحد
بنفسه ورايت كلاً منهم ربط نفسه بحبل من حبال السفينة وكان
الموج يعلو على جوانبها وتارة يدخلها من جميع جهاتها حتى يظن
انها غرقت وتارة كنا نرى السفينة كانها تقطع الموجة وتنفذ من
جوفها بدل ان تعلوها وتمر فوق ظهرها فان الهواء كان يلجئها الى
ذلك بقوة ثقله فوقها وكثرة ضغطه عليها وتارة تكون على اعلا
الموجة فتدفعها الريح دفعة واحدة بقوة وعنف فتسقط بينها وبين
التي تليها فيظن انما خسف بها وعند ذلك تمر عليها الموجة من
اولها الى اخرها فتغمر في مرورها جميع من بها او تمر من فوق رؤسهم
فكنا جميعًا مترقبين وقوع الغرق في كل دقيقة فما من لحظة تمر الاّ

ونحن نراها اخر الاجل ونتوقع بعدها الخطر وجزمنا بالهلاك وانقطع رجاؤنا من النجاة وخاف اعظمنا جسارة وجزع اشدنا تجلدًا وطاش اثبتنا جاشًا وحار اكثرنا تجريبًا وتعودًا وبقينا شاخصي الابصار غائري العيون باهتي الالوان فاقدي الحركة كاشباح موضوعة وصور مصنوعة وفقد كل منا قوة اعصابه وتغيرت هيئته وصورته فان مياه البحر فعلت في الجلد فعلها وابقت به اثارها فاحالت اولاً لونه وبدلته به لونًا اخر ثم لما تمادى مرورها عليه ومباشرتها له وضربها فيه احدثت فيه استرخاء وانتفاخًا واضعفت الكيموس الحيوي ونقصت منه والهواء في اثناء ذلك يساعدها في اعمالها ويضيف افعاله الى افعالها ويحملها الى الروس ويضرب بها العيون والوجوه حتى ضاعت القوة والبصر وانضاف الى ذلك ان اضطراب السفينة واختلال حركتها وكثرة تقلبها احدث اضطرابًا في المعدة واختلالاً في الاعصاب ودوارًا في الراس وضعفًا في مجموع الجسم فاحاط بنا من الخطب والكرب ما لا تتسع له العبارة ولا يفي به التمثيل واستمر الامر علي ذلك نحو ست ساعات ثم حصل بعده هدء وسكون فاذا بالقبطان يقول ها قد ظهرت علامات فورتونة اعظم مما قبلها فكان سكون البحر في تلك اللحظة كانه سكون هدنة فلم نشعر الاَّ وزوبعة كالريح العقيم كانت الاولى بالنسبة لها كالنسيم فكسرت جميع السواري وقطعت الحبال وضغطت السفينة حتى كادت تنزلها الى قرار الماء ثم خفت عنها فارتفعت واعادت ضغطها

فنزلت وما زالت تلعب بها ترفعها وتضعها وتقلبها من جنب الى جنب ومن جهة الى جهة بحيث صغرت الاولى وهونت امرها عندنا واستمرت كذلك نحو اربع ساعات ثم هدأت وسكنت حتى رجونا السلامة وكدنا نذوق حلاوة الامن فلم نشعر الاّ والماء ينبع من بطن السفينة فلم نهتدِ الى منبعه الاَّ وقد اتسع الخرق وطفح الماء واخذت السفينة تنزل بالتدريج الى جهة قاع البحر فحينئذٍ خلع الناس ما عليهم من الثياب والقوا انفسهم في البحر ففعلت مثلهم وصرت اعوم من غير تعقل ولا روية ولكن كان الشاطي غير بعيد فسبحت حتى وصلت بعد اللتيا والتي فلم تستقر قدمي عليه حتى انطرحت على بعض الصخور ذاهل العقل ذاهب الشعور عديم الحس والحركة لا فرق بيني وبين الميت وكاني غلبني النوم هناك من شدة ما قاسيت من العناء والتعب فنمت ولم استيقظ حتى ضربني حر الشمس فقمت فوجدتني عاري الجثة بادي العورة ضعيف القوة خامد النفس وكان قد مضى عليَّ نحو اليومين لم اذق شيئًا فتحاملت على نفسي وقمت انظر امامي وخلفي واتلفت يمنة ويسرة فلا ارى احدًا من خلق الله تعالى ولا يقع بصري الاَّ على احجار يابسة وصخور عالية وارض موحشة فلا اعلم هل غرق جميع من كنت معهم من الملاحين ام نجا منهم احد الى ارض غير هذه الارض ام خرج منهم احد الى البر فاهلكه بعض الوحوش الضارية او الامم المتوحشة ثم ادركتني وحشة كبيرة وخوف على نفسي عظيم

وصرت اتفكر فيما صرت اليه وما كنت فيه وقلت في نفسي ويحك يا يعقوب ما اشقاك واقل حظك فوالله كانك ما تخلصت من ورطة الاّ لتقع فيما هو ادهى منها فماذا تصنع وما هذه الحال واين مالك الذي كنت اكتسبت وبضائعك التي اشتريت وارباحك التي املت وثروتك التي فارقت لاجلها الاحباب وعصيت عليها النصاح وزايلت البلاد وركبت هذه الاخطار هذه نفسك قد سلمت من بين نفوس هلكت وبقيت وحدك لا معين ولا انيس وقد نجوت هذه الدفعة من البحر فما يؤمنك من مهلكات البر وعاديات الوحوش ومتوحشي الآدميين



المسامرة السادسة والخمسون

الوحدة

(من حكاية يعقوب)

ثم اني سرت اتمشى قليلاً قليلاً على ساحل البحر فرايت السفينة التي كنا فيها يلوح جزء منها ظاهراً من الماء على مسافة غير بعيدة من البر بقدر كثير ورايت بعض براميل قد ساقتها الامواج الى الشاطئ فنزلت في الماء واخذت بعضها فوجدته مملوءًا من البقسماط والخبز ففرحت به وان كان البحر قد افسده وكذلك وجدت بعض قطع من قماش القلوع التي مزقتها الريح وبعض ثياب من ثياب الملاحين فاخذت من ذلك ما قدرت عليه ونشرته في الشمس حتى جف وسترت عورتي واكلت ما يمسك الرمق وقلت في نفسي اتردد على الساحل لعلي ارى مغارة او حجرًا

اوي اليه خوفًا من الوحوش واستعمالاً للحذر والتحذر بقدر الطاقة وغداة غدٍ اذا سكنت الريح واطمأن البحر اذهب الى السفينة واخذ منها ما اجده مما يلزمني وعلى ذلك صرت اتمشى على الساحل واتلفّت حتى وجدت فجوة اشبه بجحر حيوان فقعدت بعيدًا عنها مستترا ببعض الصخور انظر هل يدخلها او يخرج منها شي من السباع او الهوام فلم اجد شيئًا دخلها ولا خرج منها فدخلتها خائفًا متاملا مستعملا للاحتراس والحذر ونظرت في ارجائها فوجدتها خالية ففرحت بها وقلت اجعلها سكني وماواي حتى يحكم الله بحكم ثم ذهبت ونقلت اليها ما جمعته واقبل الليل فاويت اليها وكمنت فيها واكلت بعض لقيمات من البقسماط ولم يكن يعوزني الاّ الماء فوطنت نفسي على الظماء وكان البقسماط شديد الملوحة لما خالطه من ماء البحر فتمكن مني الظماء فبت اكابد المه الى الصباح فلما اسفر الفجر خرجت وسرت على ساحل البحر فوجدت عين ماء يحف بها بعض شجر فقصدتها وشربت منها فوجدت فيها بعض ملوحة ولكني مع ذلك فرحت بها لشدة ما قاسيت بالليل من الظماء ثم نظرت فرايت على مسافة منها غابة اشجار كنت اسمع من جهتها تغريد الطير من بعد فدلني ذلك على ان فيها كثيرا من الطيور وسنح لي ان اتخذ مسكنًا بالقرب من تلك العين فجعلت اجيل النظر في ذلك وكنت احب ان اكون بالقرب من الساحل رجاء ان ارى سفينة تمر فاشير الى من فيها عساها تاتي فانزل فيها

واتخلص مما انا فيه ولكن لم اجد بالقرب من تلك العين فجوة مثل الفجوة التي بت فيها فخطر ببالي اني ان فعلت ذلك لا آمن على نفسي من الوحوش خصوصًا اذا كنت لا سلاح لي فاستحسنت البقاء في المكان الاول الى ان ادبر حيلة في الوصول الى المركب وآخذ ما يمكنني اخذه منها ثم اتبع الشاطئ سائرًا لعلي اعثر بمحل آهل بالناس فوقع هذا التدبير عندي احسن موقع فنهضت ومشيت على الشاطىء الى ان حاذيت المحل الذي غرقت فيه السفينة فنظرت اليها فوجدت بعض اعواد شراعاتها ظاهرة وبيني وبينها نحو ميل فهبت العوم وخفت ان تنقطع قوتي في اثناء المسافة فلا اصل الى السفينة ولا الى الساحل وقد كان في جسمي بقايا التعب والفتور مما قاسيت من المتاعب والمصاعب السابقة فعمدت الى قطع من خشب كان الموج الجاها الى البر وعمدت الى بعض اشجار فاخذت قشورها وعملت منها ومن بعض الثياب التي قذفتها الامواج للساحل حبالاً ربطت بها تلك الاخشاب الى بعضها في البحر على هيئة الرمث (الرومس) وانزلتها الى البحر وركبت عليها وقد اتخذت لي مجذافين من بعض الاخشاب صرت اعمل بهما قاصدًا جهة السفينة حتى وصلت اليها وكانت قد غرقت عند شط جزيرة فبقي جزء منها ظاهرًا وباقيها مغمورا بالماء فنزلتها وانغمست في الماء ودخلت محل السلاح فاستخرجت منه ثلاثة ازواج من الطبنجات وبندقيتين وبرميلا صغيرا مملوءًا بارودا واخذت ايضًا

بعض ثياب عثرت بها واستخرجت ايضًا سريرًا ارقد عليه وبرميلين مملوءين من البقسماط وبرميل قديد (بصطرمه) وبعض مشروبات وغير ذلك مما بدا لي لزومه مثل قدوم ومنشار وسيف وسكين وهكذا كلما عثرت بشيء ارى انه ينفعني واحتاج اليه اخذته فان وجدته ثقيلا اربطه بحبل ثم اظهر على سطح الماء واسحبه حتى اخرجه من البحر وان وجدته خفيفًا امسكته بيدي ورفعته

ثم وضعت ذلك كله على الرمث (الرومس) الذي صنعته وركبت فوقه وصرت اعمل بالمجذافين قاصداً الى الجهة التي كنت بها في البر حتى وصلت الى الساحل فنقلت جميع ذلك في الموضع الذي كنت قد اخترته لسكناي ثم ذهبت الى الغابة فاتيت منها ببعض اخشاب فحوطت بها على جميع منافذ المحل وانما ابقيت لي منفذا صغيرا كالباب اخرج منه وجعلت له بابًا من بعض قطع من الخشب ضممتها الى بعضها واحكمتها عليه واعددت لي خشبة متينة امكنها من الداخل حتى لا يمكن فتحه من الخارج ثم ادرت على المحل كله جسرا عظيمًا عملته من تراب واحجار نقلتها ووطنتها وجعلت من وراء ذلك خندقًا عظيمًا حفرته فصرت كاني في حصن حصين وحرز منيع فيه كل ما احتاجه من الزاد والذخيرة والالات والادوات وكنت اود لو عرفت حال اصحابي وما حل بهم واتمنى ان اعثر بواحد منهم ولهذا كنت دائمًا اتلفت واتطلع الى جهات الساحل لعلي ارى واحدا منهم يخرج مثلما خرجت فاجعله انيسي

في وحشتي ومعيني على وحدتي فلم اصادف احدًا مطلقًا وبعد يومين القت الامواج الى الساحل بعض الجيف فاحتفرت لها حفرا واريتها بها وبقيت على هذه الحال خمسة عشر يومًا لا ارى من يزاحمني ولا أجد من ينغص على عيشتي سوى الوحدة ووحشتها والفرقة وحرقتها والتفكر في اختي ووطني ومن كنت معهم ولم يكن سوى ذلك شيء يهمني او يغمني وكنت اخذت من السفينة ما يكفي لمؤنة سنة كاملة وكان عندي ايضًا من البارود والسلاح ما يكفي للمدافعة عن نفسي وصرت كل يوم ازيد شيئًا في تحصين المكان وجعلت فيه خروقًا صغيرة خرقتها في مواضع متعددة من اعلاها لنفوذ الضوء والهوا ولكي ارى منها ما لعله يطرأ في الخارج وجعلت في الجسر مزاغل لاستعمالها في المدافعة عن نفسي اذا دهمني عدو اخافه واجتهدت مع ذلك في ابقا ظاهر المحل على اصل هيئته كي لا ينتبه له من يمر به ومكثت مدة من الزمان على ما انا عليه لا ارى احدا وكنت كل يوم اصطاد شيئًا من السمك والطير فاشتوي منه واطبخ كما اشتهي حتى وجدتني تمهرت في اصطناع الاطعمة ووجدت في الغابة كثيرا من انواع الفاكهة والخضراوات والبقول فكنت اخذ منها كل ما احب

المسامرة السابعة والخمسون

الدود

(من حكاية يعقوب)

وفي بعض الايام دخلت الغابة على العادة ثم اوغلت فيها فلما اردت العود رايت على البعد قومًا على خيل فخفتهم حين رايتهم وقلت في نفسي هل اختفي منهم فانجو من شرهم ام اظهر لهم لعل خلاصي من الوحدة يكون على يدهم ولبثت برهة في ارتباك وحيرة اتردد بين الامرين ثم اخترت المواراة منهم وصعدت على شجرة ذات اغصان واوراق كثيرة فاختفيت فيها عن اعينهم وصرت انظر من خلالها اليهم فما زالوا يقربون من الشجرة التي انا عليها شيئًا فشيئًا حتى وصلوا اليها فاحتاطوا بها فتيقنت انهم قد لمحوني وكان معي اذ ذاك بندقية وزوج من الطبنجات فحدثتني نفسي برميهم بالبندق

ثم قلت في نفسي انهم جمع كثير فان رميتهم فلا بد ان يسلم بعضهم فاقع في يدهم فيقتلوني او ياسروني ثم يعذبوني فرايت الصواب ان لا احدث شيئًا مما هممت به وبقيت انظر اليهم وانتظر ماذا يفعلون فرايتهم قومًا سود الوجوه عليهم ثياب سود وبايديهم نبال ورماح فنظروا اليّ واشاروا بالنزول من فوق الشجرة فاشرت اليهم باني خائف منهم ان يقتلوني فاومأ احدهم باصبعه الى السما ففهمت انه يعاهد الله ان لا يصيبني مكروه ثم فهمت من اشارة اخرى ان قصدهم ان يعاملوني معاملة الاخوة فتحيرت بين ان انزل اليهم اعتمادا على اشارتهم او ابقى بمكاني احتياطا لنفسي وتحرزا من غوائلهم ثم قلت ان كل ما حصل من اول الامر الى اخره انما نشأ من طاعة النفس في رايها ومتابعة هواها وعدم التفويض فيما اشكل عليها لربها وهذا كان السبب في كل ما اقاسيه خصوصا انهم في امكانهم اذا لم انزل اليهم بالطوع والاختيار ان ياخذوني بالقهر والاضطرار ولو بان ينتظروني حول الشجرة يوما فيضطرني الجوع الى النزول اليهم والمصير في قبضتهم وذلك قد يغريهم باسأتي فالاولى التسليم لله وترك اللجاج ثم نزلت اليهم فاجلسوني بينهم وصاروا يرطنون معي ولا افهم ما يقولون واكلمهم فلا يفهمون ما اقول فاشرت لهم نحو البحر ففهموا اني كنت في مركب وغرقت باهلها ولم ينجُ منهم الاّ انا ثم افهمتهم بالاشارة اني اتخذت لي مأوى بقرب الموضع الذي نحن به واشرت لهم الى جهته فقاموا معي حتى وصلنا

منسوج بسيور من الجلد واعطوني بعض اوان من خشب وفخار
على حسب اصطلاحهم في تلك الاقطار وكانوا قد تركوا لي من
امتعتي بعض اشيا تجاوزوا لي عنها مع بندقية وزوج طبنجات
فجمعت ذلك كله ووطنته في الخص الذي اختصوني به واتخذته
لي مأوى ومسكنًا فكنت اتوجه معهم اينما توجهوا ثم اعود اليه فانزوي
به مدة النوم بالليل واوقات الفراغ من الشغل وانقدت لسيدي
غاية الانقياد وصرت ممتثلاً لامره في اي شيء اراد فاحبني وقربني
منه وكلما زدت في خدمته والادب في حقه زادت محبته لي واتخذت
البشاشة وحسن الخلق ولين الجانب مع الكبير والصغير دأبا وعادة
مستمرة عرفت بها بين القوم فاحبوني كلهم وبهذه الحالة امنت على
نفسي من اذاهم وشرهم وتعلقت بمعرفة لغتهم فعرفتها في مدة قريبة
وصرت اتكلم بها معهم واعتدت معاشرتهم فداخلني نوع من الراحة
وخلو البال وبقيت على ذلك فيما بينهم كاني واحد منهم الى ان
تمكنت من الخلاص من ايديهم

المسامرة الثامنة والخمسون

النيل

فقال الانكليزي ان من يطلع على كتب السياحين الذين طافوا بتلك البقاع يجد ان جميع السواحل مسكونة بامم سودانية مختلفة العادات والاحوال والاعتقادات وجميعهم يتجرون في الذهب فهو من عروض التجارة المتداولة في تلك الجهات بين اهلها وبين اهل اوروبا كالفرنساوية والانكليز والبرتغاليين وبسبب اختلاط اهل السواحل الان بالاوروباويين قد تغير بعض عاداتهم واحوالهم بخلاف من كان بعيداً عن الساحل فانهم لم يزالوا على ما كان عليه اباؤهم واسلافهم من العقائد الفاسدة كما نقل ذلك عمن وصل اليهم فقد طاف بتلك الجهات خلق كثير من اهل اوروبا وشرح كل منهم ما رآه من العادات والاحوال وما قاساه من الشدائد

منسوج بسيور من الجلد واعطوني بعض اوان من خشب وفخار على حسب اصطلاحهم في تلك الاقطار وكانوا قد تركوا لي من امتعتي بعض اشيا تجاوزوا لي عنها مع بندقية وزوج طبنجات فجمعت ذلك كله ووطنته في الخص الذي اختصوني به واتخذته لي مأوى ومسكنًا فكنت اتوجه معهم اينما توجهوا ثم اعود اليه فانزوي به مدة النوم بالليل واوقات الفراغ من الشغل وانقدت لسيدي غاية الانقياد وصرت ممتثلاً لامره في اي شيء اراد فاحبني وقربني منه وكلما زدت في خدمته والادب في حقه زادت محبته لي واتخذت البشاشة وحسن الخلق ولين الجانب مع الكبير والصغير دأبا وعادة مستمرة عرفت بها بين القوم فاحبوني كلهم وبهذه الحالة امنت على نفسي من اذاهم وشرهم وتعلقت بمعرفة لغتهم فعرفتها في مدة قريبة وصرت اتكلم بها معهم واعتدت معاشرتهم فداخلني نوع من الراحة وخلو البال وبقيت على ذلك فيما بينهم كاني واحد منهم الى ان تمكنت من الخلاص من ايديهم

المسامرة الثامنة والخمسون

النيل

فقال الانكليزي ان من يطلع على كتب السياحين الذين طافوا بتلك البقاع يجد ان جميع السواحل مسكونة بامم سودانية مختلفة العادات والاحوال والاعتقادات وجميعهم يتجرون في الذهب فهو من عروض التجارة المتداولة في تلك الجهات بين اهلها وبين اهل اوروبا كالفرنساوية والانكليز والبرتغاليين وبسبب اختلاط اهل السواحل الان بالاوروباويين قد تغير بعض عاداتهم واحوالهم بخلاف من كان بعيدًا عن الساحل فانهم لم يزالوا على ما كان عليه اباؤهم واسلافهم من العقائد الفاسدة كما نقل ذلك عمن وصل اليهم فقد طاف بتلك الجهات خلق كثير من اهل اوروبا وشرح كل منهم ما رآه من العادات والاحوال وما قاساه من الشدائد

والاهوال وما شاهده من العجائب والغرائب وكلهم متفقون على ان الذهب في تلك الجهات كثير وان مواد تجارتهم الذهب والصمغ والرقيق والعاج اعني عظم الفيلة وان كانت هذه الاصناف في بعض الجهات متفاوتة قلة وكثرة فقد يكون بعضها في جهة اشهر منه في جهة اخرى كالعاج مثلاً فانه قليل بالسواحل التي تقطعها مياه السيول وتكثر فيها الوحول والجهات التي فيها اسلحة نارية لان الفيلة لا تهوى تلك الاماكن بل تنفر منها وتفر الى الغابات وغيرها من الجهات التي ليس بها ذلك فيكون العاج فيها كثيراً

فقال الشيخ لا يشك عاقل في ان الانسان بسبب شدة فطنته مع صغر جسمه وضعف قوته يمكنه ان يستحوذ على الفيل وغيره من الحيوانات الكبيرة التي تزيد عليه في الجسم والقوة والبأس بدرجات كثيرة ولكن ليت شعري ما الطريقة المستعملة في اصطياده والقبض عليه وكيف يتوصل اليه

فقال الانكليزي قد بلغنا عمن ساح في الاقطار واثبت ما شاهده فيها من الاثار ان اهل الارض التي بها الفيلة اذا ارادوا صيدها تجمعوا واخذوا اسلحتهم وذهبوا الى محالها التي تالفها في اوقات معلومة عندهم وللفيلة اوقات تجتمع فيها افواجاً وتنتقل من محلاتها الى جهات اخرى لطلب الماء او المرعى ومن عاداتها ان تسكن الغابات المنقطعة ما دامت تجد فيها الماء فاذا نشفت ما بها من البرك والمناقع اخذت في الانتقال الى شواطىء الانهار ولا تزال

بها الى اوان نزول الامطار واهل تلك الجهات يعرفون ما ذكر من عاداتها واوقات تنقلاتها ومن العادة عندهم في اصطيادها ان يجتمع عندهم الخمسة والستة وياخذون معهم من البارود والرصاص والنبال والمؤنة ما يكفي لستة ايام فاكثر ويذهبون الى محال الفيل وياخذون في البحث عنه مع كمال التحرز والاحتياط ويتعرفون محال وجوده باثاره كاغصان اشجار متكسرة بخرطومه وكرجيعه واثر قدميه وما اشبه ذلك وقد صار لهم في اقتصاص اثره ومعرفة امره بطول المزاولة وكثرة التكرار ما لا مزيد عليه من المعرفة والخبرة بحيث متى راى الواحد منهم اثر قدم الفيل في بقعة من الارض امكن له ان يقول على سبيل القطع والتحقيق في اي زمن مر من تلك البقعة والى اين سار واين يوجد فتراه متى راى اثره كانما ابصره فمتى علموا محل الفيلة بما اعتادوه من العلامات كمنوا لها في محل مناسب حتى اذا راوا قطيعاً منها على البعد تبعوه بغاية ما يمكن من الاحتراس وانتظروا انفصال احدها من القطيع فعند ذلك يقتفون اثره ويتبعونه على البعد مع الحذر والتحرز بحيث يزحفون على بطونهم بين الحشائش حتى يتمكنوا منه فاذا تمكنوا منه رموه دفعة واحدة ثم احتجبوا عنه بين الحشائش مخافة ان يراهم فيبطش بهم فاذا احس الفيل بجروحه ذهب الى الشجر وحك جسمه به فاذا لم يجد لذلك فائدة امتلأ غيظاً وهام لوجهه الى ان يتعب من كثرة جريه وما يسيل من دمه فيكل وتسقط قواه ويقع

على الارض فياتون اليه ويجهزون عليه ويسلخونه وياخذون جلده فيتخذون منه نعالاً يلبسونها ولحمه لياكلوه فيقطعوا اللحم قطعًا رقيقة ينشرونها في الشمس لتجف فتصير قديدًا (بصطرمة) يدّخرونه عندهم لمؤنة السنة فربما كانت مؤنة بعضهم اكثر ايام السنة منه ويقلّعون اسنانه وانيابه بالفاس وياخذونها مع سائر عظامه ليبيعوها للتجار وهي العاج المعروف فان اصابوا صيدًا كثيرًا فربما اقاموا في الغابة شهرًا واكثر يقتاتون من لحم الفيل ومن عسل يستخرجونه من بعض الاشجار ويقال ان لحم الفيل في الصغر يشبه في الطعم لحم البقر فاذا كبر يبس لحمه وعسر هضمه

وللعاج الذي يجمعونه تجار مخصوصة يشترونه منهم وقد يجلب مع الرقيق ويباع بالساحل فيشتريه الاوروبيون للتجارة. وذكر كثير من السياحين نقلاً عن الصيادين ان الفيلة تبدل انيابها في كل ثلاث سنين مرة وذلك لانهم قد يجدون في الغابات بعض انياب ملقاة على الارض وقد يقع بين الفيلة وبعضها معارك فتقع منها انيابها وانياب الفيلة عادة تكون مصمتة وانما تكون روسها مجوفة

فقال يعقوب العادة في اصطياد الفيلة عند اهل البلاد التي كنت بها كما رايته مدة اقامتي بينهم ان كبيرهم وهو الذي كنت عنده اذا جاء الوقت المعلوم لصيدها يخرج ومعه جميع من في القرية من الرجال نحو مائتي رجل فاكثر ما بين راجل وفارس معهم

اسلحتهم وعددهم كالبنادق والحراب والنشاب والفاس وغير ذلك فيسير بهم الى ان يصلوا الى الغابة التي بها الفيلة فيحتاطوا بجزء منها في هيئة دائرة عظيمة ثم انهم يتقدمون الى امامهم وهم يتقاربون في سيرهم وينضمون الى بعضهم حتى تضيق الدائرة ويقرب بعضهم من بعض فاذا راوا فيلاً رموه جميعًا بالسلاح دفعة واحدة حتى اذا اخذ في الغضب والهياج هرب المشاة خلف الفرسان وصار الفرسان يضربونه بالسلاح الى ان يقع على الارض فيفعلون به ما تقدم وقد يصاب في الحلقة حيوانات غير الفيلة مثل بقر الوحش وغيرها ومن عادة الفيلة ان تجتمع في الصباح اسرابًا تبلغ أفراد السرب الواحد منها في الغالب نحو العشرين فيلاً ترد الماء مجتمعة ومن عادتها ان لا تؤذي من صادفته في الطريق ولا تتعرض له بسوء الاَّ اذا تعرض لها او صادفته عند خروجها من الغابة او قرب من اناثها وقد رايت ذات يوم خارج البلد امرأة مرت بمحل انثى من الفيلة معها ولدها فاخذتها بخرطومها ودفعتها الى العلى فارتفعت عن الارض نحو مائة وخمسين قدمًا فوقعت ميتة

وقد اختلف في مدة حمل الفيلة فقيل انها ستة وثلاثون شهرًا وقيل ثمانية عشر فقط وتمتد مدة الرضاع الى ثمانية اعوام ويبتدي في المشي من حين ولادته ويمتد عمره الى مائة وخمسين سنة ولكن كل ذلك اقوال لا يقطع بصحتها لعدم امكان تحقيقها بسبب توحشه وامتناع الفيلة المتالفة من التناسل في غير مواطنها

على الارض فياتون اليه ويجهزون عليه ويسلخونه وياخذون جلده فيتخذون منه نعالاً يلبسونها ولحمه لياكلوه فيقطعوا اللحم قطعًا رقيقة ينشرونها في الشمس لتجف فتصير قديدًا (بصطرمة) يدّخرونه عندهم لمؤنة السنة فربما كانت مؤنة بعضهم اكثر ايام السنة منه ويقلّعون اسنانه وانيابه بالفاس وياخذونها مع سائر عظامه ليبيعوها للتجار وهي العاج المعروف فان اصابوا صيدًا كثيرًا فربما اقاموا في الغابة شهرًا واكثر يقتاتون من لحم الفيل ومن عسل يستخرجونه من بعض الاشجار ويقال ان لحم الفيل في الصغر يشبه في الطعم لحم البقر فاذا كبر يبس لحمه وعسر هضمه

وللعاج الذي يجمعونه تجار مخصوصة يشترونه منهم وقد يجلب مع الرقيق ويباع بالساحل فيشتريه الاوروبيون للتجارة. وذكر كثير من السياحين نقلاً عن الصيادين ان الفيلة تبدل انيابها في كل ثلاث سنين مرة وذلك لانهم قد يجدون في الغابات بعض انياب ملقاة على الارض وقد يقع بين الفيلة وبعضها معارك فتقع منها انيابها وانياب الفيلة عادة تكون مصمتة وانما تكون رؤسها مجوفة

فقال يعقوب العادة في اصطياد الفيلة عند اهل البلاد التي كنت بها كما رايته مدة اقامتي بينهم ان كبيرهم وهو الذي كنت عنده اذا جاء الوقت المعلوم لصيدها يخرج ومعه جميع من في القرية من الرجال نحو مائتي رجل فاكثر ما بين راجل وفارس معهم

اسلحتهم وعددهم كالبنادق والحراب والنشاب والفاس وغير ذلك فيسير بهم الى ان يصلوا الى الغابة التي بها الفيلة فيحتاطوا بجزء منها في هيئة دائرة عظيمة ثم انهم يتقدمون الى امامهم وهم يتقاربون في سيرهم وينضمون الى بعضهم حتى تضيق الدائرة ويقرب بعضهم من بعض فاذا راوا فيلاً رموه جميعًا بالسلاح دفعة واحدة حتى اذا اخذ في الغضب والهياج هرب المشاة خلف الفرسان وصار الفرسان يضربونه بالسلاح الى ان يقع على الارض فيفعلون به ما تقدم وقد يصاب في الحلقة حيوانات غير الفيلة مثل بقر الوحش وغيرها ومن عادة الفيلة ان تجتمع في الصباح اسرابًا تبلغ افراد السرب الواحد منها في الغالب نحو العشرين فيلاً ترد الماء مجتمعة ومن عادتها ان لا تؤذي من صادفته في الطريق ولا تتعرض له بسوء الاَّ اذا تعرض لها او صادفته عند خروجها من الغابة او قرب من اناثها وقد رايت ذات يوم خارج البلد امرأة مرت بمحل انثى من الفيلة معها ولدها فاخذتها بخرطومها ودفعتها الى العلى فارتفعت عن الارض نحو مائة وخمسين قدمًا فوقعت ميتة

وقد اختلف في مدة حمل الفيلة فقيل انها ستة وثلاثون شهرًا وقيل ثمانية عشر فقط وتمتد مدة الرضاع الى ثمانية اعوام ويبتدي في المشي من حين ولادته ويمتد عمره الى مائة وخمسين سنة ولكن كل ذلك اقوال لا يقطع بصحتها لعدم امكان تحقيقها بسبب توحشه وامتناع الفيلة المتالفة من التناسل في غير مواطنها

فقال الشيخ قرأت في جملة من الكتب العربية المؤلفة في طبائع الحيوان قديمًا وحديثًا ان مدة حمل الانثى من الفيلة نحو سنتين وهذا كالمتوسط بين القول بانها ثمانية عشر شهرًا والقول ستة وثلاثون شهرا. ويقال ان الذكر ينزو على الانثى اذا مضى له من العمر خمس سنين وزمان نزوه الربيع واذا حملت الانثى لا يقربها الذكر ولا ينزو عليها الاّ بعد ثلاث سنين وقال عبد اللطيف البغدادي انه لا ينزو الاّ على فيلة واحدة وله عليها غيرة شديدة فاذا تم حملها وارادت الوضع دخلت النهر حتى تضع ولدها خوفًا عليه ان يسقط على الارض لانها لا تلد الاّ وهي قائمة فتلد والفحل عند ذلك يحرسها ويحرس ولدها من الحيات وقد اجمع المورخون على ان الفيل اذكى جميع الحيوانات فطنة وفيه من الفهم ما يقبل به التأديب ويفعل ما يامره به سائسه من السجود للملوك وغير ذلك من الخير والشر في حالة السلم والحرب غيران النظر الى ظاهر هيئته وشكله يحكم عليه بالبلادة فجثته الضخمة وجلده الامعط العاري عن الشعر وقوائمه الغليظة التي كانها لم تخلق للحركة وصغر عينيه وسعة اذنيه المسترخيتين كل ذلك يدل على اتصافه بزيادة بلادة عن المتعارف ولكنا اذا اعتبرنا خصاله وجدناه بخلاف ذلك والفيل اكبر جميع الحيوانات واعظمها قوة وليس من طبعه الفتك والاذى بل هو مع كمال جرأته حليم سليم الطبع وغاية الامر انه يعمل ما عنده من القوة في الدفع عن نفسه او عن

صاحبه ومن طبعه الموالفة والموانسة واذا اجتمع سرب منه كان
اكبر الجماعة سنًا هو المدبر والقائد لها وكان من دونه في السن
وازعها واذا سرنَ على هذه الحالة اهتصرن اغصان الشجر في طريقهن
واذا دخلن مزرعة لا يلبثن ان يفسدن الحرث ولا يكاد يصرفهن
وهن مجتمعات عدد وافر من العسكر المتسلحين الاَّ انه لا يندر ان
يطارد القناصون منها ما كان منفردا ولكن القناص اذا اخطاه ولم
يمكنه الهرب منه هجم عليه في الحال جريًا فيضربه اولا بنابه ثم
يتناوله بخرطومه ويرمي به الجو ويرقب سقوطه حتى يدوس عليه
فيقتله وكثيرا ما وقع مثل هذا على ما اخبر به المسافرون ومن طبع
الفيلة انها تكدر الماء قبل ان تشربه وكثيرا ما توعيه في
خراطيمها ثم تنشبه اما للعب او لاخذ الثار ممن يسوءها فينطلق
انطلاق ماء الميزاب وقد كان مرة فيل سائرا وحده في مدينة
فوضع خرطومه على دكان خياط فنخسه احد الصناع بابرة ليعجب
نفسه واصحابه فكظم الفيل غيظه ثم سار الى محل ذي قذر وملا
منه خرطومه ورجع الى الدكان واطلق ذلك القذر على من كان
قد ساءه ونفى عنه بذلك ما لحقه من العار ووجود الفيلة في
افريقة على ما يظن اكثر مما سواها غير ان الموجود منها في اسيا
اكبر واعظم واكثر نفعًا لبني ادم اما في الهند على الخصوص فانها
تدرّب على الشغل والحركة في حالتي الحرب والسلم بترتيب
حسن وتباع على حسب ضخامتها واحيانًا على حسب الوانها

والابيض اكثرها قيمة وقد تعبدها اهل الهند في بعض المحال ويقال ان الفيل اذا انقاد كان اطوع جميع الحيوانات والينها جانبًا وكانت محبته لسائسه احدى العبر فيرى منه حينئذٍ ان غاية حياته انما هي لخدمة صاحبه وطاعته ويتودد الى من له به معرفة ويستعمل خرطومه كاليد وكالذراع مساعدة لما يراد من تحميله ويعنو لمدبره ان يركب على عنقه ويسوقه بعود من حديد وكلمة واحدة من راكبه اذا عرفه تكفي في الغالب لحركته اما الغريب فهيهات ان يطيعه وقد حدث ان فيلا هاج مرة هياجًا شديدا لسوء معاملته فيما ظن فقتل سائسه ولكنه ظهر منه بعد ذلك تاسف والتياع شديدان وقد كانت ملوك الشرق قبل احداث البنادق والمدافع تحمل لوازم الحرب على الفيلة المضراة وتحارب عليها واما الان فانما تتخذ عند من يقتنيها للتفاخر او لحمل الاثقال العظيمة اذ ليس في الحيوان ما يطيق الحمل اكثر منه فان له قدرة على ان يجر ما لا تكاد يقلّه ستة افراس وذلك دون كثير معاناة ويحمل على ظهره من ثلاثة الاف رطل الى اربعة الاف وعلى خرطومه وحده الف رطل واذا حث على السير سار في اليوم مائة ميل تقريبًا والاّ فخمسين او ستين واهل الهند يعلمون الفيلة الفتك بالمجرمين والانتقام منهم فتمزقهم بخرطومها او تنفذ فيهم انيابها ولكنها ليست تميل لذلك بالطبع فهي انما تفعل بالرغم والاجبار

قال ناقل الحديث وكان برهان يسمع ما جرى من الحديث

في امر الفيل فلما انقطع القول فيه سال اباه عن حكم اكله
فقال قد اختلف العلمــاء فيه فاباحه البعض وحرمه
البعض والتحريم اشهر قولي الشافعي وعلي القول بحرمته يكون
عظمه نجسًا لا يطهر بحال عند الشافعي كما هو رايه في
عظم كل حيوان غير ماكول ويكون طاهرًا عند ابي حنيفة
كما هو رايه في كل عظم وشعر وقال مالك انه نجس يطهر
بالصقل



المسامرة التاسعة والخمسون

الخلاص

(من حكاية يعقوب)

ثم قال الانكليزي ليعقوب قد ذكرت ما حصل لك من ابتداء امرك الى ان وقعت في يد هولاء القوم ولم تذكر كيف تخلصت من ايديهم

فقال اني بعد ما تعلمت لسانهم وتكلمت بكلامهم صرت كاني واحد منهم لا يفرق بيني وبينهم الاَّ مجرد اللون حتى انهم كانوا لا يسمونني الاَّ بالابيض فصار هذا الاسم علما عليَّ عندهم وان كان لوني قد تغير عن حالته الاصلية بسبب طول مكثي في تلك البلاد وكثرة تعرضي لحر الشمس وكان لوني الابيض في اول الامر اعجوبة عندهم يستغربه كل من راه ولكن لما طال مكثي

عندهم اعتادوه وصار لا يستغرب لديهم وكنت مدة اقامتي بينهم نافعًا لسيدي في الصيد والقنص وجميع ما يناط بي من الاعمال فاحبني حبًا شديدًا استتبع محبة جميع اهل البلد لي واقبالهم عليّ وكنت اسمع من بعضهم انهم في بعض الاحيان يحضر الى ارضهم اناس من جنسي للسياحة في بلادهم فكنت انتظر حضور بعض السائحين اليهم عسى اتخلص منهم بواسطته وبقيت على هذا الانتظار مدة اربع سنين الى ان اتفق حضور السائح الشهير (بوسمان) الى تلك البلاد وكان معه عدة من الحرس لخفارته وحفظه في الطريق فلما مر بهذا البلد اجتمعت به وكلمته بالانكليزي وذكرت له قصتي وما جرى لي من وقت الغرق الى حين لقيته واثنيت له على الشخص الذي اخذني وذكرت له ما صنعه بي وكان ذلك بحضوره وكان مع السائح المذكور ترجمان له من جنس القوم فعرف سيدي بما قلته من مدحي له ففرح بذلك ثم ان السائح المذكور طلب من سيدي اخلاء سبيلي فامتنع واخبره اني عنده بمنزلة ولده وان فراقي يعز عليه فما زال ذلك السائح به يستعطفه ويلح عليه حتى تم الامر على اخلاء سبيلي في نظير جملة من الاقمشة والخرز دفعها السائح المذكور لسيدي ومن ذلك الوقت فارقتهم وصرت في خدمة ذلك السائح الى ان ركبت البحر ورجعت لهوله القديم وعذابه الاليم وكنت عرفت ان الارض التي كنت بها تعرف بارض الذهب

او ساحل الذهب وانها من جملة جهات السانغامبيا وان البلدة التي كنت بها تسمى (تابو) وحولها بلاد كثيرة منها (اوينه) و (اجوبرا) و (الكسان) و (انكاسيا) و (اجينا) و (ادوم) و (وموببا) و (فساه) و (انكى) و ابرامبوبه) و (كيفورا) وغير ذلك من البلاد لا يحضرني اسمها الان وهذه البلاد يوجد فيها الذهب بكثرة ولاهلها عادات عجيبة وعقائد غريبة

المسامرة الستون

الذهب واستخراجه

(من حكاية يعقوب)

فقال الشيخ قد ذكرت مواضع الذهب ولم تذكر كيف يستخرج وعلى اي هيئة يوجد في اول امره وبودي لو عرفت ذلك

فقال يعقوب ان الذهب يوجد في هذه البلاد خالصا نقيًا على هيئة حبوب دقيقة منتشرة يكون الكبير منها في حجم الحمصة واما كيفية استخراجه فانه اذا انحسرت مياه الانهر وذلك في وقت فراغ الاهالي من زراعتهم اعني في اوائل شهر ديسمبر ينبه كبير البلد على الاهالي بالاستعداد لجمع الذهب وغسله ويعين لهم يومًا يسميه لهم فتستعد له الرجال والنساء ومعهم الالات المختصة بذلك وهي عبارة عن مساحي ومجارف لنحت الارض وتقليب التراب وبعض

قصع من خشب لغسل الذهب وتنظيفه من الاتربة وريش لاجل
وضع ما يوجد من الذهب في انابيبها ويذبح لهم في يوم التوجه
ثورًا او بقرة ويجتمع اهل البلد ويقرأ مشايخهم ادعية وعزائم سحرية
بقصد نجاح غرضهم وعملية الغسل سهلة جدًا والقائم بها النساء
لانهن قد اعتدن عليها من الصغر كتعودهن على غربلة القمح
والارز واما تقليب الاتربة واستخراج التراب المظنون وجود الذهب
فيه فذلك موكول الى الرجال وكيفية تصفيته ان تاخذ المراة جانبًا
من ذلك التراب وتضعه في قصعة من خشب ثم تصب عليه
مقدارًا من الماء وتحركه به حركة دورية حتى يمتزج ببعضه ثم تقلل
في الحركة شيئًا فشيئًا ثم ترجع الى تحريكه ثانيًا وتزيد الحركة شيئًا
فشيئًا حتى يسيل من حرف القصعة جزء من الماء المختلط بالاتربة
الناعمة المختلطة بالمادة الاصلية ثم تتركه حتى يرسب ثم تريق الماء
وتطرح الحصى وتبقي ما رسب في اسفل الاناء من الرمل ثم تصب
عليه ماء جديدًا وتعاود العمل مرارًا حتى يصفو الماء ويصير في
غاية الصفاء ولم يبقَ في القصعة الاّ الرمل والذهب ثم تاتي بقصعة
اخرى فتنقل اليها جزءًا من الرمل وتبقي في الاولى ما رسب في
قاعها من الرمل المظنون ان الذهب فيه اكثر وتضع عليه ماء
صافيًا وتحركه في القصعة وتنظر الى اسفلها مع الدقة والتامل
وتاخذ ما وجدته في خلال الرمل من الذهب وكذلك تفعل بما
في القصعة الثانية وغاية املهم ان تجد المراة في كل قصعة من الذهب

اربع حبات او ثلاثًا ولم تكن معرفة النساء بهذه الصنعة سواء بل منهن من لها معرفة اكثر من غيرها لكثرة تجربتها حتى انها تعرف الاتربة التي يوجد فيها الذهب وتميزها بلونها وكيفيتها وتستخرج الذهب منها مع ان غيرها ربما مرت عليها ولم تلتفت اليها وكل ما يجدنه من قطع الذهب يضعنه في انابيب الريش ويسدون عليه بقطن او نحوه ويعلقنها بشعورهن ويفتخرن بكثرتها والسعيدة منهن من تجمع في اوان جمعه اوقيتين والمحلات التي يبحث فيها عن الذهب هي مجاري المياه ولكنها اذا استمر عليها الماء مدة طويلة ولم يتحول عنها الى غيرها لا يوجد بها شيء من الذهب لان الماء بشدة جريانه وقوة انصبابه يحدث بما فيها من الرمل والتراب تقلبات كثيرة فلا يعثر البحاث فيه بشي من الذهب لذلك السبب

ومن الناس من يتساهل ويعمد الى مجاري المياه ويبحث فيما في اثنائها من الرمل ومنهم من يصعد الى اعلا المجرى ويبحث فيما به من الاحجار والحصى متجشما لما فيه من المشقة فان تيار الماء عادة ياخذ ما في طريقه من الرمل والتراب بسبب قوة انحداره وشدة جريانه ويترك ما يتعاصى عليه من الاحجار وكبار الحصى فيكون البحث فيها شاقًا صعبًا وكثيرًا ما يضر بالاصابع ويجرحها ويدميها بخلاف الرمل والتراب ولكن من يبحث في تلك الاحجار والحصى قد يعثر فيما بينها ببعض قطع كبيرة من الذهب تعوض عليه الالم والتعب ولكن ما كل وقت ينجح الطلب واما المجاري التي تحول

عنها الماء فيحفرون بها ابارا عميقة ويغسلون ما يستخرجون من طبقاتها من الرمل بالطريقة المتقدمة فيجدون فيها كثيرا من الذهب

المسامرة الحادية والستون

بلاد سنغامبيا

فقال الانكليزي ان وجود هذا المعدن بارض افريقيا كثير وقديم واهل تلك الارض من السودان معتادون على تجارته من قديم الزمان فتراهم يجلبونه الى بلاد السواحل ويبيعونه لبعض تجار العرب والافرنج وغيرهم واحسنه ما يوجد بالجهات التي ذكرها

يعقوب في ولاية على شاطئ نهر السنجال يقال لها (بامبوك)
وامتدادها من الشمال الى الجنوب نحو ستة وثلاثين فرسخًا وعرضها
ثمانية وعشرون فرسخًا فيكون مربعها نحو الف فرسخ وهذه الولاية
منقسمة الى ثلاثة اقسام لكل قسم منها ملك او حاكم واعظمها قسم
(بامبوك) لكثرة الذهب به وكون ذهبها احسن واصفى من ذهب
القسمين الاخرين ولذا سمي مجموع الاقسام الثلاثة باسمه مع ان
لكل قسم منها اسمًا خاصًا به وفي تلك الجهة جبل عظيم يشغل
معظم ارضها تسميه اهالي تلك الجهة طبأورا

وفيه منابع مياه كثيرة ويصب في الاقسام المذكورة نهران
عظيمان احدها يجري في غربي هذه الارض الى ان يصب في نهر
فيلميه والاخر يجري في شرقيها ثم يصب في نهر السينجال وجميع
هذه المجاري يوجد بها ذهب لكن المعادن المشهورة فيها اربعة
وكلها بسفح الجبل المذكور ببلاد عرفت معادنها باسمائها والذي
يتولى حفر ابار الذهب في الغالب العبيد فينزلون فيها الى عمق
ثلاثين او اربعين قدمًا ويخصص لكل بئر اثنان احدها للحفر
والاخر لتعبئة الزنابيل وامرأتان لنقل التراب ويغير الجميع في كل
ثلاث ساعات ومدة اشتغال الجميع بهذه الاعمال ثمانية اشهر لا
يشتغلون فيها بغيرها ويختلف ما يستخرج من الذهب قلة وكثرة
باختلاف معادنه وقد علم من تجربتهم ان اعظم تلك المعادن
واكثرها ذهبًا يستخرج منه في كل ثمانين اوقة من التراب قدر

مائة واربع واربعين قمحة ونصف قمحة من الذهب النقي ومن عاداتهم في تلك البلاد انهم لا يخرجون اليه ولا يستخرجونه الاّ باذن الحكام واهل البلدة التي بها المعدن الذي يريدون الاخذ منه وبعد استخراجه وتصفيته يعملون منه حليًا لنسائهم كالخواتم والقلائد والحلقان ويستعملون بعضه في نفقات السفر ثم يبيعون باقيه مبادلة ببعض بضائع يجلبها اليهم تجار من الغرب وغيره كالملح والذرة والقماش وغير ذلك ويربح فيه التجار ربحًا عظيمًا يساوي غالبًا ضعف ما يعطونه من البدل ولكل واحد من السودان ميزان يزن به الذهب وعندهم فول اسود يزنون بحبه ما يعادل ست حبات منه يقال له عندهم (منقاللي) وقيمة المصنوع وغيره عندهم واحدة وقد تبلغ قيمة ما يستبدل بالملح من الذهب لاهل البلدة الواحدة نحو مائة وثمانين الف جنيه انكليزي وللملح في هذه الجهات من ارض افريقية قيمة عظيمة فقد يبلغ ثمن كل قالب من الملح طوله قدمان ونصف بالقدم الانكليزي وعرضه اربعة عشر اصبعًا في سمك اصبعين نحو جنيهين ونصف وثمنه المعتاد قدر جنيه انكليزي وثلاثة ارباع جنيه الى جنيهين وكل اربعة قوالب منه تعتبر عندهم حمل حمار والستة حمل الثور واما البضائع الاوروبية فمختلفة الثمن باختلاف كثرة الورود وقلته وقد تقع المبادلة فيها بالرقيق وقيمته ايضًا مختلفة فقد رأيت الراس الواحد منه يساوي بالمنقاللي السابق ذكره من تسعة الى اثنى عشر وكانت أثمان البضائع

الاوربية حين كنت هناك ما ساذكره لكم فكانت قيمة كل ثمان واربعين ورقة من الدخان منقا للي واحد وكل ثمانية عشر شطفه من الصدف كذلك وكل عشرين تعميرة بندقية من البارود كذلك وقيمة البندقية ثلاثة من المتقاللي فاكثر الى اربعة واما الاشياء الضرورية كاللوازم المعيشية والامور المنزلية فكانت قيمة ما يلزم لمؤنة يوم واحد قطعة من الذهب توازن حبة من الفول وقيمة الدجاجة الواحدة كذلك وقيمة النعجة الواحدة ثلاث حبات وقيمة الثور منقا للي واحد وقيمة الفرس الواحد عشرة من المتقاللي الى سبعة عشر واعلى الاشياء واعزها عندهم الملح فمن ذكر عنه فيما بينهم ان عنده ملحا وانه يطبخ به كان كمن قيل في حقه عند غيرهم انه غني ومن اعظم تجارتهم واهمها عندهم الحديد للزومه في عمل السلاح والات الحرث والزراعة ولهذا يقدرون به اثمان البضائع فيقولون قدر كذا من صنف كذا يساوي قضيبا او قضيبين من الحديد او نحو ذلك حتى شاع بين التجار اطلاق لفظ قضيب على مقدار معين من بعض البضائع كالدخان مثلاً فان كل عشرين ورقة منه يسمونها قضيبا وربما قالوا قضيب من صنف كذا يساوي قضيبا او قضيبين من صنف كذا وهكذا وكانت قيمة القضيب سنة الف وسبعمائة وخمس وتسعين من الميلاد وهي سنة ١٢١٠ من الهجرة تساوي قطعتين من الشلينات والشلن معاملة انكليزية ومقداره خمسة غروش صاغ الاّ خمسة فضة والجنيه

عشرون منه فاذا كان ثمن العبد مثلاً خمسة عشر جنيها انكليزيا قالوا ان قيمته مائة وخمسون قضيبا وجميع سكان ارض السانغمبيا تنقسم الى اربع عشائر واكثرهم لا دين له وعقائدهم بعقائد الوثنيين اشبه والمسلم فيهم نادر وان وجد فلا معرفة له الاّ ببعض قواعد قليلة لا يعمل بها ولهم ائمة يسوسونهم على قدر عقولهم ومنهم قوم يسكنون ساحل البحر ويتدينون بدين النصرانية ولكنهم قليلون في القدر ومن ينسب الى الاسلام اكثر منهم ومع ذلك فلم تزل في الجميع عقائد ابائهم واوهام اسلافهم ولكل فرقة منهم احوال تتميز بها كالفلو مثلاً فان في طبعهم حب الانتقام من عدوهم زيادة عن غيرهم ولا يتركون ثارهم فاذا قتل منهم قتيل اخذ اكبر اولاده او اقرب الناس اليه نعله وحفظه ويلبسه كل سنة في مثل اليوم الذي قتل فيه قتيله الى ان ياخذ بثاره ويندر ان يسلم القاتل عندهم من القتل

ورايت في البلدة التي كنت بها جارية يعظمونها ويحترمونها اكثر من غيرها فسألت عن سبب ذلك فقيل لي انها كان لها زوج فقتله شخص من بلد بقرب بلدهم فاضمرت في نفسها ان تاخذ بثاره فصارت تزين نفسها باحسن ما يكون عندهم وتتعطر وتمر بقاتل زوجها وتستميله اليها ولم تزل كذلك حتى احبها وشغف بها فاقامت عنده مدة حتى تمكنت من غرضها فقطعت راسه واتت به الى بلدها فشهدوا لها بالدهاء ولطف الحيلة واحترموها لذلك ومن

عاداتهم انه متى وقع بين اثنين منهم عداوة واستمرت وبقيت فلا تزول ولا تحول فاذا ابتدأت العداوة بين اثنين منهم اخذا ورقة من شجرة معروفة عندهم فيجذب كل منهما بطرف منها فتتمزق الورقة بينهما ومن ذالك الوقت يستعد كل منهما لتدبير كل مكيدة لصاحبه ويبذل الجهد في اساءته والعبيد والاحرار عندهم في هذه العادة سواء

ودخلت بلاد قوم منهم يقال لهم المتدنج فرايت حول كل بلد وقرية لهم زريبة من القصب (البوص) تحيط بها والاحرار منهم نحو الربع وهم السادة والباقي ارقاء لا مخلص لهم من الرق وعليهم خدمة الارض وغيرها وهناك ولاية تسمى كجاعجا نهايتها من جهة الشمال من نهر السينيجال هواؤها معتدل واهلها معروفون بالصدق والامانة في المعاملة ودأبهم التجارة مع الاوروباويين فيبيعون لهم الذهب والرقيق ولهم على جمع المال حرص زائد واكثر ربحهم من بيع الملح وثياب القطن ومن عاداتهم انهم اذا سافر منهم احد في تجارة ثم رجع لا بد ان يستصحب معه بعض هدايا لبعض احبابه فاذا اتى الى بلده اخبر بربحه وتجارته فاذا تبين انه لم يربح في تجارته ولم ينجح في سفرته عيروه وأساؤه وهدموا بيته وصار فيما بينهم حقيراً ذليلاً مهاناً فلا يتخلص من لسانهم وائذائهم الاَّ بالفرار من بينهم وعلى شمال هذه الجهة ولاية تعرف بولاية (يوندولو) وهي شرقي ولاية (بامبوك) بين جابينا والسينيجال تمر منها القوافل

الواردة من داخل الافريقه بالرقيق متوجهة الى السواحل وكذلك القوافل التي تتجر في الملح وهذان الصنفان من التجارة يتداولهما اهل المندبخ وكذلك القطن والحديد ولهم ايضًا متاجر يذهبون بها الى بلاد المغرب ومن عروض التجارة عندهم صنف عطري يشبه الصمغ يضعونه في اكياس يجعلون في كل منها قدر الاوقة منه ومن خاصة هذا النوع انه اذا وضع جزء منه على النار فاحت له رائحة طيبة ويبخر به اهل المندبخ ملابسهم ومساكنهم ولهم رسوم ياخذونها من كل من يمر بهذه الولاية من التجـار بالبضائع الاوروبية فياخذون على كل حمل حمار قضيب بضاعة فأن مر بالمدينة التي بها الملك لزمه اعطاء ثوب من قماش او بندقيــة وست زجاجات مملوءة من البارود ومن اهل تلك الجهات (الغولاه) ولونهم يقرب من لون الحبش وهم اكثر ولايات هذه الجهة عددًا بعد طائفة المندبخ ويزعمون انهم اصل لما عداهم ويعدون نفسهم من البيض والكل ينتمون لدين الاسلام ما عدا الملك والامراء وعندهم مكاتب لتعليم الاطفال من اي امة كانوا ويتعلمون في هذه المكاتب القرآن الشريف والقواعد الدينية الاسلامية ويتكلمون باللغة العربية منذ دخل الاسلام بلادهم وكانت لهم قبل ذلك لغة غير العربية وفي طبعهم حب البهائم وخدمتها فيحلبونها صباحًا ومساءً ويشربون من لبنها حليبًا وحامضًا ويستخرجون منه زبدًا يستعملونه في دهن اجسامهم وشعورهم ووجوههم الاّ ان البان اوروبا اكثر زبدًا من

لبن بقرهم ومع اغتنائهم بالبقر وحبهم للبنها وكثرته عندهم لا معرفة لهم بكيفية استخراج جبنه اصلا ويقولون ان المانع من عمله عزة الملح وشدة الحر وكثرة ما يصرف في عمله وقلة ربحه وعندهم خيل من الجياد وهي من نتيجة اختلاط الخيل العربية بالافريقية واهل هذه البلاد يعتقدون ان القمر يتغير في كل شهر وان لكل شهر قمراً جديداً فاذا راوا الهلال اجتمعوا ودعوا بدعوات سرية يقصدون بها الشكر لله على ما اولاهم من النعم في مدة القمر الماضي ورجاء دوام ذلك في مدة القمر الجديد وعندهم ان الارض ذات امتداد غير محدود فلا يصل احد الى نهايتها لاحاطة السحاب والضباب بها وفي ظنهم ان احسن البلاد بلادهم وانهم احسن انواع الانسان فيتاسفون على من عداهم من الخلق حيث لم يكونوا في ارض خصبة كارضهم وقطر معتدل الهواء كقطرهم ويعترفون بوجود الخالق سبحانه ويقولون بوجود الجنة والنار لجزاء المحسنين بالجنة والمسيئين بالنار ولهم معرفة بخدمة الارض ومزيد رغبة في الزرع ولكنهم انما يزرعون من الارض بقدر ما يكفي لمونتهم جميع سنتهم لانهم لا يتاتى لهم اخراج ما زاد عن لوازمهم الى الخارج ويشتغلون بالزرع وخدمة الارض في فصل نزول الامطار واما فصل الصيف فيشتغلون فيه بالصيد والتنص فتاخذ سكان السواحل اقفاصاً او شباكاً يصطادون بها من البحر وما يصطادونه من السمك يجففونه في الشمس ويدّخرونه لوقت لزومه مدهوناً بشيء من الزبد وغيرهم

يشتغلون بالقنص واصطيـــاد بعض الحيوانات البرية والالات المستعملة عندهم في ذلك هي القوس والنشاب ولهم في الرمي حذق عجيب بحيث يرمي به الواحد منهم الوزغة على الشجرة او الحائط فلا يخطئها ولجميعهم معرفة بصنعة الحياكة والصيـاغة والخياطة ويتعلمون هذه الصنائع من صغرهم وترى الحداد منهم يعرف صوغ الذهب والفضة ولهم في الذهب صناعة بارعة يعجز عن بعضها كثير من مهرة الاوروبيين

فقال الشيخ كذلك يوجد في بلاد النوبة التابعة لحكومة مصر مَن لهم مزيد براعة وحذق في صياغة الذهب والفضة وقد تذكرت بما ذكرت من قصة المرأة التي اخذت بثار زوجها ما فعلته الزباء مع جذيمة الابرش واخذها منه بثار ابيها

فقال الانكليزي اما الزباء فغاية علمي بها انها كانت من ملوك العرب القديمة ولكن لا ادري نسبها ولا الارض التي كانت بها ولا ما فعلته مع جذيمة



المسامرة الثانية والستون

الزباء وجذيمة الابرش

وقصير وبيهس

فقال الشيخ اما نسبها فهي على ما ذكره ابو الفرج الاصبهاني بنت عمرو بن الظرب بن حسان بن إذينة بن السميدع بن هوبر العاملي من عاملة العماليق وكان ابوها ملكًا على الجزيرة جزيرة ابن عمر وهي في شمال الموصل يحيط بها نهر دجلة فقتله جذيمة الابرش ملك الحيرة والانبار وطرد الزباء ابنته الى الشام فلحقت بالروم وكانت عربية اللسان كبيرة الهمة ما عرف في زمانها اجمل منها وانما سميت الزباء لانها كان لها شعر اذا مشت سحبته وراءها واذا نشرته جللها والزبب كثرة الشعر الوصف منه ازب للرجل وزباء

للانثى ومنه سميت الزباء لكثرة شعرها فلما اجلاها جذيمة من ملك
ابيها وطردها بذلت الاموال وجمعت الرجال فلما استجمع امرها
عادت الى الجزيرة فاستردتها الى ملكها واستولت عليها وهي معدودة
في ملوك الطوائف ثم انها قصدت الى الاخذ بثار ابيها والانتقام
من جذيمة فلم تجد عندها من القدرة ما يمكنها من ذلك بالقوة
والحرب فعولت على التدبير والمكيدة فهادنت جذيمة وكتبت اليه
تقول . اني لم اجد ملك النساء الاَّ قبيحًا في السماع وضعفًا في
السلطان ولا ارى لملكي موضعًا ولا لنفسي كفوًا غيرك فاقبل اليّ
لاتزوج بك واجمع ملكي على ملكك واصل بلادي ببلادك .
تريد بذلك غدره فلما اتى كتابها اليه طمعت نفسه فيما عرضته عليه
فجمع اصحابه واستشارهم فاشاروا عليه بتلبية دعوتها واجابة خطبتها
الاَّ رجلاً فيهم يقال له قصير ابن سعد فخالفهم فيما اشاروا به عليه
وقال (رأي فاتر وغدر حاضر) والرأي ان تكتب اليها فان
كانت صادقة في قولها فلتقبل اليك والا فلا تمكنها من نفسك
فتقع في حبالها وقد وترتها وقتلت اباها فلم يوافقه جذيمة فيما اشار
به عليه وسار اليها في وجوه اصحابه فاخذ على شاطىء الفرات من
الجانب الغربي وقبل وصوله اليها استقبلته رسلها بالهدايا والالطاف
فلما رأى جذيمة ذلك قال لقصير كيف ترى فقال (خطب يسير
في خطب كبير) وستلقاك الجيوش فان ساروا امامك فالمرأة

صادقة وان اخذوا جنبتيك واحاطوا بك من خلفك فالقوم غادرون بك فسار جذيمة وقد احاطت به الخيل حتى دخلوا به على الزباء فلما صار عندها دعت بالسيف والنطع وامرت بطست من ذهب كانت قد اعدته له وقالت ان دماء الملوك دواء من الكَلَب ثم امرت براهشيه فقطعتا والرواهش عروق اليدين فلما ضعفت يداه سقطتا فقطر من دمه قطرة خارج الطست فقالت لا تضيعوا دم الملك فقال جذيمة (دعوا دمًا ضيعه اهله) واستنزفه الدم حتى مات هذا ما كان من امر الزباء وتحيلها في اخذ ثار ابيها واما قصير فانه لما احاطت الخيل بجذيمة وعلم الغدر به نجا بنفسه ورجع الى بلاده فتحيل على قتلها فجدع انفه ورحل اليها فلما راته قالت ما الذي ارى بك يا قصير ومن جدع انفك فقال لها زعم قوم جذيمة اني قد غررته وزينت له المصير اليك وغششته ومالأتك عليه ففعلوا بي ما ترين فلما رايت ذلك منهم اقبلت اليكِ وعرفت اني لا اكون مع احد اثقل عليه منكِ فصدقته واكرمته واصابت عنده من الحزم ما ارادت فلما عرف انها اطمأنت اليه ووثقت به قال لها ان لي بالعراق اموالاً كثيرة وطرائف وثيابًا وعطرًا فابعثيني الى العراق لاحمل ما لي واحمل اليكِ من بزوزها وطرائفها وثيابها وطيبها وتصيبين في ذلك ارباحًا عظيمة وشيئًا مما لا غنى للملوك عنه فلم يزل يزين لها ذلك حتى اذنت له

ودفعت له اموالاً فسار قصير بما دفعته اليه حتى قدم العراق واتى الى الحيرة وهي بلاد جذيمة متنكرًا ودخل على قوم جذيمة وقال لهم جهزوني بصنوف البز والامتعة لعل الله يمكننا من الزباء فنصيب ثارنا فاعطوه حاجته فرجع بذلك الى الزباء فاعجبها ما رات وسرها وازدادت به ثقة وجهزته ثانية وثالثة فرجع الى بلاده وجمع ثقات رجاله وشجعانهم وهياء لهم الغرائر والسلاح وحمل كل رجلين على بعير في غرارتين وسار يكمن النهار ويسير الليل فلما صار قريبًا من مدينة الزباء تقدم فبشرها واعلمها بما جاء به من المتاع والطرائف وسالها ان تخرج فتنظر الى ما جاء به فخرجت فابصرت الابل تكاد قوائمها تسوخ في الارض من ثقل احمالها فقالت يا قصير

ما للجمال مشيها وئيدا
اجندلاً يحملن ام حديدا

فلما توسطت الابل المدينة اناخوها وخرجت الرجال من الغرائر وصاحوا باهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح ولم تتمكن الزباء من الهرب فمصت خاتمًا بيدها وكان فيه السم وقالت بيدي لا بيد قصير فماتت وذلك بعد مبعث المسيح عليه السلام والى هذه القصة يشير المتلمس في قوله من قصيدة له

الم تر ان المرء رهن منية
صريع لعافي الطير او هو يرمسُ

فلا تقبلن ضيما مخـــافة ميتة

وموتن بها حرًا وجلدك املسُ

فمن طلب الاوتار ما خرّ انفه

قصير وخاض الموت با لسيف بيهسُ

نعامة لما صرع القوم رهطـه

تبين في اثوابه كيف يلبسُ

فقال الانكليزي اما قوله فمن طلب الاوتار ما خرا نفه قصير فقد فهم مما ذكر من حكاية الزباء واما قوله وخاض الموت بالسيف بيهس الى اخره فالمرجو بيان المراد منه

قال الشيخ نعامة لقب بيهس المذكور وهو بيهس بن خلف بن هلال ابن غراب بن ظالم بن فزارة الفزاري وكان سابع سبعة اخوة فاغار عليهم وهم في ابلهم ناس من اشجع كان بينهم وبينهم حرب فقتلوا منهم ستة وبقي بيهس وهو اصغرهم وكان يوصف بالحمق والبله فارادوا قتله ثم قالوا وما تريدون من قتل هذا يحسب عليكم برجل ولا خير فيه فقال دعوني اتوصل معكم فلما كان من الغد نزلوا فنحروا جزورًا في يوم شديد الحر فقالوا أظللوا لحمكم لا يفسد فقال بيهس (لكن بالاثلاث لحمًا لا يظلل) يريد اخوته فذهبت مثلاً فلما قال ذلك قالوا انه لمنكر وهموا ان يقتلوه ثم تركوه وظلوا يشتوون من لحم الجزور وياكلون فقال احدهم ما اطيب يومنا فقال بيهس (لكن على بلدح قوم عجفى) فارسلها مثلا

ثم انشعب طريقهم فاتى امه فاخبرها الخبر فقالت فما جاءني بك من بين اخوتك وكانت لا تحبه مثلهم لما يوصف به من الحمق فقال (لو خيرت لاخترت) فذهبت مثلا يعني لو كان الاختيار لك لاخترت ان اموت ويبقى منهم واحد غيري لكن الامر ليس باختيارك ثم ان امه عطفت عليه ورقت فقال الناس احبته امه فقال (ثكل أرامها ولدًا) اي عطفها على ولد فارسلها مثلا ثم ان امه جعلت تعطيه ثياب اخوته فيلبسها فقال (يا حبذا التراث لولا الذلة) فسارت مثلا ثم اتى على ذلك ما شاء الله تعالى ثم انه راى نسوة من قوم يصلحن امراة منهن يردن ان يهدينها الى بعض قتلة اخيه فجعل بيهس يلبس السراويل مكان القميص والقميص مكان السراويل وقيل كان يغطي راسه ويكشف استه فقلن ما تصنع يا بيهس فقال

البس لكل حالة لبوسها

اما نعيمهـــا واما بوسها

فارسلها مثلاً ثم انه امر النساء من كنانة وغيرها فصنعن له طعامًا فجعل ياكل ويقول (حبذا كثرة الايدي في غير طعام) فارسلها مثلا فقالت امه لا يطلب هذا بثار ابدًا فقال (لا تامن الاحمق وفي يده سكين) فذهبت مثلاً ثم انه اخبران اناسًا من اشجع في غار يشربون نبيذًا فانطلق لخال له يقال له ابو حنش

فقال هل لك في غار فيه ظباء لعلنا نصيب منها ويروى هل لك في غنيمة باردة) فسارت مثلا فانطلق بيهس بخاله حتى اقامه على فم الغار ثم دفع ابا حنش في الغار فقال ضربًا ابا حنش فقال بعضهم ان ابا حنش لبطل فقال ابو حنش (مكره اخاك لا بطل) فارسلها مثلا فقتلهم جميعًا فضرب به المثل في ادراك الثار فهذا حديث بيهس وبه يفهم قول المتلمس في الابيات المتقدمة

نعامة لما صرّع القوم رهطه
تبين في اثوابه كيف يلبسُ



المسامرة الثالثة والستون

الرقيق

قال الانكليزي اذا نظر الانسان في احوال افريقة وما يفعله اهلها في ضرب الرق على بعضهم من غير نظر الى من يستحق الاسترقاق ومن لا يستحق وما يقاسيه فيها الارقاء من الذل والاهانة وما يكلفونه من الاعمال ادركه الاسف والرقة على هولاء المساكين المستضعفين ومن قرا كتب السائحين الذين طافوا بتلك الارض علم ان تجارة الرقيق عامة في جميع جهات افريقة وفي كل سنة ينقل من اهلها الى جهات الامريكا وجزائر البحر المحيط وبلاد العرب والترك والعجم عدد كثير وقد اخذت هذه التجارة في الازدياد والسعة منذ استقل بها الاوروبيون وقد بلغ عدد الرقيق المنقول بمراكب الانكليز من سواحل ارض الذهب سنة ١٨٢٢ للميلاد

وهي سنة ١٢٣٨ للهجرة ستين الف راس وبمراكب الفلمنك عشرين الفًا وبمراكب الدنيمرقة والسويد والبرتغال نحو ثمانية عشر الفًا فكان المجموع نحو ثماني وتسعين الف راس ما بين ذكر وانثى وهو امر جار من قديم الزمان الى الان وقد تعرض بعض الدول الغربية لمنعه وتشددوا في ذلك واقاموا الحرس والمفتشين لابطال تجارته ومنعه ومع ذلك فلم يمكن منعه بالكلية ولم تزل تجارته جارية متداولة وان لم يكن اجراؤها في بعض المواضع او بعض الاحيان جهرًا جرت خفية وسرًا ولم ينقطع وروده من جهاته فان اهل تلك الجهات لفقرهم وتجردهم من المعارف وتوحشهم في الصحاري المقفرة والفيافي الموحشة واعتيادهم على استرقاق بعضهم واختطاف من عثروا به من جنسهم قد صار عندهم هذا الامر كالجبلة والطبيعة الثابتة ولهذا لم يترتب على منعه الاَّ علو اثمانه والتدقيق في بيعه فلا يزول ذلك من طبعهم ولا يتحولون عنه الاَّ اذا انتشرت فيهم العلوم الدينية والاداب التمدنية وتالفت قلوبهم وزالت الضغائن من بينهم وانَّى ذلك وقد اتخذوه كالميراث عن ابائهم فقد مضى على سكان هذه الارض القرون العديدة والازمنة المديدة وهم على ذلك جيلاً بعد جيل وامة بعد امة نعم قد يقال ان فعلهم هذا اخف من غيره اذ لا يخفى ان توحشهم وجهلهم وجفاء طباعهم وكون ملوكهم وامرائهم وذوي الكلمة فيهم نشاوا مثلهم في حال الجهل والتوحش بمعزل عن الانسانية وحسن الاداب كل

ذلك موجب لقيام الحرب بينهم فاذا انتصر بعضهم على بعض فلا يخلو الحال من وقوع بعض المغلوبين اسرى في ايدي الغالبين فاذا لم يتصرفوا فيهم بالبيع وينتفعوا باثمانهم قتلوهم والبيع اخف من القتل اذ الرقيق اذا انتقل من بلاده خرج عن الحالة الاولية والطريقة التوحشية وربما اكتسب بحسن التربية علما وعقلاً وصار بين الذين انتقل اليهم كانه واحد منهم فلو كان حال الرقيق عند جميع الناس على الصفة التي يقتضيها دين الاسلام من معاملته بالرفق والشفقة واللطف والرقة لم يكن في الرق ضرر خصوصًا ان الرقيق ربما يناله العتق ويلتحق بسائر الاحرار فليس الكلام في هذا وانما الذي يجب التنبه له وشدة الاجتهاد في منعه هو ما يجلب على ايدي الاورباويين الى جزائر البحر المحيط والامريكا فان اهل تلك الجهات لا يفرقون بين الرقيق والدابة في سوء المعاملة فالرقيق والحيوان عندهم بمنزلة واحدة سواء بسواء فكم فرق بين معاملته في هذه الجهات ومعاملته عند اهل الجهات الاسلامية الذين يكون عندهم الرقيق بمنزلة الولد ويتخذون عتقه والاحسان اليه قربة عند الله

ومما يزيدنا اسفًا ان هذه الجهات يتعسر تمدنها جدًا كما يعلم من كتب السائحين اذ لم يترتب على توطن بعض الاوروبيين في سواحل افريقة الغربية الى الان نتيجة حسنة لاسيما وهم هناك عرضة لامراض شتى بسبب التغيرات الجوية وكثرة الابخرة المتصاعدة من

الارض خصوصاً في فصل الامطار فلا يمكن ان تطول اقامتهم بها وقد اجرت الحكومة الانكليزية عدة تجاريب علم منها ان من يموت من العسكر الاغراب في كل سنة قريب من النصف وهذا في السواحل التي امكن فيها الحصول على اللازم فما بالك بغيرها من الجهات المتباعدة التي لم يتيسر كشفها الى الان

فقال الشيخ ان تفاوت الناس في العقل وجودة النظر في صلاح الامة والقدرة على ضبط القوى الحيوانية الموجبة للبغي والعدوان اوجب استيلاء بعض الناس على بعض وسريان القهر فيما بينهم حتى نشا من ذلك التميز باسم الحاكم والمحكوم والمالك والمملوك وغاية الامر ان القهر اذا داخله العدل كان قهراً لذيذاً وضعف الشعور به ولم تكن الانفس شديدة الاباء منه لخفاء الذل فيه ولم يكن لشريعة من الشرائع ان تبطل ذلك الامر وتبعث على اهماله لما في تركه من الفساد العظيم وكان الاسترقاق فرعاً من فروع ذلك الاصل فمن شريعة ابرهيم عليه السلام ضرب الرق على السارق ولم يزل هذا الامر فيما بين الناس حتى جاء الاسلام فكان الطريق الى الاسترقاق واحداً وذلك ان الاسلام شريعة تامة والدعوة اليه عامة لانه يدور امره على عموم الامن والسلامة في جميع الارض فان امتثل الناس بسبب معرفة الصواب والخير الذي يدعو اليه الاسلام فذلك ما اريد والا اهينوا وقهروا حتى يحصل مقصود الاسلام فكان استعمال السيف لحسم الفتن وتسهيل

اختلاط الناس بعضهم ببعض واشتراكهم في تحصيل المنافع وانطلاق افكارهم في ذلك فسبب الاسترقاق حرب المعاندين الذين همهم الافساد ودأبهم العناد وليس مخصوصاً بامة دون امة بل متى استحقت امة من الامم المحاربة والضرب حتى ترجع الى حد الاعتدال كان كل من اسر منهم في الرق وكانت ذريتهم ايضاً ارقاء تحت ايدي المسلمين وربما كان ذلك سبباً لتاديب قوم اخرين فان سبي الذرية والنساء اشد على الانفس من القتل فالاسترقاق طرف من الاهانة المقصود بها تادب الناس ومشيهم تحت قوانين جامعة واما ما تفعله الامم السودانية فتلك عادة جاهلية بهيمية الاعتماد فيها على القوة والتسلط كما هو شان بعض الحيوانات والغرض هم من ذلك حظ الانفس واستفراغ الوسع في الشهوات والاستئثار باسم السيادة ومثل ذلك يجب على الناس منعه والاهتمام بالكف عنه وبالاطلاع على معاملة النبي صلى الله عليه وسلم للارقاء وما امر به في حقهم وشدد فيه يعلم ان الاسترقاق على ذلك الوجه من الامور المستحسنة في العقول فقد قال عليه الصلوة والسلام ابعاداً وتحاشياً عن ادخال الانكسار على انفس الارقاء (لا يقولن احدكم عبدي وأمتي ولا يقول المملوك ربي وربتي وليقل المالك فتاي وفتاتي وليقل المملوك سيدي وسيدتي فانكم المملوكون والرب الله عز وجل) وقد استوجب استحكام الطيش والغباوة في طباع السودان فشو الرق فيهم وظهور الاستيلاء عليهم حيث ابعدوا باعمالهم بينهم

عن التميزات الانسانية ألا ترى ان من تعقل منهم وظهرت عليه اثار النجابة كيف بلغ به نصيبه من ذلك الدرجة التي يستحقها · هذا الشاعر المشهور بعبد بني الحسحاس رفعه علمه وشعره حتى قيل فيه

اشعار عبد بني الحسحاس قمن له

يوم الفخار مقام الاصل والنسبِ

وهذا نصيب احد شعراء بني امية قد بلغ بعلمه وشعره درجة عظيمة يحكى انه دخل مصر في رحلة من رحله وهو على هيئة جميلة وشارة علية في ملابسه وركابه واتباعه فاطاف به السودان فرحين مسرورين برؤيته فقال اسررتكم قالوا نعم فقال ما يسوءكم من اهل جلدتكم اكثر وهذا الاستاذ كافور الاخشيدي تولّى نيابة ملك مصر وكان في التدبير والرزانة وعمل الخير غاية · يحكى انه طرب يومًا من السماع فحرك كتفه واستشعر النقص في ذلك فاتخذ تحريك كتفه عادة يعاودها الوقت بعد الوقت من ذلك الحين الى ان مات يوهم من يراه ان ذلك لعلة اصابته وكان في ليلة العيد يخرج بعد المغرب ويجلس على سلم الركوب ويبعث الناس بالعطايا الى منازل عرف احتياج اهلها بالبحث والتفتيش السري ويستقبل الاوراق التي يكتب فيها الوصول ويبقى كذلك حتى يركب الى صلاة العيد وبمجموع ذلك يبين ان خروج الشيء عن الحسن سببه مجاوزة الحد الذي له

فقال يعقوب هذا هو الانصاف والحق وقد قدّر السائحون في ارض افريقة مقدار من يوجد بها من الارقاَ على وجه التقريب فوجد ان الاحرار على قدر الثلث من الارقاَ وليست معاملة جميع الارقا على حد واحد فان معاملة السيد للعبد المولود عنده الطف وارفق من معاملته للعبد المشترى بالثمن واذا اراد السيد بيعه لزمه المرافعة معه على يد قاضي الجهة ليثبت جنايته ثم يبيعه ويباح للسيد في زمن القحط بيع عبد وجملة من عبيده لمشترى لوازم موُنته وان كان مديونًا ولم يكن في امكانه دفع الدين توُخذ عبيده في دينه وللاحرار على العبيد في الحرب مزية وهي ان الاحرار تكون اكثر سلاحًا واحسن خيلاً فيتأتى لهم بذلك اغتنام الفرصة في حالتي النجاح والهزيمة بخلاف العبيد فانهم في الغالب مكلفون بحمل الذخيرة ولم يكن لهم سلاح غير الحربة والنشاب ولهذا تجدهم يقعون في قبضة الغالب مع السهولة بحيث لو نسبنا من يضبط من الاحرار في الحرب الى من يضبط من العبيد لكان كنسبة واحد الى خمسة عشر واذا ضبط احد الاحرار افتدته اصحابه او عائلته بخلاف العبد فلا مخلص له وتجار الرقيق تفضل من تربى في الرق على غيره وترجحه عليه في الثمن بخلاف من كان حرًا وطرأ عليه الرق في عهد قريب لان الاول اعتاد المشقة والتعب والصبر على الجوع والعطش بخلاف الثاني فانه كان في رفاهية بالنسبة للاول فلا قدرة له على السفر الطويل في الجبال والاودية ولتجار الرقيق من

الاوروبيين وغيرهم من القسوة والجفاء ما يضرب به المثل فتراهم اذا مرض رقيق لهم مرضاً اوجب عدم بيعه او تقدم في السن لا ينتظرونه حتى يقضي الله عليه بل يقتلونه فان وقعت في يدهم جارية ذات اولاد رموا باولادها الى الوحوش تتخلى الام من الرضاع ويبيعوها واسباب الاسترقاق عندهم في العادة هي الحرب والقحط وسداد الدين والجنايات ومن عاداتهم ان الرجل الحر ان اسر في الحرب صار رقيقاً وهناك نوعان من الحرب عند الافريقيين الاول يكون بعد الاعلان من الطرفين قبل الخروج وربما كان من غير سبب موجب له ومن اول وقعة ينتهي بينهم النزاع والغالب منهما يضبط ما قدر عليه من المغلوبين ويبيعه فان كان في الاسرى ضعيف او مريض او ذو عيب قتلوه في الحال حتى لا يتحملوا موُنته وكذلك يفعلون بالروساء ومن كان سبباً في هيجان الفتنة ومن يخشى باسهم وفي مثل هذه الوقعات لا يكون عدد القتلى كثيراً لانه متى علم احد الفريقين انه مغلوب انقاد لقرينه او فر منه ولهذا ترى البلد التي تخرب بمثل هذه الوقعة وان انهدمت بيوتها عن قريب تعمر وتعود الى احسن مما كانت عليه من اول الامر وايضاً فان غاية امنية الغالب الاستحواذ على جملة من الاسرى لاجل بيعها واخذ ثمنها فلا حاجة له في طول زمن الحرب وكثرة القتلى النوع الثاني يكون خفية لاسباب واهية تقع بين القبائل كشقاق ومنازعة في شي من الاشياء ربما كان واهياً فتجتمع القبيلة العادية

بخيلها ورجلها بعد جمع حاصلات الزراعة وتسير خفية الى ان تحل بساحة القبيلة التي تريد غزوها فتحمل عليها ليلاً علي حين غفلة حملة واحدة فاذا انهزمت اخذت القبيلة الغالبة ما قدرت عليه سواء كان رجالا او نساء كبارا او اطفالا لا يميزون بين شريف ووضيع وكبير ورضيع ومن حينئذٍ يصير الغالب سيدا والمغلوب عبدا ولم يكن لهم في ذلك قانون يتبع الاّ مجرد الشهوة والطمع ومن وقع في يده واحد منهم فهو مخير فيه بين ان يبقيه لخدمته وبين ان يبيعه فمن ظهر عليه علامات الامتثال والانقياد ابقاه ومن توسم فيه علامات النفور والضجر من الخدمة باعه في بلاد بعيدة ومن هنا يعلم ان اقوى الاسباب لاتساع دائرة الاسترقاق انما هو الحرب وان كان له اسباب اخرى كالقحط والجوع وحلول المصائب والجنايات وحب التسلط على بلاد الغير والاستيلاء عليها

وغالب اسلحتهم على الهيئة القديمة كالقوس والنشاب والنبال والحراب واما الاسلحة النارية فلا توجد فيهم الاّ عند سكان السواحل المختلطين بتجار الاوروبيين وعندهم شي كالبلطة يخرجون به عند ارادة الحرب يعتقدون انه حرز لهم فيحترمونه ولا يحلفون به كذبًا وعادتهم عند الحرب ان يتستروا بجلود بعض حيوانات كالنمور والسباع ونحوها او بجلود زرقاء او بيضاء

وذخيرتهم اذا ارادوا السفر للحرب او غيره قليل من الدقيق ياخذونه معهم وتارة لا ياخذون شيئًا ويعتمدون على ما يجدونه

في طريقهم من الاعشاب والبقول وما يصطادونه من الحيوانات البرية والبحرية وما ينهبونه من البلاد التي يمرون بها ولا يستصحبون في سفرهم خيامًا بل لا وجود لها عندهم فاذا اضطرتهم كثرة الامطار الى الاستتار صنعوا لهم زرابي من اغصان الاشجار وقد يكون لبعض امرائهم شمسيات تسع الواحدة نحو عشرين نفسًا وقد يقع في بعض جهات السواحل مناوشات بحرية لاجل استيلاء بعضهم على ما في مراكب البعض او لامور اخرى ولمهارتهم وتمرنهم على السباحة في البحر تكون محاربتهم فيه من اعجب ما يرى ومن عاداتهم ان الفرقة الغالبة تعامل المغلوبين بانواع من التعذيب لا تقتصر فيها على فعلها بالاحياء بل تفعله ايضًا برمم القتلى كأن ياخذ القاتل فك المقتول معتقدًا ان في ذلك طول عذابه او يقطعه قطعًا يرمي بها الى الوحوش وربما يضربون الطبول على رمة المقتول يزعمون ان في ذلك ازعاجه وسلب راحته ومن عاداتهم عند الخروج الى الحرب ان ياخذ كل واحد منهم قطعة ذهب او صورة وجه انسان او وجه حيوان او زبل حيوان يشابه الخنزير يرون ان استصحاب ذلك معهم ناصر لهم على اعدائهم وليس لهم في الحرب قانون منتظم بل حربهم مع بعضهم هجوم وحملات وقتية تنقضي في زمن يسير واذا اطلقوا بنادقهم اختفى كل منهم خلف اي شي يصادفه حتى يعم بندقيته ويعود ثانيًا والهجوم دفعة واحدة نادر بينهم جدًّا ومن عاداتهم وقت الحرب ان لا ينظروا لقتيلهم حين

يقع على الارض ميتًا ويقولون ان مع كل قتيل ملكًا فيخافون لو نظروا له ان يجذبهم فيموتوا مثله ولهذا متى اطلق احد منهم بندقيته انكب على الارض او ادبر او اختفى بمعنى انهم لا يستقرون على حالتهم التي كانوا عليها وقت الضرب

فقال الشيخ كثيرا ما كنت اسمع وانا بمصر ممن ياتي بالرقيق وممن سبق لهم الاقامة بذلك القطر انه يوجد بتلك النواحي كثير من الناس يشتغلون بالسحر وما ذكرته من استصحابهم لتلك الصور في حربهم يدل على اشتغالهم بهذا الامر

المسامرة الرابعة والستون

السودان بافريقا

فقال يعقوب جميع طائفة السودان بتلك الاقطار في جهل عظيم لا علم لهم بشيء ولا وقوف لهم على حقيقة وانما عندهم بعض عادات وعقائد فاسدة اخذوها عمن سبقهم خلفًا عن سلف ولهم شغف بكل ما يجدونه من عادات بلادهم كل على حسب بقعته التى ولد بها طبيعة نشأوا عليها فهم متمسكون بها لا يتحولون عنها ومن هذا القبيل ما يدعونه من السحر فهو عبارة عن اوهام كاذبة يدعيها اشخاص معروفون بها عندهم يدخلونها على عقول العامة وغيرهم بما يموهون به من اقوال واهية وحكايات مخترعة تسير بين الناس بما ينضم اليها من المبالغات والتهويلات فتزيد بذلك شهرتهم وثروتهم واهل جهات آكارا يقولون بوجود الخالق سبحانه

وتعالى ويعتقدون ان جميع افعاله انما تكون بواسطة الملائكة ويقولون ان الله سبحانه وتعالى وملائكته يظهرون لهم في الرعد والبرق والصواعق لتخويفهم ويقولون بان الشيطان من الملائكة وانه اقواهم ويتضرعون للقمر ببعض ادعية يتوجهون بها اليه وان كانوا لا يقولون بعبادة الكواكب وفي الليلة الرابعة عشرة من كل شهر يكثرون الشرب والرقص وضرب الطبول

ويعترفون بالاخرة ولكن لا يعرفون الجنة ولا النار وانما يزعمون ان جميع مستلذات الانسان في الدنيا تكون له في الاخرة فاهل الشجاعة والثروة واليسار في الدنيا هم عندهم اهل النعيم في الاخرة اما العبيد فلا سعادة لهم الاّ اذا التحقوا بسادتهم للتنعم في نعيمهم ولهذا الاعتقاد يدفنون مع اغنيائهم نفائس اموالهم من ذهب وقماش ونحو ذلك ويعتقدون ان الميت يهدي بعض ما يدفن معه الى عجوز موكلة بنهر لا بد لكل احد ان يعبره بعد الموت ومن عاداتهم انهم لا يدفنون ميتهم الاّ بعد اربعة عشر ساعة من موته يساله فيها اقاربه واحبابه واحدا بعد واحد عن سبب موته وفراقه لاهله ونحو ذلك فاذا ادلوه في حفرته اجتمع احبابه واقاربه والقوا عليه التراب لاعتقادهم انهم ان لم يفعلوا به ذلك رجع الميت الى اهله وآذاهم ومن عاداتهم ايضًا انهم يدفنون في بيوتهم من يعز عليهم فراقه ويضعون بجانبه وعلى قبره بعض ماكولات ومن قبيح معتقداتهم انهم لا يجب عليهم العدل والانصاف الاّ لابناء جنسهم

دون غيرهم فيستبيحون اسر الاغراب وقتلهم وبيعهم واخذ مالهم ويقولون ان كل ما يلقيه البحر بالساحل حق لهم لا يشاركهم فيه غيرهم وانه مرسل منه اليهم فلذلك تراهم يخصونه بنوع عبادة واهل هذه الجهات يقدّرون الزمن بتغير القمر ويعدون السنين بتجدد الفصول ولا يحفظون التواريخ وكلهم يجهلون مقدار ما مضى من اعمارهم وانما يحفظون بعض الحوادث العظيمة ويتحادثون فيها فاذا ذكروا امرا وارادوا ان يعينوا له وقتًا ارخوه بحادثة منها فيقولون كان كذا عام حادثة كذا وفي طبعهم الميل الى التغني سواء كانوا في حالة سرور او حزن ولاعتقادهم ان السعادة المعتبرة انما تكون في الاخرة تراهم لا يجزعون من الموت ولا يخافون وانما يخافون من المرض والالم فان عرض لهم مرض تخلصوا منه بقتلهم لانفسهم ويعدون من فعل ذلك بنفسه من اشرافهم والمعتبرين فيما بينهم وربما افردوه وحده بقبر مخصوص يضعون معه ماكل كثيرة مما كان يحبه في دار الدنيا لاعتقادهم انه لم يستوفِ زاده منها ومن عاداتهم اذا امر احد اعيانهم عبدا من الاهلين بامر خطر قال له العبد افعل وعليك الضمان يعني بذلك انه ان مات كان على الآمر ان يعطي اهله ديته وهي ثمن عبد يدفعه لهم وجميع هذه الامة تقول بان ارواح الاموات تتشكل في صور مختلفة وتظهر للاحياء اما لتخويفهم او لموانستهم وقد بلغني ان رجلاً اوروبيًا كان له جارية مات فادعت انها رأته بعد موته يعنفها ويلومها فمرضت من شدة خوفها وادعى

اهل الميت انهم سمعوه وهو يتكلم معها فغلب الوهم عليها فاشتد مرضها حتى ماتت

ومشائخهم يوافقونهم على ذلك ويصدقونه ويقولون لهم ان الشيطان والملائكة تظهر بين العالم في صورة الادميين او البهائم او غير ذلك ولهذا تراهم على جهلهم يعظمون بعض البرك والانهار والجبال والصخور والغابات والاشجار وبيوت النمل وبعض الاحجار المنفردة عن غيرها وما اشبه ذلك ويحترمونها احترامًا عظيمًا كاحترام غيرهم من الامم لمقامات الاولياء والصالحين ويعمل لهم مشائخهم تمائم وتعويذات على اشكال هذه الصور بقصد الحفظ من الامراض والعاهات وتاخذ منهم في مقابلتها جعلا عظيما وفي تلك النواحي بلاد لا يظهر اهلها للشمس مطلقًا ولا يمشون الاَّ بالليل ومنهم من يعيش طول عمره في البلدة التي ولد بها ولا يفارقها واهل تلك الارض لا يفرقون بين دين واخر وكل الاديان عندهم على حد سواء وللشيوخ عندهم احترام عظيم ومحلات معتقديهم معظمة فيما بينهم لا يدخلها غيرهم ولهم طرق لا يسلكها الاَّ اولياؤهم يميزونها باوتاد يدقونها وبعض آنية يضعونها علي جانبي الطريق فاذا راوا ذلك تحاموا المرور منه وسلكوا طريقًا بعيدًا عنه

واما العادة في الزواج عندهم فمختلفة باختلاف الجهات ففي جهة (آكارا) تخطب البنت من ابيها وامها فاذا اتفق الزوج معها زفت الى زوجها من غير نظر الى رضاها وعدمه ومن حين

الزواج تصير الزوجة في ملك الزوج وتصرفه فله بيعها اذا اراد وتاديبها اذا اساءت وقتلها اذا زنت وللزوج في (اكارا) على من زنى بزوجته عبد واحد وفي غيرها من الجهات عبدان الى سبعة فاكثر وفي بعض الجهات اربعة ريالات وفي بعضها اثنا عشر وفي بعضها لا حد لذلك بل المدار على ما تطيب به نفس الزوج فان كان الزاني معسراً فللزوج بيعه واخذ ثمنه هذا كله اذا لم تشتهر الزوجة بالزنا فان اشتهرت به وعلم بها زوجها فلا وجه له على الزاني ولا لوم عندهم على مصاحبة الذكور للاناث غير الحظايا ومن عادات اهل (اكارا) ان بنت الغني منهم اذا ارادت ان تتزوج بحيث تبقى على حريتها ولا تكون في اسر الزوج فعلت ما يقال له زواج الحائط وذلك ان تجري الافراح وسائر رسوم الزواج كانها طلبت للزواج بالفعل ومن ذلك الوقت يكون لها ان تعاشر من تشا وتستبدله بغيره في اي وقت تريد وتتكفل بتربية ما يكون لها من الاولاد وهذا كثيراً ما يحصل في جهات (اكارا) وهناك عادة اخرى في غيرها وهي ان تجتمع الشواب والشبان بشاطىء البحر وينزعون ثيابهم. وينزلون في البحر مختلطين مع بعضهم فمن اعجبه صاحبه خطبه

وعندهم لا يمتنع تزويج الذكر باي انثى الاَّ اذا كانت اختا الاَّ انهم يحتقرون المرأة العاقر ويحترمون الولود خصوصاً اذا كانت تلد ذكوراً ومن كثرت اولادها يعمل لها زفاف عظيم ويكون لها

عندهم مزيد اجلال وتكريم

ومن الغريب انهم اذا ماتت المرأة وهي حامل لا تدفن بل يرمى بها للطير والوحوش بخلاف التي تموت حين الولادة او بعدها فانها تدفن ومن اوهامهم ان روح الولد الذي يموت تنتقل الى جثة اخيه الذي تلده بعده امه فاذا لم يمت المولود وبلغ اوان الحلم اجتمعوا وعملوا له فرحًا ومهرجانًا فان كان الولد ذكرًا اظهر للناس ما عنده من القوة والشجاعة وان كانت انثى تتزين وتتجمل وتلبس احسن ما عندها ثم تقوم وترقص بينهم وتبدي زينتها وجمالها وبراعتها في الرقص

وهناك قوم على ساحل نهر السيستوس على بعد اربعين فرسخًا من راس (ميزورادوا)

ومن عاداتهم انهم اذا مات الزوج دفنوا معه زوجته كما اخبر بذلك احد السائحين قال في اثناء عبارة له ان تعدد الزوجات بهذه الجهة غير ممتنع بل المدار عندهم على اتفاقهم على المهر ان كانت المخطوبة حرة او القيمة ان كانت أمة فمتى اتفقوا على ذلك اخذ الزوج زوجته وذهب بها الى نسائه فتختلط بهن وتشرب الخمر معهن ويقمن جميعًا بتهيئة الوليمة وبعد الدخول بها اول ليلة تكون مع سائر نسائه في خدمة المنزل ومن عاداتهم ان من تلد من الزوجات اولاً تكون هي المحترمة والمقدمة عليهن والمتكلمة في المنزل الاّ ان هذا التقدم لا يثمر لها الاّ التندم لانها هي التي تدفن

مع زوجها لو مات في حياتها

قال وقد حضرت جنازة لرجل مات في قرية من القرى وكان شيخ القرية فلما مات ارتفع الصياح من جميع مَن في البيت من النساء فاجتمع اليهن نساء البلد ورفعن اصواتهن مثلهن فكان جزع الحظية من بينهن اعظم وصوتها اعلى من اصوات جميع من في المأتم فكان بالضرورة بكاؤها في ذلك الوقت على نفسها لا على بعلها لعلمها انها هي التي ستدفن معه وكان باقي النساء وقتئذٍ مع بكائهن وصياحهن مجتمعات حولها ينظرن اليها من طرف خفي حذراً من فرارها وقد اتفق ان بعض الحظايا في مثل هذه الحال هربت وتخلصت من الدفن مع زوجها فكن محدقات بها لكيلا تتمكن من الهرب وهن مع ذلك يظهرن الاسف على فقدها والتوجع لمصابها ثم ان اقارب الميت حضروا فعزوها في بعلها وودعوها وداع الموتى وبعد ذلك اتى رجل في هيئة فقيه ومعه بعض اتباعه فوضع يده على الميت كما يفعل الحكيم وقال ان موته طبيعي لا سبب له سوى انقضاء اجله ثم غسله ودهن جسمه بدهن معروف لهم يدهنون به موتاهم ثم انه بعد ان دهنه من راسه الى قدمه حوله من مكانه الى حصير مفروش في وسط المنزل والناس حوله ينظرون اليه وحضر النساء فاحطن به وكانت الحظية عند راسه وجميع النساء ناشرات شعورهن ينحن ويصحن ويضربن وجوههن وصدورهن ويقطعن شعورهن وكن في بعض الاحيان يسكتن ثم

يعدن لما كنّ عليه وكان بينهن جماعة منهن يندبن الميت ويذكرن فضائله فاستمر الحال على ذلك نحو ساعتين واذا بعبدين قويين حضرا فاحتملا الميت وربطاه على خشبات من فروع الشجر وطافا به نواحي القرية مع الهرولة والسرعة في بكاء ونحيب وحركات متنوعة واصوات مفزعة غطت على كل صوت في البلد حتى صار لا يسمع غيرها ثم انصرفوا به ليدفنوه فلما وصلوا الى المقابر وضعوه على الارض وارتفع الصوت بالنحيب والبكاء من جميع النساء ثم بيّن فقيهم موضع التربة فاحتفروها واسعة على قدر اثنين ثم اتى بعنز فذبحها وسلخها وقطعها بيده ثم اعطاهم امعاءها واطرافها فطبخوها واكل منها مع بعض من حضروا واعطى الحظية شيئًا منها واما ما بقي من اللحم فقطعه قطعًا صغيرة وفرق منه بيده على جميع الحاضرين وابقى منه بقية والصياح في كل ذلك مرتفع والبكاء لا ينقطع فلما اكلوا قام ذلك الفقيه الى تلك الحظية وقبض على يدها وسلمها الى اثنين من العبيد فاوثقوا يديها وجعلوهما خلفها وطرحوها على الارض على ظهرها ووضعوا على قلبها خشبة وقعدوا فوقها وصار كل منهم يتكئ على الاخر حتى تهشمت عظامها ثم رموا بها في القبر ووضعوا زوجها فوقها ثم اتوا له بما بقي من اللحم فوضعوه بجانبهما ثم اهالوا التراب عليهما وعند ذلك انقطع البكاء والنحيب وتوجه كل منهم الى منزله على العادة كأن لم يحصل شيء

وكل سكان هذه البقاع من غير استثناء مغرمون بشرب

المسكر وحب النساء فيصرفون في ذلك معظم اوقاتهم ولو ترتب عليه نقص في اقواتهم

ومن العادات الجارية في بعض الجهات ان الزوج قبل اجتماعه بزوجته يبعث اليها بثلاث هدايا واحدة فواحدة الاولى من خرز مصنوع من زجاج ونحوه والثانية من جنس ما يلبس والثالثة صندوق تضع فيه امتعتها وكذلك اهل الزوجة يهدون الى الزوج عبدين فاكثر على حسب الثروة واليسار وكذلك يرسلون له كسوة تليق به وسيفًا بحمائله وبعض سهام وشيئًا من ارز ونحوه

وطريقتهم في تربية اولادهم ان تربية الذكور على الاباء والاناث على الامهات ولا مزية للبكر عندهم على غيرها في الزواج واذا حملت المرأة وعلم بها الزوج لا يقربها حتى تلد ويصنع للمولود ما سنذكره وهو انه اذا كان المولود ذكرًا جمع ابوه عائلته وخدمه بعد مضي يومين من ولادته واخذوا نبالهم وقسيهم ورماحهم وعصيهم وداربهم في البلد مظهرين الفرح والطرب مكثرين من الغنا والرقص والطبل والزمر فيجتمع عليه احبابه واصحابه ومعهم الات الطرب من الطبول والمزامر والنقلات وغيرها فيجتمعون في ميدان واسع وعند ذلك يخرج رجل من بينهم كالخطيب فياخذ الولد من امه ويضعه على ترس بين الحاضرين ويضع في يده قوسًا او نشابًا او نحو ذلك ثم يخطب خطبتين يذكر في الاولى سبب اجتماعهم ثم يلتفت نحو المولود مخاطبًا له بالخطبة الثانية ويدعو له بطول العمر

وحسن الحال والغلبة على الامثال والتوسعة في الرزق والمال وان يكون خلفًا ساعيًا مساعي ابيه محبًا للخير مانعًا عن نفسه الضيم والضير معمرًا لداره ممدوحًا في اثاره وان تكون نفسه عفيفة وهمته عالية شريفة ونحو ذلك مما يناسب المقام ثم يسميه ويعطيه لامه او ابيه وينصرف الحاضرون بعد ذلك وان كان المولود انثى عمل لها ايضا مثل ذلك ولكن يضعها الخطيب على حصير بدل الترس الذى يوضع فيه الولد ويعطيها عصا بدل النشاب ويدعو لها بان تكون حافظة لعرضها امينة على متاع زوجها ماهرة في طبخها وخبزها مقدمة عند زوجها على باقي نسائه معينة له في اشغاله واعماله ونحو ذلك

ومن عادات الكوجاش ان الرجل اذا مات ورثه اولاده الذكور في جميع مخلفاته من نساء ومال فان مات الرجل ولا ذرية له من الذكور كان الوارث له اكبر اخوته فان خشي الفقر على بقية اولاده اعطى لهم في حياته بعض ماله كل على حسبه فان مات ولا وارث له من اولاده واخوته الذكور وله ذرية من البنات كان ميراثه لاكبر اولاد اخيه من الذكور فان مات ولا وارث له ممن ذكر كان الوارث الحاكم فحينئذٍ يلزمه تربية بنات الميت وفي جنائزهم ودفنهم لموتاهم وتجهيزهم لهم عادة فظيعة يحافظون عليها ولا يتحولون عنها ذلك انهم بعد ان يغسلوا ميتهم يلبسونه احسن ثيابه وسلاحه ويسندونه الى شي حتى يستوي قائمًا على قدميه ثم

تجتمع حوله اقاربه واحبابه ومن يلوذ به ومعهم القسي والنبال والات الحرب والقتال ويهيئون صورة محاربة تستمر مدة طويلة ثم انهم يولونه ظهورهم ويجثون على ركبهم ويذكرون كلامًا معناه انهم مستعدون لقتال من يطعن في ميتهم او يتفوّه في حقه بما لا يليق به فان كان الميت قتيلاً اعلنوا بانهم مستعدون لاخذ ثاره وبعد ذلك يقومون وياخذون من عبيده بقدر ما يناسب مقامه فيطعمونهم من احسن ما عندهم ويوصونهم بالقيام بخدمة سيدهم ثم يذبحونهم ويدفنونهم معه في قبر واحد ويدفنون معهم ما كان لهم في الدنيا من الفرش والاواني والثياب وجميع ما كانوا يستعملونه في حياتهم ثم يضعون عليهم حصيرًا ويردون التراب عليها وبعد ذلك يصنعون على القبر عشة يدقون في احدى زواياها قطعة من الحديد يعلقون بها بعض سلاح الميت ان كان ذكرًا فان كان انثى وضعوا معها جميع ثيابها وما كانت تحبه في حياتها وبعد دفن الميت ياتون بطعام وشراب فيضعونه على قبره ظنًا منهم ان ذلك تتغذى به روح الميت ويكررون ذلك حينًا بعد حين الى تمام ستة اشهر من دفنه

ثم قال يعقوب ولهم كثير من امثال هذه العادات الفظيعة يطول تعدادها

المسامرة الخامسة والستون

العرب الجاهلية

فقال الشيخ منشأ هذه العادات القبيحة وامثالها انما يكون من الجهالة فلا يزيلها الاَّ حسن التعليم وانتشار المعارف بين الامة وقد كان لامة العرب في الجاهلية كثير من امثال هذه العادات والاوهام فزالت بما انتشر بينهم من شريعة الاسلام ببعثة محمد عليه الصلاة والسلام

فمن عادات العرب في الجاهلية انهم كانوا اذا مات واحد منهم عقلوا ناقته عند قبره وشدوا عينها حتى تموت يزعمون انه اذا بعث من قبره ركبها

ومنها انهم كانوا اذا اصاب ناقة احدهم داء العرّ كوى الناقة السليمة يظنون ان ذلك يبري المعيبة

ومنها انهم كانوا يضربون الثور اذا امتنعت البقر من الشرب يزعمون ان الجن تركبه فتصد البقر عن شرب الماء

ومنها الهامة كانوا يزعمون ان الانسان اذا قتل ولم يوخذ بثاره يخرج من راسه طائر يسمى الهامة فلا يزال يصيح على قبره اسقوني اسقوني الى ان يؤخذ بثاره

وكان لهم في النفس مذاهب فمنهم من زعم انها الدم وان الروح هو الهواء الذي في باطن جسم الانسان

ومنهم من زعم ان النفس طائر ينشط من جسم الانسان اذا مات او قتل ولا يزال يصرخ على قبره مستوحشاً له وفي ذلك يقول شاعرهم

سلّط الموت والمنون عليهم * فلهم في صدى المقابر هامُ

وقال ان هذا الطائر يكبر حتى يكون كالبوم واكثر ما يوجد في الديار المعطلة والنواويس ومصارع القتلى حتى قالوا ان الهامة لا تزال عند ولد الميت لتعلم ما يكون من خبره فتخبر الميت

ومنها الصفر يزعمون ان الانسان اذا جاع عض شرسوفه الصفر وهو حية تكون في البطن

ومنها ثنية الضربة يزعمون ان الحية تموت لاول ضربة فاذا ثنيت الضربة عاشت ونحو ذلك من الاوهام الفاسدة والاراء الكاسدة فلما جاء الاسلام وبعث محمد عليه الصلاة والسلام هجر العمل بذلك كله وبطل القول به من اصله

ومنها انهم اذا اجدبوا بسبب انحباس المطر عنهم وارادوا طلب السقيا من الله جمعوا حزمًا من النباتات التي يبست كالسلّع والعُشر وربطوها باذناب البقر واوقدوا فيها النار واصعدوها في الجبال وفرقوا بينها وبين اولادها حتى يكون ضجيج عظيم ومناظر هائلة يستجلبون بذلك رحمة الله واستمر ذلك فيهم الى ان تنبه كثير لقبح تلك العادة وسماجة ذلك التوسل وكثرت الاشعار فيه فمنها قول بعضهم

شفعنا ببيقور الى هاطل الحيا
فلم يغن عنا ذاك بل زادنا جدبا
فعدنا الى رب الحيا فاجارنا
وصير جدب الارض من عنده خصبا

ومنها قول شاعر اخر

لا در در رجال خاب سعيهم
يستمطرون لدى الاعسار بالعشرِ
اجاعل انت بيقورا مسلعة
وزيعة لك بين الله والمطر

قال عبد الحميد بن ابي الحديد في شرح نهج البلاغة عند ذكر بعض المذاهب التي كانت عليها العرب قال بعض الاذكياء كل امة قد تخذوا في مذاهبها مذاهب ملة اخرى وقد كانت الهند تزعم ان البقر ملائكة سخط الله عليها فجعلها في الارض وان لها

عنده حرمة وكانوا يلطخون الابدان باخثائها ويغسلون الوجوه ببولها ويجعلونها مهور نسائهم ويتبركون بها في جميع احوالهم فلعل اوائل العرب حذوا هذا الحذو وانتهجوا هذا المسلك

وكان البقر عند قدماء المصريين ايضًا على نحو من هذه المثابة ومن عادات جاهلية العرب ان الانسان اذا لدغه لادغ علقوا عليه حليًا وكانوا يعتقدون انه اذا علق عليه حلي الذهب برئ واذا علق عليه حلي الرصاص مات وكانت طائفة اخرى منهم تعتقد ان تعليق الحلي على اللديغ لاجل ان يسهر ولا ينام بسبب قعقعته وكانوا يرون انه اذا نام سرى فيه السم فمات واذا لم ينم سلم وقيل لبعض العرب أيكون تعليق الحلي سببا للسهر فقال لا ولكنها سنة توارثناها عن اوائلنا ومن خيالهم ان الرجل اذا بلغت ابله الفًا فقأ عين الفحل كانه يحترز بذلك من اصابة العين لما له قال شاعرهم في الافتخار بالغناء والتعيير بالفقر مكنيًا بذلك

فقأنا عيونًا من فحول بهازر
وانتم برعي البهم اولى واجدر

والبهازر الجمال العظام والبهم الغنم الصغار

ومن خرافاتهم انهم اذا ارادوا ان يدخلوا قرية لطلب الميرة وخافوا وخامتها واصابة وبائها وقفوا خارجها ونهقوا نهيق الحُمُر وعلق كل منهم كعب ارنب عوذة وتميمة ويسمون هذا النهيق

تعشيرًا واتفق لعروة بن الورد الشجاع المشهور احد صعاليك العرب المضروب بهم المثل في الشدة والجرأة انه خرج في رفقة الى خيبر يمتارون فلما دنوا منها نهقوا على عاداتهم فانف عروة من ذلك وقال

لعمري لئن عشرت من خيفة الردى
نهاق حمير انني لجزوعُ
فلا وألت تلك النفوس ولا اتوا
قفولاً الى الاوطان وهي جميعُ
وقالوا الا انهق لا تضرك خيبرٌ
وذالك من فعل اليهود ولوعُ

فتصادف ان عروة رجع لاهله سالمًا غانمًا لم تشكه شائكة وجميع من كان معه وعشروا كانوا بين موتى ومرضى ومنها ان الرجل اذا كان مسافرًا فاخطا الطريق قلب ثيابه وصفق بيديه وحركهما كانه يومىء الى انسان يرى انه يهتدي بذلك الى الطريق قال اعرابي

قلبت ثيابي والظنون تجول بي
وترمي برحلي نحو كل سبيلِ
فلا يابلاي ما عرفت جليتي
وابصرت قصدًا لم يصب بدليلِ

ومنها اعتقادهم ان المقلاة وهي التي لا يعيش لها ولد اذا تخطت

الشريف الذي قتل غدرًا سبع مرات وطافت حوله عاشت اولادها قال الشاعر

تظل مقاليت النساء يطأنهُ

يقلنَ الا يلقى على المرء مئزرُ

ومنها ان الصبي اذا نزع اسنانه اوان تبديلها رمى بها الى الشمس وقال ياشمس ابدليني بها احسن منها وذكرته الشعراء في اشعارها من ذلك قول طرفة

بدلته الشمس من منبتهـــا * بردا ابيض مصقول الاشر

ومنها اعتقادهم ان دماء الملوك والاشراف اذا شربها من عضه الكلب برئ من داء الكَلَب قال الشاعر يمدح قومًا من الاشراف

احلامكم لسقام الجهل شافية * كما دماؤكم تشفي من الكَلَبِ

والكلاب تعتريها حالة هياجية كالجنون فلا تاكل ولا تشرب فتصير ضئيلة هزيلة سريعة العدو جدًا فاذا لقيت في طريقها حيوانًا انسانًا او غيره عضته والغالب انه يموت المعضوض ومن خرافاتهم انهم اذا خافوا على الشخص مس الجن واستهواءهم اياه نجسوه وعلقوا عليه شيئًا من الاقذار وعظام الموتى وخرق الحيض قالوا ينفع التنجيس الا من العشق ومن مذاهبهم انه اذا طرف انسان عين الاخر مسح عليها سبعا لذهاب الالم يقول في الاولى احدى من سبع جاءت من المدينة وفي الثانية اثنتان من سبع جاءتا من المدينة وهكذا الى ان يقول سبع من سبع جئن من المدينة ومنها

اعتقادهم ان من ولد في الليلة القمراء يخننه القمر وذلك انهم يجدونه قصير الغرلة ومنها تشاومهم بالعطاس كان الرجل اذا قصد قصدًا فعطس في وجه انسان رجع يرى انه لا يصيب خيرًا قال الشاعر يمدح من لم يعتبر ذلك

وخرق اذا وجهت فيــــه لحاجة

مضيت ولم يحبسك عنه العواطسُ

ومما اشتهر عن العرب احاديث الغيلان والسعالى وانها امم حية تسكن الفلوات والاودية وروُس الجبال وانها ربما خالطت الناس وحصل بينهم تناكح وتناسل ويذكرون في ذلك احاديث كثيرة منها ان عمرو بن يربوع احد مشاهير العرب عثر بامراة من ذلك الجنس فاحبته وتزوجها وولد منها وكانت قالت له اذا رايت البرق فاستره عني فاني متى نظرته طرت الى بلاد قومي وتركت اولادك فغفل عنها يومًا فرات برقًا فطارت والى ذلك يشير ابو العلاء المعري حيث يقول

اذا لاح ايماض سترت وجوهها

كاني عمرو والمطيّ سعالى

ولهم في هذا الباب اشياء كثيرة كخوفهم اذا قتلوا ثعبانًا او حية ان تقتص منهم الجن فياخذون روثة ويفتونها على راس المقتول ويقولون روثة راث ثائرك يحرزون بذلك وخوفهم من التعرض لبعض الحيوانات الصغار كالقنافذ واليرابيع لزعمهم انها مراكب

الجن وكان لهم خرز يستجلبون باستعماله بعض الحوادث كالحب والبغض والمرض والبرء وغير ذلك في اشياء كثيرة من جنس هذه الخرافات يطول استقصاؤها وقد بقي كثير منها تتناقلها النساء ومن يكون على طباعهن من العامة واهل التنبه منهم يسمون ذلك علم الركة نسبة للركة التي يغزل عليها النساء لانهن اذا جلسن للغزل ليلاً تفاوضن في هذه الاحاديث ومن اشنع ما كانت عليه جاهلية العرب وأْد البنات وهو دفنهن حيات كان يحفر الرجل حفرة ثم يدلي فيها البنت ويطم عليها بالتراب وذلك لاحد سببين خوف لحوق العار الذي يكون من جهة العرض وخوف كثرة الانفاق خشية الاملاق روي ان صعصعة جد الفرزدق الشاعر المشهور وكان ذا مال عظيم خرج يوما على نجيب الى البادية في طلب ناقتين كريمتين ضلتا له فوجد في مسيره بيتا ببابه شيخ فنزل اليه واستقبله ذلك الشيخ بالتحية والاكرام وجلس يتحدث معه ثم ساله عن الناقتين فاخبره بانهما عنده ثم جاءت جارية فبشرته بوضع زوجته فقال انظري ان كان ذكراً شاركنا في مالنا وان كان انثى قمت فوأدتها فقال له صعصعة او خيراً من ذلك افتديها منك فقال يتحدث العرب عنا اننا نبيع الاولاد فقال له تلك فدية وهي ابنتك فقبل الاعرابي وجعل الفدية الناقتين والنجيب فرضي صعصعة بشريطة ان يعود على النجيب الى اهله ثم يبعثه واخذ بعد ذلك صعصعة في هذا العمل حتى فدى مائة

وئيدة وكان الفرزدق يفتخر بذلك ويقول انا ابن محيي الموتى فاذا سئل عنه قال جدي احيي المؤودة والله سبحانه يقول ومن احياها فكانما احيي الناس جميعا واسلم صعصعة وسال النبي صلى الله عليه وسلم عن عمله فبشره بقبوله وان له ثوابه ولم يكن وأد البنات قديما في العرب ولا عاما لهم ومما كان عليه العرب ان الرجل اذا مات ورث امراته اكبر اولاده فتزوجها كرها وكان لهم في النكاح ونسبة الذرية طرق مختلفة اعظمها واشرفها ما عليه دين الاسلام من الخطبة وتقدير المهر وعقد التزويج في محفل من الناس والزفاف للشهرة واعتبار الكفاءة . الطريقة الثانية ان تتخذ المراة بيتا ثم تخادن عدداً من الرجال لا تتجاوزهم يكونون اخدانا لها عشرة فما دونها يشتركون فيها والانفاق عليها وربما اجتمعوا اليها يتحدثون ويتنادمون على الشراب فاذا جاءت بولد الحقته بمن يوجد فيه شبهة ان كان ظاهراً والاّ احضروا بعض القافه ليتامله ويلحقه بمن عرف شبهه به وعند ذلك يكون ابنًا له . الطريقة الثالثة ان المراة تتخذ بيتا وتنصب عليه راية ولا تختص باحد بل يدخل عليها كل من اراد وهؤلاء البغايا فان جاءت بولد الحقته بمن شاءت من المشهورين بالعهر واتيان البغايا فلا يقدر على الامتناع من ذلك واذا استلحقه رجل قبل ان تلحقه باحد كان ابنه

وكانت العرب تجوز من غير حصر فيجمع الرجل في عصمته عشر نساء واكثر واسلم غيلان بن سلمة وتحته عشر نسوة فقال له

النبي صلى الله عليه وسلم امسك اربعًا وفارق سائرهن وكان للعرب عناية بامر العيافة والزجر والمراد بذلك الاستدلال على حوادث الخير والشر باحوال يشاهدونها عند نية امر من الامور ولهم في ذلك مصادفات غريبة تكاد تجعل الباطل حقًا وقد اشتهر بعض القبائل بالمهارة في ذلك قال الشاعر

خبير بنو لهب فلا تكُ ملغيا

مقــالة لهبيٍّ اذا الطير ولتِ

فكانت هذه الاشياء في جاهلية العرب لعدم تفكرهم في حقائق الاشياء وعللها وغاياتها اذ لم يكن لهم مرشد الهي يخبرهم بفساد ما هم عليه من العقائد والاوهام والمذاهب التي نشات فيهم بسبب الجهل والغفلة والتخيلات لكن العرب بجودة طباعهم وكرم فطرتهم وحسن اخلاقهم كان فيهم عقلاء حلماء حكماء كثيرة استخرجت افكارهم اغلب الاداب الانسانية التي ينبغي ان يكون عليها النوع الذي شرفه الله بالعلم والنطق والالفة والاجتماع للتعاون في تحصيل المنافع التي خلقت له يشهد لذلك قوله صلى الله عليه وسلم بعثت لاتمم مكارم الاخلاق وما اشتهر عنهم من الاشعار والخطب والمقالات في فصل القضايا والخصومات واصلاح ذات البين ولا شاهد اصدق واعدل من النطق وحسن الابانة عن الاغراض والمعاني المعقولة يظهر ذلك في كلماتهم الوجيزة وامثالهم العزيزة وقد ورد الاسلام بتقرير كثير من محاسن عاداتهم اما باعيانها واما بتغييرات

يسيرة فكان الشر في الامة العربية مضمحلاً مغمورًا في تضاعيف ما لهم من الخيرات الكثيرة والمآثر العلية الشهيرة

قال ناقل الحديث ثم لما طال بهم المجلس ومالت الى الراحة الانفس سكت الشيخ وقال الانكليزي قد نقل السائحون في كتب سياحاتهم ان اهل تلك الجهات التي حدث عنها يعقوب كثيرًا من احوال الجهل والتوحش والعادات الشنيعة والاخلاق الفظيعة ومن اشنعها وافظعها عادة تقريب القرابين من الادميين ولنجعلها حديثنا في الصباح ان شاء الله تعالى فقد طاب النوم وهذا برهان قد داخله النعاس فان استحسن الاستاذ قمنا لياخذ كل منا راحته الى الصباح فقال الشيخ لا باس وقام فقاموا وانصرف كل الى مضجعه فلما اصبح الصباح قاموا وتوجهوا الى المحطة ونزلوا في احدى العربات وساروا وفي اثناء الطريق لم يجد الشيخ ماء يتوضأ به فتيمم وصلى ما حضر من الصلاة وكذلك فعل ابنه برهان الدين وكانت هذه اول مرة راى فيها يعقوب التيمم وانما كان يراهما يتوضآن فسال الشيخ في ذلك



المسامرة السادسة والستون

الوضوء والتيمم

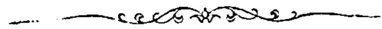
فقال الشيخ ان الله جلت حكمته لم يجعل علينا في الدين من حرج بل خفف عنا وسهل علينا ويسر لنا الطريق لعبادته وجعل لكل حال من الاحوال التي تعتري الانسان عملاً يناسبه فاذا عجز عن الصلاة قائمًا صلى قاعداً وان عجز عنها قاعداً صلى مضطجعًا وان عجز عنها مضطجعًا صلى مستلقيًا وان وجد الماء توضأ وان أعوزه الماء تيمم وصلى لكيلا يحرم في وقت من اوقاته من عبادة مولاه والتقرب الى رحمته والدخول في حضرته فان الانسان في كل صلاة من صلواته يخلو مع ربه عز وجل يناجيه بلسان الخشوع ويناديه بكمال التضرع والخضوع ويعرض فيها العبد الكامل في عبادته عن اشغال الدنيا واحوالها ووساوسها واعمالها ويخلي قلبه لربه مقبلاً عليه

بكليته قائمًا على قدم عبوديته فينشرح صدره ويستريح خاطره من شواغل الدنيا وغوائلها مدة صلاته فيستنير قلبه ويقوى ايمانه ويضعف عنده حب الشهوات والمفاسد والمعاصي خصوصًا بما يتكرر على خاطره ويفعل في قلبه مما يتلوه في صلاته من الايات القرآنية وما يتبعها من الخواطر العلية والواردات الرحمانية التي تمحق من قلبه سلطنة القسوة والرعونة والغباوة وتملأه ورعًا وتقوى واقبالا على الله وحنانا ورافة بخلقه ورحمة لهم فهذا شان الصلاة الفاضلة والعبادة الكاملة التي تعود على الانسان بالنفع في الاخرة والراحة في الدنيا والتقرب الى الله سبحانه قد سهل لنا بفضله السبيل اليها حتى لا يحرم العبد منها في وقت من اوقاته وحال من احواله ولهذا رايتني لما لم اجد ماء اتوضا به تيممت وصليت لقوله تعالى فان لم تجدوا ماء فتيمموا

فقال برهان هل يعلم ايها الاستاذ لنزول هذه الاية سبب يذكر

قال الشيخ روي عن عائشة ام المؤمنين رضي الله عنها انها قالت خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض اسفاره حتى اذا كنا بالبيداء (في مكان بذي الحليفة) انقطع عقد لي فاقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التماسه واقام الناس معه وليسوا على ماء وليس معهم ماء فاتى الناس الى ابي بكر الصديق (وهو ابوها) فقالوا له الا ترى الى ما صنعت عائشة اقامت برسول الله

صلى الله عليه وسلم والناس وليسوا على ماء وليس معهم ماء قالت
فجاء ابو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم واضع راسه على
فخذي قد نام فقال حبست رسول الله وحبست الناس وليسوا
على ماء وليس معهم ماء فعاتبني ابو بكر وقال ما شاء الله ان
يقول فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اصبح على غير ماء
فانزل الله تعالى ياايها الذين امنوا اذا قمتم الى الصلاة الى قوله
فان لم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا طيبًا فقال بعض الصحابة ما هي
باول بركتكم ياآل ابي بكر فهذا سبب نزول هذه الاية



المسامرة السابعة والستون

مملكة اشانتي

قال الناقل ثم التفت الشيخ الى الانكليزي يرجوه في انجاز ما وعده به في الليل من ذكر عادة السودان في تقريب القربان من نوع الانسان فقال الانكليزي من جملة القبائل المنتشرة في سواحل بلاد الذهب قبيلة يقال لها (اشانتي) مقيمة في ارض واسعة بعيدة الحدود يجدها طولا من المغرب الى المشرق اربع درجات وهو من (عامان) الى (ولتا) وعرضها نحو ذلك وهو من حصن راس (كورس) الى ولاية (غرفان)

وملك اشانتي هو الحاكم على جميع هذه الارض ومن فيها من غير معارض لامره ولا منازع له في حكمه وجميع حكام القبائل تحت امره ونهيه سواء من يدفع منهم الخراج ومن لا يدفعه فجميع

القبائل المنتشرة في جهات سواحل الذهب خاضعة لاوامره قد انضمت الى حكمه بعد حرب حصلت بينهم اخيرا فصار الجميع مملكة واحدة تختها مدينة (كوماسي) فمنها بجهة الجنوب قبيلة (دينكيرا) وجبال (طوفيل) وقبائل (وصّا · وامندا · وعوفين · وتوزكا)

ومنها بجهة الشرق على شاطئ نهر (قولتا) قبائل (غوفان · وبابوزو · وبناويوبتن · ودعجورا · وبودومي · وعكيا · وعكواهو · وعكيم · واكوبيم · ودعكامبويه)

وفي الوسط قبائل (سوكو · وتليما · وكودنزا · وماسي · وعاسين · وفانتي · وعهتنا) وكلها تحت حكم ملك (اشانتي) وهذه المملكة على اتساعها منقسمة الى ثمانية طرق تمر من مدنها الشهيرة كل طريق يسمى باسم الملك الذي انشئ في مدته او باسم المديرية التي هو فيها او القبيلة المار بها

فالطريق الاول يسمى طريق (داعوفين) وهو الموصل الى الساحل الغربي المجاور لمدينة (ايولونيا) وغيرها

الثاني يسمى طريق (وصّا) وعندها ينقسم الى فرعين احدهما شرقي والاخر غربي الذي يتوصل به الى راس الثلاثة الشعوب والى مواطن الاوروباويين بتلك الجهات

الثالث يسمى طريق غسيم وفانتي وينقسم عند بلدة صغيرة هناك الى قسمين احدهما يتوصل به الى حصن الفلمنك وهو قريب

من راس كوري على بعد اربعة اميال منها

الرابع طريق (خوابتي) وهو اخذ من الجنوب الشرقي الى الشمال الشرقي ويمر بعدة مدن وبلاد يتوصل منها الى (اكار) ومواطن الانكليز وغيرهم من الاوروبيين القاطنين بهذه النواحي وهذه الطرق الاربعة تسلكها اهل اشانتي عند الذهاب الى الساحل لشراء البارود والبندق وجميع البضائع الاوروبية واما الاربعة الاخر فمبداها من التخت ثم تاخذ في اتجاهات مختلفة الى داخل ارض افريقا وهذه الاربعة منها اثنان قديمان واثنان حديثان

والملك الان مجتهد في فتحها لسهولة العبور منها بتسخير العبيد في قطع اشجارها ونقل احجارها وهناك طرق اخرى توصل من التخت الى ما جاوره من البلاد ومنها الى المدن الشهيرة والى بلاد الساحل ومواطن الاوروبيين ولكن في كل سنة يتلف كثير من هذه الطرق وتمحى اثارها بسبب الرياح والامطار وفيضان الانهر والخلجان والبحائر وقد يتعدى ذلك الى الطرق الكبيرة ايضاً وهيئة الارض من جهة الساحل ترى كحصن من اشجار وخضرة وذلك في جهة الشرق والغرب واما من جهة الجنوب والشمال فهي بقاع مستوية في بعض جهاتها او غابات صغيرة والارض فيما حول نهر قولتا جبلية وفيها غابات قليلة ويوجد حول التخت مدن كبيرة كثيرة الاهالي بعضها على بعد يوم وبعضها على اكثر ومنها ما اهله قريب من ستين الفًا ومنهم من يتعيش من الصيد ومنهم من

يتعيش من زراعة الارض ومنهم من يتعيش منها معًا ويوجد في المدن من لهم معرفة بصناعة الصباغة والحياكة ونسج الحصر وعمل اواني الفخار وفيهم من له معرفة بعمل السلاح

وعدد رجال العسكرية عندهم يقرب من مائة وخمسين الفًا واموال الحكومة ترد اليها من عدة جهات

الجهة الاولى ما يرد من غرامات المذنبين وتركات الاموات

الثانية ما يرد من تجار الرقيق عند بيعه بالسواحل وهو مقدار من الذهب يؤخذ على ما يباع منه

الثالثة ما يرد من معدن البضائع صادرة او واردة

الرابعة ما يرد من صيادي الفيلة

الخامسة ما يرد من معدن الذهب بناحية (سوكو)

السادسة الذهب المجتمع بالغسيل والتصفية على ما تقدم

السابعة ما يرد من كل من اراد بيع حلي الذهب والفضة

الثامنة ما يرد من الخراج المقرر على بعض الجهات فمنهم من يدفعه ذهبًا او فضة ومنهم من يدفعه عبيداً او بهائم ومنهم من يدفعه ثيابًا واما اعتقاداتهم ومذاهبهم في دياناتهم فمختلفة منها ما هو موافق لما ذكره يعقوب ومنها ما يخالفه ومنهم طائفة تقول ان طمع من تقدم من ابائهم كان سببًا في بعدهم عن حب الله لهم وعدم طمع سلف البيض هو الذي كان سببًا في قربهم منه وحبه لهم فلذلك يقولون ان اكثر نعمه خاصة بهم وما يصل منها الى السود لا يكون

الاَّ بواسطة مقدسين او ملائكة ويقولون ان المولى لما اراد عمارة الدنيا خلق فيها ثلاثة رجال بيض وثلاثة سود وخلق لهم ازواجاً مثلهم ولعدم حصول النزاع بينهم في الدنيا خلق علبة مقفولة لا يرى ما فيها وورقة مختومة وجعلها على الارض وامر الفريقين ان يختار كل منهما ايهما اراد وقدم السود في الخيرة فقال اختاروا انتم اولاً فطمعوا في العلبة فاختاروها لزعمهم ان في باطنها كل شي ففتحوها فلم يجدوا فيها سوى قطعة من ذهب ومثلها من حديد وبعض قطع من معادن اخرى لا يعلمون فائدتها ولا خاصتها واخذ البيض الورقة فوجدوا فيها علم كل شي فجعل الله سبحانه السودان في البراري والقفار وبين غابات الاشجار وانزل البيض بسواحل البحر وصار يعلمهم كل ليلة ويلهمهم كيف يصنعون ما يلزم لهم حتى علمهم صنعة السفن فعملوها وركبوها وساروا بها في البحر مدة ثم رجعوا ببضائع من انواع متعددة وذهبوا بها الى السودان الذين كان لهم الخيرة اولاً فباعوها عليهم وجميعهم الى الان يعتقد ان ماوى المقدسين والملائكة المقربين الغابات والانهر والجبال كما كان ذلك في مبدأ الزمان ولهم في هولاء المقدسين اعتقاد كبير فمن ذلك اعتقادهم انهم اذا توسلوا بهم في امر ساعدوهم فيه واعظم مقدس عندهم الان نهر يقال له نهر (تاندو) ومن جملة اعتقادهم ان ملوكهم وامراءهم يكونون بعد موتهم مع المقدسين فيتمتعون عندهم بانواع الخيرات ويتلذذون باصناف المستلذات ولاعتقادهم ذلك تجدهم

اذا مات لهم امير او ملك ذبحوا على قبره جملة من العبيد والجواري ووضعوهم معه في حفرته ليقوموا على زعمهم بخدمته ويعتقدون ان الرعية اذا ماتوا كانت ارواحهم في خدر وخمود للاستراحة مما كابدوه في الدنيا ومن كان ذا فطنة منهم وتجربة اعتقدوا ان له خاصة الاطلاع على علم الغيب وانه الواسطة الى المقدسين وان هولاء المقدسين واسطتهم الى الله ينال بهم الناس ما يطلبونه من الله عز وجل وعندهم ان من كثرت ذنوبه او فرط فيما وجب عليه كان محروماً بعد موته من ثواب ما عمله من الطاعات والصلوات والدعوات محتوماً عليه ان يتيه في ظلمات الغابات وقد تجيء روحه الى بيته في بعض الاوقات ومن اوهامهم ان من قصر في اعمال المآتم لمن مات من اقاربه فلا تزال ارواحهم تؤذيه وتنغص عليه عيشه فلا يزال في عناء ونكد وبلاء وقد انقسمت مشائخهم الى طائفتين

الاولى ملحقة عندهم بالمقدسين فلا يدخلون في امور الدنيا ولا يخلطون بالناس بل يعتزلونهم ويقيمون في محال بعيدة عن البلد والعمران ويقولون انهم يخاطبون المقدسين ويسالونهم عن كل شي ارادوا علمه فاذا اراد احد ان يعلم حال من مات من اقاربه ذهب الى احدهم فيحضر له روح قريبه فيتكلم معها ويسألها عما يريده

والثانية تختلط بالناس في اوقات اجتماعهم وليالي افراحهم فيانسون

بهم ويسالونهم عن كل ما سنح لهم كالذين يفتحون الكتاب او يضربون الودع او يقيسون الاثر ولهم براعة في التقاط اخبار الناس وتتبع احوالهم ويعرفون حيلاً كثيرة يعلمون بها كيف اخذت السرقة ومن سرقها وفي اي موضع هي ويعملون لبعض النساء تمائم لحب ازواجهن وعدم اطلاعهم على احوالهن وافعالهن ونحو ذلك ووظائف الطائفة الاولى وراثية يدخلون فيها بطريق الارث عن اسلافهم كما كان عليه كهنة المصريين في الازمان القديمة ولهم ان يتزوجوا اذا ارادوا وكذلك امولهم . والثانية لا تنضبط بعدد معين بل هي دائمًا في الزيادة على حسب مس المقدسين لهم وتلبسهم بهم كحال من نراهم بمصر كالمصروعين الذين يقولون ان الجن متلبسون بهم وعندهم بعض نساء يعتقد فيهن المس ولهن معرفة بخواص النبات والاعشاب في مداواة الجراح والامراض ولهذا السبب يكون الاعتقاد فيهن اكثر ولا حرج عليهن عندهم اذا زنين قبل الزواج او بعده ولهولاء الناس نذور ومرتبات ياخذونها ممن يعتقدهم يرمون نصفها في البحر ويبقون لانفسهم النصف الاخر ونذر الملك في العادة يكون عشر اواق من الذهب واربعة من العبيد وكثيراً ما يهبون للمقدسين اولادهم وهم في بطون امهاتهم وكل عبد دخل محل المقدس بقي في خدمته فاذا اراد سيده اخذه دفع عوضاً عنه اوقيتين من ذهب واربع شياه من الضأن وفي بعض الجهات اذا دخل العبد معبد المقدس بقي عنده فلا يخرج ولكل عائلة منهم

اشياء كالاوثان تخصصها لهم مشائخهم فيقدسونها ويمجدونها فمنها صور من خشب او قطع مركبة من مواد مختلفة خالية من التصوير فيثبتونها في داخل منازلهم وتقدم لها العائلات النذور في الاعياد والمواسم وكثير من الحيوانات عندهم يعتبر اعتبار المقدس كالضبع عند اهالي اكارا والصقر في جميع البلاد لانهما لا يبقيان الرمم التي تنشا عنها العفونة وحدوث الامراض حتى ان من يقتل ضبعاً يغرم غرامة عظيمة فان كان قاتله من الاوروبيين كلف بدفع صندوق وثوب من القماش يلف فيه راس الضبع ويوضع في الصندوق ويدفن والتمساح ايضاً في جهات متعددة يعتبر اعتبار المقدسين حتى ان من الدراويش من يربيه في بعض البرك ومتى اظهر راسه من الماء اعطوه من النذور ما ياكله ولذا تراهم اذا نادوه ظهر لهم ونظر اليهم وليس لاعياد المقدسين عند الاشانتي يوم معين وانما يتركون اشغالهم اياماً من بعض الاسابيع يلبسون فيها الابيض من الثياب ويجتنبون شرب نبيذ النخل وبعضهم يمتنع في هذه الايام من اكل لحم الثور وذلك دأبهم في يوم مولدهم وهو اليوم الثاني من الاسبوع الذي يتركون فيه العمل وان كانت الاعياد مختلفة عندهم فعيد المقدس لعائلة الملك يوم الخميس وعيد مقدس الوزير يوم الجمعة ويوم السبت هو يوم مولد الملك يجلس فيه وفي يوم مقدسه على دكة صغيرة امام تخته وفي هذه الايام يمتنع الناس عن اكل لحم الثور لانه مقدس عائلة الملك وكذا الحمام

وبعض الايام عندهم سعيد يتيمنون به وبعضها نحس يتشآمون منه وذلك بحسب ما وقع فيها لاسلافهم من الخير والشر وقد يكون في بعض الاشهر السعد اكثر من النحس وبعضها على العكس وعربان الغرب يعملون لهم تمائم يبيعونها عليهم باسعار غالية ويعتقدون انها تقيهم من سلاح العدو فتعقد يده عنهم وتمنع رصاصه ونبله منهم وتسدد نبالهم لنحره واسلحتهم لصدره وتقيهم من الامراض والعاهات والاسواء والافات فتراهم لهذا الاعتقاد يقتحمون الحروب من غير خوف ولا فزع بخلاف اعدائهم لما يعلمه عدوهم من وجود هذه التمائم عندهم ولهم اعياد غير ما ذكر اشهرها عيد يقال له بلغتهم (انيام) وهو في الاصل اسم لنبات معروف عندهم يغرس في شهر ديسمبر الافرنجي ويطيب حصاده في شهر سبتمبر فيعملون لهم عند حصده عيداً يمتد الى اخر شهر حصاده ويحضر جميع الامراء وقواد الجيوش وروساء العسكر ومن العادة عندهم ان لا يعاقب احد من الامراء على جناية قبل هذا العيد فلذلك يحضره جميع الامراء امنين مطمئنين ولا يواخذ في ايام هذا العيد احد من الناس على ذنب فعله من سرقة او زنا او غير ذلك فترى فيه كل احد يعمل ما بدا له من كل ما تدعوه نفسه اليه من الشهوات والاغراض واللذات فاذا كان اليوم الخامس من شهر سبتمبر حضر جميع القبائل مع كبرائهم واهل البلاد مع امرائهم في هيآت متنوعة وهم يضربون الطبول والمزامير فيكون لهم موكب عظيم يمتد الى اخر النهار وفي

اليوم الذي يليه يحضر الملك بعض الزوال في ميدان المدينة فيتلقى الامراء وروساء العسكر فياتيه كل منهم بزيه وزينته وموكبه الذي جاء به فيجدون السيافين واصحاب المشاعل واقفين في جانب الميدان فرقًا كل فرقة نحو مائة رجل ومعهم جماجم من قتل من امراء الاعداء وروسائهم وروؤس من قتل من المذنبين من قديم الزمان الى الان وقد حشوها من السعتر او نحوه لئلا يتأذى الملك ومن معه بريحها وبايديهم سكاكين يضربون عليها ويتكلمون بكلمات فظيعة ويفعلون افعالاً مزعجة شنيعة وتدور الفرق الموجودة في ذلك الميدان فرقة فرقة وامام كل منها ما يختص بها من الات اللهو كالطبل والزمر فتطوف كل منها بجميع الخيام الموجودة وكلما اتمت طائفة منها دورة اتت طائفة غيرها ففعلت فعلها ودارت مثلها وهكذا الى اخر النهار وتكون الامراء مدة مرور هذه الفرق مكبة على فعل المنكر وسيء الاعمال وضرب البارود فاذا جاء الليل اوقدوا المشاعل واكثروا من ضرب البارود ودق الطبول حتى يكون لهم في البلد ضجة وترتفع لهم في ارجائها اصوات مختلفة مزعجة فلا تخلو حارة من حاراتها ولا طريق من طرقاتها عن مثل ذلك الى ان ينتصف الليل فينصرف الملك الى سرايته فاذا طلع النهار امر بالخمور فتملأ بها حياض متفرقة في البلد ويباح الشرب منها لكل احد فلا يبقى في البلد احد من كبير او صغير ذكر او انثى حر او عبد غني او فقير الاَّ شرب منها حتى سكر وقد تحصل عليها مزاحمات عظيمة

ومشاجرات كثيرة ترتفع فيها الاصوات فتختلط بدوي الطبول والبنادق فيكون مجموع ذلك امرًا هائلاً وخطبًا مزعجًا لا تكاد تبلغه العبارة ولا ترى في ازقة البلدة وشوارعها في هذا اليوم غير سكران على الارض مطروح ومزمل بقاذورات يتمرغ فيها كالحيوان المذبوح ومن عف عليه الذباب ومن تتشممه او تلحسه الكلاب ومن يمشي فيقع على الارض او على غيره من امثاله وهو معجب بامره راض بحاله ويستمرون على ذلك الى اخر النهار ثم ينقطع الشرب وتجمع روساء العساكر وكبراء القبائل الذين كانوا اتوا من خارج البلد فينضم رئيس كل فرقة الى فرقته وكبير كل قبيلة الى قبيلته ويصطفون صفوفًا على حسب رتبهم ويضربون طبولهم ويمرون امام سراية الملك ويطوفون في البلد ويدخلون حاراتها حارة حارة للتعييد على اهلها ثم يجتمعون ثانيًا ويقفون كما كانوا اولاً فياتي الملك ووزراؤه محمولين على اعناق العبيد في محامل مثل التختروان فيمرون من وسط البلد بين هولاء الجموع وعند ذلك يكون قد تم عيدهم وفي اليوم التالي لذلك يتفرغ الملك وارباب دولته الى اشغال الحكومة ويرجع القبائل الى اوطانهم ومن العادة عندهم ان يعين مقدار من العبيد المذنبين الذين حصلت منهم الجنايات والجرائم مدة الحول الى هذا اليوم فيذبحونهم في جهات متعددة من البلدة او غيرها وبعض من يقتل من العبيد كما ذكر يؤخذ ما يسيل من دمهم ويضاف الى بعض اشياء من الحشيش

والخضرة وغيرها موجودة في قدر من نحاس موجود بمعبدهم ويتحفظون عليه لزعمهم ان ذلك يكون حرزاً لهم وسبباً في زيادة سطوتهم ونصرهم على اعدائهم وفي هذا اليوم يذبح كل من الامراء والاعيان بعض عبيده على اول خط من خطوط حرث زراعة النبات الموسوم باسمه هذا الموسم وهو الذي يقال له بلغتهم (اينام) كما تقدم ومن كان فقيراً يأخذ راساً من روؤس المذبوحين ويضعها في اول خط من حرث ارضه وفي مثل هذا اليوم من كل سنة تسبك حلي الذهب الخاصة بالملك في صور غير صورها التي كانت عليها وتاكل عائلة الملك اول اكلة من محصول زراعة العام الماضي بعد مضي عشرة ايام من يوم عيدهم ولا ياكلونها الاّ في ميدانهم ثم يركب الملك في ثاني يوم قبل طلوع الشمس ومعه اتباعه وروساء جيوشه فيذهب الى بلدة هناك يقال لها (سرازو) ليغتسل في نهر بها يسمى (داه) ومن عاداتهم في ذلك اليوم ان الملك اذا خرج الى ذلك النهر تبعه جميع اهل المدينة حتى تصير خالية من سكانها وفي ثاني يوم يمضي الملك الى بركة في الجنوب الشرقي من البلد ليغتسل فيها فيحيط به العسكر من كل جهة وينزل الملك فيغتسل وياخذ من الماء ويرش على جميع حليه وسلاحه وامتعته فاذا اغتسل نزل من معه من الامراء وفعلوا مثل فعله ولا يذبحون هناك في هذا اليوم الاّ عنزاً ونعجة ويغمسون في ذلك النهر نحو عشرين راساً من الضأن ياخذونها معهم الى السراية عند عودهم

فيذبحونها فيها ويلوثون بدمها تخت الملك وابواب محاله الخاصة به واما باقي الابواب والشبابيك ونحو ذلك حتى كراسي اعضاء المملكة فيلوثونها بمخلوط مركب من البيض ونبيذ النخل فاذا تم مولد الاستحمام عاد الملك الى مدينته ويسبقه الروساء والامراء ولا يدخلها في هذا اليوم غير اعيانهم واكابرهم ويدخل الملك في موكب يتقدمه قسيس وخلفه اطفال بايديهم آنية بها ماء مقدس عندهم يرشون به على الامراء ثم من خلفهم ثلاثة خرفان بيض لتذبح عند باب حجرة الملك التي ينام فيها ثم خلفها الملك ويكون ملبسه في هذا اليوم ثيابًا بيضاء وخلف الملك جميع نسائه وحاشيته وحولهن العساكر من كل جهة ولهم غير ما ذكر عيد يسمى (اداي) يتكرر في السنة الواحدة عدة مرات بعضها عيد كبير وبعضها عيد صغير ويحسبون بها سنتهم واولها يقع في اول شهر اوكتوبر ولا يعرف لذلك سبب ويقول اهل تلك البلاد ان اول سنتهم يكون اذا تساقط ثمر شجر معروف عندهم تسقط ثمرته بعد تفتح ازهاره بعشرين يومًا ودائمًا يكون العيد الكبير عندهم يوم الاحد والعيد الصغير يوم الاربعاء وبين كل عيدين كبيرين ستة اسابيع وكذلك بين كل عيدين صغيرين فيكون بين كل عيد والذي يليه ثلاثة اسابيع اعني واحدًا وعشرين يومًا

وعاداتهم في كل عيد من تلك الاعياد الاربعة ان يعلموا به قبله بيوم فياخذون المزامير ويعلقون جماجم القتلى وعظامها على

طبل عندهم كبير ثم ياتون بذلك الى باب سراية الملك ويضربون بها اعلامًا بذلك اليوم فكل من سمعه سواء كان من عائلة الملك او غيرها صاح باعلى صوته فتقوم البلدة على ساقها وتهرع السوقة من اسواقها فيضربون الدفوف والبارود ولا يزالون كذلك الى صبح يوم العيد فيركب الملك ويذهب الى المعبد ومعه خرفان القربان فيذبحونها وياخذون دمها فيلوثون به تخت السلطنة زعمًا منهم ان ذلك يكون سببًا في حفظ المملكة مدة السنة وفي هذا اليوم تاتي جميع الطوائف التي تقدم ذكرها فتصطف في ميدان السراية ثم تمر جميع الامراء وروساء الطوائف امام الملك ويقبلون الارض بين يديه تحية له يقابلها بهز راسه كانه جواب تحيتهم وخلف كل واحد منهم جماعة من العبيد بايديهم السلاح يلعبون به العابًا مختلفة وبعد ذلك يقوم الملك عن تخته ويدخل سرايته فتاتي خدمه وينكسون التخت ثم يخرج بعد برهة متهيأ بهيئة الابهة والامارة فيعيدون له التخت كما كان فيجلس عليه وعند ذلك يجدون في ضرب الآلات ودق الطبول ورفع الاصوات وتاتي التراجمة وبايديهم عصي من ذهب فيامرهم بتفريق الهدايا على رؤساء العساكر ومن حضر من الامراء والاكابر كل هدية عبارة عن راس من الضان وزجاجة من النبيذ يشرب في الحال وعشر اكيات من ذهب (كل اكية عبارة عن ستة فرنكات) فاذا فرغوا من تفريق الهدايا قام جماعة من الرجال نحو الخمسة او الستة يترنمون بكلام

يشتمل على ذكر فضائل الملك وعطاياه ومناقبه ومناقب ابائه واجداده فاذا انتهوا من ذلك مرت كل طائفة امام الملك مرة ثانية متشكرة له على احسانه وانعامه داعية له بالبقاء الى امثال عامه ثم بعد ذلك ينشر ما استحدث من القوانين التي يراد اتباعها والعمل بموجبها وينصرف الناس الى جهاتهم

وقد قدر بعض السياحين ما يعطيه الملك من العطايا في كل من هذه الاعياد والمواسم فبلغ (بيريجوين) اعني تسعة الاف فرنك وستمائة فرنك ولسكان (اهتا) ثلاثة اسابيع الاول يسمى اداى يكثر فيه بيعهم وشراؤهم واخذهم وعطاوهم حتى انهم يسمونه اسبوع الخير والثاني لا يبيعون فيه ولا يشترون ولا يشتغلون بشيء ويسمونه اسبوع الشر لاعتقادهم ان اعمالهم لا تنجح فيه والثالث يسمونه اديم او الاسبوع الطيب الصغير ويكون فيه بعض التجارة والعمل لكنه دون الاول

وقد وصف هوتشيزون السائح في رحلته كيفية تقريب القرابين من الادميين في موسم (اداي) المذكور عند اهل الجهة المذكورة فقال كنت بتلك الجهة فحضرت عيداً هناك يسمى (اداي) وكان في شهر يناير الافرنجي وكان لي فيهم رجل اعرفه فدخل عليّ فرايت منه ان مراده ان يخبرني بشيء في سره فاخرجت من كان عندي من الخدم فمال اليّ وقال لي ايها الرجل احترس على نفسك وعيالك فان ملك الموت قد سل سيفه لقتل كثير

من الاشانتيين لان لهم عيدًا قد قرب ولم يبقَ عليه سوى يومين فاذا سمعت صوت طبل فاعلم انه علامة على الموت فاحذر من الملك ولا تقربه فهذا شي في امكانك فان فعلت ذلك فلا تخشَ من شي فقبلت نصيحته وشكرته ثم انصرف فلما مضى يومان سمعت صوت طبل فصرت اتفكر في هذه الاحوال وادبر حيلة للخلاص من تلك الاهوال فلم اشعر الاَّ ورسول الملك قد حضر يدعوني اليه فحصل لي من ذلك رعب شديد لاني كنت اسمع ان من عادته انه اذا اراد البطش باحد من الروساء والامراء ارسل اليه من يدعوه باي حيلة فاذا حضر ودخل من باب السراية وثب عليه جماعة من العبيد مرتصدة لدخوله فاوثقته والقته الى الارض واختلقوا له تهمة يتهمونه بها وأروه انهم ما فعلوا به ما فعلوه الاَّ بسببها ثم ضربوه بسكين في مقتله فيموت وينتهي امره

فتوجهت الى الملك فرايت بعض الضباط الملازمين له يدخلون عليه ويخرجون من عنده وبايديهم سكاكين واسلحة فارسل احدهم الى احد الامراء ليخبره ان يحضر عند قبر امه ثم ركب الملك وتوجه الى القبر بعد ان امرني بالخروج من باب غير الذي دخلت منه ولم اعلم سر ذلك فلما وصل الى القبر امر باخراج عظم امه واخوته من قبورهم فاخرجوها وغسلوها بالماء ثم نشفوها بمناشف من حرير وغمسوها في الروم وهو نوع من المسكر ثم نشفوها ثانيًا كل ذلك بغاية الاحترام والتوقير ثم قلبوها فوق تراب من ذهب

واحاطوا بها سبائك منه وقلائد من الحجارة والمعادن الثمينة ووضعوها على حافة القبر وبعد ذلك اتوا بجميع المذنبين والمتهمين بعدم الرضى عن الملك فكان كل من اتى منهم ذبحوه على تلك العظام حتى سالت الدماء الى القبر وفي هذه الليلة دارت سيافة الملك حول المدينة فكل من وقع بصرهم عليه احضروه الى الملك فيذبح وكان السبب في هذا القتل والقربان على زعمهم هو ان الملك وقتئذٍ كان مستعداً لقتال بعض القبائل المحاربة له وكان الملك على حسب عادتهم في ذلك يرى من الواجب قبل الخروج الى القتال ان يخرج عظام امه وبعض اقاربه من قبورهم ويفعل بها ما ذكر لاعتقاده انه اذا فعل ذلك بهم كانوا راضين عنه وكانت ارواح مقدسيهم مساعدة له على اعدائه لكن لشهرة هذا اليوم وهذا الامر قد يتخلص منه ناس كثير ممن يرغب الملك في قتله وكان من عادتهم في ذلك العيد كباقي الاعياد ان يحضر فيه الى تلك المدينة خلق كثير ولكنهم لعلمهم بهذه الحادثة لم يحضر احد فكانت المدينة يومئذٍ خالية ليس بها الاّ الملك وعائلته واصحاب سره ولما دخلت عليه اظهر لي الانبساط من حصول الامن عندي وامرلي بالجلوس فجلست فرأى مني اني قد استقللت ما حوله من الروساء فلم يكلمني في ذلك وكان يظهر عليه اثر القلق وعدم الاستقرار ثم قام ودخل بيته فلما قرب المساء ابتدىء بالذبح كما حصل بالامس

فلما مضى جزء من الليل امر الملك بوضع عظام والدته واهله

في مقابرهم ورجع في موكبه ومعه روساوه وامراوه واتباعهم وعليهم ملابس الحرب وآلاته وامام كل واحد منهم شعلة من نار فكانت البنادق وجميع آلات الزينة والرسوم الموكبية منشورة الاعلام وقد تقدمهم جماعة قد غلت ايديهم وعليهم الحرس وحولهم رجال تغني بانغام حماسية وفي عصر ثاني يوم اعادوا ذلك الموكب بعينه فوقف الملك في الميدان الكبير وحوله الطبول وارباب الموسيقى فامر بقتل اولئك المغلولين فصاروا يقتلونهم واحداً بعد واحد والالات تضرب بانغام عجيبة كانها تقول القتل القتل وكان امامه اناء من خشب ملآن نبيذاً وكلما قطع راس رقص له ثم في اخر هذا اليوم دخل الملك سرايته

فعند ذلك آمن كل من كان خائفًا منه على نفسه من الامراء وغيرهم فخرجوا من مكامنهم وصاروا يطوفون في ازقة المدينة فرحين بالخلاص مما حصل في اليوم الماضي وان كانوا غير آمنين مما يحصل في الاتي قال السائح المذكور وقد اعقب ذلك ان اعترتني حمى كان سببها اني اطلت الجلوس مع الملك بالامس وكان الوقت شديد الحر فلما رجعت الى بيتي لم اجد فيه ماء ولم يمكنني ان ارسل احداً من خدمي لشراء ما يلزمني من السوق خوفًا من ان يوخذ فيقتل كغيره ولم يكن في السوق احد من الناس خوفًا من القتل واستمر الذبح كل يوم على نحو ما تقدم الى ان انتهت ايام ذلك الموسم المشؤم

ومن عادة الاشانتيين انهم اذا مات احدهم يضربون له بارودًا على قدر مقامه اعلامًا بموته فاذا سمعت عبيده ذلك فروا الى الغابات والمغارات فاختفوا فيها الى ان تخرج جنازته ويدفن ومن بقي منهم ممن لم يشعر بموته توخذ منهم القرابين التي تذبح على تربته يوم موته وتكون على قدر ايسار الميت واعساره ومن عاداتهم ايضًا في موتاهم ان الميت اذا مات اجلسوه على كرسي واسندوه حتى يكون كما يجلس الحي وابقوه كذلك الى ان تظهر له رائحة وعند ذلك يدفنونه في منزله ويضعون عنده شيئًا من الذهب والاواني والملابس الثمينة

ثم قال الانكليزي للشيخ ان اردت زيادة الايضاح ذكرت لك يوم موت الملكة ام (كاتشي كوفي) على حسب ما وصفه ذلك السائح وذلك انها حين خرجت روحها بادر الملك الى بنت من حاشيتها فقتلها بيده وحكمة ذلك على زعمهم ان تجد المتوفاة من يخدمها حين يضعونها في قبرها الى ان ياتوا لها بالقربان الكبير ثم جاءت من طرف احبة العائلة واتباعها والمنتمين اليها هدايا كثيرة من الاشربة والذهب وثياب الحرير وارسل الملك بهدية اعظم من الجميع لكونه هو الوارث للمملكة المذكورة فبعث بشي من الذهب والاقمشة الفاخرة الآَّ ان هذا السائح لم يعرف مقدارها وانما قدر البارود الذي ورد وتلف في ذلك اليوم باربعة واربعين كاكًا فقال ان ما ورد من طرف ولدها (كاتشي كوفي)

عشرون كاكا ومن طرف الملك اربعة ومن طرف اخي الملك اثنان ومن طرف الامراء ثمانية عشر فكان المجموع ما ذكر وهو يقرب من اثني عشر برميلاً

وهذا القدر من البارود قليل بالنسبة لها على مقتضى عادتهم وانما اقتصروا عليه لان الملك لما هو بصدده من الحرب كان قد امر بعدم الاسراف في البارود · ولما جاء وقت الزوال توجه السائح المذكور الى جهة يقال لها (عسافوا) فوجد الطيور تحوم في الجو على جثث القتلى الذين ذبحوا فتنزل وتنهش لحومهم ووجد هناك حلقاً من البنات منهن من يرقصن ومنهن من يندبن ويعددن فضائل المتوفاة ويولولن على فقدها · قال فكانت اصواتهن حينئذٍ تسمع على بعد عظيم ووجد قوماً اخرين حاملين للاقمشة التي اهديت اليها في اشكال مختلفة منها ما هو على شكل الصليب ومنها ما شكله مخروطي ومنها ما هو كروي وغير ذلك وكانت النساء الحاملات للاقمشة ترى من بعد في هيئة الشياطين لان صدورهن واذرعتهن وشعورهن كانت ملوثة بدم القرابين ومن فاتها ذلك لوثت نفسها بطين احمر تشبهاً بمن لوثت نفسها بدم القرابين فكان لاجتماع كل من الطبل والمزامير والبكاء والعويل صورة هائلة ورأى السيافين يمرون وقتاً فوقتاً ومعهم من حكم عليه بالقتل فكان يرى على هولاء الناس هيئة فظيعة وعلى من اخذ للقتل ذهول وحالة شنيعة وكانت روساء العساكر تاتي من كل جهة وعليها

ملابس الحرب فتضرب لكل منهم نوبة بار وتدق له آلات الموسيقى الخاصة بهم وكل من حضر انضم الى من سبق حتى اذا حضر الملك بموكبه احاطت العامة به فحالت العساكر بينه وبينهم لاجل مرور الموكب فاول من مر (كاشتي كوفي) وعائلته فكانوا جميعًا يعلنون بفضائله ومدائحه وهو يتمايل من جهة الى اخرى كالسكران وكان يظهر على وجهه الفرح والظاهر ان ذلك لوجود القرابين المعدة لامه فكانت غرابة حالته مناسبة لغرابة الحادثة واما المأخوذون للقربان فهم وان كانوا في حالة ذل وهوان تراهم ينظرون للملك غير مبالين به ولا محتفلين بابهته مع انه كان في فم كل واحد منهم سكين داخلة من جهة نافذة من الجهة الاخرى وكان الناس يكثرون من سبهم ولعنهم كأن ما هم فيه لا يكفيهم ثم جاء من بعد (كاتشي كوفي) جميع الروساء وكانت هيآتهم في هذا الموكب غيرها في الموكب الاول لانهم كانوا في الاول بهيئة من يخرج للمقاتلة والكفاح واما في هذا الموكب فكان عليهم ملابس الزينة والافراح على عكس ما تقتضيه الحالة الراهنة وكان عليهم تمائم منها ما هو مصفح بالفضة ومنها ما هو مصفح بالذهب وكان مع الملك من الروسا من ليس لهم بابن الملكة المتوفاة الفة وارتباط وكانت خيامهم في الميدان المذكور على شكل نصف دائرة سعتها نحو ميل على وجه التقريب والعساكر في النصف الاخر وكانت القرابين من الادميين في ذلك اليوم ثلاثة عشر ومعهم الجلادون عليهم لبد

سود ذو شعر فكانت هيأتهم كصورة الدب واشنع وكان محلهم جهة شمال الملك وحولهم الناس وكانت النسآ اللاتي تقدم ذكرهن يدرن في الميدان ويغنين كما سبق وكان يفرق على الحاضرين شي كثير من النبيذ والروم وقد ارتفع من اصوات الطبل والزمر وصياح العبيد وغيرهم ما يزعج النفوس ويصدع الرؤس وبينما هم كذلك واذا بالبارود قد اطلق من جهة الملك ثم من سائر الجهات واستمروا على ذلك نحو ساعة وكان العسكر واقفين بمحلاتهم لا يفارقونها والرؤساء يتواثبون خلف بعضهم في وسط ذلك الميدان ولهم اشارات مزعجة وافعال فظيعة وعبيدهم تعدو خلفهم حاملة للبيارق يذكرون اسماء ساداتهم ويعلنون بمناقبهم وشهرتهم وبعض العبيد كان ياتي الى سيده بعد ان يضرب بندقيته فيأخذها من يده وبينما هم كذلك واذا بعجوز ناشرة الشعر كانها خرجت من قبر يقولون انها كبيرة المقدسين فدخلت وسط الرجال وصارت تجري من هنا الى هنا وهم يضربون حولها البندق من كل جهة ومن عادتهم في تعميرات البنادق ان تكون على قدر درجة الضارب وكان غالب البنادق مربوطًا بحبال وكانت الامراء لا تضرب الاّ وعبيدها خلفها كما تقدم اذ كان يحصل اغماء من شدة ضرب البارود فيدركه عبده عند ذلك ومن طيشهم وخفة عقولهم كان بعضهم يأتي الى ذلك السائح فيضرب بندقيته خلف اذنه ويضحك منه حين كان يراه ينزعج لما كان يراه من ان كثيرًا من البنادق

ينفلق في ايدي الضاربين اما لعدم متانتها او لزيادة العيار ولما فرغوا من ذلك تفرغوا جميعًا لشرب النبيذ فكان كل من اخذ منهم كاسًا اراق على الارض منه جزاء وذلك عادتهم في تلك الجهات كأنهم سمعوا قول الشاعر

شربنا واهرقنا على الارض فضلة

وللارض من كأس الكرام نصيبُ

وبعد ذلك كله حضر كل من له قرابة الى المتوفاة من النساء وصرن يرقصن وسط الجمع فكانت هيأتهن في الجملة اجمل من غيرها لان ملابسهن كانت من الحرير الاصفر ومع كل واحدة منهن سكين من فضة قد علقتها في عنقها بسلسلة من فضة كذلك الاَّ ان اثنتين منهن كان معها شي من فضة كالمزمار وبأيدي جواريهن شمسيات تظلهن بها من الشمس مدة الرقص قال ولم يكن رقصهن كرقص غيرهن بل كانت الواحدة منهن تعصب وسطها بشيء من حرير فتاتي الى الرجل فيأخذ ذراعيها على كتفيه وترقص وهي كذلك

وقبل ذبح القربان بعث كل من (كاتشي كوفي) والملك الى بعض هذه النسوة بشيء من الخمر والخرفان ثم ضربت الطبول اعلامًا بحلول الوقت لذبح القربان فقام الرؤساء وصاروا يقلبون اولئك المساكين المحتوم عليهم بالذبح ولم يعلم السائح ما المراد من ذلك لان المسافة بينه وبينهم كانت بعيدة قال وانما نظرت فرأيت

الجلادين يتنازعون في تعيين من يقدم منهم على غيره وكان المنتخب لان يكون اول مذبوح ينظر اليهم نظر عدم الاكتراث والمبالاة مع ما كان يعاينه من المدية النافذة من شدقيه ثم اخذ احد الجلادين سيفه بيده وقطع به يد واحد من المعدين للقتل وهم ثلاثة عشر رجلاً كما تقدم ثم انهم طرحوه على الارض وذبحوه ثم اخذوا في ذبح الباقي الاّ ان هذا السائح لفظاعة الحال لم يمكنه الصبر حتى يشاهد ما يحصل بعد ذلك فقام وانصرف الى بيته فبلغه انهم بعد ذبح من تقدم قربوا قربانًا اخر من النساء في الصحراء التي دفنت فيها المتوفاة ومن عقائدهم الفاسدة انه يجب عند دفن مثل هذه المتوفاة ان يبل ثرى القبر بدم رجل حر فلذلك تراهم اذا ارادوا الدفن ابتدأوا اولا بتصفيف رؤس المذبوحين في داخل القبر امام عبيد العائلة فيتحايل العبد على اصطياد رجل من الاحرار يبلون تراب القبر بدمه وذلك انهم يدعون الحاضرين لمساعدتهم في وضع النعش وفي خلال ذلك يتوارى احدهم في داخل القبر فيثب على واحد من الذين نزلوا للمساعدة ويضربه بسكين اعدها لذلك فيقع على الارض فيتركونه ويهيلون عليه التراب فلما رجعوا من دفنها اقاموا في عمل المآتم بارتكاب المآثم وشرب الخمر وضرب الطبل والزمر والرقص وضرب البنادق وفي كل ليلة تحضر الروساء والامراء ومن تأخر منهم أرسل نائبًا عنه مصحوبًا بهدية من النبيذ والروم واستمروا على هذه الحال اياماً.

عدة ولولا ما هم بصدده من الحرب لعمل لها ثمان مآتم في الاخير منها يضرب الملك السلاح بيده ومن عادتهم انهم بعد انقضاء مدة الحزنة تقوم اقرب النساء من الميت وتطوف حول البلد ثلاثة ايام لا تذوق فيها طعامًا ولا شرابًا غير النبيذ فتشرب منه ما شاءت فتندب فضائل الميت ومناقبه وتمدح من اهدوا الهدايا واعطوا العطايا ومن عادة تلك الجهة انهم اذا مات ملكهم اعادوا مآتم كل من مات من اعيانهم وامرائهم مدة ملكه من ابتداء سلطنته ايام مدته وجددوا ما تقدم من القرابين وغيرها فيحصل حينئذٍ من الاحوال الشنيعة والاهوال الفظيعة ما يضيق عنه البيان ويعجز عن وصفه اللسان وعند خروج روح الملك يقوم في الحال ابنه او اخوه او ابن اخيه او جميعهم معًا فيخرجون كلهم او بعضهم يطوفون في البلد فكل من عثروا به قتلوه لا يفرقون بين عبد وحر ومأمور وأمير وكبير وصغير ولا لوم عليهم في ذلك ولا عتاب ولا دية ولا حساب فتختفي الامراء في منازلها وربما ترسل عبيدها في الطرق والحارات لعلهم يقتلون فيكونون فداء لهم ويستمر الحال على ذلك مدة يومين

ومن يقتل في هذا اليوم بعض خواص الملك وهم مائة رجل من الارقا وغيرهم يعاهدونه على الثبات في خدمته والموت يوم موته فيميزهم عن غيرهم باطواق من ذهب يضعونها في اعناقهم وقد يكون فيهم بعض اقارب الملك فيتكفل لهم بمؤنتهم ويرفع عنهم

التكليف والعقاب وجميعهم يقتلون يوم موته الاَّ اثنين او ثلاثة هم امناء اسراره مدة حياته فهولاء يستبقونهم ويذبحون سائرهم

قال وسمعت ان مأتم الملك المتوفي قبل ملك ذاك الوقت يتكرر كل اسبوع الى ثلاثة اشهر يذبح في كل اسبوع نحو مائتي أسير ويحرق فيه من البارود نحو عشرين برميلاً واشهر هذه المآتم واعظمها مآتم والدة الملك عند موتها وقد كانت وليت نيابة تخت السلطنة في مدة حرب جرت بين الاشانتيين وجيرانهم الفنتيين وقد احصي من قتل فيها من قبَل الملك خاصة فكان ثلاثة الاف نفس منهم الفان من الاسراء الذين استولوا عليهم من جيش العدو وما أحرق من البارود من قبَله خمسة وعشرين برميلاً ومن قبَل كل واحد من الحكام والامراء عشرة انفس وعشرين برميلاً واتى من كل بلدة من البلاد عشرة أعبد وبرميلان من البارود

واما مقابر ملوكهم فهي في محل مخصوص يعرف عندهم باسم (بن تما) حتى لو مات احد ملوكهم او اعيانهم بعيدًا عن ذلك المحل ولو في الحرب تحفظوا عليه الى ان يدفنوه فيه بعد عمل المآتم المعتادة عندهم بما فيها من المخازي والفضائح وانواع القبائح وفيه يدفن الذهب المعد لهم وفي تجاه المحل المدفون فيه عظمهم قدر كبير قد اعدوه لاجتماع دماء القتلى والقرابين فيه ولا ينقطع ذلك بل تراهم يواظبون عليه لاجل بلّ تربة الملوك بدماء القتلى دائمًا

ومن عادة ملوكهم ان يكون عدد نساء الواحد منهم لا ينقص ولا يزيد عن ثلاثة الاف وثلثمائة وثلاثة وثلاثين لاعتقادهم ان لهذا العدد سرًّا مخصوصًا به وهذه النساء يقيم معه في بيته ست منهن وباقيهن يقمن في الخارج فبعضهن يقمن في محلتين خاصتين بهن تقفل عليهن ويرسل لهن ما يلزم من الزاد والنفقة والبعض منهنّ يكون في مبان مخصوصة في ضواحي المدينة فاذا جاء موسم من المواسم اجتمعنَ حوله كلهنّ او بعضهنّ على حسب رغبته ولا يكلمنَ الامرا ولا يكلمونهنّ الاّ بواسطة تراجمة وهم رجال كهول من المشوهين

فاذا مررن بطريق بقصد نزهة او غيرها يتقدمهنَّ عدة اطفال بايديهم سياط يضربون بها كل من رأوه في طريقهم لا يفرقون بين كبير وصغير وجليل وحقير فلذلك ترى الناس متى شعروا بهم انزعجوا وتنحوا عن طريقهم وزاحموا بعضهم وربما وقع بعضهم على بعض من الزحام فيحصل من ذلك للناس اذى كثير وتعب كبير ومن العادة عندهم ان لا ينظر اليهنّ في مدة مرورهنّ احد من الناس بل يغطي كل احد وجهه بيده

ولاحترام الملك واكرامه لهنّ كان ما يصرف عليهنّ مصاريف جسيمة لان ماكلهنّ ومشاربهنّ وسائر لوازمهنّ مثل ما يكون للملك واذا اريد اخبار الملك بامر من الامور المهمة وهو عندهن فلا يصل

اليه به الاّ الخادم الاكبر وهو كبير الخدم المعروفين في مصر بالاغوات

ومن العادة عندهم ان اخت الملك لها ان تحب من الرجال من اعجبتها صورته سواء كان اميرًا او حقيرًا فاذا علم به الملك هيأه لها باحسن هيئة ووجه به اليها فاقام معها فان ماتت قبله الحق نفسه بها ما لم يكن من ذوي النسب

فقال الشيخ ان ادنى ما ذكرت يدل على توحش هولاء القوم وجهلهم وخشونة طبعهم وقلة عقولهم وكيف يكونون كذلك الى الان مع وجود الانكليز والفرنسيس وباقي الاوروباويين بسواحل تلك الجهة فيجتهدون في ابطال بيع الرقيق واسره ولا يلتفتون الى ابطال هذه العادات الفظيعة والرسوم الشنيعة مع ان اعتناءهم بها اهم والزم من اشتغالهم بابطال بيع الرقيق اذ لو فرض منع بيعه بالكلية على زعم الرأفة به مع بقاء العداوة بين هولاء الطوائف المتوحشة لم يكن لمن يقع في أسرهم من بعضهم غير القتل ولا شك ان الاسترقاق والبيع اخف منه

فقال الانكليزي ان طائفتنا وطائفة الفرنسيس وسائر الافرنج المقيمين بين اهل تلك الجهات لا يتعرضون لاعتقاداتهم ولا يمانعونهم في اجراء رسومهم وعاداتهم فان ذلك يجر عليهم من عداوة الاهلين وغيظهم ما لا يكون لهم معه راحة فلذلك ترى المقيمين في تلك الجهات من الامم الاوروبية لا يعنيهم تغيير شي من ذلك اذ

المقصود لهم من الاقامة في تلك الجهات انما هو التكسب بالتجارة في ما يستخرج من ارضها من المعادن وسائر مواد التجارة وارسال ذلك الى الممالك الاوروبية واستبداله بما يرد منها الى البلاد فلا يشتغلون الاّ بتوسيع دائرة هذه التجارة لا بتغيير العادات والمعتقدات اذ هذا مما لا يتيسر لهم هناك فان هذه البـــلاد بسبب اتساعها وبعدها وصعوبة المرور والعبور بها لما فيها من الموانع كالغابات والخلجان ثم كثرة حرها وتغير هوائها وكثرة ما يعرض للاغراب من الافرنج فيها بسبب ذلك من العلل الخطرة والامراض المهلكة لا يتأتى للدول الاوروبية ان تبعث لهذه البلاد بكثير من الناس والاجناد لمنع ذلك بالقوة القهرية والسطوة العسكرية فلذلك ترى المقيمين منهم هناك يختارون السكوت على هذه الاحوال والاقتصار على التكسب والتجارة والبيع والشراء والاخذ والاعطاء

وقد اسست دولة الانكليز عدة مواضع للتجارة في مواقع مختلفة من هذه السواحل في امتداد قدره الف وستمائة ميل انكليزي بين (سانت ماريا) (على مدينة نهر جنبي) واكارا (مدينة جهة رأس عشم الخير) ونقلت الى هذه المواضع مقدارًا كافيًا من العسكر وغيرهم اقامتهم بها وقبل ان تضع الحكومة يدها على هذه المواضع كانت ادارة امورها موكولة لشركة تعرف بالشركة الافريقية وقد بذل كل من تلك الشركة ودولة الانكليز جهده في استدامة السكنى بهذه الجهات ولكن لم يطب لاهل اوروبا العيش بها لما

اعتراهم فيها من الامراض الكثيرة فكان في كل سنة يموت قدر النصف ممن يرسل اليها من العسكر وغيرهم واتخذ الانكليز بها طرقاً كثيرة وتدابير متنوعة لانتشار الزراعة بها وتحسين احوالها فلم ينجح الاَّ القليل منها في بعض الجهات دون بعض وكذلك جددوا بها مدارس ومكاتب للذكور والاناث جمعوا فيها كثيراً من اهل البلاد فلم يترتب على ذلك للبلاد كبير فائدة لان من تربى منهم ولم يمت في عهد قريب آثر الاقامة بين من تربى عندهم على الاقامة بين اهله في بلده لكراهتهم له وتبرئهم منه ولعلمه انه اذا اتى اليهم مقتوه واحتقروه وان تكلم بما يخالف عقيدتهم قتلوه

وكما فعلت دولة الانكليز معهم كذلك فعل الفرنسيس والفلمنك وغيرهم وقد غيرت كل من هذه الامم مواضعها وانتقلوا من موضع رأوا فيه كثرة الامراض الى موضع ظنوا فيه جودة الهواء فخاب امل الجميع وتحققوا عدم النجاح ولذلك قل توارد الاوربيين اليها وصار المتوطنون بها من الاغراب هم المتناسلون بينهم وبين الافريقيين او الذين هاجروا اليهم من الامريكيين او اهل جزائر المحيط

وبالجملة فجميع التجار المقيمين هناك اخلاط متجمعون ومن شدة اختلاطهم باهل البلاد وطول زمن اجتماعهم ببعضهم كادت تتقارب طباعهم وتتشابه اخلاقهم وانما بقي في الاغراب بعض عاداتهم واخلاقهم الاصلية مع عدم التعرض لذم عادات اهل البلاد

والتصدي للنهي عنها لعلمهم بان ذلك يغري الاهلين بهم ويوقع العداوة والبغضاء فيما بينهم فلهذا اختاروا السكوت عن ذلك

وما ذكرناه من احوال هذه البلاد واهلها ليس الاّ القليل النادر بالنسبة لما لم نذكره فان عجائب افريقة وغرائبها اكثر من ان تحصر وفيها للسائحين كلام كثير يطول تتبعه وفيها من انواع الحيوان والنبات والاحجار ما لا يوجد في غيرها من الجهات فهي مخزن العجائب ومعدن الغرائب وكل بقعة منها تحتاج الى مجلدات متعددة فضلاً عما لم يصل اليه احد من الامم المتمدنة ففيها جزء عظيم متسع لم ينكشف لنا الى الان امره ولم تعلم حقيقته وما ذكره عنه السائحون في كتبهم انما هو بالنقل والرواية لا بالمعاينة والدراية وفي افريقا انهار عظيمة كالنيل معظمها لا يدرى الى الان منبعه وغالب ما قالوه فيها انما هو بالظن والتخمين لا بالقطع واليقين

فلندع الكلام الان في هذا المعنى ونسمع من يعقوب بقية حديثه وما جرى له الى ان ضارمعنا وهل رجع الى بلده ورأى اخته ام كيف كان حاله بعد خلاصه من يد هولاء السودان

(انتهى الجزء الثاني ويليه الجزء الثالث)

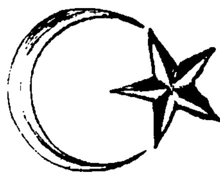
فهرس

الجزء الثاني

من كتاب

علم الدين





علم الدين

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية سابقا



الجزء الثالث

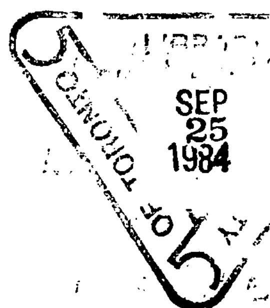


طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية

١٢٩٩

سنة

١٨٨٢





بسم الله الرحمن الرحيم

المسامرة الثامنة والستون

عودٌ الى حكاية يعقوب

فقال يعقوب بعد ان دفع ذلك السائح ما دفعه وحصل التراضي بين سيدي وبينه بتنا تلك الليلة في البلد وبات يودعني من كنت اعرفه خصوصاً من كنت عنده وجميع اهل بيته فلما اصبح الصباح قمنا للسفر فركبنا قاصدين الساحل فلم نصله الاَّ بعد عشرة ايام شاهدنا فيها من حر الطريق ووعره مشقات عظيمة لان جميع الطرق بهذه البلاد قد تخللتها الجبال والغابات والبرك والاجمات فكنا نبيت تارة في بعض القرى وتارة في محلات اخرى خالية عن القرى وكان مع السائح اوامر واعلامات من لدن الحكومة

ومأمورون من قبل الملك فكنا اذا مررنا بقرية او حِلة حصل لنا من اهلها الاكرام والاحترام ولكن كان يحنف بنا اهلها يستغربون صورتنا ويتأملون في هيأتنا فكان من معنا من المامورين بتوصيلنا ينحونهم عنا واذا احتجنا الى شي بادروا به ودفع السائح ثمنه من عنده وغير ذلك كان يعطي لمشائخ البلاد التي كنا ننزل بها بعض هدايا مما يحب في تلك الجهات مثل قطع من قماش وشي من الخرز واساور من زجاج وكانوا يهدون الينا بعض اشربة من الروم والنبيذ وما زلنا سائرين حتي وصلنا مدينة (بوري) وهي محل اقامة الملك المتصرف في جهات (سياد البونا) (اعني نهر جبال السباع) وهي على بعد ثمانية فراسخ من مصب النهر المذكور في البحر وكان خبرنا وصل اليه قبل قدومنا عليه فارسل لاستقبال صاحبي السائح جماعة من امرائه وقواد عسكره فاستقبلونا بالبشر والطلاقة مع التوقير والاحترام ومزيد الاكرام وساروا بنا الى ان وصلنا اليه فوجدناه جالسًا على حصير وحوله امراؤه وحشمه وعلى البعد منه بعض عساكره واهل بلاده فلما رآنا قام لنا وتلقانا ومد يده الى السائح فصافحه وهز يده واجلسه بجانبه ثم سأله عني فاخبره بقصتي وشرح له قضيتي وكيف خلصني ممن كنت معهم حتى صرت معه فهنأني الملك ببعض كلمات انكليزية وكان يعرف قليلاً من لغة الانكليز بسبب ان لهم بالقرب منه محلات للتجارة فيها حاكم انكليزي كان يزور الملك لبعض حاجاته ويزوره الملك في

بعض الاحيان فتعلم بعض هذه اللغة بسبب المخالطة

ثم اهدى اليه صاحبنا السائح زجاجات من نبيذ وبعض اقمشة فكافاه عليها بعشر اواق من ذهب واربعة اعبد ثم استأذنه وقمنا فبتنا تلك الليلة بمحل قد اعد هناك للضيافة

وفي اليوم الثاني توجهنا الى محل حكومة الانكليز بهذه البلاد فوجدنا سفينة عتيد سفرها الى بلاد الانكليز الاَّ انها في انتظار اتمام حمولتها فاقمنا يومين الى ان تم وسقها فركبناها وحمدت المولى على قرب مسافة الانتظار وتخلصي من اهل تلك الديار وكان ما عندي من شدة الفرح بالعود الى الوطن والخروج من ارض الغربة والتخلص من هذه الكربة وشدة شوقي الى بلدي قد جعل عليّ مدة اليومين اللذين مضيا في الانتظار طويلة الى الغاية حتى كنت اتخيل انها اطول من مدة اقامتي في هذه البلاد كلها وهي اربع سنين فلم اكن في هذين اليومين يهدأ لي سر ولا يهنأ لي عيش حتى انقضت ونزلنا في السفينة كما ذكرت وسارت بنا فداخلني من الفرح والسرور ما لا اقدر على وصفه وعزمت على اني متى وصلت بلدي اقمت بها ورجعت الى صنعتي ورضيت منها بكل ما تيسر واقمت مع اختي الى ان يرزقها المولى بمن يتزوج بها ويغنيها عن الخدمة وتعبها

وكان ذلك الرجل السائح الذي كنت بصحبته لحسن طاعتي

له وقيامي بخدمته احبني والفني وجعلني عنده بمنزلة ولده وهكذا كان دأبه معي برًا وبحرًا سفرًا وحضرًا حتى انه نفعني كثيرًا بعد وصولي الى بلدي وإقامتي بوطني كما اذكره لحضرتكم وطالما افادني مدة صحبتي له في السفر اخبارًا كثيرة مما شاهده في سياحته وعلمني امورًا كنت اجهلها ووصف لي كثيرًا من خواص حيوانات الافريقة ونباتها واشكال طيرها وعجائب الخلائق البرية والبحرية بها ولا يخفى على حضرتكم ان ارض افريقة على العموم بها من جميع انواع الحيوانات المفترسة والوحوش الضارية كالاسد والنمر والفيل ما لا يوجد بغيرها وفي الجهات التي كنت بها كثير من هذه الحيوانات مأواها الغابات والصحاري واشدها واقساها السبع وهو في جهات (السني غال) و(غمبيا) عظيم الجثة مهول الخلقة كثير الجرأة ذو قوة عظيمة وبأس شديد فهو اعظم مما يوجد من هذا النوع في سائر الجهات كجبال الاطلس مثلاً

ولما خرجنا من الجهة التي كنت بها قاصدين جهة الساحل وجدنا في طريقنا بعد مسيرة ثلاثة ايام من قرية (تابو) غابة واسعة فيها اشجار عظيمة قد انطبقت اعاليها وتلاقت فروعها فكنا نراها كالقبة فوق روْسنا وقد حجبت عنا اشعة الشمس فلم نكن نراها الاَّ قليلاً نادرًا ولهذا السبب كان داخل هذه الغابة ابرد من خارجها وكنا في مدة سيرنا بها نسمع للسبع من جميع جهاتها اصواتًا مزعجة

حتى كنا نتخيل لشدة الخوف ان تحت كل شجرة سبعًا وكان من معنا من الحرس والخفراء يسرعون ويحثون على السرعة في السير خوفًا من اذاها ولكنا والحمد لله لم نرَ شيئًا منها وما زلنا نجد في السير حتى خرجنا من هذه الغابة قريب العصر وسرنا حتى امسينا على عين ماء هناك للمبيت فنزلنا عندها ومن عادتهم في تلك الجهة انهم اذا باتوا في الخلاء اوقدوا نارًا على البعد وتركوها للصباح لتنفير السباع والوحوش عنهم وكذلك فعل من كان معنا من الخفراء وبتنا على الخوف والخشية من الوحوش والسباع وكانت المسامرة تلك الليلة كلها في ذكرها فكان كل من الحاضرين يذكر ما سمعه او رآه من امرها وشرها



المسامرة التاسعة والستون

السباع

(من حكاية يعقوب)

فمما جرى ذكره في تلك الليلة ما حدثنا به بعض الخفراء وقد رأينا باحدى فخذيه اثرًا غائرًا في لحمه فسألناه عنه فقال هذا موضع اكل السبع وذلك اني خرجت مرة مع بعض اصحابي لنصطاد فيلاً من بعض الغابات فلما دخلنا الغابة تفرقنا فبعدت عنهم فقصدني سبع فتجلدت ورميته بحربة كانت معي فاصابته ولكنها لم تذهب بقوته فهجم عليّ بشدة وكان معي سكين ماضية فذبحته بها بعد ان انشب مخالبه في جهات من جسمي واقتطع من فخذي هذا قطعة عظيمة من لحمي فوقعت على الارض ووقع بجانبي ميتًا ثم حضر اصحابي فوجدوني جريحًا طريحًا على الارض والاسد بجانبي غريق في دمه فاحتملوني معهم وبقيت مدة من الزمن مريضًا الى

ان شفيت وقال اخر بينما انا سائر مرة في واد وإذا باسد قد تعرض لي في الطريق وكنت وقتئذٍ لا سلاح معي فلما رأيته لصقت بالارض واشرت اليه اشارة المتذلل بين يديه فلما رأى مني ذلك اتى اليّ ودار مرة او مرتين حواليّ ثم تركني وانصرف

قال يعقوب وهكذا قضينا ليلتنا في امثال هذه الاحاديث والاخبار الى ان طلع علينا النهار فرحلنا وسرنا في طريقنا الى ان وصلنا الى الساحل كما ذكرنا وكان من جملة ما افادني ذلك السائح من خواص الحيوان ان لسان السبع غليظ خشن يعلو سطحه شوك دقيق كالسل الاَّ انه صلب مادته تشبه مادة القرن مائل الى جهة الخلف نحو الحلق وقد يبلغ طول الشوكة قدر اربعة خطوط فاذا لحس انسانًا او حيوانًا تجرح وسال دمه فتتحرك منه نهمة الاكل فيفترسه

قال ومن ذلك ان احد الفرنساوية كان اصطاد اسدًا صغيرًا فرباه حتى كبر عنده وكان لذلك الفرنساوي خادم يلاعب الاسد وينام معه وتارة يعطيه يده فيلحسها فنهاه سيده عن ذلك ونصحه فلم يرجع ولم يقبل نصحه فبينما هم نائمون ليلة وإذا بالشبل قد عمد الى الخادم وصار يلحس يده بلسانه على العادة فسال الدم فلما رآه لم يتمالك نفسه فهجم على ذلك الخادم وافترسه فتنبه سيده فرآه كذلك ففر هاربًا واستغاث بمن حوله واجتمعوا عليه واطلقوا الرصاص علي الاسد فقتلوه وللاسد في كل فك من فكيه اربعة

عشر سنًا اربعة اماميه واربعة من خلفها وستة اضراس في كل ناحية من شدقيه ثلاثة وعلى رقبة الذكر خاصة شعر ينتشر اذا هاج وهو لبدته ويقال ان الانثى من هذا النوع اقوى من ذكره وفي ارجله قصر بالنسبة لتركيب اعضائه وفي كل من الرجلين المقدمتين خمسة اظافر وفي كل من المؤخرتين اربعة وذنبه طويل وشعره خشن متلبد قصير وقد ضرب المثل بجرأته لانه لا يبالي بحيوان ولا يخشى من انسان قلّ او كثر خصوصًا اذا اشتد به الجوع فاذا لم يرد الهجوم والافتراس مضى في طريقه من غير اكتراس ولا مبالاة وليس من طبعه الفرار من عدوه مهما كان فان الجئ الى ذلك تقهقر قليلاً قليلاً مع البطء والتأني حتى يصل الى مكمن ينزوي فيه ويقال انه مصاب بحمى دائمة وان سبب ذلك التهاب دائم في دمه وزعم كثير من الناس انه لا يفترس المرأة وقال بعضهم ان ذلك لا اصل له ولكنه شوهد مرارًا كثيرة يعف عمن وقع تحت قبضته وخضع له من الادميين بل ربما شارك في طعامه من عف عنه ابقاء على حياته

ومن طبعه انه يحتمل العطش ثلاثة ايام او اربعة فاذا وقع على الماء شرب كثيرًا ومن طبعه ايضًا الخوف من الثعبان ويعلم ذلك منه العرب وسكان الصحراء فاذا وقع باحدهم جعل عمامته على صورة الثعبان ومدها على الارض فاذا رأى ذلك الاسد تركه ومضى

ويقال ان خيل العرب مع ما لها من القوة وخفة الحركة وسرعة الجري اذا رأت الاسد استولى عليها الرعب وعدمت الحركة فتثبت في مكانها ولا تقدر على السير فاذا رأى البدوي ذلك نظر الى جهة الاسد فان كان قريبًا نزل عن فرسه ونام على بطنه وترك فرسه للاسد فيفترسها الاسد وينجو هو بنفسه وان كان بعيدًا اوقد نارًا فاذا رآها الاسد مضى لسبيله وتركه

وتلد انثى الاسود اربعة فاكثر وليس لها غير ثديين وقد اعتاد الاعراب اخذ اولادها وهي صغيرة ليبيعوها للافرنج فاذا رأتهم اللبوة هجمت عليهم فيرمون لها بواحد منها فتحمله الى موضعها وترجع اليهم لتلحقهم وتاخذ بقية اولادها وفي هذه المدة يكونون قد نجوا بما معهم ومن طبع الاسد حفظه للود ووفاؤه بالعهد فاذا صنع احد معه معروفًا لا ينساه ابدًا

فمن ذلك ما اخبرني به بعض اصحابي . قال كان عند حاكم (سيار البونا) اسد ظهر على جسده بعض قروح اضرت بصحته واضعفت جسمه وكان هناك حكيم فأخذته الرأفة عليه والشفقة به فعالجه حتى برئ واندملت قروحه وتراجعت صحته وقوته فألفه واحبه وصار يطيعه وينقاد له ويتبعه كما يتبع الكلب المعلم صاحبه

المسامرة السبعون

ابن آوي

(من حكاية يعقوب)

قال ثم ان ذلك الحكيم مرض مرضًا مات فيه فظهر على الاسد الحزن حتى منعه من الطعام فمات ولم يعش بعده الاَّ قليلا وفي جهات سواحل افريقا غير ما ذكر كثير من الوحوش والقرَدة والطيور العجيبة ذات الالوان اللطيفة والاشكال الظريفة وانواع الحيوانات الغريبة فلا يكاد يمر الانسان من جهة الى غيرها الاّ رأى من عجائب المخلوقات ما لم يكن رآه من قبل ومن جملة ما بها من الحيوانات ابن آوي وهو حيوان مفترس في جرم الثعلب وكأنما اصله من كلب وذئب لانه يشبههما خلقة وتركيبًا ولونه اصفر ناصع ولهذا سماه (فيتاوس) الكلب المذهب وبعضهم يسميه بالكلب الوحشي وانيابه غليظة في طول اصبع قوي الاظفار ذو قسوة

شديدة يفترس كل ما قدر عليه من انسان وحيوان وكثيرًا ما رأيته في البلاد التي كنت بها يقرب من مباني البلد ويدخل في بعض الدور وياخذ ما وقع به من الغنم والخنازير ودخل ذات ليلة بيت جارية فاختطف منه بنتًا لها وحملها على عاتقه وجرى بها وكان يسندها باحدى قوائمه ويمشي على الثلاث مع السرعة والخفة فصاحت البنت فتنبهت الناس لصياحها فقاموا خلفه فرماها لهم ولم يجدوا بها الاَّ اثرًا صغيرا محل اظافره التي كان قابضًا بها عليها ويقال ان هذا الحيوان يهيء الصيد للاسد فيدور من جهة الى جهة ليبحث عن الصيد فمتى عثر به صاح باعلى صوته فيسمعه الاسد ويجاوبه ويلحقه وقيل ان ذلك لم يصح وانما الصحيح انه اذا جرى وراء طريدته فادركه الاسد شاركه فيما اصاب

وقد يتألب من هذا الحيوان في بعض الاحيان اربعون او خمسون فتنبعث للصيد وتأخذ في عواء شديد جهير واذا اتحدت وهي على مثل هذه الحال كانت مكافئة للوحوش الضارية في اجامها وتعرضت لاقواها ويساعد بعضها بعضًا في الصيد ونبش المقابر وهي تستكن نهارًا منفردة في احجارها وتجمع عند المساء سربًا وتغير على القرى للقتل والاغتيال وبين ابن آوي والكلب من العداوة ما لا صلح معه فلا يلتقيان مرة الاَّ سطا احدهما على الاخر



المسامرة الحادية والسبعون

النمر

(من حكاية يعقوب)

ومنها النمر وهو حيوان في جرم الكلب السلوقي ومنه ما يكبر ويعظم جسمه حتى يصير كالعجل وشعره ناعم براق منقط بنقط سود وراسه كراس الهر اصفر العينين حاد الاسنان خشن اللسان طويل الارجل والذيل قصير الشعر حاد الاظافر الى الغاية عظيم الجرأة يقدم على الفيل ويهجم عليه وهو كالهر في غالب صفاته وافعاله وحركاته مع الشدة والشهامة كما انه يشبهه في شكل الجسم وان كان اكبر من القط في الحجم واكثره قوة وجرأة ما يوجد بافريقا والنمر لبسالته وزيادة قوته لا يصاد حيًا الاَّ نادرًا لانه اذا وقع في حبالة قلّ ان يسلم منه صائده ولذلك يتخذون لصيده نبالا مسمومة السنان وهو يعدو على الفيل فيمزق خرطومه باظافره

وانيابه فيموت لان خرطوم الفيل بالنسبة له كيده يتناول بها الغذاء وسلاحه الذي يدفع به عن نفسه الاعداء فاذا فقدت مات من عدم الغذاء وتسلط الاعداء ومع جرأة النمر وشدة قوته قد شوهد مرة من بعض الخنازير مقاومته بالكثرة فقد اتفق لبعض السائحين وكان يقتني الخنازير انه اصطاد نمرًا صغيرًا ورباه فعمد ذات يوم الى خنزير من تلك الخنازير ليفترسه ففر الخنزير منه الى مكان ضيق بحيث لم يبق للنمر سبيل عليه الاّ من جهة واحدة فتبعه النمر وضايقه فلما لم يرَ الخنزير الى الخلاص منه سبيلاً صاح على اخوته باعلى صوته وكانت منتشرة في نواحي البيت فلما سمعت هرعت اليه واحاطت بالنمر فلم ينجُ منها الاّ بالفرار فولى وتركها والنمر انواع متعددة يتميز بعضها عن بعض بالالوان والنقط وكبر الجثة وهو يستحب لحم ما عداه من الحيوان على لحم الآدمي ثم لحم السودان على لحم البيض والاروبيين لكنه اذا جاع لا يفرق بين ادمي وغيره والسودان ياكلون لحمه كما ياكلون لحوم الفيَلة والاسود وغيرها وكثيرا ما يقتلون من يقصد الاتجار في جلده ويقال ان فيه قابلية للتعليم الى ان يصير كالكلب المعلم الاّ انه لا يوثق به لانه ربما يغلب عليه طبعه بعد حين ويقرب منه نوع يسمى القط النمري وهو كالنمر في طبعه ولونه الاَّ انه اقل منه جسمًا ويكون في ارتفاع القط المعتاد الاّ انه اغلظ منه حجمًا وياكل الفار وابن عرس وغيرها ومنه نوع يعرف بالقياس يوصف

بصفات النمر الافريقي غير ان طوله قلما يجاوز ثلاث اقدام ونصفًا الاّ ان شعره اطول وكذا ذنبه بالنسبة الى جثته ولونه ما بين الصفرة والبياض ولكن بطنه اشد بياضًا من ظهره ونقطه كالنقط التي في النمر وضعًا وتوشك ان تصير على مؤخره خطوطًا وهو من الحيوانات المفترسة الاّ انه لا يتعرض للآدمي الاّ ان تعرض له ولم يمكنه الفرار منه فعند ذلك يثب عليه وينشب مخالبه في وجهه ويكرر ذلك مرارًا حتى يقتله وبين هذا الحيوان والكلب عداوة شديدة فمتى رآه بادر الى الهجوم عليه ليفترسه وياكل من لحمه ولو مع اقتحام المخاوف والتعرض للتلف وقد يدرب في بعض الجهات ويغرى بالصيد ولكنه ليس له قوة شم حادة كما للكلب ويقال ان بعضًا من هذا النوع ربي تربية حسنة حتى كان يؤخذ باليد ويحتضن



المسامرة الثانية والسبعون

القَرَدَة

(من حكاية يعقوب)

وهناك حيوانات غير ما ذكر متوحشة كالذئب والخنزير وغيرها وكلها تشبه في شكلها وتركيب صورتها ما يوجد منها في سائر البلاد الاَّ ان الموجود منها في افريقا اعظم جسماً واشد توحشاً واكثر عددًا ويوجد في غاباتها من الحيوانات المتوحشة الجاموس والبقر الاَّ انها اقل وجودًا من غيرها وقد يكبر الجاموس عندهم حتى يصير كالفيلة وإن تعرض له احد بالاساءة هجم عليه فان لحقه داسه بارجله واتلفه ومن طبعه انه يحب الماء حبًا زائدًا ولحمه مستطاب لذيذ واما البقر فيهرب من الانسان ويسكن الغابات ويتناسل فيها فيكثر عدده الى الغاية فيأتي اهل تلك الجهة

وياخذون منه كثيرًا ولولا ذلك لضاقت عنه الارض وهناك من نوع الظبا كثير واكثر وجوده بجهة (امندا) والساحل وهو انواع ومنه نوع يداه اقصر من رجليه ويشابه الجمل في ذيله وراسه ووبره وحول اجفانه دائرة من الشعر سوداء كاعين الايل وصوته كصوت المعز ويقبل التاليف والتربية ومما يكثر وجوده في تلك الجهات الايل وله اوقات معلومة يخرج فيها للمرعى قطائع متجمعة تسافر من شمال نهر (السينجال) الى جهة جنوبه في طلب المرعى واهل تلك الجهة يعرفون اوقات رجوعها فيستعدون لاصطيادها بان يضرموا النار في الحشيش من جميع الجهات ما عدا جهة النهر ويقف جماعة منهم بشاطئ النهر فاذا رأت قطائع الايل النار قد احاطت بها من كل جانب فرت الى جهة النهر فيقوم عليها الذين كمنوا لها هناك فيقتلون منها ما يقتلونه وياخذون بالحيوة ما ياخذونه وما يذبحونه يجففون لحمه في الشمس لياكلوه وجلده ليبيعوه للاوربيين او غيرهم وقد اخبرني ذلك السائح الانكليزي انه رأى هناك حيوانًا صغير الجثة في قدر خنزير مضى عليه سنة من عمره شعره ابيض قصير دقيق صلب وراسه كراس الدب وعينه ضيقة ذات لمعان وله اظافر حادة يصعد بها الشجر وياكل من ثمارها ويقيم بين اغصانها وهو بحري بري يعيش في الماء وفي الهواء فلهذا يرى دائمًا فوق اغصان الاشجار بالقرب من شواطئ

الانهار والسودان يصطادونه وياكلونه

وليس هناك اكثر من القرَدة عددًا وانواعًا ولا اعجب منها طباعًا وتسرح متجمعة قطائع عظيمة قد يبلغ عدد القطيع الواحد منها ثلاثة الاف فاكثر ولا يمشي واحد منها الاّ مع ابناء نوعه ويقال ان لكل قطيع منها رئيسا تطيعه وتنقاد له وحرسا يرتب من اعظمها جثة وقوة وانها اذا سارت يكون الرئيس امامها والحرس خلفها والانثى تحمل ولدها تحت ابطها فان كان لها اكثر من واحد حملت ما بقي على ظهرها وسارت بها

وفي هذا النوع من الحذق والخفة والقوة والجرأة ما يقضي منه العجب ولا يوجد في كثير من الحيوانات فقد رأيتها حين عودتنا مع السائح الانكليزي وهي فوق الشجر تثب من غصن الى غصن ومن شجرة الى شجرة كانها فوق الارض ولها اصوات مختلفة منها الرفيع ومنها الغليظ وما بين ذلك ولكنها كانت تارة تصيح دفعة واحدة فيظن من لم يرَها انه صوت واحد منها وقد يسمع لبعضها في جوف الليل صوت عال يعلو جميع اصواتها فتسكت جميعا برهة من الزمن ثم ترجع الى ما كانت فيه وكنت رأيت هناك بيوتا صغيرة كثيرة العدد مصنوعة من اغصان الشجر قليلة الارتفاع عن وجه الارض متجاورة فسالت عنها بعض الحرس الذين كانوا معنا فاخبرني انها بيوت للقرَدة تتقي بها حر الشمس وضرر العوارض

وكل ما رأيته من القرَدة له ذيل ولكن اخبرني بعض السائحين
ان منها ما لا ذيل له والقرَدة انواع فمنها نوع صغير الجثة غير مؤذ
وصوته يشبه بكاء الاطفال ونوع اكبر منه خلقة وضرره كثير
وفيه بعض فطنة وله حركات واشارات تقرب مما للآدمي من
ذلك فضلاً عن الايدي والارجل حتى ان السودان يعتقدون ان
في امكانه النطق وانما يمنعه من ذلك خوفه من ان يكلف الاعمال
الشاقة كالآدمي وضرره على المزارع كثير ومن عادته انه اذا اراد
الدخول في مزرعة من مزارع الارز او الذرة اجتمع منه نحو
الاربعين والخمسين وصعد كبيرها على شجرة لينظر الى كل جهة
والبقية تدخل في الزرع وتجمع ما شاءت فاذا لمح الذي على الشجرة
صاحب الزرع او غيره مقبلاً الى جهتهم على بعد صاح صيحة مهولة
فياخذ كل واحد ما جمعه ويصعد به الى شجرة ولا يزال يثب من
غصن الى اخر ومن شجرة الى غيرها واذا كان فيه انثى ذات اولاد
اخذتها وصعدت بها كذلك وفعلت فعل البقية حتى يتخلص
الجميع ولا يحصل صاحب الزرع الاَّ على الاسف ولذلك كانت
كراهة السودان لهذا النوع اشد منها لغيره

ونقل بعضهم عن اهل تلك الجهة ان القرَدة كثيرا ما تخطف
بنات صغيرة في نحو تسع سنين من العمر وترفعها الى اعالي الاشجار
وتبقيها عندها ويصطاد السودان من القرَدة في كل سنة عددًا

كثيرًا ويأكلون لحمها ومن طرقهم في اصطيادها من فوق الشجر ان يخدشوا وجوهها بعصي او رماح طويلة فاذا فعلوا بها ذلك تركت الاغصان التي هي متعلقة بها ووضعت يديها على محل الجرح فتسقط على الارض فياخذونها وبالجملة فاستيفاء الكلام على هذا الحيوان على مثلي متعسر وتفصيل انواعه وافعاله وطباعه غير متيسر وما من احد الاّ رأى كثيرًا من افراده ويعلم هيأتها واشكالها وبعض احوالها وانما اقول لحضرتكم ان الذي رأيته من عادتها اللازمة لها ان افراد كل جنس منها تكون مع بعضها ولا تختلط بغيرها ومنها نوع يعيش في الغابات ولا يفارقها وهذا النوع اسود الوجه ما عدا الخد فانه ابيض وفي ذقنه شعرات قليلة كاللحية ولون جسده يضرب الى الزرقة او البياض او يكون منقطًا بنقط زرق او بيض او حمر ومنه ما يكون هائل المنظر والسودان ياكلون لحمه فيجففونه ويدخلونه في طبيخ الارز ويزعمون انه من احسن الاطعمة وانت خبير بان مجرد منظره كافٍ في تغير المعدة ومنه جنس يوجد في بعض اعضائه نوع شبه لاعضاء الآدمي كالوجه والاذان والذراع وقصبة الرجل والكعب وغير ذلك وكثيرا ما يرى ماشيًا على رجليه الخلفيتين منتصب القامة حاملاً لاثقال عظيمة ويبلغ طول هذا النوع خمس اقدام وهو عبل الذراعين ضخم الجثة قوي البنية الاّ انه قليل الاذى لين الجانب ياخذه بعض

الناس صغيرًا فيعوده على بعض الخدمة والعمل فيحمل آنية الماء على راسه منتصبًا ويدير الرحى ويملأ الاواني من ماء الآبار والعيون والانهار ويشوي اللحم الى غير ذلك من خدم يعود عليها ويعلمها فيعلم ويعود على ما يراد منه من صغره ولا يؤخذ للتربية الاَّ في صغره وهو في حال توحشه صعب الانقياد شديد القوة يغالب الرجل فيغلبه ويقلع عينيه ويفعل به افعالاً قبيحة تؤدي الى تلفه وكثيرا ما يقع بين القرَدة محاربات شديدة تؤدي الى قتل بعضها بعضًا .



المسامرة الثالثة والسبعون

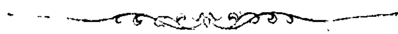
سنور الزباد

(من حكاية يعقوب)

وهناك من الحيوانات قط الزباد او سنور الزباد وقد يقال له قطة المسك ويوجد كثيرًا بين جبل (الاطلس) و (السينجال) وفي ولاية (ناطيا) من ارض الحبش وولاية (كوجا) فوق (سيالبونا) وقد اختلف الطبيعيون في صفة هذا الحيوان فزعم بعضهم انه نوع من الضباع وقال انه في شكل الضبع وقال اخرون انه في حجم الكلب وله خرطوم رقيق الطرف وفي عينيه واذنيه ضيق وله شوارب كشوارب القط وله ذيل غليظ يشبه ذيل الثعلب وعلى ارجله شعر طويل اسود وله في كل رجل خمسة اظافر سود مستقيمة حادة وهو من الحيوانات المفترسة وجرحه مضر

فاذا اراد الصيادون صيده حفروا له حفرةً في طريقه فيقع فيها فياخذونه ويضعونه في اقفاص من خشب ونحوه ويطعمونه لحما نيئًا قطعوه له قطعًا صغيرة ومادة الزباد من هذا الحيوان تجتمع تحت ذيله في غشاء كالكيس نحو ثلاث اصابع طولاً واصبعين ونصف عرضًا وداخله اغشية متعددة ومن داخلها تلك المادة ويوجد هذا الكيس في الذكر عند دبره وفي الانثى عند فرجها وفي الغالب يصاد هذا الحيوان في صغره فيوخذ ويربى وتؤخذ منه تلك المادة وكيفية اخذها منه انهم بعد ان يصطادوه يضعونه في شي كالقفص ثم يأتون اليه كل يومين او ثلاثة فيزعجونه بعصي او نحوها حتى ينزوي في ركن من اركان القفص فيقبضون على ذيله ويسحبونه من بين عيدان القفص بعنف وشدة فيمسك الحيوان برجليه الخلفيتين في القفص بكل قوته فعند ذلك يوضع تحت بطنه شي يمنعه الحركة وحينئذٍ يسهل اخذ المادة منه فياتون بشيء كالملعقة فيدخلونها في ذلك الكيس وياخذون ما تجمع من تلك المادة بالاتكاء على غشاء الكيس وغاية ما يستخرج من تلك المادة كل مرة درهم ونصف او درهمان وهذه المادة تكون في اول امرها بيضاء مشوبة ببعض زرقة ثم تشتد بياضًا ورائحتها على البعد الطف منها على القرب لانها اذا كانت قريبة كانت مصدعة لقوتها ولذلك كان تجار الاعطار يخلطون بهذه المادة غيرها فتعتدل رائحتها ومن هذا الحيوان في بلاد الفلمنك كثير ولهذا السبب كان اكثر ما

يجلب من الزباد الى بلاد الانكليز والفرنسيس وغيرهم واردًا من الفلمنك وغالب قوت هذا الحيوان عند من يصطاده البيض واللبن ويقولون انه اي هذا القوت يصفي بياض المادة المستخرجة منه ولذا كان المجلوب من بلاد الفلمنك اشد بياضًا من المجلوب من افريقا واسيا لان قوته في هاتين الجهتين اللحم خاصة ويوجد هذا الحيوان ايضًا بكثرة ببلاد الهند الاّ ان ما يؤخذ منه لا يساوي ما يؤخذ من حيوان جهات الفلمنك لان زباد هذا اعلى وثمنه اغلى والمشتغلون بتجارته يرسلونه الى البلاد البعيدة فيربحون فيه ارباحًا كثيرة ومن يقتني هذا الحيوان في تلك الجهات ينفق عليه نفقات كثيرة وذلك لانهم لا يطعمونه الاَّ لحم الدجاج والطير واوان اصطياده الصيف حين تكون اشجار الغابات كثيرة الاوراق ويبلغ ثمن الواحد منه نحو اثنى عشر شلينا انكليزية وغذاؤه في حال صغره ثريد يعمل له من لحم طير او سمك مطبوخ مع ذرة ويستحب اقتناء الذكور من هذا الحيوان على الاناث لان زباد الذكور احسن واجود فانه في الانثى كثيرا ما يصل اليه بولها فيغيره



المسامرة الرابعة والسبعون

الوصول الى باريس

قال ناقل الحديث فلما وصل يعقوب الى هذا الموضع من كلامه كانوا قد قربوا من مدينة باريس فقال الانكليزي انه يوجد في ارض افريقة وفي الجهات التي كان بها يعقوب غير ما ذكره حيوانات كثيرة هائلة الخلقة ومؤذية منها الافعى والتمساح وفرس البحر وانواع غيرها من الحيوان قد وصفها السائحون في كتبهم فمنها ما يسكن في البر ومنها ما يسكن في البحر ومنها ما يعيش فيهما جميعا وفيها من الاعشاب والنباتات ما ليس في غيرها وكنا نحب ان نسمع منه بقية ما شاهده هناك ورآه وما سمعه ممن اجتمع عليهم من اهل تلك البلاد ولكن حيث اشرفنا على باريس فنكتفي منه الان بما سمعناه ونستوفي الكلام في وقت اخر

فقال الشيخ لقد قطعنا الطريق بهذه المحادثات اللطيفة بحيث لم نشعر بطول المسافة واستفدنا في ضمنها فوائد كثيرة من معرفة احوال تلك البلاد وما فيها من انواع المخلوقات وغرائب احوالها وبودي لو عرفت ما حصل لاخت يعقوب بعد غيبته عنها وكيف كانت حالتها ومعيشتها بعده

فقال يعقوب ان قصة اختي كقصتي بل اغرب وغصتها بعد فراقي لها كغصتي واصعب وساشرح لكم ما قاسته بعدي من المشقات والمصائب وانواع المحن والشدائد حتى اضطرها الحال الى قطع النظر عما يستدعيه سنها من اللذات والشهوات الدنيوية فاعرضت عن الدنيا وما فيها ودخلت ديرًا من ديور الراهبات وترهبت فيه الى ان ماتت ولم ارها وبينما هم في هذا الحديث واذا بالوابور وصل الى موقف سكة الحديد بباريس فنزلوا به وذهب يعقوب فاحضر لهم عربة فركبوا جميعا وساروا الى لوكندة قد سماها الانكليزي ليعقوب فاخبر بها العربجي فاوصلهم اليها بعد نصف ساعة فكان الشيخ مدة سير العربة ينظر الى ازدحام الناس في الطرقات وكثرة الدكاكين وحركة التجارة وهيئة المنازل وانتظامها ورونقها ونظافة الطرق وبهجتها ويتعجب في نفسه من حسن ذلك كله وكذلك ابنه كان لا يصرف نظره من شباك العربة حيث رأى بشوارع باريس احسن مما رآه سابقا بمدينة مرسيليا فلما وصلوا الى اللوكاندة نزل يعقوب من العربة واخذ بيد الشيخ فنزل وكذلك

نزل الانكليزي وبرهان الدين ودخلوا فقابلهم الخادم وذهب بهم الى حجرات لائقة بامثالهم فلما اطمأنوا في مجالسهم امر الانكليزي باحضار الطعام فاكلوا وشربوا القهوة وجلسوا برهة لطيفة في محادثات خفيفة وكان ذلك قبيل الظهر فقام كل الى محله المختص به ليزيل عنه اثر السفر ويخلع ما عليه من الثياب ويلبس ثيابا اخرى وبالجملة قام الشيخ الى حجرته فاستراح ورقد برهة ثم قام فتوضأ وصلى وغير ثياب السفر وكذلك فعل ابنه واختار برهان الدين احسن ثيابه وقعد في انتظار يعقوب ليخرج للتفرج في المدينة فلما علم والده منه ذلك قال له يابني ان خرجت الآن بهذه الهيئة حدق الناس اليك بابصارهم واحتاط بك كل من مررت به من رجالهم ونسائهم واطفالهم وربما كان ذلك لأدبك مانعا لك عن بلوغ اربك فالاولى ان تصبر حتى نعرف رأي صاحبنا فهذه بلاده وهو ادرى باحوالها ونحن فيها اغراب فقال برهان الدين الراي ما تراه وسكت ثم حضر عندهما يعقوب وهناهما بالسلامة وقال لهما ان الانكليزي امره ان ينظر الشيخ هل قام من النوم وهل ينشط لملاقاته فيأتي اليه ويسلم عليه ام يؤخر ذلك برهة فشكره الشيخ واثنى على اخلاقه وذكر معروفه وقال له انه يحب ان يراه فليحضر على الرحب والسعة ان احب فرجع يعقوب الى الانكليزي واخبره بما قال له الشيخ فقام الانكليزي وحضر الى الشيخ فتلقاه بالترحب واخذا يتجاذبان اطراف الحديث من بعيد ومن قريب فقال

الانكليزي ان هذه المدينة من احسن مدن الدنيا واعظمها لحسن نظامها وكثرة ما فيها من المباني اللطيفة والاشياء الظريفة فان استحسن الشيخ جعلنا لنا في كل يوم وقتا للتفرج عليها والوقوف على كل شي على حدته واريد ان احصل رخصة للدخول في المحلات الشهيرة التي لا يباح الدخول فيها الاَّ بالاذن فقال الشيخ انت ادرى ببلادك وانا على رايك ومرادك فما وافق اتيناه وما لم يوافق ابيناه ولا ترى منا الاَّ طاعة الرفيق الموافق للخل الصادق وعندنا من الشوق الى معرفة احوال هذه المدينة العظيمة والوقوف على احوال اهلها وتعرُّف ما بها من الآثار الباهرة وروائع الصنائع الزاهرة ما تشتد به حاجتنا الى استطلاع ما عندك واتباع رايك والوقوف عند اشارتك لا سيما وقد رأينا من معروفك ومحاسن اخلاقك واستفدنا من فوائدك ما نقدر قدره ولا ننسى اثره ولا نهمل ذكره ونسال الله ان يتولى هدايتنا جميعًا الى طرق الرشاد ويكافئك على حسن هذا الصنيع فهو القادر على ما اراد

فقال الانكليزي اني ارى من الواجب عليّ وجوب الفروض اللازمة ان ابذل اقصى جهدي وغاية ما عندي في استجلاب رضاكم وادخال السرور عليكم حيث كنت السبب في تغربكم الى هذه البلاد ومفارقة الاهل والوطن والاولاد وتحمل متاعب السفر فلا هم لي سوى الاشتغال بما يخفف عليكم مشقة الغربة وصعوبة الفراق بالاطلاع على ما تحبون الاطلاع عليه من احوال هذه البلاد

وتحصيل ما يتعلق به اغراضكم ومقاصدكم وما يكون فيه سروركم وتنشرح به صدوركم فارجوك الاّ تحاشى من طلب شي تريده فذلك غاية مرادي وبغية فوادي وحيث كانت هذه بلادنا وانت فيها غريب فان رأيتم فيها شيئًا تحبون الوقوف على حقيقته فاسئلوا عنه فان كان عندي فيه علم ابديته لحضرتكم والاَّ سألت عنه من يعرفه واخبرتكم به ونحن نحتاج الى الاقامة في هذه الحاضرة مدة من الزمان لقضاء بعض اغراض تلزمني فنصرف اوقات الفراغ من هذه المدة في التفسح في ميادين المدينة ومنتزهاتها والتفرج على مبانيها وعماراتها الشهيرة والمسامرة في احوالها وتواريخها وحوادثها القديمة والحديثة

فقال الشيخ لا عدمت معروفك وغاية مرادي ان اقضي هذه المدة في استفادة ما عساه يكون فيه منفعة اوطاننا وفي نيتي ان اكتب مجموعًا اضمنه كل ما اراه واستحسنه في هذه السياحة في كتاب ليكون تذكرة لي اذا عدت الى سكني وطرفة مجلوبة الى اهل وطني

فقال الانكليزي لا يخفى على حضرتكم ما حصل من اهل مرسيليا حين كنا بها من تجمعهم عليكم واحاطتهم بكم حين رأوكم في الهيئة المصرية فان كنتم تتضررون من ذلك فلا بأس بالتزيي بزي هذه البلاد مدة الاقامة بها لتتشبهوا باهلها وتختلطوا بهم

فقال الشيخ لا ضرر عليّ من تجمعهم بل ربما كان فيه فائدة

زائدة وذلك لاني اتمكن حينئذٍ من رؤيتهم والتامل في ذاتهم وهيأتهم والوقوف على احوالهم وعاداتهم على ان بقائي بهذه الهيئة ربما كان سبباً في الرعاية والتوقير اذ من العادة الجارية كثرة احترام الغريب وتوقيره والتجاوز عما عساه يحصل من تقصيره فالاوفق بنا البقاء علي ما نحن فيه لا سيما ونحن اذا غيرنا هذه الملابس التي اعتدنا عليها من صغرنا ولم نعرف غيرها في عمرنا احتجنا الى مدة من الزمن للتعود على تلك الهيئة الجديدة واتقانها

قال الانكليزي ذلك اليك ونعم ما رأيت وما عرضت عليك هذا الامر الاّ لاني خطر ببالي ان ذلك ربما يكون من اغراضك فاسعى في تحصيله واذ لم ترد ذلك لنفسك فهل تأذن فيه لبرهان الدين

قال الشيخ امر برهان الدين اليه فنسأله عما يريد لنفسه وان كان بقاؤه على هيئته الاصلية احب اليّ فاني كلما رأيته تذكرت الوطن واهله وصرت كاني لم افارق وطني

فقال برهان انا ايضاً احب ان ابقى علي هذه الهيئة ولا ضرورة لتغييرها اذ لسنا على نية التوطن بهذه البلاد ودوام الاقامة بها وانما نقيم فيها مدة يسيرة لا تحوج الى ذلك ولو غيرنا ملابس بلادنا في هذه الحاضرة للتخلص من تزاحم الناس علينا لزمنا لهذا الغرض ان نغيرها في كل جهة انتقلنا اليها فان الملابس والهيئات تختلف باختلاف الجهات

فقال الانكليزي الامر اليكم واخبركم اني قد اكتريت عربة وجعلتها تحت امركم وخاصة بكم فمتى اردتم الخروج الى شوارع البلد او ظاهرها فمروا يعقوب ان يحضرها لكم فان لم اكن معكم لبعض موانع قد تعوقني عن الانتظام في سلك صحبتكم في بعض الاحيان فهو يلازمكم ويقوم بكل ما يلزم لكم ثم استأذن وانصرف الى حجرته وكذلك انصرف يعقوب الى محله وبقي الشيخ وابنه وكان الشيخ قد اعتراه بعض تعب من ارتجاج العربة وطول القعود بها فاحب ان يريح بدنه فقال لولده اذا جاء الانكليزي وسأل عني فاخبره انني لا رغبة لي في الخروج في هذه الليلة ثم تحول الى فراشه لينام فقام ولده واغلق عليه الباب وذهب الى حجرته الخاصة به فلم يجد له صبرًا على المكث بها وحده خصوصًا وقد كان مغرمًا بسماع بقية حكاية يعقوب وبالتفرج على شوارع المدينة وما فيها فخرج من حجرته وذهب الى محل يعقوب وقال له ان الوالد كان وعد بالخروج في هذه الليلة ثم اثر الاستراحة بسبب ما وجد في نفسه من مشقة السفر فهل ترى ان نخرج وحدنا او نقيم الليلة فقال يعقوب لا ينبغي ان نخرج الاَّ باذن فالصواب ان نصبر الى اخر النهار ثم نستأذن بعد الطعام ونتوجه اما الى التياتر واما الى البالو

فقال برهان الدين اما التياتر فقد رأيته وعرفته حين كنا بمرسيليا واما البالو فلا اعرفه فما هو

فقال يعقوب البالو محل يجتمع فيه كثير من الرجال والنساء

يلبسون فيه احسن ملابسهم ويرقصون مع بعضهم على نغم الآلات الموسيقية فقال برهان الدين لا بأس برؤية هذا المحل ولكن احب في هذه الليلة الاقتصار على المرور في البلد ورؤية شوارعها ومبانيها وفيما بعد اذا وجدنا فرصة حملنا الخواجا على الذهاب اليه وتوجهنا معه فاتفقا على ذلك وانتظرا تحصيل الرخصة وانتهاز الفرصة ثم ان برهان الدين قام من عند يعقوب ورجع الى مخدعه واخذ كراسة وصار يكتب ما علق بذهنه مما حكاه يعقوب في اثناء الطريق وضم الى ذلك ما حضره مما كان يشاهده بنفسه عند المرور ببعض الجهات واستمر على ذلك الى قبيل الغروب ثم قام وتوجه الى محل والده فوجده قائمًا يصلي فصلى خلفه فلما تمت الصلاة وما يتبعها حكى له ما اتفق عليه مع يعقوب وطلب الاذن فأذن له واوصاه ان يعود عاجلا ليريح بدنه كذلك من تعب السفر وقال له الايام بيننا وما لم نرَه في هذه الليلة سنراه فيما بعدها فقابل قول والده بالسمع والطاعة وعزم على الرجوع سريعًا بقدر الاستطاعة وحضر الطعام فاكلوا وبعد ذلك خرج مع يعقوب الى شوارع البلد ونواحيها .



المسامرة الخامسة والسبعون

لمحة

في باريس

فعجب من حسن نظامها وكثرة العالم بها وسعة شوارعها وتنظيمها وحركة التجارة بها ومن زخرفة محلات التجار ونظافتها وحسن بهجتها وكان ينتقل من مكان الى مكان ومن دكان الى دكان ويقف عند بعض المحلات فيسرح فيها طرفه وينظر لما فيها من انواع البضائع النفيسة ويشرح له يعقوب كل ما سأل عنه من هذه البضائع ويذكر له اسمه ونوعه وجنسه والجهة التي يجلب منها وكانا كلما وقفا على دكان او خان احتاط بهما كثير من الناس من نساء ورجال ينظرون لهيئة برهان الدين وملبسه وكان هو ايضًا ينظر اليهم والى هيئاتهم وملابسهم ويقارن ما رآه هناك بما

كان يراه وهو بمصر فلم يجد بينهما نسبة وما زالا ينتقلان من دكان الى دكان ومن خان الى خان الى ان مضى عليهما من غروب الشمس نحو اربع ساعات ومع ذلك كان يرى العربات متوالية مع السرعة والكثرة بحيث كانا اذا ارادا الانتقال من محل الى غيره مكثا زمانًا طويلاً ينتظران فرجة يمرون منها ورأى ضوء المصابيح الغازية المنتشرة في الطرقات قائمًا مقام نور القمر او ضوء الشمس بحيث يمكن فيه قرأة الخط الدقيق ونقد الدراهم بغير عسر ولا صعوبة وكذلك رأى ضوء المصابيح الغازية في الازقة والحارات يزداد بما يصل اليها من ضوء مصابيح الدكاكين وغيرها لانه ما من دكان او محل قهوة او خان الا كان امامه عدة من المصابيح نحو الخمسة او الستة او اكثر فكانت اشعتها تنبعث امامها وتزيد البضائع الموضوعة خلف الزجاج حسنًا ورونقًا وكذلك كانت اشعتها تنعكس في المرايا المركوزة في الطرق كما ان هذه المرايا كان ينعكس فيها ايضًا صور كل ما قابلها او مر امامها من الناس والعربات وغيرها فيرى فيها الرائي صورًا مختلفة واشكالاً متنوعة فمضى على برهان الدين الزمن من غير ان يشعر وذلك لاشتغال حواسه بما كان يراه من الاشكال المتنوعة والصور المتجددة واستغراق خاطره في التامل والاستغراب والاستحسان لما يراه من حسن الرونق وانتظام المنظر بحيث يتخيل الرائي ان المدينة في زينة مرتبة بالخصوص لامر عظيم او موسم حاضر وكان كلما قطع مسافة رأى

فيما بعدها شيئًا لم يكن رآه وكان يتامل في الدكاكين وحواصل التجار ويعجب من حسن انتظامها وسعتها فيجد النسبة بينها وبين ما كان يراه في القاهرة منقطعة والمقارنة ممتنعة لانه رأى الدكان في باريس عبارة عن محل عظيم يشتمل على عدة محال بعضها من داخل البعض منها ما هو مفروش بالرخام ومنها ما هو مفروش بالبسط النفيسة ومنها ما بعضه من هذا وبعضه من هذا وابوابها محكمة التركيب مليحة الوضع مصنوعة من الخشب الثمين كخشب الجوز والبلوط والفرغاج ونحو ذلك مدهونة بالوان تسر الناظرين وتجذب قلوب المارين مقسمة بالواح الزجاج او البلور حتى لا يحجب شي مما بداخلها عن بصر كل من يمر بها والبضائع فيها مرتبة حسن ترتيب مصفوفة على الرفوف مع كمال الانتساق وحسن الوضع بحيث تستدعي لشرائها كل من يمر بازائها وفي كل دكان نساء حسان الوجوه متجملات باحسن الملابس والطف الهيئات مستعدات لعرض ما يلزم عرضه او بيع ما يلزم بيعه فترى الشاري لا يضطر للوقوف في الطريق امام الدكان واطالة الكلام بغير طائل بل يدخل ويطلب ما اراد من البضاعة مع اللطف والادب وعدم رفع الصوت فاذا وقع الاتفاق على الثمن اداه واخذ ما اشتراه في ورقة او ربطة لطيفة نلفه فيها احدى النساء اللاتي في الدكان فان بدا له عدم اخذه معه واراد ارساله الى منزله فليس عليه الا ان يعرف البائع نمرة الدار ونمرة المحل الذي هو مقيم به

ثم يذهب الى سبيله ويصل ما اشتراه الى محله وفي هذه الحالة لا مانع من دفع الثمن في الحال او ابقائه الى ان يرسله صحبة من يذهب بالبضاعة لان ذلك امر جارٍ بينهم ومعتاد لهم وما زال برهان يسير مع يعقوب ويتفرج وهو مبتهج بما يراه مشغول الخاطر بالتأمل فيه ويعقوب يشرح له ويوضح الى ان وصلا الى باب كبير فرأى امامه مصابيح كثيرة منورة بالغاز ومن داخل الباب زقاق مستطيل اسفله مفروش بالرخام واعلاه مستور بالزجاج وفي جانبيه دواليب مدهونة باحسن الالوان فيها نقوش لطيفة وصور ظريفة ورأى في كل جانب خلقًا كثيرًا من رجال ونساء كلهم مشتغلون بترتيب بضائع متنوعة يضعونها في صناديق وعلب كثيرة وكان المحل يضيء بمصابيح الغاز المنتشرة في جميع ارجائه فمالت نفس ابن الشيخ الى دخوله فدخله هو ويعقوب فوجداه ابهج من جميع ما رأياه والطف وفي داخله طرق نافذة بعضها الى بعض فسلكا في في احداها فوجد كل منهما صورته منطبعة امامه في مرآة مستوعبة لجميع عرض الحائط وارتفاعه حتى يظن السالك انها نافذة وان هذه الصور اشخاص تسير الى جهته فرجعا واخذا في مسلك اخر ومنه الى غيره وكان في كل جهة دخلاها من هذا المحل جملة من الناس يشتغلون بتصفيف البضائع وتنظيمها ووضعها في الصناديق والعلب وكان كل من هؤلاء الناس ينظر اليهما مع السكون والوقار من غير ان يفارق محله او يترك شغله ولم يريا هناك بيعًا

ولا شراء ولا اخذا ولا اعطاء فتعجبا من عظم هذا المحل وسعته وحسن زخرفته واردا الرجوع من حيث دخلا فاخطأا الطريق وصارا يترددان من جهة الى جهة ومن طريق الى طريق ولا يعارضهما احد الى ان ظهر عليهما انهما اخطأا الطريق فتقدم اليهما فتى قصير القامة فحياهما باحسن تحية وكلمهما باللغة العربية وسألهما عما يريدان فقال له يعقوب ليس لنا غرض سوى التفرج وقد ضللنا الطريق ولا ندري كيف نخرج وقد تحيرت أفكارنا لما شاهدناه في هذا المكان من كثرة اصناف التجارة فانا ما سلكنا في جهة من جهاته الاّ وجدنا فيها جماعة يشتغلون بترتيب اشياء من اصناف التجارة غير ما كنا رايناه من قبل فاي محل تجارة هذا

فقال الرجل هذا المحل قد بني في عهد قريب وهو خاص باثنين اخوين بني من مالهما فلما اكملا بناءه سمياه باسم مدينة باريس وجميع ما فيه من البضائع انما هو من مالهما خاصة لا يشاركهما فيه احد من الناس وفيه من جميع اصناف التجارة جليلها وحقيرها فلا يكاد يسأل الطالب عن شيء الاّ وجده فيه فمن ذلك الكشميري الثمين من شغل الهند واقمشة الحرير من عمل اهل الصين والهند والفرنسيس وغيرهم واقمشة الكتان والقطن على تعدد اشكالها وانواعها والبسط العجمية على تنوع اوضاعها وآنية الفضة والذهب وحلي الجوهر الى غير ذلك وهذه الانواع منها ما يباع على تجار البلد للبيع في داخل المدينة ومنها ما يرسل الى بلاد المشرق وبلاد

المغرب والترك وآسيا الصغرى والكبرى وبلاد الغرب والاقطار الحجازية وبلاد الانكليز وغيرها فما من جهة من هذه الجهات الاّ ويرد لها من هذه الاصناف وكذلك هذه الجهات ترسل كثيرًا من مصنوعاتها واصناف تجارتها الى هذا المحل وجميع من تراه هنا من رجال ونساء انما هم خدم بمرتبات شهرية تصرف لهم من لدن هذين الاخوين وعددهم مائة وخمسة وعشرون شخصًا وانا من جملتهم وقد راكما احد الاخوين فارسلني اليكما لالازمكما واكون في خدمتكما حتى تقضيا غرضكما وها هو قريب منا فان اردتما ان تجتمعا عليه ذهبت بكما اليه فعجب برهان الدين من مقاله واثنى عليه وعلى صاحبه الذي ارسله واظهر علائم الشكر والابتهاج بصنيعه ثم مشيا مع الفتى الى صاحب المحل فقام لهما واكرمهما واجلسهما عنده فشكراه واثنيا عليه وامر بالقهوة فشربوا ثم قال لهما لولا ضيق الوقت لقمت معكما وطفت بكما على جميع مخازن الخان واريتكما ما فيها وقد حضر وقت انصرافنا واغلاق المحل ولكن لا مانع الآن من ان نريكما ما فيه من صنف الكشميري على حسب الامكان واذا حضرتما في غدٍ اريتكما باقي مخازنه وما فيها فاعادا له الشكر والثناء فقام معهما وتوجه بهما الى محل عالي البنيان منتظم الشكل مزخرف الاركان في سقفه صور متنوعة ورسوم مختلفة وفي مداره من اعلاه الى اسفله دواليب متقنة الصنعة كلها من خشب الجوز وارضه مفروشة بالبسط النفيسة وفي وسطه مائدة (طرابيزه) كبيرة

مستديرة معلق فوقها تحفة من البلور الصافي النفيس موقدة بالشمع الابيض النقي الطيب الرائحة ثم طاف بهما الرجل على جميع ارجاء المحل وصار يفتح الادراج ويريهما ما فيها من قماش الكشمير الخفيف الوزن الغالي الثمن فرايا كل واحد منها موضوعا على حدته في ظرف محكم لحفظه ولكل نوع منها دواليب خاصة به على حسب قيمته وجهة وروده وقد رأيا منها ما ثمنه قدر مائتي كيس فاكثر فاستغرب بن الشيخ من هذا الثمن وقال في نفسه اذا كان ثمن الواحد من هذا النوع هكذا فما يكون ثمن الجميع ثم ماذا يكون ثمن البضائع الموجودة في هذا المكان وبعد ذلك فما يكون قيمة البضائع الموجودة في غيره من محلات هذه المدينة ثم ماذا يكون قدر اموال اهلها وما صرفوه في زخرفتها وبنائها ثم بعد ان اطلعهما الرجل على جملة كثيرة من ذلك اعتذر لهما بضيق الوقت ووعدهما بان يطلعهما على سائر ما في المحل ان حضرا بعد ذلك في سعة من الوقت فاستأذناه للانصراف فشيعهما خطوات وضم اليهما من مشى معهما الى باب المحل حيث دخلا فخرجا وركبا العربة ورجعا وكان قد مضى نصف الليل فوجد برهان الدين والده قد اغلق عليه باب مخدعه ونام فدخل هو كذلك حجرته ونام فيها الى الصباح فقام وادى ما وجب عليه ثم ذهب الى والده ليقبل يده فما استقر به المقام حتى اتى يعقوب وحضر الطعام فاكلوا ما تيسر وجلسوا يتحدثون وحكى برهان الدين لابيه ما رآه في هذه المدينة

من فرط الانتظام والزينة وما يلوح عليها من علائم الفخار ومزيد الثروة واليسار وما حمله على العجب والاستغراب مما لم يكن له قبل في حساب فسر الشيخ بمقالته ورغب في ان يعلم طرفا من اخبار هذه المدينة وكيف كانت حالتها وتقلباتها في الازمان الماضية وما الاسباب التي اوصلتها الى هذه الدرجة من العز والرفعة والغنى والثروة

فقال يعقوب ان معلوماتي في هذا الامر قاصرة والاولى ان يؤخذ علم ذلك من الخواجا لاتساع دائرة معلوماته وكثرة اطلاعه على كتب التواريخ والسير

فقال ابن الشيخ قد توجهت الى محله لاسلم عليه فوجدته مشغولاً بشخص عنده فلما اردت الانصراف من عنده قال لي بلغ حضرة الاستاذ الوالد بان عندي شغلا ربما امتد الى وقت الزوال فاقرأ عليه السلام مني واعتذر له عني

فقال الشيخ عذره مقبول فان كان قد بقي عند يعقوب شي من خبره وما حصل له بعد فراقه لاخته فليحدثنا به لنقطع الزمن الى ان يقضي صاحبنا شغله وينتهي عذره ويأتي فنخرج جميعاً ونتفرج في شوارع المدينة

المسامرة السادسة والسبعون

الحيوان العجيب

(من حكاية يعقوب)

فقال يعقوب قد اخبرت حضرتكم اني لشدة شوقي الى اختي وما حصل لي من المشاق في البلاد التي وقعت بها كنت دائمًا اترقب فرصة الخروج من تلك الارض واخاف ان يطرأ حادث يعوقني عن رجوعي الى وطني الى ان نزلنا في السفينة وخرجنا وقد تألفت برجالها والفوني وكنت اساعدهم في اشغالهم بما عندي من المعرفة في صناعتهم فحصل لي منهم غاية الاكرام وكنت اخبرتهم بقصتي وما جرى لي ايام كنت صغيرًا الى ان صرت في يد هولاء القوم اسيرًا فعطفت قلوبهم عليّ وغمروني باحسانهم فكنت بينهم كواحد منهم كذلك مالت اليّ قلوب ضباط السفينة لما سمعوا

بما جرى لي لاني كنت تارة اقص ذلك على بعض الضباط وتارة على الاحاد فلانت لي قلوب الجميع وساعدوني باموالهم من غير ان يلزموني بشي من اعمالهم حتى ان القبطان الكبير لما علم بقصتي كتب ورقة وصدرها باسمه ومن بعده جميع من كان بالسفينة من الضباط وغيرهم ثم وضع امام اسمه ثلاثة جنيهات وكذلك جميع الضباط والاحاد كل على حسبه فاجتمع لي من ذلك خمسة وثمانون جنيهًا انكليزيًا وبعض ثياب فلما رأى ذلك السائح الذي كنت بصحبته هذه الورقة وما فيها اخذها وأكملها من عنده مائة ووعدني انه عند وصولنا يوصلني الى بلدي على نفقته وان يكتب الى احد روساء بلدي بالوصية عليّ لينظر لي طريقة اتعيش منها انا واختي فشكرت الجميع على صنيعهم واقمت مكرمًا بينهم لا اجبر على عمل ولا ازعج من محل الى محل ولكن كنت في بعض الاوقات اذا رأيتهم في ازدحام اقوم من نفسي واساعدهم ثم نجتمع فيحكي كل منا ما عنده من غرائب الاخبار فبقينا كذلك ثلاثة ايام وكان الهواء فيها مساعدًا لنا وكان سير المركب مع سرعتها في غاية الانتظام الى ظهر اليوم الرابع فما نشعر الاّ واحد الملاحين قد اتى الى القبطان وكان جالسًا في قمرته واخبره ان احد روساء المركب رأى شيئًا على وجه الماء من بعد فقام بسرعة واخذ نظارته لينظر بنفسه وقمنا نحن جميعًا ننظر الى ذلك الشي فرأيناه يلوح من بُعد ولكنا اختلفنا في تعيينه فمنا من كان يقول انه زورق ومنا من كان يقول انه رمة حيوان

ومنا من كان يزعم انه حشيش جمعه الموج والقبطان ناظر اليه بنظارته لا يتكلم بشي وبعد ذلك التفت الينا وقال انه حيوان بجري له ارجل يحركها ولكن لم اتحقق ما هو وكان ذلك السائح الذي كنت بصحبته قد بلغه الخبر فحضر ونظر بنظارته مثل ما نظرنا ثم قال ان الشي الذي ترونه حيوان عجيب الشكل مهول الخلقة وقد بالغ في وصفه جميع الملاحين والمؤرخين والسياحين ولغرابته وعجيب خلقته كان بعض اهل التاريخ الطبيعي ينكره ويقول ان جميع ما قيل فيه اوهام لا اصل لها فلما سمع القبطان منه ذلك قال لعله ذو الثمانية الارجل الذي تخافه الملاحون فقال نعم هو ذاك وعند ذلك امر القبطان رجاله بتوجيه السفينة نحوه وحضهم على الاستعداد له بالسلاح والمزاريق والكلاليب والاوهاق (الخيّات) فاعد كل منهم ما عنده من هذه العدة فما استعدوا الاَّ وقد خرج الريح واختلف وتموج البحر وعلا موجه ومع ذلك لم نزل نرى ذلك الحيوان يسبح على وجه الماء وكأنه يريد الفرار منا لاننا كلما قربنا منه نراه قد بعد عنا ولكن مع البطئ والتأني فلما تمكنوا منه ضربوه بالبارود فاصابه نحو عشرين رصاصة فلم يظهر فيه اثر ولم يتحول من مكانه وكانها لم تصبه ثم رموا عليه الكلاليب والاوهاق فتعلق بعضها بجسمه فارادوا ان يزيدوا في عددها ليتمكنوا من ضبطه فتقلبت السفينة من شدة الموج فانفلت وغاص في جوف البحر ولم يظفروا منه الاّ بقطعة من ذنبه بقيت في وهق (خية)

من الاوهاق التي القوها عليه فعزم الملاحون على القاء الزوارق في البحر ليحيطوا به ويصطادوه فنهاهم القبطان عن ذلك خوفًا عليهم. وهذا الحيوان على حسب ما شاهدته يبلغ طول جسمه قريبًا من ستة امتار وكذلك كل رجل من ارجله الثمان ولونه احمر كلون الآجر وجثته منتفخة من جهة وسطه وله عينان كالطبق مستويتان لا يظهر فيهما تحديب ولا حركة ويظهر لهما لمعان يرى من بعيد وكان في اثناء اشتغالهم بصيده يقذف من جوفه دمًا ورغوة ومواد تشم منها رائحة مسكية وبعد ان انفلت منهم صار يغطس بجانب السفينة من جهة ويظهر من جهة غيرها فيحصل للسفينة تموج اشبه بما يحصل من اشتداد الريح ولم ينقطع ذلك الاَّ بعد ان بعدت عنه السفينة بقدر ميل في البحر وقد وزنوا القطعة التي وصلت اليهم من ذنبه فكانت اربع عشرة اقة فاعتبروا بنسبتها جميع هذا الحيوان فقدروه بنحو ستين قنطارًا وقد وصفه السائح الذي كنت بصحبته فقال انه حيوان كالقربة المملوءة ويتشكل في صور متعددة فتارة يكون في هيئة البيضة وتارة يكون كروي الشكل وتارة يكون مستطيلاً وله راس غليظ وعيناه متسعتان في استواء يرى في اعلى راسه شي صلب مجوف كالقرن هو فمه وله على سطح لسانه شبه الشوك وفكاه راسيان وله ارجل ثمان او عشر اصولها منضمة الى بعضها حول فمه في هيئة التاج وفي ظاهر كل منها صفان من الصمامات متوازيان كل صمامة كالفنجان اسفلها يتحرك باختيار

الحيوان فاذا اراد ان يقبض على شي الصق رجله او بعضها به فلا يتخلص منه وذلك لان تلك الصمامات اذا باشرت شيئًا من حيوان او غيره كان الغشا الذي في اسفلها اولا قريبًا من الحرف الاعلى ثم يسقط الى اسفل فيتكون من ذلك فراغ خال من الهوا كما يحصل في قرن الحجامة فتعلق بذلك الشي وتلصق به وتمسكه فاذا كان عدد الصمامات الماسة للشي كثيرة كانت قوة الالتصاق والتعلق به وامساكه عظيمة بحيث لا يتأتى فصل ذلك الشي عنها وبهذه الكيفية يتحصل على غذائه من الحيوانات البحرية فيأخذها برجليه ويوصلها للقرن الذي في اعلى راسه وهو فمه كما ذكر فيقطعها به ثم ياكلها وكأن هذه الارجل لم تكن الاَّ آلة للتخويف وللقبض بها واما كيفية تنفسه وحصوله على الهواء اللازم له فهو ان يدخل قدرًا من الماء في خياشيمه فتنقبض الخياشيم فيدخل الماء في مجرى موجود في راس الحيوان بين العينين وبعد ذلك تعود الخياشيم الى ما كانت عليه فيخرج الما ثم يأخذ قدرًا جديدًا من الماء ويفعل به كذلك وهكذا وبهذه الكيفية يحصل له استنشاق الهواء وهذا الماء الخارج يسقط بقوة فيدفع الماء الراكد حوله فيندفع الحيوان الى جهة امامه وهي الجهة المقابلة لاتجاه الماء المقذوف فيسهل عليه بهذه الطريقة قطع المسافات البعيدة ولذلك لما رأى المتقدمون شكل هذا الحيوان وعلموا سبب اندفاعه الى جهة الامام ارادوا محاكاة ذلك في سير السفن فعملوا في بعض السفن مجاري مجوفة متسعة

يجري فيها الماء فيملأها وسلطوا عليها طلنبة تجذب هذا الماء وتقذفه الى خلف فتندفع السفينة الى الامام الاَّ انهم لما رأوا كثرة المصاريف في ذلك تركوا هذه الطريقة وهجروها وما يشاهد من هذا النوع بسواحل اوروبا وان تعددت اشكاله ليس شيئًا بالنسبة لما يشاهد في البحور العميقة على ما نقله السائحون والملاحون وقد ذكر هذا الحيوان بعض الاقدمين (كارسطو وبلين) وغيرهما ووصفوه بصفات هائلة كان المتأخرون ينكرونها الى ان عثر به الملاحون في زمننا هذا فاصطادوه ونقلوه من جهة الى جهة فصار امرًا مشهورًا معدودًا من انواع المخلوقات بعد ان كان يعد الكلام فيه من الخرافات وحكى (تربيوس) في بعض كتبه ان حيوانًا من هذا الجنس كان يخرج من البحر في جزيرة (كاريتافيا) جميع ما اصطاده الصيادون في يومهم فانهم كانوا يضعون كل ما اصطادوه في مناشر جهة البحر فيخرج هذا الحيوان كل ليلة فياكله ويعود الى البحر وهكذا كان دأبه معهم كل ليلة حتى احرمهم ثمرة تعبهم فلما اشتد ضررهم منه نصبوا حول هذه المناشر خشبًا احاطوها بها فلم تفد شيئًا لانه كان يصعد على شجرة قريبة من المناشر ثم ينزل بها فاقام ذلك الحيوان معهم على ذلك الامر مدة الى ان اطلعت عليه الكلاب ليلة فهجمت عليه ومنعته من العود الى البحر وجاء الحرس فضربوه وصار هو يدافع عن نفسه ويضرب بارجله فما زالوا به الى ان مات ففاح منه رائحة كريهة فعجبوا من خلقته وغريب صفته لانهم كانوا لم يروه

قبل ذلك ثم انهم بعد قتله حزوا رأسه فكانت في حجم البرميل الكبير وقاسوا رجليه فوجدوا طول كل رجل ثلاثين قدماً وغلظها بقدر ما يملأ حضن الرجل ووزنوا ما بقي من جثته فكان سبع مائة اقة وهذا النوع قد يعتريه في البحار الكثيرة الصخور والاحجار ما يعوقه عن الحركة ويسوقه الى التهلكة وذلك ان تدخل رجل من ارجله بين الصخور فتعلق بها ولا يمكنه ان يستخلصها وكلما حاول تخليص رجل علقت غيرها فيقف عن السير ويبقى على هذه الحالة الى ان يموت وينتن وعند ذلك تفوح له روائح كريهة يشمها اهل تلك الجهة من عدة فراسخ فاذا شموها خافوا على انفسهم من الوباء لشدة نتن تلك الرائحة ولكنها لا تطول مدتها فان الامواج تقطع الحيوان وتقذف بقطعه الى جهات بعيدة حتى لا يبقى لرائحته اثر وهذا النوع وان كان يوجد في كثير من الجهات الاَّ ان اكثر وجوده بالارض الجديدة وهناك يصطادون منه كل سنة شيئاً كثيراً يدخلونه في ماكلهم واهل الجهات الشمالية جميعاً يقولون ان الصيادين عندهم اذا خرجوا للصيد في ايام الحر وبعدوا عن شاطئ البحر بعض اميال يرون في بعض الاحيان نقصان عمق الماء من تحت زوارقهم بغتة حتى ينزل الى نحو ثلاثين باعاً بعد ان كان ثمانين فاكثر فيستدلون بذلك على وجود هذا الحيوان ويتحققون انه بين الزورق وبين قاع البحر ويكون ذلك علامة عندهم على وجود كثير من السمك في ذلك المحل فعند ذلك

يلقون سنانيرهم وآلة صيدهم ويغتنمون منه مغنمًا عظيما فاذا اخذ الارتفاع في النقص علموا ان هذا الحيوان يريد ان يظهر على وجه الماء لاجل ان يستنشق الهواء فياخذون في الفرار منه بغاية السرعة فاذا بعدوا عنه ونظروا رأوه قد ظهر على سطح الماء وغطى مقدارًا من البحر يقرب من ميل ونصف ميل ويرون كثيرًا من السمك يتواثب على ظهر الماء وهو في هياج عظيم واضطراب كثير ويرون ارجله قائمة مثل اعواد الشراعات وهو في غاية الصلابة والقوة حتى انه يقدر ان يحتضن السفينة بين رجلين من ارجله ويقلبها في قاع البحر فاذا اراد ان ينزل كان للبحر عند نزوله دوامات وامواج عظيمة حتى انها لو صادفت سفينة لاغرقتها وقد ذكروا في هذا الحيوان كثيرًا من الغرائب والعجائب وان كان اكثرها لا يخلو عن بعض الغلوّ حتى قال بعضهم ان الواحد منه قد يكبر حتى يكون كالجزيرة

فقال القبطان قد حكى لي قبطان امريكاني حكاية غريبة تتعلق بهذا الحيوان فقال كنت ذات يوم في بعض سياحاتي في جهات الهند قريبًا من سواحل افريقا عند جزيرة (سنت هيلينة) فسكن الهواء سكونًا تامًا فلم يمكن المسير فاقمنا هناك ثلاثة ايام ننتظر هبوب الريح وكان قد مضى على المركب مدة ونحن في غفلة عن تنظيفها فلما طالت اقامتنا في ذلك المكان نصبنا السقايل على جوانبها ونزل العمال عليها لاجل تنظيفها واذا بصياح من ناحية

من نواحي المركب فذهبت لاعلم الخبر فوجدت هذا الحيوان قد اختطف رجلين من فوق السقالة باحدى ارجله وانزلهما الى قاع البحر ومد الاخرى لياخذ بها ثالثًا كان قد صعد الى الشراعات فاصابته رجل الحيوان عند وصوله الى اول القماش ولكنها تكلبت في حبال الشراعات فلم يتأت للحيوان تخليصها وبقي الرجل معلقًا بها وهو يصيح ويستغيث من شدة الالم فقام من في السفينة الى السلاح والسنانير والفؤس والحبال وآلات الصيد وبادر بعضهم الى قطع رجل الحيوان المتعلقة بالرجل فسقطت ووقع الرجل مغشيًا عليه فلم يمكث الاّ قليلاً ومات ثم حمل باقي الجماعة على الحيوان بالسلاح والحراب والسنار فاصابه كثير منها وكانوا كلما رأوه ينزل الى قاع البحر يطاولون له الحبال ثم يجذبونه الى اعلى واستمروا على ذلك مدة ثم هبط الحيوان دفعة واحدة فانفلت من ايديهم وانقطعت منه قطعة عظيمة بقيت في الحبال وقد قاسوا ما قطع من رجله فبلغ طوله خمسًا وعشرين قدمًا في غلظ نصف متر ونسب ما بقي من رجله الى ما قطع فقدرت على هذه النسبة رجله باربعين قدمًا تقريبًا في غلظ متر عند راسها

قال يعقوب فاعتراني مما شاهدته وسمعت به ما لا مزيد عليه من القلق وبقيت طول النهار في وجل فكنت كلما رأيت موجة على بعد ظننتها حيوانًا من هذا النوع وانه يجري خلفنا ليدركنا فاشتد خوفي وفزعي وكان الملاحون يضحكون مني ويسخرون بي

لكثرة اعتيادهم على اهوال البحر وعجائبه وقلة معرفتي بذلك فكنت اتخيل انه ليس في المخلوقات اعجب من هذا الحيوان وصورته وكانت صورته مرسومة دائمًا في مخيلتي لا تفارقني في ليل ولا نهار وربما كنت اراه في النوم فاقوم من نومي فزعًا مرعوبًا فلما رأى ذلك السائح ما بي من الكآبة رثى لي واخذته الشفقة بحالي واخذني بجانبه وصار يسليني ويذكر لي نوادر وحكايات ليزيل بها ما في وهمي الى ان قال لي الا تعلم ان عجائب البحر اعظم من عجائب البر واكثر وما نظرته او سمعت به ليس شيئًا بالنسبة لما لم تره ولم تسمع به



المسامرة السابعة والسبعون

حية البحر والهائشة

(من حكاية يعقوب)

ومن اعجب حيوان البحر وحيتانه (البال) المعروف بالهائشة واعجب منه حية البحر وكل ما في البر والبحر من حيوان ليس باعجب من نوع الانسان حيث كان بتدبيره وقوة عقله لا يغلبه شي من ذلك كله مع صغر جثته وضعف بنيته فتراه يحتال على اعظم حيوان حتى يقع في قبضته ويدخل تحت تصرفه فيفعل فيه ما شاء متى شاء فقلت له ما هذه الهائشة وما حية البحر فقال اما حية البحر فقد كثر كلام الناس فيها قديما وحديثا ولغرابتها وبشاعة صورتها كان منهم من يقول بوجودها ومنهم من ينكرها مع انها مذكورة في كتب كثيرة قديمة وحديثة وقد ذكر لها حكايات غريبة

ونوادر كثيرة واقدم ذلك ما ذكر في التوراة من ان (ليفا طان)
وهو الثعبان البحري له اسنان مفزعة وعلى ظهره قشور كبيرة كالدرق
بعضها فوق بعض وعيناه براقتان كانهما يرميان بالشرر واذا فتح
فمه خرج منه لهب وكذلك انفه اذا تنفس ظهر منه شرر لم تكن
تؤثر فيه الاسلحة التي كانت مستعملة في الازمان القديمة كالسيف
والمقلاع والنشاب وعند ظهوره يحدث للماء دوامات وتموج عظيم
ويرى الماء كانه يتلهب وقد وصف هذا الحيوان بعض المؤلفين
بانه يقدر على ان يبتلع الفيل واكثر وجوده في بحر الهند ويبلغ طوله
عشرين ذراعا ويعبر بحر الهند سابحا واذا مر في بعض سياحته على
بعض الجزائر فزع اهلها منه وخافوا خوفا شديداً ولم تشتهر معرفته
والعلم بوجوده الاَّ في سنة ١٧٥٢ للميلاد الموافقة لسنة ١١٦٦ للهجرة
بناء على ما نقله السائحون والملاحون عن اهل البلاد الشمالية
كسكان (السكنديناوة) وغيرهم وقد قالوا انه نوعان احدهما لا
يعيش الاّ في البحر والاخر يعيش في البر والبحر وهذا الاخير يبقى
في البر الى ان يكبر ويعظم جسمه فتعسر عليه الحركة خارج الماء
لثقل جثته فاذا رأى من نفسه ذلك تحول الى البحر ليقيم فيه وعند
ذلك يسمع لمشيه بين الاشجار والغابات صوت من مسافة بعيدة
فيدك كثيراً من الشجر والمباني التي يمر عليها في طريقه الى البحر
وزعم بعض السائحين ان هذا الحيوان يخرج بالليل الى السواحل
الصخرية ويأخذ ما يصادفه من السفن كل ما قدر عليه وحكي

بعض الملاحين انه رأى بقرب بعض الجزائر ثعبانا من هذا الجنس يسبح فوق الماء كما يزحف الثعبان البري على الارض ويغير ثوبه مثله وان طوله خمسون قدما وجميع ما قيل في هذا الحيوان يدل على ان راسه كراس الفرس وانه يقذف من انفه ماء فيرتفع الى الجو ارتفاعا عظيما ولا يرى هذا الحيوان في الغالب الاّ اذا كان الهواء ساكنا والجو معتدلاً واهل (نرويج) يقولون ان هذا الحيوان قد يهجم على السفن فيغرقها بثقل جسمه ثم يلتقط رم الغرقى من الماء وبعضهم يقول انه اذا قرب من السفينة يرفع راسه من الماء الى اعلى السفينة ويلتقم بفمه من اراد ممن براه على ظهرها وانه يفر من رائحة المسك ولذلك يضعون فوق مراكبهم شيئا منه فلا يقربها وفي شهر اغسطس سنة ١٨١٧ للميلاد وسنة ١٢٣٢ للهجرة وصل الخبر للمجلس العلمي بجهة (ايتازوبي) من جهات امريكا بظهور حيوان بحري عظيم الخلقة بشع المنظر يشبه الثعبان في شكله وحركته ظهر عندهم علي بعد ثلاثين ميلاً من ناحية (بوستون) فانتدب من الجمعية بعض اعضائها لمشاهدة ذلك الحيوان والوقوف على حقيقته وشرح ذلك في تقرير يعرض على المجلس فتوجهوا الى تلك الناحية وكتبوا تقريرًا بما شاهدوه يتضمن انهم رأوا هذا الحيوان فوجدوا طوله مائة قدم وقطره عشر اقدام وحركته سريعة وانه تارة يسير على استقامة وتارة يسير بانعطاف ويكون راسه في الغالب مرتفعا عن الماء بقدر قدمين وانه يخاف من الآدمي ولم

يعهد منه اذى لاحد ولا ياتي الى البر الاّ لخلع ثوبه فاذا خلعه عاد سريعًا الى لجة الماء وفي الجهات الحارة كثير من حيات الماء غير هذا الثعبان الهائل وكلها شكله مستدير وله اذيال مفترشة يستعملها في سباحته كالمجذاف واما (البال) المعروف بالهائشة فهو اكبر الحيوانات على الاطلاق برّيها وبحريها وحشيها وانسيها وهو انواع منها ما جلده املس وما ليس كذلك ومنها ما له اجنحة وما ليس له ورأس الجميع كبير مستطيل وفمه كمحل متسع مفتوح من الامام منطبق من جهة الخلف وفي ناحيتي الفم من اعلاه مكان الاسنان صفان من صفائح فوق بعضها قرنية المادة سوداء اللون تفصل عن بعضها وتباع لاغراض مختلفة وطرفها الداخل ملتصق بمادة خيطية موجودة داخل الفم واما فكه الاسفل فمجرد من الاسنان والصفائح وله شفة عريضة سريعة الحركة عرضها بقدر تلك الصفائح فاذا كان الفم منطبقًا غطت المسافة التي بين الصفين فاذا تدلت ظهر عند ذلك فتحة كبيرة فيدخل فيها جزء عظيم من الماء ومعه بعض حيوانات صغيرة ثم يخرج الماء من بين هذين الصفين وتبقى جميع الحيوانات التي كانت بالماء عند دخوله كالسمك الصغير والمحار فيكون منها غذاوه واما الحيوانات الكبيرة فانها اذا رات تموج الماء الداخل في فمه هربت وبعدت عنه وانفه في اعلى راسه وفيه خروق فاذا اراد استنشاق الهواء دخل معه من تلك الخروق مقدار من الماء فيجتمع في محل مخصوص من جهة الخلف وحين يكون في

جوف الماء تضيق مجاري حلقه فلا يصل الماء الى رئته فاذا اراد اخراج الهواء الفاسد ضغط على مخزن الماء فيخرج ما فيه من الهوا ومعه بعض ابخرة مائية ولهذا يرى دائماً من جانب راسه خيطان من الماء مرتفعان الى الجوّ كالعامودين ولكون غذائه لايكون الا من حيوانات صغيرة اقتضت الحكمة ان يكون حلقه ضيقاً بخلاف فمه فانه واسع جداً ومن هذا يعلم انهُ لاصحة لما قيل من ان هذا الحيوان قد يبتلع الرجل ولكن لا يخفى ان عادة الناس لاتميل الا لسماع المستغربات فكثيرا ما يمزجون المبالغة والكذب بالحقيقة و يخلطون بعضها ببعض ويصفون الشيء الغريب باغرب مما هو عليه وان كان لا اصل لهُ وتارة يجعلون لهُ مقادير فاحشة تزيده غرابة على غرابته وتمنحه من الشناعة والفظاعة فوق ما يستحقه باصل خلقته اغراقاً في الوصف واغراباً في القول فان كان المتكلم ممن يوثق بهِ اخذ الناس قولهُ بالقبول من غير مناقشة ولا بحث فيجري على الالسن حتى يملاء الارض وينتقل من جيل الى جيل فمن ذلك هذا (البال) فانه لما كان اكبر الحيوانات جعل له اغرب الصور واكبر المقادير فتارة جعلوا طوله تسعمائة قدم وتارة جعلوه اكبر من ذلك حتى قال بعضهم ان سفينة قد سارت بجنبه ثلاثة ايام ما بين راسه الى ذنبه وقال بعضهم ان الدنيا كلها على ظهر هائشة تتحرك بحركتها وتسكن بسكونها وجعل ذلك سببا لوجود الزلازل التي تحدث فيها وبعضهم يزعم ان الشيطان كان لامها علي تحملها هذا

الحمل الثقيل فهمت بالقاء الدنيا من فوق ظهرها فامرها المولى باستمرارها على ما هي عليه ومن مبالغة الصينيين في شانها قولهم انها اذا تحركت في البحر ظهرت حركتها في اربعمائة وثلاثة وثلاثين فرسخا بحريا وانها اذا انتهت في الكبر وتقدمت في العمر صارت كالجبال العظيمة الشاهقة وقال بعضهم انها تحب من انواع السمك الطوبار والبوري والبقر البحري فتتبعها في سيرها فتقع بين تلال الرمال عند نزول البحر فلا يمكنها التخلص فاذا تحركت فرقت الرمل وجعلته في جنبيها كالجبال فيشعر بها اهل تلك الجهة فياتون اليها فيقطعونها وزعم بعضهم انها تقصد السفن فتهشمها بين فكيها وتاكل ما بها الى غير ذلك مما لا يعول عليه ولا يصغى اليه وكذلك قول بعضهم انها قد تقف في جهة من البحر مدة فيتراكم فوق ظهرها كثير من الطين والرمل وزبد البحر حتى تكون كالجزيرة فترسو عليها المراكب ويقيم اهلها على ظهرها اياما وليالي وهم لا يشعرون بها والصحيح من ذلك كله ان طولها خمسة وثلاثون مترًا ولها اجنحة فوق ظهرها تعوم بها وراسها عظيم جدًا وعيناها بالنسبة لراسها صغيرتان جدًا واذنها لا ترى الاَّ قليلاً وفي فكها الاعلى من خمسمائة صفيحة الى ستمائة وجلدها صلب املس ليس به قشر وتحته دهن في سمك قدم فاكثر ويعمل من صفائح الفلك الاعلى عمد الشمسيات والصدور التي تلبسها نساء الافرنج

قال الشيخ ما ذكرت من ان طولها يكون خمسة وثلاثين مترًا

على الصحيح يقرب مما قاله الدميري في حياة الحيوان فقد قال ان طولها يبلغ خمسين ذراعًا وقد قرأت في بعض الكتب المترجمة من اللغة الانكليزية ان طولها في البحر الشمالي يبلغ نحو تسعين قدمًا وهناك يعتادها الصيادون كل سنة ويصطادونها فاما في المحال التي تعيش مطمئنة تامة الحجم فينيف على مائة وخمسين وان رأسها عبارة عن ثلث طولها وعيناها في جرم عين الثور ولكنهما في قفاها فتمكن لها رؤية الاشياء من الخلف والامام وذنبها هلالي فاما لونها فليس على نمط واحد ففيه اختلاف عظيم ربما كان سببه السمن او غيره ومن طبع هذا الحيوان ان لا يطمح لغير زوجه ولا تمنعه مخالطته ومجانسته مع الغير عن الاقتصار عليها ثم انه وان يكن اكبر جميع الحيوانات الاَّ انه اودعها واهدأها جاشًا وبسالته انما هي في الدفاع عن نفسه وعن ذويه وله اعداء كثيرة تتعرض له وتقصده فقد يلتصق به نوع من السمك صغير له جلد صدفي فيرتفع في شحمه واخر يسمى السمك السائف وهو ايضًا اعظم داهية عليه بعد الانسان وربما سلم من مكر خصمائه المائية باعمال القوة او بالهرب فاما من ابن آدم المسلط على جميع المخلوقات فهيهات له ذلك فانه يتبعه بحيلة وتصرف ناجح يستحثه على ذلك طمع التجارة فيه او سد خلة المعيشة وقد علم بالتحقيق انه يتأهب في كل سنة عدة سفن لصيد هذا الحيوان في شطوط (كرتيلاند) وفي البحر الجنوبي فينشبون فيه نحو كلاب مربوط فيه حبل فاذا احس بالجرح جرى

مسافة طويلة فيتركونه ريثما يتنفس ما شاء ثم يرمونه بكلاب اخر الى ان يكل ويبلغ منه الالم ويسيح منه الدم فيؤخذ حينئذٍ ويقطع منه دهنه ويوضع في براميل ثم يذاب ويجعل زيتًا يدخل في عمل الشمع واجزاء الدباغة وصناعة بعض الثياب والظاهر ان له مدخلا عظيمًا في التجارة

فقال يعقوب كانت التجارة فيه واسعة فيما سبق لكثرة وجوده اذ ذاك ثم لم يزل يتناقص ويغلو ثمنه شيئًا فشيئا الى الآن وكان المتحصل من هذا الزيت سنة ١٨٥٩ للميلاد وهي سنة ١٢٧٦ للهجرة الفين وثمانية وسبعين برميلا وفي التي بعدها الفا وتسعمائة وفي التي بعدها الفا وسبعمائة فترتب على هذا النقص افلاس شركات كومبانيات عديدة كانت مقتصرة على التجارة في هذا النوع وهذا النقص انما حصل من قلة وجود هذا الصنف فقد علم من الاخبار المحفوظة ان الذي اصطاده الصيادون منه في سنة ١٦٩٧ من الميلاد نحو الف وتسعمائة وسبعة وخمسين والذي اصطيد من سنة ١٧١٩ الى سنة ١٧٧٨ منه نحو ستة الاف وتسعمائة وستة وثمانين ومن سنة ١٧٨٤ الى سنة ٢٨٤٠ نحو ثلاثة الاف واربعمائة ومن هذا التاريخ الى سنة ١٨٥٦ للميلاد وهي سنة ١٢٧٣ للهجرة لم يضبط الا ثلاثة الاف فقط ومن هذا يعلم السبب في تناقص كمية هذا الزيت في كل سنة عن السنة التي قبلها وهو السبب في غلو سعره ففي سنة ١٨٢٠ كانت اقة الزيت منه تباع بستين سنتيما

واقة صفائح الاسنان اذا كانت على حالها الاصلي بثلاثة من صنف الافرنك ونصف واذا كانت مقطعة قطعا بعشرة منه وبلغت اقة الزيت في سنة ١٨٦٣ افرنكا واحدا وثمانية عشر سنتيما وثمن الصفائح غير مقطعة ثلاثة عشر فرنكا والمقطعة مثلها ومقدار ما دخل في سنة ١٨٦٣ من صفائح الاسنان تبلغ قيمته مليونين من الافرنك تقريبا ولحمه يوكل بل هو مرغوب جدًّا عند بعض سكان الجهات الشمالية وبينه وبين لحم البقر قرب في الطعم والعادة ان ينضجوه في الماء بعد تقطيعه وجميع اهل اوروبا ياكلونه ولكن على حسب ما اعتادوا في ذلك فمنهم من يضيف له الحمص او غيره حين الطبخ ومنهم من يقليه في الزيت

قال يعقوب وحين كنا نخوض في حديث (البال) كان بالقرب منا رجل من ضباط المركب عمره يقرب من اربعين سنة وله علم باحوال البحر والصيد كان يسمع حديث السائح بتمامه فلما فرغ السائح من كلامه دنا منا وقال ان اصطياد الهوائش من البحر اصعب شي ويحتاج الى عدد واحتراسات وقوة وجرأة وصبر على اهوال البحر وشدائده وكان يسافر في الزمن السالف لصيد الهوائش مراكب عديدة من جميع جهات اوروبا ويجتمع منها في الجهات الشمالية المتجمدة اساطيل عظيمة وقبل وجود السفن البخارية لم يكن الا سفن الشراع فكانت مدة الصيد ذهابا وايابا تبلغ اربعة اشهر واكثر اذا كانت سليمة العاقبة وكان كثير من السفن يفقد

بين الصخور الثلجية فيموت ملاحوها وكل من فيها ولا يصل خبرهم لبلادهم الاَّ بالاشاعة واما الان فصار السفر على سفن التجار اسهل واسرع ولكن لا يسافر لصيد هذا النوع الاّ سفن قليلة من فرنسا والانكليز وامريكا وهولاندة وغيرها لعدم وجوده بكثرة كالاول وكانت آلات الصيد رماحًا طوالا وحرابا كبيرة وصغيرة كل واحدة منها عبارة عن قطعة حديد احد طرفيها مركب في نصاب من الخشب والطرف الاخر على شكل رقم الثمانية من الارقام الهندية هكذا (٨) وقد جعلت على هذه الصورة لتنشب في جسم الحيوان فاذا دخلت فيه فلا يكاد يتخلص منها ويستصحبون مع هذه الآلات حبالا طويلة يبلغ طول الواحد منها ثمانين قامة فاكثر الى مائة قامة وفضلا عن هذه الآلات لا بد من وجود ستة زوارق او اكثر ويكون في كل سفينة نحو اربعين رجلا غير القبطان والضباط والطبيب وهم منقسمون الى قسمين قسم يمسك الرماح والحراب لاجل طعن الهوائش بها حين رؤيتها وقسم هم الملاحون فيستعملون مدة السفر في خدمة السفينة وعند الصيد في اعمال المجاذيف لاجل تتبع الهائشة واقتفاء اثرها حين ترى في موضع من البحر فاذا وصلت السفينة محل الصيد ووجدت الهائشة تلقي الزوارق في البحر وتتفرق الرجال بحيث يكون كل ستة او سبعة منهم في زورق ويسيرون باستعمال المجاذيف الى ان يكونوا قريبًا من الهائشة وعند ذلك تقوم الرجال التي بايديها الرماح والحراب

مربوطا بها الحبال فيمسك الرجل المزراق بكلتا يديه ويهزه هزاً موزوناً حتى اذا رضيه رمى به الهائشة فيدخل في جسمها على حسب قوة الرامي وحذقه فاذا احست السمكة بالجرح غاصت في جوف البحر وقد قبض على طرف الحبل المربوط في المزراق رجل من الملاحين فيراخي لها فيه فان لم يكفِ ربط فيه غيره ولا يزال يطاولها الى ان تظهر على وجه الماء في جهة من البحر وللصيادين من الحنكة والتدرب ما يعرفون به اين تظهر السمكة من الماء بعد ان تغطس ويستدلون على ذلك باتجاه ذنبها حين تنزل فيسيرون الى قرب المحل الذي يتعين عندهم انها تظهر منه فمتى ظهرت من الماء حملوا عليها بالمزاريق والحراب فلا يزالون يضربونها الى ان تزهق روحها ولا يخفى ان الهائشة من وقت طعنها الى ازهاق روحها يحصل منها حركات عنيفة قد توجب احيانا غرق الزورق ومن فيه خصوصا اذا كان الممسك للحبل غير مستعد لمطاولتها واطلاق الحبل لها بالتدريج الذي يترتب عليه ان تكون حركتها هينة وكثيرا ما تضرب الزوارق او من فيها بذنبها فانها عند مكابدة طلوع الروح يكثر اضطرابها وهياجها ويكثر ضربها الماء بذنبها ويخرج منها دم كثير يتغير به لون الماء الذي حول الزوارق ويبقى متغير اللون بعد موتها مدة من الزمن فاذا ماتت الهائشة بادروا الى قطع ذنبها ثم يربطونها بحبل الى زورق ويربطون باقي الزوارق به ويسحبونها في الماء الى ان يصلوا بها الى

السفينة وترفعها الرجال بالبكرات والحبال ثم يقطعونها ويخلصون الدهن من اللحم ويذيبونه على النار لاستخلاص الزيت ولهم في ذلك طرق مختلفة

وقد اخترع في امريكا لصيد (البال) الهائشة جلة ترمى بالآلات النارية فتدخل في جسمها فتمزق في داخل الجسد فيموت الحيوان في الحال واخترع اخرون جلة ادخلوا فيها مع البارود بعض موادٍ سمية فمتى دخلت الجلة جسم الحيوان وتصدعت ينتشر فيه السم ويفعل افاعيله فيموت الحيوان في مدة اربع دقائق او خمس. قال وحضرت الصيد بنفسي وسني خمس وعشرون سنة فما رأيت في عمري هولاً اكبر منه وينبغي لارباب هذه الصنعة ان لا يكون للخوف سلطان عليهم بل يكونون بمكانة من الجرأة والقسوة وقوة القلب بحيث لا يهابون الموت ولا يخشون الاخطار ولا تزعجهم الاهوال ويلزم ان يكون قائد الزورق مع ذلك حديد البصر ماضي العزم وان يكون عنده مزيد تبصر وتدبر ومعرفة بما يلزم في هذه الاحوال بحيث متى نظر الهائشة بادر بمن معه الى اجراء جميع ما يستدعيه الحال من الحركات والاعمال لحصول الغرض المقصود بغير اخلال بشي من ذلك فان الهائشة لا يكفي لموتها حربة واحدة او اثنتان بل كثيرا ما يلزم ضربها عشرين او ثلاثين مرة يخاطر في كل منها بنفسه ورجاله فانها متى احست بالجرح والالم هاجت واضطربت فان لم يكن جرحها بليغًا وفي الموضع

الموجب لموتها بالسرعة تاخذ في الطرق المخلصة لها فتغوص في البحر بقوة عنيفة يندفع بها الزورق بسرعة عظيمة تفوق سرعة النبل وقد يتكرر منها هذا الصنع مرارًا عديدة فتظهر على وجه الماء ثم تغطس فيه وتعود وهكذا وتتجه اتجاهات مختلفة وتقطع في ذلك مسافات بعيدة فان لم يكن الصياد متبصرًا كل التبصر متدبراً كل التدبر فربما انقطع الحبل فلا يتحصل عليها او غرق الزورق فانها قد تمر بمواضع فيها صخور من الثلج ومحال جمد ماوها فاذا مر الزورق بهذه الاماكن متتبعًا لها فربما وقع في خطر يؤدي الى تلف جميع الملاحين او ضياع ثمرات تعبهم وتخلف مقصودهم وفي اثناء هذه الاحوال تسمع اصوات مزعجة بعضها من الهائشة وبعضها من ضرب الماء بذنبها مضافًا ذلك الى اضطراب الماء وعدم استقرار الزورق فيكون الهول عظيمًا والخطب جسيمًا فلا بد للرئيس ان يكون في هذه الاحوال ساكن الجاش غير مكترث بما يراه من تلك الاهوال ولا يشتغل باله الاّ بقتل الهائشة ويحتاج ان يكون رجاله منقادين له مطيعين لقوله متبعين لاشارته مبادرين الى تنفيذ اوامره على غاية من السكون والهدء وكل منهم يشتغل بما وكل له من الاعمال مقبلاً عليه بكليته لا يشغله عنه شاغل سواه وكلما بدت لهم فرصة لضرب الحيوان انتهزوها ولا يزالون كذلك حتى يروا شؤبوبَي الماء المقذوفين من خياشيمها قد تغير لونهما من البياض الى لون الدم الاحمر فيعلمون بذلك ان الهائشة اشرفت على الهلاك

وان عملهم قرب على الانتهاء فيهجمون عليها ويزيدون في جراحها حتى ترفع راسها الى السماء وتنظر اخر نظرة الى الشمس نظرة من يئس من البقاء ويخرج النفس الاخير ويدركها الممات وتنقطع منها الحياة

ثم ان كثيرًا من محلات صيد هذا الحيوان في فصل الصيف والخريف يرى لون الماء فيه احمر كلون الدم وسببه ظهور سمك صغير احمر اللون ينتشر في الماء بحيث يملأ فضاءً تسير فيه السفن يومًا فاكثر طول الواحدة منه نحو ميليمترين اثنين وغلظها نصف ذلك ويتكوّن من هذا السمك طبقات كثيرة يبلغ طولها مسافات مختلفة فتارة عشرة اميال ومرة عشرين او ثلاثين ميلا وسمكها يبلغ ثلاثة امتار او اربعة والهائشة تحب هذا النوع اكثر من غيره فمتى وصلت احدى هذه الطبقات تسير الهوينا وتاخذ في صيده فتراها تفتح فاها وتنزل فكها الاسفل فحينئذٍ يدخل فيه ماء وسمك بقدر اتساع الفم وقدره سبعة امتار مكعبة وكلما سارت جهة امامها يدخل ماء جديد بما فيه من السمك والماء القديم يخرج من خلال الاسنان وتستمر سائرة هكذا الى ان تقطع نحوًا من اربعين او خمسين مترا ثم ترفع راسها وتحرك لسانها لضم السمك الصغير وهي تنفث الماء فيخرج ويبقى السمك على شكل كرة قدر النارنجة فتبتلعها وتبتدئ في العمل كالاول

وهذا الحيوان مع كبر جثته وعظم خلقه في غاية من الجبن

والخور فلا يعتمد في طلب النجاة غالبا الاَّ على الهرب والفرار والهزيمة امام العدو

وفي اول فصل الخريف يرى الذكر منه منفردا عن الانثى غالبًا فيظن انه يبحث عنها وتراه كثيرًا في حركات غريبة وتقلبات عجيبة فتارة يتمرغ ويظهر في الما صدره وراسه وتارة يرفع فوق الما قريبا من ثلثه فيتموج البحر من هذه الحركات ويضطرب ويرغي ويزبد وهذه الامور علامة على ندآ غيره من جنسه واستدعا ذوي نوعه فيجتمع كثير منها ويستمر الجميع على هذه الحركات واللعب زمنا طويلا اذا لم يقطعها عن ذلك ظهور مراكب الصيد ومتى حصل بين الذكر والانثى ائتلاف في هذه الجمعية انفردا عن البقية وسارا مع بعضهما فان اصاب الانثى طعنة من الصيادين ترى الذكر يحوم حولها ويحاول خلاصها ويكثر منه ذلك حتى انه ربما حل به ما اراد ان يخلصها منه فيصير كالباحث عن حتفه بظلفه وهذا كله في ابتداء الصحبة وحداثة المحبة فاذا تقادمت المودة ومضت عليهما في الصحبة مدة ضعفت علائق الحب والوفاق وصار ادنى الاسباب موجبا للفراق وهذا النوع يحب الذراري اكثر من الازواج فترى للام حنواً شديدًا على ولدها وتحافظ عليه اكثر من محافظتها على نفسها ولهذا كان من عادة الصيادين اذا رأوا مع الانثى ولدها ان يبادروا لصيده اولاً لعلمهم بانها لا تفارقه فيسهل عليهم بهذه الواسطة صيدها ايضًا فتراها في اثناء مناوشة الصيادين

لابنها تبذل في مساعدته جهدها وتاتي باقصى ما عندها فتارة تدفعه باجنحتها وتارة تدفعه بصدرها فان لم تجد فيه قوة على الهرب حملته على عاتقها وغاصت به في الماء فان لم يتبعها لما اصابه من الجراح لا نتركه بل تستمر على محاولة انقاذه باقصى وسعها وغاية ما عندها فتارة تجذبه ومرة تدفعه وتارة تحوم حوله وتحثه على الفرار والهرب ويرى عليها في اثناء ذلك من اثار الكآبة والحزن ويسمع لها من شدة النفس والصوت ما يدل على شدة تألمها وهول مصابها وتنسى نفسها في اثناء هذه الاحوال بالمرة حتى يكون ذلك سببًا لهلاكها وتقع فيما كانت تخلص منه لولا فرط حبها لولدها وانهماكها على مساعدته وتخليصه وتبلغ زنة الواحدة من هذا النوع مائة وخمسين قنطارًا تقريبًا ان كان طولها عشرين مترا فان كان ثلاثين مترًا كان الوزن على حسبه وطول راسها ثلث طولها كما ذكرت ويختلف عرض فكيها من اربعة امتار الى سبعة وطول سنها يختلف من متر الى خمسة امتار بالنسبة لفمها وقوتها عظيمة جدًا بحيث يمكنها قذف الزورق بمن فيه في الجو الى غاية عظيمة ويوجد على جلدها بعض محار وحيوانات مائية صغار وتلد عادة فرادى ومثنى وولدها حين الوضع يبلغ طوله ستة امتار تقريبًا ومن حين الولادة تنصب عليه رواق الحنو والشفقة فترضعه وتحضنه وتعلمه السباحة

المسامرة الثامنة والسبعون
كاشالو او العنبر
(من حكاية يعقوب)

وفي الحيوانات البحرية نوع هائل يسمى بالافرنجية (كاشالو) وهو العنبر يقرب من الهائشة في الصورة الاَّ ان بينهما في بعض الاعضاء اختلافًا لان هذا الحيوان يوجد في فكه من الجانبين انياب اسطوانية او مخروطية وفي الفك الاعلى انياب غيرها صغيرة جدًّا لا تكاد ترى من اللثة فاذا اطبق الحيوان فمه دخلت انياب فكه الاسفل في تجاويف مقابلة لها في الفك الاعلى وطول راسه قريب من نصف طول جسده وارتفاعه يبلغ مترين تقريبًا

ويستخرج منه مادة بيضاء زيتية تجمد اذا بردت وهذه المادة في اوعية براسه متصلة باخرى في البدن متوزعة فيه فيستخرج مما في

سائر جسده اكثر مما تحتويه الاوعية التي في الراس وقدر ما يستخرج من الحيوان الواحد نحو من اربعة وعشرين برميلا من الزيت وكل برميل يسع مائة واربعًا وعشرين (نبادية) والنبادية مكيال كانت الفرنسيس تستعمله في كيل المائعات ومقداره مائتان واربعون درهما مصريا تقريبًا وهذا الحيوان يقيم على سطح الماء اكثر من الهائشة وفي جوف الماء مدة طويلة كذلك ويستخرج منه ما عدا المادة الزيتية المذكورة دهن يذاب ويستخرج منه زيت مثل زيت الهائشة ولكنه قليل واذا كان هذا الحيوان مريضًا يخرج منه الطيب المشهور بالعنبر فليس هو الاّ من ابرازات يخرجها عند مرضه فتكون فوق الماء او على الساحل قطعا تقرب القطعة من خمس عشرة اقة والصيادون يعرفون مواضعه فيخرجونه منها بمذاري طوال معدة لذلك وقد اخبرني رجل من الامريكانيين ان بعض الصيادين عثر بقطعة من العنبر بلغ وزنها خمسا وستين اقة وليس في ذلك مبالغة منه لان هذا الحيوان يبلغ طوله خمسة وثلاثين مترا ويتغذى هذا الحيوان بالحيوانات الصدفية والحيوان ذي الثمانية الارجل وفيه من الجراة والبطش ما ليس في غيره فلا يرهب شيئًا من حيوانات البحر الكبيرة ضعيفة او قوية ولا يترك شيئًا يصادفه في طريقه سواء كان انسانا او حيوانا فاذا احس بحربة الصياد في بدنه قصد الزورق مع كمال الشهامة والسرعة ويرفع راسه اليه ويحمل عليه فان لم يتحيل الصيادون في خلاص انفسهم في الحين

هشم القارب ومن فيه من الملاحين بين انيابه الخمسين ولهذا كان اصعب حيوان يتقرب منه الصيادون وكل من يروم صيده يلزمه استعمال كثير من الحيل والتدابير للسلامة من خطره ولهذا الحيوان في السير سرعة عظيمة بحيث يقطع في الساعة الواحدة اثنى عشر ميلا واكثر ونفخه متتابع بين كل نفختين ثانية من دقيقة وعدد النفخ خارج الماء يختلف فتارة ينفخ خمس عشرة مرة وتارة عشرين واخرى ثلاثين ثم ينزل في الماء



المسامرة التاسعة والسبعون

تتمة قصة يعقوب

ثم قال يعقوب فهذا ما حضرني الان مما سمعت في هذه الحيوانات واعود لاتمام حديثي في السياحة حسب اقتراح سيدي الاستاذ فاقول قد اقمنا في السفينة التي قدمنا ذكرها عائدين الى بلادنا ثلاثين يومًا لم يكن لنا فيها شغل سوى اشغال المركب وحديث بعضنا مع بعض والنظر الى الماء والجو وكنت اميل كل الميل لسماع ما يقال حولي من الاحاديث واذا سمعت شيئًا كتبته وحفظته عندي خوفًا عليه من الضياع وقد جمعت من ذلك شيئًا كثيرًا في كراريس عديدة وهي الان عندي مصونة اعتدها من خير الذخائر اتذكر بها ما مر عليّ من الحوادث ومن اجتمعت بهم من الناس واذكر بها من احسن اليّ ومن اساء عليّ فهي بالنسبة

لي احسن ثمر اجتنيه واثمن متاع اقتنيه لان طول هذه المدة لم يساعدني الدهر فاكون من ارباب المناصب العالية ولا اكتسبت مالاً يقيني نكبات الايام العادية وقد بلغت خمساً واربعين سنة من العمر وانا لا املك شيئاً غير ما تراه عليّ من الثياب وثلاثين جنيهاً انكليزياً اجرة ثلاثة اشهر كانت لي عند القونبانية اخذتها حين لحقت بحضرتكم وكل ما اكتسبته في الايام السابقة ضاع وذهب سدى فمنه جزء ضاع في مصر وجزء عظيم كنت اودعته عند واحد من الناس فادعى انه سلمه اليّ بالزور والبهتان واقيمت بيني وبينه قضية كانت له عليّ فيها الغلبة لمعرفته بكثير من الناس امكن له بواسطتهم غش المأمورين بالتحقيق فحكموا له عليّ فتخلص وضاع المال عليّ ومع ذلك فانا احمد الله على هذه القسمة ولست متأسفاً على ما فات ولا متكدرا بما صرت اليه من الحال في هذه الاوقات

ولا نبالي اذا ارواحنا سلمت * بما فقدناه من مال ومن نسبِ

فلما انقضت مدة هذا السفر ودخلنا سواحل بلاد الانكليز احاط بجميع من في السفينة مزيد الفرح والسرور والانس والحبور لان كلا منهم كان يترقب الاجتماع باخوته وقرابته واهله واحبته وصار كل يعانق صاحبه ويهنئه بالسلامة ويعده بالاجتماع في اماكن معينة وعلى ذلك وصلنا مينا لوندرة فلبس كل واحد افخر ما عنده من اللباس وتهيأ للخروج وانا كذلك في جملة الناس تهيأت للخروج فاحضرت خرجي واحتملته على عاتقي واردت ان

اخرج واذا بصاحبنا السائح الذي كنت معه حضر لديّ وقال لي ماذا تصنع فقلت اريد الخروج الى المدينة فقال انت رجل فقير ولا تعرف الناس ولك اخت فقيرة محتاجة كل الاحتياج واخشى ان تستهلك ما عندك من الدراهم في الصرف علي نفسك وتبقى صفر الكف فقلت له وماالرأي فقال الراي عندي ان استحسنته ان تكون معي في منزلي فهو خير لك فشكرت صنيعه وحمدت الله سبحانه حيث جعل لهذا الرجل العظيم الحنو والشفقة عليّ ثم اكترينا عربة وضعنا بها ما لنا من المتاع وركبنا معًا وتوجهنا سائرين وبعد توطني اخذت اسأل حتى عرفت محل اقامة زوجة القبطان المتوفي التي كنت جعلت عندها مائتي جنيه فسرت اليها فلما رأتني قابلتني بمزيد البشر والفرح والطلاقة وقالت لي بعد برهة يسيرة اني لما وجدت غيابك قد طال ولم يصلني من اخبارك ما يوقفني على حقيقة الحال جعلت وديعتك التي استودعتنيها في احد بيوت الصيارفة لاجل النمو لتجد اذا حضرت اكثر مما تركت ثم قامت وفتحت خزانة عندها واخرجت منها سند الاستلام وحسبت الربح فوجدته يبلغ مائة جنيه تقريبًا ففرحت بذلك وشكرتها على معروفها وحسن تدبيرها ودعوت لها ولما اردت الانصراف ابت الاّ ان اتغذى معها فاجبت دعوتها وصرنا نتحدث معًا قريبًا من ساعتين سألتني فيهما عن سبب طول الغيبة فانبأتها بقصتي وبما صار لي ولمن كان معي وكيف نجوت من الغرق ووقعت في يد سكان

افريقة فبكت على ما نابني من المصائب والمصاعب وقالت هكذا حال الدهر ثم انها قامت واخذت بيدي وتوجهنا الى الصيرفي واظهرنا له السند فقال الدراهم عندي حاضرة ان شئت اخذتها وان شئت ابقيتها للربح فشاورتها في ذلك واخبرتها ان لي اختًا يتيمة فقيرة تركتها في خدمة خاتون بمدينة (بورك) ومن حين انفصالنا لم يصلني من اخبارها ولا وصلها من اخباري شي ولست اعلم أ ماتت ام هي في الحياة وازيد ان امضي اليها لانظرها فان وجدتها ارسلت لحضرتك خطابًا اعلمك فيه بما يظهر لي في شان الدراهم فاستحسنت رايي وقالت انت عندي في مقام ولدي فلا تتاخر عن طلب ما يعرض لك من حاجة فستجد مني المسارعة الى اعانتك بكل ما قدرت عليه اكراما للمرحوم فعند ذلك قبلت يدها وغيرت السند باسمي وتركت الدراهم عند الصيرفي وصرت معها حتى وصلت لمنزلها ثم توجهت الى السائح واخبرته بقصة الدراهم واستشرته في الذهاب الى (بورك) لاعلم حقيقة خبر اختي وعرفته رغبتي في السفر اليها فوافقني على ذلك وقال لي ان طاب لك المقام ولم ترد ان تعود الى لندرة فاعلم اني لك صديق محب على البعد والقرب فسلني عن كل ما بدا لك ولا تقطع عني اخبارك وان اردت الرجوع الى هذه الجهة فانا على ما تحب فشكرته على ذلك وبتنا ليلتنا فلما اصبح الصباح تأهبت للسفر فذهب معي الى

موقف سكة الحديد وبقي معي حتى ركبت العربة ثم ودعني وانفصلنا

المسامرة الثمانون

سوق في باريس

قال ناقل الحديث فبينما هم كذلك حضر الانكليزي وقرع الباب فقام يعقوب وقال في وقت اخر اتمم لك سياق الحكاية ودخل الانكليزي فتلقاه الشيخ وولده بالتحية والاكرام واخذ يعتذر لهم عن تاخره ويشرح لهم الاسباب التي عاقته ثم سألهم عن حالهم وصحتهم فشكروا الله واثنوا عليه ثم قال الشيخ انا قضينا هذه المدة مع يعقوب في حديث ما جرى له وما رآه في البحر من حين سفره الى عوده

لبلاده فقطعنا الوقت في لذة الحديث واخبره بما رآه برهان الدين بالامس وقال له انا سألنا يعقوب عن تاريخ باريس وطلبنا منه ان يقص علينا اخبارها فاحال عليك واعتذر بقلة ما عنده في ذلك فقال الخواجا حبًا وكرامة وسنجعل مسامرتنا بعد العود من الفسحة في ذلك لاني احب ان تقضوا ايام الاقامة بهذه المدينة في لذة وطيب خاطر واريد ان اكون دليلكم في الذهاب والعود لاطلعكم علي بعض ما لهذه الحاضرة من المآثر الفاخرة والان وقت الطعام فان شئت تطلبه فقال الشيخ لا بأس ثم امر الانكليزي باحضار الطعام في مكانه المعد له وقاموا فاكلوا وركبوا عربة وداروا في نواحي المدينة يتفرجون فاعجب الشيخ بانتظام طرقها وسعتها ونظافتها وحسن اشكال ما فيها من البيوت وما لها من اتقان الصنعة وتناسب الاوضاع واختلاف الصور وزيادة ارتفاع الاماكن وصار كلما ابصر شيئًا واعجبه سأل عنه الانكليزي فيصفه له ويذكر ما حضره من خبر يتعلق به او نادرة تؤثر عنه ويبين له ما طرأ عليه من صروف الحدثان وتقلبات الازمان وتنقلاته من حال الى حال الى ان آل امره الى ما آل ولم يزالوا على ذلك حتى انتهوا الى مكان واسع فيه خلق كثير من نساء ورجال في ازدحام واشتغال ورأوا سقايف من حديد مرفوعة على اعمدة منه وكلها في ازدحام عظيم من كثرة الناس الواردين من المدينة من كل جهة والمنصرفين بعد قضاء اغراضهم فكان الشيخ يرى الناس

في كثرة حركاتهم واختلاف تنقلاتهم وتقاطع مسالكهم اشبه شي بتيارات مياه مختلفة الاتجاه فاعجبه هذا الموضع زيادة عن غيره فاحب معرفة امره وسأل الانكليزي عنه وعن الغرض منه فقال له قبل ان ندخل في شرح هذا المحل نجلس برهة في احد مواضع القهوة لنستريح ونزل الانكليزي ومعه الشيخ وولده ويعقوب فدخل بهم الى قهوة لطيفة الشكل واسعة الارجاء كثيرة الزينة والزخرفة في جميع جهاتها مبلطة بالمرمر وهي تشتمل على عدة اماكن يوصل بعضها للاخر وفي كل مكان منها موائد (ترابيزات) بعضها من الحديد وبعضها من الرخام وحول كل واحدة منها جماعة من نساء ورجال بعضهم يقرأ اوراق الاخبار وبعضهم يلعب باوراق القمار وبعضهم يلعب النرد وغير ذلك من آلات اللعب وبعضهم يشرب قهوة وبعضهم يشرب غيرها من انواع المشروبات فاخذ الخواجا مكانًا خاليًا في احد الاركان وجلسوا فيه جميعًا ثم بعد ان جلس كل منهم في مكانه واحضر خادم القهوة جميع ما طلبوه قال الانكليزي ان هذه السقائف العالية والابنية الخالية معدة لبيع جميع انواع الماكولات والاسماك واللحوم والفواكه والخضراوات ولم تكن قبل هذه الايام على ما هي عليه الان من الحسن والانتظام الذي تراه بل كانت في غاية الضيق والوخامة من عدم التفات الحكام وارباب الزعامة فكانت من كثرة العالم الذين يشترون ويبيعون بها يقع ازدحام يضر بالمارين لضيق دروبها وكانت احوالها

ليست مضبوطة وامور الصحة بها مهملة غير مربوطة فكانت تتراكم بها القاذورات وتتعفن منها الطرقات وربما اضرت بصحة اهل الازقة والحارات المجاورين لها فكثر التشكي من سكان تلك الاماكن حتى من اصحاب البضائع ومأموري الضبط والصحة لعدم تمكنهم من اجراء ما تقتضيه المصلحة فلو رايته وهو على ما كان اولاً عليه لانفت نفسك من النظر اليه ولكن لما كانت هذه المدينة بسبب كثرة توارد الناس اليها آخذة في اتساع البناء تكلم ارباب المجالس في هذا الشان فاستقر رايهم على ازالة ذلك الضرر ثم عرضوا ذلك على ارباب الحكومة فصدقوا عليه وصدر الامر للمهندسين بامضائه وعمل رسم بما يقتضيه التنظيم فرسموه وكتبوا معه ما يلزم لمصلحة البلد وصحة اهلها في الحال والاستقبال وقدموه ولكن لم يظهر لذلك اثر الاّ في عهد قريب لانه لم يبدأ في اساسها الاّ في سنة ١٨٥١ للميلاد مع ان التشكي والامر بازالة الضرر كانا قبل ذلك بنحو اربعين سنة وقد تم في سنة ١٨٥٦ وهذا الميدان كله عبارة عن عشر سقائف مغطاة بالواح من التوتيا مرفوعة على عمد من الحديد ومساحتها بما فيها من الخانات والطرقات تبلغ ستين الف متر مسطح عبارة عن اربعة عشر فدانًا مصريا ونصف فدان تقريبًا وتحت كل بسقيفة من هذه السقائف ثلثمائة وخمسون دكانا وهي كما رأيت منقسمة الى قسمين كبير وصغير يفصل بينهما شارع عرضه ثلاثون مترًا فالقسم الكبير تبلغ ارضه عشرين الف

متر والصغير عشرة الاف والباقي وهو ثلاثون الف متر مساحة الطرق والميدان والجنينة التي رأيتها فبسبب هذا الاتساع صار هذا المحل من احسن ما يرى والطفه فهو وان كان معدًّا لبيع هذه الاصناف الاَّ انه صار معدودا من المحلات التي تهرع اليها الناس وتجتمع بها للتفسح والاستئناس وتحت هذه السقف جميعها دور من البناء كله مخازن في اعلا كل مخزن فتحة للاستضاءة ودخول الهواء وبين تلك المخازن وبعضها طرق عليها قضبان من الحديد موصلة الى السكة العمومية فترى العربات تسير في باطن الارض بانواع البضاعة ولا يشعر بها احد ممن هناك من الباعة فبهذه الوسائل كثر ورود جميع اصناف الماكولات من غير ان يترتب على ذلك ادنى ازدحام ولا نوع ايلام وصار اهل المدينة على ثقة من وجود ما يحتاجون اليه لوروده في وقت معين من جميع الجهات وكذلك اهل البضائع صاروا في امن على بضائعهم من العوارض التي كانت تعرض لها قبل ذلك هذا خلاصة ما يتعلق بذات المكان قديما وحديثا واما ما يباع فيه في كل سنة من البقول ونحوها فشيء كثير وقد احصي ما بيع فيه سنة ١٨٥٦ من الميلاد فكان مقدار ما بيع من صنف سمك البحر خاصة ٨٫٧٨٥٫٣٢٠ كيلو جرام والكيلو جرام عبارة عن اربعة اخماس اوقة مصرية اعني ثلاثمائة وعشرين درهما ومن سمك الماء العذب ٩٠٨٫٢١٢ كيلو جرام ومن الزبد ١٧٫٦٠٣٫٢٢١ كيلو جرام ومن صنف البيض ما

بلغ ثمنه ٨٦٠٨٦٧١ من الافرنك ومن اصناف الخضراوات ما بلغ ثمنه اربعين مليونًا من الافرنك ومن اللحم ٢٨١٣٦٤٧٢ كيلوجرام ومن النبيذ المباع في براميله على اختلاف اجناسه مليونين من اللترات واللتر رطل انكليزي فبلغ ثمنه نحو خمسين مليونا من الافِرنك وما من سنة الاّ وتزيد على ما قبلها

فقال الشيخ كذلك يجب ان تكون المدن التي وضعها على ان تكون مسكونة باهل الصناعات واصناف التجارات يرد اليها القرويون والغرباء بانواع الحيوانات الموقرة بالبضائع المختلفة وهذا من الامور المعقولة التي تضطر اليها طبيعة الاجتماع البشري فكلما مست الحاجة لسعة الطرق لزم ان توسع حتى تندفع الحاجة ويأمن الناس من الاصطدام والاصطكاك ويسلموا من اذى الازدحام فعند ذلك نظر الى الشيخ صاحبه كانه يذكره امر مصر فقال سألت بعض المعمرين بمصر عن الاسباب التي دعت اهلها لتضييق الطرق فقال حدثني بعض اسلافنا بما عاينت طرفًا منه وهو ان مصر كانت مسكونة بامم مختلفة الطباع متباينة الاخلاق لا تزال العداوة بينهم قائمة والشرور محتدمة فكان من عرف نفسه بالقوة متسلطًا على الضعفاء بالنهب والسلب مجاهرة يجوسون خلال الديار ويتسورونها فرأى الناس مدافعة تلك الشرور بتضييق الطرق حيث لا يمكن للكثير ان يمروا بها جملة واحدة واذا دخلوا اوزاعا تمكن الناس ان يحذفوهم بالاحجار فقل النهب من داخل البلد وبقيت كثيرة

في الاطراف وبذلك السبب كان المصريون يتخذون ابواب الدروب صغيرة مستورة الوجه بالمسامير المفرطحة الروس لتكون لها بمنزلة الدروع فلما هدأت الفتن وعم الامن وغلبت السلامة اخذت مصر في محاسن الاحوال ولطائف الاشكال من طرق بالغة في السعة وابنية متراصفة متناسقة تؤمن فيها غوائل المرور ويطيب الهواء وتصلح للاقامة وذلك من حسنات الدولة القائمة بامرها حرسها الله وكان لها رداءً معينًا وركنًا حصينًا فانها لم تزل ناظرة في اسباب العمران واتساع دائرة الامن والرفاهية وحسن تعاون طوائف الناس بعضهم لبعض وشواهد الاحوال ناطقة بان ذلك لا يزال على احسن غاياته فالناس مقبلون على تعلم الالسنة وقرآة الكتب واجتناء ثمرات العلوم ومن العادة ان الانسان اذا ترك حالة الى احسن منها بذل جهده في تغيير ما لا يرضاه فاين مصر الآن مما كانت عليه ولو بعد بقايا كثيرة من ضيق الطرق واختلاف الابنية بالدخول والخروج وسوء الوضع الموجب لوخامة الاهوية واضطراب الامزجة وتزاحم الناس واشتغالهم بما يقل نفعه ويكثر خسرانه ثم ما احسن اتخاذ مثل هذا الميدان فانه ربما كان سببًا لكثير من المرافق كسرعة عود ذوي الاشغال الفلاحية الى اشغالهم بعد فراغهم من شان منقولاتهم وكضبط الاسعار وقلة التغابن فان الفلاح يبيع بضاعته جملة ثم اهل التجارة فيها يوزعونها حسب طلب الجهات بخلاف ما اذا كان الفلاح يتولى توزيعها بنفسه

عطلته زمناً طويلا وربما بارت عليه وبالجملة فاتخاذ الطرق لتسهيل المعاملات بحسب الامكنة والازمنة امر لا شبهة في حسنه

فقال الانكليزي هو كما قلتم لا سيما اذا كانت الامة مراعية للشركة العامة والمصالح الشاملة غير مهملة لها وقتا ما ثم قاموا سائرين وهم يتحدثون فيما يمرون عليه الى ان وصلوا محلهم فاجتمعوا جميعا في غرفة الشيخ فطلب برهان الاذن من والده بالتوجه مع يعقوب الى البالّو فاذن له وبقي الخواجا مع حضرة الشيخ

المسامرة الحادية والثمانون

باريس

فقال الخواجا قد طلبتم مني ملخص تاريخ هذه المدينة واصل وضعها فقال له الشيخ نعم فقال لا يخفى ان حالها الآن ليس كحالها في غابر الازمان بل لا نسبة بين الحالين لان جميع ما تراه من الابنية الحسنة والشوارع الواسعة المستحسنة وان كان كله من نتيجة افكار المتقدمين الاّ انها لا يوجد بها الآن اثر من الآثار الاولى لان كل جيل اتى يغير من اثار قبله فبتداول الازمان على هذه المدينة وصلت الى هذه الدرجة التي صارت بها منفردة بين المدن وبلغت من الفخر الغاية ومن الشهرة النهاية حتى شهد لها غيرها من سائر المدن انها فازت بجميع انواع اللطائف وحازت اصناف الزخارف ومع ذلك فلم تزل كل يوم تنتقل من حال

الى احسن وبتجدد بها من انواع الحسن في كل يوم ما لا يتجدد بغيرها في زمن فهي في الثروة ليس لها مثيل وما تبلغه في زمن قليل لا يصل اليه غيرها في زمن طويل وهلم جرا وكل من رآها في سنة ثم رآها في اخرى قال انها تغيرت الى شكل احسن مما كان . وليس في الامكان حصر ما بها من الغرائب ولا ضبط ما يحدث فيها من العجائب فان الانسان ولو اطال بها المقام واتخذها وطنًا مدة من الاعوام لا يمكنه حصر بعض ذلك ولا الوقوف على ما يحدث فيها كل يوم من البناء والمسالك ومع ذلك فاني اذكر لحضرتكم ما يحضرني من تاريخها فاقول لا يخفى ان بين كل مملكة وكرسيها ارتباطا كارتباط الجزئيات بالكليات لان كرسي كل مملكة اصل في حوادث مملكته وحوادث كل مملكة راجعة الى كرسيها سواء كانت الحوادث دينية او دنيوية فمن اراد التكلم على احداهما اضطر الى التكلم على الاخرى وشرح الكلام في هذا يطول فلا نذكر الاَّ ما هو ضروري فنقول

من المعلوم ان الجزء اصل للكل وان الفردية سابقة على الزوجية وان العدم سابق على الوجود وان اصل الاعداد الواحد فاذا تمهد ذلك فلا مانع من ان يكون اصل كل مدينة او قبيلة ناس قليلون ثم يتزايدون شيئًا فشيئًا اما من نسلهم او ممن ياتي اليهم طمعا في ارزاقهم او احتمائه بهم فهذا هو اصل اتساع المدن والقبائل وكثرة اهلها .

فقال الشيخ هذا كله مقبول ومعقول وقد اصابوا فيما فعلوا حيث تخيروا هذا الموضع وجعلوه مقرا لهم فقد وجد فيه ما ذكروه في اتخاذ المدن حيث قالوا يجب في كل موضع اريد اتخاذه مدينة ان يكون مشتملا على ما يقي من المضار وتسهل به المنافع والمرافق فاما ما يقي من المضار فبأن يدار حولها سياج الاسوار وان يكون وضعها في ممتنع من الارض اما على جبل ليصعب على العدو صعوده واما ان يحيط بها بحر ليصعب عليه عبوره وكذلك مراعاة الوقاية من العوارض الجوية بان تكون طيبة الهواء لان الهواء اذا كان خبيثًا بان كان ساكنًا او مجاورًا لمياه فاسدة او لمناقع متعفنة اضر بما حوله من انسان وحيوان كما هو مشاهد واما ما تسهل به المنافع والمرافق فامور منها وجود الماء العذب والمرعى وقرب المزارع والاشجار منها للاحتطاب والبناء لان قرب ذلك يسهل على الساكن مرافقه ومنها قربها من البحر لتسهيل الحاجة القاصية من البلاد النائية فاذا لم تراع هذه الامور في المدينة قبل اختطاطها اسرع اليها الخراب كما وقع في بعض مدن العرب التي اختطوها بالعراق وافريقة والكوفة والبصرة والقيروان حيث لم يراعوا فيها الاَّ الأهم عندهم من مرعى الابل وما يلزم لهم من الشجر ولم يراعوا الماء العذب ولا المزارع ونصوا ايضًا انه يجب في المدن الساحلية ان تكون في جبل او بين امة موفورة العدد والعُدد للاستنصار بها اذا دهم العدو لان المدينة اذا لم يكن بقربها عمران ولا طريقها

وعرًا كانت طعمة لكل من ارادها واظن ان هذه الامور جميعها كانت متوفرة فيها حين وضعها

فقال الانكليزي لا شك ان معظم هذه الامور متوفرة في هذا الموضع لان النهر موجود فيه وكذلك هوآوه خالص نقي والحجر عندهم كثير للبناء به بدل الخشب فهذا هو السبب في اختيار هذه البقعة والاقامة بها وكان ابتداء وضعها حين كانت الارض كلها سائلة وتفرق الخلق عن سطحها وعذرهم في عدم استيفائهم بجميع شروط الاختطاط ما ذكره المؤرخون من ان هذه البقعة وغيرها قبل ان تسكن لم يكن بها الاّ آكام وصحارى مملوة بمياه ملحة واستدلوا على ذلك بوجود اجزاء حيوانات بحرية واصداف عثروا بها خلال اجزاء الاحجار والظاهر ان محل باريز قبل ذلك وبعده بزمن طويل كان مغمورا بالماء وفي صورة خليج وان كان مدن (منت · ودروه · وفونتينبلو · ونومور · ومونترو) وغيرها كانت على شواطئه وكان وسط الماء اماكن مرتفعة كالجزائر وكانت سواحله خالية من النبات والمخلوقات ليس بها الاّ الصدف وميتة السمك ونحوه من الحيوانات البحرية وبعد انقضاء تلك الايام صار الماء ينحسر والارض تجمد شيئًا فشيئًا فكان كلما انحسر الماء عن موضع كسي بالنبات والشجر حتى كثر ذلك فاوجد الله بين تلك الاشجار انواعًا من الحيوانات فظيعة المنظر مهولة الخلقة فصارت تتناسل وتنتشر في جميع البقاع وبقيت هذه البقعة على حالها الى ان

جاء طوفان نوح عليه السلام وكان خروجه من الجهة الجنوبية الشرقية فقلع الاشجار والنبات وغرق اكثر ما على وجه الارض من الحيوانات ولم ينج منها الاَّ القليل فاختلط بعضه ببعض وتناسل حتى ملأ الارض فلما قضى الله ما اراد من الخراب وسكنت الارض بعد الاضطراب وعمرت بما بقي من نوع الانسان تفرق الخلق في ارجائها وعمروا نواحيها فكان منهم طائفة وهم على ما حققه المورخون قوم من اهل الصين ذهبوا الى تلك الجهة وكان مأواهم حين نزولهم بهذا الموضع الخيام كعرب البادية فلما سكنوا بها وعمروها سموا جال اي زراع الارض وكانوا قبائل وعشائر ولكل طائفة رئيس يحكم فيها وينظر في دعاويها ويقودها في الحرب وكانوا يصدقون بوجود الخالق ويسمونه هوذ ومعناه الخالق الاكبر المؤثر في الكون ولكنهم كانوا يعتقدون ان معه الهة اخرى وان كل اله موكل بقوة من القوى المؤثرة في تدبير الكون وهذا الاعتقاد يشبه اعتقاد اليونان فانهم يقولون بتعدد الآلهة وان منها ما هو موكل بنار الدنيا وما هو موكل بالرعد وما هو موكل بالانهر والخلجان الى غير ذلك وكانوا يزعمون ان ديانتهم ماخوذة عن توت اي ادريس عليه السلام وانه الاصل في جميع الفنون والصنائع والمزارع وكانت اعيادهم وقت دخول الفصول في بعضها فيكثرون فيها من شرب المسكر وتعاطي المنكر ويقربون من الادميين لآلهتهم قربانا ولم يزالوا كذلك الى قبيل ظهور الديانة المسيحية بنحو سبعمائة سنة فهاجر من

جهة اسيا الى حدود البحر الاسود عدة قبائل فوجدوا هناك قومًا يسمون كيرميس فازعجوهم من مساكنهم وسكنوا مكانهم فرحل الكيرميس الى جهات نهري الطونه والرين واقاموا بارض الجول التي هي الان فرنسا فتدينوا بديانتهم ورفضوا الديانة القديمة ثم انتشروا في بلاد الانكليز وهولانده وسكان بلاد الجول اي فرنسا الى الان يتكلمون بلغة الكيرماسيين فلما ارتحل الكيرماسيون الى ارض الجول تخيروا منها موضعًا وبنوا به مدينة سموها (دروه) وجعلوها مركزًا لاهل ديانتهم كمدينة رومة الموجودة الآن لاهل الديانة المسيحية وكانت تسمى هذه البقعة بالارض الوسطى ومركز الديانة العامة ومقر العلماء والمحبين لازميس وما قدمناه في شانهم من الاعتقاد انما هو معتقد كهنتهم ومن تبعهم

واما عوامهم فكان اعتقادهم مجرد اوهام وتلبيسات تلقيها اليهم كهنتهم فكانوا يكتمون عنهم عقائدهم التي يعتقدونها ليمتازوا بها عنهم ومن جملتها اعتقاد وحدة الاله وانه الذي لا نهاية لعلمه وان كل ما اراده في الكون من خير او شر لا بد ان يكون وانه الخالق لكل شي الذي يهيء كل ما خلق لما خلق له فيرفع اهل السعادة الى الدرجات العلى وهي دار النعيم ويخفض اهل الشقاء الى الدرك الاسفل وهو محل العذاب المقيم والدرك الاسفل عندهم عبارة عن الفراغ المطلق والدرجات العليا عبارة عن المحل الذي تقيم فيه الارواح المنعمة وان الانسان اذا ارتكب خطيئة او ذنبًا ثم مات

نزل الى الدرك الاسفل اعني الفراغ الذي خرج منه وان كان جاريا في عمله على مقتضى علمه لا يرجو به حصول ثواب ولا فرارًا من عقاب كان مآله النعيم المقيم وان كل من فترت عن الطاعة قواه اهبط الى الدرك الاسفل وكان قرينه الشيطان الذي اضله واغواه واقام في دار الشقاء والندامة وحرم من انواع اللذة والكرامة واما من صعدت روحه الى ارواح الابرار فانه لا يجد ما يؤلمه في تلك الدار بل يكون دائمًا في عز وصيانة آمنًا من الوقوع في الذل والاهانة متحليًا بجميل الصفات كالراحة الدائمة وحسن الافعال ونور الذات متخليا عن سائر الرذائل اقلها المذلة والخوف من القلة ومن الكيرماسيين قبيلة تسمى البلج ومعناها في الاصل المحاربون ثم اطلقت على سكان مملكة البلجيقا وتسمى عند مؤرخي العرب بالفلمنك تحولوا من شاطئ نهر الرين الى جهة الجلوانيين وهم القاطنون بشواطئ نهر الوان فاذنوا لهم في المقام معهم واختلطوا بهم ومن ذلك الوقت سموا بالباريزيين اي سكان الوان هذا ما يحضرني الان من خبر هذا الموضع وسكانه واما طباعهم فكانت وقت ذاك وحشية واجسامهم عارية وعوراتهم بادية وكانوا يسمون اجسامهم ويتركون شعر رؤسهم حتى يصل الى اكتافهم وكانت القبائل التي حولهم تشهد لهم بالقوة وتخشى باسهم وكانوا اذا خرجوا للحرب وقتلوا احدا علقوا راسه في عنق الخيل للفخر وجعلوها آنية يشربون بها الماء والخمر وكانت الارض التي نزلوا بها اذ ذاك ضيقة لان الجوليين

محيطون بها من كل جانب فلما استقروا فيها اخذوا يرتادون محلا يجعلونه مركزًا لحكومتهم فاختاروا موضعًا جهة نهر السين كان به سبع جزائر يقرب بعضها من بعض فبنوا فيه مدينة جعلوها مقر التخت وسموها لوتيس وكان ذلك قبل هجوم الرومانيين على ارض الجول واستيلائهم عليها بمدة كبيرة فهذه المدينة التي تراها ويعجبك ما فيها من المباني الفاخرة وزيادة ثروة اهلها قد عوضت لوتيس القديمة بعد استيلاء الرومانيين عليها وكان بناء لوتيس من خشب واغصان شجر ومساكنها ضيقة منخفضة ليس بها منافذ ولبرودة ارضها كانوا يستعملون تنانير كاهل ريف مصر وكانت خالية من المعابد فاذا ارادوا ان يجتمعوا وقت الاعياد والمواسم خرجوا الى صحراء قريبة منهم فيجتمعون بها وكانت معائشهم من الزروع وكانوا يزرعون فيدخرون مؤنتهم ويتجرون فيما فضل عنها ولخصوبة الارض وحسن منبتها كانوا في ثروة وطيب عيش ثم حصل لهم بعد ذلك اضطراب فتضعضع حالهم وآل امرهم الى الخراب وسبب ذلك ما قرأته في بعض الكتب وهو ان الرومانيين في تلك المدة بعد تخريبهم لبلادهم واستيلائهم على لوتيس مقر تختهم كما قدمنا كان تحت قبضتهم قبائل من الجال خرجوا عن طاعتهم ورفعوا لواء العصيان عليهم فلما رأى الروم ذلك وكانت عساكرهم متفرقة في الحرب الى جهات متعددة وليس فيهم كفاية لمقاومة الجميع دبّر قيصرهم في ايقاع الفتنة بين تلك القبائل وقال لاهل مشورته انّا

لا تتمكن منهم الاّ اذا وقع الخلف بينهم فارسل اولا اليهم يطلب منهم مددا فابوا جميعًا فطلب منهم خيلا فمنهم من اجاب ومنهم من امتنع ووقع الخلف بينهم فتمت حيلته وتوجه بعسكره اليهم فخرب مدينتهم لوتيس مع جزائرها السبع وقتل من قتل وأسر من أسر ومن ذلك الوقت غيروا اسم لوتيس بباريز واشتهرت بهذا الاسم الى الان وهذه الحادثة كانت قبل ظهور المسيح بخمسين عامًا ومن ذلك الوقت اختلط الرومانيون بالباريزيين وصارت ديانتهم واحدة ومكث الباريزيون واهل فرانسا تحت حكم الرومانيين نحو الف سنة فكان القياصرة يتوارثونها قيصرًا عن قيصر ولم ينازعهم احد منهم في ديانتهم فبنوا بالمدينة معابد وهياكل واعلوا بنيتها ونظموا شوارعها ووسعوا اسباب متاجرها ومزارعها وما زالوا كذلك الى سنة ٢٤٥ ثم لما ظهرت بها الديانة العيسوية كان كلما كثر اهلها تقهقر حالهم ولكن بقيت اهل الديانة العيسوية الى القرن الثامن من غير رئيس ومع ذلك فكانت الديانة العيسوية هي الغالبة فلما حصل القول بباريز بربوبية عيسى عليه السلام حدثت الكنائس ورتبت القسس فتفرقوا في مواضع كثيرة فكان العيسويون بشاطىء نهر السين ووان واما المتمسكون بالديانة القديمة فكانوا متفرقين في مواضع كثيرة ولكل طائفة رئيس منها يسوسها ويحكم فيها الاّ ان طائفة الفرنج وان كانت قليلة العدد كانت تميل الى السلب والنهب فكانت الحرب بينها وبين من جاورها من الباريزيين وغيرهم لا تنقطع

وكانت جميع القبائل تحسب حسابها وتهاب حربها وذلك لانها
التقت مرة مع جيش الرومانيين فهزمته وكانت لا تبلغ اربعة الاف
وجيش الرومانيين اكثر من ذلك باضعاف فمن ذلك توهموا
شجاعتها وهابوا سطوتها الاّ ان الباريزيين عرفوا كيف يتخلصون
من شرها ويامنون من ضررها وذلك انهم استمالوا قلوب الفرنج
حتى ادخلوهم في ديانتهم وزوجوا اميرهم بنتا من بنات ساداتهم
وملكوه عليهم فعدل فيهم واحسن سياستهم وذب عنهم من ناواهم
حتى خلصهم من ذل الفرنج وقبضة الرومانيين وحكمهم عليهم وكان
ذلك سنة ٤٧٥ من الميلاد فامنوا على انفسهم واموالهم وزادت
ثروتهم وحسنت عيشتهم وملأت المعمورة شهرتهم ولاجل تاكيد
الالتئام والائتلاف ودفع توهم العود الى ما كانوا عليه من الخلاف
بنى ذلك الملك كنيسة باسم الحواريين اي انصار عيسى وهم بولس
وبطرس واوصى ان يدفن فيها اذا مات ففعلوا وكان اسم من
زوجوه بنتهم كلوفس وهو الذي قتل جميع اقاربه وكانوا ملوكًا
فاستحوذ على مالكهم وخلف من الذكور اربعة فلما مات قسموا
المملكة بينهم فتملك احدهم على باريز والثاني على ستير والثالث على
سواسون والرابع دليان ثم مات ملك دليان وخلف ثلاثة من
الاولاد فاتفق ملك باريز وملك سواسون على قتلهم وقسمة مملكة
ابيهم بينهما فارسلا الى والدتهم رسولا يخبرها بان ترسل الاولاد الى
عمامهم ليربوهم ويعلموهم السياسة الملوكية لانهم سيصيرون ملوكا

فتوجه اليها الرسول واخبرها بما قالوه فصدقته وارسلت الاولاد الى اعمامهم ثم ارسلوا اليها رسولا ومعه سيف ومقص وقالوا له مرها ان تختار ايهما شآت ويخبرها انها اذا اختارت المقص فلا حق لاولادها في الملك واذا اختارت السيف فلا بد من قتلهم فلما وصل اليها واخبرها بما قالوه قالت اختار السيف وقتلهم اسهل عندي من بقائهم محرومين من حقوقهم فرجع الرسول واخبر اعمام الاولاد بما قالته امهم فقام احد اعمامهم وضرب احد الاولاد بخنجر فخر ميتا والتجأ الثاني الى عمه الثاني فلم يمكنه حمايته من اخيه وخلى بينه وبينه فقتله واما الولد الثالث ففر من بينهم ولم يوقف له على خبر ويقال انه دخل ديرًا ولم يخرج منه حتى مات وفي ايامهم حسنت حال اهل هذه المدينة وتقدمت الملة العيسوية الاَّ ان ملكهم مات ولم يعقب الاّ ولدًا واحدًا فتملك بعده ولم تطل مدته بل مات ايضًا ولم يخلف سوى بنتين فاتفق عماه على ان يقتسما مملكة باريز وان لا يجعلاها مقرًا وان لا يدخلها احدهما الاَّ ومعه الاخر فمضى الامر على ذلك وهجرت باريز ولم يبقَ فيها الاّ اهاليها ولما كانت سنة ٥٨٤ من الميلاد خطب ملك الاندلس لابنه ابنة ملك سواسون فاجابه وجهزها له وارسلها في موكب عظيم جمع فيه اولاد امراء باريز واعيانها وامر ان يمروا بالموكب من وسط المدينة ففعلوا ومات اكثرهم في الطريق لبعد المسافة الاَّ انه لم تطل ايامه بل عجل له حمامه ولم يعقب الاَّ زوجة وولدًا رضيعًا وكانت

امه مالأت قوما واغرتهم على قتل ملك ميتز فلما لم يتم ذلك خافت على نفسها منه فاخذت ابنها وذهبت به الى باريز وكان رئيس الديانة بها يومئذٍ رجل من ذوي المروءة والفتوة المشهورين بالشجاعة والقوة واجتمعت به فانزلها عنده واكرم نزلها وكانت الحرب في ذلك الوقت قائمة وعيون الفتن مستيقظة غير نائمة والفرنج منقسمة قسمين كل قسم منعزل بموضع والعدوان من بينهم لا ينقطع لكن كان القسم الغربي يميل الى السلم ويغلب عليه طبع الحلم لما عنده من عوائد المتمدنين حتى كان يعد من الرومانيين واما القسم الشرقي فكان يغلب عليه طبع الخشونة والتوحش ثم ان تلك المرأة بعد ذلك ذهبت بابنها الى ملك البرجون واستغاثت به في ابقاء ابنها في ملك ابيه فشمر ذلك الملك عن ساعد الجد وشد منها العضد واخذها وذهب بها الى باريز فصادف دخوله يوم الاحد وهم مجتمعون للصلاة فدخل الكنيسة وتلا عليهم مقالة حثهم فيها على ان يساعدوه على ملك ميتز وان يمنعوه عن باريز اذا قصدها فاجابوه الى ذلك فلما جهز ملك ميتز جيوشه واتى بها الى باريز لم يتأخر من اهلها احد بل قاموا جميعا عليه وقاتلوه حتى ارتد بجيوشه خائبًا وصار مطلوبا بعد ان كان طالبا وامنت باريز من ذلك الوقت من طروق الحوادث ولم تمتد اليها يد عادٍ ولا عابث الى سنة ٨٢١ انما كان يحصل بها احيانًا بعض حوادث كقحط ووباء ومرض وغلاء ومع ذلك كان اهلها يتزايدون الى ان كانت سنة ٨٤٥ للميلاد فاغار

الجرمانيون عليها وهي اول غارة اغاروها على فرنسا فقتلوا رجالها ونهبوا اموالها واستولوا على ارضها وكان ملكها وقتئذٍ شارل الاصلع فلما عجز عن مقاومتهم ويئس من الخلاص من يدهم طلب الصلح معهم فصالحوه على ان يدفع لهم ٧٠٠٠ ليرا فاعطاها لهم فاخذوها ورجعوا الى بلادهم ثم بعد عشر سنين رجعوا ثانيا فاعطاهم كذلك فلما علم الجرمانيون ضعف الفرنسيس وعدم مقاومتهم لهم لم يقنعوا بالمال بل طمعوا فيهم فصاروا ياتون كل عام لنهب اموالهم وسبي ذراريهم وقتل رجالهم وهدم معابدهم وهتك حرمة مقدسيهم ولكن لمحافظة الفرنسيس على حرمة مقدسيهم كانوا اذا استشعروا بقدوم الجرمانيين يقدمون مواراة المقدسين على محافظتهم لانفسهم وفي سنة ٨٨٥ اغاروا على المدينة غارة كبيرة فدافع عنها اهلها مدة ثم حاصرها الجرمانيون وضيقوا على اهلها وقتلوا من عثروا به في ضواحيها من نساء ورجال واطفال والقوا رممهم في الخنادق وطال الحصار فحصل لاهل البلد ما لا مزيد عليه من الكرب لقلة الزاد وتعذر وصول الميرة اليها فجاء الملك شارل ودخلها بعد محاربة جرت بينه وبين الجرمانيين ولكنه رأى من الصواب ان يصطلح معهم على ان يدفع لهم مبلغا فاخذوه وانصرفوا ولكن كان النهب في البلاد الاخرى لم يزل واقعًا واذا سالوهم عن فوائد الصلح يقولون لهم ان ما اخذناه وجرى عليه الصلح انما هو عن باريز خاصة فزاد كرب الاهالي من هذه الافعال الشنيعة التي هي من اثار توحشهم

وخشونتهم وقسوة قلوبهم ولما رأى اهل باريس ان ذرية مينار وهم
ابناء ملك مينار قد غلب الجبن على طباعهم ونزلوا في الهمة الملوكية
عن اوضاعهم وتغير شعارهم وكادت ان تخرب من القتل والسلب
ديارهم وان استمرار الجرمانيين على هذه الحال مما يزيد في امرهم
الاختلاف اجمعوا امرهم على ان يجعلوا لها ملكا وان تعود باريز الى
ما كانت عليه من الاستقلال فولوا عليهم رجلا يسمى اود ورضوا
حكمه فعمل لهم قوانين مشوا عليها ثم ان القرال الاكبر المسمى اشيل
وكان مقره اذ ذاك مدينة ايكس انكر على الباريزيين امرًا حصل
منهم فخرج اليهم بجيوشه وقتل رجالهم ونهب اموالهم وتغلب على مملكة
باريز ولكن لم تطل مدته ولم يوجد من يقوم مقامه في مملكته من
ذريته واهل دولته فولوا مكانه رجلا اسمه هوج كابي فسار فيهم
احسن سير ودبر لهم كل ما فيه خير وجدد لهم مصانع ومعالم ظهروا
بها بعد خمولهم بين العالم وقويت في ايامه شوكة الدولة الفرنسوية
وصار لها شهرة بين الامم وشهد لها جميع الدول التي حولها من
انكليز وعجم وجدد بها مدارس وورد اليها من اصناف التجارة ما
لم يرد في ايام من قبله وضم اليه من اهل المعارف من ساعده
وقوى في تدبير المملكة ساعده وكانت بيوتهم دورًا واحدًا من
خشب فلما اتسعت عليهم الارزاق وانتهم التجارة من سائر الافاق
بنوها بانواع الاحجار وجعلوها ثلاثة ادوار الدور الاول معقود
كالقبة والذي فوقه مسطح ومرصص بالخزف واللبن وفتحوا في

الثالث شبابيك ووجد بالمدينة كل ما يلزم لاهلها من سلاح وملبس وطعام وكثرت بها العمارات والحوانيت في تلك الايام وثارت في ايامه فتنة بينه وبين الامراء القاطنين بالارياف وكان من حزب الملك الاشراف فحسم امرها واطفاء شررها وكانت احكام الديانة في ايامه تؤخذ بالتقليد المحض والنقل البحت سواء كان المنقول صحيحًا او غير صحيح ومعقولاً او مخالفًا للعقل

واستمروا على ذلك الى ان بنى بطرس ابيار وهو احد اغنياء الامراء اذ ذاك مدرسته بجبل المقدسة ودرست فيها الفنون فانطلقت السنتهم واتسعت دائرة معارفهم وكان اهل هذه المدينة في ذلك الوقت يبيعون ماكولاتهم في اماكن متعددة غير منتظمة ولم يكن بها معرض عمومي كالذي رايته وكانت عرضة للحوادث السماوية كالمطر والشمس الى ان كانت ايام الملك فيليب اوغست فامر بعمل سقائف وعين لكل سقيفة نوعًا يباع تحتها ويستظل اهله بها وهو الذي بنى سراية اللوفر وفرش شوارع المدينة بالحجر واول من بنى خانات للفقراء وابناء السبيل وعمل اسوارًا حول المقابر وتقدمت في مدته الفنون والصنائع فكانت ايامه كلها منافع لكن كانت ادارة البلاد محالة على مشائخها فظلموا اهلها وامتدت ايديهم الى اخذ الرشوة في الحكم وكانت المناصب تباع وتشرى ولا يولى فيها الاَّ من بذل لاجلها المال او كان من اقارب شيخ البلد او اهله فحصل لاهلها من الذل والاهانة ما لم يسمع بمثله وخربت البلاد وتفرق

اهلها الى ان هلك فيليب وتملك بعده سنلويز وكان يميل لاهل الديانة والانصاف ويحب عمارة البلاد وينفر عن الظلم واهله فنشر عليهم الوية عدله وامر بابطال ما فيه شائبة ظلم من اصله ورتب لمأموري الاحكام مرتبات من طرف الدولة وانتخب من اهل كل بلد رجلا معروفًا بالصداقة ولاه عليها فعمرت البلاد وتراجع اهلها وزادت عدتهم وربحت في ايامه تجارتهم وعمل قوانين ونشرها في مملكته فيها بيان ما يجب على المحترفين في حرفتهم جزاء ارباب الجنايات ومن احكامها ان يكون اداني الناس واسافلهم في جهة مخصوصة وقد كانوا منتشرين في البلد لا يتميز ذو الشرف من الوضيع ولا الدعي من ذي النسب الرفيع ورتب مجلسًا للنظر في تنظيم البلد وجعل على ارباب الحرف اموالا تصرف في ذلك وقدر للباريزيين اوقاتهم بضرب الدفوف فكانت تضرب وقت الفجر لايقاظهم من نومهم ووقت الزوال لغذائهم واستراحتهم من اعمالهم وجعل في الكنائس نواقيس تضرب وقت العشاء فاذا ضربت امتنع عليهم الخروج من منازلهم الاّ من كان معه اذن من ضابط البلد او شيخها ووضع على ابواب الدروب سلاسل باقفال فكانوا اذا جاء الليل قفلوها فلا تفتح الى طلوع الفجر ورتب على ارباب الصنائع خفرًا يدور بالليل حول البلد وداخلها وعليهم مفتشون فاذا حدث امر كتبوه وعرضوه على الملك والمأمورين واصدر امره ان لا يعافى من الخروج الى الخفر الاّ ارباب الديانة ونحووا

العاهات والزمانة وطائفة المعمار والضربخانه وروساء الحرف وجعل على كل من لزمه الخفر ولم يخرج له مائة وخمسين فرنكًا في كل سنة الاَّ ان بعض الناس كان يحتمي ببعض الامراء فيتخلص بهم من اداء ما يجب عليه وربما وزعوها على غيرهم فاشتكت الفقراء ذلك اليه فصرفها عنهم والزم بها اهل الحرف خاصة وقتئذٍ وكان عدد اهالي باريز ٢١٥٨٦١ نفسًا وعدد كنائسها ٣٦ لكن لم يبقَ الان منها واحدة على حالها بل منها ما هدم وبني ثانيًا ومنها ما ازيل بالكلية وفي زمن فيليب اشتدت رغبة الناس في سكنى باريز فاشترط انه اذا اراد احد درج اسمه ضمن عدادها لا يجاب الى ذلك الاّ اذا توجه الى شيخ البلد واشترى قطعة من ارضها وان يتم بناءها في سنة وان لا ينقص قيمته عن ثلاثمائة فرنك ويشهد عليه بذلك شاهدين ويشرط عليه ايضًا ان يحضر اوقات الاجتماع كالمواسم والاعياد ومن ذلك الوقت صار اهلها درجات

الاولى اهل الديانة وهي التي لها الكلمة على اهل الملة ورئيسهم منهم

الثانية الامراء ووجوه الناس والاغنياء

الثالثة اصحاب الاملاك والمتوسطون من الاغنياء ورئيس هاتين الدرجتين الملك

الرابعة الاغراب

الخامسة رعاع الناس وآحادهم ودرجة هاتين الطائفتين

كدرجة الارقاء فلا يخرجون من يد الاَّ وقعوا في اخرى وحدث في ذلك العهد شقاق بين الملك والبابا في شان ارض فرنسا لان البابا كان يقول ان جميعها من حقوق الكنيسة والملك يمنع ذلك فاجتمع ارباب الحكومة واجمعوا على حسم هذه المادة واتفقوا على عقد مجلس مشتمل على ثلاثة عشر من الاشراف ومثلهم من رؤساء الديانة ومثلهم من اعضاء مجلس المدينة وسموا ذلك المجلس مجلس النواب لان كل صنف من رجاله نائب عن طائفة وعينوا لهم موضعاً يجتمعون فيه ووضعوا على بابه صورة اسد رافع راسه الى اعلى وباسط ذراعيه اشارة الى انه يلزم كل من يريد الدخول في هذا المكان الاذعان للحق كيف كان وكان عقد هذا المجلس في سنة ١٣٠٢ والذي انحط عليه رأيهم هو ان الارض وما عليها لله سبحانه وتعالى وان الخليفة عنه فيها ملكها وان لا حق للبابا فيما يدعيه فلما اعلنوا ذلك كثرت المنازعات الدينية واختل امر الحكومة ودخل بين رجالها الغش والنقص فيما يتعاملون به من النقود حتى ضجر الاهالي وشكوا فلم يسمع منهم فقاموا على رجال الحكومة ووقع بين الطائفتين قتال شديد مات فيه كثير منهما واسرت العساكر بعض الاهالي وقبضوا على نحو عشرين رجلا منها وقتلوهم وصلبوهم على ابواب المدينة وكان في هذه المدة ضربت نقود جديدة فامر بابطالها والمعاملة بالقديمة فتوقف الباعة وارباب العقارات في اخذها وحصل بين الناس ورجال المملكة مثل ما حصل

اولا وكثرت الجرائم وتفتحت ابواب المظالم وغلت النقود غلوًا لا يطاق وضجت الخلق واشتد الامر واتقد في قلوبهم الجمر لاسباب اعظمها الانكباب على الترفه والزهو والاكثار من اللعب واللهو حتى قامت الاهالي على الحكومة سنة ١٣١٢ من الميلاد فرفعت عنهم المظالم فلم يكفهم ذلك بل طلبوا اخراج اليهود من المدينة لانهم السبب في فقرهم وذهاب اموالهم فلم تمكنهم الحكومة من ذلك فقاموا جميعًا دفعة واحدة على بيوت الصيارفة واليهود ونهبوها وقتلوا من وجدوه فيها وحرقوا دفاترهم وصاروا يتتبعون اثر اليهود فلم ينج منهم الاَّ من الحق نفسه بالعسكرية او آوى الى ركن شديد وبعد ان اخمدت نار هذه الفتنة عمل الملك لولده فرحًا زينت له المدينة واوقدت الشوارع بالشموع وفرشت الطرق وساق اهل المدينة الى الملك هدايا جسيمة واوقدت الشموع نهارًا في محلات الوليمة وكانت براميل الشراب على عربات والناس يشربونه من حنفيات ومكث الفرح كذلك اياماً وبعد انتهائه امر بموكب ضرب لاجله من النواقيس ثلاثون الفًا حتى تعجب الناس من وجود هذا القدر في مدينة واحدة وفي سنة الف وثلاثمائة واربعة عشرة اتهمت الملكة واختها وامرأة معهما بالزناء فحكم على الملكة بالحبس سبع سنين وقتل الاخريين وكذلك ادعي على كثيرين بان هم دخلا في هذا الامر فقتلوا جميعًا ولم يكن اشد على الامراء والاهالي من ايام فيليب السادس لانه من حين جلوسه على التخت انفتح

عليهم من المصائب ابواب وضاقت عليهم الرحاب فمن قسوته وعنفه
قتله للامراء والاعيان سنة ١٢٤٣ واعقب ذلك وباء عظيم مات
فيه اكثر اهل المدينة فلما اتت سنة ١٣٥٠ الزم اهل المدينة باموال
جسيمة ليستعين بها في حرب الانكليز فادوها اليه بالرغم ولما خرج
لحرب الانكليز لم ينجح له سعي بل غلب واسر كما هو شان مثله من
اهل البغي فولي الحكم من بعده ولي عهده فكان اقبح منه سيرًا
واعظم ضررًا وشرًا ووقع بينه وبين اهل المدينة اختلاف في الاراء
فقدمت اليه صكوك من جميع الامراء يرجون فيها رفع المظالم وكل
مستخدم في وظيفته لا يليق بها فلم يلتفت الى ما قالوه بل جمعهم وتلا
عليهم مقالة نمقها على حسب عقله فلم يقبلوا شيئًا منها وقاموا جميعًا
الى بيوت الامراء ونهبوها وقتلوا من وجدوه منهم وكذلك فعلوا
باتباعهم وكل من ينسب اليهم فعظم الخطب واشتد على ولي العهد
وحاشيته الكرب فكان تارة يلين جانبه ان راى حزبه مغلوبًا وتارة
يرجع الى طبعه وعادته ان رآه غالبًا ولم يزل الخلاف بينهم وبين
اهل البلد يزداد لا الاهالي تمتثل لحكمه ولا هو ينقاد لرايهم ولما لم
يدرك منهم اربًا فرّ هو ومن تبعه هربًا وكان راس العصبة التي
قامت عليه شيخ المدينة فقال في نفسه اني لا يسعني الاَّ الصلح مع
ولي العهد والانتماء اليه وارسل له سرًا يعده بفتح باب من ابواب
المدينة ليدخل منه هو ومن معه وعين له الباب والليلة والساعة
فلما وصل الرسول الى ولي العهد واخبره بذلك صدقه وجاء بمن

معه في الوقت الذي عين له فلما احس شيخ البلد بمجيئه امر رئيس الحرس ان يفتح الباب فامتنع وقال له انت تريد خيانة الاهالي فاغلظ شيخ البلد عليه في الكلام فضربه ببلطة كانت بيده فخر ميتاً وشاع الخبر في المدينة بان شيخها كان مقصوده الخيانة فكانوا لا يرون احدًا من اصحابه الاّ قتلوه فقامت البلدة على ساق وتعطلت فيها الاسواق ودخل الناس بيوت الاغنياء فنهبوا ما فيها ولولا ان ادركهم اهل المجلس لهلك الاغنياء جميعًا وبقيت باريز محاصرة تدافع ولي العهد الى ان دخلها عنوة لكنه ألان لهم بعد ذلك جانبه وعاملهم بالانصاف وتتبع اهل التعصب فقتلهم واعطى بعض اهل المدينة علامات شرف والحقهم بالديوان وانشأ بالمدينة مباني فاخرة ورخص لشيخ البلد وارباب المجلس في الحضور الى مجلس النواب لسماع ما يتعلق باستحقاق ولي العهد للملك اذ بلغ عمره اربع عشرة سنة وكان رشيدًا ولما اتسعت التجارة وكثر اهل المدينة امر بتوسيع الدروب وكان الناس يصورون منازلهم بصور حيوانات ويكتبون على ابوابهم بعض كلمات وكثر في ايامه اللعب بالنرد والكرة والمنقلة وسائر الملاهي ما عدا الورق فانه لم يظهر حين ذاك فكانوا يصرفون في ذلك دراهم كثيرة فامر بابطال ذلك كله وقال انها تفسد الاخلاق وتضيق الارزاق ورخص في اللعب بكل ما فيه صحة للجسم وفائدة ولما مات حل بالاهالي ما ساءهم لان جميع ما كان مدخرًا في خزائنه مما كان حصله ايام ظلمه وعدوانه واسائته

وطغيانه لم يفِ بمصروف ولده الذي خلفه في الملك وهو شارل السادس الذي استولى بعده لانه كان مكبًا على السكر وانواع الملاهي في جميع اوقاته صارفًا ليله ونهاره في لذاته لا يخلو مجلسه من الرقص والغناء والات الطرب ولا يلتفت الى الحكومة وبالجملة كانت اوصافه كلها مذمومة وكان قائمًا حينئذٍ بتدبير المملكة وكان امر المملكة في ايامه بيد امرائها فمدوا ايديهم الى واردات الحكومة وتصرفوا فيها بما يعود على الناس بالضرر وكثرت المظالم وزادت الجرائم وعلا من الاهالي النحيب واستغاثوا فلم يجدوا من يجيب فلما رأوا انهم لم يسمع لهم شكاية قاموا على الملك ورفعوا ألوية العصيان ودخلوا بيوت اليهود فنهبوها فلما رأى الملك منهم ذلك عاملهم بالحلم ورفع عنهم الظلم حتى خمدت نيران فتنتهم وهمدت شوكة صولتهم ثم رجع الى سيره الاول وعاد ظلمه الى ما كان فقاموا ثانيًا فقبضت الحكومة على بعضهم فسجنوا اياماً ثم وضعوا في غرائر واخرجوا ليلاً ورمي بهم في نهر السين والزمت الاهالي بغرامة باهظة فازدادوا ضنكًا على ضنك وكان لهذا الملك افعال لا تليق بالملوك بل لا يقبلها على نفسه صعلوك منها انه لم يقنع بسرازيه وحسان جواريه بل تهتك وعربد وتتبع لنساء البلد فما اعجبه منهن حازه ولم يقتصر على ذلك بل كان يطوف البلاد وكلما حل ببلدة فعل بها مثل ذلك حتى اختل عقله وجفاه رجاله فخلا الجو لزوجته واتحدت مع النساء اللائي كن في حوزته وخرجت عن حدها وارتكبت ما

اوجب هتك عرضها ومكنت الامراء من اغراضهم فساروا في المملكة اقبح سير لا يصدر عنهم الاَّ ما يعود على الرعية بالضير وتقاسموا ايراد الحكومة قسمة الغنائم ولم يولوا فيها الاَّ من كان معينًا لهم على المغارم والمظالم وتطلعت اعين بعض عائلة الملك للملكة وتطلع لها اخرون كل ذلك والملك في مرض الجنون فكان اذا افاق وبلغه شي من هذه الامور ندم على ما فعل وربما بكى بكاء الاطفال فلما اشتد ضرر الاهالي اجمعوا رايهم على ان يولوا رجلا منهم وعينوه ثم قاموا على محل الملك فوجدوه جالسًا مع زوجته واخيها وبعض الامراء المتحدين معها وطلبوا ان يسلموهم زوجة الملك وخمسين رجلا عينوا اسماهم ليقتصوا منهم فطلبت زوجة الملك مهلة ثمانية ايام فلم يجبها احد منهم فلما لم يجد اخوها حيلة غير التسليم قام وسلم نفسه لهم فغضبت اخته مما فعل ثم هلكت بعد ايام قليلة ثم انهم تحصلوا بعد ذلك على امر من الملك برفع عوائد الاملاك وما كان عليهم من المغارم وكانت السنة الثالثة عشرة بعد الاربعمائة والالف ايام شارل السادس مشتملة على حوادث فظيعة من قتل ونهب وافعال شنيعة ومات في ذلك عريف البلد فنصب بدله الكونت بيديار واحيل عليه نظارة المالية فسلك طريق الظلم واكثر من الجرائم وضاعف على الناس المغارم حتى ضاق بهم الحال وحل بهم الويل فاضمروا قتله فلما بلغه ما اضمروه قبض على كثير منهم فمنهم من صلبه ومنهم من احرقه ومنهم من قطع راسه ومنهم من اغرقه

فاخذ الكرب عند ذلك نهايته واشتد البلاء بالناس فعول كثير منهم على ان يكونوا من حزب الدوك دوبورجونيا فانضموا اليه وصارت البلد فرقتين فقامت كل فرقة على الاخرى فمن وجدوه ليس منهم قتلوه ثم حضر الدوك دو بورجونيا بعسكره فقابله الحزب الذي كان التجاء به وذهبوا جميعا الى منزل عريف البلد فقتلوه مع جميع قرابته وحزبه واجبته وقطعوهم قطعا ورموا بهم في الدروب فكانت تحوم عليهم الطير وتعبث بهم النساء والصبيان ويلعنهم اللاعنون على سؤ سيرتهم فاستقامت احوال البلد بعد ذلك وافاق اهلها مدة غير طويلة ثم عاد عليهم الجور والذل بما نغص عيشهم وازعج نفوسهم حتى كادوا يهاجرون من وطنهم خصوصاً وقد كتب ولي العهد في ذلك الوقت الى ملك الانكليز يعزم عليه ان يجيء باريس ليفوض زمام المملكة اليه فلما اتى اليهم عملوا له يوم قدومه مهرجاناً عظيماً زينوا فيه البلد واخترعوا لعبة لم تكن معروفة قبل ذلك وذلك انهم اتوا بخشبة اطول ما يكون وطلوها بالدهن والصابون حتى صارت ملساء وجعلوا في احد طرفيها مبلغا من النقود مع بعض طير غالي القيمة حسن المنظر ثم رفعوها واباحوا ذلك جميعه لكل من وصل اليه فاستمر الناس يوماً كاملا يعانون صعود تلك الخشبة واحداً بعد واحد لاخذ ما عليها فلم يصل اليه الاَّ واحد اخذه ونزل به ومن ذلك الوقت صار الباريزيون تحت حكم الانكليز فلم يخرجوا عن حكمهم الاَّ على

يد جان دارك المعروفة بالبكر وكانت اميرة على جيش فما خرجت في حرب الاَّ عادت منصورة مظفرة فهي التي اخرجت الانكليز واجلست شارل السابع على التخت وذلك سنة ١٤٤٦ من الميلاد فسار فيهم سيرًا حسنًا الى ان أمن شرهم وتمكن منهم ثم بغى عليهم واصدر اوامر ظلمه اليهم فالزمهم باموال يؤدونها اليه لا يستثنى منها احد وجعلهم ثلاث درج

الدرجة الاولى من اربعة الاف فرنك الى الف وخمسمائة

والثانية من ستمائة الى مائة وخمسين

والثالثة من عشرين الى عشرة

ولم يقتصر على ذلك بل طمح نظره الى ما في الكنائس من النقود والحلي فاخذه جميعه وصرفه في لذاته وقضاء اوطاره الفاسدة

وبسبب انكبابه على حظوظ نفسه وغفلته عن تدبير امر الحكومة امتدت ايدي عساكر الانكليز الى البلاد فوقعت بينهم حروب تعطلت بسببها المزارع وكثر عندهم القحط والوباء فكان من مات من المدينة خمسة واربعين الفًا وخرب من البلاد ما لا يعد ولا يحصى ومع هذا كله لم يتحول الملك عن سيء حاله بل ازداد سفهًا وترك المملكة للمتصرفين فيها بالفساد

وبالجملة لو اردت حصر احوال هذه الاهوال وما لحق المدينة واهلها من الاضمحلال لطال الشرح واتسع مجال المقال ولم يزالوا كذلك الى ان هلك الملك فملك بعده لويز الحادي عشر سنة

١٤٦١ فزينت له المدينة وعملت الولائم وفرح الباريزيون به فرحا شديدا وعملوا له موكبا لم يعمل مثله لمن قبله من الملوك فكان مما ابتدعوه في ذلك الموكب ان صوروا رجلا امام الملك على صدره صورة مركب من فضة يعنون بذلك باريز وخلف ذلك الرجل خمس نساء هدية للملك على صدر كل واحدة منهن حرف من حروف باريز ووضعوا على الباب الذي دخل منه الموكب مركبا فيها ثلاثة الوية لون كل لواء غير لون الاخر اشارة الى طوائف الملة الثلاث ورسموا صورة الملك بين عمودين متساويين في البعد اشارة الى العدل ورسموا امامه صورة ملكين يقودانه الى الحق ويحفظانه من كل امر ذميم وجعلوا في صدر الموكب رجالا ونساء عليهم ثياب المتوحشين كانهم يقتتلون ومن خلفهم ثلاث بنات متجردات يغنين بالحان الآلات وخلفهن عربات عليها شي كثير من المشروبات يشرب منها كل من اراد ومما كان في هذا الموكب صورة المسيح وامه وصورة روح القدس والشهوات النفسية وطائفة في هيئة الصيادين بشباكهم وكلابهم وكأنهم يعانون الصيد وقوم في هيئة الانكليز كأنهم يحاربون رجال الملك وكأن رجال الملك غلبتهم واسرتهم وبعد ذلك كله طير مختلفة الانواع متشكلة باشكال غريبة الابداع ولم يزل الموكب سائرًا امامه حتى ادخله الكنيسة على العادة ليؤدي ما يجب على امثاله من العوائد والعبادة ولم تحضر الملكة زوجته الاّ في سنة ١٤٦٧ وكان سيرها في البحر فلما

بلغ اهل المدينة قدومها خرج لملاقاتها الامراء والاغنياء في زوارق واكرموها غاية الاكرام وصنعوا معها ما لا مزيد عليه من الاحترام وادخلوها بموكب عظيم وعملوا لها فوق ما يليق لمثلها من التعظيم وكانت سيرة هذا الملك جميلة وهمته عالية جليلة ومحبة الباريزيين له صادقة والسنتهم بالثناء عليه ناطقة يبذلون في رضاه انفسهم واموالهم و يتركون لرأيه ارآهم واعمالهم ولذلك لما وقع بينه وبين ملك الانكليز ما وقع سنة ١٤٦٧ خرج معه منهم سبعة وثمانون الف مقاتل بسلاحهم ومؤنهم فلما رأى الملك منهم ما رأى شكر فضلهم وامر بشراب لهم سرورًا بهم ومن مبتدعاته الحسنة مدرسة الطب التي بالمدينة فانه اول من احدثها وكذلك النور الذي بالشوارع حتى انه امر اصحاب البيوت والخانات ان يضع كل واحد منهم على باب خانه او بيته قنديلا وكان رأوفًا بالضعفاء شديدًا على الامراء يجلس للناس من غير حجاب ولا يمنع من الدخول اليه احد وكان حميد السيرة الاّ انه كان اذا امر بشي لا ينزل عنه وكان مولعًا بحب الطير والحيوانات الغريبة ومن شغفه بها كان اذا اعجبه شي منها كُتب اسمه وخاصته والجهة التي جلب منها والكلمة التي يحكيها بصوته ومع ذلك لم يغفل عن تدبير الحكومة ولم يرتكب لسببه خصلة مذمومة بل عافى الناس من عدة ضرائب واعان ارباب الصنائع فيما يعود نفعه اليهم فمن ذلك ترخيصه في فتح دار الطباعة ولم تكن موجودة من قبل واول من فتحها بباريز جماعة من الالمانيين سنة

١٤٦٦ فلما فتحت اضرت بالخطاطين والنساخين فشكوا الى المجلس وساعدتهم ارباب الديانة بقولهم انها من افعال الشيطان فصدر امر المجلس بابطالها وضبط الكتب التي بها فلما بلغ الملك ذلك امر بفتحها الاّ ان الناس لما زالت عنهم بعدله الاكدار وامنوا مما كانوا يقاسونه من الظلم وظهرت عليهم الرفاهية تشبهت النساء البغايا بالحرائر فصرن يلبسن جميعا ملابس الاحرار ولا تعرف البريئة منهن من الفاجرة وسكنت البغية بجوار الحرة وانتظمت الصدفة في سلك الدرة فلما كثر ذلك صدر امر الحكومة ان لا يتزيىّ احد بزي غيره لانه كان عين لهن ما يلبسنه كالاحزمة القصب والفساتين ذات الذيل الطويل وارسال الياقة الى خلف الظهر وكان يكثر من ذم الامراء والاعيان الذين يميلون الى التغالي بالزينة والزخرفة وكان خطيب ذات يوم يحض الناس على التباعد عن الزخارف التي تأباها الديانة والمروة فاشيع عنه انه سب الملك فقاموا عليه وكادوا يقتلونه فلما بلغ الملك ذلك سكن الفتنة وامر بابطال الخطبة وان يخرج الخطيب من البلد وينجو بنفسه ولحلم الملك ولين طبعه كانت اسافل الناس في اخر مدته يهزأون باهل الديانة حتى صوروا البابا والحواريين في الملاعب وكثر ذلك منهم في مدة من تولى بعده ولكن كانت الحكومة محافظة على ناموس الديانة فكان لا يرفع اليها احد طعنًا في الديانة الاَّ عاقبته فمن ذلك ما حصل لبعض الطباعين حين تجرأ علي طبع كتاب فيه

ذم الديانة فضبطت كتبه واخذ وشنق ومن ذلك انهم حين اخذوه ليشنقوه صار الناس في اثناء الطريق يسبونه ويؤذونه فقال لهم رجل ان قتله كافٍ في جزائه فضربوه ضربًا مبرحا وادعوا عليه انه نسب الى العذراء والمسيح ما لا يليق بهما فحكم عليه ايضا بالقتل والقائه في النار ومن ذلك الوقت صارت الديانة في اضطراب وادخل فيها بعض القسس اكاذيب من كل باب ونسبوها الى المسيح وادعوا انها من الكتب المقدسة وتمادى بهم الحال الى ان اشتبه الصواب بالمحال وافترقوا ما بين ممانع ومدافع ومجادل ومنازع فظهرت الديانة البروتستانية فافتتن الناس بها وكثر الراغبون فيها حتى ادعى اهلها ان ديانتهم هي ديانة المسيح وذموا الكنيسة الرومانية ورجالها وصارت كل فرقة تبيح ذم الاخرى وتدعي ان طريقتها اولى بالاتباع واحرى حتى قام بعضهم على بعض ونشبت الحرب بينهم فقتل من الفريقين في ليلة واحدة زهاء الف الف وسبب هذه الفتنة ان امرأة يقال لها (ماري دوميديسي) دست على الملك ان الملك لا يلتئم وراحة رعيته لا تتم الاّ اذا قطع البروتستانيون عن اخرهم ولم تزل به حتى خدعته وصرفت همته الى ما اليه دعته ثم ذهبت الى البروتستان وغرتهم حتى ادخلتهم باريز واستوطنوا بها ثم اتفقت مع ووجيزان يحصي اسماء الدوكات من دفاتر الفردة ويعلم منازلهم بالطباشير وان يجمع الحرس ويفرق فيهم السلاح وان ينتشروا في شوارع البلد وحاراتها

وان يستعدوا لتنفيذ امر الملك بقتلهم ففعل جميع ذلك من غير ان يشعر به احد من البروتستانيين فلما كانت ليلة الرابع والعشرين من شهر اغوسطس الافرنجي سنة ١٥٧٢ ارسل الدوك ووجيز الى اصحابه واتباعه فايقظهم من نومهم وجمعوا له العسكر والحرس وعرفهم بالعلامات التي جعلت على ابواب المنازل وامرهم انهم متى سمعوا ضرب الناقوس هجموا عليهم دفعة واحدة فقالوا سمعا وطاعة وانصرفوا فلما كان نصف الليل ضرب الناقوس فهجموا على بيوتهم وقتلوهم عن اخرهم ومن شدة كراهتهم لهم كانوا يشقون بطن الحبلى فيخرجون جنينها فامتلأت من رممهم الدروب وانتن من رائحتها شمال وجنوب وكان عدد من قتل من امرائهم واعيانهم خاصة في هذه الوقعة ستمائة فاصبحت منازل الجميع خرابًا وقام حاكم كل بلد من بلاد باريز على من ببلده من البروتستانيين ففعل بهم ما فعلت باريز بمن بها منهم واصل هذه الفتنة امرأة فانظر كيف اعقبت الخراب والبين وابدت العداوة بين الطائفتين

فقال الشيخ هكذا فتن النساء فانهن يضرمن نار الشر حتى يصل لهبها الى عنان السماء فكم لهن مثل ذلك وكم اوقعن رجالا في مهاوي المهالك

فمن ذلك القتال الذي استمر بين بكر وتغلب اربعين عامًا حتى ضرب به المثل في الشر وليس سببه الاَّ امرأة تسمى هيلة ويقال لها البسوس وهي خالة جساس ابن مرة وكان لها ناقة

يقال لها سراب وكان من عادة كليب ان يحمي اوديته فلا يرعى فيها غير ابله حتى انه كان يحمي مواقع السحاب ويقول وحش كذا في جواري فلا يهاج فمر يومًا بمرعى كان قد حماه وفيه قنبرة قد باضت فلما رأته صرصرت وخفقت بجناحيها فقال لها من روّعك وانت في ذمتي وانشد يقول

يا لكِ من قنبرة بمعمرِ

خلا لكِ الجو فبيضي واصفري

ونقري ما شئتِ ان تنقري

فما جسر صاحب بعير ان يدخل ذلك المرعى فاتفق ان مرت ابل كليب على ناقة البسوس فعركت الناقة عقالها حتى قطعته وتبعت ابله فلما وردت الماء مع ابل كليب عرفها وظن ان جساسًا اطلقها مغايظة له فانف وغضب ورماها بسهم فاصاب ضرعها فصارت الناقة تعدو والسهم في ضرعها حتى اتت الى فناء صاحبتها وضرعها يشخب دمًا ولبنًا فلما سمعت البسوس عجيج الناقة طرحت خمارها واقبلت اليها فاذا السهم معترض في ضرعها فصكت وجهها وقالت واذلاّه فلما سمع جساس قولها اسكتها وقال والله ليقتلن غدًا فحل هو اعظم من ناقتك يعني كليبًا ثم انتجع الحي فمروا على نهر يقال له شبيث فنهاهم كليب عنه وقال لا تردن منه قطرة ثم مروا على نهر اخر يقال له الأحص فنهاهم عنه فمضوا حتى اتوا الذنائب ونزلوا فمر جساس بكليب وهو واقف على غدير الذنائب

منفردًا فقال طردت اهلنا عن المياه حتى كدت تقتلهم عطشًا فقال كليب والله ما منعناهم من الماء الاَّ ونحن له شاغلون فقال له جساس هذا كفعلك بناقة خالتي فقال او قد ذكرتها اما اني لو وجدتها في غير ابلي مرة اخرى لاستحللت تلك الابل فعطف عليه جساس بفرسه فطعنه بالرمح فارداه ووجد الملك فقال ياجساس اسقني فقال هيهات تجاوزت الأحص وشبيثًا ثم اجهز عليه وعطف الى اهله فلما رأته اخته من بُعد قالت لابيها ان لجساس شأنًا قد جاءنا خارجة ركبتاه فقال ابوها والله ما خرجت ركبتاه الاَّ لامر عظيم يعني انه كان بركبتيه وضح لا يظهره فلما جاء قال له ابوه ما وراءك يابني قال طعنت طعنة لتشتغلنّ بها شيوخ وائل زمنًا فقال أقتلت كليبًا قال نعم ثم نظر جساس الى اخته وكان اسمها نضلة فقال لها

وانى قد جنيت عليك حربًا * تغص الشيخ بالماء القراحِ
مذكّرة متى ما يصحُ منها * فتى شبت لآخر غير صاحِ

فاجابته تطيب نفسه وقالت

وان تكُ قد جنيت عليّ حربا * فلا واهٍ ولا رثّ السلاحِ

ثم هرب جساس وقام مهلهل في طلب ثار اخيه ووضع الحرب بين الحيين فاستمرت اربعين عامًا حتى ضرب بها المثل وكم لذالك من امثال ونظائر واغرب منه ما كان من الزباء الى ان

وضع قصير من قتلها في الغرائر فحدثنا كيف كان حال المملكة بعد هذه المعركة

قال عم الخراب ضواحيها وسرى منها الى سائر نواحيها وصار من بقي من البروتستان يترقب فرصة للقيام واهل الديانة الاصلية تحزب احزاب الانتقام وتغريهم بمن بقي من البروتستان وكان الرئيس على المدينة وقت ذاك الدوك ووجيز فاراد الملك هنري الثالث الاستبداد والاستقلال فتنازعا وصار الناس قسمين واريقت بينهما الدماء حتى وصل غبار الحرب عنان السماء واختل امر الحكومة اي اختلال وتمادى الامر على هذا الحال الى ان عقد مجلس الستة عشر وانما سمي بذلك لان اعضاءه كانت اولا كذلك ثم زادوا وبلغوا اربعين فكانت امور المدينة مسندة اليهم لا يبالون بملك ولا غيره فحنق الملك من ذلك وامر بابطال المجلس فلم يلتفتوا الى قوله ولم يعول احد من اهل المدينة على رأيه فاغلظ عليهم في ابطاله فقام عليه اهل المدينة وقتلوا معظم رجاله واما هو ففر هاربًا ثم وجدوه مقتولا فدفنوا رمته وعدوه من المقدسين

فقال الشيخ يحكى انه في زمن الملك قباذ والد كسرى انوشروان حدثت فتنة من هذا القبيل وكان سببها ان ظهر في ايامه رجل زنديق يقال له مزدك فادعى النبوة واحدث مقالات في اباحة الفروج والاموال وقال ان الناس في ذلك سواء لانهم جميعًا اولاد آدم وحواء وحرم سفك الدم واكل اللحم فاتبعه خلق

كثير فكان قباذ ممن تبعه فدخل مزدك عليه ذات يوم فوجد عنده زوجته ام كسرى وكانت من اجمل النساء فاعجبته فقال لقباذ اني اريد ان انكحها فان في صلبي نبيًا واريد ان يكون منها فاطاعه قباذ لكونه على مقالته وعقيدته فلما هم مزدك بها دخل عليه كسرى وكان صغيرًا فقبل قدميه وتضرع اليه ان لا يفعل بها فوهبها مزدك له فلما مات قباذ وقعد ابنه كسرى انوشروان على التخت مكانه جمع جميع خواصه ليعاهدهم فكان مما قاله لهم اني اشهدكم على اني لا ادع احد من المزدكية الاّ قتلته لانهم اباحوا نساء الناس واموالهم وجعلوها مشتركة بينهم لا يختص احد بامرأة ولا مال حتى اختلط اسافل الناس بعناصر الكرماء وسهل سبيل الفواجر والفاجرات الى قضاء الشهوات واتصلت السفلة اللئام بالنساء الكرام اللآئي ما كان لمثل اولئك ان ينظروا اليهن اذا رأوهن في طريق

فقال له مزدك الزنديق هذا فساد في الارض والله ولاك لتصلح لا لتفسد

فقال له انوشروان اتذكر يابن الخبيثة حين سألت والدي ان ياذن لك في المبيت عند امي فاذن لك فمضيت نحو حجرتها فلحقت بك وقبلت رجلك وان نتن جواربك ما زال في انفي الى الان وسالتكها فوهبتها لي قال نعم فامر به فقتل واحرقت جيفته ونودي باباحة دماء المزدكية والمانوية المجوسية واظهر الديانة القديمة

وكتب بذلك الى عمال الولايات فقتل منهم خلق كثير وقسم اموالهم على الفقراء ورد الاموال التي لها اصحاب الى اصحابها والحق كل مولود اختلف فيه بمن يشبهه وان كان من المزدكية جعله عبدًا لمن حملت به منهم وامر بالنساء اللاآئي تبرأ منهن اهلهن او مات من يقوم بهن فجمعن في موضع واجرى عليهن ما يلزم لهن وان يزوجن من مال والده واضاف البنين الذين لم يوجد لهم اب ولا شبيه الى مماليكه ثم قال الشيخ فغالب ما يحصل بين اهل الديانات من مثل هذه الحوادث الفظيعة سببه أكاذيب واوهام تلقيها اهل الباطل فيما بينهم ثم يدخلونها على العوام فاما ان يقيض الله لها من يدحضها والا عدت حكما من الاحكام

فلما سكت رجع الانكليزي الى بقية حديثه وقد علم رغبة الشيخ في سماعه فقال ثم انه بعد هذه الحادثة وموت هنري الثالث قام هنري الرابع وكان بروتستانيا واراد دخول المدينة فقفلت دونه الابواب وقالوا له لا نملّك علينا الاّ من كان منا فحاصرها ومنع دخول كل ما كان يرد اليها فاشتد في المدينة الغلاء وحل باهلها القحط والوباء ومع هذا كانت القسس تحثهم على القتال وتحذرهم من التسليم له فكان بعضهم وهو في اخر رمق يأخذ سلاحه ويخرج مع المقاتلين ويقول ان لم يكن في ذلك صلاح في الدنيا ففيه حفظ للدين فلما طالت مدة المحاصرة وعجزوا عن المقاومة وخلت المدينة من الفتيل والنقير والحبة والقطمير ورأوا القسس تبيع شيئًا

كثيرًا من الغلال ولا ترثي لما هم فيه من القحط لم يسعهم الاّ ان
قاموا دفعة واحدة على بعض الديورة فوجدوا فيها شيئًا كثيرًا من
برّ وخبز وادام ولحم قديد فاخذوه وتقاسموه ثم امر المجلس بتوزيع
الفقراء وذوي العاهات على الديورة كل دير بحسبه وقدَّر لكل
شخص شيئًا معلومًا من الخبز والادام فلما علم القسس ان لا مفر من
امر المجلس صاروا يصطادون كل ما عثروا به من الحيوانات
ويطبخونه لهم بدمه وامعائه وياتون مكان الخبز بعظام الموتى فيسحقونها
ويلتونها بتراب وماء ويعملون منه خبزًا فلما تمادى الحصار وراوا
ان حالهم آل الى الهلاك والدمار فر منهم خلق كثير وذهبوا الى
الملك وطلبوا ان يأذن لهم بالخروج لاجل ان يتحصلوا على ما
يقتاتون به فاذن للفقراء والعجائز والنساء فخرج منهم نحو ثلاثة الاف
نفس ثم امر بالمنع من الخروج ثم لما رای ان حصارهم قد طالت
مدته ولم تحصل به امنيته دبر في نفسه انه لا يتمكن من المدينة
واهلها ما دام على المذهب البروتستاني واهل المدينة كاثوليك وان
الراعي والرعية لا يستقيمان الاّ اذا كانت ملتهما واحدة ودعوتهما
متحدة ثم اخبر خواصه بذلك فقالوا الراي ما رأيت فلما علم انهم
وافقوه ارسل الى المدينة يخبرهم بدخوله في دينهم وذلك سنة ١٥٩٥
ففرحوا به وفتحوا له الابواب وكانت مدة الحصار نحو خمس سنين
فلو رأيتهم حين دخلها لرأيت منهم شيئًا عجيبًا وقد قويت منهم العزائم
واكثروا لاجله الولائم ولما تملك ودخل المدينة لم يكن له غرض

سوى عمارتها وانتظام امورها فاول شي بدأ به ان عمل قوانين للعدل بين اهلها ثم اتخذ في اسباب انتعاشهم واتساع دائرة معاشهم فنظم طرقا وفتح شوارع ووسعها الاَّ انه عانى في فتح هذه الشوارع مشقة عظيمة حتى ارضى اصحاب الاملاك لاسيما القسس منهم لانهم كانوا يتعرضون للبنايين والفعلة لعدم سابقة لمثل هذا ومع ذلك فقد تم مراده واصبحت المدينة كثيرة الميادين والشوارع خصوصاً الميدان الذي هو داخل السراي الملوكية الآن ومن حبه لنظافة المدينة واهلها خص قوماً بكنس قماماتها ودفع وحلها وفي ايامه وايام من بعده وهو لويز الثالث عشر كثرت العربات وترتب على ذلك كثرة العربجية فكثرت حركاتهم بالليل ووقعت بينهم المنازعات حتى سرت منهم الى ابناء الامراء وسبب ذلك كله النساء فتضرر الاهالي ولم يزل الحال على هذا الى ان عمل ريشيليو قوانين العقاب فنقص بعض نقص ثم لما تغيرت احوالهم وانتقلت الى درجة الرفاهية غيروا هيئة بيوتهم فبنوها بالحجر بدل الخشب وزخرفوها بالرسوم خصوصاً اعيانهم واغنياؤهم ولم يزالوا في تقدم الى ان تولى لويز الرابع عشر فزادوا في الرفاهية والتمدن وفتحت في ايامه مدارس العلم واحترمت اهله وانشاء رصدخانة ومعامل لتكرير البارود وكثرت في ايامه انواع الملاهي والملاعب المسماة بالتياترات وزين اللوفر بالعمد التي حوله واحدث في المدينة ميادين للنزاهة منها ميدان الكاذوريل الذي عمله للوليمة سنة ١٦٦٢ وميدان فندوم

وميدان النصر وانشأ حول المدينة ابوابًا غير ابوابها الاصلية منها
باب النصر الذي وضع اساسه مارتان وردم بابًا كان انشأه انتون
وقد هدم سنة ١٧٧٧ وردم الخنادق وغرس الاشجار التي ترى
الآن حول البلوار وازال تلالاً كانت تضر بصحة اهل المدينة ومن
حولها وبنى محلها ابنية بديعة ورتب مصابيح في الطرق وخص
رجالا لاطفاء الحريق وظهرت في مدته العربات الكبيرة المعروفة
بالامنيبوس ولم تكن موجودة من قبل وخصصها باماكن معينة
وجعل لكل مكان اجرة معلومة ولكن لغلو اجرتها كان لا يركبها
الاّ من لا يستطيع ركوب العربات المعتادة ومنع من ركوبها
العربجية ونحوهم وكانت اولا سبعًا ثم صارت اثنى عشرة ولهذا
كانت قليلة الربح ثم في سنة ١٨٢٨ رخص في ركوبها لكل من
اراد وفي ذلك الوقت كان مأمور الضبطية وناظر المالية واحدا
فلما راى الملك ان الواحد لا يقوم بالوظيفتين كما ينبغي امر ان يعين
لكل وظيفة واحد وبسبب هذا التنظيم أمن الناس على اموالهم
واهليهم واتسعت عمارة المدينة وكثر الوافدون اليها حتى بلغ عددهم
في ايامه خمسمائة الف نفس وعدد الدروب خمسمائة وعدد الميادين
مائة والقناطر تسعًا وعدد المنازل اثنى عشر الفًا الكبير منها اربعة
الاف ولكن في ايامه عزت النقود وبلغ دين الحكومة غايته لما احدثه
من العمارات والتنظيمات واحصي الدين بعد موته فكان ثلاثة
مليارات من الافرنك فانشأ جان لاوو بنكا للمصارفة وجمع فيه

ستة ملايين من الليرات فجزأها الى الف ومائتي سهم كل سهم ستة الاف وستمائة وكان من شروط ذلك البنك ان يقبل فيه بدل النقود اوراق حوالات فلما اخترع ذلك تعامل بها الناس غنيهم وفقيرهم حتى صار ملحقًا بالتجارة وهرع اليه الناس ولما اشتهر امره وضع صاحب البنك في جهات امريكا عدة مساهمين ثم اجتمع البنك والكومبانية وصار مالهما واحدًا وادارتهما واحدة فبلغت قيمة السهم الواحد تسعة الاف ليرا وذلك سنة ١٧٢٠ ثم في سنة ١٧٢١ صدرت اوامر الحكومة بنقص قيمة الاسهم تدريجًا وحدد لذلك ميعاد غايته اول شهر ديسمبر من السنة المذكورة وان كل من تاخر عن الميعاد المذكور نقص قيمة سهمه فتضرر من ذلك اكثر الناس وفي سنة ١٧٧٠ اجتمع ناس وارادوا ان ينوروا شوارع باريز بالزيت وجعلوا على كل مصباح في السنة الواحدة ثلاثة واربعين ليرة واثنى عشر صولدي ليس منها ثمن العواميد التي تحمل المصابيح فكانت باريز في تلك الايام على غاية في التقدم وكثر بها المؤلفون ورحل اليها كثير من اهل اوروبا وخفف فيها شان العقوبات فكان كل انسان يتكلم بحريته ويكتب ما شاء من احوال الخلق سواء كانت خصوصية او عمومية سياسية او دينية وظهر فيها رجال ذوو افكار فالفوا كتبًا انتشرت في سائر الاقطار فانجلت عنهم غياهب الجهل وتميزوا على غيرهم بالعقل وبلغ عدد منازل باريز في تلك الايام خمسين الفًا منها خمسون لوكندة وعدد الدروب

ذات المصابيح سبعمائة وسبعة وستين وكان بها من الكنائس ذات النواقيس ست واربعون ومن غيرها عشرون واحدى عشر تكية للفقراء ثلاث للرجال وثمان للنساء ومن الديورة مائة وثلاثة وثلاثون ومن المدارس عشر وكان بها تسعة وعشرون مارستانًا وخمسة واربعون مجرىً لاخراج القاذورات وستون حنفية واثنتا عشر سوقا وثلاثة ابواب يقال لكل واحد منها باب النصر وخمسة هياكل من التنج فان لحق باريز من القيام الاول بعض الاضمحلال الاّ انها من بعده الى الآن لم تزل آخذة في التقدم بكثرة المباني والمعابد الدينية والمدارس والامكنة الخيرية كالمارستانات واللوكاندات ومحلات اللهو والتياترات فترى كل من احب ان يمتع نظره جاءها او يرى ابدع مخترع قصد ارجاءها فهي مركز اللهو والانبساط وكل بدعة في الدنيا لها بها ارتباط لانها قد حازت محاسن الدنيا اجمع وليس من يرى كمن يسمع ومما يدل على انها انتقلت من حالها الاول ان مساحتها في الاصل كانت لا تزيد عن ستين فدانًا مصريًا يحيط بها سور مبني كبناء القرى ثم ما زالت تتسع ويكثر اهلها الى ان بلغت مساحتها خمسمائة فدان وذلك بعد موت فيليب دوكيش وبني حولها سور محكم في غاية الارتفاع وجعل فيه ابراج ومزاغل في غاية الاحكام والتحصين ثم بلغت في القرن الرابع عشر والخامس عشر تسعمائة فدان وفي ايام لويز السادس عشر وقيام الدولة الفرنسوية القيام الاخير

وذلك سنة ١٧٧٢ بلغت مساحتها الفين وستمائة وسبعين فدانًا ثم في سنة ١٨٠٠ بلغت ستة الآف وخمسمائة فدان واما الآن فهي ضعف ذلك ولا يخفى على حضرتكم ان سعة المكان تابعة في الغالب لكثرة السكان فقد بلغ عددهم الآن نحو مليون ونصف بعد ان كانوا في القرن التاسع والعاشر لا يزيدون عن ٢٣٠٠٠٠

ثم قال الانكليزي وفيما ذكرناه كفاية وان كان ما قيل بالنسبة لما يقال في حقها قليلاً الاَّ ان ما لا يدرك جله لا يترك كله ولكن بقي امر اريد ان اخبركم به وهو ان صاحبنا الذي كنا اجتمعنا به حين كنا بمرسيليا ارسل تذكرة يسلم فيها على حضرتكم وعلى نجلكم ويعتذر اليكم في عدم ارساله جوابا مخصوصا لكم بان لسانه في العربية لا يفي بما يجب لجنابكم وانه بعد يومين يكون عندنا بباريس وارسل ايضا يستفهم مني عن امر يتعلق بجنابكم كان سألني اياه حين كنا هناك ولم اتفق معه فيه على شي وقد ارسل الآن يطلب الافادة عنه

فقال الشيخ وما هذا الامر

فقال انه كان تمنى عليّ ان ارجى حضرتكم في ان تعطوا بجمعية المعارف المشرقية بعض دروس من الفنون العربية وانما لم اخبركم بذلك حين كنا هناك لكونه لم يكرر عليّ فظننت انه نأى عنه وهذا الرجل من اعيان تلك الجمعية فها هو الآن ارسل يطلب الجواب وهو موقوف على راي الجناب وهولاء الجماعة كلهم امراء

علماء كرماء وتعرفكم بهم مما يزيد في شهرتكم ويرفع من درجتكم فضلا عن الحصول على مال بوجه حلال وقد اخبرني ذلك الرجل ان مرادهم ان يجعلوا لحضرتكم في كل درس خمسين فرنكا ولا مشقة عليكم في ذلك فان زمن الدرس ساعة ونصف فالراي عندي انه اذا اتى وخاطبكم في هذا الشان ان لا تمتنعوا فان فيه فوائد كثيرة اقلها اطلاعكم على غوامض عوائدهم التي لا تعلم الاّ منهم خصوصا وقد قيل بارك الله في من نفع وانتفع

فاثنى الشيخ على مقصده الحسن وكان قد حان وقت الصلاة فاستاذن وقام الى مصلاه فصلى ثم نام

المسامرة الثانية والثمانون

البالو

ولما اسفر الفجر قام وصلى ثم دخل عليه ولده فقبل يديه فسأله كيف كانت ليلتكم وما الذي رأيتموه فيها فقال ما رأيت الا نوعا من الجنون حتى تحقق عندي معنى قولهم الجنون فنون رأيت الشيخ هناك لا يوقر شيبته والامير لا يراعي مقامه وابهته وكل انسان تنازل عن قدره لا تمييز بين وضيعهم وشريفهم ولا بين غنيهم وفقيرهم ورأيت اقواما في صفات مختلفة منهم من ستر وجهه بقماش رقيق ومنهم من ستره بالجلد ومنهم من ستره بالورق ومنهم من صبغه بلون الورد ومنهم من تلثم وكأن الشيب لاح بعارضيه ومنهم من جعل له لحية وكأنها جاوزت ثدييه ورأينا الوان اجسامهم مختلفة فمنهم الاسود والاحمر والابيض والاشقر وغير ذلك من الالوان التي

لا تكاد توجد في نوع من الانسان ومنهم من ستر عورته بجلد كالجراب ومن وضع على ظهره فروة كهيئة الاعراب وغير ذلك من الهيئات والصفات وسمعت هناك اصواتا مختلفة وانغامًا متنافرة غير مؤتلفة ولما رأيت ما هم فيه من الجنون تمنيت الرجوع ولا احضر هذا المجون ولولا ان من شرط المرافقة اللين والموافقة لرجعت ولا كنت رايت ولا سمعت فان يعقوب حين وصلنا الى هناك قبض على يدي فتبعته فسار بي نحو ساعة الى ان وصلنا محل التذاكر فاخذ تذكرتين ودفع في كل تذكرة افرنكين ثم سرنا في متسع من الارض حتى وصلنا ميدانًا فيه من انواع اللطائف واشكال الرسوم والزخارف ما لا يحصى فوجدناه ملآنًا نساء ورجالا وكهولا واطفالا ولاختلاف هيئاتهم لا تعلم اجناسهم وحول ذلك الميدان غرف كثيرة منها ما يسع واحدًا ومنها ما يسع اكثر ومنها المظلم ومنها المضيء فقعدنا في احداها فلم يمضِ الاَّ لحظات واذا بالآلات قد ضربت وقام غالب من بالميدان فرقص عليها فكانت تسرع تارة وتبطئ اخرى وهم معها في البطئ والسرعة فكانوا يقومون للرقص مثنى وفرادى الرجل مع المرأة والمرأة مع الرجل فيرقصون ساعة ثم يقعدون ليستريحوا ثم يقومون ثانيًا او يقوم غيرهم ولهم في رقصهم حالات.فتارة يقومون صفين ويسيرون خلف بعضهم الى وسط الميدان ثم يعود كل صف الى موضعه الذي بدا منه او يقوم موضع الاخر وتارة ياخذ احدهما بيد الاخر ويدوران خلف بعضهما

وكيفية حركتهم في حال رقصهم ان يضربوا الارض بارجلهم فتارة يضعون واحدة ويرفعون الاخرى وتارة يضعونها ويرفعونها جميعا ومن الغريب ان غالب الراقصين والراقصات من المتفرجين لا من ارباب المحل ولكل كيفية من هذه الكيفيات اسم معروف بينهم كما اخبرني يعقوب منها ما يسمى بولكا ومنها ما يسمى الكانكان ومنها ما يسمى الولس وقد اخذني يعقوب في بعض سكتات الاستراحة ودخل بي مكانًا داخل المكان الاول فرايت فيه قومًا اخرين منهم من يلعب القمار ومنهم من يشرب السجارة وغير ذلك والكل في هيئته المعتادة لم يغير منها شيئًا فما نظرت الى رجل منهم الاّ وهو يلاغيني ولا امرأة الاّ وهي تناغيني ففهمت من كلامهم ان مقصودهم الرقص معي او الجلوس معهم ولكون معرفتي بلغتهم لم تبلغ درجة معرفتهم بها كان يعقوب يبادر بالاجابة عني ويخبرهم اني مصري لا معرفة لي بشي من هذا الامر من اصله وان مجيئي انما هو من باب قولهم العلم بالشيء خير من جهله وما رأيت هناك رجلا الاّ ومعه المرأة والمرأتان وتارة يكون مع المرأة الرجل والرجلان فسألت يعقوب هل بين هولاء النساء والرجال نسب فقال لا نسب ولا حسب وانه ربما يجتمع الرجل مع زوجته او امه او ابنته ويقطعون زمنا في هزليات وسخريات ثم يفترقون ولا علم لاحدها بالآخر لما يحصل من التغيير والتشكيل الذي رأيته وانه قد يجتمع في مثل

هذه الليالي كثير من الشبان فيصرفون فيها مبالغ جسيمة وان الفاحشة بينهم ليست قاصرة على اهل المدينة لانه يحضر من الارياف بعض نساء اما لتعثر لها على خدمة واما لتنظر لها صاحباً فلذلك يكثر الفحش والمنكر في مثل هذه المواضع من غير منكر ولا مانع هذا ما كان واظن انه بعض ما حواه ذلك المكان ولا اكتم عنك ما رأيت ولا ما ارى لعل ببركتكم يغفر لي ما خطه القلم وبه جرى

فقال الشيخ لولده او قد نظرت الى ذلك كله وملأت عينيك مما لم يقل احد بحله أ لهذا ارسلتك او على مثله عودتك أما علمت ان من حام حول الحمى يوشك ان يقع فيه أما سمعت قوله صلى الله عليه وسلم ان الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم أنسيت قوله عليه الصلاة والسلام عن ربه ذي الجلال والاكرام النظر سهم مسموم من سهام ابليس من تركها من مخافتي ابدلته ايماناً يجد حلاوته في قلبه فللتوبة استعد ولمثلها لا تعد وبينما الشيخ يعظ ولده ويعنفه على ما حصل واذا بيعقوب عليهما قد دخل فقطع الشيخ كلامه ووجه الخطاب الى يعقوب ولامه انما ألان له الخطاب ليقف على ما عنده من الجواب فقال لم يكن مقصودي من ارساله معك الاّ لتطلعه على احوال هذه المدينة واهلها لا لتطلعه على مثل هذه الامور اذ لا ضرورة الى معرفتها

فقال يعقوب يعتذر اليه يا سيدي لا تواخذني فاني اعلم يقيناً

ان حضرتكم تأنفون من حضور هذه المواضع ولكن عذري ما علمته فيكم من الرغبة في الوقوف على عوائد هذه البلاد واهلها فذهبت به اليها لتقفوا به على معرفة هذه العادة ولو كنت اعلم ان ذلك يخل بحسن التربية ما ذهبت به والذي اخبركم به نجلكم وان كان منافيا للوقار والكمال الاّ انه مألوف لهم مرغوب فيه عندهم فان لهم بالبالو والرقص شغفا زائدا حتى ان الامراء والملوك لتفعله في بيوتهم ويدعون اليه احبابهم من نساء ورجال

واما الاماكن المعدة له كالذي كنا به الليلة فلا يذهب اليها الاّ فقراء الناس وغرباؤهم

ومن عوائدهم ان كل من دعي الى البالّو ولو كان دني الحرفة لا يذهب الاَّ في ثياب غالية القيمة زائدة الكلفة وانهم يعتنون بشان نسائهم اكثر من اعتنائهم بانفسهم حتى ان الرجل منهم ليرغب في ان تكون امرأته او بنته هي المنظور اليها دون من عداها فتجدهم يبالغون في حلية نسائهم ويصرفون فيها اكثر مما يصرفونه على انفسهم حتى لو اعسر الرجل لا تلتمس له امرأته عذرا بل تضايقه حتى يأتي لها بما تتزين به جبرًا وقهرًا ومن عوائدهم ان لكل وقت عندهم هياة مخصوصة لا يتعداها ولا يلبس فيه ما عداها وان نسائهم هن اللائى بيدهن الحل والربط داخلا وخارجا فلا يتصرف الرجل منهم في شي الاّ باذن امرأته

فقال الشيخ لعمري ما في هذا كله شي يمدح بل لا ثمرة له الاّ الشقاق وفساد الاخلاق فان المرأة بالنسبة للرجل كالنار بالنسبة للحطب فكما يترتب علي اجتماع الحطب والنار الالتهاب والاتقاد كذلك يحصل من اجتماع الرجل بالمرأة وقوع كليهما في كثير من انواع الفساد ولولا تمكن هذه العوائد منهم وتوارثهم لها عن متقدميهم لما الفوها ولا شكروها ولكن العادة محكمة



المسامرة الثالثة والثمانون

اهرام مصر

والمقاييس

ثم قام الشيخ واخذ ولده ويعقوب وتوجهوا الى محل الانكليزي فسلموا عليه ثم خرج ابن الشيخ مع يعقوب وبقي الشيخ والانكليزي يتجاذبان اطراف الحديث من القديم والحديث وبينما هما كذلك واذا برجل من اصحاب الانكليزي فقام له واجلسه بجوار الشيخ ثم اخذ يعرف الشيخ باحواله وكثرة سياحته وان له معرفة تامة باللغة الفارسية والتركية والعربية وعليه في مدرسة الجمعية المشرقية دروس يلقيها بهذه اللغات فلما سمع الشيخ ذلك عظم الرجل في عينه وقال الان تم الارب حيث ظفرت في هذه البلاد برجل يعرف لغة العرب فلعلي اكتسب من معلوماته فوائد تحلّ من

سياحتي محل واسطة العقد من الفرائد اذ لذة مجالسة العلماء فوق لذة الظمآن بشرب الماء

ثم قال الرجل للشيخ ايها الاستاذ ان طبعنا يميل كل الميل لمعرفة اخبار بلاد المشرق وقلوبنا مجبولة على حب اهلها لا سيما المصريين فان جميع العلوم النافعة في بلادنا منقولة لنا منها بواسطة الرومانيين وغيرهم والتقدم الذي تفتخر به بلادنا منشأه مصر فلها علينا الفضل بل على جميع سكان الكرة فكلما نحن فيه من التقدم والثروة سببه المصريون فيا لهم من قوم ادخروا ذخائر انتفع بها بعدهم الاواخر فانهم قد وضعوا اساسات انبنى عليها لمن بعدهم هذه التقدمات وهذه العلوم الموجودة الآن هم المؤسسون لها وهذه الصنائع الفاخرة كان لهم فيها اليد الطولى على اهل القرون الاولى وما بقي بعدهم من الاثار والماثور عنهم في كتب الاخبار من الابنية الجليلة والصنائع الجميلة يعرب عن مزيد قدرتهم وشدة مهارتهم وعلو افكارهم

فقال الشيخ ما ذكرته لمصر من المحاسن بهذا الاسلوب من باب نظر المحب للمحبوب كما قال الشاعر

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

كما ان عين السخط تبدي المساويا

فقال الرجل ايها الاستاذ وحق من جعلك للعلوم كهفا وحباك كمالا ولطفا انه لولا المصريون لكنا الى الان غرقى في

بحار الجهل حائرين في اودية الضلال لا نعرف كيف التمتع بلذات الدنيا التي اعدها الله لنا سبحانه فوحقك اني منذ ازمان احب ان اسافر لتلك البلدان وادور في نواحيها واطلع على ما فيها من عجائب الآثار التي لا نظير لها في قطر من الاقطار ولكن يحول بيني وبين ذلك خطوب الزمان وصروف الحدثان ومع ذلك فاني عازم على السفر في هذا العام ولعلنا نجتمع معا على شاطئ بحر النيل

نعم ان السياحين ما تركوا خبرًا الا ذكروه ولا اثرًا الاَّ تقلوه على حسب ما شاهدوه ولكن ليس الخبر كالعيان وفي هذه المدة سهل السفر في البر والبحر بواسطة آلات البخار فانها تقطع بعيد المسافات في اقرب الاوقات فخفت مشقة السفر وصار الامن عامًا وامتنع ما كان يخشى في الاسفار من الغوائل

فاجابه الشيخ بالبشر واظهار المسرة والشكر والارتياح للقائه في مصر

فشكر الرجل الاستاذ ثم قال له هل بمصر الان ما يسهل الامر على السياحين من بيوت معدة لاقامتهم ووابورات برية وبحرية تسهل امر الذهاب والاياب وغير ذلك مما يلزم ايام السفر

فقال الانكليزي الان لا فرق بين القاهرة ومدن اوروبا فان فيها لوكندات مختلفة الانواع وفي نيلها وابورات مختلفة القوى تسير على راحة السياحين وتذهب بهم حيث شاؤا فضلا عن

السفن الشراعية المزخرفة باحسن الزخارف المستكملة الآلات والادوات فتجد السائح يختار احدى السفن ويركبها مع من احب او بمفرده ولا يزيد عليه المصروف عن مائتي جنيه مدة شهري السياحة اللذين يقضي بعضهما في الاقامة بمصر وضواحيها وبعضهما السياحة جهة صعيدها ما بين اكل وشرب واجرة اماكن وسفن ورجال وغير ذلك

وان منّ الله سبحانه عليّ وكنت بمصر ذاك الوقت لازمتكم وكنت لكم الدليل لاني وان سبق لي رؤية كثير من بقاعها واطلعت على جميع الاثار الموجودة بها لكن اود ان اراها مرة ثانية فانه كلما تكرر نظرك اليها ازددت علما جديدًا واظن ان كل جيل يأتي لا بد ان يرى غير ما رايناه ويعلم غير ما علمناه فانظر الى اهرامها وعظيم بنيانها حيث وصفه كل انسان من بعد امعان النظر اليه كل الامعان جيلا بعد جيل ومع ذلك فكل وصفه بغير ما وصفه به الاخر من الكيفيات مع ان كلا ما ذكر الا ما رأى فتجد البعض وصف شكله واصله وسبب منشئه والغرض منه ولم يوافقه من اتى بعده فبعضهم قال انه مدفن لاحد الفراعنة وبعضهم قال انه كان محلا يرصدون فيه النجوم ومنهم من قال انه من الاثار الجليلة التي جعلها المصريون محلا لمعارفهم واثرا يستدل به من اتى بعدهم من الامم على ما كان لهم من الابهة والفخار والعظمة والاعتبار فهو اثر يدل بصورته وشكله على قدر ما وصلوا اليه من العلوم

الهندسية وعلم جر الاثقال وفنون انواع العمارة ويدل بوضعه الذي هو عليه وتوجيه زواياه على انه اثر فلكي وبه معبد للديانة وإذا حسب ما في اجزائه من النسب الصحيحة بالنسبة لبعضها وبالنسبة للدرجة الارضية دل على انه اثر لبقاء وحدة الابنية الطويلة والسطحية وقد شرح ذلك بعض علماء الفرنساويين في مجلد ضخم

فقال الشيخ رأيت في كتب العربية انه تربة وان به دهاليز في اسفله واماكن لا يعلم ما بها

وذكر بعض الناس ان به اموالا وذخائر وقد ظن المأمون الخليفة العباسي ان به اموالا عظيمة ففتح الهرم الكبير وصرف في ذلك مالا عظيمًا فلما لم يقدر على هدمه نأى عنه وقيل انه وجد بقدر ما صرف في الهدم

ثم بعد محادثات من هذا القبيل استأذن الضيف للقيام ودعا الشيخ والانكليزي الى منزله في الليلة المستقبلة فاجاباه ووعداه بالحضور ثم بعد ذهابه ببرهة قال الانكليزي للشيخ ياحضرة الاستاذ ان جميع المؤرخين قاطعون بان قدماء المصريين بلغوا من العلم والحكمة درجة لم يبلغها غيرهم وشهد لهم جميع الملل قديمًا وحديثًا بكمال العقل فبهذا لا يسلم العقل ان هولاء الحكماء العلماء العقلاء بنوا هذه الاهرام تربا ليس غير بل لا بد لهم من مقاصد جليلة في وضعها على هذه الكيفية

فقال الشيخ نعم ولا مانع ايضًا من ان يكون بناؤها على يد

ملوك متعددة ولا بد من احتياجها الى عمال لا تحصر وتجهيزات جسيمة اقتضاها صنع هذا الاثر قبل الشروع فيه بزمن طويل

قال الانكليزي فحينئذٍ لا مانع من ان يكون لهم غرض اصلي كان هو الباعث لهم على بنائها ولكن بسبب قدم هذا الاثر وسكوت من مضى من المؤرخين عن ذكر ما له من صحيح الخبر لم يقف احد على حقيقته بل ذهب كل فيه الى ما ذهب وتنوعت الاوصاف وكثرت الاقاويل

فقال الشيخ وما الذي ترتضيه من تلك الاقوال

فقال الذي اراه هو ما قاله احد العلماء الفرنساويين من ان الغرض منه الاشارة الى ما عندهم من العلوم والمعارف بوجه موجز وطريق معجز

فقال الشيخ وكيف ذلك فقال وجد ان طول ضلع القاعدة المربعة للهرم ٩٠٣ ،٢٣٠ م وان الارتفاع لكل من اسطحته ٧٣٢ ،١٨٤ م وان الفرق بين هذين الخطين ١٨٠ ،٤٦ م وهذا القدر ربع مقدار ارتفاع كل من اسطحة الهرم وهو مساوٍ لضلع الفدان المصري القديم المعروف بالاورور الذي ذكر هيرودوط وغيره ان مربع قاعدته مائة ذراع ولربما كان هو الجريب المعروف عندكم فعلى هذا يكون بين قاعدة الهرم وبين ارتفاع الوجه نسبة صحيحة كالنسبة بين عددي خمسة واربعة وكذلك لو قارنّا مقادير جميع اجزاء الهرم بالارتفاع المذكور لوجدنا انها منسوبة اليه نسبة صحيحة من غير

كسر فنرى ان ارتفاع باب الدخول للهرم ١٤٫ ١٥ م وهو عبارة عن جزء من اثنى عشر جزءاً من الارتفاع الكلي للهرم وان مدرج المدخل من ابتداء الارض الافقية الى اول المدرج الصاعد طوله ٣٢ متراً وهو عبارة عن عشر طول القاعدة وثمن مقدار الارتفاع وبهذه المقارنة تجد ان جميع الاجزاء منسوبة الى القاعدة او الارتفاع نسبة صحيحة ولو قسمت خمسمائة قسم لوجدت كل قسم منها ٤٦٢٫٠ م وهو طول الذراع المصري القديم ومنه نتج القدم المصري ولو قسم هذا الطول الى ستين قسما لكان القسم الواحد ٨٥٫٣ م وهذا الطول القصبة التي كانت مستعملة في قياس الارض عند دخول الفرنساوية ارض مصر وقبلهم كان ضلع الفدان بها عشرين قصبة والذي يستفاد من قول الخزاعي ان الذراع كان طوله في الزمن السابق اربعة وعشرين قيراطا في جهات الصعيد وفي وقته صار ثمانية وعشرين قيراطا وحيث كان مقياس الروضة موجوداً في وقته فبالضرورة يمكن استخراج مقدار الذراع القديم منه وحيث كان القياس الاخير ٥٣٩٫٠ م فيكون مقدار القديم ٢٤/٢٨ يعني انه ٤٦٢٫٠ م مثل ما وجدناه في الهرم وكان يستعمل اولا في قياس زيادة ماء النيل ثم زيد فيه اربعة قراريط

وان قسمت القاعدة الى اربعمائة قسم كان طول القسم ٥٧٧٫٠ م وهو طول الذراع البلدي ومن هنا يعلم بالبداهة ان الذراع البلدي المنسوب للبلد والقصبة المستعملة في قياس الارض

منسوبان لضلع الهرم نسبة صحيحة وكما ان الفرق بين طول القاعدة والارتفاع بقدر ربع الارتفاع كذلك الفرق بين الذراع المصري القديم والذراع البلدي بقدر ربع الذراع المصري القديم لانه باضافة ربع عدد ٠٫٤٦٣ م عليه يحصل ٠٫٥٧٧٥ م وكانت القصبة موجودة قديما ويستدل على وجودها بما ورد عن قدماء المؤرخين ان قدر طولها ٣٫٠٨ م فلو اضيف اليها ربعها كان الذي ينتج ٣٫٨٥ م وهو قدر القصبة التي كانت مستعملة الى دخول الفرنساوية مصر وعلى هذا فالفرق الذي بين الذراعين وبين القصبتين هو عين الحاصل بين القاعدة والارتفاع للهرم وضلع الهرم ستون قصبة بالقصبة الجديدة لزيادتها على القديمة بقدر ربعها وضلع القاعدة يزيد عن الارتفاع بقدر الربع وعلى ما نقل عن المؤرخين ان الاستادة ستون قصبة تكون الاستادة هي ارتفاع الهرم فيعلم مما سبق ان الهرم اثر للاقيسة يستدل منه على وحدة المقاييس المستعملة في المساحة الذراعية وغيرها واتجاه زواياه مع الضبط المحكم للنقط الاربع الاصلية يدل على انه اثر فلكي

وايضاً مقـــدار الدرجة الارضية للعرض المتوسط لمصر ١١٠٨٣٧٫١٦٨ م وان جزأً من ستمائة جزء منها يساوي ارتفاع الهرم وهو ١٨٤٫٧١٢ ومن هنا يكون ارتفاع الهرم منسوبا للدرجة الارضية لمصر ويكفي لوجود مقدار الدرجة الارضية ضرب مقدار الارتفاع في ستمائة ولا يكون الفرق الا خمسة امتار او ستة وهو

فرق غير محسوس وبما نقل عن المؤرخين ان الدرجة الارضية ستمائة استادة يتضح ان هذه الاستادة مصرية وان المصريين قدروا الدرجة الارضية في الازمان السابقة ونسبوا لها مقاييسهم كما فعل المتاخرون في المتر المستعمل عندنا الان وجعلوا ارتفاع وجه الهرم علما عليها

وان ضلع القاعدة للهرم جزء من اربعمائة وثمانين جزأ منها بمعنى ان الدرجة الارضية المتوسطة لارض مصر قدر ضلع قاعدة الهرم اربعمائة وثمانين مرة

ويؤخذ من قول هيرودوط وغيره من المؤلفين ان الذراع المصري القديم جزء من اربعمائة جزء من الاستادة وهو صحيح لاننا لو قسمنا مقدار الارتفاع على اربعمائة لوجدنا ما نتج ٤٦٢،٠ م وهو ما وجدناه للذراع فيما سبق

والاستادة التي استعملها هيرودوط وبلين وسترابون وغيرهم واطلقوا عليها اسم الاستادة الاولنبية لم تكن غير الاستادة المصرية وان الاروام وغيرهم نقلوها من مصر لارضهم

وبناء على ما سبق يكون قدر محيط قاعدة الهرم مائة وعشرين مرة هو مقدار الدرجة الارضية وقدر الارتفاع وحده وهو الاستادة عبارة عن ست ثوان ارضية ومحيط القاعدة ثلاثون ثانية او نصف درجة ارضية

والتفاضل بين ضلع القاعدة وارتفاع الوجه يكون ربع استادة

ويساوي مائة ذراع مصري قديم ويكون هو ضلع الفدان المصري القديم المعبر عنه عند الاقدمين بالاورور وعندكم بالجريب وهو الوحدة الذراعية التي كانت مستعمله في قسمة الارض بين الاهالي وعلى موجبها تجبى الاموال وتنصب الحدود بعد انحسار ماء النيل عن الارض

ويؤخذ من كلام المؤرخين ان القدم جزء من ستمائة جزء من الاستادة فاذا قسمنا الارتفاع الى ستمائة جزء كان الذي ينتج ٠٫٣٠٨ م وهو مقدار القدم وحيث كان هذا هو مقدار القدم الرومي فيعلم ان اصله مصري وجميع المؤلفين اتفقوا على انه ثلثا ذراع فاذا اضيف حينئذٍ نصف ٠٫٣٠٨ م اليه كان المجموع ٠٫٤٦٢ م وهو مقدار الذراع كما سبق

فقال الشيخ المتعارف في الشرع وبين الناس ان الذراع هو ذراع الآدمي وبه ضبط الميل والفرسخ وغيرهما من الاقيسة وان الذراع اربعة وعشرون قيراطا او اصبعا والاصبع ست شعيرات والشعيرة ست شعرات من شعر البرذون اي البغل

فقال الانكليزي نعم كان ذلك في مبدأ الامر قبل اتساع الجمعية الاولى واما بعدها فصاروا يستعملون ذراع الآدمي في قياس الاشياء التي تلزمهم كالاقمشة وغيرها ويستعملون القدم في قياس الاطوال الارضية ثم لما اتسعت دائرة المعاملات بينهم صاروا ينظرون الى شي ثابت لا يقبل التغير يقيسون عليه فلم يروا اوفق

من الدرجة الارضية فقدروا بها الذراع ونسبوا اليه مقاييس المعاملات المستعملة الى الان وما حصل فيها من التغير غير محسوس لا تدركه العامة ويوكد ذلك قول بعض المؤرخين مثل هيرودوط فانه ذكر ان النسبة بين القدم والذراع كالنسبة بين اثنين وثلاثة يعني ان القدم ثلثا ذراع وليست هذه النسبة موجودة بين قدم وذراع الانسان اذ النسبة بينهما كالنسبة بين اربعة وسبعة ولو فرض قسمة الذراع الى اربعة وعشرين قيراطا كما هي العادة لكان القدم الفلكي ستة عشر قيراطا منها مع ان القدم الفلكي اربعة اسباع ذلك فلا يكون الاّ عددا كسريا ويكون استعماله عسرا جدًا بخلاف الاول لا عسر في استعماله اصلا وهذا مما يؤيد ان الذراع والقدم الجاري بينهما القياس ليسا فطريين لان طول القدم الانساني اقل بكثير من القدم المستخرج بنسبته للذراع سواء كان طبيعيا او فلكيًا فان قدم الانسان يندر ان يتعدى طوله ٠٫٢٦٥ م حيث يكون طول الرجل ١٫٧٣ م ويكون اقل من ذلك ان كان طول الرجل اقل

وقدم الانسان تبلغ القامة به ستا ونصفًا فان لم يكن المقصود هنا القدم الفلكي المتفق عليه كيف يذكر المؤرخون ان القامة ست اقدام فقط وطول قامة الانسان ثلاثة اذرع ونصف بذراعه كما هو مدون في الكتب الصحيحة فعلى هذا لا يرتاب احد في ان القدم والذراع المقدر بهما الاطوال بل جميع المقاييس هما المنسوبان

للدرجة الارضية وانهما اتفاقيان لا فطريان ونسبة القدم الى الذراع ونسبة الذراع الى القامة كنسبة اربعة الى ستة وستة الى اربعة وعشرين في حال كونهما الاجزاء الفلكية

وتدل هذه الاعداد على قبضات كل قبضة اربعة اصابيع فلكية ايضاً بمعنى ان القدم اربع قبضات والذراع ست والقامة اربع وعشرون قبضة واما نسبتها الطبيعية لبعضها فهي كنسبة اربعة وسبعة وستة وعشرين لبعضها

وجميع ما قلناه من ان جميع الاقيسة منسوبة للدرجة الارضية مذكور في كتب المؤرخين فانهم ذكروا ان الخطوة الكبيرة المصرية مساوية للقامة يعنون انها ست اقدام وليس في الآدميين من تكون هذه خطوته فعلى هذا لا يشك في انها خطوة اتفاقية منسوبة للقدم المنسوبة للدرجة الارضية كما ان الخطوة الضعيفة للمصريين خمس اقدام بالقدم الفلكي والخطوة الهندسية الرومية طولها خمس اقدام ايضاً فلكية فتكون حينئذٍ عين الخطوة الضعيفة للمصريين وتكون منقولة منها الى بلاد الروم فالخطوة الهندسية هي القامة ايضاً والباع الذي كان يستعمل في القياس وكان طوله ست اقدام فلكية او اربع خطوات بسيطة كل خطوة منها قدم فلكية ونصف او سبع اقدام بقدم الانسان والميل المصري الذي صار اساسا لجميع الاميال عند جميع الملل في الازمان القديمة مقداره الف مرة بها والى القامة او الخطوة ينسب التوآذ الذي كان مستعملا عند الاوروباويين

وهي بالمتر ١٫٨٤٧٢ م وتدخل في محيط قاعدة الهرم خمسمائة مرة وارتفاع الجلسة التي تحت الهرم قامة كاملة او خطوة هندسية مصرية

والذي يوكد كون تلك الاقيسة جميعها فلكية احتواء كل من الدرجة الارضية ومحيط الكرة نفسه عليها عدد صحيح فانه لو قيس طول محيط الكرة بالقدم لوجد عبارة عن حاصل ضرب ستة مرفوعا الى الدرجة الخامسة وطول الدرجة الارضية المصرية ثلاثمائة وستون الف قدم وان قيس بالذراع كان طوله عبارة عن حاصل ضرب ستة في عشرة اربع مرات مرفوعا الى الدرجة الخامسة وفضلا عن ذلك ان الميل الرومي الذي طوله خمسة الاف قدم اذا قيس به محيط الارض اشتملت عليه سبعة وعشرين الف مرة فكيف تكون هذه النسبة صحيحة ان لم تكن القدم منسوبة للدرجة الارضية

ولو اخذ ثمن هذا الميل وجعل مقياسا وقيس به الدرجة الارضية لاشتملت عليه ستمائة مرة

وحينئذٍ يكون هو الاستادة الاولنبية التي قلنا انها ارتفاع وجه الهرم وماخوذة من مصر ولكن دخلها زيادة ونقص بتداول الايام وتغيير الدول مثلا :

الفتر قدر ثلث الذراع البلدي وهو خمسة اجزاء من اثنى عشر جزء من الذراع القديم والشبر جزآن من خمسة اجزاء من الذراع

البلدي وهو نصف الذراع القديم وهو ثلث الذراع الاسلامبولي وهو جزء من الف جزء من ضلع قاعدة الهرم وكل اربعة اشبار ثلاث اقدام مصرية

وأما الذراع الاسلامبولي فلم يعرف بمصر الّا سنة ١٥١٧ ميلادية حيث دخلت الدولة العثمانية بها والاصل غير معلوم ويزيد عن الذراع البلدي بقدر ثلثه وزيادة ثلاثة مليمتر وبالنسبة لذراع المقياس الموجود بالروضة فهو قدره مرة وربع مرة

وقد عرفنا مما سبق مقدار الذراع البلدي ونسبته للذراع القديم واما ذراع مقياس الروضة فاصله الذراع القديم باضافة سدسه اليه والفرق ليس بمحسوس لان الذي ينتج من القياس على عمود المقياس لطول الذراع ٠٫٥٤٠ م والذي ينتج من الحساب يكون ٠٫٥٣٩ م

وهذا الذراع لا يستعمله المعلنون بارتفاع درجة النيل بل يستعملون ذراعا صغيراً اتفاقيا لتطمئن قلوب الاهالي وبهذه الواسطة تحصل الحكومة على تحصيل المال من الاهالي وهذا الذراع ثلثا ذراع المقياس وينقسم الى اربعة وعشرين قيراطا كانقسام ذراع المقاييس اليها انما قراريط كل على حسبه فيكون صغره مقابلا للواحد وربع من تقاسيم الذراع الحقيقي وقسم العشرين يقابل قسم الخامس عشر وقسم اربعة وعشرين يقابل قسم سبعة عشر وثلاثة

ارباع وذراع المنادي يساوي ثمانية عشر قيراطا وثلثي قيراط من قراريط الذراع القديم

واما الذراع الذي تستعمله البناؤن والنحاتون فهو خمس القصبة الكبيرة القديمة وان شئت قلت هو جزء من مائة جزء من ضلع الفدان الكبير المساوي ضلعه عشرين قصبة كبيرة كما ذكرنا وضلع الهرم يشمله ثلاثمائة مرة عددا صحيحا واذا جمعت مقدار الذراع القديم على القدم القديمة كان الذي ينتج هو طوله فهو قدمان ونصف بناء على ذلك

والنحاتون يسمونه قيراطا ويقسمونه ثلاثة اقسام ويسمون كل قسم منها ثلثا وكل ثلث يقسمونه نصفين ويسمون كل نصف نصف ثلث وكل نصف ثلث يقسمونه اربعة اقسام ويسمونه قراريط فيكون كانه منقسم الى اربعة وعشرين قسما ولكن لم ندرِ من اين جاء له هذا الاسم مع انه لا بد لهذه التسمية من اصل كان معروفًا فيما سبق ثم جهل ولو فرض انك ضربت مقدار هذا الذراع وهو قدمان ونصف في اربعة وعشرين تجد ستين قدمًا مصرية وهو قياس كان مستعملا عند المصريين في قياس الارض المحروثة وقدره اربعون ذراعا بالقديم والذراع المذكور هو الخطوة البسيطة وهي تساوي ذراعا بلديا وثلثا اي ان الذراع البلدي ثمانية عشر قيراطا من قراريطه والاستادة المصرية تشمله مائتين واربعين مرة ويوخذ من قول الادريسي وابي الفدا وابي الفرج والمسعودي ان الفرسخ

ثلاثة اميال هاشمية او خمس وعشرون غلوة يعني استادة وبالذراع الهاشمي تسعة الاف ذراع كل ذراع منها اثنان وثلاثون قيراطا واثنا عشر الف ذراع بالذراع القديم الذي هو اربعة وعشرون قيراطا فعلى هذا يكون الفرسخ خمسة الاف متر وخمسمائة وواحدا واربعين وثلثي متر وهذا الفرسخ هو الفرسخ القديم المصري والعرب تسميه الفرسخ الصحيح واما الميل فهو ثمان غلوات وثلث او ثلاثة الاف ذراع هاشمي او اربعة الاف ذراع مصري قديم

ومن هنا يعلم ان الغلوة ثلاثمائة ذراع هاشمي او اربعمائة ذراع قديم والنسبة بين هذين الذراعين كالنسبة بين عددي ثلاثة واربعة ومقدار الميل المصري حينئذٍ الف وثمانمائة وسبعة واربعون مترا ومصر والعرب استعملته والدرجة الارضية تشمله ستين مرة ويكون مقدار الغلوة عند العرب مائتين وواحدا وعشرين مترًا وسبعين سنتيمتر وهذه الغلوة هي التي استعملها بطليموس وعنه اخذتها العرب وتدخل في الدرجة الارضية خمسمائة مرة

ويوجد خلاف الاذرع الماضية ذراع قدره سبعة وعشرون قيراطا وهو الذراع الذي استعمله الخليفة المأمون وكان اخذه عن الفرس وهو المعروف بالذراع الاسود وقدره بالمتر ٠٫٥١٩٦ م وهو عبارة عن ذراع قديم وثمن واما الذراع الهاشمي فذراع قديم وثلث وقدره بالمتر ٠٫٦١٦ م وهو ذراع وجزء من خمسة عشر جزءًا من الذراع البلدي وذراع وسبع من ذراع المقياس وذراع وتسع من

الذراع العبراني وقدمان من القدم المصري القديم الذي استعملته العرب كما استعمله غيرهم وذراع الرومانيين منسوب للذراع المصري ينقص ٢٠٪ من مقدار الذراع المصري فيكون مقدار الرومي ٠٫٤٤٣٤ م والذراع المقدس عند العبرانيين كانت نسبته الى الذراع الرومي كنسبة عدد خمسة الى اربعة وحينئذٍ فمقداره يعلم باضافة ربع على مقدار الرومي ويكون ٠٫٥٥٤٢ م وهو يدخل اربعمائة مرة في الغلوة التي تشتمل عليها الدرجة الارضية خمسمائة مرة وهي الغلوة التي استعملها بطليموس في قياساته والذراع السلطاني للبابليين كان منقسمًا الى ثلاثين اصبعًا وكل اصبع منقسم الى قسمين اي انه كان منقسما الى ٦٠ وكان طوله يزيد عن الذراع المعروف ثلاثة اصابع اي انه لو اضيف تسع عدد ٠٫٤٦١٨ م اليه كان ٠٫٥١٣١ م هو طولها وهذا المقدار هو مقدار ثالثه من الدرجة الارضية والقامة تشتمل عليه ستين مرة كما ان الميل يشمل العسلة ستين مرة وكان يوجد قياس للاطوال في الزمن السابق طوله اربعة وعشرون ذراعا به واربعون ذراعا بالذراع المصري القديم او ست قصبات بالكبيرة او عشر قامات صحيحة او اثنان وثلاثون ذراعا بالذراع البلدي

ونسبة القصبة الكبيرة الى الذراع البلدي كنسبة عشرين الى ثلاثة ومدة دخول الافرنج ارض مصر كانت هي المستعملة في جميع الجهات القبلية والبحرية وطولها بالذراع البلدي ستة اذرع

وثلثا ذراع او عشر اقدام مصرية صحيحة

والذي حصل فيه تغير كثير من بين المقايس جميعها هو القصبة وذلك لانها اساس المساحة التي يجبى الخراج على حسبها وكثيرًا ما كانت تقتصر المساحون على جعلها ستة اذرع وثلثي ذراع فقط اي ٣٫٦٥٧٥ م ونسبة هذا القدر الى طول القصبة كنسبة تسعة عشر الى عشرين فيطلب بها مال اربعين فدانا في مقابلة ستة وثلاثين فدانا بالقصبة القديمة وهكذا والقصبة الصغيرة التي مع المساحين كان طولها ٣٫٦ م عبارة عن عشرة اذرع بذراع المنادي وستة اذرع وثلثي ذراع بذراع مقياس الروضة

فمن هنا يوخذ انهم عوضوا الذراع البلدي بذراع المقياس حتى لا تخرج القصبة عن كونها ستة اذرع وثلثي ذراع كما كانت عليه زمنًا طويلا والقصبة الهاشمية طولها ستة اذرع هاشميه او سبعة اذرع وتسع ذراع بالاسود او ثمانية اذرع بالذراع القديم ومقدارها بالمتر ٣٫٦٩٤ م عبارة عن عشر اقدام عبرانية والقصبة المصرية القديمة طولها خمسة اذرع بالهاشمي الذي يسمى ايضًا في بعض الكتب بالعتيق والعسلة من ضمن الاقيسة عند العرب والفرس ومقدارها ستون ذراعا بالهاشمي اي ٣٦٫٩٤٤ م والميل الذي استعملته العرب الذي قدره الف قامة او ستة الاف قدم لم يكن شيئًا آخر غير القياس الذي كان عند المصريين ومقداره يساوي دقيقة واحدة من الدرجة الارضية لمصر وكان قدره عشر غلوات وكان يدخل في

الفرسخ المصري الصغير ثلاث مرات وفي الكبير ست مرات والميل الرومي ثمان غلوات اولنبية او مصرية والميل العبري ست غلوات مصرية وهو ٣٦٠٠ قدم مصرية والفان بالذراع العبري وبالمتر ١٠٨٠ ٢/٣ م وهو ست وثلاثون ثانية والوحدة الزراعية السطحية هي الفدان وهو عبارة عن مربع ضلعه بالقصب عشرون وبالذراع البلدي مائة وثلاثة وثلاثون وثلث وبالمتر سبعة وسبعون ومساحته خمسة الاف وتسعمائة وتسعة وعشرون مترًا مربعا وقاعدة الهرم تشمله تسع مرات صحيحة وضلع الفدان مائتان وخمسون قدمًا مصريًا فيزيد حينئذٍ عن ضلع الاورور اي الفدان المصري القديم مائة قدم وحينئذٍ فنسبة الفدان الكبير الى الاورور كنسبة تسعة الى خمسة وعشرين

والقصبة المستعمله الان عندكم ٣٫٥٥ م والفدان بها ثلاثمائة وثلاث وثلاثون قصبة مربعة وثلث اي اربعة الاف ومائتا متر مربع وكسر صغير فاذا نسبناه الى الفدان الذي كان مستعملا في جمع الخراج الى دخول الافرنج وبعد خروجهم بمدة سنين لا يكون غير سبعة عشر قيراطا باعتبار ان الفدان الكبير القديم اربعة وعشرون قيراطا والاورور القديم نصفه تقريبًا ففدانكم الان متوسط بين الفدان الصغير اي الاورور والفدان الكبير ونسبة الفدان الجديد الى الفدان القديم كنسبة عددي سبعة عشر الى اربعة وعشرين وبناء عليه فكل مائة وعشرين فدانًا جديدة لا تبلغ الاَّ

خمسة وثمانين بالمساحة القديمة وحيث انه في مدة الملك الاشرف سنة ٧٧٧ ومن قبله الى مدة الملك الناصر وجد ان مساحة الارض المزروعة الموضوع عليها الخراج ٣ِ١٧٢ِ١٣٦ وفي مدة الافرنج مسح المزروع في القطر فوجد ٣ِ١٣٦ِ١٨٠ وهما قريبان من بعضهما فيمكن الان ان نعرف هل حصل زيادة في المنزرع او نقص وذلك بعد رد حسابه الى القصبة القديمة

والمرحلة بناء على قول الادريسي وابي الفدا اربعة وعشرون ميلا هاشميًا او ثمانية فراسخ مصرية او ثلاثون ميلا روميا او عشرة فراسخ فارسية وتبلغ بالمتر ٤٤ٍ٣٣٣

ويوم الملاحة بناء على قول الادريسي وابي الفدا وهو ما يعرف عندهم بالمجرى مائة ميل بالهاشمي او درجة ارضية وثلثا درجة وبالغلوة الصغيرة المصرية الف غلوة كاملة او خمسمائة واربعون غلوة كبيرة مصرية ايضًا وبالمتر ٩٩ٍ٧٥٠

وفي الازمان القديمة كانت المصريون تستعمل في قياس الاطوال الكبيرة ثلاثة انواع من الفراسخ اصغرها كان عبارة عن ثلاثين غلوة من الغلوات التي كل درجة ارضية منها ستمائة غلوة وكان استعماله في الجهات البحرية من ارض مصر وقدره بالمتر ٥٥٤١ٍ٦٥ م والثاني يزيد عن الاول وقد استعمله هيرودوط وكان ستين غلوة من الغلوات التي كل درجة ارضية منها الف ومائة واحدى عشر غلوة وتسع وكان يستعمل في الاقاليم الوسطى من

مصر من منف ابتداء ولذلك سمي الفرسخ المصري المتوسط ومقداره بالمتر ٥٥٨٥٫٠٠٠ م

والفرسخ الكبير طوله ستون غلوة من الغلوات التي كل درجة ارضية منها ستمائة غلوة وكان مستعملا في الاطوال الجغرافية فكان يوجد بالجهات البحرية والقبلية وطوله بالمتر ١٠٨٣٣٫٣٠ م

والفرسخ الفارسي عشرة اميال رومية وثلاثون غلوة من الغلوات التي تشملها الدرجة الارضية سبعمائة وخمسين مرة وهو دقيقتان واربعة اعشار دقيقة من الدرجة الارضية ويدخل في الدرجة الارضية خمساً وعشرين مرة ولهذا كان هو المستعمل عند اغلب سكان المشرق والعبرانيين فاخذه عنهم الاوروباويون ومقداره بالمتر ٤٤٤٣٣٫٣ وهذا المقدار يطابق اربعة وعشرين ميلا او ٢٤٠ غلوة مصرية من الغلوات التي تشملها الدرجة الارضية ستمائة مرة فيعلم ضرورة انه ماخوذ من مصر لانه لا يقال ان العجم قاسوا الدرجة الارضية اذ لم ينسب اليهم ذلك احد من المؤرخين وفي كتب العرب ان مقداره خمس وعشرون غلوة عربية من الغلوات التي تشملها الدرجة الارضية خمسمائة مرة التي قدرنا انها ٢٢١٫٦٧م وقد قلنا فيما سبق ان الوحدة التي كانت مساحات الارض تقدر بها هي الاورور وهي عبارة عما يحرث بمحراث واحد في يوم واحد وبناء على قول هيريدوط كانت مربعا ضلعه مائة ذراع يعني انها كانت عشرة الاف مربع والذراع المستعمل هو الذراع القديم

الذي هو ٢٦٢ر٤ م فعلى هذا تكون المساحة بالمتر المربع الفين ومائة واربعة وثلاثين

وكانوا يقيسون بخشبة طولها عشرة اذرع وطول ضلع الاورور بها عشر مرات وكانت منقسمة ثلاثة اقسام كل قسم خمس اقدام فكان طول القسم الواحد مساويًا للخطوة الهندسية ولنصف القصبة المصرية القديمة التي كان طولها عشر اقدام وضلع الاورور بها خمسة عشر مرة وكانوا في الغالب يستعملون نصفها فيبلغ ضلع الاورور به ثلاثين مرة فبناء على ذلك تكون مساحة الاورور تسعمائة خطوة مربعة وذلك عبارة عن ٥٠٠ر٢٢ قدم مربعة وبمقارنة المائة الذراع التي هي طول ضلع الاورور للثلاثين التي هي قياسه بنصف القصبة نجد ان القصبة ستة اذرع وثلثا ذراع وهذا المقدار هو نسبة ما بين الذراع البلدي الذي قدره ٥٧٧ر٠ م والقصبة الديوانية التي وجدها الفرنساويون بالجيزة وقدرها ٨٥ر٣ م وسمى ايضًا بقصبة الرزق ومن هنا يعلم ان الاقيسة وان صارت كبيرة عما كانت لكن النسبة منها لم تتغير عما كانت عليه قديما ولم يكن الاورور وحده هو المستعمل في المساحة بل كان لهم اقيسة كثيرة صغيرة وكبيرة على حسب ما يقتضيه الحال منها العسلة وهي مربع قدره عشرة الاف قدم مربعة اي ان ضلعه كان مائة قدم كما ان ضلع الاورور مائة ذراع ومنها الغلوة وهي عشرة الاف قامة مربعة اي مربع ضلعه مائة قامة ومنها العسلة المضعفة وكانت مربعًا

طوله عسلتان وعرضه واحدة ونسبتها الى الاورور كنسبة اربعة الى تسعة

ومنها الاستادة اي الغلوة المربعة كانت ٣٦٠٠٠،٠ قدم مربع فان فرض ان ضلعها منقسم الى عشرة اقسام متساوية انقسم السطح الى مائة مربع صغير كل منها ٣٦٠٠،٠ قدم مربعة او مائة قامة مربعة اي الى مربعات ضلع كل منها ستون قدما او عشر قامات او اثنتا عشرة خطوة هندسية ويتكون عنها الجزء المئيني بالنسبة الى الغلوة وكانت تستعمل في تقدير المساحات

واما الفدان الديواني وقت دخول الفرنسيس وادي مصر فكان ضلعه عشرين قصبة ديوانية وذلك عبارة عن مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلث ذراع وهذا المقدار هو ثلث الاستادة وهو قدر ارتفاع وجه الهرم فعلى هذا يظن ان الاستادة كانت منقسمة الى تسعة اقسام اي مربعات كل منها اربع عسلات مربعة ضلع كل منها عشرون خشبة كما ان الفدان الديواني ضلعه عشرون قصبة ديوانية ولذلك تسمى هذه المساحة اي المركبة من اربع عسلات بربع الفدان المصري القديم وكان ضلعه بالذراع القديم مائة وثلاثة وثلاثين ذراعا وثلثا كما ان ضلع الفدان الديواني بالذراع البلدي مائة وثلاثة وثلاثون ذراعا وثلث وعلى هذا فمساحة الفدان القديم كانت ٣٧٩٤،٥٦ م مربعًا ومساحة الفدان الديواني ٥٩٢٩ م مربعا ونسبة الاول الى الثاني كنسبة ستة عشر الى خمسة وعشرين

وربما كان منقسما الى اربعة وعشرين قيراطا كما ان الفدان الديواني كذلك منقسم وهذه القسمة تزيد في سهولة الحساب بسبب ان العسلة تكون مشتملة على ست منها فلو فرضنا ان الاستادة او الغلوة منقسمة قسمين متساويين وجدنا انه يحصل من ذلك تساهل عظيم في التقدير لان الشكل الذي ضلعه الغلوة يكون منقسما الى اربعة مربعات ضلع كل واحد نصف غلوة ومساحته تسع عسلات مربعة او يكون مساويًا لاربعة من الاورور وتسمى هذه المساحة ربع الغلوة وتشتمل على اربعمائة خشبة مربعة او تسعمائة نصف قصبة قديمة او اربعين الف ذراع مربع او على ثلاثة الاف وستمائة خطوة او على خمسة وعشرين جزوًا من الغلوة او على الفين وخمسمائة قامة مربعة

ولم يكن في قياس الفدان المصري القديم صعوبة لان مساحته اربعون خطوة بالخطوة الهندسية كما ان مساحة الفدان الديواني الان اربعون نصف قصبة وضلع الفدان الديواني سبعة وسبعون مترًا وهو يزيد عن ضلع الفدان القديم بقدر ربعه وهذه النسبة لاشك هي الواقعة بين الذراع القديم والذراع البلدي والفدان الديواني يزيد عن القديم اورورًا واحدًا ولا شك في ان للفدان القديم نسبة صحيحة مع الاقيسة القديمة لان ضلعه ثلث ضلع قاعدة الهرم وعلى هذا فمساحة القاعدة تشمله تسع مرات وزيادة على ذلك ضلعه عبارة عن عسلتين ونصف والميل المصري القديم يشمله

اربعًا وعشرين مرة والقصبة المستعملة في قياسه تدخل في ضلع قاعدة الهرم ستين مرة

وضلع الاورور يساوي ثلاثة اخماس ضلع الفدان الديواني وربع الاستادة المربعة = ١/٤ الغلوة المربعة = ٤ اورور = ٩ عسلات مربعة وضلعها ثلاث عسلات فلو قسمنا كل عسلة من التسع قسمين متساويين وجدنا ان ثلاثا منها تكوّن ضلع الاورور واربعًا منها تكوّن ضلع الفدان القديم وخمسًا منها تكوّن ضلع الفدان الديواني والست الباقيات تكوّن ضلع ربع الاستادة وعلى هذا فالنسبة بين هذه المساحات الاربع كالنسبة بين هذه الاعداد ٩ ، ١٦ ، ٢٥ ، ٣٦ ومما يوكد ان ربع الاورور كان موجودًا قديمًا كون ضلعه ستين خطوة هندسية كما ان ضلع الاستادة ستون خشبة وبالجملة فوجود ربع الاورور بين الاقيسة القديمة يوكد وجود ربع الاستادة ونسبة الفدان المصري القديم الى الفدان الديواني الجديد على ما ذكرنا كنسبة ١٦ الى ٢٥ ونسبة اضلاعهما الى بعضها كنسبة ٤ الى ٥ اي ان الفرق الذي حصل في طول الذراع من اربعة وعشرين قيراطا الى ثلاثين قيراطا حصل ايضًا في القصب المستعمل لقياسها وبسبب ان عدد عشرين بقي ثابتا لعدة القصب الداخل في الطول حصل لسطحيها زيادة كنسبة ٢٥ الى ١٦ والنسبة بين الفدان القديم والاورور كنسبة ١٦ الى ٩ وكما ان الغلوة كانت منقسمة الى اربعة اقسام وكل قسم منها الى اربعة

اخرى تسمى الاورور كذلك الاورور كان منقسما الى اربعة اقسام وقاعدة الهرم قدر كل ربع منها مائة مرة وقدر الاستادة اربعا وستين مرة وكان طول ضلعه خمسين ذراعا او خمسًا وسبعين قدمًا وسطحه ٢٢٥ خطوة او الفين وخمسمائة ذراع وبالقصب الديواني ٣٦ قصبة مربعة وكانوا يعرفون قدر ما تأخذ الارض من البذر بمكيال لهم يسمى المد المساحي وهو اربعون ليورا فكان نصفه وهو عشرون ليورا يكفي لبذر مائة قامة مربعة فيقسمونها الى اربعة اقسام ضلع كل قسم خمس قامات ومساحته خمس وعشرون فكانوا يقدرون ما يلزم للارض بهذه الطريقة ويجعلون لكل خمس قامات مربعة ليورا من البر وهكذا فكان المد الواحد الذي وزنه اربعون ليورا يكفي لبزر مائتي قامة ونصفه لنصفها ومن الاقيسة التي كانت تستعمل في مساحة الارض الخطوة المربعة وهي جزؤ من تسعمائة جزء من الاورور وجزؤ من اربعمائة جزء من العسلة وجزؤ من الف وستمائة جزء من الفدان القديم وجزؤ من الفين وخمسمائة جزء من الفدان الديواني وجزؤ من اربعة عشر الفًا من الغلوة المربعة وكان ضلع العسلة عشرين خطوة وضلع الاورور ثلاثين وضلع الفدان القديم اربعين وضلع الفدان الديواني خمسين وضلع الغلوة مائة وعشرين ومنها الخشبة المربعة وقدرها مائة ذراع وهي جزؤ من مائة جزء من الاورور والقصبة وقدرها مائة قدم مربعة وهي جزؤ من مائة جزء من العسلة وكذلك

كان من القياسات قياس صغير قدره خمس قامات مربعة وضلعه ست خطوات ومساحته ست وثلاثون خطوة مربعة او اربعمائة ذراع مربع اعني ٩٠٠ قدم وكان يدخل في المذ المساحي اربع مرات وفي الاورور خمسًا وعشرين وفي الغلوة اربعمائة مرة

ويمكن ان يقال ايضًا ان العسلة كانت منقسمة الى اربعة اقسام كل منها الربع وان الغلوة المربعة تشمله مائة واربعًا واربعين. وربعها يشمله ستًا وثلاثين والفدان القديم يشمله ستة عشر مرة والديواني خمسا وعشرين والاورور تسع مرات وربع العسلة عبارة عن = ٢٥ خشبة اي ١٠٠ خطوة = ٢٥٠٠ قدم فجميع هذه المقاييس كانت مستعملة في مساحات الارض بحيث كان يتيسر للمساح مع غاية الضبط والسرعة معرفة مساحة الارض وما تشتمل عليه من الكسور لغاية القدم المربعة ولهذا شهد جميع المؤرخين للمصريين بفوقانهم جميع الامم في الفنون الهندسية ونسبوا لهم اختراع اصولها وقواعدها التي هي سبب تقدمهم في جميع العلوم والصنائع ولو اني اطنبت في مادة الاقيسة واطلت على حضرتكم الكلام في بيانها فليس هو الغرض الاصلي بل الغرض ان اثبت لحضرتكم اتساع دائرة معلومات علماء هذه الامة حيث وصلوا في الاحقاب الخالية الى تلك الدرجات العالية مع ان جميع الامم في ذلك الوقت كانوا خاملين وفي زوايا الذل والمسكنة قاطنين غرقى في بحار الجهل لا يعرف لهم فكر فيما جل ولا قل وكانوا راتعين في الاجم

والغابات مثلهم كمثل الحيوانات فلم يخرجهم عن هذه الحالة الاّ
اقتفاوهم اثر المصريين وسيرهم في طريقتهم مقتدين بقول من وصل
منهم الى هذه الارض وتلقى عن علمائها واساتذتها يقيمون بالمدارس
والمعابد ويتلقون الاسرار عن المصريين ومن ذلك الوقت اخذت
الخشونة في الزوال وانجلى عن بصائرهم غشاء الجهل والضلال
واتضح الطريق فسلكوا سبيل الهدى ونالهم من الثروة والترفه ما
نالهم فاسسوا المدن والقرى وبنوا المباني الفاخرة العالية الذرى
وكانوا قبل لا يسمعون بها ولا يعلمون والمصريون كانوا بالغين
النهاية في كل ذلك وكان بشاطئ نيلها المباني المشيدة والبساتين
الفائقة العديدة وفي داخل مدنها وصحاريها من المعابد والهياكل
ما يعجز عن وصفه الانسان في كل زمن من الازمان والى الان
كل من دخل تلك الارض من الاغراب وتامل ما بقي فيها من
الآثار التي هي من عجب العجاب يقف متحيرا ويطرق متفكرًا وذلك
لا يستغرب من امة من اثارها البنائية الاهرامات الشامخة والبرابي
العجيبة ولا يستبعد عليها انها قاست الدرجة الارضية ونسبت جميع
اقيستها اليها ولاجل بقاء ذلك على ممر الازمان وتعاقب الملوان
جعلوا نفس الهرم حافظا لتلك الاقيسة فضلا عن حفظه لامور
شتى لم يقف أحد عليها الى الان

المسامرة الرابعة والثمانون

نبذة تاريخية

فقال الشيخ المستفاد من اقوال المؤرخين بناء على ما اجروه من البحث وما اخذوه عن الاوائل أن بين هبوط آدم والطوفان ٢٢٤٢ سنة وبينه وبين المسيح عيسى بن مريم ٥٥٦٣ سنة فيكون بين الطوفان والمسيح ٣٣٤٢ سنة وحينئذٍ يكون بناء الهرم قبل الميلاد باربعة الاف وخمسمائة سنة وبعد الطوفان بالف وثمانمائة وخمسين سنة وحيث أنهم قدروا ما بين جلوس منيس وبناء الهرم بثمانمائة وثلاث سنين فيكون جلوس منيس بعد الطوفان بثلاثمائة وخمس وخمسين سنة اي بعد موت نوح بخمس سنين وقد قالوا ان فرعون مصر صوفي الاول الذي اطلق عليه هيردوط اسم كيوس ابتدأ البناء في هذا الاثر بعد انفصال الحكومة السياسية

من الحكومة الدينية بواسطة منيس الذي اسسها قبل الميلاد بخمسة الاف وخمسمائة وثلاث سنين وفي مدة هذا الانقلاب بل من ابتدائه يرى ان المصريين على معلومات تامة ولهم دراية بمعارف شتى وعلوم كثيرة فانهم كانوا على غاية التمدن والتقدم لكن لا يدرى هل اخذ المصريون هذه العلوم عمن سبقهم من الامم واذا كان كذلك فعن من اخذوا ام هم الموجدون له من غير واسطة غيرهم والظاهر انهم اخذوها عن غيرهم لان الارض قبل الطوفان كانت عامرة باولاد آدم عليه السلام وكانوا متصرفين في جهاتها وكانوا قد وصلوا الى درجة في العلوم والمعارف ولما اغرق الله قوم نوح عليه السلام ولم ينجُ الاَّ هو واولاده ومن آمن تفرقوا في الارض وتناسلوا وكثروا فعمرت بهم الارض ثانيًا وبالضرورة كان عند من نجا معرفة بعلوم من غرق فعلموه اولادهم وانتشر فيهم ولم تكن اهل مصر الاَّ من ذرية سام لانه ابو العرب والفرس والروم ولكن لا ادري هل هم اول من عبد الاصنام ام سبقهم الى عبادتها غيرهم

فقال الانكليزي ان عبادة الاصنام كانت لعاد وثمود كما لا يخفى ذلك على حضرتكم وكان عندهم السحر والكهانة كغيرهم فلم يكن المصريون في ذلك الاّ تابعين اثرهم

فقال الشيخ وما سبب اتساع دائرة العلوم عندهم دون غيرهم قال سببه انهم لما وصلهم علوم من اغرقهم الطوفان تأملوا فيها فاستنتجوا منها واستكشفوا من آثارها ما وصلوا به الى شأو بعيد في العلوم

واما كونهم مخترعين لتلك العلوم فلا يقبله العقل لانه لم يكن بين الطوفان وبين نشأة الحكومة المصرية الفرعونية الاّ زمن قليل لا يكفي في وصول المعارف والعلوم الى هذا الحد الذي كانت عليه وقت ظهور منيس على التخت لاننا نرى من اقوال المؤرخين انه من حين جلوس فرعون مصر على التخت شرع في اعمال جسيمة فيها من الدلالة على التقدم في العلوم الهندسية ما لا يخفى منها انه سد احد فرعي النيل الذي كان جاريًا بحذاء جبل ليبيا وحوّله الى جهة الشرق في نصف المسافة التي بين الجبلين وادخل ماء النيل في وادي الفيوم فازدادت بذلك سعة ارض وادي النيل ولا جرم ان هذه الاعمال يلزم بها امور هندسية مثل ميزانيات وغير ذلك لاجل معرفة حال هذه الارض المحصورة من جميع الجهات بالجبال والصحاري ومنها انه ازال البرك التي تكوّنت من مجرى النيل وبنى محلها مدينة منف وحفظها من الغرق والعدو بما انشأه حولها من الحصون والجسور وزينها بهياكل ومعابد بقيت اعجوبة يفتخر بها بعده ثلاثة الاف سنة زيادة على ما نظمه من القوانين وما اودعه في المدينة من المستبدعات التي فاقت بها على طيبة القديمة التي كانت مقرًا للسلطنة ومحلا لقوة الديانة الى وقته فلو لم تكن العلوم عندهم في درجة الكمال ما امكنهم اجراء هذه الاعمال ومن ورث الملك بعده الف كتابًا في التشريح ومن اتى بعده بنى هذه الاهرام التي هي اعجوبة مدى الايام يتعجب منها كل انسان ما

بقي الزمان وما نظر اليها احد الاّ واقرّ لمؤسسيها بعلو الدرجة في العلوم وغزارة عقولهم بدلالة هذه الاثار والرسوم فان من اجرى هذه الامور لا بد له من تمام الوقوف على قواعد من علوم شتى مثل علم جر الاثقال والعمارة وحركات المياه والطب والهيئة وسير الكواكب واحوال السماء وكل هذه العلوم قبل وصولها هذا الحد تفيد بالضرورة التوغل في العلوم الاساسية لها فعلم من ذلك ان مصر كانت من قديم الزمن بالغة اقصى درجات التمدن واوضح دليل على ذلك بقاء هذه الابنية بها الى الان وايضا هذا التمدن لا يمكن ان يوجد دفعة واحدة بل لا بد انه مضى عليه قرون كثيرة حتى بلغ هذه الدرجة والسبعمائة عام التي قدرها علماء الافرنج بين الطوفان وجلوس منيس على التخت لا تكفي ايضًا في تحصيل تلك المعارف بل لا بد من وجود اصلها قبل الطوفان فان الارض قبله كان بها امم شتى منهم المتمدن وغيره وكانت العلوم بالغة الى درجة اوجبت اتساع معائشهم فكانوا ارباب قوة وثروة ومما يدل على ذلك قول افلاطون عند تكلمه على سكان الاطلنطيك الذين اغرقهم الله بالطوفان ان ارضهم كانت قريبة من بوغاز الطارق وان قوانينهم كانت قريبة من قوانين المصريين وهذا القول نقله سولون المشرع عن علماء مصر فانه تلقى عنهم ويوخذ من هذا ان منيس لما جلس على التخت وظهر امره اخذ له قانونا من القوانين القديمة التي وصلت اليه بواسطة النوبيين الذين

كانوا بالجهة القبلية من مصر فانهم الناقلون لجميع المعارف والعلوم التي ورثها المصريون عن اجدادهم سكان اسيا الناجين من الغرق. فكانت هذه المعارف محفوظة عند طائفة القسس يرثها الابناء من الاباء جيلا بعد جيل من غير تغيير ولا تبديل وانت خبير بان تقدم العلوم واتساع دائرتها وزيادة الجهد في كشف حقائق مستجدة انما يكون بالاشتراك العام فضلا عن المساعدات من قبل الحكومة الاّ ان بمصر اموراً توجب تعطيل ذلك منها وجودها منعزلة وسط الصحاري وهذا يمنع سهولة اختلاطهم مع باقي سكان الارض من الامم وحيث لم يكن بها ممن ورث تلك العلوم الاّ طائفة الديانة فغاية ما يمكن القوة البشرية انما هو معرفة ما وصل الى هولاء من غير زيادة عليه وهيهات ان وصلوا اليه ولا شك ان هذا على طول الايام مما يوجب تقهقر المعارف عاما بعد عام كما حصل ذلك بالفعل في مصر حين سكنها غير اهلها فلولا ما شاهدناه بها من الاثار لاستبعدنا ما عزاه الى اهلها نقلة الاخبار ولعددناه من نوع الخرافات التي ضيع المؤرخون في تنميقها نفائس الاوقات

فقال الشيخ عزو المعارف والكشف عن الحقائق الى من كان قبل الطوفان مما لا مرية فيه ومما يدل على ذلك صرح النمرود الذي بناه وكان مركبًا من اثنين وسبعين برجا على كل برج كبير منهم يستحث على العمل فان ذلك كان بعد الطوفان بزمن لا يسع ان يهتدوا فيه الى معرفة بناء مثل هذا كما سنبينه فانهم بعد

الطوفان بزمن قليل تبلبلت السنتهم فتفرق بنو نوح فصار لسام واولاده العراق وفارس وما يلي ذلك الى الهند ولحام واولاده مشرقا مما يلي مصر على النيل وكذلك مغربًا الى الغرب الاقصى وليافث وولده ما يلي بحر الخرز مشرقًا الى جهة الصين وفي ذلك الوقت كانت شعوب اولاد نوح اثنين وسبعين شعبا فلو لم يكن عندهم معرفة تامة باحوال العمارة والهندسة ووضع الاحجار فمن اين لهم ان يبنوا مثل ذلك البناء اذ يلزم لجعله في العلو الذي قدروه به اصول وقواعد لا بد منها وايضًا فان النمرود كان عاملا من قبل الضحاك على سواد العراق وما اتصل به وفي تلك الاوقات كانْ للامم قوانين منظمة وشرائع معظمة وكان لهم رسل تهديهم الى طاعة الله فلا بد انهم كانوا ذوي ثروة عظيمة حتى اغتروا بذلك غرورًا وجعلوا قول الانبياء كذبًا وزورًا وناهيك طغيان النمرود وظلمه وبغيه وتجبره وحروبه أفلا يدل هذا كله على ان الامم قبل الطوفان كانوا ارباب معارف وكذلك معرفتهم للاشهر واسمائها والسنة ومقدارها فقد ورد عن المؤرخين ان نوحا عليه السلام ركب السفينة لعشر مضت من رجب ورست بارض الموصل على الجودى لعشر بقين من المحرم فكانت المدة ستة اشهر وعشر ليال فكل هذه ادلة قاطعة وبراهين ساطعة على ان العلوم والمعارف كانت موجودة قبل الطوفان

فقال الانكليزي رأيت في الآية الرابعة والعشرين من الباب

السابع في التورية ان الماء بقي على الارض مائة وخمسين يومًا وذلك من ركوب نوح السفينة الى استقرارها على الجبل وان دخوله فيها كان في اليوم السابع عشر من الشهر الثاني واستقرارها على الجبل في اليوم السابع عشر من الشهر السابع فتكون المدة حينئذٍ خمسة اشهر باعتبار ان الشهر ثلاثون يومًا والشهور شمسية وعلى هذا تكون السنة شمسية وعدد ايامها ثلاثمائة وستين يومًا وهذا يدل على ان الاقدمين كان عندهم معرفة بحركة الشمس واختلاف سيرها بطاءً وسرعة بالنسبة لحركتها فيعلم من ذلك انهم كان لهم معرفة بعلم الفلك

فقال الشيخ رأيت في كتب التواريخ ان كثيرًا من اهل الهند والصين وغيرهم كانوا يعتقدون ان الله عزوجل جسم وان الملائكة اجسام لها اقدار مختلفة وان الله تعالى وملائكته احتجبوا بالسماء فدعاهم ذلك الى اتخاذ تماثيل واصنام مختلفة على صورة الباري والملائكة فكانوا يقربون لها القرابين والنذور لشبهها عندهم بالله وملائكته واقاموا على ذلك مدة من الزمان حتى نبههم حكماؤهم على ان الافلاك والكواكب اقرب الاجسام المرئية الى الله وانها حية ناطقة وان الملائكة تختلف فيما بينها وبين الله وان كل ما يحدث في هذا العالم انما هو على قدر ما تجري به الكواكب على مقتضى امر الله فعظموها وقربوا لها القرابين ومكثوا على ذلك دهرًا فلما راوا الكواكب تخفى في النهار وفي بعض اوقات الليل لما

يعرض في الجو من السواتر امرهم بعض من كان فيهم من الحكماء ان يجعلوا لها اصنامًا وتماثيل على صورها واشكالها فاتخذوا اصناما وتماثيل بعدد الكواكب السبعة المشهورة واخذ كل فريق منهم يعظم كوكبًا ويقرب له قربانا خلاف ما يقربه الاخر ظنا منهم انهم اذا عظموا ما صوروا من الاصنام تحركت لهم الاجسام العلوية وساعدتهم في كل ما يريدون وبنوا لكل صنم بيتا وهيكلا وسموا تلك الهياكل باسماء الكواكب حتي ذهب قوم الى ان البيت الحرام انما عظم علي مرور الدهر لانه بيت زحل ومن شأنه البقاء والثبات ثم لما طال عليهم العهد عبدوا الاصنام نفسها على انها تقربهم الى الله والغوا عبادة الكواكب ولم يزالوا كذلك حتى ظهر بودا وكان اول ظهوره بارض الهند فخرج منه الى السند ثم الى بلاد سجستان وبلاد زابلستان ثم دخل كرمان فتنبأ وزعم انه رسول واتى ارض فارس في اوائل ملك طيمورث ملك فارس وهو اول من اظهر مذاهب الصابئة فامر الناس بالزهد في هذا العالم والاشتغال بما علا من العوالم واراهم ان من هناك بدء النفوس وقال بعضهم انه اول من عظم النار وقال انها تشبه ضوء الشمس والكواكب ثم افترق بعده من تبعه فعظم كل فريق منهم ما رأى تعظيمه وقد قالوا ان البيت الحرام اول البيوت السبعة المعظمة المتخذة على اسماء الكواكب السبعة والبيت الثاني مارس وهو على راس جبل باصبهان والبيت الثالث سندوساب وهو ببلاد الهند وله قرابين وفيه احجار المغناطيس

الجاذبة والرافعة والمنفردة والبيت الرابع البوبهار الذي بناه متوشهر وهو بمدينة بلخ من خراسان على اسم القمر وكان من يلي سدانته تعظمه الملوك وتنقاد لامره وكان له اوقاف كل من ولي بسدانته يسمى البرموك ومن ذلك سميت البرامكة لان خالد بن برمك كان من ولد من كان على هذا البيت والبيت الخامس عمدان وهو بمدينة صنعاء من بلاد اليمن وكان الضحاك بناه على اسم الزهرة والبيت السادس بيت كارشان شاه بناه كارش الملك على اسم المدير الاعظم من الاجسام السماوية وهو الشمس بمدينة فرغانة من مدائن خراسان والبيت السابع باعالي وهو ببلاد الصين بناه ولد يعبور بن يعويل بن يافث بن نوح وقيل انما بناه بعض ملوك الترك في قديم الزمان فجعله سبعة بيوت في كل بيت منها سبع كوى بازاء كل كوة صورة من صور الكواكب السبعة مصنوعة من الجواهر على اختلاف انواعها ولهم في هذا الهيكل سر يسرونه في بلاد الصين يعلمون به اتصال الاجسام السماوية وافعالها بما يحدث في عالم الكون من الحركات والافعال وهو سدى خيوطه من الابريسم ممدودة على خشب يتحرك على حسب حركات الطبائع فيحدث ضروبًا من الحركات فاذا اتصلت افعاله وتوالت حركاته في النسج ظهرت صورة فبضرب من الحركات يظهر جناح طائر وباخر راسه وباخر رجلاه فلا يزال كذلك حتى تتم الصورة على حسب مراد الصانع فجعلوا اتصال الابريسم بآلة النسج وما يحدثه الصانع في

ذلك من الافعال مثالا لتأثير الكواكب العلوية في الاجسام الكونية فبضرب من الحركات ظهر في العالم الطائر وبضرب آخر فرخ وكذلك سائر ما يحدث في العالم ويسكن ويتحرك ويوجد ويعدم ويتصل وينفصل ويجتمع ويفترق ويزيد وينقص من جماد ونبات وحيوان ناطق وغير ناطق فانما هو من حركات الكواكب

واما العرب في جاهليتها فكانوا فرقًا منهم الموحد المقر بخالقه المصدق بالبعث والنشور الموقن بان الله يثيب المطيع ويعاقب العاصي

ومنهم المقر بوجود الخالق القائل بحدوث العالم واعادته الاّ انه انكر ارسال الرسل وعكف على عبادة الاصنام وهم الذين حكى الله عنهم قوله ما نعبدهم الاّ ليقربونا الى الله زلفى ومنهم من اقر بالخالق وانكر الرسالة والبعث وهؤلاء هم الذين حكى الله عنهم قوله وقالوا ان هي الاّ حياتنا الدنيا نموت ونحيي وما يهلكنا الاّ الدهر وما لهم بذلك من علم ان هم الاّ يظنون ومنهم من مال الى اليهودية او النصرانية ومنهم المار على عنجهيته الراكب لهجيته ومنهم من كان يعبد الملائكة ويزعم انها بنات الله وانها تشفع لهم عنده وهم الذين اخبرنا الله عنهم بقوله ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون ومنهم من كان مقرًا بالتوحيد مثبتًا للوعد والوعيد كعبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف

وسبب اتخاذ العرب للاصنام انه لما نشأ عمرو بن لحي وتولى

ملك الحجاز وانتشر صيته في الجاهلية واليه تنسب خزاعة وكانت العرب تطيعه احسن الطاعة وسار بقومه الى مكة واستولى على امر البيت ثم الى مدينة البلقاء من عمل دمشق من ارض الشام فرأى قومًا يعبدون الاصنام فسألهم عنها فقالوا هذه ارباب اتخذناها على شكل الهياكل العلوية والاشخاص البشرية نستنصر بها فننصر ونستسقي بها فنسقى ونستشفي بها فنشفى فاعجبه ذلك وطلب منهم صنمًا فاعطوه هبلا فنقله الى مكة وجعله على الكعبة واستصحب صنمين اخرين وهما اساف ونائلة ثم دعا الناس الى عبادتها فاجابوه ثم قلده العرب في ذلك فكان لكل قبيلة صنم فكان ود لقبيلة كلب وكان بجومة الجندول وسواع لقبيلة هذيل ويغوث لقبيلة مذحج وقبائل من اليمن ونسر لقبيلة ذي الكلاع بارض حمير ويعوق لقبيلة همدان واللاة لثقيف وكان بالطائف والعزى وهبل لقريش ومنات للاوس والخزرج واساف ونائلة على الصفا والمروة واستمرت العرب على عبادتها الى ان جاء الاسلام وبعث محمد عليه الصلاة والسلام فكسر الاصنام وانقذ العباد من تلك الاوهام وكانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهرًا وتسميه النسيء وقد ذم الله تعالى فعلهم بقوله انما النسيء زيادة في الكفر

وكانت المصريون صابئة فانهم كانوا يعبدون الاصنام والصابئة اقدم الامم على الارض ولغتهم السريانية التي هي لغة آدم عليه

السلام ويزعمون انهم اخذوا دينهم عن شيت وادريس ولهم كتاب يسمونه صحف شيت فيه محاسن الاخلاق كالصدق والشجاعة واجتناب الرذائل وقد ذكر ابن الوردي احد المؤرخين عندنا صحيفتين من صحفهم الاولى وتسمى صحيفة الصلاة ومنها انت الازلي الذي تربط به الرئاسات رب جميع المكونات المعقولات والمحسوسات رئيس البرايا وراعي العوالم رب الملائكة ومنك تنزلت العقول الى مدبري الارض لانك السبب الاول احاطت قدرتك بالكل ولك الوحدانية التي لا تحد ولا تدرك مدبر سلاطين السماء وينابيع النور الدائم الانارة انت ملك الملوك الآمر بالخيرات كلها الفاعل لكل شي بالوحي والاشارة تنبت المخلوقات وبرمزك ينتظر العالم باسره ومنك النور وانت العدة القديمة السابقة لكل شي نسئلك ان تزكي نفوسنا وتوفقها لاستحقاق نعمتك الان وفي كل اوان الى الابد ياظاهرًا متعاليًا عن كل دنس احلل عقالنا وعافنا من كل مرض وبدل احزاننا افراحا بك نعتصم ومنك نخاف نسئلك ان توفقنا لتمجيد عظمتك التي يشار اليها ولا ينطق بها منك الكل وبك يستنير الكل وانت رجاء العالمين ومعين الناس اجمعين

وفي الثانية لا يجرين احد منكم في معاملة اخيه الى ما يكره ان يعامل بمثله واياكم والتفاخر والتكاثر لا تحلفوا بالله كاذبين ولا تهجموا على الله باليمين واعتمدوا الصدق حتى يكون نعم من قولكم فيما يستحقها ولا كذلك وتورعوا في تحليف الكاذبين بالله جل ذكره

فانكم تشاركونهم في الاثم اذا علمتم منهم الحنث وليكن الامر في نفوسكم ن تكلوهم الى الله عالم السرائر فحسبكم حاكم يعدل وناطق يفصل لا تلهجوا بهجو الكلام وسوء المقال لا تفاوضوا الاضاليل والاباطيل ولا تكثروا الهزل والضحك والهمز واللمز لا تبدر منكم عند الغضب كلمة الفحش فتجر عليكم المآثم والعقوبة من كظم غيظه وقيد لفظه ونطق منطقه واظهر نفسه فقد غلب عليه الشر كله استشعروا الحكمة وابتغوا الديانة وعودوا انفسكم الوقار والسكينة وتحلوا بالاداب الحسنة الجميلة ترووا في اموركم ولا تعجلوا لا سيما في مجازاة المسيئ ان يكن من احدكم فرطة وارتكب منكرة فليقطع ولا تحمله السلامة منها على المعاودة لها فانها ان سترت عليه في الدنيا يفتضح بها على رؤس الاشهاد يوم الدين (وهما طويلتان) . اه . وهذا الكلام منسوب لازمان كانت قبل الطوفان وفيه دلالة ظاهرة على ان المعارف كانت متقدمة في تلك الاعصر وكان للصابئة اعياد وهياكل يعظمونها فاعيادهم كانت عند نزول الكواكب الخمسة المتحيرة في بيوت شرفها والمتحيرة هي زحل والمشتري والمريخ والزهرة وعطارد والهياكل التي يعظمونها بيت مكة وبيت بظاهر حران يحجونه ومن هياكلهم هيكل السنبلة وهيكل الصورة وهيكل النفس وهذه مدورات الشكل واما هيكل زحل فمسدس واما هيكل المشتري فمثلث واما هيكل المريخ فمستطيل واما هيكل الشمس فمربع واما هيكل عطارد فمثلث في جوف مربع واما هيكل القمر

فثمن ومن هيا كلهم بيت بمدينة حران في باب الرقة يعرف بمصلينا
يقول انه هيكل ازر ابو ابرهيم الخليل عليه السلام وذكر بعض اهل
الاطلاع ان باقصى بلاد الصين هيكلا مدورًا له سبعة ابواب في
داخله قبة مسبعة الاركان عالية البنيان وقيل ان باعلى القبة شيئًا
يشبه الجوهر يزيد علي راس العجل تضيئ منه جميع اقطار ذلك
الهيكل وان جماعة من الملوك حاولوا اخذ تلك الجوهرة فاذا صار
بينه وبينها مقدار عشرة اذرع لم ير شيئًا وان حاول اخذها بشيء
من الآلات الطوال كالرماح وغيرها وانتهت الى هذا المقدار
تثنت وانعكست وتعطلت وان رميت بشيء فكذلك فلم يجدوا لهم
حيلة في اخذها ومن تعرض لهدم شي من هذا الهيكل مات لوقته
وكانها دبرت من انواع الاحجار المغناطيسية وفي هذا الهيكل بئر
مسبعة الفم متى آكب الانسان على فمها يسقط فيها وصار اعلاه
اسفله وحول فم البئر شبه الطوق مكتوب عليه بقلم قديم يقال
انه بقلم السند هند هذه بئر تؤدي الى مخزن الكتب وتاريخ الدنيا
وعلوم السماء وما كان فيما مضى من الدهر وما يكون فيما يأتي منه
وتؤدي ايضًا الى خزائن رغائب هذا العالم لا يصل ولا يقتبس
منها الا من ساوت قدرته قدرتنا وعلمه علمنا وحكمته حكمتنا فمن
قدر على الوصول الى هذا المخزن فليعلم انه قد وازانا ومن عجز عن
الوصول الى ما وصفنا فليعلم انّا اشد منه بأسًا واقوى حكمة واكثر
علما واوسع دراية والارض التي فيها هذا الهيكل والقبة والبئر ارض

حجرية صلبة مرتفعة كالجبل الشامخ فاذا رأى الانسان ذلك الهيكل والقبة والبئر حصل له عند ذلك جزع وحزن وتاسف علي افساد شي منه او هدمه

ويقولون ان اهرام مصر قبور احدها قبر شيث بن آدم والاخر قبر ادريس وهو اخنوخ والثالث قبر صابي بن ادريس الذي ينتسبون اليه ويعظمونه يوم دخول الشمس برج الحمل فيتزينون ويتهادون فيه ومن هناك يعلم ايضاً ان علم الفلك ومعرفة الكواكب وما يلزم لذلك من العلوم كان قديما واصله من ارض اسيا ومنها انتقل الى مصر والى غيرها من البلاد حين تفرق اولاد نوح بالارض بعد الطوفان وعمروها وبنوا بها المباني على مثال ما كان في اسيا قبل الطوفان

فقال الانكليزي ما ذكرته من الادلة على اثبات العلوم لمن كان قبل الطوفان في غاية الوضوح ففي التوراة وهي من الكتب القديمة ما يدل على ذلك فانه حين تكلم فيها على الخليقة من مبدئها وما يتبع ذلك من الحوادث بينه غاية البيان حتى صار كل من قراه كانه شاهد بالعيان كل حادثة من حوادث الاولين التي احدثها رب العالمين وهذا وان كان فيه مخالفة لما نقله دويودور عن المصريين في شان الخلقة وتدبيرها الاّ انه اصح لان ما نقله دويودور ليس الاّ عبارة عن خرافات واوهام وبيان صور واوثان لا يحصل بها معرفة السر المقصود منها واما ما في التوراة فهو حق

لا ريب فيه فانه عن موسى الكليم ومثله لا ينطق الاّ عن من هو بكل شي عليم وايضًا مذهب دويودور مأخوذ من امور ظنية نتجت من رصد الحوادث الطبيعية ولم يقف لا هو ولا غيره على ما اودعه الله فيها من الاسرار الخفية واما المكتوب في التوراة فهو بالنظر الى باطنها وحقيقة امرها لان موسى عليه السلام اوحي اليه بما قرره وكان عليه السلام بمصر وقت وجود العلوم القديمة بها على اصلها وكانت اخبار الازمان الماضية وحوادثها عند علمائها على صورتها الحقيقية بخلاف دويودور فانه لم يوجد بمصر الاّ بعد انحطاطها عن درجة علوها وفخرها بما لحقها من توالي الفتن والمظالم وعليها فان علمائها بعد استيلاء الاروام والعراقيين والاعجام عليها كانوا عن درجة قدرهم نازلين وفي قيود الذل والهوان مكبلين هاجرين العلم والمعابد لما فشا اذ ذاك من المفاسد فاستبدلوا الاشتغال بالمعارف الخفية بالاشتغال بغيرها وتفننوا فيه بظنونهم الفاسدة واوهامهم الكاسدة فعموا بعباراتهم والغزوا في تفهماتهم التي كانوا يستعملونها في وصف الهياكل وغيرها فدخل الجهل شيئًا فشيئًا وصار العلم بالحقيقة نسيا منسياً وصارت عباراتهم فيما بعد غير مفهومة للقسس فشرحوها بغير المقصود منها فاحلوا الكذب محل الصدق واقاموا الباطل مقام الحق فخيمت على عقولهم عناكب الجهالة وعششت في اذهانهم حمائم الضلالة

ومن قال ان اول من عمر ارض مصر النوبيون يعني سودان

افريقة فقد اخطاء خطاء كبيرًا لانه لا مشابهة بين السودانيين والمصريين في شي اصلا لا في اعضائهم ولا في لغتهم بل السودان من قديم الزمان على ما هم عليه الان والذي يقبله العقل هو ما ذكرتموه حضرتكم وما هو مدون في كتب العرب من ان من نجوا من الغرق كانوا من سكان الجهة المرتفعة من الارض فلا بد انهم كانوا في حدود الخراب منها وبعضهم كان سكن باسيا وهم الذين كانوا في سفح جبال توروس وجبال قاف فصارت ارض اسيا كانها منبع النوع البشري ومنها خرجت فرق متعددة وتفرقت في جهات الارض وعمرتها ومنهم من ذهب الى ارض النوبة فعمرها وانتشر فيها الى الشلالات في نهاية ارض مصر

واما قول المؤرخ ايفور ان اسم النوبة كان يطلق على اصل القبائل الساكنة قرب ارض البالستين من ارض اسيا وقول هيرودوط ان ازدشير كان من النوبيين سكان اسيا فيحتمل ان يقال ان هذا الاسم كان يطلق على جميع اهل هذه الجهة بسبب سمرة لونهم من حرارة الشمس ثم فيما بعد اطلق على سكان شاطئ النيل الاعلى وربما تشهد لذلك المشابهة الحاصلة بين المصريين السالفين والنوبيين والحبش فعلى قولهما لا مانع من ان يقال ان اصل الجميع من سكان اسيا قبل الطوفان والذي يغلب على الظن انها متقدمة على من عداها في المعارف والفنون وان التمدن كان عندهم في اعلا التقدم وحينئذٍ لا غرابة في مشابهة قدماء المصريين

للصينيين في حروف الكتابة وبعض القوانين فان اصل الجميع
واحد وكل منهم من ذلك الاصل مستمد وفي التوراة مدن غير
بابل كانت العداوة بين اهلها لا تنقطع وكانوا كالبابليين متمتعين
برياض المعارف مقتطفين منها ثمرات حسنة وكانوا يطلقون اسماء
اولاد نوح عليه السلام على مواضع معينة ولا شك ان اهل هذه
المدن لم تبلغ تلك الدرجة في زمن قليل بل لا بد انه بقي عند
بعض عائلاتهم بعض ما كان عند ابائهم الاولين من المعارف
والعلوم حتى ظهر منهم ما ظهر من الاثار فيما بعد الطوفان ولكن
في كلام بعض مؤرخي الصينيين ما يدل على ان حادثة الطوفان
ازالت جميع ما للامم من الاثار فان قيل اذا كان كذلك فما السبب
في بقاء العلوم والفنون حتى الاخلاق والعوائد والاطوار عند
المصريين هذه القرون الطويلة وفي كتبهم المقدسة مع انها من
علوم الامم السابقة على الطوفان قلنا ان ارض مصر لما كانت منعزلة
عن باقي الامم منحصرة بين صحراوين ولم يكن بينها وبين غيرها
اتصال والمسالك الموصلة لها صعبة كان ذلك هو السبب في ابقاء
المعارف بها لانه لو سهل الوصول اليها لدخلت الاغراب واضاعوا
معلوماتهم وما ورثوه عن ابائهم الاولين فان فتوحات سزستريس
الاكبر ترتب عليها اختلاط المصريين بكثير من الامم البعيدة عنهم
والاسرى التي اسروها منها نقلوا اخبارها وخصب ارضها فدعا
ذلك الى رغبة كثير من الناس فيها فسكنوها واختلطوا باهلها

فحصل بذلك تغير في جميع احوال الملة في الامور السياسية والدينية وفي هذه المدة تيقظت الملل الاخر الى مصر ففتح ذلك عليها ابواب المصائب وكان اهلها قبل ذلك من حذقهم وخصوبة ارضهم متحصلين على ما يزيد عن حاجتهم وكانت العلماء وارباب الوظائف في غنية عظيمة وسعة تامة فبذلك كانت دائرة المعلومات اذ ذاك متسعة وادارة الحكومة منتظمة بقوانين عدلية فكان قانون العدل بها له السلطان ولواوه منتشرًا فوق راس كل انسان من ابتداء منيس الى اخر العائلة الثامنة عشرة بخلاف سكان البقاع الاخر والكلام في هذا المبحث يطول وليس الى ساحله وصول وقد ازف الوقت ويلزمنا ان نغير الهواء ونريح الفكر بالتنزه في بعض جهات البلد ثم بعد ذلك نتوجه لصاحبنا



المسامرة الخامسة والثمانون

وصف

بعض انحاء باريس

فقام الشيخ الى غرفته وادى من العبادات ما يلزمه في ديانته ثم غير ما عليه من الملابس فلم يلبث برهة من الزمن واذا ببرهان الدين قد حضر فقال له والده يا بني تهيأ للخروج فانا مدعوون فتهيأ كما امره والده في زمن يسير ثم توجها الى غرفة الانكليزي فاخذهما وسار بهما الى ان وصلوا ميدانا محاطا بابنية عالية مجملة بصور متماثلة وغير متماثلة ووسط هذا الميدان صورة قلة مرتفعة فوق قاعدة مربعة وسط سعة مبلطة وحول تلك الصورة درابزين من كل الجهات فوقف الشيخ وولده والانكليزي ينظرون اليه والى الصورة الموضوعة في اعلاه فقال له الانكليزي الصورة التي

تراها هي تمثال نابليون الاول الذي اخذ مصر حين القيام الاول واغار بجيوشه على جهات كثيرة من اوروبا وانتصر مرارًا عديدة الى ان آل الامر الى اخذه اسيرًا وحبس في جزيرة سنت هيلين الى ان مات ثم احضر الفرنسيس جثته ودفنوها لاجل بقاء ذكره ورفعوا له هذا التمثال وهو من حجر الاّ انه مكسوّ بتونج المدافع الماخوذة من النمساويين وغيرهم وارتفاعه ثلاثة واربعون مترًا ومن داخله سلم ضيق يصعد منه المتفرجون الى اعلا القلة وكان في محل هذا التمثال قبل ذلك تمثال الملك لويز الرابع عشر المشهور وكان على قاعدة من الرخام الابيض وكان فوق حصان من التونج فلما حصل قيام الامة الفرنساوية كسروه ووضعوا مكانه هذه الصورة وفي مدة الملك لويز الثامن عشر صدر الامر بنزول التمثال في سنة ١٨١٤ فانزلوه ولكن في مدة الملك لوي فيليب عمل التمثال الذي تراه ووضع محله وكان يوم وضعه يوما مشهودا حضرت فيه عساكر الرديف والآلايات وكثير من اهالي المدينة وحضر الملك بنفسه مع جميع خواصه ورجال دولته وكانت الموسيقات تضرب والمغنون يترنمون بالالحان والناس في اعلا درجة الفرح

فقال الشيخ الذي يظهر من ان ملة الفرنسيس عندها طيش وخفة لان ما تستحسنه في يوم تستقبحه في غد وليس لها ثبات على حال واحد وهذا مما يوجب دوام اسباب الخلل اذ من الواجب

عليهم بقاء احترام من اسس لهم هذه الشهرة العظيمة التي كانت سببًا في رفعة قدرهم واتساع دائرتهم وقوة سطوتهم وهيبتهم واحترامهم عند جميع الامم حتى نشأ لهم من ذلك ما فيه من السعادة والتقدم ما لا يخفى وما حصل في مدته من الخلل لا يدعوهم الى تنزيله عن درجته المستحقة له فان ما وقع من الشر ايامه لم يكن مقصودًا له بل ذلك تقدير العزيز العليم ولو قدر على منعه باي حيلة ما قصر وما اسسه لهم دليل على غزارة عقله فانه احدث لهم ما يفتخرون به فكان ينبغي لهم ان يديموا تعظيم هذا التمثال واحترامه وبينا هم في هذا الحديث واذا بهم وصلوا حديقة السراية الملوكية وكان وقت الاصيل فوجدوها جنة لا يكاد يوجد لها مثيل كثيرة الازهار جارية الانهار مخضرة الاشجار مخضلة الربى معتلة الصبا بها خلق كثير ما بين عظيم وحقير ونساء ورجال وشبان واطفال ما بين فطيم ورضيع ورفيع ووضيع فالرضيع على عاتق مرضعته وابن السنتين الى الخمسة مع دادته يتنوعون في الالعاب فمنهم من بيده عصا يضرب بها كرة ويتبعها حيثما ذهبت ومنهم من بيده طارة قدر الغربال يحركها بالسرعة والنباهة ويدخل في وسطها ويخرج مع عدم قطع حركتها وآخرون يسوقون طارات مختلفة القطر بعصا فيضربها بعضهم والبعض يمسك حبلا بيده فيجره من تحت قدميه ومن فوق راسه والعاب اخر كثيرة التنوع مع نظافة الاطفال وسلامة ابدانهم وحسن صورهم وامتثالهم

للمربيات واتباعهم اوامرهن فعند ذلك تذكر الشيخ القاهرة واحوال اطفالها الوخيمة وطباعهم الذميمة ودناسة ملابسهم وكثرة بكائهم وعنادهم وقارن بين الحالتين وعوائد اطفال الامتين وتمنى ان تكون تربية اطفال المصريين كالجاري بباريز لتخلص الاطفال من ربقة الامراض الناشئة من عدم ترييضهم وحبسهم داخل بيوت اهلهم فمن ازدياد فكره في ذلك واشتغاله بما رآه هنالك كان لا ينظر الى من يمر به من الناس المتجملين بالملابس الفاخرة وارباب الوجوه الناضرة وكان كلما قرب من جهة بها اطفال يمعن النظر فيهم ولا ينقل طرفه عنهم ولكن لما كان عالما ان الانكليزي لا يخرج عن رايه توهم في نفسه ان موافقته له ربما كانت على خلاف رغبته فقال يا صاحبي ارجو منك السماح وعدم المواخذة فاني حظيت هذا اليوم بنظري لهولاء الاطفال حظوة لا تعادل وسررت بروئيتهم سرورًا لا يماثل وازالت روئيتهم عني هموما كثيرة فنعم ما يفعل بهذه الاولاد وان هذه الاصول التي هم عليها لفي غاية السداد فان فيها حفظا للاطفال من العاهات ولولا هذا الارتياض للحقهم ما يلحق ابناء المصريين من الامراض

فقال الانكليزي ومن عوائدهم ايضا كلما وجدوا الجو صافيا ان يذهبوا باولادهم او يرسلوهم الى محلات التنزه في اليوم مرة او مرتين الى ان تقوى بنيتهم فيرسلونهم الى المكاتب ليتحصلوا على ما فيه مصلحة لهم ولاهلهم

وبالتجارب وجد من يموت منهم قبل هذه الرياضات اكثر ممن يموت بعدها ففي هذه فائدة عظيمة من حيث زيادة تعداد الاهالي وبزيادتهم يزيد الخير لان ثروة الامة تابعة لزيادة عدد اهلها وفي داخل البلدة وخارجها حدائق وميادين مثل هذه وفيها من الاشجار والحيضان ما ينشرح به صدر كل انسان ونافورات وهياكل للزينة كل ذلك مجعول لتروح الناس وتريض افكارهم وقت التنزه

ثم سار الشيخ والانكليزي فما من جهة مرا بها الا قابلها خلق كثير في زي واحد لا يفرق الانسان بين الامير منهم والحقير والغني والفقير وكانوا لا يسمعون غير خرخشة الفساتين ودوي العربات ومناغاة الاطفال والفاظ رخيمة من ربات الدلال وهكذا كان يسمع من كل جهة ثم سارا حتى وصلا الى ميدان بنيانه من احسن البنيان فمد الشيخ بصره يمينا وشمالا وخلفا واماما فوجده محاطا بمنازل عالية البناء حسنة التقاسيم وعليها درابزينات متنوعة الاشكال ملونة بالوان مختلفة لا يخرج واحد منها عن مجاوره ولا يعلو عليه ولا يتفاوت بعضها عن بعض الا بزيادة الرونق والزينة ووجد جميع الطرق مزدحمة بالخلق ازدحاما عظيما وكانه يوم عيد لما على وجوه الناس من الفرح وعلى ابدانهم من الملابس الحسنة فصار الشيخ يتفكر في ذلك ويتامل كل التامل فلما رآه الانكليزي مستغرقا في الفكر ينظر للناس تارة ولغيرهم اخرى قال

له ايها الاستاذ هل لك ان تقف هنا هنيهة امام هذا الملك المفارق لاهله المعزول عن ملكه بعد بقائه فيه ثلاثة الاف سنة فلما سمع الشيخ ذلك الكلام التفت فرأى عمودًا مرتفعًا الى السماء لا يدرك اخره البصر ولم يرَ الشيخ مثله ولا سمع به فيما مضي وغبر فقال للانكليزي ما هذا الذي ارى فقال هذا عمود يقال له المسلة واصله من مصر وكان بصحراء الاقصر وابي الحجاج فاهداه محمد علي باشا لشارل العاشر فنقله الى هنا ووضعه في هذا الميدان ليكون اعجوبة الى اخر الزمان

وبينا هما كذلك واذا بشيخ كبير انسل من بينهما وهو يقول هذا اثر من اثار المصريين الذين اخنى عليهم الزمان دال بذاته على عظم قدرتهم وقوة باسهم وسطوتهم وغزارة علومهم ورزانة عقولهم وتالله انا ما علمنا الاّ بعض ما علموا ولا وصلنا الا القليل مما وصلوا فيا ايها الاثر الجليل انبئنا عن احاديث الماضين وما كانوا عليه في تلك السنين فقد مر عليك سنوات واعوام وليال وايام وشاهدت ما فعله الظالمون وجناه المعتدون فافصح لنا عن تاريخ ما رأيت من الامم واعرب عما جرى بينهم في الزمن المتقدم وها انت في موضع غير الاول فهل تعيش قدر ما عشت وتنظر من الحوادث قدر ما نظرت فالتفت الانكليزي فراى الناس في ازدحام من خلف وامام فاوسع للشيخ الطريق واخذ بيده وترك الناس في فريق الى ان وصلوا العربة فركبوها وصار الشيخ يسئله عن تلك الاعاجيب وهو

يجيبه كانه امها وابوها فقال له ان اهل الاطلاع يقولون ان الواضع لهذه المسلة رامسيس الاكبر صاحب الفتوحات الكثيرة والمصادمات الشهيرة ببلاد الشام والعراق والحبش وكان يوم وضعها بباريس يوما مشهودًا فلم يتخلف احد عن الخروج والنظر اليها حتى الملك وعائلته ولهج الباريزيون بذكرها واطالوا البحث عن حجرها وعن الملوك الذين في زمنهم رسمت والنوع الذي منه قطعت وهي عندهم الى الان من اعاجيب الزمان

ثم ساروا حتى وصلوا احدى الجهات فنظر الشيخ فرأى سراية قد تحلت بالصور العجيبة الشكل والهياكل النادرة المثل بين اعمدة من الحجر شاهقة الارتفاع قاسمة جميع وجهات السراية اقساما متساوية الاضلاع وعلى الباب حرس بالسلاح يتمشون فقال الشيخ ما هذا المكان الذي اراه عجيب المنظر حسن المخبر وما هذه الاعمدة الرفيعة والهياكل البديعة فقال الانكليزي هذا مسكن ملوك الفرنسيس الان ويقال له سراي التويلري ومعنى هذا اللفظ في الاصل محل ضرب الطوب وقد كان كذلك قبل بناه فبقي الاسم وذهب معناه وبجواره سراي اللوفر كانت قبل بناء التويلري مسكنًا للملوك ايضا ثم جعلت الان محلا للرسوم والهياكل

فقال الشيخ وهل يمكن الان ان نراها فقال انها لا تفتح الّا في ايام معينة واوقات مخصوصة وفيها مكان كله صور ورسوم يدخله النقاشون والمصورون لاجل تمرنهم على صناعتهم فاذا جاء اليوم

الذي تفتح فيه ذهبنا ان شئت لننظر ما هناك من الرسم الغريب الصنع والصور البديعة الوضع

فقال الشيخ سبحان الله ان هذه الدنيا لا يبقى فيها شي على عهد بل لا بد ان يناله نصيبه من الشقاء والسعد

واذا مررت على الديار وجدتها

تشقى كما تشقى الرجال وتسعدُ

فقال الانكليزي صدقت ايها الاستاذ فان هذه الحدائق والمباني العالية والطرق القويمة كانت قبل ذلك بركا يخزن فيها الماء والاوساخ وكان منظرها اقبح من منظر الخراب ثم انه في القرن الثالث عشر صارت محلاً لمعامل الفخار الذي يغطون به سقف المنازل وقاية لها من الامطار وكانت الملوك اذ ذاك تسكن سراية اللوفر ولكن لم تكن وقتئذٍ مزخرفة الظاهر كما هي الان بل كانت عبارة عن برجٍ مستدير عالي السور وحواليه خنادق متسعة عميقة لا يمكن عبورها الاّ بواسطة قناطر يرفعونها بالسلاسل في اوقات معلومة وفي ذلك الوقت بسبب كثرة تحزب الامة الفرنساوية وعداوتهم لبعضهم ولملكهم كانت بينهم فتن لا تنقطع فكانت همة الملوك مصروفة لامر الحرب وقمع الاعدا والمحافظة على انفسهم فكانوا لايشتغلون بامر الزينة والزخرفة ثم ارتفع الخوف وهدأت الفتن واطمئنت القلوب وقويت علائق الاتحاد فازدادت ثروتهم واتحدت كلمتهم ووجهتهم فصاروا كانهم رجل واحد وصار يضبط حكومتهم

قانون واحد وساروا تحت راي ملك استقر رايهم عليه فذهب منهم جفاء الطباع واخذت الاحوال القديمة تذهب شيئًا فشيئًا وبعد ان كان جل همتهم صلابة البناء وقوته وارتفاعه ومتانته صار مطمح نظرهم الى حسن صورته وتناسب اجزائه ولطافته فاخذوا يزينون اماكنهم ويتغالون في زخرفها حتى وصل بناءهم الى ما تراه وبعد ان كان لا يتمكن احد من القرب الى سراي الملك صارت الناس تمر كما ترى في طرقاتها وتحوم في حوماتها ويدخلون من جميع الابواب من غير منع ولا حجاب فكل زمن له حكم

وفي زمن الملك فرنسوا الاول اشترى محل سراي التويلري وكان فضاء يبلغ قريبًا من مائة فدان مصري واشترت والدته ما جاوره وبنت فيه محلا لها ولم يبدأ في سراي التويلري الاَّ في وقت ماري دومدس ومن ذاك الوقت سكنها الملوك وصار كل ملك يضيف اليها شيئًا ولم تكن من اول الامر متصلة بسراي اللوفر بل كان بينهما فضاء وبيوت للاهالي فصارت الملوك تشتري هذه البيوت شيئًا فشيئًا ويدخلونها ضمن السراي ولم يصل هذا المكان الى الهيئة التي تراها الان الاّ مدة نابليون الثالث امبراطور الفرنسيس وان كان نابليون الاول ولويز فيليب وغيرهما من قبلهما اشتروا كثيرًا من البيوت وادخلوها ضمن السراي وصرفوا في ذلك مبالغ جسيمة من المال

وفي تقسيم المدينة اعتبرت سراي اللوفر وسطا وجميع طرق

البلد متصلة بها وتنتهي بالمحيط ولما قسموا المدينة جعلوها عشرين خطا وسموا كل خط باسم اشهر مكان فيه فالاول يسمى باللوفر لوجود سراية اللوفر به والثاني بالبرتينة والثالث بالتامبل اي المعبد والرابع بالمحافظة وهكذا

وبعد برهة وقفت العربة فنزلوا لدى مكان فطرق الانكليزي بابه ففتحه البواب ودخلوا واذا بصاحب المنزل قابلهم بالترحب وسار امامهم نحو ديوان عظيم متسع مفروش باحسن الفرش منقوش سقفه باحسن النقش وحائطه من كل جهة بالورق المنقوش بالذهب وفيه من عجائب الرسم وغرائب الصنعة ما يسر الناظر وارضه من خشب الجوز مفرغة في قوالب اشكال هندسية منتظمة وكان هناك ثلاثة من ارباب الجمعية المشرقية كلهم يتكلمون بالعربية وغيرها من اللغات المشرقية وكذلك صاحبة المنزل مع اثنتين من النساء الحسان فلما قرب صاحب المنزل من المجلس عرّف الحاضرين بدرجة الشيخ في المعارف وغزارة مادته في العلوم وفصاحته في العربية فقاموا له واجلوه واجلسوه وسطهم وآنسوه وجلست صاحبة المنزل عن يمينه فصارت تحييه باحسن ما عندها من التحيات ويترجم احد الحاضرين للشيخ تحياتها وكان مطمح نظر الحاضرين الى برهان الدين لكونه كان اشد حياء من والده حسن السمت كثير الصمت فاعجب صاحبة المنزل ادبه وكماله فكان اغلب حديثها معه. وكان الانكليزي قريبًا منها فكان هو المترجم

لكليهما ولما حضر الطعام اجلسته عن يمينها والشيخ بينها وبين زوجها ثم اخذوا يتناولون الطعام ويتجاذبون اطراف الكلام ويتسآلون اسئلة اثناس حتى رفع الطعام فرجعوا الى الديوان ودار بينهم الحديث في كل قديم وحديث بخصوص مصر وما احتوت عليه من المحاسن قديما وفي هذا العصر وخصوبة ارضها واعتدال قطرها وصفاء هوائها ومن سكنها من القدماء والمحدثين ومن تصرف في امرها من الاولين والاخرين وتداول الدول في الاواخر والاول وما اعتورها كل زمن من المنح والمحن وكان من جملة الحاضرين رجل قد ناهز السبعين عليه الوقار والجلالة معظم لدى الحاضرين مسموع الكلام عندهم اجمعين طلق اللسان في اللغة العربية فظهر للشيخ من كلامه انه مارس كثيراً من المعارف المشرقية لانه رأى غالب كلامه اللغة العربية والفقه واشعار العرب ونوادر الادباء ورآه حافظا لكثير من غرر القصائد ومنتخب كلام البلغاء يمزجها بنوادر مستظرفات ويقارن بعض لطائف كلام العرب بما يقابلها من كلام الافرنج فعجب الشيخ من ذلك كل العجب وطرب من منادمته كل الطرب فطال بينهم الكلام وانفسح المقام ودخل معهم الانكليزي والحاضرون اجمع منهم من تكلم ومنهم من سمع وخاضوا بين جد وهزل ومفضول وذي فضل وحوادث البوادي والحواضر في الغوابر والحواضر الى ان قرب الليل من الانتصاف وجاء اوان النوم فاستاذن الانكليزي وقام الشيخ والحاضرون وتواعدوا

بالاجتماع فقال ذلك الرجل للخواجا اني اريد ان اتشرف بك وبحضرة الشيخ الليلة القابلة فاعتذر له الشيخ ووعده بان يحضر الى منزله في الليلة التي تليها وانصرف كل مسرورا بما حصل له من الائناس بمن رآه من اماثل الناس وذهب عن قلب الشيخ ما داخله من الم الاغتراب وفراق وطنه والاحباب وشكر الانكليزي على حسن صنيعه به وعلى ما اسداه اليه من البر وتعرفه باحاسن الناس فقال ياحضرة الشيخ هذا بعض ما يجب عليّ وغاية مناي اطمئنان خاطركم وادخال السرور عليكم وقد علمت الليلة سرور من اجتمعنا به بحضرتكم لاسيما الرجل الهرم فانه انجذب الى حبكم بكليته فمن الواجب دوام الود بينكما وقد رجاني في ذلك وهذا لا باس بمعرفته فانه من مشاهير هذا الوقت علما وادبا ومن خيار هذه الامة حسبا ونسبا وله تآليف عديدة في علوم شتى ومعرفة بلغات متعددة فضلا عن كونه رئيس الجمعية المشرقية معدودا من علماء اوروبا وامريكا ومن اعضاء جمعية الملة واني لارى ان معرفة مثل هذا اصل ينبني عليه معرفة امراء البلد واكابرها

فقال الشيخ ومن لي بمثل هذا فاني استظرفت كلامه وعجبت لجودة قريحته وذكاء فطنته وتوقد ذهنه مع كبر سنه

فقال الانكليزي وكيف رايته في علومكم قال هو مع غلبة العجمية عليه في النطق لبعض الالفاظ العربية ذو قدم راسخة في العلوم وله اطلاع على كثير من كتب العرب وتضلع من علم

الادب ولا بد انه ساح في كثير من بلادنا ومارس فضلاء العباد حتى تمكن مما تمكن

فقال الانكليزي نعم فانه حكى لي انه اقام بمصر مدة سنين وتوجه الى الحجاز واقام بجدة مدة ثم سافر الى عراق العرب ونزل بغداد وساح تلك البلاد ثم ذهب نحو عراق العجم وسكن تخت ملك فارس وكل ذلك كان لطلب العلم فجنى منه ثمرات واقتطف زهرات واما بلاد اوروبا فلم يترك منها بقعة الاّ وله فيهـا شهرة وسمعة حتى جنى من ثمار معارف كل جهة احاسنها واقتطف من ازهار كل فن اطايبها وفي مدة تغربه حاز الفضائل من الافاضل واكتسى الوقار من معاشرة الاماثل وستسبر غوره متى كثر الاجتماع وتاكدت علائق الالفة



المسامرة السادسة والثمانون

تعدد الزوجات

ثم وصلا محل سكنهما فجيء كل صاحبه ودخل الشيخ غرفته فتوضأ وصلى صلاته وقرأ بعض ادعية ثم دخل فراشه ونام حتى الصباح فلما استيقظ من نومه دخل ولده عليه وجلس بجانبه بعد تقبيل يديه ثم قال له والده قد آنسنا اهل مجلس الليلة فانهم اذكيا ظرفاء واظن انك كنت في غاية الانس بصاحبة المنزل فاني ما رأيتها فارقتك ولا رأيتك مللت حديثها وكنت احيانا تحدق النظر نحو صواحباتها وهن كذلك فغض برهان طرفه وتبسم واطرق راسه ولم يتكلم فقال له والده ما الذي دار عليه حديثكم لا بد ان

تخبرني بما جرى بينكم فقال سالتني صاحبة المنزل عن حال النساء عندنا وعن والدتي واخوتي فاجبتها بما يليق ثم سألتني أمتزوج ام لا وهل والدك معه غير امك ام لا فقلت لها اما انا فلم اتزوج واما والدي فليس معه غير والدتي ولم يتزوج بغيرها فقالت وكيف ذلك مع ان المشرقيين يحبون تعدد النساء فقلت لها كثير من المسلمين لا يتزوجون بغير واحدة وليس التعدد محتما عليهم وانما قد تعرض للانسان اسباب تلجئه الى ان يعدد نسائه والشرع عندنا لا يمنع الاّ ما زاد عن اربع واما ملك اليمين فلا حظر فيه ولو كان ما كان فضحكت احدى النساء متعجبة وقالت حينئذٍ يمكن الغني ان يقتني الوفًا للتمتع بهن فقلت لها نعم فقالت حين ذاك لا يعرف لاحداهن فضل عن غيرها فاي بلدة تصنع بنسائها هكذا وكيف تكون معيشة النساء بها لا جرم انها عيشة غير مرضية ولا شك في ان نسائهم لا ينقطع لهن زفير من الم الغيظ الكامن في انفسهن وان كل واحدة انتهزت فرصة من الاخرى تفعلها بها لتحظى بزوجها او سيدها دونها واظن انه اذا كان صاحب عائلة على هذا النسق لا يسر خاطره ولا يروق ناظره ويقضي يومه وليلته في دعاويهن مع بعضهن ومعه فتارة يكون خصما وتارة حكما وربما لا يأمن على نفسه وماله من عائلته فالعجب كل العجب من هذا الاصطلاح الذي هو منشا الفساد في حياة الانسان وبعد موته فان ما يحصل بينه وبين

عائلته في حال حياته لا بد ان يحصل اشد منه بينهن وبين اولادهن بعد مماته خصوصًا عند قسم التركة أتظن ان هناك قانونًا للزواج احسن من القانون الذي عندنا فقلت لها ان احسن قانون واحقه قانون شريعتنا الغراء فانه قانون الخالق المدبر لامورنا المتكفل برزقنا وقد جاء به الانبياء المرسلون المطهرون المقربون عليهم الصلاة والسلام وكل ما جاء به الرسل يجب علينا السير بمقتضاه من غير زيادة فيه ولا نقص ومن خالف الشرع وتعدى عن حدوده استوجب الحد كما لو خالف افرنجي انجيل عيسى عليه السلام او يهودي تورية موسى فانه يعاقب على مقتضى شريعته ولا يسوغ لاحد ان يسير بمقتضى عقله ويترك ما وردت به الشريعة فان عقل الانسان محل للخطاء وايضًا ليس في النوع الانساني من هو اوفر عقلا من الانبياء عليهم الصلاة والسلام ولله فيما نراه من الخلاف بين الشرائع عند التشريع حكمة خفية لا تدركها عقولنا ولو اطلعنا عليها لرجعنا الى الحق وتركنا ما سوّله الشيطان حتى وقع عند بعض العقول موقع قبول واستحسان واما اشتغال البال بالذي يحصل من منازعات الضرات فلا يحسن وجها للتحسين والتقبيح فقد يكون هناك من له امراة واحدة وهو منغص العيش من قبلها مشوش الفكر بسببها فكل نفس جعل الله لها من هموم الدنيا وحظوظها نصيبا على قدرها وقد يحصل التوافق بين زوجات وينتظم الحال ويحسن المآل

فقالت الجميلة منهن البديعة بينهن ليس للانسان الاّ قلب واحد فلا يهوى غير شي واحد وكيف يقسم بين اثنتين فقلت لها دوام الحال من المحال فانه لو تعلق قلب الانسان بذات من الذوات والفها اشد ما يكون من الالفة وتولع بها وهام فلا تثبت له هذه الصفة على الدوام بل متى انقضت مدة التعلق قصيرة كانت او طويلة وتخلى القلب عما علق به سكن غيره فيه واظن انا لو تاملنا لوجدنا هذه الحالة لدى كل الناس لاتخص جهة دون اخرى ولا خلقا دون اخرين ففي قانون شرعنا لو وجد الرجل بقلبه كراهة لزوجته يسوغ له فراقها وكذلك هي لها ان تشتري منه عصمتها او تطلب منه ان يفارقها ويتخلص كل من الم الكراهة واما عندكم فلا حيلة ولا خلاص لاحد الزوجين من صاحبه تحابا او تباغضا فتبسمت صاحبة المنزل من قولي وقالت لمن تحادثني قد الزمك المصري الحجة فخجلت ولم تتكلم بعد ذلك وكان صاحبنا الانكليزي معنا وهو المترجم لي ولها عما دار بيننا من الحديث فكان يقوي حجتي فقد فهمت من كلامه ان قال لهن ان بقاع الارض مخالفة لبعضها في احوالها وكل امة سكنت بقعة منها كانت امور نظامها واحوالها على حسب ما تقتضيه حال بقعتها تتميما للنظام وتوافقا بين البقاع وما فيها من الحيوان والنبات والمياه والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة وغير ذلك وايضاً فان المقصود من

الزواج انما هو زيادة النوع الانساني فلو فرضنا انه جار في بلاد المشرق كجريانه في بلاد المغرب لحصل الخراب في ارض المشرق او العكس لما وسعت بلاد المغرب اهلها فان المولودين في اوروبا اكثرهم ذكور والمولودين في الشرق اكثرهم اناث فنسبة الاناث المولودين بارض المانيا مثلا الى الذكور المولودين بها كنسبة مائة واربعة الى مائة هذا وان كان من يموت هناك من الاناث صغيرًا اكثر ممن يموت من الذكور فان العبرة في التعادل بمن بلغ سن البلوغ من النوعين واما زيادة الذكور عن الاناث في ارض فرنسا على العموم فهي جزوء من خمسة عشر جزاءً بخلاف باريز فان زيادة المولودين الذكور عن الاناث بها جزوء من سبعة وعشرين جزاءً وفي لوندرة نسبة المولودين الذكور الى الاناث كالنسبة بين عددي تسعة عشر وثمانية عشر وفي مدينة نابولي من بلاد ايطاليا كنسبة اثنين وعشرين الى واحد وعشرين وفي بلاد الفلمنك وما جاورها كنسبة ثلاثة وعشرين الى اثنين وعشرين وليس ذلك مجرد قول بل كله ثابت بجميع نتائج تعداد هذه الجهات في نحو من مائة سنة فظهر من هذا ان الذكور ببلاد اوروبا اكثر من الاناث بخلاف ارض مصر وبلاد النوبة وبلاد الشرق فقانون الطبيعة عندهم جار على عكس ما عندنا لان المولود من الاناث عندهم اكثر من الذكور بقدر ثمن عدد الذكور وهذه حكمة ابدية وارادة ازلية وفي

بلاد الصين ويابونيا زيادة الاناث عن الذكور بقدر السدس وقانون الفناء جار تقريبا على هذا المنوال ففي اوروبا النسبة بين الاموات الذكور والاناث كالنسبة بين عددي سبعة وعشرين وخمسة وعشرين وفي مصر على مقتضى الجداول التي حررتها الافرنج تكون النسبة بين من يموت من النساء ومن الرجال كالنسبة بين عددي سبعة وعشرين الى عشرين فمعناه ان من يموت من النساء اكثر ولكنه غير مساوٍ لكمية المولودين هذا مآل ما فهمته من كلامه معهن ثم ضرب لي مثلا بمديرية المنيا وبني مزار فقال ان الملك الاشرف شعبان بن الملك الناصر محمد كان مسح قطر مصر كله وعد اهل المنيا وجميع قرى المديرية وكان ذلك سنة ثمانمائة وخمسة عشر فوجد اهالي تلك المديرية قريبًا من العدد الذي وجدته الافرنج حين عدوا تلك المديرية فان رجال اهلها كانوا مدة الناصر تسعة عشر الفًا وثمانمائة في ثلاث وثلاثين قرية وخمسة عشر الفًا وسبعمائة في ستة وستين كفرا والفين وثمانمائة وواحدًا وعشرين في ثلاث وعشرين نزلة والفا وستمائة وثلاثة وثلاثين في ثمانية وثلاثين نجعا فمجموع ذلك تسعة وثلاثون الفا واربعمائة واربعة وخمسون رجلا وبجعل عدد النساء اكثر من عدد الرجال بقدر الثلث كما دلت على ذلك التجاريب يكون مجموع النساء اثنين وخمسين الفًا وسبعمائة وخمسين فيكون جميع اهالي المديرية من

الذكور والاناث مائة الف وثلاثة الاف نفس وثمانمائة وفي وقت الافرنج وجدوا اهالي المديرية المذكورة مائة الف واربعة الاف وستمائة وخمسين نفسا فيكون الفرق ما بين مدة الملك الناصر وبين عدد الافرنج لهذه المديرية اي من سنة الف وثلاثمائة وخمسة عشر الى الالف وسبعمائة وثمان وتسعين نحو ثمانمائة نفس في ظرف اربعمائة وثلاث وثمانين سنة وهو شي يسير جدا لكن يلزم ان يلاحظ انه في تلك الاوقات كان ياتي الطاعون في كل اربع سنين مرة وفرار اناس كثيرين بسبب ما كان يحصل اذ ذاك من الجور والظلم هذا ما لاح بفكري وبناء على ما سبق يعلم سبب تعدد النسا في بلاد المشرق دون بلاد المغرب وارجو ان اسمع من جنابكم ما عندكم في هذه المسئلة

فقال الشيخ لا شبهة في ان القوانين العامة التي يراد بقاؤها على مرور الازمان يجب ان تكون ملحوظة الاصول والفروع بلواحظ الاستحسان وان تكون مربوطة بعلل صحيحة واغراض حميدة يفهمها كل احد ويرى ان لا سداد لاعماله وحسن حاله ومآله الا بالركون اليها والتعويل عليها سواء كان القانون من الفيض الالهي الذي لا يكون مسبوقا باجالة فكر وتدقيق نظر وهو المسمى وحيًا والهامًا وحملته الانبياء والرسل وتسمى تلك القوانين باسم الشريعة والدين او كان القانون باجالة الفكر وتدقيق النظر ومقارنة الاحوال وموازنة العواقب فما كان منها اسهل مسلكا واعلى

غاية وابعد من شوائب الفساد واقرب الى الضبط واجمع للخير انحط عليه الاختيار وتطابقت فيه الاراء واصحاب اولئك القوانين يسمون باسم الحكماء وقوانينهم تسمى الحكمة العملية وهي قسيمة الحكمة العلمية والحكمة العلمية منقسمة الى أربعة اقسام القسم الاول سياسة الشخص نفسه وهذا القسم هو المسمى بين اهل الاسلام بعلم الاخلاق والتصوف الظاهر وقد وضع علماء المسلمين فيه كتبا جمة كقوت القلوب لابي طالب المكي ونصف احياء العلوم لحجة الاسلام الغزالي (ويشرح في هذا العلم ما جبل عليه الانسان من القوى وآثارها وتقسيمها الى اصول وفروع فيبين مثلا ان الانسان ذو قوة غضبية هو من جهتها سبع وقوة شهوية هو من جهتها بهيمة وقوة عاقلة هو من جهتها ملك من الملائكة وروح من الارواح المقدسة وان لكل من القوى توابع هي لها بمنزلة الخدم والعمال والقوة العاقلة هي السلطان الاكبر وانه يلزم الانسان ان يكون تصرف قواه تحت اوامر القوة العاقلة ونواهيها) القسم الثاني سياسة المنزل بان يعرف ما للمنزل وعليه من الحقوق وما لاهلـه من الوظائف اللائقة باشخاصه فيسلم لكل شخص وظيفته بعد ايقافه على حدودها واعمالها وغاياتها القسم الثالث سياسة المدينة وهو كالقسم الذي قبله وغاية الامر ان المدينة منزل اكبر القسم الرابع سياسة القطر وبالتامل يعلم ان جميع السياسات مرتبطة ببعضها ارتباطا متينا كما هو من مقتضى النظام الفطري الذي عليه مجموع العالم ازمنة وامكنة اذ لا ريبة

في ان العالم شخص واحد ذو اعضاء واذا تمهد هذا علمت انه يجب في كل قانون شرعا كان او غيره ان ينظر الى علله التي اسس عليها وغاياته التي يرشد اليها فانها الحافظة له الموجبة لبقائه المكنة له من القلوب فان مدار امر الحي على ما يحفظ به حياته اصلا وتوابع فكل امر له دخل في ذلك فهو محبوب مطلوب وكل امر اوجب فيه نوعا من الفساد فهو مبغوض غير انه اذا نظر في احكام المصالح العامة وتاييدها وتمتين قواها كانت المصالح الخاصة تابعة لها جارية على منهاجها ومتى كان النظر مقصورًا على المصالح الخاصة نجم الفساد واستحكم ولم يتم امر مصلحة لما يكون في الاستئثار من المباغضة والمشاحنة ومن الامور العظيمة التي يجب مراعاتها والمحافظة عليها بقانون منتظم امر اجتماع الذكور بالاناث فانه مع كونه مانعا من لحوق ما ينشاء عن الامتلاء فهو السبب في بقاء النوع وتكثيره وللانسان بين طبيعته التي يشارك بها سائر الحيوان واسطة يتميز بها عنه وهي العقل فهو لا يسعى في تحصيل مقتضيات طبعه الاَّ تبعا للاحكام العقلية ولما لم تكن الانظار العقلية والطباع الفطرية كافية في ذلك منّ الله علينا بان ارسل لنا انبياء تلقينا منهم ما لا تفي به الانظار العقلية فكان من شريعة موسى عليه السلام ان يجمع الرجل في عصمته ما شاء من النساء فلما جاءت شريعة عيسى عليه السلام نسخت ذلك واوجبت الاقتصار على واحدة وتوسطت الشريعة المحمدية كما هو شانها في كثير من الاحكام فاجازت

العدد الى الاربع ومنعت ما وراء ذلك كما اجازت فراق واحدة واحتياز اخرى وحيث كانت الشريعة المحمدية مبنية على العدل والاحسان واجتناب انواع الظلم والعدوان وكسر عادية القوى السبعية والبهيمية وقد امرنا باتباعها والاهتداء بانوارها لم يكن امر تعدد النساء محذورًا لا في الحال ولا في المآل فانه اذا نظر لبقاء النوع وتكثيره كما هو المأمور به في قوله صلى الله عليه وسلم تناكحوا تناسلوا تكثروا كان التعدد اعون على ذلك الغرض وانجح وان نظر الى المساعدة والمعاونة فالكثرة مع الائتلاف واتحاد الغرض خير من عدمها ولا نظر في الدين لمجرد الشهوات اذ لو نظر لها لوجدنا ان المرأة الواحدة تعجز كثيرًا من الرجال واذا كانت النساء في بقعة اكثر من رجالها والضرورة داعية الى توزيعهن فتعدد الزوجات لازم غير ان استحكام الجهالة والغاء مدارسة الديانة وترك بناء الاعمال على احكامها وانقطاع المواعظ الحسنة النافعة المفيدة بين الرجال والنساء تولد منه العود الى مقتضيات الطبائع من الغيرة والمحاسدة وحب الاستئثار والاسترسال مع الشهوات والدخول في الامور من غير تقدير للحاجة ونظر للعاقبة فاختل قانون الازدواج ولحقه الفساد وقامت المشاقة فخلاصة القول ان جميع الاشيا حسنها وقبحها ومدحها وذمها تابعة لكيفياتها ونتائجها فما طابت كيفيته وعظمت نتيجته لم يختلف احد في حسنه . اهـ .

المسامرة السابعة والثمانون

التعداد او الاحصاء

ثم دخل الانكليزي والشيخ يلقي لابنه هذا الكلام فانتقل الحديث بهم الى مسئلة تعداد اهل الارض وذكرما في ذلك من الفوائد السياسية وبيان ما وضع له من التقريبات فكان من الانكليزي ان قال لو قلنا مثلا ان النسبة بين الموجودين بارض فرنسا وبين المولودين بها في السنة الواحدة كالنسبة بين عددي واحد وواحد وثلاثين فهم منه معرفة جميع اهل فرانسا تقريبًا بضرب عدد المولودين في عدد واحد وثلاثين ومثل ذلك ما لو قدرنا ان النسبة بين اهالي جهة من المانيا والجهات الشمالية وبين المولودين بها كالنسبة بين عددي واحد وتسعة وعشرين وثلث والقصد من ذلك معرفة عدد الامة على سبيل التقريب وهذا لا

باس به بل قد يجب على الحكام ليبنوا عليه مقاصدهم في اصلاح حال رعاياهم وهذا علم نفيس معتنى به عند الامم الاوروباوية وله فوائد عندهم منها معرفة من بقي ممن ولد في يوم واحد مثلا بعد مضي عدد من السنين ولهم في ذلك جداول يذكرون فيها ان بعد سنتين الاَّ ربع سنة يموت ربع من ولد في اولها ويبقى الثلاثة الارباع وبعد اربع سنين الا شهر يبقى ثلاثة اخماس فقط وبعد تسع يبقى ثلاثة اتساع وبعد عشرين سنة الى الثلاثين النصف وبعد خمس وثلاثين الى اربعين يكون الباقي خُمسَين وبعد الاربعين يبقى الثلث وبعد مضي خمس وخمسين سنة لا يبقى الا الربع ثم بعد سبع وستين يكون الباقي ثلاثة اجزاء من عشرين جزءًا من الاصل ومتى بلغ العمر سبعا وسبعين سنة يكون الباقي جزءًا من ثمانية عشر جزءًا من الاصل وبعد مضي خمس وثمانين سنة يكون الباقي اثنى عشر جزءًا من الف جزء من الاصل وبعد اربع وتسعين سنة يكون الباقي ثلاثة اجزاء من الفي جزء وبعد مائة وخمس سنين وثلاثة ارباع السنة يكون الباقي جزءًا من مائة الف جزء ومتى بلغ العمر مائة سنة وتسع سنين يكون الباقي جزءًا واحدًا من الف الف جزء من الاصل اي انه لو فرض ان الاصل كان المولود في يوم واحد الف الف لا يبقى منهم بعد هذه المدة الاَّ واحد عمره مائة سنة وتسع سنين

فبهذه الوسائل تكون افكار الحكام تابعة لسير الامة في جميع

تنقلاتها وحركاتها نحو السعادة والفقر والقوة والضعف والكثرة والقلة فعلى مقتضي ما يرونه ينحون نحو ما فيه الاصلاح

فقال الشيخ من المعلوم ان الافرنج لم يقيموا بمصر غير ثلاث سنين وهم في قتال دائم فكيف تفحصوا هذا التفحص واستكشفوا هذا الاستكشاف مع انها بقيت في يد غيرهم اعوامًا وقرونا ولم يحدثوا من ذلك شيئًا

فقال الانكليزي لا غرابة في ذلك فان الاعمال تابعة للنيات فمن سبق على الافرنج كان لا يشغله عن شان نفسه شأن وما كان يحصل عليه كان كافيًا لما يلزمه واما الافرنج فكانت نيتهم غير نية من سبقهم وباختلاف الاغراض تختلف الاعمال انظر الى المرحوم محمد علي باشا حين وليها بعد الافرنج فاحدث فيها امورًا عجيبة وجلب اليها من البلاد الاجنبية كل صنعة غريبة ثم تبعه في ذلك من بعده ممن ورثها من ولده فتراها بعد ان كانت في زوايا النسيان مهجورة العمران لا ذكر لها بين الامصار قد كساها التمدن حلل الفخار فقصدها العافون من كل واد وغلت مزارعها واضحت نزهة للناظرين وبساتينها عقود جمان رصعت بالدر الثمين وما من سنة تأتي الاّ ويستجد بها من المنافع ما يفوت الحصر من فوائد جديدة ومحاسن عديدة والمغارس تزداد والثمرات تنمو وبعد ان كان كثير من ارض الزراعة بها قد استحوذ عليه العدم وصار لا ينبت من طفو ماء البحر الملح عليه او تغطية الرمال له حصل الالتفات

في مدته ومدة اولاده فصلح اكثرها وزرع وظهرت الثمرة لاهلها وقد كان بالجهات البحرية من مصر مناقع مياه متسعة وبها كثير من الحشائش فكانت بطول مكث الحشائش وركود الماء يحصل منها تعفن وامراض يترتب عليها تلف للاهالي فصارت الان لا يرى لها اثر وتبدلت حشائشها بالزراعات النافعة كالارز والقطن والحنطة وغير ذلك

فقال الشيخ ان ذلك متوقف على العلم بما كان عامرًا وغامرا بمصر قديما فلو عرفنا ذلك امكن الحكم بتفضيل احد الحالين وتفاوت ما بين الزمانين فان من المؤرخين كابن اياس من يقول ان المنزرع من ارض مصر زمن المسعودي اعني في حدود القرن الرابع كان مائة وثمانين الف الف فدان ويبلغنا الان عن بعض صيارفة البلاد ان جميع المنزرع من ارض مصر ما بين الاربعة الاف الف والخمسة الاف الف فتكون نسبة ما بين الزمانين كنسبة واحد الى ستة وثلاثين او خمسة واربعين ولا اظن ان هذا الفرق كان يزرع ثم هجر فلعل في عبارة ابن اياس تحريفا والاّ فهو خطاء والذي يؤيد ذلك قوله ان في ذاك الوقت كان لا يجبى الخراج على بكرة ابيه الاَّ اذا بلغ عدد من يشتغل بالزراعة اربعمائة وثمانين الف نفس في جهات القطر مع ان الموجود حين التعداد الذي صار في زمنه ليس الاّ مائة وعشرون الف نفس وكان المنزرع اذ ذاك ربع الزمام فان اراد الفدان المصطلح عليه

خص كل شخص من المائة والعشرين ثلاثمائة وخمسة وسبعون فدانا ولا يعقل زراعة هذا القدر بشخص واحد وان اراد بالفدان اقل من الذي نستعمله كالقيراط مثلا فيخص كل شخص من المائة والعشرين الف نفس حينئذٍ خمسة عشر فدانا فيكون القدر الذي اراد وضعه الف الف فدان وستمائة الف فدان وليس مائة وثمانين الف الف فدان واذا كان للشخص الواحد خمسة عشر فدانا لا يبعد عليه زراعتها وما يدل على ان في عبارة ابن اياس تحريفا او خطاء ما ذكره في موضع اخر عن المسعودي ايضاً من ان مساحة ارض الزراعة جميعها بالقطر المصري مسير ستين يوماً فان كان قصده سعة طولها وعرضها ستين بسير الانسان فالمساحة الذاتية الان لا توافق المساحة الاولى اصلا والذي يغلب على ظني غلبة تقرب من اليقين ان الاصل الف الف وثمانمائة الف فدان وان الناسخ لكتاب ابن اياس اضاف صفراً فحصل منه هذا الخطاء الفاحش

فقال صاحبه الانكليزي قد قلت صوابا فان المساحة التي صارت مدة الافرنج ومن قبلهم توافق ما ذكرت فقد صار حصر جميع الارض المضروب عليها الخراج في جميع الجهات وتحرر بها قوائم من طرف صيارف الجهات فوجدت ثلاثة الاف الف فدان ومائة وثلاثة وستين الف فدان وستمائة وثمانية عشر فدانا وقوبل ذلك على ما استنبطه مهرة المهندسين وحرروه من رسم الارض وهو

ثلاثة آلاف الف ومئتان وسبعة عشر الف فدان وستمائة وسبعة عشر فدانا فوجد بينهما فرق قليل نشأ من اختلاف طرق الحساب بين مساحي الاهالي والمهندسين وحينئذٍ فهذا المقدار اعتباره صحيح لا شك فيه فانه موافق لما وجد في دفاتر المساحة زمن الملك الناصر سنة ٧١٥ هجرية الموافقة لسنة ١٣١٥ ميلادية وهو ثلاثة آلاف الف ومائة واثنان وسبعون الف فدان ومائة وستة وثلاثون فدانا ولا عبرة بما بينهما من الفرق لانه ناشئ من اختلاف طرق الحساب والقياس .

ثم قال ولا يخفى على حضرتكم ما حصل في القطر المصري بعد زوال ملك الفراعنة واستيلاء الاغراب عليها من الاسباب التي اوجبت تاخيرها وعدم انتظام حالها ونشأ من ذلك تلف كثير للارض بتركها واهمالها وفرار اهلها حتى خرب كثير من البلاد فمن ذلك يعلم ان ما وجده الافرنج مزروعا بوادي مصر ليس جميع ما كان يزرع في الازمان السابقة بل لا بد من اضافة ما كان قابلاً للزراعة ولم يزرع في ايامهم وكذلك الترع والجسور التي انشئت وارض البلاد التي استجدت وما اتلفه البحر المالح بعد تلف الجسور وترك المحافظة وضمه الى ما كان يزرع زمن الفراعنة وهذا الامر لا صعوبة فيه من بعد ما حرروه من الرسوم وقد امكن بسببه معرفة مساحة القطر وما اشتمل عليه بغاية الدقة كالمبين ادناه

فدان	
٧٣٠٥٨	ارض مشغولة بالسكن
٣٢١٦٧١	مساحة المنزرع والقابل للزراعة
٧٤٩١٤٠	غير الصالح للزراعة
٣٦٦١٣	جزائر النيل
١٢٠٥٦٣	ترع وخلجان وجسور
١٦٣١٦	اماكن السكن والخراب
١٥٨٩٤١	مساحة مجرى النيل المشغول بالماء
٩٤٢٨١٠	البحائر والبرك
٢٢٧١٣٤	الارض الرملية
٥٥٢٤٢٥٠	جملة ذلك

اي خمسة الاف الف فدان وخمسمائة واربعة وعشرون ألفا ومائتان وخمسون فدانا من الفدان الذي مساحته خمسة الاف وتسعمائة وتسعة وعشرون مترًا مربعا وهذا القدر يعادل من الفراسخ المربعة التي كل فرسخ منها يدخل في الدرجة الارضية خمسا وعشرين مرة الفا وستمائة وثلاثة وستين فرسخًا مربعا وثلثي فرسخ تقريبًا والمزروع من ذلك يعادل تسعمائة وخمسة وستين فرسخًا مربعا ونصفا فان اضيف الى ذلك

٢٢٤٨٧ مساحة الخرس وهى

١٠،٩٩	ومساحة الجزائر المتروكة وهى
٨٣،٩٠	ومساحة ما عدم من الجسور والترع وهى
٢٦،٨٢	ومساحة التلال والخراب وهى
٦٨،٠٨	ومساحة الرمال من ارض الزراعة وهى
٣٣٠،٠٠	ومساحة ما تلف بسبب البرك وهى
٤،٩٠	ومساحة ما غطته الرمال وهى
٢٢٠٠،٦١	كان المجموع

اي ان الذي كان يظن زرعه في عهد الفراعنة الفان ومائتان فرسخ مربع تقريبًا منها في الوجه القبلي الف وخمسمائة فرسخ وفي الوجه البحري سبعمائة فرسخ والمنتفع به من ذلك الان قريب من الفين وخمسمائة فرسخ مربع والمتروك مع امكان زرعه وانتفاع الاهالي به عند قدرتهم وثروتهم سبعمائة فرسخ مربع وهذا موافق لقول ابن اياس بعد التصليح الذي ذكرنا وذلك انا اذا ضربنا المنزرع في وقته وكان قدر ربع ما كان يزرع قديمًا في اربعة يحصل سبعة الاف الف فدان ومائتا الف فدان وهو عبارة عن الفين ومائة وخمسة وخمسين فرسخًا مربعا والفرق بينه وبين ما قدرته الافرنج قليل جدًا

فبناء على ما ذكرنا يكون ما يزرع في الايام السابقة قريبا من سبعة الاف الف فدان وما كان يزرع مدة الافرنج اقل من النصف وكذا ما كان يزرع مدة الملك الناصر

فقال الشيخ اذا كان ما يزرع الان نحو خمسة الاف الف فدان فيكون قد زاد عما كان يزرع ايام الفرنج نحو الثلث وهذا مما يفيد التقدم بلا شك

فقال صاحبه الانكليزي حصول التقدم بمصر امر غير منكر وارض مصر قابلة لان يزرع بها ضعف ذلك واكثر واذا التفت الى قطر مصر امكن ان يزرع به كل ما كان يزرع سابقا وان يرجع ما كان له من الثروة القديمة والذي يغلب على ظني ان في هذا التقدير خطاء فان قدر الفدان المستعمل في جباية الاموال الان سبعة عشر قيراطا من الفدان الذي كانت الافرنج قدرته بمعنى انه ثلث وربع الفدان القديم واذا لاحظنا ذلك وجدنا ان الخمسة الاف الف هي الثلاثة الاف الف وخمسمائة وثلاثة وستون الف فدان ومائة وثلاثون فدانا فيكون الفرق عن مدة الافرنج ثلاثمائة واربعة وخمسين الف فدان فقط وهذه نتيجة اعظم من النتيجة الحاصلة من ابتداء الملك الناصر الى دخول الافرنج وهذه مدة تقرب من اربعمائة وثلاث وثمانين سنة حصل فيها نقص ثمانية الاف فدان وخمسمائة وثمانية عشر فدانا باعتبار المقرر في قوائم الصيارف ودفاتر الخراج

وعمار قطر مصر ليس الا بتقدم الزراعة فكلما حصل زيادة الالتفات الى الزراعة واتسعت ارضها زاد تعداد اهالي القطر وكلما حصل اهمال في الزراعة وضاقت ارضها نقص التعداد ففي الازمان

السابقة كان تعداد الاهالي كثيرًا جدًا لان الفراعنة كان لهم اعتناء بامر الزراعة وقد بلغ عدد الاهالي في زمنهم الى مقدار عظيم وان لم تتفق المؤرخون على قدر معين فان هيردوط وهو اقدمهم قال انه كان بمصر في وقت امزيس نحو عشرين الف مدينة وقرية وفي زمن بطليموس وديودور الصقلي اقتصر على ثمانية عشر الفًا وجعل عدد الاهالي سبعة الاف الف نفس في زمن الفراعنة وفي زمنه نقص الى ثلاثة الاف الف وكانت جيوش الفراعنة الف الف نفس وعدد العساكر التي ساقها سيزوستريس من مصر في محارباتها ستمائة الف من المشاة واربعة وعشرون الفا من الخيالة خلاف سبعة وعشرين الف عربة حربية ويتوكريت فاق الجميع وجعل العدد ثلاثة وثلاثين الفا في زمن بطليموس فيلدولفوس وغيرهم قدر ان تعداد المدن ثلاثة عشر الفا فقط ومن قول يوسف الاسرائيلي يؤخذ انه لم يتعدَّ تعداد الاهالي في قطر مصر عن سبعة الاف الف خلاف الاسكندرية التي جعل عدد اهاليها ثلاثمائة الف وقال انه كان في مدينة بيلوز عساكر للمحافظة على القطر من جهات الشرق يبلغ عددهم مائتين وخمسين الفًا

ومؤرخو هذا الوقت لم يكتفوا في عدد المصريين بمبالغة من سبقهم من المؤرخين الذين ذكرناهم بل زادوا عليهم بما لا يتصوره العقل فمنهم من قال ان عدد الاهالي سبعة عشر الف الف ومنهم من قال سبعة وعشرون الف الف ومنهم من قال اربعون الف الف

الف ومبالغة الجميع ظاهرة لانه لا يتصور في بلدة نسبتها الى فرنسا كنسبة جزء الى اثنى عشر جزءًا ان يعيش بها هذا القدر

ونحن وان كنا لا ننكر كثرة اهالي مصر مدة الفراعنة لكن لا يمكننا ان نقول انهم يزيدون عن سبعة الاف الف فان سعة ارض القطر حسب ما قدره الاقدمون الفان ومائتا فرسخ وهذا موافق ايضًا لما هو الان ولتقدير الافرنج بعد رسمهم سطح الارض جميعه ومن القدر هذا مدينة طيبة ومنفيس وباقي المدن وهو مع وروده عن اقدم المؤرخين الذين ساحوا ارض مصر في زمن يقرب من الزمن الذي زال فيه ملك اهلها وانحط فيه مقدارها مناسب لسعة ارضها الزراعية التي بها حياتهم وما قاله بعض المؤرخين يمكن أن نبرهن عليه ولا مانع من انه كان الموجود بها ثمانية الاف مدينة وقرية وكفر كما قال بعضهم لا كما قال ديودور من انه كان بها ثمانية عشر الف مدينة لان في الجزء الاخير من البطالسة كان عدد القرى والكفور والمدن ثلاثة الاف وكانت ارض الزراعة اقل من نصف ما كان يزرع سابقا ولا مانع من ان عدد البلاد كان قدر ذلك مرتين ايام كانت القوانين العدلية القديمة هي المتسلطة وذلك قبل دخول الاغراب من العجم واليونان وغيرهم هذا القطر وخراب ارضه وهدم بنائه

فقال الشيخ اني سمعت ان مدينة طيبة كانت اكبر مدن الدنيا عمارًا وانها كان لها مائة باب كل باب يسع مائتي فارس

فاذا كان كذلك فلا شك انها تشغل سعة من الارض عظيمة وانها كانت مسكونة بخلق يزيدون عن ساكني القاهرة الآن بمرار كثيرة

فقال الانكليزي ولو ان ايدي الزمان وصروف الحدثان غيرت مغالمها ودرست رسومها واعفت مبانيها واخنت على مفاخرها الاّ ان ما بقي الان من اثارها دال على ان شكل المدينة في الزمن القديم كان عبارة عن اربعة اضلاع عظيمة الامتداد وان احدى الزوايا تنتهي الى المحل المعروف الان بكفر جرجس والثانية الى الشاطئ الايمن للنيل والثالثة الى شاطئه الايسر وتسمى الان تل الايسر عند تل قبور الملوك والزاوية الرابعة الى المعبد او البربي الصغيرة الموجودة على الميدان الكبير فكان بناء على ذلك يمر الضلع البحري بالقرية المعروفة بالتحتاني وبجزيرة الورزية وينتهي قريب القرية والضلع القبلي كان يمر في قربه مائة عمود قاطعا للجزيرة الجديدة وخراب الكربك كان يوجد على بعد سبعمائة متر من الضلع الجنوبي ومساحة الارض المحدودة بهذه الحدود تقرب من سبعة الاف فدان مصرية

وطول اعظم قطر في هذه الاربعة الاضلاع احد عشر الف متر ومحيطه ستة وعشرون الف متر فاذا استنزل من ذلك مساحة مجرى النهر وهي خمسمائة فدان تقريبا مع مساحة الميدان الكبير وخراب السراي الملوكية الموجودة في جنوب الاقصر على بعد ثلاثة

الاف متر كان الباقي ما كان مسكونا من هذه المدينة في الازمان السابقة وقدره خمسة عشر الف اورور او خمسة الاف فدان مصرية كبيرة

واذا قارنا تخت مصر القديم بتختها الان وهو القاهرة فلا يكون اهل طيبة في الزمن السالف اقل من سبعمائة الف نفس لان محيط القاهرة ثلاثة عشر الف متر وخمسمائة متر بدون اعتبار الاعوجاج الداخل والخارج وباعتباره يبلغ محيطها اربعة وعشرين الف متر ومساحتها الفًا وخمسمائة وثمانين فدانا تقريبًا وهو ربع مساحة ارض باريز وعدد اهلها بالتفحصات التي صارت مدة الافرنج يقرب من مائتين وستين الفا وذلك سنة الف وسبعمائة وثمان وتسعين ميلادية فعلى ذلك يكون قد خص الفدان الواحد مائة واربعة وستون شخصًا بادخال ارض المساجد والخانات والميادين وغيرها وقياسا على ذلك تكون اهل طيبة ثمانمائة وعشرين الف نفس او سبعمائة الف بالاقل ومما تقدم يعلم ان اهل القطر المصري كانوا كثيرين ولذلك كانت اشجار الثروة والرفاهية باسقة الاصول مورقة الافنان وكانت ارضها لما اشتملت عليه من البر والاحسان هي المشار اليها باطراف البنان وكانت ارباب الحاجات ما بين قاصد لها وآت وكانت وفود التجار ياتونها ليلا ونهارًا وثمرات العلوم تجنى من مدارسها بواسطة ما بها من العلماء واستمر ذلك ايامًا مديدة واعواما عديدة حتى دخلها الفرس وبددوا شملها

فحلت باهلها المصائب واحاط بهم الظلم من كل جانب فاختل نظام احوالهم القديمة وذلت علماؤهم واحتقروا فرجع سعدهم القهقرى. وفارقت زراعهم ارضها ومن كثرة الفتن الثائرة بين المصريين والفرس تلف اكثر الاثار الشهيرة وهدمت المباني الفاخرة ثم استولى على الاقليم البطالسة فاخذوا في رد كل شي لاصله لكن لم يتم ذلك فانه ان كان يحصل من بعضهم ما يوجب التقدم يجيئ الوارث فيفعل ما يوجب التاخر فبقيت حالة التاخير الى ان استولت الروم وضمت مصر الى ملك القياصرة وجعلت طعمة لرومة فنهبوا اموالها وغيروا احوالها ثم وقع الفشل بين الرومانيين وبعضهم فزاد انحطاط قدر مصر وذهب ما بقي من فضلها وما زال اهلها كذلك يتناقصون الى ان تولى عليها عمرو ابن العاص من قبل الخليفة عمر بن الخطاب فكان تعداد اهلها حينئذٍ لا يزيد عن اربعة الاف الف وستمائة وثلاثين الف نفس بناء على ما ذكره المورخون فقد نقل ابو الحسن عن ابن خطير انه ضرب على اهل مصر خمسين الف الف يدفعونها على ثلاثة اقساط متساوية اذا كان النيل وافيا وبلغ حده المعلوم واذا نقص عن حده ينقص من المضروب عليهم على حسبه ومن يرضى من الروم وغيرهم بالشروط المعقودة مع اهل مصر يعامل بما يعاملون به ومن يأبى من الاهالي دفعها اسقطوه من العدد فلو امكن معرفة ما دفعته المصريون وما ربط على كل نفر لم يصعب معرفة عدد الاهالي ويتوصل

لذلك ما ذكره مؤرخو العرب في هذا الخصوص

فمن قول ابن عبد الحكم يعلم ان في مدة الروم كانت الارض منقسمة الى اربعة وعشرين قيراطا وكان المجعول على الفدان من الخراج اردب قمح وويبتان من الشعير

وهذا غير فردة الرؤس فانها كانت تدفع نقدا وان عمرو بن العاص ابقى الخراج على ما كان عليه في مدة الروم

وذكر القدوري انه جعل على كل غني في كل سنة ثمانية واربعين درهما وعلى كل اجير اثنى عشر درهما وانها كانت مضروبة على اليهود والنصارى ما عدا عبدة الاوثان من العرب دون المرتدين والنساء والاطفال وذوي العاهات والفقراء والمساكين ومن يدخل في دين الاسلام وعلى هذا كانت الجزية اخذة في النقص بزيادة من يتدين بدين الاسلام الى ان اعطيت التزاما في زمن القاضي الفاضل اي سنة ٥٨٧ وكان مقدارها اذ ذاك واحداً وثلاثين الف دينار ثم نقصت بعد ذلك كثيرًا الى ان صارت سنة ٨١٠ احدعشر الف دينار واربعمائة

مع انها كانت في زمن عمرو بن العاص اثنى عشر الف الف دينار وفي زمن المقوقس عشرين الف الف

وفي زمن الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه حصل عبد الله بن سعيد عامله من مصر اربعة عشر الف الف

وفي زمن المقريزي نقصت نقصاً كليًا فكانت تدفع منفردة تارة

وتضم الى الخراج اخرى وكانت في زمن عمرو بن العاص لا تؤخذ الاّ ممن بلغ الحلم وكانت النساء والاطفال معافة منها وكان قدرها اربعين درهما من الفضة او عشرة دنانير خلاف اردب من البر

ويوخذ من قول يزيد وابي الحسن ان الذي كان مضروبًا على كل رجل من القبط ديناران ولا بد ان هذا كان الحد الوسط يعني ان البعض كان مضروبًا عليه اربعة والبعض ثلاثة والبعض اثنان والبعض اقل كما صار ذلك في توزيع ما ضربته الافرنج على اهالي القاهرة سنة ١٧٩٨ ميلادية فقد ضربوا عليهم تسعين الف حصة جعلوا منها تسعة الاف على الاغنياء قيمة الحصة اربعمائة واربعون ميديًا وثماني عشر الف حصة على من يليهم في الثروة قيمة الواحدة مائتان وعشرون ميديا وثلاثة وستون الف حصة على من يليهم كل حصة قيمتها مائة ميدي وعشرة والنسبة بين هذه الحصص كالنسبة التي كانت في زمن القدوري

والذي يدل على ان الدينارين الحد الوسط ما نقله المقريزي عن حسين بن شالي في الكلام علي القرن الاول من الهجرة من ان اهل اسكندرية كانوا ستمائة الف خلاف النساء والاطفال حين استيلاء عمرو بن العاص عليها وانه ضرب على كل رجل من اهل القطر دينارين الاّ اهل الاسكندرية فانهم دفعوا الفردة زيادة عن الخراج لانها اخذت عنوة فمن جميع ما تقدم يفهم ان الخمسين الف الف التي ضربت على اهالي القطر هي دراهم

ولا بد لنا الان من معرفة قيمة الدينار لانه تغير بتغير الازمان فانه كان مدة الحاكم بامر الله يساوي اربعة وثلاثين درهما وبعده بزمن صار يساوي واحدًا وثلاثين ثم ستة وثلاثين ثم ثمانية عشر درهما وكان الدينار المصري يساوي خمسة عشر درهما ونصفا ثم صار يساوي ثلاثة عشر درهما ونصفا وفي الصدر الاول كان الغالب في المعاملة الدينار ثم صارت الغلبة للدرهم ثم الميدي فلو فرض ان قيمة الدينار كانت خمسة عشر درهما لكان مبلغ الخمسين الف الف درهم عبارة عن ثلاثة الاف الف دينار وثلاثمائة وثلاثة وثلاثين الف دينار فاذا اخذنا نصف ذلك كان عدد الرجال الذين كانوا يدفعون الجزية اي الف الف نفس وستمائة وستة وستون الف نفس وقد يمكن معرفة عدد الاطفال وغيرهم من جدول وضعوه لامة مركبة من عشرة الاف الف نفس مثلا ومن هذا الجدول يعلم ان بعد احدى عشرة سنة ونصف لا يبقى الاَّ ثلاثة ارباع الاصل ونصف سدس قيراط

وبعد ست عشرة سنة يكون الباقي ستة عشر قيراطا وثلث سدس قيراط

وبعد عشرين سنة يكون الباقي اربعة عشر قيراطا ونصفا

وبعد خمس وعشرين سنة يكون الباقي اثنى عشر قيراطا وثلثا

وبعد ثلاثين سنة يكون الباقي عشرة قراريط ونصفا

وبعد سبع وثلاثين سنة يكون الباقي ثمانية قراريط ونصف سدس القيراط

وبعد ثلاث واربعين سنة ونصف يكون الباقي ستة قراريط

وبعد خمس واربعين يكون الباقي خمسة قراريط وثلثي قيراط

وبعد ثمان واربعين سنة يكون الباقي اربعة قراريط الاّ سدس سدس القيراط

وبعد ٥١ سنة يكون الباقي اربعة قراريط الا سدس سدس القيراط

وبعد خمس وخمسين سنة ونصف يكون الباقي ثلاثة قراريط

وبعد ثمان وخمسين سنة ونصف يكون الباقي قيراطين وثلثًا

وبعد ستين سنة ونصف يكون الباقي قيراطين وربع سدس قيراط

فاذا تقرر ذلك علمنا عدد من وصل من الاطفال الى سن احدى عشرة سنة من امة عددها عشرة الاف الف بطرح الباقي بعد الاحدى عشرة وهو ثلاثة ارباع تقريبا من الاصل الذي هو عشرة الاف الف فيكون الباقي هو عدد من بلغوا في العمر احدى عشرة سنة وكذلك لو اردنا معرفة من بلغ عمره عشرين سنة الى خمس وعشرين نسقط المقدار المقابل للخمس والعشرين وهو الاثنى عشر قيراطا وثلث قيراط من المقابل الى العشرين وهو اربعة عشر

قيراطا ونصف قيراط فيكون التفاضل ويكون الباقي قيراطين وسدس قيراط وهو تعداد من بلغ العمر المذكور ولا بد من الملاحظة في قسمة العشرة الاف الف الى اربعة وعشرين قيراطا ولاجل استعمال هذا الجدول في معرفة عدد اهل مصر زمن عمرو بن العاص نقول حيث كانت الاطفال معافة من الجزية فيخرج العدد المقابل لسن الاحدى عشرة سنة وهو خمسة قراريط وثلثا قيراط ونصف سدس قيراط فيكون ذلك بالنسبة للعشرة الاف الف الفي الف وثلاثمائة واثنين وسبعين الفا وثمانمائة واثنين واربعين والباقي وهو سبعة الاف الف وستمائة وسبعة وعشرون الفا ومائة وواحد وخمسون هو عدد الرجال والنساء معا فعلى تقدير ان عدد النساء مثل عدد الرجال يكون نصف الباقي وهو ثلاثة الاف الف وثمانمائة وثلاثة عشر الفا وخمسمائة وتسعة وتسعون هو عدد الذكور ثم تنسب نسبة بان تقول نسبة عدد الرجال الى العشرة الاف الف كنسبة العدد الذي وجدناه من حساب الجزية وهو الف الف وستمائة وستون الفا الى العدد المطلوب ايجاده وبالحساب تجد انه اربعة الاف الف وثلاثمائة وتسعة وستون الفا فباضافة ثمن هذا القدر لزيادة النساء عن الرجال وباضافة جزء قليل في مقابلة الفقراء والمساكين يعلم ان عدد الاهالي اربعة الاف الف وستمائة وثلاثون الفًا تقريبًا

فقال الشيخ يظهر من ذلك ان تعداد الاهالي منذ دخل

الاسلام مصر نقص نقصا كثيرًا عن المدة القديمة خصوصا في المدة الاخيرة من ايام المنتصر بالله فان في وقته تصرفت ايدي العدوان وزادت اسباب الطغيان وانتهب الحكام ايراد الحكومة واهملت السياسة بتولي غير المستحق عليها لاحتفال والدة الخليفة وقتئذٍ بطائفة العبيد فاشتعلت نيران الفتن اشتعالا لا اضر باهالي القطر وطمت الجداول والخلجان وعجزت الاهالي عن زراعة ارضها لانه كان اذا علا النيل غرقت واذا لم يعلُ شرقت لعدم اجراء الطريق اللازم للريّ وتصريف المياه فأدى ذلك الى صيرورة كثير من الارض مناقع ماء وخرب كثير من الجهات البحرية واستمرت هذه الاحوال بل زادت زيادة فاحشة في زمن الباشاوات الذين كانوا مندوبين لسياسة الديار المصرية فان من اتى منهم كان لا يشتغل في السنة التي يقيمها الا بجمع المال لنفسه صارفا اوقاته في التمتع واللذات جاعلا زمام الحكومة بيد من يوافقه على اغراضه من البيكوات وبهذا السبب كان الفشل مستديما وعصا الخلاف بينهم مشقوقة وكثيرًا ما يكون السبب في ذلك الباشا نفسه الذي هو منوط بادارة الامور فنشاء من هذا مضار اضعاف ما صار من قبل وامتدت ايدي الجند والعرب للنهب والسلب في الجهات البحرية والقبلية فلم ينج من شرهم الاّ من دخل في حمى قبيلة من العرب فحصل من هذا نقص كثير وبدا بالقطر خلل كبير ومما يؤيد ذلك قول العلامة المقريزي انه في زمن المنتصر بالله كان ايراد مصر من

جوالي وخراج الف الف دينار في مبدأ امره وبعد مدة من حكمه وصل الى ثمانمائة الف دينار ثم نقص فوصل الى خمسمائة الف دينار الى ان عجز عن تأدية مرتبات الجند فاين هذا مما ضربه عمرو بن العاص وعبد الله بن سعيد وما كان في زمن الخليفة المامون والخليفة المعتصم فانه بلغ في ايامهما اربعة الاف الف ومائتين وسبعة وخمسين الف دينار اذا بلغ النيل حد الوفاء وهو سبعة عشر ذراعا وعشرة قراريط وكان خراجها ايام الحاكم الفي الف دينار وثمانمائة الف دينار ولما تولى بدر الجمالي وكانت ولايته سنة ٤٨٢ بلغ ثلاثة الاف الف ومائة الف دينار وفي زمن ابنه الافضل بلغت خمسة الاف الف دينار ولم ينقص عن هذا القدر زمن صلاح الدين وكانت مرتبات جنده ثلاثة الاف الف وستمائة وسبعين الفا وخمسمائة دينار ومرتب المتقاعدين الف الف دينار وفي زمن الملك الناصر بلغ الخراج تسعة الاف الف دينار وخمسمائة واربعة وثمانين الف دينار ومائتين واربعة وستين دينارًا بالدينار الحبشي الذي قيمته ثلاثة عشر درهما منها ستة الاف الف ومائتان وثمانية وعشرون الفا واربعمائة وخمسة واربعون دينارًا تجبى من الجهات البحرية وثلاثة الاف الف وثلاثمائة وخمسة وخمسون الفا وثمانمائة من الجهات القبلية

فقال الانكليزي ياحضرة الشيخ ان تعداد اهالي مصر وقت دخول الافرنج ارضها كان الفي الف وستمائة وثمانية عشر الف

نفس وتسعمائة وخمسين نفساً وكان عدد اهالي كل مدينة هكذا

عـدد	
١٥٠٠٠	اهل رشيد
٢٠٠٠٠	اهل دمياط
١٧٠٠٠	اهل محلة الكبرى
١٥٠٠٠	اهل سكندرية
١٢٠٠٠	اهل اسيوط
٠٥٠٠٠	اهل قنا
٠٧٠٠٠	اهل جرجا
٠٥٠٠٠	اهل بني سويف
٠٤٠٠٠	اهل قليوب
٠٣٠٠٠	اهل بلبيس
٠٧٠٠٠	اهل المنصورة
١٥٥٠٠	اهل طنتدا ومنوف
١١٠٠٠	اهل المنيا وملوي

فعلى هذا تكون اهالي المدن مائة وسبعة واربعين الفاً وسبعمائة وخمسين نفساً واما اهل القاهرة نفسها فكانوا مائتين وثلاثة وستين الفاً وسبعمائة نفس وكان اهل القرى والكفور والعزب والنزلات الفي الف وسبعة وسبعين الف نفس وخمسمائة فيكون اهل القطر

جميعهم الفي الف نفس وستمائة وثمانية عشر الف نفس وتسعمائة وخمسين وذلك اقل مما كان زمن دخول عمرو بن العاص بالف الف واحد عشر الفا وخمسين نفسًا

وكان عدد قرى الوجه القبلي وكفوره وعزبه خمسمائة وخمسة عشر وعدد قرى الوجه البجري الف وسبعمائة وتسعة وسبعين فكون جميع البلاد بالوجه البحري والقبلي الفين ومائتين واربعة وسبعين على مقتضى ما وجد في دفاتر الخراج واما على مقتضى ما وجد على الخرطة فهو ثلاثة الاف وستمائة والفرق بينهما انما حصل من كونهم في بعض الجهات يعدون عدة كفور بلدة واحدة فيقيد في الدفاتر كذلك ويقرب من هذا العدد ما كان في زمن الملك الناصر لانه كان الفين ومائتين وتسعة وخمسين بلدًا منها خمسمائة واثنتا عشرة بلدة في الوجه القبلي في ثمان مديريات وهي بلاد

٠٥٠ بلاد مديرية شرق اطفيح

٠٩٧ بلاد مديرية الفيوم

١٥٦ بلاد مديرية البهنسا

١٠٣ بلاد مديرية الاشمونين

بلاد مديرية منفلوط

٠٣٢ بلاد مديرية اسيوط

٠٢٦ بلاد مديرية اخميم

٠٤٨ بلاد مديرية قوص

والف وسبعمائة وسبع واربعون في الوجه البحري في ثلاث عشر مديرية

بلاد

٠٢٠ ضواحي القاهرة

٠٥٩ بلاد مديرية قليوب

٣٨٠ بلاد مديرية الشرقية

٢١٧ بلاد مديرية الدقاهلية

٠١٢ بلاد مديرية دمياط

٤٧١ بلاد مديرية الغربية

١٣٢ بلاد مديرية منوف

٠٤٦ بلاد مديرية ابيار وبني نصر

٢٢٢ بلاد مديرية البحيرة

٠٢٦ بلاد مديرية فوه

٠٠٦ بلاد مديرية نستروية

٠٠٨ بلاد مديرية سكندرية

٣٥٨ بلاد مديرية الجيزة

فمن ذلك يعلم ان اهالي القطر في القرن العاشر من الهجرة

كانوا قريباً من الفي الف وخمساية الف وهو قريب من عدادهم مدة الافرنج وبناء على ذلك يمكن مقارنة الازمان القديمة بالازمان التي تلتها ومعرفة تقدم الامة المصرية كل زمن وتاخرها

والكلام على مصر كثير فلنقتصر منه الان على ما ذكرنا وكان قد دعا الانكليزي بعض احبته ينزه نفسه في جنينته



المسامرة الثامنة والثمانون

الفلاحة والزراعة

فقال للشيخ قد دعانا احد المحبين لان نتروح في روضة له خارج المدينة بمسافة يسيرة واني مستصوب قضاء بقية هذا اليوم عنده في تلك الروضة ولنغتنم بهذه الطريقة رؤية جنينة فرانسا وسرايتها وننعم نظرنا برؤية بعض ضواحي المدينة وطيب هواء هذا اليوم وصحو السماء ولطافة شمسه ونلحق هذا اليوم بامسه وصاحب المنزل من الذين اجتمعت عليهم بالامس وهو من اعضاء الجمعية المشرقية ورئيس مجلس الزراعة وَوُلّي من عهد قريب نظارة الجفلك المعد لتجربة اختبار النباتات الغريبة وطرق نجحها في ارض فرنسا وله ممارسة تامة في امر الفلاحة وتنوع طرقها في جهات مختلفة وله في فن الزراعة كتب مفيدة واختراعات جديدة واقوى باعث لي

على اجابته كون بيته في نفس الجفللك فنطلع هناك على تجرباته وطرقه التي يستعملها مع استنشاقنا الهواء النقي والنظر لضواحي هذه المدينة وقد ارسلت يعقوب ليجهز لنا ما يلزم من الاكل وامرته بان يحضر العربة بعد ذلك

فقال الشيخ هذا ما قام بفكري فكانك عالم بسري فما تم كلامهم الاَّ ويعقوب قد حضر فقال للخواجا ان هناك مسافراً يسئل عنك فقام الانكليزي متوجها اليه وغاب قريبًا من ساعة ثم رجع واخذ بيد الشيخ وتبعهما ولده فقال له الشيخ من هذا فقال هذا صاحبنا الذي اجتمعنا به في مرسيليا وقد حضر منذ يومين بالمدينة والان جاء الى منزلنا ليسلم علينا فاخبرته بما عزمنا عليه فطلب ان يكون معنا فقال الشيخ قد اصاب فانه من خير الاحباب وتم به انسنا ثم ساروا حتى دخلوا منزلهم وكان المسافر قد سبقهم اليه فقام لهم وسلموا عليه ثم حضر الاكل فاكلوا وشربوا وكانت العربات حاضرة فركب الشيخ وصاحبه والمسافر واحدة ويعقوب وولد الشيخ اخرى وساروا الى ان وصلوا سكة الحديد فنزلوا جميعًا في عربة واحدة واخذ الحديث بينهم يدور فيما للدنيا من الاحوال والامور الى ان وقف الوابور بعد ربع ساعة فنزلوا بالقرب من محطة وجدوا صاحبهم الذي دعاهم عندها ينتظرهم فسلم على الشيخ وولده وعلى صاحبيه ثم امر بتقديم العربات فركبوها وبعد بعض دقائق نزلوا قريبًا من قصر مشيد عالي البناء يحيط بثلاث جهات

منه بساتين فيها من جميع انواع الاشجار المتوجة باحاسن الازهار ووجدوا بباب القصر صاحبة المنزل وولدها ومعها بعض النساء اترابها فلما اقبل زوجها بالشيخ ومن معه قابلتهم بالتحية واجرت ما يلزم كعادتهم وبعد ذلك اخذ بيدها حضرة الخواجا الانكليزي ودخلوا الى ديوان بهج المنظر فيه احسن انواع الفرش فمكثوا به برهة ثم قال الانكليزي لصاحب البيت انما جئنا هنا لنرى سراي فرساي وما بارض حضرتكم ليطلع حضرة الشيخ علي محاسن مبتدعاتكم في فن الزراعة

فقال ذلك قصدي ولكني ارى الباقي من النهار قليلا والذي اراه ان تقيموا عندنا الليلة ليتم لنا الانس بكم وفي غد نذهب جميعًا واطلعكم على ما اعلمه من امر هذه السراية منذ انشئت الى الان وما مر عليها من الاحوال

فقال الانكليزي الراي ما رأيت ولكن فيمَ نمضي بقية هذا اليوم فقال بالانس بحضرة الاستاذ والاطلاع على ارض التجربة وانواع آلات الفلاحة القديمة والجديدة

فقال الخواجا نرجوكم السماح في المبيت هذه المرة فان عندي بعض اعذار ولا بد لي من العود

فقالت صاحبة المنزل انّا ممنونون لك حيث احللت الانس بساحتنا وشرفتنا بحضرة الشيخ وحياتكم ان تفضلتم بالمبيت عندنا هذه الليلة تم انسنا وانبسطت بكم نفوسنا فشكر الشيخ فضلها ثم دعا لها

وقال الايام بيننا والعود احمد ثم اتفقوا على الحضور في يوم غير
هذا وقاموا لينظروا محل التجارب فلما وصلوا اليه وجدوه مكانًا
متسعا يبلغ نحو ثمانين فدانا مقسوما الى اقسام معتدلة بطرقات
كذلك حسب الانتظام طولا وعرضا كل قسم مربع محاط باشجار
في بعضها انواع الخضراوات وفي الاخر انواع من نبات الاقوات
كل نوع في حوض ويعرف نبات كل جهة من اوراق ملصوقة
في قطع من الخشب قائمة في زوايا الحيضان مكتوب فيها قدر
البذر وعمره وسعة الارض التي هو بها والبلد التي ورد منه ووقت
بذره ومدة مكثه وهكذا فكان هناك قمح مصر الاحمر والابيض
وقمح بلاد العرب وقمح المسكوب وبلاد اخرى كل صنف في حوضه
في غاية الانتظام والاحكام بحيث تراها متساوية خضرة نضرة اعوادها
متساوٍ ما بينها من البعد قوية غليظة الساق طويلة الاوراق فيها
شدة خضرة تدل على قوة ارضها وكان صاحب الارض يقف
عند كل حوض ويبين لهم حسن نباته وصفاته وفوائده والبلاد
المجتلب منها وقدر غلته وقدر الزيادة عن البذر ويبين نسبة ذلك
المحصول لغيره من جنسه في البلاد التي يزرع فيها والاسباب التي
نجح بها وهكذا كل صنف الى ان وصلوا الى قصر صغير في باب
البستان فجلسوا هناك قليلا ليستريحوا ثم دخلوا البستان فرأوا فيه
اصناف الازهار وانواع الفواكه والاشجار وغير ذلك ما يبهر العقول
وجميعها مجلوبة من بلاد متنوعة وكانوا كلما وصلوا شجرة غريبة بين

لهم ما يتعلق بها الى ان تمت نزهتهم ثم سار بهم الى المكان الذي به آلات الزراعة مثل المحاريث ذوات العجل وآلات البذر والحصد والدرس فكانت انواعا منها القديم المتروك باختراع احسن منه ومنها المستعمل من مدة وعلمت نتيجته ومنها ما هو جار تجربته وجميعها مخالف لما يعلمه الشيخ في مصر ثم عادوا الى القصر وجلسوا فيه ينظرون من شبابيكه الى البستان وما حوله فرأوا الغابات على احسن شكل وصورة الارض في غاية البهجة وانواع المزارع تسر الخاطر وتروق الناظر فعجب الشيخ كل العجب واستحسن نظام ما رأى واثني علي الخواجا كل الثناء ومدحه كل المدح على اهتمامه بهذا الشان وصرف افكاره في تطبيق قواعد علم الفلاحة النظرية على العمل واجرائها بالفعل وقال له ان ثواب اعمال الانسان على قدر ما ينتج للخلق من الفائدة خصوصاً فن الفلاحة فانه اكثر الفنون فائدة واعمها للناس نفعا فمن يحسن طرقه ويعم نفعه ويكثر فائدته يكون ثوابه اكثر فاي امة تبعت ضوء مصباحه وسلكت سبيل نجاحه عظم ثوابها واشتهر بين الناس فضلها واما الامم التي لا ارض لها تزرعها كعرب البادية وكذا التي لم تشتغل به لجهلها بامره فمثلها كمثل الحيوانات العجم سواء بسواء وهذا الفن اقدم الفنون جميعًا وبه اشتغلت الامم قبل الطوفان وعنهم اخذ من بعدهم يؤيد ذلك ما في الكتب المقدسة ان نبي الله نوحا عليه السلام زرع بعد خروجه من السفينة ومنه تعلمت ذريته حتى

انتشر في كثير من بقاع الارض بعد تبلبل الالسن وتفرق اولاده وكذلك كان معروفا عند قدماء المصريين وغيرهم كاهل الهند والصين وبابل ومما يدل على فضله معرفة الانبياء له كنبي الله اسحاق عليه السلام في ارض فلسطين ونبي الله ابرهيم وكيعقوب واولاده عليهم السلام لانه ارسلهم الى مصر لشراء غلال في زمن اجدبت فيه ارضهم فحسبك فضلا بفن اشتغلت به الانبياء ولعمري ان فضله لا يعادل ونفعه لا يماثل وهو اصل التقدم وكل الصنائع فرع له

فقال له صاحب البستان هذا من حسن اخلاقكم ولطف طباعكم ثم قال له الشيخ وهل يحتاج في معرفة فن الفلاحة الى كثير من الاعمال ويلزمه كثير من الممارسة

فقال ليس فن من الفنون يحتاج الى ما يحتاج اليه والمتفكر فيه الممارس له لا يعرف كيف وصل الاقدمون الى معرفته وطرقه المتشعبة المتنوعة سيما نبات الاقوات واستنباته والذي يزيد المرء حيرة اهتداؤهم الى حبة القمح من بين سائر انواع الحبوب التي تزرع وكان بعض الناس يزعم ان جميع الحبوب المغذية كانت تشتمل على خواص وصفات وتكرار زرعها هو الذي صيرها اقواتا وهذا القول لا عبرة به فان تقليب الصنف بالزرع وان غير بعض صفاته لا يغير حقيقته بالكلية فالصحيح ان جميع الحبوب على اختلاف اجناسها من ابتداء الامر بالهيئة التي نراها عليها الان وقد شوهد في

جهات كثيرة جميع انواع الحبوب يخرج من الارض بطبعه من غير استنبات وعدم مشاهدتها في بعض الجهات ربما كان من عدم الدقة في البحث او غير ذلك وعلى كل حال ففن الزراعة انما وصل الى اليونان من المصريين ثم منهم الى الرومانيين ومن ذلك يعلم ان فن الفلاحة لم يدخل اوروبا الاّ بعد وجوده بافريقا واسيا بزمن طويل ولذلك كانت سكان اوروبا في تلك الحقب تسكن الآجام والفلوات وتسيح كالحيوانات في الغابات للحصول على الاقوات فبالضرورة كانت متوحشة خشنة مع ان كثيرًا من جهات افريقا واسيا في تلك الحقب كان محفوفًا بالنعم مشهورًا بالتقدم

واما ما يوجد في عصرنا هذا من المعرفة بالزراعة فجزءٌ من فنها والذي يدل على ذلك انه لما تفرق الناس وتبلبلت الالسن بعد الطوفان وانتشروا في بقاع الارض فمنهم من وجد نفسه بارض سهلة الزرع كثيرة الخصوبة فاستعملوا فيها ما تعلموه من اصولهم ومنهم من وجد نفسه بارض ليست كذلك فلم يجدوا سبيلا الى استعمال ما يعلمونه من فن الفلاحة فمن صادف الارض السهلة زرع وتعيش ومن لم يصادفها هرع الى الاجام وتوحش وربما صادف بعضهم جهات فيها جميع انواع الحيوانات فاخترع طرقا لتكثيرها ليقتات بها وعلى مقتضى كثرة ما يلزم لفن الفلاحة يوخذ ان من استعملها بقي مدة يستعملها بحالة بسيطة فلم يكن عندهم محاريث ولا كانوا

يستعملون الحيوان في الحرث بل غاية الامر انهم كانوا يستعملون قوى انفسهم كما شوهد ذلك في كثير من بقاع الارض فانه لما استكشفت امريكا كان اهلها يستعملون قواهم فكانوا يمسكون بايديهم الة ينكثون بها الارض ويقطون بها البذر تسمى في بلاد مصر بالمعزقة وللان جهات كثيرة لا تعرف غير الطرق القديمة فسكان جزيرة فرانسا الجديدة يحرثون ارضهم بآلة جميعها من الخشب وجهات اخرى ليس عندهم غير المعزقة وجهات لا يستعملون في شق الارض غير نوع الفوس وفي جهات من افريقا على شواطي نهر جابنى قوم اذا ارادوا حرث الارض اجتمعوا اربعة اربعة او خمسة خمسة وشقوها بسيوفهم وكان سكان الكانادا في الزمن السابق يشقون الارض بقرون الحيوانات وفي المدة التي كانت اكثر الامم غارقة في بحار الجهل كانت مصر منعمة البال ممتعة بالخيرات فان الفلاحة كانت عندهم على ما نراه الان لم تتغير فكان عندهم المحراث واللواطة وباقي الالات ومما يؤيد ذلك احترامهم للثور المسمى ابيس وما ذاك الا لما راوا فيه من المزية

فقال الشيخ وهل يعرف اول من اخترع آلات الفلاحة

فقال نعم ورد عن المؤرخين ان اول مخترع للمحراث احد فراعنة مصر المسمى اوزريس وهو الذي علم سكان ما وراء النهر استعمال الثور في الفلاحة ولا ينكر استعمال الحراثة بمصر زمن

يوسف عليه السلام ولا استعمال الثور بارض العرب زمن ايوب عليه السلام

وكان المحراث في الاصل مركبا من قطعتي خشب احداهما قصيرة منبطحة على الارض تسمى البسخة وفي طرفها حديدة عريضة تسمى السلاح وهي التي تشق الارض والثانية طويلة ممتدة الى امام تسمى القوس وعند زاويتها الحادة حديدة عريضة لتثبيتها ببعضها تسمى البلنجة وعند موخر الخشبتين ثالثة طولها نحو ستة اشبار تسمى الرمح وهي التي تكون بيد الحراث يزن بها المحراث حيث شاء وبقي له اجزاء اخرى غير ما ذكر كنت اسمع بها من اربابها وهذا هو الذي كان يحرث به اليونان والرومانيون واما بعض جهات امريكا فكانت آلات حرثهم عبارة عن قطعة خشب معوجة ثم عملوها فيما بعد من قطعتين ويؤخذ من قول ديودور ان اليونان كانت تحرث على الحمير وان موسى عليه السلام نهى عن ذلك

فقال الشيخ في بعض جهات الوجه البحري كالشرقية يستعملون الى الان آلة تسمى المعزقة فيجتمع اربعة رجال او اكثر وبيد كل واحد منهم معزقة وينكثون الارض بعد بذرها فيتغطى البذر والتلويط الى الان مستعمل في الوجه القبلي وهو عبارة عن امرار قطعة خشب من نخل او غيره على وجه الارض اذا كانت كثيرة الوحل بعد بذرها ولست اعرف طريقا ابسط من ذلك واظن ان

جميع الاراضي التي تزرع بهذه الكيفية هي اول الارض عمارًا
واستنباتا لان هذه الكيفية اول ما يخطر بالبال وليس فيها كلفة
فقال الخواجا جميع الطرق المستعملة بمصر الى الان قديمة
جدًا ومرسومة في البرابي وهي عشر طرق ذكر منها قدماء المؤرخين
طريقة وهي ان بعض الجهات بعد القاء الحب في الارض يأتون
بالخنازير ويدورون بها حتى يتوارى الحب ولم تكن عقولهم قبل
الطوفان قاصرة على معرفة الحرث والقاء البذر بل كانوا يعرفون
ايضًا كل ما يزيد لها في صلاح الارض كتسميدها بالرماد وارواث
الحيوانات وكتعميمها بالمياه الكدرة كما هو جارٍ بمصر الى الان وذكر
المؤرخون ما لقدماء المصريين من الاعمال الجسيمة مثل بحيرة
مورس التي بارض الفيوم والجسور العظيمة التي انشاها فراعنة
مصر لحفظ الارض من الغرق وقت فيضان النيل وكالجداول
التي بواسطتها تتفرق المياه على جميع الارض وهذا اقوى دليل على
ان الفلاحة وتسميد الارض كان امرًا معلوما عندهم ويلزم من ذلك
معرفتهم كيفية الحصاد وان كان لا يدرى الزمن الذي اخترع فيه
الآلتان المعوجتان المعروفتان عند المصريين بالمنجل والشرشرة
ولعلهم كانوا قبل اختراعها يقلعون النبات بايديهم لوجود ذلك الى
الان في جهات كثيرة واما الدرس الذي يستعمل الان لفصل
الحب من عوده فلا بد انه تاخر زمنا طويلاً لان معرفته تحتاج الى
زيادة تقدم لما فيه من الصعوبة والذي كان مستعملا عند المصريين

وغيرهم في هذا الامر هو جعل الزرع بعد حصاده حزما ينقلونها لارض متسعة منتظمة أعدت لذلك ويديرون البهائم فوقها حتى ينفصل الحب عن غيره وبعض الناس كان ياخذ قطعًا من الخشب ويسمر فيها احجارًا ويدوّرونها فوق تلك الحزم فينفصل الحب من غيره واهل فلسطين كانوا يستعملون عجلات ثقيلة فيدورونها بالبهائم وهذه الكيفيات باقية الى الان في جهات كثيرة من ارض فرانسا وغيرها واما الصينيون فكانوا يستعملون مهرسة من رخام وكيفية التذرية لتمييز الحب عن التبن بواسطة الهواء باقية عند اغلب جهات الشرق وارض مصر واغلب البلاد الحارة وآلة التذرية المسماة بالمذرى قديمة جدًا لا يعلم وقت اختراعها ولا شك ان اختراعها من يوم اختراع الفلاحة فهو واصل الينا ممن تقدم على الطوفان وبالجملة فجميع انواع الفلاحة وكذلك آلاتها واتقانها انما حصل تدريجًا على حسب دقة الصنعة وكثرة لوازمها ومن ذلك جعل الحب خبزًا والاقتيات به فانه يتوقف على اعمال كثيرة كالغربلة والطحن والنخل والعجن ثم تقطيع العجين وتسويته الى ان يصلح للاكل فان لكل عمل من هذه الاعمال آلات وكل آلة متوقفة على غيرها وغيرها متوقف على غيره وهكذا فلا بد انه مضى على النوع البشري زمن وهو جاهل بجميعها ثم اضطرته الضرورة الى اختراعها شيئًا فشيئًا الى ان عرفها جميعها الّا اننا لا ندري كيف اهتدى الاقدمون لمعرفة ما في القمح من المادة الغذائية

وان كان ذلك لا يمنع من عزو هذه الفنون الى من كان قبل الطوفان فانهم حين رست بهم السفينة وانتشروا على وجه الارض منهم من وقع في ارض قحلة لا تنبت شيئًا فاكتفى بما يجده في وهادها من الكلاء وما يقدر على صيده من نجودها وما يقذفه البحر من السمك ونحوه ومنهم من صادف ارضا صالحة فزرعها وتقوت بما يخرج من نباتها من غير طحن ولا خبز فان ذلك مما اهتدوا اليه على ما حكاه بعض الفلاسفة مما راوه من فعل الاسنان بالحب حتى يصير كالدقيق ثم تلويك اللسان له حتى يمتزج بالريق ثم ازدراده وبلعه فلما رأوا ذلك اتوا بحجرين كالرحى ووضعوا الحب بينهما واداروا احدهما عليه ثم اخذوه ومزجوه بالماء ثم وضعوه في النار ليجف ويصلح للغذاء الى ان اهتدوا الى ما يلزم له من الآلات كالمنخل والغربال والتنور كما ذكرنا

فقال الشيخ ومما يؤيد ذلك ما يفعله عرب البادية خصوصًا في اسفارهم فانهم لا يتزودون بغير الدقيق فاذا ارادوا الاكل عمدوا الى جانب منه فلتوه بالماء ثم اضرموا نارًا وصبروا عليها حتى يهدأ لهبها فاذا هدأ وضعوا عليها العجين حتى يجف بعض جفاف فياخذونه ويبسونه ثانيا بما تيسر لهم من اللبن او العسل هذا دابهم في اسفارهم ومنهم من يقلي الحب ويستفه ومن المصريين من يلذده بالنار قبل صلاحه ويدخره للطبخ ويسمى عندهم بالفريك

فقال الانكليزي وكذلك قبائل كثيرة من السودان
لا يعرفون غير ذلك وكانت هذه الطريقة كثيرة الاستعمال في
بلاد الهند بناء على قول هيرودوط ولكن هذه الطرق اخذت في
الاندثار لتقدم الناس كل زمن فعلموا ان الغرض من الزراعة
السنوية والانتفاع بها مدة السنة وان هذه الطريقة لا ينتفع بالبر
بواسطتها الاَّ مدة قليلة كشهر مثلا فلا بد انهم بحثوا عن الطرق
التي تعم النفع ولكن يلزم انهم لم يصلوا اليها الاّ على التدريج وحيث
كان في اكل الحب بغلافه عسر والنفس تأنف منه فلا بد ان
اول شي اشتغلوا به انفصال القشر عن لبه وان اول شي استعملوه
لذلك التحميص لان جميع القبائل المتوحشين من افريقا وامريكا
تستعمله الان واجمع المؤرخون على ان اول صنف اقتات به
الاقدمون الشعير وحيث كان قشره لا ينفصل عنه الاَّ بالطحن
وكانوا وقتئذٍ لم يعرفوه استعملوا التحميص لذلك والسياحون الى
الان في بلاد الحبش لا يتزودون بغير الشعير المحمص وكانت
الناس قبل اهتدائهم الى اختراع الرحى والطواحين تهرسه في
اهوان فكان التحميص يسهل عليهم ذلك واما كيفية نقعه في الماء
وتصفيته فقديمة وقد كان اليونانيون والرومانيون يستعملون ذلك
ويتغذون به كما يفعل اهل الشرق بالارز وللان كثير من
الناس تستعمل ذلك مثل قبائل الكلموكيين فانهم لا يتقوتون
بغير الشعير فيضعونه في الماء اولا الى ان يلين ثم يعصرونه ليتميز

عنه قشره ثم يضعونه في قدور ويوقدون النار تحته الى ان يقلى ثم يتناولونه بايديهم وليس لهم قوت بغير هذه الكيفية

ومن اليونان والرومانيين من كان يهرس الحب في اهوان من خشب او من حجر لاخراج الدقيق وفصل اللب من قشره وقد بقيت هذه الطريقة الى الان عند خلق كثيرين وقال هيرودوط ان سكان جزائر الانكليز كانوا لا يستعملون غير هذه الطريقة فكانوا يفركون السنابل بايديهم لينفصل الحب ثم يهرسونه في اهوان ثم يعجنونه وياكلونه نيئًا واما اهل بيرو من امريكا فكانوا يجففونه اولا على النار ثم يدقونه ويتناولونه بقطعة خشب كالملعقة لا يفصلونه من قشره وعلى ذلك كثير من المتوحشين الى الان واما عند تمدن الخلق فكانوا قبل اختراع صنعة المنخل المعروف يعمدون الى بعض اغصان دقيقة فينسجونها وينخلون بها ومنهم من كان ينخل بخرق من القماش المخلل النسج وما يشبهه قال بولين ان منخل اليونان والرومانيين كان من السمار ومنخل اهل الاندلس من الغزل ومنخل الجول من شعر الخيل وكانوا جميعا يعجنونه ثم يلعقونه نيئًا كما يفعل بعض سكان جزائر الانكليز ولم يهتدوا الى كيفية انضاجه بالنار الاّ بعد زمن طويل ومنهم من كان في ذلك الوقت يمزج الدقيق بالماء كالعصيدة ويضعه على النار حتى يغلي ثم ياكله ومنهم من كان يضع فيه لحما ثم يسويه وذلك كان قوت قدماء الفرس والرومانيين واليونان واهل العراق كما قاله بولين ومنهم

من كان يقطع اللحم قطعًا ثم يلقيه في الدقيق ويسويه على النار فيعلم من ذلك قلة انتفاعهم وقتئذٍ بالبرلان تمام فائدته لا تكون الاّ بعد عجنه وخبزه وذلك يحتاج الى فكرة كبيرة واعمال كثيرة لم يهتدوا اليها الاّ بعد زمن طويل وان كانت تلك الصنعة بالنسبة الى زمننا قديمة لما ورد في التوراة من ان ابرهيم عليه السلام قدم لضيفه خبزًا مرققًا

فقال الشيخ هكذا خبز اهل البادية الى الان ولهم في تسويته آلة من فخار يسمونها النيغة يخبزون فيها اذا حلوا ويحملونها اذا ارتحلوا فاذا ارادوا الاكل عجنوا الدقيق ثم قطعوه قطعا صغيرة ورققوه بايديهم على الواح من خشب ثم اوقدوا النار تحت النيغة حتى تحمر من داخلها فاذا انقطع الدخان اخذوا ما رققوه شيئا فشيئًا ووضعوه على النيغة حتى ينضج

فقال الانكليزي هذه الكيفية لا باس بها وربما دلت على تقدم او تمدن اربابها واما القدماء فمنهم من كان يضع العجين على احجار محماة ثم يغطيه بالرماد الحار ولعل ما قدمه ابرهيم الخليل لاضيافه من هذا القبيل وعلى ذلك بعض اهالي اسيا الى الان الاّ انهم يلفون العجين ببعض حشيش وقاية من الرماد وربما وضعوا فوقه جمرات كبيرة ومنهم من يضعه بين حجرين ثم يدفنهما في الرماد الحار ومن التتار من يعجنه كالعصيدة ويضعه في اناء ويوقد تحته نارًا حتى يفور ثم يتناوله الى غير ذلك مما لا حصر له وذلك

كله لا ينافي قدم التنور المسمى بالفرن وتقدمه على زمن ابرهيم عليه السلام وذكر بعض المؤرخين ان اول من اخترعه رجل مصري يقال له عنوس واما ما حكاه حضرة الشيخ عن العرب فليس خاصا بهم بل ذلك طريقة قبائل كثيرة من التركمان وغيرهم الاّ اننا لا ندري متى كان اختراع الخميرة واستعمالها والظاهر انها من الامور الاتفاقية كأن يكون عند بعض الناس قطعة عجين حامضة فاضافها الى عجين جديد ثم سواه فوجده ألذ من الاول طعمًا واسرع هضما فاعتاده واخذه عنه من بعده وان كان كثير من اهل اسيا وافريقا وامريكا لا يستعملونها الى الان وقيل انها كانت موجودة على عهد موسى عليه السلام وروي انه نهى قومه عن اكلها حين خروجهم من مصر واول آلة استعملها الانسان في طحن الحب الحجارة ثم الرحى ثم الطاحون وبين اختراع كل آلة والتي تليها زمن طويل ونحن وان كنا لا نجزم بوجود الرحى زمن ابرهيم الخليل عليه السلام لكن نجزم بوجودها من ايوب عليه السلام وباستعمالها هي والطواحين عند المصريين كما يظهر ذلك من التوراة فانه ذكر فيها منع بني اسرائيل من ان تاخذ حجر الرحى الاّ برهن وكان الذي يديرها الخدم والعبيد وكانت مستعملة عند اليونانيين والرومانيين وجميع الامم الماضية ٠

قال ناقل الحديث وكانت العربات قد اعدت للجماعة على الباب فركبوها وسارت بهم نحو فرساي وهم يتحدثون بامر الزراعة

والفلاحة وما ينشأ عنها من تقدم البلاد واهلها الى ان جزم الشيخ بان مدار العمارة على الزراعة فوافقه الجميع على ذلك وقال الانكليزي ان هذا لهو القول الحق فانه لا تحل الثروة بجهة الّا اذا تقدمت فيها الزراعة ففي ارض فرنسا مثلا تقدمت الزراعة تقدمًا جيدا حين بحثت الحكومة عن هذا الخصوص وذلك التقدم من ابتداء سنة ١٧٩٠ الى سنة ١٨٤٦ فكان محصول زراعة القطر سنة ١٧٩٠ مليارين ونصفا وفي سنة ١٨٤٦ وصلت قيمته ضعف ذلك وفي العشرين سنة التالية لسنة الف وسبعمائة وتسعين كان الربح غير محسوس لكن من ابتداء سنة ١٨١٥ شعر ان الربح ثلاثون مليونا في السنة الواحدة ومن خمسة عشر الى ست واربعين صار يزداد حتى بلغت الدرجة المتوسطة ستين مليونا كل عام

وبسبب هذا الفرق زادت اهالي القطر فان عددهم من سنة ١٧٩١ الى سنة ١٨١٥ كان يزيد في كل سنة عن التي قبلها مائة وعشرين الف نفس ومن سنة ١٨١٦ الى سنة ١٨٤٦ مائتي الف نفس واما من سنة ست واربعين الى خمس وخمسين حصل تاخير فلم تبلغ زيادة كل سنة غير ستين الف نفس

واما بالنسبة للمحصولات فقد وجد ان صنف الغلال ضوعف من سنة ١٨١٥ الى خمس واربعين فكان في سنة ١٨١٥ اربعين مليون اكتوليتر وفي سنة ٤٥ ثمانين مليونا ومحصول البطاطس ضوعف ايضًا حتى وصل الى خمس عشرة مرة زيادة عما كان في

سنة خمس عشرة وكذلك نوع الحيوان فقد بلغ عدد الحيوان الكبير تسعة ملايين الى عشرة وعدد الخيل من مليونين الى ثلاثة وعدد الضان ما بين اربعة وعشرين مليونا وست وثلاثين مرة من الملايين

وفي سنة ١٨١٢ كانت قيمة الاراضي المملوكة ومنها العقارات الفا وخمسمائة مليون وفي سنة خمس عشرة بلغت الفين وثمانمائة وثلاثة واربعين مليونا ومع هذا فقد زادت قيمة الارض في قريب من ثلاثين عامًا قدر خمسين في المائة هذا وان كان حسن الارض وارتفاع قيمتها لا بد له من نفقات الاَّ اننا يمكننا تقديرها ولو على وجه التقريب فنقول على فرض ان فائض المائة عشرة في كل سنة تكون الستون مليونا التي هي فائض ستمائة مليون مصروفة على الارض فلو وزعت على الارض المنزرعة بالقطر لوجد انه صرف على كل اكتار من المساحة اثنى عشر فرنكا عشرة منها في اصلاح الارض واثنان في اصلاح حال الزراعة

وبعد ان كانت قيمة الاكتار سنة ١٧٩٠ لا تزيد عن خمسمائة فرنك صارت الان تساوي الف فرنك فمقدار قيمة ارض الزراعة بالقطر خمسون مليارًا وكانت قيمة موجود الزراعة لا تزيد عن الف مليون فصارت الان خمسة امثال ذلك نصفها قيمة حيوانات والات زراعة والنصف الاخر قيمة بذر وما يتبعه من سباخ وغيره ومن هنا يعلم ان ربح الزراعة من ابتداء سنة ١٧٩٠ وصل الى اربعة

امثال ما يصرف عليها واجرة العمال وان زادت الاَّ انها لم تبلغ
ما يخصها وحينئذٍ يلزم من يسوس الامم ان يجعلوا عدد الاهالي
قاعدة لجميع ما يدبرونه وان يجتهدوا في ما به زيادة عددهم ليتحصلوا
على زيادة البركة والطريق في ذلك سهل لانا نعلم ان الله سبحانه
لما خلق الخلق اودع فيهم اسرارًا ينمون بها ويملئون الارض وجعل
تلك الاسرار متعلقة بالاقوات كما هو مشاهد فانك لو قطعت عن
اي شي مادته التي يتغذى بها لاخذ في الجفاف ثم مات فيلزم
الاعتناء بالامر الذي منه القوت وهو الفلاحة لاجل نمو الاهالي
ولذلك ترى بعض الناس اذا راوا امة قد اضمحل حالها ونقص
عددها قالوا ان ذلك ناشئ من كثرة الرهبانية فيهم ومحاربة
الجيوش البرية والبحرية لهم فتراهم في تلك الاوقات يكثرون من
البحث على الزواج وربما ساعدوا من عجز عن مؤنه وعاقبوا من
اصر على العزوبية ومع ذلك لا يحصلون من مقصدهم على كبير
فائدة لان ما ظنوه سببًا ليس بسبب فيكون مثلهم كمثل من يعالج
بدواء من غير وقوف على اصل الداء فانهم لو امعنوا النظر وقارنوا
امور الامة الحاضرة بالماضية لظهر لهم ان اسباب الفساد ليس الاّ
اهمال فن الفلاحة وميل الكثير الى الزهو والتعلق به وكثرة ما
يستهلك ويصرف على القليل من الناس واثبات ذلك بان تقول
لو سلمنا ان ازدياد اي نوع بخصوبته ليس الاَّ لوجدنا فوق الارض
ذئابا اكثر من الغنم لان الانثى من الذئاب تلد عددًا كثيرًا في

بطن واحد ويتكرر ذلك منها في السنة الواحدة والغنم ليست كذلك سيما والعادة جارية بخصاء كثير من ذكورها وذبحها وليس ذلك جاريًا في الذئاب فلو كانت خصوبة النوع في ذاتها سببًا في كثرته لكان عدد الذئاب لا حد له وربما ملا الارض مع ان الامر ليس كذلك فانا نرى الغنم تزداد مع استمرار الاخذ منها وما ذلك الاَّ لكثرة مرعاها وقلته للذئاب

ومن ذلك بعض متوحشي امريكة وافريقة فان حالتهم كحالة الذئاب لان تعيشهم ليس الا من الصيد والقنص فترى العدد القليل منهم شاغلا لسعة عظيمة من الارض بحيث لو زرعت وخدمت حق الخدمة لكفت اضعافهم ومع هذا لا تنقطع الخصومات بينهم وليس عندهم رهبانية ولا عفة وما ذلك الاَّ لقلة القوت عندهم وقد ثبت في كتب التاريخ ان الفدان الواحد عند الرومانيين يكفي العائلة الكبيرة مع ان المتوحشين لا يكفي لقوته اقل من خمسين فدانا حيث كان جل همه الصيد والقنص فمن هذا تكون ألالف فدان مزروعة كافية لالف شخص وغير مزروعة لا تكفي خمسين من المتوحشين فظهر بذلك ان كثرة الاهالي تابع لاتساع دائرة الزراعة فكلما حصل الاجتهاد في خدمة الارض واصلاحها ازداد المحصول وكثر الجنس وكلما اهملت وتركت قلت الاقوات ونقص العدد وان كل ما يستهلك في امر الزهو مضاد لمنفعة الامة

فيلزم مدبر امر الامة ان يصرف جميع همته في توجيه افكارها نحو البساطة والقناعة

وفي سنة ١٨٤٠ بلغت قيمة محصول الزراعة في ارض دولتنا خمسة الاف مليون فرنك منها الف وستمائة مليون قيمة محصول اللحم والصوف واللبن والفراخ والباقي وهو ثلاثة الاف واربعمائة مليون قيمة محصول الحبوب والحشائش وغيرها وكانت موزعة بالنسبة لعمارة الارض المضروب عليها الخراج فخص كل اكتار في الجملة مائة فرنك وايضًا بالنسبة لتفاوت الاهالي قلة وكثرة في الجهات فكان ربع الارض يتحصل منه مائة وخمسون فرنكا ونصفها مائة فرنك وربعها خمسون فرنكا فقط وسبب هذا الفرق ان الربع الاول كان في كل مائة اكتار منه مائة نفس واما النصف فكان لا يوجد في المائة اكتار الاّ خمسة وستون نفسًا وكذلك الربع الاخير كان لا يوجد في الاكتار منه الا اربعون نفسًا وجهات العمار في الغالب تكون بالقرب من التخت والمدن وشواطئ البحر والجهات القليلة العمار الجنوب والوسط ونهاية العمار جهات الشمال ويوجد في المائة اكتار منه مائتا نفس ونهاية القلة في العمار جهة جبال الالب فلا يوجد في المائة اكتار هناك اكثر من عشرين نفسًا ولو جعلنا الدول مرتبة على حسب تعداد الاهالي نجد ان بلاد الفلمنك يخص كل مائة اكتار منها مائة وخمسة وعشرين شخصًا وبلاد الانكليز تسعين والمانيا وايطاليا ثمانين وفرانسا ثمانية وستين

واسبانيا وبرتغال اربعين والدولة العلية خمسة عشر وكذا المسكوف

ثم قال الانكليزي ان بلادنا وان كانت بعد الفلمنك في الدرجة المذكورة الّا انها مشهود لها بزيادة الاعتناء بامر الزراعة والفلاحة ولذلك كان محصول ارضنا اكثر من محصول ارض فرانسا وليس ذلك من جودة ارضنا وانما هو من جودة الطرق التي نستعملها والتفات الحكومة لما يحصل منه زيادة المنفعة والربح للاهالي وان حصل في هذه الايام تقدم كبير للزراعة في فرانسا عن السابق لكن بين المحصول عندنا وعندهم بونا بعيدا وها انا اوضح لحضرتكم طريقة كل من الدولتين واقارن بين الطريقتين ليظهر الفرق وقبل كل شي اقول من المعلوم ان اهم الامور القوت فان به قوام البنية الادمية وهو انواع فمنها ما هو جيد للغذاء مفيد لقوة الانسان ومصلح لبنيته ومنها ما هو غير ذلك وحيث كانت الانواع المتخذة من دقيق الحبوب ليست كافية لقوام البنية وصحتها فيلزم ضم اللحوم اليها لانها احسن شي في هذا المعنى وحينئذٍ يلزم ان كل بلدة يكون بها زيادة عن الحبوب قدر ما يلزم للغذاء من اللحم وهو عبارة عن مائة درهم لكل شخص كما استدل على ذلك الباحثون من ارباب الدراية فاذا تقرر ذلك نقول قد نتج من الاحصاآت الرسمية التي اجريت في بلادنا ان كل انسان من الانكليز يخصه كل يوم خمسة وسبعون درهما مما يذبح واما الشخص الواحد من فرانسا فلا يخصه

غير تسعة عشر درهما فتكون النسبة بين تقدم الفلاحة عند الانكليز والفرنسيس كالنسبة بين خمسة وسبعين وتسعة عشر

وهذا يدل على ان اعتناء الانكليز باقتناء الحيوانات ازيد من اعتناء الفرنسيس وان علمهم بالقاعدة الاساسية لتقدم الزراعه اكثر لانه اذا ازداد الحيوان امكن الحصول على احسن الغذاء واخصبت الارض بواسطة السماد الموجب لازدياد المحصول والمرعى ومن زيادتها تزداد الثروة فاذا نظرنا لصنف الاغنام مثلا عند الامتين وجدنا عند كل واحدة منها خمسة وثلاثين مليونا مع ان ارض بلاد الانكليز ليست مساحتها الاّ ٣١ مليونا من الاكتار بخلاف ارض فرنسا فانها ثلاثة وخمسون مليونا فيخص كل اكتار من ارض الانكليز رأسان ومن ارض فرانسا راس واحد والمتحصل من الصوف عند الانكليز ستون مليون كيلو جرام وعند الفرنسيس كذلك ومن صنف اللحم كل عام عند الانكليز ثلاثمائة وستون مليون كيلوجرام وعند الفرنسيس مائة واربعة واربعون مليونا وبهذا يعلم ان نسبة اللحم المتحصل عند الانكليز الى اللحم المتحصل عند الفرنسيس كالنسبة بين عددي ثلاثمائة وستين ومائة واربعة واربعين وهذه المقادير هي مقادير التوسط لجميع جزائر الانكليز اي ايرلندة وايكوسا وبريطانيا فلو نظرنا الى بريطانيا وحدها لوجدنا في كل اكتار راسين من الغنم مع انه لا يوجد في الاكتار

من فرانسا غير ثلثي رأس هذا ومحصول الرأس الواحد في بلاد الانكليز ضعف محصوله في فرانسا فيعلم من هذا ان ربح الفلاح الانكليزي ضعف ربح الفلاح الفرنساوي في هذا النوع

وعلى ذلك تقاس ارباح البقر في كل من الجهتين وقد احصي ثمن الجبن المبيع بمديرية شيستين خاصة في السنة الواحدة فبلغ خمسة وعشرين مليونا من الافرنكات ولبن بقر جميع فرنسا لم يبلغ الا الف مليون ليتر وثمن الليتر عشرة فرنكات واما المتحصل من بقر الانكليز فضعف ذلك قدرًا وثمنا فعلى هذا يكون ربح الفلاح الواحد من الانكليز اربعة امثال ربح الزراع من الفرنسيس واغرب من هذا تفاوتهم في عدد البقر بالنسبة لارضهم فان بقر الانكليز ثمانية ملايين في واحد وثلاثين مليونا من الاكتارات وبقر الفرنسيس عشرة ملايين في ثلاثة وخمسين مليونا منها فلو نسبنا بقر كل قوم الى ارضهم لكان بقر الانكليز بالنسبة لارضهم اكثر من بقر الفرنسيس بالنسبة لارضهم وان كانت ذبائح الفرنسيس اكثر عددًا لانهم يذبحون من البقر في كل سنة اربعة ملايين فيها من اللحم اربعمائة مليون كيلوجرام واما الانكليز فلا يذبحون من البقر الا مليونين الا ان فيها من اللحم خمسمائة مليون كيلوجرام فاذا تاملنا ذلك علمنا ان ما يذبحه الفرنسيس وان كان في العدد ضعف ما يذبحه الانكليز الا انه ينقص في اللحم نحو الربع وسبب ذلك ان الانكليز لا تذبح الصغير ولا المهزول وذلك لامرين الاول كونه غير مستوف لشروط

الغذا والثاني ان ذبحه حينئذٍ يكون كضياع راس المال من قبل تربيحه سواء بسواء بخلاف الفرنسيس فانهم يذبحون من العجول الصغيرة اكثر مما يذبحونه من الكبيرة ولقلة هذا النوع عندهم لا يمكنهم الصبر الى ان يكبر الصغير فتضيع عليهم بذبحه فائدتان الاولى جودة اللحم والثانية الانتفاع به وايضاً فان الانكليز من عادتهم اراحة البقر من الاشغال وتسمينها واما الفرنسيس فانهم يستعملونها في جميع الاعمال الشاقة ولا يذبحون الكبير منها الا اذا هزل لحمه وضعفت قوته مع انا لو تاملنا فيما يكتسبونه من استعماله وفيما يضيع عليهم به لوجدنا ان استسمانه واستثماره اربح لهم من استعماله لانه بالبحث عن ذلك وجد ان قيمة البانها بفرنسا نحو مائة مليون من الافرنكات وقيمة اللحوم اربعمائة مليون وما يقابل شغلها مائتا مليون فيكون جميع ايراد البقر بفرنسا سبعمائة مليون

واما الانكليز فان ثمن الالبان بقرهم اربعمائة مليون من الافرنكات وقيمة اللحوم خمسمائة مليون فجميعه تسعمائة مليون فترى ايراد هذا النوع عندهم قد زاد على ايراده بفرانسا مائتي مليون وان اعتبرنا ريع كل من الجهتين على حدته وجدنا مجموع ايراد الفلاحة بفرنسا خمسة الاف مليون من الافرنكات منها قيمة اللحم ثمانمائة مليون وقيمة الحنطة ستمائة مليون فباعتبار هذه المقادير تكون قيمة اللحم في فرانسا نحو السدس من ايرادها مع ان قيمته عند الانكليز

تبلغ ثلث ايرادها تقريبًا وما ذاك الاَّ لكون احوال الزراعة عندهم متقدمة تقدمًا زائدًا

فقال صاحب المنتزه ان ما ذكرتموه صحيح ولكن قد تفطنت الخلق الان لامر الزراعة ونمائها لوجود الخلطة العامة وحصول الالفة التامة فانا نجد كل انسان قد تحصل على ما فيه منفعة له ولو كان على بعد منه لسهولة السفر وقرب المسافة بما حدث من الآلات البخارية برًا وبحرًا فجميع الآلات التي كانت لا توجد الاَّ عندكم قد صارت موجودة عندنا وربما تحسنت زيادة عما عندكم فتقدمت الزراعة واتسعت اصناف البضاعة وان كان لتاخير الزراعة اسباب كثيرة واقواها تاثير الاحتقار باهل الفلاحة وعدم الالتفات اليهم وترك التبصر في احوالهم وارتكاب ما تضيع به ثمرات الفلاحة من تسخير اهلها بالعسف والقهر والتعدي عليهم بما يقهقر حالهم ويفسد عليهم اعمالهم وكالتغالي في الزينة والزهو والاكباب على اللعب واللهو خلافًا لما يزعمه اخساء العقول من ان ذلك من لوازم الثروة فان بطلانه لا يخفى علي كل ذي بصيرة لانا لو اخبرنا ما كانت تستهلكه اي امة في الزمن الغابر وما تستهلكه في الزمن الحاضر وقارنا بين الزمنين لوجدنا بينهما فرقا عظيما مثلا النور كان لا يوجد بمدينة باريز الا في بعض اماكن منها كالذي يخص رب المنزل واما الان فترى جميع اماكن البيوت مضيئة وعلى ذلك لا شك انه يلزم لها الان استصباح اكثر مما كان يلزم لها في سالف

الزمان ولا يتيسر الحصول على ذلك الا بزرع ارض له زائدة عما كان يزرع في الاول وذلك لا يكون الا بنقص جزء مما كانت تزرعه لقوتها وفي ذلك من الضرر ما لا يخفى فضلا عما يلزم لجلبه الى المدينة من رجال الزراعة وحيوانات الفلاحة وما يلزم لهذه الحيوانات من زرع ارض لمرعاها ينقص بقدرها من ارض الحبوب فاذا نقصت ارض الحبوب نقص القوت فينقص عدد الاهالي فان قيل لا يلزم ما ذكر لانه كان فيما مضى غابات مهملة وبرك ومناقع كثيرة معطلة وقد عمرت الان وزرعت فهلاَّ تكون عوضا عما نقص من ارض الحبوب قلنا ذلك مسلم لو كان عاما في جميع الجهات فانا نجد بعض جهات كانت عامرة بالخلق فلما زرعت فيها هذه الاصناف ونقصت مزارع حبوبهم نقص عددهم فحينئذٍ لا شك ان الاكثار من الزينة وانواع التفاخر موجب لنقص ارض الاقوات فاما ان تتم من الخارج والا هاجرت الاهالي وتعطلت فضرر حب الزهو والفخر كضرر المحاربة بل اضر لان المحاربة وان كانت تضر بارض الزراعة لا تضر بالامة وان اضرت فضررها وقتي ومما يؤيد ذلك انك ترى بعض جهات وقع فيها محاربات كثيرة وهي الان احسن مما كانت قبل الحرب لان الغالب ان الحرب اذا كانت في جهة واتلفت منها شيئًا زاد عمار الاخرى بقدر ما تلف من الاولى وقد يتنبه الجميع بعد انقضائها فيتركون الرفاهية فيعودون الى احسن مما كانوا فعلمنا من ذلك ان

الحروب وكذا الامراض الوبائية ليست السبب في تدمير الامم اصلا
بل السبب فيه حب الزهو والزينة ليس الا لانا لو فرضنا ان فرسا
واحدا دخل مدينة للخيلاء به لا لعمله لم نشك انه ياخذ من ريع
تلك المدينة لمؤنته ما يعدل مونة اربعة من نوع الانسان وهذا
فرس واحد فما بالك بافراس او ما بالك بغيره من الحيوانات
التي لا فائدة فيها الاّ النظر لذاتها او التامل في الوانها وهيئاتها ولا
يقال ان اقتناء الحيوانات وان كثرت مؤنتها لا ضرر فيه لما يترتب
عليه من تسميد الارض بروثها فتزيد في محصولها بقدر مؤنة الدواب
والحيوانات التي بها لان ذلك انما يقال في الدواب والحيوانات
التي بالقرى وارض الزراعة واما الحيوانات التي بالمدن فلا لان
روثها بها لا قيمة له بل قد يصرف عليه دراهم لاخراجه من محله
مع ما يلزم لذلك من تعطيل اشخاص من اهل الفلاحة لخدمتها
وجلب مؤنتها وقد توهم بعضهم ان كثرة الامة وقلتها تابع لما
يستهلك قلة وكثرة اعني انه كلما كثر المستهلك كثرت الامة وكلما
قل قلت وهذا التوهم لا يسلم به الاّ لو اقتصر على ما لا بد منه
والواقع غير ذلك فانا نرى القليل من الامة يصرف اضعاف ما
يصرفه الكثير منها فاذا تاملنا ذلك وجدنا ان معيار الثروة وعدمها
تابع لكثرة المشتغلين بالزراعة وقلتهم فكلما كثروا اخصبوا وكلما
قلوا اجدبوا فاي قوم لم يشتغلوا بامر الزراعة وتوابعها كانوا وبالا
على الامة عموما وعلى المشتغلين بها خصوصا فحينئذٍ يجب على ولاة

الامر التنبه لذلك وحمل اهل البطالة على العمل ولا سيما الشحاذين الذين اتخذوا التكفف صنعة فانهم يتفننون في الحيل ويتعللون بما تسوله لهم انفسهم من العلل فلا يمضي على الواحد منهم زمن قليل الاّ وقد تحصل على جزء من المال فمثل هولاء يجب منعهم وامرهم بالتكسب لئلا يقتدي بهم من يميل الى البطالة والكسل ليستغني بهذه الصنعة الخبيثة عن التكسب بالعمل فاذا تمهد هذا علمنا ان فن الفلاحة والزراعة هو الاصل بل هو اساس ثروة البلاد وعمارها واصل رفاهية اهلها فيجب على كل حاكم احترام المشتغلين بها والالتفات اليهم كل الالتفات ومساعدتهم بانواع المساعدات وتطييب قلوبهم والرأفة بهم والاَّ كان كمن هدم اساس بيته بفاسه لان مثل كل ملك مع رعيته كمثل شكل هرمي الملك كراسه والرعية كقاعدته وأسه ورجال الدولة ما بين ذلك على قدر درجاتهم فكما ان كل جزء من اجزاه هذا الشكل حامل لثقل ما فوقه وهكذا الى الطبقة السفلى فتكون هي التي عليها ثقل الجميع كذلك ارباب الحكومة السياسية على اختلاف درجاتهم كلما فسدت درجة سرى ضررها الى من دونها وهكذا حتى تجتمع جميع المضار على الضعفاء واهل الفلاحة فلو قصر الملك نظره على من يليه من رجال دولته وصرف عمن دونهم نظره فسد نظامه واختلت مملكته واحكامه فكما انه لا بقاء للشكل الا بقواعده كذلك لا بقاء للملك الا برعته فان تنبه الحاكم وانصف من نفسه عرف كيف يصون ولايته

من الخلل بان يشمل بنظره جميع رعيته لا يفرق بين الاجانب منهم وذوي قرابته ولا بين ضعيف منهم وقوي وخص من بينهم اهل الفلاحة بمزيد العناية والالتفات لانهم الحاملون لاثقاله القائمون بمصالحه واعماله اذ لولاهم ما كان للملك قوام ولا تم له نظام وحيث كانت الارض لا تفيد الاّ بقدر ما تستفيد لا فرق عندها بين عظيم فتكرمه ولا فقير فتحرمه بل ان قام صاحبها بما يجب لها وخدمها انتفع بها والا عدمها وهي على اختلاف انواعها لا يخلو شي من اجزائها عن فائدة حتى الرمل الذى لا يصلح للزراعة لو وضع منه شي في الارض السبخة او البرك المالحة لاصلحها وكذلك اخراس الارض لو نقيت مما فيها وحرثت لكانت اصلح من غيرها وكذلك الارض الحجرية يؤخذ منها احجار للمباني العظيمة ذات الاسوار فما من انسان اقام في اي مكان وتيسرت له اسباب الراحة وانتفت عنه الموانع الا تيسر له منه اضعاف قوته وتحصل على ما لا يتحصل عليه غائص البحر لياقوته فلو فرض ان فدانًا غرس اشجارًا لا تثمر وترك الى نحو عشرين سنة لكان فيه من الخشب والفحم ما يقوم بمال عظيم مع انه لم يلزم له الا قليل من العمل والعمال فما بالك لو غرس اشجارًا ذات ثمر فلو فرضنا ان ذلك الفدان بعينه كان في المدة المذكورة يزرع حبوبًا لكانت فوائده اكثر منها في الحالتين السابقتين فعلم من ذلك ان الناس تابعة للزراعة كثرة وقلة ولو كان ذلك الفدان بعينه في ضاحية من ضواحي المدن قد هياء له صاحبه

محابس لريه وغرس فيه اشجارًا واجرى اليه انهارًا وجعل فيه عروشا أما كان بذلك يساوي اضعاف مثله من ارض القرى والارياف وما ذاك الا لكثرة عماله واحتفاف الناس به فهذا دليل ايضا على انه كلما كثرت الناس بارض زاد محصولها وان الانسان لو خلي ونفسه لجعل من الارض الحجرية بساتين وكروما الا ترى ارض مرسيليا فانها كانت اولا جبالا ورمالا فاجتهد اهلها حتى حفروا فيها خنادق وطموا ارضها بالتراب واجروا اليها الماء ثم غرسوا فيها من انواع الفواكه والاشجار ما يستغل منه اموال عظيمة فلو احصينا عدد قرية وفرضنا انهم قائمون بخدمة ارضهم حق القيام لكان عددهم دائمًا في زيادة لان المجمع عليه عند ارباب الفلاحة ان الارض كلما خدمت زاد محصولها فليس محصول المحروث مرة كمحصول المحروث مرتين ولا محصول الارض التي تسقى بماء المطر كالتي تسقى بماء العيون ولا محصول الارض التي سقيت كمحصول الارض التي لم تسقَ وهكذا من محسنات الزراعة فالفلاحة لا شك انفع الصنائع اذا توفرت اسبابها وانتفت الموانع عن اربابها خلافا لقوم ذموها واستقبحوها وعدلوا الى دماء الناس واموالهم فاستباحوها مع علمهم بان فوائد الفلاحة لا تعدلها فوائد وادرار ارزاقها دائمًا متزايد وهم الآثينيون وسكان اسيا فكانوا يزعمون ان الفلاحة والتجارة مما يوهن القوى البدنية ويورث الذل للذرية فتركوا جميع الصنائع ولم يلتفتوا لما فيها من المنافع وعدلوا الى نهب الاموال

واسر ما قدروا عليه من نساء ورجال وعم ذلك جميع اوروبا فانتج خرابها وافسد العمار الذي كان بها وكان المنقطع للفلاحة وقتئذٍ الارقاء ومن يأوي اليهم من الغرباء فارتحلت عنهم حينئذٍ الفضائل الدثرية وقد كانت بقعتهم عين منبعها ومرج مرتعها وانظر الى الرومانيين وما كانوا فيه من الخمول والتوحش فلما افاقوا من خمولهم وتفننوا في الفلاحة علت شهرتهم وقويت شوكتهم ثم تقادم بهم الزمن واهملوا امر هذا الفن واشتغلوا بالمحاربات فآل امرهم الى الخراب وضعفت دولتهم وانحطت صولتهم وانتهى بهم الحال الى ان تقاسم ارضهم المتبربرون وبالجملة فلم نرَ جهة اهملت فيها الزراعة الا حل باهلها القحط والمجاعة

فقال الشيخ احسنت الاّ انه بغير العدل لا يتم صلاح اذ لولاه ما قدر مصل على صلاته ولا عالم على نشر علمه ولا تاجر على سفره وهو صفة في الذات تقتضي المساواة وهذه الصفة اكمل الفضائل لشمول اثرها وعموم نفعها واليها الاشارة بقوله صلى الله عليه وسلم بالعدل قامت السماوات والارض وتوضيح الكلام يحتاج الى مقدمة في هذا المقام ذلك ان الله تعالى لما خلق الارض ودحاها واخرج منها ماءها ومرعاها وبث فيها من كل دابة فكان فيما خلق نوع الانسان ولعلمه انه ليس كغيره من سائر الحيوان احوج بعضه الى بعض في ترتيب معاشه ومؤنه وتحصيل ملبسه ومسكنه لانه ليس كسائر الحيوانات التي تحصل بنفسها ما تحتاج اليه من غير

صنعة بل خلقه ضعيفًا لا يستقل وحده بامور معاشه

ثم مست الحاجة بينهم الى سايس عادل وملك عالم عامل يضع فيهم ميزانًا للعدالة وقانونا للسياسة توزن به حركاتهم وترجع اليه معاملاتهم وكان مباشرة هذا الامر من الله تعالى بنفسه من غير واسطة على خلاف ترتيب المملكة وقانون الحكمة فاستخلف عليهم من الادميين خلائف وضع في قلوبهم العلم والعدل ليحكموا بها بين الناس حتى يصدر ترتيبهم على قانون مشروع وتجتمع كلمتهم على امر متبوع ولا تحقق العدالة الا بعد العلم باوساط الامور المعبر عنها بالصراط المستقيم ولا تؤثر عدالة الشخص في غيره الاَّ ان اثرت اولا في نفسه اذ التأثير في البعيد قبل القريب بعيد قال تعالى أتامرون الناس بالبر وتنسون انفسكم فمن عدل في حكمه وكف عن ظلمه نصره الحق واطاعه الخلق وصفت له النعماء واقبلت عليه الدنيا فهنئ بالعيش واستغنى عن الجيش وملك القلوب وأمن الحروب ولم يخلق الله تعالى احلي مذاقا من العدل ولا امر من الجور لان اس المملكة واركانها وثبات احوال الامة وبنيانها العدل والانصاف سواء كانت الدولة اسلامية او غير اسلامية فهما قاعدة كل مملكة واصل كل سعادة ومكرمة

فالواجب على الملوك وولاة الامور ان لا يقطعوا في حكم الا من القانون المصنوع لهم سواء في ذلك العادات والزواجر والاوامر والمعاملات لانهم متصرفون في ملك الله وعباد الله بشريعة الله

ولذلك قالوا صنفان اذا صلحا صلحت الامة واذا فسدا فسدت الملوك والعلماء وقالوا اذا همّ الوالي بالجور او عمل به ادخل الله النقص في اهل مملكته وفي كل شي حتى في التجارات والزراعات واذا همّ بالخير او عمل به ادخل الله البركة في اهل مملكته وفي كل شي حتى في التجارات والزراعات فلا يصلح لهذا المنصب الاّ من قطع من الطمع امله ووافق قوله عمله وكذلك عماله ونوابه والا كان كما قيل

ومن يربط الكلب العقور ببابه

فعقر جميع الناس من رابط الكلب

المسامرة التاسعة والثمانون

ڤرساي

وما وصلوا الى هذا المقام من المقال حتى وقفت بهم العربة على باب الجنينة التي قصدوها فنزلوا وقصدوا القصر اولا ليروا ما فيه من العجائب فدخلوه ولم يتركوا محلا منه حتى نظروه فرأوا فيه صورًا وتماثيل واشياء كثيرة من هذا القبيل منها ما هو على صورة عساكر مصطفة ومنها ما هو على صورة طير كأنه يناغي الفه ومنها ما هو على صورة نساء في غاية الجمال ومنها ما هو على صورة خيل مسوّمة وكأنها متهيئة لنزال او هجوم

ومنها ما هو على صورة بعض الملوك الاول ورجال الدول فكانوا كلما مروا بصورة شرحها الخواجا الشيخ ولو لم يسأله عنها فلما خرجوا قال الانكليزي للشيخ ايها الاستاذ كيف ترى فيما فعلت

حوادث الزمان وخطوب الحدثان وتحوّل الاشياء عما كانت عليه وخروجها عن موضوعها

فقال الشيخ كيف ذلك وما الذي خطر ببالك فقال أن هذا القصر كان محلا للملوك لا يصل اليه شريف ولا صعلوك فلما تقلبت به الايام وامتدت اليه يد الزمن عاما بعد عام أضمحل حاله وآل الى ما ترى مآله والذي وضع فيه الصور والرسوم التي رأيتها هو لوي فيليب فلو رأيته قبل قيام الفرنسيس حين كان مركز دائرة الحكومة ومحل فصل كل مشكلة وخصومة فكان غاصا في النهار باصحاب الحاجات والليل بانواع الملاهي والمستلذات ولولم يضع فيه هذا الملك هذه الرسوم ما جنح اليه احد

فقال الشيخ ليس ذلك من الدهر بعجيب ولا عند ارباب المعارف بغريب فكم لعبت الايام بمثله حتى ازالته من اصله كما قال

هي المقادير تجري في اعنتها
فاصبر فليس لها صبر على حالِ
يوماً تريك خسيس العقل ترفعه
الى السماء ويوماً تخفض العالي

اذ من المعلوم ان الدهر لا يبقى على حاله بل لا بد له من اعطاء ومنع وخفض ورفع وحركة وسكون وظهور وكمون وصحة

وعلة ويسار وقلة فلا يدوم على حال الاَّ الكبير المتعال

وامّا الكون أجمع وما حوته جهاته الاربع فلا يخلو عن صحة وفساد وضلال ورشاد على حسب ما اقتضته ارادته العلية ودبرته حكمته الخفية فترى الشيء قد كسي حلل البها وعلاه رونق الحسن والأزدها وعن قريب تراه قد حل بهِ القضا كل ذلك لحكم واسباب منها ما علم ومنها ما ضرب دون العلم بهِ الحجاب ومن تصفح تواريخ الامم وتتبع اخبار الناس من عرب وعجم وجد ان كل زمن لا بد فيه من تغير ومحن ومن يطلع الآن على هذا المكان ويتامل في بنيانه واتساعه واتقانه وما اخذه من الارض يحكم على واضعه بالغرور ولكن هكذا دأب الأنسان على ممرّ الدهور فانه كلما تمنى حالة وبلغها تمنى اعلى منها وهكذا الى ان يأتيه هادم اللذات ومشتت الجماعات فيجده غريقًا في بحر غفلته فيجذبه من بين اهله واحبته فهناك تنقطع علايق اوهامه وتنبت حبال اغتراره بأيامه ولنترك الآن الكلام في هذا الشان وادخل بنا البستان نريح الخاطر باستنشاق ارجه العاطر ونمتع الناظر بزهره الزاهر فساروا حتى دخلوه فكانوا كلما مرّوا بنوع من ازهاره او ناحية من نواحيه او شجرة من اشجاره ساله الشيخ عنها فيطنب لهُ في وصفها وخواصها ولطفها الى ان وصلوا كهفا حولهُ اشجار يسمع منه تغريد اطيار فوجدوا عنده مصطبة من حجر لجلوس كل من

مرّ فجلسوا واتفق ان ذلك اليوم كان يوم فتح مجاري المياه يجتمع فيه خلق كثير من اهل باريز وغيرهم فحصل عند الشيخ من العجب ما ذهب بهِ كل مذهب فسال صاحبه الانكليزي عن اصل هذا المكان وعمن زخرفه واتقنه هذا الاتقان

فقال لهُ الأولى ان تسال في ذلك صاحبنا الفرنساوي لانه ادرى باحوال بلاده فقال لهُ الفرنساوي هذا من حسن اخلاقكم والاّ فتاريخ هذه البقعة مشهور بين الخاص والعام من اهل اوروبا لان لهُ حوادث جسيمة في ازمنة مختلفة ترتب عليها تقلبات كثيرة فيغلب على ظني انها بعض معلوماتكم ولكن هكذا يكون الظرف عند اربابه فاقول ان هذا المكان لم يكن في الاصل كما تراه الآن بل كان بقعة لا توءلف ولا تسكن ما بين منخفض وعال ومجاري مياه وتلال لا شيء بها سوى غابات ولا يأوي اليها الاَّ الحيوانات وكذلك المدينة التى تراها على ما تراها عليه لم تكن الا عبارة عن كفر صغير مشتمل على قليل من البيوت كالعشش لا يسكنه الاّ اوغاد الناس وطغامهم هكذا كان اصل هذه البقعة ثم في القرن السادس عشر من الميلاد انشئ بهِ كنيسة ثم مارستان لمعالجة من يمرض من خدمتها لانهم كانوا رهبانًا لا مأوى لهم سواها فبقيت كذلك مدة واعظم محل كان بها في ذلك الوقت بيت لاحد البروتستانيين الذين نجوا من القتل في واقعة

بزتلي ثم قبض عليه وقتل واستولت الحكومة على جميع متروكاته وانعم ببيته على بعض من يلوذ بالملك الى ان تولى لويز السادس عشر فاخذ ارض ذلك البيت واضاف اليه ما بجواره من الارض وانشأ في الجميع قصرًا وحديقة

فقال الشيخ اذا كان هذا المكان في الاصل على ما ذكرت من الصفة فما الذي اعجبه منه حتى الفه

فقال الفرنساوي لا شيء الاَّ انه كان يهوى الصيد وكان ذلك المكان بطريق غابة مشهورة بالحيوانات الغريبة ولم تكن سكك الحديد وقتئذٍ موجودة فاتفق انه ذهب مرّة ليصطاد فامسى عليه الوقت فبات فيه في طاحونة مهجورة وامسى عليه الوقت مرّة اخرى فبات في خمارة فاشترى تلك الارض وما بجانبها ووضع فيه ما يلزم لهُ ليأوي اليه اذا حصل لهُ مثل ذلك ثم لما اتم القصر والحديقة شرع في عمل سكة الحديد بين قصره وباريز واجتهد في تصفية هوائه فجمع العمال من الرجال وازال ما كان حوله من التلال وطم المنخفض وردم المناقع فألفه الناس واتخذوا لهم بهِ مساكن فاتسعت عمارته وتغيرت صفته ثم مرض الملك مرضًا شديدًا فوكل امر الملك الى أمه ماري ميديسي فاسأت التدبير ولم تعول في امر المملكة على وزير ولا مشير بل سلكت طريق العسف ففسد ما بينها وبين رجال الحكومة خصوصًا ريشليو وكان من اعيان رجال الدولة واقربهم الى الملك فانها

فعلت معه ما لا ينبغي فعله مع مثله فلما برئ الملك من مرضه
وجلس محله راودته امّه في طرده وطرد من ينتمي اليه فلم يوافقها على
ذلك بل ارسل اليه ليرده الى ما كان عليه فوجده متأهبًا للخروج
من البلد خوفًا على نفسه من سعاية ام الملك بهِ فامنهُ فعدل عما
كان عازمًا عليه وحضر الى الملك وترجاه في ان لا يعود الى
الخدمة لئلا يقع بين الملك ووالدته شيء بسببه فلم يقبل عذره
بل الزمه المقام معه لعلمه بصداقته وكفايته فلما لم يجد لهُ مخلصًا
من المقام معهُ قال لهُ ان كان لا بد من ذلك فاول ما اشير
بهِ عليك ان تعمل طريقة تأمن بها شر هولاء المفسدين اشارة لقوم
سماهم وفيهم والدة الملك فقال لهُ الملك هذا رأي سديد وكلما
اشرت بهِ في حقهم قريب غير بعيد فقال ينبغي نفي فلان وفلان
حتى الوالدة ففعل كما قال وامر بنفيهم في الحال حتى والدته
فلم تعد للمملكة بعد ذلك وجعل الحل والعقد بيد ريشليو
فنفذت كلمته وقويت شوكته وقام بتدبير المملكة وحده وبلغ
من نفوذ الامر وحسن الراي حدًا لم يبلغه احد قبله ولا بعده
فاكتسبت هذه البقعة في تلك المدة من الرونق والبها ما يجلّ
عن الاحصاء ثم لما مات الملك وجلس محله ابنه لويز الرابع
عشر احتفل بها وصرف فيها اموالاً كثيرة حتى نقلها الى حال
احسن من حالها الاول فكان هو الذي اتقنها هذا الاتقان
وجعلها على هذه الصورة التي تراها الآن فان الملوك الذين

اتوا بعده وان كان لهم بها اثار الا انها ليست شيئًا بالنسبة لما ابتدعه هو كما هو ظاهر فجميع ما تراه فيها مما يسر الناظر ويشرح الخاطر ليس الا من اتقان الملك المذكور وكان الذي اغراه على هذا المكان حتى ابرزه في غاية من الحسن والاتقان عشقه لاحدى توابع الملكة وكان لا يتمكن من منادمتها الا في هذا المكان فما اغراه واغواه الاّ داء الحب الذي اعتراه ففصل هذه البقعة تفصيلا غير تفصيلها الاول وجمع فيها الرسوم الهندسية وصور الحيوانات وغرس حول بعض الاقسام ازهارًا وحول بعض اخر اشجارًا ورتب في كل جهة فساقي وحيضانا ونوافير وخلجانا ومغارات وصخورًا ونحو ذلك من كل ما له نظير في البراري والبحور وجعل فيها اماكن لمن اراد ان يستريح من التعب واماكن لمن اراد اللعب واماكن للحيوانات البرية ومثلها لانواع الطير وكان يعمل بها في بعض الاوقات ولائم يصرف فيها ما لا يصرفه ايام المواسم ولما رأى ان ماء البرك المجاورة لها لا يفي بما انشأه فيها من الفساقي والخلجان وسقي الاشجار جمع المهندسين وامرهم بعمل طريقة لتكثير الماء بها فصنعوا لها الآت جسيمة تنقل الماء من نهر السين اليها وصرف على ذلك اموالا عظيمة حتى وصلت اليها فلم يكتف بذلك بل جمع العساكر والعمال وامرهم بحفر النهر المعروف بنهر الاور فاقاموا في حفره مدة كابدوا فيها انواع المشاق ومات كثير منهم ومع ذلك كان لا يرثي لحالهم ولا يرأف بهم بل كان يتهدد

المأمورين ويتوعدهم ويعاقب كل من تأخر عن العمل

قال بعضهم انهُ اجتمع في حفر هذا النهر ما ينيف على ثلاثين الفًا واما قدر ما صرف على القصر فلم اتحققه الاَّ اني رأيت بعض اوراق تدل على ان ما صرف فيهِ مائة وتسعون مليونا وقتئذٍ هذا ومع قيام الحرب واشتعال نارها كانت العملية في القصر مستمرة ما بين نقاشين وبنايين ومصورين الى ان اشرف الملك على الارتحال وقربت اليه اوقات الزوال فبنى كنيسة رتب فيها قسسا وخدما فكان يحضر اليها كل يوم احد وخميس فقلده في ذلك اتباعه وخواصه فكان اذا حضر اليها تبعوه وازدحموا عليها واذا تخلف لم يحضر منهم احد وكان غالب ايام ذلك الملك مصروفة في تنظيم هذا المكان فكان يقسم اوقاته فيجعل وقتا لنومه ووقتًا للمطالعة في اخبار دولته وقومه ووقتا لخلوته واجتماعه باحبته ووضع بجانب سريره لوحا عليه رسم صورته وصورة امه وزوجته فاذا انتبه من نومه كانت تلك الصور اول ما يقع بصره عليه وكان اذا جاء وقت قيامه من نومه دخل عليه الموكل بخدمته فينبهه ثم يخرج ويدعو بالحكيم ومن يلوذ به فيغمزون رجليه ويلقون عليه بعض عبارات غزلية وكلمات هزلية حتى يعود اليه نشاطه وتتراجع اليه حواسه ويتم انبساطه ثم ترفع الستارة فيدخل عليه احد خواصه ومعه كتاب الدعوات فياخذه منه ويدخل به خلوة فيمكث فيها ما شاء ثم يعود الى مكانه ويلبس ثيابه ويخرج فيجد القسيس والعمال

في انتظاره فاذا وقع بصره عليهم وقعوا له ساجدين ثم يامر كلا من عماله بالانصراف الى اعماله فينصرفون ويبقى هو مع بعض خواصه يتحدثون في حيل الصيد وانواع المصيد هكذا كان دابه فانظر الى هذه المدينة بعد ان كانت في اول امرها كفراً لا يذكر كيف صارت احسن مدينة في الدنيا وما ذاك الاّ لاقامة الملوك بها واحتفالهم بشأنها وتنظيم شوارعها وجمع انواع الملاهي في مرابعها فعمرت ضواحيها وملأت الخلق نواحيها وانشئ بها خمامير كثيرة ومحلات مزخرفة لمبيت الاغراب وورد اليها الخلق من كل جهة خصوصاً ايام اطلاق المياه وغلت اجرة البيوت بها غلوا لا يخطر ببال وقل ان يوجد بها محل الاجرة خال فكانت فرساي مدة جلوس لويز الرابع عشر على التخت محل انس وانشراح وولائم وافراح ثم اتى ولده من بعده فلم يجرِ على سنن والده في تقسيم اوقاته على ما قدمنا بل صرفها جميعها في حظوظه النفسية ما بين مخادنة نساء وفجور ولعب ولهو وشرب خمور حتى كان من شدة اكبابه على المنكر مع احبابه يجعل له آلة توصل اليه ما لزم من غير احتياج الى خدم فاقبل عليه المفسدون من كل حدب وحسنوا له القبيح من الشهوات واغروه بسائر المنكرات فعم الفساد وانتشر بين العباد ولا تسل عما كان يهديه الى النساء فانه مما يجل عن الاحصاء وقد بلغني من فعله القبيح واسرافه انه اهدى مرة الى بعض صواحبه قلادة ثمنها مليون وستمائة الف فرنك فانظر كيف كانت هذه البقعة مدة

لويز الثالث عشر ومدة من جاء بعده وكيف صارت مدة لويز السادس عشر من حسن حالها واستقامة احوال نسائها ورجالها حيث كان حسن السيرة ممدوح الفعل والسريرة يحب العلم واهله ولم يرتكب شيئًا مما ارتكبه من كان قبله الاّ ان الزمن الذي كان تصرّم في الفساد قد الزم الرعية وكذا الحكومة بديون لا يرجى لها سداد فشكوا اليه ذلك فرق لحالهم واخذ يجمع ما تشتت من شملهم ويهون عليهم الامور ويعدهم ويمنيهم بما يجلب لقلوبهم السرور وكان الذي قبله قد شرع في اعمال جسيمة نافعة كبناء مينا شربور وحفر خليج سربوني مع خلو خزينة المملكة من الدرهم والدينار واضطرار الرعية الى من ينظر في احوالهم اشد اضطرار فجمع النواب وكل من اشتهر من روساء الطوائف فكانوا الفا ومائتين واربعة عشر وجعلهم ثلاث درجات

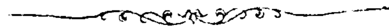
الاولى القسيسون ومن يليهم فكانوا ثلاثمائة وثمانية

الثانية اعيان المدينة ووجوهها فكانوا مائتين وثمانية وتسعين

الثالثة اعيان الزراع وعرفاء القرى وارباب الضياع فكانوا ستمائة وسبعة وامر بتهيئة محل لهم يجتمعون فيه فهيئوا لهم المكان الذي هو مدرسة ابتدائية الان وعينوا يومًا لافتتاحه فحضر الملك وكان عن يمينه اهل الديانة وعن يساره وجوه اهل المدينة وجلس الوزراء على قدر مراتبهم وكانوا جميعا في ذلك اليوم قد حضروا وعليهم ملابس الزينة الموشاة بالذهب وغيره ما عدا الاهالي فكانوا

بهيأتهم المعتادة وبعد ان كان هذا المجلس يسمى بمجلس النواب ابطلوا هذا الاسم وسموه بمجلس الملة ولما كان من عادة امثالهم في مثل ذلك ان ينزعوا برانطهم ويظلوا واقفين ولم تراع تلك العادة في ذلك الوقت قال بعض الحاضرين هذا خروج عن العوائد الرسمية وخلل في القوانين السياسية واكثروا من الكلام في ذلك فلم يلتفت الملك اليهم وشرع في مقالة تلاها عليهم فذكر فيها مسئلة الدين وعدم انتظام عوائد الفردة ونحو ذلك من الامور التي تضرر منها الاهالي ثم ختمها بامر النواب بالاتفاق على طريقة لاصلاح خلل هذه الابواب ثم قام ناظر الخاصة وتلا مقالة بين فيها ما اجمله الملك في مقالته فذكر ان قدر الدّين ثلاث مليارات وتسعون مليونا وان الايراد لا يقوم بالمنصرف بل ينقص عنه في كل سنة نحو ستة وخمسين مليونا وخمسمائة الف فرنك وان قدر الايراد خمسمائة وواحد وثلاثون مليونا واربعمائة واربعون الف فرنك وان من العدل والانصاف ان تكون وجوه الناس كغيرهم في الفردة وان جميع ما يلزم للحكومة يوزع على جميع النفوس من غير تمييز بين رئيس ومرؤس ثم قال فاما ان تتفقوا جميعا على كلمة واحدة واما ان تبدي كل طائفة ما يظهر لها وعلى كل لا بد من اعمال الفكر في تخليص الحكومة من ورطة هذا الامر ثم اذن لهم بالانصراف فانصرفوا فلما كان اليوم الثاني حضروا فقالوا الصواب صرف النظر عن اراء رؤس الطوائف وان يؤخذ راي كل شخص على

حدته فمن كان اكثر عمل برأيه فنفر بعضهم من هذا الراي فلما بلغ الملك ذلك امر بعدم تغيير المعتاد ونهى عن الدخول في كل امر يوقع بين الناس الفساد واذن لهم بالانصراف فانصرفوا واغلقت الابواب فنشأ من ذلك امور لا يحصرها لسان ولا يحيط بها جنان كما هو مذكور في تواريخ الامة الفرنساوية فترتب على ذلك تدوين الاحكام السياسية والقوانين الفرنساوية وظهر نابليون بونابرت وتعصبت الدول على الامة الفرنساوية فانتصر عليهم وسنتكلم على ما وقع بين هولاء القوم في يوم بعد هذا اليوم



المسامرة التسعون

الجيولوجيا

او علم طبقات الارض

ثم ركبوا سكة الحديد وتوجهوا الى باريز فصادف دخولهم غروب الشمس فاستأذن صاحبهم الفرنساوي وتوجه الى منزله وبقي الشيخ مع صاحبه الانكليزي ولما لحق كلا منهما من التعب من كثرة المشي طول يومه استأذن كل منهما صاحبه ودخل محل نومه وعند الصباح اتى الفرنساوي الى الانكليزي فاخذه وذهب به الى الشيخ فتلقاهما بالقبول واحسن لهما في القول ثم قال الفرنساوي للشيخ كنت كتبت الى صاحبنا الانكليزي كتابا رجوته فيه تبليغ السلام الى حضرتكم وان يترجاكم في قرآة دروس لنا في علم العربية بالمدرسة المشرقية وقد سألته البارحة عما تم عليه الامر فاخبرني أنكم

قبلتم رجاءه فارسلت الى اعضاء الجمعية ابشرهم بذلك فسروا جميعا غاية السرور وكانوا يظنون ان اجابتكم الى ذلك من ابعد الامور .

فقال الشيخ قد نجحت مقاصدكم لا خاب قاصدكم وكيف امتنع من ذلك والعلم بنهى اهله ان يمنعوه اهله وها انا مستعد لما ترومون ومتهيئ لما ترغبون ولم يكن الباعث لي على اجابتكم ما ذكرتموه في المكتوب الذي حررتموه بل اقول كما قال انا موصول بنعمة من حبله بالود موصول ثم اتفقوا على اليوم والساعة وقام الفرنساوي مع الانكليزي واذا بابن الشيخ دخل عليه وقبل على عادته يديه فاخبره والده بما صار وبما انحط عليه القرار وانه عازم على انجاز الوعد ومتوجه اليهم في بعد غد

فقال له ولده ان يعقوب اخبرني حين استشعر بهذا الخبر ان له رغبة في حضور هذا المجلس ولكنه يخشى ان لا يأذنوا له

فقال له الشيخ قل له عني لا عليك من ذلك ولا مانع من حضورك معنا هنالك ثم أذن لابنه بالانصراف وحذره من تضييع الوقت اذا اراد الطواف وكانها كانت كرامة للشيخ فان يعقوب كان قال له قبل دخوله على والده أن هنا مكانا على نحو ساعة من باريز يعمل فيه في مثل هذا اليوم كما يعمل في الموالد في بلادكم وفيه ما يشرح الخواطر ويسر النواظر فلما خرج من عند والده واخبره بما قيل في شأنه تم انبساطه وتنبه نشاطه وقال له هل لك

في الذهاب الى هذا المكان لنرى ما فيه ونتنشق نسمات هاتيك الجنان فلم يجد له بدا من الموافقة عملا بقولهم شرط المرافقة الموافقة فركبا عربة وسارا فقال له ابن الشيخ اتذكر ايام كنا راكبين البحر حين كنا نرى دخانا صاعدا الى السماء فكنا نراه في الليل كانه مخلط بشهب ولهب وكان الخواجا يقول لوالدي انه خارج من جوف الارض فاظن ان هذا من ذلك وذلك يقضي بوجود حرارة شديدة في جوف الارض حتى تذوب منها هذه المعادن والاحجار وتندفع على وجه الارض وثمن سلمنا ذلك فكيف وصل الانسان الى جوف الارض حتى علم ما هناك

فقال له يعقوب قد سألت عن مسائل مشكلة والاجابة عنها على مثلي معضلة ولكن على حسب الامكان اذكر لك ما يحضرني فيها الان مما سمعته من بعض العلماء واطلعت عليه في كتب الفلاسفة الحكماء انما يجب ان تعلم اولا انه لا ينبغي للانسان ان يحكم على الاشياء بظواهرها وانها كانت كذلك من اول امرها فان الارض التي تراها مكسوة باصناف النبات مملوءة بانواع الحيوانات لم تكن قبل ذلك كذلك حتى المدن التي تراها الان عالية البنيان معمورة بالسكان لم تكن كذلك بل لا بد وان يكون قد تداول عليها تقلبات منها ما اوقع اهلها في مضرات ومنها ما البسهم ثياب ثروة وسعادات فاذا كان هذا فيما على ظاهر الارض فلا مانع من ان يكون ما في باطنها كذلك فانا لو نزلنا الى ما في جوفها من مغارات

عميقة كمغارات الفحم الحجري مثلا لوجدنا حرارة باطنها اشد من حرارة ظاهرها وهكذا كلما نزلنا ثلاثة وثلاثين مترًا نجد حرارة اشد مما فوقها وايضًا فان الارض مركبة من طبقات ومعادن بعضها فوق بعض منها المستقيم وغيره وقد يكون بعض الطبقات مفصولا عن بعضه بمادة ليست من جنسه وغير ذلك مع اننا لو نزلنا الى باطن الارض وامعنا النظر لوجدنا في خلال مادتها بعض عظام واثر بعض نبات فمن اين كان هذا النبات والحيوان واي حيوان كان ومتى كان في هذا المكان أفلا يدل ذلك على وجود تقلبات مضت في الاعصر والازمان التي انقضت وقد اعتنى علماء كل زمان بالبحث عن هذه العظام فظهر لهم انها عظام حيوانات كانت في ازمان مضت ثم انقرضت عن اخرها

وحيث كانت تلك العظام غائرة في جوف الارض وعلى بعد عظيم من سطحها ينبغي القطع بمرور تقلبات عظيمة وادوار مختلفة اوجبت بلاءها وامتزاج ما بقي منها بالمواد المعدنية والحجرية

فقال له ابن الشيخ واي علم يشرح هذا الحديث وهل هو قديم او حديث

فقال يعقوب العلم الذي يذكر فيه ذلك يسمى باللغة الفرنجية علم الجيولوجيا ومعناه علم طبقات الارض او علم تكوين الارض وهو علم حادث لم تؤسس قواعده ولم تنتشر فوائده الاّ في القرن السابع عشر من الميلاد ومستنده المشاهدات والاطلاع على ما خفي من

طبقات الارض فكانوا كلما كشف لهم شي اثبتوه واستنتجوا منه غيره ولذا ترى هذا العلم دائمًا يتسع شيئًا فشيئًا وهو علم نفيس اذ به يمكن نسبة كل طبقة من طبقات الارض الى الزمن الذي تكونت فيه واخشى ان تكلمت معك فيه ان تسأم من طول المقام او كثرة الكلام

فقال قل ما شئت ولا تقصر في الايضاح ولا تبخل بالافصاح فاني لكلامك سامع

فقال يعقوب اذ قد الزمتني بالاجابة وان ابين لك خطاء الراي وصوابه فاقول

اعلم ان علماء هذا الفن يقولون بتغير ظاهر الارض وباطنها اما تغير ظاهرها فبما هو مشاهد لكل احد واما تغير باطنها فقد استدلوا عليه بشيئين احدهما ما وجدوه في خلال طبقاتها من الاثار الحيوانية والنباتية والثاني الاتقاد والاشتعال الذي وجدوه في باطنها كالذي رأيناه حين كنا بالبحر فلما رأوا ذلك قالوا لا بد ان يترتب على هذا الاتقاد فوران وغليان يوجب تعدد الطبقات وارتفاع كل طبقة على التي فوقها وان تتخلل بعض اجزاء الطبقات السفلى بين اجزاء الطبقات العليا ومن ذلك العظام ونحوها وكان البحث عن هذا الامر في اول الزمن مجهولاً فكان بعض القدماء اذا رأوا اثر حيوان او نبات اكتفوا برؤيته ولم يبحثوا عن سببه وبعضهم يعده جزاء من اجزاء الارض

وبعضهم ينسبه الى ما يشبهه من الحيوانات الاّ انه كان يخترع له بعض حكايات خرافية واقوال وهمية فينقلها عنهم من ياتي بعدهم ثم من بعدهم وهكذا فمن ذلك ما نقل عنهم وكانوا قد رأوا عظما يشبه بعض اعضاء الانسان فنسبوه اليه وقدروا له طولا وعرضاً غير طوله وعرضه المعروفين

واول من تكلم في هذا الفن العالم الشهير الفرنساوي المسمى بيرنار باليس وكان في القرن السادس عشر من الميلاد فالف في ذلك كتابا بين فيه ان جميع الاثار النباتية والحيوانية التي توجد خلال الاحجار لم تكن الاّ بقايا حيوانات واشجار كانت مخلوقة في قيعان البحر ومحلها الان هو الذي كانت خلقت فيه من قديم الزمان ثم اتى من بعد هذا العالم في القرن السابع عشر علماء ايتاليون فاقتفوا اثره وقالوا برأيه وصاروا يكتبون كلما رأوه من الاثار وينسبونها الى اصولها ومن ذلك العهد اتسعت دائرة هذا العلم وكثر اهله ثم انهم انقسموا قسمين قسم ينسب تكوين الارض الى النار وقسم ينسبه للماء وكل اقام على مذهبه دليلا اسس قواعده واثبت بالبراهين فوائده مع اجماعهم على ان جميع ما يوجد من اثار الحيوانات والنبات كان له اصل في الخلقة وطريق الاستنباط من هذه الاثار طويل لا حاجة لنا به الان فعلى اي حال لولا وجود هذه الاثار واشتغال اهل هذا الفن بها اناء الليل واطراف النهار لكان هذا العلم الى الان في حيز الاهمال كعلم قدماء المصريين فانه بقي زمنا

طويلا لا يلتفت اليه وكان كثير من الناس يظنه مجرد نقش وصور ولا يخطر بباله انه من عظيم الاثر الى ان ظهر شامبليون الفرنساوي فتأمل في اصوله وقواعده واظهر المخبأ من فرائده حتى وقف على تاريخ المصريين وعلم كثيرًا من حوادث الاقدمين فكذلك هذا العلم فان العالم الشهير المسمى كوفي الفرنساوي ما تكلم على تكوين الارض والتقلبات التي اعترتها من بدء الخلق الى زمنه والتي تعتريها الى الآن الا من تتبعه تلك الآثار وامتحانها ونسبتها الى ما يشبهها واما اشتعال المواد واتقادها في تخوم الارض فكان الاقدمون يقولون به فوافقهم على ذلك المتأخرون وبنوا ذلك على امور منها ازدياد الحرارة كلما تعمق الانسان وتغلغل في جوف الارض فانه كلما نزل ثلاثة وثلاثين مترًا زادت الحرارة درجة كما تقدم ومنها البركان والمياه النابعة من جوف الارض ومنها البخار الذي يصعد من جوف الارض في بعض البقاع فهذا كله دليل على وجود الحرارة

وبناء على ما قلنا من زيادة الحرارة درجة في كل ثلاثة وثلاثين مترًا تكون الحرارة في المركز ١٩٥٠٠٠ درجة وعند ذلك تكون جميع المواد التي في هذه الدرجة تامة السيلان ويؤخذ مما اسلفنا ان الطبقة الظاهرة التي تجمدت بتأثير البرودة كانت قبل ذلك سائلة بتأثير المواد السائلة والابخرة المحبوسة تحت الارض فلما اثرت البرودة في القشرة الظاهرة جمدت المواد المقذوفة المماسة

لها وتنقص حجمها نحو العشرة كما هو شأن كل مائع تجمد

وحينئذٍ تكون الطبقة الارضية التي هي ظرف اوسع من مظروفها فربما كان بينه فضاء وقد يمتلأ واذا حصل في الظرف انخفاض وارتفاع تكوّن من على ظاهره ما يسمونه سلاسل الجبال وقد ينفتح الظرف فتحات فتخرج منها مواد سائلة فترتفع الى الجو ثم تسقط على سطح الارض فيكون منها هذه الجبال الشامخة الموجودة في جميع جهات الارض هذا اذا كانت الفتحات واسعة فان كانت ضيقة عادت المواد المقذوفة منها اليها فكان ما يسمونه العروق المعدنية او الحجرية وقد يكون الخارج من تلك الفتحات مواد معدنية او حجرية فيتحلل منها مواد ملحية او جيرية او غير ذلك فاذا اختلطت بالبحار كان من املاحها ما يسمونه ارض الرسوب فاذا تقرر ما ذكرناه من احوال القشرة الارضية وما يعرض لها علمنا انه مغير لصورتها ومبدل لهيئاتها وانه ناقل للبحار عن مواضعها ولكن لا يكون ذلك الاَّ بعد مضي ادوار من الزمن طويلة تسكن الارض وتستقر في كل دور منها فتنتقل المواد السائلة منها الى مواضع قريبة او بعيدة عنها على اختلاف تأثير الماء قوة وضعفا فاذا استقرت كان ما يسمونه الارض المنقولة وما ذكرته لك في بيان اصل الجبال والصخور والبركان والعروق المعدنية وتموج الطبقات الارضية وقذف المواد السائلة في باطنها الى ظاهرها وتخلل بعضها بين طبقاتها وبيان ارض الرسوب والارض المنقولة انما هو على سبيل

الاختصار والا فالكلام على ذلك بعيد القرار

وقد جعل علماء هذا الفن جميع المواد المقذوفة التي تكوّنت منها كرة الارض ثلاث طبقات

الاولى الطبقة التي كانت سائلة ثم جمدت بالبرودة وسموها الارض المتبلورة

الثانية المواد التي في قرار البحار كالرمال ونحوها وسموها اراضي الرسوب

الثالثة الاراضي البركانية وتسمى المتبلورة ايضًا الاَّ ان تلك لها صفات تميزها عن غيرها كالاثار النباتية والحيوانية وهذه تحدث من تأثير المواد الكامنة تحت الارض وهذه الطبقات الثلاث وان كان بعضها فوق بعض الاَّ انها ليست على نسبة واحدة والا كانت معرفة علم تكوين الارض سهلة لا صعوبة فيها اذ بتوالي فعل البراكين وقذفها بانواع مختلفة في مواضع وازمان متعددة تكون الطبقات التي تحدث مما يقذف تارة متقطعة وتارة تستحيل الى نوع اراضي الرسوب ويتبدل النوع بغيره فحينئذٍ لا بد لكل من اراد ان يقف على حقيقة اي ارض ان يعرف اولا ما قيل فيها ومن اي نوع هي ثم بعد ذلك يحكم عليها

فقال ابن الشيخ بقي عليك امور ذكرتها ولم تاتِ لها ببرهان قلت ان هناك حرارة مركزية ولم تذكر سببها وهل هي سابقة على التكوين ام حصلت بعده وذكرت ان البرودة تؤثر في الارض

ونسبت اليها تجمد الطبقة الارضية السطحية حتى حبست بتجمدها المواد الداخلة وانه يحصل في الطرف بواسطة البرودة ارتفاع في بعض المواضع وانخفاض في بعض اخر فتحدث الوهاد وسلاسل الجبال ولم تبين اسباب هذه البرودة وكذلك ذكرت المياه ولم تذكر سبب جريانها هل هو تلك المواد المقذوفة ام غيرها وعلى كل فاين كانت مواد التكوين قبل وجود الكون

فقال يعقوب لا تعجل عليّ فاني اعلم انك ستسألني عن ذلك كله وانما اخرت بيانه لضرورة تتميم الكلام على المقدمات التي سمعتها فاذا ثبتت في ذهنك اتبعتها بذكر المقصود من هذا العلم وهو معرفة مادة الارض وكيف كانت قبل ان تكون بهذه الكيفية واي شي اثر فيها حتى صارت في هيئاتها الحالية وجرت فيها المياه وعمرت بالانسان والنبات وسائر انواع الحيوانات فاقول لا يخفى عليك مما تقدم ان درجة حرارة مركز الارض كبيرة جدا لا يقاومها شي ولو كان في غاية الصلابة فعلى هذا يلزم ان تكون جميع مواد الكون في ذلك الحين بخارية وان يكون حجمها وقتئذ قدر حجمها جامدة الفًا وثمانمائة مرة ولذلك قالوا ان حجمها كان قريبًا من حجم الشمس الذي هو قدر كرة الارض الغامرة ولكن بدوران المادة الارضية في الفضاء البارد المحيط بها من جميع جهاتها كانت تبرد بالتدريج الى ان انتقلت من الحالة البخارية الى حالة الميوعة ثم الى

الصورة الكروية التي يقبلها كل مائع وتوضيح ذلك يعلم من علم يقال له علم تحريك الاجسام

وحيث كان للارض بدورانها حول محورها حركة خاصة بها يترتب عليها تعاقب الليل والنهار كما هو مذكور عند اهل هذا العلم حصل لها وقت ان كانت سائلة من الانتفاخ والاستدارة ما يحصل لاي مائع دار حول محوره بان علت وانتفخت من وسطها وهو المنطقة المسماة بخط الاستواء وانبسطت وهبطت من طرفيها وهما المحلان المعروفان بالقطبين فتغير شكلها وبعد ان كانت بخارية صارت مائعة ولم توثر البرودة في جميع المواد بل منها ما بقي على حالته الاصلية فكان منه جو عظيم السعة له اشعة منتشرة في الفضاء يتحلل منها ابخرة الماء والمواد الارضية وانما لم تتجمد لان حرارة الجو في ذلك الزمن كانت شديدة حافظة لبقائها على حالتها البخارية ولان ضغط الجو على الكرة في ذلك الزمن كان اقوى من ضغطه عليها الان لثقله بما فيه من الابخرة المائية والترابية والمعدنية فلم تتجمد وتنزل لشدة الحرارة والضغط وقتئذٍ ولا شك في ان جميع ابخرة الجو كانت فوق بعضها على حسب ثقلها وخفتها فكان اثقلها اسفلها وهي الطبقة التي تلي الارض كالابخرة الحديدية والنحاسية والبلاتينية فكانت هذه الطبقة في غاية الثقل والكثافة وفوقها ابخرة المواد الاقل منها ثقلا وكثافة كابخرة الاملاح المعدنية والكبريتية والفسفور وفوق هذه الطبقة ابخرة المواد الهوائية الخفيفة الصافية

كبخار الماء والاوكسجين والازوت والاسيد كربونيك وهذه الابخرة كلها وان كانت متفاوتة ثقلا وخفة الا انها كانت دائما في تقلب واستحالة من حالة الى حالة فكان ينفصل منها تيارات وعواصف فتمزق ما جاورها من الطبقات وتنفذ منها فيكون لها عند ذلك رعد وبرق اعظم مما تسمعه الان وكذلك كرة الارض تتأثر من المواد التي في جوفها فيحدث فيها كذلك تيارات شديدة تدفع تلك المواد الى جهات مختلفة فيتولد منها ما يقال له الكهربائية فيكون لها عند ذلك من الرعد والبرق والاصوات المختلفة فوق ما تسمعه الان هذا ما كانت عليه الارض والجو في مبدأ امرهما وكانت الارض وما يحيط بها سائرة في مدارها في فضاء متسع محيط بها من سائر جهاتها وبسبب شدة برودة الفضاء التي كانت بحيث لا تنقص عن مائة درجة تحت الصفر كان كلما تقادم الزمن وقوي تأثيرها على الارض نقصت ميوعتها واخذ ظاهرها في الانجماد شيئًا فشيئًا ولم يجمد دفعة واحدة بل في نقط متفرقة وازمنة مختلفة ثم تجمعت واتصلت ببعضها حتى سترت الكرة الملتهبة ويظهر ان تلك الطبقة في ذلك الزمن كانت رقيقة جدا وان كان سمكها الان ثمانية واربعين الف متر لان نسبتها لنصف القطر كواحد من مائة وثلاثين فلرقتها كانت لا تقاوم المواد السائلة داخلها بل تتشقق من بعض المواضع فيخرج من باطنها بعض مواد ترتفع الى الجو ثم تسقط وتجمد فتتكون منها الجبال والعزوق

التي توجد خلال الارض في كثير من المواضع كالنحاس والتوتيا والانتموان والرصاص وهذه العروق تارة تكون عمودية وتارة تكون مائلة وكثيراً ما تكون على غير انتظام وقد يتفرع من تلك العروق فروع ومن الفروع فروع اخرى الى ما لا نهاية له فمن ذلك يظهر ان السطح الظاهري للارض كان مختلفاً في الاتجاه والارتفاع والانخفاض والسعة والشكل والتضريس وبسبب استمرار التأثير الداخلي عليها كانت دائماً تتغير الى ان وصلت درجة برودة السطح حداً يمكن معه سقوط المواد البخارية من الجو على سطح الارض بصفة الميوعة انما لشدة حرارة الجو كان الماء الساقط منه وقتئذٍ شديد الحرارة ايضاً لان حرارته كانت مائة درجة فاذا نزل ووجد ظاهر الارض شديد الحرارة لم يستقر عليها بل يتصاعد ثانياً ويقطع طبقات الجو الى ان يصل الى الطبقة العليا ويحل في البرودة فيستحيل من الحالة البخارية الى الميوعة وينزل الى سطح الارض ثانياً في هيئة المطر فتحيله حرارة الارض الى بخار ويصعد في الجو ثانيا وهكذا كلما نزل ينقلب بخاراً وكلما صعد ينقلب مائعا الى أن يبرد سطح الارض فيستقر عليها لان الماء كلما نزل ياخذ جزءً من حرارتها فاذا برد سطحها استقر عليها ولم يستحل بخاراً ثم لم يزل يزداد حتى عم جميع الارض وتسلطن عليها وتمكن من حبس الحرارة في جوفها وان كانت في بعض الاوقات تتنفس بعض تنفسات فيتغير شكل ظاهرها ومن ذلك الوقت ابتدأت الارض في دور

جديد ومع تسلطن الماء على ظاهرها لم يزل الماء الذي في باطنها شديد الحرارة ولما كانت الطبقة العليا التي هي ظرف لظاهر الارض مركبة من السليس والالنيموان والبوتاسي والصودا وكانت هذه المواد تتأثر بتأثير الماء والهواء والحرارة حصل لها في تلك المدة استحالات اوجبت استقرارها في قرار البحار وصار ينفصل منها جواهر دقيقة كالرمل ومواد طينية ومن شدة جريان التيارات المائية كانت تأخذها معها الى مواضع فتتركها فيها فترسب فتتكوّن منها الارض التي تسمى بارض الرسوب ومن تأثر المواد الطينية بالحرارة ذابت وتجمعت فلما تعطلت الحرارة بردت فتكوّنت عنها الارض التي تسمى بالارض الشيستية اي ذات الصفائح التي منها الاردواز فمن ذلك يعلم ان الارض الطينية الاردوازية فوق الارض الطينية وان الارض في ذلك الزمن كانت عبارة عن جزيرة صغيرة يحيط بها ماء حار من كل جهة وان البحار كان بها طين كثير فرسب بازدياد البرودة وعظم به سمك الطبقة السطحية وان المواد الداخلة كانت تخرج منها فتكوّن جبالا وصخورًا صوانية وشستية وان البرودة كلما اثرت في الارض نقص حجمها وتمزق سطحها وخرج منها مواد سائلة فتجمد وتستحيل الى صخور ومياه ممزوجة بمواد وان هذه الحوادث تكررت مرارًا كثيرة لا يعلم عددها الا خالقها ولهذا نجد في طبقات الارض الاولى وهي التي تكونت في الدور الاول عروقا صخرية متقاربة من بعضها وفي خلالها معادن مختلفة واما

الاثار الحيوانية والنباتية فلم يشاهد منها شي خلال الصخور التي امتحنت في الدور الاول ولذلك قالوا ان الارض كانت في تلك المدة مجردة عن النبات والحيوان وهذا هو الظاهر لان الحرارة كانت وقت ذاك شديدة والظلمة مطبقة لكثرة الابخرة المائعة من وصول حرارة الشمس الى الارض فلما تتابع نزول المطر وفتق طبقات الظلمة صفا الجو ودبت البرودة في الارض ووصلت اشعة الشمس اليها ومن ذلك الوقت اخذت في الظهور ولكون الحرارة لم تنعدم بالكلية لم يظهر في ابتداء الامر الاَّ بعض نبات وحيوانات بحرية محارية فكان كلما ضعفت الحرارة كثر النبات والحيوان فكان يظهر منهما في كل دور جنس فيمكث ما شاء الله ثم غيره فيمكث كذلك وهكذا الى ان وصلت الحرارة حدًّا يمكن معه بقاء نوع الانسان فعند ذلك خلق الله النوع البشري واسكنه الارض ومتعه بجميع ما خلق قبله فيها

وقد وجد في الطبقة الطينية آثار حيوان ونبات فاستدلوا بها على وجود هذين النوعين حين تكوين هذه الطبقة واجمعوا على ان اول ظهور الاجسام الحساسة اي الحيوان والنبات كان في الماء لانه هو الذي اودع فيه سر الحياة ثم اختلفوا في السابق منهما والظاهر انه النبات لان ما وجد من آثاره اكثر مما وجد من آثار الحيوان واني وان كنت اطلت عليك الكلام في هذا المقام فما تركته اكثر مما ذكرته ولعلك فهمت معتقد اهل هذا العلم في اصل تكوين

الكرة الارضية الى ان ظهر فيها اصناف المخلوقات واكتست بانواع الحيوان والنبات

ومن جملة معتقدهم قولهم ان سمك الطبقة التي تجمدت وحبست المواد السائلة ثمانية واربعون الف مترًا وان تكوينها لم يكن دفعة واحدة بل كان في اربعة ادوار

الدور الاول وجد فيه الصخر والصوان والسماق والثاني والثالث وجد فيهما باقي الاحجار والرابع وجدت فيه الارض التي كانت زمن الطوفان وهي التي نحن بها الان وطريقهم في ذلك كله الاستكشاف وما عثروا به في خلال الارض من المعادن والاحجار وآثار النبات والحيوان

فقال ابن الشيخ لعل هذا كله مبني على ما فهموا وان كان الواقع خلاف ما زعموا فان تدبير الكون وابرازه من عالم الخفاء الى عالم الشهود امر لا يحيط به الا القادر المتفرد بوحدة الوجود والذي يسعنا في مثل ذلك ان نجعله من جملة الممكن ونتباعد عن القطع فيه بشي مهما امكن ولكن لا بأس بعلم ما قيل في هذا الفن سواء المظنون منه والمتيقن لان معرفة مثل هذه الامور ربما تفيد العلم بحقيقة الكون في سابق الدهور فالمرجو من فضلكم استيفاء الكلام على ما قيل في هذه الادوار وكيف كان تقلبها الى ان وصلت الى الدور الذي وجد فيه الليل والنهار وعلى الارض كيف كانت ومتى كانت ومن اي شي تكوّنت وما الذي يتميز به كل دور

عن غيره ولا تؤاخذني فيما عودتني عليه من كثرة السوآل وطلبي منك الاطناب اذا شرعت في اي مجال لان بضاعتي في هذا المعنى قليلة ومدركتي لفهم مدركاتكم كليلة

فقال يعقوب لا مواخذة ولا لوم وهل توسمت مني شيئاً من ذلك في غير هذا اليوم وكيف يكون ذلك مني او يؤثر ما يشعر به عني ألست بمحسوبكم ولا شغل لي غير خدمة جنابكم وغاية ما اقول

هبوني امرءًا ان تحسنوا فهو شاكر

لذاك وان لم تحسنوا فهو صافحُ

ولكن ارى الوقت لا يسع الكلام في هذا المعنى فقم بنا الى المجتمع لننظر ما فيه ولا بد ان نعود الى الكلام في هذا الشان حتى نستوفيه



المسامرة الحادية والتسعون

نادرة

وكان المكان الذي جلسا فيه قريبًا من الطريق ولكن لاستتاره بالشجر كانوا يرون الناس ولا يرونهم فلم يحصل لابن الشيخ ما كان يحصل له اذا مشى في طرق المدينة حيث كان لا يمر بطريق من طرقها الاّ رأى الناس قد احتاطوا به من كل جهة كما هي عادتهم اذا رأوا غير ابناء جنسهم او احدًا تزيى بغير زيهم ثم قاما ومشيا حتى بلغا المحل الذي عيناه للعربة وكانت واقفة بجوار فندق دخلاه واكلا فيه وشربا ثم خرجا وسارا الى الجهة التي قصداها فوجدا خلقا كثيرين مجتمعين في فسحة خارج البلد بها حوانيت من خشب تنقلها اصحابها وتذهب بها اي مذهب ووجدا بالفضاء المذكور زحاما كثيرًا فنزلا عن العربة ومشيا يطوفان من

جهة الى جهة فلم يجدا شيئًا يستغرب وتمنى ابن الشيخ ان لا يكون الى ذاك المحل ذهب خصوصا لما رآه وسمعه مما يكدر خاطره وينفر طبعه وخشي ان طال المقام ان يحصل له ما يؤذيه او يتغير قلب والده عليه فقال ليعقوب ارحل بنا من هذا المكان فاني ما رأيت احدا الاَّ وظننت انه شيطان فخرجا مسرعين فرأيا في الطريق محلا على بابه مكتوب ما معناه من اراد ان يرى اغلظ امرأة على وجه الارض واطول واقصر رجل كذلك فليدخل هذا المكان

فقال ابن الشيخ ليعقوب ادخل بنا هذا المكان لعلنا نجد فيه شيئًا نتروح به وينسينا ما كان فوافقه ودخلاه فوجداه في غاية ما يكون من الاتقان وفيه الكراسي كثيرة مصطفة فجلسا في ناحية منه فنظرا الى صدر المجلس فوجداه خاليًا وبجانبه فرجة وعليها ستارة واذا برجل امرد مهول الخلقة مفرط الطول يظهر عليه سن الشباب قد خرج من خلف ستارة ومشى حتى توسط المحل ومعه رجل يقول للحاضرين هذا الرجل من الهند وطوله يزيد عن مترين فقام اليه اطول رجل من الحاضرين ووقف بجانبه فلم يبلغ ثدييه فوقف برهة كاد أن يغشى بها عليه فاخذ بيده الرجل الذي كان معه واجلسه لانه مع صغر سنه وطول قامته لم يكن فيه قوة للحركة اصلا حتى لو دفعه اي انسان بيده لوقع على الارض ثم خرج رجل اخر متناسب الاعضا رخيم الصوت طلق اللسان حسن العبارة خفيف الروح لا يبلغ طوله هنداسة وله لحية فصار يتقصف

ويرقص ويصنع حركات غريبة ويفعل افعالا تدل على قوة عجيبة ثم عمد الى فردة من جزمة الرجل الكبير الحجم فدخلها حتى غاب عن اعين الناس ثم خرج منها وكان ذلك الرجل كلما خاطبه احد فهم بادنى اشارة واجاب بافصح عبارة ثم جلس بجانب الرجل الاول وخرجت امرأة لم يرَ اغلظ منها فاخذت تتحرك كانها ترقص وتترنم وتعاني خفة الحركة وغلظ الجسم يمنعها وتتكلف السرعة وثقل البنية يدفعها فلما انفض الثلاثة من لعبهم خرج ابن الشيخ ويعقوب فوجدا بالباب ازدحاما لم يرياه حين دخولهما وقد احاط بهما خلق كثيرون ممن كانوا داخل المحل وخارجه فلم ينفذا من بينهم الاَّ بغاية المشقة ثم سارا الى ان وصلا العربة فركباها فقال ابن الشيخ ياعجبا لهذه الامة ويا ليت شعري ما اوجب انكبابهم هذا الانكباب وازدحامهم علينا حين خروجنا من الباب

فقال يعقوب هكذا دأب الافرنج خصوصا الفرنساوية فان لهم عناية بكل ما يرونه مخالفًا لعوائدهم ولو رأوه الف مرة

فقال ابن الشيخ ويا ليتهم اقتصروا على النظر من بعد ولم تمتد الى ثيابي منهم يد بل كان بعضهم يقبض عليها ويتأمل فيها وبعضهم يقلبها ظهرًا لبطن كانه يشتريها فكنت اتغافل واغض بصري واتجاهل خوفا من النزاع والخصومة

فقال يعقوب ان غالب ما رأيت من اهل الريف وسكان البادية فتجد عقولهم قاصرة وحماقتهم من غير سبب ظاهرة وقد

احسنت فيما فعلت فانك لو خاطبتهم لم تأمن شرهم وربما كان يترتب على ذلك اكثر مما رأيت

فقال ابن الشيخ حاشَ ان يكون اهل ريف مصر كذلك فانك لا تراهم الا مشغولين بامر انفسهم ولو رأوا غريبًا ببلادهم ولو كان زيه مخالفا لزيهم لا يعنون النظر اليه وان نظروا اليه نظروا نظر اختلاس بحيث لا يدركه الاّ قليل من الناس

فقال يعقوب هكذا اقتضت حكمة الملك الديان وانت تعلم انه ليس في الامكان ابدع مما كان أنسيت نصيحة والدك وهو آخذ بيدك ويقول لك يا بني ما نازعني احد في امر الاّ اخذت في امره بثلاث ان كان فوقي عرفت له فضله وان كان دوني رفعت قدري عن منازعته وان كان مثلي تفضلت عليه فالاحسن ان تصفح صفح الكرام وان لا نضيع وقتنا في تتبع عثرات اولئك الاقوام فاخبرني عن اي الثلاثة الذين رأيتهم كان عندك اغرب

فقال ابن الشيخ اما بالنسبة لمن خلق الذر وفصل له اعضاء وجعل لبعض الدود اسنانا كالمقاريض بل امضى وخلق الانسان من نطفة ثم من علقة واخرج من جوف الصخرة الصماء اضعف حيوان ورزقه فلا غرابة ولا عجب

واما بالنسبة لعوائد الخلقة فالقصير احق بالاستغراب واولى لان الرجل الطويل وَان كان غريبا في خلقته وطول قامته وعدم قوته لا يساوي الرجل القصير في ذلك فانه مع فصاحته وطلاقة

لسانه تراه قد بلغ من القصر الغاية ونحافة الجسم النهاية ولكن لا ادري هل هو من الفرنسيس ام من غيرهم وهل سنه على قدر جسمه ام لا

فقال يعقوب انك لو القيت بالك الى كلامه حين خروجه لعرفت منبته واصل لسانه وقدر عمره وما كان من امره فانه ذكر عند خروجه انه رجل من جزيرة بالبحر المحيط الجنوبي وان عمره تسع وثلاثون سنة وانه اقام ببلاد الانكليز وفرانسا مدة وساح باكثر بلاد اوربا ولذلك كان يتكلم مع كل انسان بلغته فقال ابن الشيخ ما اظن خلقًا بهذه الصفة الا ان يكون من ذرية ياجوج وماجوج فان منهم على ما قيل من طوله شبر ومن طوله شبران وغايته ثلاثة اشبار فقال يعقوب وما ياجوج وماجوج واين موضعهم من الارض فقال ابن الشيخ هم جيل من اولاد ادم وموضعهم خلف السد الذي بناه الاسكندر ذو القرنين وذلك انه لما وصل في سيره الى مغرب الشمس عند جبل ارمينية واذربيجان وجد هناك قومًا فشكوا له منهم وجعلوا له جعلا على ان يجعل بينهم وبين ياجوج وماجوج سدًّا فضربه على احدى وعشرين قبيلة وبقيت منهم داخل السد قبيلة واحدة فقال يعقوب لا مانع من ذلك ولكن الذي اعلمه واطلعت عليه في كتب التاريخ ان اللابونيين والسمويد كلهم قصار ولعلها

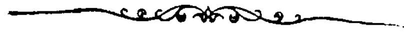
خاصة في هواء قطرهم وطبيعة ارضهم وان الملوك في الزمن السابق كانت تتخذهم اضحوكة لهم ويغدقون على من اتى اليهم بواحد منهم حتى قيل ان اهل المشرق لما علموا ان سبب الرغبة فيهم حقارة جسمهم استعملوا طرقا تمنع الطول فكثروا فكان الرومانيون يجمعون منهم في اوقات سرورهم ويغرون بينهم حتى يقتل بعضهم بعضاً ثم عز وجودهم في القرون الوسطى وقد كانت الامراء تستعملهم في البريد لتوصيل الاخبار وذكر المؤرخون انه وجد في القرن السابع من الميلاد رجل لم يبلغ طوله ثلثي ذراع معماري فعندي ان كل مَن كان من هذا القبيل فهو من ذاك الجيل

المسامرة الثانية والتسعون

الجمعية المشرقية

وبينا هما في الحديث لم يشعرا الا وهما داخل المدينة فسارا حتى وصلا محل الشيخ فنزلا عن العربة ودخلا عليه فوجدا عنده صاحبه الانكليزي فبدأ ابن الشيخ بتقبيل يد والده ثم تحوّل للانكليزي فصافحه وقعد بجانبه وكان قد حان وقت ذهابهم الى منزل رئيس الجمعية فقال الانكليزي لابن الشيخ هيئ نفسك فانّا متوجهون هذه الساعة فقال ابن الشيخ ان اذن الوالد فسمعا وطاعة ثم انهم قاموا جميعا وركبوا العربة وسارت بهم حتى وصلوا منزل رئيس الجمعية فقابلهم بغاية الاحترام وحياهم تحية الكرام وكان بالمجلس جماعة من مشاهير العلماء ورجال الجمعية المشرقية ووجوه الامراء فاخذ رئيس الجمعية بيد الشيخ حتى اجلسه وقعد بجانبه

وآنسه وكان بالمجلس مع صاحبة المنزل نساء كثيرة فقعد الجميع يتجاذبون اطراف الحديث الى ان حان وقت الطعام فقاموا جميعا واخذ كل واحد منهم بيد امرأة وجاءت صاحبة المنزل الى الشيخ واخذت بيده فتبعها ومشى معها حتى دخلت به محل الطعام فجلست والشيخ عن يمينها وصاحبه الانكليزي عن يسارها وجلس صاحب المنزل في الصف الثاني وابن الشيخ عن يمينه وجلس الباقون في مواضعهم التي رسمت لهم فاكلوا ثم رجعوا الى محل الجلوس كل ذلك وهم محتفون بالشيخ احتفاف الهالة بالقمر ومحتفلون به احتفالهم بملك مطاع فيما امر وكان كل من خطر بباله شي يتعلق بفن العربية تلطف في ابدائه فيجيبه الشيخ بجواب لا يحوم حوله من عداه فيعجبون من بلاغة عبارته وعذوبة لفظه وجودة حفظه



المسامرة الثالثة والتسعون

الفرنسيس في مصر

وكان بالمجلس رجل فرنساوي ممن توجه مع نابليون الى مصر وشهد وقعته باهلها وانتشار رجاله في اعمالها واطلع على ما كان من امرائها قبل توجه الفرنسيس اليها فظهر للشيخ من اطراف كلام ذلك الرجل حبه للمصريين وميله للعائلة المحمدية فقال له اكنت بمصر ايام حوادثها مع الفرنسيس فقال وقبل ذلك ايضاً

فقال الشيخ اني لا اتحقق ذلك لصغر سني اذ ذاك وغاية ما اتخيله اني كنت ارى والدي في تلك الايام كل ما دخل وخرج يقول لوالدتي ماذا ترين في هذا الحرج العرب في البادية تنهب والمماليك تفسد وتخرب والفرنج في الطرق تقتل وتسلب فمن فر من قوم وقع في يد اخرين ونحو ذلك من الكلام الذي يخيف

الابطال ويزعج النساء والاطفال مع اني اعلم طبع المرحوم في تجلده وتجمده بين اهل بلده فما اضطره إلى بث هذه الشكوى الا فظاعة ما رآه من عموم البلوى

فقال له ذلك الرجل لو بحثت عن اصل ذلك كله لوجدته من المماليك الذين جعلوا مصر غنيمة لهم وقسموا ارضها وقراها بينهم فانهم كانوا يحزبون الاهالي والعرب علينا ويحذرونهم منا بقولهم انه لا غرض للفرنج من بلادكم الا سلب اموالكم وهتك اعراضكم وصرفكم عن دينكم ونحو ذلك من المنفرات مع ان الفرنج كانوا بريئين من ذلك كله لا غرض لهم الا اصلاح الحال وانقاذ الناس من ورطة هولاء الجهال فلو قدّر وبقينا بارض مصر الى الان لكان خيرًا لهم ولكن من سوء حظ المصريين انه حدث بقطرنا بعض حوادث ترتب عليها عود رئيسنا بونابرت الى البلاد فخرجنا منها بعد ان غذيناها بفلذ اكبادنا ورشحناها بدم اولادنا ومع ذلك فقد رسمنا لهم بها قوانين جليلة وآثارًا عامة النفع جميلة يرجى منها الخير ويتقى بها الضير كالترعة المالحة والحلوة والقناطر الخيرية والمطابع وتقسيم مصر الى اخطاط لكل خط حاكم وعسس يطوف فيه ليلا ونهارًا يمنعون الشرور واهل الفساد ويحثون على كنس الطرق والشوارع وتنظيفها ومن محاسن مبتدعاتنا الامر بتعليق قناديل على ابواب البيوت والوكايل والخانات فكان حكام الاخطاط يطوفون بالليل فاذا وجدوا بيتا او خانا ليس على بابه قنديل سمروه للمحافظة على

ما فيه فاذا طلع النهار اتوا بصاحبه فيجازونه على حسب ما يرون
ومنها انشاء اسبتاليه لعلاج المرضى جمع لها من الاطبا والادوية
ما يلزم لكل داء وهي فيما بين القاهرة ومصر تسمونها بالقصر العيني
ومنها الكورنتينات وتعيين محلاتها في كل مدينة وغير ذلك من
الاعمال التي لو لم تشتغل بها افكارنا ما كانت خطرت لهم على بال
لان شان المصريين بل سائر المشرقيين الاقتصار على حفظ القرآن
ومعرفة بعض امور دينية يقفون عندها ولا يتعدون حدودها ولا
يغوصون في معاني الكتب واسرارها وكذلك حكامهم وكان من
يلي امرهم من المماليك ونحوهم لا همة لهم الاّ تحلية سروج الخيل
والاكباب على الملاهي طول الليل ولبس السراويل الواسعة الذيل
والاكثار من الخدم والغلمان واستتباع ذوي الوجوه الحسان وهذا
كله ربما كان مانعا من تصرف العقل وزيادة الفكر خصوصا وهم
مقتصرون في التفكر في القرآن على ما يظهر من مبانيه ما بين
الوعد والوعيد والترغيب والترهيب والحث على الزهد في الدنيا
ولذتها والتحذير من التوسيع فيها والاغترار بزهرتها ونحو ذلك مما
تخاف منه القلوب ويزهد من تامله في كل شي محبوب في الدنيا
ومطلوب حتى يبيع الحاضر بالغائب ويعوّد نفسه على الرضى بكل
ما حل بها من المصائب ويذهل عما فيه صلاح معاشه ويهجر
اسباب ثروته وانتعاشه

فقال له الشيخ اما ما ذكرت من نسبة ما وقع بين المصريين

والفرنسيس للمماليك فمن المعلوم ان المدافعة عن الوطن في ذلك الوقت كانت واجبة على العموم لا فرق فيها بين مالك ومملوك وشريف وصعلوك وعلى فرض ان الاهالي انما قاموا تبعا لراي حكامهم الذين هم امراؤهم فهل فعلوا غير ما يلزمهم

فقال الانكليزي ان ما يقول الشيخ حق فان ميل الانسان الى اهل ملته وديانته امر فطري ألا ترى ان اهل باريز لم يفتحوا ابواب المدينة للملك هنري الرابع الا بعد ان رجع عن المذهب البروتستاني الى مذهبهم مع انه من بيت الملك والجميع فرنساوي واصل الدين واحد

فقال الشيخ من هنا يعلم ان لا لوم على المصريين في امتناعهم من الخضوع للفرنساوية والدخول تحت طاعتهم بحسب الميل الطبيعي من عدم الرضى بحكم من خالفهم في الدين والجنس وترك من هم معهم على ملة واحدة وعوائدهم وقوانينهم في الاحكام متحدة

فقال له ذلك الرجل الشيخ كل ذلك معقول ومقبول الا ان الفرنسيس لما دخلوا مصر لم يحدثوا بين المسلمين بدعة على غير رأي امرائهم وعلمائهم بل ما فعلوا فعلا الا بمشورتهم واخذ رايهم كما يعلم ذلك من المنشورات التي عليها امارات رضاهم واستحسانهم فكانوا معينين لذلك جملة من اكابرهم اهل الحل والعقد منهم الشيخ خليل البكري نقيب الاشراف والشيخ عبد الله الشرقاوي والشيخ محمد المهدي والشيخ مصطفى الصاوي والشيخ محمد الامير

وغيرهم فبونابرت رئيس الجيوش مع علو همته وسعة باعه واطلاعه وحسن اداربه وسياسته لم يستقل في مصر بارائه ولم يكل حكم البلد الى امرائه بل انتخب جملة من كبار علماء المصريين واعيان تجارها المعتبرين وفتح لهم دواوين وضم اليهم مترجمين ورتب لهم مرتبات واغدق عليهم بالعلوفات وفوض الحكم اليهم وعوّل في حل كل مشكلة عليهم وبالجملة لم يفعل ما يخل بشرفكم ولا ما يضر بقطركم وانظر الى ما حصل منه لما تغلب على جزيرة مالطة ووجد بها اسرى كثيرين من اهل الاسلام فانه اطلقهم وجهزهم وارسلهم محفوظين الى بلادهم واعلن ان لا يؤْخذ احد من اهل الاسلام من بعدهم اسيراً وقبل وصول جيشه الى مصر ارسل يحذرهم عن الفساد والتعرض لشي مما بايدي اهل تلك البلاد ويقول لهم ما معناه انكم ستدخلون مصر آمنين مظفرين منصورين وتهزمون حكامها المتحدين مع الانكليز فقد قطعوا على تجارنا السبيل وبالغوا في ظلم اهل وادي النيل واعلموا ان الامة التي تقصدونها امة محمدية وكلمتهم التي ينبني عليها امر دينهم لا اله الا الله محمد رسول الله فاياكم ان تغيروها عليهم او تصرفوهم عن قوانينهم وعليكم ان تكرموا ائمتهم وقضاتهم ولا تحدثوا شيئاً في مساجدهم وجوامعهم واعلموا ان عوائد بلادهم ليست كعوائد بلادكم فينبغي ان تستأنسوا باهلها وتتطبعوا بطباعهم واياكم ان يدخل احد منكم دار احد او يتعرض لامرأة فان ذلك عندهم منكر فمن فعل ذلك منكم حل به

البأس وعد من اراذل الناس واول بلدة تنزلون بها الاسكندرية وستجدون بها من اثار من اسسها ما يروق بالكم به ويقطع عن التعلق ببلادكم امالكم وما كفاه هذا التشديدوما انذرهم به من الوعيد بل صدر منه منشور بقتل من قطع السبيل من العسكر او فعل شيئًا من المنكر او غصب من احد شيئًا ولو درهما ثم جمع ضباط العساكر والالايات وضمنهم ذلك كله وهكذا كانت افعاله واقواله كلها فلم يكن مراده مجرد التغلب واشهار نفسه بالحرب بل كان جل غرضه وغاية امله ان يكون الناس كلهم في امان ورفاهية حال وان لا يتعرض احد لاحد في عرض ولا مال

وكان وصول بونابرت بجيوشه الى ثغر اسكندرية لخمسة عشر يومًا من المحرم سنة الف ومائتين وثلاثة عشر هجرية الموافق لشهر حزيران سنة الف وسبعمائة وثمانية وتسعين ميلادية فلما دخل اسكندرية جمع علمائها واعيانها وانتخب منهم سبعة قلدهم زمام الاحكام وما تحتاج اليه البلدة من النظام منهم الشيخ محمد المسيري والسيد محمد كريم وقال لهم على مقتضى الحرية لا يلي الحكم الّا عقلاء الرعية لان جميع الخلق سواء في العدل والحكم بالحق وقبل خروجه من اسكندرية الى مصر عمل دستورًا يتضمن جميع ما مر وزيادة كما هو مبين في تاريخهم وكان قد احضر معه من الروسية مطابع تطبع باللغة الفرنساوية والعربية فطبع عدة فرمانات وفرقها بالديار المصرية ثم شرع في ترتيب دوان فجمع له ستين

شخصًا منهم اربعة عشر يقال لهم المجلس الخصوصي والباقون يقال لهم الديوان العمومي كل ذلك اظهارًا للعدل ورفقًا بالرعية

فقال الشيخ جميع هذا صحيح مسلم غير انه لا يخفى ان زمن الحروب عادة يكون زمن شدة على الناس وما يقع فيه من المصائب يكون غالبًا على غير رضى الروساء وقد تقع امور فظيعة توجب تنفير الطباع مثلا تخريب المساجد وانتهاك حرماتها وقهر العلماء وتحريم التجار كل ذلك قد وقع بمصر مدة هذه الحرب مع نهي بونابرت عنه فكان داعيا لنفرة الاهالي

واما كتابة المشائخ الى الاقاليم بالمسالمة فذلك امر واجب عليهم لحقن دماء الناس لما راوا من قيام العربان واهل الفساد وكثرة القتل والسلب والنهب وضرورة ان الاحكام كانت قد تغيرت والناس كانوا مضطربين لم يتعودوا على الحكم الجديد والتبس المفسد بالمصلح فقصد العلماء تسكين الفتن وحفظ الانفس والاموال وبالجملة فلم يكن للمصريين داع الى النفرة عن احكام الفرنسيس غير الحمية الدينية مع ما حصل من الشدائد التي جرت العادة بحصولها في زمن الحروب وتجديد الاحكام

ثم ان الرجل الفرنساوي انصرف من بينهم وقام كل في محل استراحته فقال ابن الشيخ لابيه قد استفدت من ذلك المجلس ان الفرنسيس سبق لهم انهم استولوا على مصر وما كنت اظن ذلك ولا خطر ببالي فقال يا بني قد استولوا عليها وحكموا فيها وامروا ونهوا

وفعلوا فيها الافاعيل لولا ان الله خلصها منهم فقال وما كانت احكامهم فيها وقوانينهم وكيف كانت وقائعهم في فتح البلاد وقهر العباد

فقال الشيخ يا بني اني كنت وقت حلول الجيش الفرنساوي بمصر صغيراً لا اعي ما يقال ولا ما يفعل ولكني منذ هاجرت من بلدي الى مصر لطلب العلم كنت اسمع بما كان من الفرنسيس فكنت كلما سمعت عنهم شيئًا قيدته حتى جمعت من ذلك كتابا وجلدته

فمن احكامهم انهم ضربوا على الاملاك والعقار ضرائب فجعلوا على الاعلى ثمانية ريالات فرانسا والاوسط ستة والادنى ثلاثة

وضربوا على المعاصر والسيارج والوكائل والخانات فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين ومنها ما جعلوا عليه اربعين كل على حسبه وكتبوا بذلك مناشير على عادتهم ولصقوها في مفارق الطرق وارسلوا منها نسخًا للاعيان وعينوا المهندسين لتمييز الاعلى من الادنى وبالغوا في الضبط والاحصاء وتقييد الاسماء فضاق بالخلق الفضاء ومنهم من استسلم للقضاء ولم تتدبر العوام في العواقب فانتبذ منهم جماعة وتناجوا فيما بينهم ووافقهم من المتعممين من لم ينظر في عواقب الامور ولم يتفكر انه في القبضة مأسور فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم فقاموا متحزبين وعلى الجهاد عازمين وابرزوا السلاح والات الحرب والكفاح وهدموا مصاطب

الحوانيت وجعلوا احجارها متاريس في عدة جهات ونترسوا بها
فلما رأى الفرنسيس منهم ذلك تحيزوا الى القلاع وكان كبيرهم
ارسل الى المشائخ فلم يجيبوه فامر بضرب المدافع والبونبات على
البيوت والحارات وتعمدوا على الخصوص الجامع الازهر وحرروا
عليه المدافع والقنبر فلما سقط عليهم ذلك نادوا يا خفي الالطاف
نجّنا ما نخاف وهربوا من كل سوق ودخلوا في الشقوق وتتابع
الرمي من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الاركان وهدمت الدور
وسقطت بعض القصور وخرب كثير من البيوت والوكائل وعظم
الخطب واشتد الكرب فركب المشائخ الى كبير الفرنسيس ليرفع
عنهم هذا النازل ويمنع عسكره من الرمي المتراسل فعاتبهم في التاخير
واتهمهم بالتقصير فاعتذروا له فقبل منهم ثم بعد هجعة من الليل
دخل الفرنسيس المدينة ومروا في الازقة والشوارع من غير معارض
ولا ممانع وهدموا ما وجدوه من المتاريس ودخلوا الجامع الازهر
بالنعال والسلاح وربطوا خيولهم بصحنه ومقصورته وكسروا
قناديله وسهارته وهشموا خزائن الخدمة والمجاورين واخذوا ما
وجدوه به من الكتب والمتاع بل طرحوا نفائس الكتب في
ميضأته واتلفوا الوفًا من مجلدات مؤلفاته ثم قرروا على الناس
فردة اخرى قدرها مائة وستة وثمانون الف ريال فرانسا مع ان
الناس ما أدوا الفردة الاولى حتى قاسوا فيها من الشدة ما لا يوصف
ومات اكثرهم في الحبوس وتحت العقوبة ومنهم من هرب وخرج

على وجهه فجعلوا على العقار والدور مائة الف ريال فرانسا وعلى ارباب
الحرف المستورين ستين الفا وقسموا البلد ثمانية اخطاط وجعلوا
على كل خط خمسة وعشرين الفا ووكلوا ذلك الى مشائخ الحارات
ومن كان ساكنا بتلك الاخطاط من الامراء مثل المحتسب بجهة
الحنفي وعمرشاه وسويقة السباعين وضرب الحجر ومثل زين الفقار
جهة المشهد الحسيني وخان الخليلي والغورية والصنادقية والاشرفية
ومثل حسن كاشف جهة الصليبة والخليفة وما في ضمن تلك
الجهات من العطف فجعلوها على ثلاث نمر فعلى النمرة الاولى ستون
ريالا وعلى الثانية اربعون وعلى الثالثة عشرون والزموا المستأجر
بدفع مقدار ما يدفع المالك والدار التي لا يجدون لها صاحبا
يأخذون ما عليها من جيرانها ثم نادوا ان كل من لا يدفع ما
عليه بعد اثنين وثلاثين يومًا من المناداة تنهب داره ويحاط بموجوده
وتتبعوا نهب الدور بادنى شبهة ولم يوجد لهم شفيع تقبل شفاعته ولا
متكلم تسمع كلمته واحتجب كبير الفرنسيس عن الناس وامتنع من
مقابلة المسلمين وكذلك قلده عظماؤهم وزاد ان عينوا لجمع تلك
الاموال رجلا قبطيا يسمى شكر الله فنزل بالناس منه بلاء شديد
فكان يمشي وصحبته عسكر من الفرنسيس وجماعة من الفعلة بايديهم
آلة الهدم فاذا دخل دارًا ولم يدفع له صاحبها ما عليه امرهم بهدمها
واقبح شي ما فعله باهل بولاق فانه كان يحبس الرجال مع النساء
ويدخن عليهم بالقطن والكتان ثم فعل باهل مصر كذلك كل

ذلك في شهر واحد وفي اخره قاموا دفعة واحدة على جميع الخانات والوكائل فختموا عليها ثم صاروا يفتحونها واحداً واحداً وياخذون ما فيها فيقوّمونه ببخس الاثمان فان بقي لهم شي من الغرامة اخذوه من جاره وان زاد شي احالوا صاحبه على جاره وهكذا حتى اخلوا جميع الخانات والوكائل من البضائع واخذوها وارباها ينظرون وكانوا اذا فتحوا خاناً او دكانا ووجدوا به اشياء ثمينة او صرة فيها دراهم او دنانير اخذها امناؤهم ووكلاؤهم بحضرة صاحبها وفي ذلك الشهر بعينه حرروا دفاتر العشور فاحصوا جميع الاشياء جليلها وحقيرها ورتبوها بدفاتر وجعلوها اقلاما يتقلد من يتعهد بدفع ما وضع عليها وجعلوا جامع الازبك الذي بالازبكية سوقا للمزايدة في تلك الاقلام فكان يجتمع الاثنان فاكثر في قلم واحد وربما تعهد الشخص الواحد باقلام متعددة ثم شرعوا في هدم الحسينية وما خرج عن باب الفتوح وباب النصر من الدروب والحارات والمساجد والحمامات والحوانيت والاضرحة فكانوا اذا دهموا داراً لهدمها لا يمكنون اهلها من نقل ما بها ولا اخذ شي من انقاضها فينهبونها ويهدمونها وينقلون الانقاض النافعة من البلاط والخشب الى عماراتهم وابنيتهم وما بقي من كسارات الخشب تجعله الفعَلة حزما ويبيعونه على الناس باغلى ثمن لعزة حطب الوقود وقت ذاك فتلف للناس من الاملاك والعقار ما لا يقدر قدره كل ذلك مع مطالبتهم بما تقرر على املاكهم ودورهم من الفرضة فكان يجتمع على

الشخص الواحد في الوقت الواحد النهب والهدم والمطالبة بالفرضة وكان لهم في المطالبة بالفرضة امور قبيحة ولما قسموا الاخطاط على الامراء ومشائخ الحارات ضموا اليها اعوانا والزموا كل امير ومشائخ حارات خطه بما خصه من الغرامة فكانوا اول ما يجتمعون بديوانهم تبتدئ الكتبة بكتابة التنبيهات وهي اوراق صغيرة باسم الشخص والقدر الذي عليه وعلى عقاره وعلى هامش الورقة حق طريق الحامل لها ثم يدفعون الى كل واحد من اولئك الاعوان جملة من تلك الاوراق فلا يفتح الانسان عينه الاّ والمعين واقف على بابه وبيده ذلك التنبيه فيعده بالوفاء فاذا قبل عذره لا يفارقه حتى ياخذ منه حق الطريق وما يفارقه الا وقد اتاه معين اخر بتنبيه اخر فيفعل معه كما فعل الاول فاذا سعى الانسان جهده حتى ادى ما عليه وظن انه تخلص من ذلك فحالا يجد خلفه معينا اخر ومعه تنبيه جديد فيقول له ما هذا فيقول ان الفرضة لم تكمل وقد جعلنا على كل عشرة خمسة او ثلاثة او ما سوّلت لهم انفسهم وهكذا من الغرامات التي هي اشد من الدواهي

ومنها انهم قرروا على مشائخ البلاد مقررات يقومون بدفعها في كل سنة زيادة على الخراج وجعلوا البلاد اعلى وهي ما كان طينها الف فدان فاكثر واوسط وهي ما كان طينها من ٥٠٠ فدان الى ما دون الالف وادنى وهي ما كان طينها دون الخمسمائة فجعلوا على الاعلى خمسمائة ريال وعلى الاوسط ثلثمائة وعلى

الدون مائة وخمسين واستملوا اسماء البلاد والكفور من القبط فاملوها عليهم حتى الكفور التي خربت من مدة سنين فربما املوا اسماء من غير مسميات ثم امروا بتوزيع مليون على ارباب الصنائع والحرف وهو مائة وستة وثمانون الف ريال فرانسا وان يدفعوها على ثلاثة اقساط كل اربعة اشهر ثلثها

هذا أنموذج ما كان منهم بمصر

فقال ابنه وما منعك البارحة في مجلس المحاورة ان تذكر لهم هذه الافاعيل التي صدرت منهم

فقال الشيخ يا بني اي فائدة في ذكر ذلك الاَّ المنافسة والمناقشة خصوصا ونحن بين اظهرهم وقد قالوا

ودارهم ما دمت في دارهم * وحيهم ما دمت في حيهم

وقيل ايضاً

ودارهم في دارهم وحيهم * في حيهم وأرضهم في ارضهم

لا سيما وهم عارفون بجميع ذلك فلا فائدة في حكايته الاَّ تغير النفوس ومن يتأمل فيما كان يصدر منهم مما ظاهره العدل والاصلاح يجد انه لا يخلو من دسيسة ومكيدة لتحصيل اغراضهم مثلا اطلاقهم الاسارى المسلمين الذين وجدوهم بمالطة فانما هي مكيدة من مكائد الحرب وذلك انهم حين وصولهم الى ثغر الاسكندرية كتبوا كتبًا وارسلوها الى البلاد التي هم قادمون عليها تطمينا لهم لئلا يتنبهوا ويحاربوهم فاوهموهم انهم قادمون من قبل السلطان

وارسلوا هذه الكتب مع هولاء الاسارى وارسلوا بصحبتهم جواسيس من مالطة يعرفون اللغة العربية ويتكلمون بلغة المغاربة فلم يمتازوا عن اسارى المسلمين فلما وصلوا الى مصر صار الجواسيس الذين ارسلوهم يوسوسون للناس ويثبطونهم ويحلون عزائمهم عن القتال فكانت هذه ايضًا مكيدة من مكائد الحرب فلما قامت الحرب بين المسلمين والفرنسيس خفي اكثر الاسرى ولم يدر اين ذهبوا وما ذهبوا في الحقيقة الاَّ الى جيش الفرنسيس ليخبروهم بما سمعوه وما شاهدوه من المسلمين

ومن افاعيلهم انهم حبسوا بعض العلماء فما اطلقوهم حتى بلغهم مجيء الوزير الاعظم بجيوشه فخرجوا من غير منازعة ولا معارضة وعمل بينهم وبين الجيش العثماني والانكليزي شروط مفصلة هي وجميع وقائعهم بمصر في بطون التواريخ وقد انقضت تلك السنون واهلها وتلك الايام نداولها بين الناس هكذا عادة الله في خلقه لا معقب لحكمه ولم يطلعنا على حكمه فكم سلط اقواما على اخرين كما دلت عليه كتب الاول وقد يسلط الفجار على الابرار وله في ذلك حكم واسرار وكان خروج الفرنسيس من ديار مصر في شهر الله المحرم سنة ١٢١٦

المسامرة الرابعة والتسعون

العقائد

وفي اليوم الثاني بعد طلوع الشمس دخل الانكليزي عند الشيخ وجلس بعد ان ادى واجبات التحية ثم قال ايها الشيخ قد عنّ لي من مجلس البارحة ان اسألك عن مسئلة خطرت ببالي فقال الشيخ ما هي فقال يؤخذ من الكلام السابق ان بين المسلمين والنصارى عداوة مع انا نسمع في كتابكم آية تدل على خلاف ذلك قال الشيخ اي آية قال لتجدن اشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين اشركوا ولتجدن اقربهم مودّة للذين آمنوا الذين قالوا انا نصارى (الاية)

فقال الشيخ صدق الله العظيم في كلامه القديم فقد قال المفسرون كالفخر الرازي وغيره في تفسير هذه الاية ان مذهب

اليهود انه يجب عليهم ايصال الشر الى من يخالفهم في الدين باي طريق كان فان قدروا على القتل فذاك والاّ فبغصب المال او السرقة او بنوع من المكر والكيد والحيلة وقد روي عن نبينا صلى الله عليه وسلم انه قال ما خلا يهوديان بمسلم الا همّا بقتله

واما النصارى فليس مذهبهم ذلك بل الايذاء في دينهم حرام كما في دين الاسلام وايضًا فان اليهود مخصوصون بالحرص الشديد على الدنيا كما هو مشاهد فيهم والحرص معدن الاخلاق الذميمة فان كل من كان حريصا على الدنيا طرح دينه في طلب الدنيا واقدم على ارتكاب كل محظور لطلب الدنيا فلا جرم ان تشتد عداوته لكل من نال مالا او جاها بخلاف النصارى فانهم في اكثر احوالهم معرضون عن الدنيا زاهدون فيها مقبلون على العبادة تاركون لحب الرئاسة والتكبر وكل من كان كذلك فلا يحسد الناس ولا يؤذيهم ولا يخاصمهم بل يكون لين العريكة سهل الانقياد للحق قريبًا الى قبوله كما قال تعالى ذلك بان منهم قسيسين ورهبانا وانهم لا يستكبرون الى اخر الآيات فهذا هو معنى مودتهم للمسلمين واما الديانة فالقدر مشترك بينهم وبين اليهود في مخالفة المسلمين بل اليهود يخالفون في الالهيات فقط والنصارى يخالفون في الالهيات والنبوات

فقال الانكليزي ان ما تقول ايها الشيخ حق فان النصارى كانت صفاتهم حميدة كما ذكرت لكن الان دخلت فيهم اضداد

تلك الصفات وتشعبت مذاهبهم واعتقاداتهم وجرت بينهم العداوة والبغضاء ولهم فلسفة قبيحة ومقالات شنيعة في الديانات والرسل والكتب السماوية

فقال الشيخ نعم يظهر بعض ذلك على وجه الرجل الفرنساوي الذي كان معنا البارحة

فقال الانكليزي هذا الرجل من ضمن الفلاسفة المتعمقين وله كتاب عمله في الاعتقادات وقد قرأت منه جملة وافرة فوجدته يذكر فيما يتعلق بالاديان ان جميع الملل مستمدة من منبع واحد وان بينها اشتراكا في القضايا الاساسية كالتوحيد فدين الاسلام مستمد من دين اليهود من حيث الاصول فقط بخلاف دين النصارى فمستمد من دين اليهود من حيث الاصول والفروع معًا فدين النصارى مبني على دين اليهودية كما تبنى الدور والقصور على قواعدها فينهدم دين النصرانية بعدم تمسكهم بكتب اليهود ومع ذلك فهو لا يعترف بوجود موسى بن عمران ويستدل على نفيه بعدم ذكره في كتب بني اسرائيل ويقول ان نبي الله داود وابنه سليمان وارميا واشعيا جميعا سكتوا عن ذكره واحكام بعضهم مناقض لاحكامه مثلا قول موسى ان الله يعاقب الابناء بظلم الاباء الى الجيل الرابع يخالفه قول حزقيل ان الابناء لا يعاقبون بظلم ابائهم ويقول ان ما يعزى الى موسى من الاحكام هو ما يعزوه الهنود الى نبي يسمى بجوس وجميع ما اثبت لموسى ثابت لبجوس فانه ولد بمصر

والقي في النيل وتربى في جبل ببلاد العرب واوحي اليه بالرسالة الى امة متبربرة وعبر البحر الاحمر بانفلاق البحر له ولم يبتل قدمه واضآت من جبينه اشعة الانوار الا ان بخوس لما ضرب بعصاه الارض لم تنبع عين ماء كما حصل لموسى في ضربه الحجر بل نبعت عين نبيذ وكانت عصاه ذات حربة مزينة باغصان العنب

وقد زعم علماء اوروبا ان بخوس سابق على تاريخ موسى فيمكن ان كلمة موسى جعلت علامة على امر كان في تلك الازمان كما استعملوا كلمة اوميروس الشاعر اليوناني في الجاهلية للدلالة على بعض الحوادث العظيمة

ويقول ان التوراة كتاب مؤلف وليس من الكتب السماوية متكئا في ذلك على قول ماري اغسطس انه لا يصح بقاء الاصحاحات الثلاثة الاولى على ما هي عليه وعلى قول اوريجين بان ما في التوراة مما يتعلق بخلق العالم امور خرافية بدليل ان كلمة براه العبرانية وهي بفتح الباء وشد الراء وسكون الهاء معناه رتب ونظم ولا يرتب احد شيئًا وينظمه الاَّ اذا كان موجودا من قبل فاستعمال هذه الكلمة في خلق العالم تقتضي ان مادة العالم كانت موجودة من قبل فتكون ازلية ويكون ملازمها وهو الزمان والمكان ازليين وحيث انهم قالوا ان المادة ذات حياة فتكون الروح ايضا ازلية لانها هي التي بها الحياة وبما ان المادة هي النور والحرارة والقوة والحركة والجذب والقوانين والتوازن فتكون الحياة والمادة كالشي

الواحد لا يمكن انفصالهما وجميع ذلك يخالف ما في التوراة

ويقول ايضاً ان الستة الايام التي ذكرها موسى لخلق العالم هي الازمان الستة التي ذكرتها الهنود والجنبهارات الستة التي ذكرها زروطشت للمجوس وان الفردوس الذي كان فيه ادم انما هو بستان الهيسبريو الذي كان يخفره التنين وان ادم هو اديمو المذكور في ايزورو يدام وان نوحا واهله هو الملك دوقاليون وزوجته بيرا وهكذا

ويبالغ في القدح في التوراة ويقول انها مبتدأة بقتل الاخ اخاه واغتصاب الفروج وتزوج ذوي الارحام بل البهائم وذكر النهب والسلب والقتل والزناء ونحو ذلك من الامور التي لا يليق ان تنسب لمن اصطفاه الله تعالى وجعله امينا على اسراره الالهية فانظر الى اجتراء هذا الرجل على نبي الله موسى عليه السلام وعلى كتاب الله التوراة مع ان التوراة هي اساس الانجيل فما يقال فيها يقال في الانجيل ولذلك يقولون ان رسالة عيسى قد نبهت عليها اليهود من قبل بقولهم انه سيجيء اليهم مسيح وكلمة مسيح ككلمة مسايس ومسايس لقب شريف باللغة العبرانية وقد لقب به اشعيا النبي كيروس ملك الفرس كما في الاصحاح الخامس والخمسين ولقب به ايضاً حزقيال النبي ملك مدينة صور ومع ذلك فلم يلتفت هذا الرجل الى شي من ذلك فقال ما قال ومن اعتقادات النصارى ايضاً ان الله تجسد في صورة عيسى وانه هو الاله وليسوا اول قائل

بهذا التجسد بل قيل قبلهم في جزاكا وبرهمة بقدس الهند وقيل في ويشنو انه تجسد خمسمائة مرة وقال سكان البيرو من امريكا ان الاله الحق تجسد في الههم منكر قباق بن الشمس وكذا سكان الاسكنديناوة قالوا ان الله تجسد في الههم اوْدين وان ولادة عيسى من بكر بتول بنفخ روح القدس يشبه قول اهل الصين ان الههم فُوَيْه ولدته بنت بكر حملت به من اشعة الشمس وكان المصريون يعتقدون ان اوزريس ولد من غير مباشرة احد لامه

وقول النصارى ان عيسى مات ودفن ثم بعث ورفع الى السماء حيًّا قال بمثله قبلهم المصريون في اوزريس المصري وفي اورونيس من اهالي فنيكية وفي اوتيس من اهالي فريجية الاَّ انهم لم يقولوا برفعه الى السماء وكما قيل ان اودين كان قد بذل نفسه وقتلها باختياره بان رمى نفسه في نار عظيمة حتى احترق وفعل ذلك لاجل نجاة عباده واحزابه فكذلك النصارى يعتقدون ان حلول الاله في عيسى وارساله وموته انما كان لاجل فداء الجنس البشري وتخليصه من ذنب الخطيئة الاولى خطيئة ادم وحواء واما ادريس النبي فقد رفع الى السماء بدون ان تكفر عنه الخطيئة ولا شك ان هذا خرافة ولهم كلام كثير من هذا القبيل يطول شرحه ولا فائدة في ذكره

فقال الشيخ نعوذ بالله من هذا الضلال الذي لا ينشا مثله

عن عاقل ولكن من يضلل الله فلا هادي له ومن يهدي الله فما له من مضل

قال الانكليزي بل منهم من ينكر جميع الكتب السماوية ويقول انها من تأليف البشر جمع فيها مؤلفوها حوادث القرون الخالية

فقال الشيخ مثل هولاء القوم لا تجوز مجالستهم ولا معاملتهم ولا مخالطتهم فانهم ينكرون الرسل والكتب وينقصون الاله الحق سبحانه فالحمد لله الذي فصلنا عن ذلك الرجل بسلامة

ثم ان العربة وصلت بهم الى المحل فنزل الشيخ ودخل عند الخواجا وقال اريد ان اقف على ما يقول النصارى في نبي الله عيسى بن مريم وفي الاداب النصرانية فقال الخواجا ان اغلب النصارى يقولون ان العلماء الاولين مجمعون على ان شريعة عيسى ليست الاّ متممة لشريعة موسى وموضحة لما اشكل من احكامها حتى قال بعضهم ان عيسى والحواريين كانوا يهودا واستدلوا على ذلك بما نقل عن الحواري بولص انه ختن تلميذه تيموته في مدينة ليسترة وحث الرومانيين على الختان وانه قال لهم ان اليهودي الحق من كان يهوديا باطنا وظاهرًا وبقول الحواري جاك (يعقوب) للحواري بولص كما في الباب التاسع عشر من كتاب اعمال الحواريين فلتعرف جميع الناس انك على شريعة موسى وبقول بولص لغوسطس في الباب الخامس والعشرين من ذلك الكتاب اني لم

يحصل مني ما يخالف شريعة موسى ولا قوانين النصرانية فهذا اصل دينهم واعتقاد حواريهم ومتقدمي علمائهم فلم يقل احد منهم بألوهية عيسى ويدل على ذلك ما نقله بعضهم عن ماري بولص انه قال في الباب الخامس من رسالته الى الرومانيين ان نعمة الله قد نشرت علينا من الاحسان الموهوب لانسان واحد وهو عيسى المسيح وقال في الباب الثامن من هذه الرسالة نحن شركاء المسيح في وراثة احكام الله

وقال في رسالته للقليبيين تخلقوا باخلاق عيسى فانه كان على صورة الرحمن ولم يطمع قط في مساواته وقال ايضًا لاهل افسوس في الباب الاول من هذه الرسالة اللهمّ ربنا ورب المسيح عيسى جد علينا بعقل الحكمة وللعبريين في الباب الثاني انكم قد صيرتم عيسى اقل من الملك بيسير وكذلك بما قاله اوريبوس اسقف مدينة قيصرية في الباب الاول من تاريخ امناء دين النصرانية انه لا يعقل ان الوجود يعني وجود الله يحل في صورة بشرية ونحو ذلك من العبارات المنسوبة الى الحواريين واتباعهم المؤمنين فلم يقل احد منهم بألوهية عيسى ولا خطرت له على بال

فقال الشيخ هذا هو كلام العقلا ولعل هولاء هم الذين مدحهم الله في كتابه وشبه بهم نبينا بعض اصحابه

واما تهوّدهم في الدين فلعلهم ارادوا الرجوع الى الحق واليقين وهذا شي لا محذور فيه اذا عرفوا معناها وعملوا بمقتضاها

فقال الانكليزي الاّ انهم بعد موته بثلثمائة وخمس وعشرين سنة شمسية دبّ فيهم القول بألوهيته وذلك ان قسطنطين الاول جمع روساء الديانة في مدينة نيقه وحملهم على القول بها فاتبعوه الا ثمانية عشر اسقفا فلم يتحولوا عن اعتقادهم ثم بعد ذلك باربع وثلثين سنة اجتمع روساء الديانة ثانيًا بمدينة ريميني وتكلموا في هذا المعني فاتفق منهم اربعمائة اسقف على عدم الوهيته واتبعهم الباقون ومكثوا على ذلك نحو اثنتين وعشرين سنة ثم اجتمعوا مرة ثالثة بمدينة القسطنطينية سنة ٣٨١ ميلادية فاستقر راي الجمعية على الوهيته وبقي الحال على ذلك الى اليوم

فقال الشيخ هذه امور لا نستطيع الموافقة عليها ولا شك انه كان وقتئذٍ لروساء النصارى آراب ومقاصد في تقريرها ولو تاملوا اوفى تامل لرأوا الادلة ناطقة بان الله تعالى واحد احد يستحيل عليه الحلول والاتحاد والتعدد ومشابهة خلقه في امر من الامور وهو حي لا يموت وقادر لا يعجز لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار وهو اللطيف الخبير وانما عيسى عبد من عبيده خلقه بقدرته التامة من غير اب كما خلق آدم من تراب من غير اب ولا ام وافاض عليه النبوة والرسالة وقد انطقه الله بالحق وهو في المهد فقال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًا وجعلني مباركا اينما كنت واوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيًا ويوم القيامة يتبرأ منهم ومن مقالتهم هذه فيقول سبحانك ما يكون لي ان

اقول ما ليس لي بحق ثم يقول ما قلت لهم الا ما امرتني به ان اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم

وبالجملة فبطلان هذا المذهب واضح للعيان ومستغنٍ عن البيان وما احسن ما قاله البوصيري في همزيته تبكيتا لهم وتنكيتا عليهم فمن ذلك قوله

أالهٌ مركب ما سمعنا * باله لذاته اجزاء

الى ان قال

أهو الراكب الحمار فياو يح الهٍ يمسه الاعياء

فقال الانكليزي وما الذي ترونه يا معشر المسلمين في امر عيسى

فقال الشيخ ان الذي يلزم اعتقاده في امر عيسى على ما اخبر به نبينا الصادق المصدوق في القرآن والسنة انه ابن مريم بنت عمران واسم امها حنة فكانت حنة لا تلد فنذرت ان رزقها الله ولدًا جعلته من سدَنَةِ بيت المقدس اي خدمته فحملت حنة ومات زوجها عمران وهي حامل فولدت بنتًا وسمتها مريم ومعناها بلغتهم العابدة ثم حملتها واتت بها الى بيت المقدس ووضعتها عند الاحبار وقالت لهم دونكم هذه المنذورة فتنافسوا في تربيتها لان اباها وهو عمران كان من أئمتهم فقال زكريا انا احق بها لان خالتها زوجتي فاخذها وضمها الى ايساع خالتها فلما كبرت مريم افرد لها زكريا غِرفة فلما بلغت من العمر ثلاثة عشر سنة ارسل الله تعالى جبريل

فنفخ في جيبها فحبلت بعيسى وولدته ببيت لحم وهي قرية قريبة من القدس سنة ٣٠٤ من تاريخ الاسكندر فلما جاءت مريم الى قومها بعيسى تحمله قالوا لها لقد جئت شيئًا فريا واخذوا ليرجموها فتكلم عيسى وهو في المهد فقال اني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًا وجعلني مباركا اينما كنت فلما سمعوا كلامه تركوها ثم ان مريم اخذت عيسى وسارت به الى مصر فاقامت به اثنتي عشرة سنة ثم عادت به الى الشام ونزلا الناصرة وبها سميت النصارى فاقام بها عيسى حتى بلغ ثلاثين سنة فاوحى الله تعالى اليه فسار الى الاردن وهو النهر المسمى بنهر الشريعة فاغتسل فيه وابتدأ بالدعوة وهو ابن ثلاثين سنة لستة ايام خلت من كانون الثاني لمضي ثلاث وثلاثين وثلثمائة للاسكندر

واظهر عيسى عليه السلام المعجزات فاحيى ميتا يقال له عازر بعد ثلاثة ايام من موته وجعل من الطين طائرًا قيل هو الخفاش وابرأ الاكمه والابرص وكان يمشي على الماء ويلبس الصوف والشعر وياكل من نبات الارض وانزل الله عليه المائدة وسبب نزولها ان الحواريين الذين اتبعوه وكانوا اثنى عشر رجلا قالوا له هل يستطيع ربك ان ينزل علينا مائدة من السماء فسأل عيسى ربه عز وجل فانزل عليه سفرة حمراء بين غمامتين غمامة فوقها وغمامة تحتها فنزلت وهم ينظرون اليها حتى سقطت بين ايديهم فبكى عيسى عليه السلام وقال اللهم اجعلها رحمة ولا تجعلها مثلة ثم قال لهم

يقم احسنكم عملا يكشف عنها فقال شمعون رأس الحواريين انت اولى بذلك فقام عيسى وتوضأ وصلى وكان عليها منديل فرفعه وقال بسم الله خير الرازقين فاذا سمكة مشوية تسيل دما وعند راسها ملح وعند ذنبها خل وحولها الوان البقول ما خلا الكراث ومعها خمسة ارغفة على واحد زيتون وعلى الثاني عسل وعلى الثالث سمن وعلى الرابع جبن وعلى الخامس قديد فقال شمعون ياروح الله أ من طعام الدنيا ام من طعام الاخرة فقال ليس منهما ولكنه شي خلقه الله بقدرته فقال الحواريون ياروح الله لو اريتنا من هذه الآية آية اخرى فقال يا سمكة احيي باذن الله فاضطربت ثم قال لها عودي كما كنتِ فعادت مشوية ثم رفعت المائدة وقيل مكثت تنزل يوما وتغيب يوما الى اربعين ليلة

فقال الانكليزي ان اليهود يزعمون انهم قتلوه وبعد قتله صلبوه

فقال الشيخ كذبوا والله ما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفي شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله اليه ليزيده شرفا لديه وذلك انه لما اعلمه الله انه سيرفعه اليه دعا الحواريين وصنع لهم طعاما وقال لهم احضروني الليلة فان لي اليكم حاجة فلما اجتمعوا عشاهم وقام بخدمتهم فلما فرغوا من الطعام اخذ يغسل ايديهم ويمسحها بثيابه فتعاظموا ذلك فقال من رد عليّ شيئًا مما اصنعه فليس مني فتركوه

حتى فرغ ثم قال لهم انما فعلت هذا بكم ليكون لكم اسوة بي في خدمة بعضكم بعضا واما حاجتي اليكم فتدعون الله لي ان يؤخر اجلي فلما نصبوا انفسهم للدعاء اخذهم النوم فجعل عيسى يوقظهم ويقول ما تصبرون لي ليلة فقالوا ما ندري ما لنا لقد كنا نسمر فنطيل السمر وما نقدر عليه الليلة فقال يذهب بالراعي وتفترق الغنم وليكفرن بي احدكم قبل ان يصيح الديك وليبيعني احدكم بدراهم يسيرة ولياكلن ثمني

وكانت اليهود قد جدت في طلبه فذهب رجل من الحواريين اسمه تطليانوس الى فيلاطوس الملقب هيرودوس وكان رئيسا على اليهود اذ ذاك وقال ما تجعلون لي اذا ادللتكم على المسيح فجعلوا له ثلثين درهما فاخذها وذهب بهم ليدلهم عليه فرفع الله عيسى اليه والقى شبهه على الذي دلهم عليه فاخذوه وربطوه وجعلوا يقودونه بحبل ويقولون له انت تزعم انك تحيي الموتى أفلا تخلص نفسك ثم قتلوه وصلبوه

وبين رفع عيسى ومولد النبي صلى الله عليه وسلم خمسمائة وخمس واربعون سنة وعاشت مريم امه نحو ثلاث وخمسين سنة لانها حملت به وهي بنت ثلاث عشرة سنة وعاشت معه ثلثًا وثلثين سنة وبقيت بعد رفعه ست سنين أفمن كانت العبودية من صفاته والاكل والشرب من ضروراته يعقل انه اله او يتصور انه ابن الله مع اجماع جميع العقلا علي عدم الوهيته واتفاق جمهور الفلاسفة

والحكماء على عبوديته واظن ان ضرر الخلق على العموم انما يأتي لهم من قبل من تصدى من غير استعداد لنشر العلوم ممن قال منهم بحلول الوجود المطلق فيما عداه وبنى على هذا القول الخطاء ما بناه فقال ان الانسان اشرف انواع الحيوان فهو اولى بالحلول واستنتج من ذلك ان الاله اتحد بالصورة البشرية وهو اعتقاد فاسد ورأي عن الصواب حائد لا يقبله عقل ولا يساعده نقل وايضاً لا يلزم على القول بالحلول الذي زعموه بالنسبة لعيسى ان يقال الانسان اله او الاله انسان هذه نتيجة هذا الزعم الغريب الظاهر الفساد لعقلاء العباد

ومن الغريب تقدم الاوروباويين في كثير من الفنون والصنائع مع بقائهم على هذا الاعتقاد الفاسد فلعل المانع لهم من رفضه ما يسمونه بالبوليتيقة فلولاها لم يبقَ له عندهم اثر بالكلية واغرب من هذا كله قدحهم في الاسلام واهله مع عدم معرفتهم بشي منه من اصله اذ لو تاملوا الاشارات القرآنية وما ورد من الآثار النبوية لعثروا بالتمدن الذي يطلبونه وقد حرموه واهتدوا الى ميزان العدل الذي يحاولونه وما اقاموه ولعل الحامل لعلمائهم على استمرار هذا الرأي بينهم رغبتهم في بقاء البابا وية التي معناها السلطنة على جميع اهل الارض لانهم يزعمون ان البابا نائب عن الاله الذي يدعونه فاين هذا من دين الاسلام المبني على ان الله واحد في ذاته وفي صفاته وفي افعاله واحد لا من قلة وموجود لا من علة لا يحيط به

مكان ولا يشتمل عليه زمان ليس منفصلا عن شي ولا ينفصل عنه شي ولا يحل في شي وليس مثله شي وهو الخالق لكل شي الغني عن كل شي ارسل محمدًا صلى الله عليه وسلم بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره الكافرون فعم بدعوته المشارق والمغارب ولم يفرق في امره ونهيه بين الاجانب والاقارب لتقوم الحجة وتضح المحجة وليهلك من هلك عن بينة ويحيي من حيي عن بينة فمنهم من اهتدى واجاب ومنهم من ضرب بينه وبين الهداية حجاب ليميز الخبيث من الطيب واهل الجنة من اهل جهنم وكل ذلك لحكم واسرار هو بها اعلم وهكذا كان في كل امة خلت رسول يدعوهم الى الله واعتقاد ان لا اله سواه كما ارشدنا الى ذلك القرآن العظيم المنزل على عبده ورسوله الكريم سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وشرف وعظم

فقال الانكليزي هل عندكم علم بعدد الانبياء والرسل

فقال الشيخ نعم الآ ان ما يجب علينا معرفته على التفصيل خمسة وعشرون رسولا وهم المذكورون في التنزيل وجمعهم بعضهم في قوله

حتم على كل ذي التكليف معرفة
بانبياء على التفصيل قد علموا
في تلك حجتنا منهم ثمانية
من بعد عشر ويبقى سبعة وهمُ

ادريس هود شعيب صالح وكذا
ذو الكفل آدم بالمختار قد ختموا

ومنهم اولو العزم خمسة جمعهم بعضهم في قوله

محمد ابرهيم موسى كليمه
وادم عيسى هم اولو العزم فاعلم

فعيسى عليه السلام من اولي العزم لصبره على اذى قومه ورئيسهم هو نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وكتابه مبين ومصدق لما قبله من كتب الله تعالى

وقد اخترع النصارى اشياء لم يخبرنا عنها كتابنا وذلك كالتعميد الذي تنسبه النصارى الى عيسى بن مريم فما هو وما سببه وما وجه نسبته اليه

فقال الانكليزي التعميد هو الغسل وذلك انهم يغمسون اولادهم في ماء المعمودية يعتقدون تطهيرهم به كالختان لغيرهم ويامرون كل من اراد ان يدخل في دينهم بالاغتسال فيه

واما نسبته الى عيسى فلم يثبت انه عمد احدا في حياته ولا امر احدا به وهذا التعميد وان اشتهرت نسبته اليهم لم يكن خاصا بهم بل كانت الهنود من قبلهم يغتسلون في نهر الكنك وكذلك قدماء المصريين كان كل من اراد منهم ان يتلقى اسرار (ماري متراس) يعمد الى نهر او بئر فيغتسل فيه وليس ذلك اول شي اختلقوه اذ منه قولهم فيمن اذنب انه لا تقبل توبته حتى يعترف

للقسيس بخطيئته اذ لم يثبت ان عيسى الزم احدًا بالاقرار له بذنبه بل هذه عادة جارية من عهد ايزيس احد الهة المصريين وغيره من الهة اليونانيين وكذلك اليهود كانت معتادة على الاعتراف بذنوبهم لاحبارهم

واما الاعتراف بالقضاء والقدر والجنة والنار فاول من تكلم في ذلك سقراط وتبعه افلاطون فقسم الارواح الى طاهرة وغير طاهرة وقسم غير الطاهرة الى ما يمكن تطهيرها بالنار وما لا يمكن تطهيرها اصلا

واما التثليث الذي يقولون به فانه ما اتاهم الاّ من كلام افلاطون التابع فيه لتيمة احد علماء لوتريس ثم سرى منه الى من بعده حتى وصل الى اليهود وهم الذين لقنوه للنصارى وكذلك زي اهل التدين والجثي على الركب ووضع القسيسين ايديهم على رؤس الناس وقرأتهم بعض كلمات للتبرك بها كل ذلك كان موجودا عند قدماء المصريين

ومن جملة دعوى النصارى قولهم ان الحكمة لم يتكلم بها احد قبلهم مع انه قد سبقهم الى الكلام عليها سقراط وكنفوشيوس وانطونين وارسطو ويوسيد وغيرهم وكذلك الفلاسفة الاسطوانيون اي الذين كانوا بالاسطوانة وهي مدرسة زينون الفيلسوف فكل هولا كانوا قبلهم وقد تكلموا بها وحملوا الخلق عليها حتى صناعة تركيب الالفاظ وتاليف الكلام وكان الرومانيون قبلهم يعاقبون على

الزناء وكذلك كان للسياسيين قوانين في عقاب كل من ارتكب ذنبًا او خطيئة او تكلم بما لا ينبغي فكل هولاء كانوا جميعًا في زمن لا يدرون فيه ما النصرانية ولا اهلها وكذلك قولهم بالعفو عن المسيء فانه قد سبقهم اليه ايضًا فيتاغورس وكان قبل المسيح بنحو ستمائة سنة حيث قال ما معناه لا تجتهدوا في الانتقام من اعدائكم بل اجتهدوا في ان تصيروهم من احبابكم وكذلك قولهم لا تفعلوا مع غيركم ما لا تحبون ان يفعل بكم فان زروطشت قال مثل ذلك وقد كان قبل حرب تروادة بدهر طويل حيث قال افعل مع غيرك ما تحب ان يفعل معك واذا شككت في قبح شي او حسنه فامسك عنه وكذلك قال كنفوشيوس مثل ذلك وكان قبل المسيح بخمسمائة وخمسين سنة وكله ماخوذ من كلام هونغ حيث قال ما معناه انسَ المسيء واسأته ولا تتفكر الا في الطيبات وفعل الخيرات

وقال سينبق اذا اردت ان يكون الله راضيا عنك فكن عادلا وكفى بالمرء تعظيما لله ان يتبع اوامره

وقال سليمان عليه السلام اول الحكمة مخافة الله فاذا علمنا ذلك ظهر لنا ان النصرانية لم تأتِ بشي كان معدوما عند من قبلها الا ان عندهم امرين لا افهم سرهما ولم اجد احدا من قدماء المؤرخين قالهما

فقال الشيخ وما هما فقال انهم ياكلون فطيرًا يسمونه قربانا

ويعتقدون انه لحم المسيح ويشربون شرابا يسمونه اذكارًا يعتقدون انه دمه

فقال الشيخ ان دين النصرانية ليس مذمومًا في الاصل بل هو شريعة من شرائع الله تعالى وكذلك دين اليهودية ولما جاء الاسلام نسخ جميع الشرائع ثم ان اكابر النصارى في القديم غيّروا في دينهم وبدلوا وحرفوا فقد عرض له البطلان من جهتين من جهة نسخه بالشريعة المحمدية ومن جهة التغيير والتبديل الذي وقع فيه من علماء الديانة

فقال الانكليزي نعم جرت العادة بان صلاح الامم وفسادها انما يكونان بصلاح الروساء وفسادهم وعندنا روساء الديانة كثيرون ولكل منهم اغراض يريد تحصيلها وترى لهم حثًا شديدا على التبرك بالصليب وتقريب القرابين ونحو ذلك لكن لا يخلو ذلك عن الاغراض

فقال الشيخ اني اراك تتعقبهم في امور كثيرة وذلك من انصافك وشدة نظرك وكان ابن الشيخ مصغيا فقال ما معنى الصليب وما معنى القربان وما الفرق بين الكنيسة والدير ونحو ذلك

فقال الشيخ لقد رأيت في بعض الكتب كثيرًا من عوائدهم وعقائدهم وعرفت معابدهم ومراتب روسائهم فمن ذلك ان اصل تبرك النصارى بالصليب وهو شي ذو خطوط اربعة يجمع اصلها المحور انهم اعتقدوا ان الذي اخذته اليهود وصلبته هو المسيح وان

صلبه كان على شي بهذه الصفة وانهم سقوه الخمر في حنك الخنزير فلما قام حرض على حمل الصليب وان القربان رغيف مستدير عليه صلبان كثيرة يخبز في كل بيت كل يوم احد من الصوم الكبير ويحمل الى الكنيسة فاذا فرغت الصلاة اخذ القسيس بعضه وفرق بعضه فتنصرف به النصارى فيفطرون عليه كل يوم الى الجمعة وهكذا وان من اسماء روسائهم الجاثليق وهو الرئيس بالنسبة الى السلطنة الظاهرة ومنها المطران وهو الفقيه الورع المستصحب للبس الصوف الاسود واصل هذا الترتيب عندهم ان القارئ للانجيل من اول وهلة يقال له شماس فان اتقن حفظه وفهمه صار قسيساً ويدوم على ذلك ما دام عنده زوجة فان ماتت زوجته ولم يتزوج غيرها صار مطرانا وان تزوج غيرها سمي سالخ القسوسية وخرج عن مراتب العلم فان تنزه المطران عن الذفر وما يخرج من الارواح صار بتركا على مذهب الارمن واما الروم واليعاقبة والنسطورية فلا يكون عندهم بتركا الا من تنزه عن النساء وعن اكل الارواح وما يخرج منها من اول عمره الا العسل والسمك لانه خليفة المسيح وطاعة هولاء فرض واما الاسقف والراهب وغيرهما فاسماء للمتعبدين خاصة

واما المعابد فالبيعة هي المعبد الصغير غير المرتفع والدير المعبد الكبير الكثير المرافق والمحاريب والكنيسة ما اشتملت على عواميد الاناجيل ولم يرفع بناؤها والصومعة مكان رفيع دقيق الاعلى واسع

الاسفل والقلة مثلها الا انها لا تسع اكثر من واحد والزنار منطقة تشد في الخصر وقت الصلاة مشتملة علي صليب اذا شدت كان على السرة ولولا ان كلامنا في ذلك يشبه الفضول مع وجود اهل ملتهم لزدتك كثيرًا من امور ديانتهم

فقال الانكليزي وهل كتب المسلمين اكثر من كتب الفرنج اني لا اظن ذلك فان للفرنج تأليف عديدة في فنون شتى وقد اطلعوا على كثير من كتب المسلمين ومارسوها حتى تفسير القرآن وصحيح البخاري ومتن خليل وغير ذلك

فقال الشيخ اسرار الكتب لا توخذ الاّ عن اهلها الذين تلقوها مسلسلة واحدًا بعد واحد الى النبي صلى الله عليه وسلم وذلك ليس حاصلا الاّ في علماء الاسلام الذين استنارت بصائرهم فادركوا معاني الكتب واسرارها نعم قد فرط علماء المسلمين في هذه الازمان في فنون شتى حتى جهلوها واتقنها غيرهم كفن التاريخ والرياضيات ونحو ذلك فلو انهم التفتوا لذلك واتقنوه لانقادت لهم جميع الامم ومعلوم ان العلم على اقسام علم للاخرة وعلم للدنيا وعلم لهما معا فلو اتقنوا جميع العلوم لكان خيرًا لهم ومع ذلك فعلماء الدين هم الممدوحون المثني عليهم في كتب الله تعالى وعلى لسان رسله وكفى العلم واهله شرفا قوله تعالى انما يخشى الله من عباده العلماء وقوله تعالى هل يستوي الذين يعلمون والذين لا يعلمون وقوله تعالى فاسئلوا اهل الذكر ان كنتم لا تعلمون وقول النبي صلى الله عليه وسلم مثل

العلماء في الارض كمثل النجوم يهتدى بهم في ظلمات البر والبحر وقوله فضل العالم على العابد كفضلي على ادناكم وقوله ان الملائكة لتضع اجنحتها لطالب العلم رضىً بما يصنع وقوله ما اكتسب مكتسب مثل فضل علم يهدي صاحبه الى هدىً ويرده عن ردىً ولكن للعلم حقوق وآداب لو ذكرت لك بعضها لوقعت في العجب العجاب منها قوله صلى الله عليه وسلم العلماء امناء الرسل ما لم يخالطوا السلطان او يداخلوا الدنيا وبالجملة فمن اطلع على اخبار المتقدمين وما كتب فيها من حين ظهور هذا الدين وجد ان لا نور لعلم الاّ والقرآن مصباحه ولا مطلب لمعرفة الاّ وهو مفتاحه فهو الذي نشر راية العز على جميع العلوم والمعارف واستظلت بظل لوائه غرائب الفنون واللطائف اذ بظهوره زالت من القلوب الاحن وانقطعت من بين الناس اسباب الفتن لجريانه على قانون مقبول قد تلقته القلوب السليمة بالقبول ومن تتبع احكام الملل وتامل في قوانين الاول وجد ان لا موجب للنزاع على الاطلاق الاَّ ما فرق بين اليهود والنصارى من الاختلاف والشقاق فان فرق النصارى متشعبة جداً مع شدة بغض بعضهم لبعض فضلا عن بغض اليهود لجميع فرق النصارى وبالعكس حتى قالت اليهود ليست النصارى على شي وقالت النصارى ليست اليهود على شي وقد جاء القرآن فيه تبيان كل شي وهدى ورحمة وليس في احكامه اختلاف ولا تناقض

فقال الانكليزي أليس عندكم مذاهب مختلفة كمذهب مالك والشافعي والحنفي والحنبلي والليث والثوري وغير ذلك فضلا عن اختلاف اهل كل مذهب في مسائل مذهبهم

فقال الشيخ كلهم من رسول الله ملتمس ليس بينهم تباين كلي بل احكامهم كفروع الشجرة التي اصلها واحد

فقال الانكليزي فما بال مساجدكم لا تحلونها ولا تزينونها كما تحلى كنائس النصارى وبيع اليهود

فقال الشيخ قد نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن زخرفة المساجد لئلا تلهي المصلي عن الخشوع وحضور القلب مع الله تعالى ومع ذلك فهي في غاية الاحترام فلا يدخل فيها احد بالنجاسة ولا القاذورات ولا يتكلم فيها بلغو الحديث ولا يدخلها جنب ولا حائض ولا نفساً ولا يشهر فيها السلاح ولا ترفع فيها الاصوات ولو بالعلم فهي مع احترامها وتعظيمها لا تليق زخرفتها ولا تشييدها لان المقصود فيها التذلل والخشوع ولذلك ورد ابنوا مساجدكم جمًا يعني بلا شراريف وابنوا مدائنكم مشرفة وكان موضع مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة قبوراً للمشركين وخرباً ونخلا فامر بالقبور فنبشت وبالخرب فسويت وبالنخل فقطع فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا عضائده الحجارة وقال اجعلوه كعريش موسى وكانت تصل الايدي الى سقفه ولما ولي عمر ابن الخطاب الخلافة وامر بتجديده قال للقيم على العمارة اكنّ الناس من الشمس والمطر

واياك ان تحمّر او تصفر فتفتتن الناس فاذا فرغت من العمارة فاجعل فيه القناديل الاّ انه صلى الله عليه وسلم كان يامر بتطييب المساجد وتنظيفها وتجميرها وصيانتها من الروائح الكريهة ويقول ان المسجد لينزوي من النخامة كما تنزوي الجلدة في النار ويقول جنبوا مساجدكم صبيانكم ومجانينكم وصناعكم وبيعكم وشرائكم وخصوماتكم ورفع اصواتكم واقامة حدودكم وسل سيوفكم ولا تتخذوها سوقا ولا طريقًا ولا تمروا فيها بلحم نيئ

فقال الانكليزي اني ارى لجميع كلامك حلاوة وطلاوة ولا يمل من سماعه ولا يسأم من استرجاعه وقد ذكرت جملة من احكام الاسلام كالصلاة والزكاة فهل لك ان تفيدني عنها شيئاً

فقال اما الصلاة فهي قربة ذات احرام وسلام او سلام فقط وهي افضل الاعمال بعد الشهادتين وهي عروس العبادات اي تشبه العرس في اشتمالها على القرآن والدعا والذكر والتسبيح والتحميد والركوع والسجود والخشوع والوقوف بين يدي الله تعالى وغير ذلك من العبادات الكثيرة في عبادة واحدة كما ان العرس يشتمل على اصناف الماكل والالعاب والفرح والزينة والنزاهة ولها شروط صحة وشروط وجوب واركان وسنن وفضائل

واما الزكاة فهي مال مخصوص يؤخذ من مال مخصوص اذا بلغ قدرًا مخصوصا في زمن مخصوص ويصرف في جهات مخصوصة

فقال الانكليزي وما ذلك قال اما المال المخصوص المأخوذ

فهو ربع العشر في العين الذهب والفضة والعشر كاملا في الحبوب اذا سقيت بالسيح ونصف العشر ان سقيت بالآلات وشاة واحدة في اربعين شاة الى اخر ما هو مفصل في محله واما المال المخصوص الماخوذ منه فهو العين والحرث والماشية واما القدر المخصوص فهو النصاب وهو عشرون دينارًا في الذهب ومائتا درهم في الفضة وخمسة اوسق في الحبوب الى اخر ما هو مفصل واما الزمن المخصوص فهو الحول او مجيئ الساعي في الماشية او طيب الحبوب واما الجهات المخصوصة فهي الاصناف الثمانية المذكورة في الاية انما الصدقات للفقراء الخ وشرعة الزكاة لتطهير الاموال والانفس ولها شروط واركان واداب يطول شرحها منها انها تخرج من جنس المال المزكى فلا يجزيء جنس عن غيره ولا رديئ عن جيد ولا سقيم عن سليم قال تعالى لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون وقال تعالى يا ايها الذين امنوا انفقوا من طيبات ما كسبتم ومما اخرجنا لكم من الارض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون

واما الصوم فهو الامساك عما يصل الى الجوف او الرأس من قبيل الفجر الى غروب الشمس وله شروط واركان وآداب ومن فضائله انه يضعف الشهوة ويهذب الخلق ويصفي الباطن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء اي قاطع ولم يجب منه في كل سنة الا شهر واحد وهو شهر رمضان ولا يقوم

صوم غيره مقامه ويحرم عندنا صوم خمسة ايام من كل سنة وهي يوم عيد الفطر ويوم عيد الاضحى والثلاثة التي بعده وتسمى ايام التشريق ومن حكمه مشروعية التشبه بالملائكة الكرام عليهم الصلاة والسلام فينبغي فيه العزلة عن الناس والاشتغال بالقرآن والصلاة والاذكار ومن ادابه تعجيل الفطر وتأخير السحور ومنها الافطار على وتر من الرطب او التمر وما احسن ما قيل في ذلك

فطور التمر سنه
رسول الله سنه
ينال الاجر عبد
يحلي منه سنه

ولا ينبغي ان يجعل شهر فكاهة ولعب

واما الحج فهو قصد بيت الله الحرام لاداء فريضة الاسلام ولا يجب الاَّ مرة واحدة في العمر ومحل وجوبه ما لم يمنع من ذلك مانع كفقر او انقطاع طريق او مرض او عدم رفيق قال تعالى ولله على الناس حج البيت من استطاع اليه سبيلا

فقال الانكليزي لا يخفى على حضرة الشيخ ان الله لا مكان له فلم خصت هذه العبادة بهذا المكان دون غيره

فقال الشيخ هكذا اقتضت الحكمة الازلية والارادة الربانية قال بعضهم

اني اطلعت على البقاع وجدتها

تشقى كما تشقى الرجال وتسعدُ

وقد روي ان الله تعالى لما اهبط ادم من الجنة قال له اني مهبط معك بيتا يطاف حوله كما يطاف حول عرشي ويصلى عنده كما يصلى حول عرشي فلما كان زمن الطوفان رفع فكان الانبياء يحجون ولا يعلمون مكانه فلما بوأه الله لابراهيم بناه من خمسة اجبل حراء وثبير ولبنان وجبل الطير وجبل الخير وكما تتفاضل المنازل الروحانية كذلك تتفاضل المنازل الجسمانية وهيهات ان يساوي الخلق بين دار بناؤها لبن التراب والتبين ودار بناؤُها لبن العسجد واللجين ففرق بين مدينة اكثر عمارتها الشهوات ومدينة عمارتها الآيات البينات فقد يجد الانسان قلبه في مكان اكثر مما يجده في غيره وذلك ليس للاجرّ والتراب بل للاجر والثواب او مجالسة الاتراب كما قال

اقبّل ارضًا سار فيها جِمالها * فكيف بدارٍ دار فيها جمالها

وقد طاف بهذا البيت مائة واربعة وعشرون الفًا من الانبياء سوى ما لا يعلمه الا الله من الملائكة والاولياء فهو البيت الذي اصطفاه الله على سائر البيوت وله سر الاولية وقد اثنى عليه ذو العزة والجبروت قال تعالى ان اول بيت وضع للناس للذي ببكة مباركا وهدىً للعالمين فيه آيات بينات مقام ابرهيم ومن دخله كان امنًا وقال صلى الله عليه وسلم خير بلدة على وجه الارض

واحبها الى الله مكة الى غير ذلك من الاثار الدالة على فضلها فوالله لولا العوائق الشاغلة لبسطت لك متون اياتها ونشرت عليك فنون دلالاتها وكان قد حان وقت القيام فاستأذن الشيخ وقام وهو يكرر هذا الكلام

يا رحمة الله للعبادِ * اودعك الله في الجهادِ
يا بيت ربي يا نور قلبي * يا قرة العين يا مرادي
يا كعبة الله يا حياتي * يا منهج السعد يا رشادي



المسامرة الخامسة والتسعون

نوادر

ثم دخل مخدعه ونام حتى الصباح فافاق فدخل عليه ابنه فقال له اين كانت غيبتك وفيما انقضت ليلتك قال له كنت مع يعقوب والخواجا الطلياني في غرفة بجواركم فوجدنا بها كثيرًا من رجال ونساء وفيهن صاحبة المنزل وهي التي اخذتني واجلستني بجوارها والذي اخرني الى هذا الوقت أني رأيت بعضهم يحاجي بعضا بمسائل معماة منها ما كنت افهمه ومنها ما لم اتعقل معناه فقال له والده هل بقي منها في ذهنك شي قال نعم من ذلك ان احدهم قال لثلاثة ممن كان هناك لياخذ كل واحد منكم ورقة اي من الاوراق المعدة للهو واللعب بشرط ان لا تزيد نقطها المرسومة عليها عن تسع فاخذ كل واحد ورقة ثم قال لمن اخذ اولا ضعِّف عدد

نقط ورقتك ثم اسقط من المجموع واحدا واضرب الباقي في خمسة ثم زد على المجموع خمسة ثم اضف الى الجميع رقم ورقة الشخص الثاني ثم ضعف الحاصل واسقط منه واحدا او اضرب الباقي في خمسة ثم اضف الى الجميع رقم ورقة الشخص الثالث ففعل كما قال ثم قال له فما قدر المجموع فقال كذا فقال حينئذٍ يكون لكل واحد من الثلاثة بقدر عدد النقط الذي كان على ورقته فعجبنا من ذلك فلما رأى الطلياني تعجبي قال لا عجب لان ورقة الاول كان عليها ثلاث نقط وورقة الثاني اربع والثالث سبع فباسقاط واحد من ستة التي هي ضعف الثلاثة صار الباقي خمسة وبضربه في خمسة صار الحاصل خمسة وعشرين وبزيادة خمسة يكون الحاصل ثلاثين وباضافة رقم الثاني عليه وهو اربعة يكون الحاصل اربعة وثلاثين فاذا ضعفته صار ثمانية وستين فاذا اسقطت واحدا بقي سبعة وستون فاذا ضربته في خمسة كان المجموع ثلاثمائة وخمسة وثلاثين وبزيادة خمسة يكون المجموع ثلثمائة واربعين فاذا ضم عليه رقم ورقة الثالث وهو سبعة بلغ ثلثمائة وسبعة واربعين فلو تاملت ذلك لوجدته مركبا من الارقام التي على الاوراق الثلاثة

ومنها ان احدهم مد يده الى الطاولة واخذ ثلاثة اوراق وقال لي اختر في سرك واحدة منها ففعلت ثم وضع الثلاث على الطاولة بعضها فوق بعض واخذ ثلاثًا اخرى وعرضها على النساء اللاتي

كن معنا فاختارت إحداهن واحدة منها ثم وضع الاوراق الثلاث بعضها فوق بعض ايضًا بجذاء الثلاث الاول ثم اخذ ثلاثا اخرى وفعل فيها كما فعل فيما قبلها ثم سألني عن ورقتي في اي صف هي فاشرت اليه فاخبرني بها ثم سأل كل ست عن ورقتها في اي صف فاشارت اليه فاخبرها بها من غير ان يخطئ ثم فرق الثلاث الاولى بعضها بجذاء بعض ثم فرق الثلاث الثانية بجعل كل ورقة منها على كل ورقة من الثلاث الاولى وكذلك فعل بالثلاث الثالثة فعجبت لذلك فقال يعقوب لا تعجب فان الورقة الاولى تكون في الصف الاسفل والورقة الثانية تكون في الصف الاوسط والورقة الثالثة تكون في الصف الاعلى ثم قال لي يعقوب واغرب من ذلك اننا لو فرضنا جميع الورق ستًا وثلاثين وقسمناها ثلاثة اقسام كل واحد منها اثنتا عشرة ورقة وجعلنا ورق كل قسم متحاذيا ثم قلنا لانسان اختر في نفسك ورقة من اي قسم اردت واردنا معرفة هذه الورقة من غير ان نسأل عنها لامكن ذلك من غير صعوبة ثم قام واخذ الورق الذي كان موجودا وقسمه كما قال ثم قال لي اختر في سرك ورقة فاخترت من الصف الوسط فجمع ورقه ووضعه بين اوراق الصفين الاخرين بعد جمع كل منهما كذلك ثم اخذ الورقة العلياء وجعلها مبدأ صفٍ ثم الثانية وجعلها مبدأ صف اخر ثم الثالثة كذلك ثم اخذ الرابعة فوضعها فوق الاولى والخامسة فوق الثانية ثم السادسة فوق الثالثة

وهكذا حتى جعل الورق ثلاثة اقسام ثم سألني عن الصف الذي فيه الورقة التي اخترتها فاشرت له اليه فجمع ورقه ووضعه بين الصفين ثم وزعه كما فعل في الاول ثم سألني عن الصف الذي هي فيه فاخبرته به فقال حينئذٍ هي في النصف من هذا الصف فكان كما قال

فلما فهم من كان هناك ان ليعقوب دراية بمثل هذه الاحاجي سألوه ان يبدي لهم شيئًا مما عنده منها فابدى لغزًا على دستة الورق التي عددها اثنان وخمسون ورقة وقال لاحدى النساء خذي اي ورقة شئتِ فاخذت ورقة على غير مرأى منه ثم ضم اليه الباقي وبعد برهة بيّن لها العدد الموجود في ورقتها ثم عرض الورق ثانيًا عليهن فاخذت احداهن ورقتين حيث اتفق كما امر ثم قال لها خذي لكل ورقة اوراقا حتى تكمل ارقامها خمسًا وعشرين نقطة يعني ان كانت نقط احدى الورقتين ستا تاخذ تسع عشر ورقة وان كانت تسعًا تاخذ ست عشر فاخذت كما قال ثم جمع ما بقي من الورق فكان سبعة عشر فقال لها نقط الورقتين سبعة عشر فكان كما قال فدهشوا من حذقه وشدة فطنته خصوصا الشاب الذي كان يلعب اولا حتى انه طلب منه ان يعلمه ما اشكل عليه من احاجيه فاجابه الى ما طلب ثم لما علمنا قيامكم قمنا فدخلت محلنا ومعي يعقوب فاراني من ذلك امورًا كثيرة ووعدني بغيرها فسألته عن الشكل الاول وكيف عرف الرقم

الذي على الورقة التي كانت اخذتها المرأة من غير ان يسألها عنه فقال لي طريقة معرفة ذلك ان تجمع جيع ارقام الورق وتجعل الخادم مثلا منها مقدرًا باحد عشر والبنت باثنى عشر والباباز بثلاثة عشر ثم تجمع رقم الورقة الاولى على الثانية والحاصل على الثالثة فاذا زاد الحاصل على ثلاثة عشر فاسقطها منه واضف الباقي الى رقم الورقة الرابعة فاذا زاد الحاصل على ثلاثة عشر فاسقطها منه كما تقدم ولا يلزم ان تعد رقم الباباز لانه ثلاثة عشر وهكذا الى ان تنتهي الى عدد منه تعلم الورق الناقصة ورقمها مثلا اذا كان الباقي الاخير احد عشر دل على الخادم وان كان اثنى عشر دل على البنت وان كان صفرا دل على الباباز فلو فرض ان عدد الورق كان اثنين وثلثين فطريق معرفتها هي طريق الاثنين وخمسين بعينها لكن الاسقاط يكون عشرة عشرة لا ثلاثة عشر فاذا وصلت الى الورقة الاخيرة تضم على الحاصل اربعة فان كان اقل من عشرة فاطرحه منها فان الباقي يكون عدد رقم الورقة الماخوذة وان كان الباقي اكثر من عشرة فاطرحه من عشرين فيكون الباقي عدد تلك الورقة فان كان الباقي اثنين دل على الخادم وان كان ثلاثة دل على البنت وان كان اربعة دل على الباباز ثم قال لي واذا فرضنا ان احد الحاضرين اخذ ثلاث اوراق واردنا معرفة حاصل اعدادها فطريقة ذلك ان ناخذ دستة ورق من اوراق اللعب يكون عدد ورقها يقبل القسمة اثلاثا

بان تكون ستا وثلثين مثلا ثم نقول للذي اخذ الاوراق الثلاث خذ لكل ورقة قدرًا من الورق يبلغ بالرقم الذي على الورقة احد عشر فاذا فرض ان رقم احدى الورقات التي اخذها تسعة ياخذ لها ورقتين وان الثانية سبعة ياخذ لها اربعا وان الثالثة ستة ياخذ لها خمسا فيكون مجموع الورق المأخوذ في هذا المثال اربعة عشر والباقي اثنين وعشرين وهو جملة ارقام الورقات اللاث الماخوذة اولا

ولنا في حلها طريقة اخرى وهي ان نقول للذي اخذ الاوراق الثلاث اسقط في سرك رقم كل ورقة من اثنى عشر واجمع البواقي الثلاث ثم نستعلم منه عن الحاصل ونسقطه من عدد ورق اللعب وهو ستة وثلاثون فيكون الباقي اثنين وعشرين وهو المطلوب مثلا اذا كان رقم ورقة تسعة وورقة سبعة وورقة ستة كان باقي الاولى ثلاثة وباقي الثانية خمسة وباقي الثالثة ستة ومجموع هذه البواقي اربعة عشر فاذا اسقطناه من عدد الورق وهو ستة وثلاثون كان الباقي اثنين وعشرين وهو المطلوب ولو كان عدد الورق اكثر من ستة وثلاثين بان كان اثنين وخمسين مثلا واردنا معرفة ارقام الاوراق الثلاث استعملنا عددا اكثر من عشرة واقل من سبعة عشر الذي هو ثلث الاثنين وخمسين بعد الكسر كخمسة عشر ثم نقول للذي اخذ الاوراق الثلاث خذ لكل ورقة ورقا من اوراق اللعب حتى يتم رقم الورقة بالورق الماخوذ خمسة عشر كان يأخذ

في المثال ستة للورقة التي رقمها تسعة وثمانية للتي رقمها سبعة وتسعة للتي رقمها ستة فمجموع الاوراق الماخوذة وهو ستة وثمانية وتسعة ثلاثة وعشرون تضم الى الثلاث المأخوذة اولاً فيكون الحاصل ستة وعشرون والباقي ستة وعشرين نطرح منه اربعة فرق ما بين اصل عدد الورق وهو اثنان وخمسون وبين ثلاثة امثال العدد المستعمل وهو خمسة عشر مضافا عليه ثلاثة اي ثمانية واربعون يكون الباقي اثنين وعشرين وهو المطلوب وهناك طريقة عامة اي سواء كان ورق اللعب اثنين وخمسين او ستة وثلاثين وسواء كان في كل من الحالتين كاملا او ناقصًا وسواء كان العدد المستعمل خمسة عشر او ثلاثة عشر او اربعة عشر او ستة عشر وسواء كان عدد الورق المأخوذ ثلاثة او اربعة او غير ذلك

وهي ان تضرب العدد الذي استعملته في عدد الورق الماخوذ وتضيف الى الحاصل عدد الورقات المأخوذة ثم تسقط الحاصل من عدد ورق اللعب المستعمل اي من اثنين وخمسين ان كان عدده مركبًا من اثنين وخمسين ومن ستة وثلثين ان كان مركبًا من ستة وثلثين فيكون الباقي هو العدد اللازم اسقاطه من الورق الذي يكون باقيًا من ورق اللعب وباقي الطرح هو المطلوب مثلاً اذا فرض ان المأخوذ اربع ورقات وان رقم احداها ثلاثة والثانية خمسة والثالثة سبعة والرابعة عشرة وفرض ان العدد المختار أحد عشر بضرب أحد عشر في اربعة يكون الحاصل اربعة واربعين

يضم عليه اربعة فيصير ثمانية واربعين تطرحه من اثنين وخمسين يكون الباقي اربعة تطرحها من تسعة وعشرين فيكون الباقي خمسة وعشرين وهو مجموع ارقام الاوراق الاربع المأخوذة ورقم تسعة وعشرين السابق هو الورق الذي بقي من ورق اللعب بعد تكميل كل ورقة من الورق الماخوذ احد عشر كما مر لانا ناخذ للاولى ثمانية وللثانية ستة وللثالثة اربعة وللرابعة واحدا ومجموع ذلك تسعة عشر فاذا اضفنا له الاربعة التي اخذت كان الحاصل ثلاثة وعشرين اذا طرحناها من اثنين وخمسين كان الباقي تسعة وعشرين كما ذكرنا

وهناك دقيقتان ينبغي التنبه لهما الاولى ما اذا فرض ان ارقام الاوراق الاربع مثلا كانت واحدا وثلاثة واربعة وسبعة وفرض ان العدد المختار اثنى عشر فيلزم على قياس ما مر ان نضرب اثنى عشر في اربعة يكون الحاصل ثمانية واربعين ونضم عليه اربعة عدد الاوراق يحصل اثنين وخمسين وهو قدر عدد ورق اللعب فحينئذٍ يكون الفرق بينهما صفرا ففي هذه الحالة وما ماثلها يكون الورق الباقي بعد المأخوذ هو مجموع ارقام الاوراق الاربع المأخوذة وبيانه انه اذا اخذ للورقة الاولى احدى عشر ورقة لتكميل العدد اثنى عشر واخذ للثانية تسعة وللثالثة ثمانية وللرابعة خمسة ومجموع ذلك ثلاثة وثلاثون فاذا اضيف له اربعة وهو عدد الورق الماخوذ يكون سبعة وثلاثين فاذا طرحنه من عدد الورق الذي هو اثنان

وخمسون فان الباقي يكون خمسة عشر وهو ارقام الورقات الاربع المأخوذة

والثانية ما لو فرضنا ان المأخوذ ثلاث ورقات من ورق عدده ستة وثلاثون وكانت ارقام الثلاث المأخوذة اربعة وسبعة وتسعة والعدد المختار خمسة عشر فعلى قياس ما مر نضرب خمسة عشر في ثلاثة يكون الحاصل خمسة واربعين نضم له ثلاثة يكون ثمانية واربعين وهو اكثر من عدد ورق اللعب ففي هذه الحالة نسقط الاصغر وهو ستة وثلاثون من الاكبر وهو ثمانية واربعون فيكون الباقي اثنى عشر نضيفه الى الورق الباقي بعد المأخوذ فيكون حاصل الجمع هو ارقام الورقات الثلاث المأخوذة ففي هذا المثال لاجل تكميل ارقام كل ورقة خمسة عشر ناخذ للاولى احد عشر وللثانية ثمانية وللثالثة ستة وحاصل الثلاث خمسة وعشرون وباضافة الورقات الثلاث يكون الحاصل ثمانية وعشرين نسقطه من عدد ستة وثلاثين الذي هو ورق اللعب يكون الباقي ثمانية نضيف له الاثنى عشر وهو الفضل بين الستة والثلاثين والثمانية والاربعين فيكون الحاصل عشرين وهو ارقام الاوراق الثلاث

وقد تطرأ دقيقة ثالثة وهي ما لو فرض ان ارقام الورقات الثلاث اثنان وثلاثة واربعة وكان العدد المختار خمسة عشر وعدد الورق ستة وثلاثين ففي هذه الحالة يلزم لاجل تكميل رقم الورقة الاولى ان ناخذ لها ثلاثة عشر وللثانية اثنى عشر وللثالثة احد

عشر ومجموع ذلك ستة وثلاثون يضم له عدد الورقات الثلاث فيكون تسعة وثلاثين وهو اكثر من عدد ورق اللعب بقدر ثلاثة ففي مثل هذه الحالة تسقط ثلاثة من اثنى عشر التي هي الفرق ما بين ثمانية واربعين وستة وثلاثين فيكون الباقي تسعة وهو ارقام الورقات الثلاث وهكذا

فقال الشيخ لا باس بهذه المعاياه لما فيها من توسيع العقل والاعانة على معرفة الحساب ويقرب من ذلك ما سمعته في صغري وهو ما لو فرضنا ان انسانا معه ثلاثة اوعية احدها يسع ثمانية ارطال والثاني خمسة والثالث ثلاثة وكان الكبير مملوا والاثنان الباقيان فارغين واردنا ان نضع نصف ما فيه في الاناء الوسط فيلزم

اولا ان نملاه من الكبير فتكون فيه خمسة وفي الكبير ثلاثة

ثانيًا نملأ الصغير من الوسط فيكون حينئذٍ في الصغير ثلاثة وفي الوسط اثنان وفي الكبير ثلاثة

ثالثًا نضع ما في الاصغر على ما في الاكبر فيكون في الوسط اثنان وفي الكبير ستة والصغير فارغا

رابعًا نضع ما في الوسط في الاصغر فيكون فيه اثنان وفي الكبير ستة والوسط فارغا

خامسًا نملأ الوسط من الكبير فيبقى فيه واحد والاصغر اثنان والوسط خمسة

سادسا حيث وصلنا لهذا الحد نكمل الاناء الصغير مما في الوسط فيكون فيه ثلاثة وفي الوسط اربعة وفي الكبير واحد فحينئذٍ قد انقسم الزيت كما هو المطلوب

فقال ابن الشيخ لو اردنا بقاء نصف الزيت في الاناء الكبير كيف نفعل

فقال الشيخ نملأ الصغير اولا فيكون فيه ثلاثة وفي الكبير خمسة

ثانيًا ننقل ما في الصغير في الوسط فيكون فيه ثلاثة وفي الكبير خمسة

ثالثًا نملأ الصغير من الكبير فيكون فيه ثلاثة وفي الوسط ثلاثة وفي الكبير اثنان

رابعًا نكمل الوسط من الصغير فيكون فيه واحد وفي الوسط خمسة وفي الكبير اثنان

خامسًا نضع ما في الوسط في الكبير فيكون في الصغير واحد وفي الكبير سبعة

سادسا نضع ما في الصغير في الوسط فيكون فيه واحد وفي الكبير سبعة والصغير فارغا

سابعًا نملأ الصغير من الكبير فيكون في الصغير ثلاثة وفي الوسط واحد وفي الكبير اربعة وهو المراد

ثم قال لو فرضنا ان الاناء الكبير يسع اثنى عشر رطلا واردنا

انفصال النصف لنعطيه لبعض الناس ولم يكن معنا الا اناآن اخران احدهما يسع سبعة ارطال والاخر خمسة فطريق العمل هكذا

نملأ الصغير اولا فيكون فيه خمسة ويبقى في الكبير سبعة

ثانيًا ننقل ما في الصغير الى الوسط فيكون فيه خمسة وفي الكبير سبعة

ثالثًا نملأ الوسط من الكبير فيكون في الصغير خمسة وفي الوسط خمسة وفي الكبير اثنان

رابعًا نكمل الوسط من الصغير فيكون في الصغير ثلاثة وفي الوسط سبعة وفي الكبير اثنان

خامسًا نضع ما في الوسط في الكبير وما في الصغير في الوسط فيكون في الوسط ثلاثة وفي الكبير تسعة

سادسًا نملأ الصغير من الكبير والوسط من الصغير فحينئذٍ يكون في الصغير واحد وفي الوسط سبعة وفي الكبير اربعة

سابعًا ننقل ما في الوسط للكبير وما في الصغير للوسط فيكون في الوسط واحد وفي الكبير احد عشر

ثامنًا نكمل الوسط من الكبير فيكون في الوسط ستة وفي الكبير ستة وهو المطلوب

وبيناهما على هذا الحال واذا يعقوب قد دخل فقال له الشيخ اني اتبعت طريقتك ونهجت محجك وان لم ابلغ في ذلك درجتك وقد القيت على ولدي بعض امثال تقرب ما كنتما فيه

هذه الليلة وحكى له مسألة تقسيم الزيت في الاواني الثلاثة

فقال يعقوب هذه المسألة مثل ما اذا كان المراد تقسيم واحد وعشرين برميلا ثلثها مملو من المائع وثلثها فارغ والثلث الثالث على النصف على ثلاثة كل واحد ثلثها وثلث المائع

فقال ابن الشيخ ياخذ كل واحد سبعة فقال يعقوب هذا ظاهر اذا كانت البراميل كلها فارغة او مملوة او متساوية المقادير وفرض المسألة ليس شيئًا من ذلك ولو تاملت لعرفت حلها لان عدد سبعة يمكن تحليله الى ثلاثة اعداد وهي اثنان واثنان وثلاثة وكل من هذه الاعداد تحل به المسئلة فنعطي مثلا للاول اثنين مملوئين واثنين فارغين وثلاثة على النصف

وللثاني اثنين مملوئين واثنين فارغين وثلاثة على النصف

وللثالث ثلاثة مملوة وثلاثة فارغة وواحدًا منصفا وبهذه الكيفية يكون مع كل واحد من الثلاثة قدر ما مع الاخر من البراميل والمائع

ويمكن حلها بطريق اخر وهو ان يعطى للاول ثلاثة ملآنة وثلاثة فارغة وواحد على النصف وللثاني ثلاثة ملآنة وثلاثة فارغة وواحد على النصف

وللثالث واحد مملو وواحد فارغ وخمسة على النصف ففي هذه الطريقة ايضًا أخذ كل منهم الثلث في كل من المظروف والظروف

ثم لاجل حل كل ما يشبه هذه المسألة يلزم ان يكون خارج قسمة عدد البراميل على عدد الاشخاص عدداً صحيحاً فلو لم يكن كذلك لم تتاتَ القسمة كما لو طلب تقسيم واحد وعشرين برميلا على اربعة فهذا لا يمكن بخلاف تقسيم اربعة وعشرين برميلا على اربعة فلا شك في امكانه فان خارج القسمة ستة فالذي يلزم هو تحليل خارج القسمة الى اجزاء صحيحة بقدر عدد الاشخاص ففي هذا المثال الاجزاء التي يتحلل اليها ستة هي ٢ و٢ وواحد وواحد ولا يكون غير ذلك فعلى هذا يعطى للاول اثنان مملوأن واثنان فارغان وواحد على النصف وواحد على النصف

وللثالث واحد مملؤ وواحد فارغ واثنان على النصف واثنان على النصف

وللرابع واحد مملو وواحد فارغ واثنان على النصف واثنان على النصف فلو فرضناها سبعة وعشرين برميلا ثلثها مملوء وثلثها على النصف وثلثها فارغ واريد تقسيمها على ثلاثة فالقسمة ممكنة لان خارج القسمة تسعة ولها ثلاث كيفيات

الاولى يعطى لكل منهم تسعة براميل كل ثلاثة من نوع

الثانية يعطى للاول واحد مملؤ وواحد فارغ وسبعة على النصف

وللثاني اربعة مملوة واربعة فارغة وواحد على النصف

وللثالث اربعة مملوة واربعة فارغة وواحد على النصف فياخذ بهذه الطريقة كل واحد تسعة

والكيفية الثالثة ان يعطى للاول اثنان مملوأن واثنان فارغان وخمسة على النصف

وللثاني ثلاثة مملوة وثلاثة فارغة وثلاثة على النصف

وللثالث ٤ مملوة واربعة فارغة وواحد على النصف

وفي هذه المسائل وما يشبهها كتب طويلة وجدت منها كتابًا مع احد اصحابي المراكبية الذين كنت اجتمع بهم عند الفراغ من الشغل فكان يغنيني عن مفاكهة الانيس ومحادثة الجليس وقد حفظت منها اشياء كثيرة وان شاء الله في وقت غير هذا نتكلم فيما يحضرني منها فاني جئت الان مرسولا من قبل الخواجا لا علمكم انه ينتظر حضرتكم حيث تكون الساعة ١٠ افرنجية وها انا متوجه نحو المدينة لقضاء بعض اشغال امرني بها



المسامرة السادسة والتسعون

التدين

ثم استأذن الشيخ وتوجه فجالس الشيخ مع ولده برهة ثم نظر في الساعة فوجد الوقت قد أزف فقام متوجها اليه ومعه ولده فلما دخلا عليه قام لهما واجلسهما وآنسهما ثم قال للشيخ ان رئيس الجمعية ارسل لي تذكرة يسلم فيها على حضرتكم ويخبرني انه في انتظارنا جميعا في الساعة المعينة بيننا وبينه ويقول ان من شأن الكرام اذا وعدوا وفوا بوعدهم وقد بقي من الوقت ثلاث ساعات فلما علم ابن الشيخ امتداد الوقت استأذن والده في الذهاب مع يعقوب فاذن ه فقال ابن الشيخ ليعقوب الى اين تريد فقال ان حضرة الخواجا اشترى بالامس نظارة معظمة من احد المخازن وكان بها بعض نقص فامر صاحبها باتمامه وقد اعطاني ثمنها لاحضرها له

فقال ابن الشيخ اتذكر حين كنا بالمركب وحضرة الخواجا بذكر لنا بعض كلمات تتعلق بالنظارات وكان قد وعد ان يشرحها لنا اذا وصلنا الى باريس فعسى ان يكون مشتراها لانجاز ما وعد فقال يعقوب ربما كان كذلك ولكنه لم يخبرني عن شي

وبينا هما سائران اذا باناس كثيرين يدخلون كنيسة وعلى بابها عربات كثيرة وخدم وكلهم في زي غير معتاد وعلى ابواب الكنيسة عساكر بملابس رسمية وجميع آلات الموسيقى تضرب فسأل ابن الشيخ يعقوب فقال له هذا معبد النصارى الذي يتعبدون فيه فقال وما المناسبة بين محل العبادة الدينية والملاهي الدنيوية

فقال يعقوب الباريزيون دأبهم الحظوظ النفسية فلا يفارقونها سواء كانوا في المعابد او التياترات او غيرها فتجد في كل منهما ما في الثاني من الحظوظ ولا فرق بينهما الاَّ بكثرة ما يوقد في الكنيسة من الشموع وما يحرق فيها من البخور ولكثرة النساء والشبان وميلهم الى الاصوات الحسان لا يكون للقسيس شهرة بينهم الا بحسن الملابس ونضارة الزي وكثرة الوشي وما اشبه ذلك

فقال ابن الشيخ لو دخلنا لعلمنا حقيقة الحال

فقال يعقوب لا باس في دخولنا فدخلا فوجدا ازدحامًا عظيمًا من رجال ونساء ولكل هيئاة مخصوصة به وقت عبادته فترى الرجال وقوفًا رؤسهم مكشوفة والنساء جاثيات على ركبهن وبايديهن كتيب صغيرة منقوشة وعلى جلودها رسوم بماء الذهب

واللحين وعلى النساء والرجال افخر الملابس واما القسيسون فلا يراهم الداخل الا على بعد وكانت ملابسهم اذ ذاك مكللة بالذهب ومزركشة بالقصب ومزينة برسوم يقضى لها بالعجب وكان كبيرهم يتكلم بصوت عال رخيم كانه خطيب على مرتفع عظيم الاّ ان ابن الشيخ لم يعرف كيفية هذه العبادة لانه لم يسبق له في هذا الامر عادة فعجب كل العجب وطرب مما رآه غاية الطرب سيما واصوات الآلات والالحان كانت تختلط باصوات القسيسين فسأل يعقوب عما يقوله القسيس وعن اللسان الذي يتكلم به فقال يعقوب اما قوله ففي الامور الدينية مثل الصلوات والادعية واما لسانه فاللاتيني

فقال ابن الشيخ اذًا لا علم للحاضرين بما يقول فقال نعم ولكنها رسوم يؤدونها واوصيك ان تكتفي الان بالنظر والمشاهدة

وكان ابن الشيخ وقت دخوله لم ينزع عمامته فرآه احد الخدم فامره بان يكشف راسه ففعل ولم يتوقف ولكنه عجب من اعتنائهم بكشف الرؤس مع عدم خلعهم النعال وراى كلابًا كثيرة مع اربابها داخل المعبد ولا انكار على احد من احد فزاد عجبه من ذلك ورأى جميع حائط الكنيسة من الداخل مكسوا بالجوخ الاسود والشموع موقودة في جميع اماكنها ثم التفت ابن الشيخ فراى ميتًا قد حضروا به وقدامه عدد كثير من القسيسين والرهبان لابسين الملابس الرسمية فوضعوه وجعلوا يطوفون حوله

ثم اخذ ابن الشيخ بيد يعقوب وخرجا من الكنيسة وقد رأى يعقوب ان ابن الشيخ تأثر من تلك المناظر فسأله عن السبب فقال يسوءني ان ارى المعابد على غير ما وضعت له فانظر الى مساجدنا وقارن بيننا فيها وبين الافرنج في كنائسهم تجد فرقا عظيمًا فان اجتماع المسلمين في المساجد عندنا ان كان للصلاة على الجنازة لم يفعلوا الاَّ ما يعود نفعه على الميت من الصلاة عليه والاستغفار له سواء كان الميت غنيًا او فقيرًا صغيرًا او كبيرًا وان كان لاداء فريضة كانوا على غاية من الخضوع والخشوع ولذلك يطلب من الانسان قبل شروعه في الصلاة طهارة بدنه وثوبه والتوجه الى ربه بقالبه وقلبه والتخلي عن الاخلاق الردية والتحلي بالاخلاق المرضية

فقال يعقوب قد كان امر الدين قبل الان بعدة قرون عند جميع الامم من اهم الامور وكانت اماكن العبادة اكثر احترامًا واعتبارا من جميع الاماكن وبعض من يجهل سر ذلك يزعم ان الاديان انما كانت معظمة في الزمن السابق لجهل الامم اذ ذاك بحال امر الديانة ويقول ان رقاب الخلق كانت بايدي القسيسين يتصرفون فيها تصرف السادات في عبيدهم واما الان فقد استغنى الناس عن ذلك لعلمهم بثمرات التمدن وصار كل انسان في غنية عنهم ويمكنه الاهتداء بنفسه الى ما فيه صلاح له وليس احد ملزما باتباع دين دون آخر فله اختيار اي دين شاء وله ان لا يتدين بدين

اصلا فمن هذا وامثاله تغيرت عقيدة الناس فصار حال اغلب بقاع اوروبا كما ترى من قلة التدين

وحال الكنيسة في الموتى يختلف باختلاف الناس فالغني تعقد له محافل مثل ما رأيت وذلك على حسب ما يصرف من النقود

واما الفقير فربما لا يفعل له شي من ذلك اصلا ومع ذلك فلو تاملت جميع هولاء الناس بعد خروجهم من الكنيسة وتفقدت احوالهم لوجدتها مخالفة لامور الديانة بالكلية فان البنت تقول لامها مثلا فلانة كانت في زي كذا وفلانة في زي كذا او فلانة اجادت الغناء اكثر من فلانة وكسوة سيدي القسيس كانت كذا وكذا ورأيت سيدي القسيس فلانا يتكلم مع فلانة سرًا او علانية وهلم جرًا ولا تكاد تسمع في ذلك اليوم الا الكلام في قدر ما احرق من الشموع والبخور وكسوة الكنيسة وما اعطي للقسس وما زخرفت به خشبة الميت ومن مشى خلفه او امامه من الاعيان والامراء ونحو ذلك وقل ان تسمع احدًا يذكر اسم من قبضت روحه او من قبضها واذا سمع ذلك لا يكون الا من امرأة عجوز منهم

ولما وصلوا الى الحانوت الذي قصده يعقوب تلقاهما صاحب الحانوت وامر لهما بكرسيين واجلسهما ثم قال ان الصندوق قد تم من مدة وكنت عازما على ارساله لحضرة الخواجا لظني انك لا تتاخر عن الميعاد الا لعذر

فقال يعقوب انه بعثني في الوقت الذي عينته له وانما تأخرت لان ابن الشيخ رأى في طريقنا جنازة فاحب ان يدخل الكنيسة ليعرف العوائد الجارية هنا في الجنازات فمكثنا بها حتى علم عوائدهم في موتاهم فهذا هو الذي اخرني عن الحضور في الوقت المعين

فقال صاحب الحانوت اظن ان القسيسين احتفلوا بهذه الجنازة فاني سمعت انه صرف للكنيسة نحو ثلاثين الف فرنك وانه اجتمع في الجنازة جم غفير وكنت تهيأت للذهاب لانظر ما هناك فمنعني مانع وهو اني كنت في جهة سراي الملك ثم قال وماذا قال صاحبك المصري فيما رأى وهل تشييع الجنازات في بلده كما رآه في بلادنا ففهم ابن الشيخ كلامه ولكنه هاب ان يكلمه باللغة الفرنساوية خوفًا من العثرة فيها

فقال ليعقوب بالعربية قل له ان عوائد المسلمين في ذلك ليست كعوائدكم فان المسلمين اذا مات منهم احد وكان مشهورًا بشيء من مناقب الصالحين لا يلتفت لما له بل يجتمع لجنازته كل من سمع بموته وان لم يكن من اهله ولا من ذوي قرابته فاعتبار الميت عندنا وعدم اعتباره بعد مماته تابع لما كان يعمله من خير او شر في حياته فان كان كثير الاحسان سليم القلب طاهر اللسان متعودا على فعل الخير دائم السعي في نفع الغير محبا للمساكين والفقراء مؤديا ما اوجبه الله عليه في السراء والضراء حزن لموته

الاجانب ورثوه اكثر من اقاربه الذين ورثوه وان كان بخلاف ذلك في حياته لاقى ما يسوءه ويسوء اقاربه بعد وفاته فقد يكون الشخص عندنا فقير الحال لا وارث له ولا مال ويجتمع في جنازته من الرجال والنساء ما يضيق عنه الفضا ويصلون عليه ويمشون خلفه وبين يديه يستغفرون له ويعددون محاسنه الى ان يدفنوه فاذا فرغوا من دفنه عزوا اقاربه ان كان له اقارب والا عزّى بعضهم بعضاً ثم يرجعون الى منزل الميت ان كان له منزل يليق بالعزاء والا فالى محل يليق به ويبذل اهل الثروة والمروءة ما في وسعهم من الخدمة ورفع الكلف عن اقارب الميت ويعملون له الختمات والسبح ونحو ذلك من العوائد التي يعود نفعها على الميت كاطعام الطعام وغير ذلك الى ثلاثة ايام او اكثر على حسب فضائل الميت قلة وكثرة كل ذلك واقارب الميت لا شغل لهم الا مقابلة الواردين وتشييع الصادرين واما اذا كان الميت بخلاف ذلك فلا يعبأ احد بجنازته ولا يعلم كيف ولا متى صار الى حفرته ولو كان غنيا متمولا ذا ثروة وعلى كل حال لا يجب في تركة الميت ولا على ورثته سوى غسله وتكفينه والصلاة عليه ومواراته في تربته الاّ ان كان اوصى في حياته ببعض خيرات تعمل له بعد مماته

ومن الاحكام الدينية انه اذا مات الميت منا وخلف ولداً قاصراً او حملا في بطن امه حرم علينا استعمال شيء من مخلفاته ولو فرشا او آنية حتى شرب الماء الى ان نقسم التركة وتبين الانصباء

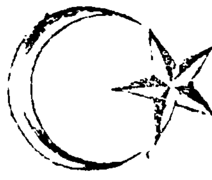
وهنا وقف ابن الشيخ عن الكلام فترجم يعقوب مقالة ثم قال لصاحب الخان ان الخواجا في انتظارنا فهات الصندوق فناوله اياه فانصرفا به يجدان في السير الى ان وصلا فوجدا الشيخ وصاحبه في انتظارهما فقال الخواجا ليعقوب ما اخرك الى هذا الوقت واخذ يلومه ويعنفه واراه خلقا لم يكن من قبل فيه يعرفه وكان من عادة يعقوب ان لا يكتم عنهم شيئًا من خبره فذكر لهم ما كان من امر الكنيسة ورغبة ابن الشيخ في دخولها فكف عن لومه ثم التفت الى ابن الشيخ فرأى على وجهه علامات الخجل فقال لا بأس عليكما حيث كان في تاخركما فائدة

(انتهى الجزء الثالث ويليه الجزء الرابع)

فهرس

الجزء الثالث
من كتاب
علَم الدين





علم الدين

لحضرة العالم الفاضل صاحب السعادة

علي باشا مبارك

ناظر الاشغال العمومية المصرية

الجزء الرابع

طبع في مطبعة جريدة المحروسة بالاسكندرية
١٢٩٩
سنة
١٨٨٢


SEP
25
1984



بسم الله الرحمن الرحيم

المسامرة السابعة والتسعون

الجمعية المشرقية

ثم ان الخواجا فتح الصندوق واطلع على ما فيه ثم اقفله وقال لابن الشيخ وعدتك بنظارة ونحن بالمركب فها هي فخذها واحفظها وهيئ نفسك فانك متوجه معنا فاخذها ووضعها في غرفته وغير ثيابه ورجع وكانت العربة حاضرة فركبوا جميعاً الى المدرسة المشرقية ليلقي الشيخ فيها درسا فساروا قليلا فوجدوا رئيس الجمعية على بابها فتلقاهم وحياهم واخذ بيد الشيخ بغاية ما يليق من التعظيم والوقار وما ينبغي من الاحترام والاعتبار وكان على الشيخ يو... حلة مصرية مما يلبسه العلماء فشخصت العيون اليه ...

باحد الا قام له ونظر اليه وتامله وما زال ذلك الرئيس آخذًا
بيد الشيخ الى ان ادخله محل الدرس فوجد به جمعا لا يشق له
غبار وجميع الطلبة في الانتظار فلما قدم عليهم قاموا جميعا تعظيما
له واجلالا وتلقوه بما يليق بمثله فشق الشيخ صف الحلقة ودخل معه
الرئيس والخواجا وابنه حتى اجلسوه على كرسي قد هيئ له في وسط
الحلقة فكان الشيخ وحده مرتفعا على جميع الحاضرين فاطرق راسه
مليا خاشعا لله تعالى ولما جلس الجميع واستقر كل في مكانه افتتح
الشيخ الدرس فقال بعد التعوذ والبسملة نحمدك اللهم على ما اوليتنا
من النعم التي لا تعد والمنن التي لا تحد خلقت الارض والسماوات
واسكنت فيهما انواع المخلوقات الفرد الصمد لا شريك لك في الملك
يا مدبر الفلك ومجري الفلك انت الاول الاخر الباطن الظاهر
فاليك المرجع والمستند وعليك التوكل والمعتمد اللهم وفقنا لما
يرضيك يا رحيم واهدنا الصراط المستقيم اما بعد فقد سألني حضرة
الرئيس المعظم والاستاذ المفخم ان اشرح بعض مسائل علمية وفنون
ازهرية عقلية ونقلية فلم تسعني مخالفته بل وجبت عليّ طاعته
ومحالفته مع اني اعلم من نفسي العجز عن الخوض في هذا المشرع
وعدم القدرة على ان احوم حول هذا المرتع فارجوكم ايها السادة
الاساتذه والاحبار الجهابذة ان تغضوا الطرف عن الهفوات وتصفحوا
عما يقع من الزلات فان من الواضح الغني عن البيان ان الانسان
محل النسيان كما قيل

وما سمي الانسان الا لنسيه

ولا القلب الا انه يتقلبُ

واسئل الجميع ان ينظروا الى الفقير بعين الرضى والقبول في كل ما يفعل او يقول فقد قيل

وعين الرضى عن كل عيب كليلةٌ

كما ان عين السخط تبدي المساويا

والله تعالى يوفقني واياكم الى اقوم طريق ويهدينا معالم التحقيق بجاه سيدنا محمد خير الانام عليه وعلى سائر الانبياء افضل الصلاة والسلام ثم قال اعلموا ان الله تعالى لما خلق الانسان علمه البيان فخلق آدم وعلمه الاسماء كلها وكان يتكلم بالسريانية فالسريانية هي اول اللغات ثم نوّع اللغات الى انواع فجعل افصحها وافضلها اللغة العربية فنريد التكلم في طرف مما يتعلق بها فنقول ان اول من تكلم باللغة العربية نبي الله اسماعيل بن نبي الله ابرهيم الخليل عليهما السلام ثم ما زالت تتسع جيلا بعد جيل الى ان صارت لا يحيط بها من ائمة اللغة الا القليل وقد طلبتم مني لحسن ظنكم بي ان املي عليكم منها بعض دروس تكون لغياهب غوامضها كالشموس فما وجدت اقرب من الدواوين التي تشتمل على ما كانت تستعمله العرب في تغزلاتهم وما كانوا يقولونه في حلولهم وتنقلاتهم ورأيت من احسن ما صنف في هذا المعنى ديوان حامل لواء الشعراء وامام كل شاعر فوق الغبراء وهو امرء القيس المشهور الذي ورد فيه الاثر

المأثور واسمه جندح بن حجر بن عمرو وجندح بضم اوله وثالثه وسكون ثانيه على وزن قنفذ ومعناه في الاصل رملة طيبة تنبت الوانًا وامه فاطمة بنت ربيعة اخت كليب ومهلهل وامرء القيس لقبه وكنيته ابو وهب وابو الحارث ويلقب ايضا بذي القروح لقوله في بعض قصائده

وبدلت قرحا داميًا بعد صحة

لعل منايانا تحولنَ ابؤسا

ويلقب ايضا بالذائد لقوله في بعض قصائده

(اذود القوافيَ عني ذيادا)

ومعنى امرئ القيس في الاصل رجل الشدة لان القيس في اللغة الشدة وقيل ان القيس كان اسما لصنم فنسب اليه ولهذا كان الاصمعي يكره ان يروي قوله الاتي

عقرت بعيري يا امرء القيس فانزلِ

فكان يقول يا امرء الله وكان ابوه حجر طرده في صغره من اجل عنيزة التي كان يتشبب بها فلما طرده صار يتقلب في احياء العرب ويتبع صعاليكهم وهم اللصوص وكان ابوه ملكا على بني اسد فعسفهم عسفا شديدا فتمالأوا على قتله فقتلوه فلما بلغه قتل ابيه وكان يشرب الخمر قال اليوم خمر وغدا امر ضيعني صغيرًا وحملني ثقل الثار كبيرا وقام في اخذ ثار ابيه في خبر طويل سنتكلم عليه اذا دعا الحال اليه وما زال في طلب ثارَ ابيه الى ان وصل

انقرة فطعن في ابطه فنزل هناك بجانب جبل يقال له عسيب وتفرق عنه اصحابه وكان بجانب الجبل قبر لبعض بنات الملوك وفيها يقول

اجارتنا ان الخطوب تنوبُ * واني مقيم ما اقام عسيبُ
اجارتنا انا غريبان ههنا * وكل غريب للغريب نسيبُ
فان تصليني تسعدي بمودتي * وان تقطعيني فالغريب غريبُ

فلما مات دفن بجانبها وكان اخر ما تكلم به (رب طعنة مثعنجرة وخطبة مستحضرة وجفنة مدعثرة وقصيدة محبرة تبقى غداً بانقرة (المثعنجرة) في الاصل الجفنة التي يسيل ودكها فشبه الطعنة بالجفنة التي يسيل منها الوداك وهو الدهن والجفنة القصعة الصغيرة والمدعثرة المكسورة والمحبرة المحسنة وانقرة بفتح الهمزة وسكون النون وكسر القاف معرب انكوريه وهي عمودية التي مات بها امرء القيس ثم شرع يلقي عليهم من حفظه ويتأنق في تعبيره ولفظه ويجمل ويوضح ويكني ويصرح ويطنب فلا يمل ويوجز فلا يخل وكان من جملة ما القاه عليهم عند الكلام على قول امريء القيس

قفا نبك من ذكرى حبيبٍ ومنزلِ
بسقط اللوا بين الدخول فحوملِ

ان قال ان الالف في قفا يحتمل ان تكون للتثنية لان العادة ان اعوان الرجل في الغالب اثنان راعي ابله وراعي غنمه

وكذلك الرفقة ادنى ما تكون ثلاثة ويحتمل ان يكون الخطاب لواحد وانما جرى خطاب الاثنين على الواحد لمرور السنتهم عليه كقوله

فان تزجراني يا ابن عفان ازدجر

وان ترعياني احمِ عرضا ممنعا

وان تكون مبدلة من نون التوكيد والاصل قفن فابدلها ألفا في الوصل قياسا على ابدالها في الوقف ويحتمل ان المراد تكرير الامر مرتين والاصل قف قف فالحق الالف امارة دالة على ان المراد ذلك كما قالوه في قوله تعالى حكاية عن اهل النار قال ربّ ارجعونِ ان المراد منه ارجعني ارجعني ارجعني ثلاثا فجعلت الواو علامة مشعرة بان المعنى تكرير الفعل مرارًا والدخول بفتح الدال اسم مكان وهو مفرد ولفظ بين يقتضي الاشتراك فلا يدخل الا على مثنى او مجموع كقولك المال بينهما والدار بين الاخوة وكقوله

شوقي اليك نفى لديك هجوعي

فارقتني فاقام بين ضلوعي

فان وقع بعدها مفرد فلابد من العطف عليه بحرف مشرك وهو الواو نحو المال بين زيد وعمرو وقد وقع بعدها هنا مفرد وهو الدخول وعطف عليه بالفاء ثم اجاب بان الدخول اسم واقع على عدة امكنة فهي وان دخلت على مفرد لفظا فهي داخلة على متعدد معنى فلذلك عطف عليه بالفاء الموضوعة للتعقيب لا

للاشتراك فقال له بعض من بالمجلس اذا اشترطنا في لفظة بين ان لا تدخل الا على متعدد فما تصنع في قول القرآن في صفة المنافقين مذبذبين بين ذلك فان لفظ ذا لا يشار به الا الى مفرد

فقال له الشيخ لو دققت النظر لوجدت الجواب واضحًا وذلك ان اسم الاشارة وان كان مفردا لفظا لكنه متعدد معنى لانه ادى تأدية شيئين وناب مناب لفظين وقد كشف سبحانه هذا التأويل بقوله بعد لا الى هولاء ولا الى هولاء وكان تقدير الكلام في الآية بين ذينك الفريقين ونظيره لفظة احد في قوله تعالى لا نفرق بين احد من رسله فان هذه اللفظة وان كانت مفردة الاّ انها تستغرق الجنس الواقع على المفرد والمثنى والجمع ومما يدل على ان اسم الاشارة هنا نائب عن شيئين نيابته في باب ظن عن المفعولين نحو ظننت ذلك فتلخص من هذا ان بين لا يقع بعدها الا متعدد او ما يؤدي تأدية المتعدد فقال له اخر اذا كان كذلك فحينئذٍ لا يصح ان يقال المال بين زيد وبين عمرو

فقال الشيخ وهو كذلك بل الصواب في مثله حذف بين الثانية كقوله تعالى يخرج من بين فرث ودم لبنًا خالصًا سائغًا للشاربين .

فقال ذلك السائل فما نقول في قوله تعالى حكاية عن قول فرعون لموسى فاجعل بيننا وبينك موعدًا لا نخلفه فان بين الثانية مضافة لضمير المخاطب وهو مفرد وقول موسى لشعيب ذلك بيني

وبنك ايما الاجلين قضيت فلا عدوان عليّ وقوله هذا فراق بيني وبينك فان بين في الموضعين مضافة لمفرد الاول ضمير المتكلم والثاني ضمير المخاطب فلمَ جاز ذلك ولم يجز ان يقال المال بين زيد وبين اخيه فقال الفرق بين الموضعين ان المعطوف في الايات قد عطف على المضمر المجرور وقد شرط جمهور النحويين في العطف عليه تكرير الجار فيقولون مررت بك وبزيد ولا يجيزون مررت بك وزيد ولهذا لحنوا من جر الارحام في قوله تعالى واتقوا الله الذي تسألون به والارحام عطفا على الضمير المجرور حتى قال بعضهم لو انِّي صليت خلف امام فقرأ بها لقطعت صلاتي وبعضهم وجه الجرّ بان الواو للقسم فيكون الباري سبحانه قد اقسم بالارحام تنويها بفضلها وتنبيها على تاكد حقها ووجوب رعايتها ثم سمع الشيخ رجلا من وسط الحلقة يقول

وبينما المرء في الاحياء مُغتبط

اذ صار في الرمس تعفوه الاعاصيرُ

كانه يعرض بالاعتراض على الشيخ في اشتراطه في لفظ بين ان تضاف الى متعدد

فقال الشيخ ليس ببدع ان يتغير حكم كلمة بتغيير ما تضم اليه لان التركيب يزيل الاشياء عن اصولها ويحيلها عن اوضاعها ألا ترى ان ربّ الجارّة لا يليها الا الاسم كقولك رُبّ اخ لم تلده امك فاذا اتصلت بها ما غيرت حكمها ووليها الفعل كقوله تعالى ربما

يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين وكذلك لم الجازمة فانها حرف فاذا زيد عليها ما وهي حرف ايضاً صارت اسماً في بعض المواطن بمعنى حين ونظير ذلك في الافعال قلّ وطال فانهما فعلان لا يستغنيان عن الفاعل كما هو حكم جميع الافعال فان كل فعل لا بد له من فاعل فلا يلي الافعال الا الاسماء لفظاً او تقديراً وهذان الفعلان لما دخلت عليهما ما الزائدة وتركبت معهما استغنيا عن الفاعل وجاز ان يليهما الفعل نحو قولك طال ما زرتك وقلّ ما هجرتك وكذلك لهم اشياء تختلف اسماؤها باختلاف اوصافها فانهم لا يقولون للقدح كأس الاّ اذا كان فيه شراب ولا للبئر ركية الاّ اذا كان فيها ماء ولا للدلو سجل الا اذا كان فيه ماء ولو قل ولا يقال له ذنوب الا اذا كان ملآنا ولا يقال للبستان حديقة الا اذا كان عليه حائط ولا للاناء كوز الا اذا كانت عليه عروة والا فهو كوب ولا للمجلس نادٍ الا وفيه اهله ولا للمرأة ظعينة الا وهي في الهودج ولا للسترخدر الا اذا اشتمل على امرأة ولا للقدح سهم الا اذا كان فيه نصل وريش ولا للسرب نفق الا اذا كان نافذاً ولا للخيط سمط الا اذا كان فيه نظم ولا لماء الفم رضاب الا ما دام في الفم ولا لما يتخذ لتقديم الطعام عليه مائدة الا اذا كان عليه الطعام والا فهو خوان ومثل ذلك كثير في كلامهم وهذا من اسرار اللغة العربية التي لم يطلع عليها الا من تتبع مواقع استعمالهم وتضلع من موارد كلامهم

ثم قال له اخر لماذا لقبوا امرء القيس بذي القروح وبالذائد مع ان له كلامًا كثيرًا غيرها

فقال الشيخ لا بدع في ذلك فان الانسان قد ينسب الى ما اخترعه وقد ينسب الشاعر نفسه الى بعض كلامه ومن ذلك قول دعبل الخزاعي انا ابن قولي

لا تعجبي يا سلم من رجل * لعب المشيب برأسه فبكى

وقول ابي تميم انا ابن قولي

نقل فوادك حيث شئت من الهوى

ما الحب الا للحبيب الاول

كم منزلٍ في الارض يألفه الفتى

وحنينه ابدًا لاول منزلِ

وقول محمد بن وهيب انا ابن قولي

ما لمن تمت محاسنه * ان يعادي طرف من رمقا

لك ان تبدي لنا حسنا * ولنا ان نعمل الحدقا

فقال له اخر وكان له اطلاع على دواوين الشعراء اظن ان دعبلا سرق معنى بيته السابق يعني قوله لا تعجبي الخ من قول مسلم بن الوليد

مستعبر يبكي على دمنة * ورأسه يضحك منه المشيب

فقال له الشيخ نعم الا ان دعبلا جاء به اجود فصار احق به منه وقد تفنن الشعراء من بعده في نظم هذا المعنى فمنه قول بعضهم

تبسم الشيب بذقن الفتى * يوجب سح الدمع من جفنه
حسب الفتى بعد الصبا ذلة * ان يضحك الشيب على ذقنه

ولما علم الشيخ ان لهم بفن البديع بعض المام قال وفي هذه الابيات عند علماء البديع من الجناس ايهام التضاد وهو الجمع بين معنيين غير متقابلين بلفظين يوهمان ذلك وذلك لان المراد من ضحك المشيب وتبسمه ظهوره وهو بهذا المعنى لا يقابل البكاء ولا سح الدمع وانما يقابله بلفظه فلذلك سمي بايهام التضاد وكلما كثر عدد المتقابلات كان الكلام ابلغ فقد تكون المقابلة بين شيئين كالابيات المتقدمة وقد تكون بين ثلاثة كقوله

ما احسن الدين والدنيا اذا اجتمعا
واقبح الكفر والافلاس بالرجل

وكقوله

فلا الجود يفني المال والجدّ مقبل
ولا البخل يبقي المال والجد مدبرُ

وقد تكون بين اربعة كقوله

قابلتهم بالرضى والبشر منشرحا
ولوا غضابا فيا حزني لغيظهم

وقد تكون بين خمسة كقوله

ازورهم وسواد الليل يشفع لي
وانثني وبياض الصبح يغري بي

وكقوله

راحت تحب دجى شباب مظلم

وغدت تعاف ضحى مشيبٍ نيرِ

وقد تكون بين ستة وستة كقوله

على رأس عبد تاج عزٍ يزينه

وفي رجل حرٍ قيد ذل يشينه

فقال له بعض القوم نسمع ان هذه القصيدة وهي قفا نبكِ الخ يقال لها احدى المعلقات السبع فما المعلقات وما سبب تسميتها بذلك

فقال الشيخ كانت العرب في الجاهلية يقول الرجل منهم الشعر في اقصى الارض فلا يعبأ به ولا ينشده احد حتى يأتي به مكة فيعرضه على اندية قريش فان استحسنوه روي عنه وكان فخرًا لقائله وان لم يستحسنوه طرح ولم يعبأ به فكانت العرب في الجاهلية تجتمع في كل عام بمكة وتعرض اشعارها على هذا الحي من قريش واول شعر علق على الكعبة شعر امرىء القيس هذا فعلقه على ركن من اركانها ايام الموسم حتى نظر اليه اهل الموسم فتبعه الشعراء وعلقوا قصائدهم من بعده ولما كانت ايام بني امية اختار بعض امرائهم منها سبعًا فسميت المعلقات السبع فهذه احداها وهي من البحر الطويل وعدتها ثمانون بيتًا الا بيتا والثانية لطرفة ابن العبد وهي من الطويل ايضًا ومطلعها

ره اطلال ببرقة ثهمدِ   تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليدِ
وقوفًا بها صحبي عليّ مطيهم   يقولون لا تهلك اسىً وتجلدِ

وهي مائة بيت وبيتان

والثالثة لزهير بن ابي سلمى المزني وهي من الطويل ومطلعها

أمن ام اوفى دمنة لم تكلمِ   بحومانة الدرّاج فالمتثلم
ودار لها بالرقمتين كانها   مراجيع وشم في نواشر معصمِ

وهي اثنان وستون بيتا

والرابعة للبيد ابن ربيعة العامري من الكامل ومطلعها

عفت الديار محلها فمقامها   بمنًى تأبد غولها فرجامها
فمدافع الريان عرى رسمها   خلقا كما ضمن الوحي سلامها

وهي سبعة وثمانون بيتًا

والخامسة لعمرو بن كلثوم من الوافر ومطلعها

الا هبي بصحنك فاصبحينا   ولا تبقي خمور الاندرينا
مشعشعة كأن الحص فيها   اذا ما الماء خالطها سخينا

وهي مائة بيت وواحد

والسادسة لعنترة بن شداد من الكامل ومطلعها

هل غادر الشعراء من متردمِ   ام هل عرفت الدار بعد توهمِ
يا دار عبلة بالجواء تكلمي   وعمي صباحًا دار عبلة واسلمي

وهي خمسة وسبعون بيتًا

والسابعة للحارث بن حلزة اليشكري من الخفيف ومطلعها

اذنتنا ببينها اسماء رب ثاوٍ يمل منه الثواء
بعد عهد لنا ببرقة شما فادنى ديارها الخلصاء

وهي ثمانون بيتًا

• وكان سبب انشاء امرىء القيس لقصيدته هذه انه كان يعشق عنيزة ابنة شرحبيل وكان لا يحظى بلقائها ووصالها فانتظر ظعن الحي وتخلف عن الرجال حتى اذا ظعنت النسآ فسبقهنَ الى الغدير المسمى دارة جلجل واستخفى هناك اذ علم انهن اذا وردنَ هذا الماء اغتسلن فيه فلما وردت عنيزة والعذارى اللواتي كنّ معها ونضونَ ثيابهن وشرعن في الماء ظهر امرء القيس وجمع ثيابهنّ وجلس عليها فلما رأينه اكبرنَ هذا الامر وشق ذلك عليهن وناشدنه ان يخلي سبيلهن فحلف ان لا يدفع اليهنّ ثيابهن الا بعد ان يخرجن اليه عواري فخاصمنه زمنًا طويلاً من النهار فأبي الا ابرار قسمه فخرجت اليه اوقحهنّ فرمى بثيابها اليها ثم تتابعن حتي بقيت عنيزة واقسمت عليه فقال لها يا ابنة الكرام لا بد لك من ان تفعلي مثل ما فعلن فخرجت اليه فرآها مقبلة ومدبرة فلما لبسنَ ثيابهنّ اخذن في عذلِهِ وقلنَ له قد جوعتنا واخرتنا عن الحيّ فقال لهنَّ لو عقرت راحلتي لكنَّ أتاكلنَ فقلن نعم فعقر راحلته ونحرها وجمعت الاماء الحطب وجعلنَ يشتوينَ اللحم وياكلنَ الى ان شبعنَ وكان معه ركوة خمر فسقاهن منها فلما ارتحلن اقتسمن امتعته فبقي هو فقال لعنيزة يا ابنة الكرام لا بد لك

من ان تحمليني والحت عليها صواحبها ان تحماه على مقدم هودجها فحملته فجعل يدخل رأسه في الهودج ويقبلها وهو يشير الى ذلك كله في قصيدته ومع علو منزلة امرئ القيس في البلاغة وشهادة الاولين والاخرين له بذلك فهو قائد الشعرآ الى النار يوم القيامة لان ابا مرة اغراه على قبائح صارت سنة عنه وصار قدوة فيها وان كان من اهل الفترة وقد قال الله تعالى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً فتعذيبه من بين اهل الفترة لحكمَ يعلمها الباري سبحانـه

واستمر الشيخ يتحفهم بملحه الى ان جاء الوقت المقدر للقيام وكاد من كثرة ما القى عليهم ان يخرج عن المقام وقد بهرت عقولهم جلالته وملأت قلوبهم مهابته لرقة تعبيره ودقة تقريره واتساع فهمه وغزارة علمه فلما ختم الدرس وصلى على النبي صلى الله عليه وسلم قام اليه صاحبه الانكليزي ورئيس الجمعية ونائبه ووضعوا ايديهم في يديه ومشوا ومعظم اهل المجلس حافون بهِ الى ان وصلوا محلاً قد اعد للاستراحة فخصوا الشيخ بصدر المجلس وكان قد بقي في نفس بعض الطلبة بعض مسائل هاب ان يسأل عنها في اثناء الدرس فلما شربوا القهوة قال قد ذكرت لنا ايها الاستاذ ان العرب كانوا في ابتداء امرهم لا يلتفت الى نظمهم ونثرهم الا بعد شهادة قريش لهم فمن قريش وما قدر ما حازوه من فنون الادب حتى اذعن لهم جميع العرب

فقال الشيخ قد سألت عمنْ علا صيتهم وشاع وانتشر فخرهم في البقاع خلاصة ولد قحطان وصفوة سلالة عدنان ومن بلسانهم نزل القران قوم كانت البلاغة شعارهم والفصاحة دثارهم حازوا الفضائل تفصيلاً وجملا واحتسبوها نهلا وعللا قوم قد تباعدوا عن عنعنة تميم وتلتلة بهرآء وكشكشة ربيعة وكسكسة بكر وطمطانية حمير وغمغمة قضاعة فقال ما ذاك ايها الحبر لقد زدتني تشوقًا لبيانك وتطلعا لتبيانك

فقال اما عنعنة تميم فانهمْ يبدلون من الهمزة عينًا ومنه قوله

اعن توسمت من خرقآء منزلة

مــاء الصُبابة من عينيك مسجومُ

يريد أئن توسمت

واما كشكشة ربيعة فانهم يبدلون كاف المخاطبة شينًا فيقولون ما بش وما لش يريدون ما بك وما لك ومن ذلك قوله

فعيناش عيناها وجيدش جيدها

ولكن عظم الساق منش دقيقُ

ومنهم من يقلب الباء ميما والميم باء اذا كانا في اول الاسم فيقولون في نحو بكر وبحر وبدر مكر ومحر ومدر وفي نحو مسجد ومعبد بسجد وبعبد ومن ذلك ما يحكى عن ابي عثمان المازني وكان يتكلم بتلك اللغة قال دخلت على الواثق فقال لي ممن الرجل فقلت من مازن فقال من اي الموازن مازن تميم ام قيس ام ربيعة

فقلت له من مازن ربيعة فكلمني بلغة قومي وقال لي بسمك وكان اسم الشيخ بكر قال فكرهت ان اجيبه بلغة قومي كراهة ان اواجهه بالمكر فقلت له بكر يا امير المؤمنين ففطن لما قصدته وكان من الفطنة بمكان ومن فطنته ما حكي انه كان بحضرته جارية تغنّيه قول القائل

أظلوم ان مصابكم رجلا   اهدى السلام تحية ظلمُ

فاختلف من بالحضرة في رجل فمنهم من نصبه على انه اسم انَّ ومنهم من رفعه على انه خبرها والجارية مصرة على ان شيخها ابا عثمان المازني لقنها اياه بالنصب فسأله عنه فقال الوجه النصب فقال ولمَ ذلك فقال لان مُصابكم مصدر بمعنى اصابتكم فعارضه بعض من بالمجلس فقال له المازني هو بمنزلة قولك ان ضربك زيداً ظلم فرجلا مفعول مصابكم والدليل عليه ان الكلام معلق الى ان تقول ظلم فيتم الكلام فاستحسن الواثق الجواب وامر للمازني بالف دينار واما كسكسة بكر فانهم يزيدون على كاف المؤنثة سيناً عند الوقف ليبينوا حركة الكاف فيقولون للمرأة مررت بكس واكرمتكس

واما غمغمة قضاعة فصوت لا يفهم تقطيع حروفه

واما طمطمانية حمير فهي ما في لغتهم من الكلمات المستنكرة فمنهم من يجعل اداة التعريف ام بابدال اللام ميما فيقولون طاب ام شراب يريدون طاب الشراب ومنه ماروي عن النبي صلى الله عليه وسلم لما سأله سائل وكان حميريًا امن امبرّامصيام في ام

سفر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم وكان يكلم كل قوم بلغتهم ليس من امبرّ امصيام في امسفر واما تلتلة بهرآء فانهم يكسرون حرف المضارعة فيقولون انت تعلم بكسر التاء ونحن نعلم بكسر النون وهو يعلم بكسر الياء

ثم قام في المجلس سائل فقال للشيخ ولمَ سميت قريش قريشًا فقال لهُ لان القرش في اللغة يطلق على دابة من دواب البحر تغلب ولا تُغلب فسمي احد اجدادهم قريشًا تشبيهًا بتلك الدابة وكل من كان ينتهي نسبه اليه يسمى قرشيًا .

وقد اختلف المؤرخون في ذلك الجد الذي لقب بقريش فقيل هو فهر بن مالك بن النضر وقيل هو النضر بن كنانة كما قال صاحب السيرة

اما قريش فالاصح فهرُ جماعها والاكثرون النضرُ

فقال السائل وحيث كان هذا الجد عظيما فلمَ صغر اسمه فقال الشيخ تصغيره ليس للتحقير بل للتعظيم على حد قول القائل

ما قلت حبيبيّ من التحقيرِ

بل يعظم اسم الشيء بالتصغيرِ

فقال السائل وهل ورد عن العرب التصغير لغير التحقير قال نعم من سنن العرب تصغير الشيء اما لتحقيره كقولهم في رجل رجيل وفي دار دويرة واما لتكبيره وتهويله كقول لبيد

وكل اناس سوف تدخل بينهم
دويهية تصفر منهـــا الانامل
واما لتنقيصه كما يقال لم يبقَ من بيت المال الا دُنَيْنيرات واما لتقريبه كقول امرئ القيس يصف فرسه بطول الذيل
وانت اذا استدبرته سدّ فرجه
بضافٍ فويق الارض ليس باعزلِ
اي بذيل طويل فضاف صفة لموصوف محذوف وكقولك أَزورك بُعيد العيد وجاءني فلان قبيل الظهر لان التصغير في الظروف بمعنى التقريب

واما لاكرامه والشفقة عليه كقولك يابنيَّ ويا اخيَّ وكقول لقمان لابنه وهو يعظه يابنيَّ لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم

واما لتشريفه وتعظيمه كما هنا وكفى اولئك القوم شرفًا على سائر الانام قول نبينا عليه الصلاة والسلام ان الله اصطفى كنانة من ولد اسماعيل واصطفى قريشًا من كنانة واصطفاني من قريش فانا خيار من خيار فقال لهُ كيف يحفظ نسبهم الى اسماعيل وقد مضى لهُ من الزمن اجيال فقال لهُ ان العرب عمومًا من عادتهم المحافظة على انسابهم فكيف نسب من كان منهم سيد العالمين وصفوة الله من الخلق اجمعين فهو محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤيّ بن غالب بن فهر ابن مالك بن النضر بن كنانة

بن خزيمة بن مدركة بن الياس ابن مضر بن نذار بن معد بن عدنان بن إدّ بن ادد بن اليسع بن الهميسع بن سلامان بن نبت بن حم بن قيذار ابن اسماعيل بن ابراهيم الخليل عليهما السلام لكن النسب الصحيح تفصيلاً ينتهي الى عدنان وهو الجد المتمم عشرين وما زاد على ذلك الى اسماعيل فلم يرد فيه حديث صحيح وقد جمع بعضهم اباءه صلى الله عليه وسلم في بيتين من الشعر على طريق الرمز الى كل اب باول حرف من حروف كلماتهما وهما

علقت شفيعاً هال عقلي قرانهُ

كتاب مبين كسب لبي غرائبه

فدى معشر نفسي كرام خبيرة مدا الفهم مذ نيل مجد عواقبه

فالعين في علقت اشارة الى ابيه عبدالله والشين في شفيعاً اشارة الى جده شيبة الحمد وهو عبد المطلب والهاء في هال اشارة لهاشم وهكذا

وكان من عادة الشيخ اذا فتح لهُ باب في الكلام يطنب فيه ولا يخرج منه حتى يستوفيه فلذلك قال وكان اسماعيل حين اسكنه ابرهيم بمكة كما هو مذكور في القرآن وجد بها قبائل من جرهم بن قحطان وهم العرب العاربة فلما كبر اسماعيل تزوج منهم امرأة فولد له منها اثنى عشر ولدًا ذكرًا فقيل لهم ولذريتهم العرب المستعربة وانما قيل لهم ذلك لان لغة اسماعيل كانت عبرانية فلما تزوج من جرهم تكلم بالعربية فمعنى المستعربة اي المكتسبة للعربية

بخلاف العاربة فمعناه المتأصلة في العربية وكان قبل جرهم بن قحطان عرب يقال لهم طسم وجديس وكانت مساكنهم باليمامة من جزيرة العرب ولكنهم انقرضوا عن اخرهم ولم يبق لهم اثر ولم ينقل عنهم بعد ذلك خبر وذلك ان الملك كان في طسم فاستمروا على ذلك مدة من الزمن حتى انتقل الملك الى رجل منهم غشوم ظلوم فجعل سنته ان لا تزف عروس بكر من جديس الى بعلها حتى يدخل هو عليها فأنفت جديس من ذلك ودبروا في قتله ودفنوا سيوفهم في الرمل وعملوا له ولخواصه طعامًا دعوه اليه فلما حضر في خواصه من طسم عمدت جديس الى سيوفهم فقتلوا الملك ومن لحقوه من خواصه فهرب رجل من طسم الى تبع ملك اليمن وشكا اليه ما فعلته جديس بملكهم واستنصر به فسار ملك اليمن الى جديس واوقع بهم حتى افناهم عن اخرهم فلم يبقَ لطسم ولا لجديس بعد ذلك ذكرٌ فلذلك سميت العرب البائدة ولذلك جعل المؤرخون العرب ثلاثة اقسام بائدة وعاربة ومستعربة فالبائدة هم العرب الاول الذين ذهبت عنا تفاصيل اخبارهم لتقادم عهدهم وهم عاد وثمود وجرهم الاولى وكانت على عهد عاد

فلما اطنب الشيخ في وصف العرب ونسبتهم وتفضيل عنصرهم ولغتهم قال له بعضهم ايها الاستاذ قد اجمع اهل الملل واصحاب النحل من المتاخرين والمتقدمين على ان القران عربي مع اننا نجد

فيه الفاظا منها ما هو فارسي وما هو سرياني وما هو عبراني وما هو باللغة الحبشية وما هو بالعجمية كالارائك في قوله تعالى على الارائك ينظرون فانها حبشية ومعناها السرُر وكالجبت فانه اسم للشيطان او الساحر وهي حبشية ايضًا ومعناها بها كذلك وكالدري فان معناه المضيء وهي حبشية ايضا ومعناها بها كذلك وكالاباريق فانها فارسية ومعناها طريق الماء او صبه على هينة ونحو سرادق فانها سريانية ايضا واصلها سرادر ومعناها الدهليز او سرا برده ومعناها ستر الدار ونحو حصب في قوله تعالى للكفار انكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم فانها زنجية ومعناها حطب ونحو سري في قوله تعالى لمريم قد جعل ربك تحتك سريا فانها زنجية ومعناها النهر ونحو غساق فانها تركية بل طمارية ومعناها البارد المنتن ونحو الفوم فانها عبرية ومعناها الحنطة ونحو القسطاس فانها رومية ومعناها الميزان او العدل ونحو اليم في قوله تعالى لام موسى فاذا خفت عليه فالقيه في اليم فانه سرياني ومعناه البحر وهكذا فما من لغة الا ونجد منها في القرآن الفاظًا

فقال الشيخ لا يخفى ان لغة العرب متسعة جدا حتى قال بعض ائمتنا إنه لا يحيط بها الا نبي ومع ذلك فلا مانعٍ من وجود بعض كلمات في القرآن بغير لغة العرب وقد ورد في الخبر الصحيح ان في القران من كل لسان على انها الفاظ محصورة يمكن عدها وهذا لا يخرج القران عن كونهِ عربيًا فان وجود كلمات

يسيرة غير عربية في خلال كلام عربي لا يخرجه عن كونه عربياً ألا ترى ان القصيدة او الرسالة الفارسية مثلاً لا تخرج عن كونها فارسية بوجود لفظ او بعض الفاظ فيها غير فارسية ولعل حكمة وقوع مثل هذه الكلمات في القران وان كان كل كتاب انما نزل بلغة القوم الذين انزل عليهم انه حوى علوم الاولين والاخرين ونبأ كل شيء ومن لازم ذلك ان يكون فيه الاشارة الى انواع اللغات والالسنة لتتم احاطته بكل شيء وايضا فان النبي صلى الله عليه وسلم مرسل الى سائر الامم فلا بد ان يكون في كتابه طرف من لغة كل قوم وان كان اصله بلغة قومه فاختير له من كل لغة اعذبها واخفها واكثرها استعمالاً للعرب وبعد ذلك كله فلا مانع من كون هذه الكلمات كانت في الاصل غير عربية ثم وقعت للعرب قبل نزول القرآن فعربتها بالسنتها وحولتها عن الفاظها الاصلية الى لغتها فصارت عربية ثم نزل القرآن وقد اختلطت هذه الكلمات بكلامهم فما نزل القران الا بلغتهم فقال السائل قد وقع في كلامك ذكر الشعار والدثار والعلل والنهل فما معنى ذلك فقال الشيخ الشعار هو الثوب الذي يلي جسد الانسان لانه ملاصق لشعره والدثار الثوب الذي لا يلي الجسد بل يلبس فوق الشعار والنهل الشرب الاول للابل والعلل الشرب الثاني لان الابل تشرب مرتين في العرضة الواحدة الاولى نهل والثانية علل وهذه الالفاظ من جملة الفاظ

الغراب ابو حاتم وابو الجراح وكنية الفار ابو خراب وكنية الفرس ابو مضاء وابو مدرك وكنية الفيل ابو الحجاج وابو كلثوم وكنية القرد ابو خالد وابو حبيب وكنية القطا ام ثلاث وكنية القمري ابو ذكري وكنية القنفد ابو سفيان وابو الشوك وكنية الكركي ابو عريان وابو نعيم وكنية النسر ابو الاصبع وكنية الناقة ام مسعود وام حوار وكنية النعجة ام الاموال وام فروة وكنية النمر ابو الاسود وابو جهل وكنية النمل ابو مشغول وكنية الهدهد ابو الاخيار الى غير ذالك وقد يكون للواحد كنى كثيرة

فقال الحاضرون ايدك الله ايها الشيخ قد انعشت ارواحنا وازلت اتراحنا وجلبت افراحنا ثم قام الشيخ وقاموا ليودعوه فكان من جملتهم الطلياني الذي كان اجتمع به في مرسيليا فقال للشيخ اريد أن تشرفني غدًا انت وصاحبك الانكليزي ومن تحب فقال لهُ الشيخ يكون ذالك ان شاء الله ثم مضى مع الانكليزي الى المنزل وكان الشيخ لم يصلِّ الفرض الذي عليه فلما انصرف الانكليزي الى النوم قام الشيخ فتوضأ وصلى ثم التفت الى ولده وقال كيف كان الدرس فقال ما رأيتك في جلالة مثل ما رايتك في هذا اليوم ولقد كان قلبي في هذا الامر يخفق ولساني من هيبة المجلس يكاد ان لا ينطق الى ان افتتح الدرس فانجلى ما بي وذهب اضطرابي فكانت كل كلمة نطقت بها تسري في بدني كسريان الماء او الدواء اذا وافق الداء ولقد رأيتك تارة تتأنق في الكلام

وتطنب في توضيح المرام وتميط عن مخدرات المسائل الحجاب وتكشف عن وجوه مشكلاتها النقاب ولعمري لقد سررت في هذا اليوم اكثر من فرح الاطفال بعيد الصوم سيما وقد رأيت اهل الجمع كلهم يثنون وبفضلك يعترفون فما اجد لك مثلا الا كما قال القائل

غموض الشيء حين تذب عنه ... تقلل ناصر الخصم المحقق

تضيق عقول مستمعيه عنه ... فيقضي للمجل على المدقق

فضمه والده اليه وقبله بين عينيه وانشد

ما ابيض وجه المرء في طلب العلا

حتى تسوّد وجهه في المبداء

ثم قال وانا اخبرك بما حصل لي وهو اني كنت قبل قدومي عليهم احسب مجلسهم لا يعتريني منه ادنى خجل ولا يمر بفكري منه وجل فلما قدمت اليهم واجلسوني على الكرسي مرتفعًا اعتراني بعض فتور وخشيت ان يفرط مني بعض هفوات فيتوهموا فيّ القصور فلما استعذت بالله واستعنت به وفقني للصواب واتسع لي ميدان الخطاب وقد استغربت مهابتي لهذا المحضر مع اني كثيرًا ما قرأت دروسًا في جمع اعظم من هذا بالازهر وقد تم المجلس بفضل ذي الجلال والحمد لله على كل حال واريد الان ان اريح بدني لان الخواجا في انتظاري لنخرج الليلة للنزهة فان كان لك غرض في الخروج معنا فقم ادِ فرضك وارح بدنك

المسامرة الثامنة والتسعون

البركة في الحركة

فخرج ابن الشيخ من عند ابيه وأدى ما وجب عليه ثم ذهب الى يعقوب في غرفته فالح عليه يعقوب ان يدخل فأبى وقال انما جئت لاخبرك بان والدي عازم على الخروج هذه الليلة مع الخواجا المنزهة وقد اذن لي في الخروج معه وان حضرة الخواجا في انتظاره فهل انت ذاهب معه فقال يعقوب ذلك غاية رغبتي لولا العذر

وكان ابن الشيخ حريصاً على صحبة يعقوب لما كان ليعقوب من العلم بالامور لكثرة تجربه واسفاره فكان دائماً يستفيد منه معلومات تحسن بها آدابه وكان كل منهما يأنس بالاخر فلذا قال ابن الشيخ ان لم تكن معنا فلست بمتوجه معهم

فقال يعقوب لا يليق بك ذلك واظن انهم عازمون على

التوجه الى التياتر فتوجه انت معهم لتنظر ما هناك وفي غد نستأذن ونتوجه نحو العين التي كنا بها سابقًا واتمم لك هناك ما كنا شرعنا فيه ثم سمع نداء والده عليه فذهب اليه فوجده متهيئًا للخروج فمشى خلفه فوجد الخواجا في انتظارهما والعربة حاضرة مهيأة للركوب فقال الشيخ اظن ان المشي انفع لنا واكثر فائدة لما فيه من التمكن من الاطلاع على كل ما نمر به فنستفيد منه علمًا فقال الانكليزي هذا صواب ولكني اخشى عليك التعب وما اريد ان اشق عليك

فقال الشيخ جزاك الله عني خيرًا فان لكبر السن حكمًا وللعادة احكامًا وقد صدق القائل لكل امرء من دهره ما تعود فاني كنت وانا صغير في بلدي كثير الحركة والتنقل فكنت صحيح الجسم سليم البنية قوي الحواس لا يقاومني في النشاط وخفة الحركة احد من اترابي فلما جاورت بالازهر رأيت حركاتهم قليلة بسبب طول الجلوس في المطالعة وليس عندهم وقت للفسحة فلاجل تحصيل العلم سلكت مسلكهم ولازمت السكون مع علمي بان هذه عادة سيئة بالنسبة للصحة خصوصا مع برودة البلاط وعدم الحائل الكثيف الذي يمنع برده عنهم ولقد صدق المثل من عاشر القوم اربعين يوما صار منهم فكنت اخرج من منزلي اول النهار الى الازهر فلا اعود اليه ولا اخرج من الجامع الاّ ليلاً بل لا اتحوّل من مكاني الاَّ لأزالة ضرورة او اداء عبادة وكذلك في الليل

اجلس مجلساً واحداً المطالعة حتى ينتصف الليل فانام مكاني
وصار هذا ديدني مدة اقامتي بالازهر فتولدت لي بذلك الامراض
وتسلطت على جسمي الاسقام حتى آل بي الامر الى ان كنت اصلّي
بعض الصلوات من جلوس لانه قد اعتراني تقاعد يشبه العجز
فان الجلوس يحبس الدم عن الجريان في العروق والاعصاب
ولقد صدق المثل ان في الحركة بركة ولما قدر الله لي السياحة
واجتمعت بحضرتكم داخلني النشاط ودبّت الصحة في جسمي بسبب
كثرة الحركة والانتقال وازدادت قوتي مع كبر سني فانا اليوم
اكره عدم الحركة حتى اذا كنت منفرداً في غرفتي اراني احب القيام
والمشي فاقوم لانظر من الشبابيك واطلع على الاحوال فانا احمد
الله واشكره كثيراً على الاجتماع بحضرتكم وقد ادركت للسياحة
فوائد كثيرة جمة غير الحركة الداعية الى الصحة فمنها كثرة الاطلاع
وتحصيل الفوائد الدنيوية والاخروية ولقد صدق من قال

لو كان في شرف المأوى بلوغ منىً
لم تبرح الشمس يوماً دارة الحمل

ومنها زيادة البركة في العمر فان كثرة الاطلاع بمنزلة زيادة
العمر وقلة الاطلاع بمنزلة قصر العمر كما قيل

وفي الجهل قبل الموت موت لاهله
فاجسامهم قبل القبور قبور

وقد قالوا ان الماء الراكد عرضة للتغير فكرهوا الاغتسال فيه

بخلاف الماء الجاري فهو بعيد عن التغير ولا يكره استعماله بحال فهو اكثر نفعا ثم مشيا وابن الشيخ خلفهما واستمرا في الكلام على الحركة

فقال الخواجا لا شك ان الانتقال يبلغ الامال والقعود يفيت المقصود والتعوّد على الحركة مما يقوي البدن ويبرئ كثيرًا من الامراض ولذلك مدحها الحكماء وحث عليها الاطباء واما كثرة السكون فيتولد عنها الكسل وخيبة الامل وبرودة الدم وكثرة العلل ومما يدل على وجوب الحركة ان الخالق سبحانه وتعالى حكم بها على جميع الموجودات حتى على الشمس والقمر وسائر الكواكب التي في السماوات فان القمر يدور حول الارض والارض تدور حول الشمس وبالجملة فلا شيء من العالم بثابت مطلقًا فالكون وما حواه من حيوان ونبات وجماد وشموس واقمار وغيرها مما لا يعلم كنهه الاّ مكونه يتحرك بجملته فضلا عن حركة اجزائه صغيرًا وكبيرًا وما ذلك الا لحكمة بالغة اقتضتها ارادة مدبر الكون ومديره فالزلازل التي يظهر اثرها على الكرة الارضية تنبئ عن حركة عظمى في باطنها وسر بليغ اودع في جوفها وكذلك الحوادث الجوية كالعواصف والصواعق فانها تدل على ان السماوات دائمًا في حركة فليس الحكم بالحركة خاصا بالاجسام الحيوانية والنباتية بل هو شامل لها ولغيرها حتى الجبال والبحار وقد قيل ان جبال الجهة القطبية الشمالية تشققت في قديم الزمان

وتهددت وانتقلت صخورها الى الجهات القطبية الجنوبية وبعد ان مزقت حرارة الجهات التي مرت بها طبقاتها الثلجية فمنها ما رسب في قاع البحر ومنها ما استقر في صحاري اسيا وافريقا فكل من مر بها وتأمل هيأتها ونظر الى تركيبها علم انها ليست من جنس الارض التي هي بها بل انتقلت اليها من جهات بعيدة لحوادث عنيفة واسباب قوية ولم تزل مثل هذه الامور تحصل الى الان فاحيانا ياخذ البحر صخوراً من جهة ويسير بها الى جهة اخرى وتارة ينضم بعضها الى بعض فتقف بالشواطئ فتكون سواحل وتارة تتراكم في جهة من قاع البحر فتكون جزائر فيكسوها مرور الدهر اتساعًا ويكسوها تداول الايام عمرانًا وارتفاعًا فسبحان القادر على كل شيء وهو الفعال لكل شيء وكما فعل سبحانه وتعالى فيما نراه فكذلك يفعل فيما لا نراه فمن ذلك ظهور الجبال في ارض لم يكن بها منها شيء وكذلك ما يظهر وسط البحار من الشعاب والجزائر والجبال التي لم تكن من قبل وما ذاك الاّ للحكم بالحركة التي دبر الله بها الاكوان ورزق بها الحيوان واغرب من ذلك دقيق الرمل والحصى فان اصلها صخور ضخمة تكون على قمم الجبال الشاهقة عرضة لتأثير حوادث الجوّ من الحرارة والبرودة والامطار والثلوج والرياح فتتفتت وينقلها السيل وتنسفها الرياح فتارة تلقى في اغوار الارض فيرتفع بها ما كان منخفضا ويخصب ما كان مجدبا وتارة تلقى في البحر فتتراكم فيه وتعظم حتى تحوله عن

موضعه فانظر صنع الصانع كيف سلط على الجبال ما اثر فيها ففتتها رمالاً وحصىً ثم ارسل عليها ما قذف بها الى البحار حتى حولتها عن مواضعها فسبحان الحكيم العليم فمن تأمل في مجاري الانهر والخلجان ومصابها رأى ان كل ما يحدث فيها من الجزائر انما هو من الاجزاء الدقيقة التي جرت بجريانها ومن امعن النظر وتتبع كتب التاريخ والاثر وجد هذه الانهار قد تحولت عن مجاريها الاصلية حتى صارت مواضعها الاولى ارضاً ذات مزارع وبساتين ومساكن ونحو ذلك ومن ذلك اقاليم مصر البحرية فقد قالوا انها انما تكونت مما تخلف عن نهر النيل من الطمي كما ان ما يجلبه نهر الطونة والرين من تلك المواد الدقيقة كل عام يسد مصبها وكذلك نهر المسيسيبي بامريقا فانه لضعف جريانه لا يقوى على دفع ما فيه من الزبد والرمل فيحدث من ذلك في كل سنة ارض جديدة بخلاف نهر الكنج الذي هو احد انهار الهند فانه لقوة دفعه وسرعة جريانه لا يبقي في قراره شيئاً مما يأتي به بل يأخذه معه حتى يلقيه على شاطئ البحر الملح فمن مصادمة الصخور والشعوب ونحوها لما يقذفه على مدا الازمان تكوّنت عنه ارض تبلغ مائتي ميل وهناك اسباب اخرى لا ندركها تحدث احياناً بظاهر الكرة الارضية فانا نجد في بعض الجهات ارضاً قد ارتفعت شيئاً فشيئاً واخرى قد انخفضت كذلك ولا نشعر بها ولا ندركها لطول الزمن الذي مرّ عليها فلو اطلعنا على حال الارض في الازمان السابقة وحالها

في الازمان اللاحقة لجزمنا بان الكرة الارضية وما فيها من اول خلقها الى الان دائمًا في حركة وتموّج كتموُّج المياه فينخفض ما كان مرتفعًا ويرتفع ما كان منخفضا وقد استدلوا على ذلك بانحطاط ما بين مدينة صور وثغر اسكندرية عما كان عليه ايام الرومان وبارتفاع ارض الروسية الشمالية عما كانت عليه فانها كانت غامرة بالماء ثم انجلى عنها فظهرت وبني بها مدائن وقد وجد في ارضها بعد انحسار الماء عنها كثير من العاج متخلفا عن الحيوانات التي غشيتها تلك الحادثة حتى ابتلعتها الارض

وقد استفيد من التواريخ ان كثيرًا من المدن القديمة صارت الان ارضا قارة وان كثيراً من المدن صارت في قاع البحار فهذا ايضا مما يدل على ان كرة الارض دائما في حركة ومن ذلك تأثير الشمس في البحر فيرتفع منه بخار فينعقد سحابا ثم يسير الى الجهة التي يسوقه الله اليها فيسقط على الارض اما مائعــا او متجمدًا ثم يماع لتاخذ منه ما يكفيها ويكفي ساكنيها جميع السنة ومن ذلك الرياح فانها هي التي تسير السحاب من جهة الى جهة على مقتضى ارادته سبحانه وتعالى وان كنا لا نعلم من اين تأتي ولا الى اين تذهب وبالجملة فلم يخلق الله شيئًا الاَّ وفيه سرّ ولهُ حركة اما على انفراده واما بامتزاجه مع غيره ولو اراد العارف استقصاء الكلام على ادنى شيء من المخلوقات لاستغرق فيهِ العمر ولافضى بهِ الحال الى تفويض العلم بالحقيقة الى من لهُ الخلق والامر

فقال الشيخ وقع لي كتاب قد مسخته يد الزمان والحقته في النسخ بخبر كان فتصفحته فوجدت فيه ما يقرب من ذلك وهو ان الله تعالى لما خلق الكون بقدرته ودبره بحكمته جعل الافلاك العلوية والكواكب السماوية بمنزلة الآباء وجعل الاركان الاربعة وهي التراب والماء والنار والهواء بمنزلة الامهات فاقتضت حكمته تعالى انهُ اذا تصلت اشعة الكواكب التي هي بمنزلة الآباء بالاركان الاربعة التي هي بمنزلة الامهات حدثت المواليد الثلاثة التي هي المعدن والحيوان والنبات فما وجدت المواليد الثلاثة الاَّ بحركة اتصال الآباء بالامهات وهذه الاركان الاربعة وان كانت كالامهات بالنسبة للمواليد الثلاثة الاَّ انها متولدة عن غيرها ايضا لانهم يقولون ان الحرارة اتصلت باليبوسة فانتجنا ركن النار ثم اتصلت بالرطوبة فانتجنا ركن الهواء ثم اتصلت البرودة بالرطوبة فانتجنا ركن الماء ثم اتصلت باليبوسة فانتجنا ركن التراب فحصل في الابناء حقائق الآباء والامهات فكانت النار حارة يابسة فحرارتها من جهة الاب ويبوستها من جهة الام وهكذا فانظر كيف جعل المولى كل صفة من صفات الاشياء مكتسبة وراجعة الى اصلها

وفي اثناء ذلك الكلام وصلوا الى باب بستان يسمى لوكسانبور وهو من الاماكن المشهورة المعدة للنزهة فدخلوه فوجدوا به خلقا كثيرًا على عادتهم في اوقات نزهتهم فطافوا فيه برهه وتخيروا للجلوس ناحية منه قد راق منظرهـا وخضرتها وحلت في اعينهم نضرتها

اغصانها دانية وعينهـا هامية فمالوا الى ذلك الموضع فكانوا بحيث يرون كل من يمر عليه فتعجب الشيخ من كثرة المارين واختلاف هيآتهم

فقال الانكليزي لو تاملنا في هؤلاء الخلق واختلاف السنتهم واجناسهم والوانهم وسالنا كل واحد منهم على حدته عن قطره وبلدتهِ واصل منشئه ومنبته لوجدنا فيهم من جميع الجهات من هندي وصيني وتركي وشامي وغير ذلك وها هو حضرتكم مصري والفقير انكليزي قد فارقنا الاوطان وجمعنا هذا المكان فلولا الحركة في طلب المعاش ما خرج احد عن بلده ولو عاش الى ان يرى ولد ولد ولده وليست هذه الحركة خاصة بنوع الانسان بل كذلك انواع النبات والحيوان فانها تنتقل من جهة الى جهة ومن قطر الى قطر انما النبات لا ينتقل حالة كونه نباتًا بل بذره هو الذي ينتقل فقد يأخذ الريح بذرا من ارض فيلقيه في ارض غير ارضه وقد يكون البذر في اجواف الحيوانات وحواصل الطير فاءذا انتقلت من ارض الى اخرى القته فيها فينبت ولعل هذا معنى ما قيل إن ربع ما على الكرة الارضية من النبات لبذره اجنحة او شبه الاجنحة فيطير بمعونة الهوآ حتى اذا سكن وقع فينبت حيثما استقر ومن اسباب انتقال الحبوب والنباتات ايضًا السيل والخلجان والبحار فكثيرا ما يأخذ البحر المحيط من جزائره انواعا من الفاكهة والنوا واغصان الشجر ويسير بها حتى يلقيها في مواضع غير

مواضعها فتنبت فلذلك نجد في بعض الاحيان نبات ارض قد ظهر فجأة بارض اخرى لم يعهد بها من قبل

وتواريخ الامم والاثار القديمة منبئة بان النبات يتبع في حركته حركة الشمس في مدارها من المشرق الى المغرب فجميع ما نراه في ارضنا هذه كان اصله في جهة الشرق ثم انتقل منها الينا وكذلك جميع ما بالاخرى فمن ذلك شجر البن والشاي وقصب السكر والموز والقطن والكتان والنيل والفول والقثاء جميعها اصل منبتها ببلاد المشرق ثم انتقلت غير ان الاثنين الاخيرين لم يدخلا بلاد اليونان الا بعد ايام اسكندر المقدوني وقد خلق الله سبحانه وتعالى شجر الخبز وجوز الهند وشجر التمر وجعل فيها خاصة الاقتيات وقيام منبت الانسان وتعيشه لكن لما اقتضت ارادته انها لاتثمر الا في جهات خاصة جعل لحكمته الباهرة وقدرته البالغة نباتات اخرى تثمر في كل ارض ولا تختص بجهة دون جهة وذلك كالحنطة والشعير والقطاني ونحوها فان انواع النبات عموما تبلغ نحو اربعة الاف نوع منها عشرون نوعا صالحة للغذا وصالحة لان تزرع في كل ارض فتكون في الارض المحترقة بحرارة الشمس كما تكون في الارض المغطاة بطبقات الثلج

فقال الشيخ اظن ان اول ظهور جميع الاقوات بل ما على وجه الارض من الحيوان والنبات كان بالهند ثم انتشرت منه الى سائر الجهات لماروي من ان ادم لما اكل من الشجرة التي نهي عن

قربانهــا واهبط الى الارض كان نزوله بتلك الجهة فعلم صنعة الحديد وامر بالحرث فحرث وسقى وحصد ودرس وذرى وطحن وعجن وخبز واكـل فلما حضرته الوفاة احاطت بهِ الملائكة فجعلت حواء تدور حولهم فقال لها ادم خلي ملائكة ربي فانه ما اصابني ما اصابني الا من قبلك فلما توفي غسلته الملائكة وحنطته وكفنته في وتر من الثياب وحفروا له ولحدوا ودفنوه بسرنديب بارض الهند وقالوا لبنيه هذه سنتكم من بعده فهذا الاثر يدل على ان اصل الاقوات بل والمعادن والحيوان كان موجوداً قبل نزول ادم في هذا المكان ثم ما زال ينتشر من مكان الى مكان الى ان اتى الطوفان وقسم نوح الارض بين اولاده فاخذ كل واحد منهم من ذلك ماتيسر وذهب به الى بلاده

فقال الانكليزي هذا كلام معقول ولذلك يقول اهل الهند ان مقدسهم ابراهمة نزل من السماء وعلمهم صنعة الزراعة واستعمال الحيوان فيها والمصريون ينسبون ذلك الى ايزيس واليونان ينسبونه الى سيرابيس ووافقهم على ذلك سكان البيرو من امريقا في الذرة خاصة ولذلك يزرعونها عندهم حول معبد الشمس في الارض المقدسة وهي ارض مرتفعة عن سطح البحر اثنى عشر الف قدم

والمستفاد من كتب التاريخ ان استنبات نباتات الغذاء ما وصل الى المغرب الا من جهة المشرق وان اول ظهورها كان باسيا وانا وان كنا نجزم بان بعض النبات نزل من الجنة لكنا لا

ندري متى نزل ولا في اي بقعة نزل

ويقال ان الامة الشركسية من بين جميع الامم هي التي وسعت دائرة انتشار انواع الزراعة وان ما باوروبا من النباتات منقول اليها فنحو الخوخ والبرقوق والبندق اصله من بلاد العجم ونحو البرتقان من بلاد الصين ونحو البطاطس والذرة من الامريقا وينسب ايضا اليهم زرع الارز والقطن في ساحل البحر المتوسط

ثم صاروا كل ما نجح بارضهم شيء زرعوه فيما استولوا عليه من الاقطار ولذلك لا تجد في اوروبا شيئاً من الحبوب والفواكه الا وفي امريقا نظيره وهم الذين غرسوا شجر الكرم بجزيرتي مدير وكناريا وسائر البلاد القبلية من افريقا وامريكا وكذلك القطن والارز بجهات بريزيليا والايتازوني (الولايات المتحدة) وجوز الطيب والقرنفل بجزيرة موريس وجزيرة بوربون وجزائر الهند وكذا الشاي ببريزيليا والهند وجاوى وساعدتهم العرب في نقل شجر البن وقصب السكر والنخل والقطن من بلاد الهند الى بلادهم ولم ينقل ذلك الى الديار المصرية الا فيما بعد واما الصينيون فاخذوا زرع القطن من بلاد الهند ستان كما تعلم اهل يابونيا زرع الشاي من الصينيين واما البرّ والشعير فوجودهما باوروبا قديم

وفي كلام بعض قدماء المورخين والشعرا ما يدل على ذلك

وقال بعضهم ان اصلها من الهند وان الذي نقلها الى افريقا اهل الاندلس

واما البر الاسود باوروبا فحادث فيها ويقال انه منقول اليها من افريقا وان نقله الى جرمانية كان في القرن السابع من الميلاد على يد الملك شارلماين وقد كثر بها الان حتى صار كافيا لاقتيات ثلث الاهالي

واما الارز فهو وان كان حادثًا في اوروبا فالعرب هم الذين زرعوه في الجهات الجنوبية منها وكان قديمًا في بلاد المشرق وكان اغلب القوت منه ولم يزرعه الامريقانيون الا في القرن السابع عشر من الميلاد وقد كثر الان زرعُه عندهم حتى صار يرسل منه الى الجهات والامريقيون يقولون ان اصل ظهور الذرة كان بارضهم ولكن لم يظهر لصحة ذلك دليل بل الظاهر ان اصلها من المشرق بدليل تسمية الاوروباويين لها بقمح الترك وتسمية اليونان لها بقمح العرب وقد شوهد من النبات مثل الشوك ونحوه كثير نابتًا في خلال النبات النافع في الارض التي نقل اليها نبات الحنطة ونحوها وذلك يدل على ان جميع ما هو في بلادنا من هذا النوع قد ورد اليها مع الحنطة وغيرها وقد يعلق حب بعض تلك النباتات بالانسان في ثوبه او متاعه فيسافر ولا يشعر به فينبت حول مسكنه او مبيته

ومن الغريب ما قالوه ان كل نوع من النبات له ارتباط

وائتلاف بنوع من الانسان بحيث لو وجد نوع منه في بقعة لاستدل العارف بذلك على من كان ساكنًا بها مشرقيًا كان او مغربيًا وانه باختبار النبات وتفقد احواله وتنقلاته يمكن معرفة تنقلات الامم فان من النبات ما يتبع العبيد ومنها ما يتبع عرب البادية والهنود ونحو ذلك ومن النبات ما ينتشر بنفسه حتى يملأ الارض التي انتقل اليها ويعطل ما كان قبله من النبات الطبيعي وغيره وذلك كالخرفوش والخوخ فانهما لما انتقلا الى الجهات الجنوبية من امريقا كثرا بها ومنعا ما عداهما حتى ضاقت المراعي على ماشيتهم وكذلك لما نقل بعض النبات الى جزيرة سنت هيلين انتشر فيها حتى اذهب نباتها الاصلي وحشائشها الطبيعية وكذا في بلاد الصين ارض يقولون ان جميع ما بها من النبات منقول اليها ولم يبقَ بها شيء من نباتها الاصلي وقد ورد الى بلادنا من المشرق انواع كثيرة من الفاكهة منها العنب والرمان والخوخ والسريز (الكرز) والذي نقل البرتقان والليمون الى اوروبا هم العرب ثم ان الثمار بعد نقلها لا تبقى على حالتها الاصلية بل تتغير وتكسب خواص غير خواصها التي كانت لها في قطرها الاول فتجدها باوروبا كبيرة الحجم شديدة الحلاوة لذيذة الطعم بعد ان كانت دون ذلك ولو نقلت الى قطر اخر لتغيرت ايضا وهكذا لان الغالب ان كل شيء انتقل الى مكان غلب طبعه عليه فاذا رجع الى مكانه

يعود طبعه الاصلي اليه ومن الامثال الصادقة ان للبقاع تاثيرًا في الطباع

وقال بعض المورخين ان لكل ارض نباتا ينسب اليها فينسبون الدخان والبطاطس الى امريقا ولكن هذه النسبة ناشئة عن عدم الاطلاع فان كتب التواريخ ناطقة بان الاندلسيين ايام تملكهم وجدوه مستعملا في التحضيرات الكيماوية عند اهل مكسيك وكان قبل ذلك معلوما بين اهالي الصين وجاوى ولم يدخل اوروبا الا سنة الف وخمسمائة وخمسة وتسعين وادخله البرتغاليون في بلادهم فكان مستعملاً باجزاخاناتهم فقط فلا بد انه كان معروفًا ببلاد اسيا قبل استكشاف امريقا بزمن طويل

وقد تبين لك مما مر ان انتقال النبات من ارض الى ارض لابد ان يغير حالة الارض كما تتغير بذلك طبيعة النبات وتبين ان تنقلات الحيوان والنبات تابعة في الغالب لمن سكن الارض لما بينهما وبين الانسان من الارتباط التام اذ بهما بقاء بنيته وقضاء اوطاره وستر عورته وقد وقف كثير من الناس عند ظواهر الاشيا فزعموا ان الحيوان لا ينتقل من الارض التي خلق بها وليس هذا الزعم بصواب ولو سلم ذلك بالنسبة للحيوان الاهلي لا يسلم بالنسبة للحيوان الوحشي وان كنا لا نعلم كيف كان انتقاله في الازمان الماضية لسكوت المؤرخين عن الكلام في ذلك كما سكتوا عن تنقلات الآدميين في تلك الازمان

وعلى ما مر من ان اول عمارة بني آدم الارض كانت بالمشرق يمكن ان يقال ان وجود جميع الحيوانات كان بالمشرق ثم انتقلت الى المغرب

وقد قال المؤرخون ان الخلق كانوا اول امرهم عشائر رعاة ثم تفرقوا فلا مانع من ان تكون الحيوانات قد تبعتهم في ذلك وبالجملة فالحيوان والنبات كل منهما ينتقل باسباب ووسائط دبرها الخالق جلت قدرته ومن تلك الوسائط المياه العظيمة فكل نهر او خليج ينقل في سيره الى البحر كمية عظيمة من ذوات الروح وكثيرًا ما شوهد في وسط البحر جمل من بعض الحيوانات متراكمة بعضها فوق بعض تعوم فوق الماء وعلى سطحها المحار والقوقع الذي لا يعوم وحده فتكون له كالرّومس الذي يركب عليه في البحر كما يركب على السفينة وقد وجد كثير من هوام الارض والحشرات والافاعي والدود والسمك والطيور والقوقع ونحو ذلك راكبة فوق الاعشاب وغصون الاشجار العائمة في البحار فتنتقل بواسطتها من جهة الى جهة وكذا الهواء قد ينقل منها الوفا مؤلفة ويسير بها الى حيث شاء الله وقد امتحن ذلك بعضهم بوضع لوحين من زجاج خلف مصراعي شباك فوجد في التراب الذي اجتمع بينهما في مدة ستة اشهر بذر ثمانية انواع من النبات واحد عشر نوعا من تقاوي عش الغراب واربع بيضات من بيض حيوانات صغيرة

مع جملة من تلك الحيوانات بل قد ياخذ الهوآ ما هو اكبر من ذلك كالفارة والعرسة والسمك ونحو ذلك

وقد وقع في بعض السنين مطر ببلاد فرنسا فكان كله سمكا وكثيرًا ما امطرت السماء ضفادع ومن الهوام الصغيرة ما يمد لنفسه فوق البحر خيطًا دقيقًا ثم يسير عليه مسافة ثم يمد غيره وينتقل وهكذا الى حيث اراد وقد اتفق انه سقط على بعض الملاحين في سفنهم وكان بينهم وبين البر نحو ثلثمائة ميل ولكون تلك الحشرات لا تظهر الاَّ في اوقات سقوط الندى ظن بعضهم ان تلك الخيوط تتصل بذرات الماء وبعضهم يزعم ان لهذا الحيوان معرفة بالكهرباء فان كانت كهربة الخيط سالبة طردتها كهربة الطبقات السفلى من الجو وجذبتها كهربة الطبقات العليا منه وكل هذا ظنون غير ثابتة والله اعلم بالحقيقة

واكبر داع لمفارقة الحيوان لوطنه ان يفقد قوته او الفه فترى الحمُر الوحشية تترك بلاد التتار وتجاوز صحاري اسيا في فصل الشتاء الى الجهات الشمالية لاجل المراعي التي بشاطئ بحر عنال وقد تجتمع الوفا كثيرة وتسير الى شمال الهند وارض العجم لاجل المرعى وبعض الحيوانات لجوعها تخرج من جهة القطب الشمالي وتسافر الى الجنوب كارنب بلاد السيبري وفار بلاد النرويج ونحوها والدويبات الصُغيرة جدًا تسيح عادة متجمعة طوائف طوائف حتى يرى البحر متغير اللون من كثرتها فيه وفي بعض الجهات

تظهر انواع من الحشرات لا يعلم من اين اتت ولم يسبق لاهل تلك الجهات روءيتها وعادة تأتي سائحة فوق الماء او دابة على الارض وكثيرًا ما شوهدت الديدان تقطع البحار العظيمة والفيافي الواسعة الشاسعة لطلب القوت لا يعوقها عن طريقها شيء وقد اقتضت الحكم الازلية ان ما يوءلف يعز وجوده وما يكره يكثر موجوده وبعض ذلك كان مفقودا من اوروبا الى القرن الحادي عشر ثم امتلأت منه مثل دود القز فانه يميل الى الاماكن التي اعتادها فلا يفارق مغارس التوت وهي موجودة في الهند والصين قبل ان توجد باوروبا وغيرها بزمن مديد واول ظهوره بالقسطنطينية كان في القرن السادس جلبه اليها احد القسيسين ثم نقل منها الى اليونان والذي ادخله ارض صقلية الملك روجير ثم منها الى باقي الارض والنحل تهوى الجهات الغربية ولكن الان صارت لاتوجد في جهات جبل اورال وقد بذلوا كل جهدهم فلم يمكنهم ان يعودوها على ارض السيبيري مع انها كانت غير معلومة في الامريكا الى القرن السابع عشر من الميلاد والان بعد استقرارها فيها اخذت في الازدياد حتى ملأت جميع البلاد والهنود تسميها بالذبابة الانكليزية ولهم فيها كراهة عظيمة لانهم يستدلون بها على دخول الناس بيض الوجوه في بلادهم وهم لا يحبون ذلك فهم يستدلون بها على مسير المهاجرين الى الجهات الغربية

وللنمل تنقلات عجيبة وهي وان كانت تظهر لغير المتأمل انها

في سيرها متفرقة غير مؤتلفة ولا منتظمة الاَّ انها جيوش متتابعة ولا تضل عن طريقها اصلا بل تهتدي الى مقصدها مع الانتظام وهي انواع

منها الاسود وهو كثير جدًا واذا ظهر في مكان يكاد يستر وجه الارض وياكل في سيره ما مر عليه من النبات ويدخل المنازل ويملأها حتى لا يترك منها موضعا الاَّ ويتلف ما به فلا يسع اهل المنزل حينئذٍ الاَّ فراقه

فقال الشيخ الجراد في تنقلاته اكثر ضرراً واشد اذىً لانه لا يبقي من الزرع ولا يذر ويقال انها تحفر لبيضها في الرمل ومن حرارة الشمس يفرخ ويكبر في اقرب وقت ويكون اولا بغير جناح فاذا هب النسيم سار به الى حيث يريد وكثيراً ما يملأ الفضا فيغطي الارض ويحول بيننا وبين السماء

فقال الخواجا انها كذلك وسيرها من الشرق الى الغرب وتقطع البحار والفيافي وتقع في بقاع مختلفة فتكون في افريقية وبلاد الانكليز وارض جرمانيا وكثيراً ما حل القحط في الجهات التي تحل بها لانها تهلك جميع النبات والشجر وكثيراً ما يجيء عقب ذلك الطاعون بسبب العفونة التي تنشأ عن رممها وكذلك السمك وسائر الحيوانات المائية لها انتقالات كثيرة ولا تحتاج الى اماكن تستريح فيها حين عبورها كما يستريح الطير على صواري السفن وكثيراً ما شوهد كلب البحر ملازما للسفن السائحة في البحار

وقد اقتضت حكمة الله تعالى ان معاش بعض الامم يتوقف على سياحة انواع من السمك فينتظرونه في زمن معين ويصيدونه وينتفعون به وذلك كالبوري والثوبار وغيره وهو الذي يصنع منه الفسيخ في بلادكم وهناك نوع من السمك يسمونه اسكمري وتسميه الفرنج مكرو

ومن غريب امره انه في فصل الشتاء يدفن نصفه المقدم في الطين ويظهر نصفه المؤخر فاذا خرج الشتا خرج من الطين فينتقل الى الماء القليل الحركة ويبيض فيه واغرب منه ثعبان السمك فانه يقضي اكثر حياته في البر وتجده زمن الصيف ايام جفاف البرك يخرج ليلاً ويمشي في خلال النبات الى ان يصل بركة او ارضًا فيها ماء فينزل فيه واكبر سبب في وقوعه في ايدي الناس حبه لنوع من النبات يعرفونه فتكون شهوته سببًا في هلاكه وكثير من الاسماك لا يسير الا ليلاً على وجه الارض ويخرجُ منه مادة لزجة يلتصق بها في نوع من الشجر ليصيد نوعا من المحار يهواه وكثيرا ما شوهدت السمكة والمحارة معًا فوق الشجر

واما الورل والثعبان والتمساح فلا تفارق مكان اقامتها بخلاف النوع المعروف بالبني الذي يوجد في بحار الهند الغربي واميريكا الجنوبية وهو المسمى عند الفرنج بكراب فانه يكون في بعض اوقات السنة بالمغارات بعيدًا عن البحر مغشيًا عليه وفي فصل الصيف يخرج منها في هيئة جيش منتظم فتخرج الذكور ثم الاناث

ويأخذ سعة عظيمة من الارض نحو مأية متر ومتى اشتدت حرارة الشمس عليه استظل بالاشجار فاذا جاء الليل سار طوائف ويكون لها دبيب تحس به الناس وسط النبات فاذا قربت من البحر الملح دخلت فيه جميعاً فتسبح فيه وتقطع في سياحتها بلاداً بعيدة فاذا تعرض لها احد دافعت عن انفسها ويسمع منها قرض اسنانها في مدافعتها فان لم تتخلص بذلك تفرقت الى جهات مختلفة ثم تنضم وقد يموت اكثرها في سياحته والطير كالسمك في التنقل بل اقوى منه حركة فتراه عند اشتداد البرد يترك الجهات الباردة الشمالية ويذهب الى الجهات الحارة الجنوبية ويقطع في سيره الآف اميال ومنه ما يعيش في الاقطار الباردة والحارة كالغراب فانه يكون باوروبا على شاطئ البحر الاسود وبحر الخزر وينعق ببلاد الهند والعجم كما ينعق بامركا وجزائر البحر الباردة والحارة ومع هذا فلكل نوع من الطير وطن يألفه لكن يفارقه احيانا التماساً لمواد الغذاء او فراراً من العوارض الجوية ومن عجيب امرها انها لا تخطئ اوان مفارقة وطنها ولا وقت عودها وتشاهد هذه الغريزة في المحبوس منها سواء كان مقتنصاً او متولداً في البيوت فانه اذا احس بصوت ابناء جنسه حنّ اليه ولو خلّي سبيله لسار معها وغالب الطير اللطيف لا يكترث بالبرد والحر ولا بالقرب والبعد بل متى جاء الوقت المعلوم لمهاجرته الى الامكنة المعهودة له خرج الى تلك الجهات واقام بها فيفرح به اهلها وتميل اليه طباعهم

فيتلذذون بسماع تغريده ويانسون برؤيته ولكل نوع منها كيفية يكون عليها ومنهاج ينهجه في هجرته وتعديته البحر وقطعه للمفازات فالبعض يكون منفردًا والبعض يكون مجتمعا ومنها ما يسير بالنهار ويسكن بالليل ومنها ما يسير بالليل ويستريح بالنهار فالاوزّ يسافر مجتمعا معترضا والعصفور يسير متسلسلاً والبجع يسير على هيئة شكل مثلث واذا صادفها في سياحتها بحر قطعته طيرانا فاذا هزلت وسقطت فيه قطعته سباحة ومن المستغرب جدًا طريقة سياحة الطير المعروف بالسماني فانه اذا اراد مفارقة اوروبا الى افريقية صبر حتى تهب ريح شديدة من الشمال الغربي فاذا هبّت رفع احد جناحيه كالقلع وحرّك الاخر كالمجذاف وترك نفسه مع الريح الى ان يقطع البحر المتوسط الاسكندري ويصل الى افريقية واماكن استراحته في الجزائر معلومة فلذلك تجد اهل تلك الارض يعرفون وقت وجوده بارضهم فيتهيئون لصيده ومثله اللقلق المسمى عند الفرنج سيجوني فمصيفه الجهات الشمالية الباردة من اوروبا ومشتاه وطنه الاصلي من افريقا فيسمع صوته بجهة الاهرام وغيرها وحمام امريكا الشمالية ينتقل في اوقات معلومة في عدة بقاع لا يعلم سكانها من اين اتى وينتشر احيانًا في نواحي امريكا الشمالية والجنوبية معا واذا آن اوان بيضه اجتمع وبحث عن المواضع التي تناسب ذلك فيبيض فيها فاذا افرخ رجع الى وطنه ولا يضل في طريقه ولو نقل بواسطة كالسكة الحديدية فانه يهتدي

الى وطنه ونوع البلبل ينتقل في فصل الخريف من الشمال الى الجنوب كل عائلة على حدتها لكن اناثه تسبق ذكوره باسابيع فتذهب وحدها من مصر والشام وتقصد البلاد الشمالية ومنه نوع تهاجر اناثه فقط في فصل الشتاء وتبقى ذكوره واما الحيوانات ذوات الثدي فلا تنتقل من بقاعها المعدة لها الاَّ اذا جاعت او تعدى عليها احد في ارضها ومنها ما ينقله الانسان معه كالخيل والحمر الوحشية الى حيث يستوطن من البقاع وهي التي تناسلت في التآنس وعمرت منها البلاد بامريقا فانها ترحل في فصل الشتاء الى الجهات الحارة وكذلك الظباء والفيلة مع غلظ جثتها تترك مواضعها لطلب مراعيها والجاموس الامريكاني المتوحش ينتقل من السهل الى الجبل وبالعكس على حسب الفصول فيتتبع مجاري الانهار والسيول لالتماس المرعى بغريزة وضعها الله فيه فيتبع المرعى حيث كان ولا يعلم احد طريق اهتدائه اليه

وللقردة طرق عجيبة في قطع كبار الانهر والخلجان المتسعة

واما الحيوانات الاهلية فتنتقل تبعاً لانتقال الانسان فخيل اسيا وبلاد العرب الان كثيرة بامريكا ولم تكن موجودة بها قبل اختلاطهم بالاندلسيين وكذا الغنم منها هناك كثير ضأناً ومعزاً وذلك بسبب تنقل الناس كما ان الانسان هو الواسطة في وجود بعض الحشرات والهوام في جهات لم يكن لها بها وجود كما تقدم

وذلك كالفأر بامريكا فانه قبل دخول الاوروباويين هذه البلاد لم يكن له بها وجود اصلاً

وقد تقدم ان اول بقعة وجد بها الآدمي هي ارض الهند وهناك علامات تدل على ذلك فانها كانت في اول الزمن كثيرة النبات والخير ثم اخذت ارضها ترتفع شيئاً فشيئاً حتى قل خيرها فهاجر منها اكثر ساكنيها باسباب وحوادث لا نعلمها واستمرت آخذة في العلوّ والامحال حتى صارت جبالا لا تنبت فلم يبق بها ساكن ولم يزل ينتقل الانسان من جهة الى اخرى بحوادث داعية الى ذلك حتى امتلأت منه الارض وعمرّت جوانبها

فقال الشيخ هذا كله يدل على عظمة الله وقدرته حيث اودع في كل نوع من المخلوقات قوى غريزية وطبائع مختلفة يقدر بها على تحصيل قوته ويأمن بها على نفسه مدة حياته وفيما ذكرتموه دلالة على ان الحركة اساس بديع لعمار الاكوان وقيامها وقانون جليل عليه مدار انتظامها فكل مخلوق لا يستغني عن الحركة في كل حاجاته ولكنها تكون على انواع بحسب انواع الحيوان وطبائع البقاع فتكون كثيرة عند بعض وقليلة عند بعض اخر لانه سبحانه كما نوّع احوال البقاع نوع ما لساكنيها من الطباع فليست طبيعة من يسكن الهواء كطبيعة من يسكن الماء ولا من يسكن الارض الحارة كمن يسكن الباردة

وحيث كان السعي في طلب القوت والمحافظة على حياة

النفس من اهم الامور كان ذلك ايضاً يختلف باختلاف البقاع فيكون في الارض السهلة سهلا وفي الصعبة صعبا وكلما سهلت طرق الاكتساب في جهة تساهلت سكانها في الكد والاجتهاد فيه وكلما صعبت ازداد الكد والنصب فبين سكان الجبال ونحوها من الجهات الصعبة الحرث والغرس و (بين) سكان الارض الخصبة ذات الانهار والخلجان بون بعيد وتباين في الطباع والاوضاع وكذلك طرق التحفظ مختلفة باختلاف البقاع ففي البلاد الباردة تجمع البرودة اطراف الالياف الظاهرة من بدن الانسان فتزيد بذلك قوتها ويسرع رجوع الدم الى القلب وينشأ عن ذلك للانسان من النشاط ما يساعده على الكد والعمل بخلاف البلاد الحارة فان حرارتها تمدد الالياف المذكورة فتتلاشى قوتها وتضعف بذلك قوة الانسان ويداخله الفتور ولا يقوى على العمل ولذلك تجد سكان البلاد الباردة اقوى من غيرهم فانه متى انتظمت حركة القلب والالياف فقد انتظمت السوائل في انحاء الجسم وتكون حركة الدم نحو القلب اتم فيقوي فعله وتزيد قوته ولقوته فوائد كثيرة منها شدة البأس وقوة الجاش وملك النفس عن سرعة الانتقام وعدم الخوف على النفس ومتى قل خوف الشخص على نفسه كثر حبه للحق والتماسه له واتباعه اياه اينما كان ويكون بعيداً عن الظنون والاوهام عالياً عن الكذب والنفاق والخداع والمكر ونحوها فلا ريب في ان هؤلاء الناس يكون عندهم من

الاخلاق والطباع ما يغاير طباع غيرهم من سكان البلاد الحارة مثلاً لو حبسنا رجلا في مكان شديد الحرارة لتالم وهمدت قواه بحيث لو طلب منه فعل امر يحتاج في الاقدام عليه الى الجرأة لم يفعل اذ ضعف قوته يورثه ضعفاً في قلبه وثقلاً في حركته ولذلك تجد سكان البلاد الحارة في القوة اشبه بالشيوخ وسكان البلاد الباردة بضدهم ولو انتقلت سكان البقاع الباردة الى البقاع الحارة او بالعكس لتغيرت طباع كل الى ما يناسب الجهة التي انتقل اليها لكن بعد زمن وفي البقاع الشمالية التي ينزل بها الثلج دائما يكون الانسان ضخم الجثة قليل الهمة والنشاط وسببه ان قوة الالياف ينشأ عنها استجلاب العصارة الرديئة من الغذاء فيحدث امران الاول ان جواهر الكيموس تصير صالحة لان تكسو الالياف وتغذيها فتكبر الجثة والثاني انه ينشأ من قلة جودة العصارة المستجلبة قلة اللطافة في العصارة العصبية فيقل النشاط وتكون الاحساسات في البلاد الباردة ضعيفة بخلاف الحارة فانها فيها قوية جدا وفي المعتدلة تكون معتدلة وكذا تختلف درجة الاحساس عند الناس باختلاف الاقطار والعوارض وذلك ان اختلاف الاحساس ناشئ من كون جميع الاعصاب الواردة الى المنسوج الجلدي يتكون من كل منها مجموع عصبي ففي الجهات الحارة يكون المنسوج الجلدي رقيقاً جداً واطراف الاعصاب مفتحة فتحس باقل شيء ورد عليها من الخارج وفي الباردة بخلاف ذلك لانضمام المنسوج الجلدي وتجمع

اطراف الاعصاب فلا يصل الى المخ الا الاحساسات العظيمة الحاصلة من مجموع العصب ولا يخفى ان القوى العقلية جميعها حاصلة من احساسات صغيرة فمن هنا يكون الاحساس كثيراً في البلاد الحارة قليلا في غيرها والالم كذلك فانه يحصل من تمزيق بعض اعصاب الجلد او تفريقه فكلما كثر كثر الالم والعكس ففي البلاد الباردة التي جثة اهلها ضخمة واعصابهم غليظة يصعب ذلك التمزيق لغلظ جلودهم بخلاف اهل البلاد الحارة لرقة اعصابهم وجلودهم ولهذا كان الم سكان الاقطار الباردة اقل من الم سكان الاقطار الحارة ومن هذا التباين في الطباع الناشئ عن اختلاف البقاع تكون اهل البلاد الحارة كثيرة الميل الى النساء ومنهم من يرى الميل اليهن من اعظم النعم بخلاف سكان البلاد الباردة فان ميلهم اليهن قليل اما اهل المناطق المعتدلة فمعتدلوا الأحوال مطلقا .

فقال الخواجا ما ذكرتموه مسلم ولذلك نجد البلاد الجنوبية مثل ايطاليا وما جاورها من البلاد الفة رجالها لنسائها ليست كالفة رجال البلاد الشمالية الباردة بنسائها فانهم لا حظ لهم الا في الحركة كالصيد والسفر والحرب والشرب وسبب ذلك ضخامة أجسامهم وثقلها وتمام الصحة ولهذا كان اكثر اهل تلك البقاع يميل الى المشروبات الروحية وكلما بعدوا عن القطبين وقربوا الى خط الاستوا نقص هذا الميل واظنه تابعا لما يقذفه البدن من العرق ففي الجهات

الحارة يعوض ما خرج من الجسم بشرب الماء وفي الباردة يعوض بالمشروبات الروحية كالنبيذ ونحوه للانتعاش وبث الحرارة لتنبعث الحركة خيفة جمود الدم ألا ترى ان الماء هو الشراب المألوف عند اهل المشرق من يوم خلق الله الدنيا بخلاف النبيذ ونحوه فهو المألوف عند اهل البلاد الباردة واهل البلاد المعتدلة لا تنقطع رغبتهم في النسا لكن لا تبلغ بهم الى حد التهور فهم فيها على حال الاعتدال وتزداد تلك الرغبة بالتدريج بحسب البلاد الحارة ولو اختبرت اهل البلاد الباردة لوجدتهم اقرب الى الصدق والحق والامانة من اهل البلاد الحارة فان اولئك تغلب عليهم شهواتهم وتكثر فيهم الكبائر والمساوي فتراهم لا هم لهم الا شهوات انفسهم وطاعتها فيما تقترحه عليهم من الاماني والشهوات البهيمية

واما اهل البقاع المعتدلة فلا ثبات لهم على حال فطورا في الفضائل وطورًا في الرذائل يغشون كل ناد ويهيمون في كل واد وكلما زادت درجة الحرارة ضعفت القوى البدنية ويتعدى ذلك الى القوى العقلية فتتساوى لديهم الامور فلا تنبعث خواطرهم الى شيء ولا يهتمون بشيء ويغلب عليهم الكسل ويتحملون العذاب في الدنيا بلا ملال ولا يجتهدون بعقولهم في سياسة انفسهم فيكون في ذلك استرقاقهم ويرون الرق اهون عليهم من العمل ولهذا نرى الفقراء والدراويش والشحاذين وامثالهم في تلك البلاد كثيرين وانا لنعلم بما تواتر عن السياحين ان الهنود مجردون عن الشجاعة والبأس كما

هي طبيعة بقعتهم وقد شوهد ان من تناسل من الاوروباويين هناك يشبه طبعه طبع الهنود دون طبع ابيه واصوله ومن ذلك فللهنود عوائد فظيعة مستغربة كل الاستغراب منها ان نساهم يحرقن انفسهن بالنار بعد موت ازواجهن ومنها انهم مع ضعف قواهم ونحافة اجسامهم يتوهمون اوهاما جسيمة جدًا فيتوهمون امورًا افظع من الموت فــلا يبالون من الموت ولهم صبر وتجلد على انواع العذاب

وهؤلا القوم لخلو اذهانهم وسلامتها عن العوارض وقابليتهم واستعدادهم لكل ما يلقى اليهم يلزم لهم على سبيل التاكيد زيادة عن غيرهم ان تقنن لهم قوانين وتشرع لهم احكام حسنة يتعلمونها ويتداولونها بينهم ويلزم ان تكون تلك القوانين امورًا معقولة خالية عن الاوهام والوساوس ليجبلوا على احسن الاحوال حيث انهم على الفطرة الاصلية ليس في اذهانهم شيء من التخليطات كالاطفال الذين يلزم لهم السياسة والتعليم والتدريب على ما به صلاحهم اكثر من الكبار الــذين دخلت اذهانهم تشويشات تعطلها او تمنعها عن رسوخ التعليمات فيها وقد كانت الامم الشمالية زمن الرومانيين مستقلة بنفسها ومدافعة عن وطنها وحريمها ومع جهلهم وعدم وجود قوانين لهم حاربوا الرومانيين زمنا طويلا حتى كسروا شوكتهم وخفضوا دولتهم ولو اضفت ضعف بنية الامم المشرقية عن العمل الى ما هم عليه من حب البطالة والكسل لعرفت سبب ثباتهم على

قوانينهم وعوائدهم واخلاقهم فانك لو قارنت بين ما كان في سالف الازمان وما هو الان لم تجد الا فرقًا يسيرًا ومن تامل احوال الامم وجد ان المؤسسين الذين وضعوا القوانين لسياسة الناس هم الذين اكسبوا اهل بقاعهم ما هم عليه من العوايد والاحوال ضرورة ان كل طائفة عملت بقوانينها وسيست باحكامها حتى صارت كالجبلة لهم فبعض المؤسسين ساير اهل بقعته على ما هم عليه من رديء الخصال وسيء الاحوال فلم يزدادوا بذلك الا ضررًا من الفقر ونحوه والبعض رفع اهل بقعته عن الرذائل وحملهم على التحلي بالفضائل فتحسنت احوالهم وحمدت خصالهم وافعالهم ففي اعتقاد الهنود مثلاً ان السكون والعدم هما الاصل واليهما تؤول الاشياء فيرون البطالة احسن الاحوال ويستندون في ذلك الى اسمه تعالى الثابت لانهم فهموا ان معناه الذي لا يتحرك مع ان الامر ليس كذلك بل معناه الدائم الذي لا يزول ازلاً وابداً وسكان جزيرة سيام يقولون ان النعيم الابدي هو كون الانسان لا يجبر على الحركة واتعاب الجسم فلذلك كان السكون وعدم الاشتغال عندهم امرًا مرغوبًا فيه في تلك البلاد الحارة المضعفة لجميع القوى ولان الراحة عندهم امر طبيعي هو المقصود بالذات

فلما اسست القوانين على حسب قطرهم وما يناسب اوضاعهم من الترغيب في الدعة وترك الحركة اعقبت مضار كثيرة بخلاف

اهل الصين فان قوانينهم مؤسسة على الاجتهاد والسعي والحث على ذلك فتجد احوالهم مستحسنة وقواهم متوفرة وارزاقهم متيسرة فبين الفريقين بون بعيد مع انهما متجاوران

المسامرة التاسعة والتسعون

الانكليزي والنوانزو والكتاب

ثم اننا وان لم نستوفِ الكلام في هذا المقام الاَّ اننا محتاجون الى الرجوع الى البيت لناكل ثم نعود للتياتر فانكم ما رأيتموه ولا وقفتم على حقيقة ما فيه فقـاما وركبا العربة واخذا باطراف الاحاديث الى ان وصلا مكانهما فنحا كل نحو غرفته فلما خلا الشيخ بابنه قال له ما تقول فيما حدثنا به الخواجا في هذا اليوم فقال انتم بذلك ادرى وبالحكم فيه احرى فقال ما قال. الاّ حقًا ولا نطق

الاّ صدقًا واني جلت في بحر الفكر في شان هذا الامر مدة سيرنا في الطريق فوجدته في مقاله صادقًا وبالحق ناطقًا ما كأنه الاّ ساح كل بقعة واثبت له فيها سجدة وركعة وعاشر من استوطنها من السكان في كل الازمان فانه لا يقف على تلك الاحوال الاّ من كان هكذا من الرجال فلله دره عالمًا مجربًا وفاضلاً بالامور خبيرًا حاز من كل فن طرفا فاخذ منه ملحا وظرفا

فقال له ابنه ومن الغرائب والعجائب معرفته بجميع اللغات فاني اراه يكلم كل انسان بلسانه مع الزلاقة وحسن التعبير والطلاقة كانه في كل لغة اصيل وليس فيها بدخيل ومن مزاياه انه محبوب عند كل من يعرفه

فقال الشيخ ان ذلك من علمه وادبه فان من تحلى بحلية الادب اغناه ذلك عن الحسب والنسب

ثم قال يا بني قم بنا نذهب اليه فذهبا فوجدا الاكل قد كملت هيأته فجلسوا جميعا ياكلون وفي خواص الاطعمة يتحدثون ثم بعد شرب القهوة ذهبوا للتفرج على التياتر فاخذ الخواجا له ولهم تذاكر ودخلوا فلما اخذ كل موضعه دارت الملاعب من كل جانب فسرّ الشيخ بما رأى

وكان الخواجا يترجم له العبارات اللعبية ويبين له ما فيها من النكات الهزلية والجدية وفي الاوقات الخالية بين الالعاب اجتمع بكثير ممن يعرف الخواجا فكانوا يحيونه ويمازحونه ويؤانسونه

ويراعون خاطره وهكذا الى انقضاء اللعب فانصرف الخواجا مع الشيخ وولده وكان بالملعب خلق كثير ما بين نساء ورجال وشيوخ واطفال

فقال الشيخ اظن ان اهل هذه البلدة لا يدخلون تحت عدد وازداد تعجبه من خلوّ بالهم وانتظام حالهم لانه رأى جميع اوقاتهم ما بين اعمال جدية سديدة وهزليات والعاب غريبة مفيدة تكسوهم ثياب ثروة ونزاهة وتفيدهم علوما باحاديث الفكاهة فما يمر عليهم يوم من الايام إلاّ وتتزايد اعمال الثروة والنزاهة عندهم فتمضي عليهم الايام والليالي في لذة بال

ثم وصلا الى المحل ونزلا عن العربة فقال الخواجا ايها الاستاذ ان البوسطة تتوجه غدًا فان اردت ان ترسل كتابًا فحرره الليلة فقال له الشيخ جزيت خيرًا ووقيت ضيرًا ثم ذهب كل نحو غرفته وكان اكثر الليل قد مضى

فقال الشيخ لولده يا بني حيث لا ينبغي الان غير النوم فان شاء الله نحرر خطاباتنا غدًا ونرسلها الى البلاد لوالدتك والاولاد فقبل يده وقام لينام فقابله يعقوب بعد قضائه ما كان مشغولا به فسلم كل منهما على الاخر سلام اشتياق ودخلا يتحدثان بما رق وراق فحكى له ما رأوه في هذه الفسحة وعن التياتر وما فيه من النزهة وقال كنت اتمنى تمام سروري بوجودك

فقال له يعقوب الايام بيننا فقال وما الذي عافك عنا

وفرقك منا فقال بعثني حضرة الخواجا الى بعض اصحابه لامر مهم فقال لعله تم على مرامه فقال نعم وقد فرح به فرحا شديداً واستفدت انا منه كذلك شيئاً جديداً وهو هذه الساعة فهنأه بها ابن الشيخ ثم تواعدا على الذهاب الى العين صباحا ودخل ابن الشيخ لينام فلما انتبه من نومه اخذ محبرة وكاغدا ويراعا وصار يحرر لوالدته هذا الكتاب

اهدي عاطر تحياتي الى كريمة النسب الطاهرة الاذيال قرّب الله لنا ايام التداني

وبعد بث الاشواق ابدي لجنابك اني منذ فارقت مطلع سعودك ومربع شهودك وانا مشغول البال مرتبك الحال وما من وقت يمر علي الا وانا منتظر ورود خبر منك اليّ اطمئن بــــه عليك وعلى الاخوة والاخوات والاعمام والاخوال والعمات والخالات ولكن كيف السبيل الى تحقق تلك الامال مع بعد ما بيننا على ان بعد الشقة يزيد لوعتي وينغص خاطري وكم هاج عليَّ الوجد وقت الانفراد وكم صوّرك الوهم في الفواد فيثير ما انا فيه من النيران ولا سيما اذا اشتد التذكار لهاتيك الديار وما كنت تفعلينه لي من الحنو وعطفك علي ورافتك بي فعند ذلك يهيج وجدي ويكاد ان يشيب من تذكاره فودي ولولا ان منَّ الحنان المنان بصحبة اعز الخلان وعرفت يعقوب الذي اخبرت سيادتك عنه فيما سبق لذبت من الم النوى واعترتني من الم الجوى ما لم اجد له دولة

ولعددت ثواني الغربة سنوات وخلت جميع اوقاتي عن اللذات
لكن ملازمته لي وشفقته علي وتسليته لي برائق العبارات خفف
عني الكروب وربما تحصلت بصحبته على كمال المرغوب مع صحة
البدن والنزهة في غائب الزمن ومشاهدة امور ظريفة مع ما اكتسبه
منه بالممارسة عند المحادثة والمؤانسة واما صاحبنا الخواجا فلا يدع
في نفسي شيئًا احبه الا ويجلبه لي لان حبه لي زائد وقد بلغت حد
التكلم باللغة الانكليزية وذلك ليس الا بهمته فجزاه المولى عني خيرًا
فصرت الان وان لم احصل على درجة عظيمة في اللغة الانكليزية
لكن يمكنني قضاء ما يلزمني بحيث اعبر بها عن مقصودي وافهم
ما يقال لي وقد اخذت ايضًا في تعلم اللغة الفرنساوية ولست مقتصرًا
على ما اخبرتك بهِ بل كل ما وقع نظري عليه او سمعته او
فهمته اسطره لكي اطلعك عليه حين العود الى مصر ان شا الله
تعالى والذي يغلب على ظني انا نقيم شهرًا بباريز ثم نتوجه
الى بلاد الانكليز وانني في هذه المدة فضلاً عن اشتغاله مع
الخواجا بقرآة بعض دروس عربية بالمدرسة المشرقية ففضله كل
وقت ينشر وفخره بين العلماء يزيد ويكثر وليس ثم ما يكدره غير
الفراق وعدم ورود المخاطبات الينا منكم فالمرجو عدم انقطاع
الرسائل لانها للاطمئنان عليكم من اقوى الوسائل حيث كان
ارسال الخطابات ممكن لك مع ما ياتي للخواجا من المكاتبات ثم
ارجو تبليغ السلام الى الاخوان والمحبين الكرام

ثم طوى الكتاب وذهب به الى والده وسلمه له فقراه بتمامه وسر من حسن نظامه وسلاسة مبانيه وجزالة معانيه ثم قال له ان كتابك فيه الكفاية فانه استوفى ما يلزمني كتابته ثم وضع اسمه بجانب اسم ولده وكتب على هامش الكتاب بيده وصية بالاولاد وبارسال رسائل مع الوراد تبين فيها ما عندها من الاخبار ثم برشم الكتاب وقام هو وولده ودخلا عند الخواجا فحياهما واكرم مثواهما ثم قال للشيخ اني كتبت خطاباتي التي اريد ارسالها الى القاهرة فقال الشيخ ونحن كذلك وسلمه الخطاب فوضعه الخواجا داخل الظرف وبرشمه ثم سلم ليعقوب الظرف بما فيه فتوجه به الى البوسطة

ثم قال الخواجا للشيخ اني كنت اريد ان اخرج مع حضرتكم للتنزه حسب الاتفاق ولكن ارجوكم السماح فقد عاقني عن ذلك امر مهم وهو ان لاحد اصحابنا قضية مهمة في بلد قريب ولا بد لي من التوجه معه لبتها وقد واعدته على ذلك وان شئت الذهاب معنا فلا بأس لا سيما والبلدة قريبة والسبل الموصلة لها لطيفة ولا تخلو من فائدة وان شئت ان تبقى ههنا ومعك يعقوب فلا مانع وان شاء المولى في يوم غير هذا نذهب معاً ومع كل هذا فالرأي لكم فقال الشيخ ان استحسنتم بقاءي هنا فلا مانع

فقال الخواجا الرأي ما ترونه واظن اني اعود قبيل الغروب وفي ذهابي وايابي استكشف لكم الطريق فان وجدت بها ما

يسر خاطركم ذهبنا جميعًا فاتفقا على ذلك ثم حضر الطعام فتناول كل مـــا تيسر وقام الانكليزي وتوجه وبقي الشيخ وولده ويعقوب

المسامرة المائة

الحفراوية

فقال الشيخ ليعقوب قد سبق انك اخبرتنا ببعض حوادثك حين اسرك ولم تذكر لنا ما جرى بعد عودك ولا ما حصل لاختك فهذا اوان ذلك فاذكر لنا ما بقي منه في بالك وكان الخواجا ترك العربة للشيخ فقال يعقوب سمعا وطاعة وها هي العربة حاضرة فلنركبها ونذهب لنغنم اللذتين ونكون التسلية بشيئين فنظر الشيخ الى ولده فراى السرور على وجهه فقال ذلك امر حسن

لانأباه ولكن انتظراني نحو ساعتين فان لي اربًا اريد قضاه فاجابه يعقوب لذلك وقام هو وابن الشيخ الى غرفة يعقوب فمد يعقوب يده الى كرة وقال لابن الشيخ تذكر ما كنت وعدتك به حين كنا في البحر اول تعرفي بك فقال ابن الشيخ وقد كتبته في رقعة وارسلته لوالدي فقال يعقوب اني اشتريت هذه الكرة التي هي مثال للارض بما فيها لابين لك عليها الاقطار المعمورة من غير المعمورة وكيف تتوزع البحار عليها وحيث امهلنا حضرة الوالد ساعتين فالرأي عندي ان نصرف ذلك في معرفة بعض شيء من الجغرافية فقال ابن الشيخ ان في شوقًا شديدًا لمعرفة هذا العلم فقال يعقوب ستعرف ذلك قريبًا ان التيت بالك فانه علم لا صعوبة فيه

ولنبدا بمعرفة البحار المحيطة بالدنيا ويكفي الان أن تنظر لهذه الكرة ليثبت ما تراه في ذهنك

فاعلم ان جميع مــا تراه على سطحها محدودًا بخطوط هو اشارة الى الارض القارة والجزائر وما سواه من سطح الكرة هو المستور بالمياه ويتكون عنها البحار المسماة باسماء مختلفة على حسب اوضاعها وهذا الشريط المستطيل المنفرد وحده الممتد من اعلى الى اسفل الضيق الوسط العريض الطرفين هو المسمى بالدنيا الجديدة وهي الامريكتان الشمالية والجنوبية فالشمالية هي الجزء الاعلى من الشريط والجنوبية هي الجزء الاسفل منه

واما الدنيا القديمة فهي هذه القطع الثلاث المتصل بعضهــا

ببعض الممتدة بالاتساع من اعلى الى اسفل بدون انتظام وتنقسم الى قسمين صغير وكبير فالصغير في الجنوب الغربي ويعرف بافريقة وهي قطعة من الارض منها اقليم مصر والسودان والحبشة والمغرب وبلاد اخر والكبير في الشمال الشرقي والشمال الغربي فلذا قسموه الى قسمين ايضا غربي وشرقي فالغربي يعرف باوروبا التي منها فرانسا وجرمانيا والانكليز والروس وغيرها والشرقي يعرف باسيا التي منها بلاد العرب وارض الشام والعجم والهند والصين والترك وغيرها وجميع هذه القطع الصغيرة المرسومة في الجنوب الشرقي جزائر كبار وصغار واشهرها جزيرة هولاندة الجديدة وباقي هذه الجزائر تسمى جزائر اوقيانوس وهي من الدنيا القديمة

واعلم ان ما يسمونه بالبحر المحيط الجنوبي هو كناية عما انحصر من الماء بين شرقي الدنيا الجديدة وغربي الدنيا القديمة وما يقال له البحر الاطلنطيقي هو المحصور بين غربي الدنيا الجديدة وشرقي القديمة وهذان البحران ممتدان جهة القطبين وهناك يجتمعان ويتكون عنهما البحران المنجمدان وهما المنجمد الشمالي عند القطب الشمالي والمنجمد الجنوبي عند القطب الجنوبي

فاذا تاملت ذلك رأيت ان معظم الارض القارة في النصف الشمالي من الكرة وان معظم الماء موجود في الجنوبي منها ولذا اطلقوا اسم الاوقيانوس على ما انحصر من الماء بين الدائرة القطبية والارض القارة من جهة الجنوب الذي منه رأس عشم الخير وبحر

الهند المحيط بجزائر الاوقيانوس ويتصل بحدود افريقة واسية من جهة الجنوب انما هو قطعة من هذا البحر العظيم فكل مـاء يجري وسط الارض القارة من اي جهة من جهات الدنيا قديمة وجديدة مصبه تلك الابحر الاربعة

ثم ان كل بحر منها يتفرَّع منهُ بحار صغيرة تخترق الاراضي القارة مثل البحر المحيط قد اخترق الدنيا الجديدة فتكوّنت بها منهُ فروع منها بحر بهران وبحر الكاليفورني وبحر تيما وكذلك دخل منهُ في الدنيا القديمة فروع مثل بحر يابونيا وبحر الصين وغيرها من البحور وكذلك البحر المنجمد الشمالي تفرَّع منـهُ فروع فمن فروعه بالدنيا القديمة البحر الابيض ومن فروعه بالدنيا الجديدة البحر القطبي ومن فروع البحر الاطلنطيقي بالدنيا القديمة بحر بلتيقة والبحر المتوسط الذي على ساحله مدينة الاسكندرية وخليج غينا وفي الدنيا الجديدة بحر باقان وبحر هودسون وخليج مكسيك وغير ذلك وتشعب من بحر الهند البحر الاحمر وهو بحر القلزم وبحر عومان وخليج بنجال وبحر العجم

والبحر المحيط متصل بالمنجمد الشمالي في بغاز بهران وببحر الهند ببغازات عديدة في جزائر السند وهولاندة الجديدة ويتصل بالبحر المنجمد الجنوبي بالاوقيانوس وبالبحر الاطلنطيقي بالاوقيانوس وببغاز ماجيلان

واما البحر الاطلنطيقي فيتصل بواسطة البحر المنجمد الشمالي

ببحر اسلاندة وبواسطة البحر المتجمد الجنوبي بالاوقيانوس وبتصل بالبحر المحيط بالاوقيانوس وببغاز مجيلان وببحر الهند بالجزء من الاوقيانوس الذي في جنوب رأس عشم الخير

وجميع المياه الجارية فوق ارض الدنيا القديمة تصب في الابحر الاربعة التي ذكرناها كما تقدم وخط انقسام تلك المياه يتجه على غير انتظام من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي فيخرج من ابتداء الشرقي الى راس عشم الخير ويمرّ ببرزخ السويس

واما الماء الجاري في ارض الدنيا الجديدة جميعه فينصب في الثلاثة الابحر الاصلية وهي البحر المحيط والاطلنطيقي والمتجمد الشمالي وخط انقسامه فيها يتجه من الشمال الى الجنوب

ومساحة ارض الدنيا الجديدة عمارًا وخرابًا وسهلاً وحزنًا ٣٩٦ ٠٧٠ ٨ ميريامتر مربع

ومساحة الدنيا القديمة ٠٠٠ ٠٠٠ ٦٨ ميريامتر مربع اي ان سعة الدنيا القديمة قدر سعة الدنيا الجديدة ثماني مرات ونصفًا تقريبًا

وبما ذكرته لك تعلم اقسام المعمور من الارض على وجه العموم وما فيها من البحار ايضًا ثم لا بدَّ بعد ذلك من معرفة الامم الساكنة في كل قسم على حدته وهذا امر يطول لو اردنا الدخول فيه على وجه التفصيل فنقتصر على ذكره مجملاً لكن قبل الدخول في شرح ذلك اذكر لك بعض كلمات تقف بها على تاريخ علم الجغرافية لتعرف كيف تقدم هذا العلم تدريجًا

ثم نتكلم على قطعة اوروبا حيث نحن الان فيها فنقول الكرة الارضية كانت غير معلومة من جميع جهاتها كما هي الان فكانت كل امة في تلك الازمان الخالية تعد نفسها في وسط الارض وكانوا اذ ذاك يعتبرونها كقرص مستدير يحيط بهِ نهر عظيم كانوا يسمونه الاوقيانوس وكانوا اذ ذاك لا يعرفون من البحار غير البحر المتوسط وكانت ارض الروم تعتبر انها مركز لذلك القرص ويظنونه ممتدًا من جهة الشمال الى ما بعد نهر الطونة ومن جهة الغرب الى بغاز قادس ومن جهة الشرق الى حدود آسيا الصغرى ومن الجنوب الى آخر افريقا والبلاد المعلومة كانت بلاد الروم واسيا الصغرى ومصر وايتاليا

وفي زمن هيرودوط بطل اعتقاد الناس في البحر المحيط واتسعت قطعة اوروبا وآسيا وافريقا ما استكشف من الارض والبلاد وبقي ذلك الى زمن القرطاجيين فساحوا في البحر المحيط واستكشفوا الجزائر الخالدات في الجهات الجنوبية وجزائر الانكليز في الشمالية وبعد الاسكندر الاكبر عرفت اغلب بقاع اسيا الكبرى

ثم ان استرابون الجغرافي الشهير حصر جميع المعلومات الجغرافية الى وقته فكانت عبارة عن اغلب بقاع اسيا وافريقا واوروبا وهي محاطة ببحر عظيم والرومانيون بسبب حروبهم في جميع جهات الدنيا احاطوا بعلم كثير من جهات اوروبا خصوصًا الجهات الشمالية منها وكانت غير معلومة لذاك الوقت وعلمت حينئذٍ الامم

الساكنة على نهر الطونة وبحر البلتيكا وجزائر الانكليز

وفي القرن الثاني من الميلاد جمع بطليموس جميع المعلومات الجغرافية وضبط حدود الارض المعلومة ووسع الكلام في قطعة افريقا وآسيا وبين ارض الصين الا انهُ لم يعين الحد الغربي لافريقا

والمتبربرون النازلون من الشمال الذين هجموا على من باوروبا هم الذين وسعوا دائرة جغرافية هذه البقعة وذلك في القرون الوسطى ثم جاء من بعدهم العرب فبيّنوا جميع جهات اسيا وافريقا كل البيان وساحوا ارض الصين وجزائر السند وفي وقتهم مدّت الديانة المحمدية اغصانها وهزّت بلابل العز افنانها حتى وصلوا النهر المار من وسط ارض الهند ولم تعلم جهة شمال اوروبا الا من عهد حرب النورماندي ومن ذلك الوقت علمت البروسيا والسكنديناو والروس ومن عهد حروب الاتراك والمغول وُقف على معرفة سكان البقاع المركزية لآسيا وارض التتار وبلاد السيبيريا وغيرها من الجهات

ومن حين حرب القدس اشتاقت الناس الى السياحة فاتسعت دائرة الجغرافية اتساعًا عظيمًا بما استفيد من رسائل السياحين وترحلهم فعلمت اوضاع امم كثيرة كانت مجهولة الى ذلك الوقت خصوصًا اوضاع اسيا وافريقا

ثم لما اشترك جميع الناس في حب التجارة والسياحة حصل لهذا الفن تقدم عظيم وكثرت المعلومات وفي القرون الثلاثة التي

اشتغل فيها اهل الونديده وجنوه بالتجارة من بلاد الهند الى اوروبا بطريق البر لا بطريق البحر علمت اغلب البقاع والطرق المجهولة للناس ولما اخذ البرتغاليون البحر طريقًا لتجارتهم الهندية استكشفوا استكشافات عظيمة ووصلت سفنهم الى ما لم تصل اليه سفن الاقدمين حيث كانوا لا يتعدون رأس نون في المحيط الاتلانتيكي اما البرتغاليون فقد وصلت سفنهم الى جزائر كناريا سنة ١٤١٧ من الميـــلاد

ثم في سنة ١٤٣٢ وصلت الى جزائر الاسوز ثم حصل استكشاف السنجال سنة ١٤٤٥ وفي سنة ١٤٧٣ جاوزوا خط الاستواء وفي سنة ٨٤ استكشف برطولي دياد راس عشم الخير وفي اثناء سعادة البرتغاليين بالتجارة ظهر كرستوف كلومب الاسبانيولي واستكشف الدنيا الجديدة في الثاني عشر من شهر اكتوبر الافرنكي سنة ١٤٩٢ وفي تلك المدة وصل البرتغاليون راس عشم الخير وجميع سواحل تلك الجهة ومن ذلك الوقت صار ما بين اوروبا والهند طريقًا مسلوكًا وعلم الناس بحر العجم والبحر الاحمر وخليج عومان وخليج بنجال وغير ذلك من بقاع شتى وذلك انه من نحو مائة سنة كانت اغلب التجارة فيهـــا للبرتغاليين فاستكشفوا جزيرة ملقة سنة ١٥٠٠ وجزائر السند سنة ١٥١٠ وفي التي تليها جزيرة سيام ثم في التي تليها جزيرة ملوك وفي سنة ١٥١٦ استكشفت سواحل الصين وفي سنة ١٥٤٢

سواحل يابونيا ثم فعل الاسبانيون كما فعل البرتغاليون في جهات امريكا وفي سنة ١٥١٣ صار اغلب جهاتها معلوما مسلوكا وفي سنة ١٥٢٠ علمت الطريق من امريكا الى الهند وفي سنة ١٦١٠ كثر استكشاف جهات الدنيا الجديدة حتى علمت بتمامها

ومن حينئذ اتسعت دائرة التجارة والملاحة وجابت جميع الامم البحار بسفنها واستكشفوا كثيرًا من الجزائر ووقفوا على جميع الجهات المعموره من الارض ولم يبق لهم مجهول يبحثون عليه غير الطريق الموصل للقطب الشمالي ووسط افريقا وهولندة الجديدة

وما ذكرته لك وان كان على وجه الاختصار الا انه يمكنك به ان تعلم كيف تقدم هذا العلم الى ان صارت الملاحة الآن اهون شيء حيث بني على قواعد بمقتضاها تجوز الفلك البحار العظام وتسير على خطوط معلومة مضبوطة بالحساب ويصل الناس الى اقصى اغراضهم من اي جهة من الكرة امنين مما كان يحصل في الازمان الخالية فان الملاحين كانوا اغراضًا لكل مخيف لقلة معرفتهم بهذا العلم فكانوا يضلون عن الطريق واذا تعددت الطرق لا يدرون النجاة في اي طريق فكان من ينجو منهم تطول عليه المدة

وبينما هما يتحدثان والى تلك الكرة ينظران اذ دخل عليهما الشيخ فاراد يعقوب ان يقطع الكلام فقال له الشيخ امض فيما انت

فيه فقال اني خشيت تضييع الوقت فاحببت ان اتكلم معه على الكرة في بعض مواد جغرافية ولكن حيث حضرتم فينبغي ان نقف عندما وصلنا ونخرج فقال وانا اريد ايضًا ان تبين لي مزية هذه الكرة وما عليها من الرسوم فاعاد له يعقوب حاصل ما تقدم بالاختصار ثم قال وسيكون ذلك ان شاء الله تعالى في مرة اخرى

فقال الشيخ بل انجز ذلك الان ونجعل خروجنا بعد ساعة فانه ليس المراد من الخروج غير الفسحة وطال ما كنت اتشوق الى الاطلاع على جغرافية قطعة اوروبا وكم سنح بخاطري ان اسال حضرة الخواجا عن ذلك فتحدث امور تمنع وحيث كنت الان بهذا الصدد فاروم منك شرح ما تعلمه فيها فقال يعقوب هذا بعض ما يجب علي

قطعة اوروبا محاطة ببحار من جميع الجهات الا جهة واحدة فمن جهة الشمال بالبحر المتجمد الشمالي ومن جهة الغرب بالبحر الاطلنطيقي ومن الجنوب بالبحر المتوسط ومن الشرق بجزء من البحر المتوسط وبالبحر الاسود وبخط وهمي يمر باعالي جبال القوقاز ويمتد الى بحر الخزر ثم بنهر اورال وجبالها وينتهي الى رأس ويجاز واكبر طولها خمسمائة وثلثون ميرياميتر واكبر عرض منها ثلثمائة واربعة وثمانون ميرياميتر وطول سواحلها البحرية ٢٢٧٣ ميريا متر وحدها في الارض طوله ٣٩١ ميريامتر ومساحتها ٩٧٧٨٠٤

ميريامتر مربع وعدد اهلها ٣٢٠٠٠٠٠٠ نفس وعلى حسب ارضها وما تشتمل عليه من الجبال يمكن تقسيمها الى جنوبية وشمالية فالاولى عبارة عن ارض مرتفعة جدًا وبها جبال عالية مختلفة هيئة وانحدارًا وبسواحلها البحرية خلجان كثيرة

وبارض ذلك الجزء انهر كثيرة تمتد في جميع جهاته وبهذه الصفات تكون محفوظة من الرياح الشمالية وعرضة للرياح الشرقية الافريقية الرطبة بسبب البحر المتوسط والثانية عبارة عن ارض واسعة وبرك متعددة ولهذه الصفات كانت عرضة للرياح الباردة الثلجية التي تهب من اسيا ومن البحر المتجمد الشمالي فارتفاع اوروبا الجنوبية وكثرة موانيها سبب في اتساع دائرة الفلاحة والتجارة بها وموجب لاستقلال اهلها وتمدنهم بخلاف اوروبا الشمالية فان ارضها مع اتساعها ليست مسكونة الا بامم فقرا متوحشين في قبضة حكومة تتصرف فيهم كيف شاءت وكل من الاثنين وان وجد في سواحله خلجان وبحار الا ان وضع البحر المتوسط الملاصق لاوروبا الجنوبية بين ثلاثة اقسام الدنيا اسيا وافريقا واوروبا هو الموجب لسعادة اهل هذا القسم منذ اربعة الاف سنة وهو منبع التمدن ومركز تجارة جميع الامم ولو قارنا قطعة اوروبا بغيرها من الارض لوجدناها اقل منها خيرًا بالطبع فانه ليس بها ما بالاخرى من النبات والحيوان والمعادن واكثر ما يوجد بارضها الحديد وكان غالبها مغطى بالغابات لكن مع طول الزمن ومساعدة طيب الهوآ وهمة

هلها صارت اكثر بقاع الارض عمرانًا وخيرًا فالانسان هو الذي بتذبيره كساها حلل البهاء فهي دليل على عظم قدر نوع الانسان وعلو شانه فقد جلب لها جميع انواع النبات النائعة من البقاع الشاسعة وكذالك جمع فيها انواع الحيوانات من جميع الجهات والف بين هذه الاجناس فتفرع من ذلك افنان التمدن وبعد ان كانت انهرها تمر في خلالها بغير فائدة عمل لها اهلها جسورًا قوية وطرقًا هندسية وسووا سطوح جبالها ونشفوا مستنقعاتها المضرة فاتسعت بذلك ارض الزراعة وعمرت بالمدن والبلاد وبحسن التدبير تسلطنوا على البحار واخترعوا في ذلك اختراعات كثيرة حتى وصلت رسائلهم الى جميع الجهات وجلبت منها جميع المحصولات فزادت ثروة اهلها وصحت ابدانهم وصارت ارضها انقى الارض هواء واكثرها ثمارًا وتنقسم اوروبا بالنظر للبحار المحيطة بها والانهر الموجودة داخلها الى سبعة اقسام طبيعية

الاول الاندلس

الثاني فرانسا والجول

الثالث جرمانيا

الرابع ايتاليا

الخامس الروم

السادس الروس

السابع اسكاندناوة

ويضاف الى ذلك قسم سكان الجزائر وهم الانكليز فتكون اقسامها به ثمانية وهذه الاقسام كانت مسكونة في الزمن السابق بست امم متباينة فكان في جزيرة اليونان والروم وجنوب ايتاليا امة يقال لها البيلاسك وفي شمال ايتاليا وبجيث جزيرة الاندلس امة يقال لها الايبير وفي الجول وجزائر الانكليز امة الجال او الكلت وفي جرمانيا والسكانديناوه الجرمانيون وكانت تنقسم الى كيمريس وتوتون وجوت وبارض الروس كان السلاف والفنواي واول امة منهم دخل فيها التمدن هي الامة الرومية فالروم هم السابقون في ذلك وعنهم اخذ من جاورهم من الامم ولكن لم يغيروا شيئاً من عوائد الامم الذين استولوا عليهم وغاية ما هنالك انه خرج اناس منهم الى ايتاليا وجزائر البحر المتوسط وبعض من جهات الجول وكانت جل همتهم بلاد المشرق فاسسوا بها دولة عظيمة وتبعهم الرومانيون وهم امة صغيرة من الايتاليين استولوا باستمرار الحروب على الثلاث الاول من الامم الست المذكورة واختلطوا بالخامسة وجهلوا البقية

فلما تمكنت دولتهم وقويت شوكتهم واتسعت مملكتهم تغيرت جغرافية اوروبا الجنوبية وذلك لان ملكهم وصل من جهة الغرب الى البحر الاطلنطيقي ومن الشمال الى نهر الرين ونهر الطونة ومن الشرق والجنوب الى حدود اوروبا من ابتداء مصب الطونة في البحر الاسود الى بغاز الطارق وكان حكمهم ممتدًا كثيرًا فيحكمون

على جميع الجهة الشرقية من اسيا والشمالية من افريقيا وكانت مملكتهم مقسمه الى ولايات منها ولاية الروم وولاية ايتاليا وولاية اسبانيا وولايه الجول وولاية بروتانيا وبعدها ما على شاطئ نهر الطونة الايمن ثم في سنة ٣٦٤ من الميلاد انقسمت تلك الدوله الى دولتين مشرقية ومغربية فكان يتبع الدولة المشرقية الروم وبعض جهات من اوروبا وولايات اسيا جميعها والجهة الشمالية الشرقية من افريقا ويتبع الدولة الغربية جميع ما بقي من افريقة من الشمال الغربي وما بقي من اوروبا

وبعد تلك الايام قامت الامم المتبربرة التي كانت متوطنة بالجهات الشمالية من اوروبا واغارت على الجهات الجنوبية منها واستولوا عليها وابطلوا دولة الرومانيين المغربية وغيروا ترتيب سياسة اوروبا وسموا الارض بغير اسمائها فلذلك تغيرت جغرافية هذا القسم

والذي استولى على جزيرة الاندلس من تلك الامم امة يقال لها الويزجوث وعلى ارض الجول امة منهم يقال لها الفرنج والذي استولى على ايتاليا الاستروجوت ثم اللومباردي وعلى جزائر الانكليز الانجل والسكس وعلى ارض جرمانيا السلاف اي الصقالبة ولم يبقَ من دولة الروم المشرقية الا ارض الروم فقط

فازمانهم كانت فتنًا وحروبًا وسفك دماء واستمر ذلك الى سنة ثمانمائة ميلادية ثم قويت الفرنج واسست دولة المغرب وكانت

تشتمل على الجول وايتاليا وجرمانيا الى نهر الطونة وخمدت سطوة الاقوام المتبربرة وابتدأت جرمانيا في التمدن وسمع باسم البلغاريين والبوهيم وغيرهم وظهرت دول صغيرة منها دينمرك ونورويج وسويد وفينلند وظهر اسم الروس

ثم دخلت العرب اوروبا واستحوذت على الاندلس وانتزعتها من الاوروباويين وادخلت جزائر الروم في ضمن اسيا

واستمر النزاع بينهم الى سنة ٨٤٢ ثم زالت دولة الفرنج بالكلية وظهر بدلها ثلاث دول من الامم الثلاث التي كانت متركبة منها وهي فرانسا وايتاليا والمانيا وفي القرن الحادي عشر انقسمت اوروبا الى دول صغيرة فكان في الاندلس ثلاث دول وهي نوار وليون وكاستيل

وفي الجول فرانسا واللورين والبرونس وغيرها وفي جرمانيا المانيا وبوهيم والهنجري الذين هم المجر والبولونيا اي اللاه ودينمرك وسويد ونورويج وسكنديناوة والروسية وغير ذلك وفي ايتاليا ايتاليا وصقلية وغير ذلك وفي جزائر الانكليز ثلاث دول بروتانيا وايكوسنا وارلاندة وبقيت مملكة الاسلام والروم خارجة عن اوروبا وبتوالي الازمان وتقلب الحدثان تداخلت الدول بعضها في بعض

ففي القرن السادس عشر تغلب بيت ملك انمسا على

اوروبا وغيّر ترتيبها فدخلت جزائر اليونان في مملكة الترك وانعزلت عن اوروبا

وانقسمت ايطاليا الى سبع دول وانفصلت جزيرة الاندلس من مملكة الاسلام وصارت اربع دول من ضمنها مملكة البرتغال

وانقسمت فرانسا الى اكثر من اثنتي عشرة دولة وجرمانيا الى اربع دول المانيا والمجر واللاه ودينمارك

وانقسم الروس الى امارتين امارة ليتاني وامارة مسكو وهذه الاخيرة مركبة من خلق مجهولة احوالهم

وانقسم السكنديناوة الى مملكتين السويد ونوروج

وانقسم الانكليز الى ثلاث ممالك بروتانيا وايكوس وارلانده وكانت نيران الحرب في تلك المدة مشتعلة لتخلص من قهر ملك النمسا من كان تحته من الامم فاستمر ذلك مائة وخمسين عاماً ثم انغلب ملك النمسا وخرج كثير من ملكه الذي كان مشتملا على جزيرة الاندلس وايتاليا والبلاد الواطية (هولاندة) وعملت بين الدول شروط تعرف في التاريخ بشروط ويستفالي وعلى مقتضاها ترتبت اوروبا ترتيباً جديدا استمروا عليه الى سنة ١٧٨٩ فكانت حينئذٍ بلاد الروم في قبضة الترك وايتاليا كانت منقسمة كما كانت في القرن السادس عشر وجزيرة الاندلس كانت منقسمة الى دولتين اسبانيا والبرتغال والجول الى عدة دول صغيرة وجرمانيا الى المانيا وبروسيا ودينمارك واللاه والمجر

والى دولة مركبة من عدة جهات وصار الروس دولة واحدة وبقيت السكندناوة على ما كانت عليه وصارت جزائر الانكليز دولة واحدة

وكذا الحروب التي حدثت عن قيام فرانسا غيرت هيئة اوروبا تغييرًا كبيرًا ففي سنة ١٧٩٧ كان لفرنسا حدودها الطبيعية ما عدا سويسرة ثم زالت دولة ونديك اي البندقانيين وقسمت دولة اللاه بين البروسيا والروسية والنمسا وفي سنة ١٨٠٢ انضمت ولاية البيومنتي الى فرنسا وزالت دولة المانيا وفي سنة ١٨٠٦ عوضت بدولة النمسا وتكونت من ولايات باويرا وويرتانبرج وسكس وولايات اخرى ودولة المانيا المتعاهدة وانفصل من ايتاليا جهاتها الشمالية واستقلت وملكت فرانسا عدة ولايات اضافتها لملكها وفي سنة ١٨٠٧ خرج كثير من الولايات الداخلة في البروسيا من قبضتها وصارت ممالك مستقلة منها ولاية الويستفالي وخرجت ايضًا عنها ولاية اللاه واستقلت باسم وارسووي

وفي سنة ١٨٢١ اتسعت دولة فرانسا وخرجت عن حدها الاصلي بادخال هولاندة وسواحل البحر الشمالي وضمت لها التوسكاني وولايات الكنيسة الرومانية وكانت تحكم على ولايات نهر الرين وجزائر الروم وايتاليا ونابلي واسبانيا والبرتغال وغير ذلك

وكان من جملة الشروط التي ترتبت عليها اوروبا المنعقدة

سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٥ ان يكون جزء من جزائر الروم تحت حكم الترك وان يكون الباقي منها على الاستقلال هو مملكة الروم وصارت ايتاليا عبارة عن امارة صقلية وامارة الكنيسة وامارة توسكانا وامارات اخرى صغيرة وصارت حكومة الجول عبارة عن مملكة وجزء منها صار هو مملكة هولاندة وجزء اخر اعطي للبروسيا وغير ذلك وانقسمت جرمانيا الى تسع وثلاثين ولاية متعاهدة اكبرها النمسا وبروسيا وان يكون جميع شمال اوروبا واسكنديناوة في تصرف الروسيا وكانت منقسمة الى ولايتين تحت تصرف ملك واحد وصارت جزائر الانكليز دولة واحدة ويوجد في هولاء القوم الى الان اثار عوائدهم ولغاتهم الاصلية فالروم اغلب اهلها من البيلاسك ولغتهم من لغة الروم القديمة واغلب ايتاليا من الامة القديمة ودخل معهم الجرمانيون في الجهة الشمالية ودخل في الجنوبية العرب ولغتهم صارت من الرومية وبقي في جزيرة الاندلس ما قل من الامة الاصلية واغلبها من الرومانيين والويزيجون والعرب ولسانهم من اللغة الرومانية وفي الجول قليل من سكانها الاول واكثرها اخلاط من الرومانيين والجرمانيين ولسانهم مأخوذ من الرومانيين واغلب سكان جرمانيا من النسل القديم والسلاو ولسانهم هو لسان ابائهم الاول من غير تغيير والروس عبارة عن سلاو وفينول ولسانهم اللسان القديم واهل السكنديناوة والتوتونيون لسانهم هو القديم ايضاً ونصف اهل جزائر الانكليز من الامة

الاصلية والنصف الثاني من الجرمانيين والرومانيين ولسانهم مشتق من لسان التوتون مع اللسان الروماني او الفرنساوي وفي جهة الجبال يوجد بعض يتكلم بلسان السلت التتار وهم الامة الاصلية وبعض اخر اتراك وجراكسة وباوروبا في هذه الحالة ثلاثة انواع من سكانها الاصليين ففي جهة الجنوب الطائفة اليونانية الرومانية وهم ينقسمون الى اروام وتليانيين واندلسيين وفرنساوية وعددهم نحو سبعين مليونًا

وفي الوسط والغرب نوع التوتون وينقسم الى المانيين وسكندينافوة وانكليز وعددهم نحو ستين مليونا وفي الشمال والشرق عائلة السلاو أي الصقالبة وتنقسم إلى الروس والسلاه وعددهم سبعون مليونا والى الفينوى والترك واليهود وغيرهم ويقربون من عشرين مليونًا وغالب اهل اوروبا يتدينون بدين النصرانية وهناك قليل من المسلمين واليهودُ وفي بعض بقاع صغيرة في جهتها الشمالية عباد اوثان واهل الجهة الجنوبية يبلغ عددهم نحو مائة مليون والروم بالجهة الشرقية وعددهم ستون مليونًا والبروتستان بالجهة الشمالية وعددهم خمسون مليونًا والمسلمون واليهود وغيرهم نحو عشرة ملايين

واما جيوش الدول الاوروباوية فعددهم يقرب من مليونين من المقاتلين في وقت السلم ويصرف عليهم في العام ما يقرب من خمسي ايراد ممالكها

ثم انه خشي طول المجلس فقال وهذا الذي ذكرته في هـذه الساعة انما هو على وجه الاجمال والاختصار وان شاء الله تعالى في مرة اخرى ابين لكما كل دولة على حدتها

فقال ابن الشيخ كنت اود ان توقفني على البحر المتجمد وكيفيته وهل يستطيع احد ان يقرب منه فقال الشيخ نجعل الكلام في ذلك بالعربة ثم قاموا وركبوها

المسامرة (١٠١)

نزهة في باريس

فقال الشيخ اني ما خرجت مرة بهذه البلدة الا وعجبت من كبرها وكثرة اهلها وتتابع حركتهم ليلا ونهارًا وكان الشيخ يتضرر من سكناه داخل البلد لما يرى ويسمع دائما من الحركات القوية والاصوات الانسانية والحيوانية فان العربات ليلاً ونهارًا تمرّ وتكر فيكون لعجلاتها اصوات في تصادمها بالاحجار المفروشة في الطرقات

ولشبابيك الدور والقصور والحوانيت ارتجاج من الارياح والفتح والغلق وللسكارى واصحاب الاسباب والحظوظ اصوات والحان وذهاب واياب وكل ذلك يورث القلق وتشويش البال وتخييل الاشغال فقال ليعقوب لو سكنا خارج البلد لكان لنا اوفق ولصحة جسمنا انفع وارفق فقال يعقوب رأي الشيخ في محله فان الخواجا ايضاً متضرر من الاقامة بهذا المحل ولكن الذي الجأه الى الاقامة به قربه من محل شغله واصحابه وقد وصف لي محلاً اوسع من هذا يطل على حديقة وبينه وبين الشارع مسافة ولو كان عند الخواجا خبر بتضرركم من هذا المحل لبادر الى النقلة وما تاخر فاثنى الشيخ عليهما ثم قال ان مدينة باريز لمن اعجب مدن الدنيا بما حوته من المحاسن والزخارف والتحف واللطائف وثروة اهلها وحسن بنائها واظن ان عيشة الفقراء بها ضنكة لكثرة اهلها

فقال يعقوب ربما كان حال الفقير بها احسن منه بغيرها فان اصحاب المال كما يعملون الاعمال العظيمة ليربحوا كثيراً كذلك الفقراء لهم طرق متنوعة يصلون بها الى اقواتهم وتلذذاتهم على حسب حالهم وفقراء كل مدينة على حسبها وكل ما كبرت المدينة وزاد بها زهو الاغنيا كثرت بها طرق معاش الفقراء فانهم مع انتشارهم في الخدم والوظائف يتتبعون اموراً كثيرة لا يعلمها الا من دقق النظر اليهم مثلا البواب لا يقتصر على وظيفته بل يرى هو وعياله مشغولين بما يجلب لهم سعة المعاش فالرجل

يخصف النعال والمداسات والمرأة تخيط الثياب والبنت تغني وتتعلم الغنا والولد يسحق اجزاء الملونات واذا تاملت تجد بالدروب اناسًا فقراء يجمعون من التراب والطين قطع حديد ومسامير ورجالا واطفالا يمسحون مراكيب الناس واخرين يقصون شعر الكلاب واخرين يبيعون الكبريت والحلاوة او المشروبات للاطفال ومنهم من ينادي على الملابس العتيقة ومن يبيع الرياحين واوراق الحوادث والاعلانات وقطع اللعب داخل التياترات وهذه الامور وان كانت في الظاهر قليلة الفائدة لكن كثيرًا ما وصل بها الفقراء الى ملك عقار ومال حتى عدوا من وجوه الناس واظن انك رايت اناسًا بالليل يجمعون الورق الملقى بالطرق والعظام فقال نعم قال هذه امور يتعيش منها خلق كثيرون ويكسبون منها قوت عيالهم وهناك طوائف كثيرة عيشتهم من التملق والكذب والتجسس والخيانة ونحو ذلك ما يوجد في المدن الكبيرة

فقال ابن الشيخ بالقاهرة كثير من الناس يجمعون فضلات السجارات التي ترمى وياخذون منها الدخان ويبيعونه بالاسواق ويقتاتون بثمنها واخرون يجمعون قطع الزجاج ويبيعونها لمن يصنعها اساور لفقراء النساء ونحو ذلك

فقال الشيخ ان الله سبحانه وتعالى يسر لعباده طرق الارزاق وهو في الحقيقة الرزاق فجعل لكل مخلوق وجهًا يصل اليه منه

رزقه الذي تقوم به حياته فسبحان مسبب الاسباب وهو المعطي الوهاب فقال يعقوب مدينة باريز فضلاً عن كونها مركزًا للهو واللعب والحظ والطرب هي ايضًا مركز لتجارة واسعة ترد اليها من جميع اطراف دولتها ومن جميع اقطار الدنيا وتصدر منها الى البقاع كافة فلا بقعة في الارض الا وترد اليها منها بضاعة نجدها مرغوبة لجميع الناس لاحكام صنعتها وحسن رونقها وبهجتها فكل اهل اوروبا يرغبون فيها ولا يستغنون عنها وكذا اسيا وافريقا وامريكا وجزائر الاوقيانوس فلذلك تعلق الباريزيون بالاشتغال بالصنائع واكثروا من الورَش والعامل فانسعت دائرة تجارتهم فتراها بذلك منبع الصنائع اللطيفة والتحف المنيفة فليست تخت دولتها فقط بل تخت دول الكرة بتمامها

ثم قال أيها الشيخ قد صرنا خارج البلد فينبغي ان نصرف هذه الساعة في التروح والتنزه وإن شاء الله تعالى ابين لكما ما اشتملت عليه باريز من الصنائع وما فيها من الورش والمعامل وبيوت الاعمال فنظر الشيخ يمينا وشمالا وقال ما الطف هذا النسيم شتان ما بينه وبين ما في داخل البلد فما هنا من مورث الصحة بسبب صفاء الهواء بقدر ما هناك من موجب المرض بسبب كدورة الهواء والعفونات فلنعم انت من انسان حيث جئت بنا الى هذا المكان ثم صار يكرر الالتفات يمينا وشمالا نحو القصور فيجد بعضها بحافة الطريق والبعض بعيدًا عنها وكل منها داخل

حديقة حسنة الشكل منظمة الوضع فيها من كل انواع الاشجار والازهار وكان يرى اودية بين القصور فيها البقول والخضراوات وتارة يجد ارضًا متسعة كلها اشجار ملتفة وازهار موءتلفة الا ان بعضها مرتفع وبعضها منخفض وفي بعض اماكن جبالا وهضبات مرتفعة متراكمة بعضها فوق بعض كطبقات الثوب وما نظر الى جهة الا راى الشمس قد رسمت على سطحها صورا مختلفة من ظل الصخور والاشجار التي بها فكانت الرياح بها تخفق والاغصان ببعضها تصفق وتخيل للشيخ في ذلك الوقت ان هناك موسقى تضرب لما يسمعه من حفيف الاشجار وتغريد الاطيار وصياح البلابل وترنم العنادل وتارة كان يمتزج حفيف الشجر بخرير الجداول والانهار وتغريد القماري والاطيار فتفكر الشيخ في محكم هذا الصنع وقال من تامل لحركات هذه الاشجار قال انها متمتعة بالحياة في هذه الدار ولها شهوات كما للحيوانات فترى البعض يخضع ويتضع والبعض يعلو ويرتفع والبعض يتمايل وينعطف على غيره والبعض مضطرب اضطراب المتعادين واخر ينضم انضمام المتحابين فكان الالفة والتحاب والتنافر والاجتناب كما يكون بين نوع الانسان يكون بين الطيور والاغصان فترى البعض كمن ذهب وقاره او اذاه جاره والبعض كمن افتقر بعد الغنا او فارقه خلانه حتى آل الى الفنا ففيها المجرد عن اوراقه والمجروح باحتكاك الاخر فيه وخالي الجوف من طول معيشته

وخصوصا اذا كان مجاوراً للقائم على ساقه المزدهي بغصونه واوراقه ومنها كالمظهر للدلال يميل مع الريح حيث مال

وفيها ما يحيط به شيء من جنسه وغير جنسه فهذا كمن نال درج العز في هذه الدنيا فما من كبير او صغير الا ويدل على عظمة الخالق اللطيف الخبير

وبينا هم كذلك اذ وصلوا الى عين ماء فنزلوا جميعا ثم قال يعقوب للفرنجي خذ هذه الدراهم وتوجه الى تلك اللوكاندة وهيء لنا طعاماً فتوجه وفي الحال احضر لهم الطعام فمالوا به نحو العين فاكلوا

ثم قال الشيخ ان النفس بهذا المكان قد انبسطت والابدان من وخامة البلد قد نشطت وصار الذهن صافيا والوقت موافياً فان تفضلت علينا وتلوت باقي قصتك كان حسناً

المسامرة (١٠٢)

تتمة حكاية يعقوب واخته

فقال يعقوب نعم اني كنت ذكرت لحضرتكم اني بعد حضوري الى لوندرة وتمام ما كان من امر الدراهم التي كنت اودعتها عند زوجة القبطان قصدت البلد لانظر ماذا حصل لاختي في تلك المدة التي قضيتها في الاسر فدخلت قبل غروب الشمس فتوجهت الى منزل الست التي كنت انا واختي عندها فوجدت احوالها متغيرة ولم اجد احداً بالمنزل ممن كنت اعرفهم بل كلهم مستحدثون فسألتهم عن اختي فلم يفدني احد منهم شيئًا انما اخبرت بان صاحبة المنزل ماتت منذ ثلاث سنوات وقد باع زوجها منزلها وتوجه مع اخته واولاده الى بلاد الهند فخرجت الى حانوت الجزمي معلمي فلما وقع نظره عليّ قام وعانقني واجلسني بجانبه ثم دار بيننا الحديث

فسألني عما جرى فقصصت عليه قصتي بالاختصار ثم سألته عن اختي فقال هي وحدها في المكان الفلاني اخذته منذ سنة وصار يتاسف على ما نابني ويلومني على مخالفتي له ثم استأذنته في التوجه الى اختي فقام معي واخذ بيدي وسرنا حتى وصلنا البيت فسالت زوجة البواب عن نمرة مسكنها فدلتني فصعدنا حتى وصلنا المكان وطرقت الباب ففتحت فلما وقع بصرها عليّ تعانقنا والمعلم ينظر الينا ثم جلسنا وجلس المعلم معنا قليلاً ثم ودعنا وانصرف فقضينا غالب الليل نتحدّث فيما وقع لنا من الحوادث فكان مما حدثتني به ان قالت انها لما انقطع خبري عنها حزنت حزنًا شديدًا وكانت الست لمحبتها لها تصبرها وتسليها حتى البستها ثوب الصبر ولكن كانت تعتزل الناس احيانًا وتبكي عليّ واستمرّت كذلك الى ان ماتت الست فخرجت من البيت ولم ترضَ بخدمة غيرها واخذت هذا المسكن وكانت تقتات من صنعة الخياطة ولها مهارة فيها وكانت حلوة اللسان فألفها كثير من الناس وقدموها على غيرها من الخياطين فاتخذت لها حانوتًا جمعت فيه عدة من البنات وكانت تصرف عليهنّ فاكتسبت من ذلك نحو ثلثمائة جنيه فقلت لها يا اختي لو جمعنا ما تحصلنا عليه لعشنا سوية في ارغد عيش ففرحت بذلك وبحثت على محل واسع واستاجرتهُ لنا وصرنا معًا فكنت اخرج معها بعد تمام اشغالنا نحو الغابات حول البلد وتارةً نحو البلاد المجاورة واخرى في ارض الزراعة او في حارات البلد

فكنت اسمع منها عبارات حسنة عند ذكرها ما رأته من الحوادث وما عاينته من المشاق مدة الافتراق وفي الخلوات كانت تملأ قلبي سرورًا بانغام لطيفه تسمعني اياها ولكنها كانت اذا ذكرت ما رات من الحوادث وما قاست من الشدائد والم الفراق ندمع عيناهـا فاطيب خاطرها واسليها وكثيرًا ما ارى على وجهها التغير فاسالها فلا تفيدني شيئًا وكانت في بعض الاوقات تذكر الترهب وتمدحه وتمدح العزلة عن الخلق وكثيرًا ما قالت لي انت السبب في حبي للبقاء في الدنيا فاسمع كلامها ولا افكر في معناه لكن لما تكررت منها هذه العبارات في كثير من الاحيان خطر ببالي انها تخفي عني بعض احوالها فكنت اكثر الاستفهام منها فلا تفيدني ومضى علينا احد عشر شهرًا ونحن على هذه الحال ثم بعد ان كانت تظهر السرور احيانا اكثرت من البكاء فكنت ادخل عليها بغتة فاجدها تبكي بكاء شديدًا فاذا راتني سكتت فداخلني الوسواس وضاق صدري وزاد همي وفقدت راحتي حتى تمنيت الموت وعلى قدر ما كنت ارغب في معرفة السبب كانت تجتهد في اخفائه عليّ فصرت بهذه الاسباب اقضي غالب الايام سياحة في البلاد وفي الغابات فكنت اغيب اسبوعين او اكثر واعود فلا اجدها تحولت عن حالها حتى اعتراها النحول وزاد مرضها فاستاذنتها في التوجه الى لوندرة لافرج عن نفسي فتوجهت واقمت هنـاك نحو اسبوعين ثم عدت فلم اجدهـا بالمنزل وسالت

عنها فقيل لي انها خرجت وما عادت فضقت ذرعا من ذلك حتى كدت اقتل نفسي وتراكمت عليّ مصائب الدهر ورأيتني وحيداً كما كنت في بلاد الغربة فخطر ببالي الاختلاط بالناس عسى ان تزول عني افكاري وتهون علي احزاني فلما اختلطت بهم تحققت خطاء ظني لما كنت اعاينه عند مخالطتهم من فساد افكارهم لاني كنت اذا تكلمت لا يسمعون مني وان اصغيت لقولهم فلا استفيد منهم شيئًا وجاهدت نفسي على ان اعودها الائتلاف بهم فلم يمكن فاحترت حيرة شديدة وضاقت عليّ الارض بما رحبت واحببت ان اسكن جهة من البلد غير مطروقة واعيش فيها وحيدًا عن الناس بعيدًا وكانت تظهر لي ابتداء لذة العزلة عن الناس واذا اجتمعت بهم كاني في فلاة خالية منهم فلا التفت لما يفعلون ولا اصغي لما يقولون وكانت اكثر اوقات النهار تمضي وانا بالكنيسة متفكرًا في حوادث الدهر وكنت ارى فيها بعض نساء خاضعة خاشعة من خشية الله تعالى واخر يطلبن غفر ذنوبهن وبعد خروجهن يرى على وجوههن السرور فكانت الشهوات البشرية تتلاطم امواجها خارج المعبد وتفقد في داخله ففي تلك اللحظات كنت اطلب الخلاص من اهوال الدنيا بالموت ليطمئن قلبي وفي الغروب اتوجه نحو مسكني فاكثر النظر للشمس حين الغروب وللابخرة المتصاعدة باشعتها من المدينة فكانت تظهر لي كانها تتماوج في مائع من ذهب وفي الليل كنت امر من وسط

الحارات وانظر فيما حواليَّ واتفكر في وجودي ببلدة مثل هذه كبيرة ولا صاحب لي بها ولا حبيب ومن مبدأ عمري وانا في الهوان الى هذا الان وبعد ما ظننت ان الهموم انقضت باجتماعي باختي ساءني الدهر بفرقتها من غير ان تعلمني بمستقرها وما دريت ماذا حسن لها ذلك مع علمها ان لا محب لها غيري فكان ذلك يهيج اشجاني ويزيد احزاني فحل بجسمي السقم وزاد الالم فكنت بسبب ذلك امضي الايام متفكرًا ومن هذه الامور متحيرًا ثم طرأ عليّ في يوم ان اذهب نحو الغابات واعتزل عن المخلوقات مدة الدهر الى انقضاء العمر فذهبت الى ما اردت فضوعف عليَّ العذاب امثالاً وزاد البدن اضمحلالاً وزاد بي الفكر واشتد عليَّ الامر وقضيت مدة طويلة على هذه الحال فكنت اقيم في الغابة تارة واسيح فوق رؤوس الجبال اخرى لا ارى غير السحاب ولا اسمع غير الرعد وكنت ارى القرى على بعد كانها نقط سود حولها دخان وانفكر في الرعاة والزراع حين رؤيتي لهم على بعد فاقول ما من احد منهم الا وله اءلف يترقب عوده وقلب يحن له حين يجتمع به فكل منهم له امر يهمه وانت يا يعقوب حكم عليك القاهر بالعزلة وكيف تطلب الراحة بها مع انك لم تجدها فيها وماذا عليك اذا اقتديت بغيرك ورجعت الى العمران واخترت من النسا امرأة تقضي زمنك معها وتشتغل بامر تتعيش منه وربما رزقت باولاد تفرح بهم وتزول بهم عنك هذه الهموم فكنت ارتاح بتلك الافكار ثم بعد قليل اقول اي انسان

يرضى باعطائك ابنته ولا حسب لك ولا نسب لا سيما وهم يعرفون اصلك ومحل تربيتك وعلى فرض وجود من يرضى بك فمن يكفل لك دوام المعاشرة واستمرار المودة وكيف اطمئن الى معاشرة الناس مع ان ما حصل من اختي شقيقتي شاهد بعدم بقاء المودة بيني وبينهم وهل احد اقرب اليّ من اختي ثم تكر عليّ الافكار المحزنة بجيوشها حتى اقول ان كانت الحياة هكذا فالموت احسن من الحياة وجمع الاموال بمقاساة الاهوال فكنت متردداً غريقاً في بحار الافكار لا اقف عند رأي ارتضيه واذا وقفت تغير لوقته فصرت كسفينة في لجة تسير مع كل هواء هب وموج دب وكلما تأملت احوال الخلق سئمت عشرتهم وابغضت الفتهم وفي بعض الاحيان كنت الوم نفسي واقول ما من احد الا وله امر يهمه ولا بد من مرور هموم الدنيا على كل احد فلا صغير ولا كبير ولا حقير ولا امير الا ويلحقه امور تكدره فيلزمه ان يستعد لها ويصبر عند نزولها وعلى العاقل ان يسير مع الناس في طباعهم واخلاقهم وليس له ان يحكم على الناس بطبعه فينبغي لك ان تلتزم بالخطاء في امورك وتنزع ثياب العزلة والحزن عنك فكنت ارجع الى البلد واخالط الناس مجتهداً في موافقتهم والسير حسب طباعهم فعزم عليّ معلمي بالاقامة عنده لما بلغه خبر اختي فقلت له ان ضعف قوّتي وشغل فكرتي يمنعان من ذلك ووعدته اني ان اقمت في البلد لا اجعل اقامتي الا معك فكنت اتردد عليه احياناً وهو يوادني ومضى نحو اربعة اشهر

على ذلك وانا غير مشتغل بامر و في تلك المدة ما تركت بلدة الا ذهبت اليها لاستخبر عن اختي و بسبب انها كانت تخبرني بحب الرهبانية ظننت انها تكون في احد الديورة فطفت على جميعها فلم اقف لها على خبر ولم اعثر لها باثر والعجب اني ما سمعت بخبرها من احد من اهل البلد وكانها قد ابتلعتها الغبرآء او اختطفتها النسور الى السمآء ثم دخلت المسكن ذات يوم بعد عودي من لوندرة وكنت فارقته من مدة خمسة عشر يوماً فوجدت على الطاولة مظروفا ففضضته فوجدته من اختي فطار لبي وخفقت بلابل قلبي فقراته فاذا فيه

أخي وعزيزي وقرة عيني الله يشهد على ما بقلبي من حبي لك ولو ملكت بذل روحي لتكون زيادة في عمرك لفعلت وارغب ان اصرف جميع طيباتي في جلب السرور لك ولكني حتيرة ذليلة وقد قاسيت من دهري ما لا يقاسيه غيري وهذا سبب فراقي لك واختياري الرهبانية والعزلة ما دمت حية فارجوك الصفح عما حصل مني في خروجي عنك وانفصالي منك بدون علمك وما بعثني على ذلك الا خوف منعك لي عما سنح بفكري مع تصميمي عليه وطيران قلبي اليه وانت تعلم بميلي للرهبانية وتعلم اني ليس لي راحة في سواها فعذري قائم لديك وحالي لا يخفى عليك وقد علمت بميلي للرهبانية ومن وقت خروجي من عندك الى الان وانا في الدير الفلاني وقد اخترته على غيره لما فيه من الراحة لي لحسن موقعه وكثرة مزاياه ولي خلوة

اتعيد فيها متى دخلتها كان البحر تحت نظري وامواجه توانس وحشتي وتذهب الم وحدتي وموقع هذا الدير فوق الجبل بعيد عن كل طريق والغابات محيطة به يذكرني الايام التي مضت علينا في الاجتماع مع الهناء والسرور فافرج بذلك كربتي ويكفيك مني معرفتك قدر حبي لك واني ما اخترت العزلة الالراحتك ولو عرفت فائدة في معرفتك الاسباب الموجبة لذلك لعرفتك اياها ولكن معرفتها لا تزيدك الا كربا على كربك وهما على همك وقد حررت لك كتابي هذا بدموع عيني فارجوك قرآءته بعين الرضى عني فهي عن كل عيب كليلة ومع كل هذا فلا حيلة في حكم القادر فارجوك ان تصفح عني الصفح الجميل وتقبل عذري ولا تخيب ظني فيما رجوت فقلب اختك بالبين اكتوى وازداد به الم الجوى وارجوك ان لا تنعزل عن الناس وان تتزوج لك امرأة تقوم بشأنك لتزول عنك الاكدار واذا تزوجت بامرأة فيرجى ان ترزق منها بالذرية التي بها يكون سرورك ثم اني ما اتممت قراءة هذا الكتاب الا وقلبي في خفقان واضطراب فقلت في نفسي ما هذا السر الذي تخفيه عني واوجب مفارقتها لذة الدنيا مع حداثة سنها ولاي شيء دفنت نفسها بالحياة فلا بد لذلك من شان عظيم وخطب جسيم ثم فتحت الكتاب وقرأته ثانيًا وقلت ربما يكون فاتني شيء منه اول مرة لم افهم معناه فلم افهم منه اكثر مما فهمت اولاً انما يلوح من الفاظه صورة محزنة فهمت منها انها ربما احبت انسانًا وتخلى عنها

او تحققت عدم الوصول اليه بوجه حل اما نظرًا لحالها او حاله وقوي هذا عندي بامور نذكرتها كنت اراها منها من ذلك انها كانت تكتب مكاتيب وترسلها مجتهدة في اخفائها عني وقد قوي عندي هذا الظن حتى حاولت صرفه فلم ينصرف فاخذت ورقة وسطرت فيها ما يتضمن استعطافها ورجاءي منها ان تسمح لي بشرح حقيقة امرها ولمحت لها بما خطر بفكري لكن بلطف وارسلته بالبوسطة فلم يمض غير قليل الا وورد منها افادة لم تفدني بها شيأ غير نهيها لي عن العزلة وتحريضي على الانس بالناس والحث عليّ بالزواج فعند ذلك عزمت على التوجه اليها وافعل ما يمكنني في نهيها وردعها عما هي فيه لعلها تسمع مني فسرت اليها بعد جمع ما بقي من الدراهم فلما وصلت الى الدير سألت عنها فقيل لي انها لا تكلم احدًا فكتبت لها مكتوبًا فافادتني في رده انها اعدت نفسها لخدمة المسيح وليس معها وقت تشتغل فيه بامور الدنيا

ومن ضمن كتابها انها قالت ان كنت تعزني حقيقة وتحبّ لي الخير فلا تشغلني عن التوجه الى الرب والتجرد عن الاشغال بالخلق فان رؤيتك لي تشغلني عن العبادة نعم ان رضيت ان تكون لي والدًا يوم الاعتراف كما هو الاوفق بمروءتك اذنت لك لك بالدخول عليّ فعجبت من صدور تلك العبارات عنها مع علمها بما عندي من الحزن عليها وغرقت في بحر فكري فكنت تارة اقول ينبغي الرجوع حالًا وتارة اقيم هنا حتى انظرها وتارة اقول

اقتل نفسي وقت دخولها الكنيسة مع الرهبان فاريح نفسي من تلك الاهوال واحرق قلبها وانغص عيشها كما احرقت كبدي وكدرت صفوي ونغصت عليّ عيشي حيث دفنت نفسها بالحياة

وبينا انا كذلك جاءني خبر من رئيسة الدير بانها قد اعدت لنا دكة نجلس عليها يوم المحضر وهو اليوم القابل فاقمت بقية اليوم والليلة بتمامها كأني انقلب على جمر الغضا حتى اسفر الفجر فقمت الى باب المعبد الذي هي فيه فوجدت هناك خلقاً كثيرين فوقفت معهم فجاء رجل واخذ بيدي واجلسني على الدكة قريب المحراب فصرت اقلب نظري يميناً وشمالاً ثم بعد برهة فتح باب صغير فخرجت منه اختي وعليها من الجمال وثياب الزينة ما لا يوصف فنسيت عند ذلك همومي واعتراني من الخشوع وتعظيم الدين ما لم يكن من قبل وكنت انظر اليها بعين المحبة والتعظيم وهي تخطر والقسيسون حولها حتى اجلسوها تحت مظلة ثم تجرد احد القسيسين عن زينته وابقى عليه ثوب كتان وصعد المنبر وخطب خطبة قصيرة ذكر فيها سعادة البكر التي حضرت ووهبت نفسها لخدمة المسيح وفي الحال تضوعت الروائح الزكية من جميع جهات المعبد وكانت الناس تقلب النظر من القسيس اليها ومنها اليه ثم نزل من فوق المنبر ولبس ثيابه الرسمية وامر بتين فأتتا باختي الى اخر درجة من المحراب فهناك جثت على ركبتيها ثم دعوني لأودي واجبات الابوّة فتمثلت بين يدي القسيس

لاناوله المقص فرجع حينئذٍ ما كنت ظننت زواله وعظم عندي الكرب وظهر لي انها لم تتمالك نفسها بل كادت ان يغشى عليها الاَّ انها نظرت اليَّ نظرة معتذر متجلد فهمدت وداخلني خشوع ثم اجرى المقص على راسها فازال شعرها الذي كان يسترها اذا نشرته ويلحق الارض اذا ارسلته ثم اتى لها بثوب من صوف فلبسته وبخمار فغطت به راسها ووجهها وبرداء من كتان فتردَّت به

وحيث كان خروجها من الدنيا وزهدها فيها لا يتم ولا يكمل الا بصورة موتها ودفنها كالميت الحقيقي القت نفسها على الرخام كالميت فكفنوها ووضعوا حولها اربع شمعات وقد اخذ القسيس الكتاب وهو بملابسه الرسمية والرهبان محتفون بهِ وكنت حينئذٍ قريبًا منها حريصًا على معرفة جميع ما يحصل من الحركات فسمعت صوتًا خفيًا من داخل الكفن وصل الى اذني ولم يسمعهُ غيري والفاظه يا اله العالمين رب السماوات والارضين ان تجعل هذه اللحظة آخر عمري حتى لا اقوم من موضعي وان تصب على اخي الذي لم يقاسمني فيما جنيت من الخطيئة الصبر فيطمئن قلبه ويعيش عيشة مرضية فلما سمعت منها ذلك اعتراني اضطراب فوقعت على اختي فقلت ياعروس المسيح يصفح الرب عنكِ حيث تركتني وحيدًا اكابد تنغيص الايام فاضطرب من بالكنيسة مما فعلت وصاحوا بي فاخذت مغشيًا عليَّ ولما افقت وجدت الامر قد

قضي وقد لحق اختي من الحمى ما لحقها وجعلوا يطلبون مني ان لا ابحث عن لقائها فعظم ذلك عليَّ وخرجت لا ادري اين اتوجه فدخلت غابة وصرت افكر فيما حصل لي ولها من الحوادث ثم قلت في نفسي ليس لك الاَّ مفارقة هذه الارض فانهُ لم يبقَ لك فيها ما يوجب اقامتك بها وانما انتظرت شفاء اختي لاودعها فبقيت نحو خمسة عشر يومًا استنشق اخبارها فتارة كانت تبلغني وتارة لا ثم بلغني خبر موتها

قال راوي الحديث فعند ذلك هطلت عينا يعقوب بالدموع واخذته حالة الملوع لما ذكر موت اخته وشقيقة روحه

فقال لهُ الشيخ

كل ابن انثى وان طالت سلامته

يومًا على آلةٍ حدباء محمولُ

ومعلوم ان ما جرى لكما يجري لغيركما فتزوَّد الصبر تفز بالاجر وكيف تجزع وقد طفت البلاد واعطيت عقلاً وافرًا فهل رأيت حيًا لا يموت واعلم ان الحوادث للرجال كالمحك للذهب وسترزق راحةً ينعم بها بالك وتحسن بها حالك

فقال يعقوب ان في صحبتي لكم عوضًا من كل فائت فاني منذ اجتمعت بحضرتكم هدأ روعي فارجو ان لا يفرق الله بيننا وان يجعل اخر حياتي بين يدي حضرتكم وقد عزمت على ان اقيم بارض مصر

المسامرة (١٠٢)

البورصة

فقال الشيخ هذا مما يسرني وهي نية خير وتحقيقها سهل فعن قريب نعود وتكون معنا خصوصاً وحضرة الخواجا يعزك كثيراً وكان الوقت قد قرب فقال الشيخ نحن مدعوون الليلة عند صاحبنا التلياني ويلزمنا الذهاب اليه وفي وقت اخر نتم لنا اخبار حوادثك فقاموا وركبوا حتى دخلوا المدينة فلما وصلوا منزلهم وجدوا تذكرة كتبها الخواجا التلياني وتركها على الطاولة مضمونها اني حضرت لزيارتكم فلم اجدكم وعن قريب اعود وان حضرة الخواجا الانكليزي ارسل لنا تذكرة يعتذر فيها عن الحضور لامر منعه وساعود قبل المغرب لانشرف بكم وتسيرون معي الى بيتي فاخبر الشيخ يعقوب وولده بذلك فاخذا يتهيآن للتوجه واذا بالرجل التلياني قد

حضر فقال إن جملة من الاحباً دعوتهم مع حضرتكم وها انا قد حضرت حسب ما اخبرت جنابكم في الذكرة فقاموا جميعاً وركبوا عربة ثم ساروا فمروا بسراية مشيدة البناء مزخرفة الارجاء حولها اناس كثيرون في حركة عظيمة

فقال الشيخ ما هذا المكان فقال الخواجا هذا المكان يسمى البورسة اي بيت المصارفة واعمال التجارة بين باريز وجميع جهات المملكة وبينها وبين جميع ممالك اوروبا والمشرق وامريكا فهو مكان تجتمع فيه الصيارفة الكبار والسماسرة وعظماء التجار وهو من ضمن العمارات العظيمة التي تتباهى بها باريز وينبغي رؤيتها والنظر للجاري بين الناس فيها فقال الشيخ لعلنا ننظره في يوم غير هذا ان كان هناك اذن بالدخول فقال الخواجا ان دخوله مباح لجميع الناس وامر هذا المكان عجيب واصطلاح اهله في تخاطبهم غريب فمن لم يعرف اصطلاحات الصيارفة المتفق عليها فيما بينهم يظن انهم ليسوا من اهل باريز لان لهم لساناً خاصاً بهم يتكلمون به فيما بينهم وبين عملائهم ولا يعرفه غيرهم وهناك ازدحام شديد وللالفاظ تصادم قوي ينشأ عنه دوي هائل بحيث يمنع الطارئ عن فهم معاني الالفاظ لاختلاطها وعدم تميزها .

ومما يزيد الانسان تعجبا انه لا يوجد هناك غير الكلام واما المبادلة وقبض الدراهم فشيء نادر ومن يتأمل في احوال اهله ويمعن النظر فيهم يرى البعض منهم مسروراً والبعض بالحزن

مغمورًا والبعض يقلب من الحيرة كفيه وينتف شعر لحيتهِ ومنهم المتفكر ومنهم من يضرب ويجمع ومنهم من لا يستقر في موضع بل يطوف والى ما بدا منه يرجع واساس ذلك كله حب الدرهم والدينار فانهما يفعلان بالعقول ما لا تفعله الخمور فمن ذهب ماله غاب عقله وساءت حاله ومن ربح تمت مآربه وصفت مشاربه فيلزم من يريد الدخول في زمرتهم ان يكون خبيرًا بمعاني الفاظهم وكيفية معاملاتهم وعلى يقين من معارفهم وحيلهم وطرق حسابهم واصطلاحات سماسرتهم وعوائد خاصتهم وعامتهم والا فلا بد ان يقع في شباك مكائدهم وحبال مصائدهم

فقال الشيخ ان بالقاهرة مكانًا لهُ شبه قليل بهذا يقال لهُ حارة اليهود فيه كثير من الصيارفة والمرابين ففي بعض ايام السنة تزدحم عليهم الخلق الواردون من الارياف وغيرها. اما للاقتراض او للتسديد او لتغيير المواعيد فهم يتجرون في غفلة العالم ويغتنمون فرص الاحتياج فيحملون الخلق اثقال الربا ومن حرصهم لا يقرضون الا برهن او ضمانة وبكثرة ما يطلبونه على كل مائة يرى كثير من الناس قد آل امره الى بيع ما رهنه ولحقته الفاقه ولبس ثياب الذل بعد العز وفي بعض الاحيان يطالب الكفيل والمكفول معًا فكم من متأوهٍ من هذه الطائفة والعجب ان الرباء محرّم في الشريعة الاسلامية ومع هذا لم يبقَ من الناس في هذا العصر فقير ولا غني الا وهو واقع فيه ومن كثرة التعوّد عليهِ صار كأنه من الامور

الجائزة بل ربما يرى ذلك بعض الناس انهُ من فعل الخيرات وازالة الضرورات ويرون الامتناع منهُ من الحرج والتضييق على العباد وتعطيل الارزاق

فقال الخواجا التلياني ايها الاستاذ ان الجاري بهذا المكان ليس كالجاري بحارة اليهود بمصر لان المعاملة في هذا المكان خاصة بالشركة التجارية ليس غير

واما المعاملة بالفائدة والمصارفة فمخصوصة بالبنوك ومن ذلك حارة اليهود واما هنا فانهُ اذا فرض ان بعض الناس رغبوا في الشركة في عمل شيء تبلغ تكاليفه زيادة عن قدرتهم استأذنوا عنه الحكومة ومتى تحصلوا على الاذن عين المجلس قيمة السهم في هذه الشركة ثم تعطى الاسهم لاحد مأموري الاعمال لان هناك اشخاصًا معينين بامر الحكومة يقال لهم مأمورو الاستبدال فحينئذٍ ينادون عليه فكل من رغب في قدر اخذه وربما حضر اقوام بعد توزيع الاسهم يطلبون الاخذ بزيادة عن المقدار ظنا منهم رواج الامر فيشترون بازيد وهذه الاسهم كالبضائع التجارية تباع وتشرى وتغلو وترخص حسب ما يعتور الامر المشترك فيه .

واما الجاري بحارة اليهود عندكم وعند الصيارفة على العموم فهو مبادلة النقود بغيرها فكل منهم تراه ينتهز الفرصة فيجعل القيمة على حسب ما يراه من الاحتياج فاذا رأى مضطرًا اطمعه وزاد

في اكرامه وسهل له امر الربح ليرغب في معاملته فان لم يتفطن المضطر لمكره وقع في حبالته وكلما ازداد عليه الدين طمع فيه وازداد في الربح واجتهد في الاستحواذ على جميع املاكه فاذا علم ان ما في ذمته صار قريباً من ربع قيمة املاكه او ثلثها امتنع عن اعطائه وسلك به طرق العسف فيشكوه ويترافع معه في مجال الحكومة الى ان يؤل الحال الى الحكم عليه ببيع ملكه لسداد المطلوب منه رأس مال وربحاً وقل ان يبقى للمدين شيء من ثمن ملكه فهذه حالة فظيعة يجب البحث على الطرق المخلصة منها لاستدعائها خسارة كبيرة فان اقل الفرط عندكم اثنى عشر في المائة كل عام مع انه ضعف الفائدة ببلادنا اذا غلا سعر النقود فان المعتاد عندنا اربعة او خمسة او ستة في المائة وفي بلاد الانكليز من اثنين الى ثلاثة واذا غلا السعر يبلغ اربعة على انهم يضجون اذا صارت الاسعار هكذا او يعدون هذا الامر من اعظم الحوادث التي يكثر فيها القيل والقال وقد سمعت ممن اثق به ان فرط المائة في الشهر الواحد قد يبلغ بالقاهرة ثلاثة او اربعة اعني زيادة عما يحصل بلوندرة اثنتي عشر مرة بل اكثر ولا شك ان ذلك من اعظم الضرر وتسديده في غاية العسر لان الفرط اذا كان في كل شهر اربعة بالمائة يكون ثمانية واربعين في السنة فاذا اخذ المحتاج مائة فانه يكتب عليه سنداً بضعفها تقريباً لانهم يعطونه من المائة اثنين وخمسين ويقطعون منه الباقي وهو ثمانية واربعون

في نظير الفائدة ويكتبون عليه السند بالمائة بتمامها فاذا طلب مائتين فانه يقطع مائة واربعة فقط ويكتب عليه السند بمائتين وهكذا اذا طلب الفًا واكثر فمن ابن يسهل السداد على المقترض سواء كان تاجرًا او زراعًا فالصيارفة اذاً ببلاد المشرق من اكبر المصائب ودوامهم على ذلك يوجب سلب نعمة الاهالي بل بعض التجار والصيارفة يستعملون طريقًا اقبح من علو امر الفرط وهو انهم يترقبون الوقت الذي هو قبل خروج المحصول فيسعرون الارزاق بثمن بخس فيأتي المضطر فياخذ منهم نقودًا بقدر معين من المحصول على حسب تسعيرهم وقد يسعرون قنطار القطن مثلا بجنيهين فياخذ الطالب مثلا مائة جنيه فيكتبون عليه بخمسين قنطارا يؤديها بهذا السعر بعد شهر مثلاً فاذا جاء الوقت طلبوه بها فياخذون ما راج لهم منها ثم يكتبون ما يبقى عليه في سند جديد بقيمة وقت التسديد مع اضافة الفرط في نظير صبرهم الى العام القابل وهكذا يفعلون معه في كل عام بهذه الطريقة فيبقى الشخص دائمًا مكبلا في اغلال قيود الدين مطالبًا بنفس المبلغ الاصلي بل باكثر منه وما دفعه من المحصول كأنه ربح المال وفي كل عام يفعل الصراف حسب ما يرغب فتارة يقلبه من صنف الى اخر وتارة يجعله نقدية في ذمته والفلاح لا يعارض في ذلك لاحتياجه وتراكم المطلوبات عليه للميري والاهالي والعيال وليس في امكانه التخلص لعدم اقتداره على التسديد فيبقى كالاجير عنده

بالأكل ليس غير وقد شاهدت ذلك بنفسي مذ كنت ببلاد الشام والترك ولا فرق بين الجاري هناك وعندكم ورأيت من العالم جميعاً الضجر من ذلك ويتمنون زواله وانتظامه فعلى الحكام وولاة الامور النظر في ذلك ومنعه والبحث عن اسهل الطرق التي يستقيم بها امر المعاملة بين الناس وتنجح بها مساعيهم في زراعاتهم وتجاراتهم

وفي الازمان الماضية كان المرابون يفعلون ببلادنا كفعلهم الان ببلادكم لكن الحكومة التفتت لهذا الامر وربطت قيمة معينة للنقدية لا يتعداها احد وكل من تعدى عد مرابيا وعوقب على مقتضى القانون فخمدت نيران اهل الربا الاّ انهم لم ينقطعوا بالكلية وبقي السفهاء والمسرفون يترددون عليهم لكن لا يقع ذلك ببلادنا الا سرًا اما التجارة والسلف العامة فجميعه في البُرصة فيقف الانسان على سعر كل يوم بل كل وقت بسبب الاخبار والحوادث التي ترد بالتلغراف يوميا فلا يحصل ضرر ولا غدر كما يحصل اذا كان الامر منه للصراف في حانوته او بيته بدون معرفة بالحوادث اليومية ولم تظهر البُرصة بباريز الاَّ سنة ١٥٦٣ ميلادية بامر الملك شارل التاسع فكان اول مجلس عقد للنظر في حال التجارة في سراية الحقانية ولكن في سنة ١٧٢٠ تعين مكان مخصوص صنع من خشب موقتاً باحدى زوايا جنينة سراية سواسون التي محيت وكانت معدة لسكن افراد من العائلة الملوكية وصار الناس يتعاملون باوراق

الحكومة وكان في تلك الايام لا يفتح هذا المكان للمعاملة الا ثلاث ساعات قبل الزوال وساعتين بعده ما عدا ايام الاعياد والمواسم وترتبت بوسطة عسكرية للمحافظة عليه وضبطه ولما كثرت حركة العالم اليه وتوجيههم نحوه واخذت تظهر به مشاجرات استوجب ذلك بمداخلة العساكر فيه لفصل ما يحدث به من المشكلات ثم صار يزداد فامرت الحكومة بابطاله ومنع تجمع الناس بالطرق لهذا الشان ورتبت قصاصًا على من يخالف الامر ويقتحم ذلك الطريق المنهي عنه فجعلت جزاه التغريم الجسيم فضلا عن السجن الطويل وعينت ستين صرافًا يتوزعون في نواحي البلد بلا حرج عليهم وانما الحرج والجزاء على غيرهم في الاوامر بان من تجرأ غُرم تغريمًا عظيمًا ومع هذا فكانت الناس تتجرأ على هذا خفية فعوقب منهم كثيرون

ولما اكثر الناس الشكوى للحكومة وطلبوا فتح البُرصة فتحت سنة ١٧٢٤ وعينت لوكندة تسمى لوكندة مزران وشيدوها وزينوا واجهتها سنة ١٧٨٤ فكانت الصيارفة والسماسرة يقيمون بدورها الارضي ومدة بونابرت الاول نقلت الى احدى الكنائس ثم نقلت منها الى السراية الملوكية وعادت الكنيسة الى اصلها وفي سنة ١٨١٧ بنيت هذه السراية التي رأيتها وخصصت لذلك وبناؤها على متسع من الارض قدره ثلاثة الاف وخمسمائة متر وطولها اثنان وسبعون مترًا وعرضها خمسون مترًا والدور الارضي به الحواصل ومحال

المشروبات وبها ديوان متسع طوله اثنان وثلاثون مترًا وعرضه ثمانية عشر وفي اخره فسحة عظيمة تسع من التجار الفًا يتعاطون الامور التجارية وبالديوان شباك من حديد والصيارفة تجتمع في محل بالدور الاول للمداولة في امر التجارة وغيرها وفيه اماكن معدة لديوان التجار ثم زاد هذا المكان اعتبارًا وترى الان فيه زيادة عن امر الاقتراض المشاركة في عمل سكك الحديد واستخراج المعادن وفتح الورَش الجسيمة ونحو ذلك من الامور النافعة التي تتسع بها دائرة الثروة وفي سنة ١٨٥٢ جعل على كل من دخله فرنك واحد فنقص المترددون عليه واشتكى من ذلك البنكيرات والصيارفة والتزموا لمدينة باريز مبلغ سبعمائة وخمسين الف فرنك على ابطال ذلك فلم يُقبل منهم

وقد احصي عدد من يدخل البُرصة كل يوم فوجد من ثلاثة الاف الى اربعة الاف وتحصل منه سنة ١٨٥٧ مليون ومائة الف فرنك

وبالجملة ففوائد هذا المكان كثيرة جدًا وبيان الجاري فيه يحتاج لمعرفة امور شتى لكن لا وقت لذلك فانا وصلنا المنزل ولا بد ان اذهب مع حضرتكم بكرة غدٍ واطلعكم على احواله

المسامرة (١٠٤)

بيت الكتب

ثم وقفت العربة فنزلوا ومضى بهم الخواجا الى البيت فصعدوا علي درج حتى وصلوا الدور الاعلي فوجدوا فسحة متسعة وبها صاحبة المنزل فقامت وقابلت الشيخ وكان رئيس الجمعية المشرقية هناك فقام له واستقبله ثم قال ان التلامذة يثنون بكل لسان على الشيخ بما حصل لهم من الفائدة وقد تمنيت على حضرتكم مجلساً يعقد كل يوم اثنين حيث تكون الساعة الثانية بعد الظهر فقال الشيخ لا مانع ثم جاء المدعوون واحدًا اثر واحد وجماعة عقب جماعة حتي تكاملوا وتعرف الكثير منهم بالشيخ وصاروا يحيونه ويظهرون السرور به فسر الشيخ بذلك سرورًا عظيما واستأنس بهم كانه ببيت احد اصحابه بمصر فان جميعهم كانوا محدقين به يتذاكرون معه في فنون العربية على اختلافها فكان هذا يساله عن معان لغوية وهذا يسأله عن قواعد نحوية وهذا عن حادثة

تاريخية وآخر يطلب منه معنى بيت شعر وهو يجيبهم ويزيد لهم في الفوائد وبينا هم يتفكهون وفي فنون العلم يتنقلون اذ دعوا للطعام فقاموا جميعا الى الاكل فتعاطى كل بحسب طاقته وكان في الطعام بعض الفواكه فقال بعض الحاضرين أنبدا بالفاكهة ام نوءخرها فقال الشيخ ان للشيخ الاجهوري في ذلك نظماً جميلاً بين فيه ما يقدم على الطعام من الفاكهة وما يتاخر وما يكون وسطاً حيث قال

قدم على الطعام توتا خوخا
ومشمشاً والتين والبطيخا
وبعده الاجاص كمثرى عنب
كذاك تفاح ومثله الرّطبْ
ومعه الخيار والجميزُ
قثا ورمان كذاك الجوزُ

فتلقوا منهُ تلك الابيات بالقبول وكانوا يسرعون لحفظ ما يقول وتم بينهم مجلس الاكل في تلك المحادثة ثم عادوا الى الديوان الذي كانوا به فجلس الشيخ وولده ورئيس الجمعية بجانبه ومن رغب في المشي تمشى مع صاحبته او صاحبه فجاءهم صاحب البيت وجلس معهم ثم بعد ان دار الحديث بينهم قال اني منذ كنت بِرسيليا .وعدت حضرة الاستاذ ان اريه خزانة كتبي واطلعه علي ما إحتوت عليه

فقال الشيخ ونحن لذلك منتظرون وللوفآء بالوعد متشوقون فقال تفضلوا بنا ان شئتم ثم قام ومعه الشيخ والرئيس فادخلهم من باب في وسط الديوان الى مكان متناسب الابعاد يقرب من التربيع وفي جميع جهاته غير الباب دواليب محكمة الصناعة من خشب جوز الهند الاسود وعلى ابوابها رسوم من النحاس لطيفة مختلفة الاوضاع والاشكال وفي تلك الدواليب كتب محبوكة مرصوصة صفوفا متناسقة كل صنف على حدته مع النظافة للمكان بما فيه والرونق الذي يسر الناظر وارضه مفروشة ببساط فحمي اللون وسقفه منقوش بابدع النقش وفيه من عجيب الصور ما يدهش الفكر ويسر النظر وفي وسط مكان الكتب طاولة من جنس خشب الدواليب وعليها كل ما يلزم من ادوات الكتابة مع بعض كتب فاعجب الشيخ ذلك النظام وما بتلك الكتبخانة من الحسن مع الاحكام فقال يندر وجود مثل هذه في بلاد المشرق وانها لشبه كتبخانات الملوك فقال الخواجا كيف لو رأيت خزانة الرئيس فان بها قدر ما في هذه مرّتين او اكثر واما هذه فان ما بها ليس الا ثلاثة الاف ومائتي كتاب فقال الرئيس خزانتي وان كانت اكبر لكن ليس لها من الرونق والاتقان ما لهذه واغلبها ورثته عن ابي وجدي فقال صاحب البيت بل هي اجمل واجل لان بها من الكتب ما لا يوجد في غيرها فقال الشيخ اذاً لا بد انها لا تخلو من كتب غريبة فقال نعم ثم

التفت نحو الجهة الشرقية من الكتبخانة وقال جميع مـــا في هذه
الدواليب كتب مشرقية وهي كما ترى ثلاثة اقسام فهذا للكتب
العربية وهو اكبرها وهذا للفارسية وهذا للتركية وقد رتبت خزانتي
هذه حسب النقطة الاصلية فالجانب الغربي فيه من الكتب مـا
يتعلق باوروبا والجانب الجنوبي فيه ما يتعلق بامريقا وجزائر
المحيط والشمالي فيه ما تيسر جمعه من الكتب التاريخية والفنون
الادبية حسب اقتداري وجعلت كل فرع على حدته ورتبته كما
ترى على حروف الهجاء فاذا اردت اي كتاب اطلعت على الدفتر
فعرفت نمرته وحرفه فقال الشيخ ما الذي فيها من الكتب العربية
فاخذ الدفتر وقرأ له اولاً كتب التفسير فاذا فيها تفسير ابن
عباس وتفسير ابن عبد السلام وتفسير ابن جريج وتفسير ابن
الجوزي وتفسير ابن برجان وتفسير ابن ابي شيبة وتفسير ابي
الضيا وتفسير ابن جرير وتفسير ابن ابي حاتم وتفسير ابن فورك
وتفسير ابن ماجه وتفسير ابن المنذر وتفسير ابي الحسن وتفسير
ابي ذرّ وتفسير ابي طالب الكرماني وتفسير ابن مردويه وتفسير
الاخوين وطوالع الانوار وتفسير الاردبيلي وتفسير الاسفرايني
وتفسير اكمل الدين وتفسير البقاعي المسمى بنظم الدرر في تناسب
الآي والسور وتفسير ابن النقيب وتفسير ابن عبدوس وتفسير
الجامي وتفسير حجة الافاضل وتفسير ابن جماعة

ومن الحديث كتاب فتح الباري شرح البخاري والعيني شرح

بخاري والسندي شرح مسلم الحلية لابي نعيم والفردوس للديلمي والسنن لابن ماجه ومسانيد الائمة ومشكاة المصابيح لملاّ علي قاري ومشارق الانوار للصاغاني

ومن التوحيد كتاب ابكار الافكار واحلى المواهب وتبصرة الادلة والتسديد شرح التمهيد وتأسيس التقديس ورموز الكنوز وزبدة الكلام وعمدة النظار والفوز بالسعادة ومفتاح الغرر ومدارك العلوم ومشارق النور ونهاية المنقول وهداية الهادي

ومن الفتاوي في مذهب ابي حنيفة فتاوي ركن الدين الكرماني وفتاوي احمد بن عبدالله البلخي وفتاوي امين الدين محمد بن المتعالي المصري وفتاوي بديع الدين وفتاوي حسام الدين وفتاوي الحنفية لسعد الدين التفتازاني

ومن الفتاوي في مذهب الشافعي فتاوي ابن ابي عصرون فقيه الشام وفتاوي الحداد وفتاوي ابن رزين وفتاوي ابن الصلاح وفتاوي ابن عبد السلام وفتاوي ابن القاص وجملة من فتاوي المالكية وكذلك الحنابلة

ثم قرأ في اسماء كتب اللغة منها كتاب قاضي الحق لابي العلا المعري وقاعدة البيان وضابطة اللسان لابي جعفر احمد بن الحسن المالقي وكتاب الكامل للمبرد النحوي وكتاب الاساس وكتاب لسان العرب وتاج العروس وشرح القاموس وغير ذلك من كتب اللغة التي لا توجد مجتمعة في كتبية في احدى بلاد الاسلام ثم قراه

اسماء غريبة المثال عزيزة المنال في النحو والمعاني والبيان والبديع ككتاب سيبويه وغيره وككتاب دلائل الاعجاز في البلاغة واسرار البلاغة والمفتاح وغير ذلك

وفي المنطق غرائب المؤلفات وكذلك كتب علم الاصول وغير ذلك

ومن التاريخ كتاب اخبار الزمان وكتاب ابي الفدا وكتاب ابن خلدون وتاريخ ابن الاثير وغيره من كتبه الغريبة ثم بعد ذلك اخذ الدفتر ووضعه مكانه واتى بمصحف مجلد مظرف في داخل كيس من الديباج الاخضر ففتحه الشيخ فوجده مكتوبًا بالخط الكوفي في رق الغزال ثم جلس وصار يقرأ ثم قال التلياني يا حضرة الاستاذ الحمد لله الذي جمعني بك فاني منذ زمان متوقف في بعض اشياء في القرآن ولكوني لا اعرف علوم اللغة العربية على ما هي عليه لم تزل وقفاتي ولم اجتمع باحد في بلادنا من علماء العرب يفهمني حقيقة الحال فقال له الشيخ ما وقفاتك فقال ان في القرآن قوله تعالى فيومئذ لا يسئل عن ذنبه انس ولا جان وقوله ولا يسئل عن ذنوبهم المجرمون مع ان فيه فوربك لنسئلنهم اجمعين عما كانوا يعملون وفيه فلنسئلن الذين ارسل اليهم ولنسئلن المرسلين فبين الآيتين الاولين والاخيرتين على ما يظهر لي تناقض فقال له الشيخ هذه من وقفات العلماء ولكن شرط التناقض ان يتحد الزمان والمكان والغرض فقال ايها الشيخ

أليس ذلك كله يوم القيامة قال بلى ولكن يوم القيامة كما اخبر الله مقداره خمسون الف سنة وعرف بالاخبار انه يكون مشتملاً على مقامات مختلفة فلا مانع من ان يكون السؤال في وقت من اوقات يوم القيامة ولا يكون في وقت اخر وفي مقام من مقاماته ولا يكون في مقام اخر وحينئذ لا تعارض في الايات ولا تناقض فاطرق رأسه برهة ثم اقبل على الشيخ وقال له والله انك عالم باسرار لغتكم فقد ازلت عني كثيرًا من الوقفات فاني كنت اري بين قوله تعالى لا تختصموا لديّ وقد قدمت اليكم بالوعيد و(بين) قوله تعالى ثم انكم يوم القيامة عند ربكم تختصمُون تناقضًا وبين قوله تعالى يوم تأتي كل نفس تجادل عن نفسها وبين قوله هذا يوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون تناقضًا وبين قوله تعالى فلا انساب بينهم يومئذ ولا يتساآلون وبين قوله واقبل بعضهم على بعض يتساآلون كذلك وبذلك الجواب ازيلت تلك الوقفات ولله المنة والشكر الجميل حيث جمعنا بحضرتكم نقتبس من انواركم ولقد كنت اول امري متحاشيًا عن السوأل مهابة فالان لما زال عني من غياهب الشك بسبب سوال واحد ارجو من جنابكم الاذن لي في السوال فقال الشيخ نحن لا يطيب لنا عيش الا بالمذاكرة في العلوم فانه حياة ارواحنا فسل ما شئت فذلك غاية مرغوبي فقال الحمد لله اني صرت من الان فصاعداً جريئًا على ان اسأل حضرتكم لانكم ابصر الناس بتلك

العلوم فقال هذا من كمالك وحسن ظنك بي اني بالنسبة لعلماء
تلك الصناعة لا أُعدّ فقال كيف ذلك وانت لها كالاصل منه
يستمدّ ثم قال ايها الشيخ ان القرآن معجز بنظمه وان نظمه غير
مقدور للبشر وان الجن والانس ان اجتمعوا على ان يأتوا بمثله لا
يمكن لقوله تعالى قل لئن اجتمعت الانس والجنّ على ان ياتوا
بمثل هذا القرآن لا ياتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرًا وقد
ورد ان اهل زمان النبيّ محمد صلى الله عليه وسلم كانوا على الغاية
في الفصاحة والبلاغة فعجزوا عن الاتيان بمثله ثم تحداهم بعشر
سور فعجزوا ثم تحداهم بسورة واحدة على الاطلاق فلم يقدروا ايضًا
وفي السور (انا اعطيناك الكوثر) قصيرة جدًّا فلو انهم قدروا على
مقدارها وهو ثلاث ايات لكانوا قد اتوا بالمتحدى به فكيف ذلك
مع ان نظم القرآن يشهد ان نظم ثلاث آيات بل ثلاثين آية بل
الاكثر لا يعوز الفصيح فضلاً عن ان يعوز الافصح ولو كان وحده
فضلاً عن ان يظاهره الانس والجن

فقال الشيخ ومن اين توءخذ هذه الشهادة من القرآن
قال ان فيه حكاية موسى (واخي هارون هو افصح مني لسانًا)
ثم فيه عن موسى قال رب اشرح لي صدري ويسر لي امري
الى قوله انك كنت بنا بصيرًا وهذه احدى عشر آية عندكم فاذا
قدر فصيح واحد وهو موسى على احدى عشر آية في موضع واحد
أفلا يكون الافصح اقدر وان كان واحدًا على اكثر فكيف اذا

ظاهره في ذلك الانس والجن

فقال الشيخ اماوقفاتك فوقفات من رسخت في العلم قدمه ولكن هل اذا عبرت على لسان صاحبك بكلام على نسق مخصوص واذا سمعته يقول كنت اريد ان اقول هكذا وما كان يتيسر لي ينزل ذلك منزلة القول قال لا فقال الشيخ اذًا لا يقال ان موسى قدر على نظم احدى عشر آية لانها حكاية عن معنى كان يريده ولا يتيسر له ان يعبر عنه كما في الايات فقال لله درّك قد ازلت عني ما كنت اظن انه لا يزول ولكن عندي وقفة اكبر من هذه لعل كشف القناع عنها يكون على يد حضرتكم فقال الشيخ بتيسير الله تعالى فقال ياحضرة الشيخ أفي كون القران من عند الله شك قال لا قال كيف وهو ينادي بانه من عند غير الله قال الشيخ كيف ذلك وتغير وجهه فقال لا تتغير ان السؤال اقتضى ان يكون الكلام هكذا فقال الشيخ بمَ ينادي ذلك فقال او ليس في القران ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافًا كثيرًا

قال الشيخ نعم وما ينتج من ذلك قال ان فيه من الاختلافات اكثر من اثنى عشر الفًا كما تسمع اصحاب القرآآت ينقلونها اليك وهل عدد مثل ذلك لا يكثر

قال الشيخ مهلاً قد هالني اوّل سوءالك فاسمع ما اقول تجد القرآن مناديًا بانه ليس من عند غير الله وذلك انه ليس المراد بالاختلاف اختلاف الروايات كما فهمت بل المراد التناقض في

الاخبار والتفاوت في مراتب البلاغة فانك اذا استقريت ما ينسب الى كل واحد من البلغآء اشعاراً كانت او خطباً او رسائل لم نكد تجد قصيدة من المطلع الى المقطع او خطبة او رسالة على درجة واحدة في علو الشان فضلاً عن وجود جميع المنسوب الى صاحبها على تلك الدرجة بل لا بد ان تجد اختلافات كثيرة في كلام المتكلم الواحد فترى البعض فوق سماك السمآ علوًا والبعض تحت سمك الارض نزولا وما ذلك بخافٍ على ذي بصيرة أليس الامر كذلك قال بلى قال اتجد القرآن على اختلاف رواياته مختلفًا في البلاغة قال لا قال الشيخ ايكفيك ذلك في الجواب عن سؤالك فقال يكفي ثم يكفي ولك الشكر والمنة ثم اثنى عليه وازداد قدره لديه وقال ايها الشيخ بقي في ذهني حاجة اريد ان لا اخفيها عنك قال الشيخ وما هي وتبسم ضاحكًا فقال ان القرآن لا شك كلام الله وقد علمه لمحمد عليه الصلاة والسلام بلا شك وفيه وما علمناه الشعر ومـــا ينبغي له فقال الشيخ نعم قال وهذا يستدعي ان لا يكون فيه شعر مع ان فيه من جميع بحور الشعر فان فيه من بحر الطويل من صحيحه فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر وزنه فعولن مفاعيلن فعولن مفاعيلن ومن مخزومه منها خلقناكم وفيها نعيدكم وزنه فعلن مفاعيلن فعولن مفاعلن ومن بحر المديد واصنع الفلك باعيننا ووحينا ومن بحر الوافر ويخزهمُ وينصركم عليهم (و) يشف صدور قوم مؤمنينَ ومن بحرِ الكامل والله يهدي من

يشاء الى صراط مستقيم ومن بحر الهزج من مخرومه تالله لقد اثرك الله علينا ونظيره القوه على وجه ابي يأتِ بصيرا ومن بحر الرجز ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً ومن بحر الرمل وجفان كالجواب وقدور راسيات ونظيره ووضعنا عنك وزرك الذي انقض ظهرك ومن بحر السريع قال فما خطبك ياسامري ونظيره نقذف بالحق على الباطل ومنه او كالذي مر على قريـــة ومن بحر المنسرح انا خلقنا الانسان من نطفة ومن بحر الخفيف ارأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم ومنه لا يكادون يفقهون حديثًا وكذا قال يا قوم هؤلاء بناتي ومن بحر المضارع المخروم يوم التناد يوم تولون مدبرين ومن بحر المقتضب في قلوبهم مرض ومن بحر المجتث مطوعين من المومنين في الصدقات ومن بحر المتقارب واملي لهم ان كيدي متين

فقال الشيخ سبحان الله ألم تعلم ان الشعر اشترطوا فيه ان يكون مقصوداً فقالوا هو الكلام الموزون قصداً فقال نعم قال الشيخ ما اوردت من هذه الايات ونحوها ليس مقصودًا موازنته لتفاعيل الشعر ولم نقصد فيه اسباب ولا اوتاد ولا فاصلة صغرى ولا كبرى.فليس شعرًا اصلاً وعلى تسليم ان ذلك من الشعر أليس يصح بحكم التغليب ان لا تلتفت الى ما اوردت لكونه قليلاً نادرًا والنادر لا حكم له فيحكم على مجموع القرآن انه ليس بشعر فيقال بناء على مقتضى البلاغة وما علمناه الشعر

فقال ايها الشيخ لقد اجدت فيما اجبت وقد شفيت مني الغليل وازلت شبهاً ما كنت اجد لها من مزيل فانت الرجل علماً وادبا وعقلاً وكمالاً ليتني لا افارقك ابدًا ثم خرجا من الكتبية وصارا يتحدثان في امور شتى حتى ازف الليل فاستاذن الشيخ للقيام فصحبه الرئيس وصاحب البيت وبعض الحاضرين تعظيما له حتى ركب عزبته وسار ومعه ولده ويعقوب الى منزلهم



المسامرة (١٠٥)

قصة

وفي صبيحة تلك الليلة دخل يعقوب على الشيخ فسلم عليه وعلى ولده ثم قال رايت باوراق الحوادث امس ان احد الاشقياء الشائع ذكرهم بنواحي باريز قد ضبط منذ ايام وفي هـذا اليوم يكون بت الحكم عليه في مجلس الحكم وارغب الحضور هناك لانظر

بماذا يبت عليه فهل تاذن لحضرة نجلك في التوجه معي فقال الشيخ لا باس انما لا بد ان تكونا ههنا قبل الزوال فان حضر الخواجا توجهنا معه حسب ما يحصل عليه الاتفاق وان لم يحضر ذهبنا نحو العين التي كنا بها امس فقد انشرح صدري من روءيتها فقال يعقوب سمعًا وطاعة واخذ بيد ابن الشيخ وسارا راجلين يتحدثان الى ان وصلا الى المحكمة فوجدا اناسًا كثيرين هناك وببابها طائفة من العسكر يمنعون البعض من الدخول فتقدم يعقوب للضابط وعرَّفه انهما غريبان ويريدان الدخول فابى ان يدخلهما فجعلا يتحيلان عليه بانواع الحيلة فلم يجد ذلك شيئًا وبيناهما كذلك اذا بالخواجا التلياني الذي كانا عنده بالامس قد اقبل فعرفهما وسلم عليهما وتكلم مع ابن الشيخ بالعربية وكلم الضابط كلاما عرفه الحقيقة ثم ادخلهما فوجدا خلقا كثيرين محيطين بحاجز من حديد بداخله محل الحكم الذي هو صدر المكان وفيه جميع الاعضاء كل على حسب درجته والرئيس هناك على كرسي مرتفع وامام الجميع طاولة فلم يلبثا الا قليلاً وتم المجلس فامر الرئيس باحضار الجاني فاتى واجلس على كرسي من خشب وصاروا يسئلونه نحو الساعة ثم قام الرئيس وتلا خلاصة طويلة ثم هاجت الناس فرحا وصار العسكر يخرجون الناس فمن الازدحام وكثرة اللغط وعدم معرفة ابن الشيخ بلغتهم كما ينبغي لم يعرف الامر على ما هو عليه انما عرف انه قد حكم على الجاني بالقتل في يوم معين

ولما خرجا رغب ابن الشيخ ان يفهم قصة هذا المحكوم عليه فلما بعدا عن الازدحام سال يعقوب عن تفصيل القصة فقال يعقوب عرج بنا على احدى القهاوي لنستفيدها من اوراق الحوادث لاني لم اتحققها باطرافها فذهبا الى قهوة قريبة هناك وجلسا بخزنة صغيرة وطلب كل منهما ما يشتهي وصار يعقوب يقراء اوراق الحوادث الى ان قضى ما اراد ثم رمى الورق وقال ان اصل هذا الشقي من قرية قريبة من مدينة اورليان تركه والده في المهد فربته امه ولما بلغ سنه عشرين عاما كان يساعد امه في المعيشة ولكن كان شقيا من ابتداء طلعتهِ حتى عرف بذلك بين اقرانهِ وهو في المكتب وكانت البنات تكرهه لتجرئه على ما لا يليق مع انه قبيح المنظر وسقيم الجسم احد شقيه عاطل فكان اذا مشى يضحك منه من يراه ولا يألفه احد من النساء لدمامته ولسخافة عقله كان يجتهد في نيل ما لم يتمكن منه من النساء ولو بالقهر ومع كون شهواته كشهوات الحيوانات العجم تعشّق بنتًا بارعة في الجمال وهي لا تحبه ولا تميل اليه بل كان حبها وميلها لغيره وانما تظهر لهُ المحبة وتلاعبه لسلب امواله وهو منكب عليها بكليتهِ وقد وقع في قلبه ان كثرة الهدايا تعطف قلبها عليهِ لكونها فقيرة فصار ينفق عليها كل اكتساب والدته ومع ذلك فلم يبلغ اربه مع ازدياد فقره سيما وهو يحب الراحة وليس لهُ طريق الى الاكتساب ولا يرضى بان يشتغل باشغال الفلاحين فانهُ كان من غباوته وجمود طبعه

يتصور عظم شانه ورفعة قدره فيحملهُ ذلك على الترفع عن الخدمة مع ما هو عليهِ من الضعف والعجز فحصل لهُ حيرة شديدة ولم يجد سبيلاً به يتحصل على مرغوبه ثم استحسن طريق الصيد فسلك هذا المسلك مع ان القوانين كانت مانعة من الاصطياد من ارض الغير وكان بقرب بلده غابة فصار يذهب اليها ويصطاد منها وما يتحصل عليه ياتي بهِ الى محبوبته فاظهرت الميل اليه واثرته على سائر احبتها فاغتاظوا وضجروا وفيهم رجل من خفراء الغيطان فاخذ يبحث عن احوال هذين المتحابين حتى وقف على الحقيقة وحيث انهُ يعلم القوانين المانعة للصيد من ارض الغير وان من تجراء على ذلك جزاوه الحبس ترقبه حتى قبض عليه فاخذه واوقعه في يد الحكومة فصرف جميع ما عنده حتى تخلص وترك الصيد فانقطعت العلائق بينه وبين البنت لعدم ما يواصلها به واستبدلته بخصمه وجاهرت بذلك فاضرمت نار العداوة بقلبه فاراد الانتقام من الخفير فلم يقدر لشدة فقره وضيق الحال عليه فترك البلدة واقام ببلدة اخرى قريبة منها وجعل يصطاد خفية وبينما هو في صيده مرة غافلاً عن عدوه اذ احيط به وقبض عليه باغراء غريمه الاول فاخذ وحكم عليه بالسجن عامًا كاملاً

فكان في تلك المدة تنمو فيه سورة الغضب وتقوى ارادة الانتقام حتى مضى الحول وعاد الى منبته فاول شيء اشتغل به البحث عن محبوبته ولكن لقبح منظره ورثاثة حاله كانت اذا راته

تنفر منه ولا تميل اليه فضاق من ذلك ذرعًا واشتد به حال الفقر فانقاد وذل وطلب الخدمة لتحصيل المعيشة ومع ذلك لم يقبله احد من عظماء بلده ولا ارباب الفلاحة لضعفه عن الخدمة فاشتد كربه واستحال حاله وخابت اماله

ثم اختار رعي الاغنام فابت اربابها من تمكينه منها لعلمهم بسوابقه وسوء سيرته فلما لم يجد للمعاش سبيلاً عاد لما عوقب عليه مرتين واتخذه حرفة ثالث مرة لكنه صحا من سكرته واستيقظ من غفلته فتدجج بالسلاح في الغدو والرواح فكان لا يغفل عن عدوه طرفة عين ولا ينسى القبض عليه مرتين وصار بالمرصاد لعدوه في جميع حالاته ملاحظًا لجميع حركاته وسكناته ولكن لسوء تدبيره وحذق عدوه وقع في شرك الحكومة ثالث مرة بدلالة عدوه عليه فاخذ وسجن وحكم عليه هذه المرة بالسجن والاشغال الشاقة ثلاث سنين بعد وسمه بالنار على ظهره كالحيوان البهيمي فامضي تلك المدة في عذاب اليم كانه في نار الجحيم وبعد مضي المدة خرج من القلعة التي كان محبوسًا بها متغيرة جميع احواله هكذا اخبر القسيس الذي اعترف له بذنبه

فقال ابن الشيخ ثم ماذا حصل قال يعقوب اخبر القسيس عنه ايضًا انه قال اني قبل دخول سجن هذه القلعة كنت احسن حالاً من حالتي بعد ذلك فانه ما زادني السجن الا شقاء وحبًا للغدر والفساد وذلك اني قبل سجني كنت طائشًا صغير العقل

حتى جرني ذلك الى ما وقعت فيه واني وان كنت قبل السجن اميل الى الفساد لكن كان يمنعني عنه خشية العار او خوف العقاب فلما ادخلوني السجن بزعمهم انه يربيني ويحسن احوالي وجدت به من الاشقياء المحكوم عليهم نحو عشرين شقيًا اثنان قاتلان والباقون ما بين لصوص وقطاع طريق فكنت اذا ذكرت اسم الله يهزأون بي ويقولون ما لا يسعني التفوّه به من سبّ المسيح والتفاخر بالقتل وسلب الاموال وهتك الاعراض ونحو ذلك من حكايات تمجها الاسماع وتنفر من سماعها الطباع فاذا اردت اجتنابهم لم اجد غيرهم فاضطررت الى العود الى مجالستهم ومجانستهم فلما طالت عشرتي بهم لم اجد بدًا من موافقتهم حتى صرت واحدًا منهم وضاع ما عندي من حسن العقيدة وتعودت الامور الذميمة وألفت الكبائر حتى فقت على اقراني في الشقاوة والفساد ولقد صدق وبالحق نطق من قال مشيرًا الى هذه الحال

عن المرء لا تسئل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدي

ولطول عشرتي لهم واضطراري للامتزاج بهم لم اعمل بقوله في البيت الاخر

فان كان ذا شر فجانبه سرعة
وان كان ذا خيرٍ فقارنه تهتدي

بل تهت في اودية الضلال وغرقت في رديء الخصال وكنت

ارى في نفسي العداوة لجميع بني ادم لما قاسيت من الشدائد وسوء الحال وهم في امن وثروة ورخاء فكنت اذا ابصرت الشمس طالعة من وراء الجبل الذي عليه القلعة او سمعت صفير ريح او صوت عصفور هاجت اشجاني ونمت احزاني واوقدت بفؤادي نار ارادة الانتقام فكانت كراهتي لابناء جنسي دائمًا في ازدياد فلما استوفيت المكتوب وخرجت من السجن لم يكن لي هم الا الرجوع الى بلدي لا حبًا فيه ولا للتعيش به بل لقصد الانتقام من الذين كانوا سببًا في شقاءي وطول عناءي فصرت اهرول واعدو عدوا شديدًا وفي قلبي شيء يحملني على الجري كالسائق العنيف واذا رأيت من بعد ناقوس الكنيسة هاج ضميري وثارت فكرة ما مر عليَّ من الشدائد وكبرت في نفسي جرائم اعداي ففتحت عليَّ جراحي وكبرت شهوة الانتقام عندي وصرت اعدد اعداي واصوّر في نفسي ما يحصل لهم من الرعب والخوف عند رؤيتهم اياي على حين غفلة فتهون عليّ الالام وهكذا حتى وصلت الى البلدة وما كنت انظر اليها بالعين التي كنت انظرها بها من قبل وكان دخولي في ضحوة النهار فوجدت اناسًا ذاهبين الى الكنيسة يعرفونني واعرفهم فنظروا اليَّ وتجاهلوني فاعرضت عنهم وذهبت الى السوق فرأيت به طفلاً جميل الصورة وكنت قديمًا احب الاطفال فاعطيته صلديًا كان معي فاخذه مني وجعل ينظر اليَّ ثم رمى به وفرَّ كالخائف فعجبت من ذلك ثم قلت في نفسي لعله انما فر مني لما

رأى من تشوه هيئتي فان لي مدة ما تعهدت لحيتي فشعثها ضرورة يزيد في شناعة صورتي ثم خطر ببالي احتمال اخر لفراره مني وهو انه ربما كان كغيره يعرف امري وما انا عليه من الطرد والابعاد ففر مني وعند ذلك بكيت بكاء لم يسبق لي مثله واعتراني من الحزن اضعاف ما عانيته في السجن وقلت قد فر هذا الطفل مني كما يفر من الحيوان المفترس فهل عندي شبه بوحوش الجبال ام هل رأى في وجهي علامة الفزع او انه ضاع جميع شبهي بالادميين من شدة عداوتي لهم ثم انزويت في ركن تجاه باب الكنيسة من غير قصد مني ولا شعور ثم قمت من هذا المكان كاسف البال لما رأيت ان جميع معارفي واصحابي مروا بي ورأوني ولم يسلموا عليّ كانهم لا يعرفونني ثم عمدت الى قهوة فرأيت في طريقي امراءة عليها اثر الذل والمسكنة فتأملتها فاذا هي التي كانت سبباً في جميع ما حل بي وقد صارت في حالة يرثى لها فعرفتني ودنت مني ونادتني باسمي وقالت الحمد لله الذي اعادك وعلى وجهها كآبة تشهد على اعمالها السابقة واللاحقة ورأيت ان لها اختلاطاً بجماعة من العسكر فعرفت طريق تعيشها فصرفت وجهي عنها وحصل لي نوع من الراحة لاني رأيت من هو ادنى درجة مني

ثم سالت عن والدتي فاخبرت انها قد ماتت وبيعت تركتها في ديون كانت عليها فعرفت اني صرت مجرداً من المال والاهل وقد كنت سابقاً اتوقى ملامة الناس واخشي علي نفسي العار

فاصبحت كاني مزقت جلباب الحياء عن وجهي وصرت اتلذذ باقامتي بينهم مع نفورهم مني وتباعدهم عني لاني كنت ارى في ذلك عذابًا اليمًا عليهم على اني ما كنت املك شيئًا اخشى عليه او احرص على حفظه وكان دابي العدول عن كسب الطيبات لانها كانت مطبوعة في اذهانهم وكان المطبوع في ذهني حب مخالفتهم فيما يحبونه وكنت اعرف من نفسي اني لو رحلت عن بلدهم الى بلد اخر فلربما كنت اتحلى بفعل الجميل والخصال الحميدة ولكن تشفيًا منهم ابيت الا الاقامة بينهم لان تذكاري لما قاسيت من الاهوال والالام اذهلني عن الصواب وعن كل ما يقال له شرف او فضل وتماديت على ما انا فيه من الرذائل ومع هذا فكنت مضطربًا في احوالي غير قاصد امرًا معينًا افعله انما كنت اتصوّر ان القوانين وضعت للجري على سننها والعمل بمقتضاها فخالفتها عمدًا لما نابني بسببها من النوازل والمصائب الفائقة الحدّ وان كانت مخالفتي لها اولاً جهلاً وطيشاً ثم رجعت الى الصيد مع اصراري في الباطن على اضمار السوء فصرت اصطاد كلما وقع بصري عليه وكانت هذه الصنعة عندي شهوة لذيذة وكل حين كان يزداد تطبعي عليها خصوصاً ولم ارَ غيرهـــا انقوت منه وازداد عندي حب مخالفة القوانين السياسية وذهب عني الخوف الذي كان يلحقني قبل ذلك وصرت مزمنًا على تسكين الرصاص في قلب من يقرب مني وكنت اصطاد لقصد الاتلاف ولا ابيع منه الا القليل على قدر شراء

القوت والرصاص والبارود واقمت بالغابات على اسواء الاحوال عدة اشهر حتى تنوسي امري وصاروا لا ينسبون اليَّ شيئًا مما يحصل من الاتلافات ولا يدرون اني في البرية مصر على الغدر وفي ذات يوم رأيت حيوانًا فعدوت خلفه اريد صيده فلم ادركه الاَّ بعد ساعتين فحرّرت البندقية عليه لارميه فلاحت مني التفاتة فرأيت رجلاً قد صوب بندقته الى هذا الحيوان فامعنت النظر فيه فاذا هو الخفير الذي كان السبب في جميع ما لحقني من الهوان فهاج جسمي واشتعلت نيران قلبي وقلت هذا اكبر اعداي الذي انا هائم في الغابات لاجله هذا الغرض الذي انا قاصده هذا وقت انتهاز الفرصة في حرمانه من الحياة ثكلتني امي ان تركته يعيش برهة من الزمن وارتعدت فرائصي وتضاربت اسناني واضطرب نفسي حتى اني لم اشعر بتحول البندقة فضربته فنفذت الرصاصة في احشائه فانكب على وجههِ يتشحط في دمه كأنه من هدايا مكة ففي الحال خمدت نيران قلبي وبرد غليلي وشفي عليلي وقلت اني قد اخذت بثاري وكان لسان حالي يقول

ولست ابالي اذ أرحت حشاشتي
بقتل عدوي ان اعذب بالنارِ
ولست أرى شيئًا يلذ حديثه
وافرح منه مثل اخذي بالثارِ

وقلت ما اوقع هذا الغبي في شبكة صيدي الا نسيانه لذنوبه

وعدم فرضه وجودي وكانه لم يقف على قول القائل

احذر عداوة من ينام وجفنه

باكٍ يقلب طرفه نحو السما

يرمي سهامًا ما لها غرض سوى

الاحشاء منك فربما ولعلما

وبينا انا اتشفى فيه اذ تغيرت حالتي وداخلني الخوف وتنبهت لنفسي وصرت كنائم استيقظ من رقدته او نشوان صحا من سكرته وحق فيّ المثل راحت السكرة وجاءت الفكرة ولما سقط في يدي رايت اني قد هلكت فحينئذٍ رجعت على نفسي باللوم والتقريع ودهشت مما حصل مني ووقعت البندقة من يدي ورايت قواي قد بطلت ونفسي قد همدت وقلت الان صرت قاتل نفس وقد يئست من الحياة بذلك الفعل الشنيع الذي استحق عليه القتل وصرت وانا في الغابة كاني في مقبرة ممتلئة بالاموات لكثرة فكرتي في الموت وكان السكون حولي من كل جهة وكأني اسمع نفسي تقول لي يا قاتل ثم دنوت منه فوجدته في اخر نفس فبهتّ وجعلت انظر اليه مدة ثم رايتني اضحك بقهقهة واتكلم مع الرمة واقول الان لا تتكلم ثم داخلني الشاغل ثانيًا وقلت لنفسي ان ما قاسيته من الهموم والمشاق من مدة سنتين هو عقاب ما جنيته فيما مضى حتى رايت من الباساء والضرّاء ما كنت اظن انه لا يوجد مثله لمخلوق غيري والان قد جنيت جناية كبيرة تستحق

الموت في الدنيا وعقاب الله في الاخرة وصغرت عندي حالتي الاولى بالنسبة لما صرت فيه لاني صرت من تخيل القتل والصلب والمشنقة وحبالها وتصورت لي صورة شنق امرأة كانت قتلت ولدها وكنت نظرت اليها مشنوقة وانا صغير في المكتب ورايت ان حياتي من يومئذ صارت من حق القصاص وصرت اتمنى حياة المقتول لاتخلص من هذه الورطة ثم انتقلت فكرتي الى تعداد سيئاته مع طول حياته لاهوّن على نفسي وجعلت اربط افعاله السيئة بعضها ببعض فلم يساعدني تصوري وغلبت عليّ المخاوف وغاب عني ما كان قبل ذلك بربع ساعة مشعلاً نار الغضب في احشاي حتى اوقعني في حد القتل وبينًا انا في هذه الافكار اذ سمعت عن بعد صوت فرقلة وفرقعة عربة تسير خارج الغابة وكان محل القتل قريبًا من الطريق بنحو ربع ساعة فانتبهت من دهشتي من شدة الخوف فاخذت في اسباب الاختفاء ودخلت وسط الغابة هائمًا على وجهي لا ادري اين اتوجه ثم خطر ببالي ان مع القتيل ساعة فعزمت على العود اليه لاخذها فاستعين بثمنها ولم يكن معي شيءٌ من النقود اصلا فلم اجد لي جسارة على القرب منه وتجاذبني خوف عقاب الله تعالى واغواء الشيطان فصرت اقدم رجلاً واؤخر اخرى واتردد بين الاقدام والاحجام ثم غلب جانب الاقدام فوصلت اليه وانا في وجل شديد وخوف عظيم فاخذت الساعة ووجدت معه ايضًا نقودًا تقرب من ريال فاخذتها ثم

اردت أن اصر ذلك في جبي فلم استطع وكأن شيئاً يمسك بيدي ثم ترجح عندي ان اترك الساعة ولا اخذ الا الدراهم فرميتها ولم يكن سبب ذلك خوف تعظيم كبير القتل بكبيرة السرقة بل الحامل لي على رميها الانفة والتعاظم عن اخذها لانه قد خطر ببالي انهم لو قبضوا عليّ وهي معي لقالوا ما قتله الا لاخذ ما معه فينسبونني الى قلة المروءة مع اني ما قتلته الا تشفياً فيه ومكافاة له على فعله معي ثم مضيت في الغابة وكنت اعرف انها تمتد في الشمال نحو اربعة فراسخ فتنتهي الى حدود البلاد المجاورة لها فاخذت اهرول واعدو عدوا شديدا الى قريب الظهر ومن كثرة الجري ضاع عني بعض افكاري ثم صرت كلما قلّت في الجري قوتي كثرت فكرتي وزاد اضطرابي حتي كنت ارى خيالات مهولة محيطة بي من كل جهة كل واحد منها اكبر هولا من الاخر وكأن تلك الخيالات تضربني باسلحة حداد تؤلم صميم قلبي فكنت في عذاب اليم وخوف مستمر حتى كنت اهم بقتل نفسي لاستريح من القبض عليَّ والحكم بقتلي وكلما هممت بضرب نفسي اجد عندي جبناً عن ذلك وتعز عليَّ مفارقة الحياة مع اني في رعب شديد من البقاء وبقيت حيران لا يهناء لي حياة ولا موت وحل بي خوف عذاب الله في الاخرة واستمرّت بي هذه الحالة الى الساعة السادسة من ابتداء هروبي ومرّ على فكرتي جميع انواع العذاب الدنيوي والاخروي ثم اني اقللت العدو ومشيت

الهويناء وادخلت البرنيطة الى اخرها في رأسي حتى نزلت على عيني وسترت وجهي لاني كنت اريد ان اخفي نفسي عن كل شيء حتى عن الاشياء غير الناطقة وسلكت طريقًا ضيقًا لا ادري اين يوصلني فاوصلني الى مضيق مظلم في داخل الغابه فازددت خوفًا على خوف وبينا انا اسير اذا بصوت مرتفع يقول قف مكانك يا هذا فرفعت البرنيطة قليلاً فرأيت رجلاً في هيئة هائلة قد دهمني ومعه نبوت كانه جزع نخلة وهو مصفر اللون مع سواد خفيف وفي عينيه بياض شديد مع حوَل وعلى وسطه حبل طويل قد اداره مرتين فوق سلطة خضراء وفي حزامه سكينة عريضة وطبنجة ذات طلقتين وعند قوله قف هنا نزلت على كتفي يد ثقيلة كالمطرقة فخفت اولاً منه ولما تحققت انه من قطاع الطريق ذهب خوفي منه لاني حينئذٍ كنت لا اخاف الا ممن يخاف الله دون مرتكب المعاصي ثم قال لي من تكون انت فقلت مثلك ان كنت كما اظن فقال ليست الطريق من ههنا فما اتى بك هنا فقلت له وانت ما أتى بك ههنا ولأي شيء تسئلني وانت مثلي فلما رأى مني عدم الخوف منه تأمل فيَّ وفيما انا عليه وقال انت تتكلم كالشحاذين ثم بهت كانه تحير في امري فقلت ربما كنت كذلك بالامس فضحك من ذلك وقال ستُعلم لنا حقيقتك ويظهر لنا مقصدك فقلت اتركني اسير في طريقي فقال نسير سوية صاحبي فلا تعجل فسكت قليلاً ثم نطقت

بكلام لم اشعر به فقلت اتركني فالحياة قصيرة وعذاب الله طويل فصعد نظره فيَّ وقال يظهر انك قريب من الشنق وان لم يكن كذلك فلا علم لي بصنعتي فقلت ان لم يكن ذلك حاصلاً فسيحصل اتركني اسير لحالي فوضع يده في يدي واخرج زجاجة من شنطة معلقة في ابطه فيها شراب فعزم عليَّ ان اشرب معه وكنت في ذلك اليوم المشؤوم لم اتناول شيئًا من الطعام ولا الشراب من [illegible] والتعب فشربت معه فحصل لي انتعاش وخفّت عني متاعبي وهمومي وتعلقت بحبل الحياة وأنساني الشراب شقاوتي وتخّيلت السعادة حيث اجتمعت بمن هو مثلي فاني كنت مجردًا عن الانيس والاليف وزال عني اضطراب القلب والتاعب ثم ان الرجل اضطجع على الحشيش فاضطجعت بجنبه وقلت له ان شرابك اراحني فيلزمنا المواخاة والصحبة وكان معه شبق فملاه دخانًا وقدح الزند وولع منهُ الدخان وتكيف ثم قلت لهُ هل مضى عليك زمان طويل في الكار فنظر اليَّ ثم قال اي كار تريد فوضعت يدي علي سكينته وقلت لهُ هل قتلت كثيرًا وسفكت الدما فعبس في وجهي وقال من انت ياهذا ووضع السكينة على الارض وجعل ينظر اليَّ فقلت اني مثلك قاتل لكني مبتدىء في الكار فسكت قليلاً وقال انت لست من هذه البلاد فقلت اني من بلد قريب بينك وبينه ثلاثة فراسخ وذكرت لهُ اسمي وقلت لعله قد وصلك بعض اخباري فعند اذلك نهض قائمًا وعانقني وقال طال ما تمنيت لقائك وصحبتك

وقد ساقتك المقادير فلا فرقة بيننا الا بهادم اللذات الذي يستوي عنده الجليل والحقير

ثم قال هل من العدل ان يعذبوك هذا العذاب ويسجنوك ويحرموك من اصحابك واحبابك وبلدك بخنزيرين صدتهما من الغيطان لا قيمة لهما ولا كلفة في موونتهما وهل من الانصاف ان تهان تلك الاهانة ويفعل بك ما فعل حتى آل بك الامر الى تناسي الملة وابتنى على ذلك ضياع حقوقك المالية والملية جميعًا وصرت بحال يرثى لها بحيث لا يقر لك قرار ولا تستطيع الاقامة في موطن فهل ليس للانسان قيمة تساوي قيمة الارنب

ثم سكت مليًّا وقال وماذا فعلت حين اقاموا عليك النكير بقتل الخنازير فقلت لم اجد لي حيلة الا قول القائل

اذا لم يكن الا الاسنة مركبًا
فلا يسع المضطر الا ركوبها

وكنت كثيرا ما اتمثل بقول القائل

كفى بك داء ان ترى الموت شافيا
وحسب المنايا ان يكن امانيا

وكان الشراب قد اخذ مني اكثر مما اخذ منه فقصصت عليه القصّة بتمامها ثم سالته عن حاله فلم يرد عليَّ جوابا واخذ بيدي وقال لي نجوت وبلغت ما رجوت فسر بنا الى اخواننا لتعرفهم ويعرفوك فسرت معه نحو نصف فرسخ فدخلنا ارضا كثيرة الشجر

فصفر الرجل بفمه فجاوبه اخر من بطن الارض واذا بطابق قد انفتح وبه سلم ينزل عليه الى جوف الارض فنزل فيه وقال حتى اربط عنك الكلب ونادى الكلب فجاءه فربطه بفم الطابق ثم غاب عن بصري فداخلني خوف شديد وخطر ببالي ان اخذ السلم وافرَّ به ثم نظرت الى فم الطابق فرأيت دخانًا يتصاعد كأنه طاقة من طاقات جهنم وان احد الزبانية جاءني في صفة هذا الرجل ليريني ما انزجر به عن الافعال القبيحة فسمعت قائلاً يقول ان كان قاتلاً اوليناه او كان مظلومًا نصرناه ثم جاء الرجل وقال لي انزل فنزلت فوجدت غارًا مستطيلاً وبه مساكن صغيرة ونساء ورجال محدقون بنار اضرموها فلما قربت منهم قاموا جميعًا وسلموا عليَّ وحيوني واجلسوني وجلسوا محيطين بي واخذوا يسامرونني مسامرة ترفع عني الاوهام والمخاوف ويثنون على بسالتي ويمدحون شجاعتي فانصرف عني الجزع والخوف حتى رأيت نفسي قد داخلها العجب والكبر ثم امروا بالطعام فاكلت معهم ثم دارت علينا اكؤوس الشراب فشربنا وطربنا وكنت وقت الاكل بين امرأتين احداها قد ناهزت العشرين وهي بكر وكانت فصيحة طلقة اللسان حاضرة الجنان سريعة الجواب خفيفة الروح والاخرى اصغر منها الا انها متزوجة ناشزة من زوجها لسوء عشرته معها وكانت أقوم من الكبيرة قدًا واحسن شكلاً وارق مبنىً واخف معنىً نحيفة مألوفة فهويتها وان كانت الكبيرة تسارقني النظر وتمازحني طويلاً لكن

لبي علق بالصغيرة اكثر لمعنى فيها جذبني اليها فجعلت انزه طرفي ذات اليمين وذات الشمال فقال لي صاحبي كيف رأيت مجلسنا قلت مجلس انس وفيه كل ما تشتهي النفس فقال نحن هكذا كل يوم ناءكل الذ الماكل ونشرب اعذب المشارب ونتمتع بالنظر الى الحسان فان رضيت الاقامة معنا ورغبت في عشرتنا آثرناك على انفسنا ورفعناك فوق روءسنا وجعلناك رئيساً علينا وكان قد دب فيّ الشراب فلما سمعت هذا الكلام فرحت به وتذكرت اني كنت طريد النوع البشري والان تحصلت على ماربي من التمتع بجميع الملاذ اكلاً وشرباً وظفرت بمن كنت اهواه من الحسان ربات الحجال وصرت آمناً مما اخاف فلمَ لا ارضى بما عرض عليَّ اختياراً منهم لا سيما وقد رايت من الجماعة الاجماع على ذلك فلم ارَ بدًّا من القبول للحصول على الماءمول لكن رايت ان اشرط على الرئيس اخذ الفتاة التي علقتها فاجابني الى ذلك وقال لي وان احببت جعلتك رئيساً على هؤلاء الرجال ثم قبض على يدي وقال قد نزلت لك عن الرئاسة فقبلتها واختصصت بصغرى البنتين ولم ينازعني احد من القوم ولا عانني وصرت صاحب امراءة عاهر ورئيس قوم لا يوءمنون بالله ولا باليوم الاخر واخذت من حينئذٍ افسد في الارض وارتع في اساليب البغي والعدوان فهابني جميع الناس وراعهم امري وقد كنت اشيع بين المغفلين من الفلاحين اني مصاحب جنيّة فزاد ذلك في هيبتي لديهم وعاد عليَّ من غفلتهم

ما لم يعد عليَّ من شجاعتي

ولما وصل خبري الى الحكومة اهتمت في ضبطي وجعلت لمن يدل عليَّ او يضبطني جعلاً عظيما ومع ذلك لم يتحصلوا مني على شيء وبقيت حولا كاملاً بين هولاء القوم ثم كرهت عشرتهم والاقامة بينهم لتغير قلوبهم عليّ فاجتمع عليّ امران نفور الجماعة مني وبحث الحكومة عني فكنت احترس على نفسي ليلاً ونهاراً من سطوة الحكام ومن خيانة هولاء البغاة الطغاة وبعد ان كنت افرح بعمل السوء والسعي في طريق الفساد تبدّل فرحي غمًّا وسروري همًّا وتمنيت مفارقة هذا الغرور والعدول عن تلك الشرور وندمت على ما فرط مني من الكبائر والتفريط في جنب الله وصرت ابكي وانتحب واقول لعلي اذا تركت هذه الطائفة واحوالها وتخلصت من اوحالها اتخلص من الرذائل واتحلى بالفضائل ثم صممت على مفارقة تلك الارض لاعيش بين قوم لا يعرفونني واتوب الى الله تعالى عسى ان يقبلني انه توّاب رحيم

وبينا انا افكر في ترفعي عن دركات الشقاوة الى اول درجات السعادة اذ اشيع خبر قيام الحرب في جهــة ايتاليا وان الملك مجتهد في تجهيز العساكر لذلك فحدثتني نفسي ان اكتب الى الملك خطاباً يتضمن طلب العفو عني وادراجي في سلك المجاهدين فكتبت اليه ما صورته

اذا كان رضاكم في عدم احتقار النزول الى درجة مثلي وان

الاشقياء مثلي لم يطردوا عن باب مرحمتكم ارجو التعطف عليّ ومسامحتي ومماّ اعرضه على مسامعكم العالية اني كنت جنيت كبيرة القتل والسرقة ومعلوم اني بذالك استحق القتل. فانا مستعد لان اسلم نفسي للقصاص لكن اقدم لاعتابكم الكريمة رجآء غريبًا وهو اني ولو اني لا اخاف من الموت لكن احب ان اموت بعد ان اوءدي واجبات الحياة فقصدي ان اعيش مدة اعوض فيها ما مضى مني من السيآت لاستحق العفو من الجمعية البشرية التي خرقت بقبيح افعالي ناموسها فان عقابي اليوم لا يكون مثلاً لغيري ولا يكون لي برآءة من ذنوبي يوم القيامة فارجو البقاء لاتمكن من خدمة الوطن بدلاً عما عرفت به من ضرر وطني فيما مضى من عمري واني اعلم ان هذا الذي اطلبه شيء غريب لان حياتي ليست الان من حقوقي حتى اشترط شروطًا على الشريعة الا اني الان متمتع بحياتي وحريتي ولم اكن مأخوذًا ولا مكتف الايدي ولا اخاف من القبض عليّ فانه ابعد شيء مني ومع ذلك فاني اطلب العفو الذي هو شئم مراحمكم العلية وليس لي حق في طلبه ولو فرض فلست طالبًا له مع انه يحق لي ان اقول لمن ينظر في امري ان اسباب شقاءي ودخولي في زمرة المفسدين انما هو الامر الذي صدر بحرماني من جميع ما يتمتع به اولاد وطني واخراجي من زمرة اهل الخير الذين كنت منهم مع ان اصل ذلك اسباب واهية لا استحق بها الطرد الذي تسبب عنه اني صرت قاتلاً فلو كان من حكم عليّ بذلك

قد نظر بعين الشفقة والمرحمة في قضيتي ما كنت دخلت الان في الزمرة المذمومة وما كنت الان احتاج الى طلب العفو ومع كل ذلك فاني وان لم يكن في القوانين رخصة في العفو عني فلي في واسع الحلم امل في ذلك ولئن شملتني مراحمكم لاجعلنَّ ما بقي من عمري خدمة للركاب العالي فان كان رجائي مقبولاً فليصدر الامر بدرجه في الجرانيل لاعتمد على امركم الملوكي واحضر في الحال الى المدينة والا فلتجرِ الحكومة مجراها واما انا فاحرّم على عيني المدينة ان تراها . اه .

فلما ارسلته ابطاء عليَّ خبره فاتبعته باخر ثم اخر وطلبت فيه ان ادخل في الخيّالة المتوجهين الى الحرب فلما لم يظهر له اثر يبلغني عنه خبر صرفت النظر عنه وآيست من العفو عني وعزمت على الهرب الى ايطاليا لادخل في عسكرهم فتحايلت حتى فررت من بين تلك العصبة وسلكت طريقًا غير معروف ومررت بمدينة فاردت المبيت بها وكانت الاوامر صادرة بالبحث عني في اوراق المسافرين فلما قربت من باب المدينة وجدت المأمور جالساً على كرسي فجعل يتامل فيَّ ثم طلب مني تذكرة المرور فناولته تذكرة كنت اخذتها من رجل كنت نهبت ماله فلم يكتفِ بها بل قام وامرني باتباعه فتبعته حتى وصلنا الى الضابط فوجدت عنده رجلاً نحيف الجسم طويل القامة فلما رآني ذلك الرجل قال ألست الرجل الذي خرج عليَّ يوم كذا في مكان كذا وكان معك اثنان ولولا

اني تركت لكم فرسي ما نجوت بنفسي فما اتم كلامه الا واحد الخفراء يقول ان الفرس التي معي هي فرس هذا الرجل بعينها فلما سمع الضابط ذلك امر بحبسي فسجنوني بحبس الدم قال يعقوب وقد حكم على ذلك الرجل بالقتل بعد ثمانية ايام

فقال ابن الشيخ من يتأمل في هذه الحادثة يحكم بخطاء من تسبب له في ارتكابه الجرائم ويحكم على هذا الشقي بانه قد بحث على حتفه بظلفه حتى اخذ رغم انفه واصل ذلك سقطاته الدنيئة وشهواته البهيمية ولقد احسن من قال

كل الحوادث مبدأها من النظرِ

ومعظم النار من مستصغر الشررِ

ومن ينظر الى ظاهر حاله يراه مسكيناً ضعيفاً ولا يتوهم فيه هذه الفعال وانه لا قدرة له على ما ارتكبه من هذه الاهوال ولعل قولهم الظاهر عنوان الباطن قاعدة اغلبية

المسامرة (١٠٦)

البانكات واوراق المعاملة

ثم قاما وتوجها الى الشيخ فسألهما عما رأياه من الحوادث او سمعاه فاخبره ولده بقصة الرجل ثم جاء الخواجا التلياني ولم يحضر الانكليزي

فقال الشيخ ليعقوب اظن ان الخواجا لا يحضر الا اخر النهار فقم بنا الى المحل الذي كنا به بالامس لنطلع على البرُصة فركبوا جميعًا وساروا اليها فلما دخلوها صار اهلها ينظرون اليهم ويعرضون انفسهم لخدمتهم وسمعهم الشيخ يذكرون مدنا شهيرة واسماء كثيرة فبعد خروجهم سأل التلياني عن سبب ذكر هذه البلاد واسماء العباد فقال ان الدول في اعمالها العامة الكلية كاحاد الرعية في اعمالها الخاصة الجزئية فاذا ارادت دولة من الدول اقتراضًا او انشاء امور جسيمة كالترع والقناطر والسكك الحديدية وما اشبه ذلك

من الاعمال النافعة وكانت لا ترغب عمله على ذمتها فترتب لذلك متعهدين بعد ان تقدر قيمة العمل فيأخذونه على شروط يعقدونها ويجعلونه اسهمًا بربح معلوم وتلك الاسهم تباع وتشترى في البرُصة على يد السماسرة فيتداولها الناس كل على حسب اقتداره فمنهم من يأخذ سهمًا ومنهم من يأخذ سهمين وهكذا فكل من دفع شيئًا كان له في الشركة حصة بقدر ما دفعه فاذا اراد احد بيع حصته او مات واراد ورثته ذلك اتوا الى هذا المحل فتكون السهام فيه كالبضائع في الاسواق وحيث كانت الدول لا تثبت على حال بل تتغير على حسب ما يعرض للزمن من الاحوال كانت القيم ايضًا لا تثبت على حال فلا تكون في حالة السلم كما تكون في حالة الحرب لان درجة الامنية تتبع سياسة الحكومة فتعظم اذا استقامت الاحوال وتقل بعكس ذلك وفي كل حال من هذه الاحوال تتغير قيمة الاسهم فتارة تغلو وتارة ترخص كالبضائع

فقال الشيخ اريد ان استفهم منك عن امرين كثيرًا ما حاك في صدري ذكرها ولا افهم معناها الاول سمعت مرارًا كلمة بنك ولم افهم معناها والثاني رايت غالب المعاملة بالورق ولم افهم تفاصيل ذلك فقال الخواجا اما البنك فهو محل من اهمّ محلات التجارة له رجال يدبرونهُ بطريقة يحصل بها النفع العام ورئيس البنك يسمى البنكير

واعمال البنك الاصلية تكون بالنقود فتارة تسلم اليه نقود

ليحفظها و يشغلها وتارة يقرض او يقترض على حسب الاحوال وتارة يطلق لفظ بنك على اماكن تجارية تشتغل ببيع الاوراق التجارية وشرائها وتلك الاوراق مثل الاسهم في بعض شركات او اوراق الحوالات او الرجع المالية او السندات ويكون ذلك لانفسهم او لغيرهم فحينئذٍ هي نوعان عمومية وخصوصية وكثير من الاعمال تجري بالاوراق بدل النقود بل قد يرغب في كثير من الامور في المعاملة بالاوراق أكثر من المعاملة بالنقود وعلى كل حال فالبنك عبارة عن الصندوق الذي تحفظ فيه المبالغ النقدية او التي في الاوراق

والبنكير شخص يتولى النقود التي ترد اليه ليحفظها ويسدد منها مبالغ مطلوبة لاربابها وللبنك اعمال متعددة منها ان التجار يكون لهم وعليهم فاذا ارادوا الاستراحة من العد والنقد سلموا ما عندهم من النقود الى بعض البنوكة وكلما طلب منهم او لهم شيء احاله على البنكير ليستلم او يسلم و يكتب عنده فيستريح التاجر بذلك من العد والنقد والتسليم والتسلم و يستغني عن الخدمة والدفاتر التي تكثر وتقل بحسب كثرة الاموال وقلتها وقد يجتمع جملة من التجار في بنك واحد فتخف المؤنة عليهم مثلاً لو فرض ان لزيد على عمرو الف قرش وبنكيرها واحد فيكتفي زيد بان يسلم السند الذي له على عمرو للبنكير فيضيف البنكير على المطلوب لزيد الف قرش ويخصم من المطلوب لعمرو نظيرها او يكتبه عليه وهكذا بغير عد

او نقد بل بالكتابة فقط ولو بلغ المتعاملون ما بلغوا متى كان بنكيرهم واحداً ولو فرض ان المدين لا يعلم سند المبلغ اللازم تسديده في وقت معين تحت يد من هو فلا يلزمه حينئذٍ الا ان ياخذ من البنكير عميله قبل الميعاد بيوم مثلاً المبلغ المطلوب منه اللازم تسديده وبهذه الطريقة يكتفي مؤونة حفظه زمناً طويلاً ويكفى شر غوائل كثيرة ظاهرة

وحيث كانت حركة النقدية في الدخول والخروج لاتنقطع فلو اقتصر البنكير على حفظ ما يرد اليه وتسديد ما يلزم تسديده بدون اعمال اخرى ربما ترتب على ذلك بقاء مبالغ جسيمة في صندوقه بغير ربح ولهذا تجد جميع البنوكة تتجر فيبادلون النقود صنفاً بصنف بربح قليل او كثير كما تفعل الصيارفة او يتجرون في سبائك الذهب والفضة فيتحصلون من ذلك على بعض فوائد تضاف على المجعول لهم من طرف عملائهم في نظير ما يجرون لهم من الاعمال التجارية وتجارتهم في الذهب والفضة لا تضر برأس مالهم ولا باعمالهم مع عملائهم لان هذين الصنفين مأمونان وكانهما نقود في صندوق البنكير ولا يعسر عليهِ ابدالها او ضربها بل متى اراد فانه يبدلها بنقود لقضاء الشغل ويضربها نقوداً على حسب ما يرى وزيادة على ذلك يفعلون ما يقال له الاسكنت لما يرون فيهِ من زيادة الربح

مثلاً لو فرض ان من ضمن عملائه جماعة لهم اعمال جسيمة ودائماً يطلب منهم مبالغ في اوقات متقاربة لايمكنهم اداؤها في اوقاتها

فيقدم لهم النقود بفائظٍ معين بايام قليلة ولا بأس عليه بذلك لان ما خرج من صندوقه سيعود له في ميعاده ولكن متى رأى ان مطلوب عملائه اخذ في الزيادة فلا يخرج بالاسكنت مبالغ مستجدة لحين امكان الحركة وانما يلزمه لاجل زيادة امنه في اجراء عملية الاسكنت ان يعلم ان المقترض قادر على الدفع في الوقت المعين ويكفي في تحفظه علمه بان المقترض باع صنف بضاعته لاخر مقتدر واعطى سند الاعتراف بالتسديد في ميعاد معين فباعطاء السند المذكور للبنكير وضمانه يكتفي البنكير بذلك في الاعتماد ويسلم النقود للمقترض بعد حجز الاسكنت اي الفائدة بالنسبة للزمن المعين في السند فاذا باع زيد لعمرو بضاعة بالف غرش وشرط عمرو على نفسه ان يؤدي المبلغ بعد شهر فلو فرض ان زيداً احتاج الى دراهم وليس له مبالغ عند البنكير فانه يسلمه السند وياخذ منه الف غرش بنقص قيمة فائظها مدة شهر او شهرين على قدر ميعاد السداد الذي في السند ويحفظ عنده السند فيكون زيد وعمر ضامنين للبنكير المبلغ المذكور فاذا بيعت البضاعة وحصل ربح فذاك والا ضمن كل منهما للبنكير قدر خسارته

وحيث كان الاسكنت يستلزم استعمال اموال جسيمة والبنكير يجد فيه ربحاً عظيما فانه يجتهد في ازدياد المبالغ في صندوقه وفي طرق تشغيلها

وحيث ان بعض التجار يلزم له مبالغ دائمًا لادارة حركته

التجارية والبعض ترد اليه نقود زيادة عما يلزم له ولا تسمح نفسه بتعطيلها فله فيها طريقتان، اما ان يبقيها في البنك زمنًا غير معين لكن لا يكون له اخذها الا بعد نصف شهر فاكثر وفائدتها اقل من الاسكنت واما ان البنكير يسلم اوراقًا تجارية باسكنت اقل من الاسكنت الذي استولاه

وكما ان البنك يقوم مقام شخص او اكثر من اهل البلد الذي هو به او القريب منه كذلك يمكنه ان يجري تلك الاعمال بالنسبة للبلاد والمدن البعيدة عنه بواسطة اوراق حوالة من بنك على بنك اخر بمعنى انه باشتراك البنوكة بعضها مع بعض تسهل اعمال التجار الموجودين في بلاد متباعدة فاذا كان لزيد او على عمرو مبلغ وكل منهما قاطن ببلد غير بلد الاخر ويريد زيد تسديد ما عليه فانه يأمر بنكيره بتسديد المبلغ لعمرو فحينئذٍ ياذن ذلك البنكير للبنكير الذي ببلد عمرو بالتسديد فيسدده لانهما شريكان او انه يسدد المبلغ لاحد بناكيرة بلده ممن يكون لهم معاملة مع البنكير المقيم ببلد صاحب المبلغ هذه هي الاعمال الاساسية للبنوكة ولهم اعمال اخر اقل اهمية من ذلك مثل تقديمهم مبالغ على رهن من ذهب او فضة او حجج املاك او عقارات او اوراق شركات او اوراق اسهم او اوراق بضائع ففي كل ذلك يلتزم المقترض بتسديد المبلغ في الميعاد المحدد بحيث لو تجاوزه كان للبنكير ان يبيع الرهن فهذه العملية تشبه عملية الاسكنت انما تتغير قيمة الرهن ولذلك ربما حصل للبنكير

خسارة ثم ان البنكير في كثير من الاحوال يفوض للسمسار فيبيع بالنيابة عن اخرين اوراقا تجارية مثل اوراق الايرادات المقررة على الحكومة لبعض الاهالي واوراق اسهم الشركات والافتراضات الميرية وفي بعض الاحوال لا تكفي المبالغ المسلمة اليه فيخرج اوراق نقود يتعهد باستبدالها بنقود لمن هي في يده حين تقديمها له وبهذه العملية تتضاعف نقوده الجارية بين التجار ولا تضر باحد لان لكل انسان حق تبديلها بنقود متى اراد بلا نقص وبذلك تكون مثل النقود سواء بسواء فاذا حصل مبادلة جانب منها كل يوم بنقود يبقى جانب اخر منها يتعامل به وذلك يزيد في رأس ماله ويفيده ارباحاً حقيقية

واعتبار ورق النقدية مؤسس على ائتمان البنكير لعملائه واعتماد الناس على صداقته واقتداره فاذا حصل ما يخل بشيء من ذلك اختل نظام جميع اعمال البنك

وحيث ان الائتمان لا يكون واحداً في جميع الاماكن ولا عند كل احد وله اسباب حقيقية يقوى بقوتها ويضعف بضعفها كان الربح ايضاً مختلفاً ومتفاوتاً بحسب ذلك فاذا كانت المعاملة بين طائفة اعمالها مؤسسة على الائتمان ولهم عليه محافظة بحيث لا يتطرق اليهم ما يهدم شيئاً من اركانه كانت الارباح كثيرة والنجاح حاصلا واذا تداعت اركان الائتمان تداعى لها النجاح واضمحل وهكذا فلذا كانت الجهات التي لا ائتمان بها اصلاً لا تتعامل تجارها الا

بالنقود فوراً وان كثرت بها البنوكة

ويعلم مما ذكرانه يلزم ان يكون للبنكير في مال البنك جزء يخصه وذلك لزيادة الائتمان فانه يكون شبه كفيل وايضا هو نافع للبناك في استعواض ما عسى ان يقع للبنكير من الخسران في بعض الاعمال بسبب خطأ يقع في بعض التصرفات وينتفع به عوضا عن المبالغ التي تتاخر عن اوقاتها لسبب من الاسباب وايضا هذا المبلغ يزيد في اعماله وارباحه

واما امر اوراق النقدية فمخصوص بالحكومة فهي التي تامر بنشره لبنك الحكومة ففي فرانسا يكون للبنك الفرنساوي وفي الانكليز للبنك الانكليزي وهكذا كل دولة من دول اوربا لها بنك مخصوص هو الذي يخرج ورق النقدية ولا تخرج الحكومة من ذلك الا قدراً معينا بالنسبة لحال التجارة ولوازم الاعمال واعتبار تلك الاوراق كاعتبار النقود في التعامل بين الناس سواء بسواء كما تقدم لكون البنك متعهدًا باستبدالها بنقد متى اراد حاملها صرفها بدون توقف في اي مكان من امكنة الولاية فيأخذونها للمعاملة في البيع والشراء والاجارات ونحو ذلك ويسددون بها الديون والتقاسيط الميرية المالية وفي الالتزامات

وكلما وجد الناس عدم التوقف في استبدال الاوراق بالنقود ووثقوا بذلك بقيت فيها الرغبة وحفظت قيمتها والا فلا يكفي في الائتمان اعتراف الحكومة بتلك الاوراق فان من بيده الاوراق

اذا كان لا يمكنه استبدالها بنقود او باشياء اخر تفي بقيمتها فلا يلتفت الى هذا الاعتراف فان الورقة المسطور بها الف غرش مثلاً لا تساوي في ذاتها تلك القيمة وحينئذٍ فلا فائدة في هذا الاعتراف اذ لا يؤثر ذلك زيادة في قيمتها فان قيمتها انما هي باعتبار المزية القائمة بها النافعة في نحو شرآء ما يلزم شراؤه بالمبلغ المعين فيها كما يكون مشتراه بنقود من ذهب او فضة فما دامت بهذه المزية كانت كالذهب والفضة سوآ بسوآ وتزيد وتنقص قيمتها بحسب زيادة الرغبة فيها وقلتها كما يحصل ذلك في سكك النقود فان من المعلوم لكل متامل ان قيم الاشياء التي تجعل ثمناً للسلع انما هي منسوبة لمقادير ما تجعل ثمناً له فان جعلت ثمناً لسلعة جيدة ذات قيمة كثيرة كانت قيمتها كثيرة والعكس بالعكس لا فرق بين النقود وغيرها

فلو فرضنا ان ما يلزم للفرنساوية من النقود لمشترى جميع ما يلزم لهم ملياران من الافرنك يمكننا ان نعتبر ان هذا المبلغ ثابت لا يتغير الا اذا تغير اللازم لهم من الاشياء فلو فرض تكثير النقدية الى ان تصير اربعة مليارات اي ضعف المفروض مع بقاء ما يلزم من الاشياء ثابتاً على اصله ففي الحال تنقص قيمة النقدية وما كان يشترى بفرنك يشترى باثنين فانه لم تكن الزيادة مقدار المفروض اولاً بل كانت اقل فلا شك ان قيمة الفرنك تتناقص بنسبة تلك الزيادة وحينئذٍ يمكن فرض زيادة بها تكون قيمة

الفرنك اقل من قيمة سبيكة من الفضة وزنها وزنه ففي هذه الحالة لا يتعامل بالفرنك بل يتعامل بالسبائك وصاحب الفرنكات لا يتعامل بها في صورة النقود بل في صورة السبائك فتضيع قيمة النقود وتضطر الحكومة لاخذها من ايدي الناس فتسبكها وهذا هو السبب في انه لا يصح نقص قيمة وحدة المعاملة عن قيمة وزنها من السبائك بخلاف العكس

فلو فرض ان مبلغ النقود قد اخذ في النقص والقلة مع بقاء البضائع والسلع على حالها مستلزما زيادة قيمة وحدة النقود مع بقاء الاشيا اللازم مشتراها على حالها لزادت قيمة وحدة المعاملة فتكون قيمة الدرهم مثلا من نوع المعاملة اكثر من قيمة وزنه سبيكة خالصة فتربح الحكومة فيما تضربه من النقود وقد ترغب الناس في ضرب السبائك وتكثر المعاملة بها من جهة اخرى

وبعض الحكام لا يرغب في ضرب النقود زيادة عن طلب الدولة والبعض يحب ان يربح ربحًا قليلاً واخر يضر بها بالخسارة فكلما كثر المضروب منها نقصت قيمتها فتوءخذ وتسبك ومن كل ذلك علم ان وحدة المعاملة لا يلزم ان تكون اقل ولا اكثر من قيمة ما يعادلها من السبائك وقد صار معلومًا لحضرتكم ان النقص الذي يعتري النقود لا يمكن ان يصل الى ان يكون اقل من قيمة وزنه سبيكة لانه في هذه الحالة يسبك ما يلزم منها حتى تقل كمية الموجود منها وترفع القيمة الى ان تتعادل مع السبيكة

او تزيد عنها وهذا لا يمكن اجراؤه على ورق النقدية اذا اكثرت الحكام منها حتى يتعدى مجموعها مقدار اللازم وحينئذٍ يعتري المبالغ المقررة فيها ما يعتري المعاملة من الرواج وعدمه وانا اضرب لك مثلاً يزيد المسئلة وضوحًا وكشفًا

وهو انه في مدة الحرب التي كانت بين الانكليز وفرانسا اقترضت الحكومة الانكليزية من البنك الانكليزي مبالغ جسيمة فاوّل اقتراض استوفى جميع المودع عند البنك من اموال العملاء وكان اثنى عشر مليونًا من الجنيه تقريبًا فلم ينشأ منه ضرر للبنك وانما نشأ الضرر لما اضطرّت الحكومة الى الاقتراض مرة اخرى وطلبت مبلغًا من البنك يقرب من احد عشر مليونًا من ورق النقدية ولم تدفع في نظير ذلك شيئًا الاّ الاعتراف به وفرضت على نفسها فايظًا تدفعه كل سنة وصارت تصرف من الورق ماهية المستخدمين واثمان المشتريات وغيرها ما يلزم حتى زاد مقدار مبلغ النقدية فنقصت القيمة وبسبب ان نوعي الذهب والفضة حافظان لقيمتها دائمًا لم يقع النقص الا في معاملة الورق

ومن ذاك العهد صار بين الناس نوعان من المعاملة اسمها واحد وقيمتها مختلفة كما يقولون عندكم معاملة بالتعريفة ومعاملة بالصاغ فهرع كل من بيده اوراق في الحال الى البنك لتغيير اوراقه فاشكل الامر على البنك وطلب اربابه من الحكومة حل هذا المشكل لان البنك لا قدرة له على الوفاء بما وعد به الخلق

ولما كانت الحكومة قد تصرَّفت في القيمة قدمت القضية للمجلس فصدر الاذن للبنك بان يتوقف عن استبدال الاوراق بالنقود ورخص في تسديد الديون بتلك الاوراق وحيث انه لا يصعب جعل نقود من الورق لعدم الكلفة في ذلك نشر من تلك الاوراق مبالغ جسيمة فكبرت اسما مبالغ العملة الجارية في البلد وزادت عن الحد فنزل سعر الورق بسبب ذلك نزولاً فاحشاً وسببه انا لو فرضنا ان اللازم لدولة الانكليز ثلاثون مليونًا من صنف الجنيه يقضون بها ما يلزم لهم وفرض زيادة المبلغ الى اربعين مليونا فلا تكون قيمة ذلك الا ثلاثين مليونا بمعنى ان القيمة تنقص قدر الربع ولما اكثرت الانكليز في تلك المدة من نشر ورق النقدية ترتب على ذلك ان صارت الورقة التي تقابل جنيها لا تساوي غير ثلاثة ارباعه نقدية ففي ذلك الوقت اخذت قيمة الذهب والفضة في الزيادة لفظا فاوقية الفضة التي كان ثمنها قبل توقيف صرف قيمة الورق خمسة من الشلين واثنين من البنس صارت بعد التوقيف تساوي سبعة من الشلين واربعة من البنس وغلا سعر اقوات الاهالي وضرورات معائشهم بنسبة ذلك

وحيث كان مصرف الحكومة دائمًا في ازدياد اكثرت من الاقتراضات وازدياد اليكون المطلوب منها من دون ان يزيد المطالبون لها من قبل لان الفوائظ المقررة انما هي ارباح لمبالغ قديمة قيمة وحدتها عالية ولما تيقظت الحكومة لهذا الامر الفظيع

وارادت حسمه لم تجد لذلك الا احد طريقين الاول ان تجعل قيمة جنيه الذهب قدر القيمة التي صار اليها جنيه الورق

وحيث ان الجنيه الورق كان في سنة الف وثمانمائة واربعة عشر لا يشترى به الا مائة حبة وثماني حبات من الذهب الخالص والجنيه الذهب القديم كان يشرى به مائة وثمان واربعون حبة فحينئذ كان يكفي ان يجعل قيمة الجنيه الذهب مائة وثماني حبات وضرر هذا الطريق ان الذين لهم على الحكومة ديون من قبل يستولون بقيمة اقل من النقود التي دفعوها وهذا ضرر عظيم على الناس مع ان الامر المهم هو اجراء الطرق الموجبة لتخفيف اثقال الاهالي بحيث لا يدفعون لمن اقرضوا الحكومة مدة النقص دراهم قيمتها اعلى مما اخذ منهم

والطريق الثاني ان تنقص مبالغ الورق بقدر ما يلزم لرد قيمة الجنيه الذهب الحقيقية اليه بحيث ان الجنيه الورق يشترى به مائة وثمان واربعون حبة ذهباً خالصا وهذا الطريق هو الذي اتبع وجرى العمل به ثم بعد الصلح نقصت مصاريف الحكومة وصار توقيف ضرب معاملة الورق وصدرت الاوامر لبنك الانكليز بجمع كثير من الاوراق واستبداله بنقود فاخذ الجنيه الورق الزيادة حتى رجعت قيمته لاصلها ولكن بعد خسارات كبيرة على الحكومة لان دين الحكومة ازداد زيادة فاحشة بسبب قلة قيمة نقود الدين الذي عليها عن قيمة النقود التي دفعتها في التسديد وكذلك

المستأجرون خسروا ايضا في اجاراتهم لانهم استاجروا بالمعاملة النازلة وسددوا بالمعاملة العالية

ولما اخذت قيمة الاشياء في التنازل ثانيا بعد هذه الحركة كان المستأجرون يدفعون خراج الارض بزيادة ويبيعون باقل

وزاد الخرج ايضا بقدر الثلث لانه مقدر بالصنف ولا مدخل للقيمة فيه فخسر ارباب الزرع خسارات جسيمة

كل ذلك والشيخ مصغٍ لكلام الخواجا لما فيه من بيان علوم لم يكن يعلمها

وبينا هما كذلك اذا برجل اقبل فكلم الخواجا سرًّا فنهض قائما وقال للشيخ لا تؤاخذني فان هذا الرجل اخبرني بان الحكيم قد حضر بالمنزل فلزمني التوجه اليه فقال الشيخ لعله خير قال ان ولدي متغير المزاج منذ ايام ولكنه بخير ثم انصرف

فقام الشيخ وركب العربة ومعه ابنه ويعقوب فلما استقاموا في الطريق قال الشيخ لا شك ان امور اوروبا كلها عجيبة ولهم افكار واختراعات نافعة غريبة فانظر كيف اعملوا الفكر في تحسين امور الدنيا واخترعوا لها طرقا بها اتسعت دائرة التجارة بيدهم فان ما ذكره حضرة الخواجا من طرق التيسير والسهولة التي سلكوها واستعملتها ارباب البنوكة قد هوّن امر المتجر على كل انسان وتيسر لكل شخص صادق حسن الادارة فيما يتجر به من النقدية ولكن لا ادري هل هذه البنوكة من اختراع الاوروباويين ام هي

امر قديم اخذه الاوروباويون عمن سبقهم

فقال يعقوب ان معلوماتي بالنسبة لذلك غير كثيرة ومع هذا اخبر حضرتكم بما اعلمه في هذا الشان

وهو ان الكنعانيين في المدة الماضية كانوا يستعملون البنوكة في امر التجارة ولكن لم يصلنا عن ذلك خبر شافٍ يوثق بهِ والذي اتحققهُ ان الاثينيين كانوا يعرفونهُ ويتعاملون به وكان عتقاهم هم الذين يتولونه وبذلك كانوا يتحصلون على اموال جسيمة ويبلغون درجات عالية بسبب كثرة النقود وكان تعاملهم بالنقد فقط فكانوا ياخذونها بربح معلوم ويقرضونها بربح غيره على رهن وضمانات كما تفعل البنوكة الان فيتحصلون على ارباح كثيرة

واما البنوكة التجارية فلم تظهر الا في القرن الثاني عشر من الميلاد ببلاد البناديك وسبب ظهورها جماعة من التجار كان لهم مبالغ عظيمة على الحكومة فاتفقوا على ان يجمعوا سندات تلك المبالغ ويتعاملون بها في تجاراتهم كما لو كانت الحكومة صرفتها

وحيث كانت الحكومة تدفع فائظًا لمبلغ الدين كان ذلك الفائظ ينتقل مع الدين من تاجر الى اخر تبعًا لاحوال التجارة ومن لا اخذله ولا عطاء ياخذ فائظ مبلغه من البنك بدون استئذان الحكومة

ثم ان تلك الطريقة اتبعت في اغلب البنوكة التي ظهرت فيما بعد وجرى بها العمل في بعض البلاد مثل بلجيك وهولانده

ونحوها والغالب ان المعاملة كانت اولاً بالنقود ليس الا واول ظهور ورق النقد كان ببلاد الانكليز في بنكها الذي ظهر سنة الف وستمائة واربعة وتسعين ولم يتحقق استعمالها قبل ذلك

وفي تلك المدة كان المعلوم ان جميع الاختراعات ايًا كانت انما هي حق الحكومة سيما ما يتعلق بامر التجارة وسبب انشاء البنك الانكليزي هو ان الحكومة رغبت في اقتراض مليون والفي جنيه انكليزي فانشأت البنك المذكور وخصت من يدخل في الاقتراض بمزايا للترغيب منها انها جعلت لهم فائظًا في كل مائة ثمانية كل سنة ومنها انها رخصت لهم في الاستيلاء على مبالغ ممن يرغب تنمية ماله عندهم ومنها ان لها ان تقرض من شاءت وتجري الاسكنت في اوراق التجارة كالسندات وورق الحوالات ومنها ان لها ان تخرج ورق نقدية تدفع مبلغه نقدا حين عرضه عليها ومنها انها تحول عليها امورًا ميرية في مقابلة ربح معلوم وقد جعل في الاصل ميعادها ١٢ سنة لكن لما ظهر للحكومة من ذلك فوائد صارت كلما انتهى الميعاد تجدده حتى كانت سنة الف وسبعمائة وثمانية فثبتت على ما هي عليه الى الان وكانت البنوكة كلما تجددت المواعيد تتحصل على مزايا جديدة بورود المبالغ اليها بكثرة حتى صار البنك تقريبًا هو القائم باحوال التجارة والحكومة ووصل راس ماله قريبًا من خمسة عشر مليونًا من الجنيه الانكليزي وهذا القدر كان دائمًا دينًا على الحكومة وكان ذلك اشبه بالضمان للبنك

وزيادة قوة في اعتماد الناس وائتمانهم له وبهذا السبب كانت البنوكة كانها مشاركه للحكومة في امورها حتى كان كل اضطراب وتقلب يحصل حسناً كان او قبيحاً اذا تأثرت منه الحكومة يتأثر منه البنك ايضاً

وفي سنة الف وسبعمائة وسبعة وتسعين لما حصل توقف في دفع قيمة الورق للبنك نقوداً حصل له اضطراب عظيم وصارت البنوكة تشبه فوريقة ورق لانها كانت تنشر ورق النقدية بحسب احتياج الحكومه ولذلك حصل في قيمته نقص كما ذكر لكم حضرة الخواجا واستمر ذلك الى سنة الف وثمانمائة واثنين وعشرين والمنافع التي عادت على الحكومة في تلك المدة لا يمكن حصرها ومتوسط ما اقترضته الحكومة من البنك يقرب من خمسة وثلاثين مليوناً من الجنيه الانكليزي ومع هذا لم تقف حركة التجارة وكان الاسكنت جارياً انما نزلت قيمة ورق النقد قريباً من خمسة وعشرين في المائة وقد حصل الاذن من الحكومة للبنك الانكليزي في اخراج اوراق نقدية بقدر اربعة عشر مليوناً من الجنيه فقط واذا زاد مبلغ الورق عن ذلك يلزم ان يكون له مقابل من النقد العين او من السبائك في صندوق البنك

وفي سنة الف وثمانمائة واربعة واربعين انقسم البنك الانكليزي بمقتضى الاوامر الملوكية الى بنكين الاول استلم الصنف الموجود في البنك والسندات التجارية المتضمنة للاربعة عشر مليوناً من الجنيه

منها ما يقرب من اثنى عشر مليونًا على الحكومة وجعل لها ان يخرج ورق نقد بقدر الاربعة عشر مليونا سندات مضافا عليها قدر الصنف وللناس ان يشتروا منه ورق النقد ويبدلونه بصنف عين فالاوقية من الذهب الذي عياره اثنان وعشرون قيراطا بثلاثة جنيهات وسبعة عشر شلينا وتسعة ديناريو والاوقية من الذهب السبيكة الذي عياره كالسابق بثلاثة جنيهات وسبعة عشر شلينا وعشرة ديناريو ونصف والقسم الثاني يأخذ من الاول بمبادلة الذهب باوراق النقد اسوة الاهالي سواء بسواء

ومن ابتدا هذا التاريخ صار منع البنوكة من اخراج ورق نقدية مطلقًا واذا اجتمع بنكان صغيران فلا يتعدى ما ينشرانه من الورق قدر ما كان ينشره واحد منهما قبل صدور الامر

ويمكن البنك الانكليزي ان يزيد في تكثير البنوكة التابعة له على حسب رغبته في تكثيرها في جميع الجهات بدون تغيير قدر مبلغ الورق المخصص له واذا ابطل البنك الكبير احد البنوكة الصغيرة فله باذن من الحكومة ان يضيف الى نفسه ثلثي ما كان بطل منه

وعدد البنوكة التي في المديريات التابعة للبنك المذكور سنة الف وثمانمائة وثلاثه وخمسين احد عشر بنكا عمومية غير مائة وسبعة وستين بنكا خصوصية توجد ببلاد الانكليز وبلاد الغال من ضمنها خمسة وستون بنكا لها الاذن باستعمال ورق النقد ولها بنوك بجميع

الاقطار الانكليزية متفرعة عنها عددها ثلثمائة وواحد واربعون بنكًا

واول بنك حدث ببلاد فرانسا انشاه رجل انكليزي سنة الف وسبعمائة وستة عشر وفي اول الامر حصل له رواج ولكن من تسلط الحكومة عليه وعدم انقطاع طلباتها فسد حاله وبطل وبقي الامر على ذلك نحو ستين عامًا ثم صار تنظيم صندوق الاسكنت وكان رأس ماله خمسة عشر مليونًا ليورًا تورنوا منها عشرة ملايين اخذتها الحكومة قرضةً بشرط دفعها على تقاسيط سنوية ولكن بسبب قلة الائتمان وعدم الصدق في كلام الحكومة لم يحصل نجاح هذا الامر الا بعد صرف نظرها عن اقتراض هذا المبلغ من الصندوق المذكور

وعلى مقتضى الامر الصادر سنة الف وسبعمائة وتسعة وسبعين جعل رأس المال اثنى عشر مليونا وربح في المائة اربعة في السنة في حال السلم واربعة ونصفا في حال الحرب

وفي سنة الف وسبعمائة واثنين وثمانين كسد حال التجارة فتأثر من ذلك صندوق الاسكنت ولكن دفعت الحكومة له ما كان عليها نقدًا فانصلح حاله واستمر على هذا الامر مدة ثلاث سنين حتى حصل لكل سهم في السنة خمسة عشر ونصف

وفي سنة الف وسبعمائة وسبعة وثمانين صدرت اوامر بجعل راس ماله سبعين مليونا ورخص له في شراء ورق النقد والتجارة

ومدوا لذلك ميعادًا ثلاثين عاماً واقترضت منهُ الحكومة سبعين مليونا فحصل من ذلك وقف الحال بسبب عدم امكان الصرف لارباب الورق لوقته

وفي سنة الف وسبعمائة وثمانية وثمانين صدر امر بعدم صرف نقدية في مقابلة اوراق واستبدالها باوراق تجارية ممن عنده ولكن من كثرة طلبات الحكومة وازدياد كمية ورق النقد حصل اضطراب عظيم نشاء منه توقيف العمل والدفع واستمر ذلك الى قيام حرب الفرنساوية وبعد الهدء ظهرت بنوكة تعاملت في بعض الامور التجارية واول ماظهر صندوق الحساب الجاري سنة الف وسبعمائة وستة وتسعين وبعده سنة الف وسبعمائة وثمانية وتسعين صندوق التجار وترتب على ذلك نزول سعر النقدية من تسعة في المائة الى ستة وراج امرهم رواجاً عظيماً وربحوا من دون ان يسمع بما يخل بامانتهم وما ذاك الا لكونهم غير مرتبطين بالحكومة ولكن لما ظهر للحكومة ان من الضروري وجود بنك تستمد منهُ شرع بونابرت الاول ايام قنصليته في تشكيل بنك سماه بنك فرانسا على نسق بنك الانكليز وجمع لهُ جملة من البناكيرة المشهورين ولاجل ان يأتمنهم الناس دفعت له الحكومة خمسة ملايين فرنك قيمة خمسة الاف سهم فدارت حركة البنك وجرى فيه الاخذ والعطا وكان هناك بنك باسم صندوق الحساب الجاري وكان التجار والناس يعتمدونه فجمعت الحكومة الاثنين وجعلتهما بنكا واحداً وكان ذلك في سنة

الف وثمانمائة تقريبا وفي اول سنة كان عدد ما اخذ من الاسهم سبعة الاف وخمسمائة ثم ازداد حتى بلغ خمسة عشر الفًا ومبلغ ما صار اسكنته مائة وواحد وعشرون مليونًا في ظرف سبعة اشهر ونصف وفي السنة الثانية بلغ مائتي مليون وخمسة وفي السنة التي بعدها بلغ اربعمائة مليون وثلاثة واربعين مليونا وكان كل بنك بنشر اوراق النقدية ولم يحصل من ذلك ما يخل بالاخذ والاعطاء انما في سنة الف وثمانمائة وثلاثة صدرت اوامر الحكومة بجعل ذلك مخصوصا بالبنك الفرنساوي فحصل الحاق بعض البنوكة به وكانت مدة الرخصة خمسة عشر عاما ومبلغ رأس المال خمسة واربعين مليونا والربح في المائة ستة في السنة وما زاد من الربح يحفظ في البنك

وحيث كانت الحكومة دائمًا تتداخل في امور البنك كان سير البنوكة غير مستقيم فكان في بعض الاوقات يحصل الكساد ويقل الامن واستمر ذلك الى سنة الف وثمانمائة وستة

ثم عيّن بُونابرْت رئيسا للبنوكة جعل معه وكيلين وحدد لها حدًا تسير عليه وجعل رأس مالها تسعين مليونا وحدد الميعاد الى خمس وعشرين سنة ورخص في احداث بنوكة في المدن تبعا لهذا البنك ولكن بسبب ما ظهر للحكومة من عدم الثبات مع الخوف الذي كان يعتري الناس لم يحصل رواج وتعطلت البنوكة وخسرت وبقيت اكثر مبالغها بصناديقها بدون عمل وكان هذا

الاضطراب يكثر ويقل الى سنة الف وثمانمائة وثلاثة ثم تحصلت البنوكة على حريتها واستقلالها بالنظر في امورها كما تشاء وسوعد البنك الفرنساوي من بين البنوكة بنشر اوراق النقدية فصارت اغلب المعاملات واردة على هذا البنك في المدن وفي المديريات فحصل الضرر لغيره من البنوكة واستمر ذلك الى ان حصل القيام الذي كان سنة الف وثمانمائة وثمانية واربعين فصدر الاذن للبنوكة الاخر بنشر ورق النقدية فكثر نشر الورق وحصل كساد عمومي فيه ونقصت قيمته فصدرت الاوامر ثانياً باستقلال البنك الفرنساوي به واستمر الحال على ذلك الى الان ومن ذاك الوقت انتظمت امور التجارة

وفي سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين صدرت اوامر بامتداد ميعاد الاوراق الى سنة الف وثمانمائة وسبعة وتسعين ورخص لهم في مبلغ واحد وتسعين الفا ومائتين وخمسين سهما مستجدة وبهذا زاد رأس المال عن اصله وبسبب هذه الزيادة رغبت الحكومة في اقتراض مائة ملیون وبقي ما كان لها من المزايا على اصله وزيادة على ذلك صار يمكنها تشكيل بنوكة في المديريات لكل بنك مجلس ومدير يتعين بمعرفة مجلس البنك ويكون مقبولاً عند الحكومة وعدد اعضاء المجلس المذكور يختلف من ستة الى خمسة عشر ومن ثلاثة مفتشين منتخبين بمعرفة مجلس البنك الفرنساوي واما الاعضاء فتعيينهم بمعرفة الحكومة ايضًا من خمسين منتخبين

من كبراء ارباب الاسهم الذين في الجهة التي بها البنك ويقدم المجلس اسماءهم للحكومة في عريضة فتنتخب منهم من يصلح

ويوجد ايضاً بنكان شهيران غير البنك الفرنساوي وفروعه احدهما لتسهيل امر القرض على مرهونات العقار والاراضي والاخر لتسهيل الاعمال المهمة مثل انشاء و ش اومعامل او سكك حديدية وما اشبه ذلك

وبينا هم في هذا الحديث اذ وصلت بهم العربة قريباً من العين فنزلوا ومشوا الى ان وصلوا الى العين فقال ابن الشيخ اني من الامس الى هذا الوقت لم اسمع الا الالاف المؤلفة من الجينهات الانكليزية وكذلك لا نرى في بلادنا الا دراهم مضروبة بالبلاد الاوروباوية واغلب معاملة بلادنا بالجنيه الانكليزي والبنتو والريال ابي مدفع وابي طيره والشينكو وكلها مضروبة باوروبا

ولم يضرب ببلادنا غير الجنيه والريال المصريين والمجيديين مع عزة وجودها وقلة المعاملة بها فهل اخرجت الارض كنوزها للاوروباويين ام تحولت اليهم كنوز كسرى التي كان حازها ام عثروا على ارم ذات العماد التي لم يخلق مثلها في البلاد

فقال يعقوب الكلام في هذه المسألة متوقف على مراجعة رسالة كنت جمعتها فاذا رجعنا اطلعتكم عليها وفيها بيان ما استخرج من المعادن في القرون الخالية وما استخرج منها في القرون التالية ما وجدته في كتب المؤرخين ودفاتر الاحصاء المحفوظة في دفترخانة الحكومة

المسامرة (١٠٧)

الهوام والدواب



فاستحسن الشيخ منهُ ذلك ثم انهم وصلوا الى الغابة فدخلوها وطافوا في ارجائها وكان الجو صاحيًا والوقت معتدلا وظل الاشجار قد رسم على الارض رسومًا يضيءُ ما بينها من نور الشمس كبساط مكلل بالجواهر وعلى حسب شكل الارض من انبساط او تكور مع تقارب الاشجار وتباعدها يظهر للظل ضوءٌ حسن وصور اشكال مختلفة تتحير الواصف في وصفها وكان النسيم يحرك اغصان الاشجار فياخذ من رطوبتها ويسير على وجه الارض فتنتعش به الارواح

وينشا عنه الانبساط والانشراح وبسبب ذلك كان مشيهم على الارض هونًا هينًا وكانوا اذا تعبوا جلسوا على بساط الارض الاخضر وتوسدوا احجارًا ملساء تشبه المرمر فكان الشيخ يعجب من اتساعها وتنوع اشجارها وكان لا يعرف اكثرها ويقف عند كل شجرة تعجبه ويسأل عنها يعقوب فيذكر له ما يعلمه وكثيرًا ما كان لا يقدر على وصف اشجار لا يعرف اسماها وكان يخجل من ذلك ويعتذر للشيخ ويقول ايها الاستاذ ارجوك ان تغفر لي ذنب جهلي فان معرفة جميع النبات والاشجار واسمائها ومنافعها وخواصها علم كالبحر بلا ساحل وله رجال مضت اعمارهم في تدوين كتبه وانا لا اشك في ان للخواجا بهذا العلم معرفة تامة فان هذا الفن من ضمن ما يقرأ بالمدارس واما انا فلم ادرسه والذي عرفته منه انما استفدته من المطالعة فقط فكان قليلاً جدًا والفضل في ذلك للسائح الذي عطف الله قلبه عليّ فاني بعد دخول اختي الدير رجعت الى لوندرة فاقمت عنده مدة وسافرت معه اسفارًا في جهات شتى وكان لي بمنزلة الوالد ولعلمه الرغبة مني في حب الاستفادة كان يعلمني من معلوماته فحسن امري وانطلق لساني وانزلته منزلة ابي بل اعظم فمضى عليّ خمس السنوات التي اقمتها معه كأنها ساعة من نهار لحسن معاشرته وكنت اود ان اكون بقية عمري في خدمته ولكن الدهر حال بيني وبينه وبعد ان كنت مؤملاً ان لا افارقه قطع املي وهدم من معيشتنا لذاتها

ففاجأه هادم اللذات ومفرق الجماعات ففارقني انسي ويا ليت غض الدهر عنا طرفه ولم يتخذ التفريق بين الاحبة حرفه ومذ حكم الله عليه بالموت وهو بايتاليا تجددت احزاني وهاجت اشجاني ولعبت بي ايدي الحادثات وعرضت لي آفات البليّات فاتخذت صنعة الملاحة وجبت من البحار كل ساحة وطفت جميع البلدان لاختبر من فيها من السكان فلم اجد بعده بدلاً اركن اليه واعول في مهاني عليه فاسال الله ان يغمر في رحماته ويتجاوز عن سيآته ثم هطلت عيناه بالدموع فاخذ الشيخ يهوّن عليه حتى هدأت عبراته ثم قال ايها الاستاذ اني لما تذكرت من كان محسنًا اليّ لم اتمالك من البكاء عليه حيث حرمت من النظر اليه

فقال له الشيخ هذا بعض ما يجب لصاحب المعروف على الحر البر العطوف

ثم ان يعقوب خشي ان يضل عن الطريق فعاد راجعًا الى مبدئه فوجدوا ربوة مظللة بالاشجار معشوسبة فجلس الشيخ فيها ليستريح فجعل ابنه يتامل في جميع اشجارها ويعجب من عظم كل شجرة ووقف عند شجرة من شجر البلوط قد اخذت غاية الارتفاع وبجانبها شجرة صغيرة لا ورق بغصونها وعليها دوابٌّ صغار لا تحصى فتاملها فوجدها تاكل من الاغصان جلدها والتفت فوجد من جنسها فوق اغصان اشجار اخرى ووجد بعض تلك الدواب يمشي على الارض الى اشجار فيصعد عليها فقال ان في

مصر بعض دواب تاكل الزرع الاخضر واخرى تاكل ورق الشجر وفي بعض السنوات تكثر على اشجار الفاكهة فتضرها ضررا عظيما ولكن لاشبه بينها وبين هذه الدواب

فقال يعقوب ان الهوام المضرة بالاشجار لا تحصى عددًا وتختلف انواعها باختلاف انواع الشجر والبقاع وفي بعض السنين تتجاوز الحد في الكثرة ببعض الجهات وتقل في جهة اخرى فمن يدخل احدى غابات المانيا يسمع لتلك الدواب صوتًا منتظما يحصل من قرضها غصون الاشجار واوراقها فيخرج غالب الناس اليها وينتشرون في ارجاء الغابة ويقسمونها بينهم ويضربونها من كل جهة ولكل فرقة من الناس رئيس ومعهم مزاريق وعصي طوال كانهم خارجون لمقاتلة الاعداء وفي بعض الجهات يشتغل كثير من الناس بحفر خنادق عميقة في محاذاة الطرق والحدود يمدونها الى مسافة بعيدة للفصل بين اجزاء الغابة او بينها وبين ما يجاورها لمنع الدواب عن الاشجار الخالية منها. وبالليل يظهر نوع اخر منها يعرف بمصر بابي الدقيق او الفراش اذا رأى النور اسرع اليه حتى يحرق نفسه في النار فلاجل قتله يشعل الناس النار في الاشجار فيرى من يطوف بالغابة في كل قسم شجرة او اكثر مشتعلة بالنار لها لهب ودخان صاعد نحو السماء بحيث تضيء من كل جهة والدخان متكوّن كالسحاب العظيم فوق الغابة وبقرب الاشجار اشخاص لتقوية النار وايقاد غيرها اذا اقتضت الحال ذلك

فيكون حال مزعج ويأسف من يراه على اتلاف هذه الاشجار العظيمة وما فيها من الخيرات ولا يسعه الا التفويض لقدرة الحكيم جلّ وعلا فان الانسان لايدرك الحكمة في تسلط هذه الهوام على اعمال الانسان واتلاف ما به منافعه من هذه الاشجار وغيرها وعلى صغر هذه الهوام واحتقارها بالنسبة للانسان لايمكنه التخلص من ضررها وفي بعض الاوقات تضطرب اهل البلاد ويخرجون جميعاً رجالاً ونساءً صغارًا وكبارًا ويتفرقون في ارجاء الغابات ومعهم عصي وحراب وشماميط لقتلها وتارة يحفرون خنادق فتقع هذه الدواب حين عبورها بالخنادق فتكون طبقة عظيمة سميكة فيهيلون عليها التراب

ثم قبض على دابة صغيرة مما على شجر البلوط وقال هذه تاكل خشب الشجر وتدخل فيه وتحفره خطوطاً حتى يتلف كله وتجعل هذه الخطوط التي حفرتها بيوتًا لها بين الخشب والقشر تبيض فيها وتفقس ويقال ان الانثى تبيض من خمسين بيضة الى مائة

واغلب هذه الدويبات يكثر ظهورها في فصل الخريف وفي بعض الاوقات يتكوّن في الجوّ منها طبقات تمتد امتدادًا عظيماً في هذه البلاد بحيث تكون كالجراد في بعض الجهات والخنازير تأكل هذه الديدان وتنكبّ عليها ولذلك هم يستعينون بها على اتلافها فيأتون بالخنازير في شهر اغسطس الذي تنزل فيه الديدان

من فوق الاشجار لتسكن جوف الارض او تحت الحشايش فيوزعونها في داخل الغابات فكلما نزل دود من فوق الشجر التقطته ولكلته

ومن هذه الهوام صنف صغير الجسم له جناحان عريضان بالنسبة لجثته يطير بهما في بعض الاحيان ويسمى بين الاهالي بخراق الاذن ويزعمون انه يدخل في اذن الانسان ويخرقها ويسكن في المخ كذلك ولكن هذا غير صحيح وانما سبب هذه التسمية انه يوجد في محل الذيل لذلك الصنف شيء كالآلة المستعملة في خرق اذن البنات وهذا الصنف يكره الضوء ويقتات من الفواكه والازهار كالورد وغيره والانثى منه تبيض وتجعل بيضها تحت ورق الشجر مجتمعاً وترقد عليه كما يفعل الدجاج واذا حصل له تفرق بعبث احد فيهِ مثلاً فانها تنقله الى محل اخر وتضم بعضهُ الى بعض وترقد عليه الى ان يفقس فيكون اولاً ديداناً صغيرة جدًا لا تحجب ما وراءها فتحنو عليها الام بالشفقه والتربية الى ان تأخذ لوناً اسمر فتبقى على هذا اللون وتستغني عن امها ومنها صنف يكون عادة فوق غصون الاشجار ويقتات من صيد الدويبات الصغيرة ولا يضر بالشجر ويتميز عن الجراد بطول جسمه وعظم اجنحته وهو بطيء الحركة اخضر اللون مشرب بصفرة يشبه لون غصون الاشجار التي يعلوها بحيث لا يفرق الناظر بينهما وهذه الدواب كثيرة التحيل فاذا ارادت اقتناص دويبة دنت منها مع السكينة والاحتراس حتى اذا كان بينهما قدر مد ذراعيها وثبت عليها وامسكتها

فتدخل في جسمها كثيرًا من الشوك الذي بيديها ورجليها فتهلكها وتأكلها وتعرف بمصر بفرس النبي وتسمى ايضًا المقدسة لانها ترى في غالب الاوقات رافعة نصفها الاعلى عن الارض كهيئة المبتهل وبعض الناس يقول انها تهدي المسافر للطريق

ومن الدويبات التي تأكل اوراق الشجر دويبة طويلة دقيقة ذات ارجل طوال جدًا لا فرق بينها وبين اعواد الورق ولذا لا يميزها الناظر اذا كانت فوقها وهي بطيئة الحركة واذا ادركتها الشمس في سيرها وقفت ومدت ذراعيها وبسبب نحافتها تسميها الاطفال العصا الماشية او شعرة الشيطان

ومنها ما يكون له اجنحة يطير بها وتسميه الاهالي في بعض الجهات الورقة الطيّارة

واشنع جميع هذه الدويبات الدويبات النطاطة ذات الوثوب التي منها جميع اجناس الجراد لها ايد وارجل طويلة يعظم بها وثوبها ولها صوت يسمع متى كانت الشمس فوق غصون الاشجار وتألف الشمس وجاف الاماكن وهي انواع كثيرة وفي البلاد الجبلية تجتمع بكثرة في الشقوق التي بها النبات والعشب ولها نغمات مخصوصة عند طلب الذكر للانثى او الانثى للذكر عند استغاثتها بذكرها من ذكر اجنبي يحاولها وتحدث هذه النغمات من حك ارجلها على ثوبها الذي فوق جسدها وبحسب اختلاف قوة الاحتكاك تختلف قوة النغم وكلما ارتفعت الشمس فوق الافق

قوي النغم وكلما مالت للغروب او قويت درجة البرد ضعف وكثيرًا ما تكون هذه الانغام غير مسموعة لنا وتكون مسموعة لجنسها فقط والذي يكون منه انا ذا نغم ظاهر بحيث نشعر به لا يهوى الاّ البلاد الباردة وعكسه يهوى البلاد الحارة وكل من نظر الى هذه الدّويبات العجيبة الشكل استحسنها واعجبه شكلها ولونها الاحمر والازرق وعادة تكون قليلة ولكن لاسباب لا نعلمها تملأ جوفها من الهواء في بعض الاوقات وتسافر الى البلاد الشاسعة ويحصل منها ضرر كبير وقد ملئت بذكر مضارها الصحف في الازمان الماضية والحاضرة وعرف الاقدمون منها نوعين ينسب اليهما تلف اصناف المزروعات احدهما وهو الاكبر يعرف بالجراد السياح ويكون غالبًا في السواحل الغربية من افريقية وفي سواحل الصين وثانيهما وهو الاصغر يظهر باوروبا لكنه قليل وفي امريكا والاوسترالي يظهر نوع من الجراد غير كثير الاذى ولا يكثر نوعه كالبقية والذي بافريقية يتقلب من حين فقسه الى كبره في خمسة اطوار فالاول بعد خروجه من بيضه بخمسة ايام والثاني بعد الاول بستة ايام والثالث بعد الثاني بثمانية ايام وفي هذه الثلاثة يكون بدون اجنحة اصلاً ثم الرابعة بعد الثالثة بتسعة ايام فتبدو الاجنحة صغيرة والخامسة بعد الرابعة بسبعة عشر يومًا تكون تامة الاجنحة فتتكامل منها القوى بعد خروجها من البيضة بخمسة واربعين يومًا

المسامرة (١٨١)

الجراد

فقال الشيخ ان الجراد آفة واذا حل بجهة اهلك الحرث والنسل وقد حل في بعض السنوات ببلادنا فاتلف اشياء كثيرة حتى ان الحكومة اخرجت الاهالي لجمعه وجعلت لهم جعلاً على ذلك فجعلت على كل اقة منه قرشاً

فقال يعقوب كتب التاريخ مشحونة بذكر الجراد وما حصل منه من المصائب وهو غالباً يظهر من صحرا بلاد العرب والتتار فان الريح المشرقية تأتي به الى افريقية واوروبا وكثيراً ما تكون

سفن السياحين في البحر مغطاة به فيكون فوقها كالسحاب ويكون ممتدًا فوق البحر مسافة بعيدة واكبر مساعد له على السير هو الريح

وفي سنة الف وسبعمائة وثمانية واربعين وصلت جيوش الجراد بلاد الانكليز حتى تعطل جيش شارل الثاني عشر عن المسير بعد كسرته في بلتاوا من بلاد البسارابي فمن كثافته كالسحابة لم تتمكن الناس ولا الخيل من السير وقد تغير نور النهار بظلام شديد

وقد رأى الناس في بلاد الهند وبلاد مهرات سحابة من الجراد طولها ثمانون ملقة وسمكها عدة اقدام وذكر بعض السياحين انه يكثر ببعض جهات افريقية في بعض الاحيان حتى يكون سطح الارض والانهر مكسوًا به بحيث لا يتمكن الانسان من وضع قدمه على الارض من كثرة الرم

وفي سنة الف وثمانمائة وخمسة وثلاثين احتجب نور الشمس والقمر عن ارض الصين بسبب سحابة منه حتى اهلك المزروع ثم اهلك ما في المخازن وملبوسات الخلق داخل بيوتهم ولم يسع الناس الا الفرار الى رؤوس الجبال

وفي سنة الف وسبعمائة وثمانين نشاء منه قحط عظيم ببلاد مراكش حتى اكل الاهالي اعواد النبات وجذوره وحب الشعير الذي في ارواث البهائم وبعر الجمال

وفي اخر سنة الف وثمانمائة واربعة وستين نزل ببلاد السينجال فاهلك جميع محصولها وشوهد منه في الجوّ سحابة طولها خمس عشرة ملقة

وفي سنة الف وثمانمائة وخمسة واربعين حصل بسببه قحط ببلاد الجزائر وتبعه في عدة سنين قحط عظيم وفي سنة الف وثمانمائة واربعة وستين خرج من الصحرآء وهجم على البلاد والجزائر فاكل جميع المحصول حتى لم يبقِ شيئًا واستعملت جميع الطرق للتخلص منه فتفرقت العساكر مع الاهالي لجمعه ومع ذلك فلم يجدِ هذا شيئًا فاكل شجر العنب والتوت والزيتون وغير ذلك حتى اكل شجرة الدخان ولم تمنعه مرارتها من اكلها ولم يترك جهة من الارض الاّ وقد غطاها باحيائه وامواته فكانت السحابة منه تمتد نحو ثمانين ملقة وذلك في عموم جهات الولاية

ولاجل التخلص من وباله كان الناس يجتمعون ويصيدونه بالشباك من الارض وروؤس الاشجار ثم يحرقونه بالنار واهل السودان يطردونه بالتصويت واهل هولاندة استعملت المدافع في ازالته وفي الازمان القديمة كان اليونان يجعلون على كل شخص كيلاً مخصوصًا يأتي به منه

وفي سنة الف وثمانمائة وثلاثة عشر ببعض مديريات فرانسا جعلت الحكومة لكل من يأتي بكيلو جرام من بيضه نصف فرنك ولمن ياتي بهذا القدر من الحيوان ربع فرنك

وفي مديرية مرسيليا صرف في جمعه خمسة وعشرون الف فرنك وكذا مديرية ارل صرفت مثل ذلك وفي الجزائر جعل ربع فرنك على جمع كيلوجرام فكانت الناس تاتي باربعين او خمسين جملاً محملة منه

وفي بعض البلاد يوكل الجراد بانواعه وقد جوّز موسى عليه السلام لقومه اكل اجناس اربعة منه واليونان كانت تبيعه بالاسواق وذكر استرابون الجغرافي ان الحبشة ياكلونه ويجعلونه من الاطعمة والمغاربة في الجزائر ياكلونه ويسمونه الجراد الغربي ويكتفون بقطع راسه وجناحيه وارجله الطويلة ثم يملحونه وياكلونه والاولاد والنسا تجعله في خيوط وتبيعه في السوق وهناك بلاد تقليه بالزيت واهل هولاندة تاكله ايضاً وبعض الناس يزعم ان الذين يجعلون قوتهم منه لا تتعدى اعمارهم الاربعين وفي راس الاربعين يتلئ جوفهم وجلدهم ديدانا صغيرة تهلكهم وكثير من الحكماء والسياحين يكذبون ذلك

فقال الشيخ في شرعنا يجوز اكله مطلقا فان الشارع نص على حرمة الميتة الا السمك والجراد وحرمة الدم الاّ الكبد والطحال فسبحان من دبر الاكوان واحسن صنعها فلله في تسليط بعض جنوده على بعض حكم واسرار لا يقف عندها علم البشر فعلى الانسان التسليم للحكيم العليم

فلله في خلقـــه حكمـــة تكل البصائر عن دركها

فسلم لرب الورى حكمه كما تفعل الطير في أيكها



المسامرة (١٠٩)

نور الغاز

وبينا هم يتجاذبون اطراف الحديث اذا بالخواجا الانكليزي اقبل فرآه ابن الشيخ على بعد فقام ليقابله فالتفت الشيخ فرآه مقبلاً فقام له. فلما جلس الخواجا قال ان بُعدي عنكم هذين اليومين كغياب عامين وحقكم ما تخلصت من صاحبي الاَّ بعد ان اعتذرت له بحضرتكم ووعدته بالعود اليه مع حضرتكم ولو رأيتم هذا الرجل ومسكنه لا تهون عليكم مفارقته فانه على طريق يمرّ منه خلق

كثير وحواليه بستان عظيم في وسطه عين ماء نابعة من الصخر وبقربه بلدة لطيفة فيها كثير من الامراء والاعيان يجتمعون كل ليلة عند احدهم وهم اناس ظرفاء لا يستوحش انيسهم ولا يملهم جليسهم وهذا الرجل على غاية من الرقـــة واللطف والادب وزوجته خير منه

فقال الشيخ نحن ذهبنا عند حضرة الخواجا التلياني صاحبكم وتوجهنا الى البُرصة معه وفهمنا ما يتعلق بهذه المصلحة من الامور العامة وغيرها وبيّن لنا الايام التي ترتبت علينا في المدرسة المشرقية وذكر لنا تشوقه لحضرتكم ورأينا منه خلقا حسنا قل ان نرى مثله فحصل لنا غاية الانس لولا غيابكم عنا فان يعقوب كان وافيا بخدمتنا قائما بما فيه رغبتنا وراحتنا لكن غيابكم عنا لكونه غير معتادٍ لنا اقلقنا فاثنى عليه الخواجا وقال ما عندكم بعض ما عندي ثم قال اظن ان الترحل قد ازف فان الليل قد اقبل ونريد الرجوع قبل الظلام

فقال الشيخ نحن حضرنا هنا بعد الظهر وتنزهنا في الغابة لكن ما وصلنا الى اخرها لخوف يعقوب الضلال عن الطريق

فقال الخواجا احسن منتزه هنا هو هذا المكان فانه مرتفع يرى منه كثير من ضواحي باريز ولكن الناس لم يعتادوا التنزه فيه بل اعتادوا التنزه في غابة بولونيا

فقال الشيخ قد أتيت الى هذا المكان مرتين هذهِ ومرة قبلها

وفي كل مرة يحدث لي في هذا المكان سرور ونشاط لا اجده في غيره لاني متى كنت وسط هذه الاشجار يخيل لي انها تحدثني بحوادث الايام الماضية وحين ارى بها الاشجار المختلفة كالبلوط والصنوبر والحور وغيرها يزداد قلبي تعظيما للخالق جل وعلا واجد في نفسي انشراحاً جزيلاً

ثم رأيت في اثناء سيرنا اشجاراً كثيرة الانواع جدًا لا ترى ببلادنا فسالت عنها يعقوب فلم يفدني الا عن بعضها فقال الخواجا انواع الشجر والنبات لا تحصى ولكل نوع منها خواص وفوائد ومزايا ولكل نوع منها تربة من الارض تناسبه وتختلف طباعها ايضا في احتياجها الى الماء والهواء والحرارة فبعض الاشجار لا يصلح الا في جهة مخصوصة بهواء مخصوص مثلاً وبعضها يصلح في كل ارض وفي كل هواء فلذا تجد من الانواع ما هو عام في جميع البقاع وهناك انواع لا تنبت الا في الماء ولو انكشف عنها ماتت وانواع لو مسها الماء هلكت ومنها ما يبقى زمناً طويلاً وما لا يبقى الا اياماً واني وان كنت درست التاريخ الطبيعي الا اني لصغرسني اذ ذاك وعدم اقتصاري عليه لم احصل منه الا على بعض جمل والا فله رجال تفرغوا له وافنوا اعمارهم فيه حتى اطلعوا على اسراره فاظهروها للناس فانتفع بها الجم وتمتعوا التمتع الاتم ولم تتسع دائرة هذا العلم الا في هذا الزمان فبهمة افاضل هذا الزمان استكشفت نباتات كثيرة واستعملت فوائدها في مصالح عمومية وسهل بذلك استنبات

كثير منها في بقاع لم تكن بها من قبل وبعد ان كان نفع نبات
كل جهة مقصوراً عليها صار عاماً لها ولغيرها

وسنتوجه غداً الى جنة النباتات ان لم يطرأ مانع وهناك نطلعكم
على اجناسها المختلفة فقد اهتمت الحكومة الفرنساوية بانشاء هذا
البستان العظيم وجمعت فيه كل ما يحتاج اليه في تسهيل طرق
التعليم والتعلم لمن اراد ليطبقوا العلم على العمل فاستحسن الشيخ هذا
الاهتمام من الحكومة فقال الخواجا ولم تقتصر على ذلك بل جمعت
ايضاً من كل نوع وجد على وجه الارض من الحيوان والطير
والوحش والحشرات وكذلك من جميع الاحجار والمعادن كل
ذلك ليطبق مدرس التاريخ الطبيعي العلم على العمل فاطرب
الشيخ هذا الصنع واشتدت رغبته في الخروج معه الى تلك الجهة
وفرح ولده بذلك فرحاً شديداً وسأل عن هذا المحل هل هو داخل
باريز ام خارجها فقال الخواجا هو في باريز بل قريب من دارنا
وابوابه مفتحة لمن اراد الدخول ثم دخلوا من احد ابواب المدينة
وكان دخولهم بعد الغروب فوجدوا جميع الطرق مضيئة بالمصابيح
الموقدة بها فكان لها منظر حسن يسر الناظر ويشرح الخاطر بسبب
انتظام الطرق واتساع الحارات واصطفاف المصابيح ووضعها على
ابعاد متساوية وكلما انتقلوا الى موضع راوا صورة احسن من
الاولى على حسب تقاطع الطرق والميادين وكثرة الانوار واختلاف
الجهات كالاسواق ومحال التجارة فكان يظهر للشيخ وولده ان المدينة

مزينة لاسباب وقتية لانهم رأوا العربات واصناف الخلق تقبل وتدبر في جميع الطرقات التي مرّوا بها كما يحصل ذلك بالنهار سواء بسواء ومن كثرة الضوء واتصاله بضوء النهار تذكر الشيخ شطر بيت فتمثل به وهو

(وليل الكفر ليس له نهارُ)

فتبسم الخواجا وقال هذه الكلمة لرفاعه بك احد رجال المدارس المصرية قالها في رحلته وقد وقع لي منها نسخة فرأيته قد اكثر فيها من مدح باريز واهلها واطنب في وصف نسائها ورجالها وطاف حول الدّن الا انه لم يدندن ورتع حول ذاك الحمى وحام وما رفع عن وجه ليلى اللثام واظنه لم ياتها من ابوابها ولا كشف له عند وصفه لها عن نقابها ومع ذلك فجميع ما ذكره وراه قد تغير الان ومضى من وقته الى الان نحو ثلاثين سنة وفي هذه المدة تقدمت العلوم والصنائع تقدمًا زائدًا وظهر في اعمال الخلق النتائج المفيدة فصلح بذلك شأنها واتسعت دائرة ثروتها ففي وقت رفاعه بك كان الغاز مثلاً مستعملاً الا ان الطرق التي كانت جارية في استعماله واستخراجه لم تكن كما هي الان وما حصل من التحسينات والاستكشافات ازال كثيرًا من المضرات التي كانت تحصل للناس من عدم صفائه اذ ذاك وهكذا كل شيء اخذ في التقدم والتحسن

فقال ابن الشيخ كان يخطر ببالي ان هذه المصابيح من الزيت

فاعجب من شدة ضوئها واتامل في خلال النور لعلي ارى فتيلة فلا ارى الا ضوأ يلمع ونورًا يسطع

فقال الخواجا ليس الامر كما تظن لان الغاز ليس زيتًا من الزيوت بل هو مادة اخف من الهوآ ولا لون له وهو عبارة عن ادروجين وكربون ويسميه الكيماويون بالادروجين المكربن وله معامل يدبرونه فيها ولهم طرق لتوزيعه داخل البيوت وفي الطرقات فيجعلون لهُ وابورًا له مجارٍ تحت الارض من مواسير الرصاص ونحوه فيوزع الى الجهات بثمن معين وتلك العُمد التي تراها قائمة على الطرق مجوَّفة وتجويفها متصل بالماسورة التي تحت الارض في محور الطريق وتلك الماسورة متصلة بذلك المحل الذي يدبر فيه الغاز فاذا دخل الليل مرت الخدَمة على تلك العُمد وبايديهم شعل من نار فيفتحون الحنفيات التي باعلا العمد الحابسة للغاز فيضعون الشعلة فوق الثقب الموجود في النهاية العليا لتجويف العمود المغطى بالفانوس فحالا يلتهب الغاز ويضيء فاذا جاء النهار قطعوا الوارد بقفل الحنفية فينقطع الضوء

فقال ابن الشيخ ان هذا الشيء عجاب ما كان يخطر ببال احد من اهل مصر وغاية ما يظن ان الغاز اسم لنوع من الزيوت يستعمل استعمال الزيوت. وحيث انه هوآء او شبيه بالهواء فكيف عرفوا ذلك وانتفعوا به

فقال له الخواجا وكانوا قد قربوا من النزول سأبيّن لك

بعض ما يتعلق بذلك فلما وصلوا الى محل اقامتهم دخل كل مكانه وامر يعقوب الخادم باحضار الاكل فاحضره وكان بالمائدة مصابيح في الحائط مغطاة بالبلور الموشى وعليه رسوم لطيفة وفي تلك المصابيح صور كالشمع الابيض النظيف فكان ابن الشيخ يمعن النظر اليها

فقال الخواجا لعلك تتعجب من عدم احتراق الشمع الذي تراه فقال نعم لاني من حين جلست الى الان وهو على حاله لم ينقص منه شيء فقال كيف ينقص وهو حجر ابيض من انواع الرخام والمرمر ثم قال ان الناس لما استعملوا الغاز داخل بيوتهم اخترعوا هذه الهيئة تتميماً للرونق وتقليداً لما كانوا يألفونه من قبل استعمال الشمع فهذه الشموع التي تراها احجار مجوفة والغاز يمر في تجويفها وخدمة البيوت يوقدونها كما توقد خدمة الحارات الفوانيس التي تراها وقبل الان بنحو مائتي سنة كانت جميع مدن الديار الاوروباوية كغيرها من مدن الدنيا مظلمة ليلاً من قلة المصابيح وغاية ما هناك انه كان يوجد بعض قناديل على ابواب بعض الحارات متباعدة وكان ينقطع المرور من الطرق بعد نحو ساعتين من الليل فكانت المدن وقتئذ عرضة لامتداد ايدي اهل الخيانة اليها وكثيراً ما كان يقع بها القتل والسلب

ثم في سنة الف وخمسمائة واربعة وعشرين ميلادية كثر الشر

واربابه وتعددت الحرائق بمدينة باريز فصدرت اوامر الحكومة بالزام الاهالي تعليق قناديل على ابواب بيوتهم وعلى الشبابيك والطاقات المطلة على الشوارع واستمر ذلك الى سنة الف وخمسمائة واربعة وتسعين فجعل بدل القناديل في الحارات والشوارع قوائم من خشب عليها فوانيس بشمع الدهن وصدر الامر بمنع المرور في الشوارع ليلاً بغير فانوس

ثم في سنة الف وسبعمائة وثمانية وثلاثين صار تنوير الطرق من الحكومة بعد ان كان على الاهالي وفي سنة الف وسبعمائة وتسعة وثمانين جعل مكان شمع الدهن زيت ولم تزل بعض جهات من اوروبا تستعمله الى الان وكان من المصابيح ما يوضع فيه فتيلة واحدة ومنها ما يوضع فيه اكثر

وقد اختبر ما تحرقه الفتيلة الواحدة من الزيت في ظرف ساعة فوجد ثمانية جرامات ونصف جرام وكان ما بين كل مصباحين مائة متر فكان النور اذ ذاك قليلاً جدًا ولم تحصل الفكرة في الغاز والتكلم في شانه الا في سنة الف وستمائة وست وثمانين ميلادية وسببه ان رجلاً من اهل باريز ادعى ان الغاز المتحصل من المواد النامية اذا تجمع في ظرف محكم وعرض للهب اتقد واضاء واقام على دعواه براهين ولكن لم يلتفت احد الى قوله الى ان جاء ويولنا الانكليزي وشرح كيفية استعماله في الاستصباح عوضًا عن الزيت وكان في سنة الف وسبعمائة وسبعة وسبعين من ذلك العهد

اشتغل الكيماويون وغيرهم بهذه المادة

وفي سنة ١٨٠١ ظهر عالم فرنساوي فاستخرجه من الخشب فضلاً عما يخرج من الخشب من قطران وغيره من المواد وهو الذي بيّن طريق استخراجه من الفحم الحجري ومن الزيوت والمواد الدسمة وفي سنة الف وثمانمائة وعشرة بمقتضى قرار من البرلمنتو الانكليزي اذن لجماعة نمساوية في الاستصباح في لوندرة بالغاز فاوقدوه فيها وارادت اهل هذه الشركة في سنة الف وثمانمائة وستة عشر ان تلتزم ايقاده في مدينة باريز فلم يجابوا الى ذلك ولم يظهر وجوده فيها الا من ابتداء سنة ١٨٢٩

فقال الشيخ انا الى الان لم نسمع به ببلادنا بل المستعمل بها الى الان الزيوت والشمع في البيوت ويضع ارباب البيوت الشهيرة قناديل على ابوابهم ويندر وجود قنديلين او ثلاثة بالحارة الطويلة وكثيراً ما يحصل من الضبطية التنبيه بوضع قناديل على جميع البيوت فلا يسمع امرها وبهذا يقل المارون جداً بالليل وتخرج اللصوص والاشقياء من اوكارها

فقال الخواجا يوشك ان يستعمل الاستصباح بالغاز بمصر وبغيرها من بلاد المشرق كما هو باوروبا وما ذلك بعزيز انما يتوقف على تيقظ الحكومة له خصوصاً اذا علمت انه اقل من غيره مصرفًا وثمنًا واكثر منه نوراً ولعل بسببه تكثر الحركة وتتسع الثروة ويحصل الامان ونقل اللصوص واهل الفساد

مقسمة الى طبقات بالواح من الصاج وفيها خروق صغيرة وفوقها جير قد طفئ لاجل ان يمر الغاز منها ويتخلص من بعض الغازات الممتزجة بهِ وبمروره في حوض الماء الذي فوقه مخزن الغاز المعد للصرف يتخلص من باقي الغازات على قدر الامكان ويكون صالحًا للاستعمال ويسمون الفحم الذي اخذ غازه بالكوك وهو الذي يستعمله الحدادون

والمخزن المذكور عبارة عن ناقوس او اصطوانة من الصاج ذات قعر سعته قدر سعة الحوض وتوضع فيه منكوسة بحيث يكون قعرها الى اعلى الحوض وفمها الى جهة قعره واذا كانت خالية من الغاز كانت مغموسة جميعها في الحوض ويكون قعرها مع سطحه مغطى بالماء وكلما دخل فيها الغاز ترتفع شيئًا فشيئًا ولكن بمقدار متوازن في الصعود والهبوط عند ازدياد الغاز ونقصه بواسطة اثقال بحيث تكون حركاته صعودًا وهبوطًا منتظمة في اتجاه رأسي لا تفارقه وعند مدخل انابيب الايراد آلة يقال لها العداد يعرف بها مقدار الحاصل من الغاز كل لحظة وآلة مثلها في مبدأ انابيب الصرف يعرف بها قدر المنصرف وبهذه الطريقة يمكن معرفة قدر الوارد والمنصرف والباقي في كل لحظة

وقد ذكرت لك فيما مر ان لهم في توزيعه في طرقات البلد وشوارعها كيفية حسنة وهي وضع مواسير من الحديد الزهر محكمة تحت الارض علي بعد متر فا كثر من ظاهرها وتلك المواسير متصلة

وحيث اخذت مصر في التقدم الان وسهل عليها جلب ما يلزم لذلك براً وبحراً فعن قريب يحصل ذلك حتى لا يكون بينها وبين البلاد الاوروباوية فرق

فقال الشيخ هل يمكن كل انسان تحصيله اما باستخراج اوشراء كالزيوت والشمع قال الخواجا نعم كل انسان يمكنه ذلك اذا عرف طريق تحضيره وتحصل على ادواته والاته ولكن في ذلك كلفة زائدة ولذا جرت العادة بان يكون ذلك لشركاء مقتدرين يتعهدون به مدة معلومة بامر من الحكومة وتجعل الحكومة لهم قدراً معلوماً على توزيعه في الطرق العامة والخاصة والبيوت وتشترط عليهم شروطاً منها ان يكون نقياً صالحاً للاستعمال وان لا ينشاء عنه ضرر بالصحة وجميع اوروبا تستخرجه من فحم الحجر فقط وان كان يمكن استخراجه من غيره كالخشب والدهن والزيوت والمواد الراتنجية كالصمغ وغير ذلك مما يسيل على بعض الاشجار وطرق تحضيره من الفحم الحجري ان يوضع في اسطوانات من الحديد الزهر طول الواحدة نحو متر ونصف او مترين ولا تملاء الى اخرها بل يبقى منها جزء فارغ ليتجمع الغاز فيما بقي منها ثم تسد سدا محكماً ثم توضع في افران مخصوصة لها ويوقد عليها حتى تبلغ من الحرارة الدرجة المطلوبة فينفصل من الفحم بخار فيه الغاز المذكور ومعه غازات اخرى فيصعد في انابيب من الحديد مستديمة البرودة فيصفو من المواد القطرانية الموجودة معه ثم يجعل في صناديق كبيرة

ببعضها وكلها متصلة بماسورة يقال لها الام متصلة بمخزن الغاز ويجعلون في المواسير الموجودة بالحارات امام كل فانوس او فرع خروقا يخرج منها مواسير رقيقة من الرصاص لتوزيع الغاز في كل حارة وهناك حنفيات تفتح وتغلق بحيث يمكن منع الغاز عن جهة مخصوصة او ايصاله اليها متى ارادوا

ففي الحقيقة ان استخراجه يحتاج الى احتراسات وعمليات كثيرة ومصاريف واسعة ومع ذلك لا يصفو بالكلية بل يبقى فيه رائحة كريهة وكثيرًا ما يحصل في محل ارتباط المواسير المدفونة في الارض تنفس فيخرج الغاز وينتشر في الارض ويغوص فيها قدر ثلاثة امتار فيضر بحياة الاشجار والنبات ويفسد ماء العيون والابار القريبة واذا اريد احكام تلك المحلات يرى ان الارض اكتسبت من رائحته الكريهة وربما بقيت فيها مدة تقل وتكثر على حسب حال الارض رطوبة ويبوسة واحيانا يمر قريبا من مجاري المراحيض والسراديب الداخلة في البيوت فاذا تنفس ودخل فيها يستمر حتى يملأ البيوت من منافذ القصبات وغيرها ثم يصعد الى المساكن فيضر باهلها وكثيرًا ما تكون احكام حنفيات توزيعه في داخل البيوت غير محكمة السد فلا يمنع منها التنفس وينتشر في الغرف فيضر باهلها وقد دلت التجربة على ان الفتيلة الواحدة منه تحرق في الساعة الواحدة مائة وثمانية وخمسين ليترًا ويلزم لذلك احتراق مائتين واربعة وثلاثين ليترًا من الاكسوجين اللازم لتقويم حياة الانفس

ويحصل من ذلك مائة وثمانية وعشرون ليترا من حمض الكربون المصر بالصحة فان كانت الفتيلة في مكان لا يصل اليه الهوآء فلا يمضي الا قليل وقد وصل اليها هواء رديء يحصل منه ما يحصل من دخان الفحم من الاختناق والعلل والامراض الصدرية فلذلك كان الاحسن ان لا يستعمل في داخل البيوت الضيقة ولا باماكن الجلوس والنوم بل يستعمل في البساتين والاماكن الكثيرة الهواء

وقد استدلوا بالتجربة على انه متى اختلط الغاز بالهوآء بنسبة معلومة وكان في المكان جسم ملتهب كشمعة او غيرها فلا بد ان يحصل في الهوآء التهاب ويكون له دويّ وفرقعة شديدة يخشى منه الضرر على من كان قريبًا منه لكن محل حصول ذلك منه اذا زاد الهوآء عن الغاز اكثر من احدى عشر مرة ونصف فلو فرض ان حجمًا من الغاز اختلط بقدره خمس مرات من الهوآء او ستًا او سبعًا الى احدى عشر مرة ونصف فلا يخشى منه ولا ينشاء عنه هذا الالتهاب ومتى زاد عن ذلك ولو قليلاً التهب فالاقامة في مثل هذا المكان خطرة لان زيادة الهوآء غير مامونة فيكون الضرر غير مأمون فيلزم الانسان اذا احس برائحته في غرفته وكان بها قنديل او شمعة ان يطفئها كذلك الاجسام المتقدة كالمنقد ونحوه وكذلك لا ينبغي الدخول في مكان احس برائحته فيه

ثم قال وكان عدد اللّنبات في مدينة باريز سنة الف وثمانمائة وثمانية واربعين ثلاثة عشر الف وسبعمائة واحدى وسبعين لنبة

صرف عليها نحو اربعة واربعين الف جنيه

وفي سنة الف وثمانمائة وخمسة وخمسين بلغ عدد الشركات المتعهدة في المدينة ثمانية ومقدار المنصرف في المعامل والالات اعني رأس مال هذه الشركات قريبًا من مائة وعشرين الف جنيه وكان ثمن المتر المكعب سبعة عشر سنتيما بالنسبة لما تأخذه الحكومة وبالنسبة للاهالي ثلاثين ومدة الالتزام خمسون سنة وبلغ مقدار المحرق من الغاز في سنة١٨٥٧ قريبًا من ثلاثة وخمسين مليون متر مكعب واحترق فيها مليونان وستمائة الف وكسور هيكتوليتر من فحم الحجر وبلغت قيمة ذلك ستة ملايين ومائة الف فرنك

فقال ابن الشيخ قد خرجت مع يعقوب منذ يومين فصادف وقت دخولنا ان البواب كان يتشاجر مع زوجته بسبب ان هرّتها قلبت زجاجة ففاحت منها رائحة كريهة فشممناها فسألت يعقوب فقال هي رائحة زيت معدني فلم افهم معنى هذه العبارة لاني لم اسمع بزيت معدني الا منه والذي اعرفه هو الزيوت المستخرجة من النباتات والابزار والفواكه

فقال الخواجا استعمل بعض الناس من عهد قريب في المنازل والورَش والفوريقات ونحوها زيوتًا اتخذوها من خلط الغاز بزيوت النباتات بكيفية وتدبير مخصوص واستعملوا ايضًا زيوتًا متخذة من الغاز والنفط

وحيث كانت هذه المواد كلها خارجة من جوف الارض من

بقاع معلومة سميت زيوتاً معدنية واللنبات والمسارج المستعملة لها ليست مثل المستعملة للزيوت النباتية بل تختلف في التركيب والقصد من ذلك كله تتميم حرق الابخرة الحاصلة من تلك المواد

ويوجد ايضاً زيوت مدبّرة من خلط زيت الترابنتين او النفط او الغاز بالكؤل او غيره مثل زيت الخشب او الغاز المائع ولها قناديل مخصوصة بحيث لا يستصبح به الا فيها ولكن لكون جميع هذه الزيوت سريعة التبخر والتطاير وبادنى شرارة تلتهب بسرعة كان استعمالها لا يخلو من الضرر وكثيراً ما حصل بسببها حرائق كبيرة ولها روائح كريهة ولا تزول من الارض التي تصيبها الاّ بعد زمن طويل فبتلك الاسباب استدلوا على ان استعمال هذه الزيوت كما هي من غير خلط اوفق واخترعوا للاستصباح بها قناديل جربوها فيها فوجدوها محصّلة للغرض المطلوب ومع ذلك فيلزم تمام التحفظ والاحتراز في نقل تلك المواد من مكان الى اخر وفي حال استعمالها

وبسبب رخص سعرها وشدة ضوئها صارت هي المستعملة الان سيما في جهة الارياف فاستعملها الغني والفقير حتى بلغ قدر المستخرج منه سنة الف وثمانمائة وثمانية وخمسين الفين وخمسة وعشرين مليوناً من الليترات وقد حفر ما عدا الآبار التي كان يستخرج منها مائتان وخمسون بئراً واذا نجحت التجاريب في وقود الوابورات بها بدل الفحم الحجري عمّت فائدتها واتسعت دائرتها

وانتشرت في جميع البقاع

وقد اخترعوا اليوم اختراعا جديداً وهو انهم استعملوا قنديلا لطيفا مستوفيا لجميع اللوازم الا انه لا فتيلة فيه بل يكتفى عن الفتيلة بوضع جسم فيه ذي مسام كقطعة فحم او اسفنجة تغمس في الغاز المعدني وتوضع فيه فبدلا عن احتراق الزيت الذي يتصاعد منه الدخان والروائح الكريهة يكون الاحتراق للغاز الحاصل من هذه الزيوت فانه بمرور الهواء عليه يتشرب من الابخرة فتصل الى المسرجة فتلتهب الشعلة وتضيء مثل الغاز المستعمل الى ان ينتهي

والغاز الذي يكون في القنديل مركب من تسعين جزءا من الهواء وعشرة من الغاز ومع ذلك لو اريد استعماله في طبقات المنزل جميعها لا ضير فيه ويكفي لتوصيله ماسورة واحدة وبذلك امتنعت اسباب الضرر وسهل على كل انسان الحصول على الغاز بثمن قليل

فانظر كيف كانت ثمرات ابحاث العلماء والكيماويين فقد حصل منها فوائد جمة انتفعت بها الناس عموما وذلك من المادة النفطية على اني لم اذكر لحضرتك جميع الامور والصنائع التي تدخلها هذه المادة لان شرح ذلك يطول فعلى جميع النوع البشري ان يرفع اكف الضراعة بطلب زيادة عدد هؤلاء العلماء حيث نتج من اعمالهم الخيرية تمتع الفقير بالنور الذي كان محروما منه قبل ذلك الاختراع الذي بواسطته اتسعت دائرة المعلومات

فقال الشيخ كم لله من فواضل وفضائل وكم ادرك المتاخرون ما لم تدركه الاوائل فمن جد وجد ومن لج ولج وقد استحق الفرنج الثناء الجميل وادركوا المجد الاثيل حيث نالوا من التقدم ما نالوا وان كان يؤثر عن المتقدمين ما يقرب من ذلك فقد كانت العرب في حربهم تدبر من النفط ناراً ترسلها الى العدو بكيفيات مختلفة منها ما كان يسبح فوق الماء حتى يصل مراكب العدو فيحرقها ومنها ما كان يصعد في الجوّ ويسقط في اوقات معلومة على اماكن معلومة وغير ذلك مما هو مذكور في كتب مطولة

ومن معرفتهم لهذه الكيفيات وجهل العدو بها كان الفرنج يهابونهم في حروبهم وكثيرا ما انهزموا منهم كما حصل في حرب الصليب وغيرها



المسامرة (١١٠)

السلف والخلف في الاسلام

ولكن لا يدرى الان كيف تناسى العرب هذه المعارف بالكلية وهجروا استعمالها في بلادهم بعد ان علموا فائدتها في حروبهم حتى علمها الفرنج وتفننوا فيها وقد قالوا اذا ظهر السبب بطل العجب فليت شعري ما سبب هجرها في بلاد العرب فان قلنا ان السبب بلادتهم وقصور عقولهم فهم ليسوا كذلك فانهم فرسان الفصاحة واخوان البراعة والسماحة وان قلنا تغير طبيعة ارضهم وهوائها فهما على حالها لم يتغيرا وان قلنا تغير قوانينهم وعاداتهم فهي على ما كانت عليه لم يتغير منها شيء وايضاً فان الارض لم تبخل بشيء كانت تجود به من قبل وكذلك الشمس في غروبها وطلوعها لم تتحول قط عن

[illegible] وما حصل لما خلفنا وسلفنا وما احدثه الخلف بعد مضي السلف وجدنا السبب انما هو ما صار عليه الائمة من خلف هذه الامة فانهم تركوا ما كان عليه السلف من النظر في مصالح الامة والسعي فيما فيه نفعها فنبذوا ذلك كله وراء ظهورهم وتبعوا الشهوات واضاعوا الواجبات وحملوا الناس ما لا يطيقون وشغلوهم بتحصيل ما يشتهون فان الائمة للرعايا كالرأس للجسد او كالقلب بالنسبة للجوارح اذا صلح صلحت واذا فسد فسدت وقد كان السلف صارفين انظارهم نحو مصالح العباد العمومية فكانوا يقتدون بهم في اقوالهم وافعالهم وكذلك الفرنج لما كان رؤساؤهم بتلك الصفة ظهرت فيهم العلوم والصنائع وسرت منهم الى غيرهم حتى عمت سائر المواضع

[illegible] واخبار الماضين من [illegible] الاسلام [illegible] لا قصد لهم الا نصرة الدين واعلاء كلمة الايمان وكان لا يتولى الحكم بين الناس الا العالم بالاحكام الشرعية

فقال الشيخ قد ورد في الحديث خيركم قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم فكل قرن شر مما قبله وخير مما بعده وفي صدر الاسلام كان تعظيم العلم واهله امرا لازما اذ كانت الاحكام الشرعية بين الكافة هي المنظور اليها ولا معول فيما قل وجل الا عليها فكان العلماء في الحقيقة هم اولوا الامر الذين اوجب الله طاعتهم

واعلى في الخافقين رايتهم

وبسبب ما كان لاهل العلم من الشرف والاحترام بين الخاص والعام رغب الناس في تحصيله وجدوا السير في سبيله حتى اتسعت دوائره وعلت في جميع البقاع منابره واستنارت به بصائر العباد وانصلح به امر المعاش والمعاد اذ بكثرته لم يكن قاصرًا على الاحكام الشرعية والفنون العربية بل تعدى ذلك الى جميع ما تلزم معرفته لعموم مصالح العباد وعمار الاقطار والبلاد فقد بذل العلماء الجهد في كل علم والفوا اسفار الكتب في فنون شتى ففضلاً عن المؤلفات التي لا تدخل تحت الحصر في الاحكام الشرعية تجد مؤلفات كثيرة في فن الفلاحة والملاحة والتاريخ والتجارة والعمارة والصنائع المتنوعة والطب والحكمة والفلسفة والرياضة وغير ذلك مما يستعين به العالم ويهتدي به الجاهل فكان العلماء بين الناس كالاهلة في السماء تنبعث انوارها على سائر ارجائها وبسبب ذلك تألفت الطباع في جميع البقاع فزادت قوة الامة وقويت شوكتها وكان ذلك سببًا في سعادتها واتساع دائرة ثروتها وما سبب ذلك الا بناء الحكام احكامهم على سنن الشريعة وسلامة بواطنهم من الاغراض الفاسدة فلم يكن همهم الاّ السعي في المصالح العمومية واجتماع الكلمة الاسلامية ولما سار الحكام في غير هذا المنهاج وسلكوا شيئًا فشيئًا طريق الاعوجاج وصار اكبر همهم تحصيل اغراضهم الفاسدة وحادوا عن احكام الشرع الى شهواتهم تصرمت اسباب

الائتلاف بين الامة وتفرقت طبقاتهم بتفرق قلوب الائمة فسار كل فريق على حدته وترك كل منهم موجبات ثروته فاوجب ذلك فقر الجميع وضعفهم وبما داخل كبراءهم من الطمع حصل بينهم التباغض والعدوان وكثر التحاسد والحرمان وظهر اذ ذاك التمدن الاسلامي الجديد واظن ان ابتداء ظهوره كان في زمن العباسيين ويمكن تعيين ابتدائه بخلافة المأمون وذلك انه اكثر من شراء المماليك ثم قلدهم المناصب العلية وامّرهم على اشراف الامة الاسلامية فكان المماليك هم اصحاب الحل والعقد وفي ذلك توسيد الامر الى غير اهله وتولية السفهاء امور الكرماء فحدث النفور والتباعد بين الناس ثم قويت شوكة المماليك حتى تعدوا على الخلافة نفسها فاستوجب ذلك ازالتها وتفرّقت الكلمة الاسلامية واحتقرت الاحكام الشرعية فاخذ العلم في التقهقر وقل اهله لفقد ما كان له من المزايا واستمر تأخير رجال الفضل من الائمة وتقديم من لا خبرة له بالشرع ولا بتدبير احوال الامة وتصور التمدن الاسلامي بغير صورته الاصلية فان اصله كان مؤسساً على العلم والعدل اللذين هما اكبر دعائم الدين

واما التمدن الذي قام مقامه فاساسه البغي والظلم وقهر العباد فبالتمدن الاول كان اجتماع طوائف الامة بالرضى والاختيار لما كانت تستمد منه من الفوائد التي تعم الجميع والافراد من جليل وحقير فكانت الناس منجذبة اليه بالطبع فكان ينمو بالتدريج حتى

كثر العلم والمال وبالتمدن الثاني حصل الفشل والتباغض بينهم وصارت الامة على قسمين حاكم ومحكوم فتخصص الاول بالمزايا والرتب وتحصيل الاغراض والشهوات وانساق القسم الثاني في طريق الذل والقهر وتجرد بالتدريج عن مزايا الشرف حتى كاد يلحق بالحيوان البهيمي الذي يتصرف فيه مالكه من غير ان يكون له اختيار ولا يشك احد ان ذلك اكبر اسباب التقهقر فشتان ما بين زمان اقيمت فيه الشعائر واستنارت منه البصائر وكثرت فيه العلوم والمعارف وزمان تعطلت فيه الاحكام وتباغض اهل الاسلام واندرست فيه العلوم ولم يبقَ من الاحكام الا الرسوم والكلام في هذا المعنى طويل وفتح بابه الان لا يفيد



المسامرة (١١١)

القار

ثم استأذن الخواجا من الشيخ في القيام فاذن له وشيعه ثم رجع وتوضا وقضى ما عليه نفلاً وفرضاً ولكنه لم ينم تلك الليلة فدخل عليه ولده فقال يابني قد سئمت الاقامة هاهنا واودّ ان نكون خارج البلد وقد تكلمت مع الخواجا في هذا الامر فاستحسنه فماذا تقول فقال له ولده الرأي ما رأيت انما اخشى ان يكون المحل بعيداً فيشق عليكم الحضور الى الدرس فقال له ان هو الاّ يوم في الاسبوع ومع ذلك لم يصرف الخواجا نظره عن هذا المكان بالكلية فان شئنا اقمنا هناك وان شئنا اتينا هنا فقال له ولده متى يكون ذلك فقال لم نتفق فيه على وقت ويغلب على ظني انه يكون غداً لانا متفقون على ان نذهب بعد ظهر هذا اليوم الى بستان النبات فرأى ابن الشيخ الوقت واسعاً فقال لوالده اتأذن لي ان اخرج مع يعقوب الى ان يجيء الوقت فقال له لا مانع ثم قاما ودخلا مكان المائدة فوجدا

الخواجا في انتظارهما فاكلوا جميعاً وبعد الاكل اخذ ابن الشيخ بيد يعقوب وخرجا ثم انعطفا على غرفة يعقوب وكان في نفس ابن الشيخ كلام مما سمعه من الخواجا حين كان يتكلم على الغاز ومواد استخراجه وكيفية الاستصباح به فقال ليعقوب خطر ببالي ان اسال الخواجا عن القار الذي تطلى به السفن فاني رايته حين كنت بمصر ولكنني لا اعرف من اي شيء يستخرج ولا من اي جهة يجلب

فقال يعقوب ان القطران والترابنتين مواد راتنجية تستخرج من الشجر ما عدا القار فانه من الارض وهو ثلاثة انواع نوع صلب ونوع مائع ونوع بين ذلك فالاوّل يلين بالحرارة ويماع اذا وصلت الحرارة لدرجة الغليان واما الاخير فيكفي لميوعته ادنى حرارة وتلك المادة بانواعها يخرج منها زيت يقال له زيت معدني فاذا تكرر تصعيده صار نقياً وصلح للاستصباح به وما بقي بعد التصعيد تارة يكون مادة فحمية وتارة يكون مادة لزجة لينة والثقل النوعي لتلك المادة يقرب من ثقل الماء ولذلك اذا اجتمع معه طفا على ظاهره او قريبا منه وله رائحة تخصه لا تظهر الاّ عند العرض على النار ومن خواصه انه اذا احرق لا يتخلف له رماد بل تاكله النار جميعه والجامد منه لا يدخل الماء في مسامه ولا يفسد خواصه وهذه المواد تذوب في الكوءل وزيت التربنتينة ولا تذوب في الماء وزعم بعضهم ان هذا المعدن بركاني مكون بين طبقات الصخور التي تكوّنت قديما ويكون في الغالب قريبا من معادن الكبريت

والجبس ومنابع المياه الحارة المعدنية وزعم اخرون ان اصله حاصل من المواد الفحمية بفعل شديد اثر فيها فعزله عنها كما ان اصل الغاز من الفحم الحجري وليس للقار بانواعه جهة مخصوصة بل يوجد في جميع بقاع الارض انما منه ما يكون على السطح ومنه ما يكون قريباً منه وفي بعض الجهات موجود منه طبقة عظيمة المقدار يؤخذ منها من زمن مديد الى الان وهي لم تنفد ولعل له مدداً وان كنا لا نعرفه وبالجملة فانواعه ومواضعه كثيرة وان كان المشهور منه في التجارة ثلاثة انواع كما ذكرنا قار الموميا ويقال له قار يهوذا او اسفلت وقار مالت والزيت الحجري ويقال له باللسان الافرنجي بيترول فالنوع الاول جامد بطبيعته واذا كسر كان شبيها بالزجاج ولا يذوب الا بحرارة شديدة تفوق درجة الغليان ويوجد في شواطئ بحر لوط اي البحيرة الميتة فاذا صعد من قاعها شيء على سطح الماء وتراكم قذف به الريح الى الشاطئ ويكون في اول الامر ليناً ثم يجمد بالهواء ويجمعه الناس ويتجرون به ويخرج ايضاً من جزيرة بجزائر اللانتي ولكن ما يستخرج من بحر لوط اجود منه وكان قدماء المصريين يستعملونه في حفظ اجسام موتاهم من البلى فيغمسون فيه قطعا من قماش ثم يلفون فيها موتاهم وهذا المعدن يوجد ايضاً باوروبا الا انه قليل الاستعمال فيصنعون منه شمعاً اسود تختم به ظروف المكاتيب وطلاءً اسود يسمى باسود الموميا والنوع

الثاني وهو مالت ويقال له القار الجبلي اسود اللون ولينه وصلابته على حسب حرارة الجو ولا يجمد الا في اوقات البرد واذا عرض لحرارة الشمس لان وامتد على سطح الارض ومتى بلغت الحرارة ثمانين درجة صار مائعاً وهو كثير الوجود بارض فرانسا والانكليز وغيرهما وقد يخرج في بعض الجهات نقياً من ثقوب في الصخر كالعيون فتتلقاه الناس بمجاريف وقد يوجد في بعضها مختلطا برمل او تراب فاذا ارادوا تخليصه قطعوه بارضه ووضعوه في قدور مملوءة ماء واوقدوا تحتها حتى تغلي فيرسب ما خالطه ويطفو هو فوق الماء فيوخذ بملاعق ويعمل قوالب كل قالب نحو اربع اوقات ثم يضعونه في براميل وهذا النوع يدخل في امور كثيرة كالالوان والولانيش ويطلى به الخشب والحبال التي يراد استعمالها في الماء لاجل حفظها وقد كثر استعماله الان حتى استعملوه في الطرق بجوانب الشوارع بمزجه بحصى و رمل فيتحصل عنه مونة تستعمل في ذلك عوضا عن تحجيرها وكذا في بريقة سطوح المنازل وظهور القناطر وتبليط الحارات عوضا عن الحجر والبلاط فانهم وجدوه في كل ذلك اقل كلفة من التحجير واكبر فائدة وقد بلغ ما يستخرج منه الان بارض فرانسا في كل عام نحو ثلاثة ملايين اقة وقيمة الثمانين اقة منه تقرب من نصف فرنك واما النوع الثالث وهو الزيت الحجري او البترول وهو المسمى بالنفط فهو مائع لزج طيب الرائحة احمر اللون ومعدنه

ببلاد فارس بقرب مدينة باكو وفي ضواحي بحر الخزر وفي بلاد ايتاليا في مواضع كثيرة منها وفي جزيرة سيسليا وهي صقلية وفي فرانسا في موضع واحد بالقرب من قرية جابيو ولذا يسمونه زيت جابيو ولا يوجد الا بجوار المياه المعدنية الحارة وقد يختلط بها فيطفو على وجهها كالزيت في الحيضان الطبيعية او الصناعية فيجمعونه ويضعونه في الاواني ويتجرون به ويخرج بالقرب من قرية باكو من بلاد الفرس بخار من الارض تستعمله الاهالي في تسوية الطبخ وذلك الزيت يستعملونه عوضا عن القطران وفي الاستصباح والمشرقيون واهالي ايتاليا وجنوبي فرانسا ينسبون له خواص طبية فيعملون منه جباير للجروح وللامراض الروماتسمية وفي الباطن لقتل الديدان وغيرها ولكن بعد تصعيده مع الماء والناتج من هذه العملية هو المسمى عند التجار بزيت النفط ويدخل ايضا في اشيا كثيرة من الصنائع ولا يفسد بطول المكث وله حرارة شديدة وضوء عظيم ويعسر اطفاؤه ورائحته كريهة ودخانه كثيف واما كيفية الاستصباح به فقد ذكرها الخواجا فلا حاجة الى اعادتها



المسامرة (١١٢)

المستشفى

فقال له ابن الشيخ ان اللذة في التنقل فالى اين نذهب فقال يعقوب المنتزهات في هذه المدينة كثيرة ولم نرَ الا القليل منها وبيناهما يتشاوران فيما يذهبان اليه منها اذا بالخواجا موريس الذي كانوا بمنزله منذ ايام دخل عليهما والقى عليهما التحية فرحبا به ثم خص ابن الشيخ بالتحية وسأله عن والده ثم قال له ان حضرة الشيخ وعدني بالزيارة وقد ازداد شوقي اليه فهل يمكن الان الاجتماع به لاسلم عليه فقال له اما شوقك اليه فبعض ما عنده واما مقابلته فهو في غرفته فقال لا بد لي من زيارته لاحظى بمفاكهته ومشاهدة طلعته فاين تذهبان فقال له الى منتزه من منتزهات المدينة

فقال اذا كان مقصود كما ذلك فها انا متوجه الى اسبتالية لريبوازير لزيارة حكيمها فان شئتما انتهزتما فرصة روءيتها ويكون ذلك داعياً للاطلاع على المستشفيات الموجودة في في مدينة باريز والمارستانات بمساعدة حضرة الحكيم صاحبنا

فقال يعقوب هذا الرأي اوفق ووافقه ابن الشيخ فساروا جميعا الى ان وصلوا الى باب الاسبتالية فشد الخواجا زرّا من النحاس الاصفر مثبتا في الحائط بقرب الباب فحرّك جرسا عند مجلس البواب فجاء وفتح الباب وادخلهم واجلسهم في محل معد لمثل ذلك ثم قال الخواجا موريس للبواب اريد زيارة الحكيم واعطاه تذكرته كما هي العادة عندهم فذهب من فوره ثم رجع يقول ان حضرة الحكيم ينتظركم فقاموا جميعا الى محله فقابلهم من الباب ثم اخذ بيد الخواجا موريس وسأله عمن معه فعرفه بابن الشيخ ويعقوب فرحب بهما وحياهما ثم طلب لهم كراسي وقهوة فجلسوا وشربوا وبعد لحظة قال له موريس نريد ان نرى الاسبتالية فقال حبًا وكرامة وقام وادخلهم حوشًا متسعًا مستطيل الشكل فيه شجر قسم تقسيما حسنًا الى ثلاثة بساتين في البستان الوسط منها حوض ماء في وسطه فوّارة تقذف الماء الى ارتفاع عظيم فتسمع لها نغمات لطيفة تشبه نغمات الموسيقا ناشئة عن اختلاط صوت الماء في نزوله في الحوض مع صوت عبث الرياح بغصون الاشجار وتغريد الاطيار فقال يعقوب يخيّل لي انهم ما اختاروا هذا الموضع الجميل الحسن

الاّ لترويح المرضى وتسلية افئدتهم عمّا بهم من الالام وإثار الاسقام ورأينا ان من دبت فيهم النقاهة والصحة يتمشون بين الاشجار مقبلين ومدبرين وحول الحوض مصاطب وكراسٍ يجلسون عليها وفي دائر ذلك الحوش عنابر المرضى وعددها ستة في كل عنبر اثنان وثلاثون سريرًا وفي اخر كل عنبر ادبخانه ومحل للخدَمة الذين يقومون بمصالح المرضى وبين كل عنبرين فضآ ظلل بالشجر لاجل تنزه المرضى وعدم سريان الامراض من عنبر الى اخر وفي الضلع الاصغر من الحوش حمام وكنيسة ومحل لغسل ثياب المرضى وتغسيل من يموت منهم وعند باب الدخول محال الحكما والادارة والكتبخانة وغير ذلك فكانوا كلما مروا بعنبر عرّفهم الحكيم بمن فيه وبالداء وبالدواء الذي يناسبه



المسامرة (١١٣)

التبغ

وفي جولانهم بين العنابر شاهدوا مريضا قد اضناه المرض ونهك
جسمه وكساه ثوب النحول والصفرة وهو باهت محمرّ العينين وله
انين وتشنجات شديدة تكاد تفضي به الى العدم ورأوه يكثر من
التثاوءب والقيء فامعن ابن الشيخ النظر اليه ورق لحاله وبعد ان
طافوا بالمحل كله رجع بهم الحكيم الى محله فلما استقر بهم المجلس
سال ابن الشيخ عن مرض هذا المريض الذي لم يغرب عن باله
لما راى من سوء حاله فقال الحكيم ان اس مرض هذا الرجل هو
استعمال الدخان فان له انكبابا زائدًا على مضغه فتولد له منه هذا
الداء العضال

فقال ابن الشيخ الحمد لله الذي انعم عليَّ بوالدي الذي ربَّاني على عدم استعمال الدخان حتى نشاءت على كراهته فلا اطيق ان اشرب منه مصة واحدة فقال الحكيم عهدي بالشرقيين انهم يشربونه ولهم به ولع زائد فقال ابن الشيخ نعم الاَّ ان شربه ليس محمودًا

فقال يعقوب رايت في بعض الكتب النهي عن شربه ويقال ان به مادة سمية تضر بالصحة وربما ادَّت الى الموت فقال الحكيم ان الكيماويين بعد امتحانه قالوا ان فيه مادة سمية تسمى النيكوتين وهو مائع لا لون له متى كان في انابيب مقفولة ويتلون باللون السنجابي اذا لامس الهواء ورائحته كريهة وطعمه لذَّاع ويكون في الدخنة التي يبتلعها الانسان وهي من السميات الشديدة وان قال بعضهم ان هذه المادة انما طرأت له من الاعمال التي تعمل فيه بالمعامل فليس الامر كذلك بل هي من نفس النبات وتلك المادة في دخان النشوق اكثر منها في الدخان المشروب كدخان السجارة والذي اعلمه ان هذه الشجرة وان عم الارض زرعها وكثر في الممالك ريعها لم تظهر ببلادنا الاَّ بعد القرن السادس عشر من الميلاد واظن انها كانت موجودة عند الامريقيين من قديم الزمان

ويؤيد ذلك ما قالوه من ان كرستوف كولنب ارسل بذرها من بلاد الامريقا وقت استكشافه لها الى بلاد البرتقال فزرعوه ومن ذلك الوقت صارت تكثر شيئًا فشيئًا الى الان

فقال الخواجا موريس للناس في استعمالها كيفيات منهم من يدقها ويستنشقها ومنهم من يقطع ورقها قطعا ثم يمضغها ومنهم من يفرمها ثم يشربها في شبكات ومنهم من يلفها سجارات ثم يشربها وبالجملة فلو تتبعنا اهل الارض لوجدنا من يتعاطاها اكثر ممن لا يتعاطاها ألا ترى اهل اوروبا واكبابهم عليها مع انهم لم يعرفوها الاّ منذ قرنين اي بعد القرن السادس عشر وقيل ان بذرها اهدي الى الملك شرلكان سنة الف وخمسمائة وثمانية عشر وانه لم يزرع بارض البرتقال الا سنة الف وخمسمائة وثمانية وخمسين ولا بارض فرانسا الا سنة الف وخمسمائة وستين والذي جلبها اليها سفيرها بالبرتقال وذلك ايام الملكة كاترين دوميديسي فلما زرع واهدي منه اليها اشتهر واتبعته الخلق واخترعوا له فوائد حتى قالوا انه شفاء من كل داء

فقال ابن الشيخ قرأت في بعض التواريخ ان اول دخوله في ارض الدولة العلية كان في سنة الف وستمائة وخمس للميلاد زمن السلطان احمد القانوني جلبه الفرنج الى القسطنطينية فتعلم الناس شربه وتولعوا به فافتى المفتي بعدم جواز شربه فهاج الناس وماجوا ولم يلتفتوا الى الفتوى واستمروا على شربه فلم يشدد عليهم بعد ذلك وفشى امره حتي صار الان يشربه النساء والرجال

وكما تسمى تلك الشجرة الدخان تسمى ايضًا التبغ بمثناة فوقية

ومدحدة تحتمة ثم غان معجمة واحفظ لبعضهم بالنسبة لاسم

التبغ شعر

بدت في سما الطب ترجمة ومن

فدان لها طوعا شعاع الشوارق

فتاء وباء ثم غين هجاؤها

فدونكها نفّاعة للخلائق

الى ان قال

لها قوة تنفي قوى كل باغي

وتذهب بالصفرا تخ بارق

وتذهب اخلاط الدماغ بشمها

وتفتح للسوداء باب الخوانق

وفيها شفاء للسموم جميعها

وافعالها في الهضم فعل الخوارق

وفيها دواء لست احصر عده

وكم حكمة فيها وكم من مرافق

فقال الحكيم بعد ان سمع ترجمة هذه الابيات قد كاد الناس يعتقدون في مبدأ امره انه علاج لامراض شتى وليس الامر الان كذلك فقال موريس ان هذه الشهرة كانت السبب في الاكثار من زرعه والان صار يزرع كثيرًا بمملكة فرانسا ومملكة البرتقال وبلاد المجر والالمانيا والنمسا وبلاد الموسكو وارض مصر والشام

والصين والامريقتين وجزائر كثيرة من جزائر المحيط وقد رأيتهم حين سياحتي بامريقا الشمالية يتخيرون لزراعته اطيب الارض واقواها واكثرها زبدًا واكثرها ريًا ويسبخونه بمقدار وافر من السباخ وفي بعض الجهات يزرع في الارض التي نزل عنها ماء النهر لانها تكون مغطاة بطبقة من الطمي تشتمل كثيرًا من البوتاس وفي اخرى يزرع بسفح الجبال في ارض مخصوصة واوان زرعه عندهم شهر مايه الفرنجي ويزرع سنويًا وزهره تارة يكون احمر ورديًا وتارة اخضر وتارة ازرق فاذا بدا صلاحه واصفر ورقه جمعوه شيئًا فشيئًا وجففوه بالقائه على الارض مدة ثم يجمع ويكمل تجفيفه تحت سقائف ثم يربط حزما ويباع بهذه الصورة ورأيت في اطرافه ابراجا وفيها بذره فاذا نضج وتم صلاحه اخذوه وحفظوه الى اوان زرعة فيبذرونه في الارض بالنقرة وكمية التقاوي لكل ثلاثة عشر مترًا ملعقة صغيرة ويصبرون عليه نحو شهرين ثم يقلعونه وينقلونه للارض التي تخيروها له ويسمى المنقول قبل نقله زريعة وبعد نقله بلغة اهل الفلاحة شتلاً ومن العادة انه قبل جمعه بستة اسابيع يقشر ورقه القريب من الارض الى ارتفاع قدم وفي بعض الجهات يصل ارتفاع النباتة منه الى مترين او قريب من ذلك

ورأيت في بعض اوراق حوادث سنة الف وثمانمائة وتسعة وخمسين ان بفرانسا اربعة عشر فوريقة باسم الدخان خاصة موزعة في مدينة باريز وغيرها وان بها من العمّال نحو خمسة عشر الف

نفس وانه يستخرج من تلك الفوريقات في كل سنة من ذلك الصنف ما ينوف على ثمانية وعشرين مليونًا من الكيلوجرامات وان ايراد الحكومة من ذلك في تلك السنة نحو مائة وثمانية وسبعين مليونًا من الفرنكات فانظر ما بين وقتنا هذا وبين زمن لويز الثالث عشر الذي منع في ايامه شرب الدخان وبيعه الاَّ للاجزاخانات وتوعد كل من باعه لغيرها او شربه بالعقاب الشديد وكان ذلك في سنة الف وستمائة وخمس وثلاثين

واما المتحصل منه ببلاد النمسا فيقرب من سبعة وثلاثين مليونًا من الكيلوجرامات وكله يرد الى الحكومة لانها هي المتصرفة فيه دون غيرها كما هو جار ببلاد فرانسا فتشتريه من الاهالي بنحو مليون ونصف من الفرنكات وتجمعه في الفوريقات وتصنع به ما يلزم له ثم تبيعه على ذمتها وقد اتسعت زراعته في ارض البروسيا حتى بلغت فوريقاته الان بها نحو سبعمائة وعشر فوريقات وفيها من الشغالة خمسة عشر الف نفس وبلغ قيمة ما يخرج منه كل سنة من بلاد الايتازوني من الامريقا ما تبلغ قيمته نحو مائة مليون وعشرة ملايين من الدولار والدولار عبارة عن خمسة فرنكات

وقد احصوا ما يخرج من جميع كرة الارض من هذا الصنف في كل سنة فوجدوه يقرب من اربعمائة وخمسة وتسعين مليونًا من الكيلوجرامات من اسيا مائة وخمسة وتسعون مليونًا ومن اوروبا مائة واربعون ومن امريقا مائة وثلاثون مليونًا ومن افريقا اثني

عشر مليونا

واما الدخان المصري فلا اعرف قدر متحصله فقال ابن الشيخ هذا النوع يزرع عندنا كثيرًا الا ان عوده قصير وورقه صغير ولا يشربه الا الفقراء ونحوهم من اهل القرى وقد ظهر الان عندنا نوع يشرب في النرجيلة يسمونه التنباك يقولون ان في شربه فوائد

فقال الخواجا موريس انواع الدخان كثيرة واختلافها باختلاف البلاد التي تجلب منها فالذي يجلب من بلاد الفلمنك مقبول في النشوق لمرارته والذي يزرع ببلادنا لا حصر لانواعه فمنه ما يكون ورقه عريضا ورائحته كرائحة جوز الهند ومنه ما يكون ورقه طويلاً قليل العرض ورائحته كرائحة النوشادر وهو ما ينبت في الجهات الشمالية من المملكة ومن الوارد من الجهات الاجنبية ما يكون له رائحة طيبة مثل دخان هوانا والورجيني وغير ذلك

فقال الحكيم قد كثر كلام الحكماء قديمًا وحديثا في شرب الدخان فمنهم من يقول بضرره ومنهم من يقول بعدم ضرره والذي اقول به انه لا يخلو من فائدة وانما يجيء الضرر من الافراط في تعاطيه

وكيفيات استعماله ثلاث الاولى الاستنشاق به ويحصل منه تهيج للغشا المخاطي ويكثر افراز المواد المخاطية ويكثر العطاس وربما حصل من قوة العطاس تمزيق لبعض الاغشية ويحدث رعافا ويحول قبة العين والاكثار منه ربما يذهب حاسة الشم ومن

فوائده ان من تعوّد عليه خف نومه وأمن من الصداع ووجع العين والاسنان

الثانية شربه في السجاره يكثر اللعاب ويعقب ذلك التخدير وضعف الهضم وربما حصل منه استفراغ ودَوَخان فان تركه متعاطيه زال ذلك بعد زمن يسير وان رجع اليه رجع كل ذلك وهناك اشخاص لا يمكنهم تعاطيه اصلاً

ومن المشاهد ان من اكثر منه تشقق سقف حلقه وقال بعضهم ان شربه يورث لينا في الغشا اللعابي في الشفة واللسان وانتفاخا خفيفا في الحلق ترشح منه مواد مضرة تهيج طاقات الانف فتارة تسقط في الحنجرة وتارة تخرج من الانف مخاطا قذرًا وقال بعض الحكماء ان شربه يوءثر في العينين ويهيجها اكثر من تهيجهامن دخنته في الخارج ولذلك يرى شارب الدخان عقب قيامه من النومَ دامع العينين محمرها ويحس فيها بحرارة والمكثرون منه يحسون بالم في جباهم والمكثرون من البصاق تضعف عندهم قوة الهضم والتغذي وبعضهم يقول انه يحصل من مائه المختلط بالدخان المبتلع التهاب وتهييج للمعدة وقد شاهدت بعض المرضى لا يستقر الطعام في جوفه وكان ممن ابتلي بشربه فيتعاطى سجارات كثيرة بعد الاكل فنهيته عنه فبرىء

ومن آفاته عند المكثرين منه تأثيره على الحنجرة والرئتين فينشأ من ذلك غلظ الصوت والسعال ونقص ضربات القلب

وخلل انتظامها وضعف الفكر وارتعاش الايدي واصفرار اللون وسواد الاسنان وزرقة الشفتين وفتور الاعصاب

والثالثة مضغه وذلك بوضعه تحت الاسنان فيخرج من الضغط عليه مادة لذاعة تختلط باللعاب وتدمي اللثة وقال بعض الحكماء انه ينقص العقل وليس كذلك وانما يتخلف من مضغه نكهة خفيفة تزول بالمضمضة الا انه يضر باللسان وبالاسنان لاتلافه ثوبها الظاهر الحافظ لها ويضر بحاسة الذوق وربما آل الامر الى فقده وبلع عصارته اشد ضرراً وقد رايت رجلاً من الملاحين في الم شديد وتشنجات بعد بلع مضغتهِ وكان يقيء ويتثاءب كثيراً فخلصته من ذلك بعد زمن ولو تتبعنا ما قالوه في الدخان نفعا وضررًا لاتسع المجال فمن ذلك انهم يقولون انه يسرع الهضم وانه امان من داء الاسكوربوط ووجع الحلق وانه مفسد للعقل ولكن ليس ذلك في جميع احواله بل متى كان تعاطيه في الهواء الخالص من غير افراط فلا ضرر منه سواء كان شربا او مضغا او استنشاقا

ومن المعلوم ان استعماله في جميع الجهات وانكباب الناس عليه علامة على انه مخفف للهموم والوحشة وانيس في العزلة ومساعد على تحمل مشاق الفقر والفاقة فلذا ترى اهل الصحاري الواسعة وسكان الجبال الشامخة وارباب الاعمال الشاقة والافكار العالية مشتركين في تعاطيه فحينئذٍ لا يطلق القول بمدحه او ذمه ولا عبرة بما قاله الكيماويون وترى المشرقيين لا يفارقون الشبوق

حتى ان الدولة العثمانية وجميع اهل الثروة والرفاهية قد جعلوا له غلمانا من خواص خدمهم وسموهم التتنجية نسبة الى التتن اسم للدخان غير عربي

فقال ابن الشيخ قد يقرب من تاييدك في الدخان بيتان احفظهما لبعض العلماء وقد عيب عليه شرب الدخان قوله

لقد عيرونا بالدخان وشربه
فقلت دعونا اذ له الامر احوجا
لانا رأينا الهم في قاع صدرنا
كمينًا فدخّنا عليه ليخرجا

فقال الحكيم قد اصاب القائل ورايت ان بعض من ابتلي به من الكيماويين استحسن استعماله في الشبكات الطويلة ليبقى النيكوتين في المواضع الباردة من العود بخلاف الشبكات القصيرة فان تلك المادة تكون قريبة من الفم وكذلك استحسن شربه جافًا ونهى عن استعماله مبتلاً قال لان النيكوتين في الحالة الاولى يتحلل بالحرارة بخلاف الحالة الثانية لان الرطوبة تمنع استحالته فيكون مع البخار ولذا نرى من يشربه يتأثر من المبتل اكثر من الجاف ثم قال ويجتنب تعاطيه على الريق وقبيل الاكل ويغسل الفم بعد شربه اما بالماء الخالص او الممزوج بقليل من ماء الملكة

وينبغي لمن يشرب السجارة ان لا يتجاوز نصفها لان جميع

النيكوتين ينزل الى النصف الثاني ومن اراد ان يشربها بتمامها فليتخذ له فما من كارم او عظم اوعاج ويتجنب شرب سجارة شرب بعضها وتركت زمناً وذلك لانه يقال ان مادة النيكوتين فيها حينئذ كثيرة فكذا تكون في المرة الثانية مرة عن المرة الاولى

وقد ذكرنا ان طوال الشبكات والنرجيلات احسن من قصارها واردأ الشبكات ما اتخذ من الطين لان تلك المادة اسرع فيه وصولاً الى الفم منها في غيره

فقال موريس للحكيم انا اكثرنا عليك واشغلناك عن مهماتك وقد افدت واجدت واني كنت قد وعدت اصحابنا بان اخذ لهم من حضرتكم تذاكر يدخلون بها الاسبتاليات فقام مسرعا وانجز وكتب لبعض حكماء الاسبتاليات خطابا اطنب فيه في الوصاية بهم فاخذوه وقاموا فلما استاذنوا للقيام قال لابن الشيخ اني وان لم اكن عربيا لكني محب للعرب لا سيما المصريين واود ان ارى والدك فاثنى ابن الشيخ عليه خيرا وشكره على ما استفاده منه ثم ودعوه وخرجوا فلما استقاموا في الطريق قال ابن الشيخ ليعقوب ليتنا راينا معامل الدخان فقال له ذلك امر سهل الا ان الوقت قد ازف فان ميعاد الرجوع قبل الزوال فقال له وهل سبق لك دخولها قال نعم ولكن في غير هذه البلاد والطرق كلها واحدة وقد رايت الذين يزرعونه يعتنون به اعتناء زائداً وبعد حصاده يخلصون ورقه من حطبه ويضمون بعضه الى

بعض بعد جفافه ويضغطونه ضغطا قويا ويكبسونه كبساً شديدًا ويجعلونه بالات لئلا يكون حجمه كبيرًا ثم يبيعونه كذلك او يرسلونه الى الفوريقات ولهم فيه هناك ثلاثة اعمال الاول فرزه وتنظيفه والثاني تنديته بالماء المالح لاجل تليين الورق وعدم تعفنه والثالث تنقية جدوره واضلاعه الكبيرة منه والتندية تكون في مخازن مبلطة بالحجر ومنقسمة الى اقسام فيوضع الدخان فوقها طبقات قليلة السمك ولهم في تنديته حساب على حسب ما يريدون ذلك انهم يسخنون له ماءً مالحا ويجعلون تسخينه درجات بحسب اجناسه فيضعون على كل مائة من دخان النشوق واحدًا وعشرين من الماء المالح الذي تكون حرارته في الدرجة الثانية عشرة وعلى كل مائة من دخان المضغ عشرين وعلى كل مائة من دخان السجارة ثمانية وعلى كل مائة من دخان الشرب ثمانية وعشرين من الماء الذي حرارته في سادس درجة

وانواعه من حيث الاستعمال اربعة النشوق والمفروم والمضغ والسجارة فاما دخان السجارة فتستعمل فيه النسا فتلف المرأة بين اصابعها الاوراق الصغيرة وتكسيها بورقة خالية من التقطيع والجدور واما دخان الشرب فيفرم بآلة بخارية ثم يجفف بوضعه في صفائح مجوفة ثم يمر عليها بخار حار ثم اقل منه حرارة ثم يجعل ربطاً صغيرة من عشرة كيلو الى خمسة اعشاره واما دخان النشوق فعمليته اصعب لانه يحتاج

الى اختبار النوع الموافق ثم يفرم ناعما ثم يوضع في مخازن كيمانا ارتفاع كل كوم نحو اربعة امتار وعرضه الف كيلو جرام ويترك هكذا نحو ثلاثة اشهر الى ان يختمر وتبلغ درجة حرارتِهِ من ستين الى ثمانين درجة ويتصاعد منه ابخرة شديدة الرائحة غير معلومة يظن انها نشادرية او نيكوتية وهي المادة السمية التي ذكرها الحكيم واقواه تخمرًا ما كان في الزوايا وتحت السطح الاعلى بنصف متر واقله تخمرا ما كان على بعد متر من القاعدة ويكون معدوما في القاعدة وللجو دخل في تخميره واستوائه فيتقدم ويتاخر على حسب درجة الجو حرارة وبرودة فاذا اشتدت الحرارة في الكيمان جعلت اكواما صغيرة لئلا تحترق وتثبت حرارته بعد خمسة اشهر او ستة وبعد ذلك ينقلونه من مواضعه بعمال معتادين على ذلك لانه يقوم له رائحة كريهة ودخان كثير في ذلك الوقت وبعد تمام تخميره يسحق في طواحين مخصوصة ثم يخمر ويسحق ثانيًا وثالثا فيصل الى الدرجة المرغوبة في النعومة ويكون قدر الرطوبة فيه ثمانية عشر في المائة ثم يوضع في مخازن غير الاولى ويكبس فيبقى هكذا نحو عشرة اشهر لا يصل اليه هواء فتعود له الرائحة والدخنة والحرارة فان خيف عليه من تاثير الحرارة نقل الى مخازن اخرى ولا يخفى ما في هذه الاعمال من الصعوبة على العمال فانه بسبب نعومته يمتلىء منه فراغ المحل فيدخل في العين والانف والحلق فيحصل منه لهم مضايقات شديدة وغالبا تكون تنقلاته

ثلاث مرات وتارة يكتفى بمرتين فيتكون عن ذلك نشوق على درجات مختلفة على حسب اختلاف الرغبة فيه ويقال ان تخميره وتكرار نقله مما يضعف مادته السمية فلا يحصل منه ضرر لمتعاطيه وبعد هذه الاعمال كلها ينخل وكان اولاً ينخل بالايدي واما الان فبآلةٍ بخارية وبعد نخله يخزن في المخازن ثم يعرض للبيع

واما دخان المضغ فعمليته اسهل من ذلك وهو جنسان عاديّ وخصوصي فالاول عبارة عن حبال تفتل من اوراقه بآلة مخصوصة والدخان المستعمل في ذلك اقل جودة من الخصوصي الذي ينقى من جميع عوارضه ويجعل طبقات هذا اجمال ما يعمل في الدخان وان كان الخبر ليس كالعيان فهل له بمصر شان كما له هنا

فقال ابن الشيخ وما شانه هنا فان غالب الناس بهذه البلاد لا يشربون الا السجارة وقل من يشرب في شبك وان وجد فقصير لا يزيد عن شبر ويا ليته من خشب بل من طين

والدخان الذي يشرب عندنا يجلب من الشام لا من هنا وهو نوعان صوري وجبلي وهو اطيب نكهة واذكى رائحة من الصوري وان كان الصوري اقوى منه نفساً فمنهم من يشرب كلاً على حدته ومنهم من يفرمهما معاً وقد حدث الان نوع يقال له الكوراني يقال انه اقوى من الصوري وهناك دخان يقال له (حسن كيف) ولكن هذا لا يشربه الا حرافيش الناس واسافلهم وهناك نوع يشربونه في النرجيلة يسمونه التنباك وهو نوعان عجمي

وحجازي ويقولون ان العجمي احسن كيفًا من الحجازي والان شربه بمصر على حسب درجات الناس رفاهية ورغبة فمنهم من يشرب في نرجيلة محلاة بالذهب والفضة ومنهم من يتخذها مرصعة بالجواهر ومنهم من يجعل انبوبتها من القصب الفارسي ومنهم من يجعل لها نربيج (ليًا) قد امسك بسلك من نحاس وفي طرفه فم من خشب او عظم او كارم ومنهم من يكسوه بجوخ ومنهم من يكسوه بحرير زركش بذهب او فضة وكذلك الشبكات منهم من يتخذها من ياسمين ومنهم من نشرب في عيدان من كريز ومنهم من يشرب في عيدان من الجرمشق مكسوة بالحرير او غيره ويتخذون مباسم تسمى تراكيب منها الكارم الصِّرف ومنها الكارم المرصع بالجواهر كالماس ونحوه ومن المترفين من يكسوها بالحرير المنظوم في اللوءلوء والمرجان كل علي حسب رغبته ودرجة رفاهيته سواء في ذلك الرجال والنساء ومن اعتناء المشرقيين بشرب الدخان يجعل له بعض الاغنياء خدَمة خاصين به

فقال يعقوب اظن ان تولع المشرقيين بالدخان واعتناءهم به هو السبب الاعظم عندهم في الاكثار من العبيد والخدم والجواري ولقد طفت البحار وجبت القفار فما اجتمعت بقوم الاّ وجدتهم يشربونه او يمضغونه او ينشقونه فما قدر لي ان اتعاطى شيئًا منه خصوصًا لما رأيته من حال رفقتي الذين يتعاطونه من الفاقة وسوء الحال وربما كان بعضهم يبيع ثيابه وبعض ما يحتاج

اليه ويصرف ثمن ذلك على هذه الشجرة فانصحك نصيحة اخ مشفق ان لا تشربها ولا تقربها



المسامرة (١١٤)

البنّ

فقال ابن الشيخ اما الان فانا على يقين من كراهتها واما في المستقبل فلا ادري ما يقدر عليّ واخشى ان طالت بنا الاقامة هاهنا ان تغلب الموافقة على الطبع وتقلب المعاشرة الوضع ولقد اخبرني والدي انه لم يتعاطَ النشوق الا للاستعانة على السهر في طلب العلم ثم لما تمادى به الحال لم يمكنه تركه وكذلك القهوة فانه

ايضًا اعتاد شربها وانكبّ عليها انكبابًا زائدًا فكان من شدة حبه لها ونحن بمصر يطلبها قبل النوم ثلاث مرات فضلاً عما كان يشربه طرفي النهار ووسطه وفي كل مرة لا اقل من ثلاثة فناجين او اربعة فقال يعقوب فما له هنا ترك هذه العادة واقلل من شربها فقال سببه رداءة البن هنا وضعف نكهته بخلاف بن مصر فانه جيّد مجلوب من اليمن ولا يرد اليها من بلاد الفرنج الا القليل ومن يشتري البن الفرنجي لا يقصد به الا الغش حتى ان من يعرف به من القهوجية عندنا يقف حال بضاعته

فقال يعقوب ان شجرة البن ايضًا عمَّت بها البلوى في جميع الجهات وصارت من المكيفات التي لا يمكن الاستغناء عنها عند كثير من الناس وقد رأيت في كتب المؤرخين ان هذه الشجرة كانت معروفة عند اليونان والعبرانيين وذكروا انها تنسب الى البلاد الحارة كبلاد الحبشة والعرب وانه لم يظهر استعمالها ببلاد المشرق الا سنة ثمانمائة وخمس وسبعين من الميلاد اي سنة مائتين واثنين وستين من الهجرة وان اول ظهورها كان باليمن ثم ظهرت ببلاد الهند ثم باوروبا ثم بامريقا ولم تظهر بايتاليا الا سنة الف وستمائة وخمس واربعين ميلادية وبلوندرة الا سنة الف وستمائة واثنين وخمسين وبمرسيليا الا سنة الف وستمائة وواحد وسبعين وبباريز الا في سنة الف وسبعمائة وسبع وستين

وفي القرن الثامن عشر ايام الملك لويز الرابع عشر اهدي اليه

شجرة بن من مدينة امستردام فاستنبتها فلما طلعت وازهرت ارسل منها الى جزيرة مرتينيك ثلاث شتلات لتزرع هناك فمات اثنتان منها في الطريق وسلمت واحدة فغرسوها فلما اثمرت اخذوا منها وزرعوا فلما اثمرت اخذمنها اهل جزيرة جوادلوب وجزيرة سندومنك الى ان ملأت اشجار البن اكثر بلادهم وصارت من انفس تجاراتهم ولولا ذلك لعزت حبتها وغلت قيمتها

ولقد رأيت في بعض جرائد الحوادث ان المتحصل منه في سنة الف وثمانمائة وخمسة وخمسين مائتان وخمسة وستون مليونًا كيلوجرامًا

وبيانه من بلاد البريزيلا مائة وثلاثون مليونا ومن بلاد جافا خمسة وخمسون مليونا

ومن جزيرة سيلان اي سرنديب سبعة عشر مليونًا

ومن جزيرة هايتي ستة عشر مليونًا ومن جوانرا خمسة عشر مليونًا ومن كوبا اربعة عشر مليونًا ومن سومترا خمسة ملايين ومن كوستاريكا مليونان ونصف مليون ومن جنوب مخا مليونان ونصف مليون ومن جزائر اللانتي الانكليزية مليونان ونصف مليون ومن جزائر اللانتي الفرنساوية والهولاندية مليون ونصف ومن ماني مليون واحد ونصف ومن بلاد افريقا وغيرها ثلاثة ملايين فترى البن اليمني وهو بن مخا قليلاً جدا وهو اطيب انواع البن والذها واكثرها مادة

وقد احصي البن المشروب سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين فبلغ ٣٤٫٥١٨٫٥٥٥ كيلوجراما في بلاد الانكليز والمشروب في تلك السنة بعينها ببلاد فرانسا ٢٧٫٩٨٥٦٠٠ فما بالك بغيرهما من بلاد الدنيا فانك لا تكاد تجد مدينة ولا قرية ولا حلة ولا كفرا ولا عزبة في الدنيا الا ولاهلها شغف بشرب القهوة الا انها لا يصلح لزرعها ولا نمو شجرتها الا الارض البعيدة عن البحر المحفوظة من هوائه المعرضة لجهة الشرق التي لا تزيد حرارة جوها على ثلاثين درجة ميئنية ولا تنقص عن عشر درجات وكيفية زرعها ان تزرع الشتلة في ارض جيدة اولاً فلا تنبت الا بعد خمسة اسابيع ثم تنقل بعد سنة او اربعة عشر شهرًا فاذا نقلت جعل بين كل شجرتين ثلاثة امتار ويخالف بين اشجار الصف الاول واشجار الصف الاخر بحيث تكون شجرة الصف الاول مسامتة للمتصف بين اشجار الصف الاخر ولا تثمر اشجاره الا بعد ثلاث سنين او اربع ويلزم لهـا الاستمرار على الخدمة بالسقي والتنقية فانها تحتاج الى شرب الماء كثيرًا وما دامت مخدومة فلا تزال تثمر الى ثلاثين عامًا او اربعين وزهرها وان كان لا ينقطع في اكثر السنة الا ان المعوّل عليه زهر فصلي الربيع والخريف ولا ينضج الحب الا بعد سقوط الزهر باربعة اشهر فاذا نضج جمع بالايدي وفي بلاد العرب من يفرش له تحت الشجرة ثيابا او حصراً ثم يهزها فيسقط منها على الفرش ما طاب فيجمعونه ويتممون تجفيفـه في الشمس وله مدقّات من

خشب او حجر فاذا جف دقوه بها فيخرج من جوزه ثم ينشرونه في الشمس ثانيًا وهناك من يستعين على فصله من جوزه بالماء فيضعه فيه يومًا وليلة او يومين وليلتين ومنهم من يدشه بالرحى وبعد ذلك كله يجففونه ثم يضعونه في طرود وزنابيل يجعلونها متباعدة غير متجاورة لئلا يتعفن البن بتجاوره فتقل جودته وتخبث نكهته وكذلك يفعلون في نقله الى الجهات والاقطار البعيدة

واما تحميصه وسحقه ووضعه في الماء او صبّ الماء عليه وغليه بالنار عند ارادة شربه فمعلوم عند كل من يتعاطاه كل على حسب رغبته فمنهم من يبالغ في تحميصه ومنهم من لا يبالغ ومنهم من يسحنه في مسحن من فخار بآلة من خشب ومنهم من يدقه بمدقة من حديد ومنهم من يطحنه بيده في طاحونة ويتغير طعم القهوة ولذتها تبعًا لطرق التحميص والعلامات الدالة على جودة استوآء تحميصه هي نقص الرائحة التي تظهر في مبدأ التحميص ونداوة الحب ولمعانه وميله الى لون بين السواد والحمرة وبالتجربة علم ان الحبة بعد السواء يزيد حجمها بقدر الثلث ويُنقص وزنها بقدر الخمس واذا بلغت استواءها وسحقت في الحال صارت القهوة جيدة وكلما تأخرت نقص ذلك منها واذا مكث البن زمنًا في المخازن ضاع كثير من مزاياه وبن مخا تضيع اكثر خواصه بعد سنتين واما غيره فينبغي ان يكون مكثه في المخازن سنة فان اقام اقل من ذلك كانت قهوته شديدة المرارة كريهة الرائحة وان بقي اكثر من ذلك كانت

اشهى واجود ومما يلزم التنبيه عليه انه ينبغي سرعة تبريد البن بعد التحميص بان يفرغ دفعة واحدة على رخامة وما اشبهها وذلك لاجل ان لا يتبخر مقدار كبير من الدهن الذي هو السبب في جودته ولذته وكذلك لا يصب الماء المغلي على المسحوق منه لئلا يتصعد كثير من بخار القهوة وتضيع اكثر مزاياها وللناس كلام في شرب القهوة فمنهم من ذمّها ومنهم من مدحها والانصاف التفصيل بحمل كلام من ذمها على الاكثار منها وكلام من مدحها على التقليل

قال ابن الشيخ واختلف فيها ايضا علماء الشريعة الاسلامية بالجواز وعدمه والحق انها يعتريها الاحكام بحسب ما يترتب عليها



المسامرة (١١٥)

الانهر

ثم انهما تذكرا الوقت المقدر لهما فكرّا راجعين فلما دخلا على الشيخ والانكليزي قال لهما الخواجا لقد تجاوزتما الوقت المقدر لكما

فما ابطاءكما فاخبراه بتقابلهما مع الخواجا موريس وما صنعه معهما من توجهه معهما الى الحكيم واخذه منه خطابا لحكماء الاسبتاليات فقال لهما الخواجا قد اصبتما وفعلتما فعل العقلاء ونحن الان متوجهون الى بستان النبات ثم امر بالعربة فركبوا جميعا الى ان وصلوا الى قصر الملك فقال الخواجا للشيخ هاهنا طريقان احدهما من وسط البلد من الحارات والاخر على شاطئ النهر ولكل مزية فايهما احب اليك فقال الشيخ اظن ان الذهاب على شاطئ النهر اشرح للصدر واجلى للبصر فاشار الى السائق بتوجيه العربة اليه وكان بالطريق قنطرة فلما جاورها عدل بالعربة الى الشاطئ وقال الانكليزي ان البلدة التي سنسكنها هي بشاطئ النهر وبعدها من باريز يوم في البحر ونصف ساعة بسكة الحديد فخيّر الخواجا الشيخ بين النزول في البحر وركوب سكة الحديد فاختار طريق البحر لما فيها من الاطلاع على الفوائد الجمة بخلاف سكة الحديد فلا يطلع معها على شيء فركبوا البحر في مركب تسر الناظر وتشرح الخاطر ثم ان الشيخ كلما التفت يمينا رأى منازل مشيدة وتحتها دكاكين وخانات منظمة ملئت باصناف البضاعة وكلما التفت يسارًا نحو النهر رأى اناسا كثيرين ما بين بائع كتب واوراق حوادث وبائع لعب اطفال ودفاتر سجارة وما يشبه ذلك منهم من وضع بضاعته علي الارض ومنهم من هيأ لها دكاكين من خشب واذا نظر الى البحر لا يرى الا مراكب صادرة وواردة لا يرى الماء من خلالها لكثرتها

فقال كنت وانا بمصر اذا رأيت المراكب التي على سواحلها اعجب من كثرتها والان لا اعدها شيئا بالنسبة لما اراه هنا فقال الخواجا ومع ذلك ما تراه ليس شيئا بالنسبة لما يرد ويصدر بسكة الحديد وذلك لان باريز صارت الان مخزنا عاما لكل ما يلزم لسائر الجهات

فقال الشيخ وهل بفرانسا نهر غير هذا فقال انهارها كثيرة احدها نهر السين وهو هذا وليس هو معدودًا من الانهر الكبيرة وبها نهر يسمى نهر اللوار يخرج من جبال يقال لها جربيدجون مرتفعة عن سطح المالح بقدر الف وخمسمائة واثنين وستين مترًا ويسير اولا من الجنوب الى الشمال بين جبال شامخة كانت قديما بركانية ويمر على مدن وقرى وقلاع وله فيضان عنيف حتى انه يتسبب عنه في بعض الاحيان خراب البلاد كنيل مصر اذا فاض وينصب فيه من جهتيه خلجان كثيرة كلها واردة من الجبال المحددة لواديه وله انعطافات كثيرة ويمر بثمانية عشرة مديرية ثم يصب في بحر يقال له البحر الاطلنطيقي ومن منبعه الى مصبه تسعمائة كيلومتر الصالح للملاحة منها الثلثان وارتفاع منبعه عن سطح المالح ستة وثلاثون الفا واربعمائة متر وليس عميقا وارض قاعه رملية وجزوءه المنحط جسوره عالية لوقاية اراضي الزراعة وبها ايضاً نهر يقال له نهر الرّين منبعه جبل سانجوتار ومصبه البحر الابيض المتوسط وارتفاع منبعه عن مصبه نحو الف وسبعمائة

واربعة وخمسين مترًا واولاً يكون في وادٍ ضيق عميق ويتجه بين الشمال الغربي والجنوب الغربي في وسط جبال الالب الشامخة وفي طول مائة واربعة واربعين الف متر من ابتداء مصبه يكون اللسان المتكلم به على ضفته الشرقية اللسان الالماني وفي الاخرى اللسان الفرنساوي وله انعطافات كثيرة وفي مروره يخترق ليمان العظيمة وطولها من الشرق الى الغرب اثنان وسبعون كيلومترًا وعرضها اربعة كيلومترات في اضيق محل منها وفي اوسع محل منها اثنى عشر كيلومترًا وارتفاعها فوق سطح المالح اربعمائة متر تقريبًا ويفصل ما بين فرانسا واقليم سفوا واقاليم سويسرا وينصب فيه اربعون نهرًا جميعها من الجهة الجنوبية وليس عليه في هذه المسافة مدينة كبيرة سوى مدينة يقال لها لوزان وبعد خروجه من تلك البحيرة عند مدينة جنوه يدخل ارض فرانسا ويأخذ نحو الجنوب ويسير بين الجبال وبعد مسافة كبيرة من سيره يتكوّن عنه مع نهر اخر يقال له نهر الساوون بحيث جزيرة بها مدينة ليون التي تلي باريز في الشهرة بفرانسا فيكون جانب من تلك المدينة على احد النهرين والجانب الاخر على النهر الاخر وعليهما قناطر للمرور وكانت هذه المدينة ايام الرومانيين تحت تسلط الغول وعدد اهلها الان مائة الف وخمسة وستون الف نفس وهي مدينة عظيمة ذات ورش ومعامل خصوصًا للحرير وقد مرّ عليها من الحوادث الطيبة وضدها ما لم يمر على مدينة غيرها خصوصًا ايام الامم المتبربرة التي

كانت تغلبت على ارض الغول عند تضعضع دولة الرومانيين وعند تقسيم مملكة شارلماني كانت تختًا لمملكة البرغوني ولم تدخل في حكم مملكة فرانسا الا سنة الف وثلثمائة واثنى عشر ايام الملك فيليب الملقب بالجميل فلما قامت الفرنساوية ارادت الخروج عن الطاعة فحصروها حتى دخلت تحت طاعتهم وفيها معمل بارود ومدرسة وورشة للطوبجية وهذا النهر بعد خروجه من المدينة ينعطف نحو نهر الساوون على زاوية قائمة وبعد ذلك ينعطف من الشمال الى الجنوب وهو نهر كبير العرض قوي الانحدار لحبسه بين الجبال التي ترسل له تيارات قوية من السيول فيزيد بها بغتة وتكبر سرعته وجريانه فيمرّ بمدن وقرى وحصون كثيرة الى ان يصل مدينة ارل ثم ينقسم قسمين احدهما يسمى الرون الكبير يسير الى الجنوب الشرقي والاخر يسمى الرّون الصغير يسير الى الجنوب الغربي ثم ينقسم الكبير قسمين احدهما يسمى الرون العتيق والاخر يستمر على اسم الرون الكبير ثم ينقسم الرون الصغير قسمين احدهما يستمر له اسم الرون الصغير والاخر يسمى الرّون الميت وجميع هذه الاقسام تصبّ في البحر المالح وطول النهر من مبدئه الى منتهاه ٨٠٠ الف متر منها ما هو صالح لسير السفن وهو خمسمائة وعشرون الف متر ومنها ما لا يصلح وهو الباقي ولا نعلم باوروبا نهرًا اقوى منه جريا لكثرة الانهار التي تنصب فيه ويمر من ارض فرانسا على تسع عشرة مديرية ونهر الساوون المذكور عبارة

عن احد نهيراته وعليه بلاد ومدن وقلاع وحصون كثيرة كغيره من الانهار وفي ذكرها تطويل على حضرتكم

واما نهر السين فمنبعه من الكوتدور ومصبه البحر الملح وارتفاع منبعه عن مصبه اربعمائة وستة واربعون مترًا ويمر من جهة الجنوب الشرقي الى الشمال الغربي مستقيما الى ان يتجاوز مدينة تروى فيأخذ من الشمال الشرقي الى الجنوب الغربي وهناك يصلح لسير السفن وهو يمر بمدن شهيرة وبلاد كثيرة وارض متسعة الى ان يصل باريس ويتجاوزها فيمر بمدينة سانكلو التي فيها منتزهات الملوك وعلى يساره على بعد ثمانية الاف متر مدينة ورساي التي كانت مقر الملك لويز الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر وهي المشهورة بحادثة قيام فرانسا وعلى بعد اربعة الاف متر من جهة الغرب مدينة سانسير المشهورة بمدرسة البياده المعدة لتحضير ضباط البياده الفرنساوية ويمر ايضًا بمدينة ساندنيس المعدة من قديم الزمان لدفن ملوك فرانسا الى الان ومدينة روان التي كانت في الزمن القديم مقر حكومة النورمندي وهي من المدن الشهيرة وعدد اهلها مائة الف نفس وفيها ورَش ومعامل وكانت سابقًا من القلاع الحصينة وجميع السفن ترسو عندها ثم ينعطف هذا النهر انعطافات كثيرة الى ان ينصب في البحر الملح قريبًا من مدينة هافر وطوله من مبدئه الى مصبه ستمائة واربعون الف متر والقابل لسير السفن منها اربعمائة وثمانون

الف متر وينصب فيه من جانبيه انهار صغيرة فعلم مما ذكر ان نهر السين ليس اكبر انهار فرانسا وان كان اكثر منها نفعاً لكثرة المدن ذات الصنائع والمعامل والتجارة على شاطئه لا سيما مدينة باريس هذا هو سبب شهرته

فقال الشيخ في هذا الاوان يفيض نهر النيل ويروي ارض مصر عموما صعيداً وبحيرة وتبتدئ زيادته بعد النقطة القبطية ويتم ارتفاعه في شهر توت بخلاف باقي الانهر وللنيل خواص كثيرة منها انه لا يعلم مبداه ومنها ان سيره من الجنوب الى الشمال مع ان جميع الانهار تجري من الشرق الى الغرب اوبالعكس ومنها انه من الخرطوم الى ان ينصب في بحر الروم لا ينصب فيه غير نهر ادبرا

ومما اختص به هذا النهر ما ياتي معه من الزبد الذي لولاه ما كانت ارض مصر ولا سكنها انسان ولا عاش بها حيوان حتى قيل انه اعظم الانهار طولاً وجريا واكثرها للارض فائدة وريّا وخصبا وطمياً

فقال له الخواجا هناك ما هو اعظم منه طولاً واسرع جريا لان غاية ما يبلغ طول النيل من مبتدئه الى مصبه تسعمائة وسبعون الف متر واكثر اتساعه الف متر ولا تزيد سرعته عن اربعة كيلو مترات في الساعة الواحدة وغاية ما يصرف في الدقيقة الواحدة تسعة وثلاثون متراً مكعباً وربع متر مع ان

باوروبا نهر فولجا طولهُ ثلاثة ملايين وثلثمائة واربعون الف متر ومنافعه ببلاد الروس كثيرة لانه اعظم طريق لنقل تجارتهم الداخلة والخارجة من المديريات الى التخت فضلاً عن نقل التيل والكتان والحديد والطوب والشاي والمشروبات وكذلك نهر الدانوب (الطونة) بالمانيا فان طوله مليونان وسبعمائة وخمسون الف متر ونهر الدون بالدال المهملة ببلاد الروسيا طوله مليون وسبعمائة وثمانون الف متر ونهر الدنيبر في بلاد الروس ايضا طوله مليونان من الامتار ونهر يانج تسي كيانج باسيا طوله خمسة ملايين وثلاثمائة وثمانون الف متر ونهر الكنك وطوله مليونان واربعمائة الف متر وعرضه خمسمائة وخمسون متراً وهذا النهر اعظم طريق لسير المراكب للتجارة في هذه الجهات وقد قدروا عدد الملاحين به فوجدوهم ثلثمائة الف نفس وقيمة ما ينقل منه في السنة الواحدة من البضائع قريب من ثلاثمائة مليون من الفرنكات وقد اخذت منه الشركة الانكليزية خليجًا كبيرًا لاصلاح زرعهم طوله الف واربعمائة واثنان وثلاثون كيلو مترًا

وبافريقيا انهار غير نهر النيل منها السنيجال طوله الف ومائة وخمسة وعشرون فرسخًا واعظم من ذلك كله انهار امريقا واكبرها نهر مسيسيبي فان طوله سبعة ملايين متر وعرضه في اضيق طريقه ثلثمائة متر ويعظم الى ان يبلغ الفًا وخمسمائة بل ٢٥٠٠ متر وعمقه

في بعض المواضع من خمسة عشر مترًا الى عشرين ويبلغ في بعض الجهات ستين مترا وثمانين ويمر بارض تقرب من مائة وثمانين الف فرسخ مربع اي مقدار سعة فرانسا سبع مرات ويقطع في الساعة الواحدة ايام تقصيره اربعة اميال انكليزية وايام زيادته يعسر ركوبه لشدة جريه وفي كل مائة متر من طوله يكون انحدار مجراه جزأ من مائة جزء من المتر واكبر فروعه نهر المصوري وعرضه من الف متر الى الفين وسرعته في الساعة الواحدة الفا متر وهناك انهار اخرى منها نهر الاورينوك طوله خمسمائة وخمسة وسبعون فرسخًا ونهر البلانا طوله نحو ثمانية فراسخ

واعظم من جميع ذلك نهر الامزون فانه يجلب الى المالح جميع الامطار الواقعة على الوادي المتسع العظيم الذي قدر مساحته سبعة ملايين كيلو متر مربع وهو عميق جدا لان المحس الذي طوله مائة متر لا يصل الى قاعه وعرضه كبير جدا حتى ان اكبر سفن المالح تصعد فيه الي مسافة الف فرسخ وفي جميع هذه المسافة لا ترى شواطئه لعظمه وسرعته شديدة يقطع في الساعة الواحدة ثمانية الاف متر وما يصرفه في اللحظة الواحدة من الماء قدر ما يصرفه ثلاثة الاف نهر مثل نهر السين في تلك اللحظة وفي ارض كندا بامريقا نهر سانلوران عرضة عند مصبه عشرون الف متر وبعد اربعمائة وخمسين الف متر من المصب يكون عرضه اثنى عشر الف متر ويخرج منه ثمانية خلجان اكبرها خليج

ويلاند المار من بحيرة ايرية الى بحيرة اونتاريو بعد ان يجاوز شلالات نياجارا وطول هذا الخليج خمسة واربعون الف متر وعرضه ايام زيادته مائة متر وايام نقصه تسعة وعشرون مترًا وثلثا متر وعرض قاعه ثلاثة عشر متراً وثلثا متر وعليه سبعة وعشرون هويساً موزع عليها الانحدار الكلي بين البحيرتين وهو سبعة وعشرون مترًا واما من خصوص عظم السرعة والجريان فليس هناك نهر اعظم من نهر دجلة والاندوس (سيحون) والدانوب (الطونة)

وفي جميع هذه الانهر تنصب انهر كثيرة فنهر الدانوب ينصب فيه مائتا نهر بين صغير وكبير ونهر وولجا ينصب فيه ثلاثة وثلاثون نهرًا وهذه الانهر كلها مع كثرتها وغزارة مائها واتساعها طولاً وعرضًا ليست شيئًا بالنسبة للبحر الملح فانه لو فرض جفاف البحر المالح ونضوب الماء عنه وسلطت عليه جميع انهر الارض فلا تملاءه كما هو الان الا في اربعين الف سنة

فقال الشيخ قد افدتني في الانهر ما لم يكن يخطر بالبال ولا كان له في النفس خيال فلله درك من حبر خبير وعارف بصير ولكن مع ذلك فالنيل اعظم الانهار بركة واكثرها فائدة وقد ورد عندنا في السنة المحمدية والشريعة الاسلامية انه افضل انهار الدنيا كما قيل في ذلك

وافضل المياه مـــاء قد نبع

بين اصابـــع النبي المتبع

يليه مـــاء زمزم فالكوثرِ

فنيل مصر ثم باقي الانهرِ

وللنيل مزايا انفرد بها منها انه يكتفى بسقيه فانه يزرع عليه ثم لا يسقى الزرع حتى يبلغ منتهاه ولا يعلم ذلك في نهر سواه ويزيد عند الحاجة وينقص كالعاقل المدبر الشفوق فياتي الى الارض في اوان اشتداد القيظ والحر ويبس الهوا وجفاف الارض فيسقيها ويرطب الهوا وهو موزون على ديار مصر بوزن معلوم وتقدير مرسوم لا يزيد عليه ولا يخرج عنه ولا يطغى على البلاد بالفساد والانهار تاتي من جهة المشرق الى المغرب وهو ياتي من جهة الجنوب الى الشمال فيكون فعل الشمس فيه دائما واثرها على اصلاحه متصلاً وليس في الدنيا نهر يزيد ثم يقف ثم ينقص ثم ينضب على الترتيب والتدريج غيره وليس في الدنيا نهر يزرع عليه ما يزرع على النيل ولا يجيء من خراج غلة زرعه ما يجيء من خراج غلة زرع النيل وهو اخف المياه واحلاها وارواها واعمهـــا نفعا واكثرها خراجا وبالجملة فبطون الدفاتر مشحونة بمزايا النيل ومدحه نظما ونثرا قديما وحديثا فقال الخواجا نحن لا ننكر فضل النيل ولا كثرة مزاياه ولكن لو تأمل الانسان لوجد ان كل نهر في الدنيا لا يخلو من خواص ومزايا منها تلطيف حرارة الجو

بالنسبة لكمية مجسم الماء الجاري في كل جهة من الدنيا فان كان نهر بعيد العمق جدًا اثر ذلك في الجو فتنقص درجة الحرارة في وقت الشتاء تدريجا ويستحكم البرد الى ان يجمد ماء النهر فان كانت الاقطار متوسطة البرودة في الشتا بان كانت لا تزيد على ثلاث درجات ونصف مئينية لم ينجمد الماء الا اذا بلغت درجة البرودة ثماني درجات او عشرًا تحت الصفر

واما البلاد الموضوعة في ثمانٍ وخمسين الى ستين درجة من العرض فان بردها يكون شديدًا وقت الخريف لتأخر ذوبان الثلج فان كانت الانهار كبيرة العرض والعمق والسرعة تأثر الجوّ بها وفي الغالب تتبع الرياح اتجاه الانهر وينبني على ذلك ان اتجاه الابخرة الرديئة يتبع اتجاه الانهر وهذا هو السبب في وجود الحمى عند سكان السواحل والدليل على ذلك المشاهدة فانه في سنة الف وثمانمائة وتسعة عشر ظهرت الحمى في الاندلس وانتشرت حتى سرت الى مدينة سويل لان نهري سان لوران وجوادي الكبير قد نشرا في داخل المديريات ابخرة السواحل فالانهر وان كانت بمرورها تاخذ عفونة المساكن معها الا انها لفيضانها وحصول النشع منها وشدة نقصها ورسوب المواد الطينية منها ينشأ عنها مضار كما يحصل من النيل والكنج والمسيسيبي والامزون فانها بعد نزولها تترك مناقع وبركًا فيتولد عنها امراض بسبب الابخرة الرديئة المتصاعدة منها

وقد دلت التجربة على ان طول الاقامة فوق الانهر التي بالبلاد الحارة مضرة ضررًا بينًا ودلت التجربة ايضًا على انه اذا مات واحد من خمسة وثلاثين من سياحي البحر الملح يموت واحد من ثلاثة من سياحي نهر السنجال بخلاف اهل البلاد المعتدلة والباردة

والحكم التي اودعت في المياه كثيرة لم نقف الا على بعضها وعلى الانسان ان يبحث عن خواصها وخواص غيرها على حسب الامكان فان الرب الخالق لم يخلق شيئًا عبثًا



المسامرة (١١٦)

الاحجار الكريمة

وها نحن قد وصلنا فلندع الكلام في هذا الباب الى وقت غير هذا وكانت العربة قد وقفت بهم علي باب عظيم مرتفع

فنزلوا واخذ الخواجا بيد الشيخ حتى وصلا حجرة المامور فلما رآهما قام لهما واجلسهما وامر لهما بقهوة ثم اخبره الخواجا عن سبب مجيهم وان القصد الزيارة فرحب بهم وقام معهم واراهم عنابر المعادن واحدًا واحدًا ثم وقف بهم على طاولة ممرَّدة من قوارير وفيها من جميع الاحجار التي يتحلى بها وقال للشيخ ان هذه الاحجار هي مثال الاحجار النفيسة التي يتحلى بها وفي ترتيبنا هنا ان اولها هو حجر الفيروزج وهو نوعان نوع سماوي اللون مركب من اوكسيد الحديد والنحاس والنوع الثاني عظم قد تحجر مع فوسفات الحديد وهو يوجد عروقًا في مادة طفلية في الارض بنواحي نيسابور من بلاد العجم والجوهرية والصاغة يؤلفونه مع الماس واللولو والذهب وحجر العقيق هو هذا الحجر الاحمر اللطيف وهو مركب من ألومين وبعض مواد اخرى ويتنوع لونه فمنه ما يكون احمر يوجد في بلاد البهيم والمجر في الصخور البرقانية وله معامل في بلاد المجر والبهيم والتيرول

والزمرذ المشهور ببلاد المشرق وهو مركب من سيليس وألومين وبعض مواد وانواعه كثيرة منها الاخضر الصافي وهو زمرذ مصر والبيرو ومنها الاصفر والازرق واعلاها الاخضر وهو المرغوب بمصر وغيرها

واحسن زمرذة معلومة الان هي الموجودة في خزانة الامتعة ببلاد الموسكو والزمرذة الموجودة في تاج البابا ويوجد الزمرذ عادة

مغروساً في الصخر

واما الياقوت فهو هذا الحجر الاصفر وهو حجر زجاجي صلب يوجد في اجواف الصخور وانواعه كثيرة منها الاصفر والسماوي ومنها الاحمر القاني البهرماني واعلى انواعه ما يجلب من بلاد الهند وما يرد من السكس ومكسيكو ثم اشار الى حجر ذي الوان متعددة بتعدد طبقاته فقال واما هذا فهو الحجر اليماني

والصنّاع تحتال على تعاقب طبقات الوانه فتجعلها في التحضير قائمة او منحنية او غير ذلك ويوجد ذلك بفرانسا والمانيا واحسنه من بلاد العرب

وحجر اليشم هذا يستعمل في خواتم وقلائد وبعض حلى واقداح للشرب ونحو ذلك ومحل وجوده الطبقات القديمة التكوين من طبقات الارض

ثم قال واعلى هذه الحجارة حجر الماس وهو حجر زجاجي شفاف مجرد عن اللون له لمعان الماسي وهو سهل الكسر صلب يوءثر في جميع الاحجار ولا توءثر فيه ولا يجلي الا بمسحوقه وثقله النوعي قدر ثقل الماء ثلاث مرات ونصف مرة ويتركب من كربون اعني فحماً نقيا خالصا واول من ظن فيه قابلية الاحتراق العالم نتون ومن بعده سلط عليه بعض الكيماويين تياراً كهربائيا شديداً فانحرق وصار فحما كالذي يوقد به ويوجد هذا النوع في بلاد الهند وبريزيليا والسيبيريا ويوجد بين صخر ارض الرسوب القديمة

التكوين المنقولة بالمياه ومن مدة ثلاثة قرون صار الجد في استخراجه من محاجره ويوجد ايضا في نواحي ديكان وجلوكوند وبالجال وجزيرة بورنيو واستكشافه في بريزيليا كان في القرن السابع عشر في مديرية ميناسجيري والمستخرج منه غشيما كل سنة في جميع الجهات يقرب من ستة كيلوغرامات الا انه اذا صفي ونقي لا يبلغ الا نحو مائة وثمانين غراما

وكيفية استخراجه بالبريزيليا ان تفتت الصخرة التي يظن وجوده فيها ثم تغسل في حيضان ما عمق الماء فيها متر ويجلس الغسال على حافتها وبيده قطعة خشب مجوفة تسع اثنين او ثلاثة من الكيلوغرامات من الرمل فلا يزال يحركها في الحوض حتى يعثر بشيء منه ومن اعتياد العبيد على غسله لا يفوت الواحد منهم شيء منه ولو صغيراً جداً ومن عاداتهم ان كل من وجد شيئا منه ينادي باعلى صوته قائلاً قدس الله روح المسيح . ثم يسلم ما وجد للملاحظ فان كانت قطعة كبيرة كافأه عليها وربما اعتقه في نظير ذلك

وقال بعض الموءرخين ان حك الالماس واستعماله قديم لكن كان على غير قانون من حيث الانتظام والشكل وقال بعضهم لم يكن ذلك الا من سنة الف واربعمائة وستة وسبعين من الميلاد فان المخترع له رجل من اهل نروج مع ان هذا الحجر وجد في بركة الدوك دنجو سنة الف وثلثمائة وثمانية وستين محكوكا فلذا حكم بقدم طرق حكه

وآلة حكه عبارة عن قرص من الفولاذ افقي الوضع يتحرك بسرعة شديدة وفوق القرص تراب الماس الحاصل من حك حجرين منه طبيعيين غير قابلين للتصليح ولهم في ذلك طرق والمعلوم الان ان الماس المستعمل بين الناس على هيئتين

الاول الشكل المعروف بالروزة ومعناها الوردة

والثاني المعروف بالبرلانتا فاول وجهه الظاهر هرمي الشكل ذو اسطحة مثلثية والوجه الثاني مستو يختفي في مادة التركيب سواء كانت من الفضة او الذهب واما النوع الثاني وهو البرلانتا فكلا وجهيه مسطح الوسط وفي دائر ذلك السطح اسطحة مثلثية او معينة والمجموع عبارة عن هرمين ناقصين والعادة ان يبقى مكشوفا في تركيبه مع الفضة او الذهب ويرى من الاعلى كما يرى من الاسفل واختلاف قيمته باختلاف مائه وصفائه وكبره وشكله والحجارة التي لا تصلح للاستعمال يساوي قيراطها ثلاثين او ستة وثلاثين فرنكا وقدر القيراط مائتان وخمسة ونصف من المليغرام وقيمة القيراط المستعمل في الحلى تساوي ثمانية واربعين فرنكا اي ان قيمة الغرام منه تساوي مائتين وثلاثة وثلاثين فرنكا وذلك اذا كان وزن الحجر قيراطاً فان زاد وزنه عن ذلك فتقدر القيمة بضرب مربع الوزن في ثمانية واربعين واما المصوغ فقيمته تابعة لهيأته وكبر حجمه كما ذكرنا واكبر حجر منه ما وجد بخزانة

ذخائر فرانسا وكانوا قد عثروا به علي بعد خمسة واربعين فرسخًا من جنوبي جلوكند ووزنه غشيما قبل حكه كان اربعمائة قيراط وعشرة قراريط واقاموا في حكه سنتين وبعد الحك صار مائة وسبعة وثلاثين قيراطًا وبلغت قيمة ذلك الحجر ثلاثمائة واثنى عشر الفًا وخمسمائة فرنك وصرف عليه في الحك مائة وخمسة وعشرون الفًا فاشتراه الدوك دورليان بثلاثة الاف الف وثلاثمائة وخمسة وسبعين الف فرنك وهو الان يساوي ثمانية الاف الف فرنك

ومن الحجارة المشهورة حجر يعرف بالنظام عند ملك جلوكوند غشيمه وزنه ثلاثمائة واربعون قيراطًا وقدروا قيمته خمسة ملايين فرنك وفي ذخائر الروسية حجر وزنه مائة وثلاثة وتسعون قيراطًا وكان مجعولا عينًا لصنم بمعبد براهمة فاخذه احد عسكر الفرانساوية وباعه بخمسين الف فرنك ثم صار ينتقل من يد الى اخرى حتى وقع في يد القراليجة كاترين فاخذته بالفي الف ومائتين وخمسين الف فرنك

وفي ذخائر النمسا حجر وزنه مائة وتسعة وثلاثون قيراطًا ونصف قيراط ويقال ان عند ملك البرتقال حجرًا قدر بيضة الدجاجة وزنه الف وستمائة وثمانون قيراطا ولم يره احد ممن اخبر عنه

ثم دخل بهم عنبر الطير واراهم ما فيه ومنه الى عنبر الحشرات

والافاعي ثم الى عنبر الحيوانات الوحشية ثم محل المواد الكيماوية ومنها الى محل الالات واراهم بعض خواصها فكان كل ما انتقل بهم من مكان الى مكان يرى على الشيخ عدم رغبته في الانصراف من المكان الاول حتى يستوفي البيان عما فيه الا انه لضرورة المرافقة كان مجبورا على الموافقة وكان في جملة ما رآه في عنبر الافاعي ثعابين (حيات) ممتدة في السقف ففزع منها فزعًا شديدًا ولكنه تجلد حين رآهم لم يكترثوا بها ومما رآه في عنبر الحيوانات الوحشية انواع السباع والضباع والنمورة والظبا والقَردة والفَيلة والزرافة والأيل والحُمُر والبقر الوحشية وكذلك انواع الطير والحيوانات البحرية كالدرفيل وفرس البحر والتماسيح فرأوا حولها اطفالاً ترمي لها خبزًا فتجتمع عليه ورأوا حول بيوت القردة خلقًا كثيرين يضحكون على العابها ثم طاف بهم في البستان واطلعهم على خواص ما به من نبات وشجر واخبرهم باسم نبات كل بلد ودرجة حرارتها وما يستخرج منها من الزيوت والادهان العطرية وغيرها واراهم نباتًا مغطى بسقف من زجاج وبيّن لهم الطرق التي تزيد في الحرارة وبالجملة فلم يدع شيئًا بالبستان الا اطلعهم عليه وذكر لهم ما يعلمه من خواصه ثم رجع بهم الى مكانه وطلب لهم قهوة فشربوا ثم قال المأمور اريد ان انشرف بحضرة الشيخ في يوم غير هذا لاريه ما يحب ان يراه مما لم يرَهُ في هذا اليوم فقال الشيخ لا بد من ذلك لاحظى برؤيتكم واستفيد من معلوماتكم

فقال المأمور للشيخ الا اخبرك باصل هذا المكان قبل ان يعد لما رأيته به من انواع النبات والحيوان قال نعم فقال اصله كان فضاءً من فضاآت باريز فلما جاء لويز الثالث عشر اصدر امره بانشاء جنينة في خطة من خطط باريز تكون ادارتها ونظارتها بعده لمن يقوم مقامه من عقبه فانشأ هذه الجنينة ثم ما زالت تتقدم كل سنة عن السنة التي قبلها الى ان جاءت سنة الف وستمائة واثنين وثمانين فجعلها بوفون موءلف كتاب حياة الحيوان والتاريخ الطبيعي في هيئة جديدة وقسم طرقها واحدث فيها مدرسة لتدريس العلم

ثم في سنة الف وسبعمائة واثنين وتسعين عمل لها مجلس الملة لوائح وقوانين وامر بنقل جميع الحيوانات التي كانت بويرساي اليها فازداد بذلك رونقها ومن ذلك العهد لا يمر عليها عام الا ويجلب اليها من المستغربات وانواع الطير والحشرات ما لا يحصى

المسامرة (١١٧)
الهواء والماء

ثم استأذنوا في الانصراف وقاموا فودعهم الى الباب ووقف هناك الى ان ركبوا وكانت الشمس قد أذنت بالغروب والسماء مطبقة بالسحاب وبعد ان ساروا مسافة قليلة خرجت عليهم ريح باردة من جهة الشرق فقال الانكليزي هذه علامة المطر فالاولى ان ندخل قهوة نستكن بها حتى يسكن فما دخلوا القهوة الا والمطر قد نزل كافواه القرب

فقال الشيخ ان اهل مصر الان يشكون من الحر ونحن نشكو من البرد فقال الخواجا ذلك ناشىء من اختلاف الاوضاع الجغرافية للبلاد ارتفاعا وانخفاضا ففي بعض الجهات المنخفضة قد يشتد

البرد حتى تجمد منه الانهار وتكسى الارض بالثلج وتكثر الامطار وربما تستمر اشهرًا وفي تلك المدة يضطر اهل تلك الجهات الى الاستمرار على ايقاد النار فيكون في كل مكان منقد او اكثر ويلبسون ثقيل الثياب كالفرآء والمضربات وكلما نزل الانسان الى الشمال ازداد عليه البرد والثلج وكلما صعد قل برده وادرك الحرارة

وشرح تلك المسئلة يحتاج الى مقدمة اقصها عليك اذا اوينا الى مبيتنا فلما هدأ المطر وركبوا الى محل اقامتهم قال الشيخ للخواجا انجز لي ما وعدتني فقال اعلم ان الهوآء ولو كان في غاية من الصفا لا بد ان يحمل معه ابخرة مائية متصاعدة من الانهار والبحار والريح توزعها في الجهات فزرقة الجو الممتد في السماء الى ستين الف متر ناشئة من هذا البخار المتصاعد وذلك الجو محيط بجميع كرة الارض والخلق على اختلاف انواعهم تعيش فيه ومن فوائد البخار تلطيف حرارة الجو فيكون الهواء صالحا للاستنشاق وكل حين يتصاعد من البحار مقدار من البخار لاجل تلك الفوائد الجليلة ولولا ذلك لهلك ما على وجه الارض من حيوان ونبات وقد غلط من جعل البخار والضباب والسحاب شيئا واحدا بل هما متغايران فان البخار عبارة عن غاز يرتفع من الانهار والبحار الى الجو بكمية تقل وتكثر فعلى كل مستودع ماء من نهر او بركة وكذا على الثلج ونحوه يتكون البخار فاذا تشبع الجو منه تحول بواسطة الهواء الي رطوبة محسوسة ودرجة التشبع تختلف

قلة وكثرة باختلاف درجة الحرارة التي في الجو ففي درجة عشرين تحت الصفر لا يكون في المتر المكعب من الهوا زيادة عن غرام واحد اي ثلث درهم وفي درجة ذوبان الثلج يكون فيه خمسة غرامات ومن درجة عشرة الى ثلثين تكون غرامات البخار التي يمتصها الهواء موافقة لارقام اقسام الترمومتر فان زادت درجة الحرارة عن ثلاثين زاد قبول الهواء للبخار فاذا بلغت مائة قبل من البخار بقدر حجمه وساوت حينئذٍ قوة الهواء قوة البخار وبعد ذلك تزيد قوة البخار علي قوة ضغط الماء فيحصل الغليان في الماء ثم ان كمية البخار التي في الجو ولو انها قليلة وتابعة لدرجة الحرارة لكنها مع ذلك قد تكثر كمية البخار المتصاعد من احد مائعين متساويين في الحرارة عن تصاعدها من الاخر بسبب هبوب الريح على احدهما دون الاخر او كثرته عليه اكثر من الاخر فكلما مر عليه ريح تشبع منه وترك مكانه الى غيره وهكذا بخلاف ما اذا كان واقفًا او قليلا وحينئذٍ فتصاعد الابخرة وتوزيعها في الجهات تابع ايضًا لكثرة هبوب الرياح ثم ان الهواء يكون فوق سطح البحر متشبعا من البخار او قريبا من التشبع وكلما صعد من جهة الاستواء الى جهة الاقطاب يأخذ في النقص وكذلك يكون تشبعه في السواحل اقل منه فوق البحر وفي داخل الولايات اقل منه في السواحل وذلك بحسب توزيع الانهر والخلجان والبرك والجبال والغابات واختلاف الرياح واتجاهاتها فمقدار البخار في جو كل بقعة يخالف مقداره

في الاخرى ففوق ارض بلاد الانكليز يكون الجو متشبعا بالبخار او قريبا من ذلك وفوق صحاري آسيا يكون جافا ليس له الاّ خمسة عشر جزءا او عشرون جزءا من مائة مما يمكن ان تتشربه وعلى العموم فمقدار البخار في جو الارض القارة ثلاثة اخماس مقدار التشبع ومع كونه على هذه القلة فوجوده في الجو من اهم المهمات وبيان ذلك ان الارض تميل الى ضياع ما تشربته من الحرارة مدة النهار بردّه ثانيا الى الجو في الليل فاذا ردته التقطته الابخرة المائية فتزيد حرارة الجو ولاحاطته بكرة الارض احاطة الظرف بمظروفه كان لها كغطاء حافظ لها من البرد ولولا هذا البخار لهلك ما على وجه الارض كما مر وكلما جف الجو اشتدت حرارة الارض ففي النهار تؤثر اشعة الشمس في الارض فتلبسها حرارة وفي الليل ينبعث من الارض نحو الجو ما كمن فيها من تلك الحرارة فكلما اشتدت درجة الحرارة في النهار في بقعة كان ليلها شديد البرد لان كمية البخار في تلك البقاع تكون قليلة جداً فلا تمنع الاشعة المتصاعدة من الارض من النفوذ فيها الى جهة السماء ومما سبق يعلم ان البخار الماءي ملطف لحرارة الاشعة الشمسية الساقطة على الارض ومانع لها عند انعكاسها من الارض الى الجوّ من ان تضيع في السماء ومن فوائد ذلك حفظ درجة الحرارة الكافية للحياة

فقال الشيخ لماذا لم يمنع البخار اشعة الشمس الساقطة الى

الارض ويمنعها اذا كانت منعكسة منها فهلا منعها جميعا او لم يمنع واحداً منها

فقال الخواجا هذا لا يرد الا لو كانا على صفة واحدة اما اذا كانا على صفتين مختلفتين كما هنا فلا وذلك ان الاشعة المنبعثة من الشمس الى الارض حارة مضيئة بخلاف المنعكسة من الارض الى الجو فانها مظلمة خالية من الضوء فلذا كان تشرب البخار للاشعة المنعكسة اكثر من تشربه للاشعة المنبعثة الا ترى انا لو عرضنا لوحا من زجاج الى الشمس لنفذت اشعتها منه سريعا ولا يسخن الا بعد مدة وما ذاك الا لمنعه حرارتها دون ضوئها فكذلك بخار الماء في الجو فانه يمنع اشعة الشمس المنعكسة من الارض لظلمتها ولا يمنع اشعتها المنبعثة منها لوجود الضوء فيها

ومن الحكمة الالهية والالطاف الربانية وجود البخار في الجوّ لانه يجعل الدرجة المتوسطة للحرارة في كل بقعة اكثر من حرارة اشعة الشمس وحدها اي بدون بخار الجو. لا صعوبة في تخليص الهواء من الابخرة المائية الممتزجة به فان ذلك يحصل بتبريده كما لو أخذت قلة ماء مثلاً وجعلتها في مكان حار وتركتها برهة من الزمن فانك ترى سطحها قد كسي بابخرة كالندى فكذلك يكون الجو اذا برد الهواء بعد غيبوبة الشمس فان الابخرة المائية تجمع وتصير ندى رقيقا ومن تأمل في الخارج من فمه من النفَس في وقت البرد رأى بخارًا ظاهرًا للعيان وكذا اذا نظر

الى الابخرة المتصاعدة من دسوت الآلات البخارية فانه يرى البخار يرتفع ثم ينزل على الارض في هيئة مطر خفيف هذا ما تيسر ايراده من الكلام على البخار

واما السحاب والضباب فكل منهما عبارة عن تجمع كرات صغيرة حاصلة في الجوّ ولم تتفق اراء الحكماء من الطبيعيين في تلك الكرات على شيء فمنهم من يقول انها هوائية وفي جوفها ماء ومنهم من يقول انها نفسها ماء ثم ان بعض الناس يقول الضباب منافٍ للصحة ومؤذٍ للاجسام وهذا حق لان الضباب علامة على كثرة الرطوبة في الجوّ وانهـا متكونة في هواء راكد قريب من سطح الارض تجمع فيه الابخرة المتصاعدة من القرى والمدن والمستنقعات واكثر ما يكون الضباب في الليل بسبب برودة الجو وقد يكون فوق المراعي الواسعة بقرب غروب الشمس ومتى صادف تكوّنه في الجو سقوط ريح باردة من الطبقات العليا من الجو حبسته اياماً واسابيع ومن وقف على مرتفع من الارض رأى الجبال بارزة نافذة من خلاله فيرى السماء صافية لخلو الجهـة العليا منه

واما السحاب فهو ضباب كثير العلو فوق سطح الارض يتميز عن الضباب بارتفاعه عنه في الجو وكثيراً ما يتكون من ابخرة ثلجية ولا حصر للصور والاشكال التي يكون عليها وتتقطع السحابة الواحدة الى قطع عديدة تسير في جهات مختلفة وينضم لها غيرها

ثم تتمزق ثانيًا وكثيرًا ما ينفصل السحاب مآ ينزل على الارض مطرًا قليلاً او كثيرًا فذلك الماء هو البخار الذي يحمله الجو

فقال الشيخ وما الذي يفصل ذلك البخار من السحاب حتى يسقط على الارض فقال له قد عرفنا مما سبق انه لا بد لفصل الماء من الهوآ من تبريد الهواء فالبرودة هي التي تفصله عنه والحرارة تبقيه فيه وبانكماش الهواء وانضمام بعضه الى بعض تزداد حرارته وبانبساطه وتمدده يبرد وقد جربوا ذلك بان وضعوا قطعة صوفان في انبوبة مسدودة من احد طرفيها وادخل فيها من الطرف الاخر مكبس فكلما زيد في كبسه انضم الهواء وتناقص وازدادت حرارته فما انتهى الكبس الى الاخر الا وقد انتهت الحرارة فاحرقت الصوفانة فدل ذلك على ما قلنا من ان انضمام الهواء ونقص حجمه يزيد حرارته وبضدها تتميز الاشياء ففي الطبقات العليا من الجوّ تكون درجة الحرارة اقل منها في الطبقات القريبة من الارض لاتساع العليا وقلة البخار فيها فلا يكون بينهما توازن فترتفع طبقات الهواء القريبة من الارض الى الاعلى فتنبسط وتترك ما فيها من الابخرة فتسقط ثلجًا او بردا او مطرًا على حسب شدة البرودة وضعفها فلو هبت ريح فصدمها جبل لم تقف عن سيرها بل ترتفع في الجو وحينئذٍ يقل الضغط عليها وتنبسط وتبرد وتنفصل عن ابخرتها فتصير الابخرة مطرًا ونحوه ومن المشاهد انها عند مصادمتها لنحو غابة يحصل سقوط المطر وعند مصادمتها

لجبل يسقط ثلج ونحوه بحسب زيادة الارتفاع وقلته وتصادم تيارات الهوا بعضها ببعض فوق سطح البحر المالح يحصل منه مثل ما يحصل بمصادمة الاهوية للموانع المارة فسقوط المطر حينئذٍ تابع لحركة الهواء وكل سحابة شاهدناها انما هي تاج لعمود من الابخرة صاعد من الارض الى السماء ثم ان المطر يكون اول نزوله نقطا صغيرة بحيث لو اجتمع منه ثلاثون نقطة لا تزيد عن مليمتر وبسبب تحرك الهوا تتلاطم تلك النقط فيلتحم كل جملة منها وتصير نقطة كبيرة وكلما قربت من الارض كبرت حتى تكون النقطة الواحدة قدر سانتيمتر فاكثر لان النقطة كلما كانت صغيرة لعب بها الريح شمالاً ويميناً فاذا نزلت انضمت الى غيرها وكبرت وزادت ثقلاً بحسب قوة الهواء ولا تنزل في خط رأسيّ بل تكون في نزولها مائلة قليلاً او كثيرًا وقد يشاهد عند سكون الريح سحاب مرتفع ارتفاعًا عظيما وذلك ناشىء عن تبادل حاصل بين السحابة وما تحتها من الابخرة فيقع من الطبقات العليا نقط ما الى اسفل منها فاذا وصلت الى طبقة حارة تبخرت وارتفعت ثانياً وهكذا فيكون بين السحاب والابخرة ذهاب واياب فاذا تغيرت درجة الحرارة في جو السحابة يأخذ شكلها في التغير ومن يتأمل في السما بعد الظهر يرى السحاب يتجمع ويتفرق او يأخذ في الزوال ويتكون عن ذلك صورة بهجة حسنة وارتفاع السحاب وانخفاضه يختلف باختلاف البلاد تبعًا لطقس الجو واتجاه الرياح في جميع فصول السنة

فتارة تكون الرياح قريبة من المساكن وتارة تعلو رووءس الجبال وتارة ترتفع في الجو واكثر ما يبلغ ارتفاعها احد عشر الف متر وخمسمائة واربعين مترًا كما اعتبر بالوسائط الفلكية وذلك يفوق على ارتفاع اعلى جبل في الارض بثلاثة الاف متر وبعض السحاب يرتفع في الجو اكثر من ذلك بكثير وارتفاع السحاب في اوروبا يختلف بين ألفيَ متر وثلاثة الاف فلا يقطع من جبالها الا جبال البيريني وجبال الالب وهذا الارتفاع يكون كثيرًا في فصل الصيف قليلاً في فصل الشتاء ويختلف ايضًا سمك طبقات السحاب فتارة يعظم عظمًا هائلا وتارة يقل عمقه وعلى العموم فتختلف حالته الوسطى في جهات البيريني من ثلثمائة متر الى خمسمائة بحسب البقاع وكثيرًا ما تكون طبقات السحاب متراكمة بعضها فوق بعض بابعاد تقل وتكثر على حسب الاحوال وكمية الامطار الساقطة سنويًا على الارض تختلف قلة وكثرة بحسب الممالك او جهات المملكه الواحدة وبالتجربة قد وجدت مناسبة لدرجة عرض الجهة وارتفاعها عن سطح البحر المالح وانها كثيرة في جهة القطبين قليلة عند دائرة الاستواء وسبب ذلك اختلاف درجة الحرارة وظهر من التجارب العديدة ان كمية المطر بجزائر الانتي تبلغ مائتين واربعة وستين مترًا مكعبًا وبجهة بونباي تبلغ مائتين وثمانية وفي كلكتا تبلغ مائتين وخمسة وفي كاندا من بلاد الانكليز تبلغ مائة وستة وخمسين وفي نابولي من ايطاليا تبلغ خمسة

وتسعين وفي وِنديك واحدا وثمانين وفي لوندرة ثلاثة وخمسين وفي باريز مثلها وفي مرسيليا سبعة واربعين وان ما ينزل بالجبال اكثر مما ينزل بغيرها بسبب ان الجبال لارتفاعها وشدة بردها تجذب السحاب اليها فيساعد البرد تكوين الامطار والناس في البلاد الجبلية يهتدون في معرفة احوال الوقت بالنظر الى شواشي الجبال الشامخة لانها قبيل تغيير الوقت تحيط بها دخنة عظيمة رطبة حاصلة من تراكم السحاب حولها فيعلمون بذلك حالة الجو وكمية المطر في البقعة الواحدة تابعة للارتفاع فقد قدر اهل رصدخانة باريز ما نزل على سطوح الدور وما نزل بساحتها فوجدوا ما نزل بالساحة اكثر مما نزل بالسطح وذلك ان حبات المطر كلما طالت مسافة نزولها انضم بعضها الى بعض فيكبر حجمها كلما قربت من الارض وقد تحدث دوامات هوائية تجمع حب المطر بعضه الى بعض وكذا في مدينة باريز وجد ارتفاع ماء المطر فوق السطوح خمسمائة مليمتر وعلى سطح الارض خمسمائة وستين وفي برلين يزيد النازل في الساحات عن النازل على الاسطحة بنحو التسع وكلما ارتفعت ارض الولاية عن سطح البحر الملح كانت بعيدة عن الابخرة البحرية ولهذا كان ما ارتفع من الجبال في غاية الجفاف ولا يحصل من السحاب الملاطم لسفحها والابخرة الفاعلة في طبقاتها السفلى فعل على الثلج الدائم المتكون بها وقد اختبروا مقدار المطر النازل بالولايات المستوية الارضية باوروبا

والولايات التي بها جبال فوجدوا النازل بالولاية المستوية باعتبار سنة واحدة خمسمائة وخمسة وسبعين مليمتر والنازل بغيرها الفًا وثلثمائة مليمتر واختبروا ما نزل في وادي نهر الران فوجدوه من خمسمائة وستين الى خمسمائة وثمانين مترًا مع ان ما ينزل في جبال الغوج يختلف من الف مليمتر ومائة جزء الى الف مليمتر ومائتين ومما يفعل في درجة الرطوبة بالقلة والكثرة القرب او البعد من الغابات الكبيرة والمياه العظيمة ومهابّ الرياح وجنس الارض التي تمر عليها ولذلك كان ما يقع من الامطار على سواحل البحار اكثر مما يقع في داخل الارض وبالتجربة وجد ان ما يقع في المديريات الواقعة بين نهر الرين ونهر الساوون في السنة الواحدة خمسة واربعون اصبعًا مع ان ما ينزل بباريز لا يزيد عن اثنين وعشرين والرياح الجنوبية والغربية تاتي بابخرة البحر الاطلنطيقي والمتوسط الى اوروبا ولكثرة الغابات واتساعها وعلو الجبال الشامخة يشاهد بجهات نورويج وسواحل افريقا الغربية ضباب مستمر وامطار كثيرة ولعلو جهة مدينة مدريد بالاندلس على سطح البحر الملح كانت في جفاف تام ثم ان الامطار تنقسم الى منتظمة وغير منتظمة تبعًا لكيفية سقوطها في الولايات المختلفة فغير المنتظمة تكون غالبًا في الاقاليم المعتدلة الحرارة بسبب تقلبات الفصول فيهـا مع مناسبة هيئة الارض فيقع منها في الاوقات الحارة اكثر مما يقع في الاوقات الباردة واما المنتظمة

فيبتدئ سقوطها في المنطقة الحارة متى سامتت الشمس الرأس
بتقدمها الى المنقلب الصيفي وتنتهي الامطار متى رجعت الشمس الى
المسامتة الاولى وتكون متوسطة في شهر يوليو الافرنجي وتقوى في
شهري اغسطس وستنبر وتقل في شهر اوكتوبر وعلى العموم تظهر
الامطار وتقوى في فصل الخريف ففي مصر تبتدىء من شهر اوكتوبر
وتستمر الى شهر دسنبر وفي الاقطار التي في عرض ثلاثين درجة
الى عرض خمس واربعين كبلاد اليونان والاندلس والبروانس
من فرانسا يكون اكثر نزولها في فصل الخريف واما في فصلي
الربيع والصيف فتضعف حرارة تلك الجهات بسقوط الندى
الغزير ويقل مطرها وفي الجهات التي من عرض خمس واربعين
الى خمسين كبلاد فرانسا والمجر تنزل الامطار الغزيرة في فصل
الربيع وتكون مدتها قليلة وفي البلاد التي من عرض خمسين الى
خمس وخمسين كبلاد الفلمك والمانيا ينزل المطر ويكثر الضباب
في فصل الخريف والتي من عرض خمس وخمسين الى ثمان
وستين كبلاد الدانمرك وسويد ونورويج اكثر مطرها في فصل الربيع
مدة قليلة ايضًا والتي من عرض ثمان وستين الى عرض سبعين
كبلاد لابوني وسبسبور وكمشكا اكثر نزول مطرها في فصل
الصيف وما ينزل باوروبا ليلاً اكثر مما ينزل بها نهارًا والاقاليم
الموارية على العكس من ذلك وغير المنظمة تقع في غير فصل
الشتا وهي قليلـــة عند دائرة الاستواء كثيرة في الاقاليم المعتدلة

وتكون مدة المطر في هذه الجهات اكثر من غيرها وتكثر الرطوبة في الجو وتكون ملطفة لحرارته بخلاف الاقطار التي يكون زمن نزوله بها قليلاً ودفعة واحدة كالبلاد الحارة وقد استدلوا على ان للبقعة تأثيرًا في قلة المطر وكثرته بما شاهدوه في جهة السنجال حين وجدوا كمية المطر النازل بها في كل السنة اقل مما ينزل بغيرها من البلاد البعيدة عن الاستواء ففي جزيرة كيّن تكون مدة المطر ثمانية اشهر او تسعة وارتفاع ما يسقط منه في السنة مائة وثمانية اصابع مع ان ارتفاع الساقط في جزيرة بوربون تسعة وثلاثون اصبعًا وفي جزائر اللانتي ثمانية وسبعون ويقع اكثره في الزمن القليل وليس في الجهات اكثر مطرًا من سواحل مالابار واركان وجبال حملايا لان اكثر اسبابه موجودة بها لشدة الحرارة وارتفاع الجبال فيصعد من بحر الهند وحده من الابخرة اكثر مما يصعد من جميع الابحر وتسير به الرياح الى سواحل افريقة في سواحل اسيا فاذا مرت بجبل ارتفعت به حتى تصل الى الطبقة الباردة وعند ذلك يتحلل وينزل حتى يملأ الاودية وتفيض منه الانهار وقد قدروا ما نزل بجهة هناك مرتفعة عن المالح بقدر الف وثلثمائة وستين مترًا فوجد بعد عدة تجارب عملت في اربع عشرة سنة ان متوسط ارتفاع المطر سبعة امتار وثلثان في السنة الواحدة وفي بلد اخر من هذه الجهة كان متوسطه في السنة الواحدة خمسة عشر مترا الا خمس متر وذلك مقدار ما ينزل بالاسكندرية في

مدة مائة سنة وفي تلك البلاد مما يلي حملايا كان ارتفاع ما سقط في شهر يوليو سنة الف وثمانمائة وسبعة وخمسين ثلاثة امتار وثلاثة ارباع المتر وفي بعض تلك الجهات لا ينقص متوسطه في سبعة اشهر من السنة عن اثنى عشر مترًا ونصف متر وقد شوهد في هذه النواحي سيل عظيم استمر اربع ساعات فقط فغطى الارض بطبقة من الماء قدرها ثلاثة ارباع المتر واذا نسبت ذلك الى ما يقع على ارض فرانسا وجدته مقدار ما يقع فيها في سنة كاملة وارتفاع ما يقع في سواحل الهند متر واربعة اخماس المتر وما يقع على الجبال الداخلة فيها يكون قدره ثماني مرات ثم انهم بالتجربة وجدوا اللتر الواحد من ماء المطر يشتمل على ثلاثة وعشرين سانتي متر مكعبة من الغاز الذي في كل مائة حجم منه اثنان وثلاثون من الاكسوجين وثمانية وستون من الازوت بعد تنزيل اثنين واربعة اعشار من غاز حمض الكربون

وهذه المقادير تختلف باختلاف الارتفاع ففي الارض المساوية لسطح البحر يكون قدر الازوت والاكسوجين خمسة وثلاثين وفي الارض المرتفعة عنه بنحو الفين وستمائة واربعين مترًا يكون قدر هذين الغازين اربعة عشر فقط وفي الارض المرتفعة عنه بنحو ثلاثة الاف متر يكون قدرها احد عشر فقط وكذا حمض الكربون يختلف قدره في ماء المطر بحسب الارتفاع ايضًا وقد يكون في المطر ايضًا ملح الطعام وذلك فيما يقرب من البرك وسواحل البحر

المالح ومتى سقطت مياه المطر على ارض اثرت فيها الحرارة وتسحب معها في سيرها بواقي حيوانات وحشرات وحشائش فتكون غير صالحة للخزن بخلاف المطر المأخوذ من فوق سطح المالح فانه يصلح للخزن لخلوه من ذلك ولذلك لما حلل بعض الكيماويين ماء المطر في جهات مختلفة وجد فيه مقادير مختلفة من الاتربة ففي بلاد الانكليز وجد فيه من تراب الفحم وقد يوجد فيه مركبات نشادرية كالكربونات والنترات وذلك اكثر مما يكون منها في ماء الانهار وهذه المواد وان كانت سريعة التطاير والصعود الا انها تنزل ثانيا مع ماء المطر

فقال الشيخ سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا فان هذا من الحكم الربانية والاسرار الالهية التي لا يقف على حقيقتها عقل ولا يحيط بكنهها نقل فالانسان وان بحث ودقق واستكشف وحقق فمثله كمثل طائر نقر في البحر نقرة فهو وان روي بها ما اخذ منه مثقال ذرة ويكفي في ذلك دليلاً قول الله تعالى وما اوتيتم من العلم الا قليلاً ومن استنارت بصيرته وخلصت سريرته يرى جميع ذلك مما اندرج تحت مفهوم قوله تعالى ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما انزل الله من السماء من ماء فاحيا به الارض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لايات لقوم يعقلون

فقال الخواجا وازيدك انك اذا تاملت في المطر حال نزوله وجريانه في مجاريه وجدت ذلك شبيهاً بتقطير المآء في الانبيق فان اشعة الشمس تكون كانها الفرن له والبحر الملح كانه الانبيق والجوّ المرتفع كانه تاجه والجهات الباردة من الجوّ وشواشي الجبال الشمالية المغطاة بالثلوج والبحور المتجمدة هي المبرد له والانهر والخلجان والبرك ونحوها هي الاوعية التي تردّ الى المالح جميع ما اخذته منه وهذا مستمر الى ما شآء الله فكلما اندفقت مياه الاوعية في الانبيق تصاعدت ثانياً ورجعت الى الاوعية ثم منها الى الانبيق وهكذا فالمآء الحلو الزلال الذي يشربه المصريون من نيلهم والباريزيون من نهرهم بل وسائر انهار العالم اصله من البحر الملح وانما حلا بتكرير الصعود والهبوط كما ذكرنا لانه يصعد اولاً بخاراً ثم ينعقد سحاباً ثم ينقلب بخاراً ثم مآء ثم ينزل ويجري في مجاريه ثم يعود الى البحر كما كان وهكذا ولذلك شبه بعضهم البحر برجل بخيل لان جميع ما يخرج منه لا بد ان يعود اليه حتى البخار الذي يخرج من الفم فانه يرجع اليه في صورة قطرة مآء

ومن عجيب لطف الله ان الابحر الاستوائية بفعل حرارة الشمس الشديدة على مياهها تسخن وتكون لها من ذلك درجة كافية تحفظها حتى تصل معها الى البلاد الباردة لتلطيف شدة بردها وقبل ان تكون مياه الامطار في الانهر والخلجان تقع على سطح الارض فتكون في المجاري الصغيرة التي في خلالها وتدخل في

الارض الهشة وبين الاحجار وفي جذور النبات وسيقانه وفي هذه السياحة تذيب ما فيها من المواد المعدنية المختفية في جوف الارض ثم تاخذها معها وتوزعها الى انواع الحيوان والنبات وقد تتحد بغيرها فتكون مواد يسميها الكيماويون الادرات او انها تكون في المناقع فتحلل البواقي النامية او تساعد في تعفين المواد النباتية وتخميرها ويتحصل عنها مواد فحمية وليس من دابها الدوام على حالة من الحالات وبعد ما تكون في جسم الحيوان والنبات بالصورة السائلة تخرج منه في صورة بخار وترجع الى الجوّ ومنه ترجع الى سائل او ثلج او بَرَد او جليد ثم تنتقل عن ذلك وتكون بخارا ثم تنتقل الى ان تكون سائلا وهكذا فهي السائل الذي يجري في جذور النبات وعروقه والندى الذي يرى على ورق الشجر والدم الذي يجري في جسد الحيوان والرطوبة التي نحس بها والبخار المحرّك للوابورات والضباب المرتفع من اراضي المراعي وغيرها فهي المنبع الذي ياخذ منه كل حي قوامه فتكون جامدة وسائلة وبخاراً فلا تتغير من صورة من هذه الصور الا لتاخذ ما بعدها فاذا تركت البحر كانت على الارض لنفع الخلق وان تركت الارض ترجع الى البحر فتعلو الى الطبقات العليا من الجو وتنزل الى الطبقات السفلى من الارض وتصاحب الريح وتتبع ميل الارض وتكون في جوفها فتكتسب حرارتها وتخرج منها حامية حاملة من ذخائرها فلا يعوقها الصخر حتى تصقله وفي سيرها تنقل تقاوي النباتات

وبيض الحشرات من ارض الى ارض وتقلب الرمل والتراب والزلط وتقلع الحجر والشجر وتخرق الارض وتهدم الجبل وجميع هذه الاعمال لاسباب دبرتها الارادة والقدرة لبقاء نظام هذا الكون والكلام في شرح ما وصل اليه علم الانسان من ذلك طويل وان شاء الله نجعل بقية الكلام في ذلك بكرةً فوق نهر السين ثم اوى كل الى فراشه وكانت ليلة ماطرة فناموا الى الصباح فاخذوا ملابسهم واشياءهم وتوجهوا الى النهر فركبوا السفينة وكان يعقوب قد اتخذ لهم في مقدمها خزانة فسيحة بامر الخواجا له فدخلوها وبعد برهة اخذت اطراف السفينة وشرعت تسبح فوق المآء واخذت كفات الطارة تضرب في الماء فيحدث فيه زغوة ويزبد والسفينة تسرع في سيرها فصار الشيخ وولده ينظران الى البر والى الجبال والاشجار التي على طرفي النهر ويسرحان الطرف في النهر وما حواليه وخرير المآء يسمع بين الحشائش واحجار البر وتذكر الشيخ ما ذكره الخواجا بالامس وما ابداه من الاسرار والحكم واللطائف التي ترتاح لها النفوس وتطمئن لها القلوب فالتفت لابنه وقال له يابني العلم رأس مال الانسان وتجارة لا يعتريها كساد ولا خسران وبه حياة النفوس وهو اجل ما تحلت به الطروس وبه استنارت البصائر وهو الذي تنافست فيه الاوائل والاواخر ولقد احسن من قال

العلم يغرس كل فضل فاجتهد

ان لا يفوتك فضل ذاك المغرس

واعلم بان العلم ليس يناله

من همه في مطعم او ملبس

واحرص لتبلغ فيه حظا وافرًا

واهجر له طيب المنام وغلس

لتعز حتى لو حضرت بمجلس

اكرمت فيه وصرت صدر المجلس

ان الخليّ من العلوم مقامه

عند النعال لهُ صموت الاخرس

فالعلماء مصابيح الازمنة كل عالم مصباح زمانه وذلك انه لا يرى شيئًا الا بحث عن اصله وسببه وما يؤول اليه امره وما يترتب عليه من خير وشرّ ونفع وضر هكذا دابه وديدنه ما دام حيًا فان مات بقي ذكره واما الجاهل فتراه لا يلتفت الى شيء الا عند احتياجه اليه فيشرب الماء ولا يعلم من امره الا عذوبته او ملوحته ويسقي به الزرع ولا يعلم سبب نموه منه وياكل الثمر ولا يدري من اين اتته الحلاوة واذا مر بنهر عجب من اتساعه وتلاطم امواجه وتغير لونه وفيضانه ولا يبحث عن سبب ذلك فكم من خلق تولد وتلد وتموت على شاطئه وهم على فطرتهم الاصلية من الجهل بخلاف اهل العلم فان احدهم متى وقع بصره على شيء لا يهدأ له سر الا ان وقف على سره وكشف حقيقة امره فمن

ذلك النهر الذي نحن فيه فان اصله كما قال حضرة الخواجا قطرات تصاعدت الى السماء ثم نزلت متفرقة فاجتمعت حتى صارت نهرًا يجري على وجه الارض يقتلع ما قابله من نبات وشجر واذا مرّ بارض تلوّن بلونها فتارة يكون اصفر او الى الصفرة اقرب وتارة يكون اخضر او الى الخضرة اقرب وكلما قرب من مصبه وهو البحر الملح تشعبت مجاريه وربما رجعت الى خلف ثم استقامت وكما تختلف الوانه بحسب الارض التي يمر بها كذلك تختلف اسماؤه على حسب ما على شواطئه من الجزائر والعمران واذا جرى رويت منه الاشجار وشربت منه الزروع فضلاً عن الاستعانة به في الاسفار وتقريبه ما بعد من الاقطار فسبحان من دبر الكون بحكمته وسخر ما شآء كما شاء بقدرته لا اله الا هو الفرد الصمد المنزه عن الشريك والمعين والولد

ثم التفت وقال للخواجا ارجو من جنابكم الاطناب في هذا الباب

فقال ان ثلاثة ارباع الدنيا مغمورة بالماء ولكن منه المغذي يرتوى به ومنه غير المغذي فالاول لا رائحة له وانما فيه جزء من الهواء ذائب فيه وان طبخ به الخضراوات نضجت وصلحت وان حلل به الصابون تحلل سريعًا وان غلي لا يتكدر وان قطّر لا يرسب في اسفل انائه الا شيء قليل من مواد جيرية تلزم لتكوين الحيوان ونموه فان كان فيه جبس فلا تطبخ به الخضراوات لان

الجبس حينئذٍ يلتف عليها كالغلاف بعد تصاعد الماء فيمنع نضجها ويمنع ايضا ترغية الصابون واما الماء الذي لا يروي فليس فيه من الهوا الا شي يسير وبه مواد نامية متحللة فيه وذلك كماء البحر المالح وماء غالب الابار وماء البرك الراكدة واصفى المياه وانقاها ماء المطر الا انه لا يصلح للغذاء لخلوه عن القدر الكافي من الاملاح والهواء الذي يجعله سهل الهضم فبناءً على ذلك نقدر ان نحكم بان جميع المياه الموجودة غير نقية فاذا كان الماء متكدرًا بالطمي والاتربة ونحوها ترك مدة حتى يروق بنفسه او بشيء يضاف عليه فان ظهر له رائحة كريهة حاصلة عن تحليل بعض المواد النامية وضع فيه قليل من فحم العظام المكلسة في افران مخصوصة داخل اوانٍ مقفولة فتشرب تلك الروائح وتلتقط ما فيه من المواد التي ينشأ عنها ذلك وتخلص الماء وتجعله نافعًا للاستعمال ويلزم تغيير الفحم متى ضاعت خاصته ومن المياه ما يشتمل على معادن متنوعة وغالبًا لا يشتمل الماء الواحد على اكثر من ثمانية او سبعة منها ولكن الحكم لاكثرها فيه ظهورًا فيسمى الماء باسمه كالمياه الكبريتية تعرف لكثرة الكبريت فيها برائحة تشبه رائحة البيض المذر واذا غمس فيه شيء من الفضة اسود والمياه الحديدية طعمها كطعم المداد ومنها ما يكون حارًا ومنها ما يكون باردًا وتختلف حرارة الحار منها بسبب بعد الطبقة الارضية النابع منها عن سطح الارض وعدم بعدها

فقال ابن الشيخ فالماء الذي تستعمله الاطبآ اي نوع هو

فقال الخواجا ذلك ليس منها وان كان لا يخرج عنها لان لهم فيه قبل استعماله اعمالا وذلك بان يضعوه في معوج من زجاج ثم يوقدوا عليه نارا فيصعد منه بخار فيجمعونه في زجاجة موضوعة في اناء فيه ماء بارد فمن ترك بعضه على بعض وفعل البرودة عليه ينحل الى الماء المطلوب ويسمى بالماء المقطر وهذا اذا كان اللازم منه قليلاً فان كان كثيرًا قطروه بالانبيق وهو عبارة عن اناآء من نحاس له غطاء مثقوب ركب على ثقبه ماسورة قد سلطت على كرة من زجاج موضوعة في ماء بارد وفي تلك الكرة ماسورة حلزونية تدور على نفسها داخل ذلك الماء البارد فحين يصل اليها البخار ينقلب ماء فيصب في اناء اخر وبقرب الالة ماسورة اخرى لتغيير الماء اذا ضعفت برودته فالماء المقطر خالٍ عن الرائحة والاملاح والهواء ولذلك يكون ثقيلاً على المعدة ولو القي فيه سمك لمات وبالجملة فلا حصر لما اودع في هذا الجوهر اللطيف من الاسرار

فقال الشيخ وحسبنا في ذلك قول الله تعالى وجعلنا من الماء كل شيء حيّ حيث لم يقيد الماء بعذب ولا غيره ولا الشيء بانسان ولا غيره

فقال الخواجا ومن وصل الى شواشي الجبال الشامخة الموزعة فوق كرة الارض يطلع على الحكم العظيمة التي اودعها الباري

سبحانه في هذا الجوهر العظيم ففي شواشي تلك الجبال تكون منابع الانهر والخلجان الجارية في جميع الارض وهي عبارة عن بحائر صغيرة بين جبال فيجتمع في تلك البحائر ما ينزل من السماء وما يذوب من الثلج الدائم المكسوة به رووس الجبال الشامخة فترى للجبال حكمة تجمع المياه التي استعارتها السماء من البحر بواسطة الشمس وحكمة ردها الى البحر ثانيًا بواسطة الانهر والخلجان ونحوها فوضع الجبال على الارض تابع لقاعدة ثابتة وقانون لا يختل به نظام العالم فترى سير الانهر دائمًا تابعًا لسير الجبال فسلاسل الجبال الاصلية من الدنيا القديمة خط سيرها من الغرب الى الشرق وفروع الجبال الخارجة عنها من الشمال الى الجنوب فنهر الفرات وخليج العجم والنهر الاصفر والنهر الازرق وسائر انهار الصين اتجاه سيرها من الشرق الى الغرب وانهر اوروبا وافريقا واسيا والبرك والابحر المتوسطة كبحر الروم والبحر الاحمر تسير من المشرق الى المغرب او من المغرب الى المشرق ولم يخرج عن ذلك الا نيل مصر وبعض خلجان ببلاد المغاربة وماء المطر الذي ينزل على سطح الارض منه ما تشربه الارض ومنه ما تبتلعه فيجري في جوفها الى ان يصادف طبقة لا يقدر على النفوذ منها فينبع سطحها وبتجمع ويتكوّن منه ماء متسع فاما ان ينصرف الى البحر او الى الانهر او يبقى في هيئة برك تفعل عليها احوال موضعية تردها الى سطح الارض وهناك انهار وخلجان تكون اولاً على سطح الارض

ثم تغوص في باطنها بعد مسافة عظيمة من سيرها ومنها ما يختفي ولا يعلم امره ومنها مـا يختفي مسافة ثم يظهر كنهر جوديانا ببلاد الاندلس يختفي في ارض مستوية مكسوة بالعشب والمرعى ثم يظهر ثانيًا بعيدًا عنهـا ونهر الموز في فرانسا يختفي بالقرب من بلدة باروى ونهر الدروم منها ايضًا في ولاية النورماندي يختفي في وسط ارض مستوية وينصرف في جوف الارض في فتحة قدرها عشرة امتار وأمثال ذلك كثيرة ومن البحائر ما يجف في بعض الازمنة ويغور ماؤه في جوف الارض ويزرع موضعه ثم في الوقت المعين ينبع الماء فيملأها ثانيا كما كان كبحيرة كيركينتز من ارض الكاريئول وقدرها فرسخ عرضا وفرسخان طولاً فتكون في فصل الشتا غامرة بالماء وفيها من السمك والسفن ما لا يحصى فاذا جاء الصيف تفتحت لها عيون من اسفل الجبال المحيط بها فتبتلعهـا بعد اربعة اسابيع وتزرع ارضها فاذا تم الحصاد تفتحت تلك العيون بعينها وجرى المـاء حتى تمتلىء وتعود كما كانت وكان بالقرب من قرية سبليه في ولاية الانجو عين ماء قطرها من خمسة امتار الى ثمانية كانت تغور تارة فتظهر معها انواع شتى من السمك وسطح الارض مركب طبقات بعضها فوق بعض فيها مجارٍ للماء متنوعة على ابعاد مختلفة وقد قابل المجس بقرب ناحية دبيب في قرية سنيّقولا مجاري مياه تقرب من ماء يجري مفصولاً بعضها عن بعض بطبقات الارض ووجدوا بهـا اغصانا عليها ورقها وهذا

دليل على انها لم تمكث زمنا في باطن الارض وان للماء الذي على وجه الارض اتصالاً بما في باطنها وقد يحصل في بعض العيون زيادة ونقص ولكن لا تظهر الزيادة الا بعد نزول سيل في جهات بعيدة فيعلم ان تلك الزيادة من ذلك السيل ويختلف سير الماء في جوف الارض سرعة وبطئًا وكلما بعد عن سطح الارض اشتدت حرارته فلذا تجد ماء العيون يتفاوت في الحرارة ويختلف ايضا في كثرة المواد الذائبة فيه وقلتها والان قد استعمل الاطباء كثيرا منه في معالجة علل مختلفة

وقد بلغني عن بعض السياحين انه رأى عيونًا في اسلنده تتفجر من باطن الارض فتتدفق دفقات بين الدفقة والاخرى نحو نصف ساعة وكل دفقة عمود من الماء غلاظه نحو ثمانية عشر قدما فيرتفع في الجو نحو مائة وخمسين قدمًا ثم ينحني وينزل على الارض فيختفي في جوفها فتنفتح لها عيون فتبتلعها وقبل تدفقها يسمع لها دوي وقرقعة وقد ينتشر فوق تلك العيون من الابخرة سحابة حاصلة من تبخر الماء وفي زيلندة الجديدة لا حصر للعيون التي تدفق الماء والبخار وبعضها عظيم جدًا تملأ الدفقة منه حوضًا محيطه نحو ثمانين مترًا فمن كل ذلك يعلم ان الماء كما يجري على وجه الارض يجري في باطنها وان له اعمالاً في باطنها كما له في ظاهرها فاذا كان على وجه الارض دخل في اخليتها ومسامها فان تسلطنت عليه البرودة جمد واثر في الصخور فيفصلها عن الجبال

ويلقيها في الوديان وفي الارض اللينة يذيب المواد القابلة للذوبان ويأخذها معه في سيره وبملامسته للصخور الهشة والاحجار اللينة يدخل بين جواهرها فيحللها ويزيل تماسكها فتتفتت وتنعدم وتنتقل اجزاؤها الى غير مواضعها والحصى والاحجار المسحوبة مع الماء تنبري بملامستها لقاع مجرى الماء واحتكاكها مع ما يوجد به من الحجارة وغيرها ودائمًا تأخذ في صغر الحجم وقلة الوزن حتى تدق وتعلق بالماء فالصوان وجميع انواع الاحجار مهما كان تماسكها وشدة صلابتها لا تقاوم قوة الماء ويقلب الماء في سيره المستقيم المواد العائمة فيه وبملامسته للبرور يسويها وينظمها وبدخوله في اخلية الاجسام ومسامها يفتتها وكذلك اذا انتقل الماء من السيولة الى الجمودة ومن كل هذه الامور تتغير صورة الارض ولا ريب في ان الماء يأخذ معه كل ما اذابه من الاحجار لما هو مقرر من ان زنة الشيء في الماء اخف من زنته في الهواء وقد اثبت ارشميد الحكيم ان الجسم اذا وضع في الماء خف بقدر زنة الماء الذي حل الجسم محله

وحيث كان الثقل النوعي لكثير من الاحجار لا يزيد عن ضعف الثقل النوعي للماء علمنا ان كل ما يأخذه الماء معه ينقص من ثقله قدر نصفه

وقد اختبروا الانهار بالنسبة لما فيها من المواد الطينية فوجدوا في كل مائة وستين جزءًا من وزن ماء نهر (البو) جزءًا من الطين وفي كل مائة جزء من ماء النهر الاصفر جزءًا من

الطين واما نهر الكنج الذي يصب في الملح وقت فيضانه ففي كل ثانية من الماء الفان وثمانمائة وخمسون طولوناته فيصب من الطين في كل عشرة ايام ما قدر ضلعه الف متر واما في غير وقت فيضانه فيقذف هذا القدر في ثلاثة اسابيع وقد قدروا حجم ووزن ما يلقيه هـذا النهر في كل سنة فوجدوه قدر الهرم المصري الكبير باثنتين واربعين مرة وما يلقيه في اربعة اشهر فيضانه قدر اربعين هرماً وهذه المقادير التي يلقيها هذا النهر في البحر ولا يشاهدها الانسان تحتاج في نقلها الى مائة سفينة كل سفينة تحمل مليونا واربعمائة الف طولوناته وذلك بالنسبة لما يقذف به هذا النهر في وقت الفيضان فما بالك لو اضيف الى ذلك ما يقذفه في السنة وكذا ما يقذفه كل نهر وخليج من الانهر والخلجان الموزعة على سطح الارض فان ذلك يوقع الفكر في الحيرة ويحقق ان الماء من آيات الله القوية الموكول اليها تغيير احوال الارض واوضاع الخلق

وحيث كانت مياه جميع الانهار مجمعة من جهات مختلفة بعضها على سطح الارض وبعضها خفي يجري تحت الارض فيلزم ان تشتمل المياه على مواد كذلك ذائبة فيها كالجير والجبس وانواع الاملاح كالمنيزيا والسلجم وتراكيب حديدية وغيرها وبانصباب تلك المياه في البحر تتغير ملوحته وتضر بحياة ما فيه من الحيوانات ان لم يكن هناك من حكم الله تعالى ما يمنع ذلك ويبقي له حالته

الطبيعية وتلك الحكم اودعت فيما ينبت في قاعه وشواطئه من النباتات فانها تاخذ الاملاح المعدنية وتقصرها على نفسها فيتخلص منها الماء ويكون على حالته الاولى موافقًا لطبيعة ما فيه من الحيوانات

وحيوانات المحار والشعوب لا تتغذى الا من المواد الجيرية فبعد ان تاخذها في جوفها وتسد بها جرعتها تقذفها في البحر محارًا وشعوبًا فانظر الى نقط المطر الصغيرة الواقعة فوق قمم الجبال في سيرها كيف تحمل المواد الجيرية وغيرها لتكون طعمة للحيوانات الاخطبوطية الصغيرة ثم تقذفها تلك الحيوانات من اجوافها فتجعلها مسكنًا لها ثم تتراكم شيئًا فشيئًا فتصير حجرًا ثم شعبًا الى ان تصير جزيرة وتكسى بالنبات ويستحوذ عليها الانسان فيكون منه مسكنه وقوته

ثم ان اندفاع مياه الامطار يختلف قوة وضعفا باختلاف عظم الانحدار وقلته وفي اندفاعها قد تقلقل الصخور الكبيرة وكثيرًا ما تسحب معها احجارًا قدر الحجر منها متر مكعب فاكثر فمن الحجارة ما يتراكم بعضه على بعض ومنها ما ينحدر مع الماء حتى يستقر في اودية بعيدة ومنها ما يجره السيل حتى يلقيه في البحر فيفتته حتى يصير رملاً فيدفعه الموج الى الشاطئ او الى الجزائر فيكون في وسطها او في سواحلها وكثبان الرمل التي نشاهدها في السواحل انما هي حاصلة من الصخور التي جلبها السيل من الجبال البعيدة

وفي الدنيا الجديدة انهر عظيمة العرض تجري في ارض غير

مستوية وتنحدر من المحلات الشامخة بسرعة شديدة واهل تلك البلاد لا يخشون الملاحة فيها وفي كثير من الجهات يفعل تيار الماء على الارض فياخذ معه الطين منها وفي سيره يتلف الشواطىء والبرور وياخذ فيه الطين بالتدريج حتى يصير نهرًا من طين

وفي سنة ١٨٥٢ شوهد تيار من الطين في جهة جبال الالب فكان اسود اللون قليل الماء وانصب في نهر الرون فاوجب فيضانه

وكثيرا ما شاهد السياحون من ذلك تيارات في بلاد البيرو وجاوى حتى صارت طبقة جديدة على وجه الارض وقد تجمد انهار البلاد الباردة فينحبس فيها كثير من الاحجار وغيرها وينتقل معها حيث سارت

وفي كثير من الانهر توجد شلالات مختلفة ينشأ عنها نقل المواد الترابية وغيرها وتغير شكل الاراضي فمن ذلك انهم رأوا قطعة الثلج طولها سبعة امتار فكسروها فوجدوا في جوفها حجرا ضلعه نحو متر

ومن ذلك نهر النياجارا بامريقة الخارج من بحيرة ايريه فانه بعد اثنى عشر فرسخًا منها ينصب من علوّ في منخفض عظيم الانخفاض وينحدر ويسيل حتى يختلط ببحيرة اونتاريو وهناك ينقسم بجزيرة الى هدارين عظيمين يسمع لدويهما صوت كصوت الرعد فياخذان ما قابلهما من حجر ومدر فبعضه يرسب في مجراها

وبعضه يلقيه الماء على الشاطئ فيتراكم كالبناء فانظر كيف تسلطن الماء على ما انخفض وما ارتفع وفرق ما كان مجتمعًا وجمع ما كان متفرقًا فسبحان من خص ما شاء بما شاء وعمّ باحسانه من احسن ومن اساء ثم لا يخفى ان جريان الماء بهذه الكيفية يوجب غور مجراه وتاخر المصب عن موضعه

وقد شوهد سنة الف وثمانمائة وعشرين ان مصب نهر نياجارا المذكور تأخر عن موضعه الذي كان فيه منذ خمسين سنة نحو اربعين مترًا فلو فرض ان التاخر في الماضي كان على هذا النسق كانت مدة حفره للعشرة الاف متر التي حفرها نحو عشرة الاف عام وان كان لا يقال ذلك الا بعد علم ما كان عليه الوادي في مبداء امره نعم ان استمر التقهقر على هذا النسق امكن معرفة الزمن الذي كان يصب فيه ببحيرة ايريه وان استمر الحال على ذلك فعمّا قريب تجف البحيرة المذكورة لان غاية عمقها لا يزيد عن ارتفاع الشلال ومن هذا القبيل نهر زنبيز بافريقه لان به شلالات مرتفعة جدًا يسمع لمائها دوي من بعيد ويرى على النهر بخار ورغاوي ترتفع وتنخفض وعرضه الف وستمائة متر فاذا وصل الى محل الشلالات تقطع وخرج من بين الصخر وهبط الى مكان عميق حوله جبال فيكون للماء حينئذٍ دوامات وتتلاطم امواجه فيسمع لها صوت مزعج ويصعد منها عُمُد من الماء بيضاء القواعد سوداء الرؤوس فاذا وصلت تلك العُمد الى اعلي الصخور المحيطة به

انحدرت في مضيق هناك مع السرعة الشديدة والمزاحمة فمن تلاطم المياه ترى فوق الصخور سحابة من الزبد والرغوة وبسبب تراكم الصخور في ذلك المجرى الضيق جدًا ترى المزاحمة والملاطمة تكثر وتزداد فيرتفع الماء عن قاعه ويفيض على الشواطىء وتارة ينحبس في تلك الفوهة ويفعل في قاعها مع الشدة فيحفرها ويقلقل صخورها وبتمادي ذلك يتسع المجرى

وفي ارض السينيجال شلال نهر فيلو فان ماءه ياخذ معه حجارة حمراء من حجارة شواطئه ومن كثرة تقلبها فيه وشدته واستمراره يؤثر فيها ويصنعها على صور مختلفة فقد راوا على شواطئه في وقت التحاريق احجارًا مثقوبة واحجارًا تشبه الصور والتماثيل واحجارًا عليها رسوم تشبه المعابد وصور حيوانات واشجار حتى اغتر بذلك العبيد القاطنون هناك وغلبت عليهم الاوهام الفاسدة فعبدوها ويوجد ببلاد سويجرة وجبال البيريني مصاب عجيبة الطفها شلال نهر الران القريب من شافوز والطف من ذلك الاثنا عشر مصبا النازلة من جبل باستدارة تعرف باستدارة جوارانى وهي عبارة عن حائط في شكل قوس ارتفاع دائره نحو الف ومائتي قدم وفي اعلاه الثلج دائما وفي خلاله اثنتا عشر فتحة كالطاقات تسيل منها المياه بالملامسة للحائط فلا يسمع لها الا صوت لطيف مع انها نازلة من مسافة اربعمائة واثنين وعشرين مترًا فاذا هب عليها النسيم لعب بها فيكون لها عند ذلك روية تسر الناظر

وتشرح الخاطر ومن اعمال الماء ايضاً مـا يعمله في بعض السنين وهو انه اذا فاض من الثلوج او الامطار والسيول يعلو البرور والشواطىء ويهجم على اراضي الوديان ويكسوها بطبقة منه ولا يرحل عنها الا وقد ترك فيها طبقة من الزبد او ما كان اتى به من الطين ونحوه وبتوالي ذلك ترتفع الارض او قاع البحيرات وبجوار المالح تحدث ارض جديدة تزيد بالتدريج بما يلقيه البحر من جوفه فيها فتسكنها الناس وتكون مديرية في ولاية او ولاية كاملة جديدة يستحوذ عليها الناس وتكسى رونق العمارة بالمزارع والمباني والمنشآت الفخيمة وما يحدث من المواد الراسبة من المياه ثلاثة أنواع من الاراضي الاول في قاع البرك والثاني في الابحر المتوسطة والثالث في افواه الابحر عند مصبها في المالح وقدر الطين الراسب من نهر الرون عند مصبه كبير جداً حتى ان مدينة برتوس بعد ان كانت على شاطىء بحيرة جنوه قبل الان بثمانية عشر قرناً صار بينها وبينه نحو الفي متر وكل حين تاخذ في الزيادة بما يلقيه النهر في البحيرة وفي الامريقا الشمالية في ارض كندا يرسب من البحيرة العليا التي هي اكبر بحائر الدنيا وهي قدر سعة اوربا بتمامها كمية عظيمة كل سنة من المواد فطمت ارضها واتسعت واستمرت آخذة في الزيادة والاراضي التي تتكوّن في مصاب الانهر تختلف بحسب الانهر فنهر الرون كوّن من رسوبه ارضا متسعة عند مصبه في البحر الرومي ويمكن قياس تلك الاراضي ومعرفة مساحتها من الاثار الموجودة الى يومنا

هذا وذكرها المؤرخون فمن ذلك برج تنيومين الذي كان بناوه سنة ١٧٣٢ من الميلاد فانه كان فوق البحر فصار بينه وبين البحر الان الف وستمائة متر وكذلك نهر البو ونهر الاريج اللذان يصبان في البحر الادرياتيكي فقد حصل عن مصابهما اراضي متسعة حتى ان بعض المين التي كانت تقف عندها السفن زمن اغسطس رُدمت بالطين وصارت مدينة بعيدة عن البحر عدة فراسخ وكذلك مدينة سبينا وكانت قبل الميلاد على شاطئه فصار الان بينه وبينها نحو اربعة فراسخ وخليج ايزوترول فانه تحوّل عن مجراه الاصلي وسلك طريقًا في غربي مجراه الاصلي بنحو فرسخ وامثال ذلك كثيرة

وهناك انهار لا تتحول عن مجراها ولكنها برسوب الطين في نفس المجرى تأخذ في العلو والارتفاع وترتفع شواطئها فيكون النهر دائمًا منحبسًا فيها كنيل مصر ونهر المسيسيبي ففي وقت الفيضان يكون سطح مياه النهر اعلى من سطح الارض بحيث لو انكسر جوفه لغرقت الارض وبسبب كثرة ما به من الطي يرسب على سطح الاراضي طبقة منه فتعلو بها كل سنة وذلك هو السبب في ضياع كثير من الاثار القديمة والمباني فلو كان انصباب الانهر واقعًا في البحر المحيط عوضًا عن انصبابها في الانهر المتوسطة لدخل البحر الملح في الانهار بالمد والجزر الى بعد عظيم من النهر فلا يتمكن النهر من احداث اراضي بقرب مصبه لان البحر ياخذ حينئذٍ جميع ما تأتي به الانهر من المواد ومن تمادي هذا الفعل يأكل مصب

النهر شيئاً فشيئاً ويدخل المالح في الاراضي ويتكون عنه خليج كبير ومينا عظيمة وقد يكون النهر قوي السرعة والحجم ويدافع عن مواده الراسبة في مصبه الا انها تتكون على التدريج ارضاً وتدخل في البحر كما شوهد ذلك في مصب نهر الكنج فانه تولد منه في البحر المالح لسان من الارض طوله نحو ثمانين فرسخا في عرض اثنين وسبعين وفي خلاله خلجان مالحة كبيرة وصغيرة وصار ارضا تأوي اليها الوحوش وكما ان الانهر تكسب الارض خصوبة وعمارا واهلها ثروة كذلك قد يحصل منها القحط وغلاء الاسعار وخراب البلاد وهلاك العباد وذلك اذا زاد فيضانها عن حده المعتاد وسبب الفيضان اما كثرة السيول واما الزلازل التي تنقلها عن مواضعها واما ذوبان الثلج الحابس لمستودع عظيم من المياه وكثيرا ما شوهد ان السيول تكسو الارض الخصبة بالاحجــار والزلط والحصى وجذوع الشجر ونحوه فتصبح قحلة بعد خصوبتها ومثل ذلك يحصل من ذوبان الثلوج وتيارها واهل كل بقعة تعلم اسباب فيضان نهرها ولهم طرق ووسائل لوقاية بلادهم من مضاره وتحصيل منافعهم من فيضانه

ومن عجيب فعل الماء ان منه ما يقلب كل ما القي فيه سواء كان حجرًا او نباتًا او حيوانًا او غير ذلك

فقال الشيخ واين يوجد ذلك وهل تخرج تلك الاشيا عن حقيقتها الاصلية عند صيرورتها حجرًا فقال له الخواجا اما وجود

هذا الماء فكثير واما انقلاب الحيوانات وغيرها فقد كثر فيه كلام المتقدمين والمتأخرين فمنهم من زعم انها تمسخ وتنقلب حقيقتها ومنهم من قال ان تغيرها ليس الا في ظاهرها فقط وهي باقية على حقائقها وهذا هو الموافق للعقل لان في تلك المياه مواد جيرية مكيفة بحيث لو لمست شيئا لصقت به والبسته ثوبا غير ثوبه وعلى طول الايام تستحجر تلك المواد ومن هذا القبيل ما وجد بعيون نابعة جهة كليرمون وسانتالبر وسانتنكتير من فرانسا متى ألقي فيها شيء كسي بمادة جيرية على قدر صورته ثم استحجر

وفي اسيا الصغرى بمدينة هير وبوليس عين بسفح الجبل من هذا القبيل يتكون عنها شلالات بسفح الجبل وكذلك بعض مياه الامطار التي تبتلعها الارض متى قابلت فجوة في الارض او مغارات دخلت فيها وحدثت عنها اشكال عجيبة وسبب ذلك ان الماء يكون محملاً بحمض الكربون فيصادف في طريقه مواد جيرية فتحللها وتاخذها معها فمتى انصبت في مغارة او فجوة صادمت الهوا الجوي فينصاعد حمض الكربون وترسب المواد الجيرية في هيئات كثيرة وفي بعض المغارات الطبيعية يشاهد في سقوفها اشكال على هيئة الابر نازلة الى اسفل وهي حادثة من ماء معدني نفذ في خلال احجارها فيميل الى السقوط نحو ارضها لكن يبقى معلقا زمنا قبل السقوط وفي زمن تعلقه يفعل عليه الهوا الموجود في المغارة فيتبخر ويتخلص حمض الكربون وتبقى المادة

الجيرية وكلما نزلت نقطة حصل لها مثل ما حصل لما قبلها فيزداد بذلك الحجم والارتفاع وبعد زمن تكون تلك النقط في هيئة ساق ريشة طائر قاعدتها وهي ما غلظ منها بسقف المغارة وراسها نحو ارضها وبانضمام هذه الصور الى بعضها يكون لها هيآت واشكال لطيفة وبعد مدة ينسد الثقب ويسيل الماء عليها من ظاهرها بعد ان كان يسيل من باطنها وتصير مخروطية بعد ان كانت اسطوانية وما نزل منها الى الارض يتشكل باشكال تعلو فوقها وتكون مقابلة للاولى منها ما يكون طويلاً ومنها ما يكون قصيرًا غليظا او رقيقا وبعضها يتصل بالاولى او يقرب منها حتى ان من لا خبرة عنده بذلك اذا دخل تلك المغارات ورأى تلك العمد على هذه الهيئات ظن ان ذلك من اعمال القدماء الذين محيت اثارهم وغابت عنا اخبارهم وامثال ذلك كثيرة منها ما هو في مغارات جبال البيريني قرب بيزنسون من فرانسا ومنها ما هو بجزائر اليونان بمغارة انتباروس ومغارة حان ببلاد الفلمنك ومغارة ارسي في بلاد سفوا ومغارة كردال ببلاد الانكليز وبالمديرية التي بها مغارة حان نهير صغير يجري الى ان يصل جبلاً شاهقا هناك فيسير تحته الفا ومائتي متر ثم يظهر صافيا لا كدورة فيه بعد ان كان محملاً بالطين والمواد الارضية فالمواد التي كانت فيه شربتها الصخور التي مر عليها فكانه في سيره يمشي فوق تلك المغارة وهي مركبة من اثنين وعشرين عنبرًا

عبارة عن مغارات واولها تحت الارض بنحو خمسمائة قدم وطولها
مائتان وعرضها ثلاثمائة وخمسون يقولون ان سبب تلك العنابر
زلازل حصلت من قديم الزمن وفي قاع بعض البرك المعدنية
حجارة عجيبة اصلها رمل يرتفع عند طغيان الماء فتلتف عليه المواد
المعدنية فيثقل ويقع في القاع وياخذ في الكبر بما يرسب فوقه منها
وبعد مدة يصير صخورًا ضخمة عبارة عن تجمع حجارة كروية
كما راءوا ذلك في بركة ويشي وكرلسباد وفي تيفولي قرب رومة



المسامرة (١١٨)

فسحة خارج باريس

وبينما هم في الحديث وقفت بهم السفينة فنزلوا واحضر يعقوب
لهم عربة فركبوا وسارت بهم وسط غابة واسعة ارضها غير منتظمة

الى ان وصلوا مدينة عالية البنا واسعة الارجآء تشبه باريز في طرقها وحوانيتها واسواقها فسال الشيخ عنها فقيل له انها تسمى باللغة الافرنجية فنتين بلُو اي العين الزرقاء ولها شهرة عند الامة الفرنساوية وذكر في تاريخهم لما فيها من الاثار الغريبة ثم وصف الخواجا لسائق العربة المحل الذي يقصدونه فسار حتى وقف ببابه وكان صاحب المنزل غائبًا فخرجت لهم زوجته وقابلتهم بالبشر وحيّتهم وادخلتهم الى محل الجلوس فاجلستهم وامرت لهم بالقهوة ثم ارسلت الى زوجها فحضر فسلم عليهم ورحب بهم وزاد في اكرامهم وقال للخواجا لقد طوقتني مننًا لا اقوم بشكرها حيث شرفت منزلي بحضرة الشيخ وولده فاجابه الخواجا بكلمات تستجلب المحبة وتجري في العادة بين الاحبة وكان ذلك كله باللغة الفرنساوية فلم يفهم الشيخ منه شيئًا فلما رأى صاحب المنزل عدم فهمه لكلامه حول الكلام الى اللغة العربية الا انها بلسان اهل المغرب لانه اقام بالجزائر عشر سنين فلما سمعه الشيخ قال للانكليزي لقد قلدتني قلائد الامتنان اذ عرفتني بمن يعرف هذا اللسان فقال له الخواجا هذا بعض ما يجب علينا وسنرى منك في بلدك ما تراه منا هنا فتبسم الشيخ وقال لانت اعلم مني باحوال بلدي

ثم التفت الى ابنه فرأى سيدة البيت تتكلم معه ايضًا باللغة العربية فقال لزوجها اظن ان الست كانت معك حين كنت بالجزائر فقال لا ولكنها ولدت بمصر ولم اتزوجها الا بعد

خروجي من العسكرية ورجوعي الى بلدي مرسيليا وهي اعلم باللغة العربية مني فقال لها هل كانت اقامتك بالقاهرة نفسها او بقرية من قراها فقالت كانت ولادتي باسكندرية وكانت بها اقامتي الاّ ان والدي كان في فصل الشتاء يتوجه الى مصر وياخذنا معه فنقيم بها مدة الشتاء بسبب متجر كان له وكثيرًا ما سافرت معه الى دمياط والمنصورة وطندتا والمولد الاحمدي وسافرت معه مرة الى الوجه القبلي ورأيت الاثار القديمة التي باسنا وادفو والكرنك فقال لها الشيخ لانت بارض مصر اعلم مني فاني لم اسافر الى الجهات القبلية بل يظهر ان علمك بتلك البلاد اكثر من علم اهلها بها فقال زوجها وكذلك كان لها عليّ حق التعليم فاني ما تعلمت الخط العربي ولا المطالعة في الكتب العربية الا منها لاني حين خرجت من العسكرية ببلاد الجزائر كنت لا اعرف الا الكلام المتعارف دون القرآءة فقال الشيخ وحينئذٍ تعرف الست القرآءة والكتابة فقالت نعم كان والدي حال صغري يرغب في تعليمي اللغة العربية فاحضر لي معلمًا فكان يأتيني كل يوم فعلمني القراءة والمطالعة وقرات عليه القران والاجرومية وشرح الشيخ خالد في علم النحو وعندي بعض من كتب العربية بخط اليد ساطلعك عليها وكان معلمي عليه الرحمة بارعًا في فن الخط فتعلمت منه الثلث والرقعة والنسخ ولكن الان ضاعت مني القاعدة ومع ذلك اكتب خطا مناسبا واغلب مـا اكتبه هنا الخط

الفرنساوي فقال الشيخ هذا من اعجب المصادفات وانسر لذلك واكثر من شكر الخواجا على تعريفه بهم فقال صاحب البيت ان فرحنا بك اشد من فرحك بنا فاني مولع بحب مصر واهلها وكثيراً ما تحدثني زوجتي باخبارها فتزداد رغبتي في التوجه اليها ولا بد ان شاء الله ان نسافر اليها ونجتمع هناك فان الست مشتاقة الى زيارة قبر اخ لها مدفون هناك بل كلما جاء الشتاء واشتد البرد وتجرّدت الاشجار من زينتها وكسيت غصونها بالثلج تحنّ الى مصر وطيب هوائها وتذكر كثرة خيرها وقناعة اهلها وما زالوا يتحادثون في هذا المعرض حتى حضرت المائدة فاكلوا ثم دخلوا البستان وطافوا في نواحيه فكانت الست تتكلم مع ابن الشيخ فتارة تصف له ما يستغربه من الشجر والنبات وتارة تحادثه في مصر واحوالها الى ان رجعوا فقال صاحب المنزل للشيخ لا بأس ان تستريح هنا من وعثاء السفر واخذ بيده وادخله غرفة مهيأة وقال لهُ كن عندنا كما تكون في بيتك وها هو انطوان الخادم تحت امرك وطوع يدك ونادى انطوان وامره بطاعة الشيخ في كل ما يريد وكان يعرف اللسان العربي تعلمه بالجزائر فشكر الشيخ هذا الصنيع ودخل الغرفة ونزع ثيابه وطلب ماء فتوضأ وقام فصلى ثم نام فلما اصبح دخل عليه ولده وقبّل يده كعادته فقال لهُ والده ماذا رأيت في هذا المكان وكيف صحتك فقال احمد الله على كمال الصحة ووالدي كيف كان نومه الليلة فقال من احسن ما يكون وشتان

ما بين هوآ هذه الدار وهواء مدينة باريز وان شاء الله نقيم هنا مدة فقال لابيه وماذا تصنع في الدرس الذي وظفته على نفسك فقال ان هما الا يومان في الجمعة وقد اخبرني حضرة الخواجا ان بين ما هنا والمدرسة بباريز بعض دقائق في السكة الحديدية فنتوجه للدرس ونعود مع الخواجا ففرح ابنه بذلك لانه كان يحب الاقامة بباريز لكثرة ما بها من المستغربات

ثم حضر الخواجا الانكليزي وبعد ان سأله عن صحته قال يلزم ان نقسم الايام التي نقيمها هنا على الاشياء التي تحب ان تراها فهل نجعل وقت التفرج قبل الظهر ام بعده فقال الشيخ الامر لك فانك بذلك ادرى ولكن اظن ان جعلها بعد الظهر اولى لنجعل ما قبل الظهر للمراجعة والتصحيح ووافقهم صاحب البيت على ذلك ايضاً وقال ان اكثر التفرج يكون في الغابة فتارة نمشي علي الاقدام وتارة في العربة بحسب قرب الاماكن وبعدها وتارة نستعمل الاثنين معاً وقد اخذت من الان في ترتيب الفرَج وكيفيتها حتى تطلعوا على جميع ما يلزم فكانوا كل يوم يخرجون على هذا النسق وكانت تخرج صاحبة المنزل مع ابن الشيخ ويخرج زوجها والخواجا مع والده واقاموا نحو شهرين على هذه الحال حتى نسوا ألم الغربة وفراق الاهل والاحبة لان ابن الشيخ كان عند صاحبة المنزل بمنزلة اولادها خصوصاً وقد كانت تعلمه اللسان الفرنساوي وتشرح لهُ جميع ما يقع عليه

نظره مع الفصاحة والمعرفة ولكن ما انساه حب باريز واهلها زيادة الا ابنة لهم تسمى مريم كانت تدخل وتخرج معه وكانت ذات حسن وجمال وقدٍ واعتدال تخجل البدر بطلعتها تعلق قلبها به وتعلق بها فكانت تهواه ويهواها ويرى خيالها اذا غابت عن عينيه حتى كان اذا جاء يوم التوجه الى باريز للدرس يتعلل بتعللات موجبة للتخلف بعد ان كان لا يوءثر شيئاً على التوجه الى باريس فكان يترك والده مع يعقوب عند الست ويذهب الى الدرس فيكون تارة مع الست وتارة مع البنت ويقضي الاوقات في انواع المسرات وازداد افتتانه بالبنت وتمكنت بينهما الالفة وكان كما قال القائل

تولع بالعشق حتى عشق فلما استقر به لم يطق
رأى لجة ظنها موجـــة فلمّا تمكن منهـا غرق

وفي ذات يوم توجه والده الى باريز للدرس واخذ معه يعقوب وترك ابنه في البيت فامرت الست خادمها انطوان ان يخرج به وباولادها الى التنزه فاركبهم جميعاً عربة وسار بهم واخذ برهان الدين ومريم باطراف الاحاديث والمفاكهة ثم نزلوا ومشوا وهي تحادثه وتساله عما اعجبه في فرانسا ويجيبها وهو غريق في بحار جمالها الى ان وصلوا هضبة كسيت بالاشجار ونبع ماوءها من بين الاحجار فصعدوا عليها فكانت مريم تري برهان الدين نهر السين والبلاد التي عليه والطرق الموصلة لباريز فكان نظره في خلال وصفها لا يفارق وجهها وكذلك هي

لا تفتر عن النظر اليه كما قال الشاعر

نظر العيون الى العيون هو الذي

جعل الهلاك الى الفؤاد سبيلا

ثم وصلوا الى مخدع سقفه غصون الاشجار وفرشه انواع العشب والازهار فاطمأنوا فيه برهة ثم نزلوا من فوق الاكمة وداروا في ارجاء الغابة الى ان وصلوا فضاء بين ثلاث اكمات فصعدوا احداها فرأى برهان الدين حول الغابة ارضاً منزرعة ليس فيها شيء مما في الغابة فسال الخادم عنها فقال هذه الارض كانت قبل الان مغطاة بالاشجار المرتفعة وفي كتب التاريخ ان اشجارها كانت متواصلة وكلما تنعطف الى الشمال تزداد التحاماً والتفافاً وارتفاعاً والارض الخالية من الاشجار كانت بركاً ومناقع كما قاله استرابون فكان البرد يزداد بسببها حتى يبلغ درجة يعسر معها نبت شجر الزيتون والتين والعنب ولم تكثر بها الزراعة الا بعد استيلاء الدولة الرومانية عليها فزرع بعضها وبقي بعضها غابات يأوي اليها الفارّون من ظلم الرومانيين فلما اتت دولة القوم المتبربرة وهم الالمانيون وذلك سنة ٢٥١ للميلاد واستولوا على ارض الجول قسم رؤساوهم تلك الغابة بينهم وابقوها على ما هي عليه وجعلوها محلاً للصيد ومنعوا غيرهم من الصيد منها وجعلوا قصاصات شديدة على من يخالف ذلك فكان كل من قتل حيواناً يقتل فيه فكثرت بها السباع والوحوش والضباع حتى كانت تفترس الناس وتفسد

[illegible] زرعهم وتهلك ضرعهم من غير انه يكون في قدرتهم منعها نصف الارض للوحوش ونصفها الاخر تشارك فيه الاهالي انت تسطو عليهم فتهلك الاطفال والزرع وتقطع السبيل [illegible]ف الملوك والامراء بها كانوا يتهادون بها فيما بينهم فمن [illegible] قسمه وحش ليس في قسم الاخر هاداه به فيرسله في غابته سبيله لينتج فيها ويكثر واستمر الامر على هذه الحال الى [illegible] الرابع عشر من الميلاد ثم اخذت الغابة في النقص وارض [illegible] في الزيادة وبعد ان كانت هذه الغابة وغابة وانسين [illegible] متصلة ببناء باريز صار بينها وبينها ما ترى هذا حاصل [illegible] في هذا المكان وما كان عليه من اول الامر الى ما هو [illegible] الان

قال ابن الشيخ هكذا الدهر كله عبر ولكن لمن تامل واعتبر [illegible] لا يبقى على حالة فطوراً يضر وطوراً يسر

المسامرة (١١٩)

القطن

ثم رجعوا وكان برهان الدين متغيرًا مشغول الخاطر بالغرام ولما وصلوا وجد والده مع الخواجا موريس يتمشيان في طرف البستان قريب شجرة ارتفاعها نحو خمسة امتار وهي كثيرة الاغصان والورق وعليها ما يشبه القطن الهندي وكان بيد والده شيء من ثمرها فناوله لابنه وساله عنه فقال هذا يشبه ثمر القطن فقال الخواجا موريس هذه هي شجرة القطن التي تنبت في الهند والصين

فقال الشيخ ان القطن يزرع بمصر ولكن لا يكبر لهذا الحد فان غاية ارتفاعه متر ونصف او متران ومع ذلك ثمره اكبر من ثمر هذا

فقال الخواجا موريس انواع القطن ثلاثة احدها يكون شجراً كهذه ولوزه قليل ولكنه اجود الانواع والثاني النوع الهندي وهو الذي يزرع بارض مصر والثالث نوع اقصر من الهندي واغصانه تمتد على الارض ويعطي محصولاً كثيرًا ثم تأمل في الحوض الذي فيه شجرة القطن فوجد النوعين الاخرين وبقربهما التيل والكتان فقال هذه النباتات المباركة وردت لنا من الشرق فالتيل ورد لنا من جهات العجم ومن زمن قديم يزرع باوروبا واول من زرع الكتان المصريون كما قال مرسيانوس، وفي زمن موسى بن عمران كانت اقمشة الكتان معروفة وفي زمن الرومانيين كان الممدوح اقمشة الكتان المصرية وفي جميع الجهات قبل اشتهار زراعة القطن كان لباس الناس الكتان او الصوف ولكن الان صار القطن هو المستعمل غالبًا لكثرة زرعه في الجهات فبعد ان كان لا يوجد باوروبا اصلاً كثر الان حتى صار يزرع في الجهات الجنوبية من ايتاليا وفي بلاد الاندلس وجزيرة صقلية وجزائر اليونان فقال الشيخ ان اول من ادخل في مصر القطن الذي هو بها الان المرحوم محمد علي باشا وقبل ذلك كان يزرع نوع منه يعرف بالقطن البلدي كانت الاهالي تزرعه حول اراضيها وفي قطع ارض قليلة فتاخذ الاغنياء منه لكبس المساند والوسائد والطوالات وكان بعض الاهالي يغزلونه ويصنعون منه اقمشة غليظة للملابس ومما يتعجب منه ان الاهالي لم تزرع القطن الهندي الاّ

برغم انها بعد ان عين المرحوم محمد علي باشا لذلك مفتشين وحكامًا وعين مقادير تزرع كل سنة في كل جهة وتوعد كل من تاخر في شيء من ذلك بالعقاب الشديد فكانوا يعدون ذلك اذ ذاك ظلما فلما علموا فوائده رغبوا فيه بانفسهم ولولاه ما امكنهم التحصل على ما يسددون به ما يطلب منهم للميري وغيره

فقال الخواجا هكذا كان حالنا مع اهل الجزائر وحصل مثل ذلك ايضا في جهات كثيرة وفي الازمان القديمة كانت هذه النباتة النافعة معلومة في بلاد الهند وكانت تنبت وحدها بارض مصر والشام وبلاد العجم وهي التي تكلم عليها استرابون الجغرافي وبلين المؤرخ وسمياها صوفًا حيث قالا انه يوجد في هذه البلاد الصوف على الاشجار بكثرة وكان قسيسوا مصر في زمن الفراعنة والبطلموسيين يجعلون منه الملابس الرسمية وثيابه معروفة في الهند وقد تكلم عليه المؤرخون كثيرًا وكانت العرب تتجر به الا ان اليونان والرومانيين الى اخر القرن الاول من الميلاد كانوا لا يعتنون به في الملابس بل كانوا يلبسون حسب درجتهم فبعضهم يلبس الكتان وبعضهم الصوف وبعضهم الحرير وبقيت اوروبا ثلاثة عشر قرنًا ميلاديًا لا تعرف القطن ولا اقمشته وانما كانوا يستعملونه فتائل للقناديل

وفي سنة ١٣٢٢ ميلادية ظهر ببلاد القريم والمسكوف وكان يجلب اليهم من بلاد التركستان وكان له في تلك الازمان ورش ببلاد

الارمن والعجم ولم يعرفه الصينيون الى اخر القرن الثالث عشر مع انهم بجوار الهند ومن ذلك الوقت اشتغلوا بزراعته اشتغالاً كليًا حتى تركوا من اجله جميع المزروعات وتسبب عن ذلك قحط لم يسمع بمثله فصدرت اوامر سلطانية بتحديد قدر ما يزرع منه ومنع الزيادة عليه وعقاب من تعدى بالموت فقل الاحتفال به شيئًا فشيئًا حتى صار يزرع ما يلزم لاهالي تلك المملكة منه وفي وقتنا هذا يشترونه من خارج مملكتهم وقد حصروا ما يتحصل لهم من زرعه كل سنة فوجدوه خمسمائة الف بالة وذلك عبارة عن خمسة وسبعين مليونًا كيلوجراما وهذا قليل جدًا بالنسبة لما يكفي لوازمهم فحصروا ما يرد اليهم محلوجًا من جهة الايتازوني فوجدوه خمسة واربعين مليونا كيلوجراما غير ما يرد منها ومن الهند مشغولاً وذلك نحو عشرة ملايين كيلوجرام فجميع محصول زراعتهم وما يرد لهم من الخارج مشغولاً وغير مشغول نحو مائة وثلاثين مليونا ولا شك ان هذا القدر قليل بالنسبة لهم لان عدد اهالي بلادهم يبلغ نحو اربعمائة مليون ويؤخذ من سير السياحين ان تسعة اعشار الاهالي من نسآ ورجال يلبسون القطن وكلهم يجعلون منه بنطلونات واسعة فاذا اعتبرنا ذلك مع ما يستهلكه كل شخص من جهات الدنيا غيرهم يمكن ان نحكم بان قدر القطن المصنوع في ورش الصين والوارد من الخارج يقرب من سبعمائة وخمسين مليونا كيلوجراما اي

قدر ما يستهلكه اهل اوروبا بتمامها والاتازوني من الامريكا

والى الان لا يعلم قدر ما تستهلكه اهل الهند بالضبط بل اختلف فيه المؤلفون وقدر لكل شخص من المائة والخمسين مليونا من الاهالي عشر ليورات انكليزية وبناء على ذلك جعل اللازم لهم من القطن الفًا وخمسمائة مليون ليوره في خصوص الكسوة ونحوها خلاف الاشياء التي تصنع منه

ثم ان وجود القطن في الازمان القديمة بجهات امريكا لا شك فيه والدليل على ذلك ان اكفان الموتي الذين اخرجوا من قبورهم كانت من القطن

ولما استكشف كرستوف كلومب الامريكا وجد اهلها لابسين من اقمشة القطن ولما استكشف الشهير فيرناندكورتيز ارض المكسيك وجده مزروعًا بها وارسل الى الملك شرلكان هدية من اقمشتهم منه وكانت مناديل وثيابًا ملونة باجمل الالوان متقنة الصنعة والصباغة وقد قيل انه كان يصنع بهذه البقعة ورق الكتابة من القطن في سالف الازمان وكذلك كان القطن معروفا عند اهالي بريزيليا كما اشار الى ذلك ماجيلان الملاح عند استكشافه البغاز المسمي باسمه ووجد السياحون شجرة القطن نابتة بنفسها بشواطئ نهر المسيسيبي

فقال الشيخ وقد وقع لي بعض رسائل في هذا المعنى فرايت

فيها ان هذه الشجرة كانت معروفة ببلاد الاندلس ايام كانت في يد المسلمين وانها كانت تزرع في جهات كثيرة منها وكان لنسجه معامل في مدن عديدة منها كغرناطة وكوردو وغيرها وكانت الاقمشة الاندلسية تساوي الشامية وربما فاقتها في الجودة وحيث كانت الاندلس من اوروبا فلا بد ان الاوروباويين انما اخذوا منافع هذه الشجرة عن الاندلسيين وقد سمعنا ممن ساحوا بافريقيـــة الداخلية وبلاد الحبشة ان القطن ينبت في ارضهم بنفسه

فقال الخواجا ان ذلك حق فان السياحين كتبوه وذكروا انه يوجد بالسواحل القريبة من افريقه مثل ارض السينيجال وعنام وغيرها

واما وجوده في اوروبا فكان في اواخر القرن العاشر وكانوا قد اخذوه عن العرب ولكن كان غير مستعمل بسبب اوهام دنيئة كانت تدخلها النصارى على الناس لكراهتهم في دين من نشر زراعته

واول ظهور معامل نسجه كان في اواخر القرن الرابع عشر من الميلاد ببلاد ايتاليا واول من نقل منه الى بلاد الانكليز تجار البندقانيين

وفي سنة الف واربعمائة وثلاثين ابتدا ظهور اقمشته ببلاد الانكليز ورغبت فيه الناس وكثرت معامله من حينئذٍ والى سنة

الف وستمائة واثنين وخمسين كان لا يلبسه غير الخدم والرعاع والى سنة الف وسبعمائة وثلاثة وسبعين كانوا يجعلون منسوجاتهم قيامها من الكتان واللحمة من القطن ومع ذلك لم يكثر كثرة عظيمة الا من وقت ورود محصول امريكا الى بلاد الانكليز

ومما يستغرب من امر القطن ان اول من زرعه بكثرة بامريكا للتجارة قوم مهاجرون من اوروبا استوطنوا راس فيار من ارض الغلوريد ولما رأت الاهالي نجاحه اخذوا يزرعونه واكثروا منه شيئا فشيئا الى ان صار اساس الزراعة بامريكا الجنوبية والشمالية واولا كانوا يزرعونه خطوطا متباعدة ثم راوا ان التقارب يفيد محصولاً اكثر فصاروا يقربون الخطوط من بعضها ويمدونه فزاد المحصول وحسن الزرع ومكثوا زمنا يفضلون في تقاويه البذر المجرد عن الوبر ثم اتضح لهم من تجاريب عديدة ان البذر المكسو بالوبر اكثر محصولا واجود لانه اكثر شعرًا واصغر بذرًا فمن ذلك العهد صاروا لا يستعملون الاّ البذر المكسو بالوبر ثم تحصلوا على نوع منه طويل الشعر ذي صلابة ونعومة فوجدوه اجود انواعه لان شعره يتصل بعضه ببعض في النسج بسهولة ويتيسر تدقيق غزله الى الغاية المطلوبة وقد تحصلوا من نصف كيلوجرام من قطن السيلان على فتلة رقيقة جداً بلغ طولها قريبا من ثمانين فرسخا وقطن مصر من هذا الجنس الطويل الشعر والذي جلب

لهم بذره رجل فرنساوي اسمه جوميل سنة ١٨٢٠ بامر المرحوم محمد علي باشا فاتي به من دنقلا ببلاد النوبة ثم جلب بذرًا من الجويرجي من امريكا من قطن يسمى بقطن سيا اسلند اي قطن الجزائر (وقد حرفتم الكلمة وقلتم سيلان) وهو احسن الموجود المرغوب فيه كثيرًا بالفوريقات ولذلك تزيد قيمته على غيره بنحو الربع بل اكثر

فقال الشيخ انواع القطن بمصر كثيرة مختلفة لونًا وحجما فمنه الاسمر والابيض والاصفر والاهالي لا تفرق بينها بل كل يبذر بارضه ما تيسر له من غير تحرٍّ ولكن الان ابتداؤا ان يميزوا بين الانواع وتنبهوا لزرع السيلان وكثير منهم لا يزرع الا ما لبذره وبرٌ لما راوا من فائدته وتركوا البذر الاسود لانه قليل المحصول وسمعت من بعض الناس ان القنطار من ذي البذر الاسود اذا حلج يخرج منه تسع كيلات بذرًا ومن ذي الوبر خمس ووزن البذر الثلثان والشعر الثلث

فقال الخواجا ان الوان الاقطان النابتة بسواحل الكارولين الجنوبية والجويرجي تميل الى الصفرة بخلاف النابت داخل ارض تلك الجهات فانه ابيض ناصع واقل من الاول جودة لقلة صلابته فلا يتحصل منه على الغزل الدقيق ولون اقطان الهند يقرب من لون الزبدة الطرية واما اقطان الجهات المشرقية كقطن بنغال ومدراس وازمير ورودس وسا ارنيك فضعيفة اللون باهتة وقد

حللوا ببلاد الانكليز تراب عود القطن وبعد حرقه وجدوا في المائة جزء اربعة وستين جزءًا من المواد القابلة للذوبان في الماء وهي ٨٨و٤٤ كربونات البوتاسة وعشرة اجزاء موريات البوتاسة وتسعة اجزاء سلفات البوتاسة ووجدوا الباقي وهو ستة وثلاثون جزءًا لا تذوب في الماء وهي تسعة من فوسفات الجير واحد عشر كربونات الجير وثمانية عشر فوسيفات المغنزيا وثلاثة اجزاء بروتو اكسيد الحديد والباقي من الشبّ وبناءً على هذا التحليل يظهر سبب جودة خواصه في سواحل الجزائر المخاطة بالبحر الملح وفي بعض الجزائر يسمدونه بالطين المخرج من قاع البرك المالحة كالطين الذي يخرج من قاع بركة المنزلة مثلاً وفي جهة الكارولين يستعملون في السباخ الجير او الطين الذي يرسب في قرار البرك والخلجان بعد نضوب مائها

فقال الشيخ الاهالي عندنا كانوا لا يعرفون امر تسبيخه والان عرفوه واستعملوا لذلك اتربة التلال القديمة وما يخرج من تحت البهائم وحقيقة وجدوا لتسبيخه فائدة عظيمة

ثم قال الخواجا وشجرة القطن تعيش في الهند اربع سنين او خمسا وفي الايتازوني سنة واحدة وابتداء جنيه اول شهر سبتمبر ويستمر الى اخر السنة فاذا جاء الثلج مات لوزه وكلما قلت صعوبة الشتاء وقصر زمنه كان محصول القطن كثيرًا واذا فتح اللوز رايت كأن الارض مستورة بثوب ابيض والعبيد هم الذين يجمعونه من

روؤس اشجاره فيشتغلون من الصباح الى المسا ويرخص لهم في ترك الشغل ساعة وقت الزوال للاستراحة والاكل وذلك في غير وقت الصيف ففيه يرخص بساعتين ويرخص لهم ايضاً با الذهاب الى منازلهم لياكلوا فيها ويعطى لكل عبد مقدار من الذرة او من الارز ومقدار من العسل والسمك ولحم الخنزير ويوءذن لهم في اخذ بعض فواكه من الاشجار ومدة بذره تستمر من اول شهر مايو الى نصفه وبعد تمام زرعه يشتغل العبيد ايضاً بتنقيته من الحشائش الغريبة والشغل عندهم بالمقطوعية ويعطى لكل عبد قطعة ارض يزرعها ما شاء وينتفع بما يخرج منها اما ببيعه لسيده او انه يرعى فيه ماشيته وفراخه وما اشبه ذلك ومن ذا يتحصل العبد على بعض دراهم يشتري منها ملابسه وما يلزم له فجميع اشغال القطن على العبيد فلذا يقتنون العبيد بكثرة فقد يجتمع عند بعضهم نحو الفي عبد فتراهم عند توجههم الى الشغل يكونون فرقاً الفرقة عشرون عبداً او عشرة وعلى كل فرقة رئيس منهم او من غيرهم فان كان منهم كان شديد القسوة ويخافونه والمفروض على الرجل منهم في كل يوم ان يجمع مائتي ليورا وعلى كل صبي من ثلاثين ليورا الى اربعين وكل ما جمع يوضع بالمخزن عند غروب الشمس

وكان الناس في مبداء الامر يفصلون الشعر من البذر بايديهم فكان الشخص الواحد يفصل في اليوم ليورا واحدة من الشعر ووزن البذر ثلثا وزن الاصل

ولما رأوا صعوبة ذلك اخترعوا دواليب الحلاجة وبها تمكن الرجل ان يحلج في اليوم الواحد ثلاثين كيلوجرام ثم اخترعت الات تدور بالحيوان او بالماء فصار يحصل بواسطة ثلاثة اشخاص اربعمائة وخمسون كيلوجرام في اليوم الواحد ثم في سنة ١٧٦٣ اخترعت الآت احسن من تلك واستعملت الى الان في جميع امريكا الجنوبيــة

وبعد انفصال الحب من الشعر ينقون الشعر مما خالطه من الاجسام الغريبة بنتفه في دواليب اسطوانية تدور بسرعة ثم يكبسونه بمكابس في اكياس تجعل بالات وينقلونه في مراكب بنهر المسيسبي الى اورليان الجديدة وهناك كل من لهُ شيء يضع عليه اسمه ونمرته وهكذا فمن يرى المدينة من بعد يراها كأنها مدينــة من القطن مقسومة حارات ممتدة مسافة عظيمة

وقد علم من دفاتر الاحصاء ان قدر العبوّات المتحصلة من زراعة جهات الجنوب كل سنة خمسة ملايين بالة

فقال الشيخ هل يمكن معرفة مقدار القطن المتحصل من كل بقاع الارض

فقال الخواجا يوخذ من دفاتر الاحصاء سنة ١٨٥٨ ميلادية انه تحصل ١١٤٠٠٠٠ بالة ووزن البالة يختلف من مائة وثمانية وستين كيلوجرام الى مائة وسبعين اي وزن محصول سنة ١٨٥٨ كان ١٩٣٦ مليونًا و٦٧٥ الف كيلوجرام وبيانه

كيلـــوجرام	محصول
٥٨٨،٠٠٠،٠٠٠	الايتازوني
٣٣،٠٠٠،٠٠٠	البريزل
٩،٠٠٠،٠٠٠	جهات من اميزيكا الجنوبية
٤٤١،٠٠٠،٠٠٠	الهند الشرقي
٧٥٠،٠٠٠،٠٠٠	بلاد الصين وبلاد سيام
٢٩،٤٥٠،٠٠٠	بلاد مصر
١٨٠٠٠٠	بلاد الجزائر
٤٥٠٠٠	سياراليونا من افريقا
٥٠،٠٠٠،٠٠٠	بلاد التركستان والقرني
٣٠،٠٠٠،٠٠٠	جهات من افريقا
٦،٠٠٠،٠٠٠	اوروبا الجنوبية
١٩٣٦٦٧٥٠٠٠	كيلوجرام

واول ظهور قطن امريكا ببلاد الانكليز كان في سنة ١٥٦٩ واكثر من اشتغل به اهل مدينة منشستر فهي المركز العمومي لصناعة القطن وتجارته في جميع بلاد الانكليز وبعد ان كان عدد اهلها في القرن السابع عشرين الف نفس اتسعت حتى بلغ اهلها الان زيادة عن اربعمائة الف نفس وابتداء صنعة القطن بها سنة ١٧٨٩ ايام ثورة الفرنسيس الاولى ومن ذاك العهد اخذ يظهر في المدن المجاورة وفي مدة قليلة كثرت ورشه وصارت تلك البلاد مدنًا

عظيمة بعد ان كانت قرى صغيرة لا يلتفت اليها وبلغ اهلها من الثروة اعلى درجة وفي مبداء الامر كانت انواله متفرقة في جهات كثيرة وكان كل صاحب نول يشتري لنفسه ويتجر بمصنوعه فكان يحصل لهم تعطيل وضياع اوقات فتيقظت اهالي منشستر الى ذلك وتحيلت حتى احتكرته وصار فيها الان نحو مائتي ورشة تدور كلها بالبخار وعدد الشغالة يبلغ الفا وخمسمائة نفس في الورشة الواحدة ويوجد غير ذلك مائتا ورشة للغزل فقط وهذا غير ورش كثيرة بالضواحي ولو حصرنا الورَش الموجودة في المدينة وضواحيها مع جميع الورَش المختصة بالغزل والحياكة في جميع بلاد الانكليز لوجدنا الثلاثة الاخماس لهذه المدينة ويتحصل من اثمان ما يصنع فيها ويوزع على جميع الجهات والاقاليم نحو الف مليون من الفرنكات كل سنة ومقدار ما يدخل في ورَشها من القطن الشعر كل سنة مائتا الف طن اي اربعة ملايين واربعمائة الف قنطار مصري وجميع ذلك وارد من مدينة ليوربول لانها المينا العمومية لهذا الصنف وكانت الوَرش في بادئ الامر تدور بالحيوان ثم كثرت الاختراعات لتسهيل صنعته ولم توجد الوابورات الا سنة ١٨٢٠ وسنة ١٨٣٣ فناب الوابور مناب الآلات القديمة جميعها وقبل كثرة زراعته بامريكا كان يرد لمعامل اوروبا من الهند التابع للانكليز ومن الاندلس ومن نابولي من ايتاليا ومن المرتينيك وغواديلوب التابعين لفرنسا وقبل قليل كان يجلب من جزيرة صقلية

وبعد اشتهاره بامريكا تركت اكثر هذه البلاد زرعه لكثرة تكاليفه ورخص الوارد من امريكا لقلة المصرف عندهم لان عبيدهم تشتغل تقريبًا بلا اجرة والجهات التي تزرعه الان الهند الانكليزي ومصر والدول المنجمعة من امريكا وجهات من بلاد المشرق

فقال الشيخ على حسب ما نسمع ببلادنا ان اكثر الاقمشة الواردة الينا ولسائر جهات الدنيا هو من ورَش الانكليز وجزء قليل من ورَش الدول الاوروباوية وذلك يقتضي ان يكون عدد الورَش بتلك المملكة والشغالة بها شيئًا كثيرًا جدًا

فقال الخواجا قد استحوذ الانكليز على جميع انواع التجارة لا سيما تجارة القطن ففي سنة ١٨٥٠ حرّر كشف بامر البرلامنتو اتضح منه ان الورَش بالمملكة كانت الفًا وتسعمائة والشغالة ٣٣١ الف شخص وان ما يرد لهذه الورَش من قطن الشعر ٢٧٧ مليون كيلوجرام ويخرج منها اقمشة وغزل ٢٤٧ مليون كيلوجرام يباع منه على البلاد الاجنبيــة ١٧٤ مليون كيلوجرام ويستهلك في داخل البلد على الاهالي ٧٣ مليونًا باعتبار ان كل شخص يستهلك كيلوغرامين ونصفا وفي تلك الازمنة كان جميع ما يخرج من بلاد اوروبا لا يعدل عشر ما يخرج من بلاد الانكليز فكان ما يخرج من بلاد فرانسا ستة ملايين كيلو ومن بلاد السويس سبعة ملايين ومن باقي اوروبا مليونين فقط ومع ذلك فلم تقف الانكليز عنده بل اجتهدت كل الاجتهاد حتى صار عدد الورَش سنة ١٨٥٦

الفين ومائتين وعشرة وكانت القوة المستعملة في ادارتها ٩٧ الفا و١٢٢ حصانا منهــا بالبخار ٨٨ الفا وبالماء ٩١٢٢ وهذه القوة تعادل مليونا ونصفا من الرجال وقد بلغ عدد الشغالة بالورَش في تلك المدة ٣٨٠ الف نفس نساءً ورجالاً صغارًا وكبارًا والمشتغلون بتجارته بانواعها ببلاد الانكليز يقربون من مليونين اي جزء من اربعة عشر جزءًا من الامة الانكليزية وما من يوم الا وتظهر ورَش جديدة ويزيد ما يصنع بها ومن ثم ترى الاجتهاد متزايدًا في جلب القطن الشعر الى الورَش ففي سنة ١٨٥٧ بلغ الوارد لها اربعمائة مليون كيلوغرام صنع منه ٣٦١ مليونا اقمشة وخرج منه غزل ٨٥ مليونا والباقي وهو ١٨٤ مليونا صنع شيتا وغيره وخرج للتجارة واستهلك في البلد ٩٢ مليونا وتحصل من ذلك ١٤٣٨ مليون فرنك وقدّر بعض العارفين قيمة جميع ما صنع من القطن ببلاد الانكليز سنة ١٨٥٦ بنحو ٦٥ مليون جنيه يخرج منها قيمة القطن الخام المشترى اربعة وعشرون مليونا فيبقى للربح والمصاريف نحو اربعين مليونا وقد قارن بعض المهندسين بين عمل الآلات والادمي فوجد انه لو بقي الامر في صناعة القطن على عمل الرجال للزم لذلك واحد وتسعون مليونا من الرجال وذلك قدر اهالي فرانسا والبروسيا والنمسا واحصى بعض المؤرخين جمع ما يصنع من القطن بجهات اوروبا فوجد ما يصنع منه ببلاد الانكليز مليون ونصف مليون بالة وفي فرنسا ٢٣٦ الف بالة

وفي بلاد الفلمنك وبلجيك ٥٩ الف بالة وفي باقي بلاد اوروبا ١٤٧ الف بالة وفي المانيا ٢٤٩ الفا وفي الروسية ١٢٠ الف بالة فجميع بلاد اوروبا لم تصنع الا ثلاثة اخماس ما تصنع بلاد الانكليز

وفي سنة ٥٧ كان مصنوع بلاد الانكليز ضعفي مصنوع جميع بلاد اوروبا تقريبا لانه كان الوارد في هذه السنة الى جميع بلاد اوروبا من جميع الجهات قريبا من ثلاثة ملايين من بالات قطن الشعر وفي السنة المذكورة كان محصول الايتازوني وحدها ثلاثه ملايين من البالات نصفه يسافر الى الانكليز والربع يبقى في البلد يصنع في فوريقاتها والربع يوزع على سائر جهات الدنيا وقد امعن بعض المؤرخين النظر فيما يرد للانكليز من بلاد الايتازوني فوجده آخذاً في النقص عدهم وفي الزيادة في باقي الجهات مثلاً وجد متوسط الداخل الى بلاد الانكليز في مسافة سنتين من ابتداء سنة سبعة وعشرين ٥٩٦ جزءا من الف من محصول الايتازوني والموزع على الدنيا جميعها اربعمائة واربعة اجزاء من الف وفي السنين الخمس التالية الى سنة ٣٨ كان وارد الانكليز ٥٦٥ والموزع على الدنيا ٤٣٥ وفي السنين الخمس كان وارد الانكليز ٥٣٨ والموزع على الدنيا ٤٦٢ ومن سنة ٤٥ الى سنة ١٨٥٠ كان وارد الانكليز ٥٠٦ والموزع على الدنيا ٤٩٤ ثم من سنة ٤٨ الى سنة ٥٠ كان داخل الانكليز ٤٨٧ والموزع على الدنيا ٥١٣ فيعلم من ذلك ان صناعة القطن اخذت في التقدم في

جميع جهات الدنيا وقد نسبوا الوارد من القطن لفرانسا
الى الوارد منه الى الانكليز فوجدوا النسبة بينهما كنسبة مائة
الى ٢٧٩ ونسبوا ما تصنعه الايتازوني في ورشها الى ما يصنع
في ورش فرانسا فوجدوه كنسبة ١٧٢ الى ١٠٠ ونسبة المستهلك
في ورش الانكليز الى المصنوع في ورش الايتازوني من
محصول تلك البلاد كنسبة ٢٧٣ الى ١٠٠ ونسبة المصنوع في
الايتازوني الى المصنوع في اوروبا كنسبة ١٠٠ الى ٤٥٢ ومن
سنة ٥٠ الى ٥٧ ورد ثلثا محصول الايتازوني الى الانكليز والثلث
لجميع جهات اوروبا منه الى فرانسا ثلثه وثلثاه لباقي اوروبا
ومن تامل حركة الورش وقوتها ببلاد الانكليز حكم بان في
قدرتها ان تكفي جميع اهل الدنيا وليس في طوق دولة من
الدول مشاركتها في تجارة هذا الصنف وصناعته لانها باستعداد
ورشها وكثرة مراكبها وقوة الاتها يمكن لها ان تنقص السعر حتى
لا تجاسر دولة على مجاراتها مع ان مدة الشغل عندهم عشر ساعات
ونصف بخلافها في الدول الاخر فانها اثنتا عشرة ساعة بل
ثلاثة عشر وفي سنة ١٨٥١ كان قدر المصنوع من القطن
باوروبا والايتازوني ٤٨٥ مليون كيلو وقيمة ذلك بلغت ثلاثة
الاف مليون فرنك فزاد قدر المشغول سنة ٥٧ حتى بلغ سبعمائة
وخمسين مليونا وبلغت قيمته اربعة الاف مليون من الفرنكات
من ذلك قيمة القطن الخام ثمانمائة مليون من الفرنك. وقدر

ربا المال المنصرف ثلثمائة مليون فيبقي للارباح والاجر المتنوعة ٢٩٥٠ مليونًا من الفرنك

ومقدار الشغالة بورَش اوروبا والايتازوني ١٢٥٠٠٠٠ نفس وباعتبار اجرة الشخص في السنة الواحدة خمسمائة فرنك يكون المدفوع للشغالة كل سنة ٦٢٥ مليونًا من الفرنك

ومن حين انتشار هذه النباتةِ والتفات الناس اليها قل زرع الكتان والتيل وصار اغلب الملابس والفرش منها بواسطة الالات المخترعة للغزل والنسج حتى وصل سعرها الى قيمة واهية ولذلك تمكن الفقير من شرا مايقيه البرد بادنى القيمة وانتفع بذلك عموم الناس لانا نعلم في التاريخ انه في سنة ١٨١٦ كانت قيمة الكيلو ١٢ فرنكًا وفي سنة ١٨٣٤ نزلت الى ستة فرنكات ثم في سنة ١٨٥١ نزلت الى ثلاثة فرحم الله من عرّف الناس بشجرة القطن ومن علمهم زرعها وصناعتها وعلى الاوروباويين ان يشكروا فضل العرب اناء الليل واطراف النهار فانهم هم الذين نقلوهم من خشونتهم الى السعادة التي هم فيها الان



المسامرة (١٣٠)

الثمـار

ومن حقق النظر في الاشجار والنباتات المغروسة في هذا البستان وجد اكثرها انما وصل الى هنا من بلاد العرب او من بلاد المشرق بواسطة السياحين مثلاً شجرة البرقوق هذه اصلها من الشام من ارض دمشق وقد تكلم عليها بلين المؤرخ فذكر ان اول دخولها في ايتاليا كان زمن قاطون وانها باوروبا انواع منها الاصفر والاخضر وما بعضه اصفر وبعضه احمر وتارة تكون كروية وتارة مستطيلة وتوكل طرية وناشفة ويسمونها القراصية وهي تجارة عظيمة لجهات كثيرة من ارض فرانسا وكذلك شجرة الكريز المعتدلة القد الملساء الجلد واردة من جهة سيرازونه

من الشام الى رومه ايام القيصر لوكولوس قبل المسيح بثمان وستين سنة وانتشرت في ظرف خمس وعشرين سنة بجميع جهات اوروبا وانتقلت من ايتاليا حتى وصلت جزيرة الانكليز البادرة والان يوجد منها انواع كثيرة وعند اثمارها تجد عناقيدهـا مدلاة نحو الارض نابتة من جدور الاوراق تجذب اعين الناظرين بلطيف لونها ومنها نوع عظيم الساق يبلغ في الطول عشرة امتار عنا قيده سود ويستخرج منه شراب الكرز وشجرة اللوز الموجودة في جميع جهات اوروبا اصلها من بلاد افريقا ومنها الحلو والمر ويستخرج منهـــا دهن اللوز وهي مغذية ومبردة وتدخل في الطب ويوجد دهن اللوز بجميع الاجزاخانات

واما شجرة الخوخ فاصلها من بلاد الفرس ويوجد منها ثلاثة انواع نوعان على ثمرها وبرة خفيفة والثالث لا وبر على ثمره واخذنا من الارمن شجر المشمش

واما شجر التفاح والكمثرى والسفرجل والمشملا فهي تنبت بطبيعتها في بلادنا وليست مجتلبة من الجهات ومن التفاح نوع حريف الطعم يستعمل في بعض جهات فرانسا بدل العنب ويستخرج منه شراب يسد مسد النبيذ ومن الكمثرى انواع كثيرة منها نوع يستخرج منه الشراب والسفرجل اصله من جزيرة بريد وهذه الشجرة الصغيرة المسماة بالقشطة واردة من امريكا الجنوبية والتين من البلاد المشرقية وكان ابتداء وروده في الجهات الجنوبية من فرانسا قبل

المسيح بستمائة سنة والذي غرسه هم الفينيقيون حين توطنوا مرسيليا ثم تنوع انواعًا كثيرة ويؤكل اخضر وناشفًا والتجار يرسلونه الى جميع جهات الدنيا واصل شجرة البرتقال هذه من الصين والهند وهو انواع كثيرة ومنها اليوسف افندي ويزرع في الاندلس من زمن مديد وغالب هذه الخضراوات وهذه الرياحين الزكية نقلها السياحون الى اوروبا الا انهم تفننوا هنا في زرعها حتى كثرت انواعها

المسامرة (١٢١)

العنب

واعظم الشجر عندنا نفعًا والذه طعمًا شجرة العنب هذه ومنبتها الحقيقي بلاد الجرجستان نبتت فيها بالطبيعة في صخور الجبال

الشامخة مثل جبال القوقاز وجبال ارارات وجبال توروس، وهو الان يزرع في غالب اقطار الدنيا ولكن منه ما يزرع للتفكه رطباً ومنه ما يجفّف واغلب جهات اوروبا وامريكا وبعض الجزائر يستخرجون منه النبيذ والمشروبات الروحية وليست خواص النبيذ واحدة بل متفاوتة طعماً ورائحة وتأثيراً على حسب الارض والهواء وكيفية زرعه وعصره وقدر الارض المشغولة بزرعه في فرانسا مليونان هيكتاراً وهو عبارة عن خمسة ملايين فدان مصري وبحسب الرغبة في النبيذ الفرنساوي رغب الاهالي في زيادة زرع العنب واتسعت متاجره حتى سار الى جميع بقاع الارض وقدر ما يتحصل من عصير المزروع منه بفرانسا يبلغ ستة واربعين مليونا هيكتولتر (مائة لترا) من النبيذ الاحمر والابيض ومليون وربع من العرقي وكل ذلك قيمته تبلغ اربعمائة وستة وسبعين مليونا من الفرنك وبهذا السبب تعد مملكة فرانسا اول مملكة بالنسبة لزرعه ويوجد منه ببلاد الاندلس والبرتغال وايتاليا انواع مقبولة عالية الاثمان ولكن نبيذها العادي لا يفوق النبيذ العادي الفرنساوي وفي بلاد النمسا والمانيا والموسكو والفلمنك وامريكا يزرع العنب ويستخرج منه النبيذ غير ان الزائد عن لزوم الاهالي قليل جداً وفي هذه الايام الاخيرة صار تجربة زرعه في جهات الجزائر فنجح نجاحا تاما فاتسعت زراعته وحصل لزراعه ارباح عظيمة خصوصا لما ظهر لهم في نبيذه من الخواص الجيدة فلذا ترى اهل اوروبا وغيرهم يرغبون فيه

وعمليات استخراجه اربع الاولى تقطيع العنب قطعا صغيرة ثم يعصر بين اسطوانتين من حديد تدور كل منهما على الاخرى والعملية الثانية تصفية المائع الخارج وذلك بعد تركه ثمانية ايام حتى يتخمر ثم يصفى في براميل ولا يملأ البرميل بل يوضع فيه الى نحو اربعة اخماسه ويترك حتى يصفو ويرسب تفله وهـذه العملية تكون في شهري مايو وابريل وربما استعانوا على كمال صفائه بقليل من الدم او بياض البيض هذا هو النبيذ الجاري بيعه بين الناس سواء كان ابيض اواحمر والنبيذ الابيض يتحصل من الاحمر ولا تختلف طرق عمله الا بفصل المائع عن التفل في اول الامر وقت الدوس ولا يترك ليتخمر معه بل يجري تخميره وحده فيكون ابيض لان المادة الملونة ليست حينئذٍ في العصارة وكذلك النبيذ المعروف بالشمبّانية وانبذة اخرى يحصل عند فتح قارورتها قرقعة فطرق استخراجها كما وصفنا مع اختلاف قليل وانما عند ملء القارورات يضعون في كل قارورة قطعة من السكر النباتي ثم يحكمون سدادها فيتخمر بالسكر بعد عدة اشهر ويزيد النبيذ جودة ويحدث منه في القارورة جزء كبير من غاز الكربون فهذا هو سبب الفرقعة التي تسمع واعلى انواعه واغلاها مـا عصر بعد التذبيب والجفاف لانه بذلك يقل ماؤه وتكثر مادته السكرية

المسامرة (١٢٢)

شراب التفاح والكمثري

وطريقة استخراج شراب التفاح تقرب من طريق استخراج نبيذ العنب واكثر استعماله في البلاد التي لا ينبت بارضها العنب ويغلو فيها سعر النبيذ وكان العرب مدة اقامتهم بالاندلس يستخرجونه فتعلمه منهم سكان المديريات المجاورة لهم من فرانسا مثل اهالي توار وغيرهم وقال بعضهم انه كان معروفا من زمن قديم وفي بعض الكتب ان الملكة رادغوند ملكة فرانسا كانت تشربه دائما وكانت في القرن السادس من الميلاد والمحقق انه لم يظهر بجهات النورماندي في فرانسا الا في القرن الرابع عشر وكان مشروبهم قبل ذلك البيرا

فلما قام مقامها شربه غالب اهل فرانسا ومنها وصل الى الالمانيين والانكليز والروس وامريكا حتى بلغ مقدار المستخرج منه في السنة الواحدة ثمانية ملايين هيكتولتر وقيمة ذلك ستون مليونا من الفرنك

وانواع التفاح المستعمل في ذلك ثلاثة الحلو السكري والحامض والغض وهو الذي يستخرج منه احسن الاشربة ويبقى زمنًا بخلاف المستخرج من النوعين الاخرين فانه لذيذ الطعم ولكنه قليل البقا

وليس في عمل هذا الشراب صعوبة فانه بعد جمع التفاح يترك نحو ستة اسابيع حتى يتم نضجه وتكثر مادته السكرية ثم يهرس في مهاريس كبيرة ثم يوضع في الهواء كيانا اربعا وعشرين ساعة فيكسبه الهواء اللون الكهربائي ثم يعصر ويوضع في براميل قائمة يخمّر فيها ويخلص من المواد الباقية فيه فبعضها يرسب في القاع لثقله وبعضها يعوم على السطح لخفته فاذا خلص من تفله صبّوه من حنفيات في براميل ليتم تخميره فيها ثم يستعمل

ومن الشراب ما يستخرج من الكمثرى واستخراجه كالذي قبله الا انه يبقى لهُ لون البياض الحاصل من عصر المواد بعد هرسها من دون تعريضها للهواء وهذا الشراب كلما عتق كان اشد اسكارًا من جميع الانبذة

واما المشروبات الالكولية مثل العرقي والكونياك والكرش والجن فتستخرج من النبيذ والسكر والبنجر (اي الشمندور) ونحو ذلك ويستخرج منها انواع اخر من المشروبات ولا حاجة لنا الى

شيء من ذلك لانها تمنعنا عن الاطلاع على باقي ما هو في هذا البستان من انواع النباتات الغريبة وايضا فمعرفة عمل المشروبات الروحية لا تخصكم في شيء

فقال الشيخ لا يلزم من العلم بالشيء استعماله ولا يخفى عليكم قولهم العلم بالشي ولا الجهل به فحيث تكلمتم على كيفية استخراج النبيذ فلا باس بشرح عمل الالكول ونحوه

المسامرة (١٢٢)

الكوول

فقال الخواجا الالكول مائع يوجد في تركيب السكر ويخلص منه بالتخمير مثلاً لو اذبنا قطعة سكر في قدح واضفنا اليها بعض

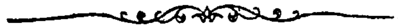
شيء من خميرة البوزة ثم تركناه في مكان درجة حرارته ٢٠ او ٢٥ او في الشمس مدة قليلة رأينا المائع قد اضطرب وتصاعد منه غاز يكون قليلاً في اول الامر ثم يزداد شيئًا فشيئًا ثم ينقطع بعد عدة ايام فاذا صفي وركز حتى يهدأ وذقناه فانا نجد الطعم طعم الشراب والرائحة رائحة النبيذ ولا نجد للسكر اثرًا فلو قطرناه بالانبيق لتحصلنا منه على مائع طيار ولا لون لهُ يقبل الالتهاب فهذا هو الالكول وهو يستخرج من كل ما فيه مادة سكرية كعصارة العنب والتفاح والكمثرى والكريز ونحو ذلك وهذه لا تحتاج لوضع خميرة فيها لان في ضمن تركيبها مادة ازوتية متى مسها الهواء انقلبت الى خميرة وتحللت المادة السكرية التي في العصارة الى الالكول واذا تقطر النبيذ او البوزة او نحوها من الانبذة يتحصل مائع تختلف فيه كمية الالكول بكثرة الماء وقلته فان قطرناه مرة ثانية قلت كمية الماء وزادت كمية الالكول وهكذا

وللمشروبات الروحية اسماء مختلفــة في التجارة بحسب مقدار الالكول الموجود فيها فما كان الكوله النصف او اقل قيل لهُ عرقي وما كان الكوله اكثر قيل لهُ روح فالعرقي عبارة عن ماء ممزوج بالالكول والالكول الخالص هو المجرّد عن الماء بالكلية ولا يتحصل عليه الا بعد تقاطير عديدة وهو عديم اللون اكثر ميوعة من الماء يلتهب منه الفم رائحته لطيفة ولهبه باهت ضعيف الضوء

وانواع العرقي وخواصه تختلف باختلاف المادة المستخرج من عصارتها واحسنه المستخرج من عسل القصب او العنب او الكريز واقل منه جودة المستخرج من التفاح او الكمثرى او الحبوب وقيمة العرقي تختلف باختلاف درجة الالكول وتميز هذه الدرجات في التجارة باستعمال آلة بسيطة عبارة عن قضيب من الزجاج عليه علامات وارقام اولها الصفر واخرها مائة وفي اسفله كرة من الزجاج فيها زئبق فاذا اريد معرفة مقدار ما في المائع الروحي من الالكول فتغمس الالة في المائع وتترك فتقف عند درجة من الدرجات التي في القضيب فان وقفت عند رقم من هذه الارقام علم ان المائة جزء من المائع تشتمل على اجزاء من الالكول بقدر ذلك العدد وهذا في الحجم لا في الوزن وان الباقي ماء عادي وتلك الالة تسمى مقياس الالكول وعند الفرنج تسمى الكولومتر ولاجل تقسيمه غمسوه اولاً في الالكول الخالص من الماء ورقموا عليه عدد مائة ثم غمسوه في مائعات درجتها اقل بخمسة ثم بعشرة ثم بخمسة عشر وهكذا فعرفوا درجة ٩٥ و٩٠ و٨٥ و٨٠ و٧٥ و٧٠ وهكذا

ويقال ان اختراع المشروبات الروحية كان من الملك لويز الرابع عشر عند هرمه لاجل انتعاشه وعود قوته وجميعها عبارة عن عرقي سكري مختلط بمواد عطرية مثلاً الماء الذي تسميه الفرنج انيزيت هو عبارة عن الكوئل وماء وسكر ينقع فيه من غصون هذه النباتة الصغيرة التي اصلها على ما يقال من مصر وتخرج في ايتاليا

وتزرع الان في جهة من فرانسا وما يسمونه كاسيس هو عرقي وسكر وفاكهة ويصنع ايضاً شراب يدخله نوى المشمش او الخوخ او البرقوق والشراب المعروف بشراب الكوراتا يوخذ من عرقي قديم ويوضع فيه قشر برتقان مع اضافة مقدار من السكر اليه وشراب الابسنت حاصل من جعل زهر الشيبة او ورقها في الالكول ثمانية ايام ويضاف الى ذلك لاجل التقطير حب الانيسون او غيره وهو من السميات يقتل عند الاكثار منه



المسامرة (١٢٤)

البوزة او (البيرا)

واما البوزة (البيرا) فقد اتفق المؤرخون على ان المخترع لها في الزمن القديم المصريون وقيل ان اول استعمالها كان بمدينة

بيلون المعروفة عندكم بالطينة وهي من زمن مديد شراب اهل الجهات الشمالية من فرانسا والانكليز وجميع الممالك الشمالية يستعملونها كثيرًا ومقدار ما يستهلك بلوندرة من هذا الصنف كل عام مائتان وخمسون مليونا من الليتر وبباريز مقدار ذلك اربع عشر مرة وهي من بين الخمور تشتمل على خاصتين التغذية والتنبيه وقد امتحنها بعض مشاهير الكيماويين فوجد في كل مائة جزء منها ثمانية واربعين جزءًا من مادة جامدة مركبة من مواد ليست ازوتية كالنشا ومن مواد اخرى ازوتية كالتي في الحبّ المستعمل فيها فلذلك يحصل لمن يشرب من جيدها غذاء بقدر ما يحصل له من اكل ثمانية واربعين جراما من الخبز اي ستة عشر درهما

وطريقة عملها ان يوضع حب الشعير في حياض مبنية ويوضع عليه من الماء قدر حجمه اربع مرات ويترك الى ان ينتفخ فينقل من الماء ويوضع في اماكن فيها هواء درجة حرارتها من خمسة عشر الى ستة عشر حتى تنبت واحسن الفصول لصنعها فصلا الخريف والربيع فما صنع منها فيهما فهو المقبول عند الناس اكثر مما صنع في غيرهما فاذا نبت اخذ وجفف سريعا كي لا يذهب نشاؤه ويكون تجفيفه اما بوضعه في الهواء او في محل يمرّ عليه هواء حار لطيف ثم اذا تم التجفيف يفرك وينخل نخلا يفصل به الحب من النبات ثم يدش دشا خفيفا وبعد ذلك يوضع في حياض من الخشب بعضها فوق بعض في كل حوض خرق يصب في الاخر ثم يصب عليه

في الماء فبواسطة تلك الخروق يسهل مرور الماء في المادة وينفصل عنها ولكن في ابتداء العملية تكون الخروق مسدودة ويصب على المادة ماء حرارته ستون درجة مئينية وتقلب وتدلك ونترك حتى تهداء ثم بعد ذلك يصب عليها ماء حرارته تبلغ تسعين درجة ويصنع بها كما سبق حتى يسخن الجميع وتكون درجة حرارته سبعين او خمسًا وسبعين ثم يقلب ويدلك وتغطى الحياض ونترك ثلاث ساعات تقريبًا ففيها يكتسب الماء جميع ما يلزم ان يكتسبه من المادة السكرية التي في الشعير فيؤخذ حينئذ ويغلى مع عروق النباتة المعروفة بحشيشة الدينار واوراقها لتكتسب المرارة والخاصة التي تبقى بها زمنًا بدون تغير شيء من صفاتها ثم بعد تلك العملية ينقل المائع الى حياض اخرى ليبرد فيها ولا يبقى في محله لئلا يتلف ثم توضع عليه الخميرة ويترك زمنًا يختلف من اربع وعشرين ساعة الى ثمان واربعين وهذه هي التخميرة الاولى وفي تلك الساعات يظهر على الماء رغوة كثيرة ثم يؤخذ المائع ويوضع في براميل يستمر فيها التخمير ويظهر على الماء رغوة ايضًا فاذا اخذت وعصرت يضعونها في كيس وتكون هي الخميرة للبوزة التي تستعملها الفطاطرية والخبازون ويستعملونها في البوزة للتخمير وفي المشروبات المحتاجة للتخمير ولا تكون البوزة نقية رائقة ذات لون لطيف كما يشاهد فيها الا بعملية اخرى وهي ان يضاف من غراء السمك على

المائع فبذلك يحصل بعد مدة رسوب جميع المواد وتصفو المادة
المائعة الصفاء الذي ترى به عند التجار



المسامرة (١٢٥)

الاشجار والزهور

وعند هذا حضرت الست وابنها فقالت للخواجا أيجوز لك
حرمان الشيخ من الاطلاع على ما في هذا البستان من الاشجار

والازهار التي قل ان يجتمع مثلها في بستان وحرماننا من الانس
به ويا ليتك شغلت وقته بالاطلاع على النباتات العطرية والرياحين
الزكية فانها في جميع حياض البستان من خلفك وامامك وعن
يمينك وشمالك وكان بيدها صحبة فاهدتها الى الشيخ فقبلها وبعد
ان تامل فيها قال حقيق انه لم يكن لنظام هذا البستان نظير
فاني لم ارَ فيه شيئين متجاورين من نوع واحد وارى وضع
النبات على اصول الهندسة حتى انها حوت من اختلاف الوان
الازهار المجتمعة صحبًا مختلفة الشكل والحجم وبتوزيعها وسط
الحياض بين الاشجار وبحافات الطرق كان لها صور ومناظر
مختلفة باختلاف المواضع التي يقف فيها الناظر وما من صورة
الا تسر الناظر وينشرح لها الخاطر ثم قال للست واني لاشكر
فضلك ومعروف حضرة الخواجا لانه حصل لي من مجلسه
فوائد ما كنت اعلمها قبل وقال لها الخواجا حيث اشرقت هنا
طلعتك فينبغي لنا ان نتكلم في النبات العطري فقالت ان
اكثر الورد والنبات الغريب والرياحين في الجهة المقابلة لنا من
البستان وهناك كشك صغير قريب من مجرى الماء يسمع منه
تغريد الطير فاظن ان لو رآه الشيخ لتمنى الاقامة فيه لانه فوق
ربوة صغيرة ويرى من شبابيكه الطريق السلطاني والزراعين
بالاراضي المجاورة له فاجابوها لدعوتها واخذ الخواجا بيدها واخذ
الشيخ بيد ابنه وساروا حتى وصلوا مكانًا مستدير الشكل في وسط

حوض ماء فيه نوفرة عظيمة مركبة من صور حيوانات وطيور
والماء يخرج من افواهها في اتجاهات مختلفة واشكال عجيبة فكان
تارة ينزل في دوائر الحوض وتارة يخرج عمودياً او منحنياً
قليلاً بحيث لا يتجاوز سقوطه رؤوس الصور القاذفة له فيكون
لصوت الماء عند سقوطه على المعدن الحامل لتلك الصور في
الحوض رنات لطيفة وينشا عن امتزاجها بالاصوات الحاصلة
من اهتزاز الاشجار ومن تغريد الطيور نغمات مطربة فمروا من
جانبها فراءوا طريقاً فسلكوه الى علوية محفوفة بالشجر وعليها قبة
من انضمام اغصان الاشجار وراءوا اغصان الشجر منتظمة انتظاماً
تاماً وبحافتي الطريق صفين من اشجار الورد وانواع الرياحين
كالفل والياسمين وكل ما له رائحة طيبة مرتبة ترتيباً حسناً بحيث
لا يحجب نوع ما وراءه بل كل نوع خلف ما هو دونه وراءوا
اغصان الفل والياسمين ملتفة على اغصان الاشجار ممتدة معها
في دوائر القبة كانها مصنوعة بيد مصور ومن نفوذ الاشعة
الشمسية في خلالها رسمت صورتها على ارض الطريق ثم جات
صاحبة البيت فسلمت على الشيخ وابنه وقالت للشيخ باللغة
الفرنساوية على ما ترجمه له الخواجا ما معناه ارجوك الا تواخذني
في عدم مصاحبتي لك فان اكبر عذري جهلي باللغة العربية فقبل
الشيخ عذرها واطنب في الثناء على زوجها ثم قال وضع هذا
البستان على هذه الصورة الفائقة في حسن الرونق والبهجة يقتضي

شدة الاعتناء به وزيادة الالتفات اليه وصرف اموالٍ جسيمة فترجموا لها ما قاله فقالت ان زوجي لا يكتفي بخدمة الخدَمة بل يتولى الخدمة فيه بنفسه وكلما يسمع بنباتة ليست فيه بادر الى جلبها اليه بدون التفات الى كثرة ما يصرفه عليها واكثر اوقاته مضروفة في ذلك خصوصاً معرفة خواصها وكثيراً ما سافر الى بلاد بعيدة وقطع جبالاً واودية وبحاراً للاطلاع على ما فيها من النبات والاشجار وامتحانها لمعرفة خواصها وليعرف طرق ترتيبها وحفظها وهو الذي رتب هذا البستان وزرع ما فيه من انواع النباتات وليس هنا نباتة الا وعليها نمرة ولها قيد بدفتر النبات عنده وفي دروسه التي يلقيها للتلامذة في كل اسبوع يبين لهم ما يتعلق بالنبات وان كان لبعضه خواص بينها لهم كالنباتات الطيبة والعطرية وغير ذلك وخلف هذا المكان محل التجربة والامتحان واماكن معدة للتدريس وخزانة كتب

فقال الشيخ قد اودع الله في النبات من العجائب والاسرار ما يبهر اولي الابصار ولا يبعد ان المعلوم منها الان اقل من المجهول ثم ان كثيراً من النبات بعد زمن يزول وينبت غيره من غير جنسه فلو لم يقيّض الخالق لهذه النباتات من يشتغل بالكشف عن اسرارها ويبين فوائدها وينشرها لحرمت الخلق من تلك الفوائد ولبقيت اسرارها مجهولة مع انها هي المعينة لنا على اعمالنا برًّا وبحرًا اذ منها اقواتنا وبها يعالج ما اختل من ابداننا وفيها ما تنتعش بشمه ارواحنا

فجزى الله عنا المشتغلين خيرًا اذ لولاهم ما عرف النافع من الضار ولا البارد من الحار. فقال الخواجا من تأمل رأى انه ما من شيء الا وتعتريه احوال غير متناهية ففي السماء تحدث سحابات وتظهر نجوم مختلفة وفي الارض تظهر نباتات وحيوانات كذلك ولا شيء مما نراه اولاً نراه الاّ وفيه شيءٌ من سر الحياة ففي البعض تكون ظاهرة تدل عليها حركة الاعضا وتنقل الجسم ونحوه وفي البعض تكون كامنة خفية فلا ندركها فالحياة في الحيوان امر وقف عنده علم الانسان وكذلك في النباتات وكما ان بعض الحيوانات يظهر في بعض الفصول ثم يزول ولا يظهر الا في ميعاده وبعضها يظهر في الظلمة ولا يهوى النور وبعضها على عكس ذلك فكذلك النباتات بعضها يخرج زهره في وقت معين دون غيره وكثير منها في هذا الوقت نفسه اما ان يتجرد من ورقه او ييبس عوده ولا يعود لحالته الاولى الا في السنة القابلة مع الانتظام

ومن هنا رأى بلين الروماني ان يرتب الاشهر والفصول على حسب تزهير النبات ولكن لم يتم هذا المشروع الا في زماننا هذا بواسطة بعض العلماء وبملاحظته اتضح لهُ ايضًا ان لكل اربعة انواع من الازهار ساعة معينة تنفتح فيها ولا تتعداها وبعض المتوحشين القاطنين بالبراري الشاسعة لا يعلمون الوقت الا من الزهور فيوزعون اعمالهم على حسب ذلك وبعض النبات لا يتفتح زهره الا بحادث من الحوادث مثلاً القوفحان اذا احس بنزول

المطر انضمت اكمام الزهر عليه انضماما جيداً ليحفظ نفسه منه وبعض النبات لا يهوى الشمس مثل النباتة المعروفة بالبقلة اليهوديه وتسميها الفرنج لترُن وتنبت بارض السبيريا فانها اذا احست بالشمس انضمت اكمامها ضماً جيداً حفظاً للزهر من الشمس ولا ينفتح الا اذا اظلم الجو وتغطت السماء بالسحاب ومما يزداد تعجب الانسان منه ان هذه النباتات بانواعها وهذه الاشجار مع غلظها وارتفاعها اصلها خلايا صغيرة نامية وفي داخلها حويصلات صغيرة بحيث لا ترى الا بالنظارة المعظمة وهذه الحويصلات عبارة عن فقاقيع دقيقة كروية الشكل ثم من تأثير بعضها على بعض تكبر وتنمو فتصير اجساماً ذات اسطحة متعددة بعد ان كانت كروية ولا ترى بالبصر لصغرها لكن قوة الحياة فيها عظيمة بحيث انها تزداد في اقرب وقت زيادة عظيمة فينشأ عنها الياف النبات والجزع والغصون والاوراق وبواسطة النظارة المعظمة وجدوا داخل الخلية الواحدة مع دقتها جدور اجسام من مواد مختلفة وشاهدوا في الورق حباً كثيرًا ومن الوانه اخذت الاوراق الوانها وبعض الطبيعيين رأى في بعض النبات المائي حيوانات كالذر وفي المنسوج الخلوي يشاهد غالبا دقيق كالذي يستخرج من الحنطة وهذا الدقيق يكون في جميع اجزاء النبات سواء كانت جدورًا اوغصونًا او فاكهة وسكان جزيرة تايتي يصنعون الخبز من فاكهة تخرج في جزيرتهم فياخذونها ويحمصونها على النار ثم ياءكلونها

فيجدون طعما كطعم الخبز ولذا تسمي السياحون هذه الشجرة شجرة الخبز ويصل وزن الواحدة منها الى اقة مصرية بل اقتين وثلاث وكثير من جزائر المحيط كجزيرة جافا وجزائر الملوك وجزيرة بندا وغيرها من الجزائر اكثر غذاء اهلها من جزع شجر يزرعونه في جزائرهم فمتى بلغ عمره خمسة عشر عاما قطعوه واخذوا مخه بواسطة مغارف يغرفونه بها ثم يضعونه في حياض منحوتة من هذه الاشجار ثم يسدون اطرافها بمادة ليفية فاذا امتلأ الحوض من المادة المستخرجة من المخ اضافوا عليه ماء وقلبوه حتى يمتزج الماء بالدقيق الموجود مع المخ ويمر من المادة الليفية فينزل في حوض اخر فيفعل به ما فعل بالاول ويتلقى في حوض غيره فاذا عرف ان مادة المخ تخلصت من جميع دقيقها واجتمعت في الحوض الاخير مع الماء تركت فيه لترسب ثم يصفى الماء من فوقها ويوءخذ الدقيق طريا ويحفظ في اوعية تصنع في الحال من اوراق هذه الشجرة يسع الوعاء الواحد منها من احد عشر كيلوغرام الى اربعة عشر ولا يتركون الاوعية الى ان تجف خوفا من تلف ما فيها ومع ذلك فيغمسونها في الماء مرة بعد مرة واهل جهات الاوسترالي يعرفون جدور نباتات يتعاطونها فتقوم عندهم مقام الخبز ويخزنونها للقوت

فقالت صاحبة البيت ما من يوم الا ويذكر لي زوجي في بعض مسامراته احوالاً جديدة للنبات مستفادة من استكشافات اهل هذا العصر من العلماء والسياحين الذين جابوا الارض

وان رأيتم الفرجة على المدرسة ومحل التجربة فها انا مستعدة لخدمتكم وان رأيتم ان تنظروا باقي البستان الى ان يحضر الخواجا ويريكم بنفسه فلا باس

فقال الشيخ الرأي ما ترينه وايهما تختارين فهو الموافق واني لاحب الاطلاع على الجهتين وفي وجودي بين جهابذة الفن مثلكم فرصة لا بد من ان انتهزهـــا واغترف من بحور علمكم الغزيرة ما تنتعش به روحي من الفوائد الكثيرة التي منها معرفة الحكم التي اودعها سبحانه في عالم النبات فان هذه المعلومات من نتائج هــذا العصر السعيد الذي هو في اتساع دائرة المعارف البشرية فريد وما ذكر من ذلك في كتب الاقدمين يوجد منتشرًا في الكتب العربية فضلاً عن كونه قليل الجدوى لقلته على انه لم تثبت صحة نقله خصوصا وان يد الجهل اضافت اليه خرافات كثيرة

فقال الخواجا الرأي المناسب ان نطوف في ارجاء البستان ونختار منه الجهة التي بها المشمومات فان في ذلك مناسبة للستات فتبسمت ثم قالت هذا هو الراي الحسن ولكن من الواجب اتباع راي الشيخ فقال الراي ما رآه الخواجا فان النفس الى الروائح الزكية اميل فساروا قليلاً ثم وقف الخواجا حذاء خطوط الورد وقال قــد جمع المعلم ههنا كثيرًا من مالوف النباتات ثم مد يده وقطف وردة وناولها اياها فطلبا منه ان يتكلم على بعض الازهار ليجمعا بين اللذة والفائدة فقال لا باس بذلك والاحسن ان نبداء بالورد لانه

هو الذي بايدينا فنقول الورد انواع منه ما يزرع بالبلاد الحارة كالبلاد التي بساحل البحر الابيض من اوروبا وافريقا وهذا النوع هو الذي يستخرج منه ماء الورد وعطره الذي تالفه الغيد والستات في جميع بقاع الارض ومنه هذه الوردة التي تراها بيضاء وزهرتها قليلة الورق وفي نهاية كل ورقة جزء اصفر فقد منحها الله كثرة العطر بدل ما نقص من ورقها وجعل نوعها افضل الانواع ولذا تختار في استخراج عطر الورد واما أصلها فمن بلاد المشرق وقد اهدت الينا جبال القوقاز هذه الشجرة العظيمة المسماة بالورد المئيني لكثرة ورق زهرته واما هذا الورد السبعاوي الذي لا ينقطع زهره صيفًا ولا شتاءً فاصله من دمشق الشام ومنذ ثلثمائة عام اخذنا من بلاد المشرق هذا الورد المسكي وادخلناه في ضمن الازهار التي تتحلى بها بساتيننا وهذا النوع يكبر كبرًا زائدًا في جهة تونس حتى يبلغ عشرة امتار وبالتفنن في زرع الورد ظهر نوع يعرف بالورد المجوز ويلي هــذا النوع شجر البنفسج وهو اوروباوي الاصل ويوجد في الغابات تحت ظل الاشجار وزهره وان كان عزيزًا الاّ انه لا يتجرد من عطره وقد تعسر عليهم هنا استخراج عطره كما استخرجوا عطر الورد والياسمين وتبتدئ المسائر روائح ازهاره الزكية ويعطر البساتين والحدائق من اول شهر فبرايو ويستمر يهدي الينا من طيبات انفاسه الزكية مدة شهر مرس وابريل ثم اشار الى شجر الياسمين وقال

واما هذا النوع فلم يوجد باوروبا الاَّ في القرن السادس واصله من الجهات الحارة الواقعة فيما بين المدارين وهو نوعان بحري وطبري فكبر زهره ولطف لونه الابيض الوردي واستطالة شكله السنبلي وتجمع ازهاره وحمله حمله فوق ساق وحيد وذبوله التدريجي المتعاقب الذي يبقي لنا التمتع باستنشاق ريحه الطيب عدة اسابيع كل ذلك جعل هذا النوع الطبري فائقا على ما حوله من الازهار واختارته ايدي الحسان على غيره ثم اشار الى نوع اخر منه وقال

واما هذه الشجرة ذات الوريقات البيضاء المخمسة التي يعطر الجو شذاها فقد نقلها الاوروباويون من اسيا الكثيرة العطريات فزرعوها باراضيهم واستخرجوا دهنها واكثر الموجود منها في التجارة يستخرج من الياسين الزنبقي او العربي وهو كثير بالهند ثم ان احدى السيدات مدت يدها الى شجرة قصيرة ذات وبر شوكي ولها زهر مجتمع اجتماعا لطيفا ورائحة تشبه رائحة الفانليا وقطفت منها زهرة وناولتها للشيخ فراى لها رائحة زكية وكان لم يسبق له رؤيتها فسال الخواجا عنها فقال لهُ هذه النباتة غريبة واصلها من البيرو من بلاد الامريقا واسمها في بلادنا الهليوطروب وفسرها في القاموس بدوار الشمس والصغيرة من هذا النوع تسمى عندنا تنوم بمثناة فوقية فنون ثم واو فميم والكبيرة منه تسمى صامر يوما وعلى ورقها من الجهتين وبَر والوبر الذي على الجهة العليا اقصر واحد

وازهاره الصغيرة مجتمعة فوق الساق في هيئة صحبة ولونها ازرق سنجابي وكل زهرة على حدتها فوق ساق بمفردها ويتكون عن المجموع فوق الساق الاصلي شكل كالمظلة بهج المنظر تتميز به هذه النباتة عن غيرها وباوروبا من هذا النوع ما ينبت بنفسه الا ان زهره ابيض قليل الرائحة

ثم التفت الخواجا الى نبات اخر وقال ومن هذا النوع الذي تسمونه في بلادكم بالتفاح يستخرج بالتقطير من ازهاره البنفسجية اللون المشكلة في شكل السنبلة في اخر الغصون ماء شديد زكاء الرائحة في مبداء امره ويقل ذلك تدريجًا بالمكث وطعمه حريف ولكن اذا اضيف اليه ماء وشرب فانه يترك في الفم رطوبة خاصة به والمشهور ان التفاح الفلفلي هذا ورد الينا من بلاد الانكليز وهو كثير بالبساتين

ثم قال وهذا النوع الذي تسمونه في مصر بالسنبل والخزامى ونحن نسميه ثوند اصله موجود من قديم الزمن في الجهة الجنوبية من ارض فرانسا ويقال ان له ميلاً الى الحر وهو نبات عطري طيب الرائحة الى الغاية وفيه حدة ومرارة قليلة وفروعه مستطيلة مخيفة مربعة بيضاء مزينة في اسفلها بالاوراق وفي اعلاها بالازهار الصغيرة البنفسجية اللون ويكون في اعلا تلك الازهار اوراق خضراء

ثم نظر الى نبت فروعه كانها ذر عليها من تراب الافران

وقال هذه النبانة هي التي تسمونها السعتر ونحن نسميها الثن ولها فروع دقيقة مستديرة مجملة باوراق صغيرة منضمة اطرافها الى جهة اسفل وفي اعلاها نقط ولون اسفلها ابيض وزهرها في اخر السيقان على هيئة سنبلة دقيقة ومنه البنفسجي والابيض ويستخرج منه ماء السعتر وينبت بكثرة في سفح الجبال فيعطر سماها ويطيب هواها



(انتهى الجزء الرابع)

فهرس

الجزء الرابع
من كتاب
علم الدين

